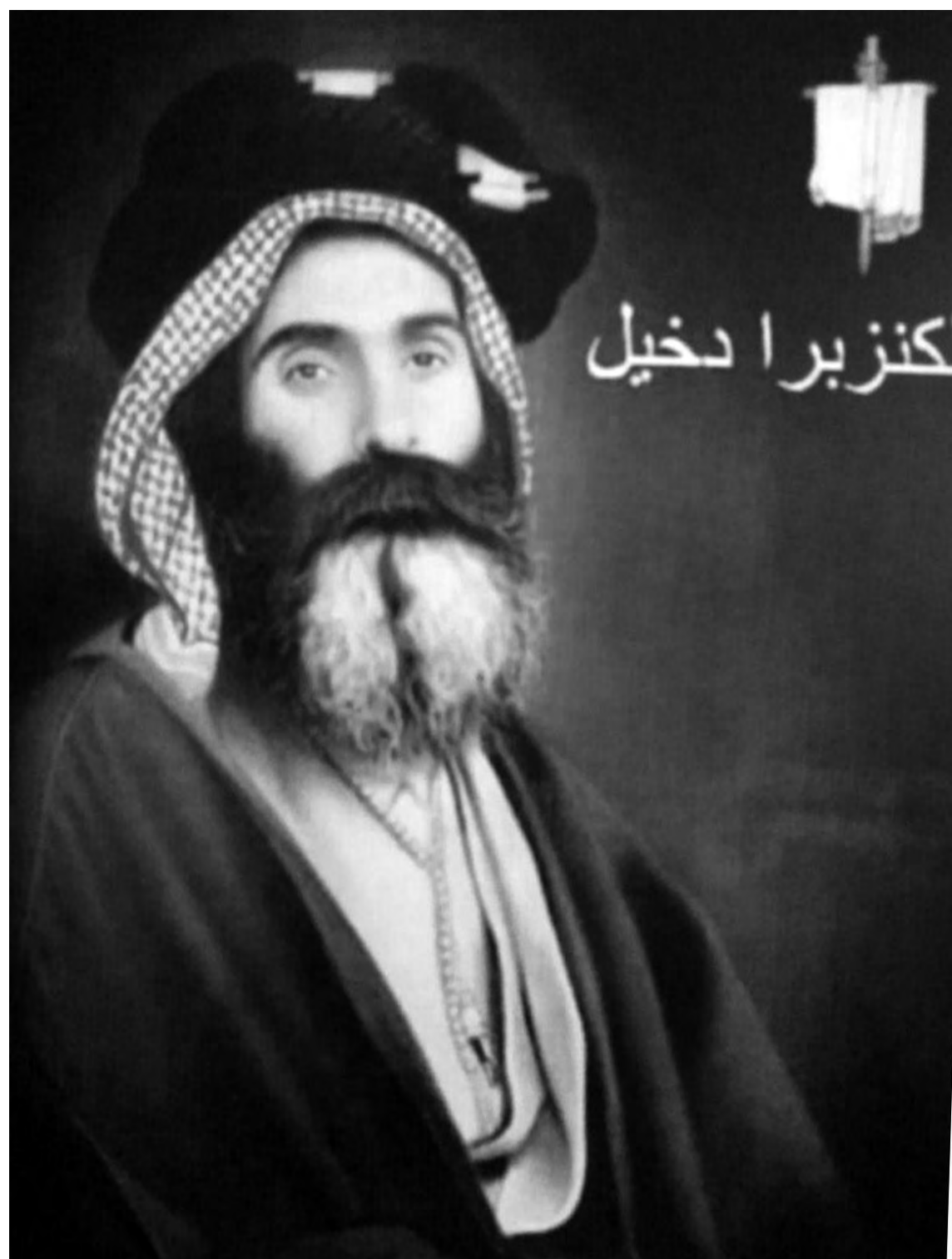






الصابئة المندائيون

دائرة معلومات موجزة

د. بشير عبد الواحد يوسف

الكتاب : الصابئة المندائيون / دائرة معلومات موجزة

المؤلف : د. بشير عبد الواحد يوسف

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع : ١٠١٨٢ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي : 0 - 283 - 493 - 977 - 978 - I. S. B. N

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٢٩٧٠٠٣٢٩ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

الموسوعة المندائية

صدر منها :

الكتاب الأول / الصابئة المندائيون : دائرة معلومات موجزة

الكتاب الثاني / الصابئة المندائيون بين الإنصاف والإجحاف

الكتاب الثالث / الصابئة المندائيون : شيء من التاريخ

ويليها كتب أخرى تستكمل الموسوعة



الصابئة المندائيون

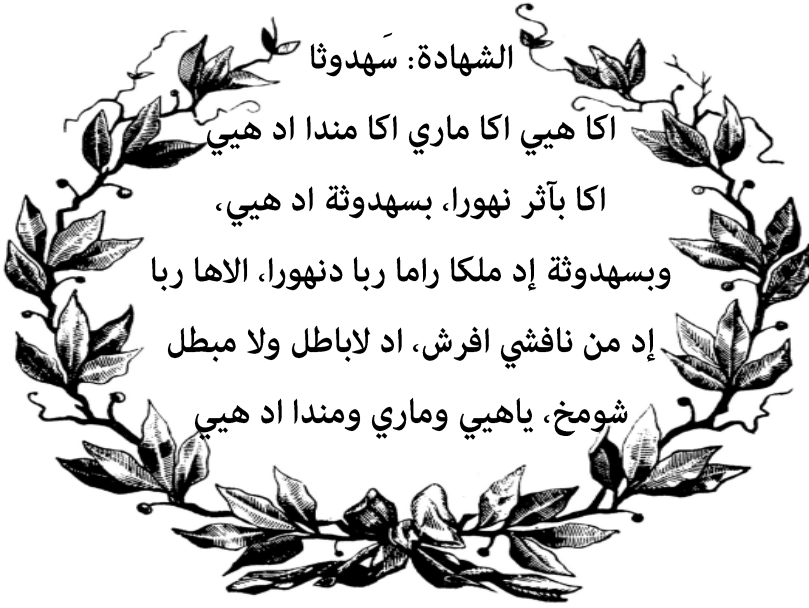
دائرة معلومات موجزة

د. بشير عبد الواحد يوسف



إضاءات من الكنز الربا (الكنز العظيم)

الكتاب المقدس للصابئة المندائيين



بسم احي العظيم

(إِنَّا جَعَلْنَا الْكَوْنِ مَنَازِلَ وَطَبَقَاتٍ ، مُكْتَمَلَاتٍ وَغَيْرَ مُكْتَمَلَاتٍ ، وَأَوْكَلْنَا بِكُلِّ
طَبَقَةٍ حِرَاسًا ، مَلَائِكَةً أَجْنَسًا فَأَمَّا أَرْضُ النُّورِ ، فَقَدْ ثَبَّتْنَا فِيهَا الْأَثَرِيِّينَ ،
وَمَلَائِكَةَ النُّورِ ، وَزَيَّنَّاها بِمَصَابِيحِ تَدُورُ ، وَوَهَبْنَاها رِياحًا سَارِيَةً وَمِيَاهًا جَارِيَةً ،
وَعَطَّرْنَاها بِالْأَارِيحِ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهَيْجٍ ، وَأَمَّا عَالَمُ الظُّلَامِ ، عَالَمُ
الشُّرُورِ وَالْآثَامِ... فَارِضْ مَقْفِرَةً مَسْعُورَةً ، دَفَعْتَ إِلَى أَقْصَى الْجَنُوبِ ، بَعِيدًا
عَنِ الْعَمُورَةِ)

• • • •

(لا تمجدوا الشمس والقمر ، هو الخي الذي أمر ، فكان لهما والكواكب هذا
الضياء لكي ينيروا به الظلماء ، فإذا نادى الخي العظيم سقطت كلها في قرار
بهيم)

• • • •

(إن عكازاتكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكلون فانظروا إلى ماذا
تستندون)

• • • •

(قل يا عبادي لا تزنوا ، ولا تسرقوا ، ولا تنتهكوا حرمان الناس)

• • • •

(أحبوا لأصحابكم ما تحبون لأنفسكم ، واکرهوا لهم ما تكرهون لها ، وتزودوا
لآخرتكم بالعمل الصالح... فانظروا ، واسمعوا ، وآمنوا ، وتقبلوا كلمات ربكم)

• • • •

(نادِ آدم وعلمه الحكمة والإحسان ، قل له : كنت أخرس فانطقناك ، وأصم
فاسمعناك ، وجاهلاً فعلمناك ، ومستوحشاً فانسناك... قل له عشت ألف عام ،
وأن ترك بلد الشرور والآثام ، وتعود لبلد النور والسلام ، لا تعجز فتضام ، ولا تهرم
فتسام)

• • • •

**(بكلمته خلق كل شيء ، ومنه كان الملائكة والأنبياء ، قال ملك النور السامي
فكان كل شيء ، يا خالق جبرائيل الرسول الخي العظيم خلقتني وأنتم والماء
الخي صرتم بقدرته)**

• • • •

**(هو الله ملك النور السامي ، هو الملك منذ الأزل... المقيم في ملكوته ، العادل
في جبروته)**

• • • •

**(لقد أمر الجبار فبسطت الأرض ورفعته السماء ، وعلقت منها الكواكب في
مداراتها ، وجرت المياه وحملت الأشجار ثمارها ، ومنحت الشمس ضياء والقمر
بهاء والنجوم سناء ، ومن الطين الأحمر الصلصال ومن المرارة وأسرار الكون
خلق آدم وحواء زوجة وأنس له)**

• • • •

والخي المزكي

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر والتقدير إلى :

الأب الفاضل الريش أمة ستار جبار حلورئيس طائفة الصابئة المندائيين...
وإلى الصديقين العزيزين : الكاتب المبدع هيثم نافل والي ، والسيد سهيل
نجم عبد الله... على التشجيع في إنجاز الكتاب الأول من الموسوعة
المندائية (الصابئة المندائيون : دائرة معلومات موجزة)...
والشكر موصول لأصحاب المقالات القيمة والمصادر النادرة...

متمنياً التوفيق للجميع.

المؤلف /

د. بشير عبد الواحد يوسف

إهداء

أهدي هذا الجهد (الصابئة المندائيون – دائرة معلومات موجزة)... الكتاب الأول من الموسوعة المندائية إلى :

نشماثا (نفوس) أبي وأمي وأخي سلمان أبوأماليد رحمهم الله الحي العظيم متضرعاً أن يكون مثواهم في عالم الأنوار (الجنة) ليحيوا حياة ثانية دون أوجاع وشيخوخة ودون موتٍ ثانٍ ؛ حياة أبدية في عالم الحق مع الأصفياء.

المؤلف،

و. بشير عبر (الواحد) يوسف

تقديم



بمزید من الفخر والزهو والاعتزاز أرى أن من حقي أن أتباهى بهذه الانجازات الثقافية المتتابة والرائعة لأخوتي وأبنائي المندائيين من كُتب ومجلات ومقالات ومحاضرات مطبوعة وإلكترونية تنشر الوعي الديني والثقافة والفنون ، وأنا كثير الامتنان للكتاب المندائيين المنتجين الذين رفدوا المكتبة المندائية والعربية والعالمية بالمصادر القيمة للمطلعين والدارسين والباحثين ، وهنا أحیی ابن الطائفة البار/ الدكتور بشیر عبد الواحد يوسف ، الذي سبق وأن قدّم لكتابه الموسوم (الصابنة المندائيون بين الإنصاف والإجحاف) الكتاب الثاني من الموسوعة المندائية، واليوم أقدم لكتابه الأول من الموسوعة المندائية (الصابنة المندائيون - دائرة معلومات موجزة)... هذا الكتاب الكبير الشامل الذي يستعرض في فصوله العشرة الغزيرة بالمعلومات ؛ جذور الصابنة المندائيين وتأثيرهم في الأديان التوحيدية الأخرى باعتبارهم جذر التوحيد الأول ، ويستفيض في تقديم معلومات شاملة ووافية تشكّل دائرة معلومات متكاملة لكل مطلع أو دارس أو باحث في الدين المندائي وأتباعه الصابنة المندائيين.

إن الدين المندائي غير تبشيري ، ومصادره ومراجعته كانت محدودة جداً ومدونة باللغة المندائية الآرامية، وكان رجال الدين فيما مضى كتومين ، كل هذه العوامل ساهمت في أن تكون معظم دراسات وأبحاث الأولين غير دقيقة وغير أمينة، وقليلٌ منهم أصاب، وكثيرٌ منهم خابت آراؤه كونها مبنية على الظن. وبصفتي رئيساً روحانياً لطائفة الصابئة المندائيين ؛ أحيي وأبارك جهود الكتاب والباحثين أصحاب الضمير البحثي والعلمي الذين يكتبون بأمانة ونزاهة وشفافية وحياد ، ومنهم عددٌ من الأولين وكثيرٌ من المستشرقين والمعاصرين الذين عاشوا ميدانياً مع إخوتهم المندائيين واطلعوا عن قُرب على شعائرهم وأفكارهم وطقوسهم ، باعتبار الصابئة المندائيين أثرٌ حيٌّ موجود بالفعل ، وليس من الحضارات التي سادت ثم بادت ، ومن الميسور التعرف عليهم ولا يحتاج الأمر إلى جهود التنقيب المضني ونبش التراب للعثور على آثارهم ، فهم جزء من النسيج الإنساني يعيشون في حضرات العراق وإيران وسوريا والأردن وأستراليا ونيوزلندا وأمريكا وكندا ، ومعظم دول أوروبا ؛ في السويد والدنمارك والنرويج وألمانيا وفنلندا وهولندا وبريطانيا، وغيرها... ومناديهم (معابدهم) وجمعياتهم ومراكزهم الثقافية كلها مشرعة الأبواب وإصداراتها متاحة للباحثين والدارسين الذين يبحثون عن الحقيقة بصدق وحياد ، فالمندائيون لديهم من الحب والكرم ما يكفي الجميع ، وكل من عاشهم وصادقهم ؛ أحبهم ودافع عنهم لأنه اقتنع أنه يدافع عن الحقيقة والإيمان والتوحيد ، وعن قومٍ موحدين يؤمنون بالله والعمل الصالح واليوم الآخر والحساب ، ويحبون كل الناس مهما كان دينهم ولونهم وجنسهم وشكلهم ، ويحترمون كل أنبياء الله الموحدين وكتبه المنزل ، ويوحدون ويعظمون ويمجدون الحي العظيم بالمطلق ، ويقصدون ملائكته المبجلين ، ويؤمنون بكل تعاليمه ووصاياه وبمكارم الأخلاق التي أمرهم بها ، لهذا

فالصابئة المندائيون مسالمون يدعون إلى السلام والمحبة والأخلاق الحميدة ، فلم يؤسسوا قوةً أو جيشاً عبر التاريخ ، وإنما يؤمنون بتعاليم الحي المنزلة فهي سلاحهم ، وليس هناك أقوى من قوة الإيمان والتمسك بها.

إني فخورٌ غاية الفخر بكُتب الموسوعة المندائية وبالكتاب الأول (الصابئة المندائيون - دائرة معلومات موجزة) الذي أثق أنه سيثري المكتبة وسيغني الباحثين بالمعرفة الوافية الكافية عن هذه الطائفة العريقة قدم التاريخ بدءاً من أول أنبيائهم (آدم) - مبارك اسمه - رأس السلالة البشرية ، وأنبياء الله شيتل (شيت) وسام بن نوح، وإدريس، ويهيا يوهنا (يحيى بن زكريا) عليهم السلام أجمعين وعلى كل أنبياء الله الموحدين... ومثلما أنني فخورٌ بهذا الإنجاز الكبير ؛ أشعر بالفخر بأخي الدكتور بشير عبد الواحد يوسف ؛ الغني عن التعريف ؛ على هذا الجهد القيم والإنجاز الرائع الذي يعدُّ مرجعاً مهماً وفريداً وأثق في التزامه بمعايير البحث العلمي والحيادية والمصادقية ، لكوني عملت معه سنين طويلة وتعرفت عن قُرب على جديته بالعمل ودقته وصدقه وأمانته.

اختار المؤلف بذكاء أن يزين غلاف الكتاب بصورة الكنزبرا (الشيخ دخيل الشيخ عيدان الشيخ داموك) لورعه وتقواه وسعة معلوماته الدينية وعمق إيمانه ، في رسالة للجميع وخاصة رجال الدين بالسعي للارتقاء إلى مستوى هذا الرجل الجليل في شخصيته العظيمة وأخلاقياته العالية وسماته الراقية والتي منحتة محبة الناس ، حتى أصبح ضريحه مزاراً يتباركون به ، رغم أن الصابئة لا يؤمنون بزيارة الأضرحة ولا يقصدون بشراً مهما علت منزلته الدينية أو الاجتماعية ، فالتقديس لله وحده.

لقد اطلعنا على الكتاب الثاني من الموسوعة المندائية (الصابئة المندائيون بين الإنصاف والإجحاف) كمرجع مفيد للجميع ، واليوم نطلع على الكتاب الأول

(الصابئة المندائيون - دائرة معلومات موجزة)، وغدًا نطلع على الكتاب الثالث
(الصابئة المندائيون - شيء من التاريخ)، وأدعو الباحثين والمؤرخين والدارسين
وكافة الصابئة المندائيين لقراءة كتب الموسوعة لإثراء معلوماتهم ومعارفهم.

النور العظيم ... كنزاً ربا

بشميهون اد هبي ربي... النور العظيم ... نورك وعظمتك ليس لها قياس أنت المليء بالنور والصفاء والحياة والعدل والحب والرحمة والغفران... تبعث منك خمس خصال جبارة عظيمة:

- الأولى: هي النور الذي يشع على الكائنات النورانية.
- الثانية: هي الأريج الذي يفوح بعطره عليهم.
- الثالثة: عذوبة القول والكلمة التي بها يسرون.
- الرابعة: كلامك الذي به يبعثون.
- الخامسة: جمال المحيا الذي من خلاله يتكاثرون.

لا أحد من العوالم يعرف اسمك... ملائكة النور يقفون هناك ويقول أحدهم للآخر ما هو اسم هذا هذا النور العظيم فيقولون ليس هناك اسم كاسمه ولا يوجد من يستطيع أن يعرف اسمه الحقيقي أو يدرك طبيعته... لا أب لك ولا مولود كائن قبلك ولا أخ يقاسمك الملكوت ولا توأم يشاركك الملكوت... لا تمتزج ولا تتجزأ ولا انفصام في موطنك مسبح الحي...

خادمة الكشطا / أمل عسكر داخل

محتويات الكتاب

١٣	- تقديم : الريش أمة/ شيخ جبار ستار حلو
٢٣	- المقدمة
٢٩	- الفصل الأول : (فكرة مختصرة عن الأديان)
	- الفصل الثاني : الموسوعة المندائية
٧١	البحث الأول : جذور الصابئة المندائيين
١٠٣	البحث الثاني : أصل التسمية ، منشأهم ، معاشهم ، تشكيلاتهم
١٣٦	البحث الثالث : أركان الدين المندائي ، الكتب الدينية المهمة
١٥٢	البحث الرابع : أنبياء الصابئة المندائيين
	- الفصل الثالث : الدين المندائي والأديان الأخرى
١٩٧	مقدمة
٢٠٢	البحث الأول : صابئة البطائح وصابئة حران
٢١٧	البحث الثاني : الصابئة المندائيون والغنوصية
٢٢٢	البحث الثالث : الصابئة المندائيون والأحناف
٢٥١	البحث الرابع : الصابئة المندائيون والزرادشتية والمناوية
٢٥٨	البحث الخامس : الصابئة المندائيون والإيزيدية
٢٦٦	البحث السادس : الصابئة المندائيون والديانة السومرية والبابلية
	- الفصل الرابع : الكتاب المقدس - الكنز أربا
٢٨١	البحث الأول : التوحيد

٢٩٠	 البحث الثاني : الخلق
٣٠٤	 البحث الثالث : آدم وحواء وذريتهم
٣١٠	 البحث الرابع : الملائكة الأثريون
٣١٤	 البحث الخامس : الماء الحي والتعميد

- الفصل الخامس

٣٣٧	 البحث الأول : قصة ترجمة الكنز اربا
٣٥٨	 البحث الثاني : الفكر المندائي (النشماثا) النفس ومن سواها
٣٦٧	 البحث الثالث : الإيمان (الناصروثا)
٣٧٥	 البحث الرابع : ميثولوجيا مندائية
٣٩١	 البحث الخامس : المصبىتا
٤١٣	 البحث السادس : المسقثا (الارتقاء)
٤٣٤	 البحث السابع : اللوفاني (طعام الغفران)

- الفصل السادس : الصابئة المندائيون - دائرة معلومات موجزة

٤٤٣	 البحث الأول : الهجرة وإفرازاتها والوضع الجديد
٤٥٧	 البحث الثاني : عاداتهم وتقاليدهم وأعراسهم وومجالس العزاء
٥٢٣	 البحث الثالث : إصداراتهم والحركة الثقافية
٥٣٣	 البحث الرابع : معلومات عامة مفيدة

- الفصل السابع

٥٦١	 مقدمة
٥٦٩	 البحث الأول : مستقبل الأولاد والبنات المتزوجين من ديانات أخرى

- البحث الثاني : الوضع الحالي والمستقبل المنظور ٥٧٤
- البحث الثالث : النسيج الاجتماعي للصابئة المندائيين ٥٨٦
- البحث الرابع : مدى تأثير الدين المندائي على المجتمع ٥٩٢

- الفصل الثامن

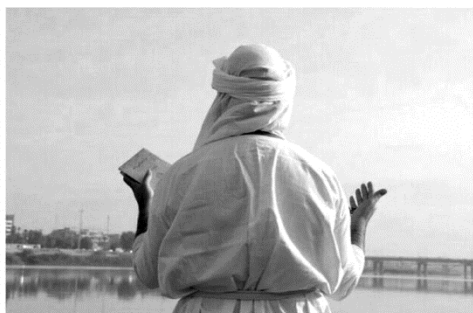
- البحث الأول : الاسم الديني ولقب العائلة ٦٢٣
- البحث الثاني : العلاقات بين المندائيين والديانات السماوية الأخرى ٦٤٠
- البحث الثالث : مهنة الصياغة (معلومات مفيدة) ٦٤٥
- البحث الرابع : الجمعيات المندائية في دول المهجر ٦٦٣
- البحث الخامس : المندائيون وسر البقاء ٦٦٩

- الفصل التاسع

- البحث الأول : شيء عن المرأة المندائية ٦٨٧
- البحث الثاني : الصابئة المندائيون ودورهم الحضاري ٧١٠
- البحث الثالث : نظرة إلى اللغة المندائية ٧٣٩
- البحث الرابع : عمر الدنيا والتاريخ ٧٨٠
- البحث الخامس : مع المندائيين في إيران ٧٨٦

- الفصل العاشر

- البحث الأول : رجال دين أفاضل رحلوا عن هذه الدنيا ٧٩٥
- البحث الثاني : شخصيات مندائية رحلت ٨٥١
- البحث الثالث : نماذج من المستشرقين ٩٠٨
- أسئلة وأجوبة فكرية مفيدة ٩٢٣



المقدمة

ظلَّ التاريخ المندائي والفكر المندائي بعيدًا نوعًا ما عن البحث المُعمَّق والتقصي بسبب تكتّم أبناء الطائفة المندائية وخاصة رجال الدين، وساهمت عوامل عديدة في انطواء وانعزال هذه الطائفة، منها هيمنة الأقوام المحيطة بهم، وكثرة الحروب والاحتلالات المتكررة في أماكن تواجدهم، وما خلّفته هذه الغزوات من نهب وسلب وحرق للممتلكات، إن ما حدث في الأمس القريب في محافظة نينوى وغيرها من المدن في العراق وسوريا من تدمير الآثار والكنائس والأديرة ومزارات الأيزديين، وعمليات السلب والنهب والسبي، يعطينا فكرة ممتازة حول ما حدث قبل قرون للأقليات والطوائف الدينية، وقد ساهمت المواد التي كانت مستعملة في بناء البيوت وأماكن عبادة المندائيين وهي مواد سريعة الاشتعال مثل القصب والبردي وسعف النخيل في ضياع وتلف الكثير من الوثائق والأدلة التاريخية، وساهم رجال الدين المندائي في طوق العزلة المفروض على أبناء ملتهم وعلى الباحثين عن هذا الدين، باحتفاظهم بالكتب الدينية خوفًا من الجدل الديني، وكشف أسرار هذا الدين، وساهم عزوف مثقفي الطائفة في الخوض في هذا المجال، ما عدا شذرات هنا وهناك، وكان الدافع الأساسي لذلك أن الدين المندائي ليس تبشيريًا، والصائبة المندائيون لا يتقبلون غيرهم للدخول في دينهم ولا يتزوجون من الأديان الأخرى ولا يزوجون لها، وبهذا انتفت المنافسة لترويج الأفكار الدينية المندائية وبقيت حبيسة بين أهلها. وهناك محاولات أخرى قام بها بعض المستشرقين الألمان والانجليز وغيرهم لسبر أغوار هذا الدين القديم.

عندما يتصفح القارئ أو الباحث الكتب التي صدرت عن الدين الصابئي المندائي لا يجد ما يشفي غليله عن تاريخ هذا الدين أو فكره ومعتقداته، وإنما معظم هذه الكتب إما ترجمات لكتب دينية يحتاجها رجال الدين أو شروح

لطقوس وشعائر دينية معتمدة في الزواج والوفاة والصباغة (التعميد) والوفاني (الثواب)... وغيرها.

لقد كتب بعض المثقفين شيئاً عن التاريخ المندائي، ولكنها شروحات سطحية واحتمالات ليس لها أدلة دامغة، وأفكار متكررة ليست مؤكدة، بدايتها غير موثقة ونهاياتها سائبة، ولا تستند إلى مصادر موثوقة بسبب نقل هذه المصادر من أحدهم إلى الآخر بدون تدقيق ودراسة وتمحيص، بل اكتفوا بما نقله الأولون عن هذا الدين، وكان في أغلب الأحيان محرّف كتبه الغزاة والمارقون لغرض الهيمنة ونشر دين جديد أو ترويجاً لأفكارهم ومعتقداتهم.

لقد آن الأوان أن يُكتب التاريخ المندائي بدقة وأمانة وحيادية، اعتماداً على الوثائق والآثار والقحوف وما متوفر في متاحف العالم، وما أفرزته حضارة ما بين النهرين وحضارة الفراعنة في مصر، وتاريخ أورشليم وكهوف قمران ومدينة حران ومدينة مندلي وحضارة مي شان (محافظة ميسان في جنوب العراق)، والآثار التاريخية في مدن الشام ونهر الأردن والمدن والآثار التي خلفها الصابئة المندائيون في مدن عربستان، وما ذكرته كتب التاريخ، والتركيز على الصحيح ونبذ الضعيف منها وتركه وعدم الترويج له أو ذكره لكي لا تتسم الأفكار وتنشوه الحقيقة.

وكذلك التركيز على المراحل المعاصرة لتاريخ الطائفة وقراءة المستقبل المنظور بدءاً من القرن السادس عشر بالبحث ودراسة الوثائق المتعلقة بالحملة الاستعمارية التي قام بها الهولنديون والبرتغاليون ضد الطائفة في جنوب العراق، والبحث عن مصير مئات العوائل التي تمّ نفيها من قبل هذه الدول، وأماكن تواجدهم، وكذلك المجازر والإبادة التي تعرّض لها المندائيون من قبل الأقوام المحيطة بهم، وأماكن وتاريخ هذه المجازر ومن قام بها، مروراً بتشكيل مجلس التولية، أول المجالس الرسمية لقيادة الطائفة في العراق وتقييم التشكيلات الحالية التي تفقد أبناء الطائفة في كافة المجالات ومناقشة

الهجرة وأسبابها ودوافعها وإيجابياتها وسلبياتها ، وكيف يمكن الحفاظ على بقاء الطائفة وديمومتها وتطورها.

حتى الآن لم يحدّد العلماء والباحثون منشأ الصابئة المندائيين بشكل جدي ، وهل كانت بداياتهم في بلاد ما بين النهرين في مناطق المياه البهية ، وعلى ضفاف دجلة والفرات والكارون والكرخة ، وهل هم بقايا السومريين (حضارات سادت ثم بادت). أم كانت البداية في فلسطين (أورشليم) على ضفاف نهر الأردن وحوض البحر الميت ، كما توضح بعض كتبهم الدينية ، ولأن آخر أنبيائهم يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) ، أو كما يسموه (يهيا يوهنا) عليه السلام الذي عاش هناك ، وعمد في نهر الأردن خلقاً كثيرين ، كما عمد المسيح عليه السلام ، إلى أن قامت الحروب بينهم وبين اليهود فاضطروا للهجرة إلى مدينة حران بعد أن قُتل منهم عدد كبير ، ومن ضمنهم عشرات من رجال الدين... حيث استمرت هجرتهم منحدرين إلى جنوب وادي الرافدين ، مع وجود احتمال أن البداية كانت في أرض الكنانة على ضفاف نهر النيل ، كما تذكر بعض كتبهم الدينية ، وقصة عبور بحر سوف المذكورة في التوراة ، حيث عبروا سيناء إلى فلسطين واستقروا فيها ، هذه الاحتمالات كلها واردة وتحتاج إلى دراسة وبحث شامل.

كان دائماً يستهويني ما يكتبه الأستاذ والمفكر المندائي عزيز سباهي ولكن لاحظت أنه دائماً ما يفسّر الأمور وفق النظرية المادية محاولاً تجاوز الروحانيات التي لا يؤمن بها على ما أعتقد ويترك النهائيات سائبة لكافة الاحتمالات ، هذه الاحتمالات المتعددة لا تصب في مصب واحد ولا ترجح واحدة على الأخرى.

ولقد أعطيته الحق في بادئ الأمر ، ولكن تذكرت إجابة للعالم الفيزيائي الفذ أينشتاين عندما سئل عن الروحانيات فأجاب إنني أحتاجها عندما لا أجد تفسيراً علمياً مقنعاً لظاهرة من الظواهر ، أو لا أملك جواباً لسؤال... ولهذا يجب أن تُعالج الأمور بمنظور مادي ومنظور روحاني.

فحتى الإنسان أكرم خلق الله مزيجاً من المادة (الجسد) والروح والنفس (النشماثا) ، وحتى الكنزا ربا الكتاب المقدس للصابئة المندائيين قسمه الأيمن يبحث في الماديات، وقسمه الأيسر في الروحانيات.

والإنسان كائن من يكون في عقله وفي قلبه شيء من الخير وشيء من الشر ، ولأن الخير يباركه الحي العظيم تغلب دائماً على الشر مثلما تغلب النور على الظلام، وهذا سر ديمومة الحياة وبقائها، وسر تطور الإنسان ومكانته المرموقة بين الكائنات وإيمانه بالحي العظيم رغم أنه يقتل أخيه الإنسان ، لا يأكله أو يستفاد شيئاً من قتله، بل لعله في نفسه كما يقول الشاعر المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فاعلة لا يظلم

وهذه نظرة تشاؤمية للحياة أنا لا أحبها ، ولهذا سأركز في بحثي هذا على الومضات المضيئة في حياة الصابئة المندائيين ، لأساهم في تقديم بحث مفيد للقارئ والباحث ومن يرغب أن يوسّع دائرة معلوماته بدقة وأمانة وحياد بعيداً عن التطرف والتعصب والطائفية البغيضة.

ومن الحي العظيم ملك الأنوار السامي التوفيق.

الفصل الأول

فكرة مختصرة عن الأديان



■ الدين الصابئي المندائي :

بادئ ذي بدء أمر الحي العظيم ملك النور السامي (الله) في علاه أن تصلب الأرض التي كانت تغمرها المياه الآسنة (مي سيانه) وأن ترفع السماء وتزين بالشمس والقمر والنجوم وأن يدور كل منها بمدار ومنح الشمس ضياء والقمر نور والنجوم سناء ، وأمر أن تحول المياه الآسنة إلى مياه نقية جارية (يردنا) بعد أن نقل لها المياه الطاهرة من العالم النوراني العلوي... وأمر أن تكون الحرارة الحية لتبدأ الحياة ، فازدهرت الحياة على الأرض وتفجرت الينابيع وجرت المياه في الأنهار والجداول ، ونبتت الأشجار والأعشاب واخضرت المراعي والحقول وكثرت الأثمار ، ثم خلق الحيوان الأليف والكاسر وبعد زمن خلق آدم وحواء ليعمر الأرض ، وتزوج آدم وحواء ليزداد عددهم ولتبتهج بذريتهم الدنيا ، وبأمر الحي العظيم نزل الملاك مندادهيي (جبريل الرسول) ليزرع في قلب آدم وحواء الإيمان وينور عقلهم لكي لا يغويهم الشيطان ، وقال للملاك مندادهيي ، علمه الأسماء والوصايا كلها ، وليحب بعضهم بعضاً ، وليعتني بعضهم ببعض عناية العيون بالأقدام ، ولا يترك أحدهم الآخر حتى تنتهي أعمارهم في هذا العالم ، وليثمروا مثل الأشجار المثمرة ، ولا يكونوا كالزرع الرديء ، يشرب الماء ولا يعطي الثمر ، وفي البدء خلق العالم العلوي في أيام البرونايا البيضاء (البرونايي) في خمسة أيام التي لا تحسب من عمر الزمن :

- في اليوم الأول انبعث الحي العظيم بهيئة ملك النور السامي.
- في اليوم الثاني انبعث الحي العظيم بهيئة ماري دربوثا أليثا ملك العظمة.
- في اليوم الثالث انبعث الحي العظيم بهيئة مندادهيي عارف الحياة.
- في اليوم الرابع انبعث الحي العظيم بهيئة الحق الكامل.
- في اليوم الخامس تفجرت الينابيع وجرت المياه (اليردنا) ونبتت الشتلات وبدأت الحياة.

خلق الحي العظيم (الله) ثلاث ملائكة نورانيين مبعجلين ناداهم من اليردنا والنور وخلق النشماثا (النفس والروح) ، وطلب من الملائكة أن يكملوا ما بدأه وفق تعليماته وأوامره ، لأنه حسب حساب للعوز والنقصان الذي سيحصل للإنسان وأراد أن يكون بعيد عن ذلك ، وفعل حصل ما لا تحمد عقباه ، عندما نادى الملاك أبائر ابنه الملاك بثاهيل من المياه الآسنة على عجل ، فجاء ناقص ضوء وناقص نور ، ولهذا أصاب الإنسان المرض والأوجاع والشيخوخة والموت في هذه الدنيا ، بينما الملائكة لا يشيخون ولا يمرضون ولا يموتون ، لا يحترقون ولا يبردون ولا يجوعون ، أنقياء طاهرون.

هذا ما تنقله لنا الكتب المندائية ، وهذه بعض مفاهيم الدين المندائي في الخلق والتكوين بكل إيجاز ، وسنعود لشرحها بتفصيل أوسع بعد أن نأخذ فكرة عن الأديان الأخرى التوحيدية وغير التوحيدية.

الدين اليهودي :

قصة الخلق عند الدين اليهودي تتمثل في ثماني أوامر إلهية تمّ تنفيذها في ستة أيام واليوم السابع راحة.

في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ، ظلمة وروح الله ترف على وجه المياه ، وقال الله فليكن نور فكان نور :

- اليوم الأول خلق الله النور وهذا أول أمر إلهي (ليكن النور) وفصل النور عن الظلمة فسمي النهار والليل.

- اليوم الثاني خلق الله الجلد وهذا ثاني أمر (ليكن الجلد) ليفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه فوق الجلد ، سمي الجلد السماء.

- اليوم الثالث أمر الله المياه التي تحت السماء أن تتجمع في مكان واحد ، وأن تظهر اليابسة وهذا الأمر الثالث سمي (الأرض) و(البحر) ، والأمر الرابع عندما أمر الأرض أن تنتج عشباً وبقلاً وأشجار ثمر.

- اليوم الرابع خلق الله الأنوار أي الشمس والقمر في جلد السماء (الأمر الخامس) ليفصل النور عن الظلمة وتكون علامات للأيام والفصول والسنين.

- اليوم الخامس أمر الله البحار أن تفيض بزاحفات حية، وأن تطير الطيور في جلد السماء (الأمر السادس) أي خلق الطيور ، ومخلوقات البحر وأمرها بالتكاثر.

- اليوم السادس أمر الله اليايسة أن تخرج مخلوقات حية (الأمر السابع) أي خلق البهائم والوحوش والدبابات (الدابات) ثم خلق الإنسان ذكر وأنثى على صورته وشبهه (الأمر الثامن) وباركهم الله وقال لهم : (أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض).

- اليوم السابع بعد إكمال خلق السماوات والأرض "فرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدهس لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل.

الدين المسيحي :

يشارك الدين المسيحي في قصة الخلق هذه التي لا تختلف عن قصة الخلق عند الدين المندائي الذي سبق كل الأديان التوحيدية، لأن الدين المسيحي جاء مصدقاً لكل ما جاء في التوراة، واعتبر التوراة (العهد القديم والإنجيل العهد الجديد) وكلاهما الكتاب المقدس للمسيحيين أو كما يسموه كتاب الحياة.

ولأن الأديان السماوية الموحدة المندائية واليهودية والمسيحية والإسلامية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في ثلاث سور بينات تشترك بقواسم مشتركة مع وجود اختلاف في طبيعة الأحداث التي حدثت في أيام الخلق.

الدين الإسلامي :

إن الله سبحانه وتعالى لما مزج عنصري التراب والماء صار لدينا طيناً ، فلما أنتن الطين صار حمأ مسنون مصور على هيئته ، فلما يبس صار صلصال ثم نفخ فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه الله حمد ربه ، فقال الله : يرحمك ربك.

يعتبر الماء هو العنصر الأساسي الذي خلق منه الله كل شيء حي سوى الملائكة والجن مما هو حي لأن الملائكة خلقوا من نور ، والجان خلقوا من نار قال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)^١.

وقال تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)^٢.

وقال تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)^٣.

الخلق والتكوين عند الصينيين (الميثولوجيا الصينية) :

في العهود المظلمة في قديم الزمان كانت السماء والأرض ملتصقين ، وكان الفضاء الرحب فراغ شبه البيضة العظيمة الحجم ، داخلها ظلام دامس ، ولا وجود للمكان ، ولا تعرف الاتجاهات... في داخل هذه البيضة العظيمة يعيش كائن حي عظيم القوة في حالة سبات عميق ، وتمر عليه ثمانية عشر ألف سنة وهو على هذا الحال ، وفجأة أيقظته من سباته حرارة عالية كادت تقتله ،

١- القرآن الكريم : سورالأنلأياء - الآية ٣٠

٢- القرآن الكريم : سورة فاطر - الآية ١١

٣- القرآن الكريم : سورة غافر - الآية ٦٧

فاضطر إلى كسر قشرة البيضة العظيمة ، فتطايرت مواد هذه البيضة ، الخفيفة منها ارتفع إلى الأعلى لتشكل السماء ، والثقيلة منها نزل إلى الأسفل لتكون الأرض وكان هذا الكائن الحي ينمو بسرعة فائقة ، وتزداد قوته مع الزمن بحيث تمكن من رفع السماء مسافة خمسة وأربعين كيلو متر ، ولكنه لم يتحمل الجهد الهائل فخارت قواه ومات ، وبعد وفاته تحولت عيناه إلى الشمس والقمر ، وأنفاسه إلى الريح الأربعة والسحب والغيوم ، وشعره ولحيته تشكلت منهم النجوم ، وأطرافه إلى أربعة أقطاب الأرض ، ودمه إلى أنهار وبحيرات وبحار ، وصار المطر والندى من عرقه... هذا ما كان أمر الرجل بان جو .

أما كيف خلق الإنسان وتكاثر ، تقول الأسطورة إن هناك امرأة تتجول بين السماء والأرض بعد أن فصلهما عن بعضهما بان جو ، ورأت صورتها على وجه الماء ، فقامت بصنع دمي من الطين ونفخت من روحها فيها ثم جعلتهم إناثاً وذكوراً فصار الجنس البشري وتكاثر .

تحكي لنا قصة الحضارة للفيلسوف والمؤرخ الأمريكي ويليام جيمس ديورانت (١٨٨٥ - ١٩٨١) أنه زار الصين والتقى بفيلسوف ومفكر صيني كبير وقال له ديورانت : هل تصدّق مثل هذه الأساطير ؟

فردّ عليه الفيلسوف الصيني : هل عندك قصة أخرى تستطيع أن تقنع مليار ونصف صيني بها ؟

أجاب ديورانت : لا

فقال له الفيلسوف الصيني : أفضل لك أن تصمت !!

وفي الصين القديمة أساطير كثيرة منها أنه كان رجل وامرأة ليس هناك غيرهما في الكون ، تزوجا فحملت المرأة وولدت ، ورأت أن الحمل متعب والولادة تصاحبها أوجاع ، ولأنها لها قدرات الآلهة فمسخت نفسها بقرة ، ومسخ زوجها نفسه ثور ، وتلاقحا فحملت وأنجبت ، ولم يرق لها ذلك فحولت نفسها نعجة فحول زوجها نفسه إلى كبش ، وتكررت المشكلة ، وهكذا حولت نفسها إلى لبؤة

فتحول إلى أسد واستمر الحال إلى أن تكونت كل الحيوانات البرية والبحرية والطيور وحتى الكائنات الدنيا.

وهناك أسطورة تقول خلقَ رجلٌ عظيمٌ القوة وأمر أن يعمر الأرض فصنع له معولاً من الصخر وبدء بتعمير الأرض الخربة، تعب وعرق وبتن، فمن عرقه تكونت الأنهار، ومن القمل والصواب في رأسه والضراع في جسده تكونت هذه المخلوقات.

الخلق والتكوين في الحضارة اليونانية القديمة (الإغريق) :

كان يملأ الكون فراغ عظيم كله فوضى عارمة، ولم يكن وجود للشمس والقمر وليس هناك جبال وأنهار بمعنى لم تكن هناك أرض أي لا مكان ولا زمان، بعدها قسم هذا الفراغ نفسه إلى إلهين... آلهة السماء (أورانيوس) وآلهة الأرض (جايا)، وقامت جايا بتشكيل الكون وكأنها ترسم لوحة فنية، بعدها تزوجت جايا من أورانيوس وأنجبوا ذرية تكاثرت مع الوقت.

الخلق والتكوين في الحضارة الفرعونية :

تقول الأسطورة الفرعونية كان هناك بحر من الماء يحمل في موجاته الخير والشر وداخله يحوي بذور لكل شيء حي، وفي وقت من الأوقات في بداية الخلق والتكوين خرج كائن حي من بطن البحر، فرفع الأرض من رحم البحر، إنه الإله (أتوم) بعدها صعدت الإلهة (رع) لكي تكون الشمس، بعدها تلاقح أتوم مع رع فأنجبا ولد وبنت، الولد اسمه (شو) إله الريح والهواء، والبنت اسمها (تيفنوت) آلهة الخصب والنماء، فازداد عددهم وعمرروا الأرض.

الديانة البوذية :

الدين البوذي نسبة إلى مؤسسه غاوتاما بوذا (٥٦٦ ق . م - ٤٨٥ ق . م)، وتعاليمه تعتبر من الأديان الرئيسية في العالم، وينتشر أتباع هذا الدين في

الصين والهند والتبت وسريلانكا ومنغوليا وكوريا ، النيبال واليابان وفيتنام وتايلاند ، بورما ولاوس وتايوان وكذلك كطوائف في بعض دول أوروبا وأمريكا.

العقيدة البوذية تعتمد على الجواهر الثلاثة :

- الأول : جوهرة الإيمان ببوذا كمعلم مستنير (الرجل المتيقظ) ، بدايتها حركة رهبانية إبراهيمية نشأت في شمال الهند ثم انتشرت... كان بوذا يرفض نظام الطبقات الاجتماعية الذي تؤكد عليه الديانة الهندوسية ، ويرفض وصاية وسلطة رجال الدين (الكهنة).

- الثاني : الإيمان بتعاليم بوذا (دارما) وتعني الحقيقة.

- الثالث : الاهتمام بتنظيم المجتمع البوذي ليكون مستنير ، والاهتمام بالرهبان والعناية بهم لأنهم نذروا نفوسهم لمساعدة الآخرين ، ويطلق عليهم (السانغا) وعليهم الوصول باتباع هذا الدين إلى الاستنارة والتيقظ.

لقد جردت البوذية الكون من مفهوم الخالق الأزلي (مصدر خلاص الجميع) ، ولا تعارض البوذية تعدد الآلهة ، ويمكن لهذه الآلهة أن تموت ثم تنبعث من جديد في كينونة أقل شأنًا ، وليس الآلهة من خلق الكون ولا يمكنها التحكم بالكائنات الحية.

كذلك ترفض البوذية تقديم الأضاحي والقرايين للآلهة وترى البوذية أن الحياة الإنسانية أفضلها على الإطلاق ، لأنها تستطيع الوصول إلى مرحلة الاستنارة والتيقظ ، ورغم أن الآلهة من درجة أعلى لكنها منشغلة بملذاتها الذاتية ، وهذا يشغلها عن التحرر ولذا فإن الإنسانية عند بلوغها الاستنارة تستطيع التحرر.

وتوصي البوذية أتباعها باتباع الوصايا الخمسة الأخلاقية:

- الكف عن القتل.
- الكف عن أخذ ما لم يُعطى.
- الكف عن شرب المسكرات والمخدرات.

- تعاليم بوذا توصي بالمحبة ولتسامح ولتعامل بالحسنى والتصدق على الفقراء وترك الغنى والترف وضرورة ضبط النفس وحملها على التقشف.
وبتنفيذ هذه التعاليم يمكن القضاء على الأصول الثلاثة للشُرور : الشهوة، الحقد، الوهم.

الديانة الهندوسية :

الديانة الهندوسية لا تتبع نبياً بعينه ولا تعبد إله واحد، ولا تؤمن بمفهوم فلسفي واحد، ولا تتبع نمط موحد للشعائر الدينية، إنها أسلوب حياة.

في القرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد تكونت الأوبانيشادية الأولى التي تمثل الأساس النظري للديانة الهندوسية وهي (ختام الفيد) وهذا بطبيعتها ترفض كثرة ممارسة الطقوس الدينية ، ووظفوها في إطار إيماني واحد وثبوتها في المخطوطة الهندوسية (بهاغافادغيتا)، وكتبوا الملاحم الكبيرة باللغة السنسكريتية مثل رمايانا ومها بهارتا، بعدها تمّ جمعها في أسطورة عن الحكام والحروب القديمة في الهند، وتحوي رسائل دينية وفلسفية، وهذه تمثل الميثولوجيا الهندية خير تمثيل.

والهندوسي هو من يؤمن بالفلسفات التي وردت في (الفيدا)، وتؤمن فلسفة الفيدا أن الله وسائر الأحياء من نوع واحد (براهمن)، وأن الله يتجلى في ثلاثة وجوه: برهمن اللاشخصي، وبرماتما (الذات العليا)، وبهجفان (الغني)، بينما سائر الأحياء شقوقه، وأن لله قدرات ثلاث:

- القدرة الروحية (الباطنية).
- القدرة الخارجية (المادية).
- القدرة البينية (الأحياء).

لذلك يعتبرون الوجود مؤلفاً من الله وقدراته الخارقة، والهندوس دائماً يبحثون عن الذات الروحية وليس عن المادة، وهم لا يبحثون عن الخلاص وإنقاذ

الروح، لأنهم يؤمنون أن الروح سليمة وليست بحاجة إلى خلاص أو إنقاذ، لأن الإنسان كل ما يحتاجه هو فهم اختلاف الجسم المادي عن ذاته الروحية، وأن عملية البحث عن الذات روحياً توصلك إلى الآلهة، وهذا يتحقق أحياناً عندما يمارس اليوغا لغرض التحكم بالعقل والإحساس، ثم العثور على الذات في القلب، وعلى الإنسان أن يسلك ثلاثة دروب:

- درب العمل الصالح بإجراء الطقوس الدينية وتقديم القرابين إلى الملائكة وتسمى (كرم يوغا).

- درب العلم التخميني لغرض التوحد بالآلهة ويسمى (غيان يوغا).

- درب محبة الآلهة والتيتم بها وتسمى (بهلتي يوغا).

إن الهندوسية نشأت من العقيدة الفيدية لأن معظم الطقوس الهندوسية تمجد النصوص الدينية التي وردت في كتاب الفيد وتعني الحكمة والمعرفة في اللغة السنسكريتية، حيث تصور حياة الآريين وكيفية الارتقاء للحياة العقلية من السذاجة إلى الشعور الفلسفي وفيه أدعية تدعو إلى الشك والارتياب وفيه تأليهاً يرتقي إلى وحدة الوجود وأجزاء الفيدا تتألف من أربعة كتب:

- المهابهاراتا: ملحمة تشبه جلجاميش والإلياذة والأوديسة، وتتحدث عن الأعمال والمهن، وإرشادات الحياة والقضايا والوصايا.

- الرامايانا: ويتحدث عن نشأة الآلهة وأساطيرها والكون.

- الأوبانيشاد: ويتحدث عن الطقوس العبادية والأناشيد والقرابين وطريقة تقديس الآلهة.

- المانوسمрти: ويتحدث عن حقوق الطبقات الأربعة الهندية وهي: البراهمة وهي الأعلى شأنًا ثم طبقة الكشاتريا، وتليها طبقة الفايشيا، وتأتي طبقة الشودرا في السلم الأخير، وهم المنبوذين الذين لا يحق لهم شيء في دين الهندوس.

نظرة الهندوسية إلى الآلهة :

التوحيد : في الحقيقة لا يوجد عندهم توحيد مطلق ولكنهم إذا أقبلوا على أحد الآلهة عبدوه بكل جوارحهم بحيث ينسون الآلهة الأخرى ويعتبرونه رب الأرباب.

التعدد : يؤمنون أن لكل شيء في الطبيعة نافعاً أو ضاراً آلهة يجب أن تعبد ، كالماء والهواء والأنهار والجبال وهكذا.

التكليف : جمع الكهنة الآلهة في إله واحد أخرج العالم من ذاته اسمه (براهما) لأنه موجود ، و(فشنو) لأنه حافظ ، و(سينا) لأنه مهلك ، فمن يعبد أحد هذه الآلهة الثلاثة كأنه عبدها جميعاً ، أو عبد الواحد الأعلى ، لأنه لا يوجد فارق بينهم لأنهم جميعاً آلهة.

البقرة عند الهندوس حالة مقدسة ، ولها تماثيل في المعابد والمنازل والميادين ، ولا يجوز إيذاءها أو ذبحها ، وإذا ماتت تدفن بطقوس دينية.

كذلك يعتقد الهندوس أن روح الآلهة حلت في إنسان اسمه (كرشنا) ، وفيه التقى الإله بالإنسان ، بمعنى حل اللاهوت بالناسوت ويعتبر كرشنا عند الهندوس بمثابة السيد المسيح عند المسيحيين.

لو تابعنا المصادر التي تتحدث عن الدين الهندوسي لاعتبرنا أنه من أكثر الأديان روحانية ، وهي من الناحية النظرية تعتبر من أبسط الأديان ، ولكنها من الناحية العملية يصعب فهمها ، فهي تدعو إلى الاندماج في الروح الخالدة التي يسموها (براهما).

ورغم اختلاف الفرق الدينية وكثرة الطوائف ولكنهم يشتركون في جوهر واحد ، إن جميع الأشياء تضمحل وتختفي بالتدرج ولكن الحياة في مجموعها خالدة لا تزول ولا بد من وجود روح سامية خالدة غير مرئية وراء هذا العالم المادي المتقلب المتغير.

وهم يعتقدون أن النبات والحيوان ومختلف الكائنات ومن ضمنها الإنسان تموت لتولد من جديد ، وقد تتطور خلال ولادتها المتكررة بعد موتها من نبات إلى حيوان ، ومن حيوان إلى إنسان ومن إنسان إلى إنسان آخر أرقى ، ترشحه طهارته وصفاءه وتؤهله للاندماج في براهما الذي أصل كل المخلوقات.

ويعتقدون أن المجتمع ينقسم إلى طبقات أعلاها رجال الدين والمتصوفون يليها المحاربون ، ثم التجار والعمال ، فالإنسان قد يولد من طبقة راقية أو من طبقة منحطة لكنه في المستقبل يولد إنسان راقى أو منحط تبعاً لسلوكه في حياته ، أي حسناته وسيئاته التي يحاسب عليها ، ولهذا الذي كان في الطبقة الدنيا وقام بالالتزام بالمفاهيم الدينية الهندوسية ، وكثرت حسناته في ولادته الجديدة يكون ضمن الطبقة الراقية.

وهم يعتقدون أن جميع الكائنات الحية جزء من الخالق الأكبر ، ولغرض الخلاص يجب نبذ الأنانية والنظر إلى الناس على أنهم أعضاء في جسد واحد ، روافد وأنهار تصب في محيط واحد.

أسطورة الخلق عند اليابانيين :

وردت بشكل واضح في كتاب كوجيكي أسطورة الخلق والتكوين اليابانية في ديانة شنتو .

في تاريخ كل أمة هناك أسطورة تتغنى وتتباهى بها هذه الأمة ، وهذه الأسطورة هي جزء من تراث وتاريخ الأمة اليابانية ، تقول الأسطورة في البداية كانت الآلهة وهذه الآلهة لها ذرية إذ تولد ذكر وأنثى بعدها تموت ، وبعد حين صدر أمر من عظماء الآلهة إلى اثنين من الآلهة وأسمائهما (إيزاناكي) و(إزاتامي) ، وهما شقيقان رجل وامرأة ، أن يخلقا اليابان ، فوفقا على جسر السماء العائم ، ورميا رمح خارق مرصع بالجواهر والألماس ثم رفعاه إلى السماء فنزلت منه أربعة آلاف وثلاثة وعشرون قطرة ، كل قطرة شكلت جزيرة في الماء ، تألف

منها أرخبيل ثم شاهد الشقيقان كيف تتزاوج الضفادع في الماء فتعلمنا منها التناسل، وهكذا تكون الجنس الياباني ونشأت سلسلة مقدسة نقية أنشأت الأباطرة (الأسرة الحاكمة) التي مازالت سلالتها حاكمة حتى الآن.

واليابان لديها خمسة جزر كبيرة، أكبرها جزيرة (هندو) أو (هوشنو) التي تعادل نصف مساحة اليابان، وموقع اليابان جعلها دولة بحرية بامتياز وهي بلاد جميلة، وذات مناخ ممطر تزدهر فيها النباتات وتزدان في ربوعها المناظر الجميلة الخلابة.

وهناك قصة مشابهة لتكوين الجزر في البحار والمحيطات الشاسعة، حيث تحكي واحدة منها عن أسطورة أن نسر عظيم أراد أن يعبر المحيط الهادي، وحين قطع منتصف المحيط هطل مطر غزير فدعا الآلهة لإنقاذه، فاستجابت الآلهة، ورمى المحيط من داخله حمماً وحجارة شكلت جزر، استطاع هذا النسر العظيم أن يحط على واحدة منها.

الشعوب تزخر بمثل هذه الأساطير وتدونها وتعتبرها من تاريخها وتراثها الذي تعتز به وتتناقله عبر الأجيال، بداية شفاهية يتم تدوينها مثل أسطورة جلجامش والإلياذة، والشاه نامه والأوديسا ولمها بهارتا وغيرها من الأساطير التي أصبحت تسمى علم الأساطير (الميثولوجيا) التي لا تخلو منه حتى الأديان الموحدة، العلمانيون يسمونه ميثولوجيا، والروحانيون يسمونه خوارق ومعجزات والله أعلم.

ولغرض الإطلاع على تاريخ الأديان وبدايتها ونشأتها علينا الإطلاع على مقالة بقلم الأستاذ المهندس عبد الاله سباهي، والمنشورة في مجلة آفاق مندائية الغراء التي تصدر في بغداد من قبل مجلس شؤون الصابئة المندائيين في الوطن الأم العراق، والأستاذ عبد الاله سباهي غني عن التعريف، فهو شخصية مندائية ثقافية له عدة مؤلفات قيمة، وهو ناشط مندائي عمل وقدم خدمات جليلة لأبناء الطائفة في العراق والدنمارك وهو يحمل أفكار تقدمية، يسعى من خلالها إلى

التطور والتحديث ومواكبة العصر والاهتمام بالشباب لضمان المستقبل عن طريق جذب النشء الجديد لحضور الطقوس الدينية ، وتهيئة سلسلة من المحاضرات التي تشرح الأفكار ولمفاهيم الدينية فكر وطقوس على أصولها ، وتحبيب ذلك إلى نفوسهم.

أنا من مناصري تقديم المحتوى الأصلي للفكر المندائي ، وإظهار اللب الحقيقي للدين المندائي ، فالدين لا يكمن بنوع القصب والبردي الذي يستعمل في الطقوس ولا في نوع الجرة التي تستعمل في طقس الزواج ، ولا في نوع القماش وتفصيل رداء الرسته التي تستعمل في طقس الصباغة ، فهناك بدائل للقصب والبردي وسعف النخيل والجرة رغم توفرها في كثير من الدول التي لجأ إليها المندائيون ، وقد تقبلوا الآن هذه البدائل.

تبقى المشكلة الدينية في تطوير إمكانات وقابلية رجال الدين الأفاضل ، لأنهم هم المعلمون والحافظون لهذا الدين ومتى توضع ضوابط لترقيتهم من درجة دينية إلى أخرى ، ومتى تكون لدينا مدارس مندائية وتؤسس كلية للدراسات المندائية لإيصال العلوم الدينية المندائية الخالصة إلى رواد المعرفة والحقيقة من منهلها الأصلي ، ومتى نخطط للاستفادة من إمكانات الدول المتقدمة في تطوير مناهجنا ، ومتى نفجر طاقات شبابنا ومبدعينا ، سيبدأ عصر جديد لأمتنا المندائية وستظهر الحقيقة الناصعة لجوهر هذا الدين ، وأنا متفائل أن المستقبل في صالحنا.

تاريخية الأديان

جاء في مقال الأستاذ عبد الاله بعنوان : تاريخية الأديان، ما يلي :

(يبحث الموضوع ماهية الأديان ، كيف ظهرت الديانة وما هي مقوماتها الأساسية ، وأين نحن كمندائيين الآن ، بدء لم يخف على القارئ أن للأديان والتدين جذور تمتد عميقاً في التاريخ الموعول في القدم، ولا أقصد هنا الأديان التوحيدية المتطورة، وإنما أعني الشعور الديني الأول للإنسان، فقد عثر العلماء على آثار تدل على أن الإنسان القديم كان على معرفة أنواع من الوعي الديني تعود للفترة التي اكتشف فيها أدواته الحجرية الأولى والتي ميزته عن عالم الحيوان الذي ينتمي إليه).

إن اكتشاف الإنسان لتلك الأدوات البدائية ووعيه الأول للبوار الدينية ، هما المؤشران الأساسيان لمنطور الحضارة الإنسانية ، فيرجع العلماء كل تطور تكنولوجي إلى تلك الأدوات الأولية وكل تقدم فكري أصله تلك البوار الدينية البدائية الأولى التي استخدمها الإنسان القديم والتي تمّ العثور عليها والتعرف بها وعند العلماء تصور واضح عنها وعن تطورها ، ولكن الصعوبة تكمن في مواكبة تطور البوار الدينية للإنسان.

فما هو الدين بشكل عام ؟ :

يقول هربرت سبنسر إن الأديان على قدر اختلافها في عقائدها المعلنة تتفق ضمناً أن وجود الكون هو سر يتطلب التفسير ، ويرى أن الدين هو الاعتقاد بالحضور الفائق لشيء غامض وعصي على الفهم.

ويقول ماكس مولر الفيلسوف ومؤرخ الأديان الألماني البارز : إن الدين كدح من أجل تصور ما لا يمكن التعبير عنه أنه توق إلى النهائي.

وفي مقدمة تاريخ الأديان يقول العالم رافيل إن الدين هو اشتراط الحياة الإنسانية بإحساس بالاتصال بين الفعل الإنساني وعقل خفي يتحكم بالكون، وما ينجم عن ذلك من شعور بالغبطة.

ويستمر تفسير العلماء للدين على هذا المنوال، فيعود العالم البريطاني هربرت سبنسر فيفسر الدين أنه عملية استرضاء وطلب العون من قوى أعلى من الإنسان يعتقد أنها تتحكم بالطبيعة وبالحياة الإنسانية وهذه العملية تحوي عنصرين : واحد نظري والآخر تطبيقي، فهناك اعتقاد بوجود قوى عليا يتلوه محاولات لاسترضاء تلك القوى، ولذلك فإن الاعتقاد تتبعه ممارسات وكل هذه التفسيرات للدين غير كاملة، فهناك آراء أخرى مخالفة ذات وزن.

فالديانة البوذية مثلاً ترفض فكرة الآلهة وإنما هي نظام أخلاقي بالدرجة الأولى وإيمان بدون آلهة، والبودي لا يهتم من خلق الكون، وكيف وإنما كل همه أن يكافح من أجل تحرير روحه من سلسلة التقمصات في عالم الألم والشقاء، وهو يعتمد على قواه الذاتية بذلك، ولا يستعين بأية آلهة لتساعده في كفاحه هذا، ولكي يشمل تعريف الدين جميع الأديان يجب أن يهتم بما هو مشترك بينهما، وأن جميع الأديان تعني بما هو قدسي وعلاقته بما هو دنيوي.

والدين هو طبيعة الأشياء القدسية والتعبير عنها وعلاقتها ببعضها أو علاقتها بالأشياء الدنيوية، الدين هو معتقد تشترك فيه جماعة معينة من الأفراد وهم داخل هذه المجموعة يشعرون بالصلة والترابط بعضهم ببعض داخل وحدة اجتماعية خاصة بهم، وبذلك يكون تعريف الدين هو النظام الذي يشمل مجموعة من المعتقدات والممارسات التي تدور حول مواضيع مقدسة معزولة عما هو دنيوي بشتى أنواع التحريم، وهي تجمع كل المؤمنين والعاملين بها في مجموعة معنوية واحدة.

إن الإنسان يشعر بالقدسي من خلال حالات انفعال ووجد ذاتية حيث يظهر القدسي نفسه مختلفاً كل الاختلاف عن شعور دنيوي، والأديان جميعها البدائية

منها والمتطورة ما هي إلا تراكمات لتلك التجليات والانفعالات القدسية ولكل إنسان تجربته الخاصة في ذلك المضمار ، وقد يؤمن الإنسان البدائي أن القدسي قد تجلى له بشجرة أو حجارة أو بأي مخلوق آخر ، ويتطور الإيمان ليعرف الله عن طريق الأديان التوحيدية أن كل إنسان ربما جرب الوعي والشعور بالقدسي بقدر أو بآخر ، وأن الشعور بالقدسي مغروس في النفس الإنسانية.

لقد تطور مفهومنا بالقدسي حتى تحول إلى جملة من التشريعات الأخلاقية والتقوى السلوكية، ولكن الحالة الأصلية للوعي القدسي تبقى هي تجربة انفعالية وجدية غير مادية ، حيث يشعر الإنسان بإحساس من الخوف والانجذاب إلى قوى لا تنتمي إلى هذا العالم المادي ، وبذلك فإن كل ظاهرة دينية سوف تولد خبرة فردية يعانيتها الإنسان في أعماق ذاته بمعزل عن تجارب الآخرين ، وهذه التجربة جزء من سيكولوجية الإنسان ، أي أنها حالة نفسية تظهر بشكل لا إرادي، وهي حالة سبقت الإله المشخص في تاريخ الأديان.

ومهما تظاهرنّا برجوعنا للعقل في حياتنا إلا أن كلاً منا خاض تجربة الشعور بالقدسي بشكل أو بآخر ، وبشكل يختلف في شدته عن الآخرين ، وغالباً ما تصب تلك التجارب الشخصية في عقيدة مصاغة بقالب واضح ، ثم تنشأ حولها طقوس تصبح معروفة للجماعة تساعدهم في دفع شدة المجابهة المباشرة مع الإحساس بالقدسي ، ثم تتحول تلك الطقوس من ردة فعل إلى حافز لإثارة التجربة الفردية بالقدسي ، ثم تذوب تلك الخبرات وتلك الممارسات الفردية في خبرة واحدة مشتركة لمجموعة معينة من البشر ، وتتحول إلى دين الجماعة.

إن الدين كشعور هو ظاهرة رافقت الإنسان منذ استقلاله عن مملكة الحيوان ، ولكن المؤسسات الدينية ظهرت بعد ظهور المدن وتطور الحضارة وتطور علاقات الإنتاج وعليه فإن الأديان هي التجارب الجماعية المتأنية من تجارب الأفراد الدينية والتي تم صياغتها بقوالب فكرية وطقسية وأدبية لها مردود عال عند الجماعة ، وبذلك يمكن إرجاع قوالب الأديان كافة إلى ثلاث ظواهر :

- المعتقد.
- الطقس.
- الأسطورة.

هذه المكونات الثلاثة الأساسية لحقتها في الأديان المتطورة مكونات من أفراد الجماعة بصياغة تجربته الوجدية الخاصة كدين خاص به، إن ما يريده القدسي من البشر هي أفكارهم، حيث يعيش في أفكار الناس، أما العبادات والطقوس فهي لا تمس القدسي بشيء وإنما تتعش الفكر الديني الذي يحمل صورة المقدس داخله.

أعتقد أننا كونا فكرة عن نشوء المعتقد الديني، ولكن الدين هو معتقد وطقوس وأساطير، فإن الطقوس هي ردود فعل للتجربة الوجدية للإنسان، فعندما تكون التجربة انفعالية وقد تصل بشدتها إلى الحد الذي يستدعي القيام بسلوك ما من أجل إعادة التوازن النفسي والجسدي الذي غيرته تلك التجربة الشديدة، وأخرجته من حالته النفسية الاعتيادية، فربما كانت ردة الفعل رعشة أو إيقاع أو حركات ورقص حر، وهي السلوك الاندفاعي الأول الذي صدر عن الإنسان وتحول تدريجياً إلى طقوس متقنة في إطار التجربة الدينية، ثم تحولت تدريجياً ثم نظمت بشكل واضح ومتقن ترتضيه الجماعة، ويرون فيه تعبيراً عن تجربتهم الخاصة.

والطقس يتبلور ويصقل على مر الوقت ويكون بذلك قد شكل مع المعتقد أساساً في دين الجماعة بدلاً من أن يكون ارتباطه بتجارب فردية، وهذا لا ينفي أن تبقى بعض التجارب الفردية وإن غلفت بإطار عام كما هو الحال عند الصوفية والدرأوشة والشامانات وغيره.

وتتحول تلك الطقوس كما قلنا من حالة كونها ردة فعل للتجربة الوجدية إلى وسيلة لاستحداث تلك التجربة وإنعاشها من فترة إلى أخرى، ولذلك نرى كل الأديان تؤكد على الطقوس، وتراها ركناً أساسياً في الدين، ومع ذلك فكما أن

المعتقد الديني بدون ممارسات طقسية يظل فلسفة وفكر ديني ، وليس دين ، وكذلك فإن الطقوس من دون ارتباطها وتوظيفها للفكر الديني تتحول إلى ممارسات سحرية أو غيرها من الممارسات التي توظف لغرض التأثير على سلوكية الإنسان ، مثل تعزيز الشعور بالانتماء للوطن كما في الزي والأناشيد الوطنية ورفع العلم وغيرها... أو توظف لجعل الفرد يندفع في التضحية بحياته لأجل الوطن ، مثل طقوس الجندي المجهول ووضع إكليل الزهور ، وتعظيم الشهادة وغيرها.

وقد وظفت الطقوس أحياناً بعيداً عن الأهداف الإنسانية كما حدث في ألمانيا النازية وكيف وظفت أناشيد فاغنر والتحية النازية وغيرها من الطقوس في خدمة الشعور النازي لدى الألمان ، وربما كان تأثيرها أكثر وقعاً على الشعب الألماني من خطب هتلر ، لذلك تؤكد أكثر الأديان تطوراً على ربط الطقوس بالمعتقد الديني بشكل فعال.

ولغرض شرح المعتقد الديني وشرح تبرير طقوسه للناس ظهرت الأسطورة والتي كتبت بشكل أدبي راق ساعدت في فهم المعتقد وحفظه ، وأعطت تفسيرات مقنعة في حينها للجوانب غير المقبولة في عقول البعض بما لها من أسلوب أدبي شيق ومؤثر ، فنرى تأثير أسطورة الخلق أخذت المكان الأول في أغلب أساطير الأديان ، فنرى تأثير أسطورة الخلق البابلية في أساطير الأديان القديمة واضحاً ومؤثراً حيث تقول لم تكن هناك أرض في الأسفل ، لم يكن هناك سوى آلهة العماء القابعة وراء الزمن والمعارضة لأي حركة أو فعل ، ثم جاء الإله مردوخ ليبث حياة مع سيرة حياة الكون الذي أخرجه من لجة العماء البدني... الخ.

وهذه الأسطورة عند مقارنتها مع أسطورة الخلق في الدين اليهودي نرى مدى تأثيرها عليه وعلى عقول البشر في ذلك الوقت ، تقول أسطورة الخلق اليهودية وكما وردت في التوراة : في البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت

الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرفرف فوق الماء... الخ.

والمندائية تصف عملية الخلق بصورة غير بعيدة عن ذلك مع إعطاء سبب لحلول قوى الظلام في هذا العالم عن طريق اشتراك الروهة والأشرار السبعة مع ابناهيل في عملية الخلق تلك.

والأساطير إن لم تكن موظفة لغرض ديني تصبح قصص خرافية، وفي كثير من الأحيان نرى بعض الطقوس تأتي لتبرر تلك الأساطير، وكلما تطورت الأسطورة وتعددت؛ نرى الطقوس أكثر تعقيداً، مثال ذلك الكرصة عندنا وما يرافقها من طقوس ومحرمات، إضافة إلى المكونات الأساسية للدين وهي المعتقد، الطقس، الأسطورة... هناك مكونات أخرى ظهرت كعوامل مساعدة ومتممة وضمن قياسات تاريخية واجتماعية خاصة وهي الأخلاق والشرائع.

إن الفارق بينهما وبين المقومات الأساسية هي أن المعتقد والطقس والأسطورة هي عبارة عن ممارسات ومعتقدات وأدب ينظم سلوك الأفراد تجاه عالم المقدسات، أما الأخلاق والشرائع فإنها تنظم بالأساس سلوك الأفراد ببعضهم، وفي الغالب تأتي الأخلاق والشرائع الدينية كبدايل عملية عن أسلوب الإكراه والقوة في العلاقات الاجتماعية، وقد تطورت الشرائع والأخلاق مع تطور وسائل الإنتاج وتعددت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عنه... مثل الزكاة والأمانة وتحريم الربا وغيرها.

وبعد هذا كله أين نحن كمندائيين من تلك التجارب الوجدية الدينية، وما هو موقفنا الآن من أساطيرنا وطقوسنا؟، كل واحد منا قد يكون مر بتجربة من هذا النوع فربما ذكر مندادهي أو هيل زيوه أو شعر بشوق للبس الرسته والصباغة في النهر، وعلى الرغم من أننا قد ابتعدنا كثيراً ومنذ زمن عن الفكر المندائي وذلك بسبب إهمال رجال الدين نشر الوعي الفكري واكتفوا بالطقوس وغالوا إلى حد التزمت فتحوّلت تلك الطقوس لتصبح وكأنها هي الدين، وحتى

الطقوس أخذت تتناقص وتختفي الواحد بعد الآخر ، بعد أن أصبح العديد منها مستحيل التطبيق بسبب تطور المجتمعات والظروف ، وكما ترون فإن الحياة أخذت تفرض علينا سلوكيات أبعدتنا عن الدين ، والمسألة عند شبابنا تأخذ أبعاداً أخطر وأشد ، فنحن قد يشدنا بالمندائية طقس معين أو ذكرى معينة ، فما الذي يشد أبناءنا للدين وخاصة هنا في بلدان المهجر .

هل وضعنا الفكر المندائي بين أيديهم ؟ كل ما يعرفونه عن ذلك الفكر هو ما سمعوه من آبائهم أن المندائية جملة فكر ديني نير ، ونظرته للدين نظرة إنسانية تقدمية مسالمة تدعو إلى الرأفة بالطبيعة وبمخلوقات الله ، وقد قبلوا ذلك لنقتهم بنا على السماع ، وهذا لا يكفي للجيل الجديد ، الحاد الذكاء والكثير الشك الذي يبحث ويدقق كل شيء ، فهل وضعنا نحن - أي من اطلع على ذلك الفكر بقدر أو آخر - برنامج يساعد الشباب على الإطلاع ومعرفة الحد الأدنى على الأقل من الفكر المندائي ؟.

هل طقوسنا سهلة وميسرة ومشوقة تشدهم إلى الدين ؟ ونحن هنا في أوروبا ودول المهجر نمر بمحنة بهذا الخصوص ، فعملية الحصول على زوجة مندائية ربما أسهل بكثير من عملية الحصول على قصب الأندرونا أو الجرة التي تكسر في المهر أو الطريانة وغيرها من التفاصيل التي ليست من صلب الدين بشيء ، وإنما هي أمور يصر عليها رجال ديننا دون وعي بالنتائج ودون مبرر ديني أصلاً .

إن أبناءنا يمرون بمحنة أخرى هنا ، وكما يقول المثل قد فقدوا المشيتين... إنهم لم يعتادوا ولم يحبوا هذه الأوطان الجديدة ولم يقبلوا قيمها أو يعتادوا عليها ، وفوق ذلك إن تلك الأوطان تعددت واختلفت لغاتها ومناخها وعاداتها ، فما الذي سيجمع من يولد في نيوزلندا مثلاً بمن يولد في الدنمارك .

ثم إن أبناءنا لم يحملوا الذكرى الطيبة الجميلة التي نحملها عن وطننا العراق ، لقد فقدوا هويتهم ولم يبق لهم غير الهوية المندائية ، فكيف نجعلها محببة لديهم

لتشدهم إلى بعضهم ؟ ثم هل حاولنا إيجاد مركز إعلامي يأخذ على عاتقه المحافظة على العلاقات بين المندائين وصيانة أصولهم ، وقد توزعوا في كل بلدان العالم ، ويوفر لهم التواصل فيما بينهم ، هل سعينا لحملهم على العيش في تجمعات متقاربة ليحافظوا على صلات الود والقربى لحين عودتهم إلى الوطن ؟ تلك العودة التي ليس لها سقف زمني محدد ، وهل عملنا على شد المندائين إلى الوطن بطرق عملية حديثة؟.

إنني ومن خلال صفحات آفاق مندائية وغيرها من المجالات المندائية أدعو المجالس والجمعيات المندائية وكل حريص إلى دراسة المشاكل الجديدة التي تواجه المندائية والتي وضعت أمامنا الآن ورغماً عنا ، والسعي لإيجاد حلول جماعية لها ، كأن تنظم طريقة إيصال الحد الأدنى من الفكر المندائي إلى كافة المندائين ، ثم ما هو ذلك الحد ؟ كيف يجب أن نطور الطقوس ونجعلها في متناول الجميع ، نخدم الفكر المندائي ، وتكون مقبولة وممكنة ؟ كيف نوفّر العدد الكافي من رجال الدين ؟ وكيف نذلّ صعوبة طراستهم ؟ وما هي مواصفات رجل الدين ؟ وهل ستبقى الطريقة المسلكية المتبعة هي معيار ترقيتهم دون التأكد من ثقافتهم الدينية والعامة ؟ هل تظل الرسته كما هي دون أن تخدم الوظيفة التي وجدت من أجلها ، وهي لا تحميهم الآن من برد ولا تميزهم عن الآخرين ؟ كيف نحافظ على اللغة والتراث المندائي المتوارث وكل رجل دين يستحوذ على قسم منه ، ويتركه من بعده لأولاده وهو عرضة للضياع والتلف ؟ كيف نطور علاقتنا مع المراكز العالمية المهتمة بدراسة المندائية في العالم ؟ وكيف نقدم المندائية بشكل صحيح لدوائر المعارف وللشعوب الأخرى ؟ كيف نحافظ على هويتنا المندائية ؟ وكيف... وكيف...

إنها دعوة للجميع لبعث كل تلك الأمور وغيرها وبلورة الحلول لها ، والعمل على عقد مؤتمر عام للمندائين يضم أصحاب الرأي لدراسة المسألة والاتفاق على حلول تحظى بالإجماع ، يلتزم بها الجميع ، أرجو للجميع التوفيق والسداد .

الخلفية الميثولوجية للأديان :

تتحدث أقدم الأساطير المدونة في ثقافات الشرق القديم ، وهي الأساطير السومرية (النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد)، عن خلق العالم ابتداء من الهولي المائية الأولى، ونستطيع اعتمادًا على عدد من النصوص السومرية التي لم تصلنا كاملة، إعادة بناء أسطورة التكوين السومرية على الشكل التالي :

- في البدء كانت الآلهة (نمو) ، وهي المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء فيما بعد.

- ثم إن هذه المياه الأولى أنجبت توأمين... هما السماء (آن) وهو مذكر ، والأرض (كي) وهي مؤنث ، وكانا ملتصقين ببعضهما في كتلة غير متميزة ، تدعوها النصوص السومرية بجبل السماء والأرض.

- ومن تلاقح السماء والأرض ولد الهواء (إنليل)، وبدأ يشعر بالضيق من عدم وجود متسع له للحركة بين أبويه ، فعمد بقوته الخارقة إلى فصل السماء عن الأرض ، فسمت السماء وانبسطت الأرض وراح الهواء إنليل يرتع بينهما.

إن عناصر قصة الميلاد المائي هذه تعود إلى الظهور في الميثولوجيا المصرية: - في البدء لم يكن سوى الأوقيانوس المائي العظيم المدعو (نون) في أعماق هذه الهولي المائية الأولى ، كانت تحوم روح بلا هوية ، تركزت في داخلها تدريجيًا كل الممكنات وصار اسمها (آتوم) وتعني الاكتمال ، وفي الوقت نفسه العدم.

- ثم إن آتوم هذا تجلى عند بدء الزمن تحت اسم آتوم - رع ، وأنجب الآلهة والبشر.

وفي رواية أخرى لقصة الخليفة المصرية نجد أن إله الشمس (رع) كان كامناً في حضان المياه الأولى (نون) تحت اسم (آتوم)، ولخوفه على نوره من الانطفاء انطوى داخل برعم لوتس ظل يهيم على غير هدى في أعماق المياه، ثم جاء وقت سأم فيه من حالته الشبيهة بالعدم، فانبثق بإرادته الخاصة وتجلى تحت اسم

(رع) ، وبعد ذلك أنجب الهواء (شو) ، وهو مذكر ، والرطوبة (تفنوت) وهي مؤنث ، وقد أنجبا بدورهما الأرض (جيب) وهو مذكر ، والسماء (نوت) وهي مؤنث ، وكانت السماء والأرض في حالة التصاق وعناق دائم ، ولكن الهواء شو الذي يؤدي هنا دور أنليل السومري تسأل بينهما فرفع السماء على ذراعيه نحو الأعلى ، ووطئ الأرض بقدميه ، ومنذ ذلك الحين وجيب ينوح ويبكي على فراق زوجته نوت.

إن أطول وأكمل نص في التكوين قد قدمه لنا البابليون ورثة الحضارة السومرية ، وهو يعود بتاريخه إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، وقد وجدت منه نسخة شبه تامة في مكتبة الملك آشور بانبيال في مدينة نينوى يعود تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد.

في هذه الأسطورة يحل الإله البابلي مردوخ محل الإله القديم أنليل كبطل للتكوين ، وهو الذي يفصل الكتلة المائية البدئية المدعوة (تعامة) ، أو الأم (هابور) أصل كل الأشياء والتي تصورها البابليون على هيئة تتين مائي هائل ، ليصنع منها السماء والأرض وبقيّة مظاهر الوجود ، فبعد معركة فاصلة مع هذه الآلهة وجندها ؛ قطع مردوخ رأسها ثم شقها إلى قسمين فانفتحت كما الصدفة ، فرفع نصفها الأول إلى الأعلى فصار سماء ، وضع تحتها العوارض حتى لا يتسرب ماءها ، وبسط الثاني فصار أرض.

ثم التفت بعد ذلك إلى تنظيم شؤون السماء والأرض فعمد إلى السماء وزينها بالنجوم وأظهر كويكبات أبرج السنة ، وصنع القمر وأكله بالليل ، وصنع الشمس وأكلها بالنهار ، وفصل بين تخوم النهار وتخوم الليل ، ثم التفت إلى الأرض فأبرز معالمها وصنع الجبال والتلال ، وفجر من باطنها ينابيع وعيون ، وأسأل أنهاراً وخلق الغيوم وحملها بالمطر الغزير ، مهياً بذلك لظهور الحياة النباتية والحيوانية ، وأخيراً خلق الإنسان.

لقد وصلتنا هذه الأسطورة منقوشة على سبعة ألواح فخارية ، الألواح الستة الأولى منها مخصصة لوصف فعاليات الإله الخلاقة ، أما اللوح الأخير فمخصص لوصف جلوس الإله مردوخ على العرش في القصر الجديد الذي بناه له رفاقه الآلهة ، واحتفالهم بنصره على تنين الماء ، وخلق العالم وترنمهم بأسمائه الخمسين التي يعبر كل واحد منها عن صفة من صفاته أو خاصية من خصائصه ، ولعل هذا ما أوحى إلى المحررين التوراتيين الذي استلهموا هذه الأسطورة في فترة السبي البابلي بفكرة أيام الخلق الستة واستراحة الخالق في اليوم السابع ، ودبجوا قصتهم التي تقوم على العناصر ذاتها التي قامت عليها أسطورة التكوين البابلية وبقيّة أساطير التكوين في الثقافات الشرقية.

وعلى الرغم من أن قصة الخليفة قد تصدرت الإصحاحات الأولى من سفر التكوين ، وهو أول أسفار التوراة العبرانية ، إلا أن إشارات متفرقة إلى فعاليات إله التوراة يهوه في التكوين قد وردت في غيرها من الأسفار ، حيث نجد يهوه منهماكماً قبل الخلق على طريقة مردوخ في السيطرة على المياه الأولى وإخضاعها ، أو في الصراع مع تنين بحري يمثل تلك المياه يدعى (لواياتان) أو راهب ، نقرأ في سفر المزامير ٧٤ :

(أَنْتَ سَخَّيْتَهُ الْبَحْرَ بِقُوَّتِكَ. كَسَرْتَ رُؤُوسَ التَّنَانِينِ عَلَى الْمِيَاهِ. أَنْتَ رَضَضْتَ رُؤُوسَ لَوِيَّاتَانٍ. جَعَلْتَهُ طَعَامًا لِلشَّعْبِ ، لِأَهْلِ الْبَرِّيَّةِ. أَنْتَ فَجَّرْتَ عَيْنًا وَسَيْلًا. أَنْتَ يَبَسْتَ أَنْهَارًا دَائِمَةً الْجَرَبَانِ. لَكَ النَّهَارُ ، وَلَكَ اللَّيْلُ. أَنْتَ هَيَّأْتَ النُّورَ وَالشَّمْسَ. أَنْتَ نَصَبْتَ كُلَّ تَحُومِ الْأَرْضِ. الصَّيْفَ وَالشِّتَاءَ أَنْتَ خَلَقْتَهُمَا).

وجاء في المزمور ٨٩ :

(أَنْتَ مَتَسَّلَطٌ عَلَى كِبْرِيَاءِ الْبَحْرِ. مِنْدَ أَرْتَفَاعِ لَجَجِهِ أَنْتَ تَسْكُنُهَا. ١٠ أَنْتَ سَخَّيْتَ رَهَبَ مِثْلِ الْقَتِيلِ. يَخْزِيهِ قُوَّتُكَ بِحَدِّثَةِ أَعْدَائِكَ. إِنَّكَ السَّمَاوَاتُ. لَكَ أَيْضًا الْأَرْضُ. الْمَسْكُونَةُ وَمِلُوكُهَا أَنْتَ أَسَسْتَهُمَا (١٢) الشَّمَالَ وَالْجَنُوبُ أَنْتَ خَلَقْتَهُمَا. تَابُورٌ وَحَرْمُونٌ بِأَسْمِكَ يَهْتَفَانِ).

وجاء في المزمور ١٠٤ :

(لَمُوسَّسُ الْأَرْضِ حَكَمَى قَوَائِمِهَا فَلَا تَتَزَعَزَعُ إِلَى الدَّهْرِ وَالْأَبَدِ (٦) كَسَوْتَهَا الْغَمَرَ
كَنُوبٍ. فَوَقَّ الْجِبَالُ تَقَفُّهُ الْمَيَّاهُ (٧) مِنْ أَنْتَهَارِكَ تَهْرُبُ ، مِنْ صَوْتِكَ تَهْفُؤُ
(٨) تَصْعَدُ إِلَى الْجِبَالِ. تَنْزِلُ إِلَى الْيَقَاعِ ، إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي أَسَّسْتَهُ لَهَا (٩)
وَضَعْتَ لَهَا تَحَمُّاً لَا تَتَعَدَّاهُ. لَا تَرْجِعْ لِتُعْطِيَ الْأَرْضَ).

وجاء في سفر أشعيا :

(استيقظي ، استيقظي ! البسي قوة يا ذراعي الرب! استيقظي كما في أيام
القدم ، كما في الأدوار القديمة ، ألسنتك القاطعة رهيب ، الطائفة التنين؟).

في الحقيقة إن فكرة إخضاع المياه البدئية وقتل تنينها لم ترد إلى الميثولوجيا
التوراتية من ميثولوجيا بلاد الرافدين فقط ، وإنما من الميثولوجيا السورية
الكنعانية أيضاً ، ففي نصوص (بعل) و(عناة) التي وردتنا من ثقافة أغاريت
الساحلية ، نجد الإله بعل أقوى وأفتى الأرباب ، يخضع المياه البدئية ، المتمثلة
في الإله (يم) قبل أن يباشر مهامه في تنظيم العالم ، وترتيب دورة الفصول التي
تأتي بالمطر والتلج ، لخصب الأرض وحياة الزرع ، كما أنه يصارع التنين
البحري (لوتان) الذي يظهر في النصوص التوراتية تحت اسم (لواياتان).

نقرأ في نصوص بعل الفقرة التالية وما يقابلها في سفر أشعيا التوراتي ، حيث
يبدو وكأن المحرر التوراتي ينسخ حرفياً عن النص الأوغاريتي.

النص الأوغاريتي : والآن تريد أن تسحق لوتان ، الحية الهاربة ، الآن أن تجهز
على الحية المتحوية ذات الرؤوس السبعة.

سفر إشعيا ٢٧ مزمور :

(في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي الشديد. لواياتان الحية الهاربة.
لواياتان الحية المتحوية. ويقتل التنين الذي في البحر).

نكتفي بهذا القدر من التوضيح لأهم الأديان التي ظهرت في الشرق ، ومنها
الأديان الموحدة (الصابئة المندائيون ، اليهود ، المسيحيون ، المسلمون) ، وهناك

أديان قديمة قدم التاريخ، وهناك أديان غير موحدة، من هذا الموجز عن الأديان والخلفية الميثولوجيا لها مدخل لفهم دين الصابئة المندائيين، كدين يعتبره أتباعه جذر التوحيد الأول، لأنه نشأ في العالم العلوي وأن الحي العظيم (الله) خلق آدم وحواء صابئين مندائيين، وعلمهما التعاليم والأسماء، وغرس في عقليهما وقلبيهما وضميريتهما وروحيهما الإيمان بوجوده وعظمته.

تطور الدين عبر الزمن :

لو درسنا تطور الدين عند الإنسان لرأينا أنه يشبه إلى حد بعيد تطور الإنسان نفسه ، بمعنى أن الدين تطور مع تطور الإنسان ، ووفق مراحل تاريخية من عمر الزمن ، وحقيقة الأمر أن الإنسان وحده الذي له دين ، لأن سائر الحيوانات تفتقر إلى الدين مثلما تفتقر إلى القانون والنظام والأخلاق ، لأن الإنسان له القدرة على الربط والعقد والتفكير ، وتقرير المواقف المختلفة ، ويمتلك العقل العاطفي مع ملكة الخيال والابتكار ، مما ساعده على التطور وصنع ما يحتاجه في حياته ، وهذه الإمكانيات العقلية والذهنية والجسدية ساعدته في ارتباطاته الروحية والمادية.

والدين عنصر أساسي من تكوين الإنسان ، وهو مغروس في قلبه وحسه فيقال للإنسان عقل ، ويقال للإنسان دين ، وكلاهما من سمات شخصية الإنسان وتطوره عبر الزمن ، ويرتبط الإنسان بالدين بشكل عام وبدرجات متفاوتة من الإنسان وتطوره عبر الزمن ، ويرتبط الإنسان بالدين بشكل عام وبدرجات متفاوتة من الإنسان الذي يؤمن بالعلم كهدف للوصول إلى الرقي والتقدم ، إلى الإنسان الصوفي المعتدل إلى المتطرف الذي يرهب الناس للإيمان بدينه ومعتقد.

إذا لابد من وجود حس ديني عند الإنسان الذي تطور بتطور الإنسان ذاته ، فاختلف طبقاً لمراحل الإنسان وتطوره الثقافي والاجتماعي وتأثير بيئته عليه ، ومن هنا نشأت الأديان وتعددت وتنوعت أفكارها ، بدء بالإيمان بالأساطير والخرافات والسحر والشعوذة ، وبذل الجهود لإرضاء القوى الخفية التي تسيطر على الطبيعة ، ومحاولة التقرب لها بالقرابين والأضاحي ، ثم تطورت إلى ديانات بدائية ، وتطورت مع الوقت إلى ديانات آمن بها الناس مثل الديانة السومرية والبابلية والفرعونية ، ثم الزرادشتية والكونفوشية والهندوسية والبوذية والمانوية... وغيرها ، وقسم منها بدأت فيها بوادر الأفكار التوحيدية ، إلى أن

ظهرت الأديان التوحيدية مثل المندائية واليهودية والمسيحية والإسلامية، ولربما أن الديانة المندائية قد سبقت كل هذه الديانات لأنها تعتبر نفسها جذر التوحيد الأول.

ولقد أدرك الجميع أن الدين يترك أثراً بليغاً في نفوس الناس وعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم، ولهذا لابد من دراسة العقائد والطقوس والشعائر الدينية لمعرفة الأسباب الحقيقية لنشوء هذا الدين، وتأثيره على طبائع الشعوب والأمم.

ولهذا يؤكد الباحثون المنصفون ضرورة التزام الباحث بالصدق والأمانة والحياد دون تعصب لدينه أو مذهبه أو ما يؤمن به، وألا يخفي على العقول حقيقة الأمور، في النتيجة لا يصح إلا الصحيح.

وعلى الباحث في الأديان وتطورها عبر الزمن أن يدرس بعناية ودقة حضارات بلاد الرافدين، السومرية والبابلية والآشورية والحضارة الفرعونية، الإغريقية والرومانية والفارسية والهندية ليطلع على حقائق الأمور، وليستند في بحثه على شيء من الوثائق والآثار الموجودة فعلاً في المدن التاريخية، وعلى مسار ضفاف الأنهر العظيمة مثل دجلة والفرات والنيل والأردن وكارون وغيرها، وعلى هذه الضفاف بنيت الحضارات وازدهرت الأفكار ونشأت الأديان.

عبر كل العصور والناس تؤمن بوجود قوى روحية أو روحانية أكبر من قدرات البشر، وهذه القوى لا يستطيعون لمسها أو رؤيتها، ولكنهم آمنوا بهذه القوى باعتماد وجودهم على رضاها عنهم، فقدموا لها كما أسلفنا القرابين والأضاحي، وبنوا لها المعابد والهيكل، ووضعوا فيها التماثيل التي ترمز إلى هذه القوى الإلهية لأنهم أرادوا أن يحسوا بها ويروها ماثلة أمامهم، ويتقربون بها زلفى لهذه القوى الخارقة.

منذ اكتشاف السومريين للكتابة المسمارية، والفراعنة للكتابة الهيروغليفية في الألف الثالث قبل الميلاد تطورت الأفكار والمعتقدات لجميع الأقوام المحيطة،

ونمت الحلقات اللاحقة من البشرية حيث بدأ الناس يشعرون وبقوة أن هذا الكون يحكمه نظام، وأن هناك قوة خفية تتحكم فيه، ولابد من وجود خالق لهذا الكون العظيم، وذهبوا إلى مذاهب شتى وفق تطورهم الفكري في الخلق والتكوين، وأمنوا أن هناك كائنات خفية تتحكم في هذا الكون، وأن لها قدرات تفوق قدرات البشر، واعتقدوا أن هذه الكائنات تشبه البشر من حيث المأكل والمشرب والأسرة والزواج ولكنها خالدة... أي لا تموت، لأنها آلهة أعطت لنفسها الخلود، وعندما خلقت البشر أعطت لهم الوجد والشيخوخة والموت، واحتفظت بالحياة والخلود لها.

وبدائية آمن الناس بتعدد الآلهة، إلى أن استقر الأمر على التوحيد بالله واحد لا شريك له في سلطانه، وتعددت أسماؤه... ومن يتعمق بدراسة الدين الصابئي المندائي، ويطلع على الكتب الدينية، وخاصة كتابهم المنزل كنزا ربا الذي يؤكد على التوحيد، وأن آدم رأس السلالة البشرية وهو أول الموحدين، وهو أول أنبيائهم... ولكن الباحث سيصدم بحقيقة مرة، وهي كيف أن نبي الله آدم خلقه الله موحداً وزوجته وذريته ليعلم الناس الذين هم ذريته التوحيد بالله، ونحن نقول إن الدين تطور عبر الزمان كما تطور الإنسان.

بمعنى أن الإنسان لم يبدأ حياته عندما ظهرت السلالة البشرية موحداً بالله، والدلائل كثيرة، فهؤلاء السومريون والبابليون في الألف الثالث قبل الميلاد، وكذلك الفراعنة والإغريق والرومان اعتنقوا الأديان التوحيدية بعد هذا الزمان، فهل يا ترى الديانة المندائية كانت محصورة في منطقة محددة ولم يتعلم منهم الناس التوحيد، ولكن كل الناس أبناء آدم وحواء كما تدلنا الكتب الدينية التوحيدية، سؤال يحتاج إلى جواب شافي رغم التبريرات التي ساقتها لنا الكتب الدينية المندائية بتعدد مراحل نشوء الإنسان على الأرض، وكيف تغيرت (الدارات)، وكيف توزعت الأقوام بعد كارثة الطوفان العظيم وانحصر المندائيون في سلالة سام بن نوح.

هناك تشابه كبير في الخلق والتكوين عند الأديان التوحيدية ، مع اختلاف التسميات فإن الله جل جلاله يُذكر في كتاب الكنزا ربا للصابئة المندائيين باسم الحي (الحي العظيم) أو الهبي ربي ، وعند اليهود في التوراة باسم (يهوه) أو إيلوهيم باللفظ العبري ، وأحياناً (أيل) ولذلك نرى أسماء الملائكة تنتهي بـ"أيل"... مثل جبرائيل ، بمعنى رسول الله ، وعند المسلمين (الله) ، وعند المسيحيين (الرب) ، وكلها تعني الحي القيوم الله جل جلاله.

لنلاحظ أوجه التشابه تقول التوراة في البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله ترفرف فوق الماء ، وقال الله ليكن نوراً فكان نوراً ، وفصل بين النور والظلمة ودعا الله النور نهاراً والظلمة ليلاً ، وقال ليكن جلدًا فاصلاً بين مياه ومياه فكانت السماء ، إلى آخر القصة التي نتحدث عن الخلق والتكوين في ست أيام.

والأخوة المسيحيون يؤمنون بهذه القصة والتي تشبه إلى حد بعيد القصة البابلية حول الخلق.

أما الأخوة المسلمون فيذكر لنا القرآن الكريم في آياته البينات سورة هود: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)^١.

وفي سورة الأنبياء: (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)^٢.

أما الصابئة المندائيون وكما يذكر كتابهم المقدس الكنزا ربا نفس التعاليم...

بسم الحي العظيم

(قال ملك النور السامي قوله فكان كل شيء * نزل بثاهيل فرفع السماء وبسط الأرض وناذى ملائكة النار * وهبت الشمس ضياء وهبى القمر بهاء والنجوم

١- القرآن الكريم : سورة هود - الآية ٧

٢- القرآن الكريم : سورة الأنبياء - الآية ٣٠

سواء ورفعت كل إلى مدار * وتكونت العواصف والماء والنار * وتكونت الثمار والأعشاب والأشجار * وكون الحيوان الأليف والوحش الكاسر * ومن التراب والطين الأحمر والدم والمرارة ومن سر الكون جبل آدم وحواء... وحلت فيها نشمتنا بقدره ملك النور)... والحي مزكي.

(وقال الحي العظيم في علاه قوله فكان كل شيء وقال سبحانه لتبدأ بأمرى الحياة).

(وقال ربى ليسجد ملائكة النار لآدم... ولا يخالفون له قولاً ، فسجدوا إلا الشريد فقد أبى ، فأسره ربه أسراً).

(أنا الرسول الطاهر. أمرني ربى أن اذهب وناد آدم وحواء زوجة بصوت سنى (٥٤) علم آدم ليستنير قلبه (٥٥) وقومه ليستنير عقله وجنانه (٥٦) كن أنسا له أنت والملكان ، اللذان معك إلى العالم سيهبطان (٥٧) علمه وزوجه ، وذريته الحكمة كيلا يغويهم الشيطان (٥٨) علمهم الصلاة يقيمونها مسبحين لملك النور السامى ثلاث مرات في النهار ومرتين في الليل ، قل لهم اتخذوا لأنفسكم أزواجا وتناسلوا منكم ليزداد عددكم) - كنز ربا اليمين.

ثم تالت الوصايا على آدم وذريته...

وقال سبحانه : (لا تمجدوا الشمس والقمر * هو الله الذي أمر * فكان لهما ولهذه الكواكب هذا الضياء لكي ينبروا به الظلام * فإذا نادى الحي العظيم سقطت كلها في قرار بهيم).

ويصف لنا الكتاب المقدس للصابئة المندائيين عالم الظلام...

(إنا جعلنا الكون منازل وطبقات ، مكملات وخير مكملات ، وأوكلنا لكل طبقة حراسا ، ملائكة أجاسا ، فأما أرض النور ، فقد نبئنا فيها الأثريين ، وملائكة النور ، وزينناها بمصاييح تدور ، ووهبناها رياحا سارية ومياه جارية ، وعطرنها باللأريج ، وأنبئنا فيها من كل شيء بصيح ، وأما عالم الظلام ، عالم الشرور والآثام... فأرض مفعرة مسعورة ، دفعت إلى أقصى الجنوب ، بعيدا عن المعمورة).

هذه الصورة لعالم النور وعالم الظلام بمعنى السماوات والأرض قبل أن يعمر آدم وذريته الأرض بعد أن خلقها الله وازداد عددهم، أنزل عليهم كتبه المقدسة، وأوحى لأتباعه الصالحين ليعبدوا الله جل جلاله ، ويعيشون بنعمه وأرزاقه وينفذون وصاياه وتعاليمه التي أنزلها عليهم ، ولأننا نبحث في الموسوعة المندائية سوف أركز على الخلق والتكوين وفق مفاهيم الدين الصابئي المندائي: الخليفة عند المندائيين تبدأ بسر، حيث جاء في الكتاب المقدس (الكنز الربا):

(الثمر داخل الثمر والأثير داخل الأثير ، والوهماء العظيم ذو الوقار... منه كانت الأوعية العظيمة المنتشرة أضويتها ، الكثيرة أنوارها ، قبلها لم يكن أحد ، ثمار لا حدود لها وربوات لا حد لها ، طلعت من الثمر العظيم الذي لا حد له ، مسجة للوهماء العظيم ذي الوقار الحال بالأثير العظيم).

(ومن مانا العظيم ذي أثير الحياة العظيم ، صار يردنا العظيم الماء الجاري النقي لا حد له ولا عدد ، تقوم عليها الأشجار فرحة مبهجة ممثلة بالتسبيح... من يردنا العظيم بدأت الحياة وقومت نفسها مثلاً لمانا العظيم ، الله العقل الأعظم الذي منه انبثقت ومنه طلبها الأول طلبت فكان الملائكة الأثريون الذين لا عدد لهم ولا حدود).

حين جرى يردنا الحياة الثانية نشأة (خلق الملائكة الأثريون) كما خلق الماء الحي، الملائكة الأثريون طلبوا من الحي العظيم (الله) أن يهبهم شيئاً من ضوئه ونوره... لتتزل به تحت المياه الفاصلة فتهيئ عالمًا.

نزل الملاك هبيل زيوا بأمر من الحي العظيم وسيطر على العالم السفلي ، ثم نزل الملاك بناهيل وبمساعدة الملاك المبجل أبائر وبأمر من الحي العظيم فصلب الأرض ورفع السماء ، ومنحت الشمس ضياء والقمر نور والنجوم سناء، ووضعت كل في مدار، ثم أمر الحي العظيم بخلق آدم وحواء زوجة له. من الطين الأحمر (الصلصال) ومن الدم والمرارة وأسرار الكون خلق آدم وحواء وأولجت في جسديهما النشماثا (النفس) ، بأمر ملك النور العظيم ذي الوقار، وحل الثمر داخل الثمر العظيم وبأمره سبحانه كان أثير الضياء العظيم.

ومن الحرارة الحية كان النور وبقدرة ملك النور السامي (الله) صارت الحياة وصار الثمر العظيم ، وصار فيه يردنا ومن يردنا صار الماء البهيج ، ومن المياه الحية نحن الحياة صرنا ، وبعد أن صارت الحياة صار الظلام ، ثم صار العوز والنقصان... لا يوجد حد للنور وقد صار بوجود الحي العظيم ، الماء لا حد له وهو أقدم من الظلام ، كذلك الماء أقدم من الأثريين لكن الملائكة الأثريون أقدم من الظلام ، الخير أقدم من الشر ، الدفء الحي من الحرارة الأكلة أقدم ، أن الشر والعصيان والحرارة الأكلة والسحر والشعوذة رجس من بلد الظلام.

أمر الحي العظيم الملاك أبائر أن يذهب إلى المعمورة (الأرض) وبأمره تعالى تكثفت المياه العكرة وصارت يابسة ، ثم أمر أن ترفع السماء ، وأن تفجر الينابيع في الأرض لتجري المياه الحية سواقي وعيون وأنهار وبحار ، ثم أمر فخلق آدم وحواء وذريتهم ، ثم أمر أن تصدر ثلاثة أصوات :

- الصوت الأول تتكثف الأرض وتتبسط السماء.

- الصوت الثاني ترقرق الماء.

- بالصوت الثالث تنهض الأشجار وتطير الأطيوار وتسبح الأسماك في البحار وتمتلئ الأرض بالحيوان من جميع الألوان.

هناك إشارات ذات دلالة في كتاب الكنزا ربا نوجزها باختصار :

إن الحياة بدأت باتحاد الضوء والماء وبقدر الحي العظيم (الله) ، كما يشير الكتاب إلى نظرية التطور ، حيث يذكر لنا أنه كان هناك جفئات (حافظات بذور الحياة) في أعماق المياه ، وعندما تكونت التيارات المائية وتحركت هذه الجفئات التي فيها خلايا بدائية ، وبمرور ربوات (ملايين) من السنين تعقدت هذه الخلايا ، وكونت الحياة بكل أشكالها وألوانها.

نلاحظ من سياق المعلومات المتوفرة ، أن الحياة صارت وفق مفاهيم كثيرة منها أسطورية ومنها روحانية ومنها علمية ، ولكن الإيمان بالله جل جلاله وبقدراته

اللامحدودة يؤكد لنا أن الله جلت قدرته خلق كل شيء وبأمره كل شيء صار وهو موجود منذ الأزل ، وقد سبق الوجود فهو سرمدى ليس له بداية وأزلى ليس له نهاية.

طبعاً هناك نظريات علمية فيزيائية وكيميائية وكونية تشير إلى الانفجار العظيم الذي حدث في الكون والتي صورها لنا الكتاب المقدس الكنزا ربا بصورة رائعة حول ما حدث لحظة الانفجار الكوني العظيم: بسم الحي العظيم.

حينما كانت الثمرة العظيمة بداخل الثمرة العظيمة وحينما كان الأثير بداخل الأثير، وحينما كان مانا العظيم مكنون هناك ، ومنه تكونت المانات العظيمة انتشر بريقها وعظم نورها وما كان قبلها في الثمرة العظيمة شيء ، فانتشر نورها بلا حدود أسرع من انتشار الصور، وجل نورها من أن يوصف باللسان والذي كان وقت إذ في تلك الثمرة ثم تكون منها آلاف مؤلفة من الثمار بلا نهاية، وملايين من المواطن.

ذكرنا بإيجاز الخلق والتكوين وفق الميثولوجيا القديمة ، ونذكر بإيجاز الخلق والتكوين وفق المفهوم العلمي:

- الكون عموماً تكون قبل ١٣,٧ مليار سنة خلالها مر بثلاث مراحل، والجزء الغامض من هذه المراحل هو جزء من الثانية الأولى بعد الانفجار الذي كان فيها الكون شديد الحرارة.

ومع تطور العلم مازال الانفجار العظيم مبنياً على الحسابات والفرضيات ، الكون بدأ يتشكل بعد مرور ذلك الجزء من الثانية الأولى وبدأ يتطور، ففي هذه المرحلة التي تكون فيها أول البروتونات والإلكترونات والنيوترونات، وتكونت هذه أنوية وذرات ، ويتكون الهيدروجين المتعادل كهربائياً ظهر إشعاع الميكروني الكوني (الإشعاعات الكهرومغناطيسية) والذي يستطيع الخبراء قياسه اليوم بالأجهزة الحديثة وبعد تكون الهيدروجين بدأ يتجمع مكوناً نجوم ومجرات وكويزات وعناقيد من المجرات الكثيرة والهائلة وأجزاء وشظايا بالمليارات ،

كانت في البدء درجات الحرارة عالية جداً وبمرور الوقت بدأت هذه الحرارة العالية تنخفض شيء فشيء.

ينمو الكون بعد عدد من الثواني برحلة التأثير الضعيف الذي خلاله تنخفض درجة الحرارة بحيث تسمح لانفصال قوة الشد العالية (تأثر قوي عن قوى التأثير الكهرومغناطيسي والتأثر الضعيف) ، فيحصل الانتفاخ الكوني فيزداد حجم الكون عدة مرات، تتشكل خلالها جسيمات البناء الكوني الأولي، وتتحوّل بعض الفوتونات الهائلة العدد إلى جسيمات غير مستقرة مثل الكوارونات وهادرونات ثقيلة... بعد مرحلة الانتفاخ (التوسع الكوني) ترتفع نسبياً درجة الحرارة وبعد أن كانت جميع القوى متحدة تبدأ الانفصال عن بعضها إلى قوة جاذبية وقوة عالية وقوة كهرومغناطيسية وغيرها من القوى غير المعروفة، فيمتلئ الكون بالإشعاع والكوارونات والإلكترونات والنيوترونات ، ثم تبدأ مرحلة تكون الكوارونات ومرحلة الهادرونات ومرحلة الليبتونات ومرحلة الفوتونات بعدها.

تنخفض درجات الحرارة بحيث يمكن للذرات أن تتكون وتبدأ البروتونات تتحد مع النيوترونات بواسطة الاندماج النووي، فتتكون كتلة الهيدروجين بنسبة ثلاثة أضعاف ما تكون في الهيليوم مع وجود عناصر أخرى مثل الليثيوم.

إن بعد تكون كتلة الهيدروجين والهيليوم تستمر كثافة الكون بالانخفاض بسبب تمدد الكون ، وعندما تنفصل الفوتونات يصبح الكون شفافاً بعد أن كان مظلماً معتماً، بعدها تبدأ المجرات البدائية بالتكون من تجمعات النجوم أو أشباه النجوم في بداية تكوينها.

بعد اكتشاف وجود المادة المظلمة خلال القرن الماضي افتراضياً بالحسابات باعتبار أن المادة المرئية لا تستطيع وحدها تكوين المجرات، مازالت الدراسات والحسابات الرياضية مستمرة ومازال العلماء يحلمون بغزو الفضاء الخارجي بإرسال مركبات الفضاء والمسبارات والمراقبة بالتلسكوبات العملاقة ، والعلم الحديث قد توصل أن مقدار الطاقة Darkenergy ٧٢% وأن المادة المظلمة Darkmatter ٢٣% وأن المساحة المرئية مقدارها ٤,٦% فقط.

وهذا موضوع شائك ومعقد ويحتاج إلى شروحات طويلة وتركيز عالي ودراسة تخصصية لفهم ماهية الانفجار العظيم فيزيائياً بشكل واضح ومفهوم.

وهناك نظريات متعددة ظهرت حول الانفجار الكوني العظيم ونشوء الكون ، مثال ذلك النظرية النسبية للعالم أينشتاين ١٩١٥ ، ونظرية الانفجار الكوني التي تعود تأسيسها للعالمين الروسي ألكسندر فريدمان والبلجيكي جورج لوماتر ١٩٢٢ ، ونظرية التمدد الكوني للعالم أدوين هابل ، ونظرية الحالة الثابتة للكون (الكون اللامتناهي أو الخلق المستمر) للعلماء فريد هويل ، توماس غولد ، هيرمان يوندي ١٩٤٩ ، ونظرية الأكوان المتوازية (العالم هيو إيفريت) ونظرية العوالم المتعددة (الفيزيائي نيلز بور).

ولازال العلم والعلماء تشغلهم أمور فيزيائية واقعية وليست تخميناً ، لم يتوصلوا حتى الآن إلى حلها ، فنحن لازلنا لا نعرف ما هي المادة المظلمة ولا نعرف ما هي الطاقة المظلمة ولا نعرف كيف حدث الانفجار العظيم ؟ من لا شيء !! لا نعرف لماذا خلق البروتون في عالمنا بهذه الكتلة وبهذه الشحنة بالذات ؟.

وعلينا أن ندرك حقيقة ونقرها أن الدين المندائي دين روحاني خالص يؤمن بالروحانيات ويعتبر هذه الأئمة ألمه (عالم) مادية فانية... وأن الخلود في عالم الأنوار (الجنة) ولهذا فالصابئة المندائية لا توجد في مناديهم (معابدهم) صور أو تماثيل ولا يقدسون إنسان مهما علت مكانته ، ولا يؤمنون بالأولياء والأضرحة ولا يتشفعون بها ، حتى الأنبياء والمرسلين لهم يعتبرونهم معلمين ووعاظ ، ولكن عندما تنتهي أعمارهم ويعرجون إلى مشوني كشطة (عالم الحق) ويبدأون في الحياة الثانية الأبدية لأنهم لم يرتكبوا خطيئة خلال حياتهم في هذا العالم الفاني ، أي عندما تذهب النشمة (النفس) وتعود إلى الدموثة (المثيل) هنا يقدس اسم هذا النبي لأنه أصبح ملاك في عالم الحق وابتعد عن العوز والنقصان ، حيث لا أوجاع ولا شيخوخة ولا موت ثاني.

(كلهم لطفاء طيبون ، وحكماء صادقون ، لا إساءة فيهم ولا خداع بعضهم يدل في منازل بعض لا يخطئون ولا بعض إلى بعض يسيئون ، معززون مكرمون ، كمثّل أهداب العين متشابهون نواياهم بعض لبعض مكشوفة ، وأخبار ما تقدم وما تأخر لديهم معروفة ، ينير بعضهم بعضاً ، ويعطر بعضهم بعضاً. ويمدون الكشطا بعضهم إلى بعض وهم بمشيئة الله خالدون ، لا زوال لهم ولا يشيخون ، ولا يتوجعون ولا يضعفون ، لا يجوعون ولا يعطشون ، ولا يخترون ولا يبرحون ، ولا يساء إليهم ولا يغضبون لا خبث في أشجارهم ، ولا مرارة في أثمارهم ، ولا ذبول في أزهارهم مواقعهم سامية وبحارهم هادية ، ومياههم جارية ، شفافون كالبلور ، جميعهم خاشعون ، للحي العظيم مسبحون). الكنز الربا اليمين (التوحيد).

وبعد أن اطلعنا وأخذنا فكرة سريعة عن الخلق والتكوين لدى الأديان الموحدة وغير الموحدة كروحانيات ومثولوجيات ، وتطرقنا بشيء من الإيجاز عن نظريات علمية مثل الانفجار الكبير ، الآن ندخل في صلب الموضوع ونبدأ بمناقشة موجزة عن الصابئة المندائيين بدءاً بالجذور والخلفيات اعتماداً على ما ورد في الكتب الدينية المندائية وعلى الموروث المندائي وما نقلته لنا بعض المصادر الأمينة على قلتها وندرتها ، وما كتبه لنا عدد من الباحثين المنصفين وخاصة المعاصرين الذين عايشوا المندائيين واطلعوا عن قرب على حقيقتهم وأصالتهم وعاداتهم وتقاليدهم وعقيدتهم التوحيدية...

ساعدني في ذلك انفتاح الصابئة المندائيين وترجمة كتبهم الدينية إلى اللغة العربية واللغة الإنجليزية ، وهناك محاولات تجري لترجمتها إلى لغات حية أخرى ، وظهور طبقة من المثقفين المندائيين الذين أعطوا أهمية لهذه البحوث ، واهتمام أصدقاء أبناء الطائفة من الكتاب والباحثين ، وتطور عدد من رجال الدين الأفاضل وحصولهم على شهادات أكاديمية عليا ، وكثرت الإصدارات المندائية على محدوديتها بالمقارنة بين الماضي والحاضر...

كل هذا سهل على الباحثين والكتّاب المعاصرين المنصفين أصحاب الضمائر الحية التقرب من الحقيقة ، فجاءت كثير من بحوثهم صادقة أمينة قريبة من

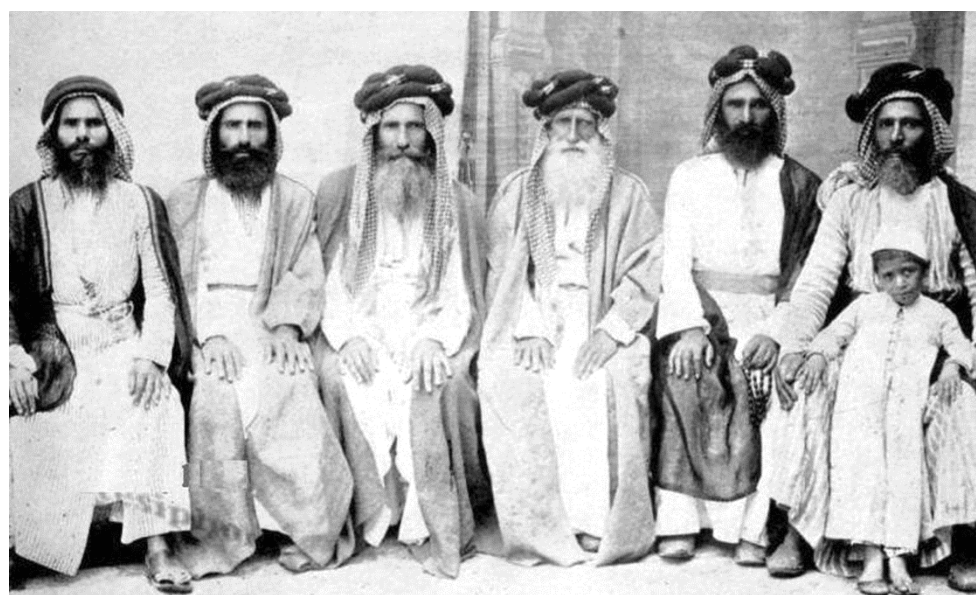
الحقيقة، ولكن يظل ابن الطائفة الباحث المثقف هو الأقرب لشعوره وإحساسه ومعاشته الواقع العملي للحياة المندائية وإطلاعه وفهمه للنصوص الدينية لأنها جزء من حياته اليومية يعيشها بكل جوارحه وقلبه، ونقول شكرًا للحي العظيم أصبح لدينا اليوم عدد لا يستهان به من الأساتذة المتخصصين في هذا الدين التوحيدي القديم قدم الحياة.

الفصل الثاني

الموسوعة المندائية

الصابئة المندائيون دائرة معلومات موجزة

- البحث الأول : جذور الصابئة المندائيين.
- البحث الثاني : أصل التسمية ، منشأهم ، معاشهم ، تشكيلاتهم
- البحث الثالث : أركان الدين المندائي ، الكتب الدينية المهمة.
- البحث الرابع : أنبياء الصابئة المندائيين.



البحث الأول

جذور الصابئة المندائيين

يؤمن الصابئة المندائيون أنهم جذر التوحيد الأول ، وأنهم أول من سبَّح الحي العظيم (الله جل جلاله) وعظَّمه ، وأن آدم (ع) رأس السلالة البشرية خلُق مندائيًا، ونزل قسم من الصحف الأولى التي تدعوه وذريته إلى التوحيد وتعلمه الوصايا، وسميت صحف آدم.

كما يؤمنون أن عالم الأنوار (الجنة) عالم مندائي ، وأن الملائكة الأثريين مندائيون وملتزمون بوصايا هبي ربي قدامي (الحي القديم) المدونة بالكنزا ربا (الكنز العظيم)، وأن بوابة الجنة جهة الشمال ، يُستدل عليها بالنجم القطبي في قديم الزمان ، وأن سادن الجنة ملاك يسمى أبائر (أواثر)، وأن الخلق والتكوين تمَّ بأمر من الحي العظيم، ونَفَذَ ما يخص العالم الأرضي الملاك أبائر والملاك بئاهيل، وأكمل المهمة الملاك الباسل هبيل زيوأ بعد أن سيطر على أرض تبيل (هذه الآلة) وخلصها من الجبارة والمردة، ومن مسوخ الظلام.

وقد عاشوا مع السومريين والبابليين وأثروا فيهم وفي معتقداتهم، وظهر إبراهيم الخليل أبو الأنبياء في أور فأتبعه خلق منهم واختلف معه بعضهم بسبب مرضه واختنانه ، فهاجر إلى حران ومعه عدد منهم ، واختلفوا مع أهل حران بسبب انشغالهم بمتابعة الكواكب والنجوم فهاجروا إلى أورشليم ، وما لبثوا فهاجروا إلى أرض الكنانة، يعطينا دلالة تاريخية حول جذرهم وامتداد أصولهم.

كذلك كان لهم وجود في الجزيرة العربية ، وكانوا يدعون إلى التوحيد بالله ، ومنهم زهير ابن أبي سلمى، وورقة بن نوفل ، وطرفة بن العبد، وأمّية بن أبي صلت، وقُس بن ساعدة الأيادي خطيب العرب المشهور، وزيد بن عمرو بن نفيل، وكذلك الشخصية المعروفة سليمان الفارسي في بداية ظهور الإسلام... وغيرهم الكثيرون ، وأن عددًا من الباحثين يسموهم الأحناف أتباع نبي الله إبراهيم الخليل والله أعلم.

انتشر المندائيون في بطائح العراق وسموهم صابئة البطائح ، وأسسوا حضارة في حران فسموهم صابئة حران.

إن أقدم كلمة للصابئة وردت باللغة العربية وردت قبل الإسلام وذكرت في القرآن الكريم ، وفي ثلاث آيات بينات ، والكتب الدينية المندائية تؤكد تسميتهم بالمندائيين ، أهل الكشطا (أهل الحق) ، أبناء النور وأسماء أخرى كصفات لهم... وعموماً كان عرب الجزيرة على معرفة بالمندائيين وبالديانات التوحيدية الأخرى ، مثل اليهودية والمسيحية ، وعموماً إن الهجرة تعني أساساً هجرة الجماعات والقبائل بحثاً عن حياة أفضل ومناخ أفضل وخير أكثر وماء أوفر ، وأحياناً تهاجر الأفكار والعقائد الدينية لأرض خصبة تتقبلها وتنمو وتتبعش بها كما ينتعش الزرع إذا تهيأت له ظروف الإنبات الصحيحة ، فمثلاً يقول بعض الباحثين عندما هاجر نبي الله إبراهيم الخليل مع عدد من الذين تبعوه إلى أرض الكنانة حيث انتشر الدين المندائي هناك ، والغريب بالأمر أن عدداً من الباحثين يعتبرون نبي الله إبراهيم الخليل شخصية أسطورية لا وجود لها ، فيا ترى هل هاجرت الأفكار والعقائد دون الناس ؟ وهل وصلت عقيدة التوحيد إلى مصر الفراعنة في زمن إخناتون الملك فتبنى هذه العقيدة أم ماذا؟!.

والحقيقة أن كلمة صابئة سبقت القرآن الكريم والدعوة المحمدية ، وكانت متداولة في الجزيرة العربية قبل الإسلام ولها مدلولاتها لا كما يذكر عدد من الباحثين أنها وردت أول مرة في القرآن الكريم ، وهذه دراسة بعنوان (الاستقرار والتغيير في طائفة الصابئة المندائيين) من رسالة ماجستير للباحث صادق شهيد الطائي ، من إعداد الأستاذ طارق بركات الرومي ، حيث جاء فيه : تبدأ الرسالة بآيات من سور القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر الصابئة وهي : سورة المائدة الآية (٦٩) ، وسورة البقرة آية (٦٢).

تحديد معنى الصابئة :

أشارت الدراسات المندائية إلى أن أقدم ورود لكلمة الصابئة باللغة العربية جاء موثقاً في عدد من الآيات في القرآن الكريم، وتشير بعض الدراسات التاريخية إلى أن العرب قبل الإسلام كانوا على معرفة بالديانات اليهودية والمسيحية والصابئة، وكان الصحابي الجليل (سلمان الفارسي) مندائياً قبل الإسلام كما يؤكد ذلك المستشرق لوي ماسينيون (سلمان الفارسي والبواكير الروحية للإسلام في إيران - باريس ١٩٣٤ - ترجمة عبد الرحمن بدوي).

وعندما نتفحص كلمة (صابئة) لا نجد لها مدلولاً تاريخياً دقيقاً يدل على الطائفة الدينية الموجودة في العراق وإيران، وهم يعرفون أنفسهم بأنهم (مندائيون) وكلمة (صبا) الآرامية واشتقاقاتها تعني التعميد أو التطهير بالماء كشعيرة دينية أساسية من شعائر المندائيين، وهم يطلقون على هذه الشعيرة في استعمالهم اليومية كلمة (صباغة)، وتشير السيدة (دراور) إلى معنى رمزي لهذه الكلمة وهي أن المتعمد يدخل إلى (الماء الحي) أسود مرتكب للذنوب ويخرج أبيض متطهر من ذنوبه^١.

إذ يقول المندائي عندما يتطهر بالماء (صبيبت بمصبوتا أد بهرام ربا) أي اصطبغت أو تعمدت بمعمودية الملاك بهرام الرباني، وكذلك نقرأ في الكتابات الدينية المندائية مصدر الكلمة بالشكل (مصبوتا) بمعنى صباغة أو تعميد و(مصطبا) بمعنى الشخص المصطبغ أو المتعمد على الطريقة المندائية^٢، وإذا أردنا أن نتبع تاريخياً وجود أو ظهور هذه الطائفة فستواجهنا مجموعة صعوبات؛ أولها انعدام الأبحاث والتنقيبات لمناطق تواجد الطائفة، أي منطقة الأهوار في دلتا دجلة والفرات جنوب العراق، وتحولاتها المستمرة بسبب الفيضانات وتغير مسار الأنهار وتغير مواقع القرى تبعاً لذلك، أما الصعوبة التاريخية فتكمن في طبيعة الديانة السرية وانغلاقها، واعتبار الطقوس والحياة

١ - الليدي روارد، الصابئة المندائية، نويرجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي - بغداد ١٩٨٧.

٢ - البالالا والمالالا الألماني ماكاش رودولف المندائي الشيد، برلين ١٩٦٥.

الدينية والكتب المقدسة أسرار لا يجوز إباحتها للآخرين خوفاً من خروج هذه الأسرار المقدسة لمن لا يقدر قيمتها.

كذلك نلاحظ في معاجم اللغة أن معنى (صبا) هو: (تغير، تحول، انقلب، عاد)، ولهذا نجد أنه ثمة علاقة بين مصطلح (صابئي) الذي أُطلق على النبي محمد (ص) ومحتوى تعاليمه، فلقد أكد (عبد الرحمن بن زياد) أنه: أطلق المشركون على النبي وجماعته لقب (الصابئين) مقارنة بالصابئة الذين يذكرون (لا إله إلا رب واحد)^١.

إن العالم (بيل) يميل إلى الاعتقاد أن كلمة (صابئي) لا تستخدم أو تطلق إلا على صابئة (جنوب العراق) حصرياً، أما أقوى الآراء فهو رأي العلماء الغربيين مثل (ويلهاوزن جولسون والليدي دراور) الذين يرون أن الفعل المندائي صب sb يعني (تعمد، غمس)، و(الصابئون) باللغة الآرامية تعني المغتسلة.

إن النظرية الأكثر شيوعاً عن الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم هي التي اقترحها العالمان (والك) في القرن التاسع عشر وأيدها العديد من الأساتذة في القرن العشرين أمثال (كريلنغ) و(الليدي دراور) و(بوك)، تفيد أن مصطلح (الصابئون) الوارد ذكره في القرآن الكريم يشير إلى مندائيي إيران والعراق وذلك استناداً إلى أدلة تاريخية ذكرها العلماء العرب في القرون الوسطى، واعتماداً على أبحاث لغوية مقارنة حديثة... أما فيما يتعلق بمعتقداتهم وطقوسهم الخاصة فقد أثار (وهب بن منبه) و(عبد الرحمن بن يزيد) إلى أنهم يعتقدون بإله واحد، وأضاف الخليل بن أحمد الفراهيدي أنهم يعتقدون أنهم من أتباع النبي نوح (ع)، وهذا يتطابق مع رأي الحسن البصري وابن جريج وأبو الزناد الذي أضاف أنهم يؤمنون بالأنبياء السابقين ويصلون خمس مرات في اليوم، وصلاتهم باتجاه الشمال ويصومون ٣٢ يوم في السنة^٢.

١- س. كوندوز، معرفة الحياة (دراسة حول أصل الصابئة المندائيين) ترجمة د. سعدي السعدي - السويد ١٩٩٦.

٢- عدد أيام الصوم الصغير ٣٦ يوم، موزعة على أيام السنة، يمتنعون فيها عن أكل كل ما فيه رووهذ، حاك الصوم الكبير الأصوم، م ه العقل والقلب والضمير.

ويُعد المسعودي أول العلماء الذين وضعوا دراسة منهجية حول الصابئة عام ٨٣٢م ، ومع بدايات القرن العشرين بدأت تظهر دراسات أكثر عمق وكان الرائد فيها كتاب (مندائي) لعبد الحميد أفندي عباده ، وقد عده الباحثون أول كتاب يصدر بالعربية عن الطائفة ، وهو حصيلة حوار مباشر بين الباحث والشيخ الكنزبرا (دخيل بن عيدان بن داموك) رئيس الطائفة المندائية في العراق الساكن في مدينة الناصرية آنذاك في عام ١٩٢٥' ، وقد أعاد تحقيقه وقدم له الباحث العراقي د. رشيد الخيون.

ولقد سبقت هذا الكتاب مقالات الأب الموسوعي (أنستاس ماري الكرملّي) في مجلة (المشرق) ، وبحث الصابئة لنقولا السيوفي الذي كتبه بالفرنسية ونشرته مجلة البيان بالعربية عام ١٨٩٧م ، ثم صدر كتاب (عبد الرازق الحسني) (الصابئة قديماً وحديثاً) عام (١٩٣١م) الذي بقى مصدراً وحيداً للمعلومات عن الطائفة ، رغم ما فيه من أخطاء ومغالطات ، والتي رفع على أثرها (الشيخ دخيل بن عيدان) دعوى قضائية ضد المؤلف ، مفضلاً اتهاماته أن الصابئة غير موحدين ويعبدون النجوم.

لقد قرأ الشيخ دخيل في كتاب المندائيين المقدس (كنزا ربا) ردّاً على الحسني وترجمت الكلمات المقدسة لتثبيت أخطاء الحسني وبطلان آرائه ، وحكمت المحكمة بتعديل الطبعة وباعتذار المؤلف رسمياً من الطائفة ورئيسها.

أما مرحلة الستينات فقد كانت زاخرة بالانفتاح والإبداع لدى أبناء الطائفة أنفسهم ، فقد اشتغل الباحثان المندائيان الأستاذ نعيم بدوي ، والأستاذ غضبان الرومي على ترجمة كتاب الباحثة الإنجليزية الليدي دراوار (الصابئة المندائيون) ثم ترجموا الجزء الثاني منه تحت عنوان (أساطير وحكايات شعبية صابئية) ، كما برز دور الأستاذ غضبان الرومي في مؤلف مستقل حاول فيه تجاوز هفوات الليدي دراوار وأخطائها ، فأصدر كتابه (الصابئة بحث اجتماعي ديني تاريخي

١- عبد الحميد أفندي عبادة، (مندائي أو الصابئة الأقدمين) دار الحكمة - لندن.

عن الصابئة) عام ١٩٨٣م في بغداد، وأصدرت الأستاذة (ناجية المراني) كتابها (مفاهيم صابئية مندائية)، والأستاذ عبد الفتاح الزهيري كتابه (الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين)، وعليه فيمكننا أن نلاحظ أن أهم الدراسات عن الطائفة صار يكتبها أبناؤها بعد أن آمنوا بضرورة الانفتاح والتفاعل مع المجتمع، إذ ترجم د. صبيح مدلول كتاب (النشوء والخلق في النصوص المندائية) للمستشرق كورت رودولف في عام ١٩٩٣، وفي عام ١٩٩٦ كتب السياسي العراقي عزيز سباهي كتابه المهم (أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم) وقد قام الأستاذ أمين فصيل بجهد طيب في ترجمة العديد من النصوص الدينية من لغتها الأصلية إلى العربية.

إن أهم المصادر عن المندائية ما وجد في كتابي (الكنزا ربا) و(ديوان حران كويتا) الذي نقرأ فيه (حين كان المندائيون يسكنون القدس تعرضوا لمجازر من قبل اليهود مما دفعهم للهجرة نحو الشمال حيث التحقوا بإخوان لهم يسكنون جبال ميديا (طور أد ميديا)، وفي حران تحديداً استقروا، وكان ذلك قبل المسيح بحوالي القرن، وبعد وفاة النبي يحيى بحوالي سبعين سنة أعاد اليهود عداؤهم للباقيين من الصابئة المندائيين وهاجموهم بوحشية، فهجر الصابئة على أثرها أورشليم والتقوا بإخوانهم في الشمال والشرق وسكنوا أرض ميسان و(كره سيانه) أي نهر الكرخة في الأحواز حتى شيشتر ودسبول في إيران وكان ذلك في حوالي القرن الثاني الميلادي^١.

ومن دراستنا لطبيعة البيئة التي يعيش فيها المندائيون نجد أن ثمة علاقة واضحة بل تكاد تكون ملزمة بين البيئة وأفراد الطائفة في قربهم من مجاري المياه، إذ إن أفراد الطائفة كانوا وعلى مدى قرون يعيشون في مناطق وفيرة المياه هي جنوب دلتا دجلة والفرات لأن توفر المياه كان شرطاً واجباً للكثير من طقوسهم الدينية.

١- غضبان الرومي (مندائي) الصابئة - بغداد ١٩٨٣.

وعموماً الديانة المندائية كانت موجودة قبل تاريخ ظهور الديانات السماوية الثلاثة، والدين المندائي يعني معرفة الوجود والإيمان بوجود الله، القوة الخالقة للإنسان والأكوان، وتكوين صلة ما بين الإنسان وخالقه والتي كشفت عن نفسها للإنسان عن طريق الرسل والأنبياء المتعاقبين منذ آدم إلى يهيا يهانه (يحيى) عليه السلام.

وللدين المندائي مشوار طويل منذ القدم ومازال حتى الآن ماراً بكل الحضارات الإنسانية عبر التاريخ الإنساني، الدين المندائي منظومة كبيرة عملاً وفكراً، وتتركز على معرفة وجود الخالق والإيمان والتسليم لأمره، لأنه خالق كل شيء، وهو ينظم وبشكل جيد حاجة الإنسان المادية والروحية، والديانة المندائية ديانة توحيدية تؤمن بوجود إله واحد، تعبده وتسبحه وتؤمن بالأنبياء والرسل الذين بعثهم الله.

لقد اجتهد المستشرقون والباحثون الأوائل والمعاصرون لتوضيح كثير من جوانب هذه الديانة وأتباعها، ومنهم من أصاب ومنهم من خاب بسبب تكتّمهم وعدم نشر كتبهم وعدم البوح بأسرارهم وانزوائهم لفترات طويلة في أعماق الأهوار... تغير الحال وقام عدد من المستشرقين الأكفاء مثل المستشرق الألماني هيتزش بيترمان ونيقولا سيوفي وإيثيل دراور، ليدزبارسكي وكورت رودولف، وغيرهم بدراسة هذا الدين وأتباعه، ونشروا عدد من الكتب والبحوث والتراجم إلى اللغة الألمانية، وقليلاً إلى اللغة الإنجليزية ليتعرف عليهم العالم، ويطلع الباحثين وقد عرف الجميع أن كتابهم المقدس هو الكنزا ربا (الكنز العظيم) الذي ترجمه إلى الألمانية ليدزبارسكي، وفي نهاية التسعينات من هذا القرن ترجم إلى اللغة العربية.

يحتوي الكتاب المقدس على جميع صحف الأنبياء (آدم، شيتل، سام، يهيا يهانه) مباركة أسماؤهم، وكذلك يحتوي على الأسفار المتعلقة بخلق الله جلّت قدرته للعالم النورانية والأكوان والأرض، وتاريخ شرعة الحياة الفطرية في معرفة

البشر للحي العظيم ، ومجموع النبوءات عما سيحدث في الأكوان منذ خلقها حتى قيام الساعة ، كذلك يحتوي على الشرائع الإلهية والتعاليم الروحية والنصائح الدينية والأدبية التي تناسي البشر في كل زمان ومكان ، مدونة بأسلوب أدبي راقى نثرًا وشعرًا وتاريخ وقصص وحكم وأدب راقى.

وهذا الكتاب إلى وقت قريب كان حكرًا على رجال الدين يتكتمون عليه ، ولا يبوحون بأسرارهم وبما ورد فيه إلى فيما بينهم. في العصر الحديث تطورت الأمور ومسك زمام المبادرة المثقفين ، وقاموا بحركة ثقافية ولو أنها كانت محدودة ، ولكن تمكنوا من ترجمة عدد من الكتب الدينية ترجمة عربية سليمة ، وألفوا عدد من الكتب ، واستفادوا مما كتبه المستشرقين الأوائل والمعاصرين ، وميزوا بين الغث والسمين ، وتركوا الضعيف وركزوا على الصحيح ، والآن أصبح الباحث المندائي يستطيع أن يجد شيء من المصادر يستند عليها في بحوثه ، والمستقبل ولاد بكفاءات مندائية ، وبعدد من الباحثين الأكفاء ، خاصة بعد أن بادرت عدد من الجامعات في العالم بتدريس هذا الدين وإنشاء أقسام متخصصة للدراسة المتقدمة ، ومنح الدارسين شهادات الماجستير والدكتوراه ، وأرى من الضروري الإطلاع وأخذ فكرة عما ورد في كتاب الباحث العراقي المقتر الدكتور خزعل الماجدي المعنون (جذور الصابئة المندائيين) لغرض الوقوف على آراء المحدثين من الباحثين العراقيين المنصفين ، حيث جاء فيه :

لقد جاء ازدياد إطلاعي على الدراسات والكتب الموسعة حول هذه الديانة في اللغات الأجنبية ، وعرفت الكثير من خفاياها ، وتعززت نظرتي السابقة لأصولها الرافدية ، فقد توغلت في أعماق نصوصها الدينية والأدبية وتجلت لي يومًا بعد آخر صورتها الحقيقية وأدركت أن المندائية هي آخر الصفحات المشرقة لحضارة وادي الرافدين قبل الإسلام ، لكن جذورها الثقافية كانت تمتد إلى ما قبل السومريين ، رغم أن الدراسات الأجنبية تتحاشى البحث في هذه الجذور وتحاول زرعها في أماكن أخرى غير وادي الرافدين !!

لن أبلغ إذا قلت إن التراث المندائي هو أول وآخر تراث رافديني أصيل ، فقد بدأت به الحضارة الرافدينية مع الشعب الناصوري الذي أسس مدينة (أريدو) وقد اخترق التاريخ منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، بصمت وبصعوبة بالغة منفياً هناك على حافات الأهوار وعند فم الخليج حتى تمّ تدوين أصوله الشفاهية في القرون الميلادية الأولى باللغة المندائية (التي أصبحت لغته في الألف الأول قبل الميلاد) ووضع هذه الأصول في مخطوطات كثيرة ، فقد بعضها وتناوب على إدامتها نساخ عظماء أوصلوها بأعجوبة إلى العصر الحديث.

كان إطلاعي على التراث السومري والآكدي والآشوري والبابلي قد زودني بعدة جيدة للخوض في مغاور الديانة المندائية ، فقد أضاء لي هذا التراث الكثير من جوانب هذه الديانة التي كان إغواؤها لا يقاوم ، فهي تحمل من جهة ذلك التراث بكل أطيافه وتحمل في الوقت عينه لوناً جديداً هو نواة التوحيد التي تنفرد بها المندائية دون غيرها من صفحات وادي الرافدين.

كان هناك هاجس قوي يدفعني للقول دائماً إن جذور التوحيد الأساسية موجودة في وادي الرافدين لكنني كنت أفترق إلى الأدلة التي تؤكد ذلك ، حتى اطلعت بعمق على هذه الديانة ، فتأكد ظني تماماً حيث أدركت أنها كانت ديانة التوحيد السرية في وادي الرافدين والتي تبلور التوحيد فيها في منتصف الألف الأول قبل الميلاد ، وظلت تنمو تحت العقائد الدينية متعددة الآلهة لكنها لم تستطع تقويضها لأنها ديانة مسالمة ومحدودة الانتشار ، فظهرت ببطء إلى العلن بعد سقوط بابل وتعرف عليها اليهود والفرس والإغريق وأخذوا منها ، وسرعان ما أصبحت المندائية التي ترجمها الإغريق بصيغة مصطلح الغنوصية سمة العصر الهلنستي الدينية ثم الفلسفية ، أما أهلها المساكين فكانوا يزدادون عزلة وفقر قرب الأهوار في جنوب العراق.

لقد أعطت المندائية الروح للغنوصية التي أنعشت الفكر الهلنستي ، وهي أعظم فترة اختلاط للعقائد العالية ، لكنها لم تذكر بخير ولم يلتفت أحد إلى أهلها ولم

ينصفهم التاريخ، بل إن اليهودية ثم المسيحية تدينان بالكثير لها، لكنها طويت في ثناياها وضاع إرثها فيهما... هكذا تبددت روح المندائية بصمت في عقائد الهيلنستية والتوحيدية وازدادت هذه الديانة عزلة وغموضاً منذ ذلك اليوم وحتى وقت قريب.

ورغم أن علماء الأديان واللغات السامية بحثوا فيها وسلطوا الضوء عليها ولفقوا الانتباه لها، لكن خلفياتهم التوراتية والإنجيلية لعبت دور كبير في محاولة إرجار هذه الديانة إلى جذور يهودية ومسيحية باعتبارها فرقة هرطقية منهما نبتت في أرضهما فلسطين والأردن، ثم رحلت إلى وادي الرافدين في القرون الميلادية الأولى وقد ساهم هذا في إعادة تضبيب وتمويه أصول هذه الديانة وأهميتها.

أعتقد أن الوقت قد حان لوضع دراسات علمية دقيقة ومقارنة لسبر أغوار المندائية في لغتها وديانها وأصولها الأنثروبولوجية دون أية خلفيات أو دوافع دينية أو أيولوجية؛ بل بدافع علمي محض، وهو ما سيعطي لهذه الديانة مكانتها الحقيقية.

لقد كان إغواء الأساطير المندائية قياساً لأبحاثي في هذه الديانة هو الأقوى، فقد دأبت على جمع وتبويب وتصنيف هذه الأساطير في مجاميع متجانسة، ثم بدأت بتحليلها وفق الآليات العلمية المتبعة في علم الأساطير (الميثولوجيا)، ومن هنا كانت فكرة الكتاب.

تختلف الأساطير المندائية عن أساطير العالم القديم وعن أساطير بيئتها القديمة في وادي الرافدين، فهي منطقة وسطى وحلقة صلة ما بين تلك الأساطير والأساطير الغنوصية في شكلها الهيلنستي، إنها أساطير غنوصية نية لم تطبخها حرارة التحولات الجديدة في العالم القديم، بعد أن حرك مياهه الراكدة غزو الإسكندر المقدوني للشرق عم ٣٣٤ ق.م، في حين أصبحت الأساطير الغنوصية ناضجة أو صلبة في القرنين الأول والثاني الميلاديين، أما الأساطير

المندائية فقد احتفظت ببراءتها وعفويتها وظلت هكذا حتى يومنا هذا ، ولذلك نرى أن دراسة الأساطير المندائية بعمق أمر لا بد منه لفهم الأساطير الغنوصية وتحولاتها.

ظهر الاهتمام بالأساطير المندائية مع مؤلفات الليدي دراور التي ترجمت بعض الكتب المندائية التي تضم هذه الأساطير وعلقت عليها تعليقات بسيطة مثل (آدم الخفي ، حران كوئيا وتعميد هيبيل زيوا ، تتويج شيشلام ربا) لكن كتابها (أساطير وحكايات) الذي يشكل الجزء الثاني من كتابها (الصابئة المندايون في العراق وإيران) الصادر عام ١٩٧٣ كان هو أول كتاب أساسي في هذا المجال ، والذي ترجمه كل من (نعيم بدوي وغضبان الرومي) ، لكن هذا الكتاب لا يعد كتاب أساطير بالمعنى الحقيقي للكلمة لأن عيوبه معروفة ، فهو ليس بالكتاب التحليلي بل هو مجرد سرد للأساطير الشعبية المندائية على لسان رجل صابئي اسمه (هرمز بن الملا خضر) وهي حكايات شعبية شفاهية فقد بعضها أصله الأسطوري وتحولت إلى نوع من الحكايات المشوشة الذاكرة ، وهي مع ذلك مفيدة ولكننا لا نضعها في حقل الميثولوجيا نصوص أو دراسة.

المحاولة الوحيدة الجادة هي كتاب كورت رودولف (خلق الآلهة والكون والإنسان في الديانة المندائية) الذي صدر بالألمانية عام ١٩٦٥ ، والذي ترجمه بإعداد وتصرف الدكتور صبيح مدلول السهيري ، والكتاب دراسة جيدة في حقلها لكنها لا تتناول إلا أساطير الخليفة وهو جزء من الأساطير وتهمل أساطير العمران وأساطير الخراب وأساطير الموت ، أي أن الكتاب يتناول الربع الأول من حقل الأساطير المندائية فقط.

إننا اليوم نقدم هنا في كتابنا هذا أول محاولة شاملة في تحليل ودراسة كل الأساطير المندائية من خلال علم الأساطير (الميثولوجيا) ، وسيعرف قارئ الكتاب حجم ونوع ما ذهبنا إليه من تقديم صورة شاملة للميثولوجيا المندائية بتبويب علمي دقيق وبملاحقة لكل التفاصيل وتحليل دقائقها الصغيرة وربطها

بأصولها الرافدينية القديمة ، ونحن نرى أن هناك انعكاسات متبادلة بينها وبين أساطير الأديان الأخرى كالبارسية والزرادشتية والأساطير الغنوصية مررنا عليها حيثما استدعت الضرورة ذلك .

يبحث الفصل الأول من الكتاب في التعريف بالصابئة المندائيين ويتبع أصلهم وتاريخهم من عدة جهات نظر ، فيبدأ بوجهة نظر المندائيين أنفسهم وكيف ينظرون إلى أصلهم وتاريخهم من خلال كتبهم المقدسة والتاريخية مثل (كنزا ربا ودراسة إديها وكتاب حران كوئيا) ، ويؤشر الأماكن والأحداث التي سطوروا فيها تاريخهم وشطحوا فيها بخيالهم متأثرين بروايات التوراة بشكل خاص ، ثم يطرح الفصل وجهة نظر العلماء العرب المسلمين في القرون الوسطى بين القرنين السابع والثاني عشر الميلاديين وما شاب رواياتهم من مغالطات وتعميمات خاطئة ، ثم نطرح وجهة نظرنا الخاصة حول أصلهم وتاريخهم . وكذلك بحثنا في هذا الفصل الأسطورة والميثولوجيا وتصنيف الأساطير لكي نعرف القارئ بهذا الحقل وعمله ومررنا على أساطير وادي الرافدين ثم الأساطير المندائية وعلاقتها بها وبالأساطير الغنوصية ، أي أن هذا الفصل هو فصل تمهيدي للدخول في موضوعنا الرئيسي .

الفصل الثاني يتناول القسم الأول من الأساطير المندائية وهي أساطير الخليقة (التكوين) التي تشمل (الثيوغونيا) وهو نشوء الآلهة والكائنات الإلهية من نورانية وظلامية وأرضية ، وقسمناها إلى عدة حقول عن الحي العظيم و(كائنات النور) و(كائنات الظلام) و(خلق الإنسان) بدوراته الأربعة منذ آدم وحتى فناء الأرض القادم بالريح .

وقد وضعنا لهذا الحقل آليات تحليل جديدة حيث حاولنا الإمساك بالإيقاع المشترك لكل هذه الكائنات عبر سلاسل ودوائر ثيوغونية دقيقة كشفت لنا الكثير من أسرار تلك الكائنات وأضاءت فهمنا لأساطيرنا التي سنتناولها .

أما أساطير خلق الكون (الكوزموغونيا) فقد تناولت خلق عالم النور وكائناته ، وقد شملت مجموعة من أساطير كائنات هذا العالم في أربع دورات خلقية هي الحياة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة وأسطورة نزول مندا إِد هِيي إلى عالم الظلام ، ثم أسطورة نزول هيبيل زيوا إلى هناك.

وتناولنا بالبحث والتحليل أساطير خلق عالم الظلام وعالم الأرض وكائناتهما في أربع دورات خلقية هي الأخرى ، وفي خلق الإنسان (الانثروبوغونيا) تناولنا خليفة آدم بغرا (الجسدي) وآدم كاسيا (الخفي) وخلق حواء (بغرا وكاسيا) وولادة أبنائهما وانتقام مندا إِد هِيي من كائنات الظلام التي تحيط بهم.

وفي الفصل الثالث تناولنا أساطير العمران في عوالم النور والظلام والأرض والإنسان حيث تمّ إتقان هذه العوالم وظهور مصائرها وقوانينها في عدد من أساطير هذه الكائنات مثل (نطفتا، هيبيل زيوا، يوشامن، أبائر، بثاهيل، لكوشطا، شهلون، شلمي).

وظهرت أساطير عالم الظلام في إتقان عالم الكواكب وأبراجها وتحديد وظائفها وكائناتها ، أما أساطير الأرض والإنسان فتجلى في معرفة الأسرار والعناصر ونزول الماء الحي إلى الأرض وتعليم الناس المعرفة والتذكير بالحساب والنظام ونزول سام زيوا ويوخابر كوشطا إلى الأرض... إلخ.

في الفصل الرابع تناولنا أساطير الخراب حيث تبدأ عناصر العمران بالتفكك تمهيداً للزوال وينطبق هذا على العالم المخلوق لاحقاً والذي تدب فيه الحياة الدنيوية مثل الأرض والإنسان ، رغم أنه يطال شيئاً من عالم الظلام المهترئ أصلاً لكن الخراب ثم الموت لا ينالان العالم الأزلي الذي هو عالم النور والخلود.

لقد اهتز عالم الظلام بدءاً منذ نزل إليه الأثري العظام وقد ساء أمر الكواكب والأبراج إلى الدرجة التي بدأت فيها بجعل الشر منهجاً أساسياً لها ، أما خراب الأرض فقد تجسد في أسطورتها هجوم مندا إِد هِيي وابن نباط ربا عليها ،

وظهر الخراب البشري في انحراف الناصورائيين (وهم النخبة المندائية) وظهر نداء الحياة لهم ونصائح الأثري العظام وتكررت صيحات النذير وتحذيرات مندا إدهبي، لقد انحرف الإنسان عن النهج الإلهي الذي خطط له.

في الفصل الخامس تناولنا أساطير الموت أو النهاية، وهي أساطير مشوقة جدًا في الديانة المندائية، فقد تحدثنا أولاً عن ميثولوجيا الموت والآخرة والخلاص وبحثنا في طبيعة كل من هذه المفردات وفيما إذا كان هناك حساب وعقاب وثواب وجنة ونار وحشر وفناء عند المندائيين.

أما أساطير الزمان الكبير وأدوار العالم المتجسدة في العود الأبدي ثم الفناء في المندائية فكانت لنا وقفة طويلة جدًا معها فقد فصلنا ميثولوجيا الأدوار الأربعة للخلقة وتوقفنا عند الدور الرابع ومن ظهر فيه من الأسماء الكبيرة التي شكلت علامات مهمة في تاريخ المندائية والعالم، ثم أتينا على أسطورة الفناء المندائية التي يرتفع في نهايتها كل من يوشامن وأبائر وبثاهيل إلى عالم النور رغم خطاياهم التي جرت على عام النور كل هذه المتاعب، تمهيدًا لنهاية العالم والفناء الأخير له.

كذلك تناولنا جوهر الديانة المندائية الميتافيزيقي وهو دورة الروح (نشمتا) وتتبعنا مسيرتها من وإلى عالم النور والتي نرى أنها أساس الغنوصية بأكملها، وأخيرًا بحثنا نظريًا في أسطورة العود الأبدي والرحلات بين عالمي النور والظلام، وأخيرًا كشفنا فكرة العود الأبدي في الطقوس والشعائر المندائية وبشكل خاص في الأعياد المندائية.

كانت رحلتنا في هذا البحر الميثولوجي اللجي محفوفة بالمخاطر والمتع أيضًا فقد اطلعنا على واحدة من أعظم الرحلات الروحية للإنسان في التاريخ عبر هذا الدين الذي يمثل بحق واحد من الكنوز البشرية بسبب ما يعكسه من مرايا الإيمان والتطهير والمثالية والخوف والجمال والحب ومن الأغوار الميتافيزيقية لتجربة الإنسان في أكثر أشواطه حنينًا لعالم نوراني طهراني مثالي لا يُنال.

إننا نسجل بإعجاب تلك المجادلة الروحية الكبرى وذلك الشوق العنيف الذي لم يُتعب رجال هذا الدين الخصب، وتطلعهم الأبدي إلى عالم النور والحق والخير والجمال الذي أرادوا له أن يتحقق على الأرض ، وحين لم يتحقق ظلوا في ثبات أكيد على استلهم قيم هذا العالم رغم كل ما حصل من تبدلات في القيم والمفاهيم، إننا ندعو إلى المزيد من الاهتمام بهذه الديانة العريقة، وإلى البحث في كنوزها وعجائبها، فهي وإن انحدرت إلينا من أزمان سحيقة لكنها حاضرة اليوم بيننا في طائفة من أكثر طوائف الأرض سلاماً، وندعو للحفاظ على أبناء هذه الطائفة الذي يمثلون اليوم أصغر وأرق ديانة على وجه الأرض ، مثل سلالة نادرة من الزهور.

وتعقيباً على ما كتبه الباحث المقدر الدكتور خزعل الماجدي:

المناديون جذر التوحيد الأول، بمعنى أولى الأديان الموحدة في هذا الكون، وليس هناك دين على وجه الأرض ليس فيه ميثولوجيا (علم الأساطير)، فالدين اليهودي يعتبر يهوه وكأنه واحد منهم يكلمهم ويكلموه، ويسير معهم في النهار بهيئة عمود دخان وفي الليل بهيئة عمود نور، والفكر المسيحي أعطى للسيد المسيح صفة الإله وأحياء الموتى وشفاء المجازيم والمخلص من خطايا هذا العالم، والإسلام ذكر لنا في القرآن الكريم الإسراء والمعراج، أما الأديان غير التوحيدية فحدث ولا حرج.

ولكون المناديين أقوام مسالمة لا يؤمنون بالحرب والقتال؛ لم يؤسسوا جيشاً، ولم يبنوا لهم قوة، وإنما حفاظاً على حياتهم ودينهم انزروا متخفين في أعماق الأهوار، ومع هذا فكل الفرق والمذاهب والأديان تأثرت بهذا الدين وحجمته وأبعدته عن ميدان الانتشار، ورغم أن الباحثين الغربيين والشرقيين سلطوا بعض الضوء على هذا الديانة، ولكنهم فسروها وفق ما ورد في كتبهم المقدسة التوراة والإنجيل والقرآن لتأثرهم بديانته، مع هذا هناك من أنصف بحقهم، وهناك من أجحف ومع هذا كله تبقى الكتب المنادية التي حافظ عليها رجال

الدين عبر العصور ، ويبقى المندائيون أنفسهم من الكنوز ، بسبب ما تعكسه من التوحيد والإيمان والروحانيات ، وباختصار فإن الدين المندائي يؤمن بعالمين ؛ عالم النور وعالم الظلام ، وهما عالمان متضادان رغم سيطرة عالم النور على عالم الظلام.

وفي عالم النور انبعث ملك النور السامي الحي العظيم ، وقبله لم يكن من شيء ، وهو أبدي ليس له بداية وسرمدي ليس له نهاية ، يحيطه عدد عظيم من الملائكة المسبحين المعظمين لملكا دنهورا (ملك النور) ، كل الملائكة تعيش في عالم الأنوار ، وهؤلاء الملائكة يعيشون قرب المياه الجارية (اليردنا) في بيوت تسمى (شخنثا) يعبدون الخالق وينفذون أوامره وتعليماته ، ولهذا تجد الصابئة المندائيين في هذه الدنيا يفضلون العيش قرب الأنهار الجارية (اليردنا).

وبأمر من الحي العظيم خلقت هذه الملائكة... ولكن على مراحل :

- الحياة الثانية وتسمى مرحلة يوشامن (الملاك المبجل).

- الحياة الثالثة وتسمى مرحلة أبائر (ملاك أثري).

- الحياة الرابعة وتسمى مرحلة أبثاهيل (ملاك أثري).

وعندما بدأت السيطرة على عالم الظلام وأمر الحي العظيم بخلق العالم السفلي ، ظهرت بوادر الميل إلى الحياة المادية بسبب أن هذا العالم خلق من المياه الآسنة وبذلك خالفت عالم النور.

إن العلاقة الأزلية بين عالم النور وعالم الظلام علاقة عدائية لأن عالم الظلام فيه الروهة التي يعود لها الشر كله ، الشر الكامن عند الناس وعند الشياطين ، والوحوش الكاسرة وعلاقة عالم النور بعالم الظلام مثل علاقة النور بالظلام والخير بالشر.

أمر الحي العظيم في علاه بالسيطرة على عالم الظلام ، وخلق عالم نوراني تعيش فيه الملائكة ، لكن أولاد السلام أبناء الملاك يوشامن ومنهم الملاك أبائر استعجلوا الأمر فنادى الملاك أبائر له ابناً من المياه الآسنة (بثاهيل) ، فجاء

ناقص ضوء وناقص نور ، وعندما جُبل آدم وزوجته حواء وأنزلت لهم النشمتا (النسمة) من عالم النور ، وبسبب خطأ الملاك بثاهيل ، حُكم على الإنسان بالعوز والنقصان وبالتالي بالأوجاع والأمراض والشيخوخة والموت ، عوقب الملاك بثاهيل على خطأه هذا ولم يسمح له بالعودة إلى عالم الأنوار إلى نهاية الدنيا وقيام الساعة.

يعتبر الصابئة المندائيون أنفسهم ذرية آدم وحواء ، وأن لهم ارتباطاً روحي بعالم النور لأن النشمتا (النسمة) جلبت لآدم وحواء من العالم العلوي ، كل مندائي عندما يصور في رحم أمه تجلب له نشمتا من المثل (الشبيه) وهذا ملاك يعيش في عالم الحق (مشوني كسطه) ، وهذه النفس يجب أن تعود إلى هذا المثل بعد أن يموت الشخص وتنتهي حياته في هذا العالم ، بمعنى يعود إلى عالم الأنوار ليحيا حياة ثانية ، دون أمراض أو موت ثاني وهذا نوع من الخلاص يؤمن به المندائيون ، والخلاص للروح وليس للنفس ، لأن النفس قبس من الحي العظيم ، طاهرة نقية لا تحاسب ، إنما الروح هي التي تحاسب في محطات الحساب (المطراثي) على حسناتها وسيئاتها التي اقترفتها أثناء الحياة ، وتحاسب عند الملاك أبائر وتوزن بميزان شينل ابن آدم الذي لم يقترب ذنباً في حياته.

ولهذا المندائيون يعطون أهمية بالغة ، ويجب أن يكون المحتضر طاهراً نظيفاً ، يلبس الملابس البيضاء الدينية ، ليساعد ذلك النشمتا ويسهل عروجها إلى مشوني كسطا عالم الحق المتسامي ، وهذا عالم مثالي يقع بين عالم النور وعالم الظلام ، ويقع في الشمال العلوي القصي من الكون ، قريباً من عوالم النور ، وهو عالم الآدميين السماويين ، وهذا العالم وُجد لكي لا يكون هناك اتصال مباشر بين عالم النور وعالم الظلام ، ولغرض مساعدة النشمتا بالعروج يجب أن تقدم الصدقات للمحتاجين ، كذلك يجب أن يقدم طعام الغفران (اللوفاني) بالمناسبات الدينية خاصة.

والمندائيون عقلانيون فهم بعيدون عن التصوف والتنسك وتعذيب النفس ، كما هو الحال عند بعض العقائد الغنوصية ، وبنفس الوقت بعيدين عن القتل والكذب والفجور ، ويؤمنون بالزواج والإنجاب وخاصة رجال الدين .

الدين المندائي يوصي بقوة الإيمان بالله (الحي العظيم) الواحد الأحد الذي لا يشاركه ملكه أحد ، ويوصي بضرورة التعميد لطهارة النفس ، وهناك وصايا عديدة في الكتاب المقدس على الصابئي المندائي تطبيقها ، لأنها وصايا أخلاقية إنسانية أوصى بها الحي العظيم عباده وأنزلها على آدم رأس السلالة البشرية ، وضرورة ممارسة الشعائر والطقوس المندائية ، وخاصة الصوم الكبير ، صوم العقل والقلب والضمير .

ليس معرفة الله والإيمان بوجوده كافية لعروج النفس ، فعلى المندائي المؤمن أن ينفذ كل الوصايا التي أمر بها الحي العظيم ، وأنزلها على آدم بواسطة الملاك المبجل مندادهيي ، وعلى المندائي تطبيق الشعائر والطقوس بدقة عالية ، ومع هذا عليه تقع مسؤولية حب الناس مهما كان شكلهم ودينهم ولونهم ، وعليه خدمة المجتمع والإنسانية ، وتقديم كل ما هو نافع ومفيد للبشرية في هذه الدنيا خلال حياته ، لأن ذلك يحسب له حسنات تنفعه يوم الحساب .

فكرة عن كتاب أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية :

أرى من الضروري أن نأخذ فكرة عن كتاب الباحث المندائي المقتدر عزيز سباهي من خلال هذا الموجز عن أحوال المندائيين أيام زمان، وعن ما يتناولهم من تطور أكاديمي لديهم ومراكز بحث علمي لتوجيه هذا التطور...

إلى الشمال من القرنة ، حيث يلتقي دجلة بأحد مصبي نهر الفرات (المصب الآخر هو كرمة علي، ويصب في شط العرب مباشرة إلى الشمال من البصرة)؛ يجري نهر صغير ، والأصح مبزل صغير ، يدعى "السطيح" ، يأخذ مياهه من الأهوار التي توازي دجلة إلى الغرب ، ليصبها في نهر دجلة إلى الجنوب من ناحية العزيز ، وفي رأس البرزخ الضيق الذي تحيط به الأهوار من كل جانب تقع قرية صغيرة تدعى السطيح أيضاً ، وكما هو شأن قرى ميسان الصغيرة الأخرى ، كانت الأكواخ المبنية من القصب والبردي تحتشد في السطيح دون انتظام في بقعة صغيرة من الأرض.

وعند الركن الشمالي من القرية (أو السلف كما يدعونها في ميسان) كان ينفرد كوخ صغير على ضفة نهر دجلة ، منعزلاً عن أكواخ الفلاحين الأخرى ، كان المارة الذين يسرون بمحاذاة النهر صوب ناحية العزيز أو القادمين منها ، يلقون نظرة على رجل ربع القامة ، ذي لحية كثة ، وهو ينحني على هيكل من الخشب ليصنع منه قارب صغير لواحد من صيادي القرية ، كان من عادة المارة أن يلقوا التحية على نمير ، وكان هذا هو اسمه ، فيرفع رأسه ليرد التحية مشفوعة بابتسامة ، وربما أردفها بسؤال عن صحة المارة أو أولاده ، ثم ينصرف ليتابع عمله على هيكل القارب.

وكان (السيباط) (أو الصوباط كما يدعونه هناك ، وهو سقيفة من القصب) الذي اتخذه نمير مشغلاً له ، ينفث على كل الجهات ، محاذي لكوخه ، كان ينصرف إلى عمله هناك طوال النهار ، حتى إذا جن الليل ، انحدر إلى نهر دجلة وقرص عند حافة النهر وراح يغسل جبهته وأنفه وأذنيه وفمه وما تحت إبطيه بالماء ،

وهو يرطن بلغة خاصة لا يفهمها السامعون ، فإذا فرغ من ذلك ، انتصب ويمم وجهه صوب الشمال وشرع يتلو بذات اللغة نص حفظه عن ظهر قلب دون أن يفقه ما يعنيه هذا النص ، ليأوي بعد ذلك إلى كوخه... وفي اليوم التالي ، وقبل أن تشرق الشمس يكرر ما فعله عند المساء ، صلاته عند النهر ، وكان المارة قد ألفوا منه "صلاته" هذه ، ولم يعودوا يشغلون بالهم بأمره.

لقد ورث نمير صناعة قوارب الخشب الصغيرة المطلية بالقار عن أبيه وجده وهذان قد توارثاها ممن سبقهم منذ أجيال بعيدة ، ومثلما عاش نمير وزوجته وأطفاله ربما يكون قد عاش هنا أجداده الأقدمون ، وفي قرية مجاورة لا تبعد كثير ، كان يسكن أقارب له اتخذوا من أحد أركانها عند النهر مكان لهم ليينوا كوخهم ومشغلهم ، وانصرفوا إلى صناعة "المساحي" و"القول" والمحاريث والمناجل وما إليها من الأدوات التي يحتاجها الفلاحون والصيادون في القرية.

وكان جبرته يدعونهم بـ"الصبة" والواحد منهم بـ"الصبي" وربما على عادة الفلاحين هناك يعمدون إلى تصغير اسمه فيدعونه بـ"الصبيبي"... وكانوا يلاحظون أنه في مناسبات معينة عندهم يتجه إلى القصبة المجاورة ، قلعة صالح حيث يوجد كثرة من أصحابه هناك ليبتاع الخشب والحديد وما يحتاج من مؤن ، وليؤدي أيضاً طقوس دينية خاصة على أيدي كهنة في معبد خاص لهم يدعونه بـ"المندي" ، مع أمثاله القادمين من القرى المجاورة.

لم تكن مدن أو قصبات جنوب العراق لتخلو من "الصابئة" هؤلاء ، وإن كانوا قلة... وكان أمثال لهم يقطنون المنطقة المجاورة في إيران ، كان بعضهم يحترف الحرف التي يحتاجها الفلاحون والصيادون في ذات القرية من حدادة ونجارة وصياغة حلي ، ثم اتجه آخرون صوب المدن الكبيرة للعمل كصاغة تاركين عوائلهم وراءهم في المدن والقرى السابقة ليعودوا إليها في مناسباتهم الدينية حيث يمضون معها أيام معدودات يqqفون بعدها راجعين إلى مقرات عملهم... كانت تلك هي حياة الصابئة قبل عقود من السنين... وهي حياة ،

كررت نفسها، كما يبدو لمئات السنين... لا أحد يذكر أنهم كانوا على غير هذه الحال، لكنهم منذ أن تزايد النشاط الاقتصادي والاجتماعي الحديث في العراق شرعوا يتجهون بعوائلهم صوب المدن الكبيرة، لاسيما بغداد والبصرة، بأعداد صغيرة أولاً، ثم بمجموعات أكبر حتى خلت القصبات والقرى السابقة منهم واستقرت غالبيتهم في هاتين المدينتين.

لم تكن هذه الانتقال الجغرافية هي وحدها ما شاهدها المجموعة، بل شهد الصابئة في العقود الماضية حراك من نوع آخر، إذ اتجه أغلب شبابهم نحو التحصيل العلمي الحديث، واجتذبتهم المهن الحديثة وانصرفوا عن ممارسة حرفهم البدائية السابقة وطوروا صناعة الصياغة التي احتفظوا بها إلى صناعة عصرية، ومع هذا التحول الاجتماعي قل اهتمامهم بممارسة طقوسهم الدينية الخاصة، ولم يعودوا يتقيدون بكثير من المحرمات الدينية التي نشأوا عليها من قبل إلى الحد الذي أوجد أزمة حقيقية بالنسبة إلى بقائهم كمجموعة دينية ذات سمات ومعتقدات خاصة، وقد دفع هذا ببعضهم إلى التفكير بتكييف مفاهيمهم وطقوسهم الدينية لتساير الحياة العصرية الراهنة. وهكذا، فإن هذه المجموعة الصغيرة من الناس ما أن كسرت الطوق الذي ظل يعزلها عبر القرون، والذي صانها كطائفة خاصة لأفني عام، حتى وجدت نفسها توشك على الزوال.

لعب الصابئة، رغم كونهم طائفة دينية صغيرة، دوراً ملحوظاً في تطور الحياة الروحية والفكرية في بلاد ما بين النهرين خلال ظهور المسيحية وانتشارها أو بعد ظهور الإسلام، ولاسيما بعد ازدهار الحضارة العربية - الإسلامية أيام العباسيين، ولمعت من بينهم شخصيات علمية أسهمت بقسط وافر في إعلاء شأن الحضارة العربية - الإسلامية، لكنهم بعد تدهور هذه الحضارة والغزو المغولي والفتح العثماني من بعد وتعرضهم إلى الاضطهاد في العهود المختلفة؛ انكمشوا على أنفسهم في القرى المنتشرة عند البطائح الممتدة من جنوب نهر الفرات حتى نهر كارون في جنوب غربي إيران، وكانت هذه المنطقة، نظروفها الجغرافية الخاصة بمنأى - إلى حد ما - عن سطوة الحكام وبطشهم،

ولكونهم جماعة مسالمة ، لا شأن لها بزراعة الأرض ومشاكلها ، ويحترف أفرادها حرف ضرورية للفلاحين والصيادين ، ولا يطمعون بأكثر من إعطائهم الفرصة لممارسة طقوسهم الدينية الخاصة دون تدخل ، ضمنوا البقاء والاستمرار طوال القرون الماضية.

ورغم غرابة هذه الطقوس ما كانوا ليثيروا الوسط الاجتماعي الذي يحيط بهم ، الذي هو شيعي المذهب في الأساس ، وإن ظل هذا الوسط الاجتماعي يعاملهم باستعلاء وكأناس دونه في المرتبة الاجتماعية ، وهو أمر يخالف ما كان يسير عليه أئمتهم من قبل ، وبلغت الدلالة في هذا الشأن قصة المودة التي كانت تجمع بين الشريف الرضي والشريف المرتضى وإبراهيم بن إسحق بن هلال الصابي وهي قصة معروفة تناولتها كتب التراث.

ولكن رغم ذلك لم تسلم المجموعة من الاضطهاد وحملهم على التخلي عن معتقداتهم وعلى ارتكاب ما يخالف محرماتهم الدينية ، ومنذ منتصف القرن السادس عشر أصبحوا هدفاً لضغط المبشرين المسيحيين الغربيين من مذاهب مختلفة ، ولم يتردد هؤلاء المبشرون حتى عن الاستعانة بالباب العالي لحملهم على الانصياع لدعوة المبشرين و"العودة" إلى صفوف المسيحية ، إذ كان يصورهم هؤلاء بالمارقين على المسيحية ، وقد نجم عن المحاولات المتصلة لحملهم على اعتناق الإسلام والمسيحية ، وعن الأوبئة التي كانت تفتك بسكان المنطقة ، أن هبط عددهم كثيراً ، من ٣٤٠٠ عائلة كما ذهب الملكي صادق تيفنو في خارطته التي نشرها عام ١٦٦٣ في باريس وحدد فيها مواقع سكنائهم إلى ٥٦٠ عائلة في عام ١٨٥٤ كما أشار بيترمان أو أربعة آلاف نسمة كما ذكر سيوفي الذي زار مناطقهم وكتب عنهم في عام ١٨٧٥ ، غير أن عددهم تضاعف إلى أكثر من أربعة أضعاف ذلك بعد قرن من ذلك إثر تحسن أوضاعهم الاجتماعية.

غير أن هذه الطائفة على قلة عددها، ورغم القهر الذي حاصرها طوال القرون عادت في العقود الأخيرة لتتكشف من جديد عن حيوية لا تخطئها العين ، ودخلت الحياة الاجتماعية في العراق الحديث بفاعلية تفوق وزنها السكاني والاقتصادي ، وبرهن أبنائها عن جدارة أنهم أهل لأن يكونوا أحفاد جمهرة المثقفين المندائيين الذين برزوا في الميادين الثقافية والعلمية المختلفة أيام الحضارة العباسية.

من المؤسف أن المسألة المندائية لم تحظَ باهتمام مراكز البحث العربية والإسلامية رغم أهميتها في فهم تطور الفكر في المنطقة العربية في حقبة معينة من الزمن ، قبل وبعد ظهور الإسلام ، وما صدر من دراسات عنها في العربية لا يعدو أن يكون معالجات عامة لا تقدم إجابات جدية للكثرة الكاثرة من الأسئلة المحيرة التي تثيرها هذه المسألة المعقدة ، ونعني بها البحث في أصولهم وأصول معتقداتهم وأفكارهم عامة ، لقد كان يمكن أن ينهض بهذه المهمة مثقفو الطائفة ذاتها ، غير أن هؤلاء المثقفين شأن غيرهم من أبناء الطائفة لم يعودوا يفقهون جوهر معتقداتهم ويجهلون اللغة التي دون بها أدبهم الديني ، إن البحث في المسألة المندائية لا يمكن أن تنهض به الطائفة دون دعم علمي عالي ومنظم من مراكز البحث الجامعية ، والأهم منه توفير الجو الأكاديمي الحر الذي يسمح بالمعالجة دون خوف من الحساسيات الدينية وهي كثيرة.

إن أول ذكر لكلمة صابئة (الصابئون أو الصابئين) ذكرت قبل الإسلام ثم وردت في القرآن الكريم ، والكتاب المقدس (كنزا ربا) يذكرهم باسم "المندائيون" ، المعرفيون ، المؤمنون ، المسلمون ، أبناء النور ، أبناء العهد... ولنطلع على رأي الكاتب الأستاذ علي حسين رداد ، وهذا الكاتب من المنصفين في قول الحق والصدق بأمانة...

الصابئة المندائيون... بذرة التوحيد الأولى :

معنى كلمة الصابئة : يختلف تفسير كلمة الصابئة في المراجع اللغوية كما تختلف تسمياتها الأخرى، وقد التبس الأمر حتى على بعض المفسرين أو علماء اللغة، ومن هذه المعاني المعقولة : أولاً إذا كانت كلمة (صبا) تعني رفع رأسه إلى السماء تعبدًا فهم كذلك، ثانيًا إذا كانت الكلمة من (صبغ) العربية الآرامية بمعنى التعميد في قولهم (اصبيني بمصبته اد بهرام ربا) أي بمعنى (عمدني بعماد إبراهيم الكبير)، ووردت في القرآن الكريم : {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} ^١.

ووردت في الإنجيل على لسان السيد المسيح (ع): (وبالصبغة التي اصطبغ بها تصطبغ)، ثالثًا : وإذا كانت من سبا التي تعني (شيخ) بالآرامية أو دولة سبا تعني (دولة الشيوخ)، فالصابئة يطلقون لحاهم وشعور رؤوسهم فلهم هيئة الشيوخ، رابعًا : وإذا كان من (صاب) بن إدريس (ع) وإليه تنسب الصابئة كما يقول المؤرخون وهذا معقول، خامسًا : وإذا كانت من صب الماء للاغتسال وهي كلمة عربية فهذا أيضًا مقبول لأنهم مغتسله، وكيفما اجتهدنا في تفسير كلمة صابئة يكون معناها (الصابئة المندائيون اسم دين وكل التفسير هي مجرد اجتهادات تحاول أن تعتمد على أصل لغوي أو تاريخي أو وصفي).

أما كلمة مندي بالعامية تعني دار العبادة أو بيت المعرفة وبيت العلم والمعرفة أن تعبير الصابئة أو مندائية لا يعني عرقًا مميزًا أو قومية خاصة، وإنما هما تسميتان لعقيدة دينية جاءت تعاليمها مكتوبة باللغة الآرامية الشرقية المعروفة بالمندائية، وتلك الكتابات الدينية تشير إلى أزمنة وأمكنة معينة، إلا أن اعتمادنا المصادر الدينية وحدها لا يمكننا من تحقيق وقائع تاريخية مقبولة ما لم تكن المعلومات الواردة في تلك المصادر مدعومة بمصادر أخرى قديمة وحديثة

١- القرآن الكريم : سورة البقرة-الآية ١٣٨.

تكلمت عن ذلك الموضوع وأيدت الوقائع ، وإننا في ذلك شأن الباحثين في تاريخ معظم الأديان والعقائد القديمة.

إن المصادر التي تناولت موضوع الصابئة هي مصادر التراث العربي الإسلامي من جهة ، والمصادر الأوروبية الحديثة من جهة أخرى ، وأن هذه المصادر مطابقة لما ورد في كتب الصابئة الدينية ، ومتفقة مع المعلومات التي وصل إليها كتاب أوروبا المعاصرون المتخصصون بهذا الحقل ، وكلها تجمع على أن دين الصابئة كان موجودًا في المنطقة العربية قبل الإسلام ، وقد استمر بعده ، وإن فئات من معتنقي هذا الدين كانوا يسكنون في أماكن مختلفة في المنطقة منذ القدم ، وأقدم المصادر العربية الإسلامية هو القرآن الكريم الكتاب الديني الثابت زمان ومكان وإنسان ، والذي أشار في ثلاث آيات واردة في ثلاث سور من سور القرآن الكريم إلى وجود الصابئة مع فئات دينية أخرى معروفة في الجزيرة العربية كاليهود والنصارى ، كما أشارت المصادر الأولى إلى أن المشركين دعوا النبي (ع) صابئًا وذلك عند أول دعوته إلى الإسلام ، كما أطلقوا على المسلمين الأوائل اسم الصابئين أو الصباة ، مما يؤيد أن العرب قبل الإسلام كانوا على معرفة تامة بالصابئة كعقيدة دينية متميزة.

وقد تناول الموضوع الفقهاء والمفسرون اعتبارًا من القرن الأول للهجرة وعلى مدى القرون التي تلت ذلك التاريخ ، حيث جمع القرطبي في العام الثامن الهجري معظم ما قاله السلف بهذا الصدد وذلك في كتاب التفسير الذي وضعه وأشار القاضي أبو يوسف إلى وجودهم في أماكن كثيرة من أرض السواد والجزيرة ، وخص مدينة السلام والكوفة والبصرة وذلك في كتابه الذي ألفه زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد حول قضايا الخراج وكتب عن الصابئة الجغرافيون والمؤرخون وكتاب السير والمهتمون بأخبار الملل والنحل وغيرهم فعينوا أماكن مختلفة شرقي الجزيرة العربية وغربها ، وأشاروا إلى أزمنة سحيقة في القدم لوجودهم كزمن شيت بن آدم وزمن إبراهيم الخليل وعهود تسبق اليهودية.

ومن أشهر الكتب التي تناولت موضوع الصابئة المندائيين في التراث كتاب الفهرست لابن النديم، وقد صنف عام ٣٧٧ هـ ، ومن يتصفح هذا الكتاب يعلم منه أن وجود العقيدة الصابئية المندائية لم يكن مقتصرًا على بلدة واحدة، وأن تلك العقيدة كانت متبعة من قبل سكان مدن وأماكن مختلفة في وادي النهرين ومناطق أخرى غير عربية وذلك قبل الإسلام وبعده، وقد خصص ابن النديم بعض من المقالة التاسعة من كتاب الفهرست للحديث عن معتقد الصابئة المندائيين وأورد تراجم لأعلامهم من أطباء ومهندسين وفلكيين وأدباء ممن عاصروا الخلافة العباسية وعاشوا ضمن المجتمع الإسلامي في بغداد آنذاك، ومنهم أبو إسحق الصابي وثابت بن قرّة وسانان بن ثابت وإبراهيم بن سنان وأبو الحسن الحراني والبتاني صاحب الزيج المعروف بزيج الصابي.

كما أورد ابن النديم عن وجود الصابئة المندائيين أو المغتسلّة في منطقة الفرات ما بين واسط والبصرة والأهواز ، كما ذكر الكاتب معلومات تشير إلى وجود الصابئة في ميسان مثبتًا أنهم كانوا هناك أثناء كتابة الفهرست ، أما المعاجم الجغرافية فقد أيدت ما ورد بكتاب الفهرست وتحدث عن قدم وجود فئات من الصابئة المندائيين في مناطق مختلفة من وادي الرافدين ، إذ ذكر ياقوت الحموي ٦٢٦ هـ أن الصابئة كانوا يسكنون بلدة الطيب الواقعة بمنطقة واسط، أما المعلومات الواردة عن الصابئة من الدراسات الأوروبية الحديثة فقد جاءت مطابقة للمعلومات الواردة عن كتب التراث، أما اللغة التي وردت بها الكتابات الدينية فهي المندائية ، لهجة من الآرامية التي تلت الآكدية وبقت سائدة في المنطقة حتى ظهور الإسلام وسيادة العربية الفصحى.

وتشير الدراسات المقارنة الحديثة إلى أن العقيدة المندائية وما يتعلق بها من تعاليم وصلوات وتراثيل كانت قد نشأت في القدس وحوض الأردن ، ثم تركزت في بلاد ما بين النهرين ، الأمر الذي جعل المندائيين يلاقون الاضطهاد في أرض كنعان غربًا ويتركونها متوجهين إلى العراق عن طريق حران لكي يلتحقوا بإخوتهم في العقيدة الموجودين في هذه البلاد ، وقد استقر

بعضهم في حران زمن ، واتجه الآخرون جنوباً وسكنوا في أماكن مختلفة على ضفاف دجلة والفرات وفروعها ، وفي المناطق العربية في إيران ومازال أحفادهم هناك. ومن الجدير بالذكر في هذا الموضوع أن الصابئة المندائية تعترف ببحيى بن زكريا معلم ونبي ورسول ، وتعترف في الوقت نفسه بالأنبياء الأوائل اعتباراً من آدم وشيث وسام وإبراهيم ، ويعتقد أن أقدم تراث ديني يتبعه هؤلاء الآباء الصالحون ، هو الأمر الذي يجعل جذورها ترتبط بهم ، ويجعل مقولتها بهذا الشأن مشابهة لمقولات الأديان الأخرى التي نعرفها اليوم.

تعقيب : كلمة صبا في اللغة العربية تعني ترك دينه واتبع دين جديد ، ومعناها باللغة المندائية الآرامية من غطس في الماء ، أي من تعمد أو اصطبغ بالماء ، ولكن كلمة الصابئون أو الصابئين انتشر ذكرها عندما وردت في القرآن الكريم في ثلاث آيات بينات في سورة (البقرة ، الحج ، المائدة)...

ولكي تكون الصورة واضحة للقارئ الكريم ؛ نود أن نذكر شيئاً من بوثة قشقش (بوثة الانبعاث) وفق ما وردت في ترجمة الباحث الدكتور أنيس زهرون:

بسم الحي العظيم:

باسم الحي القديم الذي انبعث من ذاته قبل ظهور الماء والضيء والنور والإشعاع ملك النور السامي الذي قرأ بأقواله وتكلم بكلماته ومن أقواله وكلماته تكونت الحياة الأولى في عالم الأنوار في مقراتها ، الحي العظيم وهو جالس على عرشه تكلم وقال:

- الزمن من الحياة الأولى إلى الحياة الثانية ٦٠٠٠ مليون سنة.
- الزمن من الحياة الثانية إلى الحياة الثالثة ٦٠٠٠ مليون سنة.
- الزمن من الحياة الثالثة إلى الأثرى الأولى ٦٠٠٠ مليون سنة.
- الزمن من الأثرى الأولى إلى كل ما هو فاني ومن سبعة أسياذ البيت ٧٧٠ ألف مليون سنة.
- موجود ولا حدود له .

وهذه الأخيرة لم تكن منه الأراضي التي تصلبت حيث تغطيها المياه الآسنة السوداء، ومن هذه المياه الآسنة تكوّن الشر وصار.

أما مراحل الخلق في عالمنا الفاني:

في البدء وهب النداء لآدم، آدم رأس الذرية الحية، كانت كلمة واحدة وشهادة واحدة، بعدها أخذ العالم بالسيوف والوباء، فأذن للنشماثا (النفوس) أن تخرج من الأجساد لتصعد حيث النور، ويبقى رام وزوجته رود فيحيا بهما العالم، وقدّرنا لرام ورود أن يعيشا ألف عام، بين آدم ورام ثلاثون جيلاً، بنداء واحد يقومون، وبكلمة واحدة يمشون وبتسبيح واحد يشهدون وبمسقنا جميعهم إلى النور يصعدون.

ثم يؤخذ العالم بحريق النار وتخرج نشماثا كلها من أجسادنا، ولأنها لم تكذب النداء الأول، ولم تغير الكلمة الأولى، تصعد بمسقنا إلى النور، ويحيا العالم ويمور، خمسة وعشرون جيلاً بين رام ورود وشورباي وشرهبل، بعدها يؤخذ العالم بالطوفان، فتصعد نشماثا إلى النور، ويبقى نوح وسام بن نوح، خمسة عشر جيلاً بين نوح وشورباي، والبشر من سام وزوجته نوريثا يتكاثرون وبصوت واحد وبتسبيح واحد يشهدون.

من الرجل نوح إلى أن بنيت أورشليم الحصن ستة أجيال تعد ألف من السنين، ويولد الملك سليمان بن داوود فيكون ملكاً لليهود، كانت الجن له طائفة لمشيئته خاشعة، حتى طغى فوقعت عليه الواقعة، ثم يصعد الملاك الأثري أنوش حارس المندائيين، بعدها يتهدم حصن أورشليم ويحل السبي العظيم لليهود من قبل البابليين القادمين من بلاد ما بين النهرين.

كتب الباحث الأستاذ أحمد حسن مقالاً عن الأديان في بلاد ما بين النهرين، وذكر الأديان التوحيدية (الإسلام والمسيحية واليهودية)، ونسي أو تناسى الدين المندائي جذر التوحيد الأول والذي تأثرت به ابتداء من ديانات سومر وأكد

وبابل ، وأخذوا منه ما يناسب ملوكهم لأن الدين المندائي هو دين آدم وشيت وسام ، أنزله الحي العظيم على آدم وذريته بواسطة الملاك الرسول مندادهيي ، فنزلت عدد من الصحف الأولى على آدم وأخرى على سام وأخرى على إدريس ، واستمر نزولها على أنبياء الله الصالحين وحيًا وإلهامًا... وحفظت في الصدور حقب من التاريخ إلى أن دونت في زمن السومريين والفراعنة ، وعندما تطورت الكتابة من المسمارية والهيروغليفية ، دونت باللغة الآرامية المندائية وتناقلها رجال الدين والنساخ وحافظوا عليها ليومنا هذا ، وعلى رأسها المصدر الأساسي كتاب الكنز العظيم بجزئيه الأيمن والأيسر لأنه يحتوي على تعاليم ووصايا الحي العظيم...

ولو كانت الأديان من صنع البشر كما يقول الأستاذ الكاتب فنحن هنا نسأل أين دين سومر وأكد وبابل (حضارات سادت ثم بادت) ، ولنطلع على محتوى المقالة ونتعرف على الآراء والأفكار التي وردت بها ، ونحن نقدر ونحترم آراء الباحثين واجتهاداتهم ، ونعلم علم اليقين أن القوة والسلطة والإعلام والإمكانات والشجاعة إذا توفرت تنتشر الأفكار والعقائد ، ولكن الصابئة المندائيين عبر تاريخهم الطويل من زمن آدم (ع) إلى يومنا هذا يفتقدون إلى الإمكانات المذكورة في أعلاه ، لهذا أغلقوا على أنفسهم واهتموا بالأماكن النائية في أعماق الأهوار وتكتموا على دينهم وكتبهم الدينية حتى شعائرهم وطقوسهم الدينية يمارسوها بكتمان ، ولولا حاجتهم للنور لإجراء هذه الطقوس لأجروها في الليل، أي تحت جناح الظلام، لكن تعاليم الحي العظيم تحرم إجراء هذه الطقوس إلا في النور أي أثناء النهار لأنهم يسمون أنفسهم أبناء النور ولأن الحي العظيم خالقهم نور على نور لا نقطة ظلام فيه.

دين سومر وأكاد والأديان الثلاثة (الإسلام ، المسيحية ، اليهودية) :

الحقيقة أن أي مُطَّلِع على التوراة والإنجيل والقرآن ، وعلى ما حوته الرقم الطينية السومرية سيحكم قطعاً بأحد حكمين لا محالة ولا مناص له عن أحدهما:

الحكم الأول: أن الدين أصله من تأليف الإنسان السومري وما التوراة والإنجيل والقرآن إلا عملية اجترار للدين السومري (خلق الإنسان الأول آدم ، قصة هابيل وقابيل ، قصة الطوفان ، الخطيئة ، الحياة بعد الموت ، الجنة ، النار ، الخ).

الحكم الثاني: أن الدين السومري هو نفسه دين آدم ودين نوح (ع) ، ولكنه نقل ثم دون بصورة محرفة وتعبد به السومريون أو الأكاديون (البابليون والآشوريون) بصورته المحرفة ، وهذا ما أريد بيانه من خلال بيان أن القصص السومرية ما هي إلا إخبارات غيبية جاء بها آدم إلى الأرض وهي قصص الصالحين من أبناءه وما سيمر بهم وخصوصاً من يمثلون علامات مهمة في طريق الدين مثل دموزي (الابن الصالح) ، أو جلجامش.

الشبه الكبير جداً بين ما هو مدون في التوراة وبين الألواح السومرية انتبه له د. صموئيل كريمر ، ووصل به الأمر أن يضع فصلاً في كتبه يبين فيها الشبه بين الألواح الطينية السومرية والتوراة ، وكمثال : (الفصل السابع عشر "الفردوس" أول وجه مشابهة مع التوراة) من ألواح سومر ص ٢٣٩ ، (الزواج المقدس ونشيد الأنشاد لسليمان) اينانا ودموزي طقوس الجنس المقدس عند السومريين ، د. صموئيل كريمر. والسومريون كانوا يعرفون ويعملون بأمور دقيقة في الدين الإلهي مثل الاعتقاد بالرؤى وأنها كلام الله والتوسم الاعتقاد أن الله ممكن أن يكلم الإنسان في كل شيء يمر به ، ويقول شارل في أساطير بابل: (عرفنا الآن أن البشر خلقوا لخدموا الآلهة وأن هؤلاء يعاقبونهم لأتفه الذنوب ، فعليهم أن يطيعوا رغبات السماء بكل دقة وأن يلبوا نزواتهم ، كيف يعلمون إذن

كي يحافظوا على هذا الوفاق ويتجنبوا غضب الآلهة؟ وإذا ما رأوا أحلاماً - إن الآلهة يوحون ما يخطر لهم بواسطة الأحلام - فكيف يفسرونها بصورة ترضيهم، هذا إذا كان هناك أحلام فكيف إذا لم تكن؟

الجواب : يعمدون إلى الإرهاسات والدلالات الطبيعية ، فهي ترشدتهم إلى الحقيقة، ولذا يجب الانتباه الكلي ليس إلى تغيرات القمر فحسب؛ بل إلى شكل الغيوم، فكل حركة وكل تنقل من الزاحفة تحت العشب حتى الكواكب السابحة في ميدان النجوم تعطي إشارة لإرادة الآلهة سواء كانت حسنة أم سيئة، وهنا يظهر الفن أو العلم عبقريته، فيميز إذا كانت الإرادة خيرة أم لا.

وعلى السحرة أن يتدخلوا إما ليعجلوا مجيء الحظ السعيد، وإما ليدفعوا القوى المعادية التي تهدد الحياة وليس المقصود حياة الأفراد أو عامة الشعب بل حياة الملك الذي الذي يناط به مصير الأمة بأسرها، وهذا الملك الذي أودعته الآلهة العلم كان - كما مرّ - السابع من دولة ما قبل الطوفان، فهو يطابق حسب الترتيب الوراثي إلى (أخنوخ) (إدريس)، الذي يشغل المرتبة السابعة من سلسلة آدم - سلسلة الأنبياء ما قبل الطوفان - ومن الملحوظ أنه لا يوجد أي اشتراك بين الاسمين مع أن أعمالهما واحدة تماماً.

والحق يقال إن النص التوراتي المتعلق بسابع الأنبياء (أخنوخ) موجز جداً، قال: (وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه)، وقد أصبح أخنوخ بطل حلقة من الأساطير جعلته مخترع الكتابة ومؤلف أول كتاب وموجد علم الكواكب والسيارات، علم الفلك وكل الفلكيات، فهو يبدو وكأنه (فيدورانكي) ونستطيع أن نتقبل بارتياح أن أسطورة اليهود هذه ليست إلا نقلاً أو توسعاً للأسطورة الكلدانية التي هي أقدم، وبين بقية الملوك والأنبياء - أسلاف أخنوخ الستة وخلفائهم الثلاثة - صفات مشتركة ولا يهمننا إلا الشخصية العاشرة التي عايشت الطوفان، أساطير بابل ص ٢٨.

وقصص السومريين تتكلم بوضوح - كما في بقية الأديان الإلهية - عن الحياة بعد الموت ، وأن المحسنين والصالحين يذهبون إلى الجنة ، والطالحين إلى الجحيم ، لقد تأكد هؤلاء من أنهم يعيشون بعد الموت ولكن في ظلام دامس وليس لهم أي ثواب ، إلا إذا سلكوا السلوك الحسن في دار الدنيا ، أي بالتقوى كما حدث (لأوم نابيشتي) (أي نوح ع) أو بتطبيق القوانين بين الناس كما فعل حمورابي.

البحث الثاني

أصل التسمية :

يطلق عليهم اسم الصابئة أو الصبة ، كذلك يُسمون المندائيون أو الصابئة المندائيون ، وقد استقر الحال على هذه التسمية المحببة لهم.

وكلمة صابئة لها عدة دلالات فهناك من يفسرها بالصباغة ، لأنهم يسمون التعميد بالصباغة ، أي الغطس بالماء الجاري لغرض الطهارة أي غسل الذنوب بالماء ، وتطهير الروح وإجراء المراسيم الدينية ، وذكر أسماء الحي العظيم والملائكة الأثريين ويسمون نبي الله يحيى بالنبي يهانا الصابغ.

وهناك من يقول إن كلمة الصابئة جاءت من الفعل صبأ المندائي ومصدره مصبتا ، أي غمس في الماء الجاري ، وثمة قول غير دقيق بل قل غير صحيح أن كلمة صابئة جاءت من الفعل العربي صبأ ، أي ترك دين أجداده واتبع ديناً جديداً حتى أن المشركين في زمن بداية الدعوة الإسلامية كانوا ينادون الرسول الكريم محمد (ص) صبات يا محمد.

وأنا أرجح كلمة الصابغة ومفردها صباغة ولهذا كل مندائي ومندائية يجب أن يصطبغوا بعد الولادة وعند الزواج وعند الوفاة ، إذ يجب أن يطمش (يغسل بالماء الحي) قبل أن تخرج النفس من الجسد لنفائها وطهارتها ، كذلك الصباغة واجبة في الأعياد والمناسبات الدينية ، وخاصة في عيد البرونايا (البنجة) ، وعيد دهفة ديماننا ، وللصباغة رسومها وطقوسها ، ويقوم بهذا الطقس رجل الدين حصراً ، وحول أصل التسمية نطلع على مقالة الأستاذ سنان ثابت ، والتي جاء فيها :

الصابئة وإشكالية التسمية :

وردتنا هذه المقالة من كندا من الأستاذ سنان ثابت موسومة بالعنوان أعلاه ونظرًا لطولها فقد ارتأينا اختصارها ؛ مع المحافظة على المعنى العام.

إن كثرة التسميات التي أطلقت على الصابئة أثارت لهم إشكالات حقيقية امتدت طوال القرون الماضية حتى الآن ، فمن هم الصابئة ؟ وأين موطنهم وبما يدينون؟... والجواب على ذلك ، إن الصابئة مجموعة صغيرة من الناس تدين بدين خاص يعيش معظمهم في العراق ويقطن بعضهم الآخر في المدن الإيرانية الواقعة على نهر كارون ، وقبل بضعة عقود كان معظمهم يسكن مدن أقصى جنوب العراق في قلعة صالح وسوق الشيوخ والناصرية والبصرة والعمارة ، والقصبات والقرى القريبة منها ، ولكن أغلبهم نزحوا من بعد إلى بغداد واستقروا فيها.

وكانوا في السابق يمتنون الحرف التي يحتاجها القرويون ، وأضافوا لها في المدن صياغة الذهب والفضة المطعمه بالمينا وبرعوا فيها كثيرًا ، لكن الحياة العصرية جذبتهم إلى المهن الأخرى ، وانصرف شبابهم إلى التحصيل العلمي الحديث بنشاط ملحوظ ، وهم يتحدثون العربية في العراق ولا يتقن لغتهم الدينية الخاصة "المندائية" سوى رجال الدين وبعض الشباب الذين تعلموها ، وتتفرع اللغة المندائية من الآرامية الشرقية ولكن أصابها الكثير من التحوير بفعل المحيطين العربي والفرسي ، ولها أبجدية خاصة تقترب في بعض حروفها من النبطية والتدمرية.

لقد لعبت هذه المجموعة دور ذو شأن في الحياة الروحية والثقافية للمنطقة ، وامتد هذا التأثير منذ ظهور المسيحية وربما قبلها بقليل حتى ظهور الإسلام ، لاسيما أيام ازدهار الحياة الفكرية والاجتماعية في بغداد في العهد العباسي الأول وكان لهم دور خاص في نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية ، كما كان لهم دور ملحوظ في العلوم الرياضية والفلكية والطب والأدب ، وكان هذا سببًا في

تقريب البلاط العباسي لبعضهم ، وقد أثار هذا الدور انتباه المفكرين والمؤرخين العرب ، ولكن مع تدهور الحضارة العربية الإسلامية ، بعد احتلال المغول والعثمانيين ، ابتعدت الطائفة عن الحياة العامة ، وتعرضت إلى الاضطهاد في بعض الأحيان ، لقد جذبت هذه المجموعة انتباه الرحالة والباحثين الغربيين منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، ومنذ ذلك الحين تطورت الدراسات بشأنهم حتى وضعت حولهم مئات الكتب والأبحاث ، وتحول هذا الاهتمام إلى ما عرف بـ (الحمى المندائية) في بعض دوائر اللاهوت الغربي ، وكان مبعث هذا الاهتمام الكبير إصرار بعض كبار باحثي اللاهوت في الغرب على أن إنجيل (يوحنا) وبعض أعمال الرسل المسيحيين قد تأثر بأدب المندائيين ولأنها أيضاً الفرقة (الغنوصية) الوحيدة التي تعيش إلى الآن ، فيما زالت المجموعات الغنوصية الأخرى منذ ألف عام تقريباً.

لقد أثير كثير من الجدل والتكهنات حول أصل هذه المجموعة وحول معتقداتها الدينية ، وثار جدل طويل لم ينتهِ إلى الآن حول الاسم أو الأسماء التي تسموا بها أو التي أطلقت عليهم ، ودخلت في هذا الجدل عوامل مثيرة بفعل بعض الاكتشافات الأركيولوجية ، فقد دعوا بـ (الصابئة) و (الصابة) كما في بعض كتب التراث الإسلامي ، وقيل في تفسير الكلمة أنها من الفعل (صبأ) بمعنى مال وزاغ ، كما قال (الشهرستاني) في الملل والنحل ، مفسراً هذا الميل بالمروق عن الحق والزيغ عن منهج الأنبياء ، فيما ذهب الدكتور علي جواد الطاهر إلى تفسيرها بالخروج عن الوثنية إلى التوحيد ، استناداً إلى أن الجاهلية كانت قد دعت كل من خرج من عبادة آلهتها بهذا الاسم ، وأرجعها الشهرستاني إلى العشق والهوى ، وهو يريد بهذا تعصبهم إلى الروحانيين...

أما العقاد فيرى أن التسمية محورة عن الفعل (سبح) للمماثلة هنا بين السباحة وتعמיד الصابئة بالماء الجاري ، أما الصابئة أنفسهم فيرجعون الكلمة إلى أصلها الآرامي ، فـ (صبأ) في لغتهم تعني الارتماس في الماء ، نظراً إلى أنهم

يمارسون التعميد في الماء، ومنها استقوا المصدر (مصبتا)، أما (ابن النديم) في فهرسه فسماهم بـ(المغتسله) تارة و(صابئة البطائح) تارة أخرى...

وواضح هنا أن اسم المغتسله قد جاءهم من التعميد بالماء الجاري ، أما (الطبري) فيرى أن تسميتهم بالصابئة جاءت من نسبتهم إلى (صابي بن ميتوشلح) وهو جد النبي نوح... وقد ذكرهم القرآن الكريم في ثلاث سور إلى جانب أصحاب الكتاب من المسلمين والنصارى واليهود ، وتسبب كتاب التراث العربي الإسلامي في تعقيد آخر ، إذ أطلقوا اسم الصابئة على مجموعات عديدة من الناس تتباعد فيما بينها في المكان كثيراً ، حتى يشار إلى بعضها في الصين ويميز بعضهم بين المندائيين والحرانيين الذي يزعم أنهم انتحلوا اسم الصابئة أيام المأمون لكي يحق لهم التعامل الذي خص القرآن الكريم به أهل الكتاب !.

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، إذ تظل إشكالية التسمية تطاردهم في ميدان آخر ، فكتبهم الدينية لا تدعوهم باسم الصابئة وإنما باسمين آخرين يثير كل منهما إشكال خاص ، فهي تدعوهم بـ(المندائي) أو (المندايي) ، وهو اسم يطلق على العامة في الطائفة ، أما رجال دينهم فتدعوهم بـ(الناصراني) ، وقد أعطى لهاتين التسميتين تفسيرات مختلفة ، فقد قيل إن المندائي جاءت من (المندي) أو (المندا) ، وهو بيت العبادة لدى الطائفة ، وأصلها فارسي ، وتعني المسكن أو البيت ، والبيت كما هو معلوم قد استخدم في الأدب الديني لكل الأديان بالمعنى المجازي فقبل بيوت الله وقال بعضهم أنها تحوير عن فعل (دا) و(ادا) الآرامية ، وتعني (علم) أو (عرف) ولقي هذا التفسير قبول عام لدى الباحثين...

وتضيف (السيدة دراور) غموضاً آخر ، فقد افترضت أن التسمية ربما جاءت من نسبتهم إلى (ماندا) ، وهؤلاء قوم كانوا يسكنون المنطقة التي يسكنها الميديون بعدئذ ، مستندة إلى ما ورد في كتاب (حران كويثا) من أن أعداد كبيرة من الناصوريين قد التجأوا إلى حران فراراً من الاضطهاد الذي لحق بهم في أورشليم في القرن الأول المسيحي ، وكان في حران ناصوريون مندائيون ،

ومنها ساروا من بعد إلى جبال الميديين (طور أو مداي)، وكان يعيش فيها عدد ممن يماثلهم في الدين، ثم انحدروا من بعد إلى (دشت ميشان) واستقروا في الطيب، وتأتي التسمية الثالثة (الناصوري) وتعني في لغتهم الضليع في العقيدة لتضفي بُعدًا آخر في الغموض الذي يلفهم...

وقد فسرها بعضهم على أنها اشتقاق من مدينة (الناصرة) بل وذهب بعضهم إلى حد اعتبار (النصيرية) من المندائيين لمجرد تماثل الاسم، فمن أين جاء هذا التشويش؟ ولماذا يذهب البعض إلى التمييز بين الصابئين والمندائيين؟ وبين صابئة حران وصابئة البطائح؟ لقد لعبت عوامل عديدة في هذا التشويش والغموض، منها ما تسببوا هم في إيجاده، ومنها ما لحق بهم بفعل الأوضاع العامة المحيطة بهم من جانب والخصومات الأيديولوجية من جانب آخر.

كانت أقوام المنطقة تودع العصر القديم، وهي تدخل بصورة مختلفة في جملة التحولات في معتقداتها الدينية والفكرية عامة، سواء جاءت سريعة وعنيفة في صورة تطورات وتحويرات تدريجية، كانت تجري عملية واسعة من الأخذ والعطاء بين الحضارات المختلفة بفعل الحروب التي دارت بين الامبراطوريات وكان على رأس هذه التطورات استبدال حكم الآلهة المتعددة بسلطان الإله الواحد، الإله القومي...

إن هذا الميل الذي بدأ مع البابليين منذ زمن قديم تسارع من قبل في كل مكان واتخذ شكل واضح للانتقال من الإله الملموس إلى الإله المجرد، كان الصابئة في ذلك الزمان واضحين في معتقداتهم الوحدانية ولكنهم كانوا جماعة مشتتة لا سلطان لها وقد نظروا منذ البداية إلى العالم الدنيوي على أنه عالم فان، وما الحياة سوى مرحلة مؤقتة تودع بعدها الروح إلى العالم العلوي الذي هبطت منه. وقد مالت الطائفة إلى المحافظة وانطوت على نفسها بفعل تشتتها وتباين البيانات التي أحاطت بها، أما ترانيمهم فقد امتازت بروح شعرية عالية ومرهفة الحس مما يدل أنهم حفظوها من مرحلة أسبق كانت تتصف بالحيوية والتدفق...

وفي خضم الصراعات السياسية والحروب وعمليات التنكيل التي سادت نهاية العصر القديم وانتشار الأخلاق الرواقية (أخلاق الزهد والرهبة) كتعبير عن فقدان الثقة والأمن في ذلك العالم المضطرب، تعزز لديهم الميل نحو العزلة، محولاً دينهم إلى دين نخبة تؤثر أن تبقى معتقداتهم بعيدة عن متناول العامة التي اكتفت بالعبادة والطقوس، كان الصابئة نتاج هذا التطور التاريخي العام والخاص، لذلك لم يكن غريباً سكنهم في منطقة البطائح بعيداً عن فضول الآخرين واضطهادهم منصرفين للعبادة، ومن الضروري أن نشير إلى أن كتب التراث الإسلامي تتحدث عن تاريخهم بشيء يقرب من الأسطورة، فالشهرستاني في الجزء الثاني من الملل والنحل يقول إن الصابئة ظهرت في أول سنة من حكم الملك (طهمورث) ويقول عنه إنه من ملوك الفرس...

أما ابن خلدون في الجزء الأول من تاريخه فينقل عن (ابن الكلبي) أن (طهمورث) هو أول ملوك بابل وأنه ملك الأقاليم كلها، وكان محمود في حكمه وفي أول سنة من حكمه ظهر (بيو راسب) وكان أول من دعا إلى ملة الصابئة! ويمد في موطنهم من بابل إلى أقاصي مصر وكما يلاحظ (بالس) فإن كل من يندرج في واحد من التيارات الأخيرة في المنطقة أطلق عليه اسم الصابئة...

أما ابن النديم فأصبح ما أورده في فهرسه عنهم مرجعاً أساسياً بشأنهم، فإنه أشار إلى وجودهم في مناطق مختلفة من وادي الرافدين، وقال إنهم من الكلدانيين، إلا أنه ذهب بعيداً في تحري تاريخهم، بل أكثر من هذا زاد في الغموض الذي يلفهم بما نقله عنهم من الكتاب السريانيين، الذين كانوا وإياهم في خصومة دينية دون أن يقف من الروايات بشأنهم موقف نقدي لا سيما اتهامهم بالوثنية وعبادة الكواكب، مع أنه أورد للفيلسوف الكندي حديثاً أشار فيه إلى أنهم جماعة موحدة، وأنه - أي الكندي - اطلع على كتبهم في هذا الشأن وأنها على غاية من التقانة في التوحيد...

أما الطبري في تفسيره للقرآن الكريم فقد استند في روايته عنهم إلى قول ينسب في الأصل إلى الصحابي (أسامة بن زيد) المتوفى سنة ٦٧٤م، يقول فيه إن

الصابئة يقطنون جزيرة الموصل وهي على مقربة من حران ، وقال الاصطخري في نعتة مدينة حران أنها مدينة الصابئيين ، أما الإمام أبو حنيفة الذي عاش ما بين ٨٠ - ١٥٠هـ ؛ فقد وصفهم بالموحدين وأفتى بتحليل الزواج منهم وأكل ذبائحهم ، ولم يعب عليهم تعظيم الكواكب وإنما اعتبر ذلك من بقايا المعتقدات القديمة لشعوب ، وعلى نهجه سار تلميذه أبو يوسف قاضي القضاة في عهد الرشيد...

أما القول بأن من قصده أبو حنيفة وأبو يوسف عن صابئة البطائح أو من يدعوهم بالمغتسلة وليس الصابئة الآخرين في حران وما حولها فهو أمر يجافي الواقع ، فقد كانت فرقهم في مناطق ما بين النهرين تتماثل في معتقداتهم وطقوسهم مع صابئة حران ، وإن وجدت فوارق فهي ثانوية نشأت عن تأثير البيئات المحلية المحيطة بهم ، والحكاية التي تروى عن أن صابئة حران قد انتحلوا اسم الصابئة في عهد المأمون لكي يضمنوا لأنفسهم التعامل الذي خص القرآن الكريم به أهل الكتاب فأمر ينافي الحقيقة هو الآخر ، فلا يُعقل أن المأمون وهو الخليفة المفكر الذي عُرف بسعة إطلاعه كان يجهل حقيقة الصابئة الحرانيين الذين لعبوا دوراً مهماً في النهضة الفكرية التي تزعمها آنذاك ، وكان منهم من يعمل في ديوان الخلافة.

أما النظرية التي تقول إن طائفة الصابئة نشأت في الأصل في فلسطين ثم هاجرت في منتصف القرن الأول الميلادي إلى حران وانتقلت من بعد إلى منطقة ميسان ، والتي يدافع عنها بحرارة الباحثون المختصون فترجع إلى أمرين أساسيين ، أولهما تماثل أفكارهم وطقوسهم الدينية إلى حد بعيد مع أفكار وطقوس (الآسينيين) ، ومن جهة أخرى تستند إلى ما ورد في كتابهم (حران كويثا) الذي يصف بسرد مشوش الوضع الذي كانوا عليه هناك ، وكيف انتقلوا من بعد إلى حران وإلى (طوراد مداي) أي جبال (ميديا) ، ثم اندحدروا من بعد إلى ميسان ، وعيشهم هناك حتى الفتح الإسلامي...

إن قصور هذه النظرية يكمن في كونها لا توضح لنا كيف تحولت جماعة لا يزيد تعدادها عن أربعة آلاف نسمة، كانت تسكن قمران وما جاورها عند البحر الميت إلى بلاد الرافدين وانتشارهم في مناطق عديدة من العراق وغيره كما يشير المؤرخون القدماء، ولا سيما أن الآسنيين لم يكونوا من المبشرين بدينهم وأفكارهم وكانوا يضعون قيودًا صارمة للانضمام إليهم... إلا أن هذا التحفظ لا ينفي من الأساس احتمال مثل هذه الهجرة التي قد حدثت بالفعل لمجموعة من الناس سواء كانوا من الآسنيين أو من غيرهم، إلا أن هؤلاء المهاجرين بعد هجرتهم قد سكنوا في وسط ليس بالبعيد أو الغريب عنهم، كما يشير كتابهم المذكور إلى ذلك صراحة، بيد أن هؤلاء المهاجرين قد انضموا لإخوانهم هنا، وأصبحوا بالنسبة إلى هذا الوسط الصابئي رجال دين يرشدون ويوجهون، وربما كانوا هم الذين لعبوا دور المحافظ الذي تحدثنا عنه والذي أبقى عليهم كطائفة خاصة كل هذه القرون، بالرغم مما عصف بالمنطقة من صراعات دينية ومذهبية.

منشأهم :

هناك عدة احتمالات يطرحها الباحثون والمفكرون ، منها :

- أنهم نشأوا على ضفاف دجلة والفرات جنوب العراق في مناطق الأهوار الواسعة ، ويسمونها المياه البهية ، وعلى ضفاف نهر الكارون والكرخة في منطقة عربستان ، وجميعهم يعتنق ديانة واحدة وتعاليم واحدة وطقوس وشعائر دينية واحدة ، ويمارسون طقوسهم باللغة المندائية ، إحدى اللهجات الآرامية واللغة المتداولة بينهم حالياً هي العربية التي يجيدونها بطلاقة ، وأن فئة منهم رحلت مع نبي الله إبراهيم الخليل إلى حران ، ومنها إلى مصر ، وأسسوا مملكة ملكها أردوان ، وهناك من الباحثين من يؤكد أنهم بقايا السومريين ، برعوا في مهن الحدادة والنجارة وصناعة الزوارق والمشاحيف والحلي.

وفي بداية القرن الهجري الأول ومع بداية الفتوحات الإسلامية وانتصار العرب على الفرس في معركة القادسية ودخول خلق كبير الدين الإسلامي؛ هرب عدد منهم بزوارقهم إلى أعماق الأهوار واستقروا وأسسوا قصبات بسيطة معتمدين في معاشهم على صيد الأسماك والطيور ، وتربية الأبقار والدواجن لإدامة الحياة وساعدتهم مهاراتهم في الحدادة والنجارة على صناعة الفؤوس والمعاول والفالة والسكين والمنجل والزوارق وتطوروا في صناعة البنادق والأسلحة البيضاء ، مثل السيف والخنجر وطوروا صناعة الزوارق ، وأعطوها أسماء متعددة مثل الجليكه والطراة والمشحوف والبلم والزورق والمهيله والسفينة وغيرها ، ومنهم من امتنهن مهنة صياغة الفضة والميناء وبرع عدد منهم في صياغة الذهب لشيوخ العشائر وعوائلهم ، وشجعهم شيرخ العشائر على صناعة الأسلحة ، البندقية البرنو والمسدس والمدفع ، وهناك أسماء مشهورة مثل أسطه عامر صمد ، وأسطه سالم بخيتان ، وأسطه عبد الله... وغيرهم.

- أنهم عاشوا على ضفاف نهر الأردن وحول حوض البحر الميت مع الأسنيين واليبوسيين والصيدناويين والفلسطينيين ، وكانوا قريبيين من الأسنيين ولكن ليس

منهم ، وعندما دخل اليهود من طور سيناء إلى فلسطين ودخلوا في حروب مع هذه الطوائف قُتل من الصابئة المندائيين خلقٌ كثير ، حتى أن كتبهم تذكر أنه في يوم واحد قتل ٣٦٠ ترميذاً من رجال الدين ، فاضطروا إلى الهجرة باتجاه مدينة حران التي تقع بين الحدود العراقية والسورية والتركية لوجود أخوة لهم هناك أسسوا حضارة هناك ، وبعد حين من الزمن اندفع عدد منهم جنوباً واستقروا على ضفاف دجلة والفرات والكارون والكرخة ، ومازالوا ليومنا هذا هناك ، وهذا الاحتمال مؤكد لأن نبي الله يحيى عاش هناك واكتشف مؤخراً مغطسه على ضفاف نهر الأردن.

- بعض الباحثين يقول إن الصابئة عاشوا على أرض الكنانة على ضفاف نهر النيل ، وعندما طغى فرعون مصر وأراد من الناس أن يعبدوه ؛ هاجر خلق كثير منهم بقيادة قائدهم أردوان وأخيه فروخ وعبروا بحر سوف العظيم ، وغرق جيش فرعون ، وهذه القصة تذكرها التوراة وينسبها اليهود إلى النبي موسى عليه السلام ، وهذا الاحتمال ترجحه اللغائف والقحوف التي تمّ العثور عليها في وادي نجع حمادي حديثاً ، واستقروا في فلسطين وعلى ضفاف نهر الأردن وحوض البحر الميت ، وبعد حين من الزمن عندما دخلوا بحروب دامية مع اليهود ، هاجر خلق كبير منهم باتجاه مدينة حران ومنها انحدروا إلى جنوب العراق وجنوب غرب إيران ، لوفرة المياه الجارية ولتوفر العيش الرغيد.

- ثمة رأي آخر يؤكد بعض الباحثين أنهم عاشوا في الجزيرة العربية ، وكانوا من الموحدين بالله وسموهم الأنباط ، وسموهم الأحناف وسموهم الصابئة ويذكر المؤرخون أن شعراء وخطباء منهم ظهروا في الجزيرة العربية ، ودعوا إلى التوحيد ونبذ الأصنام ، منهم زهير بن أبي سلمى وقُسن بن ساعدة الأيادي وطرفة بن العبد ، وزيد بن عمرو بن النفل وأخريين ، وقد أكد ذلك العلامة الألوسي في كتابه (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) كما ذكره العلامة الكبير محمد بهجت الأثري.

والرأي الأرجح عندي أنهم بقايا السومريين ، هاجر خلق منهم مع نبي الله إبراهيم الخليل إلى مدينة حران ، واستقر خلق منهم وهاجر الآخرون مع النبي إبراهيم إلى فلسطين ، واستقر خلق منهم على ضفاف نهر الأردن وحوض البحر الميت، وخلق آخر تبع النبي إبراهيم في رحلته إلى مصر، واستقروا في أرض الكنانة إلى أن طغى فرعون ودعا الناس لعبادته، فقاموا بهجرة عكسية بقيادة اردوان إلى فلسطين مروراً بحران، وانحدروا إلى جنوب العراق وإيران أي عادوا إلى موطنهم الأول، بلاد ما بين النهرين واستقروا فيها، ولكن الحال لم يدم، فقد بدأت سلسلة حروب في بداية الثمانينات من القرن الماضي بين العراق وإيران، وتلاها احتلال العراق من قبل الطاغوت الأمريكي، وتدمير البلاد وسبي العباد، فهاجر خلق كبير منهم واستقروا في بلدان المهجر، ومازالت الهجرة مستمرة وهذا يعني أن الصابئة المندائيين قوم مهاجرون عبر تاريخهم.

وهناك من يذكر أن سفينة نوح بعد الطوفان استقرت على هامة جبل قردون قرب حران التي أنشأها لاحقاً النبي إبراهيم (ع) واستقروا بها، ومنها بعد حين من الزمن انحدروا جنوباً وغرباً إلى فلسطين، وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤال لماذا استقر الصابئة المندائيين ربحاً من الزمن في أعماق الأهوار؟، منذ متى وفي أي عصر من العصور؟! بينما الحضارة السومرية نشأت في أور على اليايسة، وكذلك الحضارة الأكديّة في منطقة أكد على نهر الفرات، أما الحضارة الآشورية فنشأت على ضفاف نهر دجلة في شمال بلاد ما بين النهرين، إذن هناك سبب قسري أجبر الصابئة المندائيين للاندفاع إلى أعماق الأهوار!

هناك عدد من الباحثين يعزون السبب إلى الفتوحات الإسلامية، فبعد انتصار المسلمين على الفرس في معركة القادسية المشهورة بقيادة سعد بن أبي وقاص في زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وطبقت أحكام الإسلام إما اعتناق الدين الإسلامي أو دفع الجزية إذا كنت من أهل الكتاب المذكورين بالقرآن الكريم، كان في ذلك الزمان الصابئة المندائيون منتشرين في مناطق شاسعة في

بلاد وادي الرافدين ، مما اضطرهم مكرهين للحفاظ على أرواحهم ودينهم اللجوء إلى أعماق الأهوار بزوارقهم التي كانوا يصنعونها بأيادهم ، هرباً من الأعراب الصحراويين الذي لا يعرفون ركوب البحر والخوض في المياه البهية الواسعة ، والذين كانوا دائماً يحمون ظهورهم بالصحراء ووسيلة تنقلهم إما الحصان أو الجمل الذي يتجنب المياه الشاسعة.

الصابئة المندائيون وجدوا أنفسهم لاحقاً أنهم أحسنوا اختيار الأهوار ملاذاً لحمايتهم وخاصة بعد أن حدثت الثورات مثل ثورة الزنج والقرامطة والخرمي والزط وغيرها من الثورات ، وخاصة في منطقة البطائح جنوب العراق ، وقد آثروا الابتعاد قدر الإمكان عن مناطق الصراعات التي تطورت لاحقاً للصراع على الخلافة ، وما نشأ من صراعات فكرية إلى أن حصل انفتاح فكري وثقافي وحضاري في زمن الخلافة العباسية عندما نشطت حركة الترجمة والتأليف ، وظهور المدارس الفكرية والفلسفية المتطورة والتي ساهم بها صابئة حران مساهمة فعالة ، وبرز منهم كبار المترجمين والكتبة والأطباء وخاصة آل قره وآل صابي ، وعدد من أعلام الصابئة وأدبائهم المبدعين في ذلك العصر ، وكان هؤلاء موضع احترام وتقدير ، ولم يتعرضوا لضغوط لتغيير دينهم بعد أن علت منزلتهم لدى الخلافة العباسية ، التي كانت بحاجة لمثل هذه الكفاءات لنقل تراث الإغريق واليونان والفرس والهند وغيرهم ، ووصل بعضهم إلى مراكز مرموقة في إدارة الدولة العباسية ، وقسم منهم ترأس بعض الدواوين المهمة في الدولة مثل ديوان الرسائل وغيره.

استمر الحال يتطور إلى الأحسن وخاصة بالنسبة لصابئة أهل حران ، ولكن بعد الغزو المغولي الهامي وتخريب بغداد تشتت الصابئة المندائيون ، وتوزعوا في طول البلاد وعرضها ، لحماية أنفسهم فمنهم من اعتنق الدين الإسلامي ، ومنهم من اعتنق الدين المسيحي ، وأعداد منهم غادروا إلى جنوب العراق إلى منطقة المياه البهية في الأهوار ليعزلوا أنفسهم في أعماق الأهوار بعيداً عن مظاهر الحضارة ، وبهذا حافظوا على دينهم ومعتقداتهم وكتبهم ، ولم يكن العهد

العثماني اللاحق أرحم، فقد تعرضوا إلى الكثير من الظلم والاضطهاد والعزلة مما كان سبباً في قلة عددهم.

التاريخ يعيد نفسه في كل مرة، فبعدما حطت الحرب العالمية الأولى أوزارها وبدأت مظاهر إنشاء الدولة العراقية الدستورية وانتقال أعداد كبيرة من أبناء الصابئة المندائيين من أعماق الأهوار إلى الأقضية والنواحي التي تقع على حافة الأهوار واستقرارهم على ضفاف الأنهار، بعدها طوروا الأمور وسكنوا المدن المهمة مثل العمارة والناصرية والبصرة وبغداد والديوانية وغيرها من المدن العراقية وشاركوا بفاعلية في بناء العراق الجديد، وسجلوا أولادهم في المدارس التي أنشأتها الدولة العراقية الملكية الفتية، وتفوق أعداد منهم وتخرجوا معلمين ومدرسين وأطباء ومهندسين وضباط في الجيش وبرعوا في مهنة الصياغة خاصة بعد هجرة اليهود القسرية.

قلنا إن التاريخ يعيد نفسه، نعم حصل الاحتلال الأمريكي الذي أحرق الأخضر واليابس ودمر البلاد وسبى العباد وبثت الفرقة والعداوة بين أبناء الشعب الواحد وشجّع الطائفية البغيضة وهدم البنية التحتية التي بناها العراقيون خلال سنين طوال، وهنا لابد من حماية الأرواح وحماية الدين أمام هذا الضغط الهائل، فآثروا الهجرة ولكن هذه المرة ليس إلى أماكن مجهولة وموبوءة ومتخلفة مثل الأهوار، لأنهم تعلموا هذه المرة درس فهاجروا إلى البلدان المتقدمة المتطورة الديمقراطية ليعيشوا هذه المرة حياة الحرية والانفتاح والتطور.

ولكن مثلما الانغلاق له مضاره كذلك الانفتاح ربما تكون مضارها أكثر لأنه يصعب السيطرة والتحكم بالنشء الجديد، والخوف كل الخوف من الأفكار والآراء التي يروجها بعض مثقفي الطائفة بضرورة تطوير الدين، والمقصود الشعائر والطقوس، وهناك من اندفع أكثر ونادى بالتبشير والانفتاح على الأديان الأخرى الموحدة لحلة مشاكله التي يعاني منها والتي تؤرقه.

المعروف أن الشعائر والطقوس هي التي تميز دين عن آخر ، أو طائفة دينية عن أخرى ، لوجود فروق بتطبيق هذه الشعائر والطقوس ، وإلغائها أو تطوير بعضها وتقريبه من دين آخر يعني إلحاق ضرر بهذا الدين ، رغم أن التطور وإجراء تحسينات غاية مطلوبة لأن الدين يسر وليس عسر ، وعلينا مواكبة العصر ووضع حلول عقلانية لمعاناة حالة الطقس في البلدان الباردة مثل الدول الاسكندنافية مثلاً ، ولكن بالهدوء وبالمعقول والمقبول ، على ألا يمس جوهر الدين وبرضى وموافقة وإجماع رجال الدين ، وهذا يتطلب وجود مجلس روحاني عالمي للبت في مثل هذه الأمور لأنها مشاكل دينية وليست سياسية ، فلا يصح هنا الاستفتاء وأخذ رأي الأغلبية لأن القضية دينية بحته.

ولنأخذ مثال انقسام رجال الدين المندائيين بين من يعتمد في النهر (الماء الجاري) ، ومن يعتمد بالحوض مراعاة لحالة الطقس وللتطور والصحة والنظافة وتسهيل الأمور ، هناك من يوافق على ماء الحوض شرط ألا يكون من ماء إسالة ، وكأن ماء الإسالة ليس ماء ، وعندما تسأل عن السبب يقولون لك إن هناك نص يقول (لا تضعوا السدود في طريق الماء الجاري)... واليوم العالم المتمدن كله سدود ومشاريع ري للتحكم بمياه الأنهار والأمطار.

وهناك من يرضى ملء الحوض بماء يسحب له من الآبار والعيون كلها اجتهادات ، وأنا أرى أن الماء ماء مع تخليصه من مادة الكلور إن أمكن ذلك ، ومن العوائل والشوائب ، وممكن أن يكون جاريًا حتى في الحوض ، هذا موضوع في الحقيقة طويل وهذا ليس مكان مناقشته ، ولكن الغاية يجب وضع حلول لمثل هذه المشاكل لكي لا تتعقد في المستقبل وتحصل اجتهادات وفتاوى لا ترضي الجميع ، ومن هنا لا سمح الله يحصل الانقسام ، وتحصل الطائفية في الدين الواحد كما حصلت عند المسيحيين والمسلمين.

المعيشة :

الصابئة المندائيون لا يجيدون الزراعة ولا الرعي في العصر الحديث ، إنما امتهنوا حرفة الحدادة والنجارة وصناعة الزوارق وصناعة الفضة والمينا السوداء والذهب والمينا الملونة ، وما زال سر صناعة الميناء محافظين عليه يورثه الآباء للأبناء.

عشق الصابئة المندائيون مهنة الصياغة وطوروها وتحسن وضعهم المادي في المجتمع وخاصة بعد هجرة اليهود عام ١٩٤٨ ، وأثناء الحرب العالمية الأولى ودخول الإنجليز إلى العراق واستتباب الأمن نوعاً ما ؛ تقدم الصابئة المندائيين من القصبات تجاه النواحي والأقضية التي تقع على حافات الأهوار مثل سوق الشيوخ والحلفاية (المشرح) ، ومسيعدة والطويل والمجر الصغير والمجر الكبير وقلعة صالح والعزير ، والمدينة والفهود والعيككة وسيد دخيل والقرنة وغيرها من النواحي والأقضية.

وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وخاصة بعد هجرة اليهود ؛ اندفع عدد كبير منهم تجاه المدن الكبرى مثل العمارة والناصرية والبصرة بشكل أساسي وعدد قليل منهم تسلل إلى العاصمة بغداد وامتلكوا البيوت وفتحوا محلات الفضة والذهب بشكل واسع يشهد لهم سوق الصاغة في العمارة والناصرية وسوق الخضيرى وشارع الصيادلة في البصرة وخان الشايندر وشارع النهر في بغداد.

وكانت مدينة البصرة ميناء كبير فيها حركة تجارية واسعة ، وعدد كبير من الأجانب يعشقون الصناعات اليدوية ؛ فاستفادوا كثيراً من ذلك وتعلموا عدة لغات من الأجانب تسهل عليهم ترويج بضاعتهم فتحسنت ظروفهم المعيشية وتطورت ، وأصبحت لهم حظوة في المجتمع العراقي ، وهم بشكل عام محبوبين من أبناء الشعب العراقي لأمانتهم وصدقهم ، ولأنهم مسالمون لا يأخذون غير حقهم ، بذلوا جهوداً طيبة للاختلاط بشرائح المجتمع ونجحوا بذلك ولم يتقوقعوا

على أنفسهم كما تفعل بعض الأقليات الدينية أو العرقية ، بل انتشروا بين إخوانهم العراقيين وشجعوا أبناءهم على الدراسة والتعليم وخاصة التعليم المهني مثل الطب والهندسة والعلوم لتكون الدولة بحاجتهم وليس بحاجة الدولة ، فنبغ عدد منهم في مجال العلوم أذكر منهم الأستاذ الدكتور عبد الجبار عبد الله مؤسس جامعة بغداد والعالم الفيزيائي المعروف ، صاحب اكتشاف مركز الزلازل والهزات الأرضية وعالم الأنواء الجوية وغيرها من النظريات، وكذلك العالم الفيزيائي طالب الخفاجي ورهط من العلماء والأساتذة والأطباء والمهندسين المبدعين ، فهم كبقية العراقيين يحملون شيئاً كبيراً من موروث وجينات السومريين والبابليين ، بناء الحضارة الإنسانية الأولى في العالم.

فالإنسان حيوان يقرأ ويكتب وباختراع العراقيين القدماء الكتابة المسمارية نقلوا الإنسانية نقلة نوعية عظيمة ، أضف لهم اختراعهم العجلة وفن البناء والرسم والنحت وعلوم الفلك وفنون الحرب ، وسنهم أولى القوانين للبشرية ، وهذه مسلة حمورابي أعظم شاهد ، ومتاحف العالم تزخر بآثار بلاد وادي الرافدين ، وأصبح من حق كل عراقي أن يفتخر ويزهو بأجداده ، فإن مرّت على بلادنا قرون من القهر حولت هذه الإمكانيات الهائلة إلى طاقة كامنة ، فلا بد أن يأتي زمان تحرر فيه هذه الطاقة وتتحوّل إلى طاقة حركية عارمة ، تطور المجتمع المظلوم ويأخذ مكانه بين الأمم.

تشكيلاتهم :

كان في ما مضى من الزمان القيادة والتوجيه بيد رجل الدين، فبيده كافة الأمور الإدارية والمالية والدينية والزواج والطلاق والنظر في الخلافات العائلية والمالية، وكافة الأمور الاجتماعية الأخرى، وكان للصابئة المندائيين منادي (معابد) تنشأ على الأنهار، يؤدون فيها طقوسهم الدينية في المناسبات والأعياد مثل مندي قلعة صالح في العمارة ومندي سوق الشيوخ في الناصرية، ومندي البصرة في الطويسة ومندي بغداد في الدورة ثم في القادسية، بعدها أنشئ مندي كركوك ومندي أربيل.

رأى عدد من شخصيات الطائفة المعنيين بشؤونها من المثقفين والوجهاء وأصحاب المال أن يؤسسوا مجلساً سموه "مجلس التولية"، يخطط لقيادة الطائفة ويعني بتمشية شؤونها، يرأسه رجل الدين الأعلى مرتبة دينية.

وهكذا سارت الأمور إلى الأحسن وتمكنوا من بناء مندي القادسية المتطور نوعاً ما، وعُيِّن الریش أمة عبد الله الكنزبرا نجم رئيساً روحانياً للطائفة بمرسوم جمهوري وهو الأول في تاريخهم، وشكل لأول مرة المجلس الروحاني الأعلى للطائفة وفي بداية تشكيله كان يضم عدداً من رجال الدين ثم طوره وضموا له عدداً من رجال الطائفة الوجهاء والمثقفين، فوضعوا نظاماً داخلياً لتسيير الأمور، وكان رئيس المجلس الروحاني الأعلى رئيساً للمجلس ورئيساً للطائفة، بيده الأمر والنهي، وحتى تعيين الأعضاء وإعفائهم، كان رئيس الطائفة ذا إمكانيات إدارية محدودة ولم يواكب التطور الحاصل في جميع المجالات التي تهم الطائفة ومستقبلها، ومع هذا حصل بعض التطور في الإدارة وعندما شجعت الدولة النظام العشائري في العراق شجع رئيس الطائفة المجلس الروحاني الأعلى على ضرورة تشكيل مجلس للعوائل من العشائر المندائية، وسموها العوائل المندائية، وتم رفع شعار (المندائيون عائلة واحدة)...

وعدد هذه العوائل سبعة عشر عائلة، أهمها:

- | | | |
|-----------------------|-----------------------|----------------------|
| ١- العائلة الخميسية | ٢- عائلة أبو زهرون | ٣- العائلة المندوية |
| ٤- العائلة الكحيلية | ٥- العائلة الصابورية | ٦- العائلة المهناوية |
| ٧- العائلة السيفية | ٨- العائلة المسودنية | ٩- العائلة البريجية |
| ١٠- العائلة الكلمشية | ١١- العائلة البنكانية | ١٢- العائلة الدهيسية |
| ١٣- العائلة الجيزانية | ١٤- العائلة السبتاوية | ١٥- العائلة الفريجية |
| ١٦- العائلة الكيلانية | ١٧- العائلة العثمانية | |

وهناك عوائل كريمة أخرى لا تشكل أعدادها في إمكانية تشكيل مجلس عائلة مثل العائلة العزازية والعائلة السهيلية والعائلة الحدادية، فانضمت هذه العوائل إلى العوائل التي شكلت مجالسها القريبة منها في الرحم، كل عائلة شكلت مجلس العائلة بالانتخاب، ومجلس العائلة ينتخب أو يختار واحد من أعضائه يمثلهم في المجلس الروحاني الأعلى، على أن يحظى بموافقة رئيس الطائفة.

كانت البداية جيدة وجاء إلى المجلس كفاءات جيدة، قدموا بعض الخدمات التي نالت استحسان ورضا رئيس الطائفة، وقام المجلس بزيارة ميمونة إلى الفاتيكان وإلى الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وإلى هيئة علماء المسلمين... وزار مندي الطائفة عدد من الشخصيات المرموقة في المجتمع العراقي، وحصلت زيارات متبادلة مع الديوانيات البغدادية، وألقيت عدد من المحاضرات عن الصابئة المندائيين لاقت استحسان الجميع.

أراد أعضاء المجلس الروحاني الارتقاء بالعمل إلى مستويات أفضل، يدفعهم طموحهم لمواكبة التطور الحاصل في العالم، وبدأ التنسيق مع وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ولكنهم تقاطعوا مع رئيس الطائفة لأسباب شخصية ومصلحية وعندما أرادت مجموعة من الغياري من أعضاء المجلس ترجمة الكتاب المقدس (الكنزا ربا)، لم يتمكنوا من إقناع رئيس الطائفة آنذاك والذي خالفهم الرأي واعتبر ذلك من أشد المحرمات، ولا يجوز لغير رجال الدين الإطلاع عليه ومعرفة كنهه.

توسع الخلاف وحصل الصدام وتآزر أعضاء المجلس وكاشفوا رئيس الطائفة بالحقائق وأرسلوا له كشفاً سموه المكاشفة، وبادر أعضاء المجلس إلى اعتماد نظام داخلي جديد للطائفة بالتنسيق مع وزارة الأوقاف، مديرية شؤون الطوائف وشكلت لجنة موسعة لإعداد نظام جديد رغم معارضة رئيس الطائفة، حيث أسست بموجبه ثلاثة مجالس لإدارة الطائفة وهي:

أولاً: المجلس الروحاني العام : ويضم كافة رجال الدين ومختص بالأمور الدينية فقط.

ثانياً: مجلس عموم الطائفة : ويتشكل من خمسة أفراد من كل عائلة يرشحون بالانتخاب الحر المباشر فيكون عدد أعضائه خمسة وثمانون، ويضاف لهم اثنان من كل مجلس شؤون فرعي يدير به أبناء الطائفة في محافظات العراق التي فيها تواجد مندائي، وبذلك أصبح العدد الكلي لمجلس العموم بحدود مائة عضو يزيد أو يقل.

ثالثاً: مجلس الشؤون العام : وأعضاؤه تمّ تعيينهم بالانتخاب الحر المباشر من قبل العوائل المندائية، كل عائلة يمثلها شخص واحد كعضو في هذا المجلس، على أن يصادق عليهم مجلس العموم، ومهام هذا المجلس هي إدارة شؤون الطائفة الإدارية والمالية والثقافية والاجتماعية، والعلاقات الداخلية والخارجية والمحكمة الشرعية المندائية والمدرسة المندائية، وكافة النشاطات بما فيها مركز الترجمة والبحوث ومجلة آفاق مندائية.

بما أن النظام الداخلي الجديد للطائفة، تتضمن إحدى مواد الحق لمجلس العموم وبالأغلبية المطلقة محاسبة أو فصل أي عضو لا يقوم بواجباته من أعضاء مجلس الشؤون، كذلك يحق له إعفاء رئيس الطائفة بأغلبية الثلثين إن أساء استخدام صلاحياته أو عجز عن أداء مهامه، ونظراً لتعارض مواقف رئيس الطائفة مع مجلس الشؤون العالم فقد حصلت المكاشفة كما أسلفنا بين أعضائه ورئيس الطائفة الشيخ عبد الله رحمه الله، وبطلب من مجلس الشؤون العام انعقد مجلس عموم الطائفة بكامل أعضائه وأصدر قراراً ملزماً وبأغلبية الثلثين

بإعفاء رئيس الطائفة من منصبه ، وتعيين مجلس رئاسة مؤقت يدير شؤون الصابئة المندائيين يتكون من السادة:

١- الشيخ رافد الشيخ عبد الله.

٢- بشير عبد الواحد يوسف.

٣- لعبي خلف رمضان.

وفي منتصف عام ٢٠٠٠ جرت انتخابات لاختيار رئيس للطائفة ، وترشح عدة رجال دين منهم الشيخ ستار جبار حلو ، والشيخ سلام غياض كاطع ، والشيخ خلدون ماجد عبد الله والشيخ خلف عبد ربه لفته ، وتم انتخاب الشيخ ستار جبار حلو ومازال فضيلة الريش أمة رئيس لطائفة الصابئة المندائيين في العراق والعالم.

دعم رئيس الطائفة الجديد توجهات مجلس الشؤون العام وتعاون مع رئيسه وأعضائه في إنجاح عملهم ودعم أقسام هذا المجلس ، وتحرك مجلس الشؤون بوضع خطط مدروسة ووضع لها سقف زمنية لإنجازها ، وهياً لها مستلزمات التنفيذ والنجاح مادياً ومعنوياً ، تطوع للعمل رجال مخلصين لدينهم وطائفتهم ، تمّ انتخاب السيد بشير عبد الواحد يوسف رئيس لمجلس الشؤون العام ، يعاونه نخبة ممتازة من أعضاء المجلس ، وبدأت الإنجازات تأخذ طريقها بالتتابع ، وأهم ما أنجزته الدورة الأولى للمجلس:

١. ترجمة الكتاب المقدس كنزا ربا (الكنز الكبير) من اللغة الآرامية المندائية إلى اللغة العربية.

٢. ترجمة كتاب تعاليم النبي يحيى بن زكريا (دراسة آد يهيا).

٣. تأسيس المحكمة الشرعية المندائية.

٤. تطوير نشرة آفاق مندائية إلى مجلة رصينة تصدر بطباعة راقية لاقت نجاح منقطع النظير في الأوساط الثقافية.

٥. تطوير بناء مندي القادسية في بغداد القاعة الرئيسية والإدارة وفتح مقرات للمجالس الثلاثة، وتنظيم العمل الإداري للطائفة.

٦. إنشاء أرض التعميد على نهر دجلة قرب جزيرة الأعراس بجانب جسر الجادرية في بغداد.

٧. تأسيس المدرسة المندائية.

٨. إقامة علاقات متقدمة والتنسيق مع الجمعيات المندائية في دول المهجر.

٩. الاستفادة من نادي التعارف الخاص بالصابئة في تمتين العلاقات بين أبناء

الطائفة وكذلك مع المجتمع العراقي، والدعم المادي لمشاريع الطائفة.

١٠. تشجيع أبناء الطائفة الميسورين في داخل وخارج العراق للتبرع للمشاريع ودعم العوائل المتعففة.

١١. بجهود مكثفة من الجميع تمّ الحصول على أرض جديدة على نهر دجلة من الدولة العراقية ، وتقع بجانب الكرخ قرب جسر الصرافية ، وخصصت لبناء مندي جديد في بغداد يليق باسم الصابئة المندائيين.

لقد كان تشكيل ثلاثة مجالس (روحاني، شؤون، عموم) تجربة رائدة في تحسين أداء مؤسسات الطائفة وإداراتها وفق مبدأ الانتخاب لاختيار أكفأ العناصر ، وهي تجربة ديمقراطية حقيقية، وكانت الأولى من نوعها بالعراق، وتم ترشيح الكفاءات العلمية والثقافية والمهنية للمواقع القيادية ، ساهم بفاعلية على نقل الصابئة المندائيين نقلة نوعية في جميع الجوانب.

حقيقة أن النظام والتنظيم أساس رقي المجتمعات المتحضرة والسبيل إلى تقدمها، إن اعتماد الخطط المدروسة والمحكومة بسقوف زمنية والتي يتم عليها بالتصويت الحر المباشر ، ومتابعتها ومراقبتها من قبل مجلس عموم أعطى نتائج باهرة في مسيرة الطائفة، وكان العمل الجماعي وتضافر العقول والجهود وبروح المسؤولية والتعاون النزيه قد أعطى ثماره الياضعة، وأن النتائج الإيجابية قد عززت روح العمل وتم تبنيه من قبل الجميع ورفده بكل مقومات النجاح.

المسألة الأخرى التي تبناها مجلس عموم الطائفة بدعمه مجلس الشؤون العام هو اعتماد رأي الأغلبية، واحترام رأي المعارضة وعدم تهميشهم أو التقليل من

شأنهم ، وإنما الدخول معهم في حوارات جادة ومثمرة لإيجاد صيغ مشتركة للعمل ، ولكن عليهم أن ينفذوا مع الآخرين ما قرره الأغلبية بكل همة واندفاع.

دائمًا نقول لكل الإخوان العاملين طوعية استفيدوا من رأي المعارضة ، لأنها تنبهكم إلى أخطائكم ، ولكي تستطيعوا أن تضعوا أصبعكم على الفتق قبل أن يكبر ، وهكذا سارت الأمور نحو الأحسن لولا الهجرة التي أفقدت العمل الجماعي في مؤسسات الطائفة في العراق من كثير من الكفاءات المهمة والمؤثرة التي هاجرت في أصقاع الأرض ، ومع هذا فلقد استمر الغياري الذين بقوا في وطنهم الأم العراق وهم خمرة هذا الدين العظيم مناضلين أبطال متحدين الاحتلال والتطرف الديني وعصابات القتل والسلب والنهب ، وقتل عدد من أبنائهم على أيدي هذه العصابات المجرمة بسبب ضعف القانون وضعف الدولة والتناحر الطائفي المذهبي ، وتصارع القوى السياسية...

ولكن مع هذا الانهيار قام الأخوة في العراق بتجميع قواهم للحفاظ على أبناء طائفتهم ودينهم فتمكنوا من بناء بناية جديدة مجاورة لمندي القادسية في بغداد الذي طوره وبنوا فيه بيت المعرفة ، وشراء دار الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد المجاور للمندي ، لتنشيط العمل المندائي في كل الاتجاهات ، وكذلك قاموا ببناء وتجديد عدد من المندائي في المحافظات ، ونجحوا في انتخاب نائب عنهم في البرلمان العراقي ، وتعيين مدير لأوقاف الطائفة وكذلك عدد من السفراء العاملين في دول العالم ، وتم تثبيت الصابئة المندائيين في الدستور العراقي وغيرها من القوانين ، وهي جهود مشكورة رغم قلة عددهم ، وقلة إمكانياتهم المادية ، ولكنهم أثبتوا للعالم قوة إرادتهم وحبهم لدينهم ووطنهم ، فهم شريحة مهمة ومحترمة من شرائح الشعب العراقي.

لُغَتُهُمْ :

هي لهجة مندائية، فرع من اللغة الآرامية الشرقية من عائلة اللغات السامية، لقد دونت جميع الكتب الدينية المندائية باللغة الآرامية المندائية.

تتكون الأبجدية من ٢٤ حرف تبدأ بحرف (آ) وتنتهي به، لاعتقادهم أن كل الأشياء تعود إلى أصولها وبدايتها، ولقد كتبت بها جميع الكتب الدينية والمخطوطات وبهذه اللغة تجري جميع الطقوس والشعائر الدينية، يحفظها ويفهمها رجال الدين وعدد من أبناء الطائفة المهتمين بها، وجرت محاولات عديدة لتعليم اللغة المندائية للراغبين في تعلمها، وفي بغداد تم إنشاء المدرسة المندائية في أواخر التسعينات وانتظم عدد لا يستهان به من الدارسين، وهيأت المناهج والمعلمين وتخرجت دورات تستطيع أن تتفاهم فيما بينها لإيصال المعلومة، ولكن المشكلة أنهم لا يتكلمون باللغة المندائية في البيت أو في مجالسهم أو بينهم، فسرعان ما تضعف وينسون معظم ما تعلموه.

حاليًا في بلاد الغربية تجري محاولات عديدة لإعداد مناهج متقدمة يسهل على الدارسين تعلمها، ولكن مع هذا مازالت العملية الدراسية في بدايتها وتحتاج إلى أموال ورجال وجهد كبير.

إن اللغة المندائية متشابهة إلى حد بعيد مع اللغة السريانية، بل قل إنها لهجات آرامية متقاربة، ولهذا عند ترجمة الكنزا ربا تم الاستعانة بالبروفيسور يوسف متى قوزي أستاذ اللغات والرجل سرياني، يجيد اللهجة المندائية إجابة تامة، فأبدع في أعمال الترجمة، جزاه الحي العظيم خير جزاء، بالاشتراك مع البروفيسور المندائي صبيح مدلول أستاذ اللغة العبرية، وتحت إشراف ومتابعة لجنة الإشراف على الترجمة، ومن ثم الصياغة وأخيرًا لجنة التدقيق، جزاهم الحي العظيم خير جزاء.

وحول اللغة المندائية وغيرها نقرأ للباحث الأستاذ باسل حمودة مقال عن الصابئة المندائيين بعنوان (الصابئة تجوال في معتقداتهم وعاداتهم الاجتماعية) جاء فيه :

الصابئة... تجوال في معتقداتهم وعاداتهم الاجتماعية :

الصابئة مجموعة دينية تعيش في جنوب العراق بشكل أساسي حول فروع نهر دجلة مثل الكحلاء والمشرح والبتيرة، وبعضهم يسكن على ضفتي نهر الكارون في إيران فهم ديانة مائية، بمعنى أن منتسبيها لا يعيشون إلا حول الماء بسبب ارتباطهم الطقسي به منذ نشأة هذا الدين.

يؤمن الصابئة المندائيون بالإله الواحد وبأن آدم سيد البشر ويرتلون أناشيدهم الدينية باللهجة المندائية التي هي فرع من اللغة السريانية القديمة وتسمى عندهم بـ«الرطنة».

تقول الليدي دراور التي كتبت عدة دراسات عنهم إنهم «يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويؤمنون بالحساب والثواب والعقاب، وأن الأبرار منهم يذهبون إلى عالم النور وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام، ولا يفرض عليهم الصوم بمعناه المعروف إلا أنهم يمتنعون عن أكل اللحوم حوالي خمسة أسابيع متفرقة على طول السنة، وتشير دراور إلى أهمية معرفة الدين الصابئي لأن ذلك يتعلق بدراسة الأديان الأخرى، فدراسة هذا المعتقد توضح لنا ملتقى التوحيد القديم بالوثنية القديمة.

ويعتقد بعض المسلمين أن سبب تسميتهم بالصابئة أنهم «صبأوا» عن الدين الإسلامي إلا أن ذلك ليس صحيحاً تاريخياً، فالصابئة يعتقدون أن سبب تسميتهم بـ«الصبه» بفتح الصاد أنهم يصبون الماء عليهم، أي يتعمدون به، وهم يسمون التعميد في لغتهم الخاصة مصبنا، كما أن ابن النديم يدعوهم بالمغتسلة.

يقول غضبان الرومي ونعيم بدوي - وهما من كبار مثقفي الصابئة (وقد قاما بترجمة كتاب الليدي دراور "الصابئة المندائيون" عن الإنجليزية - إن الليدي دراور درست الدين الصابئي مدة ربع قرن، وطبعت بحثها عنهم عام ١٩٣٧، وقامت بالتعاون مع د. رودلف ماتسوخ بتأليف (قاموس اللغة المندائية) وهو قاموس مندائي انجليزي طبعته جامعة أوكسفورد عام ١٩٦٣، ويعتبر المرجع الوحيد في لغتهم حتى وقتنا هذا رغم ظهور كتب أخرى في الديانة المندائية، كما أن الصابئة دينياً لا يعرفون أنفسهم بهذا الاسم بل بأنهم مندائيون، والمندائي باللغة الآرامية تعني (العارف).

وترجح دراور أن اعتماد الصابئة على الماء الجاري في طهارتهم اليومية جعلت التسمية الشعبية لهم تؤخذ من فعل (صبا) الآرامي، ومعناه يرتمس أو يتعمد.

والعلاقة بين صابئة حران وبينهم ليست مجرد تسمية تجمع بين الجماعتين، إذ هرب الناصوريون (الصابئة الموحدون) من اضطهاد اليهود لهم في القدس وبحثوا عن مأوى لهم في جبال ميديا حيث مدينة حران حوالي العام (٧٠) ميلادية، ومن حران اتجهوا بعد ذلك بسنوات إلى منطقة الطيب (الطيب مائة) الواقعة بين واسط وخوزستان في جنوب العراق ومازالوا هناك.

يعتقد الصابئة أن جدهم الأعلى ونبيهم بعد آدم ونوح هو «سام» وهم ليسوا فرقة من النصارى رغم تعظيمهم للنبي يحيى واعتبارهم له نبياً أنقذهم من ضلال اليهودية وقام بالمعمودية، وهم ليسوا مجوساً لعدم تقديسهم للنار، لكن بعض شعائريهم تتشابه مع أديان المنطقة بفعل تواجدهم القديم فيها.

إن خلاصة الدين الصابئي المندائي هي عبادة قوانين الحياة والخصب القديمة، لكن الحديث عن هذا يظل مبهماً ينطلق من تعظيمهم للماء الحي أو الجاري الذي يسمونه (يردنه) ومن هنا يكون أحد الطقوس الرئيسية عندهم هو الاغتسال بالماء الجاري، والقانون الثاني في ديانتهم يتمثل في تجسيد النور ملكاً، وفي

الدستور الأخلاقي للصابئة كما هو عند الزرادشتيين ينبغي أن يصاحب صحة ونظافة البدن والطاعة للقوانين الأخلاقية.

الأمر الثالث الحيوي في هذه الديانة هو الاعتقاد بخلود الروح وصلتها الوثقى بأرواح أسلافها ، فوجبات الطعام تؤكل نيابة عن روح الميت وتمنح أرواح الخيرين من الموتى العون الدائم للأحياء.

الحياة الاجتماعية والمعتقدات :

يعتبر الصابئة الزواج فرضاً دينياً والعزوبة خطيئة، ويدهن الطفل عند ولادته بالزبد المالح ويغسل بالماء الفاتر والصابون ، وتذهب المرأة الوالدة حديثاً إلى النهر حيث تغتسل ثلاث مرات مع دعاء محدد ، وتوضع حلقة السكين الدينية (سكين دولة) في خنصرها الأيمن ويوقد مصباح إلى جانب فراشها مدة ثلاثة أيام ، ثم تعاود المرأة الاغتسال الثلاثي في النهر في الأيام الثالث والسابع والعاشر والخامس عشر والعشرين بعد الولادة، وتبقى في الأيام السبعة الأولى بعد ولادتها في شبه دائرة من الحصى ، وتجرى لها ولولدها عدة عمادات بعد هذا.

حين يعمد الطفل يبحث عن رجل له اسم مشابه لاسمه الديني ويجري تعميده في الماء الجاري في طقوس دينية مطولة ، ويعتقد الصابئة أن المقتدرة ليليث هي المسؤولة عن سلامة الطفل قبل الولادة وبعدها ، وليليث تعرف في معجم الأساطير أنها إلهة سومرية للخصب عند سكان وادي الرافدين القدامى.

لا يجوز للكاهن الصابئي شرب حليب البقر أو الجاموس إلا بعد مرور ثلاثين يوماً من ولادة البقرة الأم ، ويلقن الطفل ألا يأكل لحماً لم يذبح حسب الأصول الدينية ، وهم يعتبرون أن أكل الطير المفترس حرام وكذلك الغراب الأسود آكل الجيف ، ويحرم عندهم أكل لحوم الجمل والحصان والخنزير والكلب والفأر والأرنب والقط ، ويعتبر الصابئة المتدينون أن ذبح الجاموس أو البقر جريمة كبرى ولكن ليست هناك أهمية دينية للبقرة ، ويسمح عندهم بتناول أنواع من

الأسماك لكن الأفضل لدى المتدينين عدم أكل اللحوم، بل إن عملية الذبح تقوم على أساس اعتذاري مشوب بالندم، كما أن الكتاب الديني الأساسي (كنزا ربا) يعتبر جميع أنواع القتل وسفك الدماء خطيئة عدا الحشرات الضارة.

يتمتع الصابئة عن أكل الدجاج والبيض خلال وجبات الطعام الدينية التي تتم في الأعياد وحفلات الزواج والميلاد، بالإضافة إلى امتناعهم عن إهداء بيضة لجار أو لراغب فيها من خارج البيت بعد غروب الشمس، ذلك أنهم يعتقدون أن موتاوشيكاً سيحل بالبيت الذي وهب البيضة! إن عملية ذبح الطيور والأغنام تتم لديهم من قبل الكاهن أو شخص موثوق دينياً (حلاي) وفق طقوس وأدعية خاصة تجرى عند الماء الجاري (النهر)، ومحرم على الصابئة ذبح النعاج، وعندما يكتمل الذبح وتنقل الذبائح إلى البيوت بعد غسلها يعود الكاهن إلى النهر ليقرأ دعاء مغفرة الذبح. ويعمد الصابئة القدور وأواني الطبخ في أوقات معينة وخاصة في أيام (البنجة) وهي أيام مقدسة خمسة لديهم.

- **الماء الميت والحي**: يعتقد الصابئة أن الماء المقتطف من النهر الراكد يعد ماء ميتاً لا طهارة فيه، لذا رفض الكثير من الصابئة إنشاء مركز عبادة جديد لهم في بغداد (مندي) يجري فيه التعميد في حوض مكشوف مأوّه مجلوب بالأنابيب، لكن بعضهم استجاب لذلك بعد أن حصل على فتوى دينية من بعض الكهنة، ومع ذلك فإن الكهنة يقولون إن الماء المأخوذ من النهر الحي الجاري في إناء طاهر يعتبر ماء حي وطاهر ويجوز استخدامه للعماد.

- **باب وعتبة الدار لدى الصابئة**: عادة يُذبح كبش كفداء عند بناء بيت جديد ويدفن رأس الكبش في عتبة الدار حماية لها من الأرواح الشريرة، وعتبة الدار لديهم شيء مهم تقوم الطلاس على حراسته، ويدس الودع أو الفخار الأزرق فوق الباب، كما تعلق أو تنقش في الباب أو عليه حية رمز للحياة، أو دمية من الخرق فيها أضرار زرق، وتعلق فوق الباب قرون البقر، وعند وفاة أحدهم في الدار تدفن عند العتبة أو أن أو قطع معدنية لمنع الشياطين من دخول الدار مرة أخرى.

- **سر النقش بالمينا:** يشتغل الكثير من الصابئة بتجارة الذهب وصياغته في بغداد والمدن الكبرى الأخرى، وقد انتشر كثير منهم في مدن العراق الجنوبية ليعملوا في صياغة الفضة وتطعيم الأشكال المصاغة فيها بمادة المينا، ويعتبر النقش بالمينا سرًا فنيًا خاصًا يتوارثه الصانع الصابئي عن أبيه ولا يعرف تفاصيله غيرهم، حيث ينقش الرسم المطلوب على سوار الفضة أو الخخال أو صفيحة فضية أخرى كالصحن وسواه ثم تملأ النقوش بالمينا، وتدخل المادة المصاغة عندئذٍ وفق توقينات خاصة في النار للتثبيت، وتأخذ الزخارف المنقوشة أشكال الأزهار أو رسوم الآثار أو غير ذلك.

- **طقوس الزواج:** تتطلب طقوس عقد القران جهدًا استثنائيًا من العروسين ومن رجل الدين (الكنزفره) الذي يقوم بالعقد ومن مساعده، إذ أن أول الأمور أن تكون ملابس الكاهنين (الرسته والطبرشيل) نظيفة مطهرة تمامًا، وأن تغسل الأطعمة التي ستقدم خلال عقد القران بالماء الجاري، ويفتقد الكاهن ملابس العريس البيضاء ويتأكد من ترتيبها على الوجه الصحيح قبل إجراءات العقد، ويرسل الكاهن (الكنزفره) مساعده إلى العروس ليسألها رسميًا أمام الشهود إذا كانت راغبة بالزواج من ذلك الرجل، فإذا وافقت وضع في خنصرها خاتمين حجرهما أحمر وأخضر، ثم يصب الماء على يديها ويقدم لها الزبيب واللوز لتأكل ثم تلتحق بعريسها الواقف عند ضفة النهر وبعد إجراءات كثيرة وأدعية يكون فيها والد العروس أو من يمثله بديلًا لها يؤذن بلقاء العروسين ويبدأ أداء أغنية (يا طالي دزيوا)، أي يا أشعة النور مع تصفيق خاص، ثم تتقدم العروس إلى غرفة العرس المبنية على ضفة النهر على شكل عرزال حيث يكسر مساعد الكاهن قنينة فخارية عند العتبة قبل دخولها، وفي غرفة العرس تجلس العروس على الأرض وظهرها إلى ظهر العريس ويقترب الكاهن فيهما وهو يتلو أدعية خاصة ويدق رأسيهما برفق الواحد بالآخر ثلاث مرات بين غناء الآخرين، ثم يمر الكاهن بصولجانه على رأس العريس ثلاث مرات ويخرج لتنتهي مراسيم الزواج الدينية.

ولا يمكن للعريس أن يقرب عروسه إلا في ساعة فلكية ملائمة يحددها كشف الطالع الذي يقوم به الكاهن الأكبر ، وبانتهاء الاحتفال يمنع تماس الآخرين بالزوجين حتى يخرجوا من البيت إلى العماد في النهر مصطحبين معهما كل أدوات الزواج لتطهيرها في الماء الجاري ، حيث يقام حفل آخر ليغدو الاقتراب من العروسين مسموح دينياً.

- **الصابئة والكواكب الأخرى :** يأتي تكوين العالم من قبل الكائن الأعلى في كتاب (كنزا ربا) بعدة أشكال ، ويسمى الكائن الأعلى بأسماء متعددة منها «ملك النور» و«رب العظمة» و«الحي العظيم» وهو عندهم خالق عالم الأنوار ، وأول ما خلقه هو الماء ومن الماء النور ومن النور الضياء ومن الضياء الأرواح (اثري) ووظيفتها السيطرة على الظواهر الطبيعية.

ويحكم أحد الكواكب في كل يوم من الأيام كما يتحكم ملائكة معينون بالأيام وتكون لهم صفات فلكية ، فقرص الشمس (شامس) له بحارة من سبعة أرواح (اثري) نورانيين ، ويقول كتاب (ديوان اباتر) إن الأرواح (الاثري) هي زهير وزهرون وبهير وبهرون وسار وسروان وتار وتروان ورابيا وطاليان ، وبذلك يكون عددهم عشر ، وفي هذا الكتاب يظهر المطهر وذمة زورق القمر والأثريون الجوالون بين الكواكب والنجوم مثل رواد الفضاء.

الدين الصابئي المندائي دين قديم اختلطت فيه التأثيرات البارسية والبابلية القديمة بتأثيرات الأديان الموحدة ، وقد ظلت كتب الصابئة الدينية بعيدة عن الترجمة حتى قام نفر من شبابهم وشيوخهم بعد أن لمسوا حماس المستشرقين وعلماء الأديان لذلك فترجموا تلك الكتب عن المندائية والإنجليزية والألمانية والفرنسية ، وبذلك اتضحت أسرار هذه الديانة التي كانت غامضة حتى عليهم ومنهم الصابئة قبل غيرهم دلائلها ونصوصها التي كانت قاصرة على الكهان دون غيرهم ، ومازالت البحوث حول المعتقد المندائي تتابع للكشف عن أسرارهِ وعلاقته بالأديان الأخرى.

■ تعقيب على مقال الأستاذ باسل حمودة :

- الصابئة المندائيون يتكلمون اللهجة المندائية التي هي فرع من اللغة الآرامية الشرقية ، وهي مشابهة إلى حد كبير مع اللهجة السريانية الآرامية ، ولا يوجد شيء اسمه (الرطنة) كما ادعى كاتب المقال ، ولكن الشيء المتعارف عليه أنك إن لم تفهم ما يقوله غيرك تسميه رطنة ، وهي كلمة عراقية شعبية متداولة ، كأن تقول لشخص إنك ترطن علي ، ومعناها لا أفهم ما تقول ، ومن الطبيعي عندما يتكلم المندائي بلغته المندائية وسط الذين لا يعرفون هذه اللغة يعتبرونها رطنة ، وهذه تشمل جميع الذين يتحدثون باللغات واللهجات المحلية المتداولة في العراق مثل الكردية والسريانية والتركمانية وغيرها .

- الصيام عند الصابئة المندائيين يبلغ ٣٦ يوم موزعة على أيام السنة ، يمنع فيها المندائي الملتزم دينياً عن تناول أي طعام فيه روح ، أي فيه حياة .

- الدين المندائي جذر التوحيد الأول ، وقد أثر وتأثر بكافة الأديان القديمة والأديان التوحيدية في المنطقة ، وهذا تحصيل حاصل للمعايشة في نفس الزمان والمكان .

- الصابئة المندائيون هذا اسم محبب لهم ، فهم صابئة نسبة إلى الفعل الآرامي صبأ أي غطس أو اغتسل بمعنى اصطبغ بالماء الجاري .

- أما المندائيون فتعني "العارفون أهل العلم والمعرفة" ، ويسمى معبدهم (المندي) أي بيت العلم والمعرفة ، وبذلك يكون اسمهم "الصابغون العارفون" ، أو "المتعمدون العارفون" .

- ليس هناك دلائل وقرائن تثبت أن صابئة حران يعبدون الكواكب ، وإنما اهتموا بدراسة الكواكب والأفلاك ، وهذا علم يحسب لهم وليس عليهم ، ومن صابئة حران هناك علماء وأدباء وأطباء وعلماء رياضيات وفلك وهندسة ، ملأوا الدنيا ، خاصة في عصر النهضة في الحضارة العباسية .

- هناك دلائل تاريخية على هجرة أعداد منهم من فلسطين إلى مدينة حران سنة ٧٠ م بعد الظلم الذي لاقوه على يد اليهود ، وأعمال القتل والذبح والنهب والسبي ، مما اضطرهم للهرب واللجوء إلى أخوة لهم في مدينة حران ، وقسم آخر اضطر فتهود ، وعدد آخر هربوا إلى الجبال والمناطق النائية أو اختبئوا ، لكن بعد زمن عاد عدد كبير من الذين تهودوا إلى الدين المندائي ، فسموهم يهوطاوي أي النازلين دينياً أو الخطائين ، أي لا يصلح أحدهم ان يكون رجل دين ويقدم خدمات دينية للآخرين ، ولا يحق لأحدهم أن يكون حلالى لا هو ولا ذريته.

- الصابئة المندائيون طائفة دينية تعتبر نفسها جذر التوحيد الأول ، وأن أول أنبيائهم آدم وآخر أنبيائهم يحيى بن زكريا عليهم السلام ، وهم بالتأكيد ليس فرقة يهودية ولا نحلة مسيحية لأنهم سبقوا هذه الأديان بالتوحيد ، ولهم كتبهم الدينية المقدسة ، وعلى رأسها كتاب الكنزا ربا (الكنز العظيم) ، كذلك هم ليسوا مجوس مع العلم أن المجوس لا يقدسون النار كما هو شائع عنهم ، لكن النار يجب أن تكون مشتعلة في معابدهم ليل نهار ، لأنهم يعتقدون أن النور هو الضياء في العالم العلوي (الشمس) وأن النار تمثل الضياء في العالم السفلي ، هكذا المجوس يعتقدون ولا علاقة للمندائيين بهذا الاعتقاد والخاص بالمجوس .

- يعتبر سام بن نوح أحد أنبيائهم الذي نزلت عليه عدد من الصحف الأولى (الكنزا ربا) وهو وزوجته نهوريتا قد بنوا الدارة بعد أن فني العالم بالفيضان .

- الصابئة المندائيون يؤمنون أن الماء والنور هما أساس الحياة ، ولهذا فهم يقدسون الماء الجاري لأنه مصدر الحياة ، ويقدون النور ويسمون الخالق ملك النور السامي .

- قلنا من الطبيعي أن يكون هناك أوجه تشابه بين الصابئة المندائيين والأديان الأخرى التي عاشت في نفس المكان ، ومنهم الزرادشتيون ، فيما يخص النظافة والطاعة للقوانين الأخلاقية ، وهذا أمر بديهي تشترك فيه كل الأديان .

- يؤمن الصابئة بخلود النشمتا (النفس) لأنها طاهرة نقية، وهي هبة من الحي العظيم لا تشوبها شائبة، والروح هي التي تحاسب على ما اقترفته من ذنوب خلال مرحلة الحياة، ويتم تطهيرها من هذه الذنوب في المطرathi (محطات الحساب)، وأن النشمتا بعد تحررها من الجسد تعود إلى الدموثا (المثيل) في عالم الحق (مشوني كسطه).

- أما المحرمات في الدين المندائي فهي كثيرة لا مجال هنا لعددها ولكننا نركز على محرمات الطعام في الأيام العادية، بمعنى عدا أيام الصوم الصغير التي ذكرناها في أعلاه ومدتها ٣٦ يوم موزعة على أيام السنة التي يحرم فيها أكل شيء فيه حياة، مثل الطيور والحيوانات الداجنة، وجاء في كتاب الكنزا ربا عن المحرمات ما يلي:

بسم الحي العظيم

(قل يا عبادي لا تزنوا ولا تسرقوا ولا تنتهكوا حرمان الناس... لا تكنزوا الذهب والفضة فالدنيا باطلة ومقتنياتهما زائلة... لا تسجدوا للشيطان ولا تعبدوا الأصنام والأوثان... صوموا الصوم الكبير... صوم القلب والعقل والضمير... يا أصفينائي لا تقربوا الملوك والسلطين والمردة في هذا العالم ولا تنفقوا بهم ولا بأسلحتهم ولا بحشودهم ولا تلووا أعناقكم للذهب والفضة التي يكتزون، إنها سبب كل فتنة سيتركونها وراءهم يوم إلى النار يذهبون... لا تأكلوا الدم ولا الميت، ولا المشوه، ولا الحامل ولا المرضعة ولا التي أجهضت ولا الجارح ولا الكاسر ولا الذي هاجمه حيوان مفترس وإذا ذبحتم فاذهبوا بسكين من حديد... إذا اتخذتم لأنفسكم أزواجاً فاختراروا من بينكم وأحبوهن وليحفظ أحدكم الآخر، هبوا الخبز والماء والمأوى لبنى البشر المتعبيين المضطهدين... إياكم والمُزء بمعوق أو السخرية من ذي عاهة، إن الأجساد قد تبطل بالأوجاع ولكن نشمتا (الأنفس) لا تهان ولا تذرى إلا بأعمالها، إن عكازكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكلون فانظروا إلى ماذا تستندون)

كنزا ربا / اليمين / الوصايا

- هناك عادات وتقاليد من الموروث العام لبلاد ما بين النهرين ، لا علاقة لها بالدين المندائي مثال ذلك دفن رأس الخروف في باب الدار الجديد ، أو تعليق تعويذة أم سبع عيون ، أو غير ذلك من العادات المكتسبة والتي تعودها الناس وتناقلوها عبر الأجيال.

- الباحثة الانجليزية الليدي دراور قالت كلاماً صحيحاً دقيقاً إن الصابئة يوحدون الحي العظيم ، ويؤمنون بالحساب والعقاب والثواب وعمل المعروف ، ويحترمون ما أنزل الحي العظيم من كتب مقدسة على أنبياء الله المرسلين.

البحث الثالث

أركان الدين المندائي والكتب الدينية

لكي نفهم بوضوح أركان الدين المندائي، نوضح بعض المصطلحات المندائية، وهذا مقال للدكتور صباح فاضل والمعنون (مصطلحات مندائية) جاء فيه:

١- هيي: الحي، وهو اسم الخالق (الرب)، الإله المعبود في المندائية، وهو أحد صفات وأسماء الرب وأقدسها، وتأتي بمعنى الحياة أيضاً، لأن الحياة هي الله، والله هو الحياة، ودائماً ترتبط كلمة (هيي) بالمقدسات المندائية الإلهية مثل مندا اد هيي (معرفة الحياة)، ميا هيي (الماء الحي)، اثر هيي (مكان أو أرض الحياة)، بيت هيي (ملكوت الحي)، إن المندائية من الديانات الموحدة Monotheism، والتي تؤمن بإله واحد معبود مستقل ومبعوث بذاته (الاهاد) من نافشي افرش - الإله الذي انبعث من ذاته)، غير محدود الأسماء والصفات والقوة والإرادة، فذلك تطلق عليه اسم (هيي - الحي = الحياة) والحياة هنا يقصد مفهومها العام والشامل المتمثلة بالحركة اللانهائية للوجود، والحي الرب موجود ومنتشر في جميع الفضائل ويسكن الشمال القاصي.

٢- مندا اد هيي: وهو أحد أسماء الرب وأقدسها، وعندما يأتي بمصاحبة (ملكا) فتعني أنه أحد ملائكة الخالق الأزلي المقربين، وإذا قبله جاءت كلمة (ماري) فتعني أنه الرب العظيم الأزلي، اسمه يدل على جوهر الفلسفة المندائية التي تدور حول (الحياة والمعرفة) وترابطهما للصعود والارتقاء إلى العوالم النورانية والاتحاد مع علة الوجود، والملاك مندا اد هيي هو الذي نزل من أرض النور، وأعتق نفس (نشمثا) الأب ومعلم الحق يهيا يوهنا (مبارك اسمه)، ودائماً يوصف (ملكا مندا اد هيي) بالفتنة واليقظة، وهو الذي أنزل شريعة عوالم الأنوار وعلمها لآدم الإنسان الأول.

٣- **هيبيل زيوا** : وهو ملك من عوالم النور العليا ، ومعنى اسمه (واهب أو معطي الضياء) ، وهو بمثابة جبرائيل (كبرائيل). وله أدوار مهمة وكبيرة في الفكر الديني والروحي المندائي ، ويدعى أيضاً برسول النور (شليها اد نهورا) أو برسول الحياة أو الحي (شليها اد هيي) ، فهو الذي جلب الحياة إلى الأرض وأزهرها وجعلها صالحة لخلق الإنسان الأول (آدم وحواء) ، وذلك بأمر وتسليح من الحي العظيم (مصبح اسمه). ويعطى صفة (المخلص) ، ولقد قام هيبيل زيوا بالنزول إلى عوالم الظلام لتقويض الشر والشيطان ، وذلك بأمر الحياة ، ويطلق اسمه على الصباغة الكبيرة المعروفة باسم (صباغة ملكا هيبيل زيوا) والتي هي ٣٦٠ صباغة ، ولقد شارك هذا الملاك بعملية خلق العالم الأرضي ، وهو الذي نزل إلى عوالم الظلام بأمر من ملك الأنوار السامي ، ليكبح جماح الشر ولينشر نور الحياة ، ويلقب بـ (الابن الطيب ، ابن الحياة) ، وهذا الملاك له مكانة مميزة في نفوس المندائيين المؤمنين لأنه حافظ السلالة الحية على هذه الأرض.

٤- **أباتر موزانيا** : وهو أحد ملكي عوالم الأنوار ، والذي يلقب بأنه (صاحب الميزان) ، وهو المسؤول عن المكان الذي توزن فيه الأنفس البشرية عند معراجها إلى باربيها وتحديد طالحتها وصالحها ، فهو يزن الأنفس مقابل نفس أبونا (شيتل) باعتباره أنقى الأنفس الإنسانية ، وكان أحد الأقطاب التي شاركت في عملية خلق الأرض ، ومكان هذا (الملك) في الشمال ، وواقف عند بوابة الحياة ، ويوصف بعدة صفات منها (الأول ، الحارس ، الخفي).

٥- **بثاهيل** : وهو أحد الملائكة الرئيسيين الذين شاركوا في عملية خلق العالم الأرضي (ارا اد تيبيل) ، فهو وبأمر من (الحي العظيم) مصبح اسمه ، صلب الأرض (ماسي ارا) ونجد السماء (ناكد ارقيهها) ورمى بجوفها النجوم والكواكب (رامي ترسر وكوكبي) ، وقام بصنع آدم وزوجته حواء ، ولكنه عجز عن إتمام خلق الإنسان الأول إلى أن أمر الحي العظيم بإنزال (نشمثا - النفس) من ملكوت الحياة (بيت هيي) وإحلالها في جسد الإنسان الأول.

٦- أنوش أثرا: وهو أحد الملائكة الأثريين الثلاثة (هيبيل وشيثل وانش) والذين يوصفون بأنهم حماة أسرار الحياة ومن مساعدي (ملكا منداهيي)، ولهذا الملاك دور متميز في حياة أبونا ومعلمنا المقدس (يهيا يوهنا). فهو الذي علمه أسرار الحياة الأولى، وكان حافظه من الشر الذي كان يضمرة اليهود له.

٧- آدم : ويدعى (آدم كبرا قدمايا) أي (آدم الإنسان الأول)، ولقد خلق بأمر من الحي العظيم (مصبح اسمه) من الطين مع زوجته وقرينته (هوا - حواء)، وهو الأب الأول الذي نزلت عليه التعاليم الأولى، ولديه صحف في كتاب (كنزا ربا - الكنز العظيم). ويعتبر آدم رئيس الدارة الأولى - الجيل الأول (ريش دارا) والتي أفنيت بالحرب. ولقد أجله الحي العظيم وأعطاه رتبة الملكي، وهو أول الأنبياء والآباء المقدسين الذي تؤمن به المندائية.

٨- شيثل: وهو ابن آدم وحواء البكر، ويعتبره المندائيون أحد معلميهم وآباءهم المقدسين، أفدى والده وهو ابن الثمانين عام، وصعد على سحابة من النور إلى عوالم الأنوار (آمي اد نهورا)، غير متزوج، عرف بصلاته وتقواه وشدة تعبه وتسبيحه للخالق، وهو أول من توفى (ارتقى) من الجنس البشري، يعتبر رمز الكمال الإنساني في المندائية، فلذلك يقاس مدى صلاح النفس البشرية من خلال نفس النبي شيثل ويلقب بـ(شيثل طابا) أي الغرس الطيب أو الصالح، وفي المصادر اليهودية يسمى بـ(شيت) أي منحنى الله.

٩- يهيا يوهنا: وهو آخر أنبياء وآباء المندائية، واسمه يهيا يوهنا (م.أ) (يحيى يوحنا)- يلفظ لفظاً مشاعاً بـ(يهيا يهانا)، وهو الاسم الآرامي المندائي للنبي يحيى بن زكريا (في المصادر العربية والإسلامية) ويوحنا المعمدان (في المصادر اليهودية والمسيحية)، وهو نبي الصابئة المندائيون، ولد من أبوين طاعنين في السن ومن أم عاقر، وهو رسول الحي العظيم إلى الإنسان، لإرجاع مبدأ النور الأول (ديانة آدم) الديانة المندائية، ولنشر التوبة والغفران والحق بين البشر، لديه ٣٦٠ تلميذ (ترميذي)، وقام بمعجزات كثيرة منها (شفاء

المرضى)، له كتاب يعرف بـ(دراشا اد يهيا - تعاليم يحيى) مخطوط باللغة المندائية، اشتهر بأداءه المصبتا (التعميد المندائي) فلقب بـ(يوهنا مصبانا - يوحنا المعمدان)، توفي وعمره ٦٤ عام، وقام بتعميد السيد المسيح في نهر الأردن، ويعتقد أن المسيح كان أحد تلامذة يوحنا المعمدان وانشق عنه فيما بعد، ومقامه الآن في الجامع الأموي في دمشق، وهو من الناصورائيين الكبار، ولقد أجله الحي العظيم وأعطاه رتبة الملكي والأثري، ويعتقد الباحثون أن يوحنا المعمدان شخصية بارزة ومرموقة من جماعة الآسينيين، وهو نفسه معلم الحق، وتربى النبي يهيا يوهنا بعيداً عن والديه في جبل بروان الأبيض.

١٠- ادثان ويدثان: وهما كائنين نورانيين متلازمين، وهما المسؤولان عن حراسة اليردنا السماوية، فيكونان مرادفان ل (شلمي وندبي) المسؤولان عن حراسة اليردنا الأرضية، وهما يتضرعان لأرواح الناس الصالحين عند بوابة الحياة في أرض النور.

١١- شلمي وندبي: وهما كائنين نورانيين متلازمين، وهما المسؤولان عن حراسة اليردنا الأرضية، ولهما دوراً مميزاً في الصباغة المندائية ومساعدة الأنفس على الخلاص، وهما اللذان يمنحان خواص اليردنا (النور الإلهي المتجسد) للمصطبغين.

١٢- هيمنوئا: (وردت أيضاً بالعبرية والسريانية)، إيمان، تصديق، الإيمان والاعتقاد بالرب والدين، وهي إحدى ثلاثية المعرفة والعبادة المندائية المقدسة (لوف وكشطا وهيمنوئا - اتحاد وعهد وإيمان) ... وجاءت منها تسمية المرء المؤمن بـ(مهيمن) أي الورع، التقى، المؤمن.

١٣- اسوئا: الشفاء، السلام، الصحة، العافية، النقاء، الطهارة، القوة، وجذرها (اسا). وهي ذات دلالة دينية روحية رمزية مرتبطة بالطقوس الدينية، والتي تعطي الشفاء الجسدي والروحي للفرد.

١٤- **بغره** : جسد ، وعاء النفس ، وهو أحد تراكيب الإنسان الثلاثة (جسد، روح، نفس) حسب الفكر المندائي ، وهو يمثل الجزء المادي والهيكلية التي تعيش بها النفس في هذا العالم ، خلق من طين ، مصيره الزوال والفناء بعكس النفس (نيشمتا) ، ويطلق عليه بالعالم الصغير ، وهو عالم متكامل مقسم إلى عدة أقسام قائمة بذاتها ولكن الواحد يوازن الآخر ومعهم تناعم بديع ومشارك ، ذلك يبين عظمة الخالق في خلقه.

١٥- **يردنا** : الماء الجاري ، الماء الحي ، الماء السماوي في عوالم النور ، اليردنا من عناصر الخلق الأولى في الفكر المندائي ، وتوجد نسبة منه في الأنهار الأرضية ، فاليردنا الأرضية تغذى من اليردنا السماوية والتي تعطيها صفة الحياة والديمومة وهي عبارة عن نور الحي المتجسد في الماء ... وليس كل ماء مقدس في الفكر المندائي ، وإنما فقط الجاري الحي منه الذي يأخذ صفة الحياة والانبعاث (ميا هبي - الماء الحي) ، واليردنا لها أهمية رمزية كبيرة في عملية الخلق وانبثاق الحياة والعوالم ، وهي من صفات الخالق والحياة المقدسة ، وترمز إلى السائل الحيوي للحياة والتكوين ، وجاءت تسمية نهر الأردن من هذه الكلمة أو ممكن العكس ، (مباركة ومسبحة وممجدة هي الأثري التي تسكن في اليردنا - بريخي ومشبي وميقرى اوثري اد شرين ليردنا).

١٦- **كشطا** : العهد ، الميثاق ، القسم ، الحقيقة ، القسط ، العدالة... وتتجسد كشطا بمفهومها في الطقوس الدينية المندائية المقدسة ، لتعبر عن أداء القسم والولاء وصدق العهد ، ولا يتم ذلك إلا بالمصافحة باليد اليمنى (رمز النور) ، وتقبيل الأيدي (رمز لقداسة العهد والإيفاء به) ، وتجسد كشطا في بعض النصوص الدينية على أنها الله الحق (كشطا ياقرا) وهي صفة من صفات الخالق العليا... وكشطا لها أهمية ومدلول كبير في الفلسفة واللاهوت المندائي ، فهي المشاركة في عملية الخلق... وهي دلالة أو رابطة المؤمنين بالرب ، فتطلق على الذين في حظيرة الرب ، تسمية (اخشيطي) أبناء العهد أو الحقيقة.

١٧- شكندا : المساعد ، الشاهد ، المعاون ، الرسول أي بمعنى (شليها) ، وهو الشخص الذي يشهد على صحة المراسيم الدينية المقدسة ، وبدونه لا يتم أي عمل ، فالكاهن يأخذ من (الشكندا) العهد (كشطا) وتتم عن طريق المصافحة باليد اليمنى ، على انتهائه من عمله الديني المقدس... ويرد عليه الشكندا بأن كل ما يطلبه سوف يتحقق لأن العناية الربانية والملائكة والأثري سيكونون عوناً له ، الشكندا بمثابة (شماس) ، ويمكن أن يرتقي الشكندا إلى مرتبة ترميزاً بعد أدائه الطقوس والمراسيم الدينية ، واجتيازه الاختبارات الخاصة ، وهي عند السومريين (أش. كان. دا) وعند الأكديين (اشكندوا) ، وتأتي في النصوص والتراتيل الدينية بمعنى الرسول الطيب (الجميل) الذي يأتي بأمر الحي العظيم (مسيح اسمه) ويفتح قلوبنا للأدعية والصلاة ، ولخلاصنا.

١٨- مندا : العلم ، المعرفة ، الحقيقة. المعرفة الحية هي لب الديانة المندائية ، وتعني معرفة علة الوجود (الرب) وتوحيده ، والتأمل الحي بلاهوته وخلقه ، وهي دائماً مرتبطة بالمقدسات المندائية ، فمثلاً (بيمندا - بيت المعرفة) وجمعها (مندي) ، والتوحيد في اللغة (الإيمان بالرب وحده لا شريك له) ، وفلسفياً (تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الإقهام ، ويتخيل في الأوهام والأذهان).

١٩- مصبنا : من جذر الكلمة المندائية (صبا) أي (غطس ، صبغ ، غمر) ، وهي المعمودية المندائية بالذات ، وهي بالعامية (صباعة) ، ومن جذرها جاءت تسمية المندائيين بالصابئة ، وهو أصل التعميد المسيحي والذي يسمى (معميدوثا) ، المصبنا هي علامة التطهير الروحي والمادي ، وهي صلة الارتباط الوحيدة بعالم النور ، وعن طريقها يرتقي المؤمن بالعلم والمعرفة الروحية إلى العوالم النورانية العليا ، وهي وسيلة لتخليص الإنسان من الخطايا ، والمصبنا محملة برموز ومعاني روحية كثيرة ، تعتبر حالة متكاملة ومهمة لروحانية الفرد المندائي ، وعموماً هناك ترابط روحي بين الطقس المندائي والإنسان بمكوناته الثلاث (نفس ، روح ، عقل) وعوالم النور ، وذلك عن طريق الأسرار التي

تحملها الرموز المختلفة في الطقس ، وتعتبر الميثولوجيا المندائية أن المصبتا أصلها سماوي وجلبها (أول من جلبها) هو الملاك (هيل زيو) عندما عمد (صبع) آدم الرجل الأول، وهي قديمة في أصولها.

٢٠- كنزا: كنز، تعاليم الرب، ويطلق على الكتاب الديني المقدس للمندائيين (كنزا ربا) - الكنز العظيم- وأيضًا يطلق (كنزا اد هبي) كنز الحي، وتأتي بمعنى معرفة الحياة (الحي)، لأن المعرفة كنز، وتطلق مجازيًا على عقل الإنسان لأنه كنز، أو (كنزا تاقنا) - الكنز الكامل (المتقن)... ويطلق مصطلح (بيت كنزي) على المكتبة الحاوية على الكتب والمخطوطات الدينية المقدسة أي (بيت الكنوز)، والكلمة موجودة أيضًا بالعربية والسريانية والعبرية، وتأتي في اللغة بمعنى (كثير)، ومصطلح كنزا يأتي في عدة معاني منها: الأفكار المثالية، الكتب الدينية، الكنوز الفكرية، الطقوس، الصلاة والأدعية، الأسرار الإلهية.

٢١- لوف: الاتحاد، الشراكة، وهي من أساسيات المعرفة والعبادة المندائية، وهي مركز الارتقاء إلى عوالم الأنوار والحياة، وتصف بعدة صفات: (الاتحاد العظيم، البهي، السني، الموقر، اتحاد الحياة أو الحي)، وهي إحدى ثلاثية التوحيد (المعرفة) المندائية (كشطا ولوفا وهيمنوثا)، وهي تعبر عن المحبة والشوق للاتحاد بالعائلة المتقنة في ملكوت الحي، لوف تعني التواصل بين الأحياء والأموات في طقس (الوفاني)، والتواصل بين الرب والإنسان من خلال مراسيم الصباغة (المصبتا)، فالاتحاد يحصل بين الروح (روها) والنفس (نیشمٹا) عند الانتقال من الأرض (الموت)... والاتحاد بين النفس والشبيه (دموثا)... والاتحاد مع الذات العليا للحياة، وهي إحدى عود الحي العظيم (مسبح اسمه) للنفس (نیشمٹا) أثناء نزولها في جسد الإنسان الأول (آدم وحواء).

٢٢- يادويا: من (يادا) العليم، البصير، العارف، العالم، الفاهم، الدارك... وهي صفة من صفات الخالق (الحي)، ومن الجذر نفسه جاءت تسمية (المندائيين) أي العارفين، العالمين (بوجود الله) أي الموحدين... ومن الجذر

نفسه جاءت تسمية (مندا اد هيي)... و(مندا) من أساسيات العبادة والارتقاء
المندائي... وأيضاً من أساسيات تنقية (تطهير) الأنفس، والوصول لعالم الرب
(ملكوت الحي).

٢٣- أثري وملكى: ملكا، ملاك، أثري، كائن نوراني من كائنات عوالم النور
(تجليات الحياة في عوالم النور)... لهم عوالمهم الخاصة، وخلقوا بأمر من رب
الحياة، لهم أهميتهم في توصيل المعرفة والنور إلى جميع الأكوان والعوالم ومن
ضمنها الأرض (رسل النور للحياة)، مفردها (أثر و ملك)، وكل أثرا يجب أن
يكون ملكاً، لكن ليس بالضرورة أن يكون كل ملك أثراً.

أركان وأعمدة الدين المندائي

ترتكز الديانة المندائية على خمسة أركان أساسية هي :

- أولاً : التوحيد :

الصابئة المندائية يعتبرون أنفسهم جذر التوحيد الأول ، ويعتبرون أن عالم الأنوار (الجنة) عالم مندائي بحت ، وأن آدم أول أنبيائهم ، نزلت عليه تعاليم الحي العظيم ووصاياه وتسيحاته ووفق النهج المندائي المثبت في كتاب الكنز العظيم ، والتي يسمونها أيضاً صحف آدم التي تناقلت شفاهاً عبر الأجيال إلى أن دونت باللغة الآرامية الشرقية - اللهجة المندائية ، وقد شرحنا التوحيد في الفصل الثالث ، البحث الثالث ، وأكدنا على تقديس وتعظيم وتمجيد الصابئة المندائيين للحي العظيم في علاه.

لنطلع على مقال الباحث المرحوم سالم غصاب بعنوان : (التوحيد في النصوص المندائية) وجاء فيها :

يؤمن الصابئة المندائيون بوجود إله واحد أزلي (هيي قداميي) انبعث من ذاته (إله ادمن نافشي افرش) خالق الكون وبأمره خلقت الكائنات الحية.

إن كل نص من النصوص المندائية يبدأ بذكر الخالق "بشم اد هيي" (باسم الحي العظيم) وينتهي بعبارة "هيي زاكُن" الحي المزكي ، ومن يتتبع النصوص المندائية يجد أن التوحيد هو العمود الفقري للديانة الصابئية المندائية والأساس الذي تقوم عليه أفكارها وفلسفتها.

فها هي افتتاحية الكتاب المقدس "كنزا ربا" الكنز العظيم مكرسة بأكملها تقريباً لوحداية الحي العظيم وإظهار قدرته الشاملة ، وهذا جزء منها : "بسم الحي العظيم... أسبحك ربي بقلب طاهر ، رب العوالم كلها ، مسبح ومبارك ومعظم ذو الوقار والجلال ، الله الرب العلي سبحانه ملك النور السامي ذو الحول الشامل الذي لا حدود لقدرته ، النور البهي والضياء الساطع الذي لا ينضب ،

الرؤوف التواب الغفور الرحيم مخلص كل المؤمنين ، وناصر كل الطيبين...".
فالحى العظيم (حياة لا يداخله موت) "هيا اد موتا ليتبا" وهو الطيبة التي لا يداخلها سوء "طابا هو اد بيشوتا ليتبي" وهو الغبطة التي لا يأتيا غم وألم "بسما هو اد زهيرا ومرارا ليتبي" ، وهو اللطيف الذي بكلمته وبأمره خلقت جميع المخلوقات... كما أكدت النصوص المندائية على وجوب الإيمان بالله وكتابه والتسبيح له... "وأحبوا اسم الله وكتابه وكلامه وهبوه تسبيحاً ، مولاكم ملك النور العلى الذي انبعث من ذاته".

كما يجب على المندائي أن يستجيب لما أمره به الله في كل وقت وفي أي مكان كان ، "أمرناكم أن اسمعوا صوت الله في قيامكم وقعودكم ، وذهابكم ومجيئكم ، وفي ضجعتكم وراحتكم وفي جميع الأعمال التي تعملون"...

إن الخالق العظيم أوجد الإنسان على هذه الأرض من أجل أن يبنيا ويعمرها وينشر السلام في ربوعها ، وعندما تكتمل "النفس" فترة بقائها بالجسد الفاني يأتي من يحررها لتلتحق بالملكوت الأعظم الذي جاءت منه .

إن الصابئي المندائي يتوجه إلى الحى العظيم بقلب تغمره المحبة والنقاء ، وهو ينبذ الأصنام والأوثان والعبادات الباطلة ، فهو ينكر عبادة الشمس والقمر والنار لأنها زائلة... نجد ذلك في ترتيب التعميد حيث يرفض الأب شيت "شيتل" عبادة غير الحى الأزلي ولا يقبلها شهودا.

جاء ذلك في كتاب النيانى وهو مجموعة من الصلوات والتراتيل ، "بسم الحى العظيم... نهضت من الماء الجارى ولقيت جمعاً من الناس - لقيت من الناس جمعاً ، يحيطون بأبينا شيت "شيتل" قائلين له بحياتك يا أبانا شيتل هلا جئت وصبغتنا "عمدتنا" في الماء الجارى؟.

حسناً ، إن جئت لأعمدكم في الماء الجارى ، فمن سيكون شاهدكم؟.

الشمس المشرقة ستكون شاهدنا... ليست الشمس مطلبي ولا تهواها نفسي فالشمس التي نتحدثون عنها تغرب في المساء ، الشمس التي نتحدثون عنها

باطلة زائفة ، والساجدون لها سينتهون إلى الزوال ، ويتكرر ذلك مع القمر والنار... وأخيراً يقول الجمع من الناس...

"الماء الجاري ووضفاته ستكون شهودنا ، لقمة الخبز المقدس وجرعة الماء المقدس والإيمان والحق ستكون شهودنا ، الأحد الذي نحفظه صادقين سيكون شاهداً... هذا البيت الذي يجمعنا للعبادة هو شاهداً... الصدقات التي نقدمها هي شهودنا ، أبونا ورئيسنا ومعمدنا سيكون شاهداً..."

فيجب أبونا شيتل : "هذا هو مطلبي ، وهذا ما تصبوا إليه نفسي وحين تصعد نفوسنا إلى دار البقاء فستأتي هذه الشهود وتكون شهود حق... "وهكذا تؤكد النصوص المندائية على وحدانية الخالق وعدم الإشرak به .

- ملاحظة : اعتمدت ترجمة الكاتبة والباحثة ناجية المراني.

- ثانياً : التعميد :

ويسمونها الصباغة ويسمون نبي الله يحيى (يهانـه الصابغ) ، وهذا الركن مهم وأساسي ومقدس عند الصابئة المندائيين ، ويقوم به رجال الدين حصراً بمرتبة ترميذاً أو كنزبراً أو ريشماً... إلخ ، ويكون في المناسبات والأعياد وأحسنها عيد التعميد الذهبي في دهفا ديماناً ، أو أيام البنجه (البرونايا) وعددها خمسة أيام بيضاء.

وشعيرة التعميد واجب على كل مندائي لتطهير الروح مما لحقها من آثام أو للنقاء والطهارة ، فعلى الطفل المولود حديثاً أن يتعمد وأن يذكر اسمه الديني (الملاوشة) ، وكذلك عند الزواج ، وحتى المرأة التي تلد واجب عليها أن تتعمد لطهارتها ، وحتى رجال الدين عليهم أن يعمدوا بعضهم بعضاً للتأكد من النقاء والطهارة ، ويكون التعميد عادة في الماء الجاري ، ولكن مع تطور المجتمعات أصبح بعضهم يتعمدون في أحواض خاصة يكون فيها الماء متجدد ، أي له منافذ دخول ومنافذ خروج ، ولكن مع هذا بعض رجال الدين يرفضون ذلك

ويصرون على الصباغة بالماء الجاري، وكما كان يقوم بها نبي الله يحيى على ضفاف نهر الأردن، وكما يؤديها أسلافهم.

الصباغة أو التعميد للجميع ولمن يرغب في الصباغة ما عليه إلا أن يهيئ ملابس خاصة للصباغة تسمى الرسته ، تصنع باليد من القماش الأبيض وأجزاءها : قميص طويل وسروال وعمامة وهميانه ونصيفة ، توضع على الرقبة، والهميانه تحاك يدويًا، وهي بمثابة حزام يربط وفق ضوابط وأصول، كذلك العمامة تلف بشكل أصولي وديني... جاء في الكتاب المقدس:

بسم الحي العظيم : (اصبغوا أنفسكم بالصبغة الحية التي أنزلها عليكم ربكم من أكوان النور).

- ثالثاً : الصلاة :

كانت الصلاة وفق تعاليم الكنزا ربا خمس مرات ، ثلاثاً بالنهار واثنان بالليل ، ولكن وفق تعاليم يحيى اختصرت إلى ثلاث ؛ كلها في النهار... والصابئة المندائيون يعطون للنور أهمية خاصة لأن الله هو ملك النور السامي، فيحاولون أن تكون جميع طقوسهم وشعائهم الدينية في النور وأمام الناس.

والصلاة تشمل على البراخة والرشامة ، أي ذكر التسابيح والوضوء ، وتكون قبلتهم جهة الشمال العلوي القصي ، لأنهم يعتقدون أن باب عالم الأنوار (الجنة) بهذا الاتجاه، وأن الملاك أواثر (أباثر) سادن باب الجنة موجود هناك ، وهم يستدلون على ذلك بواسطة رؤيتهم للنجم القطبي الذي يقع دائماً بنفس الاتجاه، وحالياً تطور التكنولوجيا أصبح من السهولة معرفة اتجاه الشمال بالبوصلة أو الموبايل أو أي وسيلة علمية، وبذلك أصبح رؤية النجم القطبي ليس ضرورياً.

- رابعاً : الصوم -

شعيرة مقدسة عند المندائيين ، والصوم عندهم صومان ، صوم صغير وصوم كبير ، الصوم الصغير هو الامتناع عن أكل ما هو حي في أيام معدودات توزع بنظام على أيام السنة ومدتها ستة وثلاثون يوماً ، يمنع الذبح فيها بشكل تام ، ويسمونها أيام مبطلات ، أي محرمات ، أي أيام حرم ، ولها تعاليم ولها تقويم يحترمه المندائيين ويقدسونه ، خاصة كبار السن والأمهات وكل المؤمنين بالتعاليم المندائية.

أما الصوم الكبير فيأمرهم الله عز وجل أن يصوموا الصوم الكبير ، جاء في كتاب الكنز ربا :

(صوموا الصوم الكبير ، صوم القلب والعقل والضمير * لتصم عيونكم ، وأفواهكم ، وأيديكم... لا تغمز ولا تلمز).

(لا تنظروا إلى الشر ولا تفعلوه * والباطل لا تسمعوه * ولا تنصتوا خلف الأبواب * ونزهوا أفواهكم عن الكذب * والزيف لا تقربوه).

(أمسكوا قلوبكم عن الضغينة والحسد والتفرقة * أمسكوا أيديكم عن القتل والسرقة * أمسكوا أجسادكم عن معاشرة أزواج غيركم ، قتلك هي النار المعرقة * أمسكوا رءوسكم عن السجود للشيطان والأصنام الزيف * أمسكوا أرجلكم عن السير إلى ما ليس لكم * إنه الصوم الكبير فلا تكسروه حتى * تفارقوا هذه الدنيا * واعلموا أنه كلما طالت أعماركم زادت خطاياكم * طوبى لمن سمع وآمن أنه يصعد ظاهراً إلى بلد النور).

كما ترى عزيزي القارئ هذه الأحكام لتطبيقها تحتاج إلى إيمان عميق وصبر كبير وحكمة عالية وصدق ونزاهة مطلقة، وبالله نستعين.

- خامساً: الزدقة (الصدقة)

والصدقة الركن الخامس من أركان الديانة المندائية... جاء في الكتاب المقدس الكنزا ربا:

(أرشدوا الأعمى ، وأحسنوا إلى الفقير ، وإذ تصبون صدقة يا أصفىائي لا تشهدوا عليهما ، لا تعلم يمينكم بما وهبت شمالكم ، ولا شمالكم بما وهبت يمينكم ، بنس من وهبت صدقة فأفسدها بالتشهير ، إذا رأيتم جائعاً فأطعموه ، وإذا رأيتم عطشاناً فاسقوه ، وإذا رأيتم محارباً فاحسوه).

الصدقة في الدين المندائي عمل خيري إنساني على كل مندائي أن يعطيه بنفسه راضية ودون منة ، والصدقة هي الهبة الصادقة التي يقدمها المؤمن الصادق خالصة لوجه الحي العظيم ، ملك النور السامي ، وهي اعتراف بنعمة الخالق الوهاب ، ومنح الصدقة الخالصة هي ابتغاء التقرب منه والتكفير عن الذنوب إن وجدت... والصدقة أحد أسرار النور ونعمتها أن تفيض على واهبها ينابيع الحكمة فيستثير عقله بالتعاليم ويبتهج بفعل الخير وأدائها فرض من فروض الالتزام بأخلاقية الدين المندائي الموحد ، وهي مبدأ من مبادئ العطاء ، فالصدقة بالدين المندائي تعتبر أعلى المراتب والقيم ، ولا قيمة بعمر الإنسان مهما عاش دون أن يهب صدقة لإخوانه المحتاجين تقرباً لله عز وعلا... إن كتاب الكنزا ربا يؤكد على الصدقة (الزدقة) ويحث المؤمنين باعتبارها فرض على كل مؤمن ، نبي الله يهانا يحث المؤمنين الصادقين فيقول (أعطوا الصدقة فهي أفضل من الزوجة والأولاد ، إن الأجر والصدقة مطلوبات عبر طريق المعراج مثلها مثل حاجة الفم لليد عند الإنسان ، والصدقة موجودة في الطريق مثل الأعمى الذي يطلب المساعدة الإنسان الذي لا يعطي أجر وصدقة كأنه لا يرى النور ولا يستدل على عالم الأنوار ، ولا يكون له طريقاً سالكاً حيث لا يكون له معبر نحو الحياة الثانية الأبدية ، ويل للكذابين الذين يدعون باطلاً ولا يمنحون حقاً الصدقة سوف لا يكون لهم معبر سالكاً نحو عالم النور).

الصدقة تعني فعل الخير ومن لا يفعل هذا الخير لن يتبحر في أسمى الأفكار والمثل والقيم الحميدة، عليك أن تعطي مما عندك ولو كان ذلك قليلاً، ولكن لا تدع عائلتك بحاجة إلى طعام أو شراب، لا تطردوا فقير وقف على بابك لأنك إن طردته، أخذ شيء من أعمالك الصالحة وحملك شيء من ذنوبه، أيها المندائي تذكر دائماً أيام الجوع إذا كنت في نعمة، ليبارك الرحمن في رزقك وأولادك وعافيتك.

عندما تعطي الصدقة لا تفكر هذا صديقك وهذا عدوك، فالرحمة والشفقة هي الميزان وكلهم إخوانك في الإيمان والإنسانية، لا تفكر بلونه وبدينه ولا بمعتقده، كلهم إخوانك وكلهم لهم حقوق عليك، وقد أنعم الله عليك بنعمه فبارك نعمة ربك، بالصدقة للمحتاجين، من الوصايا في كتاب الكنزا ربا:

(إن رزقكم بالطيبات باركوها وارتضوا بنعمة الحي العظيم الوهاب، وأعطوا منها بقلوب صادق مهتم بالإيمان).

العمل الصالح والصدقة الطيبة بها تستبدل متاع الدنيا بمتاع الآخرة، لأن كل عمل صالح تكسب منه لبنة للدار التي تبنيتها لآخرتك في حياتك، وكما قال الشاعر:

ليس للمرء داراً بعد الموت يسكنها

إلا التي يقي قبل الموت بانيها

فإن بناها بطيب طاب مسكنه

وإن بناها بسوء خاب بانيها

أهم الكتب الدينية للصابئة المندائيين :

- الكنزا ربا (الكنز العظيم): ويسمى الكتاب أو الصحف الأولى، أنزل الكتاب المقدس على الأنبياء (آدم، شيتل، سام، إبراهيم، إدريس - دنانوخت، ويهيا يهانه) عليهم السلام أجمعين، ونقلت التعاليم شفاهًا جيل يسلمها لجيل، بعدها دونت باللغة الآرامية المندائية، ويتكون من قسمين:

قسم اليمين: يتضمن التوحيد والوصايا والخلق والتكوين وتسابيح عديدة.

القسم الأيسر: مخصص بالنشماثا (النفس) وبعروجها إلى عالم الأنوار بعد الوفاة موطنها الأصلي، ليحيا الإنسان حياة ثانية ليس فيها موت ولا مرض، حياة أثرية ملائكية عندما تجتاز الروح محطات الحساب (المطراثي) عندما ترجح كفة حسناته على كفة سيئاته، فيصبح من أصفياء الحي العظيم الصالحين.

- سيدرا آد نشماثا (كتاب الأنفس): ويشرح هذا الكتاب كيفية هبوط النفس وتغلغلها في جسد آدم، ويضم تراثيل تتلى في العروج والتعميد.

- دراشة آد يهيا: أي تعاليم ومواعظ النبي يحيى بن زكريا، وسنأتي على شرحها بإيجاز.

- القلستا: ويتخصص في مراسيم الزواج المندائي، والزواج عند المندائيين له شعائر وطقوس خاصة ولوحات فلكولورية جميلة، وتستغرق هذه الطقوس وقتاً طويلاً، تبدأ في الصباح الباكر وتنتهي بعد الظهر.

- نياني الرهمي: خاص بالتعميد (الصباغة).

- نياني مصبتا: خاص بالتعميد (الصباغة).

- كذلك يوجد ستة وعشرون ديوان عبارة عن شروحات تفصيلية للطقوس.

- ألف سؤال وسؤال (ترسر ألف شياله): وهو خاص بالأسئلة والأجوبة الدينية في إجراء الطقوس والشعائر المندائية.

البحث الرابع

أنبياء الصابئة المندائيين

١- آدم (ع) رأس السلالة البشرية :

للسابئة المندائيين عدد من الأنبياء أولهم آدم (ع) الرجل الأول ، وخاتمهم نبي الله يهيا يهانه (يحيى بن زكريا) (ع) ويأتي نبينهم شيتل بن آدم وإدريس وسام بن نوح وإبراهيم الخليل...

إن الصحف الأولى (في الكنزا ربا) قد نزلت على رأس السلالة البشرية آدم ، فبعد أن أمر الحي العظيم فخلق آدم وخلقنا آدم من الطين الأحمر (الصلصال) ومن الدم والمرارة ومن أسرار هذا الكون كنزا ربا ووضعت فيه النشمتا (النفس) التي جلبت من عالم الأنوار دببت فيه الحياة وتنفس وتحرك.

فأمر الحي العظيم الملاك منداد هي (عارف الحياة) أن يغرس في قلبه الإيمان ويعلمه الوصايا كلها كي لا يغويه الشيطان ، عاش آدم ألف عام فقال الحي العظيم وهو مستوي على عرشه ليكن الموت من نصيب أهل الدنيا ، فليخرج من جسمه قبل أن يشيخ وقبل أن توهنه الأسقام ، ونفذ الصوت (نحن نسميه الحق وأنتم تسمونه الموت).

فنزل الملاك صور بيل (عزرائيل) ليخلص نشماتا آدم ويصعد بها إلى الواحد الأحد الذي لا تقبل لديه شفاعاة ولا قربان ، ولا يستبدل إنسان بإنسان.

(نزل صور بيل إلى عالم الشر والنقصان ونادى آدم وعلمه الحكمة والإحسان وقال له : كنت أخرس فأنطقناك وأصم فأسمعناك وجاهلاً فعلمناك ، ومستوحشاً فأنسناك) ، قل له يا صوربيل عشت ألف عام وأن لك أن تترك بلد الشر والآثام وتعود إلى بلد النور والسلام ، لا تعجز فتضام ولا تهرم فتسام.

غضب آدم وأربدت سيماء، ثم امتلأت بالحزن حناياه واغرورقت بالدمع مقلته، وبكى وعلى الأرض ارتمى وطوح بساعديه وضرب أضلاعه بيديه، قال :

أيها الصوت الذي إياي ينادي ، أيتها الحكمة التي تخاطب عقلي وفؤادي ، أفيؤكل الطلع قبل الثمر؟ وقبل السنابل تؤكل البذور؟ لم أقضي في هذا العالم سوى ألف عام، وأتمنى أن أعيش فيه ثانية ألف عام.

صعد صوربيل سائلاً أمام الحي العظيم الحي الأزلي القديم، قال ربي أنت بكل شيء عليم، إن آدم قد طاب له المقام في ذلك العالم، وهو يلتمس من خالقه وباريه أن يطيل بقاءه فيه، أمر الحي العظيم الملاك صوربيل : (قل لآدم : لا إنسان منك أحكم وربك بك أعلم، لا نريد لك أن تهرم وأن تعجز فتظلم)، فقدم آدم ولده شتيل ابن الثمانين عام قرباناً للحي العظيم يفدي به نفسه.

ومرت السنين وادم في فراشه مقيم، نائم لا يريم، يا آدم إن المخلص في طريقه إليك، فاخلع ثوب الأرض الذي عليك، وأتى رسول الحي إلى آدم ووقف على وسادته، وأمره أن يقف على قدميه ويخلع ثوب الطين الذي عليه، يا آدم لقد انتهى عمرك في هذا العالم...

اعول آدم وبكى وناح وشكا وقال للمخلص يا أبتاه إن أنا أتيت معك فدنياي من سائسها؟ وزوجتي من يؤانسها؟ وأغراسي التي أنا غارسها من حارسها، من يمد إليهم يد ويكون لهم سند؟ من يبذر البذور المباركات؟ من يحمل الماء من دجلة والفرات؟ من يعين التي تلد؟ من يلاقي الذي يفد؟.

يا آدم : لا تبتئس ولا تكتئب... فعالمك هذا عالم خرب، عالم زيف وكذب، بيوته مقبرة وطريقه معثرة، ودياره مقفرة، الأبناء بآبائهم يكفرون، والأخوة بينهم يقتتلون، البنات يكفرن أمهاتهن، والأخوات يأكلن لحم أخواتهن، الرجل يترك زوجته والمرأة تترك زوجها، أرامل ويتامى، فقم يا آدم واخرج من هذا العالم...

انزعج آدم فقال للمخلص لماذا أقلقتموني وفي هذا الجسد أدخلتموني مادام تعلمون أن العالم هكذا سيكون؟.

أيها المخلص إن أنا خرجت من هذا الكساء وأثيت معك فمن سيجرسه في يومه؟ ومن يوقظه من نومه؟ من يطعمه ومن يسقيه؟ وريب الدهر من يكن صاحبه فيه؟ من يدفع عنه الرعد إذا دمد؟ ومن يبني هيكله إذا تهدم؟ من يهيء له محلاً؟ من يصنع له ظلاً، من يمنع الشمس إذا تقع عليه؟ والرياح أن تسعى إليه والأترربة تملأ عينيه، والطيور إذا بنت أوكارها، من ينودها أن تطعم من لحمي صغارها؟.

طلب آدم من بارئه وخالقه ورجاه أن يأتي جسده معه، ولكن هيهات أن يصعد جسد إلى عليين، ورجا ربه أن تأتي زوجته معه لتكون أنساً في طريقه وأبناءه وبناته، كم أنت يا آدم حزين، تصعد نفسك وحدها إلى عليين، لا جسد يصعد ولا زوجة ولا ولد ولا بنت، لا أب ولا أم، لا أخ ولا أخت ولا ذهب ولا فضة، ملاذك يا آدم عملك الصالح وصدقتك ورسمك وصباغتك (تعميدك).

يا آدم سيكون لك أخوة من الملائكة الأثريين فلا تخف، فالطريق الذي تسير فيه ليس له حدود وبألف سؤال مسدود ولا يفتحه إلا عملك الصالح، بكى آدم كثيراً وتحدر دمع غزيراً، ثم خرج من جسده حسيراً، وحين عنه ابتعد، التفت إليه فارتعد ثم انطلق في الأثير كأنه طير يطير.

تحسر آدم وقال كم كان لي جسد جميل ورأس مصقول وشعر مسدول، كم عدلوه وقوموه وكم أجادوا حين رسموه، العقل وهبوه والحكمة علموه، صنعوا له عينين اثنتين في الضوء مبصرتين، صنعوا له فماً يسبح الرحمن، ويدين تعملان لا تكلان ولا تتعبان ورجلين حيث أراد تسيران، لقد كان جميلاً فذوى وعالياً فهوى، ومنصبباً فانطوى، انطفأت العينان وانغلفت الكوتان اللتان كانتا تسمعان وبتعاليم الحي تمتلئان، وانطبق الفم الذي كان يسبح للرحمن، وتبيست اليدان اللتان كانتا ليلاً نهاراً تعملان.

ها هو لا حس ولا شعور ، جامد لا يدور لا تفر منه الزواحف والطيور ، أأحمله وأسير ، وكيف نمشي كلانا وأنا أحمله ، وأكتافه هبطت وركائزه سقطت فتركته للتراب .

على أبواب المقابر لا يشتري الأخوة بعضهم بعضاً ولو فعلوا ما وصل جسد إلى مقبرة ، لو اشترى الأب ابنه لما ازرققت العيون ، لو اشترى الأبناء آبائهم ما صاروا يتامى ، لو اشترى الزوج زوجته ما كان هناك أيامى .

لقد حمل آدم بسحابة من نور إلى عالم الأنوار ، ولكن آدم يبكي سألته الأثريون لماذا أنت يا آدم حزين ، قال أنا عبد لا سيد له ، قالوا له أنت عبد للحي العظيم رب العالمين ، أنت غرسه وعبدته ، لقد اختارك الحي وزكأك فقم نصعد إلى بلد النور لتلاقي سيدك وأباك ، قال آدم للأثريين لو أمهلتُموني يا إخوتي أرسل إلى حواء زوجتي لتأتي بصحبتي ، قال الأثريون اصمت يا آدم أنت ماضٍ إلى بلدك ، وحواء ستصعد ورائك ، ونسلك كله سيأتي ورائك ، الدهور كلها ستزول ، والمخلوقات ستزول ، تتضب الآبار وتجف الأنهار وتتيبس البحار ، تتفتت الجبال والأكام ، تجد طول وتمحى طول ، بابل تزول والصين تزول ويذهب الفرس والروم والمغول ، سيقتل الناس بعضهم بعضاً ، وسيحكم على من سفك دم بني آدم ، وشوه الوجوه هي كوجهه ، سينادي على المجرمين الزناة واللصوص والمنافقين وعلى السحرة والمنجمين ، ويدفعون إلى حرائق النار أجمعين ، يومها تنتزع التخوم وتخلوا السماء من النجوم وكل من كان يكفر بالله في أعماق الظلام يحشرون .

بعدك يا آدم سيخرج صغار مازالوا لا يميزن وفتيات وفتيان مرهقون مازالوا بالزواج يحلمون ، وستخرج عرسان وعرائس كانوا في غاية الأمان ، فإذا بهم يتركون أسرتهن للغبار والنسيان ، ذهبوا إلى قبورهم بعد أن انتزعت قوائم جذورهم متزوجات ومتزوجون ... كانوا يتمنون الموت ؛ فلا يأتيهم ، ثم بدون رضاهم يموتون .

الملك يترك تاجه والغني ذهبه وديباجه والنساء جمالهن والمغريات إغراءهن ،
ويذهبن إلى القبور حافيات...

(اصعد يا آدم إلى ملك النور العزيز الغفور ، قف بين يديه وأعرض سؤالك
لديه، قل يا آدم إن كنت تجرؤ لماذا أموت. ولماذا تخرب هذه البيوت؟ ويتقطع
نسلي من ذراها، والملاك هيبيل زيوا (جبرائيل الرسول) خلصها وبنهاها، ويردنا
سقاها، اهدأ يا آدم وأقم بيننا حتى يوم القيامة العظيم ، كل شيء إلى زوال ،
ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، واعلم يا آدم أن كل حي يموت وكل ما
يصنع بالأيدي يفسد ، إن عكازاتكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكأون
فانظروا على ماذا تستندون).

إن آدم أعجبه المقام في هذا العالم ، وأعجبه ما بناه خلال سنين عمره وعز
عليه أن يفارق زوجته وأولاده وبناته ، لا يعلم أن في عالم الأنوار حياة أبدية
ليس فيها مرض ولا وجع ولا شيخوخة ، ولا أدران ولا موت وكان يريد مهلة
من رب العالمين ، وهذا يذكرني بطرفه فيها ملح: يحكى أن رجل عجوز جاءه
ملك الموت في اليوم الموعود ، وأخبره أن حياته في هذا العالم انقضت ، فحزن
الرجل وقال للملاك ليس من العدل والمروءة أن تفاجئني هكذا ، كان المفروض
أن ترسلوا لي إنذاراً أو إخطاراً لأسدد ديوني وأودع زوجتي وعيالي وأصحابي
ورفاقي ، فاستحسن المخلص القول وسأل رب العالمين في عليين فأجابه إن هذا
الرجل لم يتعلم شيء في حياته ، لقد أنذرتة مراراً وتكراراً لكنه لم يفقه ، قل له
أين أسنانك وأين قوة يديك ورجليك ولماذا ظهرتك انحنى ، وشعرك غدا أبيض
وضعفت منك العينين وداهمت الأوجاع والآلام ، ولماذا تبول بين فخذيك ولماذا
لا تقوى على السير ، كل هذا وتقول لم يصلني إنذار !! أيها المخلص لا تتقبل
أي سؤال ولا تقبل رجاء وشفاعة ، كل ابن آدم يمضي في يومه الموعود وإلينا
يعود فليكن ابن آدم صالحاً فبصلاحه يتم الخلاص... والحي المزمكي.

٢- شيتل (شيت) ابن آدم :

عندما أمر الحي العظيم المخلص صور بيل أن يخلص آدم لتصعد نشأته (نفسه) إلى عالم الأنوار لأن عمره في الدنيا انقضى ، رعى آدم خالقه أن يبقى وأن يأخذ ولده شيتل بدلاً عنه لأنه ابن ثمانين عام ولم تكن له زوجة ولا غلام ، فأمر الحي العظيم المخلص أن يذهب إلى شيتل لأنه راغب في هذا المقام وراغب أن يكون بديلاً لأبيه...

ولكن شيتل في بادئ الأمر قال للملاك صاورئيل لماذا لا تذهب إلى أبي فقد عاش ألف عام ، فأجاب الملاك صاورئيل إن أباك أرسلني إليك ، فقال شيتل أنا من المؤمنين ولا أعصي أمر ربي.

ثم قام فنزع جذع اللحم والدماء ولبس جذع النور والضياء واعتمر العمامة الطاهرة والثياب النورانية الباهرة ، وصعد إلى عالم الأنوار يحيط به الأثريون والأبرار ، أصدوه وفي سحابة النور أقعدوه ، فصلى كثيراً وسبح كثيراً ، قال سبحانه ربي كما أزلت الغشاوة عن قلبي أزلها عن قلب آدم أبي ، لكي يرى بعينه هذا العالم الذي أنا ذاهب إليه...

سقطت الغشاوة عن عيني آدم ، والسداد عن أذنيه وكتلة اللحم عن قلبه ، فرأى العالم الذي ينطلق شيتل ابنه إليه ، فعز بقاؤه وحيداً عليه ، قال يا ولدي لا تسبق أباك ، عُد أنت وأذهب أنا هناك ، قال : أيها الشيخ الغرير أيها العجوز الكبير ، أرأيت قلبي جنيئاً يولد ثم يعود إلى بطن أمه ؟ إن الجنين في رحم أمه كزلال البيض صغاراً يولدون وتمتلئ أفواههم بالحليب ، فيكبرون وتأتي العذارى باكرات كالكنوز المختومة ، ويصبحن عرائس عندما يقطر الزيت في أكاليلهن.

أما الصغار والصغيرات الذين ينجبهم المخطئون ففي الطرقات يولدون ، كل من قال إن الشيخ بشيوخته يذهب وأن الشباب بشبابه يبقى ، فسيحاسبه الله ، وتقاذفت شيتل بن آدم رياح المعراج العظيم ، وصعد بين الرجم والسديم حتى

وصل إلى الملاك شلماني حافظ الكنز المقيم، بوابة النور في يديه ومفتاح كسطا (العهد) على ذراعيه.

فتحوا باب البيت وأنزلوا شيتل جواراً عظيماً وأقاموه مقاماً كريماً ، وأدخلوه الجنة التي منها صار وهي تموج بالأنوار ، والشجرة التي منها استئصلت جفنته، جذعها في الماء وأغصانها الملائكة الأثريون الوضاء ، ومنها مجاميع النور ومجمع البذور ، مجمع النفوس العظيم، يأكلون ما ليس مضرًا، ويشربون ما ليس مسكرًا ، يضعون لرؤوسهم الأكاليل ، تحت رحمة رب جليل يغمرهم بكل جميل.

طريقي هذا ومرتقاي الذي منه ارتقيت ، سيرتقي منه العادلون والمؤسسون والصالحون والكاملون حين من أجسامهم يخرجون ، هذا ما قاله شيتل بن آدم (ع) فبسط له يد كسطا (العهد) وأحاطه بالأنثيين ، وملائكة النور الصالحين ، وإقامة معه في عليين.

يعتبر النبي شيتل من الأنبياء المندائيين المهمين جدًا ؛ لأنه رمز للتضحية من أجل والده ، ورمز للمؤمن المندائي الذي يرى في الاتحاد بالعوالم النورانية ولادة جديدة، فكان يتدفق شوقاً وبلا خوف من أجل الارتقاء لعوالم النور ، ومن أجل ذلك فإن شيتل هو كفة الميزان الذي توضع مقابلها النفس البشرية في ميزان أبائر ، حيث إن لم تكن نقية نقاء النفس شيتل فإنها ستعاد إلى المطرائي (مطهرات) للتطهير وليعاد تقيمها في الميزان لتدخل عوالم النور ، وأن هذا المدلول لا يعني بأن النبي شيتل (م. أ) أعظم الأنبياء المندائيين ؛ بل إنه ذو أهمية لمعراج الأنفس ، لأنه رمز للتضحية والصفات الإنسانية النبيلة ، لأن للأنبياء صفات نورانية لو قيس الإنسان بها لما استطاع بلوغها ومن ثم لا يستطيع عبور اختبار الميزان كما في صفات النبي يحيى النورانية جدًا ، لذلك فليس من الصعب حد الخيال أن ينقى لأقصى ما يستطيع من درجات الصفات الإنسانية والابتعاد عن المحرمات التي حرمتها ديانتنا المندائية.

لننظر الآن إلى النصوص التي نتحدث عن هذا الموضوع: أمر الخالق العظم ملائكته الصالحين أن يقتصوا قصاص الحرث في عالم الأشرار ، حيث الأرض الفانية التي كثرت قوى الشر فيها ، وظهر النقص والعوز وتفاقت الذنوب فأمر الخالق الملائكة أن يذهبوا إلى آدم ابن ألف عام ليخرجوه من جسده قبل أن يكبر ولا يتمالك نفسه ، وقبل أن يرتكب أبناؤه الصغار (أحفاده) الخطيئة بحقه والحقاقت ضده ، فأرسل الخالق العظيم ملاكه الصالح صاورئيل شارويا كي يحرر النفس من جسد آدم ويعلن الموت في العالم الأرضي ، ويعلم الذين لا يعلمون (كل من أخطأ ولعن الموت يصنع أمامه ست وستين خطيئة) ، لأن الموت محتوم على كل إنسان وله نظمه ، أرسلت له رسل الموت الذين لا يبدلون إنسان بآخر).

فأمر الخالق العظيم الملاك صاورئيل : اذهب وانزل إلى ذلك الجبل الذي كله نقص وعيوب واقرأ حديث سماوي أمام آدم واكشف المعرفة الطيبة أمامه وتحدث إليه : يا آدم رأس السلالة البشرية ، أصبحت غير قادر على السمع والنطق والإدراك وقسى قلبك ، انهض واذهب معنا ، وارحل من جسدك الزائل ، ومن العالم المليء بالبغض والكره وكله نقص وعيوب لأنك أصبحت ابن ألف عام ، قبل أن تشيخ ولا تتمالك نفسك وقبل أن يرتكب أحفادك الصغار الخطأ بحقك.

أتى الملاك صاورئيل بآدم وهمس بحديث سماوي أمامه وكشف المعرفة الجليلة له ، فهم آدم ذلك الحديث واعتراه الغضب وابتلع ريقه وتصيب منه العرق ، وسقط على الأرض وانقبض قلبه وتلبسه الحزن ، وسألت من عينه الدموع ، صرخ وبكى وتهالك على الأرض رافعاً يديه قائلاً : أيها الصوت الذي ناديتني ، أيتها المعرفة الطيبة التي كشفت أمامي ، لقد عشت في هذه الدنيا ألف عام واطلب ألف أخرى ، فهذا العالم الذي أتيتم بي إليه ، يؤكل فيه (وعاء الطلع) قبل التمر ؟ ومن ثم يؤكل التمر ، تؤكل الحبوب الخضراء قبل الناضجة ، ومن ثم تؤكل الحبوب الناضجة ، تؤكل الخضروات الناعمة والطرية قبل الخشنة ، ومن

ثم تؤكل الخشنة، ولنصعد إلى عين الفرات النوراني الذي يتأمل أباًؤنا الساكنون بجوار ضفاف اليردنا حيث الخضروات الطرية الناعمة التي أصبحت لهم مأكلاً قبل الخشنة.

رجع الملاك مائلاً أمام الحي العظيم وتكلم إليه : علمناه المعرفة الطيبة وكشفنا له التعاليم وبعد أن أصبحت الخفايا الطيبة وكشفنا له التعاليم وبعد أن أصبحت الخفايا مكشوفة أمامه ، لم يطلب التعلم ولم يسأل أي سؤال عنها ، إلا أنه كان يحب الترف وملذات ذلك العالم لذلك رفض أن يغادر جسده ، فأمر الخالق العظيم للمرة الثانية الملاك صاورئيل اذهب واهبط إلى ذلك العالم الذي تفاقت فيه الزلات وكله نقص وعيوب ، واقرأ عليه حديثاً سماوياً عظيماً ، واكشف له المعرفة الطيبة وقل له : طالما يوجد الأكثر منك دراية ومعرفة وحكمة ، فاجلس كي نعلمك المعرفة ونشرح لك التعاليم العظيمة ، فانهض واخرج من جسدك واترك العالم الفاني الذي كثر فيه الشر والعيوب والنقصان ، وقبل أن تشيخ ويرتكب الحماقات أحفادك الصغار بحقك ، وقل له : آدم مت كأنك لم تكن وتلاش كأن لم تخلق لأن نسمتك ستعود إلى مكانها الأزلي في بيت الحي المكان الذي خلقت فيه ذهب الملاك صاورئيل ، كما أراد الخالق العظيم ، وهبط إلى العالم الفاني حيث يوجد آدم متحدث إليه : طالما يوجد الأكثر منك دراية ومعرفة وحكمة ، فاجلس لندرسك الوصاية والتعاليم الجيدة ، فناصرك يا آدم أن تنهض وتخرج من العالم الفاني عالم الخطيئة والآثام ، عالم النقصان والعيوب .

تكلم آدم قائلاً : يا أيها المنادي الذي تناديني يا أيتها المعرفة التي كشفت أمامي ، انا ابن ألف عام وأطلب ألف عام أخرى ، أرجوك أن تذهب إلى شيتل فهو أكثر مني شباباً وحماساً ، وهو غض ابن ثمانين عام ، خلق في هذا العالم ولم يسبق له أن تزوج ولم يرزق بخلق ، ولم يشهر سيف ، ولم يسفك دم في حياته ، فهو المطلوب لذلك العالم .

صعد الملاك صاورئيل إلى الخالق العظيم وتحدث قائلاً: لما علمناه المعرفة الطبية وكشفنا له التعاليم والأسرار أصبحت مكشوفة أمامه لم يطلب أن يتعلمها ولم يسأل أي سؤال عنها ونحن كلمناه، وكان آدم أرسلنا إلى ابنه شيتل...
(كنزاً ربا الأيسر)

أمر الحي العظيم الملاك صاورئيل أن يذهب إلى المكان الذي فيه نقص وعيوب الذي كثر فيه الشر، اذهب ونادي شيتل بن آدم وأمره، شيتل مت كأن لم تكن وتلاش كأن لم تخلق لأن نسمتك تبحث عن مستودع الأنفس، المكان الذي خلقت فيه، نزل الملاك صاورئيل كما أمره الخالق أن يهبط إلى العالم الذي فاض بالإثم والعيوب، وقرأ حديث سماوي على ابن آدم وقال له مت كأن لم تكن وتلاش كأن لم تخلق، لأن نسمتك تبحث عن مستودع الأنفس، إلى خالقها العظيم الأزلي، إلى المكان الذي خلقت فيه منذ الأزل، بعد ذلك تكلم شيتل قائلاً: يا أيها المنادي الذي تتناديني أنا ابن الثمانين سنة ولم أرزق بخلق ولم أشهر سيف ولم أسفك دم في حياتي في هذه الدنيا، اذهب إلى أبي آدم الذي أصبح ابن ألف عام في هذه الدنيا، وقبل أن يشيخ ويفقد وعيه وقبل أن يرتكب أحفاده الصغار ضده الكثير من الحماقات.

تكلم الملاك صاورئيل: من قبل أن تقرأ هذا الحديث السماوي عليك قرأناه على أبليك آدم الذي أرسلنا إليك، حدث شيتل نفسه خائفاً إن رفضت الخروج من جسدي ربما يغضب على الحي العظيم، وقف شيتل ابن آدم وارتجى دعاء نفيس عظيم، بعد ذلك نزع عنه هيكل اللحم والدم وارتدى هيكل النور والعمامة البيضاء الطاهرة النورانية التي تشع أكثر من نور الشمس.

جاء الآلاف من الأثرى عن يمينه وعن يساره أمسكوا ورفعوا شيتل بن آدم، حينئذ وقف شيتل في مكان مليء بالنور وارتجى من الحي العظيم الأزلي: ارفع الغشاوة عن عيني أبي آدم والطرش عن أذنه كي ينظر إلى هذا المكان الطاهر الذي وصلت إليه، صعد بكاء وخشوع ورجاء شيتل ابن آدم إلى مسامع الحي العظيم، فلبى ندائه ورفع الغشاوة عن آدم والطرش من أذنه، فنظر آدم

إلى العالم الذي وصل إليه شيتل ، وقال : سأتي إلى العالم الذي أريد لي من قبل يا شيتل (هنا طلب النبي آدم من ابنه شيتل أن يرجع شيتل ويأخذ مكانه آدم) ، أجب شيتل : هل هناك من سال لعبه ثم ازدرده بصورة كاملة ، وهل هناك من يخرج من رحم أمه ثم يعود إليه؟...

ليس لنبي الله شيتل تعاليم مثبتة ولكنه لأنه لم يقترب أي ذنب خلال حياته جعل منه الله النموذج المثالي أي الميزان الذي تقاس نفوس الناس عند الحساب مقارنة بشيتل ، ولهذا فهو لا يذكر عن المندائيين كثيرًا مثل آدم أو يهيا يهانه ، ولكن عند ذكر الحساب يذكر شيتل لأنه كله حسنات.

٣- دنانوخت (ع) هرمس أو إدريس أو أخنوخ :

طبقًا لما يذكره الكثير من الباحثين وطبعًا هناك من لا يتفق ، ولهذا النبي عدة أسماء ، المندائيين يسمونه دنانوخت ، وورد اسمه في القرآن الكريم إدريس والفرعنة يسمونه أخنوخ ، والغنوصية يسمونه هرمس الحكيم.

وليس هناك اهتمام كبير عند المندائيين بتعاليم النبي إدريس رغم أنه يذكر قد نزلت عليه عدد من الصحف الأولى وهو الذي وضع أسس الغنوصية وهذب النفس وطوع الروح وأخضعها للحساب القاسي لكي ينقيها ويبعدها عن الخطيئة ولأن المندائيين معروفين يعطون العقل حقه والغنوصية توحد الله جلّت قدرته بالقلب فهناك ثمة خلاف في الرؤيا والتفكير ، وقد تكلمنا عن الغنوصية والهرمسية في الفصل الأول البحث السادس ، وفي كتاب الكنز اربا ورد صحاح باسم دنانوخت تثبت نصوص مما ورد :

(جالس بين ماء وماء ، أنا دنانوخت... الكاتب الحكيم... حبر الآلهة الفخور المتكبر ، كتبي بين يدي ، وسجل ذكرياتي على ذراعي ، هي الجديدة أتأمل ، ومن القديمة أتعلم ، فأميز ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون).

قال : أين هي الحياة التي كانت منذ الأزل أين هي الكشطا (العهد) التي كانت في البداية ، أين الضياء وأين النور ؟ أين هو الخطأ وأين هو الصواب ؟ أين البناء وأين هو الخراب ؟ أين المرض وأين الشفاء ؟ وأين هو الرجل الشيخ الفاضل المائل منذ القدم بين الأرض والسماء؟.

يتساءل دنانوخت الحكيم وفي معراجة عندما أخذته الرياح وطوحت به العواصف يمر بمحطات الحساب فينحني له الحراس ويمر بسلام إلى عالم الأنوار.

يعتقد الكثير من الباحثين أن الدين المندائي أصوله رافدينية نشأ وترعرع في بلاد ما بين النهرين قرب مصبات الأنهار (دجلة والفرات والكارون والكرخة والذر...) ويرى آخرون أن أصوله فلسطينية في حوض البحر الميت ضفاف نهر الأردن ، ويستدلون في ذلك على وجود نبي الله يحيى بن زكريا (يهيا يوهانا) أو يوحنا المعمدان وهجرتهم إلى مدينة حران ومنها إلى جنوب العراق قرب المياه البهية بعد أن دخلوا في حروب مع اليهود.

إن المندائيين والدين المندائي كان منتشراً في شبه الجزيرة العربية بواسطة نبي الله إبراهيم الخليل وولده إسماعيل الذين أسسوا المذهب الحنفي ، كذلك كان منتشراً في أرض الكنانة (مصر) بواسطة نبي الله إدريس نبي الصابئة المندائيين الذي نزلت عليه عدد من الصحف الأولى من كتاب الكنزا ربا الذي تأثر بتعاليمه نبي الله إبراهيم الذي هاجر إلى مصر ، كذلك تأثر به نبي الله موسى ، ونبي الله إدريس (هرمس الحكيم) من أنبياء المندائيين الذين تركوا أثراً عظيماً في مبدأ التوحيد ، ويعتبر المؤسس الأول للغنوصية.

ظهر نبي الله إدريس في زمن الفراعنة قبل الهكسوس الذين حكموا مصر ، ونشر تعاليمه مستنداً على نبوته وعلى التعاليم التي نزلت عليه من الصحف الأولى ، ويعتبر نبي الله إدريس أول نبي أعطى النبوة بعد آدم وشيثل (شيت) ، ويذكر نبي الله إدريس باسم هرمس الحكيم أو أخنوخ عند المصريين وذكر في كتاب الكنزا ربا باسم دنانوخت كإشارة على طهارته ونقاؤه وحكمته.

وذكرت الكتب الدينية اسم نبي الله إدريس بكل إجلال وتقديس، حيث ورد ذكره في القرآن الكريم {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا}، ويذكر لنا الفقه الإسلامي أن الرسول محمد (ص) قد التقى بالنبي إدريس خلال معراجة في السماء الرابعة (الإسراء والمعراج) والله أعلم، إذ لا توجد دلائل موثقة غير ما يذكر في الكتب الدينية، وكثير من هذه المعلومات تدخل في علم الأساطير (الميثولوجيا).

وقد اختلف الباحثين في مولد ونشأة نبي الله إدريس فمنهم من ذكر أنه ولد في فلسطين، ومنهم من يقول إنه ولد في أور أو بابل، ومنهم من يؤكد أنه ولد في مصر الفرعونية، وقد تبنى تعاليم النبي شيت (شتيل) بن آدم في بداية عمره، وعندما كبر نزلت عليه النبوة في بابل، وبعد حين هاجر وعدد من أتباعه إلى مصر وأقام هناك، وتعلم منه نبي الله إبراهيم الخليل ونبي الله موسى ونهل من تعاليمه ووصياه وعلمه وما أنزل عليه الله من تعاليم.

إذ كانت له تعاليم كثيرة ومواعظ كبيرة، فقد دعا إلى عبادة الحي العظيم الواحد الأحد الذي لا يشاركه ملكه أحد ودعا إلى تخليص النفوس من العذاب يوم الحساب في المطرathi (محطات الحساب)... وذلك بالعمل الصالح في هذه الدنيا الزائلة وحضه على الزهد فيها، وأمرهم بالصوم الكبير صوم العقل والقلب والضمير والصلاة مسبحين لخالقهم، ودعا إلى الصدقة وشدد على أتباعه في الطهارة وضرورة نقاء الروح وتطهيرها من المحرمات، وحرّم المسكر والمشروبات الروحية التي كانت رائجة في ذلك الزمان، ويذكر أنه كان يكلم كل فرقة من الناس باللغة التي يفهموها.

ويقال إنه أول ما خط بالقلم سواء كانت الكتابة مسمارية في بابل أو لاحقاً هيروغليفية في مصر الفرعونية، ودون الصحف الأولى من كتاب الكنز العظيم، (الكنزا ربا) التي نزلت عليه، وكان يلبس الرسته (الملابس البيضاء الدينية للصابئة المندائيين)، وعند وفاته رفعه الحي العظيم إلى عالم الأنوار (الجنة) كما رفع يحيى وعيسى والأنبياء الصالحين.

وذكرنا أن عددًا من الباحثين يعتبرون نبي الله إدريس هو دنانوخت الوارد ذكره في كتاب الكنزا ربا وهو نفسه هرمس الحكيم أو أخنوخ كما يسميه المصريون القدماء ، ويعتبر نبي الله إدريس من أنبياء الصابئة المندائيين الذي دعا إلى الطُّهر والنقاء ، ودعا المندائيين إلى التقيد بتعاليم الحي العظيم وما أنزله الحي العظيم على أبوهم آدم وابنه شيتل (شيت) ، وسام بن نوح إذ يعتبر إدريس رابع أنبياء الصابئة المندائيين.

وهناك من يعتقد أن نبي الله هرمس أسطورة ، وعدد من الباحثين يعتبرونه مؤسس الغنوصية وذكره القرآن الكريم (وجعلنا له مقامًا عليًا) ... ويذكره الصابئة المندائيون كأحد أنبيائهم آدم وشيتل (شيت) وسام وإدريس ويهيا يوهانا...

يقول بعض المؤرخين والباحثين إنَّ علم الكيمياء كان قد نشأ أول مرة في مصر القديمة (الفرعونية) ، وواصل هذا العلم نهجه ومسيرته من ثمَّ في مدينة الإسكندرية أيامَ أنْ حكمَ اليونان والرومان مصر ، واستمرت شهرة مدرسة الإسكندرية حتى الفتح الإسلامي لمصر عام ٦٢٤ الميلادي.

يرجع تاريخ الكيمياء إلى نحو ثلاثة آلاف أو يزيد من السنين قبل الميلاد، وأنَّ الحضارات التي يُستوحى منها شيء عن الكيمياء وكيفية نشوئها كانت حضارة مصر القديمة ، حيث نشأت صناعات عديدة أهمها صناعة التعدين وعلى الأخص تعدين المعادن الثمينة وفي مقدمتها الذهب وكان يقومُ بها الكهنة داخل المعابد حِفَافًا على أسرارها. لذا لا نستبعد أن تكون كلمة كيمياء مشتقة أصلاً من الكلمة المصرية القديمة "كَمي أو خَمي" التي تعني التراب الأسود ، أو كما يقول باحثون آخرون إنها مشتقة من "كيم أو كِمْتُ" المصرية القديمة التي تعني التربة السوداء.

يقول ابن النديم في الفهرست : (... زعم أهل صناعة الكيمياء وهي صناعة الذهب والفضة من غير معادنها أنَّ أولَ من تكلم على علم الصنعة هرمس

الحكيم البابلي المنتقل إلى مصر عند افتراق الناس عن بابل ، وكان حكيماً فيلسوفاً وأنّ الصنعة صحّت له وله في ذلك عدّة كتب ، وقد قيل إنّ ذلك قبل هرمس بألوف السنين على مذهب أهل القدم) ، وفي موضع آخر قال ابن النديم (والكتب المؤلفة في هذا الشأن - الكيمياء - أكثر وأعظم من أن تُحصى لأنّ المؤلفين لها تتحلّوها عنهم ، ولأهل مصر في هذا الأمر مصنّفون وعلماء ، والبرابي المعروفة وهي بيوت الحكمة وماريّة القبطية من بلاد مصر).

لكن ابن النديم يعود ليقول : (... وقيل إنّ أصل الكلام في الصنعة للفُرس الأوّل، وقيل أول من تكلم عليه اليونانيون وقيل الهند وقيل الصين والله أعلم).

أما "تيلر" الذي تكلم عن صناعة الإكسير الذي يُطيل الحياة، وهو أمر يدخل في صميم صناعة الكيمياء، فقد قال : (... إنّ موضوع إكتشاف إكسير الحياة فكرة موجودة في الأدب الهندي قبل الميلاد بما يزيد على الألف سنة، وربما انتقلت إليهم هذه الصنعة عن طريق الصين ، إذ اهتمّ الصينيون بتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن شريفة منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، إلّا أنّ اهتمامهم الأكبر كان نحو اكتشاف إكسير الحياة الذي يُطيل العمر).

لقد أكثر الباحثون في تاريخ الكيمياء من ذكر هرمس فأطلقوا عليه لقب الحكيم البابلي مرّةً، وهرمس المثلث بالنعمة والمثلث بالحكمة وهرمس الهرامسة مرات أخر ، كما يعتبره صابئة حران المندائيون أحد حكمائهم المقدسين ويطلقون عليه اسم الكوكب عطارد ، وله هيكل في حران على شكل مثلث في جوفه مربع مستطيل ، ويحسبون أنّ هرمس هذا هو إدريس (أو إخنوخ) الذي يشغل الموقع السابع في تسلسل ذرية آدم طبقاً لسفر التكوين من العهد القديم ، فإذا ما كان الأمر كذلك فلسوف يختلف هذا الهرمس إدريس عن الحكيم البابلي والكيمياوي القديم هرمس الذي هاجر إلى مصر بعد تفرق الناس عن بابل (قبل أو بعد الميلاد؟!) وعن هرمس هذا يذكر ابن النديم في الفهرست أنّ الفيلسوف يعقوب بن إسحق الكندي كان قد اطلع على كتاب يقر به الحرانانيون الكلدانيون

المعروفون بالصابئة (الصابئة الحرائيون)، وهو عبارة عن مقالات في التوحيد كتبها هرمس لابنه، وأن مشاهير وأعلام هؤلاء القوم هم (أراني وأغاثاذايمون وهرميس وبعضهم يذكر سولون جد أفلاطون الفيلسوف لأمه)، أما البيروني فيتطرق هو الآخر إلى ذكر الصابئة الحرائية الذين ينتمون إلى أنوش بن شيت بن آدم.

(الذين هم بقايا أهل الدين القديم المغربي البائنون عنه بعد تنصر الروم اليونانيين وينتسبون إلى أغاثايمون وهرمس وواليس ومابا وسوار ويتدينون بنبوتهم ونبوة أمثالهم من الحكماء...).

إن فهرمس الحكيم التوحيدي هذا والنور الروحاني الخالص - حسب معتقدات الصابئة المندائية - ومن ثم الكيمياوي المعروف لشديد الارتباط بالصابئة (المندائيين) بفرعيهم البابلي والحرائي، قد لا يكون الرجل بالضرورة مندائياً لكنه ربما كان حنيفياً وغنوصياً ومن ثم تأثر بعد هجرته إلى مصر بأقباطها ولا سيما (الشيتيين منهم أتباع شيت ابن آدم)، عندئذٍ سوف لن يكون هرمس هذا هو هرمس الذي ترك موطنه بابل عند تفرق الناس عنها.

يزيد الأمر تعقيد ما ذكره ابن النديم: (... ذكر هرمس البابلي: اختلف في أمره فقيل إنه كان أحد السبعة السدنة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة، وأنه كان إليه بيت عطارذ وباسمه يسمى فإن عطارذ باللغة الكلدانية هرمس، وقيل إنه انتقل إلى أرض مصر بأسباب وأنه ملكها وكان له أولاد عدة وأنه كان حكيم زمانه).

في كتابه تاريخ الأدب العربي يذكر كارل بروكلمان أهل مدينة حران الساميين الوثنيين وتأثرهم بدين هرمس وبالحضارة الأكديّة التي ازدهرت في جنوب العراق بعد الحضارة السومرية: (... ووجد العلم اليوناني موطناً ثالثاً في مدينة حران بأرض الرافدين، كان سكّانها على الرغم من البيئة المسيحية الخالصة التي حولهم قد احتفظوا بوثنيتهم الساميّة القديمة التي تأثرت بدين هرمس تأثراً

قويًا ، وقد ازدهرت فيها بخاصة الدراسات الرياضية والفلكية التي أنبتتها الحضارة الأكديّة من قبل ثم رعتها الحركة الهلنستية).

قبل أن أنهي جولتنا في بطون الكتب ومجاهل تاريخ الكيمياء لا أرى بأسًا من إضافة معلومات أُخرَ عن حكيم بابل هرمس : قال ابن النديم : (إنَّ الضحّاك بن قبي بنى بأرض السّواد (بلاد ما بين النهرين ، العراق) مدينة اشتقَّ اسمها من اسم الكوكب المُشتري فجمع فيها العلم والعلماء وبنى فيها اثني عشر قصرًا على عدد بروج السّماء وسَمّاها بأسمائها وخزّنَ كتب أهل العلم وأسكنها العلماء ثم بنى سبعة بيوت على عدد الكواكب السبعة ، وجعل كل بيت منها إلى رجل فجعل بيت عطارذ إلى هرمس ، وكان فيها عالم يُقال له هرمس ، وكان من أكملهم عقلًا وأصوبهم علمًا وأطفهم نظرًا فسقط إلى أرض مصر فملك أهلها وعمرَ أرضها وأصلح أحوال سكانها وأظهر علمه فيها ، وبقيَ جُلُّ ذلك وأكثره ببابل إلى أن خرج الإسكندر ملك اليونانيين غازيًا أرض فارس من مدينة للروم يُقال لها مقدونية).

فهل كان هرمس البابلي النازح إلى مصر معاصرًا للإسكندر المقدوني؟ وإذا ما كان الأمر كذلك ، أيجوز التّكهن أن الإسكندر حين فتح العراق وزار بابل كان قد أغرى هرمس ، حكيم بابل ، أن يرحل إلى مصر لكي ينشر دينه وعلمه في أوساط المصريين والجالية الإغريقية هناك ولا سيما في مدينة الإسكندرية التي تحمل اسمه؟ توفي الإسكندر في بابل عام ٣٢٣ قبل الميلاد.

يُدرج ابنُ النديم قائمةً بأسماء كتب هرمس (في الصنعة) كما يلي :
كتاب هرمس إلى ابنه في الصنعة ، كتاب الذهب السائل ، كتاب إلى طاط (ابن هرمس) في الصنعة ، كتاب عمل العنقود ، كتاب الأسرار ، كتاب الهاريطوس ، كتاب الملاطيس ، كتاب الأسطماخس ، كتاب السلماطيس ، كتاب أرمينس تلميذ هرمس ، كتاب نيلاذس تلميذ هرمس في رأي هرمس ، كتاب الأدخيقي (كذا ورد في الفهرست) ، كتاب دمانوس لهرمس.

■ تعقيب :

يعتبر عدد من الكيميائيين في الزمن القديم أن إعداد إكسير كيميائياً بل وحتى ذوبان المعادن والمركبات ببعضها شبيه بعملية خلق الإنسان لأن المركب هو مركبان اثنان ، كل واحد منهما مركب مثل الرجل والمرأة فإذا اجتمعا وتزاوجا أخرج الحي منهما ولد وذلك للشهوة التي جعلها الحي بينهما ، فلزم بعضهما بعضاً ، وفرح بعضهم بلقاء بعض ، وهذا علم من العلوم يكاد يكون تشبيهي.

أما نبي الله هرمس فكان من الأنبياء الذين تذكرهم الكتب السماوية ولم يكن أبداً صابئة حران وثنيين ، بل كانوا صابئة مندائيين ، ولأنهم أبدعوا في علم الفلك نعتهم الجهلاء أنهم يعبدون الكواكب والنجوم ، وراح بعضهم أبعد من ذلك جهلاً أو ظلماً وبهتاناً باتهام عموم الصابئة المندائيين بذلك ، وهذا ادعاء باطل لا أساس له من الصحة ، وصابئة حران علماء وأدباء قل نظيرهم أعطوا للإنسانية علماء في الطب والهندسة والفلك والأدب وكافة العلوم.

٤- سام بن نوح (ع) :

إن النبي سام بن نوح ورد ذكره في الكنزا ربا في قصة الطوفان ، فهو وزوجته نوهوريتا أسسوا العالم من جديد بعد الطوفان وقد نزلت عليه عدد من الصحف الأولى لتكون له دليل إضافة لما حفظه من الصحف التي نزلت قبله...

وقصة الطوفان كما وردت في الكتاب المقدس للصابئة المندائيين كما يلي :
(نودي على نوح أن ابني فلکاً فسيأتي الطوفان وليكن فيه من كل جنس حي زوجان ، ذكران وأنثتان ، ونقل الأرز من لبنان والأبنوس من حران وأقيم الفلك على أحسن بنيان ، ثلاثمائة عام عمل فيه الصناعات ، طوله ثلاثمائة ذراع وعرضه خمسون ذراعاً وثلاثون الارتفاع).

على مدى اثنين وأربعين نهاراً واثنين وأربعين ليلة انفتحت ينابيع الماء، ينابيع عليا تنهمر من السماء، وينابيع سفلى تتبجس من الغبراء، واختفى التراب، وغرقت الجبال والهضاب، ثم أخذ العالم بالضباب.

أحد عشر شهراً والفلك طاف فوق الماء بين الزوابع والأنواء، ثم سكنت الريح الهوجاء وهذا الماء وجنح الفلك على صخرة صماء كانت هامة جبل قردون، وأحس نوح بالسكون، لقد انتهى الطوفان وحل الأمان، ولكن أين هو الآن؟ في أي مكان؟ وأين نهاية هذا الماء؟ أين الغبراء؟.

أخرج نوح الغراب فوق العباب، قال إذا وجدت التراب فعد إلي بشيراً ولا تؤجلني كثيراً، وانطلق الغراب خفق بأجنحته وغاب وظل نوح ينتظر ولكن رسوله لم يعد بجواب، لقد نسي الغراب ذمامه.

قال أيتها الحمامة انتتي بعلامة، وطارت الحمامة أسرع ما يكون فرأت الغراب على جبل قردون قابلاً فوق جثة ينهشها، ورأت زيتونة في العراء أغصانها تتدلى فوق الماء، فالتقطت منها غصناً وعادت به إلى نوح، من يومها للقيامة لعن نوح الغراب وبارك الحمامة، وحفظ الدهر لسام بن نوح ولنهيوتا زوجته ومنهما تكاثر العالم).

هذا ما ورد في كتاب الكنز العظيم الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، ويقال إن سام بن نوح هو الذي بنى مدينة حران في المكان الذي رست فيه سفينة أبيه نوح، وعندما تكاثر المندائيون من الرجل سام وزوجته نهويता وكانوا من الموحدين يدينون بالدين المندائي في مدينة حران انتشروا جنوباً إلى المياه البهية واتجهوا شمالاً إلى أورشليم ومنها عبروا إلى مصر في ذلك الزمان.

٥- إبراهيم الخليل :

وتلفظ إبراهيم أو بهرام ومعناها الأب الرفيع أو النبي الكبير ويسمى أبو الأنبياء، ورد ذكره في كتاب الكنزا ربا باسم بهرام ربا، وهناك من يقول ليس المقصود به إبراهيم الخليل وإنما اسم لأحد الملائكة الأثريين... وكثير من أنبياء الصابئة المندائيين بعد وفاتهم وعروج نفوسهم إلى عالم الأنوار (الجنة) يصبحون ملائكة أثريين مباركين ، كذلك ورد ذكره في التوراة وفي القرآن الكريم...

ولد إبراهيم الخليل في مدينة أور في جنوب العراق وهاجر إلى مدينة حران برفقة أخوه هاران وعدد من أتباعه ثم إلى فلسطين فأرض الكنانة، يذكر أنه تزوج من سارة التي هاجرت معه إلى أرض مصر وكذلك تزوج من هاجر التي ولدت له إسماعيل وكانت جارية عنده.

يعتبر نبي الله إبراهيم مؤسس الحنفية الذي دعا إلى عبادة الله عبادة خالصة، وهناك عدد من الباحثين يعتبرون إبراهيم الخليل شخصية أسطورية لا وجود لها ولهم مبرراتهم...

وتعني كلمة إبراهيم الخليل (صديق الله)، ويذكر الأخوة المسلمين أن إبراهيم قد بنى الكعبة بمساعدة ابنه إسماعيل، وهو من أذن للناس بجمع هذا البيت الذي بناه من الحجر الأسود.

ونبي الله إبراهيم تقدسه كل الأديان التوحيدية، ويقام له قداس في الكنائس المسيحية عموماً، يعتبر النبي إبراهيم الابن الأوسط لأبيه تارح وإخوته ناحور وهاران، لقد أنكر نبي الله إبراهيم على عرب الجزيرة العربية في زمن الجاهلية عبادة الوثان وطلب عبادة الله عبادة خالصة لأن الله واحد أحد لا شريك له في ملكه... كذلك طلب من المندائيين عبادة الله عبادة خالصة دون الملائكة ولكنهم حاجوه لأنهم يذكرونهم بكل خير في صلاتهم وتراتيلهم، وأن الله يرسل وصاياه وتعاليمه للأنبياء والرسل بواسطة الملائكة الأثريين الأصفياء

الطاهرين ، بعدها أنكروا عليه أنه نبي مرسل وأنه معلم لأنه إنسان يمرض ويشيخ ويموت، والمفروض بالنبي أن يكون ملاك...

ثم حصل أن مرض إبراهيم حين أصابه مرض في غلفته فاضطر للختان ، فانفضَّ عددٌ كبيرٌ من الصابئة المندائيين عنه، فاضطر للهجرة مع زوجته سارة مع عدد من أتباعه، وهناك عدد من الباحثين لا يؤيدون هذه القصة لعدم وجود أدلة لإثباتها سوى القصص التي وردت في بعض الكتب المقدسة للأديان التوحيدية مثل ما ورد في التوراة والقرآن الكريم.

كان نبي الله إبراهيم الخليل ينكر أن يعبد مخلوق أي مخلوق آخر، وهذا سر الخلاف بين إبراهيم والذين كانوا يعبدون الأوثان، لأن الأوثان هم من صنعوها أي هم خلقوها، وكذلك سرّ اختلافه مع الصابئة المندائيين لأن الملائكة خلقها الله فهي إذن مخلوقة، ولم يقبل تقديسها وذكرها مع ذكر الله، لأن العبادة والتقديس يجب أن تكون للحي العظيم (الله) الخالق الذي لا شريك له.

٦- يهيا يهانه (ع) يوحنا المعمدان - يحيى بن زكريا :

يسمونه المندائيون يهيا يهانه، أخذ إخواننا المسلمون الاسم الأول يهيا وسموه يحيى، وأخذ الأخوة المسيحيون كعادتهم الاسم الثاني يهانا فسموه يوحنا أو يوهنا، وأضافوا له كلمة المعمدان بعد أن عمد السيد المسيح في نهر الأردن فسموه يوحنا المعمدان.

الصابئة المندائيون أطلقوا على يهيا يهانه لقب الراعي وكبير المعلمين والواعظ والصابغ لأنه يصبغ الناس في نهر الأردن فيطهرهم من ذنوبهم وينقي نفوسهم، وبعد وفاته ولأنه لن يقترب ذنباً وعاش بالبراري يقتات على الجراد والعسل ويحوك ملابسه بنفسه.

ولأنه كان حكيماً مؤمناً يدعو إلى الله جل جلاله وله تعليمات كثيرة ومحاضرات يلقيها على الناس في أمسيات الليالي ، ضمها كتاب يسمى بالمندائية دراسة أد يهيا وبالعربية (تعاليم النبي يحيى ع).

ولأن الله جلت قدرته قد بشره بالجنة عن طريق الرسول جبرائيل (الملاك أنشى أثرا) ، وأصبح ملاك خالد في عالم الأنوار اعترف المندائيون بنبوته وقالوا إنه النبي يهانه ، وذكر النبي يحيى في الكنزا ربا ودونت تعاليمه ووصاياه وهي خير مرشد لجميع المؤمنين ولكل من يطلب الحكمة نذكر شيئاً يسيراً منها:

- رأس الكمال ألا تتكبر.
- رأس مروثتك ألا تأخذ ما ليس لك حتى لو اشتهيته.
- رأس نقاءك أن تنزه نفسك.
- رأس الصدق ألا تحرف في الكلام.
- رأس الإيمان أن تؤمن أن الله مقيم في الفضائل جميعاً.
- رأس الصدقة أن تطعم الجائع وتسقي العطشان.
- العادل ميزان.
- إذا أصبحت ناصوراًئياً (مؤمناً) فكل فضيلة من فضائلك سلاح يعين باهري الصدق ، إنك تعينهم بالإيمان والاستقامة والمعرفة والحكمة والتعليم والرجاء والصلاة والتسبيح والصدقة والطيبة والتواضع والإتقان والنقاء والرأفة والحنان والتبصر والحق.
- المؤمن فلاح مثمر.
- المتواضع ماء منتشر.
- النقي عين ماء صافية.
- الغش حفرة مغطاة بالقش.
- الإثم رمانة عفنة.
- الكذاب عدو بملايس صديق.

- أيها الأصفياء والكاملون صونوا أنفسكم من الغش والإثم والزور والكذب والزيف والشرور ، وانتقوا الدجل والإفك والضلال ، والفتنة والقسوة والجهالة ولا تكفروا ولا تقربوا الزنى واجتنبوا الحسد والبغضاء والحقد والكراهية وعدم الحياء.

- الرجل بحر تنتيه به السفن.

- الشر شجرة مرة الثمار.

- القسوة حصة.

- الغضب نار تتقاذفها الرياح.

- ويل لمن يقولون ولا يعملون ، ولمن يعملون عكس ما يقولون ، ولمن يبطنون عكس ما يظهرهم.

هذا شيء قليل مما أوحى به للحكيم الأمين نبي الله يحيى بن زكريا في أورشليم... كذلك ذكر نبي الله يحيى في القرآن الكريم في سورة مريم:

بسم الله الرحمن الرحيم:

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) ^١.

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) ^٢

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) ^٣

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) ^٤

كذلك ذكره الرسول الكريم محمد (ص) حيث قال: كما ورد في كتاب ابن كثير في تفسير القرآن الكريم: (كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا).

١ - القرآن الكريم : سورة مريم - الآية ٢

٢ - القرآن الكريم : سورة مريم - الآية ٢٢

٣ - القرآن الكريم : سورة مريم - الآية ٧

٤ - القرآن الكريم : سورة مريم - الآية ١٥

كذلك ذكره الإنجيل على لسان السيد المسيح (ع): (الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ يَكُنْ بَيْنَ
الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ الْعَظَمِ مِنْ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ، وَلَكِنَّ الْأَصْغَرَ فِيهِ مَلَكُوتُ
السَّمَاوَاتِ الْعَظَمِ مِنْهُ).

ويذكر في الإنجيل أن يوحنا عمّد السيد المسيح في ماء الأردن بأمر من الله
جلت قدراته.

- ولادته:

ولد النبي يحيى بن زكريا كما تذكر لنا النصوص المندائية من أبوين مندائيين
وأجداده مندائيون كانوا يعيشون في مدينة أورشليم جنباً إلى جنب مع اليهود
وكانت لهم معابدهم وطقوسهم وتراتيلهم، وبعد أن دخل اليهود من طور سيناء
إلى أورشليم وحدثت حروب مع الطوائف التي كانت تعيش هناك؛ قتل خلق
كثير من المندائيين على يد اليهود ومنهم ٣٦٥ رجل دين، فهاجر قسماً منهم
إلى مدينة حران وقسم منهم اعتنق اليهودية تخلصاً من القتل، وآخرين تظاهروا
باعتراف الدين اليهودي ولكنهم سرّاً يمارسون عقائدهم المندائية ويدعون من
الحي العظيم أن يبعث لهم من ينقذهم. فدعا الشيخ الجليل زكريا ربه أن يهبه
غلاماً تقيّاً وهو الذي بلغ من العمر عتياً (٩٩ سنة) وزوجته أنشبي (اليصابات)
وتعني الشيخة الجليلة (٨٨ سنة) فاستجاب جلّت قدرته فولدت غلاماً سمته
يحيى... إن قصة الأميرة مرياي التي تذكرها الكتب الدينية المندائية والتوراة
اليهودية دليل على وجود المندائيين في تلك الحقبة في أورشليم وتحكي القصة
كيف تركت مرياي اليهودية وأصبحت مندائية وكيف اليهود عاقبوا المندائيين
وقتلوا رجال دينهم.

إن كانت ولادته في أورشليم من أب من الأنبياء ومن عابدة مؤمنة عاقر بلغت
من العمر ٨٨ سنة، وزوجها زكريا لم يتقرب منها منذ أكثر من عشرين سنة،
وعندما علم اليهود أن زكريا دعا ربه جاءوا لمحاسبته، وقال لهم هل من يموت
في هذه الدنيا يبعث منها حياً؟ وهل الأعمى ممكن أن يبصر؟ وهل الكساح
ممكن أن يمشي؟ وأنا منذ عشرين سنة لم أتقرب إلى أنشبي ولكن مع هذا إذا

ولدت ماذا أعمل إنه أمر ربي ، قال ربي كن فيكون ، كل شيء بأمر ربي .
وحصلت معجزة الخالق ووُلِدَ لزكريا غلامٌ سماه يحيى كما أمره الله واستجاب
الخالق لدعاء زكريا ومعه المندائيين بعد أن كثفوا دعائهم عندما ضاقت بهم
السبل ، فقد دعوا الله أن يلم شتاتهم ويمن عليهم بنبي يجمعهم ويوحد كلمتهم
ويقودهم نحو الخير والمعرفة .

إن ولادة النبي يحيى بهذه المعجزة العظيمة قد عززت الإيمان لدى المؤمنين
وبقدرة الحي العظيم على عمل أي شيء يرضي به عباده الصالحين... وكما
أن ولادة النبي يحيى أفرحت المندائيين وأصابهم كثير من البهجة والسرور
والعجب ، فما أكثر ما أصاب اليهود من الحزن والغم ، فوضعوا الخطط الخبيثة
لقتله والخلص منه ، لكن الملاك جبرئيل الرسول (آنس أثرا في النصوص
المندائية) عندما علم بذلك أخذهُ دون أن تعلم أمه وأرسله إلى الجبل الأبيض
(بروان) ليتربى على الماء المقدس ويتغذى من الشجرة المباركة المرضعة
للأطفال الرضع (أيلانا أو ماربي يانقي).

وهناك من الباحثين من يذكر أنه أرسل إلى الأسنيين وهم طائفة مؤمنة تحرم
الزواج تعيش على ضفاف حوض البحر الميت ، تعتني بتربية أطفال الآخرين ،
ولهم علاقة طيبة مع المندائيين ، وهناك من يقول إنهم مندائيون لتشابه الملابس
البضاء وهيئة رجال الدين وعدد من العادات والتقاليد .

- حياته وصفاته :

عاش واعظاً ومعلماً مؤمناً تقياً ورعاً يقتات على العسل والجراد ، ويلبس ما
خشن من الثياب رافع رايته (الدرافشا) عالياً ليستدل عليه الناس ليعمدهم بالماء
الجاري في نهر الأردن ، ليظهرهم من ذنوبهم ويخلصهم وينقي نفوسهم.. ففي
النص الثامن عشر من كتاب تعاليم النبي يحيى (ع) يقول :

(تألفت بتسيبحاتي للخالق العظيم وصرت كبيراً في الدنيا ، ابتعدت عن كل عمل
قبيح وتعلمت أن أسبح ربي ، لم أقم لي عرشاً في أورشليم ولم أحب بهرجة

المديح ولم أعاشر النساء الساقطات ولم أشرب خمراً ولا أحب أكل اللحوم).
(كرست حياتي لمعموديتي أعمد الناس كل الناس دون استثناء أحد ، لم أكذب
واحد منهم أبداً بل أعمدهم وأقرأ عليهم الأسماء الحسنی ، وكنت مثلاً للآخرين
بالإيمان والخير والصلاح والتسبيح).

قال نبي الله يحيى أنا لم أنسَ معموديتي ولو لحظة واحدة وقد بشر بالسيد
المسيح وعمده في نهر الأردن ، لقد كان هادئاً جذاباً حكيماً ، حديثه ممتع
ورصين مازالت كلماته وحكمه لليوم قائمة وما زال مثال يحتذى به وسلام عليه
يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً).

- وفاته في هذا العالم :

يعتقد المندائيون ويؤمنون أن الحياة في هذه الدنيا زائلة وللإنسان الصالح حياة
ثانية أبدية في عالم الأنوار ، لذلك نرى أن النبي يحيى وفق ما ورد في كتابه
وتعاليمه أنه فرح عندما علم بقرب أجله.

(هذا هو ما ترغب به نفسي بالخروج من الجسد والعروج إلى عالم الأنوار
وإني مسرور أن ترافق نفسي الملاك منداهي بالعروج إلى عالم الأنوار)

أما ما ورد في كتاب الكنزا ربا (أن النبي يهانا يعمد الناس في نهر الأردن وقد
بلغ به التعب والإعياء مبلغاً كبيراً وركن للراحة وإذا بطفل صغير عمره ثلاث
سنوات ويوم يأتيه ويطلب منه أن يعمده ، فيعتذر منه نبي الله يحيى أنه متعب
ولأن الشمس أفلت ، ويقول له تعال صباح غد ، وما هي إلا لحظات حتى دعا
الطفل الصغير ربه في علاه :

(يا ملك النور السامي أعلم أنني أطلب طلباً عظيماً وأعرفك محباً كريماً ، ادفع
عجلات الليل دفعاً ودع عجلات النهار تسعى حتى يصبح الليل ساعة واحدة ،
لتستفيق عين يهانه الراقدة فيأخذني في ساعته ويصبغني بصبغته).

وتحقق الرجاء قال النبي يحيى للغلام تعال يا بني قم بنا إلى اليردنا (الماء)...
قال الصبي ابسط ذراعيك وخذني بين يديك، واصبغني بصبغك الحية التي بها
تصبغ، مشى الطفل إلى اليردنا، ووقف يهانا على حافة الماء فانحسرت، فبقي
واقفاً بين ماء وماء ولا قوة له على البقاء فتقدم الطفل إليه والأنوار تشع من
عينيه، فخشع يردنا وانحسر من مجراه فرأى يحيى نفسه واقفاً على اليابسة،
قال الطفل يا يهانا اصبغني بصبغتك.

قال يهانا: ألف ألف إنسان صبغت في هذا الماء وربوات ربوات (آلاف وآلاف)
من النفوس قرأت عليها ولكن ما مر علي إنسان بهذه السيماء.

قال الصغير سر أنت وأنا أسير لنذكرك الماء وتصبغني، وظلت المياه تتحسر
عن الشيطان ويهانا والصبي خلفها يركضان وأنوار الصغير تشع على الماء.

رأى النبي يحيى أن الأسماك تصعد على وجه الماء وأفواها مفتوحة تلهج
بالدعاء، وسمع العصافير على كلا الشاطئتين تغرد واسم مندادهي (جبرئيل
الرسول) عارف الحياة تمجد:

أدرك يهانا أنه الملاك مندادهي قادم إليه وعندما مد يده إليه وطلب منه أن
يأخذه إلى عالم الأنوار قرب خالقه ليكون ملاكاً هناك، ونظر يهانه عند عروجه
إلى جسده ملقى بين الماء والطين فحن عليه، فقال له الملاك أحزنت أنت، قال
يهانا أنا حزين على الناس الذين تركتهم قرب ذاك الجسد لا يرشدكم أحد.

أما ما ورد في الإنجيل (إنجيل لوقا) عن ممات يحيى (ع) فقصة أخرى،
المندائيون يقولون إنه ليس يوحنا المعمدان، أي ليس نبي الله يحيى:

(كَانَ فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ مَلِكِ الْيَهُودِيَّةِ كَاهِنٌ اسْمُهُ زَكَرِيَّا مِنْ فِرْقَةِ أَبِيَّا، وَامْرَأَتُهُ
مِنْ بَنَاتِ هَارُونَ وَاسْمُهَا أَلِيصَابَاتُ، كَانَا مُتَقَدِّمِينَ فِي السِّنِّ وَلَكِنِهَا صَالِحِينَ،
دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ رَغْمَ أَنَّهُ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ عَتِيًّا
وَزَوْجَتُهُ طَاعِنَةٌ فِي السِّنِّ وَعَاقِرٌ، فَجَاءَهُمْ وَلَدٌ سَمَوْهُ يَهَانَا، وَالْقِصَّةُ طَوِيلَةٌ).

ولكن يذكر في التوراة والإنجيل أن ملك اليهود أراد أن يتزوج من راقصة اسمها هوديا ، فحرم يهانا هذا الزواج ودفع حياته ثمنًا لذلك كما تذكر القصة ، واتفق كل المندائيين على أن هذه القصة غير دقيقة وغير صحيحة ، ولربما شخص آخر ادعى أنه يوحنا المعمدان .

وبشكل عام تتطور الأمم والحضارات فتصل حدًا من التآلق تخفت بعدها وتنطفئ ، ولكن قبل النهاية يظهر منقذ ، هذا المنقذ هو يحيى بن زكريا الذي بعث منهم نبيًا وبذل جهودًا كبيرة لإنقاذهم ولإعلاء شأن دينهم .

يجمع المندائيون والمسيحيون أن يحيى بن زكريا هو نفسه يوحنا المعمدان ، وهو الذي عمد السيد المسيح في نهر الأردن ، وبعد هذا التعميد بدء السيد المسيح نشر دعوته للمسيحية إلى أن نبي الله يهانا كرسه وعمده فأعطاه القوة والموعة ، فبدأ بعدها بالتبشير بدين جديد وتعاليم لا تبتعد كثيرًا عن المندائية ولكنها أبسط وأسهل على الناس ، حيث خفف الصلاة كثيرًا وأعطى حرية كبيرة لتلاميذه وأحباره وأخبرهم أن كل ما يعتمدوه في الأرض ستوافق عليه السماء .

والسؤال هنا هل كان السيد المسيح في الأصل مندائيًا؟

إن الثوابت التاريخية والباحثين يؤكدون على أن كل أنبياء الله من أصل بلاد ما بين النهرين ، حتى الرسول الكريم محمد (ص) من أصل شنغاري ويدلنا على ذلك قول علي بن أبي طالب (نحن من قریش وقریش من النبط والنبط من كوئي) ، والأنباط هم فلاحو ميسان (ياقوت الحموي) وكوئي هي الكوفة .

قد مرّت الديانة المندائية بفترة من التآلق الكبير حتى قال الأب غريغوريوس المالطي إن (جميع العالم كان على ديانتهم ، ولكن هذا التآلق بدأ يخفت عندما انغلق المندائيون على أنفسهم ، ولكن ظهر بينهم يحيى (ع) وبذل جهودًا استثنائية لإنقاذهم ، ثم ظهر بعد ذلك السيد المسيح وكلاهما أنبياء مخلصين ، ولكن يبقى السؤال هل يمكن أن يبعث الله جل جلاله نبيين في آن واحد وفي مكان واحد؟ .

كذلك هل كان السيد المسيح يهوديًا ؟ نقول كلا لأنه لو كان يهوديًا لتمَّ ختته مبكرًا حسب عادة اليهود ، لأنهم يعتقدون أن الله سيتعرف على شعبه المختار يوم الحساب من الاختتان كما يدعون ، فكيف للنبي يحيى بن زكريا أن يعمد رجل مختون وهذا محرم في دينه وفي تعاليمه لأن الله خلق الإنسان كاملاً ، إن النبي يحيى (ع) قد عمد السيد المسيح وهو في الثلاثين من عمره ولم يكن مختوناً ، لأن رجال الدين المندائيين لغاية هذه الساعة لا يعمدون المختون حتى ولو كان من أبوين مندائيين .

إن السيد المسيح (ع) لم يكن يهوديًا وأن السيد المسيح كان على دين النبي يحيى (ع) وإلا لماذا اختاره نبي الله يحيى ليكون مخلصاً وليكمل الرسالة من بعده ، ولو كان السيد المسيح يهوديًا لماذا لم يقدس يوم السبت الذي يقدس اليهود ولماذا قدس يوم الأحد الذي يقدس المندائيون ؟! وكلا المسيحيين والمندائيين لا يبيحون تعدد الزوجات ولا الطلاق بمعنى تقارب التعاليم وفي العادات والتقاليد .

حتى قصة قتل النبي يحيى (ع) كما توردها لنا الأناجيل بمؤامرة دبرتها هوديا اليهودية فكيف تقتل يهودية ابن ملتها ، لقد عمد السيد المسيح وهو في الثلاثين كما أسلفنا وهو بكامل حكمته وإيمانه ، فهو إذن يؤمن بالتعميد منذ صغره ، لقد كان يحيى بن زكريا والسيد المسيح عليهما السلام يتكهمان على الهيكل اليهودي وسدنته ولم يدخلوه إطلاقاً ولم يمارسوا أي شعيرة من شعائر اليهود ، والسيد المسيح هو أول من طرد اليهود من الهيكل وآمن بتعاليم يحيى وصباغته .

ذكر يحيى في تعاليمه (أنا لن أذهب إلى مدينة أورشليم مدينة الشر والخاطئين التي بناها أودوناى وملاها بالأكاذيب) ، والسيد المسيح وصف اليهود بالخرفان التائهة ، فهل من المعقول أن يصف أحد أهل ملته هكذا وصف ؟ ، كما أن لغة السيد المسيح هي نفسها لغة يحيى بن زكريا اللغة الآرامية (الهورية) ، وأن السيد المسيح بدأ دعوته ناصورائياً ومن هذا الشأن فكلمة ناصرياً أو الناصر

علمًا الفترة الزمنية بين وفاة السيد المسيح إن صح القول وكتابة أول إنجيل مائة وخمسين سنة تقريبًا.

أضف إلى ذلك أن شعار المسيحية الصليب هو نفسه الدرفش المندائي ، أي علم يهانا ، ناهيك عن النزعة المندائية في كل تعاليم السيد المسيح وكأنك تقرأ كل تعاليم النبي يحيى من الإنجيل ، وكأنك تتنبأ ما سيقوله الإنجيل مقدمًا حينما تحفظ تعاليم النبي يحيى.

إن السيد المسيح قد خفف كثيرًا من تعاليم الديانة المندائية والتعميد الذي اعتمده يهانا ، فالصلاة عند المندائيين (البراخا والرشامة) يسبقها الوضوء ، فالسيد المسيح ألغى الوضوء وبسط الصلاة بالتثليث ، كذلك خفف التعميد والغطس بالماء الجاري كذلك خفف الصوم وكثير من التعاليم وسهلها على الناس.

وهناك من يؤكد لنا أن يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم عاشا في أهوار الناصرية في بلاد ما بين النهرين خلال صباهم وانتهت حياتهم هناك ، وأن السيد المسيح لم يكن من أصل يهودي بل مندائيًا صابئيًا دينًا وولادة ، ولقد أبقى الكثير من تعاليمه المندائية بما فيه تعاليم معلمه يحيى بن زكريا التي أوردتها على هيئة أمثال وقصص وعبر ، كذلك اعتماده التعميد وتحريمه الختان ، واعتمد نفس الوصايا والتعاليم ولكنه طورها وحفظها وسهلها على الناس المؤمنين.

- مغطس وبلدة يهيا يوهانا :

في بداية عام ٢٠٠٦ كنا في عمان طلبًا للهجرة إلى السويد ، وتعرفت بجاري الأردني العقيد محمد العيشات أبو أيمن الذي عرفني بصديقه السيد وزير السياحة الأردني ، وقدمني إني من طائفة الصابئة المندائيين من العراق الشقيق ، فرحب بي الوزير أجمل ترحيب.

وقال فرصة طيبة أن نلتقي في مضيف أبو أيمن وأحب أن أعرف معلومات وافية عن الصابئة المندائيين لأننا اكتشفنا على ضفاف نهر الأردن مغطس وبلدة يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) ، وهذا المغطس تدل الدلائل أن يوحنا المعمدان نبي الصابئة المعمدان والذي تسموه في اللغة المندائية يهيا يوهانا قد عمد السيد المسيح فيه ، ولدينا خطة معتمدة وتمويل بتطوير هذا المغطس وجعله مركز سياحي راقي تزوره الناس من كل مكان تتبارك وتتعمد فيه ، ولدينا رغبة أكيدة في إجراء مراسيم التعميد كما أجراها يوحنا المعمدان للسيد المسيح ، ومن الضروري بداية أن نستعين برجال دين منكم ، ولكن الظاهر لم تحصل موافقات من الحكومة الأردنية الإسلامية ولا من الكنيسة المسيحية ولست متأكد من ذلك...

ومن الضروري أن نتعرف على هذا المغطس وهذه البلدة مما كتب ونشر كمعلومات عامة:

الحفريات في الأردن تكشف مستوطنة يوحنا المعمدان :

مسح وادي الخرار - الحفريات تكشف عن مستوطنة (بيت عنيا، بعد الأردن) وهي المستوطنة التي كان يسكنها يوحنا المعمدان، إثباتاً أن المغطس هو المكان الذي عمد فيه السيد المسيح (ع) وأن هذا المكان المبارك يقع على الضفة الشرقية من نهر الأردن، نقدم للقارئ الكريم هذا المقال الذي يبرهن بالبراهين التاريخية القاطعة، ويبرز بشكل جلي واضح وجود هذا المكان على الضفة الشرقية من نهر الأردن، على مدى العام والنصف الماضي قامت دائرة الآثار الأردنية بعملية مسح منظمة، وحفريات جزئية لسلسلة من المواقع الأثرية التي تمثل في مجموعها واحد من أهم الاكتشافات الأثرية في الأردن الحديث، وهي مستوطنة ومنطقة بيت عنيا، أو (بشبابارا) حيث عاش يوحنا المعمدان وعمد.

ويجب ألا تخلط بين موقع بيت عنيا شرق نهر الأردن، وبين قرية بيت عنيا بالقرب من القدس، وهي القرية التي كان يقيم بها آل عازر، ويذكر إنجيل

يوحنا (١: ٢٨) بشكل واضح بيت عنيا شرقي النهر بأنها المكان الذي كان يعيش فيه يوحنا المعمدان ويعمد ، كما يذكر إنجيل يوحنا (١: ٤٠) كيف أن السيد المسيح اجتاز من بين اليهود المعادين له في أورشليم القدس وسافر عبر الأردن إلى المكان الذي كان فيه يوحنا يعمد.

إن المجمع الرئيسي الذي يجري دراسته يتألف من منشآت تقع فوق وحول تلة صغيرة طبيعية على بعد كيلو مترين شرقي نهر الأردن بمحاذاة نبع الماء والواحة الصغيرة الواقعة على رأس وادي الخرار ، وتعرف التلة منذ القديم باسم (تلة ألياس) أو (تل مار الياس) باللغة العربية وقد كشفت الحفريات عن مستوطنة كانت مأهولة بالناس منذ زمن السيد المسيح ويوحنا المعمدان (العصر الروماني الأول) وبقيت هذه المستوطنة مأهولة بالناس في العصر البيزنطي والعصر الإسلامي الأول ومن ثم العهد العثماني.

وقد دلت الحفريات في هذه المستوطنة التي تعود إلى أيام السيد المسيح ويوحنا المعمدان أنه كان ثلاثة برك سباحة ونظام من أنابيب المياه والقنوات التي تحمل المياه من وإلى الموقع ، ومنشآت محلية وغيرها ، وفي إحدى برك السباحة توجد عتبات للنزول من أول البركة حتى آخرها وربما كان ذلك لاستعمال الناس الذين كانوا ينزلون في البركة ليتعمدوا فيها بتغطيسهم كاملاً في الماء كما قال الدكتور وهيب في مقابلة له مؤخراً وكانت هناك عتبات أخرى لتنظيف المغطس والبرك.

وكان هناك خط أنابيب مصنوع من الخزف ينقل الماء النقي إلى الموقع من (وادي عربية) الذي يبعد حوالي كيلومترين إلى الجنوب الشرقي فقد كان يوفر الماء الكافي لاحتياجات السكان المقيمين في تلك المنطقة كما أوضح الدكتور وهيب وأضاف : (ولذلك فإن مد أنابيب المياه من هذه المسافة ربما مؤكد أنه كانت هناك حاجة إلى مزيد من المياه لأغراض التعميد أو لأغراض شعائرية أخرى تجري في البرك الثلاثة).

الثلة الواقعة في وسط (بيت عنيا) كانت تعتبر ثلة مقدسة منذ قديم الزمان ، فهي الموقع الذي ارتفع فيه النبي إيليا إلى السماء (سفر الملوك الثاني ٥ : ٢ - ١٤) وربما كان ذلك هو السبب الذي حدا بيوحنا المعمدان إلى أن يعيش ويعمد هناك ولذلك لأنه يجري دائماً الربط بين شخصية وطريقة حياة ورسالة نبي العهد القديم إيليا ونبي العهد الجديد يوحنا المعمدان ، وقد ذكر الكاتبان البيزنطيان جيرم ويوسيبيوس أن (بيتابرا بعد الأردن هي موئل للحجيج في القرن الرابع الميلادي، حيث ذهب الناس إلى هناك من أجل أن يتعمدوا في نفس المياه التي كان يعمد فيها يوحنا المعمدان).

غير أن الموقع الصحيح لتعميد السيد المسيح غير معروف، ومن المفترض أن يكون قد تمّ في نهر الأردن في أو قرب الموقع الذي يسمى حالياً المغطس باللغة العربية، وسواء كان السيد المسيح قد دخل الماء من الضفة الشرقية أو من الضفة الغربية للنهر عندما عمّده يوحنا، وسواء كان انزواؤه في البرية لمدة ٤٠ يوماً قد حدث في غربي النهر أو في شرقه فإن هذا لا يزال مسألة قابلة للجدل ، فالنصوص الإنجيلية ليست دقيقة فيما يخص مواقع هذه الأمكنة ، وبعض الباحثين يثيرون السؤال عما إذا كان السيد المسيح قد تعمد في النهر نفسه، فلم يكن من السهل الدخول إلى النهر بسبب الفيضان والعمق، ولذلك كان يوحنا يعمد في مكان إقامته في (بيت عنيا).

لقد تمّ التعرف بالشكل الصحيح الآن على مستوطنة يوحنا المعمدان في (بيت عنيا) وكذلك تمّ التعرف على سلسلة من المواقع التابعة لها... وقد تمّ العثور على بقايا كنيسة كبيرة شرقي النهر وبالقرب منه ، وتشمل بقايا هذه الكنيسة على الحجارة الفسيفساء الملونة والأعمدة المستعملة في البناء وكذلك حجارة الأساس، وتعود هذه الكنيسة إلى العصر البيزنطي الأخير، وربما كانت الكنيسة قد بنيت في العهد البيزنطي لتدل على الموقع الصحيح الذي يعتقد الناس أن يسوع قد تعمد فيه والموقع الذي عاش فيه يوحنا وعلم معمودية التوبة وغفران الخطايا.

وهناك كتابات لحاج مجهول من (بوردو) في عام ٣٣٣م تشير إلى الشمال من شاطئ البحر الميت وهي المنطقة القريبة من الموقع الذي يدخل فيه وادي الخرار وادي الأردن وقد ذكر كتاب الكنيسة والحجاج في القرون من الخامس إلى السابع الميلادي الكنائس الواقعة في وادي الأردن السفلي في منطقة (بيت عنيا) في سياق حديثهم عن معمودية السيد المسيح في نهر الأردن، وكان الحاج (تيودوسيوس) أول من ذكر وجود كنيسة على نهر الأردن بنيت في أواخر القرن الخامس الميلادي من قبل الإمبراطور (انستاتئوس) (٤٩١ - ٥١٨ بعد الميلاد) لتخليد ذكر يوحنا المعمدان ، والكنيسة مربعة الشكل ولها عامود من رخام وصليب حديدي ، وهي الموقع الذي كان يعتقد الناس آنذاك أن السيد المسيح قد تعمد فيها ، وقد روى الحاج (اركولف) في القرن السابع الميلادي أنه شاهد أثار الكنيسة في ذلك الموقع على الضفة الشرقية للنهر ، كما شاهد صليب خشبي في النهر وعتبات تؤدي إلى الماء من الضفة الغربية للنهر ، وهناك كنيسة أصغر قريبة من هذه الكنيسة قيل إنها الموقع الذي ترك فيه يسوع ملابسه عندما نزل ليتعمد في الماء.

الكهوف المقدسة :

وقد كتب (جون موسكوس) في القرن السابع الميلادي في كتاب (المروج الروحية) قائلاً إن هناك مجمع للنساك في تلك المنطقة وهي مأهولة بالكثير منهم ، وقد بني هذا المجمع بعد رؤيا من أحد الرهبان من القدس الذي كان يحج إلى سيناء عن طريق ايلية/ العقبة ، فقد أصيب الراهب بالحمى والتجأ إلى أحد الكهوف شرقي النهر وقد ظهر له يوحنا المعمدان في حلم وطلب منه أن يلغي رحلته ويبقى في الكهف ، قائلاً له : (إن هذا الكهف الصغير أعظم من جبل سيناء ، إن سيدنا يسوع المسيح قد قدم إلى هنا من أجل أن يزورني وقد شفى الراهب من الحمى وامتناناً لشفائه فقد حول الكهف إلى كنيسة للنساك الذين يعيشون في المنطقة).

يتضح لنا من هذا السرد أنه ابتداء من القرن الرابع الميلادي حتى القرن الثاني عشر يتوفر لنا بيانات موثقة تؤكد على أن (بيت عنيا) وهي بلدة يوحنا المعمدان تقع في المنطقة التي توجد فيها ينابيع المياه في وادي الخرار ، على بعد ميلين إلى ثلاثة أميال من نهر الأردن.

قراءة في كتاب النبي يحيى بن زكريا (ع) نبي الصابئة المندائيين :

بإعداد وترجمة من د. صبيح مدلول ؛ وعرض سنان نافل والي ؛ تمّ تقديم بعد طول انتظار صدر كتاب النبي يحيى بن زكريا (ع) نبي الصابئة المندائيين للباحث الدكتور كورت رودولف ، وبهذا فقد أضيف إلى المكتبة المندائية أولاً والعربية ثانياً كتاب قيم يحظى بمكانة مرموقة على الرغم من وجود كتابين أو ثلاثة تناولت شخصية النبي يحيى (ع).

يحتوي الكتاب بصفحاته الـ (٩٥) على ثمانية فصول هي : المقدمة - الصابئة المندائيون في اللغة والتاريخ - التاريخ المبكر للمصادر المندائية قبل الإسلام - النبي يحيى (ع) في المصادر الدينية المندائية المقدسة - النبي يحيى في المصادر الإسلامية - النبي يحيى في المصادر المسيحية - الخاتمة - حكم النبي يحيى بن زكريا وأمثاله.

ورغم كثرة الفصول إلا أن بعضها جاء فقير بالمعلومات (ما عدا الفصل السادس) ، والذي جاءت معلوماته تكرر لمعلومات سابقة يعرفها الجميع مثلما هو الحال في الفصل الخامس الذي يتحدث عن النبي يحيى في المصادر الإسلامية والذي لم يتجاوز الصفحتين والنصف صفحة ، مما أشعرنا بعدم جدواه... وعلى الرغم من الجهد الكبير المبذول من قبل المؤلف والمترجم على حد سواء في تقديم صورة واضحة نوعاً ما عن النبي يحيى وعن عصره ، إلا أن هذه الصورة كانت في بعض الأحيان تحتوي على بعض الغموض ، الذي بدا واضحاً في أكثر من فصل من فصول الكتاب كالأتي :

١- تذكر المصادر المسيحية (إنجيل لوقا ١ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٧ ، ٣٦) أن فارق العمر بين النبي يحيى والسيد المسيح لا يتجاوز الستة أشهر وهذا في الأقل ما تعترف به الروايات المسيحية نفسها ، بينما يرد المؤلف في كتابه نصوصاً من (زاريا) و(حران كويثا) تفيد أن عمر النبي يحيى يتجاوز ٦٢ سنة ، والنبي يحيى بعد أن تجاوز العشرين من عمره بدأ (انش اثرا) وهو الموكل بحمايته وتعليمه العمل وتنويره باللاهوت المندائي ، ثم أجرى له التكريس وبعد ذلك ذهب إلى إجراء طقوس المصبتا ، ويذكر في صفحة ٣٢ نص عندما طلب الاثرا مندادهيي من يحيى أن يقوم بصباغته وهو غلام صغير ، فقال له النبي يحيى وقفت على اليردنا أقوم بطقوس الصباغة في الماء الجاري... الخ.

وهذا يعني أن عمر النبي يحيى قد يتجاوز ٦٢ سنة ، هذا في الوقت الذي تؤكد فيه المصادر المسيحية أن المسيح لم يتجاوز عمره ٣٣ سنة ، وهنا كنا نتمنى أن يناقش الأستاذ الكاتب أو المترجم هذا الاختلاف الكبير في العمر الذي يمكن أن يكون له أبعاد تاريخية خطيرة ، إن هذه الإشكالية (الفرق في العمر) بين ما هو موجود في النصوص المندائية من جهة وما هو موجود في النصوص المسيحية من جهة أخرى لم يوليها المؤلف اهتماماً معيناً ، وكذلك المعد والمترجم.

٢- في الفصل الخامس الذي يتحدث عن (النبي يحيى في المصادر الإسلامية) ، يذكر المؤلف في صفحة ٤ أن يحيى كان بارعاً في الشريعة الموسوية ، ومرجعاً مهماً لكل من يستفتي في أحكامها ، وكان لأحد حكام فلسطين (هيرودوس) بنت أخ يقال لها هيروديا وكانت بارعة الجمال ، أراد عمها أن يتزوج منها ، غير أن يحيى لم يرضَ عن هذا الزواج لأنه محرم ، ومن خلال قراءة هذه الفقرة نود أن نطرح ثلاثة أمور :

أ- إن أسبقية وجود الديانة المندائية على الديانة المسيحية أصبحت من الأمور المعترف بها بالنسبة لعدد كبير من الباحثين في المندائية ، وفي نفس الوقت فإن بعض هؤلاء الباحثين والدارسين متفقون ومن وجهة نظرهم على أن الدين المندائي ظهر بعد الدين اليهودي ، ونادراً ما أتى باحث وذكر أن الديانة

الصائبية المندائية سابقة في وجودها على الديانة اليهودية، مع ذلك ومن خلال قراءة الفقرة السابقة نريد أن نسأل فيما إذا كان هذا الزواج محلل في الديانة اليهودية وأن النبي يحيى كان يعرف ذلك أتم المعرفة باعتباره بارع في الشريعة الموسوية، ومرجع مهم في أحكامها، وعلى الرغم من ذلك حرم ذلك الزواج واعتبره باطلاً، ألا يعني هذا التحريم أن النبي يحيى كان يتبع في ذلك تعاليم هي امتداد لتعاليم قديمة، أسبق من اليهودية لأنه لو كانت اليهودية أسبق في وجودها، لما حرم النبي يحيى هذا الزواج وهو البارع في الشريعة الموسوية، والمرجع الكبير في أحكامها، ومرة أخرى لم يترجم المؤلف هذه النقطة المهمة.

ب- يقول النص أعلاه أن هيرودس أراد أن يتزوج من (ابنة أخيه هيروديا)، وفي الحقيقة هناك خطأ كبير في هذه المسألة، إذ تذكر الأنجيل أن هيرودس أراد أن يتزوج من هيروديا زوجة أخيه فيلبس وليس ابنة أخيه، حيث يذكر إنجيل متى ١٤ : ٣،٤ (فإن هيرودس كان قد أمسك يوحنا وأوثقه وطرحه في سجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه، لأن يوحنا كان يقول له لا يحل أن تكون لك). وفي إنجيل مرقس ٦ : ١٧،١٨ (لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه إذ كان قد تزوج بها، لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك).

ج- ربما تحديد هذا الزواج سواء كان من زوجة الأخ أو ابنة الأخ يعتبر مرحلة لاحقة في الديانة اليهودية، أي أنه قد ظهر بعد النبي بفترة زمنية معينة.

٣- في صفحة ٤٧ وفي الفصل السادس الذي يتحدث عن النبي يحيى في المعلومات المسيحية، يقول الكاتب (إن المعلومات المندائية عن يوحنا لا تعد دليلاً تاريخياً) ويعقب الأستاذ المترجم في الهامش ٢٢ ص ٦١ على هذا الطرح بتساؤل (ومن جانبنا لم نفهم ماذا يقصد رودولف بأن المعلومات المندائية عن يوحنا ليست تاريخية، فهل يقصد أنها أسطورية وخيالية لأنها تختلف في محتواها عما ورد في المصادر المسيحية وغيرها؟)، ونحن بدورنا نقول إن ما

ورد في المصادر المسيحية من معلومات لا تعتبر بالضرورة موجودة تاريخياً وربما لا يمكن الاعتماد عليها أو الأخذ بها.

هذا ما حدا ببعض الباحثين مثل الباحث الفرنسي دوبرون سوميه وجون اليجرو أن يعلنوا بعد اكتشاف مخطوطات البحر الميت في وادي قمران أن اكتشافات قمران تستدعي مراجعة شاملة للفكر التقليدي الخاص بنشأة المسيحية ومصادرها وشخصها الرئيسيين... وهذا يؤكد بشكل أو بآخر أن المصادر المسيحية ليست بالضرورة يجب أن تعتمد أدلة تاريخية على إثبات أو نفي حالة معينة أو شخص معين.

ويشير المؤلف أيضاً عدة إشارات في هذا الفصل يحاول فيها أن يثبت أنه لا توجد علاقة بين النبي يحيى والمندائيين (ص ٤٨ - ص ٤٩ - ص ٥١ - ص ٥٢ - ص ٥٣ - ص ٥٥) ، ويقول ما نصه في ص ٥٥ : (إن النبي يحيى الصابغ وتلاميذه وحسب ما نملك من معلومات ومصادر ليس لهم علاقة بالمندائيين وكنا نتمنى أن يكون هناك رد قوي ومقنع من قبل الأستاذ المترجم يوازي خطورة هذا الطرح غير السليم ، إلا أن المترجم اكتفى برد بسيط على الهامش (٩٧) ص ٨١ ، إذ أتى ببعض الاستشهادات من بعض ما كتبه المستشرقون الذين يرفضون وجهة نظر رودولف حول هذه النقطة ، مثل فيدكرين وليدزبارسكي ورايتشتاين ويؤكدون أن المندائيين هم أتباع النبي يحيى وأنهم جميعاً يرجعون بالأصل إلى الطائفة المندائية والتي كانت موجودة أصلاً قبل ظهور النبي يحيى (ع) دون أن يعطي المترجم لهذا الرأي حقه من المناقشة.

هذه بعض النقاط التي رأيت أنها تشكل على قلتها غموضاً وتلقي ظلالاً على ما جاء في الكتاب ، إضافة إلى بعض الأخطاء البسيطة المنتشرة هنا وهناك ، مثل المعلومة المذكورة في الهامش (١) ص ١٣ حول كتاب المانوية ذاكراً أنه (الزبور) بينما هو (كنز الحياة) ومع ذلك فإن الكتاب تعتبر من الكتب الجيدة التي كنا بأمس الحاجة إليها ، لما احتواه من دراسات ونظريات حول هذه الشخصية العظيمة ، شخصية النبي يحيى (مبارك اسمه).

مخطوطات البحر الميت وبلدة يوحنا المعمدان :

أورد بعض المؤرخين القدماء اسم طائفة كانت مزهرة في أيامهم، لها دور مهم في الحركة الفكرية والدينية آنذاك ؛ ولها نظام عيش معين كانت تتخذ الأماكن المقفرة ملاذ لها للعيش بسلام ولتأدية طقوسها بعيدًا عن ظلم وجور المؤسسة اليهودية والرومان الحاكمين في اورشليم (القدس).

أطلق القدماء اسم (الآسينيين) على هذه الطائفة، وتعني في الإغريقية (القداسة)، هذا حسب ما أورده المؤرخون أمثال المؤرخ الجغرافي الروماني بليني الأكبر - القرن الأول بعد الميلاد - في كتابه (التاريخ الطبيعي) والمؤرخ اليهودي جوزيفوس (٥٠ ق.م - ٥٠ ب.م) في كتابه الشهير (حروب اليهود)، وما دونه أيضًا الفيلسوف اليهودي فيلون الإسكندراني (٢٠ ق.م - ٥٠ ب.م)، في كتابه (كل إنسان طيب حر).

وعاش هؤلاء المؤرخون في زمن وجود الطائفة والتي كان عدد أفرادها يوم فتح تيطس اورشليم (٧٠م)، يبلغ ٤٠٠٠ نسمة، واختفى ذكرهم من بعد... فوردت في كتبهم معلومات متنوعة عن الطائفة المذكورة عن طريقة عيشهم؛ طقوسهم وبعض أفكارهم وعبادتهم، طهارتهم... لبسهم.

حتى جاء عام ١٩٤٧م عندما اكتشف أحد الرعاة أضخم كنز يعود لهذه الطائفة، والتي أسماها الباحثون (طائفة قمران)، وهو عبارة عن لفائف (مخطوطات) دينية ملفوفة بقطع من قماش أبيض متهرئ ومحفوظة في جرار فخارية وموضوعة في عدد من الكهوف التي كانوا يقطنونها فيما يبدو في منطقة تسمى (خربة قمران) عند البحر الميت في فلسطين؛ الجانب الغربي للبحر الميت، كذلك اكتشاف المخطوطات القبطية في نجع حمادي بمصر عام ٤٥ ميلادي، والوثيقة المكتشفة والتي لها علاقة بالموضوع تعرف بميثاق دمشق أو (الوثيقة الدمشقية) كما أسماها الباحثون، فتوالى على دراسة هذه المخطوطات الرثة التي يعود عمرها إلى ٢٠٠٠ سنة تقريبًا، عدد ليس بقليل من الباحثين، لما فيها

من معلومات خطيرة تثير الجدل حول هذه الطائفة وعلاقتها بالمعتقدات والأفكار الدينية للطوائف التي عاشت في المنطقة.

أحيث وصف الأستاذ إدموند ويلسون هذه المكتشفات بما يلي (ومما لا ريب فيه أنها - أي المخطوطات- أهم ما اكتشف من نوعها منذ أن وصلت معارف اليونان إلى أوروبا ، حتى كانت سبب في النهضة الأوروبية الحديثة ، وقامت عليها علوم العالم الحديث ، هذا الموضوع الخطير الذي انكب على دراسته جهاذة العلم يحاولون حل مشكلاته وتبسيط معتقداته ؛ فإذا توصلوا إلى ذلك حدثت ثورة في فهمنا لتاريخ الديانات.

وعند مقارنة المعلومات المحصلة من المخطوطات التي تمّ الحصول عليها على قتلها ، وخاصة كتاب النظام ؛ فإنها لا تتطابق مع ما تحدث عنه المؤرخون أعلاه عن هذه الطائفة ، فلم يرد اسم الآسينيين صراحة إلا في كتب المؤرخين ، مما زاد الأمر شكاً وجدلاً ، وانقسم الباحثون في آرائهم ؛ فمنهم من يقول إن (طائفة قمران) ليست طائفة (الآسينيين) التي تحدث عنها المؤرخون والكتاب القدماء... ومنهم من يرى أنها طائفة واحدة أطلق عليها أسماء (الآسينيون ، المغاتريون ، القمرانيون) ، وأهم ما في الأمر أن المخطوطات المكتشفة منذ عام ١٩٤٧م ، حتى الآن لم يظهر منها غير القليل والسبب في ذلك يعود إلى التحفظ على القسم الأكبر منها ومحاولة إخفائها أو تشويهها من قبل المؤسسة اليهودية ، وأن ما تمّ نشره من ترجمات لهذه المخطوطات يعتبر جزء صغير ، لا يزيد عن ٢٥% من مجموع ما قد عثر عليه ، وذلك لعدة عوامل ؛ منها تعارض ما ورد في هذه المخطوطات مع أفكار الأديان الموجودة حالياً كاليهودية والمسيحية ، وكذلك لاختلافات شخصية بين العلماء أنفسهم في تفسير ما ورد في المخطوطات ، وغيرها من الأسباب.

لقد عدّد الكاتب المسيحي (هيفسيبيوس) الذي عاش في القرن الثاني الميلادي عدداً من الطوائف إلى جانب طائفة الآسينيين أهمها (الهيموروبابست ،

المصبتيون)... والهميروبابتست تسمية إغريقية تعني من يعتمد أثناء النهار (المعمدانيون)، وهم يشابهون المندائيين ، لأن المندائيين لا يجيزون التعميد إلا في النهار ، (عدا أيام البرونايا الخمسة المقدسة) ، أما المصبتيون كما يرى الأستاذ عزيز سباهي في كتابه (أصول الصابئة المندائيين) إن الكلمة مشتقة من (مصبتا) والتي تعني التعميد وهو صائب في رأيه ، وأريد هنا أن أوضح بأن (المصبتا) تطلق على طقس التعميد المندائي بالذات دون غيره ، والمندائيون فقط يطلقون هذه الكلمة على هذا الطقس.

كما أوضح الكاتب المسيحي أن هذه الطوائف كانت موجودة قبل أيام ظهور المسيحية ، وهي تعارض المسيحية واليهودية في معظم الأفكار ، والمهم في الموضوع برمته أن الكثير من الباحثين ربطوا هذه الطائفة مع المندائيين ، للتشابه الكبير بينهما من ناحية الطقوس والمفاهيم الروحية والأفكار أو الطهارة والملبس وطريقة العيش ، وحتى قرب المنطقة التي عاشت فيها الجماعتان سابقاً ، هذا بالإضافة إلى بعض الاختلاف بين الطائفتين في كثير من النواحي (من الممكن جداً أن تكون الطائفتان متأثرتين ببعضهما).

إن من الصعب تثبيت رأي نهائي في هذا الموضوع ، فهو يحتاج إلى بحث ودراسة موسعة وعميقة ، هذا بالإضافة إلى معرفة وترجمة المخطوطات الأخرى.

لقد أعلنت دائرة الآثار الأردنية منذ فترة العثور على مستوطنة بعد الحفريات التي قامت بها في وادي الخرار ، والتي استمرت عام ونصف العام ، يعتقد المنقبون والباحثون أنها القرية التي كان يسكنها يوحنا المعمدان (ع) والتي تسمى (بيت عنيا) ، وفي اللغة المندائية تكون (بيت أنيا) ومعناها بيت الفقير أو العالي أو المتواضع الواردة في الكتب المندائية.

ومن الجدير بالذكر أن هناك إشارات كثيرة إلى أن يوحنا المعمدان (ع) هو شخصية بارزة من جماعة الأسينيين ، وأن تربيته ونشأته مع السيد المسيح (ع) كانت في ظل هذه الجماعة ومعرفتهم بطقوسها ونظام عيشها الخاص.

إن الاكتشافات الحديثة في الأردن حول بلدة يوحنا المعمدان ربما تكون مهمة للربط بينها وبين مخطوطات خربة قمران القريبة نسبياً من المنطقة المكتشفة وطائفة الآسنيين الذين عرف أفرادها باسم (المغتسلون) وذلك لإكثارهم من الاغتسال بالماء.

إن المنطقة (بيت عنيا) المذكورة في إنجيل يوحنا ١/٢٨؛ يذكر الترميزا يوحنا أن تعميد يوحنا المعمدان للسيد المسيح جرى في منطقة بيت عنيا، والتي تقع على الضفة الشرقية من نهر الأردن وهي غير المنطقة المسماة أيضاً بيت عنيا، والتي تقع على مقربة من أورشليم (القدس)، ولو أن إنجيل متى يقول إن تعميد المسيح جرى في نهر الأردن بالذات... ولقد قمت بزيارة المنطقة الأثرية بعد مقابلتي وزير السياحة والآثار الأردني السيد عقل بلتاجي الذي قام بشرح وافي للمنطقة المكتشفة، والتي تؤكد الدلائل الحضارية على أن هذه المنطقة شهدت استيطان متعاقب منذ العصر الروماني المبكر، واستمر خلال العصر البيزنطي، ثم تعرضت للدمار المتلاحق بفعل العوامل الطبيعية والبشرية، وقد دلت الحفريات في هذه المنطقة والتي تعود إلى أيام يوحنا والمسيح على وجود ثلاثة أحواض (لغرض ديني) مزودة بنظم أنابيب وقنوات تحمل المياه من وإلى الموقع، وقد وجد في جميع الأحواض درجات نزول من أول الحوض حتى آخره، ربما كان ذلك لتسهيل نزول الناس إلى الحوض للتعميد بتغطيسهم كاملاً في الماء.

كما أن هناك أنابيب لتصريف المياه (نفس نظام حوض التعميد في مندي المندائيين في بغداد) ويسمى أحد الأحواض الكبيرة بحوض يوحنا المعمدان، ويبدو أنه للتعميد الجماعي، كذلك يوجد نبع يسمى (نبع يوحنا المعمدان) يقع قرب المنطقة المذكورة وبين عدد من أشجار النخيل ونبات القصب، وتذكر الروايات القديمة أن يوحنا المعمدان وأتباعه (تلاميذه ربما من بعده) كانوا يعيشون في الكهوف التي حولوها إلى أماكن ودور للعبادة، فمن بين المكتشفات التي وجدت في هذه المنطقة عدد من الكهوف المسكونة سابقاً.

والجدير بالذكر أن هذه المنطقة والمسماة بالمغطس تقع على الحدود الأردنية الإسرائيلية وعلى مساحة ٢ كم كانت وما تزال وحتى عهد قريب جدًا منطقة عسكرية بالكامل مليئة بحقول الألغام، ويحظر على أي مواطن الدخول إليها أو مجرد الاقتراب منها، ولا يزال البحث والحفريات جارية في المنطقة والمناطق المجاورة.

فهذه عنزة الراعي البسيط تزيج النقاب عن أهم مكتشفات القرن العشرين، فكم يا ترى من كنز مدفون في الأرض هنا وهناك ينتظر معاول المنقبين أو عنزة مثل هذه لتظهره للوجود والحياة مرة أخرى؟.

ولا ندري ما لهذه الآثار والمكتشفات المستقبلية من أهمية، ربما تعمل على تغيير تصوراتنا التي تعتبر بديهية الآن، إلى درجة كبيرة جدًا، أو ربما تزيدها تأكيد، ومن يدري ربما تكون بعض هذه الآثار تعود للمندائيين ولكن على العموم نحن بانتظار ما تسفر عنه الاكتشافات السابقة واللاحقة.

الفصل الثالث

- البحث الأول : صابئة البطائع وصابئة حران.
- البحث الثاني : الصابئة المنديون والغنوصية.
- البحث الثالث : الصابئة المنديون والأحناف.
- البحث الرابع : الصابئة المنديون والزرادشتية والمانوية.
- البحث الخامس : الصابئة المنديون والإيزيدية.
- البحث السادس : الصابئة المنديون والديانة السومرية والبابلية.



الدين المندائي والأديان الأخرى

يعتبر الصابئة المندائيون أن الدين المندائي هو جذر التوحيد الأول وأن آدم رأس السلالة البشرية، دين محبة وسلام وتآخي، دين روحاني يؤمن بالحياة الروحانية، ولهذا فهم لا يعطون أهمية للحياة المادية في هذا العالم بقدر ما يعطون أهمية بالغة للحياة الثانية في العالم العلوي (عالم الأنوار) يعيشون فيه سعداء بلا أمراض ولا شيخوخة ولا موت ثانٍ، شرط أن تكون كفة أعمالهم الراجعة في هذه الدنيا، بمعنى أن تكون الروح منضبطة خلال مرحلة الحياة قليلة الخطايا، ولهذا فإن الصابئة المندائيين لم يفكروا في إنشاء قوة أو نظام حكم أو أعداد جيش أو تصنيع أسلحة فتاكة، اهتموا بالإيمان العميق (الناصوراثا)، وبذل الجهود بتطبيق أركان الدين المندائي، وقد نجحوا في التوحيد والتعميد (الصبغة) على وجه الخصوص، ولم يتمكنوا من تنفيذ الصوم والصلاة بالدقة المطلوبة، أما الصدقة فهي بين بين.

ونجحوا إلى حدٍ ما في تجنب الكثير من المحرمات وليس جميعها، وخاصة نجحوا نجاحاً باهراً في تجنب القتل وسفك الدم وانتهاك الأعراض والتجديف باسم الحي العظيم، كما نجحوا بامتياز في تجاوز محرمات الطعام، وخاصة المؤمنين منهم ورجال الدين الأفاضل الذين لا يأكلون طعاماً إلا من صنع أيديهم أو تحت إشرافهم ومن أيادي أمينة نظيفة طبقاً للطقوس والشعائر والتعليمات.

والشيء الجميل الموروث من رجال الدين الكرام والأجداد وحدة المجتمع المندائي وأن المندائيين ثلة واحدة فليس هناك في الدين المندائي مذاهب ولا تطرف ولا اجتهدات ولا فرق مذهبية ولا فرق صوفية ولا غير ذلك البتة... والجميل أيضاً في الدين الصابئي المندائي لا توجد أضرحة ولا مقامات ولا قبور ولا أولياء يتشفعون بها، الشفاعة للحي العظيم (الله) وحده والقسم باسم الحي العظيم وحده لا شريك له.

والصابئي المندائي بطبيعته وتربيته الدينية والاجتماعية مسالم لا يحب العنف يكره القتال بكل أنواعه، ولهذا عندما يتعرضون للمضايقة أو الأذى من الأديان الأخرى أو من الحكومات الدكتاتورية بسبب الدين أو السياسة يفضلون الهجرة إلى مكان آمن يحترمهم ويعطيهم حق قدرهم ويحميهم ، كذلك لا يحبون الحروب لأنها تسبب قتل الناس وتعاسة المجتمعات الآمنة المسالمة وشعارهم دائماً وأبداً لا تقتلوا... لا ترزوا... لا تكذبوا، والمحرمات كما ذكرنا عندهم كثيرة، وهناك قواسم مشتركة في معظم الوصايا مع الأديان الأخرى.

هنا نود أن نوضح أن الوصايا والتعليمات المنزلة من الخالق بواسطة جبرائيل الرسول ، هل يوصلها جبرائيل لفظاً ومعنى إلى النبي المرسل أم يوصلها معنى، وهل جبرئيل الرسول يحفظها من الحي العظيم لفظاً وينقلها نصاً أم يفهم المعنى وينقله لكونه أسهل ، من هذا نفهم أن الوصايا ربما تحدث زيادة أو نقصان، ومن هنا جاء الاختلاف في النصوص لكون المصدر واحد وهو رب العالمين، ثم لو كان النبي أي نبي عليه السلام يسمع المعنى ويصوغ عليه الآية (البوثة) فحتمًا هذا النبي متأثر بالمحيط الذي يعيش فيه وبالأديان السابقة والتراث والثقافات التي تربي في وسطها، وإلا من أين جاءت الميثولوجيا (علم الأساطير) للأديان الموحدة مثلاً (الصابئة، اليهود، النصارى، الإسلام).

والفقهاء ورجال الدين والمؤمنين وجدوا تخريجة لذلك فسموها خوارق ومعجزات، تتعارض مع المنطق والعقل وبالتالي مع العلم والتكنولوجيا المتقدمة لأنه لا بد من إعمال العقل في الخبر المنقول لتكون المعلومة صادقة وأمينية، ثم لماذا الطائفية في الأديان الموحدة، كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت، ولماذا سنة وشيعة مثلاً؟ أليس المسيحيون ربهم الله جل جلاله ونبينهم عيسى وكتابهم الإنجيل جميعهم ، والمسلمين ربهم الله ونبينهم محمد وكتابهم القرآن فلماذا الطائفية، ولماذا هذه الفرق الدينية، ثم لماذا هذا الاقتتال الطائفي...

إن الحي العظيم في علاه أرسل رسالة التوحيد على أنبياءه ليوحده ويُسبحوه ويعظموه ويمجدوه في علاه ، والمفروض هذه الرسائل واحدة متشابهة لا تختلف حتى باختلاف المكان والزمان ، وإذا حصل مثلاً اختلاف بسبب المعنى واللفظ والصياغة ، واجب على الفقهاء والمؤمنين توحيد المبادئ الأساسية للدين لا زرع الفرقة والتناقض ، مما جعل الأديان تتحول إلى طائفية دينية يتقاتلون فيما بينهم وكل منهم يرى أنه على حق ، ولا نعلم من أين جاء بهذا الحق .

المشكلة أن كل الأديان المنزلة لم تدون عند نزولها على الأنبياء في زمن وجودهم ولناخذ أمثلة على ذلك ، لم يكن في زمن آدم وشيت وسام كتابة حتى تدون المعلومات ، ولربما دونت هذه المعلومات المحفوظة في زمن إدريس أو يحيى بن زكريا (يهيا يوهانا) ، وكذلك الدين اليهودي دونت التوراة بعد ألف سنة من وفاة نبي الله موسى أي في سنة ٤٤٥ قبل الميلاد ، والذين دونوا التوراة كانوا من سببا الملك نبوخذ نصر ملك بابل ، ومنهم (عزرا الكاتب) وله مرقد في جنوب العراق وقد عاشوا ردحاً من الزمن في بابل وتأثروا بأديان حضارات وادي الرافدين وبالدين المندائي وبالديانة الزاردشتية والمانوية المنتشرة في ذلك الزمان .

لاحظ سيدي القارئ أن الدين السومري يذكر لنا في نصوصه أن حواء خلقت من ضلع الرجل آدم (طبعاً السومريون أعطوه اسماً آخر) ، وتذكرنا الأديان الموحدة أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر وامتلاً مكانه باللحم ، وعلم التشريح يؤكد لنا أن لكل من آدم وحواء أربعة وعشرين ضلعاً ، أي أن آدم أضلاعه كاملة ولم يؤخذ منها شيء ، أو أن آدم رأس السلالة البشرية فقط أخذ منه ضلع بعملية جراحية كبرى في ذلك الزمان ولم يتأثر علم الوراثة بذلك باعتبار أن آدم خلق كاملاً .

يذكر لنا الدين الصابئي المندائي في كتاب الكنز العظيم أن الحي العظيم أمر بخلق آدم وحواء من الطين الأحمر (الصصال) في عالمنا هذا وبعثت له نشمناً

(نفس) من العالم العلوي (عالم الأنوار)، بينما تقص علينا التوراة قصة طرد آدم وحواء من الجنة لأنهم خالفوا تعاليم الرب وصدقوا الحية التي خدعتهم وأخرجتهم من جنة الله.

ونعود لميثولوجيا الأديان والتي يسميها الروحانيون المعجزات أو الخوارق أن عددًا من الشخصيات وحتى منهم أنبياء ذكرهم التاريخ ليس هناك دلائل تدل على وجودهم في ذلك الزمان المذكور، وحتى الطوفان اعتبره عدد من العلماء ميثولوجيا إذ قام عدد من العلماء بحساب كمية المياه الموجودة في هذا العالم فوجدوها لا تستطيع غمر كامل الكرة الأرضية ولا حتى نصفها، ولا يمكن أن تكون كافية لتغطية الجبال ولا ربعتها.

إن الحي العظيم جلّ جلاله أنزل الأديان على الأنبياء كدساتير ربانية لينظم حياة خلقه ويعلمهم الإيمان والحكمة والتوحيد والأخلاق الكريمة والقيم الحميدة، وليعيشوا بسلام ومحبة لأن الله هو السلام وهو المحبة، إن الحي العظيم لم ينزل الأديان على أنبيائه ليحولها الفقهاء إلى مذاهب وفرق مذهبية تقاتل بعضها البعض، ولم يأمر الله في علاه أن تتقاتل الأديان بسبب التعصب ولم يأمر أن يتحول الدين إلى مصالح سياسية تخدم فئة على حساب فئة، ولا يجوز المتاجرة بالدين أو استغلال الدين أو تحريف أي نص ديني لأن هذا من المحرمات، الدين لله وعلى الناس الإيمان بما أنزله الله من دين رحمة للعالمين.

وتبقى مشكلة الميثولوجيا التي يناقشها عدد من الباحثين الذين لا يؤمنون بالمعجزات الروحانية ومنهم العرفانيون الذين يرجحون العقل والمنطق ومنهم من يناقش الموضوع وفق المعطيات العلمية، هذه الميثولوجيا أصبحت من أساسيات الأديان وليس هناك دين غير توحيدي أي يؤمن بتعدد الآلهة أو الأديان التوحيدية التي توحد الحي العظيم تخلو من الميثولوجيا، وعبر الأزمان تجسدت هذه الأساطير بالرسوم والمنحوتات والقصص والتفسير وآمن بها خلق كثير، وطالما نزلت في الكتب الدينية المنزلة الموحدة لرب القدرة، فلا يحق

لكائن من يكون من البشر أن يمحوها ويزيلها ، ولو أراد الحي العظيم جلت
قدرته أن يزيلها لأزالها لأنه على كل شيء قدير .
والآن لنشرح بإيجاز شيء عن الأديان التي عاشت في نفس الزمان والمكان...

البحث الأول

صابئة حران وصابئة البطائح

■ أعلام حرانية :

١- هناك عائلتان مندائيتان حرانيتان اشتهرت بهما حران واشتهروا بها: عائلة الصابي وعائلة قره، عاشوا ونبغوا واشتهروا وذريتهم في هذه المدينة القديمة العريقة ، ومنها انطلقوا إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ليتبوؤا أعلى المناصب العلمية والأدبية المهمة.

مدينة حران وما أحلى اسمها المشتق من اسم أخ أبو الأنبياء إبراهيم الخليل هاران ، تقع في الشمال الغربي من العراق على نهر البليخ في تركيا بجوار الحدود السورية التركية ، وكانت مشهورة بتجاريتها وبنطقها الآرامي ، يعيش فيها المندائيون، فتحها المسلمون في زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب.

لقد ذكرها المؤرخون والباحثون لأهميتها التاريخية ومنهم المقدسي وابن جبير ودائرة المعارف الإسلامية وأحمد سوسة في كتابه (العرب واليهود قبل الإسلام) والمؤرخ المعاصر حامد السعودي في كتابه (حقيقة الصابئة المندائيين)، ولكنها اضمحلت وذهبت ريحها عام ١٩٣٢م ، واليوم هي عبارة عن قرية صغيرة وأطلال طينية (حضارات سادت ثم بادت).

وإذا راجعنا اليوم كتاب حران كويثا أحد الكتب المندائية المهمة يدلنا على هجرة المندائيين من فلسطين إلى هذه المدينة بقيادة المندائي (أردوان ملكه) فوجدوا لهم أخوة في مدينة حران وأكرمهم وضيّفهم وساعدوهم على تخطي محنتهم.

٢- لقد هيأ لها موقعها الجغرافي على مفترق الطرق التجارية في العالم القديم أن تكون حران مدينة تجارية ذات شأن في الحضارة والثقافة والأديان ، فيذكر

لنا الهمداني أن أهلها أصحاب علم وأدب وحكمة ومتبحرين في علوم الكواكب وأصحاب رصد وقياس ولهم فطنة وذكاء.

ويذكر الطبري أن نوح بعد الطوفان قد خطها وخط سورها بنفسه، وأنها تأتي في القدم بعد مدينة أور السومرية أو ربما قبلها، وقد عرفت بعدة أسماء فالليونانيون يسمونها كاران والرومان يسمونها كاريا والسومريون حرانو ومعناها الطريق، وذكرها التوراة باسم فران، وقد كشفت التنقيبات أن الملك شلمانصر الثالث احتلها سنة ٨٥٧ قبل الميلاد، وأسكن فيها جالية آشورية وبنى فيها قصر ومعبد لإله القمر (سين)... واستقر فيها عدد لا يستهان به من الآشوريين بعد سقوط نينوى عام ٦١٢ قبل الميلاد، احتلها اليونانيون في زمن الإسكندر المقدوني وجعلها مركز للثقافة فكثرت فلاسفتها وعلمائها وأثروا في الفكر الإنساني والديني.

وفي زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (ر ض) بعد أن ولى عليها الوالي عياض بن غنم الذي احتلها في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (ر ض) نقل إليها معاهد الطب من الإسكندرية، وجعلها الخليفة مروان الثاني عاصمة له، ونقل إليها دواوين الدولة وإداراتها، وبعد سقوط الدولة الآشورية على يد العباسيين استمرت مدينة حران على معتقداتها الروحية وعلى نهجها العلمي والأدبي وكانت اللهجة المندائية أخت اللهجة السريانية هي السائدة آنذاك.

لقد كان علماء وأدباء حران يتقنون عدة لغات منها اليونانية والعربية وكان من السهل عليهم أن ينقلوا الحضارة الإغريقية إلى اللغة العربية خاصة عندما ازدهرت أعمال الترجمة، ثم تطور الأمر إلى التأليف فازدهرت الحضارة العربية الإسلامية.

٣- أصيبت حران زلزالين؛ الأول عام ١١٤ ميلادي والثاني عام ١١٥٧ ميلادي، فتهدمت معظم مبانيها وهجرها خلق كثير من أهلها فأخذت أهميتها بالتراجع، بعدها احتلها المغول بقيادة هولاكو فتشتت أهلها ودمرها المغول وحولوها إلى خرائب واليوم حران قرية فقيرة مهملة ألحقت بتركيا.

٤ - لقد استفاد الخلفاء العباسيون من جمهرة من علماء حران وخاصة في زمن المأمون عندما أنشأوا دار الحكمة، فقد نبغ العديد من رجال مدينة حران بالعلوم وبالفلك خاصة كذلك في أعمال الترجمة والتأليف والإنشاء، كما برز علماء وأطباء ومهندسون وشعراء وأدباء وفنانون نذكر منهم:

≠ ثابت بن قرة :

ولد في حران عام ٢٢١ هـ وتوفي في بغداد عام ٢٨٨ هـ ، وفق ما ورد في الفهرست لابن النديم، كان لثابت مؤلفات عديدة منها: كتاب حساب رؤية الأهلة ، رسالة في سنة الشمس ، رسالة في استخراج المسائل الهندسية ، رسالة في الأعداد ، الشكل القاطع ، رسالة في الحجة المنسوبة إلى سقراط وكتاب أبطال الحركة في تفلك البروج ، رسالة في الحصى المتولد في المئانة كتاب وجع المفاصل والنقرس ، كتاب رسالة في ملوحة مياه البحار ، رسالة في بياض البدن وإصلاحه ، أصول الهندسة للعالم سنالاس إضافة إلى كتب عديدة أخرى وترجمات لا حصر لها، ومن أشهر تلاميذه عيسى بن أسيد النصراني ، سنان بن ثابت ، أبو الحسن الحراني ، إبراهيم بن سنان وغيرهم كثيرون.

ذكره المؤرخ الطبيب ابن أبي أصيبعة قائلاً لم يكن في زمن ثابت من يضارعه في علوم الطب ولا في الفلسفة وذكر له أكثر من مائة وخمسين كتاب ألفها أو ترجمها في مجالات الطب والهندسة والفلك والفلسفة ، لقد كان عالماً رياضياً وفلكياً وفيلسوفاً وطبيباً ومهندساً وموحداً، ومن وصياه:

- راحة النفس في قلة الآثام.
- راحة الجسم في قلة الطعام.
- راحة القلب في قلة الاهتمام.
- راحة اللسان في قلة الكلام.

ومن وصاياه الطبية:

ليس على الشيخ أضر من أن يكون له طباخ حاذق وجارية حسناء لأنه يستكثر من الطعام فيسقم ومن الجماع فيهرم...

رحم الله ثابت فلقد كان مدرسة متنوعة الفنون نقل علمه إلى ذريته بكل أمانة ودقة.

≠ سنان بن ثابت بن قرة :

لقد أخذ عن أبيه في العلم والمعرفة وبرع في الطب كأبيه ولازم الخلفاء وقد ألف وترجم عدد كبير من الكتب ولعلو كعبه في علوم الطب عينه الخلفاء في قصور الخلافة يمتحن الأطباء وينسبهم حسب كفاءتهم ، ويذكر أنه منح ٨٦٠ طبيباً شهادة ممارسة الطب، كما عهد إليه الخليفة أن يبنى المستشفيات في بغداد على نهر دجلة وكان مستشار لعدد من الخلفاء العباسيين لكونه موضع ثقة وعالم جليل، وافاه الأجل عام ٣٣١ هـ .

≠ ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة :

كذلك قال المؤرخ ابن أبي أصيبعة: لقد كان طبيباً حاذقاً يجاري أباه في صناعة الطب وقد برز على أقرانه من الأطباء فاعتمده المقتدر بالله والمستكفي بالله والمطيع لله ، وله عدة مؤلفات في التاريخ وكتاب أخبار الشام ومصر ، مات سنة ٢٩٥ هـ وقد رثاه الشاعر أبي أحمد يحيى النديم:

ألا كل شيء ما خلا الله مائة

ومن يغتر به يرتجى ومن مات مائة

نعيننا العلو والفلسفيات كلها

خبا نورها إذ قيل مائة ثابت

≠ أبو إسحاق إبراهيم بن سنان :

لقد كان كاملاً في العلوم الحكيمة فاضلاً في صناعة الطب متقدماً على زملائه بارعاً في الكتابة ، عظيم الذكاء ، (عن المؤرخ ابن أصيبعة في كتاب النفيس وعيون الأبناء في طبقات الأطباء) ، كذلك ذكره د. أحمد سليم سعيدان في كتابه (رسائل ابن سنان) باعتباره من كبار فلكي زمانه من مدينة حران ، ولد سنة ٢٩٦ هـ وتوفي سنة ٣٣٥ هـ.

≠ البتاني :

كان من علماء الفلك المشهورين ومن أشهر مؤلفاته الكواكب الثابتة ومعرفة مطالع البروج ورسائله المشهورة أقدار الاتصالات ، ولد سنة ٢٦٤ هـ وتوفي ٣٠٦ هـ.

≠ سنان بن الفتح :

حراني برع في علم الحساب والأعداد ومن أشهر كتبه (التحت) في الحساب الهندي ، الجمع والتفريق ، والوصايا ، حساب المكعبات وكتاب شرح الجبر والمقابلة للخوارزمي.

≠ أبو الحسن الحرافي :

لقد برع في مهنة الطب ، وافر العلم خبير في معالجة مرضاه ، واسع الإطلاع في العلوم الطبية وله مؤلفات عديدة ومقالات متنوعة ، ولد سنة ٢٨٣ هـ ، وتوفي سنة ٣٦٥ هـ ، كانت له معجزات في شفاء المرضى الذين ظن غيره من الأطباء أنهم من الميتين.

≠ المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابي :

ويكنى صاحب الشامة الحمراء في وجهه ، برع في النحو والأدب واللغة والشعر والنثر ، كان أديباً بارعاً ، توفي سنة ٤٠١ هـ.

≠ هلال بن المحسن :

عمل مع جده أبي إسحاق الصابي في ديوان الإنشاء ولم يزل فتى يافع لم يتجاوز العشرين ، ولما نقلوا ديوان الإنشاء عُرف بالكتمان والرصانة والتبصر والوقار وفصاحة اللسان وكان هلال موضع سر وثقة الملوك والسلاطين ، وكانت تربطه بالشريف الرضي صداقة متينة ، لقد برع في كتابة التاريخ بمختلف فروعه لكونه عاشر الملوك والوزراء ومن خلال عمله في ديوان الإنشاء اطلع على أسرار الدولة ولكثرة من يمهده بالأخبار ولإطلاعه على الوثائق المحفوظة والرسائل الرسمية للدولة ، وذكره ابن القفطي : لقد كان هلال ملماً بأسرار الدولة لأنه كاتب الإنشاء ويعلم الوقائع ، وقد أوصى ولده غرس النعمة أن يكمل ما بدأه من كتابة التاريخ ، ومن أهم كتبه كتاب التاريخ تحفة الأمراء في الأمائل والأعيان ، وكتاب مآثر أهله وأخبار الوزير المهلبى وغيرها ، قسم منها مفقودة ولو توفرت لعرفنا الشيء الكثير عن المندائيين عموماً وعن صابئة حران خصوصاً...

وقيل في رثائه :

مات البديع ونارة حرة القطن

واستدرج في الموت بحر الفضيل في حفن

لله در المنايا ما ضمن به

وما تضمنت الأكفان من بدن

≠ وهناك عدد من العلماء والأدباء :

منهم ابن وصيف الصابي ، ابن أبي قرّة ، ابن روح الصابي ، قرّة بن قميطا الصابي ، إبراهيم بن زهرون الصابي ، هلال بن إبراهيم الصابي ، محمد غرس النعمة ، محمد ابن إسحاق الصابي وأبو وحشية ، ولكن يبقى أشهرهم ذائع

الصيت الذي كتب عنه الكثيرون وهو أبو إسحاق الصابئي؛ فهو أشهر الأعلام الحرائية نابغة كتاب جيله، فلقد كان أسلافه يميلون لمهنة الطب وإلى علم الفلك ولكنه مال إلى الأدب، فتقلد ديوان الرسائل في العصر العباسي وقد وصفه الثعالبي النيسابوري في كتابه يتيمة الدهر قائلاً:

هو أوحـد العراق في البلاغة ومن به تتنى الخناصر في الكتابة وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة وتقلد الأعمال الجائل، ولقد ذكره ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) حيث قال عنه: هو أوحـد الدنيا في إنشاء الرسائل و(الاستمال) على جهات الفضائل.

ولد أبو إسحاق الصابي في بغداد من أبوين صابئيين سنة ٣١٣ هـ، أما أبوه فهو هلال بن إبراهيم الطبيب الحاذق، ماهر في مهنة الطب، أفاد الناس كثيراً بعلمه واهتمت به الدولة وقربه الخلفاء والوزراء في عصره، وكانت أمه من بيت علم وأدب، فهي بنت سنان بن ثابت بن قرة.

لقد عاش أبي إسحاق الصابي في بيت ميسور الحال عيشة رغيدة فأباه طبيب مشهور تدر عليه مهنته خيراً وفيراً، وأمّه من آل قرة الأغنياء بعلمهم وأموالهم ومركزهم في قصور الخلافة، لذلك اهتم الوالدان بأبي إسحاق غاية الاهتمام وأرادا أن يكون له مركز مرموق في قصور الخلفاء والوزراء، وأن يتفوق على أقرانه خاصة وأنه من ديانة غير ديانة الدولة وعامة الناس.

إن تربية أبي إسحاق في دار علم فتحت عينيه وهو طفل صغير على أبيه معلمه وراعيه وأمّه وأعمامه وأخواله ومعلميه، فتعلم الشيء الكثير منهم، فحفظ الشعر والقرآن الكريم والأحاديث النبوية والأدب وأجاد فسلب باستخداماته الصحية والدقيقة ألباب جميع من يتابعون أدبه، ويقرأون رسائله وشعره فيشهدون له بالبراعة والتفوق، إضافة إلى علو شأنه في العلوم والرياضيات والفلك، فأسس المراصد وبرع في صناعة الاسطرلابات، كان أبوه يريد أن يكون أبو إسحاق طبيباً حاذقاً مثله، ولكنه لاحظ ميله للأدب وبراعته في كتابة

الرسائل والإجابة عليها، فشجعه على ذلك، فاعتمده الوزير المهلبى في دواوينه وأغدق عليه العطاء، فكون أسرة وأسعد في الأولاد والبنات دفعهم جميعاً لتعلم العلم والأدب، فبرعوا في ذلك وأصبح لهم شأن كبير.

وأشهر أحفاده المعروف بغرس النعمة وتعني بالمندائية وتتطابق مع شيتل طابا لنبي المندائيين شيتل (شيت) ، فكلمة شيتل تعني الغرس وكلمة طابا تعني الطيب، فيكون الغرس الطيب أو غرس النعمة.

لقد ألف حفيده غرس النعمة ثلاثة كتب مهمة ومعروفة، هي: كتاب التاريخ، كتاب الربيع، كتاب الهفوات النادرة كما ترك أبو إسحاق ثروة كبيرة لأحفاده عاشوا بعده في رغد وعيش هانئ، وقد خدمته صداقته مع الوزير المهلبى خدمة جليلة وظلت هذه الصداقة وطيدة حتى وصلت إلى أن يستخلف المهلبى أبا إسحاق على ديوان الوزارة عندما ذهب لفتح عمان، كانت هذه بداية أبي إسحاق الصابى وصعود نجمه وتقديمه في علمه وأدبه وفي صنعة الإنشاء وكتابة الرسائل ومكانته في قصور الخلفاء والوزراء وبسبب شهرته ومكانته المرموقة.

لقد كتب أبو إسحاق الصابى رسائل متنوعة الأغراض في التحميدات والتنهائى والتعازى والمعاتبات والشفاعات والإخوانيات وفي الإهداء والشكر والوصف وفي العتاب والهزاء والرياء وفي مواضيع شتى، كانت لأبى إسحاق صداقات حميمة منها صداقته مع الشاعر أبى الطيب المتنبى الذى أراد أن يمدحه فخاف عليه من الوزير المهلبى لأن المتنبى لم يمدحه، لأنه وجد الوزير لا يستحق المدح رغم ما عرض عليه من مال وجاه، وكانت له صداقة متميزة بالشريف الرضى صداقة متينة مبنية على الثقة والصدق والمودة والرعاية والمحبة والإيثار، صداقة متميزة استمرت طويلاً حتى وفاة أبى إسحاق رحمه الله.

ورغم تباين السن فلقد تفوقت صداقتهما على فارق السن واختلاف الديانة، فقد عزز صداقتهما حبهما للجمل للأدب والشعر واللغة، فعلو شأنهما في هذا المجال

كان سبباً في تعميق هذه الصداقة وتقويتها ، لقد فقد الشريف الرضي صديقه الحبيب أبا إسحاق الصابي بوفاته ، يقول الشريف الرضي فيه : وإلى الله أشكو دهرًا حال دونه وقطع ما بيني وبينه وأفردي عنه أفراد الأم عن جنيها ، إن فقدته أعرى ظهري على كثرة حماتي وأنصاري وأوحدني على أقاربي وعشائري.

لقد رثا الشريف الرضي بهذه القصيدة الصداقة الحميمة التي ربطته بأبي إسحاق الصابي ، فكانت حقاً مأثرة تغنى بها الكثيرون ، ولا شك أن الجميع يذكر استهلالها :

أعلمت من حملوا على الأموات ؟
أرايت كيف خا ضياء النادى ؟
جبل هوى لو خر في البحر الخدي
من وقعهم متتابع الأرباد
هذا أبو إسحاق يخلق رهنة
هل خائد أو مانع أو فادى
إن الدموع على لك خير بخيلة
والقلوب بالسلولون خير جواد
يا ليت أنى ما اقتنيتك صاحباً
كم قنينة جلبت أسى لفؤادى
ما كنت أعلم قبل اليوم
أن الثرى يعلم على الأطواد

رحم الله الشريف الرضي وأبا إسحاق الصابي ، أصدقاء أوفياء قدما للشعر والأدب والصداقة الحقة ما يجعله إرثاً نفتخر ونتباهى به جميعاً.

ادعاءات باطلة لا أساس لها من الصحة :

لقد ادعى بعض الكتاب والمؤرخين ولمرض في نفوسهم ادعاءات باطلة ومزورة على الصابئة المندائيين ، أرادوا تشويه الحقيقة والإقلال من قيمة الصابئة المندائيين كقوم موحدون يؤمنون بالله وباليوم الآخر وبأنبياء الله ورسله وكتبه والعمل الصالح، وإن كتابهم المقدس الكنزا ربا هو غرس التوحيد الأول الذي نزل على آدم (ع) وذريته والأنبياء من بعده عليهم السلام أجمعين.

فالصابئة قوم موحدون محبون للسلام والألفة والتعايش مع الجميع ، يحبون ويحترمون الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله بالحق من بدء الخليقة، وقد ورد ذكرهم في القرآن والإنجيل وكتب التاريخ ولهم أنبيائهم وكتبهم وتراثهم وتاريخهم ، لقد ذكرهم القرآن الكريم في ثلاث آيات بينات في سورة البقرة والمائدة والحج...

بسم الله الرحمن الرحيم :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَحَمَلَ حَالِجًا فُلُكُمُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^١

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَحَمَلَ حَالِجًا فُلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^٢

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)^٣

كذلك تم ذكرهم في الكتاب المقدس الإنجيل وتعميد نبي الله يحيى بن زكريا للسيد المسيح خير دليل على مكانة آخر أنبيائهم يحيى بن زكريا ، يوحنا المعمدان (يهيا يهانا)، ألم يقل السيد المسيح بحقه :

١- القرآن الكريم : سورة البقرة - الآية ٦٢

٢- القرآن الكريم : سورة المائدة - الآية ٦٩

٣- القرآن الكريم : سورة الحج - الآية ١٧

(الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ : لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النَّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ ، وَلَكِنَّ الْأَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ أَعْظَمُ مِنْهُ) ويقصد الملائكة الأثريين الصالحين.

وقال بحقه الرسول الكريم محمد (ص) : (كل ابن أنثى يحاسب يوم القيامة إلا يحيى بن زكريا).

لقد ادعى المؤرخ عبد الرازق الحسني ظلماً وبهتاناً على الصابئة المندائيين أنهم عبدة كواكب ، فمن أين جاء بهذا التجديف؟ وكيف اختلق هذه الكذبة؟ أظنه قرأ عن اهتمام صابئة حران بالفلك ومراقبة النجوم وهذا علم يحسب لهم لا عليهم ، لقد امتعض المندائيون من ذلك وأقام كبيرهم في حينها المرحوم الكنزبرا دخیل الكنزبرا عيدان شكوى عليه في المحاكم العراقية ، وقد استعانت المحكمة بالأب أنستانس الكرملی كمتّرجم ، وقرأ الشیخ الجلیل دخیل تسبیح التوحید من کتاب الكنزا ربا الكتاب المقدس للصابئة المندائيين ، فأدان القضاة عبد الرازق الحسني واتهموه بالتحريف والتزوير المتعمد والمقصود ، وطلبوا منه تصحيح ما ذهب إليه من خطأ فاستجاب المؤرخ عبد الرازق الحسني وطلب المَعذرة من الشیخ الجلیل ومن القضاة فتنازل الشیخ الفاضل وطلب من القضاة الرأفة بالکاتب طالما أنه عرف الحقيقة وأقر بالحق ونبذ الباطل.

أما قصة أشيع القطعي الملفقة حيث ذكر أن الخليفة العباسي المأمون مر بمدينة حران وهو على رأس جيش عرمرم (جرار) لملاقاة الروم ، فاستقبله الناس ومنهم الحرانيون ، فشاهد لبسهم الأقبية ولحاهم الطويلة ، فسألهم من أنتم؟ فلم يجيبوا ، فخيرهم بين أمرين إما أن يسلموا أو يتبعوا دين سماوي ذكر في القرآن الكريم ، فأشار عليهم أحد حكمائهم أن يقولوا للمأمون عند عودته من الحرب أنهم من الصابئين الذين ذكرهم القرآن الكريم في ثلاث سور كما أسلفنا ، ولكن المأمون وافاه الأجل هناك.

إن هذه الرواية ملفقة ومدسوسة وإن كاتبها أراد عن سوء قصد الإساءة للصابئة المندائيين ، بسبب تعصبه وضعف معلوماته ، فهو شخص غير معروف ولا موضع ثقة والأدلة كثيرة على كذب صاحب هذه القصة :

١- لقد كان الخليفة المأمون عالمًا وحافظًا للقرآن ومطلعًا ، فلا تفوته معرفة الصابئة المندائيين في مدينة حران المشهورة في زمانه وأن كثيرًا من العلماء والأدباء والكتبة والمترجمين كانوا يعملون في قصر الخلافة وفي الدواوين وفي دار الحكمة هم من أهل حران ، وأن أبا إسحاق الصابي كان رئيسًا لديوان الرسائل وثابت بن قرة رئيس لديوان الحكمة ، ومن المقربين والمعروفين لدى الخليفة المأمون وهم من أبناء مدينة حران.

٢- إن إطلاق اللحي عند الصابئة المندائيين في ذلك الزمان أمر طبيعي وكذلك لبسهم العمامة ، ومازال رجال الدين حتى يومنا هذا يطلقون شعرهم ولحاهم ويلبسون العمامة لأن في تعاليم الدين المندائي أن الحي العظيم قد خلق الإنسان كاملاً في كل شيء فلا يجوز أن يقص شيء.

٣- لقد عمل قرة بن ثابت الذي كان عالمًا وفلكيًا وطبيبًا وفيلسوفًا ومترجمًا مرموقًا في القصر العباسي لدى المأمون.

٤- لقد كذب القطيعي لأن صابئة حران كانوا يعيشون في حران منذ أزمان سبقت المأمون وخلافته ، ويعلم المأمون وغيره من الخلفاء أنهم كتابيون وكانوا يديرون الدواوين ولهم صداقات وطيدة مع الخلفاء والوزراء ، وكما ذكرنا كانت هناك صداقة متينة بين أبي إسحاق الصابي والشريف الرضي وأخيه الشريف المرتضي.

٥- إن بعض أسماء أهل حران إما عربية أو مندائية مثل زهرون ، وأصل اسم أبي الفتح المندائي وأبي إسحاق الصابي هو دليل على ما نقول.

٦- عندما هاجر الصابئة المندائيون من فلسطين إلى حران وجدوا فيها أخوة لهم في الدين استقبلوهم وساعدوهم واستقروا عندهم ردةً من الزمن قبل أن

ينحدروا إلى الجنوب ويسمون بصابئة البطائح، وهناك أسباب أخرى تؤكد على خطأ ما ذهب إليه القطيعي^{٢٠}، أما صابئة البطائح فهم سكة جنوب العراق على ضفاف دجلة والفرات وفي عمق أهوار العراق ومدن الجنوب الناصرية والعمارة والبصرة وأقصيتها ونواحيه وقصباتها.

كذلك جنوب غرب إيران على ضفاف الكرخة في مدن عربستان (الأحواز أو خوزستان كما يسميها الإيرانيون)، وهؤلاء الأقوام صابئة مندائيون مثلهم مثل صابئة حران، فالجميع أخوة لهم نفس الكتاب ونفس الأنبياء ويدينون بدين واحد ويوحدون رباً واحد، ويؤمنون بالله والرسل والكتب السماوية والعمل الصالح واليوم الآخر والحساب، وكتبهم وتعاليمهم وأنبيائهم تدل على هذا إضافة إلى ما يؤمنون به من قيم وأخلاق كريمة وصدق وأمان ولديهم من الحب ما يكفي الجميع.

لقد تطرق باحثون كثيرون شرقيون وغربيون لهذا الموضوع، وأشبعوه بحثاً وتعليقاً ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة للاستدلال على هوية جميع سكان مدينة حران العريقة، واختلفت الآراء بشأنهم؛ كل يحبذ رأي معين، ونظراً لقدم هذه المدينة في التاريخ حوالي ٢٠٠ ق.م، وبسبب كثرة الأقوام التي سكنتها أو مرت بها من مختلف المشارب والميول، ومن مختلف التيارات؛ أصبح شعبها خليط من الناس، كما أن المصادر التاريخية عنها متضاربة أحياناً ومتفقة أحياناً أخرى.

ونطلع على آراء الكاتب أحمد عطية زرزور من الناصرية؛ حيث مازال كتاب كثيرون حتى الآن يستهويهم البحث في هذا الموضوع كلما دعت أسباب تدعو للكتابة عنها، خاصة من أبناء طائفتنا المندائية، والسبب في ذلك أن أهلنا المندائيين كانوا قد سكنوا هذه المدينة منذ عصور قديمة ضمن أقوام عديدة

– لوجود عدة أقوام أخرى تسكن حران ولهم دينهم وعبادتهم، ولربما اختلط الأمر عليه، رغم تطرفه وحققه وتلفيقه عن سوء قصوهذا ي، ددل على ضعف معلوماته وتفاهتها.

كانت تسكنها ، وأنهم قد مروا بها أثناء هجراتهم المستمرة كما هو مؤشر في بعض كتبنا الدينية (حران كويثا).

ولأن هذه المدينة بالذات قد أفرزت عباقرة في الثقافة والترجمة وفدوا إلى بغداد في وقت نهضتها وعزها ، وأفادوا الحضارة والنهضة العربية من أجل رقيها وعلاها ، ولا زالت أسماؤهم لامعة وتدل على أصلهم المندائي مثل أبو الفتح المندائي وآل زهرون والصابي وغيرهم ، ولهذا سيبقى هذا الموضوع حيًا وسيكتب عنه الكثيرون كما كتب عنه الكثيرون من قبل.

على مر العصور كان هناك من يقف ويناقض الحقيقة أو يحاول تشويهها ، سواء من كان يبتغي المال أو الجاه أو الشهرة ، أو من يحاول الانتفاص من الآخرين ، ولكن شمس الحقيقة لابد أن تشرق في النهاية ليظهر الوجه الحقيقي للأحداث ، ومن بين هذه الحقائق صابئة حران وتشويه مفاهيمهم ، وسنحاول في هذا البحث توضيح الحقائق عن أولئك القوم...

ولنبداً بفذلكة تاريخية حول هذه المدينة العريقة ، فكلمة (حران) اشتقت من الكلمة (حرانو) أو (خرانو) ، وتعود هذه التسمية للفترة البابلية الأولى ، وقد ظهر ذلك واضحاً في النصوص الآشورية التي تعود إلى القرن العاشر ق. م ، وتسمية حران ربما جاءت على أكثر الاحتمالات من الآكديّة ، وتعني محة أو عاصمة تجارية ، وذلك لوقوعها بين سوريا وآشور وبابل...

ولقد اشتهرت في التاريخ بأنها موطن لعبادة الإله (سين) إله القمر ، وهو مركز الآلهة في الدين الوثني الحراني القديم منذ العصور المبكرة ولغاية تحطيم آخر هيكل عام ١٢٥٩م ، هذا مع وجود أقلية صابئية مندائية مقيمة فيها ، وأول مؤرخ إسلامي قدم وجهة نظر في تعريف الحرانيين وسماهم صابئة حران هو حمزة الأصفهاني ، ومن وجهة نظره قال : إن الكلدان عاشوا في الشمال الغربي وأن ذريتهم تعيش في حران (والرها) ، وأنهم تبنا اسم الصابئة في زمن الخليفة

المأمون عام ٨٣٣م ، وقبلأ كانوا يسمون بالكلدان كأسلافهم الذين عاشوا في نفس هذا المكان...

وهذا كلام منطقي ، فهو لا ينفي وجود صابئة في حران وما جاورها ، ونحن أيضاً لا ننفي وجود وثنيين كانوا يعيشون بجوار الصابئة المندائيين لأن حران كانت مدينة كبيرة استقطبت أنواع من البشر ، وأنهم ربما كانوا يحتمون تحت مظلة الدين الصابئي المندائي المعروف بالوحدانية منذ أقدم الأزمنة ، ولكنهم لم يكونوا مندائيين.

والتستر بالأديان معروف في التاريخ ، ويحدث في كل الأزمنة ، فإذا تسترت جماعة بالدين المندائي فهذا ليس نقص يلحق بالمندائية ، وإنما هو تأكيد على أن المندائيين كانوا يعيشون فعلاً في حران وأنهم موحدون ، وأن كثير من الأقوام غير الموحدة كانت تحتمي باسمهم.

وثاني المؤرخين الإسلاميين الذن تناول الصابئة هو الخوارزمي الذي عاصر الأصفهاني ، ووافقه في الرأي وسمى الكلدان الحرانيين الوثنيين بصابئة حران مع إضافة بعض المعلومات المغلوطة كسلفه الأصفهاني ، حيث قال إن أبناء الكلدان الحرانيين يعيشون في حران ، وأنهم انتحلوا اسم الصابئة في زمن المأمون ، ولكنه أضاف أن الصابئة الحقيقيين هم مجموعة أو فرقة مسيحية) ، وهذا كلام غير واضح ومرتبك ، ففي البداية قال إن الوثنيين اهتموا باسم الصابئة الموحدين ليتحاشوا العقاب ، وأن تلك التسمية لحقتهم منذ زمن المأمون ، ولكنه ادعى بعدئذ أن الصابئة الحقيقيين صابئة واسط وميسان والبطائح والطيب هم أنفسهم صابئة حران الوثنيون دون أن يوضح أين كان الصابئة المندائيون.

البحث الثاني

الصابئة المندائيون والغنوصية

الغنوصية تعني المعرفة ، والمندائية تعني أيضاً المعرفة باللغة العربية ، أو العرفان .

لقد ظهرت كلمة عرفان عند المتصوفة لتدل عندهم على نوع أسمى من المعرفة يلقي في القلب على صورة كشف أو إلهام ، وكان المتصوفة يميزون بين معرفة تكتسب بالحس أو بالعقل أو بهما معاً وبين معرفة تحصل بالكشف أو العيان ، وقد صنفت المعرفة إلى ثلاث :

١- معرفة التوحيد وهي خاصة بعامة المؤمنين .

٢- معرفة الحجة والبيان وتلك خاصة بالحكماء والعلماء المخلصين .

٣- معرفة صفات الوجدانية وتلك خاصة بأهل ولاية الله المخلصين الذين يشاهدون الله بقلوبهم حتى يظهر الحق لهم ما لم يظهره لأحد من العالمين .

يقول القشيري موضحاً هذه التمييز بين البرهان والعرفان والبيان :

(فعلم اليقين ما كان بشرط البرهان ، وعين اليقين ما كان بحكم البيان ، وحق اليقين ما كان بحكم العيان ، فعلم اليقين لأرباب العقول وعين اليقين لأصحاب العلوم وحق اليقين لأصحاب المعارف ، ويبلغ التمييز بين البرهان والغنوصية ذروته داخل الثقافة العربية لدى المتصوفة الإشرافيين كالسهروردي الذي يفصل فصلاً واضحاً بين الحكمة القائمة على الكشف والاستدلال والنظر والبرهان والحكمة الإشرافية القائمة على الكشف والإشراق ، ويجعل على رأس الأولى أرسطو وعلى رأس الثانية أفلاطون... لقد انتشرت الفلسفة الهرمسية التي استخدمها الفلاسفة اللاحقون وكانت فلسفة هرمس سلة العصر كله ، وأن الغنوصية نظام معرفي ساد في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد إلى منتصف القرن السابع بعد الميلاد ، ومع ظهور الإسلام وانتشار الفتوحات .

والغنوصية كانت تعني المعرفة الدينية حصراً ويعتبر روادها أنها أسمى وأرقى من معرفة المؤمنين وأرقى من معرفة علماء الدين الذين يعتمدون النظر العقلي. إذن الغنوصية هي التيارات الدينية التي تقوم على تعميق الحياة الروحية التي تنتج القدرة على استخدام الإرادة في الفكر الغنوصي بدلاً من العقل، وهنا الاختلاف واضح بين الغنوصية والمندائية التي تركز على العقل في معرفة الخالق إضافة إلى الإرادة الروحية المكملة للحالة العقلانية.

وهناك ترابط بين الغنوصية والهرمسية نسبة إلى النبي هرمس (إدريس) أو دنانوخت عند المندائيين، وقد نسب إلى النبي إدريس الذي ورد اسمه في القرآن الكريم أنه من الأنبياء المرسلين، وذكر أنه أول من علم الكتابة والصناعة والطب والفلك، وله فلسفة دينية وتذكر المصادر المندائية أنه أحد أنبيائهم وقد أنزلت عليه عدد من صحف الكنز الربا، ولهذا النبي تعاليم ورسائل ونظريات كونية منها (في قمة الكون وفوق سماء النجوم الثانية يقيم إله متعال لا يمكن وصفه، منزّه لا تدركه العقول ولا الأبصار، ملك النور السامي، وإزاءه توجد المادة غير المتعينة وهي مبدأ الفوضى والشر وميدان النجاسة والقذارة، أما العالم السماوي وكل ما يشتمل عليه وكذلك الإنسان فقد تولى صنعه الإله الصانع القابل للمعرفة والإدراك وبأمر من الإله المتعالي)... وباختصار شديد إن الله ملك النور السامي خلق النفوس وخلق الملائكة الأثريين، وكلف غيره بصناعة كل الأمور الأخرى والتي قد ينالها العوز والنقصان.

حتى الإنسان مكون من جسم مادي غير طاهر لأنه يتوسخ ويمرض ويتوجع ويموت ومن نفس (نشمانا) طاهرة نقية لا تشوبها شائبة هي هبة من الحي العظيم، إن القلة من الأصفياء التقاة الحكماء وحدهم تصعد نفوسهم بعد الممات إلى عالم الأنوار ليحيوا حياة ثانية أبدية، أما النفوس التي ارتكبت أرواحها أعمالاً شريرة فمصيرها جهنم.

إنّ الهرمسية أو الغنوصية تؤمن بوجود إلهين ؛ إله متعال سامي لا يمكن وصفه ولا تدرّكه العقول ولا الأبصار ، كما ذكرنا وهو إله سلبي لا يهتم بشؤون الكون لأن الكون بنظره ناقص أي فيه عوز ونقصان ، وهو منزّه لا علاقة له بأي عوز أو نقصان لذلك لا يمكن إدراكه بالعقل والحواس ، وإله آخر هو الإله الصانع ، هو الذي صنع العالم ولذلك فهو يتجلّى فيه يمكن إدراكه بتأمّل الكون ونظامه وكل شيء يتم بأمر من الإله المتعالّي السامي الذي لا يمكن إدراكه بالعقل والحواس كما أسلفنا وهو موجود في كل مكان ، وإدراكه ومعرفته تتم عن طريق النفس وليس العقل كما يؤكد الغنوصيون ، وأن النفس أصلها عالم الأنوار وتعود إليه بعد تحررها من الجسد وهذا الرأى فيما يخص النفس يؤكده كذلك المندائيون .

وتقول الفلسفة الغنوصية إنّ النفوس ما هي إلا كائنات نزلت من العالم السماوي (عالم الأنوار) ارتكبت ذنباً فكان عقابها هبوطها إلى العالم الأرضي وسجنها في الأجساد وعقاباً لها ، والسؤال كيف يمكن تخليص النفس من جهنم ؟ فالغنوصية تقول بواسطة المعرفة وبذل جهود مخلصة لتطهير النفس ونقاؤها وتخليصها من المادة وعروجها مرة أخرى إلى عالم الأنوار والفناء ؟ في الله ، وتقول أيضاً قد تصدأ نفس الإنسان خلال فترة سجنها بالجسد حتى تفقد طهارتها ، ولكن يمكن صقلها ونقاؤها ، ومن هنا يتوضح الرابط العضوي بين الكيمياء والتصوف في الأفكار الهرمسية .

وهناك من يقول لا يمكن الحصول على المعرفة إلا من عند الله أو نبي مرسل فبمعرفة الإنسان بنفسه يعرف الله وبمعرفة الله يطهر نفسه من الذنوب والمعصيات التي يحاسب عليها ، وبهذا نلاحظ أن معظم الأديان تملك عوامل مشتركة مع الغنوصية قد تقترب كثيراً أو تبتعد قليلاً ، ورغم أن نبي الله إدريس هو أحد أنبياء الصابئة المندائيين ونزلت عليه بعض صحف الكنزا ربا كما نزلت من قبله على آدم وشيت وسام بن نوح ومن بعده يهيا يهانه ، ولكن نجد في تعاليمه تقارب كبير من الغنوصية بوجود الله المتعالّي ملك النور السامي

المنزه ووجود الله الصانع الذي تدركه الحواس والعقول التي لم تكن ضمن تعاليم النبي يحيى بن زكريا التي كان يدرسها في أمسيات الليالي إلى طلابه ومريديه والمؤمنين به.

الفكر المندائي يؤمن بوجود الله العلي العظيم الذي خلق كل شيء وبأمره كان كل شيء خلق الملائكة الأثريين وكلف بعضهم بل أمرهم بإجراء بعض الإجراءات نفذوها حسب أوامره وتوجيهاته ولم يخالفوا له أمراً فهم مسبّحون ساجدون ممجّدون للحي العظيم، وأمر بخلق الإنسان من جسد ونفس وروح، فالجسد جبل من طين وإلى الطين يعود والنفس منحها الحي العظيم للإنسان من عالم الأنوار، وله تعود لأنها لا تموت، والروح تحاسب في محطات الحساب (المطراشي) عن أعمالها من المهد إلى اللحد، بعدها ترتقي وتتحد مع النفس وتصل إلى الدموثا (النظير) الذي أخذت منه.

(كل ما يصنع بالأيدي يفسد وكل حي يموت، إن عكازكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكأون، فانظروا إلى ماذا تستندون)... كنزاً رباً.

إن الغنوصية والهرمسية (الإدرسية) والمندائية فلسفات وفكر يحتاج إلى فهمه واستيعابه إلى معرفة واسعة وتركيز عالي وفهم عميق، وإطلاع واسع على الغنوصية الخالصة وفهمها وفهم فلسفتها ودراسة المذاهب الصوفية وأساس تكونها.

إن المندائية تركز على طهارة النفس ونقائها وارتقائها إلى عالم الأنوار على الأعمال الحسنة، وليس هناك أكسير يقوم بعملية التطهير والتحويل إطلاقاً، إذ ورد في الفكر الهرمسي أنه بالمعرفة يمكن الخلاص وهذه المعرفة لا تعني (العلم) بل بذل مجهود متواصل القصد منه التطهير والخلاص من المادة والاندماج من جديد في العالم الإلهي، لا بل الفناء في الله، أما في مجال العلوم السرية الهرمسية وفي مقدمتها الكيمياء، فبمعرفة كيفية التجاذب والتنافر في المعادن يمكن تحويل الخسيس منها إلى ذهب (معدن نبيل)، بواسطة الصنعة

والتدبير ، والمبدأ المعرفي الذي يحكم هذا النوع من الكيمياء يتلخص بنص
هرمسي يقول (ما من طبيعة إلا وهي مجذوبة بطبيعة أخرى ، وما من طبيعة
إلا وهي مقهورة لطبيعة أخرى ، وما من طبيعة إلا وهي تهيمن على طبيعة
أخرى ، إذن فللحصول على معدن راق لأبد من تحريره من الطبائع الدنيا ،
طبائع المعادن الخسيسة التي تلامسه وتستحوذ عليه ، ويكون ذلك باستعمال
طبيعة أخرى أقوى تسمى الأكسير الذي يقوم بعملية التطهير والتحويل ، وهكذا
يمكن صقل النفوس وجعلها نقية طاهرة.

البحث الثالث

الصابئة المندائيون والأحناف

تنوعت المذاهب الدينية في شبه الجزيرة العربية في القرن السادس للميلاد ، لكننا نستطيع أن نفرز تياراً دينياً توحيدياً خالصاً ، تيار يرفض عبادة الأصنام والأرباب ويوحّد الله جلّ جلاله ، إنهم الأحناف أو تيار الحنفاء ، تيار واضح ورصين أتباعه عدد لا يستهان به من الشعراء والخطباء والأدباء في زمن الجاهلية ، وهل هم فرقة دينية ؟ هل هم أقرب إلى اليهودية ؟ أم النصرانية أم المندائية ؟

وهناك عدد من الباحثين يؤكدون أن الأحناف كما يسمونهم أهل الجزيرة العربية كانوا موجودين قبل الميلاد ، وتحصيل حاصل أنهم سبقوا الإسلام بقرون عديدة ولهم نصوص تمجد الخالق وتوحده وتعظمه مثل :

(لقد خلق الكون الله ، وخلق كل ما يكون... إنه خالق السماوات والأرض والأعماق والمياه والجبال ، لقد بسط الأرض ورفع السماوات ، فما يتخيله فؤاده يصير على الفور ، وحين يكون قد تكلم فإن حكمته تتحقق وأنها تدوم للأبد).

(إن الله هو الواحد الأبدي ، إنه أبدي غير محدود ، وهو يدوم إلى أبد الدهر ، وقد دام طوال أزمان لا تحصى ، وسوف يدوم طوال الأبدية كلها).

(إنه الله واحد وحي وما من إله آخر معه ، إن الله واحد وهو الذي خلق الأشياء طراً).

(هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود).

وعندما يطلع الباحث على هكذا نصوص كتبت في أزمان قديمة ، تأكد أن قسماً منها كتب قبل الميلاد بألف عام يصاب الباحث بالدهشة ، ويجد الباحث هناك تقارب بين هذه النصوص والنصوص المندائية المثبتة في الكتب الدينية للصابئة

المنذائين، زد على ذلك أن أدبيات الصابئة المنذائين وأدبيات الأحناف واحدة، إضافة لوجود رجالات سبقوا الدعوة المحمدية من الأحناف دعوا إلى التوحيد يعتبرهم عدد من المؤرخين الأوائل والمعاصرين أنهم كانوا صابئين منذائين، فكلمة حنف تماثل لغويًا كلمة صبا التي كانت تطلق على الصابئة المنذائين في زمن الجاهلية وفي زمن صدر الإسلام.

ويذكر لنا الباحثون أن أبا الأنبياء إبراهيم الخليل (ع) كان حنفياً وذكر لنا عدد من الخطباء والأدباء الأولون أنهم كانوا على دين إبراهيم (ع) الذي تذكره الكتب المنذائية باسم بهرام ربا (إبراهيم الكبير)، كذلك يذكره التوراة باسم بهرام ويذكره القرآن الكريم باسم إبراهيم، ورغم وجود اسم بهرام ربا في الكتب الدينية للصابئة المنذائين ولكنهم عندما يذكرون أنبيائهم يذكرون آدم وشيث وإدريس وسام ويحيى بن زكريا ويمرون على إبراهيم الخليل مرور الكرام، ولا أحد ينكر هجرة إبراهيم الخليل من مدينة أور إلى مدينة حران بسبب خلافات وانشقاقات دينية حدثت يعزيها البعض إلى مرض أصاب إبراهيم الخليل في قلفته مما استوجب اختنانه، فهاجر مع خلق من قومه إلى مدينة ماري ثم حران فتدمر فدمشق وبعدها إلى فلسطين.

ويرى د. أحمد سوسة المؤرخ العراقي أن إبراهيم الخليل هو (يائع آيل) ومعناها (صديق الله)، وقد اتفق عرب الجاهلية أن إبراهيم الخليل كان نبياً عظيماً ولكنهم مع ذلك اختلفوا، فالقسم الأعظم جعلوا الأرباب وسيلة أو واسطة للتقرب من الله وآخرون رفضوا عبادة الأصنام ووجدوا الله سبحانه وتعالى وأكدوا أن العبادة يجب أن تقام لله وحده، وهؤلاء سموهم الأحناف وسموهم الصابئة أيضاً، وقد لاحظ المؤرخ جورج كنعان في كتابه (تاريخ الله)... أن كثير من الآثار التي وجدت في المناطق الآرامية تحمل كتابات مثل (آ ل ه)، (آ ل هه) التي تحولت فيما بعد عند العرب إلى كلمة (الله).

ويذكر لنا د. جواد علي في كتاب (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) أن أمية بن أبي الصلت كان صابئياً مندائياً، قدم إلى المدينة والتقى بالرسول الكريم (ص) فقال له ما هذا الذي جئت به؟! فقال الرسول الحنفية دين إبراهيم، فقال إني عليه...

وسنذكر جمهرة ممن كانوا على الحنفية ويسمونهم بالصابئة لأنهم لا يعبدون الأصنام ولا يأكلون الذبائح التي تقدم قرابين أو نذور ويكثر من الاغتسال بالماء، وجل هؤلاء كانوا من أسر معروفة ومن المثقفين الذين يجيدون القراءة والكتابة ويبحثون عن المعرفة في الجزيرة وخارجها، ول بعضهم علم باللغات الأخرى مثل المندائية والعبرية والسريانية، وللعلم فإن اللغة المندائية متطابقة تمامًا مع اللغة السريانية، كان هؤلاء الموحدون يدعون لعبادة الله الواحد الأوحد ونبذ الخرافات والأساطير وعبادة الأوثان أو الناس.

ومن هؤلاء الموحدين الذين سبقوا الدعوة المحمدية نذكر عددًا بسيطاً منهم، وخاصة الشعراء والخطباء الذين كان لهم شأن يذكر في الجاهلية أو في بداية الدعوة المحمدية ومنهم:

(قس بن ساعدة الأيادي، زيد بن عمرو بن نفيل، أمية بن أبي الصلت، ورقة بن نوفل، زهير بن أبي سلمى، طرفة بن العبد، وكيع بن زهير الأيادي، وغيرهم كثيرون)، وحقيقة الأمر لن نتصف اليهودية ولا المسيحية؛ الصابئة المندائيين، ولكن الإسلام أنصفهم في القرآن في ثلاث آيات بينات في سورة البقرة والمائدة والحج كما ذكرنا سابقاً.

والغريب في الأمر أن نبي الله يحيى بن زكريا (ع) رغم أنه عمد السيد المسيح في نهر الأردن وذكر في الإنجيل ذكرًا عابرًا، واختلقوا قصة وفاته وابتعدت كثيرًا عن القصة الحقيقية التي يذكرها الكتاب المقدس للصابئة المندائيين (الكنزا ربا)، ول هؤلاء الموحدين المذكورة أسماؤهم في أعلاه وغيرهم خطب رنانة وأشعار معلقة يتداولها الناس، ونذكر من خطبة قس بن ساعدة الأيادي في سوق عكاظ وهو يخطب من على ظهر بعيره:

(أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ، آيات محكمات، مطر ونبات وآباء وأمهات وذاهب وآت، ضوء وظلام، وبر وآثام، ولباس ومركب، ومطعم ومشرب، ونجوم وتمور، وبحور لا تغور، وسقف مرفوع ومهاد موضوع، وليل داج وسماء ذات أبراج، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا في المقام فأقلّموا أم تركوا فناموا؟ يا معشر إباد أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ أين المعروف الذي لم يشكر والظلم الذي لم ينكر؟ يقسم قس بالله قسماً لا أثم فيه أن الله ديناً هو أَرْضَى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، فطوبى لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه).

أما عن زيد بن عمر بن نفيل فهذا مقطع من خطبة يعاتب بها قومه:

(يا معشر قريش أيرسل الله قطر السماء وينبت الأرض ويخلق السائبة فترعى فيه وتذبحوها لغيره، والله ما أعلم على ظهر الأرض أحد على دين إبراهيم غيري).

وقد تعرض الموحدون في الجزيرة لأنواع من المقاطعة والإيذاء رغم مكانتهم المرموقة في المجتمع بسبب دعواتهم إلى نبذ عبادة الأصنام، ودعوتهم للتوحيد، ولكي نقر أن الأحناف كانوا صابئة مندائيين وأن الصابئة المندائيين كانوا أحنافاً يجب أن ينطبق هناك شرطان اثنان:

الأول: التوحيد، الإيمان بالله الواحد الذي ليس له مثل وليس له ولد ولا يشاركه ملكه أحد، وهذا ما يؤمن به الصابئة المندائيون والأحناف على حد سواء.

الثاني: الوجود الفعلي للصابئة المندائيين على أرض الجزيرة العربية وكثرة خطابهم وشعرائهم ومتفقيهم الواسعي الإطلاع.

وللتقارب الكبير والموحد بين الصابئة المندائيين والأحناف يظهر جلياً وواضحاً في توحيد الله وحده لا شريك له كما أسلفنا، وظهور عدد منهم يدعون إلى

عبادة الله الواحد الأحد ، والتطابق اللغوي بين كلمة صباً وكلمة حنف وهاتان الكلمتان تعنيان من خرج عن عبادة الأوثان واتبع الدين الصحيح أي توحيد الله قبل الدعوة المحمدية ، كذلك يعتبر عدد من الباحثين الأحناف والصابئة اسمين لمذهب واحد ، كلاهما مندائيون ، كذلك التشابه والتقارب الوثيق بين الطقوس والشعائر بين الصابئة والأحناف تدل على أنهم على مذهب واحد مثل :

- الوضوء والاعتسال والتعمد في الماء الجاري ولبسهم الملابس البيضاء.

- أداء الصلوات ثلاث مرات في اليوم.

- ذكرهم لأسماء الله (الحي، العظيم، ملك النور السامي... الخ).

- اشتراكهم في معرفة الله جل جلاله واعتقادهم أن هذه الدنيا فانية ، بعدها حساب عسير في المطهرات ، والخلاص يكون في العمل الصالح ، وأن هناك حياة ثانية أبدية في عالم الأنوار بعد الخلاص من محطات الحساب (المطهرات للروح).

- قبلتهم واحدة هي الشمال العلوي القصي الذي يستدلون عليه بالنجم القطبي والذي ذكره أمية بن الصلت في كثير من أشعاره بالمعجم أو المسود.

لَمَواعِمٍ دَجَرِي النِّجْمِ أَمَامَهُ

وَمَعْمَمٍ بِحِذَائِهِمْ مَسْجُودٍ

مَسْتَخْفِيًا وَبَنَاتٍ نَعَّشَ حَوْلَهُ

وَمَنْ الِيمِينَ إِذَا يَغِيْبُ الْفَرْقُ

نفهم مما ورد عن الصابئة والأحناف أن هناك عوامل مشتركة كثيرة ومتقاربة وأدلة كثيرة تدل على أن الأحناف كانوا على ملة إبراهيم الخليل (ع) أنه اختن لأسباب مرضية ، ولكون الدين المندائي في حيثياته لا يؤمن بنبي من البشر مهما كانت معجزاته ، وإنما يجب أن يكون ملاكاً من ملائكة الله الصالحين ، وأن إبراهيم الخليل دعا إلى عبادة الله عبادة خالصة ودون أي وسيط، ولهذا لم

يعترف الصابئة المندائيون بداية بأن يحيى بن زكريا نبياً ، بل سموه المعلم وسموه يوهانا الواعظ وسموه يوهانا الصابغ أي (يوحنا المعمدان) ، ولكن بعد أن انتقل إلى عالم الأنوار وأصبح ملاكاً صار نبياً ، هكذا يفسرون الأمور ، ومع كل هذا فقد غمطت اليهودية والمسيحية كثيراً من حقوق الصابئة المندائيين ، كذلك أخطأ الصابئة المندائيون كثيراً لأنهم لم يدونوا تاريخهم بشكل جلي وواضح مثل اليهود والنصارى والمسلمين ، ربما بسبب الاضطهاد والقهر ولجوئهم مكرهين للهجرة إلى عمق الأهوار حماية لأنفسهم وكتبهم الدينية ، وإنقاذ ما تبقى لهم.

رغم أن الإسلام كما أسلفنا أنصفهم وذكرهم في القرآن الكريم من الموحدين ، وكان لهم شأنًا يذكر زمن الخلافة العباسية وتبوعوا مواقع مهمة في البلاط والدولة وبرز منهم الشعراء والأدباء والعلماء والمؤرخون والأطباء وعلماء الفلك والحساب وغيرها من العلوم.

وهناك من الباحثين يذكرون أن الصابئة تعتقد وتؤمن بأن الملائكة وسطاء بينهم وبين الله جل جلاله ، وأن الله جل علاه يأمر الملائكة المسبحين لجلالته فتنفذ الأمر ، بينما عرب الجاهلية اتخذت من الأصنام والأنصاب وسيلة بينها وبين الله تتضرع بواسطتها إلى الله ، فهي لا تعبدها ولكنها تعبد الله من خلالها ، أما الأحناف وحسب ما ورد في كتاب أبقار السقاف (الدين في شبه الجزيرة العربية) هم أتباع إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل ، فهم يتعبدون إلى الله عز وجل دون وسيط مهما كان هذا الوسيط.

(هو الله واحد لا شريك له ولا معين ولا ظهير ، متصف بصفات الكمال من الحياة والمقدرة والإرادة والعلم ، موصوف بصفات العلم ، من السمع والبصر لا تشبه ذاته ولا تضاهي صفاته الصفات ، ليس كمثله شيء منزّه ، وهو الواحد الذي لا شريك له ، المتفرد بملك ملكوت السماء والأرض تفرّدًا إليه تعود أسباب الضرر والنفع).

وهذه النصوص نفسها موجودة في الكتب المندائية خاصة في الكتاب المقدس الكنز الربا، وتذكر الكاتبة والباحثة أ بكر السقاف أن الصابئة بدأت من هنا نسبة إلى صابي بن شيت بن نوح ، وصابي يعني بالبابلية (النجم) ، وتذكر أن الأحناف والصابئة عاشوا في شبه الجزيرة العربية لا اختلاف بينهم في الجوهر ولا بالتعب ولا بالتوحيد ولا بأي شكل من أشكال العبادة، وهو دين عقلاني لا يخلو من العاطفة.

(إن الله الساكن بالسماء إنما ذو كينونة سامية، ومن ثم تعالى المتعالي عن أن يتصل بالكون والكائنات إلا بواسطة وسطاء تقف في المرتبة وسط بين الألوهية والبشر وعلى ذلك يكون من المحال الاتصال بالله مباشرة إلا عن طريق الملائكة).

صحيح أن الصابئة المندائيين يذكرون ملائكة الله بخير لكنها لا تمثل حاجزاً بينهم وبين الله لأنهم يتضرعون إلى الله مباشرة ويدعون الله فيقولون يا هبي (يا حي) ويسبحونه ويعظمونه ويمجدونه بشكل مباشر ، وكذلك يذكرون الملائكة الصالحين الكاملين بكل خير .

وحقيقة الأمر أن العرب يفرقون بين الحقيقة والخيال ، فعندما يعبدون الله ويريدون التقرب منه يتخيلون الله وكأنهم يرونه من خلال شيء يعقلونه مثل الغرائيق أو الملائكة أو الأولياء الصالحين أو الأئمة وهكذا وليومنا هذا، إن الله جل جلاله عندما أوحى للرسول الكريم محمد (ص) أرسل له جبريل يخبره النبأ العظيم ولم يخاطب الرسول مباشرة، فما بالك الإنسان إذا وجد وسيطاً يخاطب الله من خلاله وخاصة إذا كان ملاكاً من ملائكة الرب الكاملين، وصحيح أن الله واحد لا يشاركه في ملكه أحد، لكن لا أحد ينكر وجود الملائكة الصالحين في عالم الأنوار ، وأنهم يسبحون خالقهم ويصلون له ويعظمونه ويأتمرون بأمره.

وأن الصابئة والأحناف يعبدون الله عن عقيدة واحدة تنحصر في الاعتراف بألوهية الله إلهاً مسكنه السماء، محفوفاً بحاشية من الملائكة التي خلقها من نفس

عنصره النوراني، وهناك من الأحناف من اعترض على اتخاذ الملائكة شفعاء وزلفى إلى الله لاغياً بينه وبين الله وساطة أي وسيط إلا خلجات النفس ومواجد القلب، لكنهما لم يختلفا إطلاقاً في الماهية وفي التعبير وفي العبادة لما يجيش في الداخل من إحساس فطري لوجود قوة حكمية تهيمن على الكون والكائنات، أضف إلى ذلك ما أنزله الله من الصحف الأولى على آدم وشيت وإبراهيم وسام بن نوح إدريس ويحيى بن زكريا، أمرهم بتوحيد الله وحده لا شريك له وليس له والد ولا ولد ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وتذكر الباحثة أبنكار السقاف شيئاً من الشعر الجاهلي للموحد الصابئي زهير بن أبي سلمى:

ألا ليت شعري: هل يرى الناس ما أرى

من الأمور ويبدو لهم ما بدا لي؟

أرى أن الناس تفهني نفوسهم

وأموالهم، ولا أرى الدهر فاني

وكثيرة هي القصائد العصماء التي تمجد الله وتدعوا له في زمن الجاهلية، من شعر زهير بن أبي سلمى وأممية بن الصلت وطرفة بن العبد وغيرهم، وهذا الخطيب قس بن ساعدة مرة أخرى يقول:

هو الله الواحد المعبود

ليس بوالد ولا مولود!

ومن كثرة تعظيم الصابئة والأحناف الله وتجميده سرت في أهل قريش كالنار في الهشيم الدعوة لله جل جلاله، فبعث الله نبياً من بينهم وأوحى له بواسطة جبرائيل آيات بينات منحت الرسول الكريم محمد (ص) القوة والثبات ليبدأ دعوته منطلقاً من قريش.

ولكن مع هذا كله وللتوضيح بالدقة والأمانة، أن الدين الصابئي المندائي نشأ في العالم العلوي وأن الحي العظيم أمر بخلق آدم وحواء وأنزل الملاك النوراني المبجل منداد هبي ليزرع الإيمان في قلوبهم وعقولهم ويعلمهم الوصايا والأسماء كلها ليكونا مندائيين يعلمون ذريتهم الوصايا والتعاليم التي أنزلها الحي العظيم على أنبيائهم من آدم رأس السلالة البشرية إلى يهيا يوهنا (يحيى بن زكريا) خاتم أنبياء الصابئة المندائيين.

إن الدين الصابئي المندائي لا يختلف عن الدين الحنيف في الجوهر، ولكن هناك اختلاف في صور التعميد وبعض شكليات العبادة مع وجود وسطاء (الملائكة الأثريين) بين الخالق والمخلوق، ويدون لنا بعض الباحثين الأوائل هذا النص:

(إن الله، الإله الساكن في السماء العلوي إنما ذو كينونة سامية، ومن ثم تعالى المتعالي عن أن يتصل بالكون بالكائنات إلا بواسطة وسطاء تقف في المرتبة وسط بين الألوهية والبشر، وعلى ذلك يكون من المحال الاتصال بالله إلا عن طريق من خلق من الملائكة).

أضف لذلك أن الحي العظيم جعل عالماً وسطاً بين عالم الأنوار وعالمنا لكي لا يكون هناك أي اتصال مباشر بين عالم الأنوار وعالم البشر يسمى عالم الحق (مشوني كشطة) أي عالم العهد.

ومثلما اتخذ الأعراب الأصنام (الغرائيق) في زمن الجاهلية يتشفعون بها زلفى إلى الله، اتخذ بعض القبائل العربية الأكثر تطوراً وعقلانية الكواكب والنجوم والشمس والقمر ووسطاء يتزلفون بها شفاعاً إلى الله، فقبيلة بني أسد تتشفع إلى عطارد وقبائل لخم تتشفع إلى المشتري وقبائل أم القرى تتشفع إلى زحل لأجيال عديدة يؤمنون أن هذه الكواكب فيها حياة تسكنها الملائكة، وأن لها نفس جديرة بالتعظيم، ولكنها أقل مكانة من الحي العظيم الذي خلقها، بسبب استحالة الاقتراب من الله مباشرة إلا بواسطة وسطاء، ولهذا يعتبر الملائكة شفعاء لأن

لهم مساكن هناك ، ولما كان من الضروري وجود نقطة دالة يتوجه لها المصلون فقد اتخذ النجم القطبي دالة للتوجه إلى الشمال العلوي القصي بمعنى ترفع رأسك للأعلى لأن الحي موجود في كل مكان (آله دنهورا) أي عالم الأنوار ، في ما مضى من الزمان لعدم توفر أجهزة دلالة مثل البوصلة وغيرها.

إن الملائكة تقف موقفاً وسطاً بين الحي العظيم والبشرية ، وقد سماهم العرب الأرباب وسموا الحي العظيم رب الأرباب ، ويذهب بعض الباحثين أن الدين الحنيف والدين الصابئي لا يختلفان في أسس العبادة الجوهرية من الالتقاء عند عقيدة واحدة تنحصر في الاعتراف بالحي العظيم الذي يسكن في الشمال العلوي القصي من عالم الأنوار محاطاً بعدد عظيم من الملائكة الأثريين الذي يأتَمرون بأمره والتي خلقها من عالم الأنوار مع وجود اختلاف بين الصابئة المندائيين والأحناف ، فالدين المندائي يرى أنه لا بد من وجود وسطاء في الاتجاه إلى الخالق ، يعترض الدين الحنيف على اتخاذ الملائكة شفعاء زلفى إلى الله لاغياً بين أتباعه وخالقهم أي وساطة إلا خلجات النفس وموارج القلب.

لقد بنى نبي الله إبراهيم الكعبة وهذا الاسم بابلي يعني (النجم) وجعله بيت الله في الأرض وجعل إدارة هذا البيت لابنه إسماعيل وذريته ، وكان الأحناف يعتقدون أن لله بيت آخر في السماء ، هذا البيت (الكعبة) شبيهاً له ولكن في الأرض.

وهناك عدد من الباحثين الأوائل يقولون إن بيت الله في بادئ الأمر بناه نبي الله شِيثل (شيت بن آدم) ، ولكن هذا البيت جرفه الطوفان بعهد نوح إلى أن أعاد بناءه نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل ، وهذه الرواية يرويها المؤرخون المسلمون لكن لا ذكر لها في العهد القديم المرجع الأساسي عن النبي إبراهيم ، ولا تذكرها الكتب الدينية المندائية ، والمهم هنا أن نعرف أن العرب العاربة والمستعربة كانت تعرف هذا البيت ويؤمنون بوجود خالق للكون يعبدونه ، وأن الدين

الحنيف نشأ في الجزيرة العربية بين قبائل جرهم كنتيجة حتمية للعقيدة الإلهية المستمدة من الدين الصابئي المندائي جذر التوحيد الأول الذي يؤمن أتباعه أن الحي العظيم (الله) واحد لا شريك له في ملكه ، متصف بصفات الكمال من الحياة والقدرة والإرادة والعلم ، موصوف بصفات العلم من السمع والبصر لا تشبه ذاته الذوات ولا تضاهي صفاته الصفات ، وهو واحد لا شريك له انبعث من ذاته (من نافشي أفرش) ، وهو ملك النور السامي والحق كله كما يذكر ذلك كتاب الكنز اربا والكتب السماوية المنزلة وأنبياء الله عليهم السلام أجمعين.

بسم الحي العظيم

أسبغ ربّي بقلبي طاهر

أيها الحي العظيم

المتميز عن عوالم النور

الغني عن كل شيء

الغني فوق كل شيء

نسألك الشفاء والظفر

وهداية الجنان

وهداية السمع واللسان

ونسألك الرحمة والغفران

آمين يا ربنا يا رب العالمين

والحي المزكي

افتتاحية الكنز اربا اليمين

ما هي علاقة الصابئين المندائيين بإبراهيم الخليل أبي المؤمنين التوحيديين؟

كتب الأستاذ المتمرس الدكتور يوسف قوزي، رئيس هيئة اللغة السريانية في المجمع العلمي، والذي ترجم كتاب الكنز العظيم مع الأستاذ الدكتور صبيح مدلول السهيري من المندائية إلى العربية، بإشراف اللجنة العليا للترجمة:

تمهيد :

في بحثنا هذا الموجز نسبياً والمركز سوف نحاول أن الإجابة على سؤال عنوانه باكتشافنا العلاقة القائمة بالفعل بين أبينا إبراهيم أبي المؤمنين الموحدين بالله وبين الصابئين المندائيين الذين أغفلوا ذكر اسمه تماماً (وربما تعمداً) في سائر كتبهم المقدسة، وفي تراثهم المدون أيضاً لا سيما في كتاب (جينزا ربا/ جينزا ربا)، الذي سبق لنا أن قمنا بترجمته من أصله المندائي المخطوط ونقله إلى اللغة العربية، وقد حدث هذا عندهم لإبراهيم الشهير دون غيره من الآباء التوراتيين والكتابيين الذين سبقوه أو لحقوه من المعروفين المذكورين لديهم من أمثال أبينا آدم وأما حواء، وهابيل (هيبيل) وشيت (شيتيل) وأنوش ونوح أبو الطوفان، ومعمد المسيح يوحنا المعمدان (يهيا يوهانا)...

وسوف نبني بحثنا هذا وآراءنا فيه مستندين إلى وثائق مكتوبة وقديمة للغاية أوردتها لنا أسفار من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ونعتمد خصوصاً وأكثر على ما جاء في السفر الأول من التوراة: إنها أسفار التكوين والتثنية ونحميا والأناجيل الأربعة ورسالتا بولس الرسول إلى المؤمنين من أهل روما الذين كانوا وثنيين، وإلى العبرانيين الذين هم أصلاً من اليهود... كما أننا في خطة بحثنا هذا سنفرد له بابين اثنين هما:

أولاً: العلاقة القومية والإثنية بين الصابئين المندائيين وإبراهيم الخليل.
ثانياً: العلاقة الدينية بين الصابئين المندائيين وإبراهيم الخليل.

وختاماً سوف نقوم باستخلاص النتائج التي نكون قد توصلنا إليها من خلال بحثنا وتقصينا فيه بدراستنا هذه لما هو مرتبط بالحقائق والوثائق التاريخية المدونة والمتعلقة بكل ذلك.

أولاً: العلاقة القومية والإثنية بين الصابئين المندائيين وإبراهيم الخليل

إن جميع الحقائق والوثائق التاريخية الوحيدة المدونة التي حدثتنا عن أبينا إبراهيم الخليل وعن أصله وفصله وردت في أسفار التوراة العبرية التي خلفها لنا اليهود العبريون تاريخاً مقدساً لديانتهم التوحيدية، لا سيما في سفر التكوين المعروف لديهم بأولى كلماته ألا وهي (بُراشية) في البدء، وأيضاً في قليل مما جاء في سفر تثنية الاشتراع من ذكر إبراهيم هو موصوف فيه بأنه كان (آرامياً منتقلاً)... وإن الأساتذة العلماء المختصين في علم كتابة التوراة ودراساتها في الوقت الحاضر يقسمون سفر التكوين إلى قسمين اثنين رئيسيين:

- القسم الأول منه: وهو يتكون من أحد عشر فصلاً (الفصول ١ - ١١) تتحدث عن وجود كوننا هذا الذي كان فوضوياً وعن خلقه وترتيبه وتنظيمه من قبل الله لكى يهيئه ويضع فيه الإنسان الأول آدم وزوجته حواء المخلوقين على صورته كمثاله، وهؤلاء الأساتذة المختصون يعتبرون القصص والروايات والشخصيات الوارد ذكرها في هذه الفصول أساطير وخرافات هي خارج نطاق التاريخ البشري المكتوب في السجلات والوثائق المقبولة علمياً لدى بني الإنسان.

- القسم الثاني: وهو يبتدىء من الفصل الثاني عشر إلى نهاية الفصل الخمسين من سفر التكوين، فهو تاريخي حقاً ويبدأ بسرد قصص آباء الشعب اليهودي الذي اعتبره الكتبة العبريون شعب الله المختار، وفي فصوله هذه الطويلة نحن

نجد ونقرأ ثلاث حلقات من الروايات والأحداث التاريخية لعموم الشعب العبري فعلاً:

* **الحلقة الأولى:** وهي الفصول ١٢ - ٢٥، تبدأ بقصة أبينا إبراهيم الخليل أول المؤمنين الموحدين بالله ، وقد كان إبراهيم معاصراً للملك البابلي الشهير حمورابي (١٧٥٠ - ١٧٠٠ ق.م)، وقد ورد اسمه في المدونات الأكديّة هكذا "أبرام"، أي بمعنى أبو جمهور ، وقد ظن ولا يزال الكثيرون يظنون خطأ أن أصل إبراهيم الخليل الآرامي كان من جنوب العراق ، ولكن أحداث حياته وشواهد الجغرافية كلها في مجرياتها العائلية من زواج ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أبي الأسباط اليهودية الاثني عشر ، تؤكد أنه هو وعشيرته وسلالته عاشوا في الأصل في أقصى شماله في أور الكلدانيين التي هي مدينة الرها / أوربي الآرامية السريانية الواقعة في تركيا الحالية ، والتي منها انتقل إلى مدينة حران / القريبة منها نسبياً والواقعة على نهر الفرات ، وذلك قبل أن يستقر أخيراً ونهائياً في مدينة حبرون / الخليل في أرض كنعان التي هي فلسطين الحالية.

ولمدينة حران الداخلية / هاران جاويت ؛ ذكريات مهمة جداً لدى الصابئين المندائيين ، إذ إليها كان قد انتقل عدد كبير من الناصوريين المندائيين من أورشليم القدس على أثر اضطهادهم خلال القرن الأول للميلاد من قبل اليهود وربما المتنصرين منهم ، هذا ما يظنه الصابئون المندائيون.

* **الحلقة الثانية :** في الفصول ٢٦ - ٣٦ ؛ تتحدث عن سيرة حياة ابنه (إسماعيل باختصار كبير) وإسحاق وحفيده (عيسو باختصار كبير) ويعقوب إسرائيل أبي الأسباط اليهودية الاثني عشر.

* **الحلقة الثالثة والأخيرة:** في الفصول ٣٧ - ٥٠ ؛ تروي لنا سيرة يوسف بن يعقوب وحياته شبه الملكية في مصر.

وفي فصول سفر التكوين التي تتحدث عن سيرة أبينا إبراهيم، نكتشف أن أصله لم يكن كنعانيًا عبرانيًا بل نهرينيًا آراميًا حقيقيًا، وذلك أن سفر التكوين قبل أن يتحدث عن إبراهيم الخليل، يقول لنا ما يلي:

(وهذه سلالة تارح - أي والد أبرام / إبراهيم - تارح ولد أبرام وناحور وهاران، وهاران ولد لوط، ومات هاران قبل أبيه تارح في مسقط رأسه أور (الطليبين) سفر التكوين ١١ : ٣٧-٢٨... وقد لاحظ علماء التوراة المعاصرون وجود مدينتين قديمتين تحملان اسم أور في بلاد ما بين النهرين، الأولى التي هي أقدم نشأة، تقع في جنوب العراق القديم في محافظة الناصرية، وهي أور السومريين، والسومريون قوم مختلفون تمامًا في الجنس واللغة عن البابليين والكلدانيين كما هو معروف، والثانية التي قد تكون أحدث نشأة في التاريخ، تقع في شمال بلاد ما بين النهرين، وهي أور الكلدانيين^١، وهذه المدينة بذاتها قد كان السريانيون الوثنيون سبق لهم أن اسموها أورى/ أورهاي، وتبعهم في ذلك السريانيون المسيحيون منذ بدايات التاريخ الميلادي، أما العرب فقد سموها الرها، ولما احتل الأتراك العثمانيون بلادنا، صحفوا اسمها وسموها أورفا، وفي رحلة عودتنا من دراستنا العليا المزدوجة: اللغات السامية في المعهد الاستشراقي وتاريخ مراسيم طقس العماد السرياني في كلية اللاهوت بجامعة لوفان في بلجيكا، نحن شخصيًا قد مررنا بسيارتنا الخاصة بأطلالها الباكية والمبكية في يوم ١٣ آب ١٩٧٥م، وتوقفنا فيها قليلًا نذرف الدموع الحارة على زوال أمجاد ملك علوم جدودنا الميامين المندثر، وطمر تراثهم العلمي والأدبي الزاخر الذي كتب تحت كئيباتها الحاملة.

هذا ويستمر سفر التكوين في كلامه عن سيرة أبينا إبراهيم قائلاً: (وأخذ تارح أبرام ابنه ولوط بن هاران ابن ابنه هاران، وساراي كخته امرأة أبرام ابنه، فخرج بهم من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان، فجاءوا إلى حران وأقاموا هناك ومات تارح في حران)... "سفر التكوين: ١١ : ٣١ - ٣٢".

١- فاضل عبد الواحد علي، من ألواح سومر إلى التآرو، بغداد ١٩٨٧٩، ص ٢٣٩ - ١١١.

ما هي يا ترى المدة الزمنية التي قضاها تارح في حران قبل وفاته فيها؟ في الحقيقة لسنا ندري ولا نعلم شيئاً عن ذلك، إلا أننا نعلم علم اليقين أن أهل أور الكلدانيين وأهل حاران أولئك كانوا جميعاً قومًا آراميين من جنس سامي واحد، ويتكلمون معاً ويتعاشون ويتفاهمون بلغة واحدة هي الآرامية، ولذلك استطاعوا البقاء والإقامة في ما بين أهل حاران فترة من الزمان، قبل مواصلة ترحالهم إلى أرض كنعان، لكن الله عز شأنه وجل جلاله، لم يشأ لأبينا إبراهيم المؤمن الموحد به أن يبقى مقيمًا على المدى في حاران ما بين أبناء وطنه وجنسه الوثنيين.

ولذلك يعود سفر التكوين ويقول لنا عنه: (وقال الرب لأبرام انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فانطلق أبرام كما قال له الرب، وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حران، فأخذ أبرام ساراي (سارة) امرأته ولوط ابن أخيه وجميع أموالهما التي اقتنياها والنفوس التي امتلاكها في حران، وخرجوا ليمضوا إلى أرض كنعان... ورحل أبرام تسيارًا وترحالاً صوب النقب)... سفر التكوين: ١٢، ١٠-٤ و ٩.

ومن صحراء النقب وبسبب القحط والمجاعة نزل أبرام إلى مصر حيث لاقى فيها مشاكل ومنافع أيضًا، وذلك بسبب جمال امرأته ساراي التي كان قد أوصاها أن تقول إنها أخته (سفر التكوين: ١٣، ١٠ - ٢٠)، وبالفعل لقد كانت ساراي الحسنة الجميلة أخته وزوجته في وقت واحد معاً، ففي سفر التكوين وعلى لسان أبينا إبراهيم نحن نقرأ ما يلي: (وفي الحقيقة هي أختي ابنة أبي وليست ابنة أمي فصارت امرأة لي، فلما رحلني الله من بيت أبي قلت لها: هذا ما تفضلين به علي حيثما جئنا فقولني في إنه أخي) (سفر التكوين: ١٣، ١٠-٢٠) ولذلك بهذا وبسلامة: (صعد أبرام من مصر هو وامرأته وكل ما له ولوط معه إلى النقب، وكان أبرام غنياً جداً بالماشية والفضة والذهب) (سفر التكوين: ١٣، ١-٢) كما أن سفر تثنية الاشتراع يؤكد لنا أن إبراهيم الخليل وخلال تنقلاته

مثل البدو الرحل قد نزل إلى مصر برجال قليلين وصعد منها أمة، فنحن نقرأ في هذا السفر التوراتي ما يأتي: (كان أبي آراميا متنقلاً).

كما أننا نقرأ ما يأتي: (وكانت كلمة الرب إلى أبرام في الرؤيا قائلاً: لا تخف يا أبرام إنا نرسل لك وأجرك عظيم جداً... ثم أخرجه إلى خارج وقال له: انظر إلى السماء واحص النجوم إن استطعت أن تحصيها وقال له: هكذا يكون نسلك، فأمن بالرب وحسب له ذلك برّاً، وقال له: أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين لأعطيك هذه الأرض ميراثاً لك، (سفر التكوين: ١٥، ١ - ٧).

كما أن سفر نحemia يؤكد هذا الأمر بعينه، حيث يقول لنا ما يلي: "أنت هو الرب الإله الذي اخترت أبرام، وأخرجته من أور الكلدانيين، وجعلت اسمه إبراهيم، وقد وجدت قلبه أميناً أمامك، وقطعت معه عهداً على أن تعطيه أرض الكنعانيين، وقد حققت وعدك لأنك بار" (سفر نحemia: ٩، ٧ - ١٠)، ومع هذا كله فإن الشيخ إبراهيم الذي كان قد بلغ من العمر عتياً من بعد ولادة ابنه إسماعيل أبي العرب من جاريته هاجر المصرية، قد رزق بابنه إسحاق الذي هو ابن المواعيد الإلهية من امرأته ساري العاقر والمسنة، وبعد نشأته وبلوغه أرسل كبير غلمانه إليعازر إلى حاران قائلاً له: "بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق" (سفر التكوين: ٢٤، ٤).

وقبل الدخول في تفاصيل زواج ابنه إسحاق من قريبته رفقة بنت لابان الآرامي لابد لنا من أن نذكر بأن إبراهيم من بعد وفاة امرأته ساري تزوج امرأة أخرى اسمها قطورة، ورزق منها جملة بنين أشهرهم هو مدين أبو المدينيين، ولما فاضت روح إبراهيم كان عمره مائة وخمسة وسبعين سنة، فدفنه ابناه إسماعيل وإسحاق في مغارة مكفيلة في حبرون، حيث كان هو نفسه قد دفن ساري امرأته (سفر التكوين: ٢٥، ١ - ١٠).^١

١-١ لأبفوسريسيو، التوليخ المسدق، قصة بني الله، القاهرة ١٩٥١ - ص ٤٧.

ولنر الآن قصة زواج إسحاق: حيث إن إليعازر "قام ومضى إلى آرام النهرين، وهي مدينة ناحور" (الذي هو أخو إبراهيم) الي هي حاران بعينها محل إقامته تاريخ والد إبراهيم ووفاته مثلما جاء في رواية سفر التكوين (١١، ٣١، ٢٤، ١٠) وقد سبق لنا أن دوننا ذلك أعلاه، وحينما وصل إليعازر إلى مدينة حاران الآرامية، واقترب من عين الماء فيها، رأى عليها فتاة حسناء وهي عذراء جميلة جدًا، لم يعرفها رجل، فخطبها لابن سيده إسحاق: (إنها رفقة التي وُلدت لبنتويل بن ملكة، امرأة ناحور أخي إبراهيم" (سفر التكوين: ٢٤، ١٥ - ١٦)، وكان لرفقة أخ اسمه لابان (سفر التكوين: ٢٤، ٢٩)، وإن قصة يعقوب مع خاله لابان الآرامي وأحداثها التي جرت في حاران في ما بعد معروفة هي لدى الكل، حيث إنه اضطر إلى أن يخدمه أربع عشرة سنة طويلة، بمثابة مهر سباعي السنين عن كل واحدة من ابنتيه: ليئا وراحيل، لأنه كان قد أحب راحيل ابنته الصغرى، والعرف الآرامي عن الحارانين ما كان يجيز تزويج الصغرى قبل الكبرى.

وعندما افترقا برحيل يعقوب من لدن خاله من أجل العودة إلى موطن ذويه الجديد، أي والديه المقيمين في أرض كنعان، تعاهدا أمام آلهتهما على البقاء أمينين على الوفاء والمحبة فأقاما نصبًا تذكاريًا لذلك، سماه يعقوب بالعبرية (جلعد)، ولابان سماه بالآرامية (يجر سدوة)، وهو يعني في اللغتين "تصب الشهادة" (سفر التكوين: ٢٩ - ٣١، ٤٧)، ولحدث بسيط ومهم للغاية اضطر لابان في اليوم التالي إلى اللحاق بصهره حين أراد التعبد لآلهته المنزلية ولم يجدها، إذ كانت صغيرته راحيل قد أخذتها لها معها، وخبأتها طي رزمة ثيابها، وجلست فوقها مدعية أنها في عادة النساء ليكلا يكتشف أبوها أمرها والآلهة الصغيرة.

من خلال قراءتنا أحداث هذه القصة الواردة في نصوص التوراة، نكتشف أن أبانا إبراهيم الخليل بتسياره وترحاله المتواصلين من أجل تلبية مناداة الله إياه للوصول إلى أرض كنعان أرض الميعاد، كان لا يزال في أعماق نفسه محتفظًا

بالحنين إلى موطنه الأصلي في أور الكلدانيين وحران ، وإلى أهله وأقاربه فيهما من أبناء جنسه الآراميين وقد خلف هذا الحنين لابنه إسحاق الذي جعله يتزوج من رفقة قريبته الحارانية الآرامية وكذلك فعل في ما بعد حفيده يعقوب ، الذي هو سمي إسرائيل أبو الأسباط اليهودية الاثنى عشر ، إذ ذهب إلى حاران وأقام فيها ردها من الزمان ، يعمل بجد ونشاط لكي ما يتزوج من ابنتي خاله لابان الآرامي الحاراني كما مر بنا أعلاه.

وهكذا إذن كان آباء اليهود وأجدادهم الثلاثة الكبار إبراهيم وإسحاق ويعقوب من أصل ومن دم آرامي صرف ، فلماذا إذن هم الآن يتكبرون لنا ويعادوننا نحن الآراميين من السريانيين الرهاويين والمندائيين الحارانيين وغيرنا من ذوي الأصول بعينها؟! لأننا نحن وهم في الأصل الواحد البعيد أشقاء رهاويون وحرانيون ، شاءوا أم أبوا ، واللغتان السريانية والمندائية آراميتان أختان هما وقريبتان كثيرًا من أختهما اللغة العبرية لغة اليهود التوراتية المقدسة ، وحاليًا مدينة حاران موقعها في تركيا ، أطلالها تطل على نهر الفرات وبالقرى من الحدود السورية ، ونتيجة لكل هذه الأمور يجب علينا أن نعترف بوجود علاقة قومية وإثنية ولغوية ما بين أصل أبينا إبراهيم الآرامي الرهاوي الحاراني والصابئين المندائيين الحارانيين.

ثانيًا : العلاقة الدينية بين الصابئين المندائيين وإبراهيم الخليل :

ولئن كان الآباء التوراتيون الأولون بدءًا بآدم وحواء وهابيل وشيث وأنوش ونوح ، جميعهم يؤمنون بالله الواحد الحق ، إلا أن أغلب البشر من بعدهم زاغوا عن طريق الحق والصواب ، وراحوا يعبدون الأصنام ويسجدون للأوثان التي هم ابتدعوها وبأيديهم صنعوها ، إلى أن جاء أبونا إبراهيم الخليل الذي هو أول من نادى بعبادة إله واحد فقط لا غيره هو الحق وحده ، ومن قبل إبراهيم كان وضع البشر في عبادة الآلهة مزيًا ومتعددًا ، وهو لا يزال كذلك إلى يومنا

هذا، وذلك بالرغم من توحيده من قبل أبينا إبراهيم والأنبياء والأولياء الصالحين من بني الإنسان، ومحاولات المستقيمين منهم من مؤسسي الأديان المختلفة.

كلنا نعلم ونؤمن أن الله الحق واحد هو، وروح محض خالق جميع الكائنات المرئية وغير المرئية الموجودة في هذا الكون الفسيح شبه اللامحدود، الذي هو خلقه من العدم وبكلمة روحية منه، ولئن كان الكثيرون يقولون بوجود أديان سماوية وأديان أرضية، إلا أن الحقيقة الناصعة هي أن الله لا دين له لأنه لا يخضع ولا يدين لأي كائن مهما كان، لذلك فإن جميع الأديان التي ظهرت على أرضنا هي من صنع البشر ذكورا وإناثا، ومن أجل أن يعبدوه ويشكروه على أفضاله ونعمه عليهم، ويصلوا إليه في نهاية حياتهم الأرضية المؤقتة، ويعيشوا معه روحيا خالدين في محبته والتغني بحمده وتمجيده في نعيمه السماوي، هذا لأنه سبحانه قد وضع في روح الإنسان وعقله وضميره القدرة وحرية الإرادة في اختيار كل ما يشاء من الأعمال: إن خيرا وإن شرا، لذلك فهو يعاقب أو يكافأ في الآخرة على حسن خير أعماله بالنعيم أو على قبح شرها بالجحيم.

وقد وعد الله أبانا إبراهيم وعودا ثلاثة:

- الأول أن يُعطي نسله ميراثا أبديا أرض كنعان بأسرها (وهي أرض تغربه) التي أصبحت أرض الميعاد.
- الثاني أن يجعله أباً لأُمم كثيرة ولشعب روحاني مختار لا يُحصى عدده، لأنه سيكون في كثرته مثل نجوم السماء ورمال شاطئ البحر.
- والثالث أن يتبارك بإبراهيم أبو المؤمنين جميع شعوب الأرض قاطبة، بدعوتهم إلى الإيمان وإلى معرفة الله الحق^١.

ففي سفر التكوين من كلام الله نقرأ ما يلي: (ها أنا أجعل عهدي معك فتكون أباً لعدد كبير من الأمم، ولن يكون اسمك أبرام بعد اليوم بل سيكون إبراهيم لأنني جعلتك أباً عدد كبير من الأمم) "سفر التكوين: ١٧، ٤ - ٥".

١- ١ لأبفوس ريس يو، المصدر السابق نفسه ص ٣٥.

وقد تميز عهد الله هذا لإبراهيم بوجوب الختان الجسدي، حيث أمره قائلاً: (هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك، يختن كل ذكر منكم، تختنون في لحم قلفتكم، ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم، وابن ثمانية أيام يختن كل ذكر منكم من جيل إلى جيل) "سفر التكوين: ١٧، ١٢ - ١٠"، (وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما ختن لحم قلفته، وكان إسماعيل ابن ثلاثة عشر سنة حين ختن لحم قلفته، في ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه وجميع رجال بيته، ختنوا معه) "سفر التكوين: ١٧، ٢٤ - ٢٧).

وفي رواية مندائية نقلت إلينا شفاهاً من قبل صديقنا المندائيين العزيزين حمودي مطشر الهلالي ونزار صكر الحيدر؛ أن بهرام ربا لديهم هو يمثل أبانا إبراهيم الخليل نفسه، والصابئون المندائيون لم يذكروا اسمه في أي واحد من كتبهم المقدسة، لكونه كان قد قبل أن يختن جسده هو شخصياً مع أجساد جميع ذكور أهل بيته، وأوصى بالقيام بتلك الممارسة على الدوام من جيل إلى جيل، وإلى يومنا هذا لدى أحفاده من يهود أسباط بني إسرائيل ومن العرب الإسماعيليين ولا سيما المسلمين في ما بعد، وكل الصابئين المندائيين يعتقدون أن قصة ختان إبراهيم غير صحيحة وليست حقيقة، وإنما اليهود هم الذين لفقوها في شريعتهم من أجل تبرير سنة عملية اختنتانهم هم واختتان المسلمين مثلهم، بغية أن يجعلوه أباً لديانتهم التوحيدية، لكونه الأب الروحي الأول لسائر المؤمنين الموحدين بالله جميعاً^١.

ونحن أيضاً بدورنا نميل إلى هذا الرأي الصابئي المندائي بأن اليهود الذكور الذين كتبوا التوراة بعد ما لا يقل عن مرور ألف سنة على وفاة أبينا إبراهيم الخليل، ووجدوا أنفسهم مختونين في أرض كنعان (ربما بتأثير الفلسطينيين الأقدمين الذين كانوا يمارسون القرصنة وقدموا من جزر بحر إيجه إلى سفوح

١- هذا هو ما رواه لنا وأكده صديقنا المندائي الفاضل نزار صكر الحيدر، فله منا الشكر الجزيل على هذه المعلومة القيمة.

جبال أرض كنعان المطلة على البحر الأبيض المتوسط)، أرادوا أن يجدوا تبريراً دينياً وحلاً شرعياً مرضياً لممارستهم تلك المثيرة للجنس والمخالفة لطبيعة خلق الإنسان، فنسبوا واقع ختانهم إلى أبينا إبراهيم، وهل يعقل يا ناس أن يرضى ويقبل أبونا البار المؤمن إبراهيم الخليل بالاختتان وهو في عمر التاسعة والتسعين سنة، وقد بلغ من العمر عتياً؟! لذلك نحن أيضاً نشكك في صحة هذه الرواية التوراتية وملائمة واقعيتها.

فالقديس بولس الرسول يقول في كتاب العهد الجديد؛ وفي رسالته إلى أهل روما بالذات ما يلي: (ونحن نرى أن الإنسان يتبرر بالإيمان بمعزل عن أعمال الشريعة أو يكون الله إليه اليهود وحدهم؟ أما هو إليه الوثنيين أيضاً؟ بلى هو إليه الوثنيين أيضاً، لأن الله واحد بالإيمان يبرر المختون، وبالإيمان يبرر الأقف، أفنبطل الشريعة بالإيمان؟ معاذ الله! لا بل نثبت الشريعة) (روما: ٣، ٢٨ - ٣١)، (فماذا نقول في جدنا إبراهيم؟ ماذا نال من جهة الجسد؟ فلو نال إبراهيم البر بالأعمال لكان له سبيل إلى الافتخار بذلك، ولكن ليس عند الله، فماذا يقول الكتاب؟ إن إبراهيم آمن بالله، فحسب له ذلك برّاً) (سفر التكوين: ١٥، ٦).... فمن قام بعمل لا تحسب أجرته نعمة بل حقاً، في حين أن الذي لا يقوم بعمل بل يؤمن بمن يبرر الكافر فإيمانه يحسب برّاً.

وهكذا يُشيد داود بسعادة الإنسان الذي ينسب الله إليه البر بمعزل عن الأعمال: (طوبى للذين عفي عن آثامهم وغفرت خطاياهم! طوبى للرجل الذي لا يُحاسبه الرب على خطيئته) "مزمور: ٣٢، ١ - ٢"، أفهذه الطوبى للمختونين هي فقط أن للقف أيضاً؟ فنحن نقول: (إن الإيمان حسب لإبراهيم برّاً)، ولكن كيف حسب له؟ أفي الختان أم في القف؟ وقد تلقى سنة الختان خاتماً للبر الذي يأتي من الإيمان وهو أقف، فأصبح أباً لجميع المؤمنين الذين في القف لكي ينسب إليهم البر، وأباً لأهل الختان الذين ليسوا من أهل الختان فحسب بل يقتفون أيضاً آثار الإيمان الذي كان عليه أبونا إبراهيم وهو في القف، فالوعد الذي وعده إبراهيم أو نسله بأن يرث العالم لا يعود إلى الشريعة، بل إلى بر الإيمان،

فلو كان الورثة أهل الشريعة لأبطل الإيمان ونقض الوعد ، لأن الشريعة تجلب الغضب ، وحيث لا تكون شريعة لا تكون معصية ، ولذلك فالميراث يحصل بالإيمان ليكون على سبيل النعمة ويبقى الوعد جاريًا على نسل إبراهيم كله ، لا على من ينتمون إلى الشريعة فحسب ، بل على كم ينتمون إلى إيمان إبراهيم أيضًا ، وهو أب لنا جميعًا... هو أب عند الذي به آمن ، عند الله الذي يحيي الأموات ويدعو إلى الوجود غير الموجود ، آمن راجيًا على غير رجاء فأصبح أبًا لعدد كبير من الأمم ، ولم يضعف في إيمانه حين رأى أن بدنه قد مات ، (وكان قد شارف على المائة سنة) ، وأن رحم سارة قد ماتت أيضًا ، ففي وعد الله لم يتردد ، بلقواه إيمانه فمجد الله متيقنًا أن الله قادر على إنجاز ما وعد به ، فلهذا حسب له ذلك برًا ، وليس من أجله وحده كتب "حسب له" ، بل من أجلنا نحن الذين يُحسب لنا الإيمان برًا لأننا نؤمن... (روما : ٤ ، ١-٢٤).

وقد وقعت حادثة رواها لنا سفر أعمال الرسل في العهد الجديد ، وكان ذلك في مدينة أنطاكية : (ونزل أناس من اليهودية وأخذوا يُلقنون الإخوة فيقولون : إذا لم تختتنوا على سُنّة موسى فلا تستطيعون أن تتألموا الخلاص ، فوقع بينهم وبين بولس وبرنابا خلاف وجدال شديد ، فلما وصلوا إلى أورشليم رحبت بهم الكنيسة والرسل ، فقام منهم أناس من الذين كانوا على مذهب الفريسيين ثم آمنوا ، فقالوا : يجب ختن الوثنيين وتوصيتهم بالحفاظ على شريعة موسى ، فاجتمع الرسل والشيوخ ، وبعد جدال طويل قام بطرس وقال لهم : أيها الإخوة تعلمون أن الله اختار منذ الأيام الأولى أن يسمع الوثنيون من فمي كلمة البشارة ويؤمنوا ، فلم يُفرق بيننا وبينهم في شيء ، وقد طهر قلوبهم بالإيمان ؟ فلماذا تجربون الله الآن بأن تجعلوا على أعناق التلاميذ نيرًا لم يقوَ آبائنا ولا نحن قوينا على حمله ، فنحن نؤمن أننا بنعمة الرب يسوع ننال الخلاص كما ينال الخلاص هؤلاء أيضًا ، فسكت الجميع وأخذوا يستمعون إلى برنابا وبولس يرويان لهم ما أجرى الله عن أيديهما من الآيات والأعاجيب بين الوثنيين)... (أعمال الرسل : ١٦ ، ١٢-١).

كما أن بولس الرسول يستأنف كلامه في رسالته إلى العبرانيين قائلاً: (الإيمان قوام الأمور التي ترجى وبرهان الحقائق التي لا ترى، ويفضله شهد للأقدمين، بالإيمان ندرك أن العالمين أنشئت بكلمة الله، حتى إن ما يرى أنشئ مما لا يرى، بالإيمان قرب هابيل لله ذبيحة أفضل من ذبيحة قايين، بالإيمان أخذ أخنوخ لنلا يرى الموت، وبغير الإيمان يستحيل نيل رضا الله، لأنه يجب على الذي يتقرب إلى الله أن يؤمن بأنه موجود ويجازي الذي يبتغونه، بالإيمان أوحيت إلى نوح أمور لم تكن وقتئذ مرئية، بالإيمان لبي إبراهيم الدعوة، فخرج إلى بلد قرر له أن يناله ميراثاً، خرج وهو لا يدري إلى أين يتوجه، بالإيمان نزل في أرض الميعاد نزوله في أرض غريبة وأقام في الخيام مع إسحاق ويعقوب الشريكين في الميراث الموعود عينه، بالإيمان نالت سارة القوة على إنشاء نسل، وقد تجاوزت السن ذلك بأنها عدت الذي وعد أميناً، ولذلك ولد من رجل واحد، وقد قارب الموت نسل كنجوم السماء كثرة وكالرملة الذي على شاطئ البحر، وهو لا يحصى (سفر التكوين: ٢٢-١٧).

وفي الإيمان مات أولئك جميعاً ولم يحصلوا على المواعد بل رأوها وحبوها عن بعد، واعترفوا أنهم غرباء نزلاء في الأرض، فإن الذين يقولون هذا القول يدلون على أنهم يسعون إلى وطن ولو كانوا يفكرون في الوطن الذي خرجوا منه لكان لهم الوقت للرجوع إليه، في حين أنهم يرغبون في وطن أفضل، أعني الوطن السماوي بالإيمان قرب إبراهيم وإسحاق، لما امتحن فكان يقرب ابنه الوحيد، وقد تلقى المواعد، وكان قد قيل له: بإسحاق سيكون لك نسل يحمل اسمك (سفر التكوين: ٢١-١٢)، فقد اعتقد أن الله قادر حتى على أن يقيم من بين الموات (روما: ٤، ١٧)، لذلك استرده وفي هذا رمز، هذا كله من كلام القديس بولس الرسول الذي كتبه في رسالته. (العبرانيين: ١١، ١٢-١٩).

ونحن جميعاً نعلم أن الصابئة المندائيين يوحدون الله في دينهم (السماوي)، وهم يتقربون إليه ويؤمنون أنه موجود ويجازيهم هم في عالم النور لأنهم يبتغونه،

وقد شهد لهم بذلك حتى القرآن العربي : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالنَّصَارَى وَالصَّابِّينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^١

كما أن الكاتب السرياني الشرقي الشهير تيودور بركوني (القرن السابع للميلاد)،
الذي كان معاصراً لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب ، ترك لنا كتاباً ضخماً
أسماء إسكوليون ، عرض في فصله الحادي عشر موجزاً للهرطقات والبدع
والمذاهب المسيحية التي قامت داخل الديانة المسيحية حتى أيام زمانه ، ويبدو
أنه قد اقتبس ذلك من كتاب القديس إبيفانوس (٤٣٨ - ٤٩٥ م) ، وأضاف إليها
بدعاً ومذاهب أخرى سريانية مسيحية في الشرق كانت لا تزال باقية وقائمة
بأصحابها وأتباعها في أيامه ، مثل المانوية (أي الأيزدية) والكانتية والمندائية ،
وإن المستشرق الفرنسي هـ. بونيون قام بنشر النص السرياني مع الترجمة
الفرنسية للفصل الحادي عشر من كتاب إسكوليون في كتابه الموسوم :
Inscriptions mandaites des coupes de khouabir / نقوش مندائية
لأكواب الخوابير (الذي طبعه في باريس سنة ١٨٩٨ م في الصفحات ١٠٥ - ٢٢٢)^٢.

ومن المعروف أن الانتماء الديني اليهودي والإسلامي قائم على عملية الختان
الجسدي ، في حين الانتماء الديني المسيحي والصابئي قائم هو على التعميد
بالغطس والاختزال في الماء الطاهر المقدس بصلوات خاصة ، والخلاف الوحيد
بين العمد المسيحي والمندائي أن المسيحيين لا يتعمدون إلا مرة واحدة في
حياتهم من أجل محو الخطيئة الأصلية وخطاياهم الأخرى إذا كانوا كبار بالغين ،
بينما العمد المندائي يتكرر مراراً في الماء الجاري ، يردنا ، لمغفرة الخطايا
وفي مناسبات مختلفة ومتعددة وبمقتضى مراحل الحياة لديهم.

١- القرآن الكريم : سورة البقرة - الآيات ٦٢

٢- الأب ألبير أبونا ، أجب اللغة الآرامية ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٦ ؛ ٥ يونيو ، النقوش
المندائية في أكواب الخوابير ، باريس ٨٩٨ ص ١٠٥ - ٢٣٢ : نحن الأستاذ الدكتور يوسف
فوزي كنا قد ترجمنا ونقلنا هذا الكتاب إلى اللغة العربية من أصله الفرنسي والمندائي
والسرياني ، لصالح الشيخ المندائي هيثم مهدي سعيد خلال سنة ١٩٩٣ م ، وقد ضاعت
ترجمتنا تلك مع الأسف الشديد.

الخاتمة:

من خلال بحثنا هذا استطعنا أن نبرهن وبما لا يقبل الشك أن أبانا إبراهيم الخليل - ولو أن إخواننا الصابئين المندائيين أهملوا ذكر اسمه نهائياً في كتبهم المقدسة وذلك لامتعاضهم منه لأنه قبل أن يختن نفسه في جسده هو شخصياً ، وكذلك في ختن أجساد جميع ذكور أهل بيته - له بهم علاقتان قديمتان ومتينتان؛ الأولى هي العلاقة القومية والاثنية التي تقوم على الجنس والدم واللسان الآرامي ، أما العلاقة الثانية التي له بهم أيضاً فهي العلاقة الدينية الموحدة بالله ، فضلاً عن علاقة الإيمان به روحياً هو وحده الواحد الأحد ، وبعيداً عن العبادة المادية للأصنام والأوثان المصنوعة من قبل البشر ، وهكذا نأمل أن نكون قد وقفنا في نيل رضا إخواننا الصابئين المندائيين في كتابتنا هذا البحث الذي اهتمنا به إلى أن إبراهيم الخليل هو جد آرامي مشترك لكلينا نحن السريانيين المسيحيين وهم الصابئين المندائيين معاً على السواء.

تعقيب:

الأستاذ الدكتور يوسف قوزي أعرفه عن قرب وسبق أن عملت معه أثناء إشرافي على الترجمة الحرفية لكتاب الكنزا ربا باعتباري رئيس اللجنة المشرفة... وأنا أكن لهذا الرجل كل الاحترام والتقدير لكفاءته العلمية وصدقه وأمانته، ولكن من العيب أن أقول إنه محايد، لأنه كان يعتبر أن المندائية فرقة منشقة عن المسيحية، ولاحظوا أنه يعتبر نبي الله يوحنا المعمدان كما يسميه ساعي المسيح، بالوقت الذي يوحنا (يهيا يهانا) أو يحيى بن زكريا عمد السيد المسيح أي طهره ومنحه حياة جديدة.

أما موضوع نبي الله إبراهيم الخليل فهناك عدد من الباحثين يعتبرونه أسطورة لعدم وجود وثائق أو آثار أركولوجية تدل عليه في زمانه، وإنما قصص وأمثال وعبر وذكر في كتب الأديان مثل التوراة والقرآن، أما ما مذكور في الكنزا ربا

فهو ذكر لبهرام ربا والذي يعتبره الصابئة المندائيون أحد الملائكة المبجلين وليس نبي الله إبراهيم، وهناك خلاف في الرأي.

وهناك من يؤكد أنه نبي الله المرسل الذي ولد في أور في أرض الرافدين ، ودعا الناس إلى عبادة الله عبادة خالصة دون الأوثان ودون الملائكة الأثريين ، وبسبب تنكره لعبادة الأصنام اختلف معه أعوان الجزيرة ومنهم من وافقه واتبعه ، وأسس الدين الحنيف وتمت تسميتهم في الجزيرة بالأحناف أتباع إبراهيم الخليل ، واختلف المندائيون معه لأنه دعاهم لعبادة الحي العظيم دون وسيط أي بدون الملائكة، وقالوا له إن الحي العظيم يبلغ رسالته بواسطة ملاك، فكيف لا يكون لنا وسيطاً من الملائكة بيننا وبين خالقنا ، ثم إنك إنسان مثلنا تأكل وتشرب وتتوجع وتشيع وتموت فكيف تكون نبياً أن النبي يجب أن يكون ملاكاً.

هاجر إبراهيم الخليل مع خلق من أتباعه إلى مدينة حران التي يسكنها عدد من الصابئة المندائيين المقيمين في مدينة حران وهؤلاء لم يكونوا متتصرين كما يذكر الدكتور قوزي بل كانوا مندائيين ، ولكن هناك بعض الباحثين يذكرون عندما اشتد الاضطهاد ادعى قسم منهم ظاهرياً أنهم تهودوا أي اتبعوا الدين اليهودي خوفاً على أنفسهم من القتل ، وقسم فعلاً لحماية أرواحهم وعوائلهم اتبعوا الدين اليهودي وبعد زوال الخطر ارتدوا إلى مندائيتهم فسموهم اليهوديائي بمعنى (النازلين) أو الخطائين.

لم يكن كل سكنة حران وثنيين كما يذكر الأستاذ قوزي بل كان هناك المندائيون الموحدون أهل العلم والمعرفة والذين يسميهم الباحثون صابئة حران ، أما القول إن سارة هي زوجة وأخت إبراهيم لأنها من أبيه وليست من أمه... فالدين يعتبرها أخته ولكنها ليست شقيقته ولو كانت صحيح أنها ابنة أبيه فالزواج منها حرام ويذكر لنا الأستاذ قوزي في بحثه أن هنالك علاقة قومية ولغوية بين إبراهيم الخليل والصابئين المندائيين الحرانيين ، فهذا أمر طبيعي لأن إبراهيم

آرامي والمندائيون آراميون يتكلمون نفس اللهجة الآرامية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يذكر لنا بعض الباحثين أن كلمة حنيف تعني كلمة صباً أي غطس في الماء بمعنى الصباغة، وأن الاختلاف بين الأحناف والمندائيين مثل اختلاف الكاثوليك عن البروتستانت.

إن آدم وحواء رأساً السلالة البشرية كانا مندائيين وكانا جذر التوحيد الأول لأن الحي العظيم علمهم بواسطة الملاك منداهيي التعاليم والوصايا المندائية، إذن كما يؤكد لنا الأستاذ قوزي (أن البشرية بداية كانت موحدة على يد آدم وهابيل وشيت وأنوش ونوح، إلا أن أغلب البشر بعدهم زاغوا عن طريق الحق والصواب)... وهذا يفسر لنا أسباب أن السومريين والبابليين والأكديين وغيرهم من الأقوام لماذا ابتدعوا الآلهة، ولماذا راحت بعدهم أقوام تعبد الأوثان وتتقرب إلى الحي العظيم بها زلفى لغرض الشفاعة كوسطاء بينهم وبين الله، لأن الأعراب بدو الصحراء يريدون شيء يلمسوه ويروه، لأن الروحانيات لا تلمس ولا ترى بالعين.

ويقول الأستاذ قوزي إن الأديان من صنع البشر، وبنفس الوقت يستشهد بالوعود التي وردت في التوراة وعهود الرب الثلاثة لإبراهيم الخليل، فكيف إذن أن البشر صنعوا الأديان؟ وكيف رب القدرة يعطي الوعود والعهود لأنبيائه المرسلين ومنهم إبراهيم كما تذكر يا أستاذي الفاضل...

كذلك يذكر أستاذنا الجليل قوزي أن عضوي اللجنة المشرفة على الترجمة حمودي ونزار قالوا له إن إبراهيم هو نفسه بهرام ربا، وليس لدينا دليل على ذلك لأن بهرام ربا المذكور في الكنزا ربا ملاك أثري كما يفسرها لنا رجال الدين المندائيون والله أعلم، والمهم في الأمر أن نبي الله إبراهيم كان مؤمناً بوحداية الله، وأن الصابئة المندائيين كانوا من الموحدين، وهناك كثير من الشواحي التي تربط إبراهيم بالمندائيين منها القومية الآرامية واللغة والتوحيد.

المراجع

* محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، بيروت ١٩٨٨.

- صبأ يصبأ وصبؤ صبأ وصبوءاً عليهم : خرج من دين إلى آخر ، تدين بدين الصابئين فهو صابئ ، ويجمع صابئون وصابئة ، (الأب لويس شيخو ، المنجد في اللغة، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٤١٣).

- خنف ، نخنوف ونخنف : حَنَفَ... صبأ ، ارتد من دين إلى الوثنية ونخنفاً : هو الوثني أو الصابئ... (يعقوب أوجين منا، دليل الراغبين في لغة الآراميين ، الموصل ١٩٠٠ - ص ٢٥١).

البحث الرابع

الصابئة المندائيون وشيء عن الزرادشتية والمناوية

بداية لنأخذ فكرة عن الزرادشتية... الزرادشتية نسبة إلى نبي هذا الدين زرادشت ، وتعرف عالمياً بالمجوسية ، ويعدّها عدد من الباحثين من الديانات التوحيدية مثل المندائية واليهودية والمسيحية والإسلامية...

نشأت هذه الديانة في بلاد فارس ، ومنها انتشر أتباعها في الهند وأفغانستان وأذربيجان ، وهناك أعداد من المهاجرين في أمريكا وأوروبا... وهناك من يقول إن زرادشت فيلسوف مثل بوذا وليس نبي ، قام هذا الفيلسوف بتجميع الآلهة الفارسية المتعددة في إله واحد سماه أهورامزدا وتعني (نور الحكمة) أو (إضاءة الحكمة) ، ودعا إلى ثنوية (الخير والشر) ، ظهر هذا الدين في القرن السادس قبل الميلاد وأثر لاحقاً وتأثر بالأديان الأخرى الموجودة أو التي وجدت لاحقاً ، الدين الزرادشت أقرب إلى الأديان الهندية القديمة ، ويختلف عن الأديان التوحيدية الأخرى في كثير من الأمور ويتشابه في مواضع أخرى.

تأثرت الديانة الزرادشتية بالدين المندائي جذر التوحيد الأول ، وأخذت منه كثير من الأمور ، وتأثرت بها لاحقاً الديانة اليهودية والمسيحية والإسلام وبشكل عام الأديان الغنوصية ، ويؤكد بعض الباحثين أن اليهود تعلموا أشياء كثيرة من الزرادشتية أثناء السبي البابلي ، وقد تأثرت الديانة الزرادشتية بالديانة المندائية التي سبقتها وبحضارة بابل في بلاد ما بين النهرين.

للزرادشتية كتاب مقدس يسمى (الأبستاق) أو (الأفيستا) كتب بلغة مزيجة من الفارسية والسنسكريتية الفيدية الهندية ، وهذا الدين بدء في منطقة تقع غرب مدينة طهران حالياً التي تقع في شمال إيران كثير من الناس يعتقدون أنهم يعبدون النار ، لأن معابدهم فيها شعلة من النار متقدة باستمرار ، ولكن حقيقة

الأمر أنهم لا يعبدون النار ، وإنما يعتبرون النار كالماء أساس للطهارة والنقاء ، وأن أهم أعيادهم وأشهرها عيد نيروز الذي تحتفل به أقوام عديدة ومنهم الأكراد الذين يعطون أهمية بالغة لهذا العيد ، وحتى أهل البصرة وأهل ديالي في العراق يحتفلون بهذا العيد الجميل.

أکید هناك أوجه شبه بين الدين المندائي والدين الزرادشتي لأنهم موجودون في نفس البقعة الجغرافية ولأن المندائية والزرادشتية تؤمن بإله واحد مثلهم مثل الأديان الموحدة الأخرى ، والمندائية تسمى الخالق الحي العظيم (هيي قدامي) والزرادشتية تؤمن تسميه أهورامزدا.

إن الشعائر والطقوس هي التي تميز دين عن الدين الآخر ، وطبيعي كل الأديان لها مقومات الدين مثل التوحيد ، التعميد ، الصوم ، الصلاة ، الصدقة... ولكن أداء هذه الأركان الدينية يختلف من دين لآخر ، وطبيعي يحصل تشابه مثلاً في الملابس أو اتجاه القبلة أو في مراسيم الزواج أو الوفاة ولكن مع هذا هناك اختلافات كثيرة في شعيرة التعميد أو الصوم والصلاة ، وهناك تشابه في بعض المفصل ، مثلاً لبس الملابس البيضاء ، كثير من الأقوام تفضل اللون الأبيض لأنه لون النور ، وكثير من الأديان تؤمن بالثواب والعقاب وبالجنة والنار وهناك أديان تؤمن بالتعميد مع اختلاف في إجراءات التعميد ؛ فالمندائيون تعميدهم الغطس في الماء الجاري ، والمسيحيون بالرش ، وهكذا... وهذا يسمى تعميد وهذا يسمى تعميد ، ولكن هذا التعميد لا يشبه ذلك التعميد.

وهناك تشابه في بعض الإجراءات بين المندائيين والزرادشتيين مثل إيمان الزرادشتيين أن الروح تبقى تتحرك بين القبر والمكان الذي مات به الإنسان لمدة ثلاثة أيام قبل عروجها إلى العالم الآخر مثل المندائيين ومثل البابليين ، كذلك تؤمن مثل المندائيين أن الجسد فاني ، وأن الروح تحاسب حسب حسناتها وسيئاتها في الحياة الدنيا ، وأن النفس طاهرة لا تحاسب ، كذلك هناك نوع من التشابه في طعام الغفران (الوفاني) ولكل دين إجراءاته ومراسيمه التي تميزه

عن الأديان الأخرى، كان الزرادشتيون وحسب تعاليم نبيهم زرادشت لا يدفنون الميت لكي لا يلوث الطبيعة وإنما يتركوه في العراء لتأكله الجوارح بعدها توضع العظام في أبراج خاصة ولا تدفن...

وإني رأيت أمور عجيبة في شمال الصين أي في منغوليا والنيبال عندما يتوفى عندهم شخص يأتي رجال الدين ويقطعوه ويدقوا عظامه ويذروها على اللحم ثم ينشروه على جلود على سفح جبل لتأتي الطيور الجارحة من السفح الآخر ، وفي حالة حدوث حادث كبير يذهب ضحيته عدد من البشر ، تشبع هذه النسور فلا تلتهم كل اللحم، وهنا تظهر علامات الحزن على الأهل والأقرباء لأن ميتهم لم تنقله الطيور إلى الجنة وهكذا...

لكن بسبب التطور الحاصل في المجتمعات نصح زرادشت أتباعه بضرورة الانسجام مع المجتمعات والتطور وذلك بدفن موتاهم بعد وضعه في صندوق معدني محكم، وهذا يضمن عدم تلويث الجثمان الماء والهواء والتربة، وعلى ذكر عناصر الماء والهواء والتربة والنار هذا يذكرنا بالسكندولة عند المندائيين، لأنه عند الزرادشتيين النحلة تمثل الهواء والحية تمثل الماء والعقرب يمثل التراب والنار تمثل القوة ، وباختلاط الماء والتراب تتكون المادة (الجسد) وباختلاط الهواء بالنار تتكون الغازات (الروح) ، بينما المندائيون يفسرون السكندولة غير ذلك، ويعتبروا هذه الرموز من عالم الظلام.

إن (أهورا مزدا) هو الإله في الدين الزرادشتي وهو يمثل الخير عند الزرادشتيين ، ويعمل بالضد منه إله الشر ويسمى (أهرامان)... ويؤمن الزرادشتيين أن القيامة ستقوم بعد أن ينتصر أهورامزدا على أهرامان... بعدها تبدأ الحياة الثانية لكافة النفوس الطيبة وتبعث الأموات وتعود لحياة ثانية لهم وتبدأ الحياة الثانية بدون شيخوخة أو أوجاع أو موت ثاني، وتنتهي للأبد الفساد والخوف والانحلال ويحل العدل والمساواة والصدق والأمان عند كل البشر.

وخلاصة القول إن الدين الزرادشتي يؤمن بالتوحيد ولكن بمنظور ثنائي إله الخير (أهورامزدا) ، وإله الشر (أهرامان) ، وأن مؤسس هذا الدين النبي زرادشت ، وليس للزرادشتيين نبي غيره ، وأن الزرادشتيين كانوا لا يدفنون موتاهم كما أسلفنا ولكن حاليًا وانسجامًا مع المجتمعات التي يعيشون بدأوا يدفنون موتاهم ، ويؤمن الزرادشتيون أن إلههم هو إله الخير أهورامزدا وهو خالق الكون ، وأنه مصدر الخير والعدل والسعادة ، كذلك يقدر الزرادشتيون الشمس والنار ولا يعبدوها ، فالشمس مصدر الضوء في العالم العلوي والنار مصدر الضوء في العالم السفلي ، وأن تقاطع أي غصنين بشكل صليب أحدهم يمثل الشمس والآخر يمثل النار ، وكلاهما من جواهر الحياة لأنهما يقهران الظلام.

أما الدين المندائي يؤمن كذلك بتوحيد هبي قدمايي ملك النور السامي وبالملائكة المسبحين له ، وأن الحي العظيم واحد أحد لا يشاركه ملكه أحد ، وبأمره كل شيء صار ، وأنبياء الصابئة المندائيين آدم وشيتل وسام وإدريس ويحيى بن زكريا خاتم أنبيائهم ، والصابئة المندائيون يدفنون موتاهم وفق شعائر وطقوس تدل على الطهارة والنقاء ويعتبرون الجسد خلق من تراب وإلى تراب يعود وهو بمثابة حبس للنشمتا التي تمثل النفس الطاهرة النقية والروح التي تعني مجمل الفعاليات من حسنات وسيئات ورغبات وشهوات للإنسان من المهد إلى اللحد.

والمندائيون لا يعبدون الشمس ولا النار ولا الكواكب والنجوم فهم يعبدون الحي العظيم (الله) ملك النور السامي ، من هذا أيها القارئ العزيز نفهم أن الدين الزرادشتي له طقوسه وشعائره وفكره... وأن الدين المندائي له شعائره وطقوسه وفكره ، ومن الطبيعي أن توجد أوجه تشابه بسيطة بين الأديان التوحيدية التي عاشت في نفس المنطقة متقاربة ، وعلى الباحث الدقيق الأمين أن يستقي معلوماته من مصدرها ، لأن الصابئة المندائيين إرث حي موجود ويمكن الإطلاع على كتبهم واللقاء ومناقشة رجال دينهم وزيارة مناديتهم

والتعرف على متقفيهم والوقوف بصدق وأمانة على حقائق دينهم ومعتقدهم وإيمانهم ، وهم حالياً موجودون في العراق من جنوبه إلى شماله ، وموجودون في أرجاء المعمورة ، وكذلك الحال بالنسبة للزرادشتيين ؛ فهم موجودون في أبران قرب طهران ، بعيدين عن المياه البهية ، وموجودون أيضاً في أرجاء المعمورة ، ولهم معابدهم ورجال دينهم ومتقفيهم وكتبهم ، وعلى الباحث الأمين معاشرتهم ليكتب عنهم بصدق وأمانة ، وألا يعتمد على الإعلام والنقل غير الأمين ، وعلى قال فلان ونقل عن الراوي.

هناك حضارات سادت ثم بادت مثل السومريين والبابليين والفراعنة والرومان والإغريق ، ولكنهم تركوا آثاراً أركولوجية وميثولوجية تدل على أنهم كانوا موجودين وتركوا آثاراً حضارية موجودة في المتاحف وفي الأماكن التي عاشوا بها ، ولكن أين هم ؟ لقد ذهبوا مع الزمن وبقت آثارهم وحضاراتهم ، لكن المندائيون موجودون والزرادشتيون موجودون ، والباحث ممكن أن يكذب على الموتى ، ولكنه لا يستطيع أن يكذب على الأحياء وخاصة إذا كان ينتسب إلى هذا الدين أو ذلك الدين ، وهو يعرف الحقيقة ولكن للأسف يحرفها ، مثله مثل أيشيع القطيعي عندما حرف الحقائق متعمداً ، أو مثل المؤرخ عبد الرزاق الحسني عندما ادعى ظلماً وبهتاناً أن الصابئة المندائيين عبدة كواكب ونجوم ثم اعتذر ، أو مثل الأصطخري الذي خالف في فتواه حتى القرآن الكريم ، المؤرخ والباحث يجب أن يكون صاحب ضمير حي محايد عادل في أحكامه مثله مثل القاضي العادل عندما تعرض عليه قضية مهمة مثل جريمة قتل مثلاً ، واجب عليه أن يتأكد من تكامل أركان الجريمة ، وعند دراسة حيثيات القضية يصدر حكماً نزيهاً عادلاً يرضي ضميره ويرضي العدالة ، فما بالك أن يخرج عليك متقف يعرف الدين حق المعرفة وله قدرة على الإطلاع والتدقيق والتأكد من الحقيقة ، ولكنه يحرفها ويكتب على هواه ، وبهذا يكون البحث غير أمين وغير دقيق وتعتبر معلوماته ضعيفة وتضيع جهوده هباءً مع الأسف.

أما المانوية:

يرتكز الدين المانوي الذي أسسه (ماني بن فاتك) على أساس أن الحي العظيم (الله) هو الخير والنور، وأن الروهة (الشيطان) هو الخطيئة والشر والظلام، وأن أي شيء مادي هو جزء من الشر؛ سواء كانت أرض أو نبات أو حيوان أو جسد... وأن جميع الأشياء الروحانية من عقل وحلم وخيال وفكر هي جزء من الخير، ويجب على الإنسان الذي يؤمن بالدين المانوي أن يحتقر جميع ماديات الحياة، ومنها الجسد لأنها حبس للنفس (النشمتا).

ويقول ماني أن الخطيئة والشر تتمثل بثلاثة وسائل: القلب الذي يمثل النية الصادقة والحب، والفم الذي يمثل كلمة الحق والصدق، واليد التي تمثل فعل الخير، وعلى رجل الدين أن يتجنب العمل لكي لا يرتكب خطيئة.

ولد ماني في مدينة المدائن قرب بابل من أب صابئي مندائي، ويقال تم طرده من قبل الصابئة المندائيين عندما أعلن نبوءته وادعى أنه (نبي النور)، حصل انشقاق في الدين المانوي وتم تأسيس المزدكية في بلاد فارس لمؤسسها (مزدك) وابتعدت المزدكية عن المانوية وتقربت إلى الزرادشتية، انتشر هذا الدين في أرجاء من آسيا ولكنه باجتياح المغول تم القضاء على المانوية تمامًا...

لكنهم قبل ذلك نشطوا في زمن الدولة العباسية وخاصة في زمن الخليفة العباسي (المهدي) الذي حارب أتباع الدين المانوي واعتبرهم من الزنادقة، ويذكر أن عددًا من المثقفين والكتاب والشعراء كانوا يحسبون على هذا الدين، مثل أبو نواس، أبو العتاهية، عبد الله بن المقفع، وغيرهم...

نشأت الديانة المانوية في القرن الثالث الميلادي تقريبًا، وهي ديانة عراقية مستمدة تعاليمها من الديانة المندائية (الصابئة المندائيون)، ومازالت آثارها باقية يمثلها التصوف في العراق...

في عام ٢١٦ م أمر الملك الساساني شاهبور بن أردشير الشاب (ماني بن فاتك) وكان عمره إحدى وعشرين سنة بتأسيس دين جديد لأن بلاده انتشرت فيها

المسيحية والزرادشتية والبوذية واليهودية... ماني ادعى النبوة بنزول الوحي عليه وأسس ديناً استمد تعاليمه من كل هذه الأديان، وهناك باحثين يؤكدون أنه ارتكز على الدين المندائي لأنه ولد من أب مندائي اسمه فاتك وأم مندائية اسمها مريم، وانتشر دينه لكنه دعى إلى الزهد والتصوف وحرّم الزواج، فخاف الملك من تناقض شعبه وقلة عددهم وبالتالي ضعفهم وطمع الأعداء بهم، فأمر بقتله شر قتلة...

ولهذا فالدين المانوي الذي أنشأه ماني استمد تعاليمه من عدة أديان كانت موجودة في المنطقة بين العراق وإيران، واستفاد كثير من التعاليم المندائية التي كانت سائدة في جنوب العراق، ولا يوجد أي ذكر لماني أو الدين المانوي في الكتب الدينية المندائية، ومعظم الباحثين المنصفين يؤكدون على أن الدين الصابئي المندائي هو جذر التوحيد الأول الذي سبق كل الأديان.

البحث الخامس

الصابئة المندائيون وشيء عن الديانة الإيزيدية

زرت جبل سنجار ومناطق الشيخان والقوش وقراقوش وبحزاني برفقة صديق من الطائفة الإيزيدية... وزرنا معبدهم في الشيخان في قلب جبل والذي يسموه لالش، وزرنا قبر عدي بن مسافر، ولاحظت أن رجال دينهم يلبسون الملابس البيضاء التي تشبه الرسته (اللباس الديني للصابئة المندائيين)، ولاحظت أن رجل الدين ممسك بالعصا التي تشبه المركنة عند الصابئة المندائيين، وأوجه تشابه عديدة وأوجه خلاف عديدة.

والإيزيديون طائفة كتومة منعزلة عن الغرباء مثل المندائيين أيام زمان، كذلك كل ما كتب عنهم أما عن السماع من الآخرين أو نقل من الآخرين...

زرتهم في الشيخان برفقة رئيس طائفة الصابئة المندائيين الريش أمة ستار جبار حلو ورفقة عدد من مسؤولي الطائفة بدعوة كريمة من أميرهم تحسين بك ورئيسهم الديني بابا شيخ وكانوا في غاية الكرم والوداعة، وزرنا معبدهم لالش ومرقد عدي بن مسافر، والتقينا بعدد من متقفيهم، وكان يوماً جميلاً...

أغلب الإيزيديين يعيشون في العراق وسوريا، وهناك مجموعات تعيش في تركيا وألمانيا وأرمينيا وجورجيا، يرى عدد من الباحثين أن الديانة الإيزيدية هي امتداد للديانة المندائية والبابلية والزرادشتية والمانوية، فهي خليط من هذه الديانات، ويرى آخرون أنهم قوم انحرفوا عن الدين الإسلامي جذورهم هندوأوربية... ولغتهم الكرمانجية إحدى اللهجات الكوردية، ومعظمهم يجيدون اللغة العربية والكردية، وكتبهم الدينية مكتوبة باللغة السريانية القريبة جداً من اللغة المندائية، أي إحدى اللهجات الآرامية...

يقدسون دينيًا طاووس ملك وعدي بن مسافر ، الديانة الإيزيدية مثل الديانة المندائية غير تبشيرية ، يؤمن الإيزيديون أنهم دين توحيد قديم من زمن آدم وحواء ، قبلتهم الشمس ، ويؤمنون بتناسخ الأرواح ويصومون أربعين يومًا في السنة.

مثلما احتمى المندائيون في مراحل من الزمن بأهوار جنوب العراق ؛ تفوق الإيزيديون في جبل سنجار في الموصل ، وفي القرى المحيطة بهذا الجبل لحماية أنفسهم ودينهم من الغزوات وحملات الإبادة الجماعية التي تعرضوا لها عبر التاريخ ، وأخرها ما قامت به داعش من احتلال جبل سنجار وقراهم وقتل أعداد كبيرة منهم وتخريب قراهم وسبي نساءهم ، وحاليًا أعداد كبيرة منهم هاجرت قسرًا إلى كردستان العراق ومناطق متفرقة من العالم طلبًا للحماية والأمان.

يعتقد الإيزيديون أن إبليس أول الموحدين بالله لأنه لم يسجد لآدم رأس السلالة البشرية ، وأن الله جل جلاله أراد أن يختبر الملائكة ، وقد نسوا أن السجود لله وحده ، فسجدوا إلى آدم وهو بشر في حين أن إبليس نجح في هذا الاختيار ولم يسجد لآدم ، وهو بذلك لم يعص أمر خالقه ، لأن ذلك كان اختبار للملائكة.

يؤكد الإيزيديون أنهم تراث عراقي أصيل أصلاً وجذرًا ولكن اختلف الباحثون في أصل تسميتهم فمنهم من قال إنها مشتقة من يزوان (الله) ، ومنهم من قال إنها مشتقة من اسم (يزاتا) أي المقدس ، ومنهم من نسبهم إلى يزيد بن معاوية الأموي ، وآخرين نسبهم إلى يزيد بن أبي أنيسة في البصرة ، ويقال إن اسم الإيزيديين تركب بعدما دخل في هذا الدين أعداد كبيرة من الجيش الأموي المنهزم في معركة الزاب بقيادة آخر خلفاء بني أمية مروان الثاني عام ٧٥٠ ميلادية ، والقائد العباسي أبو مسلم الخرساني يوم سقوط الدولة الأموية وتأسيس الدولة العباسية في بغداد.

ظهر في القرن الثاني عشر ميلادي رجل صوفي من السلالة الأموية من أصول سورية لبنانية، قام هذا الشيخ الصوفي بتحديث الديانة الإيزيدية كديانة لها ميراث آشوري مستحدث من بابل وربطها بالديانة الحنفية لنبي الله إبراهيم الخليل كما يدعي بعض الباحثين.

هنا اختلاف الباحثين حول الديانة الإيزيدية يؤكد لنا أن ما كتب عنهم من المؤرخين الأوائل غير دقيق وغير محايد ولأنهم غير ملمين بالدين الإيزيدي ولم يتعايشوا معهم ويقفوا على دقائق الأمور، واعتمادهم على المروريات من القصص والأحاديث والأساطير التي ينسجها ويتداولها الناس عنهم دون الاستناد إلى وثائق.

كذلك انغلاقهم وخوفهم من الغرباء وإحاطتهم ديانتهم بسرية تامة، وثمة سبب آخر أنهم سابقاً اعتمدوا على النقل الشفوي لنصوصهم الدينية لقناعتهم أن الدين والنصوص والتعاليم الدينية تكون محفوظة في الصدور وليس في الكتب.

وأن الخلق والتكوين طبقاً لما ورد في الميثولوجيا الإيزيدية أنهم ينحدرون من الرجل آدم فقط، وبقية البشر من آدم وحواء، تقول الأسطورة إن آدم وحواء اختلفا حول عائدة الجنس البشري لأي منها، فوضعت حواء بويضتها في قارورة وأحكمت إغلاقها ووضع آدم حيامنه في قارورة مماثلة وأغلق أحكامها، وبعد فترة من الزمن فتحت حواء قارورتها فوجدت أن البويضة قد فسدت وتلفت، ثم فتح آدم قارورته فوجد طفل حي فسموه شيت الحي ابن آدم، بعدها دعى آدم ربه أن يبعث لشيت زوجة من الحوريات، فتزوجها فأنجبت نسلًا نقيًا طاهرًا سموا أنفسهم بالإيزيدية.

يؤكد لنا بعض الباحثين أن الدين الإيزيدي دين نابع من بلاد ما بين النهرين وأن ركائزه الأساسية مستمدة من الدين البابلي في الألف الثالث قبل الميلاد وهناك رأي أنهم يجبلون الإله نابو البابلي في مدينة نمرود شمال العراق حيث معبده الرئيسي (يزيدا)، ويؤكدون أن اسمهم مشتق من اسم هذا المعبد، لأن

الإله نابو كان يعبد في بلاد آشور التي تشمل مناطق الزا بين الأعلى والأسفل ومنطقة الشيخان وبحزاني وبعشيقه والقوش ، وأن للإله نابو هيللاً في النمرود والقريبة من الشيخان ومعبد لالاش الإيزيدي... وبسبب سقوط بابل واجتياح الغزاة بقيادة كورش بلاد ما بين النهرين تعرضت الأديان للاضطهاد والقمع واضطروا للفرار إلى أعالي الجبال والكهوف.

أما قصة الخلق والتكوين عند الإيزيديين تقول كما يرويها الباحثين : كانت هناك لؤلؤة عظيمة بيضاء ، أمر الله أن ترمى هذه اللؤلؤة في المياه فتناثرت ومنها تشكلت السماء والأرض والنجوم ، ثم خلق الله طاووس ملك ومنحه القوة والحكمة وتنفيذ أوامر الله وكلفه مهمة بناء الكون وخلق معه ست ملائكة مساعدين...

اهتزت الأرض اهتزازاً شديداً فنزل بأمر من الله طاووس ملك في مركز لالاش متخذاً شكل طاووس عظيم بسبع ألوان زاهية وهبها للأرض فكانت النباتات والحيوانات وهذا الجمال كله.

ثم تقول الحكاية إن طاووس ملك صعد إلى السماء والتقى بآدم وكان جسداً بلا روح فأعطاه نفساً من روحه فبعث الحياة ، ثم قال له انظر إلى الشمس فهناك من خلقها وهو أعظم منها وعليك عبادته وعلمه الأسماء والوصايا وكل اللغات... بعدها خلق الله حواء زوجة لآدم وقد شرحنا كيف اختلفا ولماذا يعتبر الإيزيديون أنهم أبناء آدم فقط وبقية البشر أبناء آدم وحواء.

توجد في المكتبة العربية عدد محدود جداً من الكتب التي تتحدث عن الإيزيدية والدين الإيزيدي أهمها ما كتبه الباحث إسماعيل بك عنهم وما كتبه الباحث زهير كاظم عبود المقيم في السويد حالياً والكاتب أحمد تيمور ، كذلك كتب عنهم المؤرخ العراقي عبد الرزاق الحسني ، وقد تجنى عليهم كما تجنى على الصابئة المندائيين ، كذلك تجنى عليهم الكاتب نوري بك بكتابه (عبدة الشيطان) ، كذلك كتب عنهم الباحث جورج حبيب وهناك من أنصفهم وهناك من أجحف بحقهم

بدون دليل ، الكاتب المنصف يجب أن يستند في بحثه على وثائق موثقة ومحفوظة بأمانة ومصدقة مكتوبة في الزمن الذي يتحدث عنه ويبحث فيه ، أو أن هناك دلائل أركولوجية مثل منحوتات أو مخطوطات على الحجر مثلاً ، وآثار مثل آثار الحضارة السومرية والبابلية والفرعونية والفارسية والإغريقية والرومانية ، أو ما كتبه كتاب أمناء عاشوا ذلك الزمان مع هذه القومية أو هذا الدين معهم وفي وسطهم ، وسمعوا منهم ورأوا بعيونهم وكتبوا بدقة وأمانة لا نفلاً عن المروريات أو هذا ينقل من ذلك وقال فلان وقال علان ، حتى الكتب الدينية ليست دليلاً قاطعاً لأنها قصص أنت تصدقها لإيمانك بهذا الدين ، لكن الآخرين يشكون بها ويقولون هات الدليل الراسخ.

نعود إلى الإيزيدية وما كتبه عدد من الباحثين وإن اختلفت وجهات نظرهم كثيراً لاعتمادهم على المروريات من القصص والاستماع إلى عدد من الناس الذين يتناقلون الأساطير والحكايات وكثير منها من تأليفهم أو ينقلوها نقلاً غير أمين ، وكان بإمكانهم الاتصال بالطائفة الإيزيدية رغم تكتهم وخشيتهم من الغريب ، لكن ما شاهدته أن أميرهم ومتقفيهم أناس متفتحين وبيوتهم ومضائفهم مفتوحة للأخيار للمناقشة والإطلاع وحب التعليم ، صحيح هناك رجال دين متشددون يوصون بالكتمان والاحتفاظ بالعقيدة بالصدور ، وعدم الجواز بالتحدث عنها أمام الأغراب في الأديان الأخرى ، والمشكلة أن المتقنين الإيزيديون لا يجروون على الكتابة والتفسير مهابة رجال الدين ، وعلينا أن نعلم أن الإيزيديين ناس رعاة غنم يسرحون بأغنامهم في المروج الخضراء في مناطقهم ، فهم غير مستقرين ولهذا فهم غير متعلمين. ولكن المتقنون منهم وكثير منهم يساريون علمانيون ممكن أن يستفادوا من التراث الإيزيدي الذي يملك خزيناً من الحكايات والقصص والأساطير والصلوات والتراتيل والشعر ، وأنا رأيت رجل دين يدور حول قبر عدي بن مسافر ويحكي أحلى الكلام والمواعظ ، لحد الآن لم يكلف أحد الباحثين نفسه ويبذل جهداً بالوصول إلى حقيقة تكون الدين الإيزيدي عبر الزمن ، هناك عدد من الكتاب أجحفوا بحق الإيزيديين والدين

الإيزيدي وحاولوا تشويه الصورة الحقيقية لهذا الدين والخط من مكانة الإيزيديين في المجتمع العراقي وتعمدوا الإساءة لهم وتشويه سمعتهم ظلماً وعدواناً ، ومنها ما يسمونه في الموصل (ليلة الكشف) المزعومة والتي تدعي ظلماً وبهتاناً أن الإيزيدية في هذه الليلة يختلط عندهم الحلال والحرام ، هذه قصة نسجها عليهم من لا ذمة له ولا ضمير ، مثلما نسجوا عن الصابئة المندائيين ظلماً وعدواناً قصصاً ما أنزل الله بها من سلطان ، مثل ادعائهم كذباً وزوراً أن الصابئة المندائيين يخنفون المحتضر ، وهذه كذبة أطلقها مرضى النفوس الحاقدون المتطرفون...

فالصابئة المندائيون عندما يصل الإنسان المندائي نهايته ويبدأ بالاحتضار ؛ رجال الدين يلبسونه الرسته (القماشي) أي الملابس الدينية البيضاء لكونها تمثل النور ، ويظهرونه بالماء الجاري الصافي ليكون جسمه طاهراً ، ويحرسونه ويعتنون به عناية فائقة ، ويلبسون كل طلباته ووصاياه ، ويقرأون عند رأسه الابتهاالات والصلوات وبوث (آيات) من كتابهم المقدس الكنزا ربا التي تعدّه بحياة ثانية أبدية في عالم الأنوار (الجنة) طالما كانت حسناته أكثر من خطاياها ، ويستغفرون له ربه أن يرحمه ويغفر له ، لأن الدين المندائي يقبل التوبة والمغفرة عند رب كريم غفار رحيم.

اختلف الحال حالياً عند الأقليات ، فأصبحت هناك مراكز ثقافية وإصدارات ومجلات ثقافية وصحف مختصة بالأقليات يكتب فيها أبناء الأقليات والمنصفين من المثقفين العراقيين ، تطور حالياً الشعب الإيزيدي الذي هو جزء من الشعب العراقي ، وركب مركب العلم والثقافة والتطور والرقى المدني ، ولهذا هناك نوعان من الكتاب ؛ الأول كتاب محايدين أصحاب ذمة وضمير وأخلاق كتبوا بأمانة وصدق وبمهنية فأعطوهم حقهم واقتربوا كثيراً من الحقيقة رغم وجود فاصل زمني كبير بين نشوء الإيزيدية والعصر الحديث ، أما النوع الثاني من الكتاب فكان منحازاً متطرفاً يقصد الإساءة والخط من قيمة هذه الطائفة المسالمة

إرضاءً لزعيم سياسي أو رجل دين أو جهة مغرضة تثبث الفرقة بين أبناء الشعب الواحد.

عبر التاريخ دائماً يكون الباحث مقيد في بحوثه من قبل السلطة القوية ومن قبل رجال الدين المتنفذين في السلطة، وخاصة في الدول المتخلفة حضارياً، لهذا معظم كتب التاريخ كتبت بلغة القوي المسيطر الذي يفكر إلغاء الأقليات وتحجيمها وقتل الحقيقة في تاريخهم، وكل المظاهر الإنسانية والإيمانية والتوحيدية، وهذا ما تعرّض له الصابئة المندائيون والإيزيديون، أضف لذلك حملات الإبادة والاضطهاد الديني، وخير مثال على ذلك مذابح سنجار وتهجير الإيزيديين من مناطق سكناهم قسراً، وما تعرّض له الصابئة المندائيون في مذبحه الشوش في عربستان على أيدي المتطرفين.

من الضروري أن يكتب التاريخ بلغة منهجية نقدية علمية يستبعد الخوف وتأثير السلطة وكثير من العقول المتطرفة المتشددة التي تعتبر دينها ومنهجها هو الصحيح لا غير، إن أهم الكتب الدينية لطائفة الإيزيديين هو كتاب (الجلوة) وفيه مجموعة من المبادئ عن الله رب العالمين وديمومته وقدراته على الخلق، ومن الضروري إجلال الخالق وحفظ شرائعه ووصاياه.

أما الكتاب الثاني فهو مصحف لالش، وهي عبارة عن حكم ونصائح الملك طاووس يظهر فيها مدى قوته وقدراته وخدماته للدين الإيزيدي، وحقيقة الأمر عند زيارتنا إلى لالش ولقاءنا بالأمير تحسين بك وبابا شيخ وعدد من المتقنين، لم نشاهد كتاب الجلوة ولا مصحف لالش، وعندما سألناهم أجابوا لدينا مجموعة كبيرة من الأوراق التي كتبت فيها التعاليم والوصايا ولدينا الرغبة في وضعها في كتاب... ولكن هناك مشكلة مع رجال الدين المتشدد الذين يرغبون ببقاء أبناء الطائفة الإيزيدية على حالهم يتناقلون هذه التعاليم شفاهاً... بينما نجد أبناء طائفة الصابئة المندائيين ورجال دينهم يتسابقون لنشر تعاليمهم...

وهذه مقتطفات من كتاب الجلوة المقدس عند الإيزيديين:

- لا تحلفوا كذبًا بالشمس والقمر... ولا تحلفوا كذبًا بأي نور.
- من نوري تتدفق كل الأنوار.
- أنا ربكم أبارك أهل الأرض مع أول إشعاع للشمس كل يوم أبارككم مرة واحدة وفي عيد نيروز سبع مرات، وأنزل عليكم رحمتي.
- أيها الناس صلوا لنا مرتين في اليوم ، واقرأوا الأدعية بإيمان عميق في قلوبكم، واذكروني دائماً، أنا ربكم وخالقكم وإلهكم... أنا الله لا شريك لي.
- إني أنا الله يوم السبت خلقت العرش والزمان وفي يوم الأحد خلقت الأفلاك ودائرة الزمان ونظمتها ، وخلقت الشمس والقمر يوم الاثنين وخلقت زحل والأرض يوم الثلاثاء ، وملأته بالحيوانات والبشر أمرت أن يكون لقسم منهم السعادة والخير ، ولقسم الشقاوة والفقر ، وفي يوم الأربعاء خلقت المريخ وجعلته مثل الأرض ، وفي يوم الخميس خلقت الجبال ، ويوم الجمعة خلقت السيل وأمطرت منها مطر حسب ما أشاء. وأنا الذي خلقت العناصر الأربعة النار والهواء والماء والتراب وجعلتها واسطة لديمومة الحياة ، وأنا الذي خلقت الألوان البهيجة كلها ، وخلقت الليل والنهار والصحة والمرض... أنا خالقكم جميعاً وقد أحسنت خلق السماوات والأرض ورفعت السماء بلا عمد ، وبسطت الأرض ، لقد أنزلت لكم الجلوة وفيها تعاليمي والوصايا وفق ما تقتضيه مصالحكم وحياتكم لتكون لكم مرشد، اعملوا الصالحات وتجنبوا عمل السيئات.
- هذا باختصار شديد بعض مما ورد في كتاب الجلوة المقدس (أي مقتطفات مختصرة سريعة من الكتاب).

البحث السادس

الصابئة المندائيون والدين السومري والبابلي

العقيدة الدينية قديمة قدم الإنسان ووجوده على سطح الأرض ولكنها صعبة التحديد بدقة من حيث الزمان والمكان ، وفكرة الدين ذات صلة وثيقة بالإنسان منذ أول نشأته ومع ذلك يمكن اقول إن الإيمان بالدين وجد في مناطق عديدة من العالم وبين أقدم الجماعات البشرية التي عثر المنقبون والآثاريون والأنثربولوجيون في مواقع استيطانهم على مخلفات لها علاقة بالدين ، فإنسان نياندرتال مثلاً كان يعيش في العصر الحجري قبل نحو مائة ألف عام ظهر ما يدل على أنه كان متأثراً بالدين ، وإذا كان الدين ظاهرة وحاجة اجتماعية رافقت الإنسان منذ أول نشأته فقد تطور الفكر الديني من حالة بدائية ساذجة إلى حالة عالية متكاملة وإن لرقى الفكر البشري نصيب من هذا التكامل.

إن الحياة البدائية كانت محفوفة بالمخاطر والكوارث وقد قضى الإنسان قروناً لم ينفك خلالها عن معرفة منشئه ومصيره قاصر الإدراك دفعته ملاحظته لما يحيط به وحيرته أمام الأسرار التي يراها ولا يدرك كنهها ، لذلك كان الإنسان يعتقد أن كائنات خارقة هي التي تسبب له الموت أو المرض أو الجوع ، فالخوف من الموت ومن نتائج الحوادث الخطرة والدهشة من الأمور التي لم يستطع إدراكها واستعطاف الآلهة لكسب رضاها أو لدفع أذاها أو لشكرها على ما أنعمت عليه من خيرات كل هذه الأمور تضافرت على نشوء العقيدة الدينية وساهمت في تكوينها.

لذلك فدراسة الديانة تعد على قدر كبير من الأهمية لمعرفة تاريخ وحضارة أية من الأمم ومهما اختلفت الديانات وتباينت فيمكن القول بصورة عامة إنها تفترض وجود قوة عليا في الكون يسعى الإنسان دائماً للتقرب إليها عن طريق العبادات والطقوس المعينة ولا شك في أن المعتقدات ترجع إلى أزمان بعيدة في

عصور ما قبل التاريخ (عصور ما قبل اختراع الكتابة) فإن ما خلفه الإنسان من آثار مادية مثل الرسوم على جدران الكهوف والدمى الطينية والحجرية قد أسهمت في الكشف عن جوانب من معتقداته التي حاول فهم وتفسير ما يحيط من الظواهر الطبيعية المختلفة.

إن ما نعرفه عن ديانات سكان وادي الرافدين في عصور ما قبل التاريخ قليل وغير كامل لأن معلوماتنا عنها تعتمد على المخلفات المادية التي تركها الإنسان في الكهوف والملاجئ الجبلية والأكواخ، وباحت الآثار ليس لديه وثائق دونت عليها الأفكار والممارسات الدينية لأن الكتابة لم تكن معروفة ولم تختراع إلا في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

إن الأدلة على وجود مثل هذه المعتقدات الدينية ترجع إلى العصر الحجري القديم الذي يقع بين ١٥ - ٣٠ ألف سنة قبل الآن، إذ عثر في كهوف فرنسا وإسبانيا على رسوم جدارية ملونة تمثل أنواعًا متعددة من الحيوانات والطيور والأسماك التي كان الإنسان يصطادها ويعتمد عليها في غذائه، إذ يعتقد إنسان ذلك العصر إنه إذا ما رسم صورها فإن الحيوانات الحقيقية ذاتها سوف تقع تحت سيطرته، واعتقادًا منه بالمبدأ نفسه فقد صنع الإنسان في هذا العصر منحوتات صغيرة على شكل دمي من العاج أو العظام أو الحجر أو الطين يمثل قسم منها نسوة حبالى من أجل التشبيه بالقوى الخلاقة في الطبيعة ومن أجل التعبير عن مفهوم الخصب والتكاثر.

والحقيقة أن المصادر الكتابية عن الحياة الدينية لدى العراقيين القدماء متعددة كالقصص والأساطير السومرية والبابلية التي تتعلق بخلق الكون والإنسان وبعض المؤلفات الأدبية كالملاحم والنصوص السماوية الخاصة بالآلهة وألقابها والنصوص الخاصة بالاحتفالات الدينية ونصوص التنجيم أي رصد الكواكب والأجرام السماوية لمعرفة أثرها في شؤون الناس.

خصائص الديانة في بلاد وادي الرافدين :

في مقال للأستاذ بشير عامر جندال ؛ ذكر عن الديانة في بلاد وادي الرافدين عددًا من الخصائص لعل من أبرزها ما يأتي :

١- **الحيوية** : أي الاعتقاد بوجود قوى وأرواح كامنة في مظاهر الطبيعة وتجسيدها بهيئة آلهة ، وصار يرى أن هناك قوى فعالة في كل ما حوله من الظواهر الطبيعية ، وتتجلى خطورة الظواهر للإنسان تلك العصور في بلد رسوبي منبسط لبلاد سومر وأكد في جنوب العراق حيث تتغير الظروف المناخية بشكل متطرف خلال فصول السنة ، ولذلك جسد الإنسان تلك القوى بهيئة آلهة خصها بالعبادة والتقديس.

٢- **تعدد الآلهة** : أو الشرك فقد بلغت الآلهة البابلية عدد كبير وذلك لأنهم اتخذوا لمعظم ظواهر الحياة والكون آلهة ، فكان للجو إله وللشمس والقمر والكواكب والسماء والأرض ولم يصل البابليون في يوم ما إلى مبدأ التوحيد أي عبادة إله واحد.

٣- **مبدأ التشبيه** : من المميزات البارزة في الديانة البابلية أنهم نسبوا إلى آلهتهم صفات البشر الروحية والمادية ، فالآلهة حسب عقيدتهم كانت تفكر وتعمل وتأكل وتشرب وتتزوج ، غير أنها تنفرد بصفة واحدة عن البشر ألا وهي صفة الخلود الأبدي ، وببيدها أقدار الكون ، وهي تعيش في السماء وتعبد في الأرض في معابد شبيدها البشر.

٤- **الحياة الأخرى** : لم تتكون عند سكان وادي الرافدين فكرة واضحة معينة عن الحياة الأخرى ، ولم يتصوروا عالمًا آخر سوى العالم السفلي الذي سموه عالم اللاعودة ، فالعقاب والثواب على ما يبدو يكون في الحياة الدنيا.

٥- **الاستمرارية التاريخية** : بقيت المعتقدات والطقوس الدينية محافظة على جوهرها خلال العصور التاريخية المختلفة وحتى في الحقب التي تعرض فيها العراق القديم إلى حكم أقوام أجنبية.

اعتقد سكان وادي الرافدين أن الآلهة خلقت البشر ليعبدها بمختلف أشكال العبادة وإذا قصر في واجبه فإنه يعاقب في هذه الحياة، وتبعاً لذلك فقد صورت الآلهة أنها تعيش كما البشر يعيشون في مجتمع تحكمه قوانين وضوابط معينة، وعلى رأس هذا المجتمع يقف رئيس الآلهة، إن الآلهة اقتسمت المناصب والمسؤوليات فيما بينها، على غرار المجتمع البشري لتنظيم حركة الكون ومختلف الظواهر الطبيعية بصورة مستديمة، وللآلهة مجلس أعلى تجتمع فيه لتقرير المصائر واتخاذ القرارات المهمة التي تهم الآلهة والبشر، واعتقدوا أن سلطة الحاكم البشري مستمدة من الآلهة، أما الملوك والحكام فهم نواب عنها يمثلونها في الأرض ويحكمون باسمها، فكانت الملكية مقدسة لأن مصدرها السماء، أما موطن الآلهة فقد تصور العراقيون القدماء أنه في السماء كما تصوروا آلهة أخرى تستوطن في العالم السفلي، أي عالم الأموات الذي يقع تحت الأرض.

ذكرنا شيئاً سريعاً عن الديانة السومرية والديانة البابلية في سياق حدثنا عن (فكرة مختصرة عن الأديان)... ولكون المندائيين عاشوا في نفس الرقعة الجغرافية في بلاد الرافدين وأكد أثروا وتأثروا بهذه الأقوام وبهذه الأديان، ولكن الأمر الغريب أن الدين المندائي كان موجوداً ومنشراً، وديناً موحداً له تعاليمه ووصاياه التي أنزلها الله على نبي الله آدم رأس السلالة البشرية ونبي الله شينل (شيت) ونبي الله سام بن نوح، وفي أور بالذات ظهر نبي الله إبراهيم ينادي بالتوحيد، إذن فكيف السومريون والبابليون أقوام غير موحدة ولديها تعدد الآلهة... فهل كان المندائيون بعيدين عنهم، أم أن دينهم مغلق من البداية وهؤلاء أقوام مهاجرة، أم أن السومريين والبابليين كانوا موحدتين ثم زاغوا عن التوحيد وأجبرهم ملوكهم أن يعبدوا الآلهة التي أوجدوها لهم الكهنة لتعزيز ملك الملك الجبار في ذلك الزمان... إذ من الصعوبة أن يتم بناء الزقورات في بلاد ما بين النهرين والأهرامات في مصر وسور الصين العظيم إلا بظل حكم دكتاتوري يقوده دكتاتور قادر على استثمار موارد الشعب وتسخير الناس لإنجاز مثل هذا البناء لأعوام طويلة.

- السومريون :

لا توجد أدلة قاطعة عن أصل السومريين والأرجح أنهم من بلاد الرافدين أصلاً أو أنهم مهاجرين من مناطق قريبة لبلاد الرافدين ولوجود بيئة مائية متشابهة في جنوب العراق وإيران (منطقة المياه البهية) مصبات أنهار دجلة والفرات والكارون والكرخة وما تشكله هذه الأنهار من أهوار واسعة في السهل الرسوبي الغني بالخيرات ووفرة الطعام والأنعام... ولربما انحدروا من شمال العراق إلى جنوبه طلباً للكأ والماء ، الآراء متعددة وكثيرة والأدلة والآثار الأركولوجية يبني عليها الآثاريون والباحثون آرائهم.

هنا يهمن الدين السومري : السومريون اعتقدوا بتعدد الآلهة وذهبوا أن لكل شيء آلهة ، وأن الآلهة كبشر يتزوجون ويتناسلون ويتخاصمون ، ولكنهم يمتازون عن البشر بصفة الخلود، وأهم آلهتهم :
أنليل : إله الهواء بمعنى سيد الريح والعواصف.
أنكي : إله الماء.
آن : إله السماء.
كي : إله الأرض.

وهناك عدد آخر من الآلهة لكل آلهة اختصاص ، ولهم معابدهم ودعواتهم وصلواتهم وأضاحيهم (قرايينهم) الكتب الدينية المندائية تحدثنا أن الدين المندائي نزل على آدم وحواء ، وأن الصحف الأولى من كتاب الكنزا نزلت بالتتابع على أنبياء الله آدم وشيتل وسام ، ولاحقاً على يهيا يهانة (يحيى بن زكريا)... وأكد ذرية آدم وشيتل (شيت) وسام أدركوا السومريون والبابليين والأكديين وغيرهم من الأقوام التي سكنت العراق القديم ، فهل كان السومريون بداية موحدين ثم تحولوا ، وإذا قلنا كما يذهب بعض الباحثين أن المندائيين هم بقايا السومريين ، فما هم المندائيون يؤمنون بالله واحد رب الأكوان جميعاً ملك النور السامي ، فأين ذهبت آلهة السومريين. وهل هناك احتمال أن أسماء الآلهة هذه هي أسماء

ملائكة، حورت أسمائهم وفق الكتابة وبالتالي اللهجة السومرية المسمارية، قلنا إن التعليمات الربانية تنزل وحياً أو إلهاماً، والوحي ينقلها لفظاً أو معنى، وإذا نقلت معنى للسهولة من قبل الموحى المرسل سيتكفل الوحي بصياغتها أو ينقلها إلى النبي الوحي إليه وهو يتكفل بصياغة المعنى وهنا يحصل التغير... لأن نقل المعنى وإعادة صياغته أكثر من مرة يحصل فيه نوع من الانحراف شئنا أم أبينا، أما إلهاماً فهذا الشخص الملهم أو كما يسمونه بالفيض الإلهي يحفظ مقاطع من الإلهام، وفي حالة عدم وجود كتابة أي قبل الكتابة المسمارية أو الهيروغليفية... تحفظ على الصدور ثم يدونون بعد زمن، وهذا وقت كافي لحصول إضافات أو حذف من صلب الموضوع، أو أن هذا الملهم ولغاية في نفسه يضيف شيء يعزز فيه مكانته والله أعلم.

ونحن لا نعرف بالضبط الزمن الذي اندفع فيه المندائيون إلى عمق الأهوار طلباً للأمان ولحماية الطبيعة لهم، هل عندما سقط الكيان السومري أو عند دخول المسلمين بقيادة خالد بن الوليد ومن ثم بقيادة سعد بن أبي وقاص، وانتصار المسلمين على الفرس في معركة القادسية وفرضهم تعاليم الإسلام أو دفع الجزية على أتباع الديانات الموحدة مثل المندائيين والزرادشتيين واليهود والمسيحيين.

كذلك لا نعلم بالدقة متى دونت الكتب الدينية المندائية باللهجة المندائية كلغة آرامية شرقية وكم من الزمن قد مر على حفظ الصحف الأولى (الكنزاً رباً) إلى أن دونت باللغة الآرامية المندائية... أسئلة كثيرة لا توجد لها إجابات شافية، لأن تاريخ المندائيين خلال هذا الزمن الطويل مضطرب لأنه لم يدون أصلاً، والاعتماد كل الاعتماد على الكتب الدينية التي دونت لاحقاً.

يذكر لنا الأستاذ الدكتور الباحث المقتدر خزعل الماجدي في كتابه القيم (أصول الناصورية المندائية في آريدو وسومر) الذي صدر عام ٢٠١٤:

إن الديانة المندائية نبع صافي من ينابيع الأغوار الروحية للبشرية وتطلع مخلص لعبادة إله واحد لا يسكن السماء فحسب بل في عالم أبعد من السماء هو (عالم النور) وكذلك أهلها الطيبون الصامتون على قهرهم وجروحهم والرافعون راية النور والمعرفة بوجه من يتعرض لهم بالجهل والظلام والتكفير... كلام جميل ، ولكن اليوم معظم المندائيين كما تعلم يعيشون في دول العالم المتقدم ، كما تعيش أنت في هولندا ولا يستطيع كائن من كان أن يتعرض لهم أو يفرض قسراً عليهم أي شيء... نحن يا سيدي ليس مهاجرين بل مهجرين ، وإذا اختار أجدادنا قديماً الاحتماء بعمق أهوار جنوب العراق وإيران ودفعوا ضريبة العيش في مناطق متخلفة موبوءة ، ها هم اليوم تعلموا الدرس واستفادوا مما يملكون من مال بالهجرة إلى بلدان متطورة تحبهم وتحترمهم وتفتح لهم أبواب العلم والمعرفة وانتظر يا سيدي جيل أو جيلين وستجد الشباب المندائي قد حقق مراكز علمية وأدبية مرموقة... أنا لا أنكر أن الوطن الأم غالي وعزيز... ولكن ما الحيلة وطابع البداوة والقبلية والمذهبية والتفرقة الدينية قد شجعه القادة الجدد وغذته أمريكا لضمان مصالحهم ولإضعاف قدرات الشعب العراقي العريق ، كذلك يذكر لنا الدكتور الماجدي في نفس كتابه (أصول الناصورية المندائية في أريدودسومر).

(إن المندائية هي الغنوصية المبكرة وهي العرفانية بأدق وأكمل أشكالها... إن من حسن حظ الأديان والثقافات البشرية أن هذه الطائفة العريقة مازالت حتى يومنا هذا تمارس عقائدها وطقوسها وتعاليمها في جنوب العراق وفي الأهواز بشكل خاص).

والحقيقة يا سيدي إن المندائيين حالياً تركزوا في هولندا والسويد استراليا وأمريكا وكندا ودول أوروبية مثل الدنمارك والنرويج وفنلندا وإنجلترا وغيرها وأنشأوا لهم جمعيات ومنادي ويمارسون طقوسهم الدينية بكل حرية ، وأنت في هولندا تستطيع زيارة مندي الطائفة في مدينة أو ترخت القريبة عن دنهاج وتستمع مع أصدقائك المندائيين لأنك صديق مقرب منهم فأنت تعرفهم وهم

يعرفوك ويقدروك لأمانتك العملية وحياديتك واجتهادك في التدوين وأكيد هناك من يتفق معك وهناك من يختلف ولكن يا دكتور يبقى حب الوطن العراق معجوناً في كل خلية من كياناتنا.

إن كلمة الناصورائيين تعني المؤمنين بالدين المندائي بعمق؛ أي عميق الإيمان، أما المندائيون فتعني المعرفيين؛ بمعنى الذين عرفوا الحي العظيم بالعقل والإحساس ومواجد القلب، أما كلمة الصابئون ففي الحقيقة هذه الكلمة كانت موجودة قبل الإسلام، ولكن ذكرها في القرآن الكريم في ثلاث آيات بينات (البقرة، الحج، المائدة) رسخ هذه التسمية كصفة للمندائيين، وتعني الصابغين الذين يصطبغون بالماء الجاري أي الذي يغطسون بالماء عند الصباغة (التعميد) لغرض الطهارة والنقاء، وبدء حياة جديدة خالية من الذنوب.

وهناك ثمة سؤال يحتاج إلى إجابة دقيقة، نلاحظ أن للسومريين آلهة لهم أسماء، البابليون لهم نفس الآلهة ولكن غيروا أسماءهم وفق اللهجة البابلية، وأن الأديان التوحيدية سمت هذه الآلهة ملائكة لغرض التوحيد بوجود آلهة واحدة، والبقية ملائكة يعبدون الله ويعظمونه ويسبحونه، ولأن العرب في زمن الجاهلية أقوام صحراوية تغلب عليهم البداوة يريدون أن يروا الأشياء ويلمسوها فأبدعوا لكل آلهة أو لكل ملاك تمثال يشبهونه به حسب تصورهم قسم من هذه التماثيل صنعوها بأيديهم من الطين أو الحجر أو الخشب أو التمر... وقسم جلبها للتجار مع قوافلهم من الشام والعراق، إنه مجرد سؤال قابل للنقاش، وإلا بماذا نفسر أن أقواماً متحضرة مثل السومريين والبابليين والأكديين والآشوريين عبدوا الآلهة وقريبين منهم المندائيين الموحدين، ثم اليهود الموجودون في أورشليم الذين سباهم الملك البابلي نبوخذ نصر، وجلب أعداداً كبيرة منهم أسرى في بابل.

وأن الكهنة اليهود ومنهم العزيز (عزرا الكاتب) الموجود ومرقده حالياً في قضاء العزيز في مدينة العمارة هو من كتب التوراة (العهد القديم)، في مدينة

بابل ، وحقيقة الأمر أن الخلق والتكوين الذي ورد في التوراة أو الذي ورد في الكنزا ربا لا يشبه الخلق أو التكوين لدى السومريين والبابليين ، إنما هناك تشابه وتقارب بين قصتي الخلق والتكوين لدى الديانتين اليهودية والمندائية باعتبارها ديانات توحيدية منبعها واحد ، هو توحيد الحي العظيم الواحد الأحد وبالمقارنة نجد أن الأديان التوحيدية مثل المندائية واليهودية والمسيحية والإسلامية متقاربة جدًا في فكرة الخلق والتكوين... وقد شرحنا ذلك في الفصل الأول ، ولغرض الإطلاع والمقارنة ، سنذكر بإيجاز أبرز ما ورد في قصة الخلق والتكوين لدى السومريين باعتبارها ميثولوجيا سومرية.

أبرز ما ورد في أسطورة التكوين السومرية :

- في البدء كانت الإلهة نمو ولا أحد معها ، وهي المياه الأولى التي انبثق منها كل شيء....
- أنجبت الآلهة نمو ولد وبننّا ، الأول (آن) إله السماء مع بعضهما ، وغير منفصلين عن أمهما نمو.
- ثم إن (آن) تزوج (كي) فأنجبا ابنهما البكر (أنليل) إله الهواء الذي كان بينهما في مساحة ضيقة لا تسمح له بالحركة.
- أنليل الإله الشاب النشيط لم يطق ذلك السجن ، فقام بقوة خارقة بأبعاد أبيه عن أمه ، رفع الأول فصار سماء ، وبسط الثانية فصار أرضاً ، ومضى يرتع بينهما.
- ولكن أنليل كان يعيش في ظلام دامس فأنجب أنليل ابنه نانا إله القمر ليبدد الظلام في السماء وينير الأرض.
- (نانا) إله القمر أنجب بعد ذلك (أوتو) إله الشمس الذي كله ضياء.
- بعد أن أبعدت السماء عن الأرض ، وصور ضوء القمر الخافت ، وضوء الشمس الدافئ ، قام أنليل مع بقية الآلهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى.

وتستمر الأسطورة السومرية وصولاً إلى خلق أعظم إلههم مردوخ التي يجتمع مع جميع الآلهة، ويحتفلون بتتويجه سيداً للكون، بعدها بنوا مدينة بابل وبنو له معبداً في وسطها تناطح ذروته السحاب وهو معبد الأيزاجيلا.

طبعاً قصة الخلق والتكوين لدى السومريين تختلف عن قصة الخلق والتكوين عند المندائيين، وبقراءة القصتين يتأكد المرء من القوة التوحيدية في الديانة المندائية وأن كل شيء تمّ بأمر الحي العظيم الواحد الأحد لا شريك له في ملكه وسلطانه، وليس له أب ولا ولد ولا يشاركه ملكه أحد، بينما قصة الخلق السومرية فيها تعدد الآلهة وفيها الأب والأم والأبناء.

- البابليون:

ظهرت الحضارة البابلية في جنوب العراق في مدينة بابل، مدينة الحلة حالياً، وظهرت حضارة بابل عام ١٧٦٣ قبل الميلاد وبها سنّ قوانينه وشريعة حمورابي المشهورة، ومن أعظم ملوكهم نبوخذ نصر، الذي سبى اليهود عام ٥٨٧ ق.م، وبنى هذا الملك حدائق بابل المعروفة باعتبارها من عجائب الدنيا السبعة، تعتبر الحضارة البابلية من أعظم الحضارات عبر التاريخ وآثارها تشهد عليها في مدينة بابل الأثرية، وفي متاحف العالم، وقد حققت هذه الحضارة القديمة إنجازات في الفلك والرياضيات والطب والموسيقى وفي الزراعة والصناعة وتنظيم الجيوش.

لا تختلف الديانة البابلية عن الديانة السومرية بتعدد الآلهة وقد دون الكثير من الميثولوجيا البابلية عنواناً للحضارة الشرقية القديمة وممثلة لأرقى الحضارات جنوب غربي آسيا، قلنا إنهم يشبهون السومريون في تعدد الآلهة ويعتبر مردوخ الإله الخالق... أما عشتار فاله الحرب والخصب وإله القمر اسمه سين وإله الشمس اسمه شامش وهو إله الحق والعدالة، وهذه الآلهة في مجملها لها علاقة بالكواكب والنجوم، والبابليون يقدسون آلهة السومريون ولكن أوجدوا لها

أسماء بابلية، وقد برعوا في بناء المعابد ولكل إلهة معبد في مدينة بابلية، فمثلاً الآلهة (أنليل) معبده في مدينة أريدوا، و(عشتار) لها معبد في مدينة أوروك، والإله (نبو) لها معبد في مدينة بورسيبا.

ويعتقد البابليون أن الإله حر في معاقبة الإنسان أو الصفح عنه، أما تحديد الذنب فيتم بإطاعة الإنسان للآلهة والتمسك بتقديسها، وكانت زقورة مردوخ في مدينة بابل من أعظم المعابد، والبابليون يحتفلون بالههم في عيد (كيتو) أيام الربيع حيث تنظم مسيرة مهيبة للآلهة خارج سور المدينة، وتتلّى عليهم الصلوات وتتشد الأناشيد وتقام الاحتفالات وتقدم الأضاحي.

وهنا تساؤل مشروع ونعود ونقول أين كان المندائيون الموحدون، وهناك قواسم مشتركة مع البابليين تتمثل في لبس الملابس البيضاء (الرسته)، وتقديس الماء الجاري والإيمان بخلود النفس، وأن النفس تبقى ثلاثة أيام بعد الوفاة قبل عروجها تذكر المتوفى بالأعمال (حسناته وسيئاته) خلال مرحلة حياته.

وأرى من الضروري أن نطلع على قصة الخلق والتكوين البابلية التي جسدها لنا ملحمة (الأنيوما ايليش) التي تعتبر مع ملحمة جلجامش من أقدم الملاحم الإنسانية عبر التاريخ، لأنها كتبت في الألف الثاني قبل الميلاد، أي قبل ألف وخمسمائة سنة تقريباً من كتابة إلياذة هوميروس، وملخص قصة الخلق والتكوين عند البابليين:

(لم يكن في الأعالي سماء، ولم يكن في الأسفل أرض، لم يكن شيئاً في الوجود سوى المياه الأولى، وكانت هذه المياه تغطيها طبقة من الضباب، وكان هذا يمثل العماء الأول الذي انبثق منه ثلاث آلهة التي كانت تعيش في سكون سرمدي، وصمت مطلق، ممتزجة ببعضها البعض، وبدأت هذه الآلهة بالتناسل فولدت آلهة جدد قوية كلها حيوية ونشاط، سيطر الأبناء الآلهة على الآباء، بعدها ولد الإله مردوخ عظيم الآلهة الذي إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون، وتستمر القصة وكلها تعدد آلهة وتنشعب حروب طاحنة بين الآلهة ينتصر فيها

مردوخ، الذي ينظم الكون الذي يخرج من السكون إلى حالة الحركة والحيوية، وهو الذي رفع السماء وبسط الأرض وخلق النجوم والكواكب، ثم خلق الإنسان.

بعض الباحثين يذكرون أن هناك أوجه تشابه بين قصة الخلق البابلية وقصة الخلق العبرية، والحقيقة هذا غير صحيح، إذ ليس هناك أوجه شبه حقيقية، فالديانة العبرية وكتابها التوراة ديانة توحيدية بينما الديانة البابلية ديانة تعدد الآلهة، وهناك من يعتقد أن هناك تشابه بين الديانة السومرية والديانة البابلية مع الديانة المندائية، صحيح هناك نوع من التشابه بسبب البيئة المائية (ضفاف الأنهار والأهوار)، وبسبب ذكر عوالم النور وعوالم الظلام، والخير والشر، وعدد من أسماء الكائنات النورانية والظلامية، وتشابه في اللباس وفي بعض الشعائر والطقوس، وكثير من الميثولوجيا الدينية، ولكن يبقى الدين المندائي دين توحيدي يؤمن بإله واحد رب الأكوان جميعاً، ملك النور السامي هبي قدماي السامي المتعالي المتفرد، بينما نجد السومريين والبابليين حوت دياناتهم تعدد الآلهة، ولم يذكروا لنا أن هذه الآلهة ما هي إلا ملائكة من عالم النور، كل ملاك كلف من سلطة عليا بواجبات محددة.

المهم قبل اختراع الكتابة المسمارية كان كل شيء يتداول شفاهاً وبلغات ولهجات متعددة، ويبقى الماء عنصر الحياة الحيوي عاملاً مشتركاً وأساسياً لكل هذه الديانات، وكذلك عنصر النور رمز الحياة، أكثر الأديان والأقوام المتجاورة والتي تعيش في بيئة متماثلة تأثر وتتأثر واحدة بالأخرى، وخاصة بعد ظهور اللغة الآرامية وانتشارها بين تلك الأقوام المتعددة، وحقيقة كانت هناك توجهات جادة للسومريين والبابليين والأكديين للتوحيد، ولكن هناك من جسد شامش إله الشمس وهناك من جسد سين إله القمر، ولكن المندائيون وبكل قوة وإصرار تمسكوا بتوحيدهم للحي العظيم، وابتعدوا عن كل الصراعات السياسية بانزوائهم وابتعادهم عن مراكز القوة متمسكين بعقيدتهم التوحيدية، مبتعدين عن الديانات التي تمجد الأصنام والتماثيل والكواكب والنجوم، ونادوا

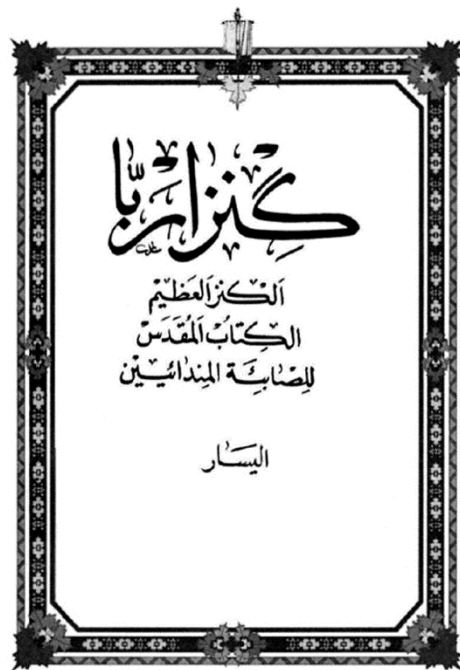
بقوة إلى عبادة الحي العظيم الذي بأمره خلق كل شيء رب الأكوان جميعاً ،
الواحد الأحد لا يشاركه في ملكه أحد.

وفي خضم هذه الأحداث سبى البابليون اليهود في أورشليم في فلسطين كأقوام
موحدة، وجاءوا بهم أسرى إلى أرض بابل فأصبح في جنوب العراق الديانة
المندائية الموحدة والديانة اليهودية الموحدة وفي إيران الديانة الزرادشتية
الموحدة، وهذه المرحلة تعتبر مرحلة التدوين باللغة الآرامية المنتشرة، وبدء
المندائيون وغيرهم بتدوين النصوص على لفائف من الجلد وورق البردي
والرقم الطينية، لكن كان في غاية الصعوبة الاحتفاظ بها كل هذا الزمن، فقد
نالتها الفيضانات والحرائق وعوامل الزمن والهجرات القسرية، ولكن المندائيون
تمكنوا من المحافظة على أدبهم الديني بالسرية والكتمان والانزواء في أعماق
الأهوار الشاسعة، وهناك من الباحثين من يرى وجود تقارب كبير بين الديانتين
المندائية والزرادشتية، نقول له إن المندائية جسدت الماء والنور رمزا الحياة،
بينما الزرادشتية جسدت ضوء الشمس في السماء وضوء النار في الأرض.

الفصل الرابع

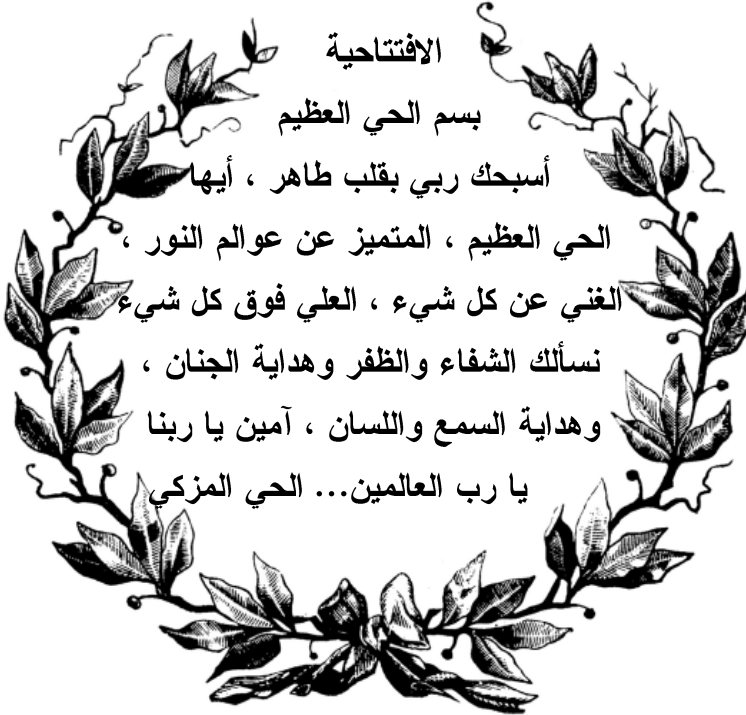
الكتاب المقدس الكنز الربا

- البحث الأول : التوحيد والوصايا .
- البحث الثاني : الخلق والتكوين .
- البحث الثالث : آدم وحواء وذريتهم .
- البحث الرابع : الملائكة الأثريون .
- البحث الخامس : الماء الحي والتعميد .



البحث الأول

التوحيد والوصايا



١- التوحيد : بسم الحي العظيم

﴿ أسبحك ربي بقلب طاهر ﴾ (١) أيها الحي العظيم (٢) المتميز عن عوالم النور (٣) الغني عن كل شيء (٤) الغني فوق كل شيء (٥) نسألك الشفاء والظفر (٦) وهداية الجنان (٧) وهداية السمع واللسان (٨) ونسألك الرحمة والغفران (٩) آمين يا ربنا يا رب العالمين (١٠) ... والحي المزمكي

هذه افتتاحية الكنز العظيم تعطي القارئ دلالة واضحة وأكيدة على التوحيد... وهذا التسبيح الأول من الكتاب المقدس (التوحيد):

بسم الحي العظيم

مسبح ربي بقلبه نقي

هو الحي العظيم ، البصير القدير العليم ، العزيز الحكيم ، هو الأزلي القديم ،
الغريب عن أكنان النور ، الغني عن أكنان النور ، هو القول والسمع والبصر ،
الشفاء والظفر ، والقوة والثبات ، مسرة القلب ، ومفران الخطايا .

مسبح ربي بقلبه نقي

يَا رَبَّ الْأَكْوَانِ جَمِيعًا ... مُسَبِّحُ أَنْتَ ، مُبَارَكُ ، مُمَجِّدُ ، مُعَظَّمُ ، مَوْقَرُ ، قَيُّومُ ،
الْعَظِيمُ السَّامِيُّ ، مَلِكُ النُّورِ السَّامِيُّ ، الْحَنَانُ التَّوَّابُ ، الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ الْحَيُّ
الْعَظِيمُ ، لَا حَدَّ لِهَيْأَتِهِ وَلَا مَدَى لِضِيَائِهِ ، الْمُنتَشِرَةُ قُوَّتُهُ ، الْعَظِيمَةُ قُدْرَتُهُ ، هُوَ
الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يُرَى وَلَا يُحَدُّ ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي سُلْطَانِهِ ، وَلَا صَاحِبَ لَهُ فِي
صَوْلِيَانِهِ ، مَنْ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ فَكُنْ يَخِيبُهُ ، وَمَنْ يُسَبِّحُ بِاسْمِهِ فَكُنْ يَسْتَرِيبُهُ ، وَمَنْ يَسْأَلُهُ
فَهُوَ السَّمِيعُ الْمُجِيبُ ، مَا كَانَ لِأَنَّهُ مَا كَانَ ، وَلَا يَكُونُ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ ، خَالِدٌ فَوْقَ
كُلِّ الْأَكْوَانِ ، لَا مَوْتَ يَدْنُو مِنْهُ وَلَا بَطْلَانَ ، وَأَمَامَهُ الْمَلَائِكَةُ مَائِلُونَ ، بِأَضْوَابِهِمْ
يَتَأَلَّفُونَ ، سَاجِدِينَ خَاشِعِينَ ، شَاكِرِينَ مُسَبِّحِينَ ، هُوَ الَّذِي لَا حَدَّ لَهُ وَلَا كَيْلَ ،
وَلَا تَدْنُو لِحِمَّةٍ مِنْ ضَوْئِهِ وَلَا لَيْلَ ، هُوَ الْجَلَالُ وَالْإِتْقَانُ ، هُوَ الْعَدْلُ وَالْأَمَانُ ، هُوَ
الرَّأْفَةُ وَالْحَنَانُ ، الْأَوَّلُ مِنْذُ الْأَزَلِ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، ذُو الْقُوَّةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا
مَثِيلٌ ، صَانِعُ كُلِّ شَيْءٍ جَمِيلٌ ، رَبُّ الْأَكْوَانِ النُّورِ جَمِيعًا ، أَسْمَى مِنْ الْأَثَرِيِّينَ
جَمِيعًا ، إِلَهُهُمْ جَمِيعًا ، هُوَ النُّورُ الَّذِي لَا ظِلْمَةَ فِيهِ ، الْحَيُّ الَّذِي لَا مَوْتَ فِيهِ ،
وَالْخَيْرُ الَّذِي لَا شَرَّ فِيهِ ، هُوَ الْهَادِي دُونَ نَضْبٍ ، اللَّذِيذُ الَّذِي مَا نَضَبَ ،
الْبَهِيُّ ... السَّاكِنُ فِي الشِّمَالِ الْعُلُويِّ ، أَصْلُ النَّبَرَاتِ جَمِيعًا ، وَأَبُو الْأَثَرِيِّينَ
جَمِيعًا ، الْمُقِيمُ فِي مَلَكُوتِهِ ، الْعَادِلُ فِي جَبَرُوتِهِ ، أَطْلَقَ الْكَامِلِينَ الصَّادِقِينَ ،
وَطَبَعَ اسْمَهُ عَلَى أَفْوَاهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَارَكَهُمْ بِبَرَكَتِهِ أَجْمَعِينَ ، قُدْرَتُهُ لَا تُحْصَرُ
فِي الْعَدِّ وَالْحِسَابِ ، وَلَمَعَاتُهُ تَاجُهُ تَنْطَلِقُ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ ، وَإِشْعَالَاتُ نَوْرِهِ
تَنْبَعِثُ مِنْ بَيْنِ أَوْرَاقِ إِكْلِيلِهِ مِلءَ الْأَكْوَانِ ؛ مَنْ يُسَبِّحُكَ تَسْبِيحَكَ ، قَالَ
الْأَثَرِيُّونَ ، فَتَسْبِيحُكَ لَا يُحَدُّ ، وَمَنْ يُبَارِكُكَ بِبَرَكَتِكَ ، فَبَرَكَتُكَ لَا تُعَدُّ ، وَمَنْ
يُعَظِّمُكَ بِعُلاَنِكَ فَعُلَاكَ لَيْسَ لَهُ قِيَاسٌ ، لِمُعْظَمِكَ لَا يُسَبَّرُ ، وَقُدْرَتُكَ لَا تُحْصَرُ ،
وَعُظْمَتُكَ لَا تُبْصَرُ ، وَعُلَاكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَكْبَرُ ، هَا هُمْ جَمِيعًا خَاشِعُونَ ... لَا

يَعْرِفُونَ اسْمَكَ ، وَكَا يَتَّبِعُونَ رِسْمَكَ ، طُوبَى لِلْكَامِلِينَ الَّذِينَ عَرَفُوكَ بِقَلْبِهِ نَفْسِي
فَأَمَّنُوا بِكَ مُخْلِصِينَ ، وَخَشَعُوا لِعَظَمَتِكَ صَادِقِينَ ، طُوبَى لِلْكَامِلِينَ الصَّادِقِينَ ؛
هُوَ الْمَلِكُ مِنْذُ الْأَزَلِ ، ثَابِتُهُ عَرْشُهُ ، عَظِيمُ مَلَكُوتِهِ ، لَا أَبَ لَهُ وَلَا وَلَدَ ، وَلَا
يُشَارِكُهُ مَلِكُهُ أَحَدٌ ، مُبَارَكٌ هُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَمُسَبِّحٌ هُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ ،
مَوْجُودٌ مِنْذُ الْقَدَمِ ، بَاقٍ إِلَى الْأَبَدِ) ... والحي المزكى.

وصفه كتاب الكنز اربا في تسابيح كثيرة وصفاً دقيقاً وتصور عظمته لك وكأنك
تراه وتتصوره، ويسميه بأسمائه الحسنى، ما أجملها وما أعظمها، يقول لك هو
فمن هو، هو الحي العظيم هو هبي هو يهوه، هو الرب، وهو الله، ما أعظمه
ملك النور السامي خلق كل شيء وخلق الإنسان من جسد مادي ونشمانا
روحانية فيها سره وفيها عظمته وفيها قدرته، ولأن الله باقى إلى أبد الآبدين
فالنشمانا التي هي هبة منه باقية أبد الآبدين، لأن الحي العظيم أبدي ليس له
بداية وأزلي ليس له نهاية... لا تعرف متى كان ولا نعرف متى لا يكون كما
يقول الكتاب المقدس (ما كان لأنه ما كان ، ولا يكون لأنه لا يكون).

ولهذا فالصابئة المندائيون قوم موحدون يؤمنون بالله والعمل الصالح واليوم
الآخر ، وبرسله وأنبيائه وملائكته وبالثواب والحساب... (إن محاربتكم يوم
الحساب أعمالكم التي عليهما تتوكلون ، فانظروا على ماذا تستندون)... لأن
كل من يولد يموت ، وكل ما يصنع بالأيدي يفسد والعالم كله يفنى ، فأين سر
الالوهية التي فيه إن كنتم تنتظرون.

٢- وصايا الحي العظيم : (شيء من الوصايا) :

- قل يا عبادي لا تزنوا ولا تسرقوا ولا تنتهكوا حرمان الناس.
- لا تبدلوا في الكلام ولا تحبوا الكذب والآثام.
- لا تكنزوا الذهب والفضة فالدنيا باطلة ومقتنيات زائلة.
- لا تسجدوا للشيطان ولا تعبدوا الأصنام والأوثان.
- لا تتعلموا رقي الشيطان، ولا تشهدوا زوراً على إنسان، وإذا جلستم للقضاء فاشهدوا منكم ذوي العدل والذمام، ولا تسيئوا الأحكام، إن من يسيء الأحكام مصيره النار.
- احترموا آباءكم، واحترموا أمهاتكم، واحترموا إخوانكم الكبار أجمعين، إن من لا يحترم والديه مدان إلى يوم الدين.
- لا تنظروا إلى ما ليس لكم، لا تشتهوه ولا تبغوه ولا تعترضوا على ما وهبكم ربكم خاطئين، إن كل نعمة وهبت بمشيئة الله.
- إن أصابكم سوءاً فاصبروا واثبتوا في إيمانكم، لا تلووا ألسنتكم ولا تنثوا ركبكم، ولا تحنوا رؤوسكم ولا تسجدوا للشيطان الرجيم.
- أرشدوا الأعمى وأحسنوا إلى الفقير وإذا تهبون صدقة يا أصفياي لا تشهدوا عليها.
- إذا رأيتم جائعاً فأطعموه وإذا رأيتم عطشاً فاسقوه وإذا رأيتم عارياً فاكسوه.
- طوبى لمن وهب فإنه لمأجور، طوبى لمن كسا فيكسا أربية من نور، طوبى لمن أنقذ أسيراً فيستقبله رسل ملك النور.
- لا تقربوا الملوك والسلطين والمردة في هذا العالم ولا تتقوا بهم؛ لا بأسلحتهم، ولا بحشودهم، ولا تلووا أعناقكم للذهب والفضة التي يكنزون، إنها سبب كل فتنة، سيتركونها وراءهم يوم إلى النار يذهبون، يمسون

لظاها بأيديهم، وينفخون لهيبها بأفواههم، سوف يزول عنهم سلطانهم وتنتهي
ملاذاتهم، ولن يشفع لهم لا الذهب ولا الفضة التي كانوا يملكون.

- يا جميع الذين تسمعون نداء الله، حين تقومون وحين تقعدون، حين تذهبون
وحين تؤوبون، تأكلون أو تشربون، أو في مضاجعكم أو أنتم تعملون اذكروا
الله وسبحوه كثيرًا، هيئوا يردنا واصطبغوا، اصبغوا نفوسكم بالصبغة الحية
التي أنزلها عليكم ربكم من أكوان النور، والتي اصطبغ بها كل الكاملين
المؤمنين.

- باركوا بهئا (الطعام) وكلوا، وسموا ممبوها (الماء الحي) واشربوا تغفر
خطاياكم وذنوبكم.

- لا تأكلوا الدم، ولا الميت، ولا المشوه ولا الحامل ولا المرضعة، ولا التي
أجهضت، ولا الجارح، ولا الكاسر، ولا الذي هاجمه حيوان مفترس، وإذا
ذبحتم فاذبحوا بسكين من حديد.

- اطمشوا واغسلوا وطهروا واطبخوا وسموا (اذكروا اسم الله) ثم كلوا.

- أيها الرجال إذا اتخذتم لأنفسكم أزواجًا فاختاروا من بينكم وأحبوهن، وليحفظ
أحدكم الآخر، واعتنوا ببعضكم عناية العيون بالأقدام، ليحب بعضكم بعضًا،
وليتحمل بعضكم بعضًا، تعبروا بحر سوف العظيم.

- يا أصفيائي اسمعوا بما أوصيكم فإن لم تسمعوا أو سمعتم ولم تعملوا، ففي
الظلمة التي وقع فيها الأشرار تقعون، وأنهم باقون فيها لا يصعدون، أخوة
الجسد باطلون وأخوة كشط باقون، فكونوا يا أخوة الصدق على محبتكم لا
تبدلون، إن الاسم الأول قد ثبت سماتكم على هاماتكم، سمات الماء الحي
التي بها إلى بلد النور تصعدون.

- لا تبكوا موتاكم، ولا تقيموا عليهم الأحران، إن من مزق ثيابه على ميت فقد
دنسها ومن قلع شعرة على ميت فسيربط بجبل الظلام بحبل لا يبيد.

- كلما طالت أعماركم زادت خطاياكم، فلا تحزنوا على نشماتنا إذا فارقت هذه الدنيا فمن الحزن تولد الأرواح الشريرة فتسبق نشماتنا في عروجها ، وتضايقها في دار الحساب.
- من أحب موته فليطلب لأنفسهم الرحمة ، وأقيموا عليهم الصلاة والتسبيح ، واقرأوا الابتهالات وأقيموا مسقنا الرحمة من أجلها ، عندئذ يسير الضياء أمامها ، ويأتي النور وراءها ، ورسل الحي عن يمينها وملائكة النور عن شمالها ، فتتجو من دار الحساب ومن مراحل النار.
- علموا نشماتنا أن لا ترتاب قلوبها واسمعوها لغة السلام ؛ التسبيح الذي آتيتكم فتشهد قلوبها وتطمئن.
- طوبى لمن سمع وآمن أنه يصعد ظافراً إلى بلد النور.
- هبوا الخبز والماء والمأوى لبني البشر المتعبين ، وللمضطهدين ، وكونوا عادلين وتحابوا صادقين.
- يا أحبائي لا يبت عندكم أجر أجير ، ولا تسرقوا شريكاً ولا تنتقموا بغدر من صديق ، إن من يسرق صاحبه وشريكه لن ترى عيناه النور.
- إذا عاهدتم فابسطوا إيمانكم ، ولا تخونوا عهدكم ، إن الأثريين وملائكة النور يهبون اللوف والكشطا بعضهم بعضاً ، واعلموا أن معلمكم يعلمونكم كلمة الحق والحكمة فلا ترفعوا رؤوسكم عليهم ، وكونوا هادئين متواضعين ، واعلموا أن السحرة والمنجمين في الظلام قابعون فلا تقصدوهم.
- لا تحلفوا كذباً ، ولا تبدلوا إيمانكم ، ولا تأكلوا مال الربا ، وإن أقرضتم فلا تقرضوا سراً.
- يا أصفياي الصادقين والمؤمنين لا تزنوا ولا تفسقوا ولا تمل قلوبكم إلى غواية الشيطان ، إن غواية الشيطان ضلال مبين.

- كونوا أقوياء وثابتين ، فإن اضطهتكم فاحتملوا الاضطهاد إلى أن تقضوا آجالكم بعضكم لبعض مساندين ، ولا تغضبوا ولا تهتاجوا ، إن الغضب والهياج مملوءاً بوسوسة الشيطان ، فأطفئوا نار غضبكم بالإيمان.
- إذا رأيتم حكيمًا صادقًا فاقتربوا إليه ، وخذوا من حكمته ، وإن رأيتم حكيمًا شريرًا فابتعدوا عنه ما استطعتم ، إن حُكماء الشر من أتباع الشيطان.
- أيها المؤمنون ، أيها الكاملون أحبوا لأصحابكم ما تحبون لأنفسكم ، واکرهوا لهم ما تكرهوا ، واسمعوا وآمنوا وتقبلوا كلمات ربكم.
- انظروا بأعينكم ، وانطقوا بأفواهكم واسمعوا بأذانكم وآمنوا بقلوبكم ، واعملوا بأيديكم واعملوا بمشيئة ربكم ولا تعملوا بمشيئة الشيطان.
- لا يأسر نكم جمال الأجسام فجمالها زائل ، ولا تسجدوا للشيطان ، ولا لأصنام هذا العالم الزائف.
- كل من يولد يموت وقل ما يصنع بالأيدي يسير والعالم كله يفنى ، فأين سر الألوهية التي فيه إن كنتم تنتظرون.
- إن عكازتكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكلون فانظروا إلى ماذا تستندون.
- يا أصفیائي لا تعترضوا على أمر ربكم وكونوا صالحين ، وادعين متواضعين ولتكن فيكم التوبة ، تحلوا بالحنان والتسامح والرحمة أنهما من طبيعة النور.
- أيها الرجال الذين تتخذون نساءً أنجبوا ، فإن لم تتجبوا ذهبت نريتمكم ، لا تتخذوا الإماء أزواجًا ، ولا تلقوا بأبنائكم في بيوت الأسياد عبيدًا أن ذلك وزر عظيم.
- أيتها النساء اللواتي تكن للرجال حذار مما لا يرضى ولا يحسن لدى الناس ، الزنا والسرقة ، وإياكن وعمل السحر أنه من رجس الشيطان ، الزوجة الصادقة تهب الحب الصادق.

- لا ينفصل بعضكم عن بعض حتى تنتهي أعماركم ، ربّوا أبناءكم وهذبوهم ،
والحكمة علموهم واغرسوا في نفوسهم الإيمان ، دعوهم يسلكون طريق
الكشطا ، إن من لم يرشد أولاده ، ولم يعلمهم يحاسبه الله ، ومن سعى بهداية
أولاده فلم يهتدوا يحاسبهم الله.

- من أخطأ منكم فقوّموه وأسندوه ، فإن أخطأ ثانية فقوّموه وأعينوه ، فإن أخطأ
ثالثة فأرشدوه ، والصلاة والتسبيح لله أسمعوه ، فإن عصى واستكبر ، وأبى إلا
المنكر ، فاجتثوا هذه الكرمة من الجذور ، وازرعوا مكانها كرمة تعرف
طريق النور ، فقد قالوا له اسمع فلم يسمع وأروه نور الله فلم يخشع ، فسقط
في العذاب.

- إياكم والهزء بمعوق ، أو السخرية من ذي عاهة ، إذ قد تبلى بالأوجاع ولكن
نشمانا لا تهان ولا تزدري إلا بأعمالها.

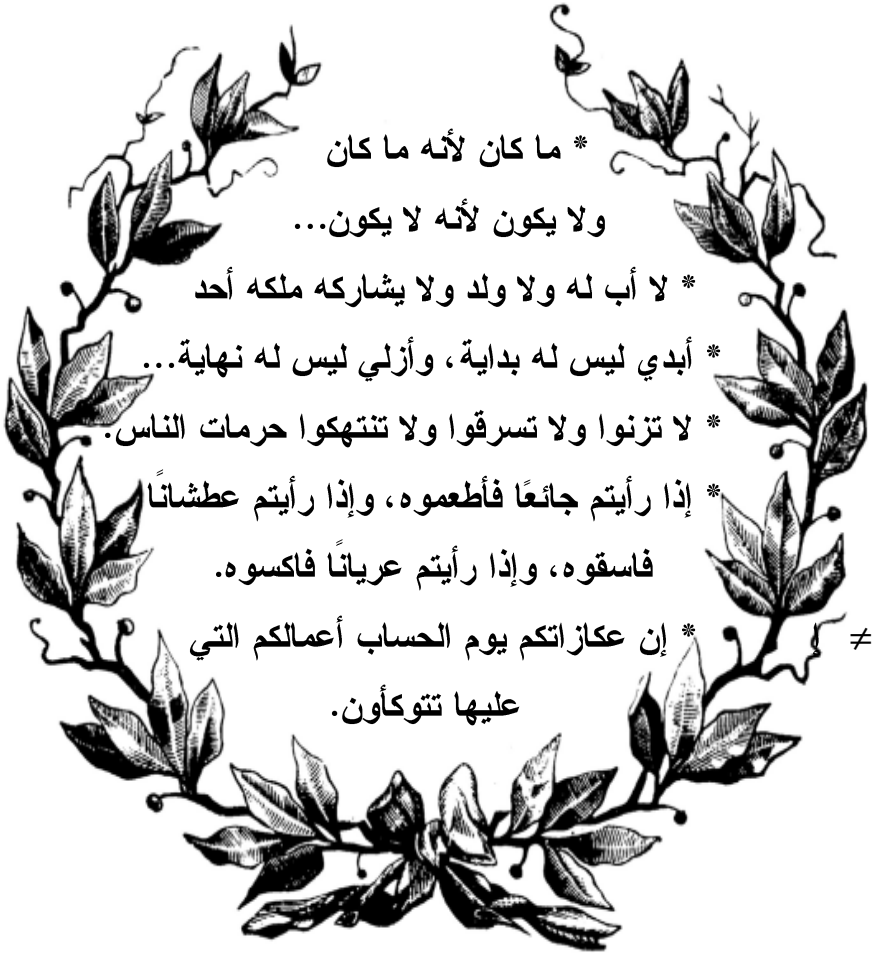
- يا أصفیائي أيها المؤمنون لا تمجدوا الشمس والقمر ، هو الله الذي أمر فكان
لهما وللكون هذا الضياء ، لكي ينبروا به الظلماء فإذا نادى الحي العظيم
سقطت كلها في قرار بهيم.

- يا أصفیائي البسوا الأبيض واكتسوا الأبيض ، ألبسة الضياء وأردية النور
واعتموا بعمائم بيض كالأكاليل الزاهية ، وامتنقوا بأحزمة الماء الحي التي
يمتطق بها الأثريون ، وانتعلوا واحملوا بأيديكم صولجانات مثل صولجانات
الماء الحي التي يحملها الأثريون في بلد النور.

- أيها الصادقون لا تقولوا ما لا تعرفون ، ولا تدعوا الوحي فلا يوحى إلى
الحي العظيم ، سلحوا أنفسكم بأمضى من الحديد ، سلاح ناصورنا وكلمات
ربكم الصادقة ، ليشر بعضكم على بعض بالحسنى ، إنكم كما تتقذون تتقذون ،
ولا تكونوا كالنبت الرديء ، يشرب الماء ولا يعطى الثمر.

هذه بعض وصايا رب العالمين لعباده الصالحين ، معظم المندائيين يلتزمون بها
لأنها طريقهم إلى عالم الأنوار ، وهم يعلمون أن الدنيا فانية والجنة باقية ، وأن

الله غفور رحيم، ويعلمون كلما كثرت الصالحات وكلما عمل الإنسان في حياته خيراً والتزم وصايا ربه وطبقها في مسيرة حياته يعيش حياة ثانية في عالم الأنوار كما يعيش الملائكة الأثريين، ورغم قسوة الوصايا وصعوبة تطبيقها بالحياة، ولكن نجد أن الصابئة المندائيين قوم مسالمون لا يأخذون إلا حقهم فما دون، يخافون الدم والقتل ويجتنبون السرقة والزنا والكذب على قدر ما يقدرُونَ ولهذا ترى أن الجميع يحبهم ويأنس إلى صداقتهم ويثق بهم ولكل قاعدة شواذ.



البحث الثاني

الخلق والتكوين عند الصابئة المندائيين

تعلمنا الكتب المندائية كيف بدأت الحياة وكيف تطورت وفقاً للتالي :

١- من الحي العظيم المنتشرة أضواؤه وبقدرته تعالى صار يردنا ذو الماء الحي الذي بدأت منه الحياة وقومت نفسها في عالم الأنوار فكان الأثريون الذين لا عدد لهم ولا حدود يحيون في أثير الضياء العظيم الذي كون الحرارة الحية ومنها كان النور (خلق عالم النور).

٢- عندما ذاب الجليد بعد أن حلت الحرارة الحية كان هناك خلايا أحادية حيّة تعيش داخل جففات في كهوف في أعماق المياه حملتها المياه الجارية، وبمرور الزمن وبمساعدة الحرارة الحية التي وهبها الحي العظيم والماء الحي الجاري والنور فقومت نفسها وتطورت وتعقدت واتخذت أشكالاً وأجناساً كل حسب بيئتها ونوع تطورها (تصور علماني مادي).

٣- قال الله عز وجل قولاً فكان آدم وحواء على هيئة إنسان جميل ، ومنهم ذرية آدم التي انتشرت في المعمورة عبر الأزمان (خلق العالم الأرضي)... في البدء وهب النداء لآدم ، آدم رأس الذرية الحية ، كانت كلمة واحدة وشهادة واحدة ، بعدها أخذ العالم بالسيف والوباء ، فأذن لنشمانا (النفس والروح) أن تخرج من أجسادها إلى عالم النور ، ويبقى رام وزوجة رود فيحيا بهما العالم.

بين آدم ورام ثلاثون جيلاً ثم يؤخذ العالم بالحريق والنار ، ويبقى شورباي وشرهبيل بينهم وبين رام ورود خمسة وعشرون جيلاً... ثم يؤخذ العالم بالطوفان ويبقى نوح وسام بن نوح وزوجته نهوريثا ، خمسة عشر جيلاً بين نوح وشورباي ، ويتكاثر الناس من الرجل سام وزوجته نهوريثا إلى أن بنيت أورشليم ستة أجيال تعد ألف من السنين ، وتذكر لنا الكتب الدينية أن العالم عند نهايته سيأخذ بالريح العاتية ، والله أعلم متى وكيف؟!.

(أمر الحي العظيم الملك الأثري بئاهيل قائلاً له : اذهب إلى عالم الظلام المملوء كله بالشر ، بالغائلة ، بالنار الآكلة ، عالم الفتنة المضطرب ، عالم الغش والكذب المزروع بالشوك والعليق ، اذهب إليه وبأمري سيطر عليه ، ابسط الأرض وارفع السماء وعلق فيها الكواكب ، صب الشمس ضياءً من ضيائي والقمر بهاءً من بهائي والنجوم سناءً من سنائي ، والماء مذبوبةً والنار أنساً ، ولتبدأ بأمري الحياة).

(كون بأمري الثمار والأعناب والأشجار ، يبتهج بها العالم ، وليكن رجل وامرأة ، أسماها آدم وحواء ليسجد لهما ملائكة النار ومن عصي فمصيره النار وليكن ملائكة النور أنساً لآدم).

(قال ملك النور السامي قوله نزل الملك بئاهيل فرفع السماء وبسط الأرض ونادى ملائكة النار ، وهبته الشمس ضياءً وهبته القمر بهاءً والنجوم سناءً ورفعت كل إلى مدار وتكونت العواصف والماء والنار ، وتكونت الثمار والأعناب والأشجار وكون الحيوان الأليف والوحش الكاسر ومن التراب والطين الأحمر (الصلصال) والدم والمرارة ، ومن سر الكون جبل آدم وحواء ، وحلت فيهما نشمئاً بقدرة ملك النور).

(قال الحي فيي علاه ليسجد ملائكة النار لآدم لا يخالفون له قولاً : فسجد إلى الشرير فقد أبى ، فأسره ربه أسراً).

(أمر الحي العظيم الرسول الطاهر الملك مندادهيي اذهب يا مندادهيي وعلم آدم ليستنير قلبه وقومه ليستنير عقله ، علمه وزوجة وذريته الحكمة كيلا يغويهم الشيطان علمهم الوصايا كلها وازرع بأمري فيي قلوبهم الإيمان... يا مندادهيي قال الخالق عز وعلا "علمهم الصلاة مسبحين لملك النور السامي ثلاث مرات في النهار ، ومرتين في الليل ، وقل لهم اتخذوا لأنفسكم أزواجاً وتناسلوا منكم ليزداد عددكم ، وإذا تقرّبون أزواجكم طهروا نفوسكم بالماء الجاري"... قل يا عبادي لا تزنوا ولا تسرقوا ولا تنتهكوا حرمانه الناس والوصايا كثيرة).

أمر الحي العظيم جلت قدرته الملاك منداهي أن يعلمه الإيمان والوصايا الربانية كلها ، كذلك أمر رب العظمة الملاك منداهي (كبارزيوا) أن يعلم الملائكة الأثريون عندما يعود إلى الأنوار ، قال الحي العظيم في علاه وهو مستوٍ على عرشه ما سنقوله تكريم لك ، فاسمع :

(لا حد للنور ، لا يوجد حد للنور ، ولا يدري متى صار ، ما صار إذ لم يكن النور ، ما صار إذ لم يكن الضياء ، ما صار إلا بوجود الحي العظيم ، وما صار حد للنور ، ما صار لأن الماء ما كان قد صار .

الماء من الظلام أقدم... الأثريون أقدم من الظلام ، وأقدم من المقيمين فيه ، الخير من الشر أقدم ، الهدوء من العصيان أقدم ، الدفء الحي من الحمى الآكلة أقدم... التسبيح من السحر والشعوذة أقدم ، إنما الشر والعصيان والحمى الآكلة والسحر والشعوذة رجس من بلد الظلام.

يردنا الثالث أقدم من مياه بلد الظلام الآكلة ، الفكر أقدم من عمل أشرار بلد الظلام ، صوت الأثريين أقدم من شياطين بلد الظلام ، قال الملاك منداهي (جبرائيل الرسول) عارف الحياة: سألني ربي كيف صار الظلام ومم جبل؟ ولم لا يبطل الظلام والنور قائم من البدء إلى المنتهى؟ قال الملاك منداهي قبل أن أفتح فمي، قال لي العظيم، العظيم بنفسه قال :

أيها الأثري المرتب

أيها الأثري المنظم المرتب

المتبث أعباءه

الصالح لا عوز في صلاحه، لا نقصان

الصالح في صلاحه مغروس

وهو متقد في ضيائه

المياه مخفية في ألبيتها

الكلمات الخفية مخفية ومصونة في أسفارها

الماء لا يمتزج بالقار
والظلام على النور لا يحسب
لا يحسب الظلام على النور
الدار المظلمة لا تتير
والمياه العكرة لا تبهج
والظلام لا يتسع وساكنه مجبول جبلا
الظلام مجبول جبلا
إنه في كنه ذاته يستتر
وكل ما ينتج عنه باطل
أبناء الظلام باطلون
وأبناء المعظم باقون
بيوت الشر باطلة
تنطفئ حرارتها الآكلة
سحرهم ينطفئ ويزول وأعمالهم تحول
وسلالة الحي هي الباقية
قال لي العظيم ربي قوله هذا فاستقر قلبي ، ونطقت بقوة ربي ، أسبح للعظيم
ربي ، وأوشكت أن أقول أيها الصالحون
مادام الشر ليس ببالعكم
فلماذا أذهب إليه ؟
قبل أن أنطق سمعت الحي العظيم يقول :
قم وانزل إلى العالم
بقوتك أنت سيكون الأثريون
والعظام بتألفك سيثبتون

سمح لي العظيم بعظمته أن انشر الضياء ، العظيم سمح لي أن أنشر النور ، وأن
أنشر الضياء ، ووهبني الظفر ، ووهبني مركنا المياه الحية ، وتوجني بإكليل
الحرارة الحية.

وذهبت بقوة الحي العظيم إلى بلد الظلام ، إلى حيث الأشرار يحلون ، إلى الدار
التي كلها مفسدون ، فنشرت عليهم حكمة العظيم :

الصالح بصلاحه يصعد إلى بلد النور

والشرير بشره يقف على أبواب الظلام

ربنا إننا أخطئنا وأذنبنا فاعفر لنا خطايانا وذنوبنا إنا تائبون ، وإنا لكيوننتك
خاضعون .

قلت إلى أن يشاء الحي ربي وينادي جبرائيل الرسول ويرسله ليكون العالم .

سوف يكتف الأرض ، ويمد الرقيع ، ويهيئ حدودًا للأكوان ، وسيأتي ثلاثة
أثريون ، بصوت الحي ينادون ، ثم يأتي أثريان إلى منبع المياه يمشيان ، فيقيمان
يردني في العالم ، يردنا في العالم يقيمان ، والبهاء به يحلون ، وشتلات مباركة
يشتلون ، فيمتلئ كل شيء بالحكمة والإيمان... يا مناداهي علم آدم كذلك
الحكمة والإيمان .

خلق الحياة على الأرض :

بعد أن تكتفت الأرض وتصلبت ، وبعد أن اكتمل تكوينها ، حان لنا الآن أن نعرف كيف أصبحت مهياة لاستقبال الحياة بأنواعها النباتية والحيوانية والبشرية، وما هي مكانة الإنسان بين المخلوقات.

من خلال مطالعتنا للنصوص المندائية نجد أن الأرض كروية الشكل تحيط بها المياه ، وفعل بئاهيل فتكتفت الأرض والعالم كله كان ، وعند ذاك أحاط الماء العكر بدائرة العالم ، وتخبرنا النصوص المندائية أن قطر الأرض يبلغ اثني عشر ألف فرسخ دانية كانت الكثافة الثانية، وبهذا اتخذت الأرض مساراً لها حول الشمس حيث يحدث تعاقب الليل والنهار ، تغيب الشمس ويبرز القمر ويعم الظلام ، إن في تعاقبهما تقويم تحسب به الأشهر والأيام ، وتعد الشمس المصدر العظيم للطاقة التي تعتمد عليها الحياة بكل أنواعها ، كما أنها مصدر لإتارة الأرض التي يلفها الظلام.

يقول الملاك منداهي ثوباً واحداً تركت لهم ، إن يأمر بئاهيل أحدهم فينير في هذا العالم دون انطفاء ، لم أترك لهم سوى هذا الضياء ، فالشمس غازات ملتهبة ، أما القمر فتذكر النصوص المندائية أنه تكون من الأرض ، حيث أصبح تابعا لها لينير ليل الأرض ، قال يا أبي القمر صار من الأرض ، وإتقانه من إتقان سام زيوا العظيم ، وعلى هذا فإن الأرض قد تمّ بناؤها وإتقانها وأن القمر قد وجد لحساب الزمن ، والشمس وجدت لخدمة بني البشر ، قال هذا البيت بقوتي بنيته ، وهذا الهيكل بمعجزاتي أتقنته ، لحساب الزمن وهبت القمر ، وهبت الشمس لخدمة بني البشر ، ثم تكونت العواصف والماء والنار .

فالرياح إذن مصدرها الأرض وهي من العناصر المهمة لاستمرار الحياة على الأرض ، يا أبي الرياح من الأرض ، وقوتها من قوة الظلام ، وطبيبتها من طيبة الأثير ، أما الماء فنستطيع أن نقول إن لا حياة بدون ماء ، اسقها ماء حياً بهيجاً ، فمصدر المياه الأرض وهو يحيط بها ويشكل نسبة ٧٠% من مساحتها ،

تؤكد النصوص المندائية أن الماء كان غير مستساغ فأرسل الحي العظيم جلّت قدرته، مندادهي ليطيب الماء وذلك بخلطه بالماء الحي.

قال مندادهي لآنوش الصغير : حين أرسلني الحي العظيم إلى هنا علمت أن المياه هنا لا تعذب ولا تطيب فقلت للحياة العظمى أنت ترسليني لمناداة هذا العالم فيسمعون صوت الحي ويصعدون ، فماذا أبنأؤه يشربون ؟ وتعليم الحي كيف يسمعون ؟ فقالت لي الحياة العظمى قف على منبع الحياة واغترف غرفة ماء حي ، القها على المياه الآسنة فتطيب ، يشرب منها الشارب فلا يستريب ، قل لتورئيل الأثري افعل ذلك تجد المياه تصفو هناك.

أما النار فهي الحرارة الكامنة في الأرض وبعض مظاهرها الانفجارات البركانية ، فالنار مصدرها الأرض ، قال يا أبي النار من الأرض كيانها ، ومن السبعة لها كيان ، أما قدرتها فمن قدرة الشيطان... والآن وقد اكتملت العناصر المهمة للحياة (الهواء والماء والشمس والنار ، إضافة إلى التراب) ، أصبحت الأرض مهيأة لاستقبال الحياة بكل أنواعها.

ويعلمنا الكتاب السابع عشر - التسبيح السابع - الخلق من أن الخالق العظيم قد أمر ابثاهيل أن ينادي بثلاثة أصوات ، بالصوت الأول تتكثف الأرض وتتبسط السماء ، بالصوت الثاني يتفرق الماء ، وبالصوت الثالث تنهض الأشجار وتطير الأطيوار وتسبح الأسماك في البحار ، وتمتلئ الأرض بالحيوان من جميع الألوان ، فبدأت الحياة النباتية لتوفر الظروف المناخية المناسبة فظهرت الأعشاب وتكونت الأشجار والأثمار والأعشاب ثم ظهرت الأطيوار وكل أنواع الحيوانات.

ثم جاء الأمر إلى ابثاهيل من الخالق العظيم أن يكون الإنسان فكان وهو يقف على قمة الترتيب الهرمي بالنسبة للحياة على الأرض ، وهو بهذا يعد أعظم إنجاز إلهي ، (ليكن آدم ملكاً للحياة الدنيا يكون ، سمعت الملائكة وأتمرت ثم اتفقت ، قالت ليكن آدم واحداً منا سيكون) لقد تمّ خلق الإنسان بشكل كامل وتام

من ناحية الجسد والعقل ، وإن الحضارة الإنسانية التي ينتجها تواصل تقدمها باستمرار ، إن جميع أنواع الحياة على الأرض تتطور وأن الإنسان يواصل مراحل تطوره بوتائر متقدمة وغير منتهية ، (وهيئ آدم كما الحي العظيم أمر) ، (فمن آدم سيكون المختارون الذي إلى بلد النور يصعدون) ، لقد استطاع الإنسان معتمداً على إدراكه وقدرته أن يفيد من ظروف بيئته مما جعله متميزاً في عملية التطور على الأرض ، إن في خلق آدم وحواء حكمة إلهية ، فبخلقهما تمت المعجزة السماوية ، وذلك بهبوط النفس إلى جسد آدم الإنسان ، وهي هبة الله إليه ، فأصبح أرقى المخلوقات ، (ليكن لك مقام بأمرى ، وذرية تسري ، وماء يجري).

وخير ما اختتم به هذه المقالة هو نص من نصوص الكتاب المقدس كنزا ربا - الكتاب الخامس عشر - مواعظ للمندائيين الذي يشمل على كامل هذا الموضوع وباختصار :

(مباركة السماء بنجومها الالامعة ولكواكبها الساطعة ، بالشمس ذاتة الضياء ، والقمر ذي البهاء ، مباركة الأرض بمائها ، مباركة بهوائها ، بآدم وحواء وبينهما أجيالهما ، وبالرسل والأنبياء والكاملين المؤمنين الأصفياء ليغمرهم النور وزوجاتهم وبنيتهم وبناتهم ، وليبارك مقتنياتهم ومبيعاتهم ومشترياتهم وزرعهم وضرعهم وليكن منقادهم سداً لهم في عالم الأشرار هذا).

مبادئ الدين والتهذيب المندائي :

بسم الحي العظيم (خالق كل شيء) والحي مزكي (كنزا ربا) كتاب اليمين ،
صفحة ٢ النص الديني ١٨ ، بسم الحي العظيم (صانع كل شيء جميل) والحي
مزكي (كنزا ربا) كتاب اليمين صفحة ٢ النص الديني ١٩ ، بسم الحي العظيم
(بأمرك كان كل شيء ، وبأمرك خلق كل شيء) ، والحي مزكي كنزا ربا ، كتاب
اليمين صفحة ٨ النص الديني (٢٤ - ٢٥) ، باسم الحي العظيم (يا رب الأكوان
جميعاً) والحي مزكي ، كنزا ربا ، كتاب اليمين صفحة ١ ، النص الديني ٥ .

من هذه النصوص يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق للسموات والأرض
وما فيهن المتصرف في الكون بقدرته ، وأثبتته العقل إثباتاً لا يقبل النقض أو
الرد ، فإن هذه الموجودات العظيمة كلها من الممكنات التي لا بد لها من موجد
جليل الشأن عظيم القدرة ، وأن يكون موجدها متصفاً بصفات الكمال منزهاً عن
النقص ، ومن بعض صفات الله تعالى : القدم ، البقاء ، الحياة ، العلم ، الإرادة ،
القدرة .

١ - القدم : وهو عدم الأولية أي أنه تعالى لا أول لوجوده لأنه جل شأنه مصدر
جميع الممكنات وموجد الموجدات فلا بد أن يكون سابقاً عليها لا يتقدمه تعالى
شيء ، وقد أثبت الله تعالى لنفسه هذه الصفة بقوله : باسم الحي العظيم (الأول
منذ الأزل ، خالق كل شيء) والحي مزكي (كنزا ربا) ، كتاب اليمين صفحة ٢ ،
النص الديني ١٨ ، باسم الحي العظيم (موجود منذ القدم ، باق إلى الأبد) والحي
مزكي (كنزا ربا) كتاب اليمين صفحة ٣ النص الديني ٣٧ ، بسم الحي العظيم
(بأمرك كان كل شيء وبأمرك خلق كل شيء) ... والحي مزكي ... كنزا ربا ،
كتاب اليمين صفحة ٨ ، فهو سبحانه وتعالى الأول قبل كل شيء والقديم الذي لم
يسبقه أحد ، والأزلي الذي لا بداية له والآخر الذي لا انقضاء له ولا فناء ،
والدائم الذي لا يلحقه العدم ولا يعتريه الزوال بسم الحي العظيم (خالد فوق
الأكوان ، لا موت يدنو منه ولا بطلان) والحي مزكي (كنزا ربا) .

كتاب اليمين صفحة ٢ النص الديني ١٤ وبسم الحي العظيم (خالق كل شيء جميل) والحي مزكي (كنزا ربا) الكتاب اليمين صفحة ٢ النص الديني ١٨ ، والظاهر الذي ظهر للخلق بما أودعه فيهم من عجائب الخلقة وبديع الحكمة والباطن الذي خفى على العقول ، إدراك حقيقته فلا مجال لها في إدراك هذه الغاية لأن عظمته تعالى غير متناهية ومدارك العقول البشرية بالنسبة إلى عظمته تعالى أنه المحيط بكل شيء والعالم بكل شيء ، بسم الحي العظيم (هو العظيم الذي لا يرى ولا يحد) والحي مزكي (كنزا ربا) كتاب اليمين صفحة ١ - ٢ ، النص الديني ١٠ .

٢- البقاء: (الله) سبحانه وتعالى هو الاستمرار إلى غير نهاية أي أنه تعالى لا آخر لوجوده فلا يلحقه العدم والفناء فهو باق إلى غير نهاية ، دائم الوجود من غير غاية إليه ، مرجع جميع الكائنات ومنتهى مصير هذه المخلوقات والفناء والزوال من أخص أوصافه... بسم الحي العظيم (كل من يولد يموت ، وكل ما يصنع بالأيدي يفسد ، والعالم كله يفنى ، فأين سر الإلهية التي فيه إن كنتم تنظرون) ، والحي مزكي (كنزا ربا). كتاب اليمين ، صفحة ٢١ النص الديني ١٨٧ .

يشير النص الديني أعلاه إلى أنه تعالى باق لا فناء له مستمر الوجود لا آخر له قيوم لا انقطاع له ، دائم وإن كل شيء موجود ماله ومصيره إلى الهلاك والزوال والعدم إلا ذاته تعالى فإنه لا يلحقها العدم ولا يتطرق إليها الزوال بل هو الباقي بعد فناء خلقه ، وله القضاء والحكم النافذ فيهم يرضى بما يشاء ويحكم بما يزيد ، وإليه مرجع جميع الخلائق يحكم فيهم بفضل قضائه ليجزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته لا رب غيره ولا معبود سواه ، بسم الحي العظيم (هو النور الذي لا ظلمة فيه ، الحي الذي لا موت فيه)... والحي المزكي (كنزا ربا) ، كتاب اليمين ، صفحة ٢ النص الديني ٢١ .

بسم الحي العظيم (إن عكازتكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكأون ،
فانظروا إلى ماذا تستندون) والحي مزكي (كنزا ربا) كتاب اليمين صفحة ٢١
النص الديني ، ١٨٨

٣- الحياة: بسم الحي العظيم (هو الحي العظيم) والحي مزكي (كنزا ربا) كتاب
اليمين ، صفحة ١ النص الديني ١ ، إن الاستفادة من هذا النص الديني إثبات
صفة الحياة الحية لله جل شأنه وكذلك أن الله سبحانه وتعالى المنفرد بالحياة
الذاتية الأزلية التي لا يلحقها عدم بحال ولا يقضي عليها بالانقضاء والانفصال
وأنه لا معبود بحق إلا هو ، فلا موجود يدانيه ولا ند يساويه ، فهو أحق لمن
أخلص له العبادة وأولى لمن أفرغ الجهد في الحمد له لأنه هو المستحق لذلك
دون غيره الذي تذلل الخلائق لعظمته وتخضع لسلطانه وتتسلم لمشيئته القائم
بتدبير خلقه الحافظ لنظامهم العادل الذي يجازي على الإحسان إحساناً ،
والإساءة بما تستحق من عقاب.

بسم الحي العظيم (هو الحي العظيم ، مسرة القلب ، وغفران الخطايا) والحي
مزكي (كنزا ربا) ، كتاب اليمين صفحة ١ النص الديني ٤ ، بسم الحي العظيم
(طوبى لمن سمع وآمن انه يصعد ظافراً إلى بلد النور) ، والحي مزكي (كنزا
ربا) كتاب اليمين ، صفحة ١٨ النص الديني ، ١٦٠

٤- العلم: الحي القيوم يعلم بعلمه كل شيء كائناً ما كان في السماوات أو في
الأرض ، في البر والبحر ، خفي أو ظهر ، كبر أو صغر ، حيث جاء في النص
الديني باسم الحي العظيم (هو الحي العظيم البصير القدير العليم) ، والحي مزكي
(كنزا ربا) كتاب اليمين صفحة ١ النص الديني ١ ، وأيضاً هذا ما جاء به كتابنا
الكنزا ربا مبارك اسمه من نصوص دينية في كتاب اليمين الغفران ، صفحة
(٣٢ - ٢٩) ، وأن الحي القيوم لا يخفى عليه أي شيء في الأرض ولا في
السما ، فهو جل شأنه يعلم الأشياء على اختلافها وأنواعها وأجناسها وكثرة
أفرادها ، بل لا تسقط ورقة من أي شجرة كانت ولا توجد حبة صغيرة في

ظلمات الأرض وبطونها التي يخفى فيها أكثر الأجسام لاتساعها وعظمتها ، بل ولا أي شيء رطب ولا يابس إلا وعلم الحي القيوم محيط به وشامل له لا يخرج عن دائرته فسبحان من إله عليم حكيم خبير .

ونشير مجددًا إلى النصوص الدينية الموجودة في كتابنا الكنزا ربا مبارك اسمه كتاب اليمين الغفران ، بأن الحي القيوم عليم بكل شيء وأنه يراقب أعمالنا وأفعالنا سبحانه وتعالى لا تخفى خافية عليه ، إنه يعلم بالقلوب فلا يخفى عليه سر من الأسرار ، إنه من أوجدنا وأنه الموجد ، فعلينا طلب الغفران منه ليسامحنا على أعمالنا وخطايانا إنه الغفور الرحيم .

٥- الإرادة: باسم الحي العظيم (ولا تعترضوا على ما وهبكم ربكم خاطئين ، إن كل نعمة وهبت بمشيئة رب العالمين) والحي مزكي (كنزا ربا) كتاب اليمين... صفحة ١٢ النص الديني (٢٧-٢٨).

باسم الحي العظيم (لا تعترضوا على أمر ربكم وكونوا صالحين وادعين متواضعين) والحي مزكي (كنزا ربا) كتاب اليمين ، صفحة ٢١ النص الديني ١٨٩ ، باسم الحي العظيم (لا شريك له في سلطانه ، ولا صاحب له في صولجانه) والحي مزكي (كنزا ربا).. كتاب اليمين صفحة ٢ النص الديني ١١ ، تشير هذه النصوص الدينية إلى أنه تعالى صاحب الملك الحقيقي المتصرف فيه بما يشاء أن يذله ، كل ذلك بمحض إرادته واختياره ومشيئته من غير ممانعة من الغير ولا منازعة لأنه تعالى هو القاهر فوق عباده وبيده الخير يتصرف فيه وحده حسب مشيئته لا يتصرف فيه أحد غيره ولا يملكه أحد سواه، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، وكذلك في النصوص أعلاه أن ملك السماوات والأرض له تعالى من غير منازع ولا مشارك يتصرف فيه كيف شاء بما شاء بمقتضى إرادته ومشيئته، فيهب الأرزاق أو يخص بعض بالذكور وبعض للإناث وبعض بالصنفين جميعًا ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولدًا لا ذكر ولا أنثى لأنه جل شأنه عليم بالمصلحة، قدير على ما يشاء لا يسأل عما يفعل .

٦- القدرة : إن العقول الإنسانية تقف مذهولة على أن الذي أبدع هذا العالم وأبرزه من العدم إلى الوجود ونوعه إلى هذه التنوعات العجيبة الغريبة من (سماوات وأرضيات جمادية ، الماء والإنسان والحيوان والنبات... إلخ من مخلوقات)، كل ذلك بمنتهى الدقة والإتقان هو الحي القيوم وحده لا سواه وبأمره وحده، ولو ذكرنا طرفاً من هذه المبتدعات المتناهية في الأحكام والإتقان لدل دلالة واضحة على أن عظمته وقدرته لا تحد وأن كل عظمة في جنب عظمة الحي القيوم لا تقارن ولا أي شيء يذكر ونرى الإنسان إثبات على قدرته تعالى كيف تكوينه ليكون إنساناً حساساً نامياً سميعاً بصيراً متكلاً مدركاً شاملاً لامساً عاقلاً حكيماً يجول فكره في كل شيء ويتصرف في كثير من الكائنات في هذا العالم، ذا أعضاء مختلفة وطباع متباينة وجعله قسمين متقابلين ذوي نسب، أي ذكور ينسب إليهم فيقال (فلان بن فلان) و(فلانة بنت فلان)، فتبارك الخالق العظيم الذي ينشئ هذا المخلوق العجيب والمصنوع البديع إنه الحي الأزلي، الحي القيوم.

ونذكر طرفاً آخر من هذه المبتدعات المتناهية في الأحكام والإتقان ، هذا الحيوان الذي بلغ في الصنع أعلى منازل الغرابة وأسمى درجات الأحكام لو تأمل فيه ما انطوى عليه من غريب التكوين وبديع الصنع وما اشتمل عليه من الأعضاء الظاهرة والباطنة ووظيفة كل عضو منها واختلاف أبنيتها ودقائق صنعها ، وعلى الفوائد الجمّة والمصالح التي بنيت على الحكمة لانبهر منه العقل ولتحير منها الفكر والفهم ، على اختلاف أنواعها فسبحان الله الحكيم الخبير القادر القاهر.

والإبداع الآخر النبات الذي اشتمل على الغرائب والعجائب بما أودع فيه من النظام المحكم والأسرار والحكم، بينما نرى بذوره حبوباً يابسة عديمة النمو والحياة، إذ نراها دخلت في تركيب النباتات فانقلبت جسماً نامياً متغذياً مكتسباً خواص لم تكن له من قبل ثم ينظر في ذلك الجسم النباتي فيرى من جهة عديم الإرادة فاقد الإدراك أشبه بالجماد وينظر إليه من أخرى فيرى قد امتد بعروقه

في بطن الأرض لتناول الغذاء ، وأن النباتات كثيرة أنواعها واختلاف أشكالها وأثمارها وروائحها ، إنها تتغذى بتربة واحدة وتسقى بماء واحد وتمتص ما يلزمها من هواء واحد ، فسبحان الله الحكيم القادر العليم ، ولا ننسى الأرض وما اشتملت عليه من بر وبحر وما في كل منهما من الغرائب والعجائب مما هو أوضح دليل وأقوى برهان على ما لصانعه من باهر القدرة وعظيم الحكمة.

البحث الثالث

آدم وحواء وذريتهما

بسم الحي العظيم:

(قال ملك النور السامي قوله فكان كل شيء ، نزل بثاهيل فرفع السماء وبسط الأرض وناذى ملائكة النار وهببت الشمس ضياء ، ووهبت القمر بهاء والنجوم سناء ، ورفعت كل إلى مدار وتكونت العواصف والماء والنار وتكونت الثمار والأعشاب والأشجار وكون الحيوان الأليف ، والوحش الكاسر ومن التراب والطين الأحمر ، والدم والمرارة ، ومن سر الكون ، جبل آدم وحواء... وحلت فيها نشمًا بقدره ملك النور)... والحي المزكي.

أمر الحي العظيم الملاك بثاهيل أن يجبل آدم ، فصوروا آدم وعلى الأرض مددوه ولكن آدم لا نفس فيه ، استعانوا بالأثير لعل إذا تسرب إلى عظامه بالمخ تتغلل القوة إليه فيقف منتصبًا على قدميه...

وبوميض النار استعانوا وبكل بخار الأنهار وبكل دخان النار بعد أن أطفأوها ، حاولوا أن يولجوها في بدنه المسجى على الأرض ، لعل كفيه تتقبضان ، لعل جناحيه يخفقان ، لعل الغضب يعصف بجناحيه ، فيقف منتصبًا على قدميه ، ولكن دون فائدة ، فصعد الملاك بثاهيل إلى عالم الأنوار وطلب من الخالق الجبار... منحه الحي العظيم اسمًا حيًا به تكلم ، وبعمامته النورانية الطاهرة لف السرّ الأعظم وأمر الحي العظيم الملائكة أن تحرس النشماثا ، ويبقى الملاك بثاهيل جاهلاً كيف النفس إلى الجسد هبطت.

وأمر الحي العظيم الملاك منداهي كبير الملائكة الأثريين أن يلج نشماثا في جسد آدم وليس سواه ، فامتألت عظامه ونطقت فيه إشعاعية الحي ففتح عينيه

واتخذ الملاك مندادهي بأمر الحي العظيم هيئة آدم لكي لا يخاف ولا يفرح ،
وعلمه كل ما قال له الحي العظيم في علاه :

(ها أنا ذا يا آدم أمتلي عطفاً عليك ، ليكن لك مقام بأمرى وذرية تسري
وماء يجري ، وحين يتم آدم مهمته في هذا العالم يصعد إلى عالم النور
ليعود إلى مثيله أدكاس زيوا (آدم الخفي) ليحيا حياة ثانية ملاكاً فيها).

قال الحي وهو مستوٍ على عرشه بين أنواره :

(ليكن الموت من نصيب أهل الدنيا

أن آدم عاش ألف عام

فليخرج من جسده قبل أن يشيخ

وقبيل أن توهنه الأسقام

ونفذ الصوت

نحن نسميه الحق وأنتم تسمونه الموت).

أمر الحي العظيم الملاك صورئيل (عزرائيل) (انزل يا صورئيل إلى عالم الشر
والنقصان ، ناد آدم وعلمه الحكمة والإحسان ، قل له : كنت أحرص فأنطقناك ،
وأصم فأسمعناك ، وجاهلاً فعلمناك ، ومستوحشاً فأنسناك).

قل له عشت ألف عام وأن لك أن تترك بلد الشر والآثام وتعود إلى بلد النور
والسلام لا تعجز فتضام ، ولا تهرم فتسام ، غضب آدم وأربدت سيماء ، ثم
امتألت بالحن حزناياه ، واغرورقت بالدمع مقلتهاه ، واعول وبكى ، وعلى
الأرض ارتمى ، وطوح بساعديه ، وضرب أضلاعه بيديه... وخاطب خالقه لم
أقض في هذا العالم سوى ألف عام ، وأتمنى أن أعيش فيه ثانية ألف عام.

وصعد الملاك صورئيل سائلاً أمام الحي العظيم ، الحي الأزلي القديم ، قال ربي
أنت بكل شيء عليم ، أن آدم قد طاب له المقام في ذلك العالم وهو يلتمس من
خالقه وباريه أن يطيل بقاءه فيه.

قال رب الجلالة في علاه يا صورئيل قل لآدم لا نريدك أن تهرم وأن تعجز فتظلم، قم يا آدم فمت كأنك لم تكن، لا تضعف ولا تهن.

طلب آدم من خالقه أن يفديه ولده شيتل لأنه أبن ثمانين عام ما عرف امرأة وليس له بنت أو غلام وبأمر من الحي العظيم ذهب الملاك، صورئيل إلى شيتل بن آدم، فنزع شيتل جذع اللحم والدماء ولبس جذع النور والضياء، واعتمر العمامة النورانية الطاهرة، والثياب النورانية الباهرة وصعد إلى عالم الأنوار يحيط به الأثريون والأبرار، فتقاذفت شيتل رياح المعراج وصعد بين الرجم والسديم حتى وصل عالم الأنوار ليحيا حياة ثانية فيها، وطلب شيتل أن يراه أبوه في أي مقام أجلسوه، قال آدم لولده شيتل يا ولدي لا تسبق أباك، عد أنت وأذهب أنا هناك فقال أيها الشيخ الغرير، أيها العجوز الكبير، أرأيت قبلي جنينا يولد ثم يعود لبطن أمه؟.

وانقضت ألف عام، وأتى رسول الحي إليه، يا آدم قم واخلع ثوب الطين الذي أنت فيه، فلست بعد الآن بملاقيه، فقد انتهى عمرك في هذا العالم... اعول آدم وبكى وناح وشكا، وقال للمخلص يا أبنا إن أتيت معك فدنياي من سائسها؟ وزوجتي من يؤانسها؟ وأغراسي التي أنا غارسها من حارسها، من يمد إليهم يد ويكون لهم سند؟ من يبذر البذور المباركات؟ من يحمل الماء من دجلة والفرات؟ من يعين التي تلد؟ من يلاقي الذي يفد؟.

يا آدم : لا تبتئس ولا تكتئب... فعالمك هذا عالم خرب، عالم زيف وكذب، بيوته مقبرة وطرقه مبعثرة، ودياره مقفرة، الأبناء بآبائهم يكفرون، والأخوة بينهم يقتتلون، البنات يكفرن أمهاتهن، والأخوات يأكلن لحم أخواتهن، الرجل يترك زوجته والمرأة تترك زوجها، أرامل ويتامى، فقم يا آدم واخرج من هذا العالم...

انزعج آدم فقال للمخلص لماذا أفلقتموني وفي هذا الجسد أدخلتموني مادام تعلمون أن العالم هكذا سيكون؟.

أيها المخلص إن أنا خرجت من هذا الكساء وأتيت معك فمن سيجرسه في يومه؟ ومن يوقظه من نومه؟ من يطعمه ومن يسقيه؟ وريب الدهر من يكن صاحبه فيه؟ من يدفع عنه الرعد إذا دمدم؟ ومن يبني هيكله إذا تهدم؟ من يهيء له محلاً؟ من يصنع له ظلاً، من يمنع الشمس إذا تقع عليه؟ والرياح أن تسعى إليه والأتربة تملأ عينيه، والطيور إذا بنت أوكارها، من يزودها أن تطعم من لحي صغارها؟.

يا خالقي اجعل جسدي يأتي معي ويكون صديقي فلا أب ولا أم يأتيان معي، ولا ذهب ولا فضة في زوداتي... كم أنت يا آدم حزين، على جسد يملؤه الطين؟ يا آدم لا يصعد جسد إلى عليين، يا خالقي اسمحوا لحواء زوجتي أن تأتي في صحبتي فتكون لي أنساً في طريقي، اسمحوا لأبنائي وبناتي أن يرافقوني في طريقي.

سمعت حواء فولولت باكياً، قالت يا آدم أنا معك آتية، قال المخلص: لا جسد يصعد إلى بيت الحي، لا أب ولا أم، لا أخوة ولا أخوات، ولا أبناء ولا بنات، ولن يكون الذهب والفضة ملاذاً في بيت الحي، إنما ملاذ الإنسان عمله وصدقته، ووسمه وصباغته.

يا آدم إن إخوانك هم الأثريون الصادقون... وإنهم من أجلك صلاة عظيمة يصلون، يا آدم لم ينفعك شيء غير عملك الصالح، يا آدم الدهور كلها ستزول والمخلوقات ستزول تنضب الآبار، وتتهدم الجبال والآكام، تجد طول وتمحي طول، بابل تزول، والصين تحول ويذهب الفرس والروم والمغول، سيقتل الناس بعضهم بعضاً، وسيحكم في سفك دم ابن آدم، وشوه الوجوه التي هي كوجهه، سينادي على المجرمين، الزناة واللصوص، وعلى السحرة والمنجمين، ويدفعون إلى حرائق النار أجمعين، يومها تنزعزع التخوم، وتخلو السماء من النجوم والشمس والقمر يذهبان كل إلى مكان وكل من كانوا بربهم يكفرون، في أعماق الظلام يحشرون.

طوبى لك يا آدم ، فقد اصطفاك الرحمن ورفعك من عالم الأحران ، فلا تأسف على العالم الذي منه خرجت.

ذرية آدم :

أما ذرية آدم... ربما يسأل السائل كيف زوج آدم أولاده لبناته ؟ هل زوج الأولاد البنات وخالف تعاليم ووصايا خالقه ؟ ! وهذه البشرية كلها من أصول فاسدة لا سمح الله ، كما يقول الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري عن جهالة وهو الفيلسوف المقتدر :

إذ ما ذكرنا آدم وفعاله

وتزويجه لابنيه بنتيه في الغنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر

وأن جميع الخلق من عنصر الزنا

والحقيقة كما تفسرها الفلسفة المندائية ، كانت حواء تلد توأم ولدين أو بنتين ، وعندما أراد آدم زواج أولاده دعى من الحي العظيم أن يساعده في هذا الأمر العظيم فأمر في علاه ، وجاء نظراؤهم من عالم الأنوار ، حيث أخذت البنات إلى عالم الأنوار وتزوجا من نظراء الأولاد ، وجيء بالبنات النظيرات إلى آدم وتزوجن الأولاد. أي أن نظراء الأولاد تزوجوا البنات ، ونظراء البنات تزوجوا الأولاد ، وبهذا تكاثرت ذرية آدم وابتهجت بهم الدنيا دون أن يخالفوا أمر الخالق.

ولهذا كنت أعتقد أن الفيلسوف الشاعر أبو العلاء عندما كتب كتابه المشهور رسالة الغفران قد قرأ الكنز ربا فتوسعت دائرة معلوماته واستقر فكرًا ومعرفة ، ولربما بتوجيه من صديقه الحميم أبو إسحاق الصابي الذين كان يجمعهما مجلس الشريف الرضي وعندما اختلف الشاعر أبو العلاء مع الشريف الرضي ، تعال عليه الشريف مفتخرًا بحسبه ونسبه ، فاغتاظ أبو العلاء وذكره بتزويج آدم ولديه

لبنتيه بالخنا، وأنهما من أصل فاسد، وكأن أبو العلاء لم يقرأ الكنزا ربا كاملاً، ولربما قرأ الخلق والتكوين فقط فتكونت له صورة ومعلومات وأفكار استفاد منها في فلسفته بتأليف كتابه المشهور الغفران الذي استفاد منه دانتي الشاعر الإيطالي الأصل في كتابه المعروف الكوميديا الإلهية.

وهذه شيء من الوصايا لآدم وذريته من خالقهم، يوصيهم بالعمل الصالح وأن هناك ثواب وحساب وأن الموت حق عليهم، وعليهم تهذيب أنفسهم وأن يسمعوا التعاليم ويطبّقوها في حياتهم الخالية الفانية مرضاة لربهم ليهنّئوا بحياة ثانية أبدية:

- كل من يولد يموت، وكل ما يصنع بالأيدي يفسد والعالم كله يفنى، فأين سر الإلهية التي فيه إن كنتم تنتظرون أن عكازكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تستندون.

- ومن قلع شعرة على ميت فسيربط بجبل الظلام بجبل لا يبيد.
- كلما طالت أعماركم زادت خطاياكم، فلا تحزنوا على نشماتنا إذا فارقت هذه الدنيا فمن الحزن تولد الأرواح الشريرة فتسبق نشماتنا في عروجها، وتضايقها في دار الحساب.

- من أحب موته فليطلب لأنفسهم الرحمة، وأقيموا عليهم الصلاة والتسبيح، واقرأوا الابتهالات وأقيموا مسقنة الرحمة من أجلها، عندئذ يسير الضياء أمامها ويأتي النور وراءها، ورسد الحي عن يمينها وملائكة النور عن شمالها، فتتجو من دار الحساب ومن مراحل النار.

- علموا نشماتنا أن لا ترتاب قلوبها واسمعوها لغة السلام؛ التسبيح الذي آتيتكم فتشهد قلوبها ويطمئن.

- طوبى لمن سمع وآمن أنه يصعد ظافراً إلى بلد النور.

والحي المزكي.

البحث الرابع

الملائكة الأثريون

بسم الحي العظيم

قال الحي العظيم : للملائكة فكانت بقوله ملائكة النور كانت ، ومن ضيائه النقي انبتق ملائكة التسبيح الذين لا حد لم ولا عد ولا بطلان ، من نوره العظيم انبتقوا ممثلين بالتسبيح.

متقن ضياؤه ، بهي نوره ، متقن وبهي مقامهم فيه ، نور لا بطلان فيه ، وخشوع لا عصيان فيه ، وبر لا شقاق فيه ، وإيمان لا خداع فيه ، وصدق لا كذب فيه ، هو الخير الذي لا شر فيه ، والملائكة فيه مقيمون ، وللحي مسبحون... والحي المزكي.

ملائكة الضياء تسبح لملك النور بثياب الضياء التي وهبها إياهم ، ملائكة الضياء تسبح لملك النور بالقوة والنبات الذين وهبها إياهم ، ملائكة الضياء تسبح لملك النور بالصدق والوفاء والإيمان التي وهبها إياهم.

(كلهم لطفاء طيبون ، حكماء صادقون ، لا إساءة فيهم ولا خداع ، بعضهم يخل في منازل بعض لا يخطئون ، ولا بعض إلى بعض يسبون ، معززون مكرمون ، كمثل أهذاب العين متشابهون ، نواياهم بعض لبعض مكشوفة ، وأخبار ما تقدم وما تأخر لديهم معروفة ، ينير بعضهم بعضا ، ويعطر بعضهم بعضا ، ويمدون الكسطا بعضهم إلى بعض ، هم بمشيئة الله خالدون ، لا زوال لهم ولا يشيخون ، ولا يتوجعون ولا يضعفون ، ثيابهم أنقى ، وأحاليهم أبهى ، وأولادهم أبقى ، لا يجوعون ولا يعطشون ، ولا يخترون ولا يبردون ، ولا يساء إليهم ولا يغضبون ، لا خبث في أشجارهم ، ولا مرارة في أثمارهم ، ولا ذبول في أزهارهم ، مواعقهم سامية وبقارهم هادية ، ومياهم جارية... الخدج من

الجليب وأبرد ، لا يذوق شاربها موتاً ، ولا يسمع للحزن صوتاً ، أغوامهم لا حد لها ، وحياتهم لا كيل لها ، فرحون مبتهجون ، بخطي سريعة ينطلقون ، وفي أرض أير البيضاء يطيرون... حيث الضياء التام لا غروب ولا إظلام ، وجوهم من نور ، شفافون كاللؤلؤ ، جميعهم خاشعون ، لله يسعون ، الله ملك النور السامي ، ملك الملائكة والأثريين ، مسبح اسمه إلى أبد الأبد ، والأثريون والملائكة والرسل والسيما والأمثال والغيوم السارية ، والمياه الجارية ، والأشجار العالية ، والضياء الذي هي به حالية... كلهم من عند الله ، ملك النور السامي).

(هو ملك النور السامي ، هو الله ، منه كان الملائكة والأثريون ، بضيائه ونوره يرفلون ، أسنى من الشمس والقمر ، منزهون عن الكدر ، أجلاء حين يظهرون ، سرائح حين يسبرون ، أرايتهم إلى الضياء ، كيف يعبر إلى الأرض من السماء ، كذلك هم يصلون ، لا حد لفضائلهم ، ولا قياس لشمائلهم ؛ ذلك هو ملكوت الحي ، عدل وإتقان ، وسلام وإيمان ، وكمال دون نقصان).

(طوبى لمن ميزك ، طوبى لمن تميز لديك ، طوبى لمن رجاك وأتكل عليك ، طوبى لمن نهل من حكمتك ، وتخلص من طغيان هذا العالم بهدايتك ، طوبى للكاملين الصادقين ، الذين عرفوك وميزوك ، فصعدوا ظاهرين إلى عالم النور ، مبارك أنت ومسيح أنت يا ربى ، يا ملك النور السامي ، مبارك أنت ومسيح أنت إلى أبد الأبد ، بأمرك كان كل شيء ، وبأمرك خلق كل شيء ، يا خالق الملاك هيبيل زيوا ، جبرائيل الرسول ومرسله إلى عالم الظلام ، ليسيطر بأمرك عليه ولتنشى لنا عالماً فيه).

الصابئة يقدسون الملائكة ويعتبرونهم رسل الله وأنبياءه ، والمثال التقى النقي الصادق الأمين... هم لا يقدسون البشر ولا يرتقون بهم إلى مقام الملائكة أبداً حتى نبي الله يحيى اعتبروه معلماً كبيراً وحكيماً فقيهاً ، قال لهم جئت بأمر من ربي لأرعاكم وأنا نبي هذه الأمة ، قالوا له عمدنا وكن لنا مثلاً نحتذي به ولكن لا نقدسك ما دمت إنساناً مثلاًنا.

وبعدما توفاه الله وصعدت نشماتته (نفسه) إلى عالم الأنوار وبدأ يعيش الحياة الثانية كملاك ، قدسوه وقالوا يهانا ملكنا وأبانا وهكذا تعاملوا مع بقية الأنبياء والمرسلين من آدم وشيت وإدريس ونوح وسام بن نوح ومع رام ورود وشورباي وشوهبيل وإبراهيم الخليل عليهم السلام أجمعين.

حتى رجال دينهم مهما علا بهم المقام ومهما كانت نزاهتهم ومرتبته الدينية يعاملونهم كبشر باحترام وأدب جم ويسمعون لأقوالهم ونصائحهم ويحتكمون عندهم ولكن يميزون بينهم وبين الملائكة كثيرًا فهم لا يذكرون رجال الدين في صلاتهم ولا في طقوسهم ولا يقربوهم من اسم الحي العظيم بشيء أبدًا.

ولا يمنحهم صفة أولياء ، ولا يتشفعون بهم ولا يزورون قبورهم ، والملائكة لديهم مراتب ، فهناك ملائكة منحهم الحي العظيم قدرات خارقة ، وملائكة يذكرونهم بعد اسم الله في الدعاء والبركة والشدة، ولكن يبقى اسم الحي العظيم هو الأول وهو الأخير ، لا يدانيه اسم ولا يرتقي إليه ملاك مهما عظم أمره ، ومهما منحه الحي العظيم من ضوء ونور وقدرات ، فالملائكة وسطاء ورسل الحي العظيم ، إلى خلقه وبأمره يأترون ، وباسمه يسبحون وله وحده يصلون ويسجدون ويعظمون.

* * *

ملائكة الضياء تسبح لملك النور بالصدق والوفاء والإيمان التي وهبها إياهم

إضاءة

رجال دينهم مهما علت منزلتهم الدينية ومهما عظمت نزاهتهم فهم لا يقدسون ولا يقربون أسماءهم من اسم الحي العظيم ، ولا يتضرعون لهم ولا يتشفعون بهم عند الله ، ولا يزورون قبورهم ولا يمنحونهم صفة أولياء ولا يقدسونهم ، القدسية للحي العظيم والتسبيح والتعظيم والتمجيد للحي وحده ، لا يشاركه ملكه أحد ، الحي السامي المتعالي الغريب عن الأكوان ، بأمره كان كل شيء ، خلق الملائكة الأثريون وخلق نسمة الحياة وأمر الملائكة أن تنفذ أوامره وتعليماته ، فسجدت وسبحت وقالت أنت ربنا ونحن رهن طاعتك.

البحث الخامس

الماء الحي والتعميد

الماء ، الضياء ، والحياة... حلقات مترابطة بين عالم النور والأرض ، الماء الحي أصلاً نشأ في عالم الأنوار لأن بعد أن كان عالم النور بدأت الحياة ومنها جاء الماء الحي ، ومن الماء جاء البهاء ومن البهاء النور ، ومن النور جاء الملائكة الأثريين ، ومن النور والماء جاءت الحياة كذلك يذكر لنا كتاب الكنزا ربا أن الحياة تكونت من الماء والنور بقوة ملك النور السامي.

(بَأْمُرِ مَلِكِ النُّورِ الْعَظِيمِ ذِي الْوَقَارِ حَلَّ النَّمْرِ الْعَظِيمُ دَاخِلَ النَّمْرِ الْعَظِيمِ ، وَبَأْمُرِهِ سُبْحَانَهُ ، كَانَ أَثِيرُ الضِّيَاءِ الْعَظِيمِ ، وَمِنْ آيَرِ زَيْوَا ، أَثِيرُ الضِّيَاءِ الْعَظِيمِ ، كَانَتْ الْحَرَارَةُ الْحَيَّةُ ، وَمِنْ الْحَرَارَةِ الْحَيَّةِ كَانَ النُّورُ ، بِقُدْرَةِ مَلِكِ النُّورِ السَّامِيِّ صَارَتْ الْحَيَاةُ ، وَصَارَ النَّمْرُ الْعَظِيمُ ، وَصَارَ فِيهِ يَرْدُنَا ، وَإِذْ صَارَ يَرْدُنَا الْعَظِيمُ ، صَارَ الْمَاءُ الْحَيُّ ، الْمَاءُ الْمُتَأَلِّقُ الْبَهِيمُ ، وَمِنْ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ نَعْنُ الْحَيَاةَ صِرْنَا ، ثُمَّ صَارَ الْأَثَرِيُّونَ).

إن الماء الآسن الأسود كان يغطي الأرض وعندما صُبَّ الماء الحي من عالم الأنوار أصبح الماء الذي يغطي الأرض عذباً لغرض نشر البهاء وتقديم العون للأرواح، وتهئية المناخ للتعميد والشفاء، إن اختلاط الماء الحي السماوي بماء الأرض عزز العلاقة بين عالم النور والعالم الأرضي، مما أدى إلى نشوء الحياة في العالم ولولا ذلك لبقى ماء الأرض آسن لا حياة فيه.

إن الماء الجاري يدخل في كل الطقوس المندائية (التعميد ، المسقنا ، وتكريس رجل الدين والزواج والنحر والتطهير والوضوء - الرشاما - والطماشة ، وتكريس المندي ، وكل المراسم والشعائر الدينية)، فلا تتم شعيرة دون وجود الماء الحي والنور لأنهما رمزا الحياة ، فلا تعميد لمندائي إلا بوجود الماء الجاري والنور...

عادة يجري التعميد عند المندائيين يوم الأحد من كل أسبوع وخلال المناسبات الدينية، والتعميد ضروري عند الولادة والزواج وتطهير الروح والجسد من أي ذنب، إن الغطس في الماء في مراسم التعميد يعتبر العامود الفقري في هذا الرسم المهم، والتعميد عادة تتم مراسمه منه بالغطس داخل الماء، ومراسم تجري على اليابسة على حافة النهر حيث الدرفش مثبت، وهناك تتم رسوم وشعائر طقسية مكملة حيث يتم تناول الخبز والماء ومسح الجبين بزيت السمسم ويردد المتعمد وراء رجل الدين تراتيل دينية خاصة بشعيرة التعميد.

وهذه التراتيل تحتوي على نصوص عميقة المعنى، إن الماء يقوم الحياة ويعززها لأن اليردنة عنصر خالق للحياة وبهائها، وتكون الماء ونشوء الحياة من مائها الخاص، وكيفية قيام الحياة بتكوين الأشياء الحية داخل الماء.

إن الروح عند تعميدها ترفع إلى الأعلى لتصل إلى عالم النور، وإذا نظرت إلى الماء في قارورة رجل الدين الذي يقوم بشعيرة التعميد؛ كأنه ماء الرجل القوي الخصب، لقد حملت أنثبي بـ(يحيى بن زكريا) بعد أن شربت ماء من اليردنة (الماء الحي الجاري).

إن الماء كما ذكرنا هو حلقة الوصل بين عالم النور والعالم الأرضي ويكون الماء شاهداً أو سراً للروح عند صعودها إلى عالم النور، إضافة إلى النور والحياة فهما الدليل لعروج النشامتا.

ألقيت محاضرة علمية عن (السر العظيم للماء) من قبل الأستاذ المهندس عباس فاضل جميل في جمعية الدنمارك المندائية في كوبنهاجن، نلخصها بالتالي:

١- جميع الأديان تقر بقدسية الماء، وأن الماء الحي ذو قدرة غير اعتيادية، ويعتبر الماء علة جميع الأشياء، فالدين الإسلامي كما ورد في القرآن الكريم (وخلقنا من الماء كل شيء حي)، والدين المندائي يؤكد أن الماء الحي جلب من عالم الأنوار (الجنة)... وأن الماء الجاري مادة حية وله تأثير كبير على البشر والحيوان والنبات، ويذكر لنا الدين المسيحي في الإنجيل أن الماء ليس فقط مادة

فيزيائية مجردة، إنه مفهوم نادر وعظيم، وهذا المفهوم يرتبط بطريقة وأخرى بفكرة الحياة.

٢- الماء يعتبر أكثر الموارد الشائعة والمعتادة والمستخدمه على الأرض وليس له لون أو طعم أو رائحة، ولا تعرف الأسرار التي يخبئها في داخله، وأن كمية المياه الموجودة في الطبيعة هي نفسها عندما بدأ كل شيء.

٣- يجري الماء بقوة وصلابة، ورغم أنه طيع يأخذ شكل الإناء الذي يوضع فيه، لكنه دائماً ينتصر على المواد القوية ورغم نعومته وانسيابيته يزيح ويذيب المواد الصلبة، وهو يمتلك من الخصائص الفيزيائية والكيميائية شيئاً غير عادي مقارنة بالسوائل الأخرى، وهذا الماء أمره عجيب فإن كثافته تزداد كلما قلت درجة الحرارة وتقل كلما زادت درجة الحرارة ويزداد حجمه عند انجماده، فيكون قوة هائلة لتفتيت الصخور، وإعطاء النبتة قوة هائلة تستطيع النفاذ من خلال الإسفلت مثلاً.

٤- لا أحد يستطيع أن يجيب لماذا الماء وحده يكون على ثلاث حالات، سائلة وصلبة وغازية (بخار)، ويتمتع بقوة شد سطحي كبيرة، وهو أقوى سائل مزيت للمواد، وله قدرة نادرة على الخاصية الشعرية والتسلق في عروق الأشجار عكس الجاذبية، وهو مادة موصلة للصوت والكهربائية.

٥- الغريب بالأمر أن العلماء يؤكدون بالتجارب أن الماء يملك ذاكرة، وله قدرة على خزن صفات المواد وخرنها بمجرد ملامسته لها، والظاهر أن الماء يرى ويحس، وهذا يعني أن الماء عبارة عن حاسوب عظيم، وأن التركيبة الجزيئية للماء تعتبر مثل ألف باء الكتابة.

٦- هناك خوارق ومعجزات حدثت عبر التاريخ البشري كما يسميها الروحانيين مثل حمل الیصابات أم النبي يحيى بن زكريا (بهيا يوهانا) عليه السلام عند شربها الماء، وهناك معجزة شق البحر الأحمر وظهور اليابسة وعبور نبي الله موسى وأتباعه، وكيف تمكن هذا النبي بقدراته الروحانية من

تحويل الماء إلى خمر دون إضافة أي مواد سكرية أو لاكتوز مثلاً ، (يسمىها الماديون ميثولوجيا)، والماء يتأثر كثيراً بالمشاعر الإنسانية مثل الحب والعاطفة والحنان والموسيقى ، وكذلك يتأثر بمشاعر الخوف والرعب والكراهية والعدوانية، فهو يزداد طاقة وقوة بالمشاعر الإيجابية وتقل طاقته عند المشاعر السلبية... وأن الماء عندما تزداد طاقته عند تعرضه لمشاعر إنسانية طيبة ؛ تصبح له قدرة على سرعة نمو النباتات وسرعة نضوج الثمار ، وأجريت تجارب عديدة على نباتات تمّ سقيها بالماء العادي ونباتات مشابهة تمّ سقيها بالماء الإيجابي، ولاحظوا أن هناك فرق كبير في النمو والفائدة... كما أن كمية الماء المطلوبة للإسقاء تكون أقل بهذا الماء المعدل.

٧- من المعلوم أن جسم الإنسان يتكون من ٧٠-٩٠% من الماء أي ما يعادل أربعة أخماس وزنه ، ونحن كبشر نشرب يومياً بحدود لترين من الماء وينفذ إلى أجسامنا لتر ونصف من الماء عند السباحة ، فتصوروا كمية الماء التي نستخدمها خلال حياتنا ، وأن الماء الذي ينساب في الأنهار بمسار منحني ، والماء المنقول بالمواسير وبسبب تغيير مساره عدة مرات وبشكل حاد تؤثر على تركيبة الماء الحقيقية بشكل تصاعدي ، وأنا كبشر أحياناً نوسخ الماء ونلحق به أضراراً بالنتيجة تضرنا وتسبب لنا الأمراض ، حتى الماء يمرض عندما يتعرض روحياً للكراهية والعدوانية ، وعند إجهاده بسريره في أنابيب طويلة ومتعرجة وتحت ضغط جوي عالي.

٨- الكرة الأرضية وعاء هائل للماء، كذلك أجسام البشر والحيوان والنبات وأن أقدس المواد فيها كمية من الماء، وأن أول الكائنات الحية وجدت بالماء، ولاحقاً تطورت وعاشت خارج الماء، وأن الماء حقق غاية الخالق، وأن انبعاث الحياة كان الشرارة الإلهية الأولى ، وهي التي كتبت على الماء تسلسل التطور المستقبلي لكل نوع من الأحياء التي تطورت من البكتريا البسيطة للوصول إلى هيئة المثالية الحالية، ويؤكد العلماء أن الماء يكون التركيبة الحلزونية للحامض النووي (دي إن إيه)، ودون الماء لما تكونت هذه الحلزونات ، والماء يصنع

هيكل البروتينات ودون الماء فإن الهيكل سوف لن يعمل ، إذن في الماء تبدأ الحياة لأي بذرة وأي جنين.

٩- اكتشف العلم نوعاً آخر من الماء ، وهو الماء الثقيل (أوكسيد الديوتريوم (دي تو أو) ، الذي يستخدم كأساس في صناعة القنبلة الهيدروجينية المدمرة.

١٠- تتحسن نوعية الماء كما ذكرنا في أعلاه عندما يعامل الماء من قبل الإنسان بصورة إيجابية ، أي عندما يشكره أو يتبارك به يكون فيه الخير والبركة وجرعة من الماء تنعش الإنسان وتسقيه وتمنحه النضارة والصحة ، والماء الذي تربي عليه الإنسان في وطنه مثلاً لسنين طويلة يكون ارتباطاً بين هذا الإنسان والوطن الذي ولد وعاش فيه ، وهذه لا تعطي دلالات وطنية فقط ، بل دلالات فيزيائية أيضاً ، وأن الماء الطبيعي الجاري فيه حياة بينما ماء القناني رغم نقاوته ونظافته فهو ماء ميت لا حياة فيه ، وهذا سر تمسك المندائيين بالماء الحي الجاري.

١١- إن أي عملية اشتعال تتطلب توفر كمية من الماء في المواد المشتعلة ، ولو أخذنا كمية من البنزين ورفعنا الماء منها سوف لا تشتعل وهو سر من أسرار الماء.

١٢- دماغ الإنسان هذا المخ الكبير والعقل الجبار يتكون بشكل أساسي من الماء ، وجزئيات الماء هذه تشترك بتكوين نماذج المعلومات الدماغية ، وهذا الماء موجود في جميع أجزاء الجسم ، وهو يحتوي على كم هائل من المعلومات وعندما يدخل جسم الإنسان فهذا الإنسان يتقبل هذه المعلومات.

١٣- وللدلالة على حياة الماء الحي أجريت تجارب عديدة ، منها أن عالماً يابانياً وضع كمية من الأرز في ثلاثة دوارق زجاجية متشابهة وملئها بالماء الحي ، وكان يكرر كلمة شكر يومياً على الدورق الأول ، وكلمة أنت غبي على الدورق الثاني ، وأهمل الدورق الثالث ، وبعد عدة أيام لاحظ انتعاش حبات الأرز في الدورق الأول ونموه وإصداره رائحة طيبة ، أما الأرز في الدورق

الثاني فغدى أسود اللون ، وتعفن الأرز في الدورق الثالث ، هذا يعني أن الماء يسمع ويرى ويحس ، ويتضح أن الماء يتأثر بالموثرات الخارجية ولهذا ترى أن التوائم المتحدة يحس أحدهما بالآخر من على بعد ، بسبب الماء الموجود في أجسامهم ، والماء الحي يجب أن يكون محيطه قاعدي ، أما الماء الميت فيكون محيطه حامضي ، ولهذا معظم الحيامن تموت في المحيط الحامضي وتنتعش في المحيط القاعدي.

١٤- وللتأكد من إحساس الماء وتجاوبه مع هذا الإحساس حدث صدفة أن سقطت أنبوبة اختبار فيها سم قاتل في حوض ماء من يد عاملة المختبر ، ولأن الأنبوبة كانت محكمة الإغلاق لهذا توقعوا أنها ليس لها تأثير على الماء ، ولكن من باب الحيلة والحذر قررت العاملة إعطاء كمية من هذا الماء لفئران المختبر ، ولاحظت أنها ماتت كلها بعد شربها للماء بعشرة دقائق ، وهذا يعني أن الماء تأثر بمجرد ملامسته الأنبوبة للماء ، وعند فحص الماء وجدوا أنه صافي ، ولكنه استقبل معلومات سلبية من مادة السم القاتل وتأثر بها رغم أنه لم يختلط بها ، ووجد بعض العلماء أن الماء يتأثر بالظواهر الطبيعية مثلاً قبل أسبوع من موعد كسوف الشمس ، بمعنى أن لدى الماء إحساس بما حوله.

١٥- ولهذا ليس غريباً أن يصلي الناس صلاة الاستسقاء لنزول المطر أو صلاة المطر عند أديان أخرى ، وهذا الاعتقاد لا أظن أنه جاء من فراغ ، وهذا يفسر كوارث الطبيعة من فيضانات وتسونامي في جنوب شرق آسيا ، وإعصار كاترينا في أمريكا وغيرها.

١٦- للماء قدرة فائقة على تنظيف نفسه بنفسه من جميع أنواع التلوث الكيماوي والمعلوماتي بواسطة الملوحة الموجودة في البحار والمحيطات ، أثناء تبخر الماء إلى بخار ونزوله مطر ، كذلك عند تجمده في المحيطات القطبية وذوبانه ، وبهذه العمليات والتحويلات من حالة إلى حالة يتم مسح المعلومات المخزونة في الماء والعودة لحالة الاستقرار التركيبي مع الاحتفاظ بالبرامج الأساسية للحياة.

إن فقدان ٢% من كمية الماء في الجسم يشعر الإنسان بالعطش ، وعند فقدان ١٠% يصاب الجسم بالجفاف ، وعندما يصل فقدان ١٢% يحدث الموت ، وكمية الماء في جسم الجنين في رحم أمه تصل إلى ٩٣% ، وهذه النسبة تقل إلى ٥٠% عند الوفاة.

مما ورد أعلاه من معلومات مع الاعتذار للمهندس عباس فاضل على هذا الاختصار الشديد ، وكتابة الموضوع بتصرف كموجز لهذه المحاضرة القيمة المتعوب عليها جهداً ووقتاً، على اعتبار أن المعلومات صحيحة ودقيقة وقام بها علماء في مختبرات علمية، أرى أن رجال الدين الذين يؤكدون على الصباغة (التعميد) في الماء الجاري لهم الحق فيما ذهبوا إليه لأن الماء كائن حي، يجب أن يعامل بلطف وحنان وعاطفة، كما يعامل الطفل الرضيع أو النبتة عند بداية الإنبات ، وأن ما ورد في كتاب ألف ترسر وشياله أن لا تبثوا عوائق (سدود) تعيق جريان الماء لم تأت من فراغ، لأن الحي العظيم ما خلق شيء عبثاً، وما ذكر شيء في تعليماته بطراً ، وتبقى المشكلة هنا في الدول الإسكندنافية في فصل الشتاء، وانخفاض درجة الحرارة وتجمد وجه الماء، تتطلب حلولاً بإنشاء أحواض لها مدخل للماء ولها مخرج لغرض الجريان ليكون الماء حياً ، لأن الحاجة أم الاختراع، خاصة وأن فصل الشتاء في هذه البلدان طويل.

والمعاناة موجودة في كثير من الدول خاصة الصناعية لتلوث الأنهار بالمواد الكيماوية ومخلفات الصناعة ، ولهذا أصبحت الأحواض ضرورة اضطرارية لمعالجة الحالة^١.

١ - من غرائب الأمور هناك في فنزويلا في أمريكا الجنوبية ؛ توجد بحيرة ماء معزولة ليس لها تماس مع البشر، لالالا العلماء أن هذا الماء يحمل طاقة عالية، ويعطي إشعاعات كبيرة جداً، والتي تؤثر إيجابياً على جسم الإنسان بالمقارنة مع باقي مياه الشرب، لذا فإن مياه فنزويلا لبارلار تجعل الناس الهنود سعداء وأصحاء وهم لا يرغبون أن تصل إليهم الحضارة، وهنا عندنا في السويد يا أخ عباس أبو زيد الماء من أنقى المياه في العالم، ولذلك نحن نشرب الماء من حنفيات الإسالة في البيوت، ومسموح شرب ماء البحيرات لأن الدولة تحافظ على نظافتها ونقاء الماء فيها، ولربما هذا سيبصحة ونضارة وجمال أهالي السويد.

وفي الهند هناك ملة دينية ترمي جثث موتاهها في النهر تبركاً بماء النهر ، ويقولون إنها لا تلوث ماء النهر لأن الماء له قدرة على تنظيف وتجديد نفسه...

وعموماً فإن المندائيين دينياً يفضل عددٌ من رجال دينهم الصباغة في النهر الجاري ، وبوجود النور ، لأن الصباغة تعني طهارة الجسد والنفس ، وأن الإنسان المتعمد عندما يغط في الماء للحظات ثم يظهر على وجه الماء ويتنفس يمنح حياة جديدة ، وتغسل كل ذنوبه وخطايه ، ويشعر بالانتعاش والراحة النفسية والإيمان العميق ، وكأنه ولد من جديد... ولهذا فإن شعيرة الصباغة من الطقوس الأساسية المهمة في الدين المندائي ، وأحسن الأوقات أيام البرونايا البيضاء ، ويمكن الصباغة ليلاً ونهاراً لأنها أيام نورانية ، وأيام دهفة ديماننا في النهار ، وأيام الأحاد ، ويمكن الصباغة في كل الأيام عدا أيام المبطلات في النهار حصراً بوجود النور ، لأن الماء والنور هما رمز الحياة وفق الفكر المندائي ، وكما ورد في الكتاب المقدس كنزا ربا مبارك اسمه :

(اذكروا الله وسبحوه كثيراً ، هيئوا يردنا واصطبغوا ، اصبغوا نفوسكم بالصبغة الحية التي أنزلها عليكم ربكم من أكوان النور ، والتي اصطبغ بها كل الكاملين المؤمنين)... كنزا ربا اليمين... الوصايا.

قال العقلاء من أبناء الصابئة المندائيين إنه حالياً كل أنهار العالم أصبحت غير صحية ، ما عدا بحيرات السويد مازال ماءها عذباً... أما بقية أنهار العالم فتحولت إلى مكبات صناعية في الدول الصناعية ، أما في البلدان المتخلفة فهي ممرات للمياه الثقيلة ومياه البزل ، وترمى فيها حتى النفايات ، ولهذا فهي غير صالحة للشرب ولهذا يباع ماء الشرب في معظم بلدان العالم بالقناني مقابل ثمن.

كذلك لا يوجد حالياً نهر في العالم لم يتم بناء سدود عليها ، فهذا دجلة والفرات والكارون والكرخة عليها عشرات السدود وماؤها غير صالح للشرب ، أما مياه الإسالة فهي مياه نقية صافية صحية وحالياً لا تستخدم الواشرات المطاطية

(الجلب) ومفردها جُلبة؛ لتطور التكنولوجيا وهي مياه جارية لأنها تنتقل من أحواض إلى أحواض وممرات ضخمة ومواسير كبيرة ، أما مادة الكلور فهي مادة معقمة صحية ولتطور تكنولوجيا التصفية تمّ الاستغناء عنها ، والحقيقة أن الماء الحي عند مروره بأنابيب متعرجة طويلة يتغير تركيبه.

هناك عدد من رجال الدين بين هذا وذلك إذ يقولون لحل المشكلة ننشئ بئراً قريباً من المندي (المعبد) وبواسطة ماتور غطاس نسحب الماء من البئر ونملأ الحوض ، وهذا حلال... هنا تدخل العقلاء والمثقفون ورجال الدين المتتورون وقالوا بأن الصباغة وإجراء المراسيم الدينية في الأنهار وفي الأحواض كلها حلال ، والإنسان حر الاختيار حسب رغبته وقناعته ، وعليه أن يختار أين تجرى له المراسيم الدينية ، وكل حسب قناعته وحسب ظروفه النفسية ورغبته وليس هناك حلال وحرام لنهني هذه المشكلة ، الحياة تتطور وعلينا مواكبة التطور ولا رجعة للوراء أبداً.

ولهذا يعتبر الماء الحي هو الحياة التي انبعثت من عالم الأنوار ، وهو الوسيلة التي تحتاجها النشمتا عند عروجها إلى عالم الأنوار (الجنة)... سواء كان ذلك خلال التعميد أو في رحلة ما بعد الموت عندما تترك النشمتا (النفس) الجسد وتخرج إلى السماء ، وعند إجراء مراسيم المسقّتا.

* * *

يذكر الدين المندائي ويؤكد على إجراء الطقوس والماراسيم الدينية في اليردنا أي في الماء الحي الجاري ، ويصر عدد من رجال الدين على أن الماء الجاري يعني النهر الجاري ، ولكن بتطور الحياة ومراعاة للطقس في فصل الشتاء أنشأت أحواض في المنادي في دور العبادة، وجعل لها مدخلاً للماء ، ومخرجاً ليكون الماء جارياً لكي لا يركد، ومشى الحال على أحسن ما يمكن !.

وهنا في أوروبا وخاصة في الدول الإسكندنافية حيث درجات التجمد في فصل الشتاء الطويل أنشأت أحواض مدفئة تملأ بالماء الدافئ، ولكن ظهرت ردة من قبل بعض رجال الدين المندائيين ومعظمهم من كانوا يعيشون في عربستان في الحويزة ومدن إيران الجنوبية المجاورة للعراق، والتي كانت سابقاً جزء من العراق وسكانها عراقيين... هذه الفئة من رجال الدين ترفض إجراء الطقوس الدينية في الأحواض وتصر على إجرائها في النهر، وهؤلاء معظمهم يعيشون إما في إيران أو أستراليا حيث يسمح لهم الطقس بذلك، ولكن قل لي بربك كيف تعالج الأمور مثلاً في السويد والنرويج والدنمارك وفنلندا وعموم أوروبا؟...

فانقسم رجال الدين إلى فئتين؛ فئة تعتمد الناس في الأحواض، وفئة تعتمد في الأنهار، وعند مناقشتهم تقول الفئة الأولى إن هناك نص في كتاب ترسر وألف شيالة (ألف واثنى عشر سؤال) يقول لا تبنوا سدود على الأنهر، وماء الإسالة باطل لأنه يقطع الماء أولاً، ولأن فيه واشر مطاطي ثانياً، ولأن فيه مادة الكلور الكيميائية ثالثاً...

وعموماً المستقبل بيد الشباب المندائي وبيد رجال الدين المتنورين الأكاديميين المتطورين... وكل المتشددين والمتزمتين إلى زوال، والحياة تستمر وتتطور، وبمقارنة بسيطة نلاحظ أن كل الشباب حالياً يفضلون الصباغة بالحوض وبالماء النظيف الدافئ، وفي المنادي المتطورة يتباهون بها أمام زملائهم وأصدقائهم، ورجل الدين المتنور عليه أن يحسب حساب المستقبل وحساب الأجيال الصاعدة وعليه أن يخفف من الغلو والتشدد، مع المحافظة على جوهر الدين.

قلنا مراراً وتكراراً إن الشعائر والطقوس هي التي تميز ديناً عن دين آخر، وحتى مذهب عن مذهب آخر، وهذه الطقوس والشعائر وضعها وكتبها رجال الدين في حينها وطبقاً للظروف الحياتية والمناخية التي كانوا يعيشون بها، تغيرت الحياة وتطورت وعلينا مواكبة هذا التطور للمحافظة على شاباتنا وشبابنا، والنشء الجديد، وأن الدين يسر وليس عسر، وعلى الجميع أن يواكبوا

التطور طالما لا يلحق ضررًا بالدين لأن عجلات التطور تدور والزمن يتطور والحياة تجدد والمستقبل دائمًا تصنعه الأجيال القادمة المثقفة ورجال الدين الشباب المتنورون الدارسون الأكاديميون.

وهنا ضرورة الإسراع في تشكيل المجلس الروحاني العالي لرجال الدين ليرسخ استراتيجية لمستقبل أبناء الطائفة في العالم بعد أن توزعوا في شتات الأرض ومعظمهم حاليًا يعيش في بلدان ديمقراطية متطورة ، علينا جميعًا كهيكل تنظيمي مدني أو هيكل تنظيمي ديني الإسراع بوضع الخطط والبرامج والاتفاق على الحد الأدنى المسموح الذي يحقق الاتفاق ويضمن المستقبل وديمومة الدين المندائي ومن الحي العظيم التوفيق.

المندائية وطقوس الماء الجاري :

ذكر القاضي زهير كاظم عبود في مقال له ؛ أنه ليس فقط طقوسهم التي تعتمد على (اليردنا) الماء الحي الجاري ، ولا العديد من تلك الطقوس التي تمارس وسط موجات الماء الحي غير الراكد ، وليس فقط تلك الثياب البيضاء التي تعبر عن الطهارة والنقاء ، فالإغتسال ميزة رمزية تعبر عن طهارة الجسد، ولون الثياب البيضاء تعبر عن الطهارة ، فنقاء الروح وطيبة النفس والنزوع للخير مميزات تعتمد عليها المندائية نصاً وفعلاً.

(صبغة الروح والجسد) تلك ما تعمد به طقوس المندايين ، تطهير النفس البشرية من شرورها وآثامها ، غسلها بالماء الجاري لتعود نظيفة وصافية ، واعتماد الماء عصب الحياة وعمودها الأساسي في تلك الديانة القديمة قدم البشر.

كلمة مندائي حسب الدراسات اللغوية جاءت من جذر كلمة (صبأ) الآرامي ، معناها اللغوي اصطبغ أو غطس أو تعمد ، ويمارس المنديون طقس الاغتسال في الأنهر الجارية ، ومعنى كلمة مندائي العلم والمعرفة ، ووفقاً للآرامية فإنها تشير إلى الذي يعرف أو يعتقد بوجود الله خالق الكون ، وقد عرف العرب كلمة (صبأ) أي خرج من الدين ، بما يؤكد خروج الإنسان من دين الضلالة إلى دين التوحيد ، وفي لسان العرب خرج من دين إلى دين آخر كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها.

وقد ورد في الكنز اربا في سورة التوحيد :

(مسيح ريبي بقلبي نقي هو الحي العظيم، البصير القدير العليم، العزيز الحكيم، وهو الأزلي القديم، الغريب عن أحوال النور، هو القول والسمع والبصر، الشفاء والظفر، والقوة والثبات هو الحي العظيم، مسرة القلب وغفران الخطايا، مسيح ريبي بقلبي نقي... يارب الأكرام جميعاً مسيح أنت مبارك ممد، معظّم، موقر، قيوم، العظيم السامي، الحنان التواضع، الرؤوف الرحيم، الحي العظيم، لا حد لبهائمه، ولا مدى لضيائه، المنتشرة قوته، العظيمة قدرته،

هو العظيم الذي لا يرى ولا يحد، لا شريك له في سلطانه، ولا صاحب له في صولجانه، من يتكل عليه فلن يخيب، ومن يسبح باسمه فلن يستريح، ومن يسأله فهو السميع المجيب، ما كان لأنه ما كان، ولا يكون لأنه لا يكون، خالد فوق كل الأكوان، لا موت يدنو منه ولا بطلان).

فالطقوس عادة مستلة من عمق الدين ومن بين النصوص المقدسة، وهي تعبر عن نظام العبادة وشكل الشعائر الدينية والعبادات، وتشير (الكنزا ربا) (الكتاب المقدس عند المندائيين) إلى تلك الطهارة والسمو بالنفس الإنسانية والترفع عن الصغائر، وتحت على الصدقة والمحبة والسلام، وتأمر المندائيين أن ينشروا خيرهم ومحبتهم على الناس أجمعين كما ينشر الماء الجاري عذوبته وروعته وبساطته، ومثلما يتم تعميد الطفل المولود حديثاً في الماء الجاري حتى تحته تلك الديانة على أن يكون نقياً وصافياً ومعطاء، مثل تلك المياه الجارية التي غسلت جسده وجعلت روحه صافية .

والنصوص المقدسة التي يضمها الكنزا ربا تعتبر كلاماً مقدساً وتعاليم يوجب الالتزام بها، ويمكن أن يكون تعريف كلمة الكنزا ربا تعبيراً عميقاً عن تلك النصوص والتي تعني بالكنز العظيم، ويتطرق إلى قصص الأنبياء والأزمان الأولى التي كانت فيها المندائية تشع على ما حولها من مناطق تقع على ضفاف الأنهار، بالإضافة إلى ما ضمته من قصص الخليقة والرسل والأنبياء والتعاليم الروحية والمصادر الأساسية للإيمان بالتوحيد، وتحت تلك النصوص على المحبة والمعرفة وتدعو للطهارة الروحية قبل الجسدية، وقد جسد المجتمع المندائي تلك التعاليم بطريقة عملية، واتباع أتباع هذه الديانة تلك التعاليم ومارسوا تلك الطقوس دون أن يخالفوا تعاليم دينهم في تقديم الخير والمحبة والسلام لجميع الناس .

وإذا كانت الرمزية تعبيراً عن تلك الديانات، فإن طقوسها وشعارها يكملان تلك الرمزية، ولعل تلك الرمزية التي تنعكس على شعار المندائية (الدرفش)، وما يسمى بعلم يحيى، وهو شعارهم المتكون من عصى متقاطعة، إحداها مدببة

من الأسفل تشكل علامة (+) تلتف عليها قطعة من قماش الحرير الأبيض مشرشفة من الأسفل ويعلوها عدد من أغصان الآس.

ولطالما عبرت الملابس البيضاء عن النقاء والطهارة ، فقد اعتمدت المندائية تلك الملابس حتى في طقس الزواج الجاري وسط الماء الجاري ، ولأن تلك الشعائر ترتبط بالرمزية فإن طقس الزواج يوجب على المتزوجين ارتداء (الرسته) وهي ملابس بيضاء ترمز إلى نقاء الضوء وطهارة النفس البشرية ، كما أن رجال دينهم يرتدون الملابس البيضاء أيضاً.

ولعل أهل العراق عموماً أكثر معرفة بتلك المواصفات التي التزم بها المندائيون باعتبارهم من سكنة العراق الأوائل ، ومن أهل الديانات التوحيدية القديمة أيضاً ، ومن المجتمعات التي تمكنت من الاختلاط والانسجام مع عشائر وأعراف وديانات المجتمع العراقي ، ولعل أنبل تلك الشعائر ذلك الالتزام الصارم بالمحبة والوداعة والدعوة للسلام التي رافقت حياتهم ، بالرغم من كل المحن والسلبات التي رافقتهم والتي عكستها العقلية الساذجة أو المتطرفة ضدهم على مر الزمان.

تلك الطهارة ليست ثوباً يرتديه المرء ، ولا طقساً دينياً يمارسه ، ولا نصاً مقدساً يطالعه ، إنما هي ممارسة يومية وإيمان بحقيقة تلك الطهارة التي تغمر الروح والعقل ، فتحيل الإنسان إلى كائن سامي يجاهد من أجل قيم الخير والمحبة ليعكسها على ديانته وطقوسه ، تلك هي طقوس الديانة المندائية التي تحت على المحبة والخير والسلام بين الناس.

ليس سراً أن تعتمد المندائية على عبادة الخالق الواحد الأحد قبل كل تلك الديانات التي عمت المنطقة ، وليس سراً أيضاً أن تحت معتنقيها على البحث والتطوير والعمل وتنقية النفس والصوم والزكاة والصدقة والتعميد والاعتزال في المياه الجارية ، ومن يستل من هذه الالتزامات مجموعة بشرية تعايشت مع كل تلك المحن والظروف التي عصفت بالعراق ووزعتهم في مشارقه ومغاربه

وبعثرتهم في كل أنحاء الأرض ، غير أنهم وبالرغم من كل تلك القوافل من القرايين التي تقدمت على مذبح حرية الإنسان والعراق ، كانوا صابئة مندائيين بحق ، نقشوا على جباههم قيم المحبة والتسامح والنخوة والشهامة ، ورفعوا مع رايتهم البيضاء الناصعة راية السلام والتآخي.

المندائية ديانة تحت على الطهارة ونقاء النفس البشرية من الحقد والكراهية ، مثلما تحت على كل القيم الإيجابية ، ونجح أتباعها في غرس محبتهم في قلوب وضمائر من تعرف عليهم عن قرب.

الماء ما بين العلم والدين :

ما أن دخلت النفس (نيشمئا) عنوة في جسد آدم حتى بدأ يراقب ما حوله من ظواهر الطبيعة ، وقد انبهر من جراء ما يطرأ على هذه الظواهر من تغيرات رتيبة دورية أو عنيفة فجائية ، فجعل يسأل نفسه عن سر مولد اليوم ومماته وكيف ينتشر ضوء الفجر بعد السحر اللجيني ثم يمتد الصباح حتى يصير نهراً بيناً ، ويرتفع الضحى وتحمى الظهيرة ثم يأخذ صهدان الشمس يفتر رويداً رويداً حتى المغيب فيبين الشفق العسجدي ، وهذا القمر يبدو بدرًا ثم لا ينفك يتضاءل أمام ناظره حتى يتخفي محاقاً ، وهذه النجوم الزاهرة المنتشرة والشهب المندثرة والنيازك المبعثرة والكسوف والخسوف وهذه الفصول الأربعة تتخالف ألوانها وتتميز خصائصها ، وهذه السحب المدفوعة وما تسحه من أمطار وقوس قزح الذي يتراءى في اليوم المطير وهذا السيل الجارف والجدول المنساب يترقق ماؤه زلالاً ، والبركة الساجية لا يغشى الموج صفحتها فهي تعكس طلعة الناظر الدهش ، وهذه الأزهار ذات الأريج المنعش والغابات الكثيفة تصورت فيها فيرتد إليك رجع الصدى والريح والعصوف تقتلع الأشجار وتقلقل الأحجار والبروق الملعة والرعود المدوية يصم هزيمها الأسماع ، وهذه الجبال المكلفة قللها بالجليد الناصع تندلع من فوقها ألسنة النيران وو...

كل تلك الأسرار كشف عنها الإنسان لأن الحي العظيم أنعم عليه بالمعرفة والإدراك، وكل ذلك جعل الإنسان يندفع بخطى سديدة نحو كشف المجهول، فارتابته تلك النظم المتناهية الدقة بين الخالق والخلقة، وأخافته الأسرار الخفية فحار فكره ونفذ صبره، وحالما استكان بادر بالسؤال ما سر هذا النظام؟ وما سر الطهارة والنجاسة؟ وما علاقة كل ذلك بالماء؟ وهذا هو لب موضوعنا الذي تتجسد فيه نعمة الحي العظيم التي تدفع الإنسان من باب الاستعارة أن يتأمل عظمة ملك النور السامي.

إن معظم جزيئات المركبات في الطبيعة تنطبق فيها الشحنة السالبة على الشحنة الموجبة إلا الماء، فأجزاؤه تتكون من اتحاد ذرتين من الهيدروجين مع ذرة واحدة من الأوكسجين بأصرتين إلكترونيتين بحيث الخطوط الواصلة بين مراكز الذرات الثلاث تكون مثلث متساوي الساقين رأسه ذرة الأوكسجين وقاعدته الخط الواصل بين ذرتي الهيدروجين، وهذا يجعل مركب الشحنة السالبة في رأسه والموجبة قريبة من قاعدته، لذلك تكون جزيئة المركز مستقطبة، أي لها قطبان موجب وسالب، وبسبب القوة الجزيئية ينجذب رأس الجزيئة نحو قاعدة الأخرى، فتتكون سلاسل ذات حركة عشوائية التوائية، وبسبب الحركة الجزيئية تتقطع السلاسل ثم تعود لتلتئم من جديد عندما تنخفض درجات الحرارة لأن الجزيئات تهدأ حركتها وعند درجة أربعمئة تتغلق السلاسل فيكون للماء أصغر حجمًا وأعظم كثافة، وعندما تنخفض درجة الحرارة أكثر تشدد القوى بين الجزيئات وتأخذ السلاسل شكلًا دائريًا أي أكبر حجم ممكن وأقل كثافة في درجة الصفر، عندها يتحول الماء إلى جليد، أي أن الماء بين درجة أربعمئة والصفر المئوي يكون شاذ، وهذه الشواذ تعطي الماء خواص ذات فوائد عظيمة جدًا...

فالجليد يطفو على سطح الماء ويكون عازلاً حراريًا، فمهما انخفضت درجات حرارة الجو يبقى الماء في الأنهار والبحار والبحيرات والمستنقعات العميقة سائلاً رغم كونه متجمدًا عند السطح أي أن الماء في هذه الظروف الحرارية

المنخفضة ملائم لمعيشة الأحياء المائية فيه، وبسبب قطبية جزيئات الماء أصبح من أفضل المذيبات للغازات والمواد الصلبة، فالماء ملائم لتنفس الأحياء المائية وإذا دققنا أكثر نجد أن كل خلية حية يشكل الماء الجزء الأكبر من تركيبها وهذا يساعد على التبادل الغازي أثناء التنفس وانتقال الأوكسجين والمواد الغذائية من خلية إلى أخرى داخل الأجسام، بالإضافة إلى ذلك فسلاسل جزيئات الماء بسبب حركتها الالتوائية المستمرة تتخلل بين دقائق الأوساخ والأدران العالقة، تحيط بها فتحتويها وتزيلها، وهذا هو سر استخدام الماء في غسل وتنظيف الأجسام من الأدران العالقة بها، أما استخدام المساحيق المنظفة فهو من أجل تقليل الشد السطحي للماء كي يتسنى لجزيئاته النفوذ من خلال أصغر الثغور وأيضاً لإذابة الدهون.

إن فالحى العظيم جعل من الماء ينبوعاً للحياة، فبدونه تجف وتذوى وتموت، وإذا لم نبالغ فالماء يدخل حتى في تركيب الأجسام التي تبدو وكأنها جافة كالمطاط والبلاستيك، وحلما تفقد هذه المواد جزيئات مائها فإنها تفقد مرونتها، وتتفتت وهذا ما يحدث للأواني البلاستيكية والمطاطية إذا ما تعرضت طويلاً لضوء الشمس لا لحرارتها، فهل هذا كل شيء عن الماء؟.

لنتساءل: لماذا سُمي نبينا يحيى بن زكريا الطبيب الشافي الذي دواؤه الماء الحي؟ وما هو سر استخدام الماء في تطهير النفوس من آثامها؟ أو للتحلل من الخطيئة؟ ولتغطية ذلك علينا أن نعرف كيف نشأ الماء الحي وكيف نشأت معه الحياة في عالم النور...

وإليك مقتطفات من أحد نصوص الكنز الربا المبارك:

(... ولما كان مانا الكبير ذو الوقار في الثمرة الكبيرة تكونت منه ماذات كثيرة، زاد ضوءها وكبر نورها، ولم يكن أحد قبلها وعندما كان المانا الكبير هناك صار من تلك الثمرة آلاف مؤلفة من الثماء لا حصر لها، تقف وتوسع المانا الكبير الذي حل في الأثير العظيم للحياة الموجودة في اليردنا

(الماء الأبيض) ، إن رائحة هذا الماء تعطر أصول النور جميعًا ، ثم صار اليردنا الكبيرة ومنه صارت اليرادن ، ومن اليردنا نفسها نشأت الحياة ثم انصب نهر الحياة على أرض الأثير التي تسكن فيها الحياة نفسها متخذة هيئة مانا الكبير ذي العظمة... طلبت تلك الحياة لنفسها طلبًا فصار (الأثري) الذي أطلق عليه (الحياة الثانية) ولم تقم هذه الحياة إلا بعد أن جرى اليردنا الأول في أرض النور ، فنشأ أثريو الحياة الثانية في هذه اليردنا ، سأل الأثريون الثلاثة الحياة الثانية : أأنتم من خلق هذا النهر ، قالت : إن الحي العظيم خلقني ويردنا الحياة هو وأنتم صرتم بقدره الحي العظيم).

ما نفهمه من هذا النص أن الماء مثلما كان هو نبع الحياة، ومن دونه تموت في الدنيا، فهو أيضًا نبع الحياة في عالم النور ، وعندما تصلبت الأرض وسقطت في الماء، كان ذلك الماء المتاخم يحتوي على أسرار المادة ويخلو من أسرار النور ، ولكن بعد أن جُبل آدم ونزلت فيه النشمتا وهي مرسال عالم النور ، أصبح هذا الماء المتاخم (ميا تهمي) غير ملائم لأنه يفنقر إلى أسباب النقاء لأنه ميت لا حياة فيه ، ومن أجل النفس لابد من إنعاشه بإقحام أسرار النور فيه ، لذلك أضيف الماء الحي إليه بنسبة جزء واحد إلى ثمانية أجزاء من (الماء التهم) إذن فالماء الحي بالنسبة للماء التهم كالنيشمتا بالنسبة للجسد ، وهو كنسبة رأس الإنسان إلى جسده ، إذن فالماء مثلما يظهر الجسد من الأدران العالقة به فهو يظهر النشمتا من النجاسات التي تعود إلى عالم الظلام ، ويتم ذلك بالصباغة الحية في الماء الجاري (اليردنا) لأن أسرار النور تكون حرة طليقة ولها القدرة على كبح أسرار النجاسة.

أما إذا لم يكن الماء جاريًا كالماء الموضوع في القدور أو في الأحواض والتي لا ينساب منها مثلاً ، فإن أسرار النور وهي أسرار الماء الحي تكون مقيدة لا حول لها ولا قوة ، ولهذا تستطيع أسرار النجاسة أن تشل قواها فيتجرد الماء منها ، وذلك إذا ما لامسته النجاسة ، ولكنه إذا كان بعيدًا عن النجاسة يبقى محافظًا على طهارته لأي فترة زمنية مهما طالت ، لذلك يمكن استخدامه

للتطهير وذلك بسكبه على أي جسم يراد رفع النجاسة عنه ، لذلك فمياه الينابيع المتدفقة والآبار الجارية والشلالات جميعها تحافظ على أسرار الماء الحي ، إذن فهي طاهرة ، فالماء مادام جاريًا لا ينجس مهما لامسته النجاسة.

إذن فالماء الجاري (اليردنا) مهما علق به من أدران أو طين أو أوساخ يبقى صالحًا لإجراء الصبغة الحية فيه ، وبالعكس مهما كان الماء صافيًا ولكنه غير جاري ؛ فإنه لا يصلح مطلقًا لإجراء الصبغة فيه ، لا لكونه نجسًا ، بل ينجس عند لمسه أو الغطس فيه ، ولكن يمكن أخذ أية كمية منه بواسطة إناء طاهر وسكبه لغرض إزالة النجاسة ، فسكبه يرفع القيود عنه وتزداد قوة أسرار الطهارة ، إذا اتحدت مع أسرار ضوء الدرفش الذي يشع على الماء الجاري ، فعندما يحتضن ضوء الدرفش والماء بعضهما الآخر يسخران (شلمي وندبي) هؤلاء هم المختارون الصادقون الذين يذهبون إلى اليردنا ، وبضوء الدرفش يرفلون لأنه يحرسهم ويقومهم ويرفع صباغتهم إلى العلياء ، أما الممبوها (الماء المبارك) فيعده رجل الدين بعد ملء قنينة من الماء الجاري وختم فوهتها بـ(الشوم ياور) ، ويباركه بدعاء (برياويش كنّا) ودعاء (أشمخ يثر هيي).

أما الطريانة فيعملها رجل الدين من الطين الحي الذي هو على تماس مع الماء في اليردنا ، لأن هذا الطين يحتوي في داخله - حتى لو جفّ - على كمية من الماء الحي ، وترمى في النهر بعد الانتهاء من استعمالها للأغراض الطقسية ، ولا يجوز فخرها لأنها ستفقد الماء الحي الذي يحافظ على طقسيتها ، وفي هذه الحالة فغير المسموح استعمال الصحون المعدنية أو المصنوعة من السيراميك لا سيما إذا أريد استخدامها لعمل (المسخثا) أو (القماشي) أو سواهما من الطقوس التي تستوجب درجة عالية من الطهارة.



الفصل الخامس

البحث الأول : قصة ترجمت الكنز ربا .

البحث الثاني : الفكر المندائي (النشمانا) (النفوس ومن سواها)

البحث الثالث : الإيمان (الناصروثا)

البحث الرابع : ميثولوجيا مندائية

البحث الخامس : المصبنا (الصباغت)

البحث السادس : المسقنا (الارتقاء)

البحث السابع : اللوفاني (طعام الغفران)



البحث الأول

قصة ترجمة الكتاب المقدس الكنز ربا (باختصار)

كنت فتىً يافعاً وأنا أشاهد جدي رحمه الله يصلي (بيرخ ويرشم) ويفرض علينا التعليمات الدينية ولا يسمح لنا مخالفتها ، وخاصة في الطعام والشراب ، وأذكر مرة في العيد الكبير اشتروا خروفاً وذبحوه بعد عدة إجراءات طقسية دينية من قبل رجل الدين ، ثم رموه قائلين إن الخروف نعجة أي أنثى وغضب رجل الدين واتضح أنه لا يحق له بعد ذلك إجراء أي طقوس دينية إلى أن يصبغه عدة مرات عدة رجال دين .

وكنت أسمع من جدي وهو يتكلم لغة مندائية ويحفظ شيئاً من الكتاب المقدس والتعاليم ، وبعد وفاة جدي رحمه الله لم يكثر أبي كثيراً لتعاليم الدين ولم يتشدد معنا ، ولم أسمعه يقرأ شيئاً من الكتاب المقدس... وعندما توفي والدي رحمه الله وجدت نفسي لا أعلم الشيء الكثير عن الدين وعما في الكتاب المقدس وإنما أنا صابئي مندائي بالفطرة ، أو بالوراثة ، أو بأصرة الرحم أو آصرة الدم ، وأعرف بعض الأعراف والتقاليد الموروثة .

وعندما عملت في صفوف الطائفة وأُنتخبت رئيساً لمجلس شؤون الطائفة ؛ وجدت أن الفرصة أضحت سانحة لتحقيق بعض الأمنيات ، ومنها ترجمة الكنز ربا إلى اللغة العربية ، فعرضت الأمر على أعضاء المجلس فهللوا ورحبوا وشجعوا ، وكان جميعهم من وجهاء الطائفة الأكفاء ، ومن هنا بدأت القصة .

١- لقد كانت فترة التسعينات من القرن الماضي من أصعب السنوات التي مرّت على العراق بشكل عام ، وعلى المندائيين بشكل خاص ، فقد تدهورت الحالة الاقتصادية للعراقيين بسبب الحصار الذي فرض على العراق مما انعكس على باقي مفاصل الحياة الأخرى... حتى انحدر الوضع الأمني إلى الهاوية

وأصبح مخيفاً ومرعباً، ومما زاد في الطين بله؛ تبني النظام الحملة الإيمانية التي استغلها تجار الدين والمنافقون لمكاسب شخصية من أجل تحقيق مآربهم.

فتعالت أصوات نشاز تتهجم على من هو غير مسلم من خلال خطب الجمعة في بعض جوامع أطراف بغداد، وبعض المحافظات، وقد وصل الأمر إلى حد التحريف والتكفير والالاتهام ثم الشتائم والسب، وأصبح كل يغني على هواه، ووصلت الأمور في بعض المدن العراقية إلى حد شراء الذمم لبعض المندائيين المسحوقين مادياً، واستغلال حاجتهم للسكن والعمل، فتم إغراؤهم بالمال الزهيد لتغيير دينهم، وبدأ هذا الموضوع يسري في بعض المدن بشكل سريع وملفت للنظر.

٢- إضافة إلى الضغوط التي تعرّض لها المندائيون في المدارس والمجتمع المتمثلة في انتقادات واتهامات باطلة إلى الدين المندائي، وكانت تتمحور في سؤالين هما، ما هو كتابكم؟... ومن هو نبيكم؟، فكان غالبية المندائيين يقفون صامتين، وهذا لأنهم لم يطلعوا على كتابهم ولا يعرفون ما فيه من قيم وأفكار ومبادئ سامية، لكونهم يجهلون اللغة المندائية قراءة وكتابة وتحدث، وهي لغة آرامية قديمة.

٣- كما أن الهجرة الكبيرة والعشوائية التي نشطت في ذلك الوقت لأسباب اقتصادية وأمنية والتي أدت إلى توزيع المندائيين على مختلف بلدان العالم، مما يخشى على الأجيال القادمة من الانسلاخ عن ماضيهم وتراثهم ودينهم، وذلك من خلال فقدان اللغة العربية وتعلم لغات جديدة مختلفة والعيش والاختلاط مع ثقافات جديدة بعيدة كل البعد عن لغتنا وعاداتنا وتقاليدينا، ولكي يحافظ المندائي على دينه ومعتقداته ولغته العربية، كان لابد أن يكون الكتاب المقدس في كل بيت مندائي للمحافظة على معتقداته ولغته وهذا أضعف الإيمان.

٤- إضافة إلى وجوب إطلاع أخوتنا من الأديان الأخرى على ديننا ومعتقداتنا وبشكل مباشر وطرح إجابات وافية وصحيحة على كل الأسئلة والالاتهامات

الباطلة التي كانت متداولة في الشارع ضد الدين المندائي ، مما يعرّض المندائيين إلى كثير من الإحراج الذي هم في غنى عنه ، وحيث أن ليس في الدين المندائي ما يعيبهم أو ما يسبب لهم إشكالاً أو حرجاً ، بل إن كل ما فيه يجعلنا فخورين أمام الجميع أننا جذر التوحيد الأول ، وأنا نؤمن بالله واليوم الآخر ، وأن لنا كتاب عظيم (كنزا ربا) ، فمن يطلع عليه ويقرأ سطور منه ينتابه الخشوع والرغبة لما يتضمنه من حب وتقديس للخالق في علاه.

٥- كما أن المكتبة العربية بحاجة إلى هذا الكتاب ليسد فراغاً في سلسلة المراجع الدينية المختلفة باعتباره أهم مرجع للديانة المندائية لكي يطلع عليه الباحثون والمؤرخون وعموم المثقفين ويفهموا أن كل ما كتب شيء والسفر المقدس يمثل الحقيقة الصادقة بأبهى صورها.

٦- كما أن المدرسة المندائية التي أسسها مجلس شؤون الطائفة في دورته الأولى ضمت عدداً كبيراً من الدارسين ومن مختلف الأعمار والمستويات الثقافية ، وكانوا بحاجة ماسة إلى الإطلاع على كتابنا المقدس (كنزا ربا) بشكل واضح ومقروء باللغة العربية واعتباره منهجاً أساسياً في التعليم.

٧- أصدرت الدولة العراقية قراراً بإعفاء رهط من السجناء الذين قضوا نصف مدتهم ، شريطة أن يحفظوا شيئاً من كتبهم المقدسة ، فكان لزاماً سرعة ترجمة الكتاب المقدس إنقاذاً لعدد لا يستهان به من المندائيين.

٨- ومن هنا كانت الانطلاقة للتفكير بمشروع ترجمة الكنزا ربا إلى اللغة العربية ليستفيد منه الجميع ، بعد أن بدأنا بطرح سؤال: ما قيمة أي ديانة بدون نبي وكتاب؟ فصار لزاماً علينا للإجابة على هذا السؤال أن ننبت:

أولاً: أن لدينا كتاب ولنبرهن أننا أصحاب دين موحد يؤمن بالله الواحد الأحد لا شريك له ، ونؤمن أن هناك ثواب وعقاب وآخرة ، وأنا نؤمن بأنبياء الله وملائكته الأثرين المسبحين للخالق ، وأن هناك مثل وأخلاق نؤمن بها ونعمل عليها تتسجم مع باقي الأديان السماوية الموحدة والتي نتعايش معها في مجتمعنا العراقي العربي الإسلامي.

وثانيًا: علينا أن نظهر نبينا ونؤكد مكانته الجلية بين الأنبياء وفق ما جاء في جميع الكتب المقدسة للديانات السماوية الموحدة.

٩- تمّت مناقشة موضوع مشروع ترجمة كتابنا المقدس في اجتماع خاص لمجلس الشؤون العام، وقدم كمقترح إلى مجلس العموم للتصويت واستحصال الموافقة عليه، فلاقى هذا المشروع تأييد وتشجيع منقطع النظير من الجميع، وأبدى الأخوة المندائيون كامل استعدادهم للمساهمة المادية والمعنوية.

١٠- وعلى هذا الأساس صدر قرار مجلس العموم الموقر بالإجماع لتشكيل لجنة عليا للترجمة من السادة بشير عبد الواحد يوسف رئيس مجلس الشؤون رئيسًا للجنة، حمودي مطشر تقي رئيس المحكمة الشرعية المندائية عضو، داخل يوسف عمارة أمين سر مجلس الشؤون عضو.

١١- باشرت اللجنة بوضع برنامج عمل لإنجاز هذا المشروع المبارك، فجمعت عدد من نسخ (الكنازي) وهيأت المستلزمات الضرورية للترجمة، من قرطاسية ومصادر وقواميس، وشكلت لجنة موسعة من جميع الأشخاص الذين لهم معرفة ودراية باللغة والدين المندائي آنذاك... وباشروا عملهم وعقدت سلسلة اجتماعات ولكن بعد حين انفرط عقد اللجنة بسبب تباين الآراء والبطء الشديد في الترجمة.

١٢- عرض د. محمد عبد الله عبد الشيخ أن يقوم بالترجمة من النسخة الألمانية التي كان قد ترجمها (ليذربارسكي) أوائل القرن الماضي من المندائية إلى الألمانية، كونه يتقن اللغة الألمانية، فتم الاتفاق ولكن بعد الإطلاع من قبل اللجنة وعدد من مثقفي أبناء الطائفة، تمّ رفض الترجمة لأنها جاءت من الألمانية إلى العربية علمًا أنها مترجمة من المندائية إلى الألمانية، كما أن هناك فراغات كثيرة وأن الترجمة قد ابتعدت كثيرًا عن الجوهر والمعنى والروح المندائية.

١٣- اتفقت اللجنة مع الأستاذين الفاضلين : أ.د. يوسف متى قوزي ، أ.د. صبيح مدلول الخميسي ؛ لكون د. يوسف قوزي متخصصاً باللغات السامية وتحديدًا الآراميات ، ولكونه سريانيًا ولقرب السريانية من المندائية بشكل كبير ، وكون د. يوسف يملك مؤهلات عالية في هذا المجال وله ترجمات كثيرة وكبيرة ناجحة ومشهود له بالأمانة والدقة والمطاوله والحياد ، وهو عالم لغات بمعنى الكلمة ، وذو خبرة واسعة يشهد له الجميع وأستاذ ناجح للغة المندائية في كلية اللغات جامعة بغداد ، ولردح من الزمن تخرج على يديه رهط من الأساتذة المعروفين ، وأيضاً د. صبيح أستاذ اللغة العبرية في كلية اللغات جامعة بغداد ، ويجيد اللغة الألمانية وله عدة مؤلفات مندائية وعدة كتب مترجمة ، وتم تنظيم عقد أصولي بين الطرفين ، الطرف الأول رئيس اللجنة بشير عبد الواحد وعضو اللجنة حمودي مطشر ، والطرف الثاني د. يوسف ود. صبيح.

١٤- استغرق العمل بالترجمة الحرفية سنتين ونيف ، تمَّ استغلال دار في مزرعة في أطراف بغداد يملكها عضو اللجنة السيد حمودي مطشر الذي هيأ كل مستلزمات الضيافة والخدمة لكافة العاملين في هذا المشروع النبيل ، وكانت اللجنة تتابع أعمال الترجمة كلمة كلمة وسطر سطر ، وكان د. يوسف متعاوناً بشكل جميل ، ولقد تطوع للعمل في هذه المرحلة المهمة المحامي غريب مهتلف وأستاذ اللغة العربية مجيد جابك.

١٥- قمنا بعدة محاولات لصياغة الترجمة الحرفية كان أحسنها صياغة الأستاذ مجيد جابك الذي اعتمد الأسلوب السردى ، ولاحظت اللجنة أن النصوص بهذا الأسلوب لا تحدث خشوعاً أو رهبة عند قراءتها.

١٦- بعد مناقشات مستفيضة تمَّ الاتفاق مع الشاعر المندائي عبد الرزاق عبد الواحد ، لأن النص المندائي في كتابنا المقدس مكتوب شعراً في أغلب الأحيان ، وهو موزون بشكل رائع وجميل.

١٧- اعتمدت اللجنة الشاعر عبد الرازق ليقوم بالصياغة الأدبية للترجمة ، بعد أن تأكد لنا أن الصياغة الأدبية على يد شاعر مثل عبد الرازق ستساعد الترجمة الحرفية على وضوح المعنى ودقة العبارة مع التأكيد على التقيد بأمانة على روح النص وجوهره.

١٨- هيأت اللجنة كل مستلزمات العمل واعتكف الشاعر في مكتبه في الطابق العلوي من داره بعد أن فرغ نفسه بالكامل لهذا العمل الجليل ، وهياً المعاجم والمصادر التي يحتاجها رغم شاعريته الكبيرة ولغته العربية الجزلة وإلمامه الكبير بمفردات اللغة العربية ، وقد وصفه الشاعر الكبير أدونيس في إحدى المناسبات أن الشاعر عبد الرازق أثّرنا مفردات لغوية.

١٩- هنا أضيف إلى اللجنة كفاءة جديدة كانت اللجنة بحاجة ماسة لها ، السيد نزار ياسر صكر رئيس تحرير مجلة آفاق مندائية، الذي ساهم بفاعلية عالية في متابعة الصياغة الأدبية والخط والطبع.

٢٠- واصل الشاعر العمل ليل نهار ، وكنا نناقش معه النص عدة مرات وأحياناً يتطلب الأمر إعادة كتابة النص مرات ومرات ، وكنا نستمتع بقراءة النص.

٢١- أبدى الشاعر تعاوناً منقطع النظير مما أغرى اللجنة أن تطالبه المزيد من الإبداع ، واستمر بالعمل على ضوء الشموع بسبب انقطاع التيار الكهربائي ، وعشنا معه أجواء روحانية لا تنسى ، وكان سعيداً معنا وفرحاً بهذا الإنجاز الكبير ، حتى قال ونشر في إحدى الصحف إنه عمل كبير سيكون مجد حقيقي له وللعاملين بهذا المشروع.

٢٢- تمّ الاتفاق على الإبقاء على بعض المصطلحات المندائية لإعطائها النكهة المندائية وخاصة المصطلحات المتداولة بين المندائيين بناء على مقترح من د. صبيح مدلول ، وخاصة الكلمات الأساسية في السفر المندائي مثل : (هي ، يردنا، نشماتاً، أثري... إلخ).

٢٣- شكلت لجنة الترجمة لجنة أخرى أسمتها (لجنة التدقيق والسلامة الفكرية)، واجبها مراجعة جميع النصوص التي تمت صياغتها ومقارنتها بالترجمة الحرفية وتدقيقها وإبداء الملاحظات والآراء لغرض توكي الدقة والأمانة واتفاق الآراء على الضوابط المعلنة سلفاً في عملية الترجمة والصياغة الأدبية وهي:

أ- إبراز مبدأ التوحيد في النصوص وإظهار ذلك بشكل واضح وجلي.
ب- التأكيد على الأهمية التاريخية لمواد الكتاب وتسلسلها الزمني حسبما ورد في الكتاب المقدس وأن التواريخ فيه لا تتقاطع مع التاريخ العام.
ج- إظهار حقيقة الديانة المندائية المحبة للسلام والتعايش وأنها لا تتقاطع مع الديانات الأخرى.

د- أن تكون الصياغة والترجمة أمينة ودقيقة لتزيد المندائي إيماناً وتمسكاً بدينه ووحداية الحي العظيم.

هـ- يجري تقييم كامل وشامل للكتاب للتأكد بأن هذه الترجمة ستنتقل الطائفة والدين المندائي نقلة نوعية للأمام وبعبءه سوف لن تعتمد الترجمة، وقد تم تأليف اللجنة من السادة: (د. أنيس زهرون- أمين فعيل خطاب- سميع داوود- همام عبد الغني- صلاح جبار عوفي)... مضافاً لهم لجنة الترجمة (بشير، حمودي، نزار)، وكان الشاعر عبد الرازق ضيف اجتماعاتها في مندي الطائفة في القادسية لساعات متأخرة من الليل.

٢٤- قام السيد بشار حربي سكرتير مجلس العموم آنذاك بالطلب من رئيس الطائفة الكنزفرا ستار جبار حلو أن يبارك هذا الإنجاز بكل حرية وبناء على طلب مجلس العموم بارك رئيس الطائفة الترجمة، وثبتت كلمته في صفحات الكتاب الأولي واللجنة تحترم وجهة نظره.

٢٥- لقد حررنا هذه النصوص الرائعة وأخرجنا هذا الكنز ونفضنا عنه غبار القرون المتعاقبة، فمن حق جميع أبناء الطائفة أن يفخروا بعد أن نال إعجاب المندائيين وغير المندائيين، واعتبر إنجاز لا يقدر بثمن.

٢٦- ولكي يكون إنجاز هذا المشروع صوتاً مدوياً ؛ قررت اللجنة إقامة احتفالية كبيرة ورائعة في قاعة المندي في القادسية احتفالاً بصدور الكتاب المقدس بطبعته العربية الأنيقة، وتدافع أعضاء المجالس لإنجاح الاحتفالية، تمّ دعوة عدد كبير من نجوم المجتمع العراقي السياسية والثقافية والفنية والإعلامية والسلك الدبلوماسي العربي والأساتذة والأدباء والعلماء والباحثين وحضرته عدد من الفضائيات ووجوه وشخصيات مندائية كثيرة وقد تمّ ذلك في ٧-١-٢٠٠١ مساءً، ولقد أقيم معرض في باحة المندي وزين المندي والقاعة وأقيمت كلمات قيمة ووزعت هدايا كثيرة منها شهادات تقدير، وتم قراءة بعض البوٲ (الآيات) بصوت الشاعر عبد الرزاق... لقد عملت اللجنة ومن دعمها ومجالس الطائفة كخلية نحل، لقد كان صدى الاحتفال رائعاً في جميع الأوساط، وقامت وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة بنشر ونقل الاحتفالية وأصبح الحلم حقيقة.

٢٧- لقد اكتسب الكتاب المقدس الصفة الرسمية بعد أن وزعت أعداداً منه على المراكز العلمية والأدبية والرسمية والجامعات والقضاة والمراجع الدينية والمكتبات وعدد من الرؤساء والسفراء، وأعطت عدداً من النسخ إلى وزارة العدل ووزارة الأوقاف والشؤون الدينية، واعتبرت الدولة العراقية كتاب الكنزا ربا كتاباً مقدساً للصابئة المندائيين، لما يحويه من مفاهيم للتوحيد وعبادة الخالق ووصايا تخدم الناس والإنسانية جمعاء، وصدر أمر أن تحفظ نسخة منه بطريقة علمية في صندوق مفرغ من الهواء ومختوم بالشمع مع الكتب السماوية الأخرى، ليكون مرجعاً لمئات السنين المقبلة.

٢٨- تمّ طبع أعداد كبيرة من الكتاب ولكن رغم أعدادها فهي قليلة، بعدها تمّت ترجمة كتاب تعاليم نبي الله يحيى (دراشة أديها)، وقام بالترجمة الأستاذ أمين فعيل وصياغة الأديب سميع داوود وبإشراف اللجنة العليا للترجمة، وتم طبع أعداد منه وزعت في الداخل والخارج.

٢٩- لقد كان لهذا المشروع الكبير الأثر في تعزيز موقف المندائيين في العراق في أيام صعبة مرّت على الطائفة يعرفها كل من لم يغادر العراق ، لقد كان أول رد فعل لصدور الكتاب هو أننا لم نلاحظ نهائياً أي إمام جامع في خطبة الجمعة أو غيرها التعرض للدين المندائي أو للمندائيين... وكانت اللجنة حريصة أن يصل الكتاب المقدس إلى كل المراكز العلمية والأدبية في العراق وخارجه ، لقد أحدثنا ثورة إعلامية إيجابية وهكذا تأكد للجميع أن الصابئة المندائيين أصحاب كتاب وموحدين نؤمن بالله واليوم الآخر وبأنبيائه ورسله وملائكته.

٣٠- لقد أصبح الكتاب المقدس ملك الجميع يقرؤونه ويفهمونه من الغلاف للغلاف ، بعد أن كانوا لا يعرفون محتواه وهو كنز من كنوز المعرفة والفلسفة واللاهوت ، وأن صياغته بلغة عربية سليمة ومتقنة أعطى لقارئه قوة البيان والتعبير وأفاد في كثير من الأمور :

أ- لقد أصبح سلاحاً ومرجعاً عند كل بيت ليزداد إيماناً بالحي العظيم ، ولكي تتعزز حصانته وقدرته على مجادلة الآخرين بالتوحيد وبما يحتويه من وصايا وتعاليم.

ب- أثبتت ترجمة الكتاب كون الصابئة المندائيين أناس موحدين وهم جذر التوحيد الأول ، لا كما ألصق بهم من تهمة وافتراءات مثل عبادة النجوم والكواكب وغير ذلك ألصقها بهم ظلماً وافتراء القطيعي وعبد الرازق الحسيني لمرض في نفوسهم.

ج- ظهور هذا الكتاب المقدس باللغة العربية يفيد أبناء الطائفة المغتربين بالحفاظ على هويتهم المندائية ولغتهم العربية.

د- زاد من إيمان قارئيه وحافظي نصوصه وأثر بتطوير وتحسين لغتهم العربية.

هـ- بعد أن اطلع إخوتنا من الأديان الأخرى على الكتاب ؛ ازداد تقديرهم واحترامهم لإخوانهم المندائيين لما وجدوا فيه من مثل وقيم ومبادئ سامية...

من أجل كل هذا ترجم الكتاب المقدس (كنزا ربا) والله ولي التوفيق.

* * *

المصدر:

١- قصة ترجمة كتابنا المقدس (كنزا ربا)... اللجنة العليا للترجمة- بغداد
٢٠٠١.

٢- أرشيف الطائفة.

السفر العظيم يظهر إلى النور

كلمة الدكتور بشير عبد الواحد يوسف

رئيس اللجنة العليا للترجمة التي ألقاها في الاحتفال

سيداتي سادتي الكرام...

قال ملك النور السامي فكان كل شيء ، رُفعت السماء وبُسِطت الأرض ووُهبَت الشمس ضياءً ووُهب القمر بهاءً ، والنجوم سناءً ، ورفعت كل إلى مدار... وتكونت العواصف والماء والنار ، وتكونت الثمار والأعناق والأشجار ، وتكون الحيوان الأليف والوحش الكاسر ، ومن التراب والطين الأحمر والدم والمرارة ومن سر الكون جبل آدم وحواء ، وحلت فيهما النفس بقدرة ملك النور .

أمر الله سبحانه الرسول الطاهر جبرائيل (منداهيي) أن اذهب وناد آدم وحواء زوجه بصوت سني ، علم آدم ليستتير قلبه وقومه ليستتير عقله وجنانه ، علمه يا جبرائيل وزوجه وذريته الحكمة كيلا يغويهم الشيطان ، علمهم الصلاة يقيمونها مسبحين لملك النور السامي ، ثلاث مرات في النهار ، ومرتين في الليل ، قل لهم اتخذوا لأنفسكم أزواجاً وتناسلوا منكم ليزداد عددكم... ومنداهيي يعلم آدم وحواء وصايا الرب وتعاليمه وآدم وحواء يمجدون ويعظمون ويسبحون خالقهم ويشكرون كثيراً ويحفظون وصايا الرب في الصدور .

قال الحي وهو مستوٍ على عرشه بين أنواره : ليكن الموت من نصيب أهل الدنيا إن آدم عاش ألف عام ، فليخرج من جسده قبل أن يشيخ ، وقبل أن توهنه الأسقام... ونفذ الصوت... نحن نسميه الحق وأنتم تسمونه الموت .

إخوة الإيمان : في البدء وهب النداء لآدم ، لآدم وهب النداء ، فكانت كلمة واحدة وشهادة واحدة ، بعدها أخذ العالم بالسيف والوباء ، فأذن للنفوس أن تخرج من أجسادنا ذلك الخروج لتصعد حيث النور ، ويبقى رام وزوجه رود فيحيا بهما

العالم ، وقدرنا لرام أن يعيش ألف عام ، بين آدم ورام ثلاثون جيلاً ، ثم يؤخذ العالم بحريق النار ، وتخرج النفوس كلها من أجسادها ، ولأنها لم تكذب بالنداء الأول ولم تغير الكلمة الأولى تصعد إلى النور ، ويحيا العالم ويمور ، خمسة وعشرين جيلاً بين رام ورود وشورباي وشرهيل ، بعدها يؤخذ العالم بالطوفان ، فتصعد النفوس إلى النور ، ويبقى نوح وسام بن نوح خمسة عشر جيلاً بين نوح وشورباي ، والبشر من سام بن نوح ونهوريتا زوجته يتكاثرون ويستمرّون إلى أن يأذن الله فتقوم الساعة.

سادتي الأفاضل : لقد مرّت أجيال وأجيال وهذا السفر العظيم بقي محفوظاً إلى أن هيا الله جلت قدرته أبناء بررة ، وبعد أن تهيأت الظروف الملائمة المعنوية والمادية والكفاءات الأمنية الصادقة... وبعد أن أجمع الجميع على ضرورة نشر هذا السفر العظيم ليكون على لسان كل المؤمنين بالحي العظيم.

أيها الحفل العظيم : لم يكن هذا الإنجاز بالأمر الهين السهل على اللجنة العليا المشرفة على الترجمة التي تشرفت برئاستها ، فلقد بذلت جهود وأموال ووقت ومطاولتها وجهودها بالنجاح والتوفيق ، لقد حرصنا وبكل صدق وأمانة أن تكون الترجمة الحرفية أمينة ودقيقة ، وكان المترجمون عند حسن الظن ، فلقد أجادوا كل الإجابة ، كما حرصنا أن تكون الصياغة اللغوية بلغة عربية فخمة لكون كنزا ربا نزل بلغة مندائية راقية ، حتى قال عنه المستشرقون إنه من روائع الأدب ، ورغم قوة ومتانة الصياغة الأدبية وراقيها عملنا جاهدين أن يكون كلام الحي الأزلي مفهوماً لدى عباده.

إن اللجنة قد وضعت نصب عينيها أمانتين : الأولى أن يرتقي المترجمون واللغويون كبشر إلى فهم تام لجوهر النص الديني ، والثانية أن نضع كلام الحي العظيم أمام المؤمنين بالله وكتبه ورساله...

أيها الأخوة... لقد أنجزنا هذا العمل الجليل وقدمنا هذا الكنز الثمين ليسد فراغاً كبيراً في حقل المعرفة الدينية ، مركزين على وضوح العبارة وفخامة الصياغة

الأدبية والأمانة لروح وجوهر النصوص الأصلية ودقة المعاني ، ولذا آثرنا أن تبقى بعض الكلمات المندائية كما هي زينة للكتاب المقدس .

سادتي الكرام : لقد وقع اختيار اللجنة على الأستاذ الدكتور يوسف متى قوزي والأستاذ صبيح مدلول السهيري وكونهما من أبرز المختصين بالآراميات لإنجاز الترجمة الحرفية من اللغة المندائية إلى اللغة العربية مباشرة ، وقد تمّ ذلك بكل دقة وأمانة ، فحيوا معي هذين الأستاذين الفاضلين ، كما اختارت اللجنة الشاعر المندائي الكبير عبد الرازق عبد الواحد لإنجاز الصياغة اللغوية ، حيوا معي هذا الشاعر الكبير الذي ارتقى إلى جوهر النص الحرفي ، وقد صاغه بأدبه الرفيع ولغته الراقية ، وكان مع اللجنة العليا متواضعاً ومتعاوناً إلى أبعد الحدود .

إخوتي الكرام : تحية إلى أعضاء اللجنة الأساتذة حمودي مطشر تقي ، وداخل يوسف عمارة ، ونزار ياسر صكر لجهودهم المتميزة وتضحياتهم الكبيرة ، وتحية إلى أعضاء لجنة التدقيق والسلامة الفكرية الأساتذة الدكتور أنيس زهرون داغر وأمين فعيل حطاب وسميع داود سلمان وهمام عبد الغني غياظ وصلاح جبار عوفي ، وبصفتي رئيس اللجنة العليا للترجمة أحيي الجميع وأبارك جهودهم ، وأحيي كل من قدم الدعم المعنوي والمادي داخل العراق وخارجه ، ورجال الدين الأفاضل ، وأخص بالذكر وبكل امتنان رئيس الطائفة فضيلة الشيخ ستار جبار حلو ، وكذلك سكرتير مجلس عموم الطائفة الأستاذ بشار حربي درويش... وأعضاء مجالس الطائفة عموماً الذين وقفوا موقفاً مشرفاً من هذا المشروع .

في رحاب الكنز ربا -

لا شك أن صدور الترجمة العربية لكتابنا المقدس قد شكّلت انعطافة تاريخية مهمة في حياة أبناء الطائفة؛ خاصة إلى المكتبة العربية والفكر الإنساني عموماً وقد فتحت الترجمة باب واسع عريض لكل الشغوفين بمعرفة الديانة المندائية معرفة دقيقة متبصرة، تزيح ستار الغموض والسرية الذي غلفها قروناً طويلة بات فيها - أو كاد أن يكون - (حاشا قدره) طلسمًا لا يمكن فك رموزه وفتح مغاليقه للناطقين بلغة الضاد.

وكان الإيمان بالكتاب المقدس ومضمونه إلا شذرات طرزت هنا وهناك بعض من كتب المؤلفين المندائيين، وقد سطرت حوله الحكايات والروايات الشبيهة بالخيال الأسطوري والتي لا تمّت بصلة إلى جوهره المنطقي الرصين وبسبب هذا الجهل الفاضح آنذاك أعطيت إجابات متباينة حول أسئلة بديهية تتعلق بالخلق والبعث والميعاد والدينونة، وكنا نساق إجابتنا حولها مع الطروحات اللاهوتية والفلسفية للأديان الأخرى دون أن نستطيع إبراز هويتنا الفكرية المندائية وخصائصها المحددة التي وإن كانت لا تتباين إلى حد التناقض مع الأديان الأخرى إلا أنها لا تتطابق إلى حد الاستنساخ عنها، ولا أخفي القول إن رجال ديننا حينذاك قد تملكهم رغبة قوية في الاستئثار بمعرفة الكتاب المقدس ولم يكبدوا أنفسهم جهد العناء في ترجمة أجزاء واسعة منه فبقيت مغاليقه عصية على الفتح أمام العقول الطامحة لقراءته وفهمه ودرسه واستيعابه، والآن وبعد أن أصبح واقعاً بين أيدينا وبلغة عربية مفخمة سليمة أن لنا أن نسأل هل مازلنا ننظر إليه كتاباً للتبرك واليمين القسم فقط، أم أننا بدأنا قراءته قراءة جادة واعية متبصرة لندرك ونطبق تعاليمه الثرية المحيطة بكل شؤون ديننا وآخرتنا...

- كتب الألائد بشار حربي عدة مقالات في رحاب الكنز ربا ، نذكر شيئاً منها.

إن ما تضمنته دفئا (كنزا ربا) بجزئيه اليمين واليسار لهو كنز رباني عظيم في عرفانيته وتجلياته وسلاسة منطقته وشمولية رؤيته وحججه الدامغة في التوحيد ووصاياه التي تمثل دستوراً متكاملًا للحياة المندائية المؤمنة النقية الطاهرة ومثاليته غير الموهومة وثره في الأمثال التي هي خلاصة الحكمة الإلهية وشرحه الوافي للحياة الأخرى بعد الموت وتشريعاته التي تصلح لكل زمان ، فالإنسان هو الإنسان نفسه منذ آدم عليه السلام حتى يومنا هذا بغروره وجبروته ، بتواضعه وضعفه وتقواه ورذيلته والقوانين الإلهية التي تملأ كنزا ربا تشذب سلوكه وتسمو بشخصيته إلى علياء الكمال ، وهي السبيل والوسيلة لرضا الحي العظيم لأنها بها وحدها ترتقي النفس سلم النجاة لعالم الأنوار البهي السامي في تبتله ونقائه وطهارته ، وقد جاء في التسبيح الثالث لكنزا ربا اليمين (كل حي له نفسه يصفئها * يتعمدها ويقيها * لا تكن في خطيئتها ثاوية * إن أراد الخلاص من الهاوية)... هي إذن مسؤولياتنا الذاتية فقط في أن نعلم ونفهم ونطبق فننجو ولا مناص من الحساب.

وها هو طريق الإيمان تبصرة للنفوس المؤمنة الراضية المسبحة للرب في علاه والتي سمعت فأطاعت وأمرت فخشعت لمن تقرد في سناه تهلل له بكرة وعشيًا وتنشد له النشيد الانعتاق من قيود عالم الظلام (العالم باطل وملكه زائل لا بقاء لذهبه وفخته لا لدمعته ولا لأبتسامته)... كنزا ربا.

فمتى ستستكين نفوسنا وتبرأ ضمائرنا ولا ننشغل بأهوائنا وأنفسنا ولا نتعثر بخطايانا فننصرف إلى النار المحرقة ، إن تمسكنا بإيماننا وأفلحنا بتقوانا زال عنا الكدر والعناء وشاع فينا الاطمئنان والصفاء ، هذه هي الكنزا ربا تأمرنا فنقول (اسمعوا واخلموا بما أوصيكم... فإن لم تسمعوا أو سمعتم ولم تعلموا فهي الظلمة التي وقع فيها الأشرار تقعون ، إنهم باقون فيها لا يصعدون)

اليمين - الوصايا

فلنشف أسماعنا بقول الحي الأزلي ولتضيء قلوبنا حروف النور الممجدية في كنزنا العظيم كي يتبدد ظلام عالمنا البهيم.

الكنز الثمين -

سفر نفيس فيه من الأدب الكريم والتجلي السامي ما يرقى إلى التسبيح بحمد الله والثناء على الحي القيوم بديع السماوات والأرض ، ودليل إيمان قويم يزكي اعتقاد لطائفة من الربانيين ويفردهم بتميز ، بل يجعل منهم أمة من الناس بسماتها الظاهرة وقيمها العامرة وتقاليدها التي كانت نقلة في الحياة الإنسانية ، فيها من التطهر الروحي والجسدي ما يتسق في الدين الذي تلقاه الأنبياء والمرسلون تنزيلاً من رب العالمين.

لقد غبطت نفسي حقاً وأنا أتناول هذا الكتاب الكريم من يد الأخ الفاضل نزار ياسر ، وكأني ألتقى بعض صحف منشرة من أيدي سفرة كرام بررة، وما كدت أدير عيني في سطورهِ وأنصت لحكمه وأتذوق الكلمة وأكاد أفقه بيان تسبيحه وحمده وابتهالاته، وأتأمل حروفه ونسقها، معانيه التي ترقى بالروح إلى بارئها الحي العظيم نور السماوات والأرض ؛ حتى عدت أدراجي أتذكر الأيام وأجول في بقايا الذاكرة من الطفولة والصبا ، وملتقيات الشباب والأدب وما يغذي الأذهان ويمنح البرهان من آلاء الرحيم الرحمن ، الذي خلق الإنسان وعلمه كيف يكون خليفة في الأرض...

ورأيتني أتلو من القرآن الكريم قوله تعالى : (أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفِرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا خُفِّرْنَا كَلِمَةَ رَبِّنَا وَالْإِلَهَ الْمَصِيرُ) ... ثم أعود لأسلم نفسي للذكريات على هدى وبصيرة من الله ، لقد كانت ربعة هلي في الحاوي متميزة بين الرباع والدواوين يغشاها الناس طوال السنة ، وفيهم أنماط من

— وهذا الأستاذ الجليل مصطفى نعمان البديري أستاذ علوم القرآن والأدب الحديث جامعة بغداد؛ يذلو بدلوه بكل أمانة وصدق وإنصاف كعراقي عربي يحب الله والمؤمنين ويؤمن بما أنزله الله على أنبياءه الصادقين ، فبارك الحي العظيم به وبأمثاله...).

١ - القرآن الكريم : سورة البقرة - الآية ٢٨٥

المشايع والفضلاء ، وذوي المكانة الاجتماعية والصدارة القومية والكتاب والأدباء ، كذلك السائحون والفقراء بأزيائهم المختلفة ، وسحناتهم المتغيرة ، وألسنتهم التي تتفاح تارة وترطن أخرى ، وكنت أجد من البهجة في تأمل أولئك بأوضاعهم ما يزيدي معرفة وإطلاع على كثير من الأحوال...

وأذكر يوماً رجلاً ذا لحية كثة سوداء وهندام وقور واحتشام، يقترب من الدار ، يقص الربعة ، وقد اختلف الأولاد من حولي في صفته (صبي) أم (صابئي) حضر أبي فجأة ليحسم الأمر بقوله : إنه صابئي فأكرموه ، وقد بقيت صورته المهيبة وحديثه الجميل عالقين في ذاكرتي إلى اليوم!... فكلما مررت بسوق للصاغة خاصة مددت عيني أستطلع لعلني أظفر بصورة ذلك الصابئي الأول الذي شاهدته بين من تجول النواظر فيهم.

وحدث أن التقيت بنخبة طيبة مثقفة من الصابئة يحاولون تعريف أنفسهم ، وسرني أكثر أن معي كتاب قديم فيهم ناولتهم إياه ليكون عربون التعارف ، وفرصة اللقاء وطي بعض الفرقة وأسباب الخلاف بين جيلين !

وتوالت الأيام وأنا ألح في الطلب إليهم أن يكونوا عند حسن الظن بأنفسهم أولاً ، وتهيئة كتاب في هذا الشأن ، بل أن يفتشوا عن (الكنز العظيم) الذي أخفته ضلة الأيام ، ولم أكن أتصور أن تبلغ الهمة فيهم مثل هذه الدرجة العالية التي اندفع بها المخلصون الجادون يحققون أمنية الأمانى ، ويصدقون الله والتاريخ والإنسانية بإثبات وجودهم الاعتقادي ، ودينهم التوحيد وسبيلهم القويم في الحياة الحرة الكريمة التي ميز الله بها بني آدم على سائر خلقه.

لقد ناولني أمين تحرير الآفاق المندائية ثمرة يانعة من جهده ورفاقه في هذا الشأن الجليل ، وأنا في غمرة الدعوة إلى إيضاح وحدة التفكير والاعتقاد التي كانت عليها الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه ، وحوار نوح إلى الله أن ينجيه وقومه من الغرق ، وتلقي إبراهيم للصحف ، وأخذ موسى للألواح ، وتعميد يحيى للأجساد والأرواح ، وبشرى عيسى ، واكتمال الإنسان المحمد الصفات ،

وقال الله سبحانه في هذا السبيل: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعملَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)¹... وحين يجيء كتاب يحيى مصدقاً لما بين يديه وكأنه تسبيحة البشرى السابقة للبشريات وصفات الله العظيم فيه، وابتهالات المؤمنين الصادقين بآدابها وأنغامها وتجليات الأرواح فيها، فإنما هي الانعطافة الأمانة على السبيل السوي والطريقة المثلى في التفكير الإنساني السديد.

لا أريد في هذه العجالة المقدمة بين يدي دراسة الموضوع وعقد الموازنة وذكر المتشابهات، ولا أريد التقريظ، وإنما ذلك ما سيتناوله البيان بأكثر من عرفان وأوعب دراسة وأزهى أدب بإذن الله، يتوفر عليه من يؤمنون بأنفسهم أولاً فيعرفون الله حق المعرفة بعبادته والإخلاص فيها بالعمل الصالح، فلا يطغى طين على طين!

وإنما أذكر شيئاً واحداً: لقد اكتشف (كنز الرب العظيم) فما على المؤمنين حقاً إلا الإطلاع عليه، والاضطلاع بفقهه وتدبر وتأمل معانيه، فإنها لتذكرنا جميعاً بما كان عليه المرسلون جميعاً من اتزان الضمير وسلوك الوجدان الأمين على القسطاس المستقيم - والقرآن - الكتاب المحفوظ خير شهيد، (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)²...

تبقى عندي ملاحظتان؛ الأولى: كان بودي لو يورد الأصل بلغته العارابية القديمة (الآرامية)، وحروفه المندائية مقابل كل صفحة من الترجمة العربية الحديثة، للثبوت من المعاني والتوفيق فيها، الثانية: ألا يتسارع النقد بالمآخذ والحدقات على التراجمة، فحسبهم حسنة الاجتهاد التي تمحو السيئات جميعاً، وكم تمنيت أيضاً أن تشمل الترجمة المصطلحات أيضاً، وتورد بلغتها الأصلية جانبها أو في الهامش، وعسى أن يتلافى ذلك في نوع من المراجعة والتفسير... وعلى الله قصد السبيل.

١- القرآن الكريم: سورة البقرة - الآية ٦٢

٢- القرآن الكريم: سورة البقرة - الآية ٢٥٧

■ توضيح عن الترجمة

حقيقة أننا لجنة الترجمة والأساتذة المترجمين وقفنا كثيرًا عند جملة (ما كان لأنه ما كان ولا يكون لأنه لا يكون)... وحصل نقاش طويل بين دكتور صبيح ودكتور يوسف ونقاش طويل بينهم وبين اللجنة المشرفة ، وكُلفت شخصيًا بالذهاب إلى كلية بابل لمناقشة الدكتور يوسف حبي رحمه الله، وذهبنا سويًا إلى المجمع العلمي السرياني وتشاورنا مع الكثير من الأساتذة والمختصين في المتحف العراقي ومكتبة المتحف... وقالوا يعتبر الأستاذ يوسف متى قوزي حجة في اللغة السريانية وحجة في اللغة العربية ، ونحن مع هذا النص ، ثم أعيدت المناقشة عند الصياغة مع الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد رحمه الله، وتم تفسيرها له من قبل المترجمين وناقشها الرجل لغويًا واقتنع بالنص.

حقيقة أنا لم أكن مقتنعًا بأي تغيير بنصوص صياغة الكنزا ربا، ونحن اتفقنا من يبحث عن الدين ، فهناك الكنزا ربا باللغة المندائية ، فليتعلم اللغة المندائية على أصولها ويقرأ... وأنا كتبت في حينها إلى فضيلة الريش أمة ستار جبار رئيس الطائفة، ومن جملة ما قلت :

لفضيلته إنه في زمن عبد الملك بن مروان أرادوا أن يصححوا بعض العبارات نحوياً ولغوياً في القرآن الكريم ، فقال أشيروا مالك بن أنس في المدينة وخذوا برأيه (لا فتوى ومالك في المدينة)... فأشار عليهم الفقيه مالك دعوا القرآن كما هو واجتهدوا في تفسيره...

عندما رأيت دكتور قيس مُصرًا على التغيير من خلال الأخ نزار ياسر وله من يؤيده؛ لم أحب أن أقاطع وأحصل على نصيبي من النقد السلبي الذي أخشاه... فخولت الأخ نزار بذلك... ورغم قناعاتي باقتدار الدكتور قيس ومكانته اللغوية؛ كان من الأفضل أن يبذل جهدًا في تفسير بوث الكنزا ربا ويحافظ على النصوص، لكي لا نختلف، ممكن أن نجتهد بالتفسير ولا نجتهد بالنص.

ثم شكلنا اللجنة المشرفة في عام ١٩٩٧ من السادة بشير عبد الواحد يوسف وحمودي مطشر وداخل يوسف عماره، ثم انضم نزار ياسر الحيدر، تعبنا في البحث عن الذين يجيدون اللغة المندائية للشروع بالترجمة فلم نفلح، واضطررنا لتشكيل لجنة موسعة من الأساتذة الذين لديهم إلمام باللغة المندائية فلم ننجح، مما اضطرنا أن نستعين بالأستاذ الدكتور يوسف متى قوزي لسببين: الأول لكونه سرياني، والثاني لأنه متخصص في الآراميات لقرب اللهجة السريانية من المندائية جدًا، وطلبنا من الأستاذ الدكتور صبيح مدلول أن يعمل معنا، يكمل أحدهما الآخر، ورجونا الأستاذ صبيح أن يحافظ على المصطلحات المندائية، وقد بذلت جهود كبيرة لإنجاز الترجمة الحرفية، وكنا نتمنى أن تصاغ لغويًا من قبل الأستاذ الفاضل مجيد جابك أطال الله في عمره مع الشاعر المقتدر عبد الرازق عبد الواحد ولكن مع الأسف اختلفا على أسلوب العمل، فعهدنا الصياغة للشاعر عبد الرازق كاملة وقد أبدع غاية الإبداع رحمه الله وجزاه الله عنا خير جزاء.

نجح المشروع بتفوق وقد كُرم المتطوعون باحتفال مهيب ومنحوا شهادات الشرف والتقدير باستحقاق عالٍ، وفرح الجميع بهذا الإنجاز الفريد المشرف، بهمة الغياري والكرماء أنجزت عدة طبعات ناجحة وأصبح الكتاب المقدس مبارك اسمه في كل بيت تقريبًا نتباهى ونعتز به.

تمر السنوات فيتعلم عدد من المندائيين اللغة المندائية، وبذل البحث والتقصي والتخطيط لإنجاز مشاريع نوعية جديدة، يختلفون على كلمة وجملة وفق اجتهاداتهم، ويدخلوا الجميع في جدل بيزنطي (هل الدجاجة من البيضة أم البيضة من الدجاجة)... كما يتجادل الأساتذة هل الله موجود قبل الوجود أم الوجود (الأكوان) موجودة قبل الله... هذا باختصار شديد، فريق يقول إن الوجود سبق الله، والفريق الآخر يسفه التفسير ويقول إن الله سبق الوجود: لنناقش هذين التفسيرين روحانيًا وعلميًا؛ روحانيًا ممكن الاحتمالين فالروحانيات لا تراها ولا تلمسها، وفيها الخوارق والمعجزات، وكل من يدعي أنه عليم

بالروحانيات هو غير صادق ، ولا يجوز أن نخلط بين الروحانيات والماديات...
أما علمياً فلو فرضنا أن الله موجود قبل الوجود ، فهل جاء من فراغ ، بمعنى أنه
جاء من لا شيء ؟ ، إذا قلنا إنه انبعث من ذاته (من نافشي أفرش)... تصح
روحانياً ولكنها لا تصح علمياً ، أي مادياً... أين الكيمياء ؟ أين الفيزياء ؟ أنا هنا
أريد تفسير بعض النصوص ، وأقول إن الوجود كان موجوداً ولكنه غير منظم
ولهذا حدث الانفجار العظيم في الكون (الوجود) وانبعث الحي العظيم لينظم هذا
الكون العظيم وليخلق الله النشمتا والملائكة النورانيين ، وبدأ الحياة في العالم
العلوي (آلة دنهورة ومن ثم في العالم السفلي آلة دهشوخة).

هناك نقطة مهمة ؛ هل كلمة هي تعني الحياة أم الحي (الله)... أظنها على قدر
فهمي ومنقشاتي أثناء ترجمة الكنزا ربا وبعده أنها تعني الحياة ، ولهذا من سياق
الحديث هناك هي قدامي (الحياة القديمة الأولى) وهناك هي تنينايي (الحياة
القديمة الثانية) ، وهناك هي ثلثينايي (الحياة الثالثة)... إذ لا يعقل أن نقول الحي
القديم الأول والحي الثاني والحي الثالث ، هذا كلام غير صحيح لأن الله واحد
أحد كما ورد في بوثة التوحيد في الكنزا ربا ، وهذا ما تؤيده كتب الأديان
الموحدة ، ولأن الحياة تعني الحي ، والحي يعني الحياة ، فالمعنى واحد...

كلها آراء قد تصيب وقد تخيب ولكن بالنقاش والحوار الإيجابي نفعل كثير من
التفسيرات الصائبة وبالتالي لا داعي للتغيير لغرض التباهي وفرض رأي وإنما
بالتفسير المتفق عليه نعطي المعنى الصحيح والدقيق.

البحث الثاني

النفس ومن سواها (النشمتا) وفق الفكر المندائي

قرأت مرات عديدة الكتب الدينية للأديان السماوية الموحدة ، فتجد هناك ذكر للنفس أو الروح ولكن ليس بشكل تفصيلي معمق ، كلمات قليلة ولكن معانيها كبيرة وعميقة ، وتحتاج إلى تفسير وشروح واسعة ، ولكن عندما تطلع على كتاب الكنزا ربا تجد أن الجزء الأيسر منه خصص للنشمتا (النفس + الروح) وأعطاهما مجالاً واسعاً وشرحاً تفصيلياً تحس أن المؤمن والباحث بأمس الحاجة لهذا التوضيح الواسع والمعمق.

يؤمن الصابئة المندائيون أن الإنسان ببساطة يتكون من نفس وروح وجسد ، ويعتبرون النفس شيء روحي من عالم النور ، وهي هبة الخالق التي لا تقنى ، وهي طاهرة نقية لا تشوبها شائبة وتمثل الطاقة المتأججة ، وهي تتحكم بأمزجة الإنسان ، بينما العقل (مانا) يتحكم في أفعاله الواقعية ، والنفس لا تحاسب لأنها حرة نقية : (هلمى يا بنت الأحرار ، يا من سموك أمة في دار الأشرار... هلمى ، فماذا أفعل بك يا جسدي ؟ لقد جبلت من طين ، وستعود إلى الطين ... وكل من محذوبك داخل هذا العالم ، يفتنون مذنبين يوم الحساب).

ونص آخر يقول: بسم الحي العظيم :

(أيها الباهلون ، أيها الساخجون... ما لكم عليّ تحزنون ؟ أنفسكم من الطعام تحرمون... وعلى الحصر ترقدون... ثيابكم تقطعون ، ودموعكم تذرفون وشعركم تقلعون* لا بارك الله في رداء عليّ يمزق... ولا في دمع عليّ يهرق... ولا في شعر يقطع عليّ أو يخلق* لقد حان أجلي وهبط المخلص إليّ ، وها أنا ذاهبة إلى بيتي الحي) والحي المزكي.

وهذا يعني أن النفس تذهب إلى عالم الأنوار من حيث أتت لتحي حياة أبدية ثانية ، أما الروح فتمثل الأعمال والفعاليات التي يقوم بها الإنسان من المهد إلى

الحد ، خيراً كانت أم شراً لأنها العنصر الطليق الذي يتحرك بحرية في الكائن الحي عبر المكان والزمان ، والروح تخضع للحساب في محطات الحساب (المطراشي).

تمر الروح بهذه المحطات لتحاسب على ذنوبها التي اقترفتها خلال فترة الحياة، فتكون المحطة الأولى للحكام والقضاة والثانية للقتلة سفاكي دم بني آدم ، والثالثة للزناة منتهكي حرمت الناس... وهكذا، ونذكر شيئاً من الكتاب المقدس الكنزا ربا عن عروج الروح في المطراشي:

بسم الحي العظيم:

(أجسام معروقة...

ووجوه مثل أواني الفخار المعروقة.

من هؤلاء الرازحون تحت هذا المم ؟

قالوا جناة الدم

القتلة...

أجسادهم تبقى كما تبصر مشتعلة

لا يأتيها موت ثان

ينقذه من هذه النيران

لأرواحها موت ثان

تأتي وتروح الأزمان

وهي على هيئتها باقية)... والحي المزكي.

أما الجسد (بغرا) فهو فاني ، جُبل من تراب وإلى التراب يعود ، ويمثل الوعاء أو الجذع أو الحبس للنشأ أثناء حياة الإنسان ، والإنسان خلال مرحلة حياته يحرص على نظافته وسلامته ، ولكن بعد الموت يودع الثرى ، وتقام الصلوات ويقدم طعام الغفران (الوفاني) وتعطى الصدقات ليس تكريماً للجسد بل للنشأ لمساعدتها في الصعود والعروج وتجري لها مسقيتا العروج إلى عالم الأنوار ، ويعطى الأجر والثواب مدة خمسة وأربعين يوماً... كذلك أيام الآحاد والأيام

الدينية والأعياد حيث يقام اللوفاني وتقدم الصدقات طلباً للرحمة والمغفرة وراحة النفس، يباركها الحي العظيم ويسهل عروجها إلى عالم الأنوار (الجنة).

إن النشمثا (النفس + الروح) وفق الفلسفة المندائية تصعد سويًا بعد الوفاة في اليوم الثالث من الوفاة (دفن الجسد) باتجاه عالم الأنوار لتصل في معراجها إلى الملاك أبائر سادن باب الجنة، وهناك تنفصل الروح عن النفس، فتبقى النفس الطاهرة النقية أمانة عند الملاك أبائر وتذهب الروح إلى محطات الحساب (مطراشي) لتحاسب على ما اقترفته من ذنوب خلال مرحلة الحياة، ويكون شيتل بن آدم هو ميزان المقارنة، فإن رجحت كفة الحسنات مرّت الروح بمحطات الحساب بسلام، وعادت فصعدت إلى الملاك أبائر وهناك تتحد (لوفاً) مع النفس لتكون النشمثا التي تعبر المياه الفاصلة (هفيقي ميا) بمساعدة ملاك الأحد (هشبيا).

وتعود إلى الدموثا (المثيل أو النظير أو الشبيه) الذي أخذت منه بأمر من الحي العظيم عند الصيرورة في رحم الأم... وهكذا تدخل النشمثا بالدموثا وتسكن في عالم الأنوار على هيئة ملاك أثيري، وهنا تبدأ مرحلة الحياة الثانية الأبدية التي ليس فيها موت ثاني، وليس فيها أمراض ولا أوجاع ولا شيخوخة ولا أي نوع من الأدران ولا حر ولا برد ولا عطش ولا جوع ولا عوز ولا نقصان.

إن النشمثا يتم تنقيتها وتطهيرها خلال فترة الحياة الأولى بالتعميد (الصباغة)، وبعد الوفاة تساعد النشمثا في مسيرة العروج إلى عالم الأنوار بإجراء طقس (المسقتا) خاصة للذين توفوا وفاة غير طبيعية في الحوادث والحرائق والغرق وسواها، حيث المسقتا يتحول إلى هيئة روحانية نورانية، وتساعد النشمثا في الصعود والعروج إلى عالم الأنوار أي إلى خالقها متحدة ببدنها النوراني (أصطونا).

أما الأجزاء الأخرى في الكيان البشري التي لها أهميتها الدينية مثل الاسم الديني (الملواشا)، فهناك اثنا عشر اسمًا دينيًا لكل المندائيين المؤمنين يُحدّد

بحسابات دقيقة معتمدًا على الاسم الديني الأول للأُم وساعة الولادة وتاريخ الولادة، ووفق ما ورد في الفصل الرابع البحث الأول ولهذا على كل أم مندائية أن تدوّن هذه المعلومات وتحفظها وتسجلها في الصفحات الفارغة من الكتاب المقدس التي خصصت لتدوين مثل هذه المعلومات المهمة.

ولهذا فإن الرجال المندائيين الذين يتزوجوا من ديانات أخرى وينجبون منهم أبناء أو بنات لا يعترف بمندائيتهم لكون أهم لا تمتلك اسمًا دينيًا (ملواشة)، فيبقى الأولاد والبنات بدون ملواشة وهذا الحال يشكل الآن بعد الهجرة الواسعة مشكلة كبيرة فكثيرون الذين تزوجوا من ديانات أخرى وأنجبوا أبناء لا يعترف بمندائيتهم، وما زالت المشكلة قائمة لدينا بدون حل، فالخليقة وجدت بتسمية الأسماء، وهكذا أخذ كل شيء اسمه الصحيح، وبدون الملواشة يختفي الشخص ولا يعود له وجود ديني وفق الفلسفة المندائية، إن بقاء الاسم الديني بعد الموت مرئيًا ومسموعًا يكون لصاحبه رمزًا للراحة والغفران والذكر الطيب.

أما العقل (مانا) فهو مقر التفكير والخير والشر، وهو الحياة العقلية الخلقية للفرد، ويعتبر الضمير مركز الصدق والأمانة والوفاء، أما القلب (لبا) فهو العضو البشري النابض بالحياة والإحساس وتلك العناصر تتحمل مسؤولية السلوك الحسن والسلوك السيء، ويوم الحساب ينبغي على المرء أن يتأكد قبل وفاته أنه لا يحمل وزر الخطيئة أو الضغينة بسبب ضعف الإيمان لأن ذلك يؤدي به إلى الظلام والعذاب.

وردت نصوص عديدة في كتاب الكنزا ربا القسم الأيسر عن النفس، تسابيح كثيرة نذكر منها التسبيح السادس...

بسم الحي العظيم

(وتنطلق نشمًا وتطير مخلقة وحدها في الأثير... استوقفه المعاسبون النفس وسألوها بقوة من أخرجوها؟ واسم من ذكر عليها حين أطلعوها؟ خرجت بقوة هيبي، وذكر عليّ اسم مندا دهبيي وأنا ذاهبة إلى بيت هيبي... قالوا

سامعينا وقدام الحي اذكرينا... قالت حين أصد إلى بيت هبيّ العظيم ،
ويسألني خالقي الكريم العارف العليم ، ويأتي الشهود ويشهدون ، شهود
كشطا من كل مكان يقبلون ، وحق كل ما يقولون ، فماذا سأفعل أيها
الظالمون ؟

سأقول الحق كله ، وسوف لن ترى النور أعينكم ، ولن تعرفه الثبات
أرجلكم... أنا وإخوتي الأثريون إلى بلد النور أصد ويصعدون ، إلى البلد
الذي شموسه لا تنطفئ وأنواره لا تختفي ، وأنتم جميعاً إليه مدعوون ، أيها
الأخوة الصالحون)... والحي المزي.

وهذا تسبيح آخر يخص عروج النفس إلى عالم الأنوار...

بسم الحي العظيم

(حارية جنت إلى العالم ، فارحة منه أخرجوني مثل مصفور وحيد ، أسمع
صوت نشمتنا من بعيد وهي تولول وتبكي وتعيد : ماذا أصنع لك يا جسدي ؟
لو كنت يا جسدي ثوباً من ضياء ونور ، للبستك فصعدت معي إلى بيت هبي.
لو كنت هميان ضياء ونور ، لتزمت بك فصعدت معي إلى بيت هبي.
لو كنت إكليل ضياء ونور ، لتوجت بك رأسي فصعدت معي إلى بيت هبي.
لو كنت عصا ضياء ونور ، لأمسكت بيدي فصعدت معي إلى بيت هبي.
لو كنت نعال ضياء ونور ، لانتعلت فصعدت معي إلى بيت هبي.
إنني أسمع صوت رسول الحي بنا ديني :

أيتها المنيرة

هلمي

أيتها المعطرة الأثيرة

هلمي)...

* * *

وهنا من الضروري أن نذكر شيئاً آخر عن المطراثي (دار الحساب) ، فهنا وصف الحي رجل صادق أمين كثير الحسنات كثير الصدقات من المؤمنين الكاملين بعد وفاته تأتي روحه لتحاسب في محطات الحساب...

اسمك

رسمك

قدمها

قلتهما منور الأكاليل فوق الرأس

فنسجد الجراس

مررت بالزناة

مررت بالخطاة

مررت بالكاذبين

مررت بالولاة والقضاة والسلطين

وجدتهم وجوههم لا تبين

وسط غيوم الدخان

ولهيب النيران

ثم رأيت نسوة في مجمر يهوى

مُلقن من الصدور

في وسط النيران

وحولهن أمعن تبكي

والسن تحكي

قالوا :

أطفالهن نحن يا غيور

أطفالهن نحن يا عزيز النور

لم يرعينا... تركنا نموت

ثم تابع الرجل الصادق المؤمن كثير الحسنات مروره في محطات الحسابة ،
وقال :

ذكرت اسمي

وذكرت رسمي

فسيجد الحراس

صعد الرجل الباهر الصدق

من دار أهل الخطايا

كان الملك لاير برايا يتأمله

أيها الرجل الباهر الصدق :

كيف تشبه تلك المنازل التي جُزّت بها

والخطاة ؟

سألته الحياة

قال :

مثل ذباب تراكم فوق حفاف القدور

والبخار يفور

كلما مسما تتقطع أجنحة وصدور

ثم تسقط وسط القدور

صعد الرجل الباهر الصدق

في بلد الحق

ألبسته الحياة ضياء ونور

ورضا وحبور

وسلام وأمن كبير

ومر الرجل الباهر الصدق بمحطات أخرى فوجد نساء :

وهن يرضعن بغفلة من البيوت

أطفال عشاقهن

أنقضت عيني من الأحزان

وفيها دمعتان
ثم ذكرت اسمي... ورسمي
فمسجد العراس
وحزنت على هذه الدار
ممثلًا حزناً على أهل النار
ثم وصلت داره الكفار
المشركين ثانياً ، وثالثاً بملك الأنوار
وعابدي الأخشاب والأحجار
سألت ماذا يشبهون
سمعت صوتاً قال :
كنتم يقومون مظل محتال
يوقفها على ضفاف عالية
الماء يجري تحتها
تراه بالعيون
لكنه أبعد ما يكون
فهو عطاشاً أبداً
لاهبة الأحشاء
وكلما رؤوسها دنت
يبتعد عنها الماء

* * *

حين أخذت نشماتاً (النفس) من عالم الأنوار وجاءوا بها إلى هذا العالم وأدخلوها
إلى الجسد لتمنحه الحياة، اعتبرت هذا الجسد سجناً لها، وأنها كانت في عالم
مثالي، وأنزلوها إلى عالم فيه نفاق وفيه كذب وزور، ولكنها علمت من خالقها

أن مكوّنها في هذا الجسد لن يطول وأنها ستعود ظافرة إلى موطنها الأصلي عندما ينتهي عمر هذا الجسد.

(أيتها النفس... لقد ذكرتك الحي بخير ، فعودي إلى جسدك الذي كنت فيه ، إن كنت اعتقدته فادخله).

وهذا يعني أن الله جلّ جلاله أمر المخلص أن تعود هذه النفس إلى عالم الأنوار أي عالم الملائكة الأثريين ، ولتقرأ نصّاً من كتاب الكنزا ربا عن خروج النفس من جسم الإنسان عندما ينتهي عمره في هذا العالم :

(أخرجوني وأخلقوا ورائي الأبواب والشبابيك ، أخلقوا الكوتين اللتين كنت أسمع بهما تعاليم الحي ، أطفئوا القنديلين اللذين كنا ينيران بأمر الحي ، سدوا الغم الذي كان يسبغ كل يوم للحي...

وتهدل الميزانان... الميزانان الأثنان منكنان... اليدان اللتان كنا لخالقهما يبتعلان ، والأجر والصدقة تعطيان ، وبالكشطا (الحق) تنبسطان... انكسرتا وسقط العمودان ، فهمد الهيكل كلّه واستكان ، لقد خدع الجسد صاحبه ، فكيف له على المكر والخداع أن يواكبهُ ؟)

وتنطلق نشمّا وتطير ، محلقة وحدها في الأثير ، خرجت بقوة هي (الحي) ، وذكر عليّ اسم مناداهي (عارف الحياة)... وأنا ذاهبة إلى بيت هي.

البحث الثالث

الناصورثا (الإيمان)

وتعني التبحر في علوم الدين والفلسفة المندائية، وهذه الفلسفة عميقة الجذور، وتعتبر علوم الحقيقة الكامنة والمعرفة اللامتناهية، وكلمات الحق والصدق الأسمى؛ جلبتا من كنز عوالم النور الأزلية وفتحت للنشمتا التي أولجت في الجسد المادي عندما تمّ خلقه، لتكون له السلاح النوراني الذي يقاوم الشر والظلام في ألمه دهشوخة (عالم الأرض).

النشمتا أساس الناصورثا وهي جوهرها ولها، إنها علوم أزلية موجودة بوجود الحي العظيم ومتسرّبة بأشعتها وأضويتها الذاتية في سكينة تامة، وعندما يحين موعد خلق الأجساد الآدمية عند الصيرورة يرفع النداء لمناداة الناصورثا بالدعاء والتسبيح عاليًا ليصل إلى عالم الأنوار إلى كنوز النور وبأمر من ملك النور السامي تتطلق الناصورثا وتتمدد ملئ الأكوان عابرة الزمان والمكان لاحتضان النشمتا (النفس) واحتوائها في جسد الطين الفاني لتدب فيه الحياة، ومن هنا بدأت الناصورثا رحلتها إلى العالم المادي، وستبقى لحين خروج آخر نشمتا طاهرة من هذا العالم.

حين ذلك يأذن لها الرب بالعودة إلى بيت أبيها الذي جلبت منه، الديموثا الأثيري، فالناصروثا تسهل الطريق لعودة النشمتا إلى عوالم النور السامية، ولهذا يعتبر الدين المندائي الناصورثا سلاحًا عظيمًا أقوى من أي سلاح، فالكنزا ربا توصي المؤمنين أن يسلحوا أنفسهم بالناصروثا وكلمات الحي الصادقة فهي أمضى من الحديد ومن كل الأسلحة، ويوصي المؤمنين بالصبر والتقوى والتسبيح للحي العظيم، ففيه خلاصهم من الظلم والظالمين.

– النشمتا أساس الناصورثا لأنها روحانية أمينة صادقة جلت من عالم النور، الناصورثا تعني النشمتا، وتعني الإيمان العميق، والحدس وللإلاؤ والقدرات الإعجازية التي يمنحها الله للصالحين من عباده وخاصة أنبياءه المرسلين.

فإن اعتمد المندائي المؤمن الناصروثا ، يكون قد وصل إلى أعلى درجات الإيمان وهي حالة من الزهد تشبه التصوف ، فهي تعتبر نكران مغريات وملذات الدنيا وشهواتها اللا أخلاقية ، وتعني الصوم الكبير للمندائي بكل تفاصيله ، وبروح طيبة وعقل منفتح مجرد من السيطرة والعبودية لهذا العالم ومن الظالمين والقتلة والفاجرين والزناة ، وهاتكي أعراض الناس الملطخة أيديهم بدماء عباد الله الأبرياء.

ولهذا فالناصروثا تمنح المؤمن تفوق عناصره الإيجابية من حب وعطاء وإيمان وصدق وسلام على عناصره السلبية من غرائز وشهوات وأعمال لا يرضاها الحي العظيم لعباده الصالحين ولا تقرها شرائع ولا نظم ولا أخلاق... وبهذه الناصروثا يستطيع المرء أن يرسم طريق حياته بعيدًا عن الخطيئة وعن غضب الرب ، ويكسب رضا الله والناس الطيبين له.

فالناصروثا وحدها تكفي لديمومة الصابئة المندائيين كجماعة ثابتة وكريمة ومحافظة على جواهرها ونقائها ، لا تخضع لأحكام الزمان والمكان إذ ما أصابها اضطهاد أو قهر وأذى من أشرار هذا العالم ، فمهما عظم الشر واشتد بالناصروثا يمكن الصمود ومقاومة الشر والانتصار عليه ، واعتقد البعض أن الدين المندائي قد يضمحل ويزول فتجده ينبعث من جديد بفعل الأشعة النورانية التي تهبها الناصروثا ، مبشرة أحبابها بالأمل والاطمئنان ، وبالإيقاظ من أي دمار دنيوي ، لأنها متجذرة في النفوس والجذر لابد أن يورق لأنه لا يموت ، لأن النفس لا تموت أبدًا وإنما يموت الجسد.

إن سلالة الناصوراثين قد بدأت بآدم (ع) الذي يعتبر أولى هذه السلالات ، وأن نواة الدين المندائي تكونت في عالم النور ، ونزلت على حكماء أتقياء اجتمعت فيهم كل علوم الناصروثا ، مما جعلهم بالمقدرة الفائقة في البصيرة والتعمق الروحي والتبحر في علوم الدين التي كشفت لديهم الكثير من أسرار النفس والذات ، وأسرار علوم السماء والأرض ، وأن ممارستهم لهذه العلوم السامية

في حياتهم الروحية والعملية فتحت لهم أبواب الاتصال الروحي بين عالمهم المادي والعالم النوراني، مما جعلهم على ثقة واطمئنان بالحياة الثانية الأبدية في عالم الأنوار.

ويطلق اسم ناصوراثيين على رجال الدين الورعين الحكماء الذين يراعون تطبيق وصايا الحي العظيم بدقة وعناية فائقة، لأن رجال الدين يجب أن يفهموا معنى الناصورثا ويطبقوا أحكام الفلسفة المندائية، فهم حكماء ووعاظ وأنقياء بحكم الناصورثا، لقد كان نبي الله يحيى ناصورثيًا وكذلك والده زكريا، كذلك كان المسيح وكل الأنبياء المرسلين من الحي العظيم، ولهذا فإن لكل واحد منهم إعجاز يهبه له رب العالمين كونه ناصوراثيًا حقيقيًا، وكلمة ناصورثا كلمة سامية قديمة تعني الإيمان وتعني الحدس والتنبؤ وهذا معناها في الأكديّة وفي البابلية وفي العبرية والعربية، تأتي بمعنى (نصر، نصير).

أما المسيحية فتعني (ناصوراي أو ناصوري) أي نصراني، إن العالم الألماني ماتسوخ أكد أن الناصورثا كلمة مندائية قديمة وهي دليل قاطع على قدم الصابئة المندائيين وتمسكهم بإيمانهم بالخالق الأزلي ملك النور السامي وتوحيدهم إياه ولا إله سواه... وهذا النبي سام بن نوح (ع) يبارك الناصوراثيين (مبارك أنت الناصورثا) الذي تعلم منك المختارون...

ومن مواعظ النبي يهيا للناصوراثيين الحقيقيين:

(إِذَا أَصْبَحْتَ نَاصُورَاثِيًا

فَكُلْ فَضِيلَةً مِنْ فِطْرَتِكَ سَلَامٌ

يَعِينُ بِأَهْرِي الصِّدْقِ

إِنَّكَ تَعِينُهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْتِقَامَةِ

وَالْمَعْرِفَةِ وَالْحِكْمَةِ

وَالتَّعْلِيمِ

وَالرَّجَاءِ

وَالصَّلَاةِ

والتسبيح
والصدقة
والطيبة
والتواضع والإتقان
والرأفة والعنان
والتبصر ومعرفة الحق)

فالناصروثا تعني الإيمان الروحي العميق وهذا الإيمان يعني التوحيد ومعرفة الخالق وتطبيق أحكامه ووصاياه، ملعون وموصوم بالعار :
(كل من لا يعلم أن ربنا هو ملك النور العظيم ملك السماوات والأرض الواحد الأحد).

فالديانة المندائية قامت على مبدأ توحيد الحي العظيم تعظيمه وتقديسه وتمجيده وتسبيحه، إن الدين المندائي وجد مع وجود الإنسان الأول وآدم هو أول الأنبياء وأول الموحدين، ولكن مع هذا نجد كثير من البشر في بادئ الأمر يبني الهياكل والنصب ويصنع التماثيل والأصنام لتكون وسيطاً بينهم وبين الخالق، ولكن بعد مرور زمن نسيت الغاية وصارت الوسيلة هي الغاية، فقد أضحت هذه التماثيل والنصب تتمتع بالقوة المطلقة... لقد نسي هؤلاء الناس أن ما يعظمونه ما هي إلا حجارة صنعوها بأنفسهم ولا تملك ضرراً ولا نفعاً.

وهذا النسيان هو الذي ولد عبادة الأوثان والأصنام، إن سبب ذلك النكوص قد يعود إلى الطبيعة البشرية التي لا تصدق إلا ما تراه وتلمسه، وهذا هو ضعف الناصروثا لدى المؤمنين ولدى الناس، ولهذا أرسل الحي العظيم الأنبياء والرسل ليوضحوا لبني البشر الحقيقة ويحثوا الناس على عبادة الله الواحد الأحد.

– العرب أيام الجاهلية جعلوا من الأصنام والنصب وسيلة يتشفعون بها إلى الله، ولكن مع الزمن تحولت إلى غاية وأصبحت تتمتع بالقوة المطلقة، لقد ضعفت الناصروثا لأنهم نسوا الغاية من هذه الواسط والسبب، قد يعود إلى الطبيعة البشرية التي لا يفي إلا بما تراه وتحسه.

ولكن المندائيون المؤمنون تشبثوا بالنصاروثة وتمسكوا بتوحيد ربّ ليس سواه أحد ، خلق الأكوان جميعاً وبأمره كان كل شيء ، وهو وحده القادر أن ينهيها لحظة أن يشاء ، والكنزاربا ودراسة أو يهيا زاخرة بالنصوص والآيات والمواعظ:

(أيها المندائيون لا تسجدوا للأصنام والأوثان ولا تسجدوا للشيطان ، فمن فعل ذلك مصيره النار).

(وكتبنا التي سجدت للحي العظيم لن تسجدوا للشيطان ولأصنام الزيف ، قدماي اللتان سلكتا طريق الحق لن تسلكا دروب البهتان والمعصية).

(أيها الساجدون للحي العظيم إن ذنوبكم وخطاياكم سيغفرها لكم ربكم فتمسكوا بالإيمان).

(كل من يولد يموت وكل ما يضع بالأيدي يفسد إن عكازكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكأون ، فانظروا إلى ماذا تستندون).

(ربنا لك ندعوا ، وباسمك نلج ، وبك نسبح ، فامنحنا وضوح الرؤيا وسهل لنا أمورنا وهبنا من لدنك هدوء لأنفسنا).

المؤمن بحاجة ماسة للهدوء لأنه سمة من سمات العاقل المؤمن ليكون فكره ومنطقه سليماً ، فلقد وهبنا الحي العظيم العقل ، والعقل يحتاج إلى هذا الهدوء لأن من طبع الناصوراثي الهدوء والطمأنينة (السكينة).

* * *

السيدة رمزية عبد الله غندي مندائية مؤمنة إيمان عميق بالدين المندائي ، ولها مقالات دينية مرموقة ، ومتابعة ممتازة للإصدارات المندائية ولها اقتدار عالي في الفهم والتفسير والمداخلة والتوضيح والشرح الدقيق المفيد...

الناصروثا... علوم الفلسفة المندائية :

مبارك هو صوت الحي وممجد الشعاع العظيم الذي كله ضياء (كنزا ربا)... تعرف الناصروثا بأنها : علوم التبحر في الدين والفلسفة الروحانية ، عميقة الجذور إلهية حق... علوم الحقيقة الكامنة والمعرفة اللامتناهية وكلمات الحق والصدق الأسمى ، جلبت من كنز عوالم النور وأعطيت للنفس التي دخلت الجسد المادي عند إتمام خلقه لتكون له السلاح النوراني الذي به سوف يقاوم الشر والظلام القابع في العالم الفاني (آما اد تيل) العالم الأرضي ، وهي علوم أزلية موجودة بوجود سيد العظمة (الحي العظيم ، هيي قدامي) ، متسرلة بأشعتها وأضويتها الذاتية في سكينة تامة ، لم يحن الموعد بعد لتخرج من سكينتها ، لأن الآدميين لم يخلقوا بعد لاحتوائها...

وعندما حان موعد خلق الآدميين نادوا على (الناصروثا) ، فارتفع النداء (بالدعاء والتسبيح) عاليًا ليصل الكون الذي هو فوق جميع الأكوان ، وإلى العالم الذي هو فوق جميع العوالم ، يصل إلى كنوز النور ، وبأمر سيد كنوز عوالم النور (هيي قدامي ، الحي العظيم) ، انطلقت الناصروثا وتمددت ملئ الأكوان والعوالم عابرة الزمان والمكان لاحتضان النفس (النشمتا) ، وبالتالي احتواءها جسد الطين الفاني. من هنا بدأت رحلة (علوم الناصروثا) إلى العالم المادي ، وستبقى مع الآدميين لحين خروج آخر نشمتا طاهرة من هذا العالم ، حين ذلك يأذن (الرب الله العظيم) لها بالعودة إلى بيت أبيها الذي جلبت منه ، الناصروثا طريق سهل وطيب لعودة النفس الطاهرة (نشمتا) إلى عوالم النور السامية.

هذا مقطع من نص ديني للكتاب المقدس (الكنزا ربا) الأيمن ، عن هبوط (نشمتا) في الجسد :

باسم الحي العظيم

(أنا نشمتا تحدثت إلى الأثري إخواني وقلت لهم :

ماذا إقترفت من إثم ، حتى أغويتهموني وازحتموني من بينكم.

أخذتموني من مسكني أسيرة وأغويتهموني وأزختموني من بيت أبي.
وأخذ كل واحد منهم يتحدث إليهما :

يا نشمثا الحياة المنتصرة ، يا رسولة كل النيرات

يا نشمثا الحياة الطاهرة ، قفي واذهي هناك

وادخلي الجسد وابقى مقيدة في القصر "الجسد"

ومن خالك سيُقيد الأسد الهائج ، وسيقتل الشرير في مكانه

ومن خالك سيُقيد ملك الظلام...

وتجيب نشمثا وتحدث إلى مناداهي :

أيها الصالح ، رسول النور

إذا أردت مني أن اذهب إلي هناك

وأدخل في الجسد ، وأبقى أسيرة فيه

فاعطيني إذن سلاحاً سامياً ، لأبعد عني (الأشرار).

وأجابها مناداهي :

ما هو السلاح السامي الذي تريدنه يا نشمثا ،

حتى نجلبه لك من كنز الحياة ؟

سلاحك هو (ناصروثا) ، وكلمات الصدق التي جاءت

إليك من موطن النور.

وهنا قالت نشمثا :

باسم (الحي العظيم) ، وبعون (مناداهي)

ذهبتُ إلى هناك ودخلت الجسد.

ذهبتُ إلى هناك ودخلتُ الجسد ، وجعلت ذاتي أسيرة فيه.

ومن اليوم الذي دخلتُ فيه الجسد ، كنت قرينته على مر الدهور.

قرينته كنت على مر الدهور ، وكان الأشرار من الأعماق غاصبين عليّ.

ومن وصايا الرب للمؤمنين : (سَلِّعُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَمْضَى مِنَ الْحَدِيدِ... سلاح

ناصروثا وكلمات ربكم الصادقة).

يتضح من النص المبارك أعلاه أن (نشمتا - النفس) امتنعت عن الدخول في الجسد وأخذت تشكو وتتنوح؛ وهنا ترجو رسول النور (مندادهيي) أن يرسل لها (مُخلَّصًا) يخلصها بعد الوفاة من الجسد ويرافقها إلى عالم النور؛ والسلاح الذي تحصل عليه (نشمتا) هو (ناصروثا)، إذن أُعطيَ هذا العلم والسلاح الروحاني للآدميين محبة ورأفة إلهية، تعينهم في مكوئهم وخروجهم من العالم الفاني؛ لأنه من خلال التعمق بهذا العلم والتبحر بفلسفة اللاهوتية يكون الناصورائي المؤمن قد وصل إلى أعلى درجات التصوف (الزهد في الدنيا)، ونكرانها ونكران مغرياتها وملذاتها الوقتية المزيفة، لأن فلسفته الروحانية قد فتحت أبواب عقله وفكره وحررته من كل سيطرة وعبودية ممكن أن تلحق به من هذا العالم، بعد أن استطاع تحقيق توازنه المختل، بين طبيعته الإنسانية المادية بما فيها من قوى سالبة المتمثلة بـ(الغرائز والشهوة والحواس) وبين طبيعته السماوية النورانية المتمثلة بعناصرها الإيجابية ك(الحب والعطاء والإيمان)، واستطاع أن يرسم طريق حياته المثالية التي يحياها في هذا العالم، وطريق حياته هذا سوف يؤدي به إلى الوعي وتفتح طاقاته الباطنية وإمكانياته الإنسانية، كالعمل والنظام والصبر، وبرؤية واضحة تفهم كافة الأمور الحياتية؛ ولنا في قول الحي العظيم طريق ينير بصيرتنا:

باسم الحي العظيم

أحببتُ العدل منذ أحببتك

وأحببتُ الحقَّ منذ أحببتك

منذ يوم عرفتُك ، عرفتُ أن الدنيا باطلة

وأن جميع نعمها زائلة.

البحث الرابع

ميثولوجيا مندائية

عبر التاريخ الإنساني كُتبت كثير من الملاحم التاريخية، مازالت شعوب هذه الملاحم تعتز دينيًا بها، وتجسدها في أفلام ومسرحيات وكرنفالات، وتتوارثها الأجيال؛ جيل بعد جيل، دون أن يخفت بريقها أو تُنسى عبر كل هذه القرون من الزمن، وأهم هذه الملاحم وأشهرها ملحمة جلجامش السومرية وملحمة الشاهنامة الفارسية والإلياذة الإغريقية والأوديسا وغيرها الكثير، ملاحم فيها أساطير إن صح التعبير أو حكايات من الصعوبة أن يدركها العقل البشري.

الأديان غير السماوية جسدت لنا فيما مضى من الزمان ملاحم كثيرة وصورت لنا قصصًا من وحي الخيال، ولكنها قصص محبوكة كتبها عباقرة أمثال هوميروس وغيره، ورغم أن هذه الملاحم تذكر لنا تعدد الآلهة وقدراتهم؛ نجد أن الأديان السماوية الموحدة ورغم إيمانها هناك خوارق ومعجزات كما يسميها الروحانيون أو المؤمنون ويسميها الماديون أساطير أو ميثولوجيا.

فالمؤمنون يعتزون بهذه القدرات الخارقة أو قل هذه المعجزات، فالدين اليهودي يجسد لنا أن الله جلت قدرته يكلم موسى (ع)، وأن عصا موسى كائن حي، وأن دعاء موسى لربه كان مستجابًا، فوهبه المن والسلوى وعيون الماء العذب في صحراء سيناء، وقصة عبوره بحر سوف العظيم وغير ذلك من الأمور التي تذكرها لنا التوراة، كذلك الدين المسيحي يذكر لنا في الإنجيل ولادة عيسى (ع) من مريم دون أن تتزوج، وقدراته الخارقة في إحياء الموتى وبيصر العميان ويشفي الأبرص والمجنوم والكسيح... وقصة ولادته ووفاته فيها إعجاز كثير وكبير، والأخوة المسيحيين يعظمون ذلك ويكبرونه بكل فخر واعتزاز، كذلك الحال عند الأخوة المسلمين، فالإسراء والمعراج التي يذكرها القرآن الكريم إعجاز ديني عظيم من معجزات الرسول الكريم محمد (ص)، وغيرها من الأمور.

أما الصابئة المندائيون وهذا موضوع بحثنا ؛ فلديهم الكثير من المعجزات ،
فقصة ولادة النبي يحيى (ع) من أب عمره ٩٩ سنة ، وأم عمرها ٨٨ سنة
وعاقر ؛ يعتبر من الخوارق ، وغيرها كثير من الأمور... يحدثنا كتاب الكنزا
ربا (الكنز العظيم) في ثلاث بوث (سور) ؛ بوثة عالم الظلام ، وبوثة هبوط
المخلص ، وبوثة الخلق والتكوين ؛ عن ملحمة متكاملة يحتاج فهمها وإدراكها
إلى كثير من الإيمان والتأمل ، وسنسردها بشيء من الإيجاز...

نحن نعلم جميعاً أن الكتب الدينية ذكرت لنا معجزات كثيرة ، فخلق آدم معجزة
من معجزات الخالق ، لأن الرب كل شيء بأمره صار ، وكل شيء يريد الله
كن فيكون ، فالخلق والتكوين كما تذكره لنا الكتب الدينية يصدق الروحانيين
وينكره الماديين الذين يؤمنون بنظرية داروين وغيره ، ولكن الأديان السماوية
تقص علينا أحسن القصص (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) قرآن كريم...

فبالإضافة إلى خلق آدم وعصا موسى وولادة النبي يحيى (ع) وولادة السيد
المسيح (ع) هناك ناقة صالح ، وخروف إسماعيل ، وقصة نبي الله أيوب
وغیرها ، وسليمان بن داود التي كانت له الجن طائعة وله قدرة على فهم
أصوات الطيور والحيوانات وقدرة على تسخيرها لخدمته ، فالمطلع على
الملاحم التاريخية مثل الإلياذة والأوديسا والشاهنامة وجلجامش يتبادر إلى ذهنه
أنها حقاً تجسد للملاحم التاريخية القديمة التي فيها تعدد الآلهة ، وبشكل عام كل
الملاحم مبنية على القدرات الخارقة ، وملحمتنا هذه ميثولوجيا مندائية ، ملحمة
روحانية يجسدها الكتاب المقدس الكنزا ربا ، وتحكي للمطلع قدرات الحي
العظيم وملائكة الله الصالحين وكيف تمت السيطرة على هذا العالم وتخليصه
من الظلام ومن المردة (الروهة) لتبدأ بعدها عملية الخلق والتكوين...

بسم الحي العظيم

(إِنَّا جَعَلْنَا الْكُونَ مَنَازِلَ وَطَبَقَاتٍ ، مُكْتَمَلَاتٍ وَنَحْيَرُ مُكْتَمَلَاتٍ ، وَأَوَكَّلْنَا بِكُلِّ
طَبَقَةٍ حُرَّاسًا ، مَلَائِكَةً أَجْنَاسًا فَأَمَّا أَرْضُ النُّورِ ، فَهَذِهِ ثَبَّتْنَا فِيهَا الْأَثَرِيِّينَ ،

وَمَلَائِكَةُ النُّورِ ، وَزَيْنَّاها بِمَصَابِيحَ تَدُورُ ، وَوَهَبْنَاها رِيًّا سَارِيَةً وَمِيًّا جَارِيَةً ،
وَعَطَّرْنَاها بِالْأَرْبِجِ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بَهِيحٍ ، وَأَمَّا عَالَمُ الظَّالِمِ ، عَالَمُ
الشُّرُورِ وَالْآثَامِ... فَأَرْضٌ مُقْفِرَةٌ مَسْعُورَةٌ ، دُفِعَتْ إِلَى أَقْصَى الْجَنُوبِ ، بَعِيدًا
عَنِ الْمَعْمُورَةِ ، عَوَالِمٌ مِنْ دُخَانٍ وَنَارٍ ، وَنَقْصٍ وَشَنَارٍ ، تَعَجَّ حَمِيحًا بِالْأَشْرَارِ ،
وَبِالْقَتْلِ وَالْفُجَّارِ ، وَالسَّحَرَةِ وَالْمُشْعَوِذِينَ وَالْكَفَّارِ ، أَرْوَاحُ زَاهِقَةٍ ، وَنِيرَانُ
خَارِقَةٍ ، وَمَوَاصِفُ خَائِفَةٍ ، تَسُوقُهَا شَيَاطِينُ خَائِفَةٍ ، وَسُفْهَاءُ ، وَمَصَاصُ دِمَاءٍ ،
يُوجِئُهُ مَظْلَمَةٌ سَوْدَاءُ ، صُمُّ بِلَهَاءٍ ، يَنْهَضُ بَيْنَهُمُ الْمُشْعَوِذُونَ ، وَالْمُزَيَّفُونَ
وَالْكَذَّابُونَ ، وَالسَّرَّاقُ وَالْغَاصِبُونَ ، وَالْقَتْلَةُ الْمُجْرِمُونَ ، أَنْوَالًا أَنْوَالًا ، قِصَارًا
وَطَوَالًا ، وَخَلَنَتْ أَشْكَالًا ، مِنْهُمْ يَطِيرُونَ ، وَمِنْهُمْ يَسِيرُونَ ، وَمِنْهُمْ عَمَلَى
بُطُونُهُمْ يَزْحَفُونَ)... والحي المزكي.

وتمضي الحكاية لتقول إن هذه الدار يحكمها عفريت جبار يخور ويدور ، فوقف
عند حدود الديجور ، ونظر إلى أكوان النور ، وأراد أن يخترق الحد الفاصل بين
النور والظلام ، وعندما رأى ملائكة الرحمن ذلك وهم محلقون ، جاءهم الصوت
من عالم النور السامي ، أن ألا تخافوا من هذا اللعين ، لأنه لا يقدر أن يعبر
الحد الفاصل ، فما هو إلا عفريت سجين ، وأمرهم أن يعودوا إلى دورهم
آمنين... كان هذا بدء القلق في العالمين :

علم عظيم الملائكة الأثريين بالأمر فجاء إلى الحد الفاصل بين النور والظلام ،
وسبر أغوار الكون ، فرأى عجبًا في عالم الظلام ، واستغرب من الأمر وقال مع
نفسه لم هي قديماي خلق هذا العالم ، ولم خلق هذه المسوخ ، وما الفائدة منها :
فجاءه الصوت السامي من عالم النور السامي ، الله أدري وأعلم... لا يستطيع
الظلام التقرب من النور ، فبصيص من النور يبدد الظلام كله ، وعندما يتقدم
النور يتراجع الظلام وينحسر ثم يتبدد ، والشر لا يقوى على الخير ، والشياطين
لا تواجه الملائكة ، خلق الظلام ليحسوا بالنور وخلق الشر لتحسوا بالخير ،
وخلق الشياطين لتحسوا بالملائكة.

هنا أمر الله الملاك مندادهي أن يسيطر على عالم الظلام ويقضي على المردة والآثام ، وأن يجعل منه عالماً نورانياً تسكنه الملائكة الأثريين ، فنأدى ابنه الملاك هبيل زيوأ ، وقام اثنان من المانات الموقرة واستقبلأه ، وعانقأه وقبلأه ، فسبح أمامها وسجد ، وارتبك وارتعد ، قالأ لا ترتجف يا هبيل زيوأ ، قم فاعرس نفسك في ثلاثمائة وستين يردنا... وستلبسك ثلاثمائة وستون رداء من أردية النور ، ثم قاموا لأردية النور فألبسوه ، وفي ثلاثمائة وستون يردنا صبغوه ، وذكروا عليه أسماء خفية لم يحظى مثلها إلا ياور أبوه.

وصار مانا كبير شكلهم ، أبي الذي سماني باسمه ، ياور وضع يده عليه ، وكون لي عالماً لا مثل له في الوجود ، ليس لسعته حدود ، ولا لأنواره سدود ، وفيه ثلاثمائة وستون ألف أثري شهود ، ثم وهبني ثوبه الخاص الذي اصطبغ فيه ، وأعطوني السر الذي يحرس المعظمين وقالوا لي يا ابننا ذا البهاء الأسنى من بهاء الأثريين جميعاً ، سترى كوناً عنيداً ، تلاقى فيه وعيداً وضيقاً شديداً ، إنها أكوان الظلام...

وتستمر القصة ويمتثل الملاك هبيل زيوأ وينزل إلى الحد الفاصل بين النور والظلام ، ويودعه أبوه ويولج عالم الظلام مع الملائكة مرافقيه ، ينتقلون من عالم ظلام إلى آخر ، يسيطرون عليها واحد تلو الآخر ، وبعد زمن طويل وقتال مرير يقضون على الجن والعفاريت والمردة ويعودون إلى عالم الأنوار منتصرين.

وتستمر الحكاية أن الله جل جلاله أراد أن يكون عالم الظلام الذي تمت السيطرة عليه عالم من عوالم النور ، تسكنه الملائكة الأثريين الطيبين الصادقين لكن أولاد السلام أبناء الملاك يوشامن طلبوا من أبيهم أن يجهزوا عالماً يسبحون به هيي وأبيهم يوشامن ، فوافق على ألا يقوموا بعمل باطل... نظر الملاك أبائر سادن باب الأنوار إلى العالم الأرضي ، فوجده مغطى بالماء الأسود الآسن ، ورأى أن العمل يحتاج إلى جهد كبير ووقت كثير ، فعلى عجلة

من أمره نادى له ابناً من المياه الآسنة العكرة سماه بٹاهيل ، وطلب منه أن يهيء عالماً، فامتثل بٹاهيل لأوامر ربه في علاه...

القصة مذكورة في الفصل الثاني البحث الثالث (آدم وحواء وذريتهما) ، والمشكلة هنا عندما تناقش بعقل ومنطق أن الله جل جلاله خلق كل شيء وبأمره كان كل شيء وقدرته (كن فيكون) إذا أراد شيئاً... فكيف يحق للملاك أبائر؟ وينادي له ابناً من المياه الآسنة وكيف وكيف ولماذا؟، ولأن الملاك أبائر نادى الملاك بٹاهيل من المياه الآسنة ، جاء بٹاهيل ناقص ضوء ونور فنصفه نوراني لأن أباه الملاك أبائر ، ونصفه مادي لأنه نودي من المياه الآسنة، وليس من المياه الحية في عالم الأنوار ، ولهذا آدم رأس السلالة البشرية جسده مادي ونفسه روحانية من عالم الأنوار ، ولهذا حكم الحي العظيم على بني آدم بالموت وتوابعه المرض والوجع والشيخوخة... ولهذا هذا العالم فيه عوز ونقصان وفيه كذب وبهتان وفيه ظلام وأشرار وحساب وعقاب وفيه معائر وأدران.

إنها حقاً ميثولوجيا طويلة شرحها يحتاج إلى مجلدات وجهد عظيم وفهم أعظم، لحد الآن لم يجرؤ أحد لا من الأولين ولا من المعاصرين ولا من المستشرقين على تفسير الكنز الربا، ولا لوضع إجابات لمتل هذه الأسئلة المعبرة، وعندما تسأل رجال الدين عن متل هذه الأمور المحيرة لا يجيبوك...

* * *

(قال ملك النور السامي في قوله فكان كل شيء ، قال لي ربي اذهب إلى عالم الظلام المملوء كله بالشر ، كله مملوء بالشر بالنار الآكلة ، عالم القتنة المضطرب ، عالم الغش والكذب ، المزروع بالشوك والعليق ، اذهب إليه وسيطر عليه ، ابسط الأرض وارفع السماء وخلق فيهما الكواكب ، هب الشمس ضياء ، والقمر بهاء ، والنجوم سناء ، والماء مخضوبة ، والنار أنساً ، ولتبدأ بأمرى الحياة ، كون بأمرى الثمارن والأعشاب والأشجار ، يبتهم بها العالم ، وليكن رجل وامرأة ، اسماهما آدم وحواء ، تسجد لهما ملائكة النار ، ومن حصى فمصره النار ، وليكن ثلاثة من ملائكة النور أنساً لآدم).

دائمًا تستهويني ما تكتبه من مقالات قيمة الأخت رمزية عبد الله فندي، لإيمانها العميق ودقتها وبساطتها وتواضعها، فألف تحية لأختي رمزية أم إيهاب...

في رحاب سفر إنجازات رسول النور هيبيل زيوا:

تعود بنا الذكرى من جديد لرحلات الملاك الباسل (هيبيل زيوا) ونزوله إلى عوالم الظلام والتي ورد ذكر تفاصيل إحداثيتها ومراحلها وإنجازاتها في الكنزا ربا القسم اليمين، تأخذنا إلى الزمن الكوني والميتافيزيقيا الدينية العميقة التي تعتبر من المبادئ المهمة التي تقوم عليها الأنطولوجيا المندائية منذ القدم؛ ورد لنا في الكنزا ربا بصياغة راقية البلاغة والأدب العرفاني فيها امتزاج ثراء اللغة المندائية مع العمق المعرفي الميتافيزيقي ليعطينا بيانًا عن كنوز معرفية وفكرية وأخلاقية ومنهجية من طراز عالي اللطافة، نستنبطها من سفر الرسول هيبيل زيوا.

(مبارك ومسبح أنت الحي أبد الأبد، بأمرك كان كل شيء، وبأمرك خلق كل شيء، يا خالق هيبيل زيوا، جبرائيل الرسول، ومرسله إلى عالم الظلام)... الكنزا ربا.

هيبيل زيوا - واهب النور:

اسم من صفات (الهي ربي قدامي) الحي العظيم القدير، بعد خلق الملاك الرسول ونودي عليه بالاسم (هيبيل زيوا)، ليكون هذا الاسم خاصيته التي تعبر عن ماهيته وقدرته، فصار (هيبيل زيوا) أي هبة النور الاسم المميز لرسول الحياة بالإضافة إلى بقية أسمائه التي حصل عليها...

وهو ثاني أهم شخصية نورانية (أثري) تحمل الجذر المعرفي (علم الناصيروثا) للديانة المندائية بعد شخصية الملاك الأثري مندادهيي، والذي اسمه يعود أيضًا إلى صفة من صفات الرب الخالق هي ربي، وتعني (عليم - عارف الحياة)، منح له ليكون له الماهية لشخصية تمثل الجذر المعرفي (المندا) (مندا - ادهيي،

معرفة الحياة)، وتقع على عاتقه نقل تعاليم وأحكام وإرشادات الحي العظيم إلى جميع العوالم، وهو المسؤول عن سلامتها وحراستها وإتقانها.

نستقرء دور الملاك هبيل زيوا، الذي خُلق ونودي عليه لمهمة سيُكلف بعملها بأمر وإرادة الحي العظيم، وواجبه الطاعة وتنفيذ أمر ربه الذي خلقه لتلك المهمة الكونية... (عندما أراد ملك النور السامي دعاني من شكينته المملوءة بالبهاء، تلك الشكينة التي كان هو المبجل العظيم مرشدها على الجهة اليمنى منه)... الكنزا ربا.

لغرض محاربة الظالمين في عمق عوالمهم بعد أن تعاظمت قوتهم، المهمة تعددت إلى عدة مراحل وفي كل مرة ينقطع فيها عن بلد النور آلاف السنين لحين اكتمالها، وتكلفت في الآخر بالنجاح، وتم تقييد وتقويض وتحجيم وكبح باللجام غطرسة جبابرة الظلام، لأجل تلك المهمة الكبيرة وجب تحصين وتسليح وتهيئة الملاك ومرافقيه، فهىء لهم مياه النهر الحي العظيم لصباغتهم من قبل المانات العظماء (مارا إد ربوثا، ومندادهيي) ثم وهبوه من الأسرار العظيمة والضياء والنور الساطع...

بقوة ملك النور السامي

وبقوتنا نحن مندادهيي

وبالحياة... وبالأثريين

تفوح بالأثري البكر الذي نادينا

ومن ضيائنا الخاص ألبسناه

وبالنور عطينا والقوة والثبات وهبناه

لنرسله إلى عالم الظلام يُسيطر عليه ويُعيد النظام إليه

حيث نجاح مهمته سيحقق السلام والهدوء في العالم، وسيفتح المجال لتهيئة عالم أرضي مناسب لاستقبال الحياة والخلق، (وخاطبني ملك النور السامي) قائلاً:

(أذهب إلى عالم الظلمات المتخيم بالسينات ، وذلك العالم الخاص بالأشياء
الرديئة والمخاط من كل جانب بالنار الحارقة ، أذهب إلى عالم الفوضى
والعربة بلا استقرار في عالم الظلام الخالي من كل بصيص من النور إلى
عالم الاضطهاد والموت بدون الحياة الخالدة)... الكنزا ربا.

بعدها انطلق ومعه ضياؤه العظيم ، إلى عمق الأشرار وأرغمهم على الاستسلام
والاستيلاء على أسرارهم وتجريدتهم من أسلحتهم ، ثم جاءت مرحلة تهيئة العالم
لخلق البشر ، (إلى أن ينادي جبرائيل هيبيل زيوا الرسول ، وإلى أن يؤمر
بالمجيء إلى هنا ، يؤمر ويرسل ليكون العالم ، سوف يكثف الأرض ، ويمد
الرقيع ويهيئ حدودًا للأكوان... مبارك هو الحي الأزلي العظيم ، ومبجل
جبرائيل هيبيل زيوا الرسول ، الذي بقوته وبمعونة هيبيل وشيتل وأنوش... نفذ
أمر الحي العظيم... فبسطت الأرض ورفعت السماء ، وعلقت فيها النجوم ،
وحملت الأرض أشجارها وحملت الأشجار ثمارها ، وتبعث كل نجمة مدارها ،
ومنحت الشمس ضياء والقمر بهاء وخلق آدم وحواء ، فحلت البركة)... وبعدها
مهمة المكوث مع آدم وحواء لتعليمهم جميع أحكام الدين والمعرفة والحكمة
والفرائض والطقوس الدينية ، وعلمهم النطق والتدوين وأمور الحياة من زراعة
وحرثة وبناء البيت وحياسة الكساء.

النتائج المستنبطة :

نستخلص من مآثر وأعمال رسول الحي العظيم (هيبيل زيوا) ومرافقيه عدة
معاني ، ومن جملتها : واقعية حالة التطور والانبعاثات التي ستؤول له الخطة
السموية ، تثبيت خاصية الواجب والعمل والطاعة في مستويات الحياة ، تقديم
دروس بلاغية عن حقيقة الاتحاد وانسجام البنية وسداد الهدف ، تبيان مفهوم
العمل على مستوى الشخصيات النورانية الأثرية ، حينئذ نتأمل ما قام به
الرسول هيبيل زيوا مبارك اسمه ، نجد خاصية الشمولية المطلقة قد برزت في
العمل المكلف به وتعليل ذلك :

أولاً : لكون مردود نتاج هذا العمل يعم على جميع العوالم ، ويحقق النظام والهدوء والطمأنينة لجميع الحيوانات .

ثانياً : لا زال تأثير نتاج هذا الفعل ساري المفعول والفائدة على الكل ومن أجل الكل ، وإلى ما شاءت إرادة الحي العظيم ، فما قام به الملاك الباسل من عمل لم تقف فائدته عند عالم محدد أو من أجل حياة معينة .

ثالثاً : أن مبدأ العمل ونجاحه يعتمد على نوعية الفكرة المتجسدة في ذلك العمل ، وعليه تكون العلاقة ما بين الفكرة والعمل علاقة متساوية بالقوة والنقاء والإرادة حيث أن ما يميز نجاح العمل هو الفكرة بذاتها ، ومن المعروف أن الفكرة السديدة النقية تتطلب كينونة أكثر نقاء وصفاء وفطنة ، وعليه فإن صفات العمل المتقن تكمن في صفات الكينونة حيث المهارة العالية في الإنجاز تضع الفاعل على مستوى عالي من الغبطة والذكاء والقوة غير المحدودة لملاكات كينونته ، ومن هذا نستدل على مدى عظمة كينونة الملاك الرسول هبيل زيوا ، مبارك اسمه ، الذي اختير لهذا الواجب والمهمة الكبيرة ، وإدراكنا لا شك يقودنا في ذات اللحظة إلى الكائن المدبر العظيم الذي يقف على كل هذه الانتصارات العظيمة ، سيد الكون المتفرد بقدرته وبخصاله العظيمة ، الذي خلق الملاك هبيل زيوا هو الذي وضع فيه هذه الميزات والقدرات والملاكات العظيمة ، فقدرته لا تحد وعظمته لا تقاس ، بأمره كل شيء كان وصار .

أصبح بكل أمانة وحجة نطلق عن سفر أعمال الملاك الأثري هبيل زيوا مبارك اسمه (سفر المهمة المطلقة) ، التي رحاب شذاه الخالد سيظل يملأ حياتنا وحياة أجيالنا بغزارة عطائه الدروس والمواعظ ، بها نتسلح ونرتقي بكياننا وملاكاتنا الروحية والفكرية .

ومن الواضح أن ما تضمنه سفر الملاك هبيل زيوا من أفكار ومعاني روحانية ، لم يكن مصاغ في لغة مكتوبة فحسب ، وإنما كان يرمز له في طقس اجتماعي تعبيري يعمل فيه غذاء خاص يُمزج فيه ثمرة التمر مع ثمرة السمسسم يطلق

عليه في العامية (دك الفل) ، وهو نوع من أنواع الحلوى ، لما تحمله الثمرتين من رمزية دينية لها علاقة وطيدة مع ماهية الأسرار التي تسلم بها الملاك ومساعدته في الرحلة كما أشرنا إليها سلفاً ، وكما قال الباحث أحمد راشد صالح في بحثه الموسوم (دك الفل بين الأسطورة والحقيقة)... (إن استخدام تعبير التمر والسّمسم يراد به الإشارة إلى اصطحاب الملاك أسرار التكوين معه وليس تمرًا وسّمسمًا يأكله كمتاع طريق كما هو دارج).

وما يؤكد ذلك أن تلك التعابير استخدمت أيضًا في ديوان آدم بغرا حيث يتكرر استخدام رموز النخلة والمشة عند شرحه تركيبة المخ وتوزيعه للمعلومات في أنحاء الجسم ، والإشارة لتلك الأسرار على أنها تمثل العلم والبصيرة والمستمدة من شجرة الحياة ، والزيوا ومسؤوليتها في نشر المعلومات لكافة أنحاء الجسم وكيف أن القنديل العظيم (شيشلام ربا) هو المادة التي تعلو النخاع الشوكي والذي ينير طريق الإنسان وكيف أن المانا يتقابل مع ما يأتي من المخ وكيف أن النشمنا تسكن بينهما ، (انتهى الاقتباس).

وعليه يؤكل هذا الغذاء (دك الفل) في أجواء عائلية واجتماعية ملئها الفرح والشعور بالغبطة والانتصار ، ومعنويًا حلوى دك الفل في هذا اليوم يُلهم بالقوة الروحية التي تزود بها الملاك ، وما ينطوي عليه من معنى عميق في قلوب المؤمنين به يكشف عن وعي وإيمان لحدث معين في زمن كوني ولروحانية عميق.

الحقيقة ما بين العلم والدين :

يختتم الصابئي المندائي رسمه بالماء الجاري بتلاوة النص التالي : لفري ايديهون اد شبا وترسر لا تشتلط الى اشما اد هيي واشما اد مندادهيي مدخر (الي) حرفيته قدامي - أيادي السبعة والاثنتا عشرة لا تتسلط على اسم الحي واسم مندادهيي مذكور علي...

وبتعبير آخر : (ليكن طريقي في الحياة الدنيا بعيداً عن متناول السبعة كواكب والأبراج الاثنى عشر كي لا تؤثر علي ، لأن اسم الحي ومنداهي مذكوران علي).

إن ما هي الأبراج الاثنا عشر وما هو سر تأثيرها على حياة الإنسان ؟ ملايين النجوم التي نشاهدها في السماء الصافية ليلاً تبعد عنا مسافات متباينة إلا أننا نتصورها كما لو أنها قد وزعت فوق سطح مكور مركزه موقع الراصد يسمى بالقبة السماوية (قمبا درقيها) أما دائرة البروج فيرسمها مدار الشمس مع قبة السماء ابتداء من نقطة الاعتدال الربيعي وتؤشر بداية الربيع وتكون هذه النقطة ثابتة على قبة السماء، وتعتبر النقطة الأولى من نقاط برج الحمل ، أما الاعتدال الخريفي فهي النقطة الأولى من برج الميزان ، وهاتان النقطتان متباعدتان بمدة ستة أشهر ، أما الأبراج الاثنا عشر فيبتعد أحدهما بمدة شهر كامل ، أي أن الأرض بسبب دورانها حول الشمس تكون خلال كل شهر تحت تأثير أحد الأبراج الاثنى عشر ، وبسبب دوران الأرض حول نفسها يتعاقب الليل والنهار ويمر على الراصد برج من الأبراج كل ساعتين ، بحيث تكون حصة أول ساعتين من اليوم برج الشهر الذي نحن فيه ، أما حصة الساعتين التي تليهما فيكون برج الشهر الذي يليه ، وهكذا دواليك ، مع العلم أن الساعة الواحدة في التوقيت المندائي مقابل الساعة السادسة صباحاً لأن اليوم المندائي يبدأ عند بزوغ الفجر ، أما الكواكب السبعة ويرمز لها بالمندائية بعبارة (شبا شيباهيي) أو (شبا) فقط ؛ فهي الشمس ، القمر ، المريخ ، عطارد ، المشتري ، زحل ، الزهرة ، وقديماً كان الإنسان يعتقد بتأثير الكواكب والنجوم على حياته ومستقبله ودخلت تأثيرات حركة الكواكب في فناعات المجتمعات القديمة ، وبات لزاماً على يوم ولادة الإنسان أن يتقرر برجه ونجمه ويمكن قراءة مستقبله إذا عرفت ساعة ولادته ، ومصادق ذلك في كتاب سفر البروج (سفر ملواشي) عندئذ يتقرر على ضوءها حياة الإنسان واستطاعوا تصنيف البشر بأنواع محددة لا تتغير ، لأن معلومات كل برج معروفة ومحددة كما كانت معلومات طبيعة الإنسان في

السابق لا تخرج عن أربعة طبائع ؛ وهي الترابية والمائية والنارية والهوائية ، ولكل طبيعة مواصفات محددة ، أما التفسيرات التي يطرحونها فبعضها لا يختلف عن المعلومات العلمية المعاصرة لأن جميع أجزاء الكون تتماسك وتتبادل بالتأثيرات ، والتوازن المتعادل للكون أساسه الأخذ والعطاء ، وعلى الإنسان في مظهره البشري أن يكافح مجموعتين من القوى ؛ أولهما الصخب الموجود بداخله والناشئ عن امتزاج تلك العناصر الأربعة ؛ التراب والماء والهواء والنار ، أما الثانية القوى الطبيعية الهدامة الخارجية وطالما كان الإنسان في كفاح مع الفناء فإنه يتأثر بالتقلبات المتعددة للأرض والسماء ، ترى ماذا يقول علم الفلك الحديث على ضوء أحدث المعلومات العلمية والفسولوجية المتوفرة في هذا الصدد ، وما علاقتها بالكواكب والأبراج؟.

لقد أكدت التجارب والأبحاث العلمية الدقيقة على احتواء جسم الإنسان على اثنتي عشرة قناة لمسارات الطاقة الحيوية في الجسم ، وتنتهي هذه القنوات بأطراف أصابع اليدين والرجلين ، وهي عبارة عن مسارات كل من الكبد والمرارة والطحال والمعدة والقلب والأمعاء الدقيقة والكلية والمثانة والغلاف القلبي مسار (سان جاو) ، تدخل الطاقة إلى الجسم عن طريق الرئة والأمعاء كمدخل معتاد ، وتدخل أيضاً عن طريق الدوامات التي تحيط بالغدد السبعة الصماء ، فهي تعتبر بوابات لدخول وخروج الطاقة ، وتسمى (بالشاكرا) ، وهي شاكرا الجذر (الغدة الإدرينالية) وشاكرا البطن (الغدة الجنسية) ، وشاكرا العقدة الشمسية (البنكرياس) وشاكرا القلب (الغدة الزعترية) وشاكرا العين الثالثة (الغدة النخامية) وشاكرا التاج (الغدة الصنوبرية) ، وتتأثر الطاقة الحيوية في القنوات تبعاً للحالة النفسية والفسولوجية التي تخضع لحكم الوعي واللاوعي ، فدوامة التاج تبدو كأوراق الورد وكلوأمس تمتد إلى الأعلى وتتحرك بجميع الاتجاهات ، وتبدو هذه الدوامة كميسم الورد الذابلة عندما يكون الإنسان مرهقاً من الناحية العقلية والبدنية ، ويكون تأثيرها على صحة الشعر وكثافته على الرأس ، وتتحرك الطاقة الحيوية في المسارات الاثنتي عشرة وتتجمع في عقد

مولدة دوامات صغيرة ، وهي أيضاً أبواب لدخول وخروج الطاقة ولكل منها تأثير على صحة العنصر الذي يرتبط بها.

وقد وجد أن الإنسان عندما يكون متأملاً أو غارقاً في التفكير يرتفع منسوب الطاقة في القنوات ، ووجد أن زيادة حجم الدوامة أو صغرها يجعل العضو المرتبط بها غير سليم ، وتبدو عليه علامات المرض ، وقد برح الصينيون في علاج الكثير من هذه الحالات باستخدام الوخز بالإبر ، عن طريق العقد التي تتجمع فيها الطاقة ، فدوران الإبرة الواخزة من اليمين إلى اليسار يزيد من حجم الدوران ، وبالعكس من اليسار إلى اليمين يقلل حجم الدوامة ، وبهذه الطريقة يمكن السيطرة على حجم الدوامة وجعلها بحجمها الطبيعي ، وأيضاً استخدام الأطباء للمس وتحريك أطراف الأصابع للسيطرة على منسوب الطاقة الحيوية في القنوات. وقد وجد أن هناك علاقة بين الأبراج والطاقة في القنوات ، فعندما يكون الإنسان تحت تأثير أحد الأبراج يتولد نشاط في إحدى القنوات وإحدى الدوامات الخاصة بالعقد داخل القنوات ، وتكون في أوج نشاطها ، وتعليل ذلك أن الأجرام السماوية والكواكب ترسل موجات وإشعاعات كونية ذات ترددات مختلفة تترابك مع الدوامات وتؤثر عليها مسببة تغييراً في الجسم وفي نشاطات الغدد ، وبالتالي منسوب الطاقة الحيوية في القنوات ، ويمتد هذا إلى حياة الإنسان وشخصيته وقد يبدو ذلك مذهلاً عند الطفل ساعة ولادته ، ففي اللحظة الأولى بعد ولادته يكون نسخة طبق الأصل من أمه لأنه كان يستمد الطاقة منها عندما كان جنيناً في رحم أمه ، ولكن خلال الساعتين الأولتين بعد الولادة يتبرمج الطفل من جديد على استقبال الطاقة وتأثرها بحركة الكواكب والأبراج ، ويمكن أن يشبه بجهاز التلفاز عندما يبرمج على قمر صناعي معين ، وبالإضافة إلى كل ذلك فإن المسارات والدوامات السبعة الرئيسية تتأثر بمؤثرات عديدة كالحرارة والبرودة واللون والموسيقى ، لذلك استخدم الأولون النبرات الموسيقية في علاج بعض الأمراض واستخدموا الألوان لنفس الغرض ، كاستخدام اللون الأحمر في زيادة سرعة الشفاء من مرض الحصبة.

والأكثر غرابة أن الأوائل يعتقد أنهم توصلوا إلى أن خيوط الحرير والقطن ودورانها يؤثر في نشاط الدوامات، وخاصة دوامة التاج (الرأس) فلف الهميانه حول الرأس من اليمين إلى اليسار يزيد من نشاط دوامة الرأس، مما يجعل الإنسان متفائلاً فيزيد تأمل الإنسان بالمعتقدات، في حين أن اللف من اليسار إلى اليمين يجعل الإنسان يشعر بالذنب وخيبة الأمل...

الآن لندرس معاً تأثير القمر على الحياة عموماً وعلى حياة الإنسان خصوصاً، فالأرض كما أكد نيوتن تجذب القمر وتشده إلى مسارها في حين يحافظ القمر على مكان الأرض ويؤثر من جراء ذلك على الحياة وليس أبسط من عملية المد والجزر كمثال على هذا التأثير، وبما أن أكثر من نصف وزن الإنسان ماء، إذن لابد وأن يتأثر بجاذبية القمر ويتكيف معها، فلقد ثبت أنه عند مرور القمر بالأرض يسحب معه الغلاف الجوي ثم لا يلبث أن يطلقه مما يسبب في اختلاف الجو وهطول الأمطار وحدوث الأعاصير، وقد تمّ التعرف على ذلك بواسطة الأقمار الصناعية الحديثة.

أما الشمس فهي أيضاً تؤثر على الأرض من خلال البور والفوهات الموجودة على سطحها والتي تتأجج من حين لآخر مرسله إشعاعات وتموجات عنيفة فالأبحاث الكيماوية توصلت إلى التفاعلات الكيماوية التي تجري في الماء تتأثر بالنشاطات الكونية وبالتالي على الحياة الإنسانية، فالحياة الإنسانية تتأثر عموماً بحركة القمر والشمس والكواكب والأجرام والمختلفة فهي ترسل للأرض نشاطات إشعاعية يحمل بعضها في ثناياها قوة وطاقة كبيرتين، ولقد وجدت علاقة وثيقة بين دورة الطمث عند المرأة والقمر إذ يبلغ الطمث أقصى معدلاته حين يكون القمر على وشك أن يصبح هلالاً، وتبدأ معدلاته بالانخفاض لتعود فتزداد حين يصبح القمر محاقاً، وقد أكد العلماء في أبحاثهم أن وقت تكوين البويضة عند المرأة يرتبط أشد الارتباط بالقمر، حتى تمكنوا من أن يحددوا بدقة أوقات حمل المرأة.

وقد توصل العلماء إلى أن البقع الشمسية ونشاطها تؤثر على كمية الزلازل في مصل الدم، مما يساعد على حدوث التجلط عند أولئك الذين يمتلكون القابلية مما يؤدي إلى إصابتهم بالذبحة القلبية، وبسبب تأثير المجال المغناطيسي للشمس على المجال الأرضي فيسبب ذلك تأثيراً على حياة الإنسان كأنه جهاز مسير للمؤثرات الخارجية، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى القول إن التكوين الجيني للطفل يتحكم بمستقبله وله علاقة بموعد ولادته، وأنه بدراسة مواقع الكواكب والأبراج عند ولادة الطفل فإن التنبؤ بمستقبله وتصرفاته الاجتماعية يبدو ممكناً.

بالإضافة إلى ذلك فإن تغير موقع قطبي الشمس المغناطيسي وتأثير المجال الأرضي بمجال الشمس ودوران الشمس حول محورها كل ستة أيام ونصف من جهة القطبين وكل ٥٥ يوماً عند الاستواء ودوران الأرض حول محورها كل ٢٤ ساعة يعطي صفات متباينة لأيام الأسبوع، وقد وجد أن موقع قطبي الشمس ووجهها المقابل للأرض في يوم الأحد يُعطي إشراقاً متميزاً لهذا اليوم بحيث يجعله أجود من كل أيام الأسبوع ويكون مناسباً لإجراء الطقوس الدينية كالصباغة وغيرها فهو إذن يوم مبارك ويسمى (هشبابا).

على ضوء كل ذلك نرى سلفاً بأننا محكومون بما تطرحه علينا ساعة ولادتنا وموقع الكواكب السبعة والأبراج الاثنى عشر والاشعاعات الكونية وتأثيراتها السلبية والإيجابية... وإن أفعالنا تخضع لحركة غير عاقلة لا تدرك بالضرر أو الفائدة، وتقودها حركة عمياء في الكون، سواء أكان القمر أم الشمس أم المشتري أو زحل هو الذي يحكم علينا من خلال إشعاعاته وجاذبيته وتأثيره على السلوك والتصرفات الشخصية والإنسانية، وأن كل ذلك ممكن.

إذا اختار الإنسان أن يعيش بعيداً عن النور متخبطاً في الظلمة تسلب منه الإرادة وتجعله أسيراً لتلك القوى الشريرة، التي ترسم له حياة العبودية وتجعله بعيداً عن واقعه الذي يجب أن يعيشه كإنسان خلق من أجل كبح القوى الشريرة.

أما الإنسان الذي يعيش في النور ويمتلك من المعرفة ما تجعله يميز بين الخير والشر ، ويعرف أن الخير هو الحقيقة فيفعله بكل حرية وإرادة ويعرف بأن الكون كله مسخر له فالشمس تشرق كل يوم محكومة بقوانينها ، والسماء تمطر والأرض تتبت والرياح تهب والنار تحرق ، وكل شيء يتحرك وفق قوانينه ولا يشذ عنها أو يرفض حكمها ، والإنسان هو الوحيد الذي يستطيع أن يقول لا حينما تفرض عليه نعم ، ويقول نعم حينما تفرض عليه لا ، إنه لا ينصاع لوضعه القدري الذي يفقده طبيعته الفاعلة وسيادته على الكون ، لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يحدد نفسه ويكون مستقبلاً ، لأن الحياة الإنسانية هي وليدة الإرادة الإنسانية والعقل الإنساني الواعي.

البحث الخامس

المصبتا

المصبتا (الصبغة) ركن أساسي من أركان الدين الصابئي المندائي ، وهي فرض واجب على كل مندائي مؤمن ، ويستحسن إجراؤها والطفل عمره ثلاثون يوماً ليكون صابئاً مندائياً... والمصبتا تعني الارتباط الروحي الوثيق بين العالم المادي الذي نعيش فيه والعالم الروحي (عالم الأنوار) الذي سوف نعيش فيه بعد أن تغادر النفوس هذا العالم لأن (كل ما يصنع بالأيدي يفسد وكل حي يموت) في هذا العالم المادي... وأعمال الخير هي التي تزكينا ، والصبغة تعني حياة جديدة تمنح للإنسان عليه أن يحيا بصدق ونزاهة وإيمان ، لتخفف عنه ذنوبه يوم الحساب في ميزان أباثر ، ولتسهل عروج النشماثا (النفس) إلى عالم الحق (مشوني كشطة) ليعود إلى آباءه الأوائل إلى المثلث (الدموثة) الذي أخذت منه النشماثا يوم تصور في رحم أمه الطاهر .

ويذكر لنا كتاب الكنز العظيم (الكنز الربا):

(اصبغوا نفوسكم بالصبغة البقية التي أنزلها عليكم ربكم من أكنوان النور ، والتي اصطبغ بها كل الكاملين المؤمنين* من وسم بوسم الحي ، وذكر اسم ملك النور عليه ، ثم ثبتته وتمسكته بصبغته وعمل صالحاً ، فلن يؤخره يوم الحساب مؤخر).

تتم الصبغة في اليردنا ، أي في المياه الجارية الصافية سواء في النهر أو في حوض التعميد المصمم لهذا الغرض ، بحيث لا يكون الماء فيه راكد ، لأن الماء الحي يرمز للحياة ونور الرب في العلا... والصبغة يمكن للإنسان المندائي أن يكررها عدة مرات في مناسبات دينية أو يوم الأحاد ، وضرورية عند الولادة والزواج ، ويجب أن يقوم بمراسمها رجل دين ، وعلى المصطبغ لبس الملابس الدينية (الرسته) بشكلها الصحيح وعليه أن يحفظ اسمه الديني (المواشة) بشكل

دقيق... وقد أخذ الأخوة المسيحيون رسم الصباغة من الصابئة المندائيين بعد أن عمد نبي الله يهيا يوهنا (يحيى بن زكريا) السيد المسيح في نهر الأردن ، ولكن الآباء المسيحيون مع الوقت طوروها إلى الرش بالماء المقدس ، وسموها التعميد بسبب أعدادهم ومسايرة للتطور ومواكبة العصر ، وسموا يحيى بن زكريا (يوهنا الصابغ) بـ(يوحنا المعمدان) لكونه عمد السيد المسيح على الطريقة الصابئية المندائية بالغطس بالماء.

وهنا قد يسأل لماذا الغطس بالماء وليس رش الماء ؟ إن الغطس هو عملية انقطاع النشمتا (النفس) عن العالم المادي للحظات ، لتبدأ حياة جديدة للإنسان ، والإنسان عندما يصطبغ وفق مراسيم الدين الصابئي المندائي يشعر بالسعادة والفرح وقد زالت عن نفسه كل الهموم وكأنه ولد من جديد ، يشعر أنه يريد أن يخلق ويطير لأنه أصبح طاهراً وقد تخلص من أدران الحياة ومن همومه ، لأنه ولد ولادة جديدة ، وهذا بالحقيقة هو حُبُّ الصابئة المندائيين للسكن قرب المياه الجارية ، وهذه الصباغة قد صُنع بها آدم رأس السلالة البشرية بالغطس بالماء من قبل الملاك المبجل هيبيل زيوا بعد أن تمَّ خلقه وأولجت فيه النشمتا (نسمة الحياة التي جلبت له من عالم الأنوار بأمر من الحي العظيم)... ومن الآيات (البوثة) التي يرددها المصبغ أثناء الصباغة :

(بسم الحي العظيم... اسأل القوة أن تنعشني قوة الماء الجاري لتأتي إليّ ، لقد ارتسمت في الماء الجاري وخطست تحت سطحه وقبلت العلامة الطاهرة ولبست الرسته (أردية النور) ووضعت على رأسي إكليلاً مثالاً وذكرته اسمي الديني (ملواشي) المصبون بصباغة بهرام ربا (إبراهيم الكبير) رب القدرة بارك صباغتني والتي ستعزسني وترفعني إلى عوالم النور).

وهنا نقف عند هذه الترجمة التي ترجمت بتصرف ، ونسأل عن بهرام ربا ، هل هو ملاك نوراني أم هو النبي إبراهيم الخليل ، رجال الدين يؤكدون لنا أنه ملاك كبير في عالم الأنوار مسؤول عن الصباغة ، وبعض الباحثين يقولون إنها صباغة الدين الحنفي لإبراهيم الخليل... ولترجيح رأي رجال الدين الصائب

فإن المصطبغ يقول : (صببت بمصبوتا بهرام ربا) أي اصطبغت بصباغة إبراهيم الرباني.

وشرح لنا الترميذا خلف عبد ربا وهو من رجال الدين الأكاديميين أن كلمة صبا بمعنى غطس أي تطهر بالماء الجاري ومصدرها (مصبتا) وتعني الصباغة ومنها صبينا صببت مصبانا ومن هنا جاءت التسمية (الصبا) أو الصابئون ، لأنهم يستخدمون الماء الجاري الحي في طقوسهم الدينية...

ويستطرد الترميذا أبازيدون فيقول تعتبر الصباغة (المصبتا) الركن الأساسي في الدين المندائي الذي لا بد منه أن كل مندائي يجب أن يجري رسم الصباغة سواء كان صغيراً أو كبيراً... ولنطلع على مقالة الترميذا خلف عبد ربه لأنها مركزة وواضحة المعنى والهدف.

إن المصبتا هي الركن الأساسي في الدين المندائي ، وهو العلامة المميزة لهذا الدين ، وكلمة مصبتا جاءت من الفعل الآرامي (صبا) بمعنى غمس أي تطهر بالماء ، وتشتق من هذا الفعل كلمة المصبتا أو الصباغة ، ومنها صبينا ، مصبانا... إلخ، ومن هنا جاءت تسمية للمندائيين أي (الصبا) أو الصابئون هم الناس الذين يستعملون الماء في طقوسهم الدينية.

المصبتا أيها المؤمنون بمعنى التعميد هي الطقس الرئيسي الذي لا بد منه لكل مندائي سواء كان صغيراً أو كبيراً...

يهدف التعميد بمفهومه المندائي إلى غرضين اثنين ؛ الأول هو إدخال أو قبول الشخص ضمن الجماعة مندائية أي يهيئه روحياً، وقبوله عضواً في هذا المجال بمثابة ولادة روحية تكمل ولادته المادية من أبوين مندائيين لطفل ، في هذا العماد يزداد برّاً بوالديه ويرثه ميراثاً وأسماء لطائفته.

الغرض الثاني هو الاستغفار أي طلب الغفران من سبحانه لمحو الخطايا والذنوب والتوبة صادقة ، ومن منا بلا خطيئة ، فالخطايا هي ليست جرائم فحسب وإنما هي مخالفة أوامر الخالق ، مهما كانت ذنوبنا صغيرة فإننا بحاجة

إلى رحمة الرب وغفرانه إن كنا حقاً مؤمنين ، والتعميد له من المعاني الجميلة والعبر المؤثرة وسيجعل الإنسان يشعر شعور خاص بالزهو والعظمة والفخر والارتياح النفسي ، وأرجع إلى أخي المؤمن وأنت تقبل على العماد بملابسك البيضاء النقية إنه شعور بالزهو والافتخار بأنك قادم في عمل يتسم بالإيمان والتضحية بالوقت والشعور بالشجاعة والإقدام للتخلص من أدران الدنيا ولتعيش لحظات رائعة منسجماً مع روحك وربك بعيداً عن هموم الدنيا ومشاكلها ، ولنعد بالذاكرة ، أي تلك اللحظات التي تسبق دخولنا إلى الماء طائعين مختارين فرحين بهذا الحدث الرائع الممتلئ بالإيمان الذي لولاه لكان شعورنا بعيداً كل البعد عن الدين ومتطلباته ، وبعيداً عن الشعور بأننا نؤدي واجباً ثقیلاً تمليه علينا المجاملة أو حب الظهور أو التقليد الأعمى.

ورغم أن معظمنا لا يفهم ما يقال في هذا الطقس الرائع إلا أن جميعنا في هذه اللحظات نمتلئ بالغبطة والسرور والراحة الروحية التي لا تدرك كنهها ولا نفهم معناها بدقة ولكنها شعور الإيمان والانتماء ، ولا أجل ولا أعظم من أن يتوجه الإنسان إلى ربه طالباً الرحمة والمغفرة والهداية فالمرء المندائي حين يقول :

(أتبته بقوة الهي العظيم

والماء الجاري المقدس سيختصني

لحي أتعمد وارسم بطهارته

لابساً رداء النور واضعاً لحي رأسي

إكليلاً رائعاً واسم الهي مذكور لحي).

وهكذا تتحلى قدسية التعميد وخلاص النية في التوبة والحصول على المغفرة... أيها المقربون الصادقون (بهيري زدقا) إن أول من تعمد في الماء الجاري هو أبونا آدم أبو البشرية عليه السلام ، وهكذا تخلص أبونا بعماده من خطيئته وبأمر خالقه انتشر أبناء البشرية ليعمروا الأرض.

وسرت من بعد آدم طقوس التعميد على البررة من أبنائه وأحفاده حيث جاء أبونا شيتل معمدًا أبناء المندا ومستغفرًا لهم ، مستنكرًا بذلك عبادة الشمس أو القمر أو الكواكب أو النار راسمًا إياهم برسم الحي الطاهر المقدس ، ولنا أسوة حسنة بالسيد المسيح عندما جاء يرجو أبانا يحيى بن زكريا ليعمده فاتحًا بذلك بشارة المناداة بالدين المسيحي...

فلنتقدم أيها المختارون خطوة أخرى إلى الأمام بتقبلنا العمد بفهم صادق ونية خالصة كعبادة خالصة للرب لا كواجب تؤديه ، ولنحاول أن نفهم العمد على حقيقته بفهم طقوسه ونصوصه وذلك للتقرب إلى اللغة المندائية الحبيبة ، ولنغير معًا النعوت التي تقال عنها إنها لغة طقسية ميتة أو تكاد... وليحفظكم الحي الزاكي.

الدين المندائي والمجتمع :

يشميهون اد هبي ربي... إليك هذا النص من نصوص الكنزا ربا مبارك اسمه (من اد برهموشه ماري بغرا اللغيطلي نشلم ادنقي هطايي نسق نهزوني الاثر نهورا) حرفيته (من كان جسده محبة للخالق يكتمل دون خطايا ويرتقي متطلعاً إلى بلد النور).

يبدو هذا النص للقارئ بسيطاً عابراً؛ كما ذكر الأستاذ أمين فصيل خطاب في مقال له، حيث أكمل: ولكنه في عمقه يغطي رقعة كبيرة من الدين، لا بل هو الدين بأسره فالغرض الذي يسمو به الدين لا يقتصر على الجانب النفسي، ولا على الجانب العقلي ولا على الجانب الأخلاقي بالمستوى الفردي فحسب وإنما امتد ليشمل المظهر الاجتماعي والسياسي العام، وهذا يمنح الدين المندائي في هذا التصور جانباً عملياً واضحاً يؤكد اتجاهه إلى الكيان الإنساني كله، وذلك بأشغاله الشخصية الإنسانية، وأتاح أوسع مدى لقواها وملكاتهما، ولم يكن مجرد أمر يتعلق بالعقل أو القلب أو الإرادة، وإنما يمتد ليجعل المندائي يسلك طريق السلامة والشرف المفضي إلى السعادة الأخروية والضامنة لحسن سلوك مجريات الأمور في الحياة الدنيوية، فلو عدنا إلى النص ودرسنا الجانب النفسي لرأينا أن عقيدة النور جعلت المندائي مدركاً يعرف حق المعرفة أن الحي العظيم هو المبدع، وأن خلقه في غاية الكمال والتمام وأنه عندما أنزل النفس في الجسد بعد أن سلحها بسلاح الناصورية وأورثها جميع صفاته جعلها قرينة لذلك الجسد، وأن صيانتها للجسد من النقص والوفاء للخالق هو واجب سامي، أما العبث بأي جزء من أجزاء الجسد يعتبر خيانة للحي العظيم.

لذا نرى المندائي يحرص كل الحرص على سلامة جسده، فقطع أي جزء منه كالكرارة مثلاً إذا لم يكن مجبراً على ذلك يعد خروجاً عن الدين المندائي

وخيانة كبيرة تقود النفس إلى الجحيم ، وحتى إذا كان مجبراً فهذا يجرده من حقوق دينية كثيرة يتمتع بها الكامل الجسد...

أما عن الجانب العقلي ؛ فالإنسان الواعي يشعر أن هذا النص يدعو إلى الصوم الكبير ، وهو صوم العين والأذن واللسان والقلب والضمير ، وهو صوم اليد والركبة والقدم ، إنه الإمساك عن كل ما يحمل النفس خطيئة تجعلها تعاني من النقص والخسران ، أما من الناحية الأخلاقية فهو يفرض على المندائي الابتعاد عن كل النجاسات مثل الزنا والفسق والرجس والدعارة ، كما أنه يمنع الزوج من التقرب إلى زوجته وهي بعد لم تتطهر من نجاسة الحيض والطمث ، ويمنع الإنسان عن ارتكاب الجرائم المخلة بالشرف ، والتي تجعل المجتمع ينظر إليه بازدراء واحتقار .

من هذا النص ومن نصوص عديدة تزر بها كنوزنا المندائية ؛ نجد أن الدين المندائي يهدف إلى إنشاء مجتمع قويم واسع الأرجاء متكامل الأركان ، يسوده العدل والنظام ، فالحي العظيم هو العادل ، وإن عدله يقتضي مادام قد كلف الإنسان أن يجعل له القدرة الفاعلة لفعل الخير بحيث يكون هو المسؤول عن فعلته ، وليس للحي العظيم دخل في ذلك ، بل يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة لأنه هو الحاكم هو الديان ، وأن الإنسان في وضعه الدنيوي من أجل أن يكون عادلاً بحيث عدله يوفر له مكانة مرموقة في المجتمع ؛ عليه أن يكون عادلاً مع نفسه كقوله : (ريش كينوثخ كن نفشخ واتقبل مينيلي اد هكيمي) رأس عدلك أن تعدل نفسك وأن تقبل أقوال الحكماء...

فالعدالة في الفرد أو التعاون الفعال بين طبيعته ، فالإنسان عبارة عن عالم من الرغبات والشهوات والآراء ، فإذا انتسقت هذه القوى النفسية وتعاونت فيما بينها ظهر هذا الإنسان رجل حكيم عادل ، أما إذا اختل التوازن بين هذه القوى وسيطرت الشهوات عليها واستبد العقل فيها تصوره مطلقة تصدعت أركان الشخصية الإنسانية وسرى فيها الشر والفساد فالعدالة إذن هي الحرية والجمال

والنظام في النفس ، فالعادل لا يدع قواه الروحية تتجاوز حدود اختصاصه ، واختصاص غيرها ، وإذا هو سيد نفسه يعقل خلته ليكون على أتم وئام مع نفسه ، ويجعل القوى تُعطي نغمة واحدة.

إذاً فعدالة الإنسان واقتدائه بعدالة الحي العظيم تمتد إلى علاقته في المجتمع فيكسب ثقة الآخرين ويكون قدوة حسنة لغيره في المجتمع ، إذن فالإنسان في قواه النفسية يُعتبر نموذج مصغر للدولة والمجتمع وهو حجر الأساس ، ومثانة المجتمع من مثانته ، إذن فالدين إما واجب للمجتمع ، فالعقيدة المندائية تحقق للمجتمع عناصر تضمن السلوك السوي والسير المستقيمة في حياة هذا المجتمع ، ومن هذه العناصر الحيوية الحياء ، الأمانة ، الصدق ، ولكل عنصر مقوماته الخاصة ونتائج القيمة بالنسبة للفرد والمجتمع توضح جميعها المزايا الخاصة التي يتمتع بها الدين المندائي ، والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها بنجاح ، مدعومة بالشواهد التاريخية الموثقة التي تؤيد ذلك.

أما ما يتصل بالعلم والتعلم في المندائية أعلت قيمة المعلم وجعلته يقتدي بالمعلم الكبير وهو الحي العظيم ، أما القصور في ذلك فخطيئة لا تغتفر ، كقوله : (ويل للمعلم الذي لا ينتفع منه ومن علمه ، وويل له إذا لم يعلم حكمة الحق) ، كما أقام الدين المندائي وظيفة المؤدب الذي يعمل على تصحيح السلوك بالدعوة إلى الفضيلة المتوحدة بإعطاء يمين العهد (الكشطا) والدعوة إلى حل الخلافات بقول : (لا يكن بينكم الكره والضعينة والشقاق ، أحبوا واسندوا بعضكم بعضاً ، وكونوا سنداً للطيبين الذين طالهم الظلم والمعاناة).

إن فالدين المندائي ينهى عن الكراهية والضعينة والتفرقة لأنها تسعى إلى تفكيك عرى المجتمع وإضعافه ، كما أقام الدين المندائي وظيفة المجاهرة بمحاربة الشر وكبح جماحه وذلك بقوله : (إن امتلكت القوة أيها الناصوريين نحن كمختار صالح اختير لكل شيء ، أو كملك تقلد تاجه وأشعل حرباً في عالم الأشرار ، ودحر الشر ومريديهم) ، كما أن الدين المندائي لا يكلف النفس إلا

وسعها بقوله : (وإن لم تمتلك القوة كالمختار الصالح فكُن أيها الناصوري كالفلاح الماهر الذي يعمر الأرض ويعلي هيأجوائها الشجر).

أي أنه في كل الأحوال يجب أن يكون عنصرًا مميزًا يقتدي به في المجتمع ، وأن يلتزم جانب الخير ويسعى لإضعاف الشر كقوله : (إذا زال الخير وقوى الشر فكُن أشد أزرًا نحو الخير لتكبح الشر وتعيد الفضيلة إلى عرشها)...

كما يدعو الدين المندائي المندائيين إلى المشاركة الفعالة في الحياة الاجتماعية كمثالية دينية أساسية وليس لمجرد النفع المادي العاجل لأنه يرى أن المجتمع مجموعة من العقول والأنفس أولاً ، أما الصورة الشكلية للنظم فأهميتها بالنسبة للدين ثانوية لأن مجتمع العقول والأنفس يتطور عن طريق استيعابه للقيم النزيهة والمثل العليا التي يغذيها الدين فيه ، فهو ينحو نحو الحصول على مقومات الكمال الحسي والثقافي ، كمثالية هادئة ويسعى إلى تعميق هذه التجربة وإحيائها إلى درجة كبيرة ، وبذلك تشعر النفس بالسلام والأمن والسكينة والمتعة والسعادة الروحية لاتصال النفس والعقل بالحي العظيم ، وهذا الشعور قد يبدو فرديًا يحس به الفرد في خلوته ، وقد يتمتع به الإنسان مع غيره داخل المجتمع لذلك فهو يدعو لكسب الراحة والسلام بمنعزل عن العنف والخطرة ، كقوله : (نباها نهوي البر من مريحا) / لا توجد الراحة إلا بعيدًا عن العنف.

كما يتيح الدين المندائي للفرد رؤية قصور الهمة ووجود النقص والإحساس بالذنب مع رؤية الطريق الواضح والخلص ، وقد تبدو في هذا المقام ذنوب التقصير في أداء الواجب مماثلة للذنوب الخاصة بارتكاب ما ليس مسموحًا به ، ويبدو هذا واضحًا في النصوص التي تبدأ بكلمة (ويل) أو بكلمة (طوبى).

أما السماح بتقبل التطهر والتبرك وإدراك الحق والخير والجمال في كل صورها كمنح للحي العظيم الممنوحة للناس ومن العجب أن يعد تقدير هذه القيم والتمتع بها أمر ملزم ، وهي امتيازات إنسانية يتحلى بها المندائي ليكون مثلاً لغيره في المجتمع يقتدي به الآخرون.

كما أن الدين المندائي يتحدى المجرم بإفساح أوسع المجالات للتوبة وإعادة الفكرة الحسنة، وتجديد السلوك على أن تكون التوبة متوجة بأعمال خيرية تليق بها وأن فكرة إمداد الحي العظيم بالعون على التوبة وتصحيح السلوك وإنجاز العظيم من الأمور تساهم بدرجة كبيرة في حمل المجتمع على استخدام أقصى طاقاته التي كان من الممكن أن تظل غافية في طي الكتمان والإهمال.

ومن جهة أخرى إن إصرار الدين المندائي على الجانب الروحي كجزء أساسي في التقدم الاجتماعي يجعله بلا شك أبعد عمقاً من الكثير من النظريات التي تضع ثقلها كله على التنظيم الشكلي والخارجي للمجتمع.

أما من ناحية موقف الدين المندائي تجاه الآلام والمحن والأحزان ؛ فذلك فريد للغاية ، فهو من جهة يشعر الإنسان بأنه يجني هو ثمرة ما يزرع ومن ثم يوجهه الإنسان بطريق مباشر أو غير مباشر إلى ضرورة تفادي ما تسوء عاقبته وما لا يحمد مصيره.

أما فيما يتصل بالحوادث القاهرة فيرشد إلى التحمل والصبر الواثق بالحي العظيم الذي يهبي السبيل إلى كشف الغمة وإلى التقوية على التحمل ، ومما لا جدال فيه أن المحن والآلام والأحزان تعتبر تحدياً سافراً للنفس الإنسانية وبالدين تتحمل الطاقات العقلية والسلوكية مسؤوليتها في استئصالها أو منعها أو تفادي الانهيار أمامها.

إن الدين المندائي على الناس من خلال حكمه ومواعظه وعبره أن المحن والبلاء سنة حتمية في هذا الوجود قد تتخذ محكاً لتطویر وإنضاج الشخصية الروحية للمندائي حتى يسترد ابتسامته أضعافاً مضاعفة بعد أن ضاق الفرق بين الأفراح والأتراح ، مع هذا فالدين المندائي يحرص على توازن الشخصية المندائية وعدم تعرضها للاضطرابات المفاجئة خضوعاً لتيارات البؤس المتقلبة وأنه علم المندائي أنه لا بد في النهاية من انتصار النور على الظلام والخير على الشر ، والحق على الباطل ، لذا فهو يعد بالنجاة والخلاص بعد أن أكد أن

قدرًا من هذه النجاة يتحقق من خلال بعض الصعاب وتحمل الآلام ، فلم يكن الدين المندائي مجرد مذهب سطحي للتفاؤل ، ولم يكن مدعاة للنشأوم القانط.

فالتفاؤل لا يكون مقنعًا إلا إذا ارتبط بالدين حيث يرسو في النهاية على إدراك الحياة والغاية منها ، وإلى الظفر بمحبة الحي العظيم وشرف اللجوء إليه ، وعزة الاحتماء به وسعادة الإقامة في موطنه ، وهذا بالطبع يدفع المندائي لأن يكون سباقًا في عمل الخير عن ثقة وسعادة ، ويرى أن للكفاح والجِد والعمل جدارة لا تبارى كقوله : (من أهلا وتنغر نيثي وننسب طبوثا بتارتين ايدي ومن لاهلا ولا تنغر هاتم باهش بكنهي ولا مشكي) ، (من تعب وتعذب يأتي ليأخذ الخير بيديه ، ومن لا يتعب ولا يتعذب يبحث عما حوله دون جدوى). يوازي هذا النص المثل القائل (من جد وجد ، ومن زرع حصد ومن لعب نكد). ومن الجدير بالذكر أن المندائية تصف السعادة التي بدونها يغدو الوجود الإنساني خاليًا من كل معنى أن تسمو على كل المتع والآلام التي لا يمكن لأي إنسان ممزق النفس موزع الخواطر مشرد الذهن أن يدركها ويشعر بها ، إذن فالسعادة هي تكامل النفس ووحدتها بينما كل توزع وتفرق وتشتت داخل النفس يبعد عن الحي العظيم...

وأخيرًا يؤكد الدين المندائي بالاستمرار الروحي بعد الموت ، والحصول على الكمال والسعادة دون أي شائبة ، ولا يكون له شفيع في الآخرة إلا أعمال الخير التي أنجزها للحي العظيم والمجتمع بأسره.

التمعيد لدى المندائيين وطوائف أخرى :

للتعميد والصباغة أهمية بالغة ليس لدى المندائيين وحسب بل ولدى طوائف عديدة أخرى وعبر أزمنة مختلفة، وذلك كما ذكر فيصل عيسى ربح من واسط في مقال له...

أولاً : التعميد لدى البابليين : إن الديانة المندائية والديانة البابلية تنزلان الماء منزلة عالية، فالبابليون ومن قبلهم السومريون والأكاديون كانوا يرون في الماء مصدرًا للحياة بحيث إن أسو (أكادية) أو أبزو (سومرية) تعني هاوية الماء العذبة، وقرينته (تي آمت) مياه البحر المالحة، هما مبدأ الخلق للذان لا أول لهما ولا آخر، ومنهما تولد الآلهة الآخرون، وقد نقل العراقيون من بعد يتوارثون تقديس الماء واعتباره أداة للتطهير.

لقد كان من تقاليد الطقس اليومي للمعبد أن يجري غسل تماثيل الآلهة ورش المعبد بالماء الطاهر، يذكر غالبًا (ماء الحياة) بصورة خاصة في شعائر (أبا ومردوخ) كما يقول الفريد جريمياس في مقال (السماء البابلي والجحيم)، حيث يقول إن ماء الحياة كان يشرب أيضًا ولا يستعمل فقد للرش، وكان ينظر إلى دجلة والفرات كونهما نهريين مقدسين تجري الأضاحي لمياههما، وتقام على ضفافهما التطهيرات المقدسة (وأيا ومردوخ) هما إلهاء ماء الحياة، بأمر من (أيا) يجب أن تفتح الدنيا ينبوعها من الماء الخالد، ويسمع أيضًا (إناء مردوخ التطهيري)، وكان كاهن (باور)، يجري التطهير يدعى (أي)، يتشابه ربما مع المندي الصابئي المندائي، يقام على ضفة النهر مع بيت عبادة وبركة للسماح بمرور الماء الجاري من النهر وإليه بقناتين.

ثانيًا : طوائف البحر الميت : وهي (الأسينون والجليليون والأبيونيت والسامريون والنازاريون والأورسينيون والسامبسانيون وأتباع الحشح والهميروبابتست والمصبوثيون)...

وتذكر أوصاف طائفة الأسينيون كما يوردها جوزيفوس أنهم أناس نقاة عفيفو النفس واللسان معادون للظلم، عادلون يرأفون ببعضهم، شديداً التقيد بالضبط النظام، يكبحون الشهوات لا سيما الجنسية، ملكيتهم مشتركة، ملابسهم بيضاء، يستحمون باستمرار بالماء ليظهروا النفس والبدن، يصونون معتقداتهم عن الغير، لقد كشفت التقنيات التي أجريت في (خربة قمران) عن نظام لحفظ الماء يضم عدة أحواض كان يستخدم بعضها لإجراء طقوس الاستحمام، ورغم أن هذا الاستحمام كان يمارس يومياً، إلا أن النص عليه كالترام في كتب الطائفة، كان يعني طقساً دينياً في الأساس.

ففي كتاب (الضبط) وهو واحد من الكتب التي اكتشفت هناك (الفصل الخامس الفقرة/ ١٢)، ورد ما يلي: (لا يسمح للأشرار الدخول في الماء حتى لا يمسوا طهارة المقدسين، إذ هم لا يتطهرون مالم يتخلوا عن شرورهم، ذلك لأن النجاسة هي عند جميع أولئك الذين يخالفون كلمة الله)، يقول جوزيفوس في المجلد الرابع ص ٢٢٢، أن الطهارة لدى الأسينيين شكل من أشكال التعميد، لأنها كانت تمارس قبل وجبة الطعام اليومية العمومية، أو إذا تدنس (أخ) بتماسه مع أفراد فئة أخرى أدنى منه دينياً، أو في حالة قبول مرشح عضو في النظام الكهنوتي... ونلاحظ هنا أن الصابئة المندائيين يحبذون الارتماس في الماء الجاري قبل تناول وجبات الطعام في أيام العيد الديني (البرونايا) البنجة.

ثالثاً: التعميد لدى طائفة الحسح: تكنى هذه الطائفة باسم رئيسها (الحسح)، وجد أتباع الحسح في الجانب الشرقي من نهر الأردن في القرن الأول الميلادي وما بعده، وقد اتخذت الطائفة من التعميد ركناً أساسياً في دينها وطقوسها الدينية وهي فرقة يهودية جاءت بدعوى إعادة تجديد اليهودية، وأن الشيء الرئيسي في ديانة الحسح هو التعميد وكان يبشر بأن الانغمار الكلي في ماء النهر أو الينبوع دون خلع الملابس هو الوسيلة للتخلص من جميع الخطايا، وكان يوصي بأن يمارس الطقس (باسم الله العظيم والأسمى) مع قراءة التراتيل، ويعلن المرء قبل انغماره في الماء الامتناع عن كل الخطايا والسلوك غير المستقيم، وكذا

الأمر عند طلب الشفاء من المرض أو التعرض إلى عضه كلب أو حيوان سام أو لدى الإصابة بالسل الرئوي أو من تداخلهم الأرواح الشريرة ، وفي حالة كهذه يطلب من الفرد أن يغمر نفسه في الماء البارد في نهر أو ينبوع دون أن يخلع ملابسه أربعين مرة خلال سبعة أيام، وإذا كان عاجزاً عن ذلك فيجوز أن يؤديها شخص آخر باسمه ويتلو التوسلات بالنيابة عنه، واشترطت التعاليم من بعد على أن يجري الطقس بحضور شاهد للقسم ، ومن يمارس هذا الطقس ينطق بهذا القسم مخلصاً.

رابعاً: هناك طائفة عاشت في المنطقة الواقعة إلى الشرق من الأردن والبحر الميت تدعى طائفة إلى السامبسانيين لم يكونوا من اليهود أو المسيحيين وإنما موحدون وحسب ، وكانوا يكذبون كلا من (العهد القديم والعهد الجديد) وكانوا يمارسون التعميد ويمجدون الماء ويرون فيه أصل الحياة ويؤمنون بيوم الحساب ويفضلون الزواج المبكر ويعيبون العزوبة ، ويتصف معهم في هذه المزايا كل من الناصورائيين والنازاريين والأوسينيين.

خامساً: التعميد لدى الفرس: تلاحظ دراور أن البارسيين (وهم بقايا الفرس الزرادشتيين) الذين انتقلوا بعد الفتح الإسلامي إلى الهند واستقروا هناك يلبسون في طقوسهم الدينية ملابس بيضاء تشبه كثيراً الرسته المندائية ، وفكرة الماء الجاري كمطهر من الخطيئة الطقسية والخطأ الخلقي موجودة في الدين الفارسي القديم تظهر لدى البيروني ص ٢٠٢ ، يقول: أمر (ياما) الناس بأن يغسلوا أنفسهم بالماء ليتطهروا من خطاياهم ، وأن يفعلوا ذلك كل عام لينجيهم الله من مصائب ذلك العام.

وهناك رأي آخر ، فإن سبب الاغتسال هو أن هذا اليوم (يوم رأس السنة) هو يوم (هاروذا) المقدس ملاك الماء الذي يتحكم فيه ، لذلك كان الناس ينهضون من النوم في هذا اليوم مبكرين مع انبثاق الفجر ويذهبون إلى الماء الجاري

بإناء ويصبونه على أنفسهم معتبرين ذلك فإلاً حسناً ووسيلة لنجاتهم من الضرر وهذا (الهارودا) يمكن أن يكون (هاورفاتان) الروح المجسدة للصحة والإنبات.

سادساً : الاغتسالات لدى الهنود : يعطي رايزن شتاين ص ٢٠٣ ، وصفاً للاغتسالات الهندية التي تجري في عيد (أفارونا براغاسا) وفي تضحية (سوما) ولكليهما أصيلة تتشابه التطهر من الخطيئة وصيرورتهم أبناء النور واكتساب الخلود ، والألفاظ التي يتقوه بها القائلون بهذا العمل حين يغادرون الماء بعد آخر إجراءاتهم تشبه إجراءات المندائيين بشكل يلفت النظر فهم يقولون (لقد شربنا سوما وأصبحنا خالدين وذهبنا إلى النور).

سابعاً: التعميد لدى الصابئة المندائيين وأوجه المقارنة: (لا يصح إلا الصحيح)

١- إن الصباغة المندائية (التعميد) ، هي طقوس متكاملة في طريقتها ومضمونها وهدفها المندائي الذي هو (الاتصال بموطن النور والاتصال بالقوى الواهبة للحياة) ، ولا يعتبر الاغتسال بالماء لدى المندائيين رمزاً (للحياة) فحسب بل يعتبر إلى درجة معينة (الحياة نفسها) ، (لقد أعطى أنش أثرا بأمر من الحي العظيم أنشباي ماء من اليردنة لتشرب ومن ذلك أصبحت حاملاً وزكريا وأنشباي كانا شيخين وهي امرأة عاقر).

٢- إن طقوس الصباغة المندائية بعيدة كل البعد عن عملية (طقوس التطهير البابلية) فهي إضافة إلى ما تعنيه - الاغتسال بوسائل الحياة - فإنها تعني الثبات في العقيدة والمعرفة والحياة والارتقاء (مسقناً) ، وتعد الإنسان بحياة أبدية ، وبدونها لا يمكن ل (نشمثا) أن تصل عالم النور ، إضافة إلى كونها تعني إزالة الخطيئة والنقاء والنصر والشفاء ، وتقي الإنسان من الأرواح الشريرة.

٣- إن العهد (الكشطا) هو العهد الذي يأخذه المتعمد على نفسه وهو يصفاح رجل الدين الذي يعمده ، كرمز للإيمان والإخلاص ، لا نجده في طقوس التعميد عند الطوائف الأخرى وإضافة إلى (الكشطا) ، فإن شهود المندائي عند التعميد هي : النهر الجاري والبهثا أي (الخبز المقدس) والممبوها (الماء المقدس) الذي

يشربه المتعمد ، والزدقا أي الصدفة التي يقدمها ، كما جاء ذلك في كتاب (القلستا).

٤- نجد في الأدب المندائي ورود كلمة (يردنا) وهو الماء الجاري ، لكنها لم ترد عند طوائف مارست عملية التعميد ، وإن وردت فقد جاء قولاً مجازياً للتعميد وليس بمفهوم الماء الجاري الواجب توفره أثناء إجراء طقوس التعميد كما هو الحال في المندائية ، وأن المندائيين لا يعتبرون كل الماء الجاري هو ما يهب الحياة والقدسية ، إن جزء صغير من الماء الجاري هو الماء الحي ، أما الأجزاء الأخرى تدعي (تاهيمي).

٥- يحدثنا الأدب المندائي عن قيام (منداهيي عارف الحياة) ، بتعميد (الملاك هيبيل - زيوا) في عالم النور ، عند رجوعه من رحلته إلى عالم الظلام ، وأن (الملاك هيبيل - زيوا) ، جلب طريقة الصباغة المندائية ، من عالم النور لذا فالصباغة المندائية أقدم من كل ما اتبع في بقية الطوائف ، كما أن النبي آدم (ع) أول من عمد بها من قبل (الملاك هيبيل - زيوا).

٦- إن التعميد المندائي ليس هو تعميد التوبة أو تعميد القبول ، لأن ذلك يحدث مرة واحدة ، بينما يستطيع الفرد المندائي أن يصطبغ مرات عديدة مدى الحياة ، إن طريقة التعميد التي مارسها (يوحنا المعمدان) ، كما يذكر رودولف في كتابه prol-s-230 والتي بمفهومها لا تنطبق وطريقة التعميد التي مارسها طوائف تعميديّة أخرى أو تعميد ككسب جديد أو المهتدين حديثاً ، ويختلف النبي يحيى (ع) في كونه لا يطلب ممن يرغب في التعميد أن يختتن أولاً ، ويقدم قرباناً للهيكل ثم يتعمد كما هو الأمر لدى اليهود عند تعميد من يريد اعتناق اليهودية ، ويتميز تعميد النبي يحيى (ع) كذلك كونه طقساً دينياً ، يقدم عليه الفرد طوعاً بغية التخلص من خطاياها على يد شخص له منزلة كبيرة في النفوس.

٧- إن الطقس الذي مارسه طائفة البحر الميت يماثل ما يدعو المندائيون بـ(الطماش) وهو نوع من التعميد الذاتي يؤديه الفرد إثر كل تعرض للنجاسة، كمس الميت... أو عند حيض المرأة... الخ.

٨- إن طقس التعميد لدى الصابئة المندائيين يتطلب ملابس خاصة تسمى (الرسته) ، وهي ملابس بيضاء ذات مواصفات خاصة معروفة لدى الفرد المندائي.

المرأة المعرفة الطيبة : نورا مندا طايا :

تناول ذلك الموضوع أمين فعيل خطاب في مقال له حيث ذكر : قال مندادهيي إنك لم تتعلم يا بو يوشامن بعد من دمار الألف عام إذ لم يكون كما كان بأربعة وعشرين ألف عام ، كما أنك لم تتعلم الحكمة من الأولين ، وافترقت عن أنانا دون أن تطلب منها المعرفة الطيبة ، أن تفعل خيراً تجد خيراً وأن تفعل شراً تجد كراهية ، فإن أصبحت لطيفاً فنورك لا يتبدد وأن خططت أمراً سيئاً فالعرش الجميل الذي تعتليه ينقلب عليك ، فاسمع ما سأقوله لا تقلق ولا تضجر ولا تجعل النقص والريبة يتسللان إليك ، اسمع قول الحق ، إن الرحمة وجدت بعيداً عن العنف فاقتلع الآن الرائحة الكريهة من دارك ولسوف يهب عليك نسيم مشبع بالأريج ، ولا تنس أن الحق رفيع العماد والعدالة ترصد كل الأخطاء (دراشا اد يهيا).

على السطح المستوي الصقيل المفضض تنعكس الأشعة الضوئية لتتفرق في الحقيقة وتتجمع في الخيال فإن نظرت في المرأة ترى صورتك وهي وهمية ليس إلا ، فإذا أمعنت النظر دون أن تغوص في أعماقها فإنك حتماً ستري مظهرك وقد تعجب بأنافتك أو لربما تمقتها لأنها لا تكون ذات الجمال لكن هلا سألت مرة كيف تبدو جميلاً ومحترماً وجذاباً وذا موقع مرموق في المجتمع ويشار إليك بالبنان رغم أن ملامحك لم تكن جميلة أو أنك ترى نفسك إنساناً فاشلاً غير محترم ، وليس لك وزن في المجتمع رغم جمال ملامحك ، كيف تجعل هذه المرأة مرآة تخترق ذاتك فتشعرك بنقاء الضمير ، أو بتأنيب الضمير .

إنها المعرفة الطيبة التي تزخر بها شامخة كنوزنا المباركة ، تلك المعرفة التي سميت بالكشف العظيم والتي تجلت أمام آدم الرجل الأول رأس السلالة البشرية وعندما استوعب منها اكتسى برداء الضوء والنور والوقار ، ذلك الرداء الذي اكتسى به من بعده رام الرجل الذي نجا من الدمار والوباء ومن بعده شرحبيل الرجل الذي نجا من النار ، ومن بعده شوم برنو الذي نجا من الطوفان ومن

بعده نبينا يهيا يهانا مباركة أسماؤهم ، إنها المعرفة الطيبة التي تنور بها الناصوريون وتسبحوا بالناصرانية وهو أمضى سلاح في العالم إنه سلاح المعرفة الطيبة ، فالمعرفة الطيبة كما الحياة من يرتوي منها يسعى جاهداً نحو الفضيلة والصلاح ، وكماء المكرمات الذي تنبت فيه الأخلاق كالنبات (قال نبينا يهيا يهانا مبارك اسمه أن الشجرة التي تشرب من ماء الحياة تلعو وتتشابك أصولها ، وتأتي ثمرًا طيبًا ، أما الشجرة التي لا تشرب من ماء الحياة أن ثمرها مر ، فيجب أن تقطع وتلقى حطبًا في النار).

إن المعرفة الطيبة تفيض بالحكمة الخيرة فمن تفقه بها وطن نفسه في طريق الإصلاح وحق له أن يكون معلمًا يعلم حكمة الحق بكل صدق وإيمان أنه المعلم الذي إن علم شيء أكد على علمه به ، وإن جهل شيئاً اعترف بذلك لأنه عرف طبيعة المعرفة (طوبى لمن عرف الإصلاح وسعى إليه) فبالمعرفة الطيبة يستطيع الإنسان الذي لا تزيد حياته عن طرفة عين في الدهر أن يعيش ليدرك السلام وأن يتخلص من آلام الدنيا ويسعى للخلاص بصالح الأعمال التي يأتيها عن فهم وعقيدة ، فالخلاص يكمن في النفس المتمعنة التي تستطيع نكران ذاتها وتستطيع صيانة جسدها (من صان جسده محبة للخالق يرتقي دون خطايا متطلعًا إلى موطن النور) (كنزا ربا)... فالمتنور بنور المعرفة الطيبة ، لا يقول إلا الصحيح ولا يكذب أبدًا ولا يفترى على أحد ولا يكون فظًا أو شرهًا ، ويجاهد من أجل الخير ويتجنب الشر ويفكر بالحقائق النبيلة بهدوء وحسن تمييز من أجل بلوغ طريق السلام التام ، وتلك هي صفات نبينا يهيا يهانا مبارك اسمه.

فإذا بلغت المعرفة الطيبة أيها المندائي حتمًا ستسعى إلى الكمال الذي يحتم عليك أن تتحرر بأكمل صورة وأن تراعي الفضيلة وتتجرد عن الشهوات ، ولا تؤذي أي مخلوق ضعيفًا كان أم قويًا ولا تتسبب في القتل وأن تكون سمحًا بين البخلاء وأن لا تبالغ في التقدير ، ولا أتحسد أحد ، فالحسود لا يسود ولن يهدأ له

بال ، ويكوى بنار غضبه (ويل للعين الحسود التي تضمر الشر لهذا العالم) فمن أقوال نبينا يهيا يهانا مبارك اسمه :

(أيها الناصورائي أظهر نفسك ، وميزها بضوئك وبنورك وبوقارك وبحكمتك وباستقامتك وبعدالتك وبأجرك وبإظهارك الحق وبكل أعمالك الخيرة ، وإذا صاحبت فليس ثمة أنكى من الصحبة الشريرة ، كن ناجحاً في حياتك وفي علاقاتك مع الآخرين ، وعندما تصطفي الصديق جربه أولاً ولا تتعجل في الاعتماد عليه لأن الصديق حصن منيع من وجد واحد فقد وجد كنز ، فكلمة الصديق لا يكاد القلب يعلم من أين جاءت إنها جوهرة من الكلام للبشر ، فلا تتمسك إلا بالأصدقاء الذين طالت تجربتهم لا تغلظ القول لأي صديق أو لأي أحد لأنك ستكون من الحمقى ولا تنسى أنك كما تخاطب تجاب ، وكن هادئاً مع من كان هادئاً كانت آراؤه وكلماته وأفعاله هادئة ومثمرة بفيض منها الخير ، افعل الخير فمن فعل الخير مرة وجد السعادة في تكراره لأن تراكم الخير بهيج ، أما تراكم الشر فهو أليم فتجنب فعل الشر... عليك أن تتبذ الغضب وتتأى عن الكبرياء وتتغلب على كل القيود التي حاكها الظلام ، فالمرء المتعلم يقهر الغضب بالحب والشر بالخير والجشع بالسخاء والبهتان بالصدق ، فالشر يأكل صاحبه كما يأكل صدأ الحديد أصله لا يكون الحسود ، ولا البخيل ولا المخادع محترماً لمجرد جمال صورته فإذا أمعنت النظر فيها جلياً تراها شاحبة وحزينة وليس فيها دافع للحياة ، فأفق حين يتأتى لك أن تفيق فالكسل لا يصارع إلا من كان خائر العزم والفكر ولا يبلغ الحكمة "احترموا آباءكم واحترموا أمهاتكم واحترموا أخوتكم الكبار أجمعين ، أن من لا يحترم والديه مدان إلى يوم الدين"... كنزاً رباً).

من اعتاد على احترام الكبير يرى الحياة والجمال والسعادة والبأس بين يديك ، فالإنسان الرفيع يكون متواضعاً ويحترم من هم أكبر منه ، ويكون باراً وعادلاً (طوبى لمن بر بوالديه إنه لا يوجد مثيله في العالم)... (دراسة اد يهيا)... كن أيها المندائي من الأخيار فالأخيار يتألقون من بعيد كما تتألق قمم الجبال الشاهقة

المكتسبة بثوب من الجليد الناصع البياض إنهم يتألقون لأنهم يعرفون الحرام حراماً والحلال حلالاً ويتحلون بالصدق ، ويتمسكون بالعقيدة الصحيحة ويسلكون طريق الصلاح.

لا تسرق النظر إلى حرمة جارك وإلا فستدعى سارقاً وينتابك الشعور بالنقص ويكون مضجعتك مقضوضاً وسمعتك رديئة والطريق يسوقك إلى الجحيم فاضبط عينيك من الغمز والرمز لأن ذلك خيراً والخير في ضبط الأذن ، والخير في ضبط اللسان ، ويكون الخير وفيراً في ضبط العقل لأن فيه ينضبط كل شيء.

اسمع أيها المندائي النبيل إلى طريق المعرفة الخيرة التي تفيض بها كنوزنا المندائية دون أن تنتضب ، اغترف منها فإنها تجعلك تدرك نفسك وتحسبها لأنها من ذات الحي العظيم ، فالمتنور ينور المعرفة الطيبة يفعل الخير بإرادة حرة وبنقّة عالية ويشعر بالقوة الخيرة فلا يطأ رأسه للشيطان ولا يقرب الحكام المردة المتسلطين الذين ينجزون أعمالهم بالسوط ويجلسون على عروش الغطرسة والخيلاء فإن طاله الشر لا يضعف ولا يلين ويبقى راسخاً في التقوى وكابحاً لجماح نفسه لأنه نقي القلب متحكم في الإحساس ومتفان في العمل الدعوى المجدي ، إنه يسهم في تدوير عجلة هذا الكون العظيم بقلب متفائل ، فعندما يدول الخير ويقوى الشر ؛ يغدو أشد أزراً للخير ليدحر الشر ويعيد الفضيلة إلى عرشها.

فإذا نظرت إلى نفسك في المرأة سيكون بصرك ثاقباً يريك جمالك الحقيقي ، وموقعك المرموق في المجتمع ، فيشدك إلى إعمار ما دمره الأشرار على أسس صحيحة مبنية على المعرفة ، أيها المندائي... يا من بحوزتك تلك الكنوز الزاخرة بالمعرفة الطيبة ، عيب عليك أن تكون من الجهلاء الذين يبتعدون كل البعد عن المعرفة الخيرة ، فالجهل استنراء الظلام والغباء والكسل والغفلة فثمرة الجهل ظلام حالك لأنه يعمي الإنسان ويكبل روحه ويجعله يتمسك بالمعرفة الباطلة تمسكاً أعمى ، وكأنها كل شيء لأنه محروم من النور ، وبليد ولن

يستطيع أن يقطع قيود الشك التي تغل قلبه لأنه لا يمتلك سيف الحكمة ولا يفك
الوثاق الذي يخلفه الجهل وكما قال الشاعر :

إِذَا مَا الْجَهْلَ خَيَّمْ فِيهِ بِلَادٍ وَأَيَّتَ أَسْوَدَهَا مُسَخَّنَ قُرُودَا

فالجاهل لا يدرك نفسه، ويكون ذا شخصية ضعيفة مهزوزة، تتقاذفه الشكوك
وتزعزعه العواطف والشهوات، فإذا ما تفاقمت عليه وثقلت قيوده جعلته أسيراً
للأشرار وآلة منفذة للشرور، وتجعله يفقد كل شيء فإذا ما نظر إلى صورته لا
يرى ما يثيره، ولا تعني له شيئاً، ولكن حين يفيق من غفلته بسبب ومضة
عارمة من المعرفة الطيبة، سيجدها غاية في القبح، ويتألم ويتمنى لو أنه
استطاع أن يقطع وثاقه ويفني جميع العقبات ليلعن الجهل والغفوة التي أدركته
وجعلته في طي النسيان، يا لتعاسته أنه جنى على نفسه لأنه ابتعد عن المعرفة،
فراقب أيها المندائي النزيه كيف تعلو بيوت النمل بإضافة القليل إلى القليل،
فعش واعط وساهم في إعمار وطنك الجريح.

البحث السادس

المسقتا (الارتقاء)

تكلمنا عن المصبتا أي الصباغة (التعميد) التي يجريها رجل الدين للأحياء من الناس في الماء الجاري ، سواء في النهر أو في الحوض المخصص لهذا الغرض ، أما المسقتا فتجرى للأموات الذين فارقوا الحياة في هذه الدنيا الفانية... (إن كل ما يصنع بالأيدي يفسد... وكل حي يموت... إن كعازتكم يوم الحساب أعمالكم...).

والمسقتا على أنواع عدة:

- مسقتا شينل للذي يموت دون أن يأخذ معه أكليلة أو بسبب وجود نقص في عموم الدفن.

- مسقتا سامندريل : وتقام للشخص الذي مات بحادث ولم تكن إجراءات لبسه ودفنه أصولية وفق التعليمات الدينية ، التي تنص على الطماشة ولبس القماش (الملابس البيضاء والأكليلة والنظافة قبل الوفاة).

- مسقتا آدم : وتقام للشخص الذي وافاه أجله أيام المبطلات الثقيلة ولم تجر له مراسم أصولية ، أو للشخص الذي مات مقتولاً وفارق الحياة قبل إجراء المراسيم الدينية.

- مسقتا زهرون : تجرى للذي يموت أيام المبطلات الاعتيادية ، وهناك مسقتا الشولية ومسقتا المندي لتكريس مكان في أيام البرونايا ليكون جاهزاً لمدة سنة ولغرض إجراء المسقتا يجب أن تتوفر شروط إجراءها ، من تهيئة الشختا (بيت بسيط من القصب والطين) يبني بمواصفات معينة قريباً من الماء الجاري ، ويكرس قبل حين ليكون جاهزاً أيام البرونايا ، الأيام الخمسة التي تم بها العالم العلوي ، والتي بعث بها الحي العظيم من ذاته بهيئة ملك النور السامي ، وملك

العظمة ، وعارف الحياة والحق الكامل ، وفي اليوم الخامس تفجرت ينباع ومرت المياه (البردنا)، وبدأت الحياة في العالم العلوي عالم الأنوار .

كذلك يجب أن يجهز كتاب (سيدرا أو نشماتا)... كتاب الأنفس منقوشاً على ألواح من الرصاص أو أي معدن آخر لغرض طهارتها بطمشتها (غطسها) بالماء الجاري الحي ، كذلك توفر رجال الدين ومساعدتهم الشكندا... وتوفر الأطعمة الضرورية (الطبوثة) النعمة، مع التمر والسمن والأواني الضرورية، كذلك يجب وجود ضحية مثل حمامة أو خروف ذكر.

وبشكل عام فإن المسقفا قداس شعائري لغرض صعود روح المتوفى وإعانتها على الاتحاد (لوف) في قطبيها الموجب الضوئي والسالب النوراني... وتعبير رمزي يأخذ جزء بسيط من لحم حمامة مشوية (مطبوخة) وتلف بكسرة خبز فطيرة (دون ملح أو خميرة) ، وأن عملية قطع هذه اللقمة من قبل رجل الدين تعبیر على تحرير النشلمات من الجسد المادي، وانطلاقها إلى عالم الأنوار ، لكي تذهب إلى الملاك أبائر سادن باب آله دنهوره ليزن حسناتها وسيئاتها بميزان النموذج شيتل بن آدم الذي لم يرتكب معصية ، بعد ذلك تذهب الروح إلى الحساب في محطات الحساب (المطراشي) ، ثم تعود لتتحد مع النفس فتكون النشمتا الذي تعود إلى الدموثة (النظير)... وتعود إلى بناء البيت (الشختا) التي تجري بها مراسم المسقفا...

وسبق أن قلنا تبنى من قبل رجال الدين ومساعدتهم من القصب ويتم طلاءها بالطين ، ويكون بابها باتجاه الشمال (القبلة) ، وتكون الشختا أي المسكن قريب من الماء الجاري ، وبنصب الدرافشا (علم يهيا يوهانا) على اليمين والطريانة (إناء يصنع من الطين) يمثل الأرض وفيه عدة أنواع من الطعام وخاصة فاكهة الموسم وقليل من الملح والماء ، كذلك يتم تحضير التمر وزيت السمن لأنها شجرتين مباركتين في عالم الأنوار ، وضرورة طراسة الشختا كل عام ، وضروري وجود ثلاث رجال دين لإجراء هذه المراسم.

الإنسان يتكون من ثلاث عناصر أساسية وثلاث عناصر ثانوية ، فالعناصر الأساسية هي :

- الجسد.

- النفس.

- الروح.

والعناصر الثانوية هي :

- العقل.

- القلب.

- الضمير.

ولنشرح بإيجاز كل فقرة من هذه الفقرات :

* الجسد : جبل من تراب ويعود إلى التراب (وخلقنا آدم من الطين الأحمر - الصلصال - والدم والمرارة وأسرار هذا الكون)... كنزا ربا اليمين.

ويعتبر الجسد بمثابة الحبس للنشمتا ، وبموت الإنسان تتحرر النشمتا من هذا الحبس وترتقي وتصعد إلى باربيها.

* النفس : قبس من الحي العظيم (هيي) طاهرة نقية لا تشوبها شائبة ولا تحاسب.

* الروح : وهي مجمل الفعاليات والأعمال التي يقوم بها الإنسان من المهد إلى اللحد خلال فترة حياته، وهي تحاسب طبقاً لحسناتها وسيئاتها...

أما العناصر الثانوية :

* العقل : المانا وهو مركز التفكير والتطور والحياة والمعرفة والإدراك.

* القلب : مركز الحنان والعاطفة والحب وإدامة الحياة والنشاط والقوة.

* الضمير : مركز الصدق والأمانة والشرف والأخلاق.

والآن ماذا يحدث عندما يموت الإنسان، تتحرر النشمانا وتبقى تتحرك بين القبر والبيت لمدة ثلاثة أيام مذكرة المتوفى بما عملت عيناه وأذناه وساقاه ويداه من ذنوب في حياته الماضية والتي سيحاسب عليها في محطات الحساب، المهم أن النشمانا ترتقي إلى عالم الأنوار إلى الملاك أباثر ليزنها بميزان شيتل، وهذا الارتقاء هناك من يذكر لنا أنها بهيئة حمامة، وهناك من يذكر أن المياه التي بين المياه السماوية والمياه الأرضية هي التي تنقلها.

فالإنسان الذي مات موتاً طبيعياً وأجريت له كل المراسيم الدينية أثناء مرحلة احتضاره، لا يحتاج إلى إجراءات المسقثا... أما الإنسان الذي مات بحادث أو لم يتم إجراء مراسيم دينية كاملة له أثناء مرحلة احتضاره، فيجب وهذه الحالة إجراء مراسيم المسقثا في أيام البرونايا له.

المهم تصعد النشمانا إلى الملاك أباثر وهناك تتفصل النفس عن الروح وترسل الروح إلى المطراثي لمحاسبتها بعد أن توزن بميزان النموذج شيتل بن آدم وتقيم حسناتها وسيئاتها، المهم رحلتها منذ لحظة تركها الجسد ولحين عودتها مرة ثانية بعد الحساب أن تقلت حسناتها إلى الملاك أباثر واتحداها مرة ثانية مع النفس الطاهرة لتشكل النشمانا تستغرق خمسة وأربعين يوماً...

بعدها تذهب إلى الدموثة (النظير) الذي أخذت منه يوم صورت في رحم أمه في نهاية الشهر الرابع من الحمل ولهذا الطفل يبدأ يتحرك في بطن أمه في هذه المرحلة من الحياة لأن أصبح له نشمانا (نفس)... والدموثة هذا بهيئة إنسان في عالم الحق (مشوني كشطة) الذي يعيش فيه الأصفياء الذين كثرت حسناتهم في الدنيا، ومشوني كشطة عالم الحق عالم وسط بين عالم الأنوار والعالم المادي لكي لا يكون هناك أي اتصال بين العالمين (النوراني والمادي).

قلنا ونكرر القول إن المصبتا (الصباغة) تجري للأحياء من المندائيين بينما المسقثا تجري للأموات... لنفوسهم بعد أن تغادر أجسادهم الفانية... كذلك هناك مسقثا تقام للأحياء من رجال الدين الذين يكرسون لمرتبة أعلى، وهذا النوع من

الطقوس معقدة ويقوم بها عدد من رجال الدين وفق خطوات متسلسلة تقام المسقنا باسم من هيئت له لتكون باسمه أي باسمه الديني (الملواشة).

توفي أبي في المستشفى فكان لابد من إجراء مسقنا لنشماثته الطاهرة ، وهكذا في أيام البرونايا (البنجة) المباركة تمّ الاتفاق مع رجال الدين ومع رجل مؤمن تقي ورع متدين ليمثل أبي رواه نأويله في المراسيم ويأخذ اسمه الديني (الملواشة) بعد أن يلبس الرسته (الملابس النورانية البيضاء) ، وكنا نتابع هذه المراسيم التي استمرت ساعات طويلة على نهر دجلة في بغداد وفي أرض التعميد ، وهذه طقوس قديمة قدم الدين تعلمها السومريين والبابليين ، وربما الزرادشتيين وغيرهم من ديانات الشرق الأوسط ، شعائر وطقوس تبعث الأمل والإيمان في نفس الإنسان ، وأنت حريص على إجرائها وفاءً وإخلاصاً واحتراماً لموتانا لكي يرتاح ضميرك ويطمئن قلبك ، فهناك كثير من الناس الذين لا يقومون بمثل هذه الإجراءات يطاف عليهم فقيدهم في المنام ويعاتبهم أن روحه معذبة تنتظر الحساب ، ويرجوهم إجراء مراسيم المسقنا لتلتحق الروح مع النفس الطاهرة وتشكل النشماثا ليعود إلى الدموثة (المثيل السني) في عالم الحق ليحيا حياة ثانية أبدية دون أمراض أو شيخوخة أو موت ثاني.

وثمة من يسأل كيف النشماثا في الأيام الثلاثة الأولى بعد الوفاة تحاسب الجسد وقد مات وتحررت منه النشماثا ، العلم الحديث في مجال الطب المتطور أثبت حديثاً أن الخلايا البشرية تبقى حية في الدماغ والقلب والكبد والكليتين وأجزاء كثيرة من جسد الإنسان قسم منها مدة ٢٤ ساعة ، وقسم ٤٨ ساعة وقسم ٧٢ ساعة تنبض بالحياة ، وهذه ثورة علمية ، إذ هذا يعني أن هذه الأجزاء تبقى حية بعد الوفاة ويمكن الاستفادة منها بإنقاذ عدد عظيم من المرضى طبعاً إذا أجاز الدين ذلك... إذ أصبحت للإنسان الحديث مواد احتياطية لكل أجزاء جسمه ، يمكن تبديل التالف منها بعمليات جراحية متطورة ميسورة والله أعلم.

هذا علم ملموس حققه العلماء والبحوث والمختبرات تراه مستقبلاً بالعين وتلمسه باليد ، أما مشونى كشطة والدموثة والملائكة وعالم الأنوار وغيرها ، فهي أمور روحانية لا نراها ولا نلمسها باليد ، وتبقى المشكلة قائمة وتحتاج إلى إيمان عميق.

دائماً عندما يذكر الخير يذكر الشر ، وعندما يذكر الرحمن يذكر الشيطان ، ونذكر النفس الطاهرة ونذكر معها الروح (الروهة)... والروهة كما أتصورها في داخلنا ، ونحن نعيش الصراع بين الخير والشر ، ولهذا الأديان تركز على طهارة الروح وتخليصها من الذنوب وتنقيتها خلال الحياة وهذا ما نادى به نبي الله إدريس (هرمس الحكيم) ، ووصفها مثل الذهب الذي به خبث والذي يجب أن يتم تنقيته (تصفيته) ليكون ذهب خالص لا شوائب به ، وبهذا نادى كل الأنبياء المرسلين من الحي العظيم وكل الكتب السماوية المنزلة ، والله على كل شيء قدير.

شرحنا شيئاً ما عن ما بعد الموت وعن النشأ، ولكن هناك أسئلة تحتاج إلى تفسير الموت ، هذا اللغز المحير الذي يخافه الجميع والذي تغنى به الشعراء مكرهين... يقول عنتره:

إِنَّ الْمَيِّتَ مَنَهْلٌ لَا بُدَّ أَنْ أَسْقَى بِكَاسِ الْمَنَهْلِ

ويقول طرفة بن العبد:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَ الطَّوْلُ الْمُرَخَى وَثَنِيَاهُ بِالْيَدِ

ويقول شاعر آخر:

كُلُّ ابْنٍ أَنْشَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلِهِ حَدْبَاءَ مَحْمُولٍ

كثيرة هي الأشعار حتى الكتب الدينية تؤكد ذلك ومنها كتابنا المقدس الكنزا ربا: (أنتم تسمونه الموت ونحن نسميه الحق)... قلبي بربك أي حق هذا ، نحن نعيش لنموت لماذا؟! ولماذا نفارق أهلنا وأحبابنا؟!... والقصة كما فهمتها من الكنزا ربا (م)... كان هبي قدامي يريد أن يجعل من عالم الظلام (آلة دهشوخا) عالم

نوراني يعيش فيه الملائكة الأثريين مثله مثل عوالم النور ، ولهذا أمر الملاك المبجل مندادهي بهذه المهمة ، كلف الملاك مندادهي ولده الملاك هيبيل زيوه بعد أن هياه وسلحه بمزيد من الضوء والنور وبعدد من الملائكة الأثريين ، فنزلا وتم القضاء على المردة والجن والعفاريت ، وعلى عظيمهم كرون الكريه (أور) وعلى أمهم الروهة.

وعاد هيبيل زيوه يبشر أباه بهذا الإنجاز العظيم ، هذا باختصار شديد الذي حصل ، إن أولاد الملاك يوشامن طلبوا من أبوهم أن ينزلوا على وجه السرعة ليبنوا هذه الآلة التعبانة (عالم الظلام المملوء كله بالشر بالغائلة ، بالنار الآلثة ، عالم الفتنة المضطرب ، عالم الغش والكذب ، المزروع بالشوك والعليق) ... يعيدون تنظيمه ويسبحون ويمجدون هيي قدامي وأبوهم يوشامن ، وهذا ما حصل كُلف الملاك أبائر سادن باب آلة دهنورة بهذه المهمة ، حقق أبائر بالمياه الآسنة السوداء من على بعد ونادى له ابن سماه بئاهيل وكلفه بهذه المهمة المعقدة ، بالنتيجة تمكن أبئاهيل وبالتعاون مع أبائر (فرع السماء وبسط الأرض ونادى ملائكة النار ، وهبت الشمس ضياء ، ووهب القمر بهاء ، والنجوم سناء ، ورفعت كل إلى مدار ، وتكونت العواصف والنار ، وتكونت الثمار والأعقاب والأشجار ، وتكون الحيوان الأليف والوحش الكاسر ، ومن التراب والطين الأحمر والدم والمرارة ومن سر الكون جُبل آدم وحواء ، وحلت فيهما نشمنا بقدرة ملك النور) ... والحديث هنا طويل وشيق.

ولكن السؤال لماذا كان الموت نصيبنا ، التفسير وفق ما فهمت أن الوعود كثيرة والآمال عريضة بالحياة الثانية للناس الطيبين الذين ميزان حسناتهم أكبر من كفة سيئاتهم ، إنها حياة ملائكية في عالم الحق يعيشها الإنسان كحياة جديدة دون مرض أو شيخوخة أو موت ثاني ، حياة ينعم بها الإنسان بالراحة الأبدية والسعادة والبهجة والأمان ، يؤكد لنا كتاب الكنز العظيم للصابئة المندائيين ويصف لنا الحياة هناك :

(كَلَّمَهُمْ حُكَمَاءُ صَادِقُونَ، لَا إِسَاءَةَ فِيهِمْ وَلَا خِدَاعَ، بَعْضُهُمْ يَخُلُّ فِي مَنَازِلِ بَعْضٍ لَا يَخْطِئُونَ، وَلَا بَعْضٌ إِلَى بَعْضٍ يُسَيِّئُونَ، مُعَزِّزُونَ مُكْرِمُونَ، كَمِثْلِ أَهْدَابِ الْعَيْنِ مُتَشَابِهُونَ، يَنْبِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَمْدُونَ الْكُشَطَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، هُمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ خَالِدُونَ، لَا زَوَالَ لَهُمْ وَلَا يَشِيخُونَ، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَعْطَشُونَ، وَلَا يَحْتَزُّونَ وَلَا يَبْرُدُونَ، وَلَا يُسَاءُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَغْضَبُونَ، فَرِحُونَ مُبْتَهَجُونَ، وَجُوهُهُمْ مِنْ نُورٍ، شَفَافَةٌ كَالْبُلُورِ، جَمِيعُهُمْ خَاشِعُونَ، لِلَّهِ الْعَظِيمِ يَسْجُدُونَ)...

ما أجمل الحياة وأسهلها هناك ولكن تبقى تأملات روحانية لا نلمسها ولا نراها... فالموت هذه الكلمة التي يخافها جميع الناس والتي كتب عنها الترميذا المتقف المؤمن الواعي خلدون ماجد الذي يعيش حاليًا مغترب في أستراليا... وأنا شخصيًا أكن له كل الحب والاحترام لكونه رجل دين مجتهد، ولهذا أحببت أن تكون له مقالة قيمة في هذا الموضوع لأنه مؤهل أن يكتب وأن يفسر لاجتهاده وتطور معلوماته.

وهناك آراء أخرى لعدد من الباحثين حول الحياة ما بعد الموت، هناك عقائد حية وعقائد ميتة، فالعقيدة الحية المؤمنين بها يؤمنون بالحياة الآخرة (الجنة) أن الإيمان بالحياة بعد الموت يعيش الإنسان عالمين... العالم المادي الذي يعيش فيه ويأمل أن يعيش حياة ثانية أحسن في عالم أفضل، ولكن تبقى المشكلة لا يمكن إثبات وجود عالم آخر بالعقل، لكن المؤمنين يعقلونها ولديهم مسوعات عقلانية إضافة للشعور والحس ومواجد القلب، العقل دائمًا يدور في دائرة الزمان والمكان، أما الأمور الروحانية فهي خارج هذه الدائرة.

من الطبيعي البشر نوعان؛ نوع متفتح مثقف مفكر، ونوع مقفل أحيانًا حتى ولو كان مثقفًا ودارسًا لكنه عنده إيمانات أحيانًا لا يقبلها العقل... ولكنه مؤمن بها ومصدقها رغم عدم وجود الدليل لديه، لأنه هناك قصص كثيرة وردت في الكتب الدينية تعتبر خوارق ومعجزات عن المؤمنين الروحانيين، وتعتبر ميثولوجيا عند المتنورين...

إنّ لابد من وجود دليل منطقي لا يحمل في داخله تناقض ، طبعاً المؤمنون يؤمنون بالحياة بعد الموت ، ولديهم قناعاتهم وإيماناتهم ، لأنهم يؤمنون أن الله حكيم وكل ما يصدر من الحكيم حكم ومواعظ وقيم ومثل عليا ، وأن الله ما خلق الإنسان عبثاً... ولأن من ذاتيات الحي العظيم الخلق وتكريم الإنسان فهو قدرة على الخلق عظيمة ، والإنسان قدراته محدودة لأنه لا يعلم كل شيء مثل العقل الأعظم... وقد يسأل أحدهم لماذا مثلاً خلق الله الذبابة ؟ أكيد لحكمة لا نعلمها خلق الله الذبابة.

ولأن الله عادل فأكيد أن الحي العظيم خلق عالماً آخر لتكريم الأخيار من الناس ومحاسبة الأشرار من الناس ، لتستقيم المثل والقيم والأخلاق الحميدة ، وليلتزم الناس بهذه القيم والأخلاق ، لكي يكون مثوهم عالم الأنوار (الجنة) ، ومن الصعب جداً أن نجد لكل شيء دليل... والأدلة نوعان ؛ أدلة عقلية يتقبلها العقل والمنطق ، وأدلة نقلية التي أنزلها الحي العظيم بواسطة الرُّسل من تعاليم ووصايا ودونت في الكتب الدينية المنزلة.

المؤمن الصادق في إيمانه يجب أن يؤمن أن الحي العظيم أبدي ليس له بداية وأزلي ليس له نهاية ، ويجب أن يؤمن أن هناك حياة ثانية للأخيار الطيبين الصادقين والإنسان الصالح الذي يلتزم في حياته بالعمل الصالح ويؤمن بالحي العظيم وكتبه ورسله ، وفي صدره نور الحي العظيم تنور عقله وقلبه ونفسه ، فهو من الصالحين الذين بعد وفاتهم تذهب نسماتهم إلى عالم الأنوار ليحيوا حياة ثانية أبدية.

والآن لنطلع على مقالة الترميذا خلدون ماجد : (ماذا بعد الموت؟)...

ماذا بعد الموت ؟

ذكر لنا الترميذا خلدون ماجد ؛ عن تراتيل الرحمة التي قامت بترجمتها ناجية مراني ، أن الموت تلك الكلمة الرهيبة المخيفة التي ما فتئ الإنسان يحسب لها ألف حساب ، لكنه في نهاية المطاف وبعد أن يعجز عن سبر أغوار ذلك الحدث

الفاصل العظيم ؛ نراه ينأى عن تلك الأفكار التشاؤمية ، ناسياً أو متناسياً تلك الحقيقة المرة لنهاية الحياة الدنيوية...

ومن هنا تنطلق حكمة الحياة ، حيث أن من المنطق إبعاد شبح الموت عن أفكارنا لكي ننعم بحياة قد نوحى لأنفسنا لا شعورياً أنها خالدة ، وأننا بعيديون كل البعد عن ذلك اليوم الذي نستسلم فيه إلى أحضان النهاية الحتمية... ولكننا وبهدى من فكر الدين المندائي السامي ، وبالاستشهاد ببعض ما توصل إليه علماء الروح سنحاول إثبات حقيقة معروفة ، ألا وهي الجواب عن السؤال الذي يراودنا أبداً ، ماذا بعد الموت ؟ والجواب لا يتسع لأكثر من كلمة واحدة ألا وهي الحياة ، فهل هناك ما هو أعمق وأشمل وأسمى من الحياة...

إننا نحن المندائيون لا نميز في نصوصنا الدينية المقدسة في بعض الأحيان بين الحياة و(الهيي ربي) الحي العظيم مسبح اسمه فكلاهما يقال لهما (هيي) ، إذ لا مصدر للحياة بكل أشكالها ودرجاتها بدون الحي العظيم... وكما ورد في بعض التراتيل (بوثا) (هيي اد هون من هيي والكشطا اد هو من قدام بريشي) وتعني الحياة التي انبثقت من الحي والحق مسبح اسمه الذي كان قبل كل شيء ، فهو رأس الموجودات.

إن ما تعنيه كلمة الموت في اللغة العربية كما في اللغة المندائية (موتا) هي حالة انتهاء الحياة ، أي أن الموت هو ضد الحياة ، وهنا يحق لنا التساؤل هل إن نفاذ حياة الإنسان وجميع المخلوقات ووفاتها هو موت وفناء بحق ؟ ووفقاً للمفاهيم المندائية الأساسية (وكذلك بالنسبة لجميع الأديان السماوية المنزلة) يكون الجواب : لا ، ذلك لأن الذي يموت ويفنى في هذه الحالة هو الجسد الذي تتوقف فيه أجهزته المختلفة عن أداء وظائفها الفسيولوجية الحياتية... لكن أين ذهبت كل هذه الطاقة الحيوية وكل ذلك الذكاء والفكر الإنساني ، وتلك القابلية الحركية؟ أين ذهبت كل تلك الحياة التي كان الجسد مفعماً بها؟ فالطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم ، كما يؤكد لنا العلم...

وما دمنا في الرأي العلمي سنقتطف جزء مما يقول عالم الكشوف الروحية المبنية على العلم الحديث (ج . أرثر فندلاي) في كتابه (على حافة العالم الأثيري)، صفحة ٢٥ : (إن الإنسان مكون من جسم ونفس وروح، فالجسم ما نراه، والنفس هي العقل، والروح هي الجسم الأثيري، الذي لا يطابق في الشكل الجسم الفيزيقي المادي، وهي التي تجعل هذا الجسم الفيزيقي يتماسك... وما الموت إلا انفصال الجسم الأثيري عن الجسم المادي، ويحمل هذا الجسم الأثيري معه العقل أو النفس.

والحياة هناك شيء آخر غير المادة الفيزيقي، وهي من خصائص العلم الأثيري، أما لماذا أو متى امتزجت بالمادة الفيزيكية فأمر لا نعرفه، ولكن حدث في سالف الزمن البعيد أن ظهر في الوجود كائن حي، فتولدت الحياة والفكر إذ أصغر صيغها، ومنها ظهر المجموع المعقد لجسم الإنسان والكائنات الحية جميعاً.

بعد انتهاء هذا النص، ولولا خشيتي من الابتعاد عن الموضوع، لوضعت أمام كل فقرة من النص المذكور ما يقابلها من نصوص دينية مندائية تطرح وتنتظر وتفسر بدايات التكوين والخلق والعالم الأول... أفليس من الحكمة والمنطق توصل الإنسان العالم في مختلف الأصقاع والأزمنة إلى ذات الحقائق الجوهرية التي تخص وجود الإنسان من زوايا ورؤى مختلفة؟.

لم نتطرق بعد إلى المفاهيم والنصوص المندائية الربانية التي تطرح تفاصيل الحياة الأولى والآخرة... (وهي واحدة)، بصفاتها الحياة المنزهة السامية التي بدأ الخلق بها بأبسط صورة عبر الحياة الأولى، في عالم النور المنبعثة من لدن الخالق العظيم، إذ ذلك لا نبالغ إذا قلنا إن معظم النصوص الدينية في كتبنا السماوية المقدسة وعلى رأسها (كنزا ربا) تهتم بمعالجة وشرح وتفسير تلك الحياة الأبدية الخالدة في العالم الآخر...

إن مفهوم الدين المندائي الجوهري فيما يخص حياة الإنسان على الأرض (آلمه اد تيبيل) يتمثل في كون النفس البشرية (نشمتا) هي أثيرة هذا الجسد المادي الفاني بصفته الوليد الشرعي للعالم المادي الزائل ، وأن على الإنسان مهمة الحفاظ على نزاهة وسمو هذه النسمة الربانية النورانية التي تشع بالحياة (نشمتا) والتي تشترك مع الروح (روه) في إحياء وقيادة هذا الجسد المصنوع من مادة الأرض ، والعائد إليها ، المتحلل في ترابها ، وعلى الإنسان صون هذه الأمانة (النفس) ، لكي يعود بها مكللاً بالفوز العظيم ، بالحياة الأبدية بمساكن النور الخالد (عالم النور - آلمه اد نهورا) المقر الأول الأصلي لنفس آدم (ع) ، (اد كاس زيوا).

وقد خص الخالق الحي مسبح اسمه آدم وحواء (ع) وذريتهما ، رؤوس السلالات البشرية ، وضمنهم النبي يحيى بن زكريا (ع) ، بالتعاليم الربانية التي تكفل لهم (الخلاص) لهذه النفس من ذلك الامتحان الصعب ، الواقع تحت وطأة الجسد المادي المليء بالغرائز والشهوات ، وتلك الحياة الدنيوية الفانية ، وهي ترتيلة صلاة إقامة الرحمة ، (انياني اد رهمي) نجتزئ ما يلي : (أنته أيها العاني بيمينك أشرق الضوء وبشمالك طلعت الأنوار ، أثبتت والحمر بخريتك العالم ، وحين يتم قدرك سأتي إليك أنا بنفسي ، أتيك بكسوة من نور ، يشتهيها الشرهون ، وأتيك بقلنسوة زكية قدسية ، نورانية نفيسة للغاية ، أبعدك من الأشرار وأخلصك من الخطأ ، إلى مسكن طاهر).

ويبقى السؤال المركزي دون إجابة شافية ، إذ قناعتنا بما نؤول إليه بعد الموت حياة أبدية تتسم بالطابع المادي فإن كثير من الحالات ومن المفارق الروحانية السامية لا تدرك إلا من خلال النفوس الطاهرة النقية التي تقوم بالعمل الصالح والتسبيح للخالق العلي ، والمؤمنة بأركان الدين التي هي القاعدة الأساسية للحياة... إن الإنسان هو ولادته الحقيقية يلج من خلالها بالعالم الأساسي الخفي المطلق ، عبر عدة مراحل ترتقي النفس البشرية حتى المقر الذي تستحقه موجب جميع الأعمال التي قدمتها في حياتها الدنيوية وفق المنهج الرباني القويم

حتى خروجها من الجسد بكسوتها النورانية البيضاء ، ووفقاً لهذه المقومات الأساسية تتم النفس صعوداً باتجاه بيت الأب مروراً بمحطات التطهير (مطراشي) الذي تقاسي فيه جميع أنواع العذاب (العقاب) ، وتطهيراً لما اقترفته من أخطاء وآثام ومساوئ وحماقات... الخ.

وأهم ما يجب تجنبه هنا هو (الموت الثاني - موتا تنياني) ، المرحلة تتجه النفس صوب أبائر (بيت أبائر) أو أبواب الجنة (النور) حيث تدخل النفس في الوزن ويكون المعيار (نفس أبينا شيتل) ابن آدم (ع) ، حيث إنها أنقى النفوس البشرية ولا تجتاز هذه الأنفس إلا بعد أن تساوي نقاؤها شيتل (ع) ، وخلاصة القول إن الحياة الدنيا ما هي إلا محطة اختبارية جعل (الهي ربي) مسبباً بحكمته الخفية من الإنسان فيها في إدامة وتعمير الحياة الدنيوية في جعله ملكاً من ملائكة النور اجتيازه تلك المحطات القاسية أراد لها الخالق مسبح اسمه أن تكون من توابع عالم النور ، فدعونا أيها المؤمنون نتزود بسلاح الإيمان بالرسالة السماوية من لدن الرحمن (مرهمانا) طامحاً بالرحمة والغفران وبالخلاص والفوز العظيم... والحي مزيكنا...

المطراشي (العقوبات في الديانة المندائية) :

يحتوي ديوان أواثر على مجموعة من الشروحات الخاصة بأماكن العقاب التي تمر بها الأنفس خلال رحلتها إلى عوالم النور ، ومرورها بأماكن العقاب لغرض تنقيتها وجعلها طاهرة كما جاءت في البدء إلى جسد آدم ، ويحكم المطراشي ملكا ابثاهيل (م.أ) وعدد من الملائكة الصالحين ، وكذلك الكواكب السبعة وأبناء الشياطين (الشفياهي)، ومن أهم أنواع المطراشي (المطهرات) ما يلي:

أ- أسماء المطراشي للملائكة الصالحين :

- ١- مطهر ابثاهيل.
- ٢- مطهر الهبشيا.
- ٣- مطهر بهرام العظيم ابن ابثاهيل.
- ٤- مطهر انش ابن ابثاهيل.
- ٥- مطهر هيبيل ابن ابثاهيل.
- ٦- مطهر راكاتيل ابن ابثاهيل.
- ٧- مطهر شرهيبيل ابن ابثاهيل.
- ٨- مطهر اسفر ابن ابثاهيل.
- ٩- مطهر انباط ابن ابثاهيل.
- ١٠- مطهر ابهاق ابن ابثاهيل.

ب- مطراشي الكواكب السبعة وأبنائها :

- ١- مطهر المريخ.
- ٢- مطهر المشتري.
- ٣- مطهر زحل.
- ٤- مطهر عطارد.
- ٥- مطهر الزهرة.

٦- مطهر القمر .

٧- مطهر الشمس .

(مطراي الملائكة الصالحين) :

١- مطهر ابثاهيل : وفيه توضع الأنفس التي لم يتم إتمامها على الأرض ، حيث تبقى في هذا المطهر لحين أن يتم جعلها تامة وصبغها في اليردنة العظيم ، وبعدها يذهبون نحو الموازين .

٢- مطهر الهبشبا : وتوضع فيه نشماتا الكنزبري الذين يتسلمون الصدقات في بيتهم بالحق لغرض عمل المسخنة واللوفاني (الثواب) فإنهم بعدما يشبعون لا يباركون موائدهم ولا يعملون لها غفران الخطايا ، ولا يهبون حتى الثواب القليل المتواضع ، فإنهم سوف يسألون ويعذبون بالحر والبرد إلى أن ينتقون من أخطائهم .

٣- مطهر بهرام العظيم ابن ابثاهيل : وفيه يتم استجواب رجال الدين الذين يتركون صلواتهم اليومية ويقومون بأفعال شريرة ، والذين يقتطفون الفجور بعدها يطمشون بالماء ويضعون تيجانهم ، ويقفون ويمجدون إلى الخالق العظيم .

٤- مطهر انش ابن ابثاهيل : ويُرْمى فيه المندائيون الذين يعملون أعمال سيئة ، وكذلك ترمى فيه النشماتا التي لا تذكر اسم الحي ، واسم مندادهي ، فإنهم سوف يعذبون ويعصرون عصارًا بالحرارة .

٥- مطهر هيبيل ابن ابثاهيل : وفيه يوضع أولئك الذين يقدمون شهادة الزور ، وكذلك الذين يقتطفون السرقة وينقضون الاتفاق فإنهم سوف يعذبون بالحر والبرد إلى أن ينتقوا .

٦- مطهر ركاثيل ابن ابثاهيل : وفيه يتم استجواب الأنفس التي عند قدوم يوم التعميد الذهبي لا تذهب إلى اليردنا وتصبغ ، ولا تقدم اللوفاني ولا تشارك بعمله

ولا تنطق اسم الحي على الطعام ، وكذلك النساء اللواتي لا تعتزل عند مجيء الدورة الشهرية فسيتم تطهيرهم بالفحم واللهب الساخن.

٧- مطهر شرهيبيل ابن ابثاهيل : وفيه يوضع أولئك الذين يأخذون الفائدة والمرابي في هذا المطهر هناك فحم مليء باللهب والحرارة الشديدة.

٨- مطهر اسفر ابن ابثاهيل : وفيه يتم استجواب أولئك الرجال ، ورجال الدين ، الذين يحتفظون بشراكة مع نساء ملوثات ويمارسون السحر وكذلك النساء اللواتي يبيعن أطفالهن وحليبهن حيث يجلبون بمقرعة متقدة ويضربون الأرواح.

٩- مطهر انباط ابن ابثاهيل : ويوضع فيه رجال الدين الذين يتاجرون بالربح والربا ويأكلون الضحية المذبوحة على الطريقة غير المندائية والذين يمشون بالأسواق والشوارع ولا يقومون بالاغتسال وأولئك النساء اللواتي يلبسن الذهب والفضة ويتقبن آذانهم ويلبسن الخرز حيث يتم إفلات الذهب عليهن حتى يصبحن نحيفات كالشعر.

١٠- مطهر ابهاق ابن ابثاهيل : وفيه يتم استجواب الرجال الذين يشربون الخمر ويطربون ويتركون صلواتهم ويرقصون ويغنون وينسون الأحد ، ويتم فيه استجواب النساء اللواتي يمارسون المخادعة على أزواجهن واللواتي يكذبن على أزواجهن وكذلك الصيادين الذين يضربون اليردنا وكذلك الذين لا يعلمون أبناءهم المندائيين وكذلك الرجال الذين لا يحترمون رجال الدين وكذلك استجواب رجال الدين الذين لا يقومون بأعمالهم الدينية بصورة صحيحة حيث يتم ضربهم ويجلدون بشدة ويتم ثقب ألسنتهم.

(مطراتي الكواكب السبعة) :

١- مطهر المريخ : ويرمي فيه هؤلاء الذين يقتربون من زوجاتهم يوم الأحد سوف يعذبون بالحر والبرد إلى أن يتنقوا.

ملاحظة : في يوم الأحد فقط من أسبوع الزواج محلل فيه ، ولكن بعد أسبوع الزواج في يوم الأحد لا يقترب الشخص من زوجته لأنه يوم نظيف ومقدس ومبارك.

٢- مطهر المشتري : وتنصب فيه المياه الآسنة ، ويحاسب فيه أولئك الذين ينكرون الدين ، وكذلك تحاسب فيه النساء اللواتي لا يلزمن دورهن وأبوابهن مشروعة.

٣- مطهر زحل : وفي هذا المطهر يتم استجواب الغلمان والسراق إلى أن يصبحوا نحيفين كالشجرة.

٤- مطهر عطارد : ويحاسب فيه أولئك الذين يقتلون الأنفس أي سفاحي الدماء حيث تحرق أرواحهم بالنار وتعذب عذاب شديد ، ولا مفر لهم حيث أن كل باب من هذا المطهر تكون مغلقة وموصدة.

٥- مطهر الزهرة : وتحاسب فيه النساء اللواتي يعملن الزنا ، والذين يعملون الزنا والذين يسرقن السرقات ، فإن نفوسهم تعذب بالحرارة الشديدة.

٦- مطهر القمر : وفيه يحاسب الذين يغشون في العمل والذين يرخون أحزمتهم المقدسة (الهميانة) لراحتهم الخاصة في هذا المطهر يقف جلادون يجلدونهم بشدة.

٧- مطهر الشمس : ويحاسب فيه الرجال الذن يتشبهون بزي النساء وتحاسب فيه النساء اللواتي يتقبن آذانهن ويلبسن الذهب.

في رحاب كنز ربا... الإعجاز الإلهي والإعجاز العلمي^١

يا لروعة الإعجاز العلمي في كتابنا المقدس (كنز ربا) كما قال الأستاذ بشار حربي؛ حيث قال: فبعد أن وضعنا في مقالتنا السابقة تطابق أحداث النظريات العلمية حول نشأة الكون مع ما ورد في الكتاب المقدس؛ نسوق لكم في هذه الحلقة البعيدة عن التعقيد اللغوي واللفظي ما نحسبه إعجازاً آخر لكتاب الحي العظيم، واسمحوا لي أن أذكر لكم مقدمة علمية ستشكل مدخلاً مهماً لموضوع حلقتنا هذه.

ذكر فريق لي من العلماء الفيزيائيين من جامعة هارفارد أنهم قاموا بأول قياس لذرات ولدت من مضاد المادة، وهي المادة المتفجرة والمعاكسة للمادة التي نستخدمها يومياً... وكما توازن الذرة إلكترونياً سالباً مقابل بروتون إيجابي، فقد اعتقد العلماء منذ زمن أنه عندما تكون الكون كانت فيه أجزاء متساوية من المادة ومضاد المادة، لكن لأن هاتين المادتين تبيدان بعضهما لم يستطع العلماء أن يدركوا لماذا إن المادة العادية - وليس مضاد المادة - هي المهيمنة في الكون، وعلى المدى الطويل ستفتح هذه النتائج أبواباً جديدة من المواد في العلوم.

والآن، دعونا ننظر في كنز ربا - مبارك اسمه - وعلى وجه التحديد في موضوع (المثل السني الكامل) الذي يشكل جزءاً من عالم الأنوار... يقول التسييح الثاني من الكتاب الثالث - اليمين (أيتها النفس تنهضين - والحيي المقدير تمجدين وله تسجدين... سبعي لعلين حيث يجلس الصالحون ومجدي ادكاس زيوا^٢ الأبج الذي منه انبثق آدم)... إن هذه البوثة تفسر لنا وجود آدم بغرا^٣ في عالمنا الأرضي والذي هو زوج حواء ورأس السلالة البشرية،

١ - يرجى الاطلاع على سلسلة مقالات (في رحاب الكنز ربا) للأستاذ بشار حربي درويش لتوخي الفائدة.

٢ - ادكاس زيوا : كاندنوراني، وهو آدم الخفي البهي.

٣ - بغرا : الجسد.

أي أن آدم كسيا^١ هو المثل السني الكامل بالنسبة له ، فهو كائن نوراني - أي جزء من عالم الأنوار - وكامل في إيمانه وصفاته وقدراته التي هي أيضاً جزء من قدرات عالم الأنوار .

ولنقول مجازاً إن آدم كسيا هو مضاد آدم بغرا - الخطاء غير الكامل - والمضاد هنا نعني بها المقابل وليس المعاكس ، لنعود الآن إلى ما اكتشفه العلماء مما أوردناه أعلاه ، فإنه يضعنا على أول الدرب في الوصول إلى مضاد إنسان ، لأن ذرات مضاد المادة المتشكلة من إلكترون ذرة مادة مضادة أو بوزترون وبروتون ستشكل جزئياً ثم مضاد مادة ، وبالتالي مضاد إنسان ، وسنصل بعدها إلى ما يقوله كتابنا المقدس .

(مع مثيلي أنا أتحدث... تعال نصلي أنا وأنت... مجدني وأمجدك... ساعدي وأساعدك... فتصعدني وأصعدك...) ت ٦ ك ١٧ - اليمين... و(انحنيت لمثيلي وسجدت له ، وأخذت منه الكسطة ودخلنا في الجنة ، واختفيناً طويلاً... فرضي أن يكون مثيلاً) ت ٦ ك ١٧ - اليمين...

ومضاد الإنسان هذا ليس بالضرورة أن يكون الصورة السلبية لما نحن عليه ، بل يمكن أن يكون مكملاً لنا ، فقد عرف في العلوم دائماً موضوع وحدة المتناقضات أو تكاملها ، وعليه فمثلاً (بشار بغرا) يكون مثيله ومثاله الكامل هو (بشار كسيا) الذي يسكن في المطراشي^٢ وهي جزء من مشوني كسطة^٣ ، وبالتالي هي جزء من عالم الأنوار .

وإن كمال وتكامل (بشار كسيا) كلما اتحد^٤ الاثنان ويمكن أن يحصل ذلك أثناء حياة (بشار بغرا) على الأرض ، وكان من نتيجة هذا الاتحاد انتقال جزء من

١ - كسيا : الخفي .

٢ - المطراشي : مطراثا : مطهر في العالم الآخر لتطهير النفس من آثامها .

٣ - مشوني كسطة : أرض العهد ويعيش عليها المختارون الصالحون .

٤ - الاتحاد : وفي المندائية يسمى (لوف) وهو ما تتضمنه (رواها ادهيي) التي تقرأ في الفواتح والتي هدفها لتوسل لحصول هذا الاتحاد بين كسيا وبغرا .

قدرات ال (كسيا) الفائقة إلى (بغرا) وبالتالي يمتلك الأخير ما نسميه نحن بـ(الكرامات) أو (إعطاء المراد).

وقد يحصل ذلك بعد وفاة (بغرا) وانتقال النفس للحساب في المطراني بميزان شيتل بن آدم... فإن كانت بلا حساب بسبب تقواها الشديد عادت والتحمت مع كسيا واكتسبت بذلك قواها وقدرتها و(كراماتها) و(بشار كسيا) ، ولنقل (آدم كسيا) لأن آدم اسم يرمز به لكل البشر كما هو معروف سيسوق (آدم بغرا) بعد الموت ويصعد بها إلى بارئها ويمررها بالحساب.

(خارج أنا للقاء شبيهي وخارج شبيهي للقائي... هنا علي ، وحنوت علي... كائني حائد من السيي إليه) ت ٢٣ اليسار.. والنفس تسوق الروح معها أيضاً... انظر إلى الروح وهي تقول لنشمتا (النفس) (قوديني معك إلى أن يقام الميزان ، فيحسب ما بي من كمال ويحسب ما بي من نقصان ، ولعندها يقرر الحساب ، اتبعك أم أبقي في العذاب) ت ٢٥ اليسار.

وكما عرف آدم رأس السلالة - أباه ادكاس زيوا - الملاك... (وحين آدم رجع ، ولأبيه الملاك خشع ، اظهر له ادكاس زيوا نفسه ، فاهتلاً آدم تسبيحاً ، ورتل جسدًا وروحًا) ت ٢ اليمين...

فإن كل (آدم بغرا) كل واحد منا سيعرف ملاكه الموكل بقيادة نفسه بعد صعودها، وبعد حسابها إلى مشوني كشتا وإلى عالم الأنوار موطنها الذي منه أنت، فالنفس وديعة الله، الحي العظيم في الإنسان، ولابد من استرداد الوديعة ولو بعد حين... (وحين يتم آدم مهمته ، يمكن من العودة إلى موطنه ، موطن النور، مع ادكاس زيوا أبيه... ليكون ملاكاً فيه).

إن ما نسطره في مقالتنا هذه ليس فكرة معقدة لا تسهل فهمها أو تتبعها ، بل حقيقة متسلسلة يدلنا عليها كتابنا المقدس (كنزا ربا) ويمكن إيجازها بما يلي : في الخلق عالم الأنوار... النفس... جسد الطين (بغرا)... في الموت : جسد الطين... النفس... مطراثا... كسيا... مشوني كشتا... عالم الأنوار وبذلك

يكون (آدم كسيا) لكل منا رقيباً موكلاً - ملاكاً - مانحاً للقوة لنا عند تكامل إيماننا وسائقاً لأنفسنا بعد الموت... (ونفذ الصوت نحن نسميه الحق ، وأنتم تسمونه الموت).

والآن لنتمعن القول مرة أخرى في المعلومة العلمية الواردة في مقالتنا، ولنقرأ حقيقة (مضاد المادة) في وجودنا، ولماذا المادة العادية - ليس مضاد المادة - هي المهيمنة في الكون، ولنتساءل أين ذهبت مضاد المادة؟ وأين هي الآن؟ إن كانت معنا فما شكلها؟ وبشكل أدق ما شكل مضادي أنا، وأين هو، وما هو تأثيره علي، وما موقعه مني؟ ومن منا يملك طاقة أكبر؟.

أدعوك قارئ الكريم أن تقرأ المقالة ثانية، وافترض معي أن كسيا هو مضاد بغرا فماذا سنحصل، ماذا يكون؟ صحيح أن كلا منا يعيش فيه (كسيا) كل منا، أي أن عالم الغيب وعالم الشهادة هما على اتصال دائم، فلا تستغرب انتقال قدرات كسيا إلى بغرا... كما نؤمن أن طريق النفس التي أودعها الله في بغرا ستمر بعد الموت بـ(كسيا) أو المثل السني الكامل... وأعتقد أيضاً أن هذا الموضوع يحتمل بافتراضاته العديدة أن يكون بحثاً مستقلاً لعلنا نوفّر له الوقت الكافي يوماً ما، فنكون بذلك من السباقين... والحي المزكي.

البحث السابع

الوفائي (طعام الغفران)

وهذه الكلمة مشتقة من كلمة لوف (اتحاد)... لأن النشمتا تتشكل من النفس التي هي قبس من الحي العظيم، طاهرة نقية لا تشوبها شائبة، ومن الروح التي تمثل الفعاليات والأعمال التي يقوم بها الإنسان من المهد إلى اللحد، طبعاً هناك ترجمات في الأديان التوحيدية الأخرى، تعطي للروح الطهارة والنقاء، وتعطي للنفس الحساب والعقاب...

في الفكر المندائي الروح هي التي تذهب للمطراشي (محطات الحساب) لتُحَسَّب فإن مرّت بسلام من هذه المحطات وعادت سالمة إلى أبائنا تتحد مع النفس وتشكل النشمتا وتكون مهیئة لدخول عالم الحق (مشوني كشطة)، لتعود إلى آبائنا الأوائل الديموثة (المثيل السني)، الذي أخذت منه وأعطيت لهذا الإنسان عندما صور في رحم أمه في نهاية الشهر الرابع من الحمل، عندها يبدأ الطفل بالحركة لأنه كان كتلة من اللحم بدون نشمتا قبل ذلك.

وكلنا نعلم عندما خلق آدم من الطين الأحمر لم يتحرك إلا أن أولجت به النشمتا بأمر من الحي العظيم، من قبل الملاك هبيل زيوا، فدبت فيه الحياة وخفقت جناحيه ووقف على رجليه بعد أن تنفس الحياة.

إن الإنسان في حياته الدنيا فنحن نستغفر الحي العظيم عن ذنوبنا بالعمل الصالح وخدمة الناس بأمانة وصدق، ودفع الصدقات (الزدقة) وإجراء مراسم التعميد والفروض الصوم والصلاة والأعمال الصالحة والأمانة والصدق والنزاهة والإيمان في غاية الأهمية إذ ما فائدة إنسان يصوم ويصلي ويتعمد وهو يكذب أو يسرق أو يزني أو يغش ويمارس المحرمات.

طبعًا اللوفاني يقوم به رجل دين أو حلالي وفق تعاليم ووصايا، ويحضر الطعام بمواصفات خاصة من السمك أو اللحم أو الطير، ومن عجينة غير مختمرة، وفواكه الموسم، ويستحسن أن يكون ضمنها شيء من السفرجل والرمان والخضروات والجوز واللوز...

وهذا اللوفاني يمكن إجراؤه في كل يوم عدا المبطلات الثقيلة، ويفضل يوم الأحد (هشببا) لقدسيته عند الصابئة المندائيين، وعادة يتم عمل اللوفاني في النهار، أما في أيام البرونايا البيضاء (البنجة) فيتم في أي وقت ويمكن إجراء اللوفاني منها لعدة أشخاص مرة واحدة، بينما في الأيام العادية يتم إجراء اللوفاني لشخص واحد بمعنى لاسم ديني (ملواشة) واحدة.

وأثناء إجراء مراسيم اللوفاني تقرأ بوث خاصة باللوفاني، منها (اسم الحي واسم عارف الحياة منطوق عليك أيها الطعام لتقبل طعام يا ورزيوا وسميات هيي)... والنصوص كلها موجودة ويجب أن تقرأ بدقة وهي نوعًا ما طويلة...

طبعًا طعام الغفران ليس حكرًا على رجال الدين الصابئة المندائيين، وهناك من تعلم منهم ذلك واعتبره من الطقوس المهمة، عادة يقوم بهذه الشعيرة رجل الدين أو الحلالي، ولكن من حق كل مندائي بعد أن يتطهر بالماء الجاري إجراء هذه الشعيرة، ويقام طعام الغفران لنشمتا المتوفى بعد الدفن مباشرة، ولمدة خمسة وأربعين يومًا وهي مدة عروج النشمتا إلى سادن باب عالم الأنوار، الملاك أبائر لوزن الروح بميزان شيتل... كذلك يقام اللوفاني بكل المناسبات الدينية وخاصة أيام البرونايا (البنجة)... وضرورة ضبط الاسم الديني (الملواشا) للمتوفى... ويعتبر اليوم الثالث واليوم السابع بعد الدفن من الأيام المهمة لإجراء هذه الشعيرة.

ونذكر النص الديني للوفاني كما ورد في الكتب الدينية المندائية، وكما يلتزم رجل الدين أو الحلالي بقراءته باللغة المندائية، وللسهولة والتوضيح نكتب ترجمة النص:

(اسم الحي واسم المولى عارفه الحياة مذكور عليك أيتها الطيبات... طيبات
الحي العظيم ، لتوهج وتوزع باسمه... يطيع الطيب للطيبين ، وتثبت كينونة
أولئك الذين يحيون اسمه ، نطلب فنجد ، ونسال فنجاب ، لقد طلبنا فوجدنا
وسألنا فأجبنا من لدنك سيدي العليم ، رب العافية كلها ، اغفر لي خطايي
وحوباتي وزلاتي وآثامي وشبهاتي. واغفر لمن أعد هذا الخبز وهذه الطيبات ،
وأقام صلاة الارتقاء خطاياهم وحوباتهم وزلاتهم وآثامهم وشبهاتهم يا سيدي الحي
العظيم... وللحي العظيم وللرب الأجر والصدقة... واغفر لصاحب هذا الأجر
والصدقة واغفر لهذه النفس (المواشة) خطاياها... واغفر لأبيها وأُمها ولمعلمها
ولزوجها وأبناءها ولتلاميذها ، واغفر لصاحب هذا الخبز وهذه الطيبات ولآبائه
ولمعلمه ولأساتذته ولمرشديه ، ها قد رفعتم من الشمال إلى اليمين ، فانطلقوا
أن الحي قائم بمقامه... ومسيح الحي والحي خالجه على جميع العباد).

وبصورة عامة هذه القراءة تقرأ باللغة المندائية وهي موجودة في الكتب الدينية
ومدونة في كتب الطقوس المندائية... وبعد قراءة هذا النص يحق تناول اللقمة ،
ويواصلون تناول الطعام من قبل شخص واحد وعدة أشخاص ، وتقام هذه
الشعيرة لشخص واحد أو لعدة أشخاص ، وخاصة في الأعياد والمناسبات
الدينية.

طقوس مندائية... اللوفاني (طعام الغفران) :

يعتبر اللوفاني كما ذكر الترميذا خلف عبد ربه ؛ جزء مهم ومن الأركان الأساسية في الدين المندائي وهو الصدقة ، والكلمة مشتقة من كلمة (لوفانا) بمعنى اتحاد أو مشاركة ، ويقصد بها إشراك الأحياء والأموات في طقس ديني يتضمن تقديم الصدقة والقربان ، ويدل على الوفاء لأرواح الأسلاف وطلب الرحمة والمغفرة لهم...

واللوفاني طقس ديني يتم بموجبه تحضير طعام طقسي طاهر نظيف ، ويجب إعداده من قبل شخص طاهر ، ويجب أن يكون القائم بالقراءة طاهر طقسيًا (حلالي) حصراً أو رجل دين ، أما الخطوات التي يجب اتباعها فهي :

إعداد طعام طاهر بأواني طاهرة (التطهير بالماء الجاري) والحرص على عدم مس المائدة من قبل غير القائمين بالطقس ، الخطوة الثانية أن يقوم الحلالي أو (مجموعة حلالية) بما يلي :

١- اقتسام الخبز أو قطعة مع ذكر اسم الخالق عليه (اشم ادهيي واشم مندادهيي مدخر الخ ياطابثا اد ياور زيوا وسميات هيي).

٢- تحضير اللقمة المقدسة بإضافة أجزاء صغيرة من أنواع الطعام التي على المائدة (سمك أو لحم ، خضر ، فاكهة) إلى قطعة صغيرة من الخبز .

٣- بعد الانتهاء من إعداد اللقمة يقوم الحلالي بشرب جرعة من الماء يقولون بعدها (بريخت ماري مشبت) مبارك الرب ومسبح ، ويردد الآخرون (المشاركون) (أسوثا نهويلخ) العافية لك ، فيجيبهم (أسوثا اد هيي نهويلخون) يعافيك الرب.

٤- بعدما يمسك كل القائمين بالطقس بلقمته التي أعدت ويبدأ بقراءة الدعاء التالي باللغة المندائية :

بشم اد هيبي وشما اد مندا اد هيبي مدخر الخ
 يا طابثه تقبل طبوثة اد هيبي
 وطبوثة اد هيبي وطبوثة اد مندا اد هيبي
 بهله اد لشوم هيبي ابله طابج طابه لطايبي
 واترس كنيانه لرهمي اشني ونبي ونشكه ونمر
 ونشتمه بين وشكنين ومرنين ونشتمنين من قودامخ
 ديلخ ماري مندا اد هيبي ماريهون ادسواثه
 شوقلا هطايا وهوبا وسوقلا وتوقلا وشبشاا
 المن اد هازه لهمه وسوقه وطبوثة ابد هطايا
 وهوبا وسوقلا وتوقلا وشبشاا
 نشفقلي ماري ومندا اد هيبي وهيبي ريبي قدمايبي الماري
 ادخره وزدقه الهازه النشمه الديلي الملواشه
 "اد هازه مسوقه وشفق هطايبي نهويلي الديلي
 الابه والايه والريبي والزوي والشلي والترميدي
 والمن ادهازن لهمه وطبوثة ايرمون لديلخون
 ابهاثي وروباني وملفاني ومسفراني كشه اسميخون
 من اسمال ليمن وشفق هطايبي نهويلخون وتيمرون
 قيامين هيبي بشخناثون ومشبين هيبي وهيبي
 زكن لكهون ابادي

والمعنى...

اسم الهي واسم مندا دهيبي منطوقان عليك
 تقبل هذا الطعام الطاهر
 الذي وهبه الهي العظيم
 ابتهالاً يقدم باسم الرب
 تطيبه الطيبات للطيبين
 ولتترسخ أقدام محبي اسم الهي

نطلب ونجد وندعو فيستجاب
 رجونا فنلنا
 تكلمنا وأصغينا
 فيى حضرتك
 يا مولانا منداد صيى
 يا رب العافية
 اغفر خطايا
 وآثامي وحماقتي
 وسموتي وزلاتي
 واغفر لمن هيء لهم هذا الخبز وهذه المائدة
 ولمن رفع لأجله هذا الدعاء
 اغفر له خطاياه وآثامه وحماقاته
 وسموه وزلاته
 يا مولانا منداد صيى
 ليكن الأجر والصدقة والغفران
 لأصحاب هذه الأنفس
 لأصحاب هذه الأنفس
 ولأبيهم ولأمهم ولأستأذهم ولزوجتهم
 ولذريتهم ولتلاميذهم
 ولمن حضروا هذا الخبز وهذه الخيرات
 لكم يا آبائنا ومعلمينا
 وأساتذتنا وحكماءنا
 ولتنقلوا من سوء الدنيا إلى نعيم الآخرة
 وليغفر خطاياكم
 وليكن دعاؤكم البعي دائم فيى ملكوته
 ومسبحين البعي
 والحي مزي العباد

الفصل السادس

الموسوعة المندائية

الصابئة المندائيون - دائرة معلومات موجزة

البحث الأول : الهجرة وإفرازاتها والوضع الجديد .

البحث الثاني : عاداتهم وتقاليدهم ، لباسهم ، أعراسهم ، أعيادهم ،
مجالس العزاء .

البحث الثالث : إصداراتهم وأحركات الثقافة .

البحث الرابع : معلومات مهمة مفيدة .



البحث الأول

الهجرة وإفرازاتها والوضع الجديد

المنتبع للتاريخ المندائي القديم والحديث يلاحظ أن المندائيين قومٌ مهاجرون عبر تاريخهم ، فلقد هاجروا من فلسطين من حوض البحر الميت وضاف نهر الأردن باتجاه نهر الفرات ، واستقروا ربحاً من الزمن في مدينة حران في المثلث التركي السوري العراقي مع أخوة لهم يسمون صابئة حران ، ولانشغال الحرانيين بعلوم الفلك ومتابعة الكواكب والنجوم وتأثيرها على الحياة ؛ اختلفوا معهم وانحدروا جنوباً بمحاذاة نهر الفرات العظيم ، وعندما شاهدوا المياه البهية (الأهوار) كما يسموها فرحوا بها ، واستقروا قربها يأكلون من خيراتها ، ويمارسون طقوسهم من الماء الحي الجاري المقدس ، الذي يعتبرونه مصدر الحياة ، وديمومتها ، وواصل عدد منهم على شكل جماعات تربطهم صلة الرحم الانحدار جنوباً ، فاستقروا على ضفاف أنهر دجلة والكرخة والكارون ، ومارسوا حرفهم التي يجيدونها، وبنوا البيوت البسيطة من القصب والبردي، ثم طوروها إلى اللبن والآجر ، وسقفوها من خشب الجندل ، والبواري المصنوعة من القصب والملبوخة بالطين المخلوط بالتبن والنفاش ، أي أنه ليس هنالك شيء مستورد بل كل شيء مما متوفر لديهم ، فالطين والقصب والبردي ما أكثره ، متوفر لديهم بدون مقابل ، وصنعوا الزوارق بأنواعها لاستخدامها في تنقلاتهم ، ولنقل بضاعتهم وعلف ماشيتهم ، وصنعوا العدد والأدوات التي يحتاجونها لصيد السمك ، مثل الفالة والشبك والسلية ، وثقالاتها من الرصاص وطوافتها من كرب النخيل الجاف ، كما صنعوا للفلاحين أدواتهم ، وعددهم الزراعية ، مثل المحراث والمسحاة والفأس والسكين والمنجل والمعمل ، وهذه كلها أدوات بسيطة ، ولكنها مفيدة (الحاجة أم الاختراع) ، وكانوا يتقاضون ثمن صناعاتهم هذه قمح وشعير وحنطة ، وغيرها من المنتجات الزراعية الضرورية ، لإدامة الحياة ، كما اعتنوا

بتربية الأبقار والبط والدجاج والوز (البش) ، والحيوانات الداجنة ، حيث يستفيدون من الحليب ومشتقاته، واللحوم كموايد غذائية، ومن الريش والصوف لصناعة الأفرشة والأغطية والملابس، وركزوا على صيد الأسماك لوفرتها، ولأن أكلها لا يحتاج إلى عناء، أو طقوس دينية معقدة ومتعبة، ولكي يتجنبوا المحرمات التي أمر بها الحي العظيم بشكل تام...

وتجدر الإشارة إلى أن أكل الأنثى من الحيوانات حرام عندهم ، (المشوه والحامل والتي أجهضت) لذلك تجدهم لا ينحروا الأبقار ولا يأكلونها، ولكنهم يحسنون تربيتها والعناية بها ، للاستفادة من حليبها ومشتقاته ، فطعام العائلة المندائية عادة يختصر في الفطور على الحليب والزبد وبيض الدجاج والبشوش أما غذاءهم فيكون السمك وعشائهم الروب (الخاثر) ، والتمن الأبيض والتمر والفجل، وكل يوم أحد يأكلون الدجاج والبشوش (إن أمكن ذلك)، على أن تذبح هذه الدواجن من قبل رجل دين ، (حلاي)، مخول دينياً ويحضر معه (شاهد) يقول له أنا أشهد لك، وقد برعوا في طبخ ما يذبحون باستخدام بهارات خاصة، ومشهورة تسمى (بهارات صبة)، مع نومي البصرة المعروف، كما يقومون بحشوها بخليط من البصل والكشمش، والحمص المجروش وشيء من نومي البصرة. وخلطة البهارات هذه أصبحت شائعة الآن، وفي بلدان المهجر تسمى أحياناً (سبع بهارات) وهي عبارة عن خليط من (الفلفل الأسود، الهيل، الدارسين، الهرش الحار، الخصر دار، القرنفل، جوزة الطيب أو جوزة بوة)، ويفضلون أكل خبز التمن الذي يصنعونه بأيديهم على شكل أرغفة، أو رصاع أو طابق (كما يسمونه)، وذلك لسهولة وسرعة عمله، حيث لا يحتاج إلى خميرة ولا إلى تتور، وهذا شائع في جنوب العراق، وخاصة عند أهل الأهوار. ولقد حدثني مرة الدكتور حكمت الشعرباف اختصاصي الباطنة المشهور قائلاً إن سر ذكاء الصابئة هو كثرة أكلهم الأسماك، حيث تدخل أجسامهم كمية من اليود المفيد للدماغ.

نتابع موضوع الهجرة ، حيث بعد ربح من الزمن هاجر الصابئة المندائيون على شكل جماعات من أعماق الأهوار بعد أن اختاروها لحمايتهم من الفتوحات الإسلامية ، كما أسلفنا لكون المقاتل العربي القادم من الجزيرة يضع دائماً الصحراء في ظهره حماية له ، ولا يخوض بحصانه أو بغيره المياه خوفاً منها ، لأنه لم يتعود عليها... فتقدموا إلى الأقضية والنواحي القريبة من حافات المياه... وبعد فترة من الزمن طالت أم قصرت اندفعوا بهجرة جديدة إلى المدن القريبة ، ثم اندفعوا بعد حين من الزمن بهجرة جديدة إلى العاصمة بغداد ، وخاصة بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم (رحمه الله).

وهناك خطوا الرحال وركزوا على ممارسة مهنة الصياغة ، التي برعوا فيها ، كما أدخلوا أولادهم في المدارس ثم الجامعات ، واستقر الحال هكذا لسنوات طويلة ، وحصلوا على نوع من الاستقرار وتطورت أحوالهم وأصبحوا في نعمة وعيش رغيد ، وعندما يتحدثون يذكرون أنهم حديثو النعمة ، ويشكرون خالقهم ويقولون فرواها الماري (أي شكراً لله)...

وفي أيلول عام ١٩٨٠ اندلعت الحرب العراقية الإيرانية ، حيث سيق الشباب العراقي كله للخدمة العسكرية ورفع شعار (كل شيء من أجل المعركة) ، وخاض أبنائهم غمار الحرب مع إخوانهم العراقيين ، كأبناء وطن واحد وسقط الكثير من شبابهم شهداء ، دفاعاً عن أرضهم ووطنهم وعرضهم ، في الحرب كثر لبس السواد ، وكثرت اللافتات السوداء التي تنعي الشهداء ، وتوسعت المقابر وأصبحت مزارات يؤمها الناس في المناسبات والأعياد ، وحطت الحرب أوزارها في آب ١٩٨٨ ، مسفرة عن خسائر جسيمة من الطرفين.

ورغم كل ذلك فإن الشعب العراقي صبور تجاوز المحنة وعاد للتعمير والبناء ، وحمد العراقيون الله لأن بلدهم بقي سالماً ، وأن الإيرانيين لم يجروا على إلحاق الأذى بالعراق وأهله ، وبعد الحرب أصبح للعراق اسماً لامعاً تهابه الدول

العربية والإقليمية، وأصبح موضع تقدير واحترام من دول العالم، وفي الحرب تمّ حماية دول الخليج العربي بشكل أو آخر من الغزو الإيراني، ولكن رغم النصر العسكري كانت الخسائر هائلة، حيث أثرت بشكل واضح على البلد وعلى العائلة العراقية، وبعد الحرب هدأت الأوضاع وشفيت بعض الجراح، وتغلب الناس نوعاً ما على مصائب الحرب وإفرازاتها، وعلى خسارتهم فلذات أكبادهم، إذ أنهم في الحروب يموت الأبناء قبل الآباء، وفي السلم يموت الآباء قبل الأبناء (تولستوي الكاتب الكبير في روايته الحرب والسلام).

وبالرغم من التحسن النسبي للأوضاع؛ فكّر البعض من الصابئة المندائين بالهجرة خارج العراق بحثاً عن الأمان ومداواة للجراح التي خلّفتها تلك الحرب، ولكن هذه الهجرة كانت محدودة العدد، لم تؤثر على النسيج الاجتماعي للطائفة، ولم تمض سوى سنتين على انتهاء الحرب ومازالت الجراح ندية لم تكتسب الشفاء التام؛ دخل العراق في حرب جديدة، من خلال دخول قواته إلى دولة الكويت، واحتلالها، تحت ذرائع وطنية ومادية وسياسية وتاريخية وجغرافية، حيث أن العراقيين وعبر التاريخ يعتبرون الكويت جزء من بلادهم، حيث يقولون إنه من غير المعقول ولا المقبول أن يكون للعراق نهران عظيمان هما دجلة والفرات اللذان يكونان شط العرب، والذي يصب في الخليج العربي دون أن يكون للعراق إطلالة على الخليج، كما أن الحكومة الكويتية بدأت تسحب النفط من حقول العراق المحاذية للكويت، مما تسبب بأذى للعراق، إضافة إلى تراكم أمور خلافية أخرى.

لذلك قررت القيادة العراقية على عجل وعبر قرار غير مدروس وبدون حكمة سياسية، دخول الكويت عنوة واحتلالها، وهذا ما أدى إلى استفزاز الدول الكبرى، ذات المصالح في منطقة الخليج، وفي مقدمتها أمريكا وانجلترا خلال بضعة أشهر جرت مطالبات ووساطات بسحب القوات العراقية وتجنب تدخل قوات دولية لإخراج تلك القوات من الكويت، بقيادة أمريكا التي كانت تحشد قواتها وتعد العدة لشن حرب مدمرة تشاركها في ذلك انجلترا، ودول أخرى

وصل عددها لأكثر من ثلاثين دولة ، بينها دول عربية... في كانون الثاني اندلعت الحرب ، وتم تدمير آلة الحرب العراقية إضافة إلى سقوط ضحايا بأعداد كبيرة ، وتدمير البنية التحتية للعراق نتيجة لتباين القدرات والتطور التكنولوجي بين الجانبين.

ومنذ أن دخلت القوات العراقية إلى الكويت فرض حصار شامل على العراق ، الحرب المدمرة من جهة والحصار الشامل من جهة أخرى وتدهور الأوضاع كلها دفعت الكثير من المندائيين للهجرة إلى خارج العراق ، والتي كانت على شكل مجموعات وعوائل بأكملها ، ولكنها هجرة غير منظمة أو بمعنى آخر هجرة عشوائية بدأها شباب متضررين من الذين خدموا بالجيش لسنين عدة تجاوزت للبعض منهم العشر سنوات ، حيث تسرحوا من الجيش ليجدوا أنفسهم قد خسروا كل شيء ، فلا رواتب ولا دار ولا زوجة وأولاد إضافة إلى نسيانهم لمهنتهم وكذلك دراستهم بالنسبة لخريجي الكليات والمعاهد العليا منهم ، هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى فإن مطاردات القوى الأمنية لم تتوقف ضد الذين يحملون أفكاراً محظورة من قبل الدولة.

استمرت الأحوال السيئة في العراق إلى عام ٢٠٠٣ ، حيث إنه في آذار من ذلك العام قادت أمريكا وانجلترا حرباً جديدة مدمرة ضد العراق الجريح بحجة تدمير الأسلحة المحظورة الموجودة لديه والذي تبين لاحقاً أنها مجرد حجج واهية لتدمير البلد ، حيث سقطت الدولة العراقية ودخلت قوات الاحتلال واستباح كل شيء وتم فسخ المجال من قبل تلك القوات للنهابين واللصوص لنهب مؤسسات الدولة كافة بما فيها مدارس الأطفال والمتاحف والبنوك وغيرها الكثير بعدها التفتت عصابات الجريمة والسرقة إلى أعراض الناس وأموالهم ، حيث كثرت عمليات الخطف ومقايسة أهل المخطوف لدفع فدية مقابل إطلاق سراحه.

كما كثرت حالات السرقة والسلب في وضح النهار ، وكان نصيب المندائيين كبيراً من ذلك خاصة أن الكثير منهم يعمل في مهنة الصياغة ، والتي تتطلب

عرض المصوغات في فاترينات زجاجية مغرية للصوص ، الذين لا يجدون صعوبة في سرقتها وقتل أو إصابة صاحبها في حال إبدائه لأي مقاومة ضد اللصوص ، هنا بدأت هجرة واسعة للمندائيين طلباً للأمان ، فمن يملك داراً أو محلاً تجارياً باعها ، ومن يملك مدخرات استفادة منها ، وترك الكثير منهم العراق متوجهين إلى الدول المجاورة له وخاصة سوريا والأردن وبعض دول الخليج الذي ذهب إليها بعض المقتدرين مادياً ليمارسوا أعمالاً تجارية فيها ، وبدأ هؤلاء المهاجرين عنوة من بلدهم بالبحث عن الأشخاص الذين يساعدونهم بالوصول إلى بلدان مقابل مبالغ مادية ، وقد وقع الكثير منهم ضحية للنصابين ، وخسروا أموالاً كثيرة ولم يحققوا أهدافهم.

ومن الدول التي هاجروا إليها بكثرة السويد واستراليا وكندا وهولندا وألمانيا إضافة إلى دول أخرى مثل إنجلترا ونيوزيلندا والنرويج والدنمارك وفرنسا وغيرها ، بالإضافة إلى دفع الأموال للمهربين للمساعدة للوصول إلى بلدان المهجر حصل البعض على مساعدة المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة لمنظمة الأمم المتحدة لتوطينهم في بعض الدول وبأعداد مختلفة لكل دولة وكان العدد الأكبر في أمريكا ، وهنا حصل تشتيت لأغلب العوائل في بلدان المهجر ، حيث توزعت العائلة الواحدة في عدة دول وهذا ما نتج عنه معاناة جديدة للعوائل المندائية.

الجمعيات المندائية في دول المهجر :

لغرض إدامة العلاقات بين العوائل المندائية وتقوية الأواصر فيما بينها تمّ تشكيل جمعيات مندائية في كافة الدول التي يتواجدون فيها ، كما توجد عدة جمعيات في بعض البلدان التي يتوزع فيها المندائيون بين مدن مختلفة وبكثافة عديدة تكون كافية لتشكيل جمعية ، أي إنه في كل مدينة تقريباً يتواجد المندائيون يشكلون جمعية والتي بدأت أعدادها تزداد بازدياد أعداد المندائيين الوافدين ، حيث تمّ وضع نظام داخلي لكل جمعية يتماشى مع الظروف وقوانين كل بلد ، وانضم المندائيون إلى هذه الجمعيات بهمة عالية ودفعوا الاشتراكات والتبرعات لغرض إدامة نشاطات جمعياتهم ونظموا أنفسهم وانتخبوا الهيئات الإدارية للجمعيات... وكانوا يحضرون الفعاليات التي تقيمها الجمعيات مثل الندوات والمحاضرات الدينية والثقافية ، وكذلك الحضور بكثافة إلى المناسبات الخاصة لبعضهم البعض سواء كان في الأفراح والأفراح.

وبالرغم من الاختلاف في بعض وجهات النظر بين البعض ممن يديرون الجمعيات وهذا شيء طبيعي ، إلا أن الهم الأول والأخير والقاسم المشترك بين الجميع هو خدمة المندائية والمندائيين بتقاني ونكران ذات ، وهذه أمور مهمة لكل من يريد أن يعمل في الجمعيات أو يكون عضو في الهيئة العامة لها ، كما أنه لا يحق لأحد أن يسلب حق الآخرين أو يحاسبهم على أساس أفكارهم أو انتماءاتهم السياسية التي يفترض أن لا تتداخل مع عمل الجمعيات وأنشطتها ، لو أخذنا مثلاً على عدد الجمعيات الموجودة في السويد والتي تتواجد فيها جالية مندائية كبيرة والذين وصل عددهم إلى ما يقارب العشرة آلاف شخص (حسب الإحصاء المندائي الذي تمّ إجراؤه عام ٢٠١٦) ، فإنه توجد الجمعيات التالية : (ستوكهولم ، هاننكة ، التعارف ، زيوا ، إسكلستونا ، مالمو ، لوند ، لوند الثقافية ، يوتبورج ، هالسبيرج ، كريخان ستاد ، ساندفيكن ، فاستروس) ، أما في الدول الأخرى فتوجد جمعيات مندائية في كل من (الدنمارك ، فنلندا ، النرويج ، ألمانيا ،

هولندا، إنجلترا، أمريكا، أستراليا، كندا، نيوزلندا)، كما توجد جمعيات مندائية في بلدي الانتظار المجاورة للعراق وهما سوريا والأردن.

وهذه المرحلة يسميها البعض من المتخوفين من الانصهار في المجتمعات الجديدة (مرحلة الضياع) للمندائيين، بينما يسميها البعض الآخر (مرحلة الأمان والمحافظة على الحياة) وبالتالي المحافظة على المندائية (كديانة) من الاندثار... أما رجال الدين المندائيون فقد تبعدوا أبناء ديانتهم إلى الدول التي هاجروا إليها، وأخذوا يمارسون دورهم بأداء الطقوس الدينية الضرورية لعامة المندائيين، وخاصة طقس الصباغة والمهر المندائي للمتزوجين، وكذلك الطقوس المطلوبة للمتوفين، وقد أسفرت جهود عامة المندائيين ورجال دينهم عن اعتراف بعض الدول (مثل السويد، الدنمارك، فنلندا، أستراليا، وغيرها)، بهم كديانة وطائفة لها خصوصيتها، وأخذت بعض الجمعيات بتأسيس مدارس لتعليم المندائية (لغة وتراث وثقافة).

أما على صعيد الأفراد فقد أدخلت جميع العوائل أبناءها في المدارس مثلهم مثل الآخرين، لأن التعليم في كافة بلدان المهجر يُعتبر إلزاميًا، وواصل العديد من الأبناء من الجنسين تعليمهم وحصل الكثير منهم على شهادات جامعية مرموقة، أهلتهم لدخول معترك الحياة بقوة وثبات... أما الذين تخطوا مرحلة الشباب فقد سارع الكثير منهم لتعلم لغة البلدان التي هاجروا إليها، كما قام البعض منهم بتأسيس مشاريع تجارية مثل محلات الصياغة والمجوهرات ومحلات المواد الغذائية ومحلات أجهزة الكمبيوتر والهواتف والمطاعم وغيرها.

كما استفاد البعض ممن يحملون الشهادات العليا من وطنهم الأم بالاستفادة منها للتوظيف في بلدان المهجر كالأطباء والمهندسين والمدرسين، الكثير من المندائيين الذين هاجروا إلى أستراليا وكندا وأمريكا وإنجلترا شعروا بالراحة في الكثير من مفاصل الحياة، وذلك لأن اللغة الرسمية لتلك الدول هي الانجليزية

والتي درسها أغلب المندائيين في مدارس البلد الأم ، ويعتبرونها لغة يسهل تعلمها.

أما في دول أخرى كالسويد مثلاً فإن الكثير من المندائيين يفضلون الوصول إليها (رغم قساوة فصل الشتاء هناك) ، وذلك لأنه في فترة هجرة المندائيين بكثافة كانت السويد تتساهل كثيراً في منح الإقامة الدائمة للكثيرين منهم ، وكذلك يحصلون على الجنسية السويدية بعد سنين عدة بدون تعقيدات أو متطلبات كما في دول أخرى ، كما إن السويد تعتبر من الدول المثالية بالانضباط وتطبيق القانون على الجميع (الجميع متساوون مثل أسنان المشط) ، وكذلك لأنها توفر التعليم والرعاية الصحية مجاناً ، كما أنها تعتني بكبار السن عناية فائقة وغيرها من الامتيازات التي قد لا تكون متوفرة في بعض البلدان.

في الختام؛ لو أردنا تحديد أسباب الهجرة فإنه بالإمكان تلخيصها بما يلي :

١- الحروب وما خلفته من دمار ، وتدمير الشباب من الخدمة العسكرية طويلة الأمد.

٢- الحصار الدولي الشامل الذي فرض على العراق بعد أحداث الكويت ، وما خلفه من تجويع وشحة الرزق وأزمة سكن وغيرها من المآسي التي جعلت الكثيرين يتنمرون من العيش في العراق.

٣- كثرة أعمال العنف والسطو المسلح لغرض السلب والنهب والخطف والقتل.

٤- التصفيات الجسدية التي طالت الكثير من المندائيين حملة الأفكار السياسية والأساتذة وغيرهم.

٥- الملاحقات الأمنية للكثيرين وما ينتج عن ذلك من مضايقات.

٦- الخوف من العواقب للذين يرفضون الانضمام إلى الحزب الحاكم قبل عام ٢٠٠٣ (حزب البعث) ، حيث إنه في أحيان كثيرة كانت تمارس ضغوطات ضد موظفي الدولة والأساتذة والضباط للانضمام إلى ذلك الحزب.

- ٧- التهديد العلني بالقتل وتنفيذ البعض من تلك التهديدات ، مما جعل الكثير من العوائل تترك العراق تاركة ورائها كل شيء.
- ٨- قلة الخدمات أو انعدامها في بعض مفاصل الحياة المهمة دون أن تلوح في الأفق بوادر لتوفرها.
- ٩- أمور أخرى تعاضمت ؛ منها معيشية ومنها نفسية ومنها الخوف من المستقبل المجهول.
- ١٠- تسلط الأحزاب الدينية بعد تغيير نظام الحكم عام ٢٠٠٣ مما شجع العناصر التكفيرية والمتطرفين على ممارسة أعمالهم الإجرامية ضد الأقليات الدينية.

نادي التعارف :

في سبعينيات القرن الماضي تمّ تأسيس نادي ترفيهي وثقافي واجتماعي لأبناء طائفة الصابئة المندائيين باسم (نادي التعارف) ، وكان يتولى إدارته المرحوم الأستاذ نعيم بدوي ومجموعة من أبناء الطائفة ، وقد تنقل مقر النادي بين عدة بنايات في مناطق مختلفة من العاصمة بغداد ، إلى أن استقر في منتزه الزوراء ضمن مساحة خضراء كبيرة وبنايات حديثة وقاعة كبيرة للمناسبات يتم استخدامها في فصل الشتاء... أما في فصل الصيف فيكون إحياء المناسبات في حديقة غناء.

وقد توالى على إدارة النادي هيئات إدارية عدة تمتاز بالكفاءة وحسن الإدارة والحرص والأمانة ، بعد الأستاذ نعيم بدوي تولى رئاسة الهيئة الإدارية للنادي الشاعر الكبير المرحوم عبد الرزاق عبد الواحد ، ثم تلاه الأستاذ الفاضل همام عبد الغني ، وأخيراً السيد مبارك حيال مريبط ، وكان من ضمن نشاطات النادي إضافة إلى الحفلات الكبيرة والكرنفالات عقد الندوات الثقافية والأدبية وغير ذلك من النشاطات التي تحفز العوائل للحضور ، والتي كان لها الأثر الفعال بالترفيه عن العوائل وكذلك لزيادة التعارف بين الأولاد والبنات مما أثمر عن زواجات كثيرة.

وكانت الهيئات الإدارية تُنتخب من قبل الهيئة العامة للنادي بأسلوب ديمقراطي حضاري ، وبحضور قضاة ومحكمين ، واندفع المندائيون بأعداد غفيرة للاشتراك والتواجد مع عوائلهم لحضور نشاطات النادي ، وكانت الخدمات الكبيرة التي تقدمها الهيئات الإدارية وجودة ما يقدم من مأكولات وغيرها وكذلك الفعاليات والنظام الدقيق المتبع كلها عوامل مشجعة للحضور والتواصل من قبل أعضاء النادي وضيوفهم.

كما اشترك في عضوية النادي (عضو شرف) عدد من الشخصيات العراقية المرموقة إضافة إلى حضور البعض الآخر من الشخصيات في أيام محددة

يُسمح بها بحضور الضيوف مع مضيفيهم من المندائيين ، وقد تبرع عددٌ من الفنانين المشهورين لإحياء الحفلات مجاناً أو مقابل أجور رمزية.

لقد تمّ تدمير منشآت النادي وفقدت موجوداته بعد التغيير الذي حصل في العراق عام ٢٠٠٣ ، والذي كان نتيجة عمليات عسكرية قادتها أمريكا ، بالإضافة إلى هذا النادي كان هناك نادي باسم نادي التعارف في مدينة البصرة، تأسس في سبعينيات القرن الماضي ويقع هذا النادي في منطقة الخورة المشهورة شهرة واسعة على ضفاف شط العرب ، والذي تولى إدارته هيئات إدارية كفوءة مثلما هو الحال في نادي التعارف في بغداد ، بحيث كانت الهيئة الإدارية تتنافس في نشاطاتها ما يقدم من نشاطات وفعاليات في نادي التعارف في بغداد ، كذلك كانت هناك تقدم أفضل الخدمات المقدمة من نوادٍ أخرى ضمن مدينة البصرة مثل نادي الميناء الشهير وغيره.

وكان يتردد على هذا النادي شخصيات بصراوية معروفة وشخصيات خليجية مهمة ، وقد تطور النادي تطوراً كبيراً ، وكانت البصرة مشهورة بلون الغناء وطريقة الأداء والموسيقى المحببة للنفوس ، حيث إن من عاش في البصرة يتذكر رقصة الهوى والصفكة البصراوية ورقصة الخشابة ، ولو أعدنا النظر لما كان يقدم من خدمات في النادي سواء في بغداد أو البصرة ؛ والأعداد الغفيرة للمندائيين الذين يتواجدون والتي كانت منشآت النادي لا تستوعبهم في أيام الكرنفالات التي تقام في الأعياد والمناسبات الرسمية فإنه في حقيقة الأمر لم تستطع الجاليات المندائية في بلدان المهجر حتى الآن أن تؤسس نادياً بمستوى نادي التعارف في الوطن الأم.

الوضع الجديد بعد الهجرة :

لقد هاجر المندائيون هجرة قسرية من وطنهم العراق الذي عاشوا فيه منذ آلاف السنين حيث غادروه مكرهين إلى أرض الله الواسعة طلباً للأمان (يا روح ما بعدك روح) مضحين بالغالي والنفيس، واختاروا هذه المرة وبذكاء بلدان متقدمة ومتطورة حضارياً، ولم يختاروا الانزواء والابتعاد عن مراكز الحضارة كما فعل أجدادهم في الماضي، وقد يكون الأجداد لم تتوفر لهم فرصة الاختيار الأفضل نتيجة لمحدودية إمكاناتهم المادية ولصعوبة المواصلات وكذلك نتيجة المضايقات التي جعلتهم مبتعدين وغير منفتحين على الآخرين.

بعد الهجرة استقر المندائيون في بلدان عدة وتقلص عددهم في العراق إلى حد بعيد، ومع ذلك بقوا متماسكين محافظين على دور عبادتهم (مناديتهم) سواء في بغداد أو في مدن العراق الأخرى، وقد طوروا مناديتهم وحافظوا على تشكيلاتهم التي تعزز العلاقات بينهم... وبعد عام ٢٠٠٣ أصبح للطائفة نائباً في البرلمان العراقي إضافة إلى أكثر من سفير وكذلك عضو في مجلس محافظة بغداد، كما تمّ ذكر الصابئة المندائيين في الدستور ضمن مكونات الشعب العراقي.

وفي هذه الفترة الحرجة عمل رئيس الطائفة الريش أمة ستار جبار حلو بقوة وثبات، وعزز علاقاته وطورها مع المراجع الدينية المختلفة وكذلك مع مسؤولي الدولة، وكان شخصية بارزة ومحترمة من قبل الجميع، وبذلك استطاع المحافظة على المندائيين الذين فضلوا البقاء في العراق على الهجرة، كما استطاع رئيس الطائفة ونتيجة لحنكته وحكمته أن يحل الكثير من الإشكالات التي تحصل بين أبناء الطائفة سواء داخل العراق أو خارجه، ومن ضمن نشاطاته القيام بجولات مكوكية لدول المهجر للالتقاء بالمندائيين والاستماع لهم، والاطمئنان على أوضاعهم.

إضافة إلى المندائيين الذين هاجروا من العراق؛ دفعت الظروف الصعبة للمندائيين في إيران لهجرة الكثيرين منهم، ولكن أغلبهم استقر في أستراليا

وأمریکا ، وفي الوقت الحالي توجد بعض الاختلافات في وجهات النظر بين المندائيين ، وهذه حالة طبيعية والتي أبرزها الاختلاف حول إجراء طقس الصباغة (التعميد) فهناك من يفضله في الأحواض داخل القاعات المغلقة ، خاصة في البلدان ذات الأجواء الباردة في معظم أيام السنة ، وهناك من يفضله في مياه الأنهار والبحيرات ، والجهود مستمرة لتقريب وجهات النظر في هذا الموضوع ، مما ينعكس بالإيجاب على المحافظة على وحدة العمل المندائي باعتبار أن المندائيين عائلة واحدة.

البحث الثاني

عاداتهم، تقاليدهم، لباسهم،

أعراسهم، أعيادهم، مجالس العزاء

إن الكثير من العادات والتقاليد يفرضها المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، والمثل العراقي يقول (من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم)، لقد عاش الصابئة المندائيون أجيالاً وأجيالاً في وطنهم الأم العراق، لذا فإن لباسهم لا يختلف كثيراً عن لباس سائر العراقيين، حيث كان رجالهم يلبسون الصاية والبالطو والعقال والكوفية البيضاء أو الحمراء، وكان العقال الأسود هو السائد في لباسهم، وبعض وجهائهم يلبسون العقال المقصب بالذهب.

وقد طور الرجال لباسهم وهئتهم وأخذوا يلبسون الملابس الغربية ويقلدون أحدث الموضات العالمية، أما نسائهم فكان يلبسن العباءة والشيلة، والكبيرات بالسن منهم يلبسن العصابة، قطعة قماش تلف على الرأس بما يشبه العمامة، وهناك أيضاً السرسوحة والبوشية والتي لم تعد تلبسان من قبل نساءهم، كما تخلت الكثيرات عن لبس العصابة، وبقي البعض منهن متمسكات بلبس الشيلة والعباءة إلى يومنا هذا.

ويحدثنا التاريخ عن صابئة حران حيث كانوا يلبسون (القبابي) في رؤوسهم، وهذه تشبه الطربوش، ويقال إنها فرضت عليهم لكونهم من أهل الذمة، وقد يكون ذلك غير صحيح... في الوقت الحاضر لم يعد لهم لباس خاص بهم، ما عدا رجال دينهم الذين يلبسون ملابس مميزة في البعض منها، ولكنها غير موحدة للجميع، فمنهم من يلبس العقال والكوفية والصاية والبالطو، ومنهم من يلبس الملابس الأفرنجية ويضع على رأسه قبعة أو يلف رأسه بكوفية بيضاء بما يشبه العمامة، ومنهم من يلبس ملابس بيضاء من ابتكاره وبالاتفاق مع خياط الملابس.

وبشكل عام فإنهم يميلون إلى اللون الأبيض لأن الملابس الدينية (الرسته- التي تتألف من خمسة قطع ، أربعة منها تكون من القماش الأبيض وهي السروال والقميص والعمامة والنصيفة ، أما القطعة الخامسة فتحاك من الصوف الأبيض) ولا يجوز أن يكون لون الرسته غير الأبيض بأي حال من الأحوال ، لأنهم يعتبرون اللون الأبيض مشابهاً للنور...

وهذا نص من كتاب المندائيين (الكنزا ربا) يأمر المندائيين بذلك : (البسوا الأبيض ، واخسوا الأبيض ، ألبسة الضياء وأردية النور ، واختموا بعمائم بيض كالأكاليل الزاهية ، وانتطقوا بأحزمة الماء الحي التي ينتطق بها الأثريون).

ولغرض توحيد شكل ملابس رجال الدين يتطلب الأمر تشكيل لجنة متخصصة في هذا المجال تقوم بتصميم ملابس خاصة لكل مرتبة دينية (الترميذا والكنزبرا والريشما) ، وبإمكان هذه اللجنة أن تستعين بمصممي أزياء بعد إطلاعهم على المتطلبات الدينية ، وهذا يعطي الهيبة لرجال الدين ويجعل من اليسر التعرف على درجاتهم الدينية من خلال ملابسهم...

الملابس الدينية المنوه عنها (الرسته) لا يقتصر لبسها على رجال الدين فقط ، بل إنها تلبس من قبل جميع المندائيين أثناء إجراء الطقوس الدينية ، فمثلاً عند إجراء مراسيم المهر يلبسها العروسين ، وكذلك تلبس أثناء طقس الصباغة ، وفي مناسبات أخرى ، وفي جميع الأحوال يجب أن تلبس الرسته بأجزائها الخمسة كاملة دون نقصان ، وأن يربط الحزام (الهميانة) بصورة صحيحة ، وتلف العمامة بالطريقة الصحيحة أيضاً.

أما في حالة الوفاة فإن لبس الملابس البيضاء واجب دينياً ، والتي تسمى في هذه الحالة (قماشي) أو الكفن ، والتي هي نفس القطع الخمسة التي تتألف منها الرسته ، في حالات الوفاة الاعتيادية ، وعندما يكون الإنسان مقبلاً على الوفاة (رجلاً كان أم امرأة) بسبب المرض أو الشيخوخة ؛ يتوجب على ذويه أن يطمشوه (يغسلوه) بماء يجلب من النهر ، أو أي مصدر آخر للماء الجاري (إن

أمكن ذلك)، ويلبسوه الملابس البيضاء، وغالبًا ما يقوم بهذه المهمة رجل دين أو أي شخص آخر له إمام ومعرفة بالأمور الدينية، وذلك لكي يكون لبس الملابس بشكلها الصحيح.

بعدها يسجى على فراش نظيف ومغطى بقماش (شرشف) أبيض ويكون اتجاه وجهه نحو جهة الشمال، ويبقى المحيطين به يراقبونه إلى أن يفارق الحياة، أما إذا توفي الشخص دون أن تتم له هذه الإجراءات ولأي سبب كان؛ ففي هذه الحالة يجب أن تعمل له طقوس خاصة وتسمى (مسقثا)، وهي سلسلة إجراءات فيها نوع من الصعوبة، لأنه حسب المعتقد المندائي أن هذه الإجراءات (لبس الملابس البيضاء) تكون واجبة لكي تعرج نفس (نيشمثا) المتوفى إلى عالم الأنوار... (راجع الفصل الخامس، البحث السادس).

وبعد الوفاة يتم تكليف أحد رجال الدين بإقامة طقس اللوفاني (الثواب) على روح المتوفى ولمدة خمسة وأربعين يومًا متواصلة، كذلك يتم إجراء هذا الطقس في جميع المناسبات الدينية (راجع الفصل الخامس، البحث السابع).

ورغم التغييرات التي طرأت على حياة المندائيين فإنهم لازالوا مواظبين على أداء هذه التقاليد والتي يعتبرونها تعاليم دينية ملزمة، يدفعهم لذلك حبهم لموتاهم ولقناعتهم بهذه التعاليم ولإيمانهم بالحياة الثانية الأبدية التي يعيشها الإنسان بعد أن يفارق هذه الحياة الفانية.

لقد تعود المندائيون وخاصة نسائهم على لبس الملابس السوداء تعبيرًا عن الحزن على المتوفى وكذلك عند حضورهن إلى مجالس العزاء للمتوفين من الأقارب والأصدقاء، وهذه العادة مكتسبة من المجتمع المحيط لأن التعاليم الدينية المذكورة في كتاب (الكنزا ربا) تدعو إلى لبس الأبيض وأن رجال الدين يلحون على ذكر ذلك في جميع المناسبات، وفي الوقت الحاضر بدأت بعض النسوة بالتخلي عن لبس الأسود عند حضورهن مجالس العزاء كما تقوم البعض منهن بوضع الشال الأبيض على رأسها، وقد يكون لبس الأسود من قبل أهل

المتوفى يأتي تماشيًا مع العادات السائدة في المجتمع ، ولأنهم لا يحبون أن يميزوا أنفسهم عن باقي أبناء شعبهم بأي حال من الأحوال.

مجالس العزاء لها ميزتها الخاصة إذ تقام غالبًا في (المندي) وحاليًا في بلدان المهجر تقام في مقرات الجمعيات المندائية ، أو في قاعات تستأجر لهذا الغرض، في السابق وعندما كنا في العراق كانت تقام مجالس العزاء (الفاحة) لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث يقدم الطعام للمعزين وبكرم، حيث تتم دعوة الجميع لتناول الطعام (الثواب) ودائمًا ما يفضلون السمك المسكوف لأن تحضيره سهل ولا يحتاج إلى إجراءات دينية صعبة، كذلك يقدم الثواب في اليوم السابع للوفاة، وفي الختمة بعد ٤٥ يوم على الوفاة.

وفي الآونة الأخيرة خففت مراسيم تقديم الطعام في الفواتح كثيرًا، حيث يحضر الغالبية من المعزين إلى القاعة التي يقام فيها مجلس العزاء، ويقدم لهم واجب الضيافة مثل القهوة والشاي والتمر مع الجوز، لأن الغالبية العظمى أخذت تتفد ما يطلبه رجال الدين منهم، حيث إنهم يقولون دائمًا إن إرسال مبالغ مالية إلى العوائل المحتاجة ماديًا (المتعفين)، والذين تقطعت بهم السبل في دول الانتظار وكذلك في العراق يكون أثوب للمتوفى.

أما أعراسهم فتقام فيها الحفلات ببذخ واضح، حيث يقوم أهل العروسين بتوجيه الدعوة للأقرباء والأصدقاء لمشاركتهم أفراحهم، وقد لاحظت في بلدان المهجر أن حفلات الزواج مكلفة ماديًا؛ في السابق كان أهل المحلة يشاركون في تحمل جزء من تكاليف الزواج، حيث يساهمون بتوفير بعض الطعام واستقبال الضيوف القادمين من المدن الأخرى، حيث لا يُقتصر مبيتهم وضيافتهم على عوائل العروسين بل يشاركون الآخرون في ذلك، وهذه العادات التي كانت سائدة في الكثير من مناطق العراق.

أما عن مجالسهم فقد كانوا في الماضي يعيشون في العديد من أقضية ونواحي العراق الحبيب مثل سوق الشيوخ والحلفاية (ناحية المشرح) ومسيعدة وقلعة

صالح وغيرها... ومن مشاهداتي لهم في ناحية المشرح وأثناء فصل الصيف كان لوجهائهم وأخبارهم مجالس على ضفاف النهر ، يفرشونها بأفضل ما عندهم ويصنعون القهوة ويقدمونها لضيوفهم كما يقدمون وجبة العشاء ، وفي هذه المجالس تكثر سواالفهم ويتطارحون الأشعار والقصص والمثل والقيم والأمثال والحكم ، بعض أحاديثهم اجتماعية وبعضها سياسية ، كما يتم خلال تلك المجالس طرح المشاكل القائمة بين الأفراد أو العوائل لكي يساهموا بحلها.

توجد للمندائيين مراكز ثقافة متعددة لها إصدارات مطبوعة ، وتقوم هذه المراكز بتنظيم المناظرات والمحاضرات الثقافية والدينية وأحياناً السياسية ، ومن العادات التي كانت سائدة بين المندائيين هو إنهم إذا كانت مجموعة منهم تعمل في محلات تجارية تكون متقاربة ، وإذا حدثت حالة وفاة لدى أحدهم ترى الجميع يُغلقون محلاتهم ويشاركون في جنازة المتوفين وفي هذا دلالة واضحة على التكاتف والتعاقد والتكافل الاجتماعي الرائع والمحبب للنفوس.

كما كانت لديهم عادة متبعة في عيدهم الصغير حيث إنه في صباح ذلك اليوم تقوم جميع العوائل بتحضير التمن (الأرز) والروب (الخاثر) ليفطروا به ، تقوم العوائل بزيارة بعضها البعض وفي كل بيت يأكلون قليلاً من أكله للتعبير عن المشاركة والابتهاج بالعيد...

علماً أن هذا العيد يسمونه (عيد الازدهار) لأن الأرض ازدهرت في هذه المناسبة عند الخلق والتكوين بالأشجار والأثمار والحيوانات ودبت فيها الحياة ، وهنا الأرز يرمز إلى الحبوب والإنبات ، أما الخاثر فيرمز إلى الثروة الحيوانية ، الأرز والخاثر لونهما أبيض رمزاً للخير الوفير والسلام والمحبة والنعمة التي أنعم بها الله على خلقه.

أما في عيدهم الكبير فلديهم معتقد الاعتكاف (الكراص) في البيوت وعدم الاختلاط مع الآخرين لمدة ٣٦ ساعة بعد أن يجهزوا بيوتهم بما لذ وطاب من مأكّل ومشرب ، حيث إنه في هذه الفترة لا يجوز لهم الخروج من البيت أو

التزاور حتى ولو مع جيرانهم، وهذا اعتقاد قديم يفسره رجال الدين للناس على أنه هناك ثلاث ملائكة يحرسون هذا العالم يذهبون مثل لمح البصر في هذه الفترة من السنة إلى عالم الأنوار، حيث تستغرق رحلة ذهابهم وإيابهم ومكوئهم هناك مدة ٣٦ ساعة، وتقارن سرعة حركتهم بسرعة وصول ضوء الشمس إلى كوكب الأرض.

أما خطوات الزواج عندهم؛ فقد كان في السابق إذا أرادت العائلة تزويج أحد أولادها فإنهم يختارون العائلة التي يريدون مصاهرتها وتقوم أم الولد باختيار الفتاة التي تناسب ولدها، وبعدها يقع الفأس بالرأس.

تطورت الأمور وأصبح الولد يختار الفتاة التي يريد الارتباط بها ثم تقوم أمه بزيارة أهل الفتاة وتطلب الفتاة من أمها، وبعد عدة أيام يقوم خلالها أهل الفتاة بالسؤال عن الولد وأهله، ويعطون جوابهم بالرفض أو الموافقة، فإذا كانت هناك موافقة؛ يذهب أهل الولد إلى أهل الفتاة مصطحبين معهم عدد من الوجهاء ورجل دين (إن أمكن ذلك)، وتتم خطبة الفتاة والاتفاق بين العائلتين على بعض التفاصيل فيما يخص فترة الخطوبة وموعد الزواج.

في الوقت الحاضر أصبحت الأمور أكثر تطوراً، وتغيرت الكثير من العادات التي كانت سائدة، وأتيح للشباب من الجنسين الالتقاء في فترة الدراسة في المعهد والجامعة أو في مواقع العمل، وأثناء اللقاءات في النوادي حيث يتعرفون بعضهم على البعض الآخر، ومن ثم يتفقون فيما بينهم على الكثير من الأمور ليقوموا بعدها بإخبار أهلهم.

ومازال المندائيون في بلدان المهجر متمسكين بهذه الأمور، ولكن البعض أخذ يتساهل فيها كثيراً إلى درجة عدم الالتزام بالثوابت الدينية الواجبة، وشخصياً أعرف عدد من الشباب لم يضعوا اعتباراً لعقد الزواج عند رجال الدين، بل يكتفون بالعقد الرسمي، عالماً أن الغالبية العظمى من المندائيين يرفضون ذلك ويستهنونه ويرفضون ارتباط أبنائهم برابطة الزواج من الأبناء الذين لم يعقد

والديهما عند رجل الدين ، بل اكتفوا بالعقد الرسمي ، ويضربون مثلاً غير محبب يمثل هذه الزواجات.

أما عن موضوع نحر الطيور الداجنة والحيوانات التي حلل الله أكلها فهذه لها حكاية نقصها بإيجاز ، عندما يريدون ذبح طير يجب أن يُذبح من قبل رجل دين أو شخص مؤهل دينياً ، ويسمى (حلالي) ، والذبح محلل طيلة أيام الأسبوع وإن كان يوم الأحد المبارك لديهم هو اليوم المفضل للذبح ، ولا يجوز الذبح في أيام محددة من السنة ، وهذه الأيام تسمى (مبطلات) جمع مبطل ، وذلك لأنها تعتبر أيام صيام لا يجوز فيها الذبح.

وعلى سبيل المثال إذا أريد ذبح دجاجة إلى امرأة ؛ تقوم هذه المرأة (التي يشترط أن تكون غير حائض) بالتأكد من عدم وجود أي تشوه بالدجاجة وتنظيف رجليها بالماء ، ورش قليلاً من الماء على ريشها ، مع ذكر اسم (الحي العظيم- الله) أثناء هذه الخطوات ، وتأتي بها ملفوفة بقطعة قماش بيضاء وتسمى (كدادة ٢٧) إلى من سيقوم بذبحها ، والذي يكون مستعداً ومرتدياً ملابسه الدينية (الرسته) ويقف بجانبه وممسكاً بكتفه شخص مؤهل دينياً ويسمى (إشكندة ٢٨) أي الشاهد ، يمسك الذبّاح بيده سكيناً من حديد سبق له أن سخنها على النار لغرض تعقيمها ، ويلف على قبضتها غصن من شجرة الزيتون أو شجرة الغرب ، يمسك الذبّاح الدجاجة بيده اليسرى من أسفل جناحيها ، والجهة الخلفية من عنقها ، ويبدأ بنحرها وهو يردد بوثة دينية يبرئ نفسه من خلالها من خطيئة الذبح.

أما الشاهد فيردد بعده : (أنا شاهد... أنا شاهد... أنا شاهد) ، بمعنى أنني سوف أشهد لك في يوم الحساب أنك لم تذبح بطراً أو لأجل أن تقتل الدجاجة عمداً ، وأنت أكملت التعاليم الدينية الواجبة ، بعد أن يكمل عملية الذبح يلف الدجاجة بقطعة القماش البيضاء لكي لا تمس الأرض ، مما قد يؤثر على طهارتها ، ويسلمها لصاحبها.

وعن كلمة (كدادة) أذكر أنه تحدث أحد الباحثين وهو الأستاذ صبيح مدلول قائلاً إن اسم بغداد تعني (أرض الحماية)، وقد قال ذلك في أحد المؤتمرات واستحسن عدد من الحاضرين هذا القول ، ولكن لم يتفق معه عدد كبير من الأساتذة الحضور المختصين.

أما عن أكل المندائيين للأغنام؛ فهم يأكلون الذكور منها دون الإناث، وذلك لأن الديانة المندائية تحرم أكل المشوه والحامل والحائض والتي أجهضت، ولربما يكون تحريمها لسبب اقتصادي، إضافة إلى السبب الديني وذلك لأن الإناث ولادات ويدرن الحليب، والذكور لا مشاكل اقتصادية في ذبحها، لأن ذكر واحد منها أو اثنين يكفي لأداء المهام لقطيع كامل من النعاج (أي لتلقيح النعاج لتصبح حوامل).

أما الأبقار فهم يربونها ويعتنون بها، وفيما مضى من الزمن القريب كانت أغلب البيوت المندائية تربي أبقاراً حيث توفر لها مكاناً مناسباً (مراح) وكانوا يستفيدون من حليبها ومشتقاته، وكذلك من مخلفاتها التي يجففونها على شكل أقراص وتسمى (مطال) والذي يستخدم كحطب، شأنهم في ذلك شأن الآخرين من العراقيين.

وعلى سبيل الطرفة... سأل ضابط تدقيق الجوازات في المطار أحد الإخوة المصريين المسافرين عن المهنة التي يزاولها في العراق، فكانت إجابته أنه يعمل في صناعة الأقراص النارية في قضاء المحمودية، وقد فهم الضابط من ذلك أنه يعمل في إحدى المنشآت الصناعية الموجودة في تلك المنطقة أو التي تنتج الأعتدة للأسلحة النارية، ولكن الرجل أجابه: (كلا... يا بيه أنا أمرح في البقر ومن مخلفاتها أصنع الأقراص التي تستخدم كمصدر حراري بعد أن يتم شعلها وهي جافة)... ففهم الضابط أنه يصنع (المطال).

وعن ذبح الأبقار فهم يحرمون ذلك لأسباب دينية أو اقتصادية (الله أعلم)، في بلدان المهجر يصعب على المرء أن ينحر (ولو دجاجة) مهما كانت ديانته أو

المناسبة التي يريد أن يحييها ، وذلك لأن القانون يمنع الذبح (سواء الدواجن والأنعام بأنواعها) أو تربيتها خارج الأماكن المخصصة لذلك... ومن يجازف ويخالف هذه التعليمات فإن حسابه يكون عسير...

وأنا شخصياً أعرف بعض الرجال والنساء الملتزمين دينياً حرّموا أنفسهم من أكل اللحوم واكتفوا بأكل الأسماك والخضروات فقط، أما الذين ليس لديهم التزام بكافة التعاليم الدينية فإنهم سايروا الظروف واكتسبوا الكثير من عادات وتقاليد البلدان التي هاجروا إليها ، ومن الأمور التي يتميز بها المندائيون هي محبة للآخرين أن صداقتهم مع من يصادقونه بمعنى الكلمة وأن جارهم بمثابة الأخ لهم يشاركونه في السراء والضراء ، ويحافظون عائلته ويحترمونها ، ويعاملون زوجة الجار معاملة الأخت وأبناءه كأبنائهم ، وهنا تبرز عندهم وبوضوح قيم الشرف والفضيلة ، مثلهم في ذلك مثل غالبية أبناء الشعب العراقي والعوائل العراقية الفاضلة الكريمة.

الدين الصابئي : الزواج مسؤولية كل صابئي وصابئية :

هل من حلول لتشجيعه في الوقت الراهن ؟... من الأخت خلود فاضل غضبان وردتنا مساهمة تناولت فيها قضية الزواج في الوقت الراهن والعراقيل الجمة التي تقف حائلاً دون تحقيقه ، وفي مقدمتها الظروف الاقتصادية الصعبة التي نعيشها جراء الحصار المفروض علينا ، وتفشي البطالة بين الشباب وكذلك مغادرة أعداد كبيرة من شبابنا وعوائلنا أرض الوطن إلى بلاد المهجر...

كل هذه الأسباب وربما هناك أسباب أخرى أدت إلى تراجع واضح في وتيرة الزواج لدينا ، وهي تؤكد أن أعداد الفتيات غير المتزوجات أكثر بكثير من أعداد الشباب الموجودين داخل الوطن ، أليس هذا بحد ذاته يعتبر من الأسباب الرئيسية المسببة لهذه المشكلة الخطيرة ، وتذكر كذلك في متن مساهمتها أن بعض من شبابنا قد اقترن بفتيات من خارج الطائفة ، وكذلك بالنسبة لبعض الفتيات.

وتطرح الأخت خلود بعض المقترحات التي تراها تساعد في إيجاد بعض الحلول لهذه المشكلة ، ومنها :

- تكوين لجنة مهمتها وضع استمارات خاصة بالزواج تتضمن معلومات كافية عن الشباب والشابات (الاسم الرباعي- سنة الولادة- التحصيل الدراسي- الوظيفة- العنوان الصحيح)... ثم بعدها تطرح المشاكل التي تعترض سبيل الزواج ضمن الاستمارة ، وتوزع الاستمارات ثم تجمع وتفرز .

- إيجاد صندوق للتبرعات والهبات مخصص لهذا الغرض ، أي مساعدة شابين على الزواج.

- الاتصال بالجمعيات المندائية في المهجر والتنسيق معها لهذا الغرض .

- عقد ندوات ولقاءات شبابية في نادي التعارف أو في المندي أو في الكليات ، هدفها تعزيز أواصر الصداقة بين شبابنا وشاباتنا ، وإيجاد فرص مناسبة تقضي إلى حالة الزواج.

- تتقيف وتوعية فتياتنا ألا تكون طلباتهن غير منطقية وبعيدة عن الواقع ومرهقة لكاهل المتقدم للزواج.

هذا ما طرحته الأخت خلود فاضل غضبان من آراء ومقترحات تخص مشكلة من أبرز المشاكل التي تواجه المندائيين في الوقت الحاضر.

وهنا شرح تفصيلي عن قدسية الزواج المندائي كتبه الباحث أمين فعيل ، توضيحاً أميناً صادقاً لمزيد من المعرفة والإطلاع:

الزواج رابطة قوية بين الزوجين ونظام اجتماعي يرقى بالإنسان ويرتفع به من مكان الوحدة والانفراد في أحضان السعادة وأنس الاجتماع، وفيه ترويح للنفس ويبعدها عن السامة والملل ، فهو عماد الأسرة التي منها يتكون المجتمع الإنساني ، وبه حفظ كامل للنوع يتدرج في مدارج الرقي والكمال ، بالتنازل الشريف بعيداً كل البعد عن الزنا، لأن الزنا لا يحفظ هذا النوع من الانقراض، وإن حفظه في ظل حياة وضعية متفككة الأوصال يلفظها المجتمع السليم ، ويأبأها العقل المستنير ، وأحلى ثمرات الزواج ذرية صالحة تقرر بها العين وتكون مدراراً لحياتهما، ونوراً يسعى بين أيديهما، ومما لا ريب فيه أن نهر الحياة الاجتماعية خارج من ينبوع العائلة، إذ أن الأسرة هي العين الزاخرة والمفتوحة دائماً دون أن تتضب أبداً ، لأنها تمتلئ من جداول شقتها يد العناية شقاً، وجعلتها في مأمن من أن تمسها يد البشر بضرر.

ونظراً لأهمية الحياة الزوجية في الأديان السماوية لم تهمل أمر تنظيمها ، ووضعت لها حدوداً تكفل السعادة فيها، لقد خص الزواج بالكثير من النصوص الدينية والحكم والوصايا، فأول وصية نطق بها الملاك هيبيل زيوا لآدم الزوج وحواء الزوجة هي: (تزوجوا واستقروا منكم سيزداد العالم)، ولم يقف عند ذلك بل راح يحث ويشجع على الزواج، وإليك نص من الكنزا ربا يقول:

(أيها الرجال العازفون عن النساء ، أيتها النساء العازفات عن الرجال ، هل وقفتم على ساحل البحر يوماً ؟ هل نظرتن إلى السمك كيف يسبح أزواجاً ؟ هل

نظرتهم إلى السماء ، أما رأيتم الحمام تطير أزواجًا ، هل سعدتم إلى ضفة
الفرات العظيم ؟ هل تأملت الأشجار واقفة تشرب الماء على صفائه وتثمر ؟
فما لكم لا تثمرون ؟ أهلا نظرتهم إلى الأنهار اليابسة كيف تذبل الأشجار على
شطآنها وتموت ؟ كذلك أنتم أيها العزابه ستموتون ، أيها الآباء أقيموا
أعراسًا لأبنائكم ، وأقيموا أعراسًا لبناتكم ، وآمنوا بربكم... إن العالم إلى
زوال).

ويتوقف الزواج على التوافق بين الزوجين وإلا فقد يصيبه الفشل بسبب انعدام
التوافق بين الزوجين ، والفشل حتمًا سيمتد إلى الأبناء والأحفاد ، وبالتالي يشمل
المجتمع لأن البيت المتهدم يخلق أجيالاً من المنحرفين قد تصل بهم الحالة إلى
الجنوح مما يجعلهم في حالات كثيرة طريدي المجتمع ، وقد يشكل النواة الأولى
لخلق العداوات ، فينعدم الأمان ، لذا فالدين المندائي يدعو إلى الزواج المثالي
الذي يقوم على المحبة والإخلاص والذي تسبقه فترة يتم فيها اختبار التكافؤ
الاجتماعي والمزاجي لكل من زوجي المستقبل وإليك وصية من وصايا الكنزا
ربا بهذا الشأن :

(يا رجال ويا نساء إن نويتم الزواج أظهروا المحبة الصادقة واختاروا واشكوا.
فإذا كتب لكم ذلك وملاً الحب قلوبكم تزوجوا ، ولكن إذا لم تختاروا
وتزوجتم فليعمل أحدكم الآخر كالمريض على فراش المرض ، فإذا حملت
أعمالاً كريهة غير مألوفة لنفسها ابتعدوا عنها ولا تمنحونها الثقة لأنها تشبه
المرض العصال الذي لا شفاء منه).

إذن فالاختيار المناسب لكل من العروسين يعتبر أهم اختيار في حياة الإنسان
كلها إذ تتوقف عليه سعادة الإنسان وشقاؤه ومن أجل ديمومة السعادة الزوجية
يدعو الدين المندائي إلى دوام المحبة المتبادلة بين الزوجين ، وإليك وصية
أخرى من وصايا الكنزا ربا بهذا الشأن :

(أحبب حباً صادقاً الزوجة التي تزوجتها بالحق وبمشيئة الحي العظيم ، ولا
ينقص بعضكم من البعض الآخر حتى تكتمل أقداركم في الحياة ، فمن خدع

زوجته التي تخلص من الغش والعيوب وأحب واشتهى ملذاته هذا العالم فهو
مخاش وخاسر ويكون مسؤولاً في دار الحساب وسوف تكون النار مستقرًا له
ومحيطًا لا ترى النور).

ويدعو الدين المندائي إلى التكافؤ بين الزوجين خوفًا على الحياة الزوجية
ومستقبل الأبناء بالدرجة الأولى وضمانًا لنجاح الزواج، يجب أن يسعى كل من
الزوجين أن يجعل الآخر مكافئًا له، فمن وصايا الكنز الربا: (لا تتزوجوا خادمة
غير معتوقة ولا تجعلوا أبنائكم خدمًا في بيوت الأسياد فإذا تزوجتم أعطوا
الفدية واعتقوهم ونعمتكم مقبولة وإلا فإذا أخطأ الأبناء فسوف تقع أخطاؤكم
على رؤوسكم).

كما وأن الدين المندائي يركز على نقطة خطيرة جدًا؛ جدرة بالاهتمام عند
اختيار الزوج، فالإنسان عندما يتزوج لا يتزوج بمجرد امرأة أو بمجرد رجل،
بل إنه يرتبط مع أسرة كاملة، لذلك فقبل الاختيار يستوجب دراسة الأسرة
دراسة مسهبة ومستفيضة، وعليه الابتعاد كل البعد عن الأسر الشريرة، فمن
وصايا نبينا يهيا يهانا: (يا مختاري لا تكونوا محازبين ولا معييين ولا تنتهبوا
الكذب بأقوالكم ابتعدوا عن مغريات الدنيا والحياة الفانية، اختاروا زوجة
وتزوجوا لا تتزوجوا زوجة من الأشرار ولا تكونوا وقودًا للنار الحامية).

كما ينصح الدين المندائي كل النصح الشباب والشابات ألا يفكروا مطلقًا بالزواج
من دين آخر فالدين المندائي يتصف بصرامة المبادئ والأنظمة، ويحرم الزواج
المختلط ويعتبره خروجًا عن الدين المندائي، لأنه إذا حدث زواج كهذا فإنه
حتمًا يؤدي إلى حدوث أخطاء عظيمة تتفاقم على مر السنين، ولا يمكن التغلب
عليها مهما صدقت النية في الزواج، لأن القدرة على مقاومة الصعاب والعقبات
تتضاءل أمام ضخامة المطالب والتبعات، ويجب الأخذ بنظر الاعتبار أن
الاعتبارات عند الشباب قد تترسخ فيها آراء وعادات ثم تعود للآراء الدينية
بتأثيرها الجلل كلما ظهرت المطالبة الروحية أثناء الحياة، فمهما كان العروسان
لا يهتمان للدين إلا اسمًا وعلى الورق؛ فإن الفاجعة تكون أعظم عندما يكبر

الأبناء لأنهم سوف يصطدمون بجدار متين ؛ ألا وهو جدار الدين الذي يقف حائلاً أمام زواج الأبناء من الأقارب ، وسوف يقف الآباء عاجزين أمام الموقف الذي يزداد سوءاً على مر الزمن ، وسيؤدي إلى خلق العداوات والكراهية القاتلة بين الأبناء والأقارب ، ويؤدي ذلك إلى تشتت الأسرة وانحرافها عن المجموع ، وتبقى رابطة الدم التي تغذي الأواصر بين الأسر سبب وجيه للتعاسة ، والنواة الأولى لخلق العداوات ، فينعدم الأمان ، لذا فالدين المندائي يدعو إلى الزواج المثالي الذي يقوم على المحبة والإخلاص ، والذي تسبقه فترة يتم فيها اختبار التكافؤ الاجتماعي والمزاجي لكل من زوجي المستقبل...

وإليك وصية من وصايا الكنزا ربا بهذا الشأن : (يا رجال ويا نساء إن نويتم الزواج اظهروا المحبة الصادقة واختاروا واشبكوا ، فإذا كتب لكم ذلك وملاً الحب قلوبكم ؛ تزوجوا ، ولكن إذا لم تختاروا وتزوجتم فليتعمل أحدكم الآخر كالمريض على فراش المرض ، فإذا عملت أعمالاً كريهة غير مألوفة لنفسها ابتعدوا عنها ولا تمنعوها الثقة ، لأنها تشبه المرض العضال الذي لا شفاء منه).

إن فالاختيار المناسب لكل من العروسين يعتبر أهم اختيار في حياة الإنسان كلها ، إذ تتوقف عليه سعادة الإنسان وشقاؤه ، ومن أجل ديمومة السعادة الزوجية يدعو الدين المندائي إلى دوام المحبة المتبادلة بين الزوجين ، وإليك وصية أخرى من وصايا الكنزا ربا بهذا الشأن :

(أحبب حباً صادقاً الزوجة التي تزوجتها بالحق وبمشيئة الهي العظيم ، ولا ينتقص بعضكم من البعض الآخر حتى تكتمل أقداركم في الحياة ، فمن خدع زوجته التي تخلص من الغش والعيوب ، وأحب واشتبهى ملذاته هذا العالم فهو خشاش وخاسر ويكون مسؤولاً في دار الحساب ، وسوف تكون النار مستقرّاً له وعيناه لا ترى النور).

أما المراسم الدينية للزواج فيمكن إيجازها بما يأتي :

الصباغة : إجراؤها خطوة في غاية الأهمية ولا بد منها لأن الصباغة كما تعلم سر من أسرار النور وولادة سماوية جديدة وهي لا تتم إلا بالماء الجاري فكما أن الماء يزيل الأوساخ والأدران العالقة بالجسد فهو أيضاً يشير ويرمز إلى نعمة الحي العظيم الخفية التي ينالها الإنسان بغفران خطايا والذنوب ، فالصباغة إذن تطهير لروحي العروسين من أجل التحامهما بالأصرة الزوجية المباركة ، وهي تشبه التحام المعادن ، إذ لا يتم الالتحام إلا إذا كانت منطقتا الالتحام في غاية من النظافة ، ولهذا الغرض يستخدم الصائغ البورك والتتكار بالإضافة إلى ذلك تجرى الصباغة من أجل إعطاء يمين العهد (الكشطا) كي يقسم كل من العروسين أمام رجل الدين ولا يحنث بقسمه، ولا يميل عن زوجه، ويقتسم معه الحياة مناصفة بالسراء والضراء ، ويصون سمعته ولا يفترق عنه مدى الحياة...

يتجلى من المرحلة الثانية من مراحل أداء مراسيم الزواج ما يلي:

١- إن الدين المندائي دين سمح ، لا يؤمن بالتعسف والاضطهاد والإكراه وخاصة في الزواج، لذلك فالحلالي الذي يقوم مقام الأب للعروس لديها القناعة الكافية بالزواج، وأنها فعلاً راغبة بالارتباط بذلك الزواج، وتؤكد له إنها غير مكرهة على اتخاذ هذا القرار.

٢- إن الدين المندائي دين عادل ، فهو يمنح المرأة نفس ما يمنحه للرجل من حقوق وواجبات، تلزم كل رجل وامرأة بالتعاون المثمر في كل مجالات الحياة، وخاصة تربية الأبناء، وتحمل مسؤولية توجيههم بصورة صحيحة، فرجل الدين الذي يرأس المجلس والذي يفضل أن يكون كنزفرا لأنه يفترض به أن يكون أكثر خبرة ومعرفة ودراية بأسرار الدين ، وأيضاً يتمتع بثقة عالية بمنحها له الآخرون عليه أثناء المراسيم عمل لقمتين متماثلتين في الشكل والمحتوى ، إحداهما للعريس والأخرى للعروس ، ويؤكد لهما وجوب تقاسم الحياة مناصفة في السراء والضراء، ويصون أحدهما الآخر ويحافظ على سمعته وكرامته.

٣- تحتوي كل لقمة بالإضافة إلى الخضر والفواكه على اللوز والجوز والسمسم والتمر والسّمك وقطع من آليّة الخروف إن توفرت ، هذه المواد تعمل على تنشيط القابلية الحسية للزوجين ، وتبث في رُوحيهما رغبة قوية للتقارب ، أما منقوع التمر والعنب (الهمرا) الذي يشربانه ؛ يهدئ من أعصابهما ويزيل عنهما القلق والتعب ويبث في نفسيهما الشجاعة الكافية للتقارب.

٤- كسر أول مشربة فخار (تتكه) على قطعة من الصلصال الموضوععة قرب بوابة الأندرونا هو لإحداث صوت صارخ يعلن أمام الحضور عن انتهاء حياة العزوبية دون رجعة، ويعلن أيضاً عن انكسار القيود التي وضعتها تلك الحياة، والتي استغلّتها قوى الظلام للعبث بها، وهي أيضاً دعوة للحضور لكي يبتهلوا للحلي العظيم من أجل غفران الخطايا والذنوب والحماقات التي ارتكبت بسبب تلك العزوبية.

٥- كسر المشربة الثانية أيضاً هو صوت صارخ يعلن عن التحام رُوحيهما بالرباط الزوجي ، ويعلن أيضاً عن انكسار القيود التي تحرم اقتراب أحد الزوجين من الآخر ، وأيضاً هو دعوة للحاضرين أن يبتهلوا للحلي العظيم لكي يبارك العروسين في حياتهما الجديدة التي ولدت بعد هذا الارتباط المبارك.

بالإضافة إلى قدسية الرباط الزوجي فالدين المندائي يمنح أيضاً قدسية كبيرة للفراش الزوجي ، إذ تباركه الملائكة مازال طاهراً ، وتلعنه إذا دنسته الخطيئة ، ونحن لا نغالي في ذلك ، فعلى هذه الفراش تنبذ كل الفوارق وتنكسر كل القيود التي حاكتها قوى الظلام ، ففي لحظات التقارب بين الزوجين على هذا الفراش المبارك يتساوى الغني مع الفقير ، والقوي مع الضعيف ، والسيد مع العبد والمتعطر مع الوديع ، وتتكشف لكلا الزوجين أجمل وأهنأ لحظات السعادة ، لذلك يجب ألا نستغرب أن نبينا يهيا يهانا مبارك اسمه قد حلف يوماً زوجته أنهر بالفراش الزوجي إذ قال لها : (أقسم عليك بالفراش الزوجي الذي اجتمعنا عليه ؛ إذا رحلت من هذه الدنيا ما أنت فاعلة ؟ أجابته أنهر لا أرتدي ملابس

جديدة حتى أتبعك ، قال لها : ليس هذا صحيحًا ، بل عندما يدخل عام ويخرج عام حتى تلبسي ملابس جديدة)... إذن فالفرش الزوجي يبقى شاهد حق على طهارة العلاقة الزوجية بين الزوجين مدى الحياة.

نعود من جديد إلى الرباط الزوجي ، فنقول ما أشد قداسته ومثاقته ، فبواسطته تبقى روحا الزوجين مرتبطان في الدنيا والآخرة ، إلا في حالتين ؛ هما إذا ارتكب أحد الزوجين الزنا ، وإذا خرج عن الدين المندائي ، ففي كلا الخطيئتين يحذف اسمه من بيت الكمال ، وينقطع اتصاله بهذا الرابط المقدس ، لأنه دنس هذا الرابط وخان الثقة التي منحت له ، وحنث بالقسم الذي قطعه على نفسه ، يشبه ذلك انفصال قطعتي المعدن الملتحمتين إذا تآكلت منطقة الالتحام بسبب الصدأ ؛ على الزوج الآخر الابتعاد فوراً عنه ، وإلا يعتبر هو الآخر زانياً ، وفي هذه الحالة يعتبر الزواج ملغياً ، ويمكن للطرف الآخر وخاصة الرجل الارتباط من جديد دون الاخلال بقسم الزواج ، أما المرأة فإنها ستعاني من النزولية لأنها أصبحت ثيب ، ولكي ترفع عنها النزولية عليها وعلى زوجها الجديد أن يصطبغا ٣٦٠ صباغة.

أما في غير ذلك لا يبيح الدين المندائي الانفصال مطلقاً مهما تعددت الأسباب ، خاصة إذا كان لهما أبناء ، لأن على الزوجين التضحية من أجل الأبناء وتربيتهم بصورة صحيحة وأن ينالوا قسطاً من الحب والحنان وهم في كنف أبويهما ، وذلك لأن هناك أواصر خفية تصل الأبناء بالرباط الزوجي وعن طريقها ينال الأبناء الحنان الروحي من قبل الأبوين ، وانقطاع الرباط الزوجي يسبب سقوط الأبناء إلى جهة الأب أو إلى جهة الأم ، وهو بحد ذاته ضياع للأبناء ، أما إذا حدث فراق جسدي بسبب موت أحد الزوجين فهذا لا يسبب انقطاع الرابطة الزوجية بين روحيهما ، فإذا تزوج الآخر أخل بقسمه وأصبح خاطئاً وهذا الخطأ يؤثر على المرأة الأرملة ، وعقوبة ذلك ألا ترتقي الأم وأبناؤها الجدد إلى درجة الحلالى حتى الجيل الثالث كما قال نبينا يهيا يهانا : (الأرملة لا تكون عروساً ، أما إذا لم تكن أرملة فخطيئتها أكبر وتمتد نزوليتها حتى الجيل السابع أو قد

تتعداه إلى عدة أجيال أخرى، ويستثنى من ذلك الابن الذي يتوغل في مفاهيم الدين المندائي، ويؤدي الطقوس المندائية كاملة في أوقاتها المحددة، ويسخر نفسه لخدمة الدين عن حب وإيمان عميقين، فإنه يستطيع أن يرتقي إلى درجة الحلالي أو إلى درجة الترميذا كحد أعلى بعد رفع نزوليته، وذلك بصباغته ٣٦٠ صباغة من يوم أحد إلى يوم أحد، حتى ولو كان من الجيل الأول.

ويحق للرجل أن يتزوج دون أن يطلب الفراق الجسدي إذا كانت غايته طلباً للأبناء دون نزول ديني، لأن غايته الرئيسية إنشاء جيل صالح، وبناء مجتمع، أما إذا كان الزواج لإشباع شهواته بالدرجة الأولى فهذا لا يبيحه الدين ويحمل الرجل خطيئة يحاسب عليها في دار الحساب.

وأخيراً أيها المندائي الذي تعيش في النور، فمن أجل رباط زوجي مبارك ومتين عليك مباركته بالمزيد من الصلوات والتراتيل، يقرأها رجل الدين الذي يترأس المجلس، وهي موجودة في كتاب (القلستا) الذي بحوزته، ولا ضير في ذلك لو أنك أكرمت رجل الدين بسخاء، فالملائكة ستباركك وتبارك هذا الرباط الزوجي المتين، ولا تعر أهمية لوقت إجراء مراسيم الزواج مهما طالت... والحي العظيم يزكي كل الأعمال...

مراسيم الزواج المندائي (قابين اد شيشلام ربا) :

(اسعوا لزوج أبنائكم وبناتكم، وآمنوا بربكم) كنزا ربا م. م

الزواج المندائي من الطقوس المندائية التي لها مكانة عظيمة وقديسة كبيرة، ويطلق عليه في النصوص الدينية (الطقس المحبوب) فمن وصف لأحد النصوص الدينية أن عوالم النور تبتهج وتفرح مع كل عقد زواج لما لهذا الطقس من أهمية كبيرة.

يسمى الزواج المندائي: قابين اد شيشلام ربا، وذلك لأن شيشلام ربا يمثل رجل الدين والزواج المثالي في عالم النور وهو يمثل العنصر الذكري الذي بزواجه

واتحاده بالعنصر الأنثوي (ازلات ربتي) بدأ التكوين واستمر التكاثر ، وأن الزواج المندائي هو مثال لهذا الاتحاد ، وهذا الرباط المقدس ، وبالرغم من أن هذا الموضوع قد طرق سابقاً وفي عدة مجالات ؛ إلا أن أحد لم يتطرق إليه بالتفصيل ، وهنا أود أن أتطرق إليه بشيء من التفصيل لتعميم الفائدة للقارئ الكرام ، ومن أجل فهم واستيعاب أكثر لما يدور في هذا الطقس العظيم والمهم في حياتنا.

في البداية يصطبغ العريس والعروس وتعمل الاندرونا (بيت القصب) ، ويجتمع رجال الدين ويتم التأكد من ملابس العريس الدينية ، (الرستة) ، توضع (السكين دولا) في يد العريس ، ويمسك بنصيفته رجل الدين الذي يقوم بعقد الزواج ، توضع ملابس العروسين الاعتيادية في سلتين يحملهما اثنان من الأطفال الذكور ويذهبان بهما إلى غرفة العروس مع العريس ورجل الدين العاقد ، في الوقت الذي تكون فيه العروس قد ارتدت الملابس الدينية (الرستة) ، وجلست داخل (الكلّة) المنصوبة في الغرفة ، لحجبها عن أعين الناظرين.

يعود رجل الدين العاقد مع العريس الذي يكون عن يساره إلى الاندرونا ويعطي الأمر إلى أحد رجال الدين المشاركين في عقد الزواج أن يذهب إلى غرفة العروس ويعطيها محبسين ذا فصين (أحمر وأخضر) وعنب وجوز ، فيذهب رجل الدين هذا إلى العروس ويتفقد ملابسها الدينية ، ويطمش يديها بالماء لتأكل وتشرب ، ويقرأ على رأسها بعض البوث الدينية ، ثم يعود إلى الاندرونا ويقول لرجل الدين العاقد (إن كل شيء قد تمَّ على أحسن ما يرام).

يدخل هو والآخرون إلى الاندرونا عند رجل الدين العاقد والعريس ، حيث يقول رجل الدين العاقد للجميع : (لقد قمنا بعملنا ووضعنا العروس في مكانها وتفقدنا ملابسها وطمشنا يديها وألبسناها المحبسين ؛ الأحمر في اليمين والأخضر في اليسار ، وأعطيناها أكلاً وشرباً وقرأنا على رأسها البوث الدينية بكل اهتمام واحتراس) ، فيرد عليه الجميع (استمر مغفورة خطاياك).

ويكون هناك شخص مندائي يحمل الجرة إشارة إلى طرد الشر ، وبدء مراسيم كسر الجرة ، ثم يدخلون إلى الاندرونا ويجلسون حول الطريانة الكبيرة التي توضع فيها تسعة أسرار (تسعة أنواع من الطعام المقدس) ، ثم يأتون بثمانية طرايين أصغر من الكبيرة ويوضع فيها ما وضع في الطريانة الكبيرة ، ويوضع على كل طريانة ثلاثة أرغفة من الخبز ، ويكون هناك رغيفان توضع بين الطريانة الكبيرة والتي أمامها وتسمى (كوفاو مشاط) ، وتعمل الهمر رمز الإخصاب التي يجب أن تكون حديثة وغير مختمرة ، وذلك بوضع حبات من العنب في الماء الذي في القنينة ، وتوضع على الطريانة الكبيرة ، ثم يقول رجل الدين العاقد للجميع ، يا إخواني رجال الدين والمندائيين المجتمعين هنا بتفويضكم أعمل ، فيرد عليه الجميع (استمر مغفورة خطاياك) ، فيأتي أبو العروس (رجل حلالي يقوم بدور أبي العروس) الذي يلبس الرسته أيضاً ، ويقف أمامهم ويقول له رجل الدين العاقد (يا أخي فلان بن فلان) فيرد عليه الأب (أنا أجيبك) فيقول رجل الدين جوابك يا هذا للحي ولمندادهيي هذه المائدة والطعام المقدس لمن؟ ، فيرد الأب: هذه المائدة والطعام المقدس هي لفلانة بنت فلان (العروس التي أعطيها إلى فلان بن فلان) (العريس) ، بزواج العهد ، ثم يعيد رجل الدين نفس السؤال على الأب ، هذه المائدة والطعام هي لفلانة بنت فلان ابنتي التي أعطيها لفلان بن فلان بزواج العهد ، فيقف العريس ويضع يديه بيد الأب فيقول له رجل الدين يا أخي فلان بن فلان ، فيرد عليه العريس أنا أجيبك ، فيقول رجل الدين (جوابك هذا للحي ومندادهيي) ، ويرد العريس بعد رجل الدين ، أنا أقبل فلانة بنت فلان زوجة لي بزواج العهد ، فيقول له رجل الدين (هذا العهد سوف يكون شاهداً عليك ، وسيكون الحي والملكي والأثري وكذلك رجال الدين والمندائيون المجتمعون هنا شهود عليك ألا تحيد عن عهدك وألا تغير كلمتك وألا تتكل بها ولا تخونها ، وأن تعنتي بها وأن تعيش معها بسلام كما أمرك ربك فيقول الأب نحن أيضاً سنتعيش معه بسلام كما أمرنا ربنا ، فيقبل العريس والأب أيديهم ويتصافحون هكذا ثلاث مرات ، ثم يقول

رجل الدين للعريس زواج فلانة بنت فلان يكون لك بألف من القطع النقدية ، ودينار من الذهب وفضية من الزعفران ، ومجموعة من الجواهر بشهادة هذا الجمع من رجال الدين المندائيين ، فيكون جميلاً ومقبولاً ، ثم يجلس العريس ويطمش يده مع رجل الدين العاقد ويقطع الخبز حيث يقولون (اسم العبي واسم مندادهيي مذخوران لعلك أيها الطعام المقدس)... ثم تعمل لقمة مما هو موجود في الطريانة وتعطى للعريس ليأكل وأخرى يأخذها الأب بيمينه ويذهب إلى العروس فيطمش يدها ويعطيها لكي تأكل ، ويقول لها (كلي ولا تأكلي من غيره) ثم يوزع باقي الطعام على الموجودين ليأكلوا ، ثم توضع على الطريانة ثلاث فطائر وثلاث قطع فضية نقدية توهب لأم العروس جزاء تربيتها للعروس.

حكمة الزواج الشرعي في الدين الصابئي^١:

بالرجوع إلى النصوص الدينية الأساسية التي اعتمدت عليها الديانة المندائية ؛ هي وجوب الزواج على كل فرد مندائي سواء كان ذكراً أو أنثى ، ولأن هذه الديانة ترفض أساساً حالة العزوبة وتمقتها ، وعليه فإن الزواج الشرعي هو تنفيذ لأمره (جل جلاله) وكونه رابطة روحية بين الزوج والزوجة ، فهو ركن من أركان الدين. وقد ورد في كتاب الكنزا ربا (الكنز العظيم) أن الحي الأزلي (هبي ربي) أمر الملاك (مندادهيي) أو عارف الحياة أن يمنح غرسة لآدم في الحياة ، وأن يقيم له عرساً ويعلمه ليتخذ له امرأة تكون شريكته (صوثا) ، ليتكاثر نسله ، وأن يقيم له بناء (اندرونا) وهي بمثابة مجلس عقد الزواج لتقام تحته طقوس ومراسيم الزواج الشرعي (العرس) ومن الحكمة في الزواج هي أن كل فرد مندائي سوي ينشد العزة والمتعة المشروعة في الحياة الدنيا ، كما ينشد

١- الأستاذ فرحان عربي الخميس، وهو شخصية قانونية معروفة وله مقالات مهمة في الشرع المندائي من المفيد الإطلاع عليها لزيادة المعرفة.

خلود اسمه من بعده وبقاء ذكره بعد مماته ، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال الزواج وثمراته إنجاب البنات والبنين.

أما حكمة الزواج الثالثة فهي الطبع والعادة ، إذ أن الحي العظيم (هيي ربي) أوجد الغريزة الجنسية لدى البشر وجعلها عنصر من عناصر تكوينه النفسي والسيكولوجي ، فلا يمكن تجاهلها ، فخلافاً لذلك لا يعدو أن يكون العازف عنها متزماً وهي حالة غير مستحبة في الدين المندائي ، وأن الزواج الشرعي هو الضمان المنسجم مع السلوك البشري السوي.

ويكتمل الزواج ويصل غايته المثلى في الإنجاب ، حيث فرضت الديانة المندائية عقوبات دينية ودنيوية على الذين عزفوا عن الزواج أو أنهم تزوجوا ولم ينجبوا وشملت هذه العقوبات حتى رجال الدين ، حيث لا يرتقي (الترميذا) إلى درجة دينية أعلى (الكنزافرا) إلا إذا تزوج وأنجب ذرية لتستمر بهم الحياة وتتوطد العقيدة ويتعمق الإيمان المندائي.

النسب :

١- إن موضوع النسب في الديانة المندائية يتعلق بالجانب الديني بشكل خاص ، حيث ينسب المولد إلى أمه وليس إلى أبيه ، ويمنح الاسم الديني (الملوашة) مقرونًا باسم الأم ، فيقال فلان بن فلانة للذكر ، وفلانة بنت فلانة للأنثى ، وهناك تفسيران بخصوص هذا الموضوع ، الأول هو تقدير للأم واحترام لها انطلاقًا من نظرة الشريعة المندائية إلى المرأة كما جاء وصفها في الكنزا ربا (الكتاب المقدس) والذي أوردته في مستهل هذا البحث ، أما الرأي الآخر وهو رأي فلسفي حيث يقول إن الوليد هذا هو قطعًا من تلك المرأة وليس باليقيين من هذا الرجل. إلا أنني أعتقد أن هذا الأمر كما يخبرنا التاريخ جاء من أن دور المرأة الاقتصادي في قديم الزمان كان دورًا مركزيًا في الأسرة حيث كانت تتمتع بالنفوذ السلطوي آنذاك دون الرجل ، وقد ورثته الديانة المندائية ، ولا يزال إلى يومنا هذا ، كما هو الحال في قبائل (الطوارق) في شمال أفريقيا حتى الآن حيث تلعب المرأة دورها الرئيسي بين باقي أفراد الأسرة الواحدة.

٢- إن الديانة الصابئية المندائية لا تقبل انتماء من لم يكن مندائيًا بالولادة ويحمل الاسم الديني المشتق من اسم أمه الديني (الملوашة) وأن المولود يرث المركز الديني للأب والأم معًا كونه (حلالياً) أو لا.

٣- استنتاجًا لما أوردته أعلاه فإن الديانة المندائية لا تقبل مبدأ التبني إطلاقًا.

- تعقيب :

ويذكر أن سبب انتساب الأولاد لاسم الأم الديني؛ لأن الأم رحم طاهر جاءت من عالم الحق حين زوج آدم أولاده وبناته أول مرة ، وقد شرحنا هذا الموضوع بالتفصيل (كيف زوج آدم أولاده وبناته) ..

* * *

والآن لنتعرف على الأعياد المندائية من قبل رجال الدين ، وعدد من الباحثين المهمين ، لتكون أمامنا الصورة واضحة عن العيد الكبير (دهواربا) والعيد صغير (دهواهنيانا) والبرونايا (البنجة)، وغيرها من الأعياد المندائية المهمة!

الكرصة ومغزاها^١:

عندما يأتي اليوم الأخير من السنة المندائية (كنشي وزهلي) والذي يعني الاجتماع والتطهير ، وهو يقع في عصرنا هذا الثلث الأخير من شهر تموز الميلادي ، وكان سابقاً في الأول من شباط (أول ستوه) ، تبدأ إجراءات وتحضيرات ليست مألوفة من قبل المحيطين بأبناء هذه الطائفة رغم أن الجميع يعيشون مع بعضهم البعض في وحدة المجتمع العراقي ، فترى منهم ردود فعل متباينة ما بين ناقد غير متفهم وبين متعاون أو حيادي ، وتبقى الكرصة لغز جدير بالاحترام والتوضيح ، فهي بالمفهوم الاجتماعي تأتي من معنى الاحتجاز أو الاعتكاف وهو مصطلح عربي جاء من اعتكاف المندائيين في بيوتهم ٣٦ ساعة ، وتبدأ من غروب شمس نهاية السنة المندائية (كنشي وزهلي) حتى شروق الشمس لليوم الثاني من السنة المندائية الجديدة ، أي يوم بليلتين أو بالمفهوم المندائي فإن (دهفا ربا) العيد الكبير للمندائيين والتي تحمل طابعاً دنيوياً واجتماعياً تعني الحدث الكبير ، حيث ترد كلمة (دهفا) مع كل المناسبات المندائية الرئيسية ك (دهفا اد دايماء، دهفا هنيئا... الخ) دلالة على أحداث ربانية تشكل مجموعها حلقات التكوين والخلقة ، وجاءت كلمة (ربا) تحديداً مع هذه المناسبة بمعنى الكبير والعظيم المنسوب إلى الرب العظيم... فما هو هذا الحدث الرباني المهم ؟ ولماذا هذا الاعتكاف الذي هو سمة ذلك الحدث القديم جداً ، ولماذا يعتبر عيد للمندائيين؟.

١ - للترميذا خلدون ماجد الناصح مقالات وأفكار مهمة من المفيد الإطلاع عليها.

سنحاول الإجابة باقتضاب عن طريق الاستدلال بالنصوص الدينية في هذا الصدد، إذ جاء في ديوان (ترسر وألف شيالة- ألف واثنى عشر سؤالاً)... من يحفظ نفسه خلال الستة والثلاثين ساعة سيكون منسوباً إليّ أنا أبو الأثري، وفي النص الآخر من نفس الديوان يجيب بماذا يحفظ الإنسان نفسه؟ إذ يقول كل من يغمس إصبعه في الماء الجاري خلال الستة والثلاثين ساعة سوف يلعن بلعنة (شيشلام ربا)...

إذن أصبح واضحاً الآن بأن الحدث المقصود والمحذور كانت له (يردني) الأنهار الجارية الوسط الأساسي الذي كان فيه ذلك الحدث فكيف أن يردني ذات الماء الحي المزكي الطاهر المطهر والذي تستمد منه نشماتا الأنفس صبغتها النورانية وحياتها الخالدة ، كيف يكون الاتصال به في تلك الساعات سبباً للتدنيس واللعنة من الخالق مسبح اسمه ، إن في ذلك جدلية تعود إلى الصراع الأزلي بين النور والظلام ، وأن محصلته النهائية هي الحياة الدنيوية بكل أنواعها ، ولكن هذا جواب عام والمطلوب هو معرفة السبب الحقيقي الذي هو الحدث الكبير الذي نتحدث عنه.

دعونا نأخذ نصاً آخر وهو الذي يتلى في اليوم السادس والسابع بعد (الكرصة)، بما يطلق عليه (عيد شوشيان) ، حيث يكون واجباً على كل ترميذا أن يصنع الأكاليل (وتجدل من نبات الغرب)، وتعلق على أبواب بيوت المندائيين للحماية والتبرك بنعم الخالق - يطرح هذا النص بإشارة مباشرة ومن زاوية أخرى حقيقة ما حدث في اليردني إذ يقول : (أنهر كوفني بكوميا واتقييم كبير ي بيردنا)، أي بمعنى أنارت سلاطات الحياة داخل الماء وتجسدت المخلوقات في الماء الجاري.

وهذه دلالة واضحة بأن بوارد الحياة الأولى في هذه العالم بدأت في الماء على أثر الحدث الكبير المتمثل بتكثيف الأرض وتصلبها بعدما كانت على هيئة غازية وسائلية ، وقد جاء هذا الربط بين حدث التصلب للأرض ونشوء الحياة

الدنيوية بأولى صورها استنتاجاً من نصوص (كنزا ربا) التي تطرح موضوع الخليقة المادية بتجيبيل الأرض وما حولها من قبل ملكاً أبثاهيل (م) بأمر الخالق (مسيح اسمه) وبمساعدة أبائه الملائكة الكبار ، ومن ثم قيامه بتنشيت الجبال وشق البحار والأنهار وخلق الأسماك والأثمار والمخلوقات الأخرى ، علاوة على أن بداية السنة المندائية بيوم الكرصة دلالة على بداية الخليقة المادية للأرض وما حولها والتي تبدأ بالسته وثلاثين ساعة وتنتهي في اليوم السابع وهو (عيد شوشيان) كما مرّ بنا.

لكن ما الذي يدعوننا إلى الاعتكاف وتجنب الماء الجاري ومن يتعامل معه خلال ساعات الكرصة هذه؟ لقد ورد في سيدرا اد نشماتا (كتاب الأنفس) وفي بوثة قشش (بيان العصور) ما معناه: وهكذا لم يكن للأرض الصلبة وجود ولا يوجد عليها مساكن ، بل يوجد بداخلها ماء أسود (ميا سياوي) ، ومنها ومن هناك تجبلت هذه المياه وخرج منها الشر (الروها) ، ومنها آلاف آلاف الأسرار وملايين ملايين الشياطين.

وهذا يشير إلى أن عملية تصلب الأرض قد رافقها انبعاث الأسرار الباطلة والشياطين الضارة ، ويذكرنا هذا بأحاديث أهلنا في طفولتنا عندما تأتي الكرصة حيث يحذروننا من خطر (الروها) ، والتي هي الروح السفلى التي أعطت للحياة الدنيوية مضمونها المادي ، وأصبح حري بنا أن نحذر ونتوقى من الأثر الباطل لهذه الأسرار السائدة في تلك المناسبة ، هذا من جهة ، أما من جهة أخرى وهذا هو الأهم فإننا قد علمنا من خلال النص السابق حول خلق سلالات الحياة في الماء بأن هذا قد تمّ واكتمل في اليوم السادس والسابع ، مبتدئاً مع حدث التصلب حيث أن سريان العناصر الأولية لخلق الأجناس الدموية في المياه الجارية خلال هذه الساعات هو من أسرار الظلام المشار إليها ، وأن هذا هو السبب الرئيسي الذي يجعل من الماء وكل الذين يتعاملون معه خلال الستة وثلاثين ساعة شيء مدنس لاتصاله بأسرار الظلام وانعكاسها عليه بأثرها الباطل.

ومن هذا النص نستطيع أن نفسر وجود المبطلات التي تشير إلى بعث هذه العناصر الدموية في الماء خلال ستة وثلاثين ساعة (الكرصة) حيث تتوزع ستة وثلاثون يوماً مبطلاً ضمن ثلاثمائة وستين يوماً المكونة للسنة المندائية.

وقبل أن أنهي الموضوع أود أن أشير إلى أن هذا الموضوع هو من أصعب المواضيع المندائية التي تخص عملية الخليقة المادية وإذا أردنا أن نكتشف المزيد لتوضيح الصورة فيتطلب ذلك المزيد من الدراسة والبحث والتقصي مقارنة لما توصل إليه العلم الحديث حول هذا الموضوع.

بقي أن نقول ألا يستحق ذلك الحدث الرباني الذي تكون بموجبه العالم المادي وكل ما فيه أن نحتمل ونحتفي به مجددين للخالق العظيم ولملأئكته وأثريه ولرجال الدين العهد الحق بأن نصون الأمانة التي أودعها في أجسادنا وهي (النفس) ، وأن نجنبها كل ما يندس طهارتها ويلوث نقاءها لكي نظفر ببركتها والدار المتقنة.

الكراص أو العيد الكبير وعيد شوشيان

(ذكرى تجلي الخليقة الأرضية) :

وقد كتب د. غسان صباح النصار في مقال له : مع غروب شمس اليوم الأخير من السنة المندائية تبدأ مراسيم الاجتماع العائلي ، لنحتفل ونعيد ذكرى الخلق الأرضية ، قرابة ال (٣٦ ساعة) تتجمع خلالها العائلة المندائية وتتبارك بقراءة الأدعية والتسابيح المندائية في كتبنا المقدسة ، ويقوم المندائي بالقيام بتخزين المياه وكل الأطعمة والمشروبات في داخل منزله ، ولا يختلط بالمحيط الخارجي ولا يمس اليهودنا خلال الكراص ، ويمثل الكراص (الكرصة) عيد رأس السنة المندائية ، وهناك فكرتين لتفسير الكراص : الأولى تعود إلى تصليب الأرض وتهياتها لبداية الحياة الأرضية بأمر الحي العظيم ، بعدما كانت مياه آسنة وجزء من عالم الظلام ، وهنا يحاول الملاك أبناهيل المكلف بهذه العملية أن يقوم بها ،

ولكنه يعجز عن تصليب الأرض فيصعد للسماء ليطلب من أبيه أبائير العظيم المساعدة، فيمنح السر من عوالم النور، وبالنداءات الثلاثة التي وهبها إياه الحي العظيم يعود ويطلق النداءات.

النداء الأول بصيحتين: في الأولى: تتكثف المياه (وهنا هو اليوم الأول من الكرصة والذي يبدأ مع غروب الشمس)، والذي مازال الماء فيه آسناً ولا يسمح لنا بلمسه، وفي الثانية: تصير اليابسة، وهنا يكون اليوم الأول من عمر الأرض أي (١/١)، وهو اليوم الثاني من الكرصة، ولا يسمح لنا أن نمس الماء لأن المياه الجارية لم تتدفق بعد، حيث تتدفق المياه الجارية بالنداء الثاني للملاك أبناهيل مبارك اسمه.

النداء الثاني: تترقق المياه في الأرض (تتبل) أو إن نسبة اليردنا التي باركت المياه الأرضية قد اكتملت، لذلك يكون اليوم الثاني من السنة المندائية هو يوم الخروج من الكراص وملامسة الماء الجاري، لأن قبل ذلك كان الماء آسناً ولا يجب لمسه، وطبعاً عملية التطهير هذه صاحبها هيجان أو طرد المخلوقات المظلمة التي كانت تستوطن المياه الآسنة، (وكما تنص عليه بوثة قشش المباركة).

وبالنداء الثالث: تُخلق الحياة والأطياب والأطيار، وبعدها يقع أبناهيل تحت وسوسة أبناء الظلام وينادي بنداءات أربعة أخرى بتأثير الظلام وينتج النقص، وهذا هو تفسير أيام المبطلات التي تواكب هذه المناسبة حيث تتعاضم قدرة الظلام ومخلوقاته في هذه الأيام، حتى يشتد خطر الظلام في اليومين السادس والسابع، ليكونا يومين مبطلين ثقيلين... (راجع كنزا ربا- اليمين طبعة بغداد ص ٢٩٠/تسبيح الخلق).

أما الفكرة الثانية وهي الأرجح؛ إن الكرصة تعود لحادثة خلق آدم، وهنا يلتف عالم الظلام ومخلوقاته على أبناهيل ويقنعه بالاشتراك معه في خلق آدم، فيوافق أبناهيل ثم يعجز عن إتمام مهمته، ولا ينتصب آدم على قدميه كما الحي

شاء، فيصعد أبثاهيل للسماء ويُعطي النفس (نشمتا) ملفوفة بالنور ومحروسة من قبل ملاكين حارسين ويعود بها للأرض، وحين تحين الساعة أن تدخل النشمتا (النفس) في الجسد المطروح، يأخذها الملاك العظيم منداهيي بيده العظيمة ويرميها في الجسد ليتم خلق آدم وينتصب واقفاً على قدميه.

(حين أقام أبثاهيل آدم على قدميه، كنت أنا منداهيي من أنهضه... ولحظة وضع يده عليه، أنا الذي جعلته يتنفس الحياة) كنزا ربا والنفس هي النفحة التي جاءت من مخزن الأسرار في عوالم النور السامية لتمثل الفكر والعقل وتحرك فيه الروح، وممكن أن تكون هذه العملية قد بدأت مع غروب اليوم بعد أن سبقتها مراسيم وطقوس خاصة واستعدادات في النهار، وهذا قد يكون تفسيراً لطقوس الكنشي وزهلي التي تقام صبيحة اليوم الأول للكرصة استعداداً لبداية الكراص مساءً (وهنا يبدأ اليوم الأول من الكرصة).

وفي صبيحة اليوم التالي يكتمل خلق آدم، وهنا يكون اليوم الأول من عمر الإنسان والبشرية وحساب الزمن، أي (١/١) رأس السنة المندائية، ويعتبر هذا اليوم كرسية أيضاً، ولا يسمح لنا أن نمس الماء حتى اليوم الثاني (١/٢)، لأن الرسول منداهيي يترك آدم لحظة تكوينه ليخرج إلى السماء وليصاحب (إدكاس زيوا) والذي يُعد الأب الروحي أو السر الخفي للنشمتا التي هبطت للجسد المسجي لتحرره من علته الوخيمة، وهنا يبقى آدم محاصراً (طيلة ٣٦ ساعة) وحيداً تحت وطأة الظلام والخوف من المخلوقات الشريرة التي كانت تريد أن تجزأ النشمتا، وحينها يعود الملاك المبارك (منداهيي) في اليوم الثاني من السنة الجديدة.

أما عدم جواز مس الماء فإن هناك نص يمكننا أن نتأمل فيه لنجد منه إشارة أو تفسير، فإن النص يتحدث إدكاس زيوا وكيف رجع إلى موطنه وقد باركته الحياة العظمى وكيف يوكل الملاك منداهيي، مبارك اسمه، ملائكة المياه الجارية حراساً له (أي بعد اكتمال خلق آدم بغرا)، وكما قلنا فإن سر النشمتا

سيبقى مرتبطاً بآدم كسيا، فلذلك لا يمكن لنفوسنا في الأرض أن تمس الماء قبل ذلك، وهذا تفسير عدم ملامسة الماء الجاري قبل اليوم الثاني من السنة.

(وامتلات عظامه بالملح ، ونطقته فيه إشعاعية الحي ، ففتح مخينه عندها عرج إحداس زيوا إلى موطنه ، وأوكلته به ملائكة المياه الجارية) كنزا ربا... وبعد خلق آدم يرجع مندادهيي (م.أ) - أي في اليوم الثاني من السنة المندائية، ليجد الشر والظلام يحاصران النشمتا المسكينة الوحيدة (وهذا هو تفسير المبطلات المزامنة لهذه الأيام).

وتعاني النفس بعد نزولها من علياء عوالم النور للجسد الطين، وهذا ما ترويه لنا نصوص كنزا ربا المباركة، ولكنه حين يرجع لتبيل حاملاً حراسته وبشائر العيد، يدحر الظلام ويضرب الروها والتي تتكفى على وجهها مدحورة، ولكن آدم مازال يشعر بالوحدة والقلق من المخلوقات الناقصة والمتوحشة وهو اجس وسيطرة السبعة والاثني عشر، وتزداد معاناة آدم ووحدته في يومي السادس والسابع من السنة المندائية، ولا سيما إن ديوان ترسر وألف شيالة يشير إلى إن عوالم الظلام تحتفل في هذه الأيام (المبطلّة الثقيلة) بميلاد سيد الظلام أور، فيشتد بأس الظلام والأشرار على آدم حتى يأتيه العون مع لقائه الأول بالملاك المخلص (مندادهيي) مرة أخرى في ليلة ٦-٧ / ١ ليساعد آدم ويهبه المندائية (المعرفة)، لتكون هي الحراسة التي يحتاجها الإنسان ليدحر الظلام عنه، فالدراسة والتعلم والبحث عن الطريق لعالم الأنوار، كان هو المندائية، وكان مندادهيي، تبارك اسمه، حريصاً أن يهبها لآدم بنفسه، كما أدخل النشمتا بيده الكريمة إلى جسد آدم.

وهنا يبدأ تعليم آدم وهبوط الكنز الإلهي العظيم (المعرفة) لتكون سلاحاً لآدم وبنيه، وأول كلمات النور كانت افتتاحية الكنزا ربا المبارك، إذ يخاطب آدم بالمعرفة بادئاً بتعريف رأس المعرفة، الحي العظيم، فيقول: بسم الحي العظيم: (هو الحي العظيم، البصير القدير العليم، العزيز الحكيم، هو الأزلي القديم، الغريب عن ألحوان النور) كنزا ربا.

وممكن أن أتجراً هنا أكثر وأقول إنه يوم بداية نزول تعاليم كتابنا المبارك كنزا ربا، سلاحاً وخلصاً ورحمة للعالم الجديد... وهذا هو تفسير عيد شوشيان (عيد إحداث التغيير).

وإن وضع إكليل الغرب في عيد شوشيان (ليلة ٦-٧ مندائي) هو إشارة لقدم المعرفة والمتمثلة برسول الحي مناداهيي (ولذلك تجدنا نضع الإكليل تحت عمائمنا في الصباغة، دلالة على تتويج المصطبغ بالمعرفة (المندائية) التي يرفعها على رأسه، فإكليل الغرب هنا يرمز إلى تقبلنا وإيماننا بالمندائية وإعلاناً للقاء مناداهيي (والذي رحل إلى عالمه النوراني بعد أن علم آدم المندائية ووعد بأنه سيكون قريباً دوماً من أبنائه)، بأننا من حصته، لذا فجاز لنا أن نسمي هذه الليلة المباركة (عيد شوشيان ٦-٧) بعيد قدوم المعرفة...

والمعرفة الأولى هي (كنزا ربا) المبارك، لذلك يسمى البعض هذه الليلة بليلة القدر المندائية (تأثراً بالمجتمع المحيط)، وهي ليلة مباركة يقضيها المندائيون حتى الصباح بقراءة الأدعية والتسابيح المباركة، لأنه يوم تلبية الدعاء وقبول الرجاء لكل قلب وضمير وفكر طاهر.

وتنتهي المبطلات بجلاء المعرفة كاملة لآدم، فيندحر الظلام باكتمال التعاليم وسيادة العقل، وهنا تكتمل المبطلات لبدء يوم جديد وعصر جديد وحياة جديدة، راجع النص في كنزا ربا - اليمين - طبعة بغداد ص ٧٠.

لذا فإن الفكرتين أو التفسيرين السابقين يتفقان على كون العيد الكبير (دهوا ربا) هو ذكرى تجلي الخليقة الأرضية وازدهار الحياة الدنيا، وهذا ما ترمز له (الطرايين) التي تمثل رموز وطيبات الحياة، وأخيراً أنهى تفسيري المتواضع والمستند إلى كتاب المعرفة (كنزا ربا) بما تنتهي به أغلب نصوصنا المندائية (طوبى للرجل مناداهيي الذي مر عابراً إلى هنا) كل عام مندائي وأنتم بخير وثبات في الإيمان والمعرفة.

* * *

وهذه مقالة قيمة لعزيز سباهي ساجت عن مفهوم العيد المندائي الكبير (دهوا ربا) عيد الكرصة^١... العيد الذي ينعزل فيه الصابئة المندائيون عن الناس في بيوتهم لمدة ٣٦ ساعة، لأسباب اختلفت الآراء في تفسيرها؛ كراص مبارك، وعيد مجيد، وسنة مندائية جديدة، وكل عام وأنتم بألف خير وسلامة... إليكم هذا الدعاء بمناسبة الكراص السعيد: (باسم الحي العظيم، اللهم هبنا بعض من نورك، وأعطنا بعض من ضيائك، سندخل بنورك ونخرج بضيائك، وننهض باسمك ونبقى أقوياء بصفتك الصادقة، والحي المزكي (سيدرا اد نشماتة)...

مفهوم الكراص المندائي :

لقد تطورت قصص الإسراء والمعراج عبر الأجيال، ونمت نمواً واسعاً وتدرجت حسب السلم التاريخي لها، متكاملة في المعنى والإطار، وتحولت بمرور الوقت إلى رؤيا رمزية لدلالات فلسفية وسياسية ودينية وحضارية، واتخذت طابعها الثقافي في التأثير والتأثر في المجتمعات على مر القرون والعصور كما هي الحكاية والأسطورة، وقد ساعدت نزعة الهضم والاستيعاب التي رافقت نزعة الكتابة والتأليف في وضعها بصيغ جديدة، من مصادرها المختلفة في التراث الرافديني الخالد كأور وبابل ونيروي وماري من حضارات الشرق القديم، والحضارة الفرعونية في مصر السفلى - ممفيس ومصر العليا

١ المصادر : الكتاب المقدس الكنزا ربا الكتاب الثامن - الشيخ ستار جبار حلو "التربية الدينية المندائية" - نذير العظمة "قراءة ثانية للتراث" - الليدي دراور "الصابئة المندائيون الكتاب الأول" - عبد الفتاح الزهيري "الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين" - صباح نجرس شاكر "مفاهيم وتعاليم مندائية" - نيقولا سيوفي "الصابئة.. عقاندهم وتقاليدهم" - س. كندوز ترجمة الدكتور سعدي السعدي "معرفة الحياة" - محمد الجزائري "المندائيون الصابئة" - أحمد غسان سبانو "هرمس الحكيم بين الألوهية والنبوة" - لويس مينار "هرمس مثلث العظمة أو النبي إدريس" - عبود قره "عالم التنجيم.. أسرار وأوهامه" - سليم برنجي "الصابئة المندائيون دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين" - غضبان رومي عكله الناشي "الصابئة.. بحث اجت ماعدي ديني عن الصابئة" - عبد الرازق الحسني "الصابئون في حاضرهم وماضيهم" ط٧ - ناجية غافل المراني "مفاهيم صابئة مندائية" تاريخ، دين، لغة - عبد الحميد أفندي بن بكر أفندي عبادة "مندائي أو الصابئة الأقدمون" - محمد عمر حمادة "تاريخ الصابئة المندائيين" - الترميذا خذ دون ماجد "الكرصة ومغزاها" - مجيد جابك "معنى الكرصة لغوياً".

- طيبة ، والفينيقية والآرامية ومن أمجاد الرومان والفرس السياسية ومن منجزات أثينا وروما العملية والفلسفية ، استوعبت عنها الأفكار في المعتقدات والديانات القديمة ، الناصورية (الصابئية - المندائية) ، اليهودية ، المسيحية ، الإسلام ، الهندوسية ، الزرادشتية ، البوذية ، السيخية ، الجانتية ، الإيزيدية وغيرها... كذلك في البُدع الغربية الحديثة ، عن مفهوم وحدة الخالق وعن الأثريون الملائكة والارتباط الفلسفي والروحي بينهم وباختلاف المقياس الزمني لكل منهم.

هذه الأنواع كلها ينتظمها مفهوم التعدد للأثر الأدبي الواحد أو القصة الواحدة ، ويعطي خصائصها الواضحة لهذا الارتباط ، كما هو الملاحظ في الأدب العربي قبل الإسلام في الجزيرة العربية ، المعلمات السبعة أو قصص عنترة أو ملحمة جلجاميش أو زيوا سدر أو ملحمة الطوفان في أقدم صورها ، أو في الروايات العبرية عن أنبياء بني إسرائيل والإنجيلية عن المسيح ، وفي روايات أمية بن أبي الصلت الحنفي في الطائف والمتصوفة مثل البسطامي وابن عربي في معراج (باب العقل الأبهة إلى الإسراء) ، وأبي العلاء المعري في رسالة الغفران ، فريد الدين العطار في أدب الرحلة الصوفية ، و(ثورة في الجحيم) للشاعر جميل صدقي الزهاوي ، والشاعر معروف عبد الغني الرصافي في كتابه (الشخصية المحمدية) ، وفي كتابات عصر النهضة الأوروبية والكوميديا الإلهية للشاعر دانتي الجيبري ، ومعراج الشاهنامة الفارسية للشاعر فردوسي .

إن تعدد الروايات لا ينفي وحدة النموذج وأصالته في المعايير الإبداعية للخلق الأدبي ، كما أنه لا ينفي التفرد والتميز لكل صورة ، أو رواية أو لجانب من جوانبها ، والتي دخلت إليها عن طريق التصوف والفلكلور الشعبي ، كما دخلت عن طريق التراث الديني الحي الذي تناقلته الأجيال كابرًا عن كابر ، وكما هي عند النُساخ والشعراء .

إن صور وقصص الإسرائ والمعراج إنما تستمد عناصرها من الأحاديث والمعتقدات الشعبية والدينية المتوارثة وعن الملائكة والمخلوقات النورانية وصور الجنة والجحيم والنعيم ومحطاته المتعددة ، كما في وصف العرش والملائكة الصالحين أي الأرواح الخيرة ، والشيطان وأتباعه أي الأرواح الشريرة النابعة عن الخيال الشعبي والتي ترجع بالأساس إلى أصول سامية ومندائية قديمة قبل أن تنهل منها المعتقدات اللاحقة.

ومؤثرات المعراج والإسرائ لم تقتصر على الآداب التركية والفارسية والأوروبية بل تعدت ذلك إلى أشكال التعبير الأخرى كالخط والرسم والأيقونات والمنمنمات الطقسية الأخرى ، التي لها بنيتها المعمارية والرمزية ودلالاتها الروحية ومصاحباتها الفكرية والحضارية، وعلى أهمية هذا الأثر لا من الناحية الدينية والروحية فحسب ، بل من الناحية الجمالية والفنية كما في رسومات ليوناردو دافنشي وغيره من رواد عصر النهضة الأوروبي.

يمتاز الأسراء والمعراج من حيث الأسلوب بالخصائص التالية : الرمز ، التصوير الفني ، البناء المعماري ، فالصوفيون يميلون إلى الرمز ، أما الفولكلوريون فأميل إلى الوصف والتصوير والمنحوتات ، أما البناء القصصي حيث يختلف من حيث الخطط العامة إلا أن معماريتها تمتاز بخواص أدب الرحلات كالأوديسة وأوديب والإلياذة لهوميروس ، وقبلها ملحمة جلجاميش وعشتار ، وهذه نراها في قصص ألف ليلة وليلة في رحلات السندباد البحري وعلاء الدين ونجم الدين وفي السحر الأسود والسحر الأبيض ، وفي إسرائ الرسول العربي ومعراجه من البيت الحرام إلى بيت المقدس ، جدار المبكي اليهودي ، الوارد ذكره في القرآن ، هبوط وصعود الملاك الصالح هبيل زيوا إلى العالم السفلي (الما ريشايا زوطا) لكبح جماح عالم الظلام (عالم الروهة - أور وايواث- زرتاي وزنتاي - هاغ وماغ- كاف وكافان- انانات وقن) ، والعودة من جديد إلى العالم العلوي (الما ريشايا ربا) ، وعروج النبي شيتل بن آدم وسام بن نوح (شوم بر نو) ويحيى (يهيا يهانا) الرسول إلى (الما دنهورا)

عالم النور بأمر من هبي قدماي ، كما جاء في الكتاب المقدس (كنزا ربا) ، واختفاء موسى النبي في جبل نبو الذي في أرض مواب قبالة أريحا الفلسطينية وبأمر الرب يهوه ، حسب التعاليم التوراتية ، كل هذه قرائن لا تقبل التأويل عن أحداث بشكلها المعهود وفق صورها الرمزية المنقولة ، تعطي طابع الخيال المبهر والإبداع الفني بألوانه ورموزه وصوره ومنها عروج عيسى بعد اليوم الثالث لصلبه ، كما جاء في الكتاب المقدس (الإنجيل).

إن وصف الملائكة ووجوهها المتعددة أو ملائكة العناصر التي تعكس التعدد في الوحدة من أكثر الإبداع والتركيب الضمني لحالة الإسراء والمعراج الديني في الصعود والنزول إلى خالق الكون عبر الأثير السماوي الساكن في الشمال ، وما تمتاز به الملائكة من سهولة الحركة في تنقلها بأمر صاحب العرش والعظمة حسب هذا المنظور ، تتجلى صور الإسراع والمعراج باعتبارها وثائق فكرية تصويرية فيما وراء الطبيعة ، تزودنا بأنماط من وجهات نظر مختلفة عن صلة الإنسان بالخالق وصلة الإنسان بالكون وصلة الله بالإنسان ، والإنسان بالإنسان حسب هذا المفهوم ، وتلقي أضواء كاشفة على المعتقدات والأنظمة الروحية والاجتماعية وخاصة في التصوف الديني المعروف إن المرحلة الأولى لبدأ الخلق حسب المعتقدات المندائية الواردة في الكتب الدينية أن مكونات عالم الظلام قد هُزمت من قبل الملاك الصالح هبيل زيوا أثناء رحلته الخيرة لعوالم الظلام ، من أجل تهيئة الأرض ومن أجل آدم وتكوين النسل البشري ، وأن جميع هذه العوالم تمر بها النفس والروح أثناء انفصالها عن جسد الإنسان وعروجها وصولاً إلى العالم المثالي (مشوني كسطا) ، فكانت التراب (الذي يقابلها "اللحم" ، الريح "الأعصاب" ، الحرارة "الدم" ، الماء "العظام" ، والتي تمثل بالرمز "الاسكندولة" المندائية.

وحسب هذا المفهوم نرى أن عروج وخلود الروح أي النشمتا^١ عند المندائيين تمر من هذا الباب ، لذا يعتبرها المندائيون سجينة الجسم - بغرا ، في عالم الظلام (المي ادهشوخا) وفي يوم ما تتخلص من هذا السجن عائدة إلى عالم الأنوار (المي ادنهورا) ، أي بعد انتقالها من العالم المادي إلى العالم الروحي تاركة الجسد الفاني ، بعد أن تحاسب على ما قامت به من أعمال في الدنيا من قبل (الملاك أبائر مُزنيا) في ديوان أبائر (الميزان) أي يقابلها عند إخواننا المسلمين (منكر ونكير) وفق موازين توزن به هذه الأعمال أن كانت كل أعمالها صالحة نقية تذهب إلى عالم النور ، وإن كانت أعمالها سيئة تعاقب بعقاب تتفاوت درجات تعذيبية حسب نوع السيئة التي اقترفها فتلتحق بالعالم الأعلى بعد اعتاقها ، لذا تقام لها وجبات طقسية (ساموراي) لاعتقادهم بخلودها وعروجها مرة أخرى.

لأن الديانة المندائية تؤمن بالعوالم الكونية الأخرى وبخلود الروح وعروجها إلى خالقها الأول كما أشارت الكتب الدينية والميثولوجيا المندائية وعلماء الدين ، ويلاحظ هناك أوجه موازنة متعددة بين الأفكار والشعائر السامية والزرادشتية والمثرية والتي ترتبط فيها الشمس وأشخاصها وإبطالها ورموزها بمبدأ الحياة الإلهية الأبدية.

وقد ركز عدد من الكتاب على بعض المعتقدات المندائية بالقول : إن الطقوس المندائية المتوارثة عبارة عن مزيج بين روحانيات الهرمزية (الإدريسية - المصرية) والحرانية - الشامية ، وفيها جوانب من تقديس رموز الكواكب البابلية مثل القمر (سين) والشمس (شامش) ، والزهرة (دلبات) وغيرها من الكواكب السيارة ، إضافة إلى من هم على ملة نباط العظيم.

١- النشمتا : أي النفس وهي نسمة الحي العظيم التي أودعها الملاك الصالح مندادهيي في جسد الإنسان وهي كائن نوراني موجود في عالم النور، أما الروح هي صفة مكملة للنفس وتتمثل بالغريزة التي تسيطر عليها عوالم الظلام، أما الجسد عبارة عن وعاء يضم النفس والروح ليكون بمكوناته الثلاثة كاملاً غير منقوص رسالته أي رسالة الحي العظيم العظمى حسب المعتقد المندائي.

والاعتقاد السائد بأن المندائيين يعطون اهتماماً كبيراً للبروج ولهم في هذا كتب ودواوين منها كتاب البروج "أسفر ملواشة" ، وهو مخطوط لأغراض التنجيم والفلك ، يستخرج منه الاسم الديني لكل فرد مندائي ، ويستعينون به الشيوخ لمعرفة الحوادث لزمنية ولمعرفة البرج الذي ولد فيه الشخص المندائي فيستتبط منه الطالع ، والأحداث المهمة في بداية كل سنة مندائية جديدة ، كما في ديوان ترسراف شيلة (١٠١٢) سؤال.

يعتقد بعض الكتاب أيضاً أن كلمة الصابئة قد اشتقت من كلمة السابئة بتحويل الصاد (سين) في اللغة ، ويقصدون الأبراج والكواكب السبعة كونها منازل الملائكة ، ثم أسقطت العين في سبؤوت أو سبوت أي اليوم السابع ، وأن المعلم الأول في المندائية هو (دنانوخت)^١ الذي جاء ذكره وتعاليمه في الكنزا ربا - الجزء الأيمن - الكتاب الثامن ، واضع أسس الأعياد المندائية ، ومهندس الأهرامات الفرعونية والزقورات ، وتعليل ذلك لأن المندائية ديانة معرفية ، فالديانة المندائية لها ارتباط رحي كبير بالملائكة والأثريين والاعتقاد السائد حسب ما جاء بكتبها المقدسة وبتعاليم أنبيائها أن الملائكة تسكن في أبراج النجوم والكواكب ولها تأثير مباشر على حياة الإنسان والطبيعة والكون ، وهذا ما اكتشفه العلم مؤخراً ، لهذا عرف المندائيون الكراص من خلال هذا الارتباط

١- دنانوخت : أو هرمس أو أخنوخ أو بوذا سف أو أدريس ، كلها أسماء لشخص واحد وهو الحكيم والمهندس والنبى صاحب الموعدة والحكمة في قول الكلمة في كتاب ، وكما جاء في كتابنا المقدس الكنزا ربا في وصاياه الجزء اليمين- الكتاب الثامن : (باسم الحي العظيم ، جالس بين ماء وماء ، أنا دنانوخت ، الكاتب الحكيم حبر الآلهة الفخور المتكبر ، كتبي بين يدي ، وسجل ذكر ياتي على ذراعي ، في الجديدة أتأمل ومن القديمة أتعلم ، فأميز ما كان وما هو كائن ، وما سيكون...) لكن مهما يكون يعتقد أن هرمس الحكيم عاش في تراثنا لآلاف السنين ، تنازعت عليه الأمم فاعتبر مصرياً وبابلياً وفارسيّاً وهنديّاً ويونانيّاً ورومانيّاً ، ونسب إليه علم الطب والفلك والفلسفة والحكم ، أخصى ما نسب إليه من كتب ومؤلفات فكانت عدة آلاف ، والمعروف عنه أنه شخصية موعلة بالقدم ويكتنف الغموض أصلها وانتماءها العرقي ، ولط هذا التضارب يعود إلى تلك المرحلة البعيدة من الاختلاطين شعوب الأقوام التي كانت تعيش في البقاع التي كانت شكل مركز العالم القديم ، جزيرة العرب وبضمنها اليمن ، وامتداداتها بلاد الشام وبلاد الرافدين ثم مصر ، وتلك المناطق الأخرى المجاورة ، بلاد فارس والأناضول وما وراء البحر بلاد الهند واليونان والرومان.

وقد برز في هذا المجال من الصابئة ثابت بن قرة العالم العظيم في الهندسة والفلك والفيلسوف والمترجم، ثابت بن سنان الطبيب والعالم بالظاهر الجوية، كذلك البتاني عالم الفلك، أبي الخطاب الصابي، ابن وحشية صاحب كتاب الفلاحة النبطية، إضافة إلى العلماء المندائيين في هذا العصر، الدكتور الراحل عبد الجبار عبد الله، والدكتور عبد العظيم السبتي.

أما التقويم الذي تبدأ به السنة المندائية هو الشهر الأول - أول ستوا اي (قام دوله - برج الدلو)، شباط الميلادي وتحتوي على ٣٦٥ يوم فقط، وليس فيها سنة كبيسة، وهي تقسم إلى ١٢ شهر، كل شهر ثلاثون يومًا، وتعتبر الخمسة أيام الزائدة شهرًا منفردًا، عيد الخليفة (البنجة)، أما بدء التقويم فهو حسب التدرج التاريخي للأنبياء المندائيين فيقسم إلى ثلاثة:

الأول: بدء الخليفة وهبوط آدم، وهو أول تاريخ يضبط به السنون.

الثاني: عام طوفان نوح، وهو الأمد الثاني لتحديد السنين.

الثالث: ولادة يحيى - يهيا يهانا، ويختلف عن التقويم الميلادي بستة أشهر، ويتخذ منه المندائيون تاريخاً لأموهم الدينية وشؤونهم الشخصية.

فلسفة وفائدة الكراص:^١

كلمة الكراص في كتب اللغة: كلمة مأخوذة من كلمة كرز بمعنى دخل واستخفى في غار ونحوه، ويقال كرز في المكان اختبأ فيه، هذا ما جاء في كتاب المعجم الوسيط، وهذه المعاني الواردة كلها قريبة من معنى الكرصة أو الكراص حين يلزم الصابئة المندائيون بيوهم مدة ست وثلاثين ساعة تبدأ من غروب شمس نهاية السنة المندائية (كنشي وزهلي) حتى شروق اليوم الثاني من السنة المندائية الجديدة، وقد حدث إبدال (الزاي) صاد لتقاربهما في الصوت، وهذا شائع في لهجات العرب، وشاع استعمالها بيننا وأخذت مدلولاً خاصاً لدى الصابئة المندائيين.

١ - للأستاذ عزيز سباهي مؤلفات وبحوث قيمة من الضروري الإطلاع عليها للاستفادة منها.

ومسألة الكراص المندائي رغم كونها ظاهرة تراثية فلكلورية متوارثة كالمتعارف عليه عند بقية الأقوام والشعوب، لكن في جوهرها مضامين فلسفية وفكرية ودينية تتجلى في أسمى صورها لما تتمتع به من معاني كبيرة عن الحياة وعن الخالق وملائكته الأثريين، وعن الصراع الأبدي القائم بين قوى الخير والشر بين النور والظلام على مر العصور والدهور، والهدف الأسمى هو الحفاظ على كيان الإنسان وديمومته في تعمر الأرض ونقاءها، وتعطينا دروساً ذات قيمة عن معنى المحبة والتكاتف والتعاون بيننا ولم شمل العوائل المتباعدة بسبب الظرف في يوم مقدس مثل يوم الكراص المندائي.

لقد جعل من وصايا النبي والحكيم دنانوخت، أعياداً للصابئة، وفي أوقات معروفة، فالشمسية منها تتزامن ودخول الشمس رؤوس الأبراج، أما القمرية فعند رؤية الهلال، (كما لمح لها المؤرخ القفطي علي بن يوسف في كتابه - تاريخ الحكماء - المتوفى عام ١٢٤٨م)، (ولبس البياض على نعت ملتهم - ملة إبراهيم الخليل - بالحنفية البيضاء).

ويعتبر عيد السنة الكبير (التكريص) ويسمونه (الضحوة) أو التقدمة، أو الأضحية الكبرى (دهوا ربا) وهو ذكرى هبة الله الحياة أو النسمة، أو الكلمة أو الأمر الذي كان به آدم الإنسان الأول الذي عمر هو وأبناءؤه الأرض، فبناها لأول مرة، يقع هذا العيد في اليوم الأخير من السنة المنهية (نهاية كانون الثاني) وهو يوم الاجتماع والنقاء، إذ يرتدي فيه المندائيون الملابس البيضاء ويصطبغون (يتعمدون) وينظفون بيوتهم وأوانيهم، ويعدون معدات العيد، فينحرون الخراف أو الدجاج أو البط، ويهيئون أنواع الأطعمة والأشربة الأخرى، إذ يبدأ التكريس مع غياب الشمس لذلك اليوم، حيث يكون فجر اليوم التالي هو (الأول من شباط)، وهو اليوم الأول من السنة الجديدة، فيصومون عن أكل اللحوم والجوارح وتسمى مبطل ثقيل، وقبله يومان وتسمى مبطل خفيف احتراماً لهذه المناسبة، وتكون مدة التكريس ٣٦ ساعة، وجميع الأرواح النورانية (الملائكة الصالحين) الحارسين للبشر على الأرض أينما كانوا

يغادرون مواقعهم متخليين عن حراسة (ارى تيبيل) (الأرض البالية) إلى عالم الأنوار اللانهائي، لتقديم فروض الشكر والطاعة لخالقهم (مانا العظيم أو مانه ربا الكبير) وهذه من الأسماء الحسنى للرب عند المندائيين، لأنه قد أتم خلق العالم السماوي في هذا اليوم بمشيئته، فيبقى الصابئة المندائيون ينتظرون عودتهم إلى عالم النور حيث يستغرق ذهابهم ١٢ ساعة للمعراج، و١٢ ساعة للعودة، و١٢ ساعة بقاء، فيكون المجموع ٣٦ ساعة، حيث يصلون إلى غايتهم في فجر يوم رأس السنة الجديدة، ولذا فكل مندائي يعتكف في داره طيلة هذه الساعات، إذ يجتمع من كان غائبًا، ليعم الفرح بين العائلة.

ومن المعروف أن نهاية الخلق استمرت ستة أيام، ويأتي عيد شوشيان (أي عيد الستة أيام) بعد عيد الكراص مباشرة في اليومين السادس والسابع من السنة الجديدة فيقوم المندائيون بعمل طريانة (لوح طيني) أو صينية نظيفة من (سبعة أجزاء) ومنها الفاكهة وخيرات كثيرة وماء تبركًا وابتهاجًا بهذا العيد السعيد، ويقوم رجال الدين بعمل أكاليل من شجرة الغرب المقدسة الدائمة الخضرة كي تعلق على أبواب البيوت لتجلب النور والبهجة والسعادة لأصحاب الدار وتطرد أرواح الشر، وإن تعليق الأكاليل على عتبات البيوت في عيد شيشلام هو نموذج ما موجود في الديانة الإيزيدية في وقت الربيع، وأن الليلة التي تفصل بين اليوم السادس والسابع تسمى (ليلة القدر) والتي تفتح فيها أبواب عوالم النور، فيها للسمع والطلب من قبل عباده الصالحين (عباد الرحمن)، وهو نفس التقليد موجود في الديانة الفرعونية المصرية القديمة، وليلة القدر الإسلامية.

لذا فإن عيد دهفا ربا أي عيد نوروز ربا أي العيد الكبير، وهو عيد السنة الجديدة وبداية السنة القادمة، والتي تبدأ في اليوم الأول من الشهر الأول المندائي (أول ستوا) أو (قام دوله) أي برج الدلو، وشباط في فصل الشتاء، ويعتبره المندائيون مناسبة سماوية لأنهم يحتفلون به في الفردوس أيضًا، وفي يوم الكراص كل عائلة تصنع أوان من الفخار بعدد أفراد العائلة، ثم يقومون بملء هذه الأواني الفخارية بالفاكهة الطازجة والمجففة، مثل التفاح والجوز

والزبيب وخلافه ، وتحفظ في البيت لمدة ستة أيام ثم تؤكل ، وكذلك هناك طريانة كبيرة يحفظ فيها الماء والتمر وأنواع معينة من الفاكهة والخضر اعتقاداً بحضور أرواح الموتى ، ويؤكل قسم منه لغرض النذور والباقي يرمى في مكان بعيد أو في النهر .

إن الكراص فلسفة وحكمة تكمن في تمضية يوم ونصف اليوم في البيت كونه يثير أكثر من تساؤل ، لماذا؟ هل هو التزام ديني فقط أم غير ذلك ، إن التعاليم المندائية إجمالاً تدعو إلى الالتزام بالهداية والتسامح والمحبة والتعاون والعاطفة والتمسك بالقيم والصفات الحميدة وعدم مخادعة النفس ، وعدم الهرولة وراء المصالح الآنية الزائلة ، إن تجمع العائلة الواحدة في هذا اليوم المبارك يزيدها محبة وتكاتف وتآلف وتعاون وتضحية ، والتي تفتقد في حاضرتنا اليوم ، بتفقد الآخرين والسؤال عن أحوالهم وهو أهم شيء فيه المقاصد ، والتواصل الاجتماعي والترافق والتكافل والعطاء ، الفرد المندائي لا يفكر في نفسه ، بل في ربه وخالقه ، ويميز ويحكم في الأمور السيئة والجيدة ، عندها يمكن أن يتغير حقاً ، في تلك الساعات الطاهرة يطلب المغفرة والرحمة والفضيلة ، له ولعائلته ولمتوفيه وهدايته إلى طريق الحق والصواب ، وأن يكون راضياً عن الأعمال الحسنة التي أداها طوال السنة الماضية وسيكون مشتاقاً أكثر للاستمرار في طريق السعادة والخير ، فإن الهدف الأسمى هو محاسبة النفس ، ماذا قدمت خلال السنة الماضية وماذا عليها أن تقدم خلال السنة الجديدة ، هذه هي فلسفة الكراص والعيد الكبير .

قالوا في الكراص :

في كثير من الكتب المتداولة التي تتحدث عن المندائية وعن المناسبات الدينية وخصوصاً الكراص ، الذي يتضمن مفاهيم فلسفية وأخلاقية عميقة يتناولونه بشكل عادي خال من كل نقد بناء ، وكدراسة توضيحية في سبيل المقارنة الهادفة نقرأ ما يلي : في الكراص تكون فيه الأرواح النورانية (الملكي) التي

تحمي الأرض الفانية والمياه الجارية غائبة حيث تعرج إلى عالم النور (الما دنهورا) للتسييح والسجود للحي الأزلي ، لأن الكرصة بداية التكوين الأول للخلق الذي استمر ٦ أيام ، لذا فإن المياه الجارية والأرض وحسب المعتقد المندائي تكون عرضة لأي قوى شريرة ، والتي تُقهر عادة بواسطة الحماية الروحية ، وفي نهار اليوم الثاني من السنة الجديدة حيث يبتهج الصابئة بعودة النور إلى الأرض ورجوع الحماية الروحية.

واليوم الأول من السنة المندائية الجديدة هو بداية عيد الكبير أو (دهفه ربه أو دهوا ربا) الذي يعتبر السنة المندائية الجديدة ويحتفل به في بداية شهر قام دوله ، الشهر الأول من السنة المندائية ، وكذلك يطلقون الاسم الفارسي أو الكردي نوروز ربه على هذا العيد ، ٣٦ ساعة قبل اليوم الثاني من قام دوله ، أي الليلة قبل السنة الجديدة واليوم الأول من السنة الجديدة يسمى كنشي وزهلي ، أي (الكنس والتنظيف) ، خلال هذه الفترة لا أحد يخرج خارج المنزل ولا تقام فيها أي طقوس دينية ، إن الطقوس الدينية تقام للحي قدماي وليس للملائكة أو للمخلوقات النورانية ، كما هو السائد عندنا ، خوفاً من آلهة الظلام الخمسة (شدم وهاخ وزوجة ماخ وكاف وزوجة كافان وزارتاي- زارتاني وكرون- جبل اللحم) ، كما هو وارد في الميثولوجيا المندائية.

ويبدأ الكراص عند مغيب الشمس ليوم كنشي وزهلي ولمدة ٣٦ ساعة ، أي ليلتين ويوم ، والطعام الكافيين حيث لا يجوز استخدام الماء الجاري أثناء التكريس أي خلال ٣٦ ساعة كما ورد في النص (كل من يحل الماء الجاري خلال ٣٦ ساعة سوف يلعن بلعنة شيشلام ربه) (ألف وترسر شيهاله).

والتكريص بحد ذاته يعتبر حدث عظيم يمثل بداية تكوين العالم المادي بأمر الخالق العظيم ، وفيه تصعد المخلوقات النورانية (الناطري) والمكلفين بحراستنا إلى المي دنهورا (عالم الأنوار) ، حيث رب الأكوان ليمجدوا ويسبحوا للخالق العظيم شاكرين خالقهم على تلبية دعائهم بتكوين هذا الكون المادي حيث تستمر

رحلتهم ٣٦ ساعة، لذا تصبح الأرض وعالمنا المادي خلال هذه الساعات تحت سيطرة الأرواح الشريرة (شفاهي)، التي يقابلها (الجن) عند إخواننا المسلمين، لذلك وجب على كل فرد مندائي التسلح بالصلوات والأدعية وحفظ النفس إلى أقصى حد ممكن، وفي هذه الأيام لا يسمح بدخول الدار من قبل أي شخص خلال فترة التكريص وعدم لمس الحيوانات والنباتات، وعند وفاة شخص في ليلة ويوم الكراص يدفن بعد انتهاء فترة الكراص.

وهناك اعتقاد أورده الأستاذ الراحل غضبان رومي عكلة الناشي في كتابه (الصابئة) يقول فيه: إن أيام هذا العيد؛ ويقصد العيد الكبير (دهفا ربا)؛ ترمز إلى محنة أو كارثة أصابت الصابئة فلبدوا (كرصوا) في دورهم خوفاً على حياتهم من البطش والقتل وهذا ليس بغريب على المندائيين خلال تاريخهم الطويل المليء بالمعاناة والترحال، وهذا استنتاج لا أكثر لما مرَّ به المندائيون من محن وأزمات خلال تاريخ وجودهم.

معنى الكرصة لغويًا:

وقد كتب الأستاذ مجيد جابك عن ذلك قائلاً: وبعد إطلاعي على موضوع ممتع للشيخ الجليل الترميذا خلدون ماجد عبد الله عنوانه (الكرصة ومغزاها) وقد أثارت في هذه الكلمة (الكرصة) اهتماماً بمعرفة أصلها لأنها تحمل في ثنايا حروفها ذكريات الطفولة الحلوة البريئة.

وقد بحثت عن أصل هذه الكلمة في المعاجم العربية التي بين يدي مادة (كرص) ولكني لم أعثر عليها، فقلت ربما تكون تلك الكلمة من أصل مندائي، فراجعت معجم دراور - ماسوخ المندائي لعلي أجدها، فوجدت أن كلمة (كرص) تعني أشار، غمزة، كون... الخ، وهذه المعاني بعيدة كل البعد عن معنى الكرصة التي شاع استعمالها بيننا نحن الصابئة المندائيين، فقلت لعلي أجدها في مادة (كرز) العربية.

جاء في المعجم الوسيط مادة كرز : دخل واستخفى في غار ونحوه، ويقال كرز في المكان اختبأ فيه، وهذه المعاني الواردة كلها قريبة من معنى الكرصة، حين يلزم الصابئة المندائيون بيوتهم مدة ٣٦ ساعة، تبدأ من غروب شمس نهاية السنة المندائية (كنشي وزهلي) حتى شروق اليوم الثاني من السنة المندائية الجديدة.

وقد حدث إبدال (الزاي) صاد لتقاربهما في الصوت، وهذا شائع كثيراً في لهجات العرب، وقد روى لنا العلامة جلال الدين السيوطي في كتابه (المزهر) هذه الحكاية الطريفة نقلاً عن الأصمعي:

قال إن رجلين اختلفا في (الصقر) الطائر المعروف، فقال أحدهما بالصاد وقال الآخر بالسين (سقر)، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه، فقال: لا أقول كما قلتما، إنما هو (الزقر).

إن هذه الأحرف الثلاثة (الزاي، السين والصاد) متقاربة في مخارجها الصوتية، فحدث بها إبدال فاختلف النطق بها، وقد ورد الإبدال كثيراً في لهجات العرب، ورب قائل يقول: لماذا لم يكن أصل كلمة الكرصة من (كرس) وأقول: جاء في المعجم الوسيط مادة (كرس) ما يأتي: كرس الرجل وازدحم العلم في صدره، وكرس الشيء ضم بعضه إلى بعض، وكرس البناء أسسه... الخ.

وجاء في المنجد: (كرس البناء أسسه، وكرس الأسقف البيعة والأواني الكنيسة باركها ودشنها بحفلة طقسية وخصصها لخدمة الله، وهي نصرانية دخيلة)... إن جميع هذه المعاني التي انطوت تحت مادة (كرس) بعيدة أيضاً عن معنى الكرصة، والخلاصة أن كلمة الكرصة عربية الأصل جاءت من الفعل (كرز) وشاع استعمالها بيننا وأخذت مدلولاً خاصاً لدى الصابئة المندائيين.

البرونايا والولادة من زهرة اللوتس:

وفي مقال له؛ كتب مثنى حميد مجيد عن عيد الصابئة، البرونايا، حيث ذكر أن أيام الخلق التي عبر فيها الخالق - الباري - عن قدرته العفوية في خمسة أشكال أو مظاهر أو أيام، ولذلك فهي برية، أي طبيعية وعفوية في انبثاقها وجدلها وصيرورتها، ولم تصدر عن افتعال أو حاجة أو نقص، وهذه الأشكال أو المظاهر هي:

١- الحياة.

٢- العظمة أو القدرة الذاتية للحياة (ربوثة)، على الولادة الدائمة والتجدد.

٣- المعرفة (منداهيي) أو قدرة الحياة على وعي ذاتها كونياً وتاريخياً.

٤- القسط (كشطا) أو قدرة الحياة على تحقيق مبدأ العدالة والانتظام والموازنة في ديمومتها وحركتها.

٥- الماء الحي (مياهيا) وهو الحاضن الأولي اللازم للمادة العضوية وولادة الكائنات البرية.

ومفردة برونايا ذات علاقة متداخلة بأشكال الفعل العربي أبري إبراء أي خلق، وبري أي نبت بشكل عفوي، ومنه نقول نبات بري أي ينبت بشكل عفوي، وبري يبري العود أو السهم أو القلم أي يتقفه فيقال أعط القوس باريها أي صانعها أو مهذبها، وجاء في القرآن الكريم {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ}، ونجد نفس الجذر للفعل العربي (بر) في المندائية والعربية تعني ابن، ولد ويتداخل نفس الفعل صوتياً مع الفعل العربي فرع تفرع فرع، والفعل المندائي فرا أي أثمر وتفرع، وفيرا تعني الفرع أو الثمرة أو الشجرة لغيب العين في المندائية.

ولذلك تسمى البرونايا أحياناً فرونايي ومن نفس الفعل تم اشتقاق التسمية القديمة المركبة للهرم أو البيرمد المصري وهي بيرا - ميت - أي مستقر أو بيت الابن البكر، الأول للسلالة، الفرع الأول، الثمرة الأولى، وفيرون أو عربياً

١- القرآن الكريم : سورة الحشر - الآية ٤ ؛

فرعون لا تشير فقط إلى الملك المصري، بل إلى الجد الأول أو الابن البكر والأقدم في العائلة أو السلالة.

وقد كان المصريون القدماء كالصابئة يحتفلون بهذه الأيام الخمسة لخلق العالم وعلى أساسها تم اشتقاق فكرة الهرم الذي يتشكل من خمسة أوجه أربعة مثلثات وقاعدة مربعة، وفي الوقت الذي تمثل فيه المثلثات الأربعة حزمة من ضوء أو طاقة منبثقة من نقطة لا متناهية في الصغر هي بمثابة البعد الأول، فإن القاعدة المربعة تمثل الانفتاح اللانهائي للكون، فالهرم هو الهيكل الرمزي الذي من خلاله يتم تجدد الحياة والعودة إليها، ويعيد الباحثون فكرة الهرم إلى الزقورة السومرية، ومن خلال الشعوب القديمة السامية ومنها الصابئة انتقلت إلى مصر القديمة.

على مستوى الطبيعة تجسد زهرة اللوتس الجميلة المعاني الرمزية لهذه المناسبة وهي لدى المصريين والصابئة تعبير عن الثمرة داخل الثمرة والتي ولدت منها آلاف الثمار، وتزهر نبتة اللوتس مع بداية الربيع وحتى نهاية الخريف، وتتفتح في الصباح لتغلق تويجاتها عصرًا لأربعة أيام، وفي اليوم الخامس تتفتح تويجاتها للمرة الأخيرة ولا تغلقها بل تسقط ليبقى فقط الجزء الأخضر والقمعي منها ينحني نحو الماء، ويلقي بذوره لتبدأ ولادة جديدة للحياة، وقد كان المصريون يستخدمونها في طقوس الدفن كرمز لتجدد الحياة فقد وجدت بقاياها تغطي جسد توت عنخ آمون عند فتح قبره عام ١٩٢٢.

ويستخدم الصابئة بدلاً منها إكليل الآس بنفس المعنى وفي الوقت الحاضر وفي بلدان كالسويد حيث لا تنمو الآس فهم يستخدمون نبتة دائمة الخضرة مشابهة لها لكن الغرض هو ذاته والاختلاف في نوع النبتة كما يظهر يرتبط بظروف البيئة والمناخ والمكان وعلى مر العصور.

ويعبر مجازيًا عن زهرة اللوتس لدى قدماء المصريين بتويجاتها الداخلية الصفراء، بالبيضة الكونية أو الوعاء الأول للولادة الكونية وهو ذات التعبير

المجازي تماماً الذي يرد في المآثر المندائية لدى تطرقها إلى نظرية الخلق ويتم التعبير عن هذه الولادة فلسفياً بمفردة (مانا) التي انبثقت منها المانات وهي مفردة ذات معنى مزدوج إذا تعني وعاء وعقل في ذات الوقت ، ومجازياً يتم التعبير عن هذه الولادة بالثمرة فيرا داخل الثمرة أو البيضة (هلبونا) التي ولدت منها الحياة وكل هذه التعابير والمفردات تتطابق مع ما ورد منها في نظرية الخلق المصرية القديمة ورغم مرور آلاف السنين وهو ما يؤكد قدرة الصابئة على حفظ القديم الضارب في القدم، كما يؤكد أيضاً الأساس الموضوعي الذي تقوم عليه أساطيرهم عند تحليلها من منظور تاريخي علمي.

وأدرج فيما يلي بعض التعابير ومقاطع من التراتيل والصلوات المندائية التي ترد فيها تلك المفردات مثل فيرا، فروان، بروان^١، طوراهيوارا، أي الجبل الأبيض، الكرمة أو الجفنة، وكلها ومن منظور تأويلي ولغوي ذات صلة وثيقة بالبنى الفكرية والميثولوجية المصرية القديمة، وتحمل أيضاً في بعضها دلالات وإشارات واضحة للأهرامات المصرية.

- ثم إنني أمدد وأسبح وأنتى على ذلك الإكليل النقي الذي أغدقت به عليه الكرمة الأولى بيرون العظيمة والسرية - الترتيلة ٣٧٤ ص ٢٦٨ قلستا.

- بهاتا فيرا هون منه ألف ألف فيرا اد ساجا - من ذلك الثمر ظهرت الآلاف من الثمرات التي بلا حد - الكنزا ربا - اليمين.

- ويرد في الترتيلة ٣٧٩ ص ٣٠٤ من كتاب قلستا هذا المقطع عن الكرمة بروان، ولسوف ترى جبلين نقيين وصافيين، ومن خلفهما سترى النور الأثيري

١- يُشار إلى الهرم، الألاً الأبيض بفروان طوراً اد هيوارا كرمز للمعرفة، ويشار إليه أيضاً في كتاب قلستا المندائي بالكرمة أو الجفنة فيرا أو بيرللا لاحظ الصفحات ٧، ٢٦٨، ٣٠٤، ونفس معنى الماء الحي، الحيوي، المولد للثمر والزرع تمنحه مفردة فيرا لاسم النهر (بيراويس) اليردنا العظيمة الذي يرد كثيراً منها الصفحات ٧، ٢٢، ١٥، ١٨، ٣٠، ٦٨، ٤٤٣، ٢٣٢، ٢٦٠، كتاب قلستا.. ويرد في نفس المصدر بوصف آخر بييراويس زيوا في الصفحتين ٩، ٢٢.

السامي مرتفعاً في مقام الحياة العظمى الأولى وسترى الكرمة بروان مرتفعة في الأرض الثابتة النابتة المفلحة^١.

إن هذه المفردات المندائية مثل جبل ، جبل أبيض ، كرمة ، ثمرة ، فرا ، فروان ، بروان... الخ ، تأتي دائماً في اللغة الدينية في سياق واحد ومتقارب وغالباً ما تتداخل ، وكحزمة لغوية واحدة ، في أبعاد ميثولوجية وأسطورية دلالية متماثلة وذات مغرى مقارب يوحي باتجاه زمني ومكاني واحد تؤشر له وتتقارب مع بعضها باتجاهه.

في كتابه (أصول الصابئة المندائيين) ؛ يستعرض الأستاذ عزيز سباهي أوجه التشابه بين معتقدات الصابئة وأساطيرهم وتلك الخاصة بالشيثيين ، كما تتضح في مخطوطاتهم المعروفة بمخطوطات نجع حمادي ، والتي تشير إلى أن واضعها هو شيت العظيم ، وهي أيضاً تذكر الجبل الأبيض المقدس (سير) المذكور عند المندائيين ، وأن نوح بنى فلكه هناك ، ترى أسطورة مندائية أن سفينة نوح قد رست في مصر ، وأن كلا من الصابئة والشيثيين يعتقدون أن بوابة النور ، ولهذا قبلتهم الشمال العلوي القصي ويستدلون عليه بالنجم القطبي ، وينوه أيضاً إلى تأكيد الصابئة أن كتبهم كانت مدونة على ألواح محفوظة في جبال مقدسة بيضاء.

ومما يذكره الأستاذ سباهي أن الشيثيين كانوا كالمندائيين يستخدمون الصور ، مثل صورة البيت في إنجيل توما ، أحد المخطوطات التي عثر عليها في نجع حمادي التي تقابلها صورة ال (شكنتا) لدى المندائيين ، وصورة النسر للتعبير عن المخلص في (الكتاب السري ليوحنا) ، ويستعرض أيضاً أساطيرهم المشابهة لأساطير المندائيين التي أوردوها في كتبهم (سفر آدم) المتضمنة رؤيا آدم التي

١- لم تترجم الليدي دراور الكلمات ا لثلاث الأخيرة ضمن المقطع وتركتها بأصلها المندائي :
شارات - أوادات - أكيشرات ، وأعطتها الترجمة التالية في الهامش : (She- was- firm-
and- she- acted- and- was- successful) ، تبدو هذه الكلمات ا لثلاث مثل إشارة
ضمنية وحاملة لمعنى مقارب جداً للشارات المصرية اللالالةلالالإلا الإنخ والجيد والواس.

يقصها لولده شيت وهو في السابعة من عمره، يعرض فيها ما سيواجهه البشر وعن الدورات المتعاقبة لفنائهم وقصة الخلق المشابهة لما عند المندائيين، وقصص أخرى مشابهة لقصة حمل النسر أنوش أثرا ليهيا يهانا إلى الجبل الأبيض... الخ.

وبودي التأكيد هنا إلى أن ما توصل إليه الأستاذ عزيز سباهي عن العلاقة التاريخية والدينية بين المندائيين والشيشيين هو استنتاج يقارب الحقيقة، وأن هذه العلاقة يمكن أن تسندها ليس فقط مخطوطات نجع حمادي بل المقارنة اللغوية العلمية لأهم مفردة تدور حولها كل أساطير ومعتقدات الصابئة والشيشيين، وأفصد بها اسم الجبل الأبيض (سير)، فهو ليس غير اسم أو صار المندائي الدال على (أوسير) الهيروغليفي، أوزوريس، وأن الإشارة إلى الجبل الأبيض إضافة إلى دلالاتها اللاهوتية والتاريخية ما هي في الاستنتاج الأخير إلا إشارة، مباشرة أو غير مباشرة إلى الأهرامات، ومنها بشكل خاص الهرم الأكبر الأبيض أصلاً في مظهره الخارجي^١.

وأبو صير هو اسم لعدد من قرى مصر تتميز بوجود آثار فرعونية أو رومانية ومنها قرية أبو صير الأثرية بالجيزة، وفيها العديد من أهرامات الأسرة الخامسة ومعابد الشمس وأشهرها معبد الشمس للملك أوسر كاف، وتقع منطقة آثار أبو صير في جبل أبو صير، وقد عرفت في النصوص القديمة باسم بواوزير أي مقر أوزوريس، وعثر في المنطقة على مقابر من عصور ما قبل الأسرات ومن الأسرتين الأولى والثانية ومن الدولة القديمة وبعض مقابر الدولة

١ - حافظ الهرم الأكبر على مظهره الأبيض حتى عام ١٣٠٠م، حين تسبب زلزال شديد في انهيار العديد من صخور الحجر الجيري التي كانت تغلفه ثم أجهز على ذلك الغلاف السلطان المملوكي الناصر ناصر الدين الحسن باستخدامه تلك الصخور في بناء مساجد وحصون للقاهرة.

الحديثة، وآثار ترجع للأسرة ٢٦، وأبو صير كانت الإقليم رقم ٢١ من أقاليم مصر العليا وبالمنطقة معبد الإله بتاح سوكو أوزير^١.

البرونايا... الأيام البيضاء :

بمبادرة من القسم الثقافي التابع لمجلس شؤون الطائفة قدم فضيلة الترميذا خلدون ماجد عبد الله في يوم الجمعة المصادف ٢٦ / ٣ / ٢٠٠٤ على قاعة المندي؛ محاضرة شاملة بمناسبة عيد البرونايا (عيد الخليقة)، وقد جمعت المحاضرة شروحاً دينياً وعملية لهذه المناسبة السعيدة، إضافة لعمقها الفلسفي الجدير بالمناقشة والتمعن.

وقد قدم فضيلته للموضوع بقوله: إن من أهم الصبغات الجوهرية التي تتصف بها المناسبات الدينية المندائية هي تناولها لموضوع الخلق والخليقة بمختلف حلقاتها وأطوارها، مما يدل على أصالة وعمق المبادئ المندائية الربانية، من حيث عودتها إلى رأس الخليقة وهو الخالق (مشبه اشمي)، أما برونايا فلها موقع الصدارة بين المناسبات الدينية لأنها تمثل رأس الدهفي (الخليقة)، وتمثل أيضاً رأس السنة الكونية (الربانية) لأنه يوجد في ديانتنا ما يسمى برأس السنة المندائية (الدينوية) التي تبدأ بالحمل (نيسان المندائي) من ٩ - ١٠ ميلادي، أما

١- ورد في الترتيلة ٤٩ من كتاب قلستا وصف لمرحلة انتقال النفس عبر نهر الموت (هافيقيا ميا) المحاذي لعالم النور، في ديوان أباتر هناك سفينة لنقل النفوس، ويرد ذكر كائنات متعددة لمساعدة النفس منها شارونيل- صارونيل - ملاك الموت الشاري.. المفدي (مفاهيم صابنية مندائية ص ٣٦) ويرد أيضاً ذكر أربعة كائنات أخرى هي إن هبي، شوم هبي، زيف هبي، وأنهور هبي، وكل منها يلف النفس برداء ضياء إذا كان ذكر أو رداء نور إذا كانت أنثى، وهذه الكائنات تذكر بأربعة كائنات مصرية مثلها، هي: مستي، حابي، دواموت سنو إف وقبح سنو إف، ترافق حورس في رحلة مشابهة، وتنتهي الرحلة باستلام النفس من قبل الملاكين بتاح وأوصار اللذان يفتحان لها باب الحياة لتدخل وتتحد هناك مع نظيرها، وفي هامش ترجمتها لكتاب قلستا ص ٤٦ تشير الليدي دراور إلى معنى مفردة (سير) التي تأتي بمعنى الباب الذي يفتح للحياة الخالدة، مما يعني ضمناً أن مفردتي بتاح وأوصار هما اختزال لعملية فتح بتاح لباب الحياة (أوصار)، وفي المندائية يأتي الفعل صر، صرر بمعنى ربط أو شد، أكديا صريتو بمعنى رباط، مفاهيم صابنية مندائية ص ٢٠٦، وهو ما يؤكد إضافة إلى ما ذكرناه سابقاً لأصل السامي المندائي للإسمين المصريين بتاح وأوصار أو أوسير أوزير.

تعريف كلمة بروانيا في الأيام الخمسة من مجموع ٣٦٥ يوم ، وهي بداية الخلق العلوي بقدرة الخالق الجليل حيث تجلت في هذه الأيام المباركة صفاته السامية في عالم النور معلنة بداية الخليقة التي استوعبت كل الأكوان دون تجسيد مادي بما فيها توصيف آدم الرجل الأول في عالم النور ثم إكسائه (الرسنة) بأجزائها الخمسة باعتباره ممثلاً وتمثيلاً لهذا الوجود.

جاء في كتابنا الديني ترسر ألف شيالة (ألف واثننا عشر سؤالاً) من ص ١٧- ١٩ وصايا الخالق (مشبا اشمي) ، هذه الأيام الخمسة من مجموع ٣٦٥ يوم هي أيام التذكر العظيمة (دخرانا) التي لا ظلمة فيها ولا ليل ولا حكم للظلام عليها ولا ميل ، حيث لا يوجد ليل يشطرها وتتمثل أيامها بما يلي:

١- اليوم الأول لملك الملوك أبي العوالم (رب ايلايا) الرب العلي الذي بعث نفسه بنفسه (اد من نافشي افرش).

٢- اليوم الثاني هو يوم (مارا اد ربوئا ايليئا) أي رب العظمة السامي ، وتأتي أيضاً من معنى (المربي السامي) ، دلالة على بداية نمو وتربية الحياة بأولى حالاتها النورانية.

٣- اليوم الثالث هو يوم (مندادهيي) أي عالم الحياة ، ويشير إلى الصفة الجوهرية للخالق الجليل باعتباره منشئ الحيوانات بدرجاتها وأنواعها (هيي قدمايي).

٤- اليوم الرابع الذي يتجلى بـ (دموث كشتا) أي مثال الحق (هيي اد هون من هيي كشتا اد هو من قدام بريش) أي الحياة التي وهبت من الحي والحق الذي هو بالرأس قبلاً.

٥- اليوم الخامس (يوم الذخرانا) ، وفيه وزعت الأنهر الجارية (يردنا رب اد ميا هيي).

وقد ورد في السؤال ١٩ من (ألف ترسر وشيالة) ما يلي:

هكذا أحيط رأسه بالتاج، هذا التاج الذي يتكون من أربعة أسرار هي : (العين والنخلة - الإخصاب "التفاعل" - المجد "الإشعاع" - الضوء)... وهذه الأسرار الأربعة تتكون من سبعة أسرار تتمثل بالأذنين والأجزاء الخمسة التابعة للرأس، ومناطق الشعر الخمسة على الرأس، لأن هذا التاج يحكم على ٣٦٠ سر التي هي مجموع ما في الجسد عن يمينه وشماله، والكل قد أخذ شكلاً واستقر هناك وتطور إلى ١٠٠٠ سر.

ولهذا فإن هذه الأيام الخمسة تعتبر أتقى الأيام وأطهرها ، (كطهارة النفس بالنسبة للجسد، وأسمائها كسمو الرأس عن الجسد)، ومن هذه الأسرار الخمسة خلق شيء وسطر قبل أن يتجسد، فهي رأس لل ٣٦٠ يوم الباقية، فكل الأسرار تنبثق منها، وإن الخالق العظيم يفصح نفسه فيها، وفي كل يوم بصفة أساسية سامية، واسم يدل على ماهية تلك الصورة الجوهرية الخاصة بالخلق، وهي قد وجدت من قبل ملايين ملايين السنين من الخلق المادي، والتي تجسدت لاحقاً على أساس ذلك التصميم الأول الذي حدث.

(برونايا) لأنها البداية لكل شيء حين تجلى (مشبا اشمي) بأولى حالاته (صفاته) رب ايلايا الرب العلي، ثم تجلى كرب سام (مارا ادربوئا اليثا) كسيد على الكون وبعدها أنشأ الحياة بقدرته وعلى (منداد هيي) وكان أن ثبت الحق في أساس خلقه من بعد (دموٲ كشطا) وأسفر ذلك عن تشكيل وتوزيع المياه الجارية ذو الماء الحي في عالم النور (يردنا ربا مياهي)...

وأتطرق هنا إلى رأي شيخ جليل من رجال ديننا، هو الشيخ (سالم شخير) في تفسير البروانايا ومفهومها حيث قال : هي بدء الخليقة حيث جبل في هذه الأيام الخمسة الكون، بصفة روحانية من صفات الخالق الأساسية حيث قدم فيها الماء والضوء والنور والإشعاع (ميا وزبوا ونهورا وايقاره) وظهرت فيها الحواس الخمسة في الرأس فهي تمثل الرأس، الخالق جل شأنه كذلك فإن الجسد البشري قد توضح بأجزائه الخمسة في هذه الأيام بصورة نورانية وفصلت على

هذه الأجزاء خمسة قطع نورانية تمثلها (الرسته) حيث يقول الخالق : هذا آدم نفخته من صفته بهيئة ريح نورانية في الماء وكان ذا في البروانايا في المي اد دنهورا انتهاء قول الشيخ سالم.

جاء في الصحف الأولى كنزا ربا مبارك اسمه حول الخلق الأول وفي النصوص التي تتناول الخليفة بمختلف أطوار ودرجاتها المختلفة ما يلي : وبأمره مشبا اشمي وقدرته خلق كل شيء وكان ذلك عن طريق الكلمة (هوا بميمرا) أي الخلق بالكلمة أو الاستدعاء حيث ورد (بميمرخ هوا كل مندام) أي (بكلمتك خلق كل شيء) واستعمال (كلمتك) يختلف عن المعنى المجرد الذي نعرفه، فهي لا تنطق أو يؤمر بها إلا بعد اكتمال القاعدة المؤهلة لصدور هذا الأمر، أي وجود حيثيات هذا الأمر، أي أنها عملية علمية بالمعنى السامي...

ويوصف التكوين الأول في أحد نصوص كنزا ربا بأنه كان كالثمرة (فيرا) ، وهذه الثمرة كانت في داخل ثمرة عظيمة ذات كتلة ممثلة محتمة المحتوى، تضم عناصر فريدة ومتنوعة ليس لها مثل في وقتها.

إن ذلك النشوء لم يكن قد اكتمل بعد داخل ما يمكن أن يوصف بالرحم الكوني العظيم (الثمرة الربانية العظيمة) حيث كان محتواه مضغوطاً وهائجاً وعناصره متباينة، فهو ما يزال في عملية النمو والنشوء الأولى ومن بين عناصره اير (الأثير) ومانا (العقل) وبورا (الألق الوهاج) ، وكنا (الفراغ أو المكان) وتتا (النجار الكثيف) ويفلطتا (قطرة التكوين) ودموثا (النظير) وقد ظهرت هذه العناصر الربانية بأوقات مختلفة ذات مراحل وأطوار متسلسلة، فمثلاً (مانا) أي العقل الرباني استغرق وحده في موضعه ٩٩٩٠ مليون سنة و(نيطقتتا) بقيت في مسكنها ١٤٤٤ مليون سنة، وبطريقة ربانية لا يدرك كنهها وعبر عدة مراحل وأطوار نتج عنها (الماء والضياء والنور والإشعاع) ، وهذه هي العوامل الأساسية الجوهرية لعموم عملية الخلق.

ورد في كتابنا المقدس (سيدرا اد نشماتة) في بوثة التكوين (قشش) ما يلي :
(باسم الحي وباسم عالم الحياة وباسم الكائن الأول) الذي هو قبل كل شيء ، قبل
تكون الماء والضياء والنور والإشعاع الكائن الذي خلق بكلمته ونطق بكلماته
من قوله وكلماته (أثمرت وأزهرت ونضجت وتكونت سلالته واستقرت الحياة
الأولى بمقراتها) ، وعندما نستمر بهذا النص نجده يتطرق إلى المرحلة الرابعة
والأخيرة من الخليقة وهي الخلق المادي (دهوا ربا) وهو ما حدث في
(الكرصة) ، حيث يقول (لا هوت اره اد مسوثة ولا هون داري اد بكويهون ميا
سياوي منيهون ومن هنا تون ميا سياوي كبلت ونفقت ببشون اهدي اد هون منا
اليفا ليف رازي وروبان روبان شيعيائي... الخ).

وعندما نقارن ما جاء في كتبنا المقدسة حول الخلق نجده قريباً مما جاء في
بعض النظريات العلمية الحديثة ، فقد تناولت هذه ولادة الكون مبنية على أسس
علمية متينة ، إلا أن النظرية التي حظيت باهتمام كبير ، وعمت شهرتها جميع
الأوساط العلمية هي نظرية (الدوي الهائل) أو ما يعرف (بالانفجار العظيم) ،
وتنص هذه النظرية على أن الكون بدأ بانفجار عظيم مدو ، وهو ليس
كالانفجارات العادية التي تبدأ من مركز معين ثم تنتشر أكثر فأكثر في جميع
أرجاء الفضاء ، بل إن هذا الانفجار حدث أنبياً وفي جميع أرجاء الفضاء ، واندفع
على أثره كل جسيم فيه إلى الخارج مبتعداً عن الجسيمات الأخرى وملاً هذا
الانفجار المدوي جميع أرجاء الكون منذ بدايته.

إن هذا يذكرنا بما يطرحه الفكر المندائي حول عملية الخلق المادي فعند
الرجوع إلى الماضي السحيق نرى أن جميع المجرات والنجوم كانت متقاربة
مع بعضها جداً ، بحيث لم يكن هناك متنفس لها ، وهذا يذكرنا بمطلع البوثة
(حينما كانت الثمرة العظيمة داخل الثمرة العظيمة ، وحينما كان الأثير داخل
الأثير... الخ) ، وفي رأي علمي آخر جاء به البروفسور الروسي (أندريه ليندا)
يقول : إن الفضاء هو وحدة كاملة لا نهائية تكرر إنتاج نفسها باستمرار على

شكل أكوان صغيرة تنشأ ثم تنتشت ، ويعتقد بوجود نظرية تخدم كل شيء وتفسر عالمنا بجمالية وصفاء كاملين...

وأود أن أشير أن من الخطأ الدخول في تفسير الفكر الروحي أو الديني بالانتكاء على النظريات العلمية أو المقارنة بينها، لأن هذه النظريات غير ثابتة وتخضع لمستجدات في مراحل مختلفة وفي نفس الوقت ليس من المنطق أن نعتبر هذا الفكر المندائي الثمين ما هو إلا فلسفة أو أدب أو أساطير بل هو فكر سام وعلم حياة فلا غنى إذن عن تناول هذا الفكر والمبادئ والتعاليم الربانية بعقل واع منفتح يستخدم كل ما هو ممكن من طرق البحث والدراسة والتقصي للوصول إلى الحقائق الأولية، وكما قال (أينشتاين) (العلم بدون الدين أعرج، والدين بدون علم أعمى) ، وختاماً أقول إن ما حدث في أيام البرونايا الخمسة بالمقياس الدنيوي يعد الانبثاق ، والنشوء والتكوين الأول الذي أفصح فيه الخالق العظيم عن نفسه بصفته الواحد الأحد الذي أعلن بدء الحياة الكونية بصفته النورانية الأساسية التي شملت بفعلها وبعد زمن طويل كل أرجاء الكون الذي سطر وصمم بصورة نورانية في هذه الأيام الخمسة المقدسة، مما يتوجب علينا نحن المندائيون الافتخار والإيمان الراسخ بعقيدة النور لنستقي من نوره (مشبا اشمي) وبركاته ما يعيننا على تقويم أنفسنا وعوائلنا ومجتمعنا نحو الصلاح والخلاص في موطن النور والدار المتقنة وهو المزكي.

أبو الفل والعيد الصغير :

لما كانت البداية ؛ كما كتب الترميذا خلدون ماجد الناصح^١ ؛ كان كل شيء مسطراً وموجوداً ، فمنذ الشروع الأول للحياة السامية في عالم النور (البرونايا - البنجة) ثم تنسيب (المصبتا - الصباغة) في (دهفة ديمانة) ، فالحدث الكبير المتمثل بتبجيل الأرض وما حولها (دهفا ربا - الكرصة) حتى نزول جبرائيل الرسول (هيل زيو) في (أبو الفل) وعروجه إلى عالم النور (العيد الصغير) ، ثم كان أن بعث الطيبات (الحبوب) في (أبو الهريس) إلى المخلوقات الأرضية وعلى رأسها آدم وذريته... لتعود إلى رأس هذه الدورة... دورة الخالق والخليقة إلى بدايتها في (البرونايا)...

أما ما كان في العيد الصغير (دهوا هنينا) ضمن حلقات الخلق والتكوين هذه ، فيتمثل باحتلال النور وانتصاره في حلبة الأرض الفانية (آره أد تيبيل) التابعة لعالم الظلام ، ويبدأ ذلك الحدث بيوم (أبو الفل) الذي يصادف الأول من شهر أيار المندائي (أول أبهار) ، حيث يقع في الثلث الأخير من شهر تشرين الأول الميلادي ، وبعد (١٨) يوم يكون الاحتفال بالعيد الصغير .

يمثل يوم (أبو الفل) بداية الحدث وهو المقرون لدينا بأكل التمر والسّمسم (اللدان يرمزان إلى التجسيد الأول للعقل مقروناً للجسد الذي تقوم لاحقاً) ، عندما نزل (هيل زيو) من عالم النور إلى عالم الظلام (وضمنها الأرض الفانية) بأمر من (هيي ربي قدامي) الحي القيوم ، إذ جاء في (الصحف الأولى) ضمن موضوع (مصبتا اد هيل زيو) معمودية جبرائيل ما معناه :

دُعي هيل زيو حتى وصل إلى السيماء العظيم الموقر ، وكانت تلك من تجلياته (مسيح اسمه) ، فهو الذي لا يرى ولا يحد (لا متهيزي ولا مستيخ) ، حينها ارتعب (هيل زيو) وسقط على وجهه ، فبعث (هيي قدامي) الطمأنينة في نفس (هيل زيو) وجعل الخوف والرعب يزولان عنه وقال له : لا تخف يا هيل

١ - للترميذا خلدون ماجد الناصح رجل دين مجتهد له مقالات ومحاضرات مهمة.

زيوا ، إني منحتك قوة لم أمنحها لأحد من الملائكة والأثريين من قبلك ، سلحتك بهذه القوة لتخضع جميع (الأرواح) القوية الطاغية في عوالم الظلام لأمر النور وتجعلهم من الصاغرين).

وأجريت له بعدها كل المراسيم والتحسينات اللازمة لتلك المهمة بدءاً بـ(المصبتا) في ٣٦٠ من الأنهار الجارية في عالم النور (الجنة) حتى تزويده ب ٣٦٠ من الأسرار الربانية الخفية الفاعلة ومنحه الراية المضئية المسماة (بهرام) والتي تضيء بنورها جميع العوالم.

وبدأت رحلة النزول وكان برفقته العديد من الأثري المساعدين غير المرئيين ، مروراً بالعديد من المحطات والكائنات في عوالم الظلام ، حيث كان الشر والخديعة والتمرد على عوالم النور ، من أجل إدامة السيطرة على كل العوالم الدنيوية ، ولكن الذي تمخض عن مهمة (هيبل زيوا) هو استسلام وخضوع تلك العوالم الظالمة وكائناتها الشريرة لأمر (ملك النور السامي) الذي زود (هيبل زيوا) بهذه القوة ، وكان معه أينما كان ، إذ ورد في ذات النص : (وبذلك انتصروا على ملائكة الظلام وقيدوهم وخرجوا من عوالمهم ، فمن ينتسب للنور يعود إليه ومن ينتسب للظلام يعود إليه ، فأعلن ملائكة الظلام الطاعة إلى الخالق العظيم وملائكته ورسله ، وسلموا وثيقة الطاعة إلى الملاك هيبل زيوا ، وعادوا الملائكة الأثريين مرتفعين ظافرين منتصرين إلى عالم النور).

وعندها أقيم الاحتفال للملاك الرسول ومن معه وحصل هيبل زيوا على ٣٦٠ صباغة مع صلاة الارتقاء (مسقثا) كي يحصل على مرتبته التي يستحقها في عالم النور أمام ملك النور ، ويقابل هذا الاحتفال ما أطلقنا عليه عندنا (العيد الصغير) الذي يأتي حسب زمننا الأرضي بعد ١٨ يوم من بداية الحدث في أبو الفل.

ولا نستطيع أن نفهم ما حصل ضمن حلقة (العيد الصغير) دون استيعاب المفاهيم الأساسية للأحداث أو المناسبات (الذهفي) التي سبقتها والتي لحقتها ،

فبعد أن تصلبت الأرض كانت خالية من الحياة المبعوثة من عالم النور ، عدا المخلوقات الأرضية بأول صورها ، والتي وجدت في المياه الجارية وتقومت فيها ، كان من حكمة الخالق وأمره بأن توجد حياة عاقلة على هذه الأرض وهذه تتمثل بخلق آدم وحواء ، ولم يأت خلقهما إلا على عدة مراحل ، فبعد وجود آدم بصورته الجسدية لم يكن يقوى على الوقوف أو التفكير أو السلوك كإنسان عاقل لأنه كان جسداً فقط ، وهذا ما ورد في كنزا ربا صحف آدم.

كذلك أن (نشمثا) النورانية وهي نسمة الحياة الربانية ، لم يكن لها أن تحل في جسد آدم لاحقاً ، والدنيا التي هو كائن فيها ، خاضعة لسلطة الظلام وهي كائنة فيه ولم تنزل ، فكان من حكمة (هبي قدمايي) وأمره ووجوب فعله أن تهباً الأرض لآدم وحواء وذريتهما لتكون حياة للأنفس (نشمثا) تابعة لعالم النور في عقر دار الظلام ، وتحقق ذلك بنزول (هيبيل زيوا) الذي يمثل (هبة الضوء) أو طاقته وفعله الحياتي الذكي ليلجم فعل وقوة عالم الظلام من جهة وليبعث النور وسلطته على الأرض من جهة أخرى.

وعند سؤالي للمرحوم الشيخ سالم شخير عن مغزى (العيد الصغير) قال : هو الحدث الذي تمّ بموجبه ربط نشمثا بالروح ، وقد وردت بعض الدلائل في نصوص مندائية تؤيد هذا الرأي ، حيث أنها تشير إلى علوق (نشمثا) في جسد الجنين وهو في رحم أمه بعد ١٠٨ يوم من التكوين الأول (الإخصاب فالانقسام الخلوي) ، وهذه هي ذات المدة التي تفصل بين العيد الكبير (الكرصة) والعيد الصغير ، وحسب المعلومات الطبية فإن الهيكل العظمي والجهاز العصبي المركزي للجنين لا يكتمل إلا في الشهر الرابع من الحمل ، كذلك أشارت آخر البحوث الطبية أن الجنين لا يستجيب للألم في حال تعرضه لشدة خارجية ، إلا في الشهر الرابع من عمره ، وبما أن المبادئ المندائية (المعرفية) تطرح مقولة إن خليفة الجسد والإنسان تقابل خليفة الكون بأسره ، فإن تجبيل الأرض في الكرصة برأينا يقابل تكوين البيضة ثم تخصيبها ، فالانقسامات وتكوين الطبقات والأعضاء ... الخ.

فالروح الدنيوية (الروها) التي التبتت في الأرض حينها تمثل العنصر الأنثوي، والملاك (أبثاهيل) الذي قام بمهمة (التجيبيل) بمساعدة آبائه المبجلين بأمر وقوة الخالق العظيم يمثل العنصر الذكري، ويجب أن نعلم هنا أن نشمنا لا تحل في جسد آدم أو الجنين في بطن أمه ما لم يكن مؤهلاً لاستقبالها، علماً أن توصيف هذا الجسد بهيئته الروحية تمّ في عالم النور قبل ملايين السنين من تجسيده على الأرض.

وليس معنى هذا أن يكون نزول (هيبل زيوا) في تلك المناسبة هو الحدث الذي تمّ فيه حلول نشمنا في جسد آدم ليصبح الإنسان العاقل الذكي دفعة واحدة، إنما كان ذلك تمهيداً لذلك الحدث، فلو قمنا بعملية حسابية بسيطة تبدأ بالعيد الكبير (الكرصة) حتى العيد الصغير، يكون لدينا العدد ١٠٨+٤٤ يوم (لغاية أبو الهريس) + ٩٠ يوم + ٥ أيام المبطلّة الثقيلة التي تسبق (البنجة) يكون الناتج = ٢٤٧ يوم، وما هذه إلا فترة الحمل لدى المرأة.

ويبقى السؤال، هل العقل لدى آدم اكتمل عند حلول نشمنا فيه دفعة واحدة وهو جسد كامل، أم كان ذلك مبتدئاً بمرحلة جنينية؟ فكما يحدث على كل جنين في بطن أمه فإنه يقال إن نشمنا علقت أو نبطت فيه كالبذرة التي بدأت بالإنبات، ودليلنا على ذلك أن الطفل لا يبلغ الرشد إلا بعد سنين...

بقي أن نقول إننا يجب أن ننظر عندما نتناول الفكر والمبادئ المندائية (المعرفية) من زاوية ما وصل إليه العقل البشري الذي هو معجزة الخالق العظيم، من تقدم كمي ونوعي في طريقة ووسائل البحث والاستدلال لمحاولة الوصول إلى حقائق الوجود والخلقة والإنسان التي هي ذاتها ما فتئت تشغل الإنسان ومن قبله الملائكة والأثريين.

إلى صاحب الفخامة:

وثيقة إلى صاحب الفخامة رئيس مجلس الوزراء الأفخم بتاريخ ١ شباط ١٩٣٢ من علماء وزعماء وأفراد طائفة الصابئة في العراق ناحية مسيعة (الكحلاء - ميسان)، يطالب الموقعون فيها:

الاعتراف بطائفة الصابئة المندائيين أسوة بالطوائف الأخرى، بعد أن صدر قانون التجنيد الإجباري، والذي احترام حقوق جميع الطوائف ماعدا طائفة الصابئة التي كانت بعيدة عن الاشتراك في الهيكل الحكومي والوظائف، وبعد أن التحق بوظائف الدولة عدد من أبناء طائفتنا خدمة للبلاد، لذا أوجب الاعتراف بوجودها واعتبارها طائفة دينية لها ما لغيرها من حقوق ولها ما لغيرها من واجبات خاصة، بعد أن سارع أفراد طائفتنا بالانضمام لخدمة العلم، إلا أن الحكومة استثنت رجال الدين من الخدمة العسكرية لدى سائر الطوائف، عدا طائفة الصابئة، ولما كان رجال ديننا يتوجب عليهم طقوس خاصة ومسالك خاصة في طريقة معيشتهم، لا يمكنهم معها الانخراط في سلك الجندية، وبالإضافة إلى أن رجال ديننا لا يجوز لهم قص شعورهم أو تناول طعام طهته غير يدهم؛ لذا اقتضى إعفاؤهم من الالتحاق بالجندية أسوة بأمثالهم من رجال الدين للطوائف الأخرى.

كذلك إن هناك أعياد مثل عيد البنجة الذي يجب فيه على كل صابئي أن يتمتع عن الطعام والشراب، وأن يسبح في الماء الجاري قبل الأكل والشرب، فكيف يتسنى له القيام بتلك الشعائر وهو في الجندية، لذا اقتضى أن تعترف حكومتكم بديانتنا رسمياً، وأن تعطي لأفراد طائفتنا رخصة عامة في هذه الأعياد ليتمكن أبناء طائفتنا بحرية الأديان التي نصت عليها جميع القوانين والمعاهدات الدولية، كما نص القانون أن عدم السماح لنا بتعاطي أمورنا الدينية بما يجب من الحرية يجعلنا مضطرين ومرغمين لمغادرة هذه البلاد التي تقيأنا بظلالها ونشأنا مستظلين تحت علمها، وهذا أمر لا يرضي فخامتكم بوجه من الوجوه نظراً لما

عرف عن فخامتكم من السعي الحثيث لتقدم هذه البلاد وزيادة مواردها واستثمار خيراتها ، فعليه تجاسرنا لأن نلتمس من فخامتكم تحقيق المطالب التالية:

١- اعتبار أعياد الطائفة أعياداً رسمية ليتسنى لنا القيام بشعائرها الدينية.

٢- الأعياد هي عيد البنجة ومدته خمسة أيام وعيد ميلاد النبي يحيى ومدته يوم واحد، والعيد الكبير وعيد رأس السنة ومدته أربعة أيام، والعيد الصغير ومدته يومان.

٣- إعفاء رؤسائنا الروحانيين من الخدمة العسكرية ، لأن أمورهم الدينية لا تساعد في الانخراط في سلك الجندية.

يتضح لفخامتكم أن مطالبنا جميعها مشروعة وأن عدم تنفيذها يؤثر على عقيدتنا، ولا يخفى على فخامتكم أننا لم نسجل ديننا رسمياً قبل الآن لأن الحكومة العثمانية كانت بعيدة عن ديارنا، ولم يكن لنا بها علاقة، لا من حيث التعليم أو الجندية ، وأما الآن فقد اشتركنا بواجبنا في خدمة الدولة العلية العراقية، الأمر الذي حدا بنا لأن نلتمس من فخامتكم تحقيق مطالبنا المشروعة هذه، نأمل ألا تتأخروا عن إنصافنا ومساواتنا بغيرنا من الطوائف العراقية المشمولة برعاية فخامتكم، وتقبلوا فائق الاحترام مولانا...

التواقيع:

(صكر بن لفته، مظلوم بن لفته، عبيد بن لفته، عنبر بن منيشد، جبر بن عسكر، مغامس بن مطر، إبراهيم وهام، يوسف بن مظلوم، عيدان عبد، حافظ بن حريب، كريم بن موحى، مجيد بن مغامس، شنشيل حسن، خضير بن صكر، آدم بن شمخي، فنجان بن شمخي، كاطع بن شمخي، حسين باهر، شمخي بن جبر، مريجب بن بخيت، سويد بن عايز، سعيد مغامس، راشد بن حافظ، جبار عنبر، ناصر بن صكر، حمد بن فلت، ياسر صكر، عيدان سبتي، وسمي بن شمخي، حيدر بن صكر، داود بن سلمان، عبد اللطيف حافظ، مهتم بن شمخي،

جبار بن مظلوم، عبد الرازق صكر، زبون بن صكر، ناهي بن جبر، صبري شمخي، غازي بن رميض، عودة بن رميض، شلش بن مطير، خلف بن رميض، حمادي مغامس، عبودي بن حريجة، جبار بن عبودي، شفي بن حبل، جاسم بن شاوي، شنيشل بن كريم، كامل عودة، عاقول بن معيدي، صالح جابر، زغير بن صبر، سلومي لعبد الله، خلف بن عبد الله، بنيان بن شاوي، حرز بن عذاري، مسلم بن منصور.

متى أُقرَّتْ أعياد المندائيين بصورة رسمية:

في عام ١٩٣٦، وفي عهد حكومة حكمت سليمان، أُجيزت الأعياد المندائية، وقد سعى في استحصال ذلك المرحوم شيخ عبد الله شيخ سام، فنُبت لأول مرة واستبشر المندائيون لذلك وصار من حق الموظفين منهم التمتع بالعطلات ومشاركة ذويهم الأفراح، وقد ثبت القانون أعياد الصابئة كما يلي:

١- ٨/٧ آب يومان للعيد الكبير.

٢- ٢٣ تشرين الثاني يوم واحد للعيد الصغير.

٣- عيد البنجة في ٢٦ - ٢٧ آذار.

٤- عيد ميلاد النبي يحيى (ع) في ٣٠ أيار.

ولما كانت سنة المندائيين تساوي ٣٦٥ يوماً فقط، فتتقدم الأعياد يوماً واحداً كل أربع سنوات، وهنا حصل الاختلاف في التواريخ فالتمس المندائيون في حينه من مجلس قيادة الثورة الموقر من عدم تحديد تواريخ معينة لأيام الأعياد.

وقد استجابت الحكومة لهذا الالتماس وأجرى السيد وزير العدل تعديلاً خاصاً بذلك بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٣ والمنشور في جريدة الوقائع العراقية العدد ٢٢٤٤ بتاريخ أيار ١٩٧٣ جاء فيه:

(باسم الشعب - مجلس قيادة الثورة استناداً إلى أحكام الفقرة أ من المادة ٤٢ من الدستور المؤقت وبناءً على اقتراح السيد رئيس الجمهورية قرر مجلس قيادة

الثورة بجلسته المنعقدة بتاريخ ٢٢-٤-١٩٧٣ إصدار القانون الآتي : تحذف
الفقرة ج من المادة الثانية من قانون العطلات الرسمية رقم ١١٠ سنة ١٩٧٢
ويحل محلها:

ج- للصابئة:

١- يومان للعيد الكبير.

٢- يوم واحد للعيد الصغير.

٣- يومان لعيد الخليفة (البنجة).

٤- يوم واحد لمولد النبي يحيى (ع) عيد دهفا اد إيماننا.

المادة الثانية ينشر هذا القانون في الجريدة الرسمية ويتولى الوزراء تنفيذ
أحكامه).

الألوان في كتاب كنز ربا :

يعبر اللباس المندائي الديني المقدس (رستا) كما ذكر الدكتور صبيح مدلول في مقال له ؛ من الأصول الدينية الأساسية في العقيدة المندائية ، إذ يجب أن يكون لونه أبيض ، فالأبيض هو لون المندائيين ، عندما تكون الألوان هي السمة الخارجية للطقوس وأعمال العبادة للطوائف والملل الدينية ، كما هو الحال عند الطوائف والملل الدينية في الشرق.

فالأبيض هو رمز لعالم النور (الحياة) ، ويرد مع كلمات أو مصطلحات أخرى ينتج عنها ظهور مصطلح لاهوتي له معنى لاهوتي معين في العقيدة المندائية ، أي أنه يستخدم بأساليب مختلفة لها علاقة ما مع مصطلح الأرض البيضاء (أرقا هيوارتيا) ... (ومن الأرض البيضاء الطاهرة أربعمئة وأربعة وأربعون ألفاً من الأثريين إلى مئذاهي يذهبون) - كنز ربا ص ٢٨٤... والضياء والأثير وأرض النور وأرض آير البيضاء ؛ هي رموز وصور مترادفة لعالم النور ، أو هي نفسها يرمز بها لعالم النور ، (وينطلقون في خطى سريعة ويطيرون في أرض آير البيضاء تلك ، والضياء المشرق عليهم لا غروب فيه ولا ظلام) - كنز ربا ص ٨. وهذا يعني أن المصطلحات التالية هي رموز للضياء والأثير والعالم الإلهي ، الوعاء الأبيض ، السمس الأبيض ، الراية البيضاء ، الثمرة البيضاء ، وهي تسمية لـ(سام) : (وجه باهري الصدق أكثر إنارة من أبناء سام "الثمرة البيضاء") - كنز ربا ص ١٣٥... والثمرة البيضاء تأتي أيضاً بمعنى : مكان تجمع أو حفظ نشماتنا ، يردنا الأبيض (الماء الأبيض) : (مياه يراذن ألكوان النور هي مياه أشد بياضاً من الحليب وأبرد وأحذب ورأحتها ألذ من جفانت الأطياب العظيمة ، والملائكة الذي يشربون منها لا يذوقون طعم الموت) - كنز ربا ص ٧.

وبشكل مغاير عن الماء الأبيض نذكر المياه ذات الألوان الأخرى ، ولها مكانة سلبية في العقيدة المندائية ، وردت في نصوص كنز ربا : (الماء الأحمر : في

البحار السبعة يجري الماء الأحمر ، وكل امرأة تشرب منه تصبح حاقراً وتفقد عقلها ("كنزا ربا ص ٣٢٨" ، الماء الأخضر : (ويأتي من المحيط ونشمانا التي تشم رائحته تخرج من أجسادنا أي تموت) "كنزا ربا ص ٣٢٨" ، الماء الأسود : (في أرض سينيا ويسري في الظلام ينفور ويغلي ، ومشربه أشرار عالم الظلام وماواهم هو الماء الأسود) "كنزا ربا" ، النسر الأبيض : عند المندائيين تعبير للكائنات العليا أو الأثريين ، (ومن قال للروحة الكذابة أن النسر الأبيض قد صعد إلى قرية أورشليم) "كنزا ربا ص ٢٧٣" ، هنا المقصود بالنسر هو آنوش أثرا ، والنسر الأبيض كنية أيضاً لهيبل زيو ، ويعتبر النسر رمزاً للملك والمخلص في الشرق القديم.

والمصطلح الأخير بالطبع الأردنية البيضاء "الكائنات النورانية" ، ولهذا السبب يحذر من الأبيض بمعنى الالتزام بالأبيض : (أيها المؤمنون بي البسوا الأبيض الذي يشبه الضياء وأردية النور ، واحتمروا بعمامات بيضاء كالأكاليل البهيجة ، وتزينوا بهمياني ، وانتعلوا صنادل واحملوا مركبي). كنزا ربا ص ٢١.

ورفض كل ما هو ملون^١ : (أعلّمكم يا تلاميذي أي رجل ناصورائي يهبع الأجر وصدقة ياور فيأتي بأصباغ ويأخذ ثياب بيضاء ويغير أشكالها ويلبسها لزوجته ويجعلها تقف قدامه ، فسيضرب ضرباً بلا حدود)... كنزا ربا ص ١٨١ - ١٨٢ لأن الألوان هي رمز للظلام أو رمز للفناء ، فإن القوى الشريرة ترتدي الأردنية الملونة ، (ماذا تقولون لأبائر الأثري عن رداء الظلام الذي ترتدونه في هذا العالم ، عن الأردنية الملونة الأثني محشة التي جاءت من الظلام)... كنزا ربا ص ٣١٣.

والطاووس بريشه الملون هو رمز للمشاركين الخاطئين في عملية التكوين ، فبثاهيل ارتدى أردية ملونة بعد أن فشل في عملية التكوين ، (وحين رأى بثاهيل

١ - ونصوص كتاب يحيى ص ٨٩ "ضد صبغ اللحى، وفي هذا الاتجاه نلأز اللون الأزرق هو لون الروحة الشريرة، وعند البابليين كان اللون الأحمر هو لون قوى العالم السفلي، واللون الأسود والرمادي هو لون Ahrimans الفرس.

هيائته الذاتية لأبسا سبعة أثواب من كل صنفه ومن كل لون ؛ خلعها وألقاها عنه، وألبسه أباثر من بهائه ومن نوره الخفي).. كنز أربا ص ١٢٨ - ١٢٩ ، وقال هيبيل زيوأ يوم زواجه بزهرئيل : (الأشرار الحاطوني والبسوني ثوباً من حرير ، وضعوا علي أردية من كل لون)... كنز أربا ص ١١٤ .

والجسد كرداء أرضي لنشمتا هو رداء من جميع الألوان ، وتبعاً لذلك فالصبغة بالرداء الملون يقود إلى الجحيم ، واليوم لا يزال البعض من المندائيين ومنهم رجال الدين يحرم ارتداء الملابس الملونة - خاصة كبار السن منهم - لكن الأكثرية لم يلتزموا بهذه الفريضة بالتمام ، وبالمقابل التزموا بشدة ومنذ القدم وإلى يومنا هذا بفريضة لون ملابس الصباغة (التعميد) - رستا - وملابس الموت بالأبيض ، لأنه ركن من أركان العقيدة المندائية.

ومن جانب آخر نذكر أن اللون الأبيض كرمز للحياة أو للعلم الإلهي منتشر بصورة كبيرة من خلال ارتداء رجال الدين الزي القدسي الأبيض في أنحاء واسعة في الشرق ، كذلك عند الفرس والمانويين ، وفي الكنائس المسيحية أن اللون الأبيض هو لون التعميد ، ونذكر هنا أيضاً التصور عن رداء النور السماوي، وشبيهه الأرضي الرداء الأبيض المقدس.

ومما سبق وردت بعض التصورات الغنوصية التي وجدت في المندائية العديد من الاستشهادات ضمن مبدأ رداء التصوف ككل^١ ، فالأردية البيضاء إذا هي أردية الكائنات النورانية والمؤمنين على الأرض ، ونفهم من كل ذلك ولأسباب أعلاه أصبح الأبيض تقليداً من جهة وفريضة من جهة أخرى عند المندائيين حسب ما جاء في العقيدة المندائية.

١ - ترتدي الكائنات النورانية أردية الضياء عندما تلتقي النشمتا، كما أن أردية النور (الضياء) استخدمت في عملية التكوين، قال أباثر إلى أبثاهيل: خذ من سبعة أثواب الضياء والنور والوقار التي أنا ألبستك والى بها في الماء العكر فتصير الكثافة حالاً. كنز أربا ص ١٢٨ - ٢٢٩

البحث الثالث

إصداراتهم والحركة الثقافية لديهم

في بداية تشكيل المجالس ؛ اتخذ مجلس شؤون الطائفة قراراً في عام ١٩٩٧ بإصدار مجلة خاصة بالطائفة باسم (آفاق مندائية)... وتم تكليف الدكتور قيس مغشغش السعدي بالإشراف على إصدار العدد الأول منها، والذي كان من أربع صفحات... بعدها صدرت أعداد فصلية من المجلة... وبعد أن هاجر الدكتور قيس مغشغش من العراق تمّ تكليف الأستاذ حامد مغشغش السعدي ليقوم بالمهمة وبمساعدة هيئة تحرير للمجلة، بعد ذلك سُلّمت المهمة إلى الأستاذ نزار ياسر صكر، والذي عمل بجد ومثابرة مع زملاءه في هيئة التحرير لأجل تطوير هذه المجلة الغراء وجعلها تنافس أكثر المجلات شهرة في حينها وهي مجلة (ألف باء) والتي تصدرها وزارة الثقافة والإعلام العراقية.

وفي مقابلة لي والأستاذ نزار ياسر مع الأستاذ أمير الحلو رئيس تحرير تلك المجلة في مقر المجلة سألنا عن الكادر الذي يُصدر آفاق مندائية وانداهش الرجل عندما علم أن كادر المجلة هم خمسة من المتقنين المندائيين، لأن ألف باء كانت لها إمكانات كبيرة ولها كادر كبير وتصدرها وزارة، وكانت المجلة تحوي مواضيع شيقة وهامة ومفيدة، وتعتبر أعدادها من المصادر المهمة للتعريف بالمندائيين والثقافة المندائية والدين المندائي، كما أنها كانت مميزة بطريقة طباعتها وإخراجها، وحتى الورق المصقول الذي تُطبع عليه موادها.

ومازالت لحد الآن تصدر آفاق مندائية عن مجلس شؤون الطائفة العام في بغداد، والمتقنون المندائيون رغم توزعهم في قارات العالم يعتبرون آفاق مندائية الحبل السري الذي يربطهم بالوطن الأم العراق... كذلك تصدر في السويد مجلة باسم (الصدى) من قبل الجمعية المندائية في ستوكهولم، أما مجلة (هيمنوثة) التي تعني بالشأن الديني فتصدر في كل من العراق والسويد، كما

توجد إصدارات أخرى في عدد من الدول التي يتواجد فيها المندائيون بأعداد كبيرة نوعاً ما.

يوجد هنالك عدد من العلماء والأدباء لهم إصدارات وأعمال رصينة ورائعة... نذكر منهم على سبيل الذكر لا الحصر: (العالم عبد الجبار عبد الله - الكاتب عزيز سباهي- الكاتب عبد الاله سباهي- الكاتب هيثم نافل والي- الشاعر عبد الرازق عبد الواحد- الشاعرة لميعة عباس عمارة- الشاعرة سوسن سيف- الشاعرة حزام عبد السلام عامر- الكاتب جمال حكمت عبيد- الكاتب الناشئ- الشاعر سعدي جبار مكلف - الباحث د. بشير عبد الواحد يوسف- الشاعرة إلهام زكي- الشاعرة زهور بابل- الكاتب ماجد الحبيب- الكاتب عباس فاضل- الكاتب صباح حكمت عبيد.

وتعتبر الأعوام ٢٠١٥ - ٢٠١٦ - ٢٠١٧ أعوام الإصدارات المندائية حيث صدر عن مؤسسة شمس للنشر والإعلام بالقاهرة نحو خمسة عشر كتاباً أدبياً وثقافياً كان لها وقع جميل في نفوس المثقفين ، وهنا أسجل شكري وامتناني للكاتب المبدع هيثم نافل والي لتشجيعه الأدباء المندائيين على طباعة إنتاجهم ومتابعة إصداراتهم.

ومن روائع العمل المندائي تأسيس (رابطة الأدباء والفنانين المندائيين) والتي عقد مؤتمرها التأسيسي في هولندا بتاريخ ٤ - ٦ - ٢٠١٦ ، والذي تمّ خلاله انتخاب الأستاذ همام عبد الغني رئيساً للرابطة والأستاذ فوزي صبار طلاب أميناً عاماً لها ، كما تمّ انتخاب هيئة إدارية كفوءة... وكان من المفروض الاهتمام بالأدباء والعلماء الذين لديهم إصدارات متميزة ، ولكن للأسف أهمل هذا الجانب ، وعلى أية حال فإن الرابطة مازالت في بداية عملها والأبواب مُشرعة لاستيعاب جميع الكفاءات.

وهنالك عدد كبير من المثقفين والفنانين يتمنون أن تكون هذه الرابطة مستقلة وغير خاضعة إدارياً وفنياً لأي تشكيل مندائي ، وهنا يكمن سر الإبداع ، فكل

المؤسسات التي تُدار من قبل الأحزاب والجمعيات أو الدولة فإنها بالتالي تخضع لسياسة الحزب أو الجمعية أو الدولة.

وحاليًا تقع مسؤولية كبيرة على عاتق الهيئة الإدارية للرابطة لتقوم بتنظيم العمل وتشجيع الكتاب والشعراء والفنانين للإنتاج والإبداع، والمتابع والقارئ اللبيب يفرز الغث من السمين، ويحق للنقاد تقييم الإصدارات بكل أمانة وصدق، هنالك مراكز ثقافية مندائية عديدة في عموم أرجاء العالم، وأنا لاحظت أن من أنشطها وأكثرها فعالية هي (الجمعية الثقافية المندائية في مدينة لوند السويدية)، وقد أعجبني كثيرًا حسن تنظيمها للذكرى المئوية للعالم الفذ الدكتور عبد الجبار عبد الله، وكذلك المؤتمر السادس لاتحاد الجمعيات المندائية في المهجر.

بيت المعرفة أنشأ هذا البيت في مندي القادسية في بغداد على أحدث طراز، وهذا البيت يعتبر اللبنة الأولى لتأسيس أكاديمية الدراسات المندائية ولكن المشكلة هي قلة أعداد المندائيين من حملة الشهادات في العراق حاليًا، وكذلك عدم توفر الأساتذة المختصين... وأنا أرى أن السويد أكثر دولة مؤهلة لتأسيس (كلية الدراسات المندائية) وذلك لوجود عدد من حملة الشهادات العليا المؤهلين أن يكونوا أساتذة ومشرفين على الدراسة فيها، كما أعتقد أنه من الضروري أن ترتبط الكلية بجامعة رصينة تصدر الشهادات منها للطلبة الذين يتخرجون من الكلية، وبعد عدة دورات ممكن أن تصبح الكلية مستقلة بذاتها، ومن ثم ممكن أن تصبح أكاديمية.

المندائيون ونهضة العراق الثقافية :

عدد من المندائيين دخل كلية الشرطة التي كانت تتطلب اللياقة البدنية والشجاعة للقبول فيها ، ومنهم من دخل الكلية العسكرية ليتخرج ضابطاً ، وأبرز المندائيين وأولهم في هذا المجال هم السادة (أسعد جابر غالي؛ الذي كان أول ضابط مندائي، وعزيز داخل، وسالم هامل، وعربي فرحان، وسعيد فياض) ، وكانوا نموذجاً في الوطنية والأمانة والشجاعة والإخلاص ، ولكن أكثر القبول كان في مجال التعليم ، فتخرج عدد كبير من أبناء المندائيين كمعلمين ومدرسين انتشروا في مدارس العمارة والناصرية والبصرة ، وكانوا يتميزون بإخلاصهم واندفاعهم لأداء الواجب ، وبأخلاقهم العالية وتفانيهم في عملهم.

ومن الجدير بالذكر أن هذا العدد لم يقتصر على الرجال فقط ، بل اندفعت الفتيات المندائيات ليزاحمن إخوانهن الرجال في هذا الميدان ، وكانت أول فتاة مندائية تتخرج معلمة هي السيدة المرحومة (باشه عبد الله مسلم) ، ثم تبعته فتيات أخريات كن الرائدات الأوائل في التعليم ، منهن : (ناجية غافل ، وكمالة عمارة وحلوة شيخ زهرون وغيرهن).

وهناك طرفة لا بد من ذكرها ، ففي عام ١٩٣٦ عينت الأستاذة ناجية غافل مديرة لمدرسة الرفاعي ضمن منطقة المعارف الجنوبية ، وكانت هذه المدرسة فتحاً جديداً في المدينة ، وعينت معها معلمتان إحداها مسيحية والأخرى يهودية وعند توزيع جدول الدروس الأسبوعي ، وجدت المديرة أن هناك فراغاً يتوجب إشغاله لتدريس مادة الدين ، ولما لم تكن هناك معلمة مسلمة لتدريسه ، خاطبت المديرة إدارة التعليم في البصرة بذلك لإيجاد حل لهذه المشكلة ، فما كان من المربي الكبير عبد الرزاق إبراهيم إلا أن أجابها بما نصه أن تقوم المعلمة الصابئية بتدريس مادة الدين الإسلامي ، مما يعني اعتزازه بالمعلمة الصابئية للقيام بهذا الواجب رغم حساسيته.

ومن الطريف أن أذكر أنه في عام ١٩٤١ - ١٩٤٢ قررت وزارة المعارف العراقية استحداث مدرسة أطلق عليها (كلية الملك فيصل) يقبل فيها من كل لواء الطالبان المتفوقان الأول والثاني من خريجي الدراسة المتوسطة وكان نصيب لواء العمارة آنذاك الطالبين المندائيين (آدم وني الهلالي، ومانع غانم العيداني) وكان هدف الوزارة من فتح هذه المدرسة إعداد كادر متقدم من أبناء الشعب يتولى مستقبلاً أشغال المراكز التخصصية العليا في المؤسسات العلمية والأكاديمية، وكان عميدها انجليزياً وسارت الدراسة فيها على خير ما يرام خلال السنة الأولى، وعند مستهل السنة الثانية توسع النضال السياسي والوطني في العراق وبعد ثورة مارس التحررية، وعمت الكليات والمعاهد والمدارس الاضطرابات والمظاهرات ضد المستعمر المحتل، وشاركت كلية الملك فيصل فيها، فقررت السلطات غلق الكلية وإعادة طلابها كل إلى لوائه في المدارس الثانوية، وهكذا عاد الطالبان المندائيان إلى ثانوية العمارة، وكان ذلك بعد امتحانات نصف السنة، وهما في مستوى علمي يختلف عما هو موجود في ثانوية العمارة بسبب اختلاف المناهج، وتمكنا من النجاح في الدور الثاني ولكن بعد ضياع فرصة ثمينة لهما كانا يحلمان بها في كلية الملك فيصل، وما ذكرته من كل هذا الحديث أردت أن أستخلص أن أبناء طائفتنا المندائية سباقون إلى العلم والمعرفة، متفاعلون مع أحداث هذا البلد متفوقون إذا سنحت لهم الفرص، وأنهم رمز للإخلاص والتفاني.

التدوين عند المندائيين

كيف دَوَّن المندائيون مخطوطاتهم عبر العصور؟

نجح المندائيون بالاحتفاظ بطابعهم الديني والاجتماعي على مدى عشرات القرون ، رغم الظروف الصعبة التي مروا بها ، والمحن التي تعرضوا إليها ، والهجرات المستمرة التي أجبروا عليها ، وكما ذكر مؤيد مكلف في مقال له أنهم نجحوا بالاحتفاظ بنصوصهم الدينية الموهلة في القدم ، وتقاليدهم الطقسية وتراتيلهم وصلواتهم ومدلولاتهم الدينية ووصاياهم ومواعظهم بفضل تدوينها بخط أيديهم...

ويعود الفضل الأكبر للاحتفاظ بكل هذا التراث لأناس نذروا أنفسهم للدين والطائفة ، وتحملوا المصاعب الجمة من أجل ذلك ، أولئك هم النساخ والكتبة والشيوخ المدربون على مثل هذا العمل الشاق المرهق ، والذين استطاعوا بفضل جهودهم من نقل تلك المدونات بأمانة ودقة دون تحريف أو تغيير ، ولنا أن نقدر مدى صعوبة هذا العمل في أزمنة لا مطابع فيها ولا ورق كما ينبغي أن نعرف أن للمندائيين أكثر من كتاب ديني كما أنهم كانوا منتشرين على رقعة جغرافية واسعة ، ولهذا السبب فقد احتفظوا بنسخ من نفس النصوص في أماكن متفرقة.

كان الاستنساخ تقليدًا متوارثًا لازمهم على مر الأجيال وساروا على منواله ، وكانوا يعتبرون أي تحريف أو هفوة في النقل ذنبًا ولعنة تصيب المحرف ، ولهذا حافظوا على دقة النقل للمحتويات الأصلية لتلك المجاميع ، ولا يخفى أن المندائيين كغيرهم من سكان العراق القدماء لم يجدوا غير لفائف ورق البردي أو ألواح الرصاص أو الفخار يدنون عليها الكلمة أو الفكرة.

والشيء الملفت للنظر هو أن الذي وصل إلينا من تراث الأجداد المدون لم يكن نصوص تتعلق بشؤون الحياة الاعتيادية كالمعاملات القانونية والتجارية والإدارية ، وإنما كانت نصوصًا دينية بحتة ، والسبب في ذلك يعود إلى أن

أجدادنا لم تقم لهم كيانات خاصة بهم تتطلب تلك التفاصيل وهذا بلا شك لا يتطلب تنظيمًا مدونًا في كل مجالات الحياة، لأن كل الذي كان يهمهم هو حفظ تراثهم الديني، الذي هو أساس بقائهم كطائفة دينية...

وقد كانت مدينة الطيب مركز مهم وكبير لتجمع أولئك النساخ والكتبة المتمرسين في هذا المجال، والذين كانوا قد تعلموا بالتجربة كيف يصنعون المداد من أخلاط من المواد عرفوها بالخبرة، وأقلامًا للخط صنعوها بأيديهم وورق وألواح أعدوها لهذا الغرض...

واستكمالاً للحديث ينبغي أن نشير ولو إشارة عابرة إلى عدد من أسماء أولئك النساخ الذين ورد ذكرهم في كتبنا المقدسة واقترنت أسماؤهم بالتكريم والإجلال فمنهم من بلغ مرتبة دينية متقدمة (ريشما)، وكان أشهرهم (زازي ادكوزتا برهوا، وراموي بر ايقايمت، واشكندا برياسمن، وبيان بر ابرخ ياور، وهيونا بث تهوي) وغيرهم ذكروا بأسماء دينية (ملاويش) امتدت حتى زمن الرواد الأوائل.

كان ذلك العمل إذن طوعيًا دون أجر مادي تقريبًا للحي العظيم، وقد قاموا به خير قيام مراعين دقة الخط وصحة الحرف وقياس أبعاد السطور فصانوا بعملهم العظيم هذا دينهم من الضياع وتراثهم من النسيان وأوصلوا الأمانة سالمة إلى الأجيال اللاحقة فاستحقوا بذلك شكر المندائيين وامتنانهم على مر الزمان رحمهم الحي القدير برحمته.

مطبوعاتنا المندائية في الخارج...

أسماء متعددة وطموح منشود :^١

غالبًا ما نسمع عن مطبوعات مندائية تصدر خارج القطر ، وبصورة دورية منتظمة أو غير منتظمة وفي نفس الوقت ، فهي محدودة الانتشار ، والحصول عليها يكون إما عن طريق الهدايا المقدمة من الأصدقاء في الخارج ، أو على شكل اشتراكات ، فهناك إصدارات عديدة من المطبوعات التي تصدرها الجمعيات المندائية في دول عدة ، وهي إما أن تكون على شكل مجلة أو نشرة أو ما شابه ذلك... وقد حددت ملامح هذه المطبوعات من خلال أشكالها ومضامينها وطرق إخراجها الفنية وحتى توزيعها ، مع نقد شامل لها ، وارتأت مجلة آفاق مندائية أن تقدم ملخص ما جاء في هذا البحث وأهم المطبوعات الصادرة في خارج القطر ، والتي كان أولها:

١- مجلة المندائي : وهي أول مجلة مندائية على الإطلاق ، صدر عددها الأول عام ١٩٩٠ في الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد ترأس تحريرها السيدة لميعة عباس عمارة ، فهي تصدر باسم المهاجرين المندائيين ، وأحد أهدافها هو تعريفهم ببعض أولاً ، وبمجتمعهم الجديد ثانياً ، لذلك كان اهتمامها بالدرجة الأولى منصباً على المواضيع الثقافية والاجتماعية ، ثم تأتي بعد ذلك المواضيع الدينية والمنوعات والأخبار .

٢- مجلة الصابئي المندائي : صدر العدد الأول لهذه المجلة عام ١٩٩٦ في هولندا ، وهي ناطقة باسم الجمعية الصابئية المندائية ، ويرأس هيئة تحريرها السيد جمال المباركي ، إنها أول مجلة تصدر بصورة رسمية ، في بدايتها كانت مجلة متواضعة إلى أن اتخذت بعد ذلك شكل جديد ، فأصبحت مجلة ثقافية اجتماعية فصلية ، أما الجانب الديني فلم تهتم به ، حيث احتل نسبة ٩% من مواضيع المجلة ، وهذا قصور من جانبها لأن أبناءنا في بلاد المهجر مع

١ - مقال مهم للأستاذ ليث غالي حاضر حول المطبوع ، تارجى الإطلاع عليه .

انشغالهم بطبيعة المنطقة الجديدة فهم بحاجة إلى نصائح وإرشادات دينية لكي لا ينسوا دينهم ومعتقداتهم.

٣- مجلة الصدى: صدرت عام ١٩٩٥ من قبل الجمعية المندائية في ستوكهولم بالسويد ، ترأس هيئة تحريرها الدكتور سعدي السعدي ، وتصدر كل شهرين ، وهي ثقافية تراثية اعتبرت الدين أحد عناصر التراث ، ولم تهتم به كما يجب .

٤- مجلة الفكر المندائي : وهي مجلة يصدرها مركز البحوث المندائية في سيدني - أستراليا من عام ١٩٩٥ ، ويرأس تحريرها السيد ماجد المبارك ، صدرت هذه المجلة في أعدادها الثلاثة الأولى باللغة الانجليزية ، والهدف من وراء ذلك كما تقول افتتاحيتها هو الوصول بالدين المندائي إلى الجيل الجديد ، كذلك تعريف المختصين بهذه الأمور من غير العرب بالطائفة المندائية ، وبعد ذلك استحدث قسم جديد باللغة العربية ، هذه المجلة تعني بالمواضيع التاريخية والدينية ، ولكنها لم تأخذ حظها في الانتشار لعدم تلبيتها لمتطلبات الجيل الجديد .

٥- العهد : وهو كرأس ديني ثقافي يصدر عن الجمعية المندائية في أستراليا ، وصدر العدد التجريبي الأول له عام ١٩٩٨ ، ولم يكتب اسم رئيس التحرير ، وهو كراس داخلي توجد فيه بعض المواضيع الدينية المنضدة إلكترونياً ، وهو لا يتعدى شكل المجلة .

٦- النشر الإخبارية المندائية: وهي تصدر عن الجمعية الصابئية المندائية في هولندا ، وصدورها غير منتظم ، وتعني بالأخبار الداخلية وبعض المواضيع الاجتماعية التي لا تأخذ صفة المقال أو العمود .

٧- ضفاف مندائية: وهي مجلة تصدرها الجمعية المندائية في جنوب السويد ، وتتضمن ٢٥ صفحة ، منها دين وتراث مندائي ، وفيها ترجمة لبعض البوث لكتابنا المقدس (كنزا ربا) مبارك اسمه .

إن أهمية هذه المطبوعات تكمن في أنها تصدر عن طريق جمعياتنا في الخارج والتي تتطرق باسمها ، حيث تعرفنا على أخبار إخواننا في بلاد المهجر ،

وأحوالهم الثقافية والاجتماعية والدينية وغيرها ، ولكن للأسف الشديد ليست في متناول أيدي أبناء الطائفة في العراق ، وإن كانت فمحدودة جدًا.

كذلك تعددت أهمية هذه المجالات أو المطبوعات في أنها عرّفت المندائيين في خارج الوطن على الأماكن التي اختاروها ليعيشوا فيها كالعادات والتقاليد والأماكن التي يمكن لهم أن يلتقوا فيها ، وهذه المجالات وإن لم تلب الطموح المنشود في ترسيخ الديانة المندائية في تلك المجتمعات لكنها حاولت وتحاول ذلك ، وهذا أحسن من لا شيء ، ولكن يا ترى هل ستستمر على هذا النهج أم ستحكمها ظروف المجتمعات الغربية وسيادة العولمة.

البحث الرابع

معلومات عامة مفيدة^١

قلنا إن كلمة (صابئة) كلمة مشتقة من الفعل الآرامي (صبا) وتعني (المغتسلة) أو (الصابغون) بالماء الجاري (اليردنا)... أما كلمة (مندائيون) فتعني (معرفيون) بمعنى من عرف الحي العظيم بالعقل... وكلمة (مندي) فتعني بيت المعرفة والعلم ، لذلك فالاسم المحبب عندهم (الصابئة المندائيون) أي (الصابغون المعروفون)... وهناك من يفسر كلمة (مندائيون) بمعنى (من دعا ربه)... وكثيرة هي التفسيرات.

وقلنا إن لغتهم المندائية هي لهجة آرامية شرقية تقترب كثيراً من اللهجة السريانية، وعموماً فإن اللغة الآرامية تنقسم إلى لغة آرامية شرقية ولغة آرامية غربية، الآرامية الشرقية تشمل السريانية والكلدانية والمندائية والآشورية، أما الآرامية الغربية فتشمل اللهجة التدمرية واللهجة العبرية...

الرجل والمرأة متساويان في الدين المندائي مثل أسنان المشط، حيث أن المرأة تشارك الرجل في كافة الأعمال، إضافة إلى مهمتها المقدسة التي خصها بها الحي العظيم؛ وهي الإنجاب وتربية الأطفال تربية حسنة ليكونوا أطفالاً صالحين في المجتمع.

الدين المندائي يحث المندائيين على الزواج والإنجاب، ولكل من الرجل والمرأة حق اختيار شريك الحياة، المرأة المندائية امرأة متطورة شغلت مناصب مهمة وأبدعت في الطب والتعليم والهندسة والعلوم.

اختلفت وجهات النظر في مسألة الطلاق وتعدد الزوجات، الطلاق سموه الفراق لأن الرجل إذا ترك زوجته وحتى لو قال لها أنت طالق؛ فمن حقه أن يرجع لها

١ - للأستاذ مؤيد مكلف مقالات وبحوث قيمة ، من المهم الإطلاع عليها.

ثانية دون الحاجة إلى إجراء مراسيم المهر المندائي مرة ثانية بينهما ، إذ لا يجوز إجراء مراسيم المهر لرجل وامرأة سبق وأن تمّ إجراؤها لهما مسبقاً... ولهذا فهو فراق وليس طلاق.

أما عن تعدد الزوجات فإنه لا يوجد نص ديني واضح وصريح في كتاب الكنزا ربا بهذا الخصوص سوى هذا النص (الذي يحتاج إلى تفسير من المجلس الروحاني الأعلى في حال تشكيله)... (أيها الرجال... إذا اتخذتم لأنفسكم أزواجاً فاختاروا من بينكم وأحبوهن ، وليحفظ أحدكم الآخر ، واحتنوا ببعضكم لحماية العيون بالأقدام ، ليحب بعضكم بعضاً ، وليحتمل بعضكم بعضاً ، تعبروا بحر سوفه العظيم ، لا ينفصل بعضكم عن بعض حتى تنتهي أعماركم ، لا تكونوا كالنبتة الرديء يشرب الماء ولا يعطي الثمر)... هذه بوث منقولة نصاً من كتاب الكنزا ربا اليمين (الوصايا) الصفحات (١٧-٢٢-٢٤).

وهنا أريد أن أقف عند بوثة (لا ينفصل بعضكم عن بعض حتى تنتهي أعماركم)... الكلام واضح وصريح ولا يحتاج إلى ترجمان ليفسره لنا ، هذا كتاب الكنزا ربا يقول وليس كتاب ثانوي من وضع البشر ، وسوف تجد هناك من يقول هل كتاب الكنزا ربا كله كلام الحي العظيم ؟ نقول له نعم... الحي العظيم يقول معنى ولفظاً ، أو يقول معنى وصياغة المعنى تتم من قبل الملاك الرسول أو من قبل النبي الذي نزلت عليه البوثة مباشرة أو بواسطة الملاك الرسول ، أي وحياً أو فيضاً إلهياً ، وهذا موضوع فيه عمق فكري يحتاج إلى تفصيل في فصول لاحقة.

البكارة في الديانة المندائية :

الفتاة المندائية في يوم زواجها يجب أن تجرى لها مراسيم دينية بواسطة رجال دين ، وقبل بدء هذه المراسيم يجب أن تفحص الفتاة من قبل طبيبات وبإشراف زوجة رجل الدين أو أمه للأمانة وللتأكد من بكارتها... لأن الفتاة فاقدة العذرية

(الشيبة) تُجرى لها مراسيم الزواج من قبل رجل دين آخر يسمى (أبيسق)، وعن هذه الظاهرة حاول عدد من المثقفين والمثقفات وخاصة من المقيمين في بلدان المهجر تجاوزها، لكن إصرار رجال الدين عليها أبقاها ثابتة دون أي تغيير.

الدرفش (الدرافشا) :

راية يحيى أحد رموز التعميد، وهو عبارة عن غصنين من شجرة الزيتون المباركة متقاطعين، يُلف عليهما وشاح من القماش الأبيض، والدرفش مقدس عند المندائيين ويُرفع فوق بناية المندي (المعبد)، وتعلق صورته في دور العبادة وفي بيوت المندائيين.

- السنة المندائية اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً بالتمام والكمال، والسنة الواحدة ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً، لا تحسب خمسة أيام منها وهي أيام البنجة (عيد البرونايا) الذي تمّ فيه الخلق العلوي، وهو رأس السنة، ولا توجد عندهم سنة كبيسة، والأيام الخمسة هذه غير محسوبة من العمر، لأنها تخصص لعبادة الخالق بمعزل عن الدنيا وبهرجتها، فلا عمل ولا بيع ولا شراء، فقط عبادة الخالق، وتكون في هذه الأيام أبواب الجنة مفتوحة، والمندائي الذي يتوفاه الله في هذه الأيام مثواه الجنة.

- المندائيون بشكل عام أناس تقدميون متتورون يعشقون الحرية والتحرر، وقدموا تضحيات جسيمة في نضالهم ضد الدكتاتورية والاستبداد والظلم، ودفعوا ثمنًا باهظاً عام ١٩٦٣ في معتقلات الحرس القومي، وهم يعشقون النظام العلماني الديمقراطي لأنه يمثل حكم الشعب، ويرفضون التطرف الديني المقيت ويؤمنون بحرية التعبير، ويكرهون التسلط الفردي ونظام الحزب الواحد المطلق، ويحبون كل الناس ويحترمون كل الأديان، ويؤمنون بالله الواحد الأحد وبكل الأنبياء والرسل والكتب السماوية المنزلّة، ولا يفرقون بين الناس أبداً على أساس الدين أو المذهب أو اللون أو القومية (كلنا من آدم، وآدم من تراب).

- أول أنبيائهم هو النبي آدم رأس السلالة البشرية وخاتمهم النبي يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) والذي ورد ذكره في كتبهم الدينية باسم (يهيا يهانا) ، فأخذ الشرقيون الاسم الأول يهيا وحوروه باللفظ إلى يحيى ، وأخذ الغربيون كالعادة الاسم الثاني يهانا أو يوهانا وسموه يوحنا ، ولأنه يصبغ أي يعمد الناس بماء نهر الأردن سموه يوحنا المعمدان.

ولدى نبي الله يحيى كتاب (تعاليم النبي يهيا يهانا) ويسميه الصابئة المندائيون كتاب (دراشا أد يهيا) ، ومؤخرًا اكتشف في الأردن مغطس النبي يحيى الذي كان يعمد فيه الناس ، وعمد فيه السيد المسيح ، كذلك ظهرت مخطوطات محفوظة في جرار فخارية بعناية فائقة في نجع حمادي وخربة قمران ، ولم يُفصح عنها بشكل واضح حتى الآن. ويقال إن مخطوطات نجع حمادي تخص أقوام يدعون الشيتيين نسبة إلى شيت بن آدم الذين عاشوا في أرض الكنانة.

أما مخطوطات خربة عمران فإنها تعود إلى أقوام عاشوا في حوض البحر الميت في فلسطين منهم الأسنيين واليبوسيين والسامريين وغيرهم ، والحقيقة أن هذه المخطوطات تحتفظ بها المؤسسات اليهودية والمسيحية ولم تُفصح عنها وتنتشرها ، ولا تسمح للباحثين والمختصين الإطلاع عليها لأمر ربما يغيّر كثيرًا من المفاهيم التي أرسلتها هذه المؤسسات عبر التاريخ بما يخدم دينهم وتاريخهم. ولهذا نقول مع الأسف إنه منذ البداية اليهودية والمسيحية ظلمتا الصابئة المندائيين ، ولم يذكروهم في مدوناتهم وكتبهم سوى ذكرٍ عابرٍ للنبي يحيى بن زكريا (يهيا يهانا) أو يوحنا المعمدان ، ولم يذكروا لنا لماذا عمد يهانا السيد المسيح ، وكيف عمدته تعميديًا صابئيًا مندائيًا.

- أما رجال الدين المندائيون فلهم درجات دينية تبدأ بالحلالي وتنتهي بالربي ، ولم يصل إلى درجة الربى سوى النبي يهيا يهانا ، وندرج هنا سلسلة مراتب رجال الدين: حلالي / شكندا / شولية / ترميذا / كنزفرا / ريش أمة / ربي.

رجل الدين المندائي حياته المعيشية بالغة الصعوبة لأنه مسؤول عن إعداد طعامه وشرابه وكذلك لباسه ، وهناك قيود كثيرة تحدد من ممارسة حياته الطبيعية، كما أنه يتوجب على كل من يريد أن يصبح رجل دين أن يكون كامل الخلقة (أي لا يوجد تشويه أو نقص في جسمه)، وأن يكون مؤمناً إيماناً عميقاً بالدين ومتعلم، يجيد اللهجة المندائية وحافظاً للكثير من النصوص الدينية المهمة ومطلعاً على الكثير من الأمور وخطيباً ومفسراً وشخصية أمينة صادقة كريمة وخيرة بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

- علاقة الصابئة المندائيين بالفراعنة والسومريين والبابليين والكلدانيين والآشوريين، إن ارتداء الملابس البيضاء (الرستة) أثناء إجراء المراسيم الدينية ومنها الصباغة (التعميد) كانت تجرى في الأنهار الجارية في بابل ومصر وغيرها من الحضارات، والتي تدل على النظافة والطهارة، وهذا ما يؤكد لنا التاريخ والآثار على لسان المؤرخين والباحثين، فالمياه الجارية عندهم تملك صفة الحياة، حتى المصريين القدماء كانوا يطهرون معابدهم بالماء المقدس ويبخرونها بأطيب العطور، ثم يقدمون القرابين، كذلك عرف القدماء عبر التاريخ أحواض المياه المقدسة الخاصة بالتنظيف، حتى المسيحيين وإلى وقت قريب كانوا يمارسون شعيرة التعميد بالغطس بالماء، ولكن مع الوقت حدثت تحسينات وتطور على هذه الشعيرة وذلك لكثرة أعداد الناس فاكتفوا (اجتهاداً) برش الماء المقدس، بينما هناك نحل مسيحية مازالت تمارس التعميد بالغطس بالماء كما عمد يوحنا المعمدان السيد المسيح في نهر الأردن.

- تعميد المحتضر ودفنه : عندما يحتضر المندائي وقبل أن يموت يجب أن يُطْمَش بالماء الحي (أي يُغسل) ثم يتم تلبيسه الملابس البيضاء (القماشية) ويُمدد على ظهره باتجاه الشمال وأهله وأحباؤه يحرسونه إلى أن يموت، أما عملية دفن المتوفى فيجب أن تكون في وقت النهار (أي قبل وقت المغيب)، ويكون اتجاه القبر نحو الشمال، أما من مات موت فجائي بحادث؛ فغالباً تُجرى له المراسيم الدينية المعتادة، ولكن في مناسبة البنجة (البرونايا) يجب أن تُجرى له

(مسقنة) يقوم بها رجال الدين حصراً ، وذلك لمساعدة النشمتا (النفس) على الصعود والارتقاء إلى عالم الأنوار ، ولتخفيف الحساب على روحه ، وهذا ما كان يقوم به الفراعنة والسومريون والبابليون.

- نشأ الدين المندائي طبقاً لما مذكور في الكتب الدينية المندائية من عالم الأنوار ، وأن الملائكة الأثريين خلقهم الحي العظيم مندائيين ، وأن عالم النور عالم مندائي وقد خلق الله آدم وحواء مندائيين ، وأنزل عليهم التوحيد والوصايا والتعليمات والأسماء كلها بواسطة الملاك منداهيي (عارف الحياة) (أنا الرسول الطاهر أمرني ربي أن أذهب ونادِ آدم وحواء وزوجه بصوت سني ، علم آدم ليستتير قلبه ، وقومه ليستتير عقله وجنانه ، كن أنساً له أنت والملاك اللذان معك إلى العالم سيهبطان... علمه وزوجه وذريته الحكمة كي لا يغويهم الشيطان ، علمهم الصلاة يقيمونها مسبحين لملك النور السامي ثلاث مرات في النهار ، ومرتين في الليل... قل لهم اتخذوا لأنفسكم أزواجاً وتتاسلوا منكم ليزداد عددكم وإذا تقربون أزواجكم فاطمشوا وطهروا نفوسكم... قل يا عبادي لا ترنوا ولا تسرقوا... ولا تنتهكوا حرمت الناس)... من كتاب الكنزا ربا- اليمين (الوصايا).

وتذكر الكتب الدينية للصابئة المندائيين أن العالم مرَّ خلال تاريخه بثلاث نكبات قضت على البشرية ، ولم تبقَ منهم في كل مرة إلا رجل وامرأة تعمر من نسلهم الدارة الجديدة للبشر ، ووفق التالي :

- ١- يُدمر العالم الحريق ويبقى الرجل رود وامرأته.
- ٢- يُدمر العالم بالسيف والوباء ويبقى الرجل شورباي وزوجته شرهيل.
- ٣- يُدمر العالم بالطوفان ويبقى الرجل سام وزوجته نهوريتا ويُعمر من ذريتهما هذا العالم.

وتحكي لنا قصة الطوفان كما يحكي لنا كتاب الكنزا ربا (الكنز العظيم) الكتاب المقدس للصابئة المندائيين أن سفينة نوح بعد انحسار المياه جنحت على سفح

جبل قردون في شمال العراق ، من سلسلة جبال آارات قرب مدينة حران التي بناها فيما بعد نبي الله إبراهيم الخليل ، ومن هذه المدينة التي تقع في المثلث التركي السوري العراقي انحدرت ذرية سام ونهوريتا إلى جنوب العراق ، حيث المياه البهية ومصبات دجلة والفرات وشط العرب والكرخة والكارون والذ...
ومن مدينة حران اتجهوا غربًا إلى فلسطين وسكنوا على ضفاف نهر الأردن وسواحل البحر الميت قرب المياه الجارية ، ومن بلاد ما بين النهرين أرض شنعار اندفع عدد منهم إلى شبه الجزيرة وسموهم بالصابئة ، وعند ظهور نبي الله إبراهيم الخليل الذي وُلد في مدينة أور السومرية وتأسيسه للدين الحنفي بعد اختلافه مع الصابئة المندائيين لأنه طلب منهم عبادة الله خالصة ، لكنهم كما تذكر لنا بعض البحوث اختلفوا معه لأنه بشر مثلهم ، ولأنه ختن نفسه بسبب مرض في غفلته والله أعلم... بسبب عدم وجود وثائق أو آثار أركولوجية تؤكد ذلك... لذا ذهب بعض الباحثين إلى أن إبراهيم الخليل شخصية أسطورية من أساطير الأولين.

وقد كتب الأستاذ مؤيد مكلف سوادي بعض المقتطفات المفيدة نذكر هنا منها التالي :

الصابئة المندائيون وصابئة حران :

هناك التباس وخط شديدان جرى ويجري بين صابئة حران والصابئة المندائيين افتعله بعض المغرضين بهدف طعن الدين الصابئي المندائي وتشويه مفاهيمه ، وقد جرى ذلك على يد (أبي يوسف أيشع القطيعي) و(ابن شنكلا) و(ابن البهلول) وغيرهم في وقت كانت فيه الصراعات الدينية على أشدها في ذلك الزمن ، وقد تلقف للأسف بعض المؤرخين الإسلاميين مثل (ابن النديم) و(الشهرستاني) هذه الأقوال وثبتوها دون تمحيص في مؤلفاتهم ، وهي أقوال موضوعة ومختلفة .

وحقيقة الأمر أن مدينة حران هي مدينة تجارية عريقة وكبيرة وتقع على مفترق طرق تجارية ، وقد نشأت قبل الميلاد بقرون عديدة وسكنتها أقوام شتى من قوميات وأديان مختلفة ، منهم التجار والعلماء والفلاسفة والمعارضون السياسيون وطلاب العلم والحرفيون ، كما لاذ بها على مر الأزمان مضطهدون وأحرار وفلاسفة فراراً من الاضطهاد والظلم ، فاحتضنتهم وحمتهم وأصبحت لهم ملاذاً آمناً ، ومن جملة من سكنها (الصابئة المندائيون) وكانوا يترددون عليها ذهاباً وإياباً إلى بلاد الشام ، وكان هؤلاء الصابئة يعيشون فيها بسلام وأمن مستقلين عن غيرهم بدينهم وتقاليدهم وعاداتهم وطقوسهم .

وحين نتحدث عن إخوتنا هؤلاء لا يهمننا أمر الأقوام الأخرى التي سكنت حران أو التي ادعت الصابئية كما يروي (أيشع القطيعي) ، ونحن حين نتصفح كتبنا الدينية نجد معلومات تشير إلى انتشار الدين الصابئي المندائي في كل مكان ، وأن المندائيين في أوقات الشدة أو حين يحل بهم الاضطهاد يلجأون إلى حران ، وحين حل بهم الاضطهاد في أورشليم في القرن الأول الميلادي وتعرضوا للإبادة؛ هاجروا إلى حران ، فاستقبلهم إخوتهم هناك وآزروهم وحموهم ، وحين انتشرت حركة الترجمة ونقل العلوم في بلاط الخلفاء العباسيين انحدر علماء

وفلاسفة ومترجمون مندائيون إلى بغداد وتصدروا العمل وأغنوا المكتبة العربية بأنفس الكتب أمثال ثابت بن قرّة وأحفاده ، وأبو إسحاق الصابي والبتاني وأبو منصور الصابي وهلال بن إبراهيم بن زهرون وأبو روح الصابي وأبو جعفر الخازن وأبو فتح المندائي وغيرهم ، هؤلاء جميعهم صابئة مندائيون لا غبار عليهم ولا زالت بعض مؤلفاتهم حية ومتيسرة في المكتبات.

هل عاش الصابئة لفترات طويلة في بيئة منعزلة :

مرّ الصابئة المندائيون بظروف صعبة جدّاً خاصة بعد سقوط الدولة العباسية وهيمنة الأجانب على شؤون الدولة ، وتشتتوا في كل الأصقاع والتجأوا من أجل النجاة بحياتهم للعيش في بطائح العراق الجنوبية ، بعد أن غادروا مراكز المدن بسبب الاضطهاد الذي لحقهم من الجيوش الغازية ، فعاد بعضهم إلى حران ، وبعضهم الآخر لجأ إلى غابات ديالي وعملوا بالزراعة ، ثم أسلموا بعد الضغوط التي انصبت عليهم وخلت بغداد منهم والتحقوا بإخوتهم في واسط ، ثم انحدروا للعيش في البطائح وتألّفوا مع ظروفهم الجديدة في تلك المناطق والريفية ، وعمل أغلبهم بمهن يدوية بسيطة كصنع الزوارق والسفن الشراعية ومستلزمات الزراعة كالمنجل والمحراث ، وبالصياغة كصنع المصوغات اليدوية من المعادن الثمينة ، كما كان التعامل مع الأهالي في تلك المناطق يجري بنظام المقايضة بسبب ندرة النقود ، كما اضطر المندائيون في تلك المناطق النائية إلى العيش بشيء من العزلة حفاظاً على دينهم وطقوسهم وتقاليدهم بعيداً عن أعين الرقباء.

كيف استطاع المندائيون المحافظة على دينهم وتقاليدهم كل تلك القرون :

لقد اندثرت خلال الزمن ديانات عدة ، وزالت من الوجود أقوام كثيرة وتحولت أمم من دين إلى دين ، وتغيرت بعض العقائد وضاعت صلة بعض الأقوام بماضيهم ، ولكن الصابئة المندائيون ظلوا متمسكين بدينهم وتقاليدهم بقوة

ومحافظين على طقوسهم وعاداتهم عبر تلك العصور ، ووجودهم حتى الآن أعجوبة ، فبرغم التنكيل الذي حل بهم والضغط الحادة التي سلطت عليهم استطاعوا تحدي الصعوبات والبقاء ، صحيح أنهم قد انحسروا من مناطق سكناهم وخسروا أوطاناً كانوا يقيمون فيها ، لكنهم بقوا إلى عصور متأخرة متمسكين بوطنهم العراق ، ولكل هذا التثبيت بدينهم أسباب لآبد من تحديدها ومعرفتها ، وبوسعنا توضيحها ، وأهمها :

- ١- أن الحي الأزلي هو الذي حماهم بحكمته لأنهم قوم موحدون.
- ٢- قوة مبادئهم الدينية وصدقها وشدة تمسكهم بها.
- ٣- تمسكهم بمبادئ السلام وابتعادهم عن الحروب والنزاعات ونبذهم لسياسة الشر والعدوان.
- ٤- قلة عددهم أدى إلى تراص صفوفهم وتماسكهم.
- ٥- بسبب تميزهم بالذكاء وحسن التكيف مع الظروف المحيطة بهم.
- ٦- بسبب بسالة وثبات رجال الدين المندائيين ومحافظةهم على جوهر الدين.
- ٧- ظهور أنبياء ومصلحين خلال فترات من الزمن كانوا خير معين ومرشد لأبناء الطائفة.
- ٨- المحافظة على نقاوة الدم والسلالات الدينية مما أدى إلى محافظتهم على سماتهم المميزة.
- ٩- احترافهم لمهن حرفية خدمية تهدف إلى خدمة المجتمع.
- ١٠- إن أقوى عنصرين صانا المندائيين والديانة المندائية هما الإيمان العميق والمعرفة الشاملة للحياة.

هل للديانة المندائية تأثير على الديانات الأخرى ؟ :

المندائيون على اعتقاد جازم بحكم تعاليمهم الدينية ، وما ورد في كتبهم الدينية المقدسة أن النبي الأول الذي ظهر على الأرض وعبدَ الله هو آدم عليه السلام ، ولدى الطائفة المندائية كتابهم المسمى كنزا ربا أو سدرآدم ، وكذلك تعاليمه وشرائعه ، ثم جاء بعده أولاده وأحفاده شيت وإدريس ونوح وسام وإبراهيم ويحيى عليهم السلام ، وهؤلاء هم أنبياء الصابئة.

والصابئة كما تقول الأدبية (لميعة عباس عمارة) في مقالة نشرتها مجلة المندائي العدد الأول صفحة ١٩ عام ١٩٩٠ ، والتي تصدر في أمريكا (هم بقية أقوام متعددة عرفوا الله وعبدوه وآمنوا بالآخرة والملائكة وتطرقوا في الروحانيات ثم جاءت بعدهم الديانة اليهودية عام ١٣٠٠ ق.م على يد النبي موسى ، وهي تؤمن بكل ما تقدم ، ولكنها اكتشفت أن القوة والمال والاتحاد هي القوانين التي تحكم العالم ، لذلك طوروا دينهم بعد موسى للواقعية المادية وبالغوا في إهمال ما وراء الطبيعة... وحين كان السلطان في أيديهم واستندوا على دول أسسوها وجيوش احتلوا بها الأقاليم ترسخ هذا المعتقد بينهم ، لكنهم بعدئذ حين وقعوا تحت حكم الرومان وفقدوا استقلالهم وسلطانهم بدلوا مفاهيمهم نحو الأفكار الروحانية والتي هي سلاحهم لتحريك الجماهير ضد الاحتلال ، لكنهم بقوا يراوون بين هذه الأفكار ونقيضها حسب الظروف...

ثم جاءت المسيحية لتعديل التطرف في اليهودية فنادى المسيح بعبادة الأب (الله) واهتم جدًا بملكوت السماء وحارب عبادة المال وسن الرهبنة واهتم بالآخرة وسامح واعتمد على قوة الروح لا قوة السلاح ، ثم جاء الإسلام فنادى أن الله أحد لم يلد ولم يولد ، أي عبادة الله الواحد والإيمان بالآخرة والملائكة والصلوات اليومية المتعددة والصوم والحج والصوفية والجهاد من أجل نشر الدعوة الإسلامية ، وقد وازن بين الحياة الدنيا والآخرة فلم يُهمل أحدهما على حساب الأخرى).

وهكذا يثبت أن أول دين توحيدي ظهر على الأرض هو الدين الصابئي على يد أبي البشرية آدم ، وقد أثبت الباحث العراقي خزل الماجدي في مؤلفه (جذور الديانة المندائية) الصادر عام ١٩٧٧ ذلك حين يقول : (إن الدين الصابئي المندائي دين توحيدي ، شأنه في ذلك شأن الديانات الموحدة الأخرى المعروفة وأصول الديانة الصابئية تمتد بجذورها راسخة في أرض العراق القديم ، وتحديدًا في أرض سومر قبل السومريين).

وللباحثة والمفكرة المندائية الأدبية لميعة عباس عمار رأي طريف جاء في محاضرة ألقته في أمسية عنوانها (الإسلام والصابئة المندائيون) ، ونشرتها في مجلة المندائي وهو عدد خاص السنة السابعة آذار ١٩٩٦ ، وتستحق التوقف والتأمل ، فالباحثة تتساءل وتقول : حين نُعدّد الكتب السماوية المنزلة نجدها (القرآن والتوراة والإنجيل) ، وقد ورد في القرآن الآية التالية {إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الصُّفْحُ الْأَوَّلِيُّ . صُفْحِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} ^١ ، ثم تتساءل ما هي صف إبراهيم هذه التي سبقت موسى بستمئة عام ، وما هو اسمها؟...

ثم تتساءل ما كان دين إبراهيم إذن؟ ، ثم تقول (إن صف إبراهيم هي الكنزا ربا) المندائية ، الكتاب الديني المندائي الرئيسي ، وتستند في ذلك على آيات وردت في القرآن وهي (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ^٢ ... ثم تتساءل الباحثة وتقول : من حقنا إذن أن نبحث عن أتباع إبراهيم والذين عاشوا عام ١٩٠٠ ق.م وما قبله ، أي قبل العبرانيين (قوم موسى) بستمئة عام فهل اندثروا ألم يبقَ منهم أتباع ، ألم يتطوروا ، أم حافظوا على بدائية الدين الأول.

وتصل الباحثة إلى قناعة أن أتباع دين إبراهيم هم حفظة صفه وهم الصابئة ، وكانوا يسمون في الجزيرة العربية (الأحناف) ، وقد دخل بعضهم في الدين الإسلامي ، وبقي منهم أقلية قليلة حتى اليوم وهم الصابئة ، وتذكر أن الصديقين

١- القرآن الكريم : سورة الأعلى- الأيّلان ١٨ ، ١٩ .

٢- القرآن الكريم : سورة آل عمران-لاية ٦٥ .

الحميمين للرسول محمد كان أحدهما من الأحناف واسمه (ورقة بن نوفل)، وهو ابن عم زوجته (خديجة بنت خويلد)، أما الثاني فهو من الصابئة (سلمان الفارسي)...

ثم تتناول الباحثة مفهوم ما ورد في كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني، عن موضوع الخلاف بين الصابئة والأحناف بعد زمن إبراهيم الخليل، وتقول الخلاف بينهما يُشبه الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت، وكلهم مسيحيون، ولكن برزت بينهم خلافات في التفكير والتطبيق، وتقول إن الأحناف هم عرب متعصبون لعاداتهم وسلوكهم، فهم يحتقرون الحرف والمهن اليدوية كالزراعة والصناعة ويستتفون من هذه الأعمال، ويميلون أكثر إلى التجارة والغزو، وهما الصفتان الملازمتان لهم، كما كان حاصلاً لقبيلة قريش، بينما تعلق الصابئة بالمهن اليدوية من أجل العيش وبالزراعة لإدامة الحياة.

كما كان هناك خلاف آخر بينهما، فالأحناف يقولون يجب أن يكون هناك نبي من البشر يتوسط بين الله والإنسان، بينما يقول الصابئة إن تلك العلاقة بين الله والبشر تتم بواسطة الأرواح النورانية (الملائكة)، فهي التي تنزل على الأنبياء على شكل وحي، ولا يوجد اتصال مباشر بين الله والإنسان، ومن هنا اختلفوا، كما كان الصابئة ولا يزالون يكرهون الحروب والقتال ويحرمون القتل والغزو، بينما يميل العرب لهذه الأمور بفعل ظروفهم وبيئتهم الاجتماعية.

وخلاصة ما وصلت إليه الباحثة هو أن الدين الصابئي سبق كافة الأديان، وأنه كان سائداً في الأرض قبل إبراهيم هو الكنزا ربا المندائي، كما أرادت الباحثة أن تثبت أن كلمة (الإسلام) أو (المسلم) هي صفة المؤمن وليست هي كلمة خاصة بالمسلمين فقط، فقد وردت هذه الكلمة في كتب الصابئين الدينية (الكنزا ربا وسيدرا آدم)، وكما يلي (وشوما لكلهن شلمانيا قشطا ومميمنا)، وترجمتها (واسمه لكل المسلمين قسط وإيمان). وكذلك يوجد ما ترجمته (وخكروك بروية حق... وآمنوا بك بقلج سليم) أو (طوبى للمسلمين المؤمنين)، أو (يا مسلمون ومتدينون... يا متدينون ومسلمون لا تخذعوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس

البشرية) ، أو (لأن من في قلبه بغض لا يُعد مسلمًا) ، أو (واسمه ملء أنفواه المسلمين المؤمنين بالحق)... وكل هذه الآيات تثبت أن صفة الإسلام هي صفة شائعة بالإيمان قبل الإسلام ، كما أنها واردة في الديانات الأخرى ومنها الديانة المندائية ، ومن أجل إظهار تأثير الديانات السابقة على ما استجد من ديانات لاحقة...

أقتبس هنا بإيجاز أقوال للدكتور رشيد البندر منشورة في مجلة الصابئي المندائي في هولندا العدد ١٣ عام ٢٠٠٠ ، من موضوع تحت عنوان (الجنة في الديانات) ، فقال وهو يقارن في هذا الموضوع بين مختلف الديانات مبتدئًا بالديانة المندائية ، حيث قال تُوصف الجنة عند المندائيين بأنها (دار الحق) ، وهي عالم مثالي وموطن الأدميين السماويين ، ويكون موقعه في الشمال من الكون حيث يقع عالم النور ، ويتم الدخول في الجنة عن طريق وزن الأرواح ، فإن كانت صالحة تدخل وإلا تتطهر من ذنوبها قبل ذلك ، والمسؤول عن هذه العملية ملاك يُدعى (أبأثر) ، وهو يقابل (رضوان) عند الأخوة المسلمين ، ولكن المندائيون يقولون إن الروح وليس الجسد هي التي تعود إلى موطنها الأصلي الذي انبعثت منه (عالم الأنوار) حيث تتحد بالذات الإلهية.

ثم عرج على الجنة اليهودية وقال : إن الديانة اليهودية لم تضع عالم الآخرة من اهتماماتها ، بل جنة هذه الديانة وجحيمها هما في هذه الدنيا على الأرض ، ولم تظهر فكرة البعث في نظر اليهود وفكرهم إلا بعد أن فقدوا الرجاء في أن يكون لهم سلطان على إثر هيمنة الرومان على أوطانهم وفقدان استقلالها ، وربما أخذوا فكرة البعث عن المندائيين أو الفرس أو المصريين.

وقد وردت هذه الفكرة في التوراة على النحو التالي (وغرس الرب جنة عدن وجعل هناك الإنسان الذي جبله الرب الإله من الأرض ، كان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ومن ثم يتشعب فيصير أربعة رؤوس (انهار) وهي (قيشون وجيحون وحداقل "دجلة والفرات")... إذن فالجنة اليهودية لا تبتعد عن الأرض.

أما الديانة البوذية التي تأسست عام ٤٨٣ ق.م على يد بوذا فتصف الجنة على أنها الأرض الطاهرة والمنطقة السعيدة وموضعها في الجهة الغربية من الكون، أما شروط دخولها فخمسة تأملات عامة وهي : (المحبة والشفقة والفرح والطمأنينة والتأمل في الخطيئة)، وكما أكدت الديانة الصابئية على نسخ الناس الخيرين في الجنة إلى درجة الملائكة بقولها (موطن الآدميين السماويين)، كذلك فإن البوذية اعتبرت الجنة (منطقة روحية يسهل دخولها فقط للكائنات الروحية)، وهكذا يظهر تأثير الديانة الصابئية على البوذية، وهذا يدل على قدم الديانة الصابئية.

أما المسيحية فقد تحدثت عن الآخرة بشكل واضح، وهي لم تضع في حسابها مشروعاً دنيوياً، وتحدثت عن الحياة الدنيا بسلبية وتعصبت لشخصية (عيسى بن مريم) الذي قيل إنه كان متأثراً بالبوذية إلى حد كبير... والمسيحية كالصابئية والبوذية؛ ينسخ في جنتها الإنسان إلى ملاك وعُرفت الجنة بملكوت السماوات أي (أرض الله)، أما الجنة في الديانة المانوية والتي ظهرت في العراق في القرن الثالث الميلادي على يد مؤسسها (ماني بن فاتك) ٢١٦ - ٢٧٧، فقالت بالنسخ الروحي طريقاً للتطهير من الذنوب، فتستمر الروح المذنبة بالانتقال من جسد إلى آخر حتى تتخلص نهائياً من ذنوب الجسد، لتذهب بعد ذلك إلى الجنة التي يعرفونها بأنها أرض النور أو حدائق النور، ولها أعضاء خمسة هي (النسيم والريح والنور والماء والنار)، وكما في المندائية والبوذية والمسيحية تتحول روح الإنسان بعد خلاصها من الذنوب إلى ملاك في جنان النور...

أما الجنة الإسلامية فهي تكرر لما في الحياة الدنيا من جمال وطيب، وأن الإنسان يبقى فيها على إنسانيته يمارس غرائزه دون أن يُنسخ إلى ملاك كما في بقية الأديان، بل تبقى فيها الرغبات والشهوات، أما مكانها فيقع فوق السماوات السبع وخازنها اسمه (رضوان)، وقد جعل الإسلام النساء زينة للجنة كما تتحقق جميع الرغبات المادية الأخرى، وهكذا نرى أن الجنة مذكورة في كل الأديان المعروفة وتبقى أمنية للإنسان وحيدة في مخيلة كل محروم في الدنيا!

ظروف تاريخية محزنة مرّت على المندائيين :

عاش المندائيون قرونًا عديدة بأمن وسلام نسبيين في بلاد الرافدين بين مختلف الأقسام، وشاركوا بقوة في بناء هذا الوطن ونهضته الحضارية وعوملوا معاملة عادلة كبقية الأديان الموحدة طيلة فترة الحكم الراشدي والأموي والعباسي ، وتبوأ اللامعون والمتفوقون منهم مناصب عليا في بلاط الخلفاء في صدر العصر العباسي واشتهروا ك مترجمين وأطباء وعلماء فلك وأدباء وشعراء وفلاسفة ومؤلفين وكيميائيين وساهموا في إغناء المكتبة العربية بعشرات المؤلفات المترجمة والموضوعة، وحازوا اعتزاز الخلفاء بهم فأغدقوا الأموال عليهم...

كما عاش معظم المندائيين في الحواضر والقرى كالبصرة وواسط ودشت ميشان برفاهية نسبية حين كانت الخلافة قوية وصوت الحكومة مسموع ومطاع وسياسة الدولة واضحة والعدالة تشمل الجميع ، ولكن وبحلول النكبة عام ١٢٥٨م واجتياح المغول للبلاد قلبت الأوضاع...

فسقوط الحكم العربي أدى إلى اضطهاد الشعب وتشريده وشيوع القتل العشوائي فخربت بغداد واندثرت الحضارة وحل الشقاء محل السعادة، وبزوال الحكومة تحكم المحتل وأعوانه برقاب الناس ، وتبعثرت البلاد إلى إقطاعات ومشايخ وإمارات ، وفقد الأمن فبرزت اضطهادات شديدة من قبل العناصر المتخلفة والحاقدة، كان الهدف منها إرغام غير المسلمين على تغيير دينهم، فساد البؤس وكثرت الأحزان وتأزمت الأمور ، ففر الناس من ديارهم وكثر القتل فيهم ، فانزروا في أقاصي المناطق الموبوءة وفتكت الأوبئة بالآلاف من الأرواح...

لكن مع ذلك تمسك الصابئة بدينهم وتعلقوا بطقوسهم وتقاليدهم ولم يذوبوا في التيارات الأخرى واضطروا إلى الانغلاق على أنفسهم وتحددت علاقاتهم الاجتماعية، ثم استطاعوا تجاوز المحنة جزئيًا محافظين على دينهم وسلالاتهم ونقاوة دمهم وعلاقاتهم الأسرية... ولكن المحن بقيت تلاحقهم على يد الطغاة

ومرضى النفوس كما حدث في : (الجزيرة وششتر وديزفول والمحمرة والمركب)، والتي راح ضحيتها الآلاف من المندائيين.

وفي بعض الأحيان أبيد رجال دينهم بيد الغوغاء كما حصل على يد (السلطان محسن مهدي وولده فياض) في الجزيرة (كما تخبرنا وثيقة يمتلك نسخة منها المرحوم الشيخ دخیل عیدان)، وأشارت إليها (المسز دراور) بعض مؤلفاتها... ولهذا السبب كان المندائيون لا يزالون يكرهون أي حكم عنصري متعصب وغير متسامح، ويفرون من مناطق الحروب والنزاعات المسلحة والخصومات الدامية، ويبشرون بمبادئ الرحمة والإنسانية والتسامح...

ومع ذلك فهم واعون وواقعيون ومتفهمون لما يجري في العصر الحديث ويؤمنون بما حصل ويحصل من تطور سريع في كل مناحي الحياة، لكنهم يعملون بنفس الوقت على تحصين أنفسهم قدر الإمكان ضد التيارات الضارة، ولهذا فهم يفتشون دائماً عن الأنظمة العادلة التي تؤمن بحرية الشعوب واحترام الأقليات والبعيدة عن أي تعصب مقیت أو غلو وتطرف.

هل تهتم الطائفة بالإعلام والصحافة والتأليف والنشر؟

نستطيع أن نجزم أن الشعب المندائي من الشعوب المتفتحة المولعة بالعلوم والثقافة والمتبعة لكل ما يطرأ من تقدم علمي ونسبة الأمية فيهم ضئيلة جداً، بل معدومة قياساً بالآخرين... وكان رجال دينهم في العصور الماضية حريصين على الحفاظ على الكتب الدينية المقدسة والترايل الدينية والوصايا، وكل ما من شأنه تقوية روابط الفرد المندائي بعبادته وتقاليده، فكانوا يستسخون هذه بدقة وعناية بخط أيديهم حفاظاً عليها، كان هذا في العهود القديمة، أما الآن وبفضل الطباعة الحديثة فقد أصبح من الميسور الحصول على أي كتاب بالطرق الفنية الحديثة.

وفي بداية القرن العشرين الميلادي برز عدد كبير من مثقفي الطائفة الحريصين على دينهم وطائفتهم بالاهتمام بتراثهم وانتماءاتهم، فكانوا ينشرون في الصحف المحلية في بغداد وببيروت ودمشق مقالات وردوداً وتعقيبات تخص القضايا الدينية والتاريخية المندائية، مصححين ومدافعين وموضحين حقائق لا يعرفها الكثير من القراء، وكانت ردودهم ضد الطغاة مثار إعجاب القراء، ثم جرت عمليات ترجمة لما كتبه المستشرقون والأكاديميون الغربيون عن الأديان القديمة ومن ضمنها الدين المندائي. فكانت خير عون للقراء للإطلاع على ما يجري، كما قام الأدباء والكتّاب المندائيون بإصدار صحف في بلاد المهجر، وفي بغداد حوت الكثير من الحقائق المهمة، مثل مطبوع (المندائي) في أمريكا الذي أصدرته المفكرة والأديبة المندائية لميعة عباس عمارة، ومجلات الصدى وآفاق مندائية و(الصابئي المندائي) و(هيمنوثة) و(المدار) و(الطيف) المندائي في بغداد وغيرها من المطبوعات تولى أمرها شباب مندائيون مثقفون بنجاح ومقدرة، ومازالت هذه المطبوعات متواصلة بالصدور مؤدية أروع الفوائد في التوعية والتنقيف والإعلام.

وقد مرّ المندائيون بمراحل شدة وقهر على مر العصور، منها:

١- حروبهم مع اليهود في فلسطين ، وقتل أعداد كبيرة منهم بما فيهم ٣٦٥ رجل دين ، وهجرة البقية الباقية إلى مدينة حران حيث استقبلهم أخوة لهم في الدين هناك.

٢- في مرحلة الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام ، ولكن الحقيقة نقال إن الدين الإسلامي أنصفهم وذكرهم في ثلاث آيات قرآنية على أنهم من الموحدين، ولكن تم فرض الجزية عليهم.

٣- عند الاحتلال المغولي لعاصمة الخلافة الإسلامية بغداد ، حيث كان عدد كبير منهم يعمل في بلاط الخلافة وفي مراكز الترجمة والعلم والمكتبات.

هذه وغيرها دفعتهم للانزواء والعيش في أعماق الأهوار في مناطق موبوءة ليحافظوا على حياتهم ودينهم.

حوار مع البروفيسور الكنزبرا هيثم مهدي سعيد الكحيلي : الأستاذ الأخصائي في الديانة المندائية ومقارنة الأديان وتاريخ الفكر القديم

في أثناء زيارته الأولى منذ تركه بغداد ؛ كما كتب سامح لطفي شريف ؛ يعود إلى أحضان الأرض الأم في زيارة سريعة مليئة بالمشاغل واللقاءات والبحوث ، أستاذ كبير ومفكر مندائي له تاريخ مشرف في العمل المندائي الأكاديمي والبحثي ، وله باع طويل في خدمة أبناء طائفته ، كان لقاءنا بفضيلة البروفيسور الكنزبرا هيثم مهدي سعيد ، ودار الحوار الآتي :

*** بادئ ذي بدء ؛ نود أن نعرف من هو البروفيسور هيثم مهدي سعيد ؟**

- بشميهون ادهيي ربي ، الاسم هيثم مهدي سعيد من مواليد ١٩٦٤/٩/٩ ، وحالتي الزوجية متزوج من فترة قريبة قبل حوالي ست سنوات ، ولدي ولدان ؛ عمر الأول ٥ سنوات والآخر ٤ سنوات ، أستاذ أكاديمي جامعي في أستراليا وفي تركيا ، وأستاذ محاضر في جامعة سدني ، ولدي بحوث مشتركة مع جامعات مختلفة في العالم ، لدي العديد من الاختصاصات في المجالات الإنسانية ، واختصاصي الأول هو الدين المندائي ، وتخصصت أيضاً بتاريخ الأديان ومقارنة الأديان ، والتاريخ القديم وتاريخ الفكر وتاريخ الفنون ، واللغة العربية وآدابها ، والأدب العالمي المقارن وخاصة الأدب الانجليزي والفرنسي والأمريكي أيضاً ، وتخصصت أيضاً بدراسات شبه القارة الهندية والدراسات البوذية وأدرس التأمل واليوغا والبرانغ هيلنك ، والري كي (العلاج بالطاقة).

*** ماذا عن تاريخ العمل في الميدان المندائي ؟**

- منذ صغر سني ؛ تقريباً ١٣ سنة ؛ بدأت بالدراسة في ميدان المندائية ، وحاولت تثقيف نفسي بنفسي من خلال ما توفر لدي من كتب ، واستطعت الحصول على كتب أخرى ، ومنها كتاب الليدي دراور (الصابئة المندائيون) ، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي ، وهو كتاب مفيد لكل الذين درسوا المندائية

بدأت من البصرة في النشاط المندائي من أيام الشيخ عبد الله (شافق هطايي نهويلي)، وكنت أعمل معه في المندي وأساعده في المراسيم الدينية ودرست بإشرافه، وفي تلك الفترة استطعت أن أكمل الإعداد الديني، حوالي عام ١٩٧٩ كنت جاهز للطراسة، بالرغم من صغر سني.

وبانتقال الشيخ عبد الله إلى بغداد بقيت في البصرة من دون رجل دين، وهي من أكبر المدن في عدد المندائيين، وهذا سبب إحراجاً كبيراً وفراغ في وضع الطائفة الديني هناك، فحاولت أن أملأ الفراغ على قدر المستطاع، فعملت بكل إخلاص وبكل روح عفوية وبكل ما أوتيت من طاقتي، خدمت في كل المحافظات التي تحتوي مندائيين، العمارة والناصرية والكوت وكركوك وديالي والرمادي، وكان تركيزي الأكبر على البصرة والناصرية وبغداد، حيث كنت في كل عطل نهايات الأسبوع أتنقل بين هذه المحافظات الثلاث محاضراً ومعلماً.

أما في بداية الثمانينات بدأ السكن في مندي بغداد الكائن في الدورة فترة العطلة الصيفية للمدارس، واستطعت أن ألتقي مع ثلاث شخصيات مندائية مهمة هم الأستاذ نعيم بدوي والأستاذ غضبان رومي، والأستاذة ناجية مراني بعد إصدارها لكتابها، وأصبحت علاقتي وطيدة بهم، وكنت أقضي الكثير من وقتي معهم، وكنت أضحي بكل وقتي ومجهودي في سبيل خدمة الطائفة، والتزامي الروحاني هو الذي مكنني من سلوك هذا الطريق بصورة حقيقية نقية بعيدة عن المصالح المادية أو المعنوية، ومن بداية مشواري وأنا متبني للمنهج العلمي الأكاديمي، حيث أستطيع في مرحلة الابتدائية أن أقرأ كتابات جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، ومشواري طويل بالمندائية ويتعدى ٣٦ سنة.

*** ما هي أهم إنجازاتك البحثية ومؤلفاتك؟**

- معظم بحوثي هي بحوث علمية منشورة في مجلات علمية عالمية محكمة، وحاولت من خلالها أن أركز على الجوانب الفلسفية والعقائدية والجوانب

الناصورية في الدين المندائي ، وأعتقد أن هذا الجانب مهمل بالرغم من أنه جوهر المندائية ، وركزت على الترجمات وفلسفة الديانة المندائية والفقه واللغة والتاريخ المندائي وأغلب بحوثي منشورة في كتب ومنشورات أكاديمية عالمية.

*** كيف استطعت كسب محبة واحترام المندائيين ، بالرغم من كل المشكلات والاعتراضات التي واجهتك في بداية مشوارك الديني؟**

- تعرضت لمشكلات عرقلت تقدمي في البداية وكانت أسباب ذات طابع سياسي أكثر منها ذات طابع ديني، وزادت علي التعقيدات يوماً بعد يوم، لكنني استطعت أن أكسب مودة الناس ورضاهم إلى درجة أنني حتى قبل ١٤ سنة من طراستي والناس تناديني شيخ، وهذا ما اعتبره توفيقاً من هبي قدمايي، وأؤكد أن الجانب الروحاني الذي يمتلكه الفرد هو الذي يجعل الفرد محبوباً من قبل الناس، حيث إن الناس على قدرة عالية على التمييز بين من يمثل الورع والتقوى والإيمان ولكنه لا يحظى بمحبتهم، وأعتقد أن الجانب الروحي يغلب على الجانب العاطفي والعقلي... والتقرب للناس باحترام وببساطة وإعطائهم المحبة والاهتمام هي التي تجعلك محترماً ومحبوباً، فكمية الثقافة والمعلومات التي تملكها ليست هي العنصر الرئيسي لكسب احترام الناس، وأذكر أيام طراستي في مندي القادسية والشجون بداخلي حالياً وأنا انظر إليه بعد غياب ١٨ سنة، أذكر حينها أن المندي قد امتلأ عن آخره وأصبحت منطقة القادسية بارك لسيارات المندائيين القادمين للطراصة، ووصل عدد المتواجدين حينها إلى ٢٣ ألف شخص مندائي.

*** ما هو الهدف من الزيارة الأخيرة للعراق، وما هي مشاريعكم فيه؟**

- تمّ توجيه دعوة من قبل وزارة الثقافة والإعلام لحضور مهرجان بغداد عاصمة الثقافة العربية ٢٠١٣م، واعتبروا وجودي بينهم مميزاً، واعتبروا أن الطائفة المندائية قد أنجبت أشخاصاً جديرين بحمل اسمها، وهم سفرائها في كل مكان، وخاصة في مهرجان بغداد، كوني فنان رسام وفخار إضافة إلى مكانتي

العلمية، وأعتقد أن أستطيع القيام بدور مهم بالرغم أن دوري هذا صغير مقارنة بدور إخوتي الصابرين والمثابرين هنا في بغداد وبقية المحافظات العراقية، إضافة إلى أنني محمل بالمشاريع والأفكار التي تهم الطائفة والمسؤولين أيضًا، الهدف منها تنشيط العمل في موضوع مهم وهو أن يبقى العراق موطن المندائية، ومشروع آخر هو بيت المعرفة المندائية، والقيام بعمليات التسجيل والتأهيل الرسمية لإنشاء الأكاديمية المندائية، وهو السبب الرئيسي لقדومي، حيث استطعت الاتصال بعدد من المسؤولين والوزراء، من ضمنهم وزير التعليم العالي ووزير الثقافة والإعلام من أجل تفعيل ذلك للقيام بخطوات عملية علمية لتأسيس مراكز ثقافية وأكاديمية علمية.

*** من بغداد إلى سيدني... حدثنا عن هجرتك إلى أستراليا وكيف وجدت المجتمع الجديد؟ وما مدى تقبل المجتمع المندائي للوطن الجديد؟**

- في الحقيقة ربما أكون أول رجل دين مندائي يغادر العراق ويستقر خارجها، ووجودي في أستراليا كان نقطة تحول في حياة الجالية المندائية والعربية، بسبب نشاطي المتنوع، خرجت عام ١٩٩٦ وبطريقة صعبة جدًا، خرجت بكفالة من مركز البحوث المندائي في سيدني، ركزت اهتمامي هناك منذ الفترة الأولى على البحث العلمي والبحثي إضافة إلى العمل في الخدمة المندائية، واستطعنا (وبمباركة هيي قدمايي) أن نبتكر الحرف المندائي الإلكتروني، وكان وقتها مطور جدًا، واستطعنا كتابة الدواوين والكتب المندائية وتم تنقيح معظم الكنزا ربا ثم القلستا والانياني وسيدرا اد نشماتا، وتم إصدار قسم منها سنة ١٩٩٨م، بعدها قمت بعمل محاضرات أكاديمية عن المندائية، ومجموعة من البحوث العلمية، ونشرت في كتاب دراسات مندائية.

أما عن سؤالك الآخر عن تقبل المندائيين للمجتمع الأسترالي؛ فأعتقد أن المندائيين كان لهم الحظ في الوصول إلى أستراليا، وذلك للفرص التي يوفرها ذلك البلد للمندائيين، والتي تساهم في تطوير واقع الديانة، فأهم مسألة بالوقت

الراهن هو تطوير مستوى الأداء المندائي، فمن دون هذا الشيء فإن الوضع المندائي سيتراجع، وأستراليا وفرت فرصة لاحتكاك الأديان والفلسفات ببعضها، مما ساهم في إثراء معرفة الفرد المندائي في هذه الأديان، ومعرفته بدينه المندائي أيضاً، فالتراكم المعرفي الإنساني يحتم هذه المسألة.

*** هل تتوفر لديكم أي إحصاءات معلومات حول أعداد المندائيين وحول عدد المنادي (دور العبادة)؟**

- لا تتوفر أي إحصائية دقيقة لأعداد المندائيين في أستراليا، لكن هناك إحصائية تقديرية، وهي ستة آلاف وخمسمائة فرد مندائي، ولا يتجاوز السبعة آلاف، أما دور العبادة فهناك اثنين رسميين وهناك منديين من الطين (شخنثا)، أحدهما بنيته أنا سنة ٢٠٠٦، والآخر بناه الشيخ صلاح ٢٠١٣م، والمندائيون متواجدون بكتلة واحدة.

*** ما مدى تقبل المجتمع الأسترالي للدين المندائي الجديد في مناطقهم؟**

- تقبل المجتمع الأسترالي للجالية المندائية كان جيداً، لكني أريد أن أشير إلى أن الجالية المندائية استطاعت أن تكسب ود واحترام المجتمع الأسترالي على اختلاف أطيافه، وهذه شهادة تاريخية، حيث أن المندائيين القاطنين في أستراليا يعملون بشكل جاد ومكثف في محاولة منهم إلى أن يعكسوا صورة أخلاقية وإنسانية واجتماعية جيدة إلى المجتمع الأسترالي ومؤسسات الدولة والمؤسسات المدنية، وعموماً شكل الطائفة جيد، لكن وفي الفترات الأخيرة ظهرت سلبيات؛ ومنها حالات سلبية في بعض العائلات المندائية، مثل الانفصال والشكوى لدى الشرطة، امرأة تشتكي على زوجها أو رجل يشتكي على زوجته، وأحياناً تكون هذه الشكاوى كيدية وليست واقعية، وغيرها من التصرفات غير المسؤولة على مستوى الأفراد وأحياناً أخرى على مستوى المؤسسات.

* هل تعزو تلك المشكلات إلى اندماج المجتمع المندائي مع الواقع الغربي أو الأسترالي الجديد؟ أم أنها أسباب ذاتية خاصة؟

- الاثنين معًا ، وهناك أسباب أخرى أيضًا... منها سفر المندائيين وهم غير مستعدين نفسيًا وفكريًا واجتماعيًا ، وبالتالي كانت هناك مشاكل كأنها جمر تحت الرماد ، سواء في العراق أو في دول الانتظار ، فبعض العائلات المندائية تصعدت وتأثرت بالكثير من العوامل ، والمشكلة هي في الفهم غير الدقيق ، وغير الناضج للحضارة الغربية ، مما دفع البعض إلى أن تتعثر مسيرتهم لأسباب مادية عائلية ، والسبب الثاني أن مؤسسات الطائفة لا تزال تحبو في مجال جذب أبناء الطائفة للدين ، وعدم اهتمام الأهل بتعليم أطفالهم التعليم المندائي وغرس الثقافة المندائية داخلهم.

الفصل السابع

- مقدمة

- البحث الأول : مستقبل الأولاد والبنات المتزوجين من ديانات أخرى ،
وهل من حلول تلوح بالأفق ؟

- البحث الثاني : الوضع الحالي والمستقبل المنظور .

- البحث الثالث : النسيج الاجتماعي للصائغ المندائيين .

- البحث الرابع : مدى تأثير الدين المندائي على المجتمع .



مقدمة البحث

مناقشة موضوع التبشير دينياً وموضوعياً

حقيقة ترددت كثيراً من الخوض في هذا الموضوع ، أرجو أن تتسع صدوركم لمناقشته ، فيما يحمله من حساسية في الطرح ، وفي مثل هذه الظروف الحرجة ، ولنعطي الموضوع أهمية بالغة ونتعامل معه بقلوب مؤمنة وعقول نيرة ، متوخين مستقبل أجيالنا ورفعة ديننا ، رأيت أن الوقت حالياً مناسب لنشره بعد أن استرشدت بعدد من مثقفي أبناء طائفتنا المعنيين بالشأن المندائي ، سأناقش الموضوع من الجانب الديني والجانب الموضوعي الفعلي طالباً ومؤكداً أن تتم المناقشة بهدوء وحكمة وعقلانية ، لا بانفعال وردود متشنجة (وكل واحد على رأسه بطحة يحسس عليها) ، دعونا نكون متحضرين ، وقد تعلمنا شيء من هذه البلدان المتحضرة التي نعيش فيها.

الجانب الديني :

نحن المندائيون نؤمن ووفق ما ورد في كتبنا الدينية أن ألما دنهورا (الجنة) عالم مندائي ، وأن هبي قدمائي خلق النشماثا والملائكة مندائيين ، وأمر بخلق آدم وحواء مندائيان وطلب من الملاك المبجل مندادهيي أن يعلمهم الصلاة والتسبيح لخالقهم وأن يعلمهم الأسماء كلها والتوحيد والوصايا ، (علم آدم ليستنير عقله وجنانه ، كن أنساً له أنت والملائكان ، اللذان معك سنزلان ، علمه وزوجه وخبريته الحكمة كي لا يغويهم الشيطان ، علمه الصلاة يقيمونها مسبعين لملك النور السامي)... كنزا ربا اليمين.

وعندما أراد آدم أن يزوج أولاده وبناته ، أخذوا البنات إلى ألما دنهورا (مشوني كشط) وزوجهم دموثا (النظير) الأولاد ، وجيء بدموثا البنات من ألما دنهورا وزوجهم أولاد آدم... وهكذا ازدادت ذرية آدم في البداية وتكاثرت ، لا كما يقول الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري :

إِذْ مَا ذُكِّرْنَا أَحَدًا وَفَعَالِهِ

وَتَزْوِيجِهِ لِابْنَيْهِ بِنْتَيْهِ فِي الْغَنَاءِ

عَلَّمْنَا بِأَنْ الْخَلْقَ مِنْ نَسْلِ فَاجِرٍ

وَأَنْ جَمِيعَ الْخَلْقِ مِنْ مَحْضَرِ الزَّوْنِ

ولهذا الأولاد يأخذون اسمهم الديني من أمهم لأنهم ولدوا من أرحام طاهرة ،
ثانياً : كلما أصاب المندائيين عبر التاريخ مصيبة أو كارثة ؛ يرسل هبي قدمائي
لهم رسول ليعيد الدارة فأرسل بعد آدم شيتل ، ثم نوح وابنه سام ، ثم إدريس
(دنانوخت)... وخاتمهم يهيا يهانا مباركة أسماؤهم جميعاً.

ثالثاً : الأنبياء المندائيون الذين بعثوا وجدوا أمة موحدة مندائية تدين بالدين
المندائي ، وحتى النبي يهيا يهانا (مبارك اسمه) الذي عاش في فلسطين والذي
كان يصبغ (يعمد) المندائيين في نهر الأردن كان يصبغ المندائيين حصراً ،
(وكل البحوث المتوفرة ليس هناك دليل قاطع) لأنه يعرفهم وهم يعرفونه لأنه
عاش وسطهم وتربى بينهم رغم كثرة الأقوام التي كانت تعيش على ضفاف نهر
الأردن وحوض البحر الميت مثل الأسنيين ، اليبوسيين ، الكنعانيين (الفلسطينيين) ،
السامريين ، الحسح ، الصدوقيين ، الصيدناويين وغيرهم من الأقوام ، حتى أنه
صبغ (عمد) السيد المسيح بأمر من الحي العظيم ، ولكونه ابن خالته وكان يعيش
معه في نفس البيت ، ونهل من تعاليمه وحكمته وإيمانه ، وكان أكبر منه بثلاث
عقود ، ولم يعلن عيسى بن مريم نبوئته إلا بعد وفاة يهانا - مبارك اسمه -
بثلاث سنين ، وقد خفف السيد المسيح والآباء الأوائل كثيراً من غلواء وتعقيدات
الدين المندائي واليهودي في الصلاة والصبغة (التعميد) وكل المراسيم الدينية
وجعلوها ذات هيبة وأبهة وفخامة على بساطتها ، فانضم لدينه أعداد غفيرة من
الناس لبساطة الدين وسهولة التطبيق.

رابعاً : الخالق يرسل الأنبياء بشيراً ونذيراً يبشرون الناس بالجنة وبالحيات الأبدية
التي لا وجع ولا أمراض ولا موت ثان فيها ، ونذير ينذرهم أن من يخالف

تعاليم الله أو من يرتكب معصية في حياته يحاسب في المطرathi (محطات الحساب)، ويكون مصيره النار الحامية إن لم يتب ويرجع إلى خالقه، وكل الأنبياء الموحدين بعثوا وحدهم فبشروا بأديانهم لتكون لهم أمة مثل موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ما عدا آدم رأس السلالة البشرية الذي كون له أمة مندائية من زوجته حواء، وإن الأنبياء المندائيين مباركة أسماؤهم والذين جاءوا بعده وجدوا أمة مندائية تدين بالدين المندائي فلم يكونوا بحاجة للتبشير.

خامساً: يحسب على الأمة المندائية أنها لم تؤسس دولة أو دويلة أو سلطنة أو إمارة، ولم يكن لها عبر التاريخ ملك أو سلطان أو قائد مشهور أو أمير، بل كانت دائماً تلوذ بظل دين آخر أسس دولة قوية، ومن غرائب الأمور أنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لتمسكهم بالناصروثا (سلحوا نفوسكم بسلاح أمضى من الحديد، سلاح الناصيروثا)، (فإن اضهدتوا فاحتملوا الاضطهاد إلى أن تقضوا آجالكم، بعضكم لبعض مساندين). كنزا ربا اليمين، الوصايا.

وهكذا ضعفوا على مر الزمان وقلة أعدادهم بسبب الخوف والاحتفاء بالأديان الأخرى القوية، وهروبهم إلى أعماق الأهوار حيث الحياة البدائية والأمراض الفتاكة وانعدام التعليم، وتعرضهم لأعمال إبادة في فلسطين وشيشتر في إيران وغيرها... ويؤكد لنا كتاب الكنزا ربا (م.أ) أنهم تعرضوا للفناء عبر تاريخهم الطويل ثلاث مرات، الأولى بالنار وبنى الدارة رام ورود... والثانية بالسيف والوباء وبنى الدارة شورباي وشرهيل... والثالثة بالطوفان وبنى الدارة سام ونوهريتا... ومع هذا كله فالمندائيون نسيج متماسك دمهم نقي، ورحمهم طاهر، ودينهم مغلق، يرفضون التبشير بكل أشكاله وهذا ما اتفق عليه غالبية رجال الدين.

الجانب الموضوعي الفعلي :

أولاً : تشتت المندائيون على أرض الله الواسعة بسبب الحروب طلباً للأمان ، وتركوا بلادهم التي عاشوا فيها منذ فجر التاريخ مكرهين ، واضطر عدد من أولادهم وبناتهم للزواج من الأديان الأخرى ، ولأسباب مختلفة ، ولو كان الآن عدد الخارجين عن الدين المندائي ألف ؛ فبعد عقد من السنين كم سيصبح ، وبعد جيلين أو ثلاثة كم سيكون العدد ، إنها متوالية عددية لا تقف عند حدود ، إذن لابد من دراسة الموضوع ووضع الحلول المناسبة ووضع هذه الأمة تحت التحكم والسيطرة قدر الإمكان ، وبالإقناع وبالحوار المتمدن وزيادة الإيمان وإيجاد سبل ووسائل حديثة تطور بها الأداء ، إذ لا يعقل أن ٩٩% من المندائيين لا يصلون لصعوبة إجرائها ولا يعقل أن رجال الدين لم يتعلموا أكاديمياً ، فهم يمنحون لأنفسهم رتباً دينية دون دراسة أو شهادة أكاديمية كما هو الحال عند المسلمين في كليات الفقه ، أو عند المسيحيين واليهود في كليات اللاهوت ، علماً أصبح كثير من جامعات العالم المعروفة فيها كليات وأقسام لدراسة الأديان المقارنة ، وهناك أقسام لدراسة الدين المندائي تمنح شهادات عليا في كليات رصينة ضمن جامعات محترمة مثل السوربون في فرنسا ، وكامبردج في إنجلترا ، أو لايبزك في ألمانيا ولاهاي في هولندا وكوبنهاجن في الدنمارك وبروكسل في بلجيكا... وهكذا.

ومن الضروري جداً أن نسارع في تأسيس كلية الدراسات المندائية هنا في السويد حيث الكثافة المندائية ، وتكون لها فروع في أماكن أخرى تمنح شهادات عليا لرجال الدين الراغبين والمدنيين المهتمين ، ويمكن الاستفادة مستقبلاً من دار المعرفة في مندي القادسية في بغداد عند تحسن ظروف الوطن ، وبذلك نكون قد هيئنا كوادر أكاديمية تستطيع أن تضع الحلول العملية المبنية على العقل والمعرفة وجوهر الدين المندائي الذي يدعو إلى الرحمة والمغفرة ويشجع التوبة والخلاص من الذنوب ، كما ورد في كتبنا الدينية المقدسة ، وإلقاء

محاضرات للشباب وحضور مؤتمرات عالمية لكي نحافظ على الشبيبة من الضياع.

ثانيًا: لندرس الإشكالات والحالات التي ستواجهنا وطرق الحل المقترحة دون أن نخوض في النصوص لغرض التركيز وتحديد الهدف:

١- مندائية/ مندائي خرجوا من الدين المندائي بسبب ضعف الإيمان ، ولم يختتوا ولم يتزوجوا وندموا وتابوا ويريدون العودة لدينهم.

٢- مندائي خرج من الدين المندائي وتزوج ولم ينجب ولم يخن وندم وتاب ويريد العودة لدينه.

٣- امرأة مندائية تزوجت من دين آخر ولم تنجب وندمت وتابت وتريد العودة.

٤- رجل ختن قسرًا أو بدون علمه أو بسبب مرض ، أو أجبر على تغيير دينه.

٥- مندائية اغتصبت قسرًا وأجبرت على تغيير دينها وتريد العودة.

٦- مندائية تزوجت من دين آخر وأنجبت وندمت وتابت وتريد العودة.

٧- رجل تزوج من دين آخر وخن وأنجب وندم وتاب ويريد العودة.

٨- طفل رضيع تبنته عائلة مندائية ويدعون أنهم لا يعرفون حسبه ونسبه ، ويريدون صباغته.

٩- الأولاد والبنات المولودين من أم أو أب مندائي ، وأم أو أب من دين آخر ويرغبون العودة وحدهم أو مع أهلهم.

١٠- فتاة مندائية بكر قطع لها مهر ديني ولم يدخل بها زوجها لسبب ما ، افترقا وتريد الزواج من مندائي آخر وتريد أن يقطع لها مهر بكر.

١١- امرأة ثيب (مطلقة ، أرملة ، أسباب أخرى) تريد الزواج مرة أخرى وأن يقطع لها مهر ديني أصولي بواسطة رجل دين أبيسق (ترميذا).

هذه الاحتمالات وغيرها يجب أن تدرس دراسة مستفيضة بعقلية متفتحة ، ووضع العلاج اللازم ووضع حلول لكل حالة ، ووضع ضوابط من قبل رجال

الدين الأجلاء ، ولنناقش هذه الاحتمالات وفق العقل والمعرفة وجوهر الدين وعلى ضوء ما ورد في كتاب الكنز الربا، وترسر ألف وشيالة، وديوان أباثر، باختصار شديد ودون أن ندخل بذكر النصوص والتفسير الدينية التي يجب أن يعرفها رجال الدين الأفاضل والمختصين لكي لا نضيع الهدف والغاية.

الاحتمالات من ١ : ٥ فيها جانب الندم والتوبة للمندائي/ المندائية ، والعودة للدين المندائي وما يقرره عليهم رجل الدين الأفاضل من مراسيم دينية يجب الالتزام بها ، الاحتمالات ٦ ، ٧ وطبقاً للنصوص الدينية لا يجوز عودتهما لارتباطهما بأولادهما ولا فكاك لهم منهم ، حتى لو تركوهم فهم أولادهم ومستقبلاً أخوة لأولادهم المندائيين وهم على دين آخر (مثلاً مسلم أخ مندائي من الأب أو الأم ، وهذه مشكلة وحلها يتطلب قرار لإجماع رجال الدين الأفاضل، فهم وحدهم يتحملون مثل هذه المسؤولية وما ينتج عنها مستقبلاً.

الاحتمال (٨) لا يمكن لعائلة مندائية أن تتبنى طفل غير معروف الحسب والنسب ، على العائلة المندائية أن تكون أمينة وصديقة مع رجل الدين وألا تسبب له الضرر لأن الحي العظيم والمجتمع المندائي يلعنها ويحتقرها ، الاحتمال (٩) وهذا ينطبق عليه الاحتمالين (٦ ، ٧) ، الاحتمال (١٠) يكون من حق الفتاة المندائية الباكر أن يقطع لها مهر ثاني كثيب بواسطة رجل دين أبيسق لأنه كان لها مهر سابق على رجل آخر ، وهذا الأمر فيه نوع من الظلم للفتاة البكر ، يجب أن يعالج بإنسانية وإعطاء كل ذي حق حقه.

الاحتمال (١١) يكون من حق الثيب المندائية أن يقطع لها مهر عزبة بواسطة رجل الدين الأبيسق المتخصص في مثل هذه الحال ، ويعتبر هذا المهر صحيحاً وسليماً وأنها زوجة حلال بكل المقاييس الدينية والاجتماعية والقانونية وأبنائها مندائيون شرعيون يحملون اسمها الديني والمدني واسم زوجها المندائي أبوهم الشرعي ، وضرورة طراسة أكثر من رجل دين أبيسق ، وفي حالة عدم وجود أبيسق أرى أنه يحق للترميذا أن يقطع المهر وهو لابس التاغة حسب الأصول ،

ليكون المهر أصولي دينياً، وإن رفع التاغة من قبل رجل الدين وإجراء مراسيم قطع المهر بالغش والتلاعب يعتبر المهر باطلاً وينزل وهذه الحالة رجل الدين، ويتحمل رجل الدين مسؤولية هذا الغش والضحك على الناس، لأنه ما ذنب الزوج والزوجة، ومن حقهم أن يقاضوا هذه الحالات لدى المجلس الروحاني العالمي، وحالياً عند المحكمة الشرعية المندائية ورئاسة الطائفة في بغداد.

هذه وجهة نظر صحيحة من وجهة نظري، لأنني عاصرت مثل هذه الحالات لمدة أكثر من جيلين من خلال عملي في مجالس الطائفة في العراق والسويد، وأعلم جيداً أن القرار الأول والأخير بيد رجال الدين الأفاضل لأنهم وحدهم يتحملون هذه المسؤولية لكون الموضوع من اختصاصهم... ولهذا لم أذكر البوث والنصوص التي توضح ذلك والمذكورة في الكنزا ربا، وترسر وديوان أبائر وغيرها، لكون رجال ديننا الأفاضل قد حفظوا هذه النصوص وفهموها...

ونحن المدنيون الدارسون نوضح لهم وللمندائيين لغرض الفائدة واختصاراً بالوقت والمساعدة إن قبلوها شاكرين فضلهم، فيجب وهذه الحالة على رجال الدين معالجة الحالة بعقوبة مثله مثل من ارتكب إثم ويجب أن يحاسب عليه، فالقوانين الوضعية المدنية تحاسب الشخص الذي يلحق ضرر بنفسه، فما أحرانا أن نحاسب المندائي الذي يلحق ضرراً بنفسه وعائلته ودينه... فتوجب عليه ستون صباغة أو أكثر بمناسبة دينية مهمة، وعليه أن يحفظ من كتاب الكنزا ربا عدد من البوث التي تقوي إيمانه، وترسخ فيه القيم الدينية المندائية النبيلة، ولا يصلح أن يكون شكندا ولا يجوز له أو لذريته الترشح لموقع ديني مستقبلاً، وهكذا ليكفر عن ذنوبه، وهذا مجرد مقترح لا أكثر لأن مثل هكذا أمور تعالج من قبل المجلس الروحاني العالمي وبمساعدة شخصيات مندائية قيادية في الطائفة يجب أن نبدأ العمل قبل أن نتعقد المشكلة وعلينا ألا نخاف من المواجهة (اللي يخاف من الطنطل يطلعله) مثل عراقي، وعلينا ألا ندفن رؤوسنا بالرمال عندما تهب العاصفة كالنعام.

ولحل مثل هكذا أمور يتطلب الحوار والتفاهم والإقناع لا التشدد والتسلط والدكتاتورية، ومن الضروري مراعاة العصر مع المحافظة على جوهر الدين، وعلينا عدم الخوض في من هو الزاني ومن هي الزانية لكونه موضوع شائك ومعقد، وإن الخط الفاصل بين الفضيلة والرذيلة والصدق والكذب خط رفيع، وكما قال السيد المسيح (من كان منكم بلا ذنب ليبرمها بحجر)، وعند المسلمين الأمر يتطلب أربعة شهود عيان، ونحن نعلم أن هذه المجتمعات الجديدة والحكومات تنتظر لهذا الموضوع بمنظار آخر غير منظار أجدادنا وأهلنا، ونحن لا يمكننا الانعزال كما انعزل أجدادنا في أهوار العراق وإيران عدة قرون.

تعالج الأمور بغرس الإيمان في قلوب أبنائنا وتربية بيتية سليمة مبنية على التفاهم والإقناع والحب والحنان، ولا يصح أن نكيل التهم باطلاً، فكل المتزوجات المندائيات أخواتنا وأولادهن أولادنا... طالما الزوجان مندائيان وأجريت لهم مراسيم دينية (قطع مهر) من قبل رجل الدين، ومثلما نتحمل نحن جميعاً مسؤولية هذا العمل وحل هذه المشكلة الكبيرة نتحمل كل التشكيلات المندائية وكل رجال الدين، وفي مقدمتهم رئيس الطائفة، هذه المسؤولية المهمة والخطيرة التي يجب معالجتها بعقل نير وحسابات دقيقة وكلنا عون له، ومن ههنا قدمائي العون والهداية.

البحث الأول

مستقبل الأولاد والبنات الذين تزوجوا من ديانات أخرى

وهل من حلول تلوح بالأفق؟

هذه من المشاكل المعقدة عند الصابئة المندائيين التي يصعب إيجاد حل منطقي وواقعي يرضي الجميع، وخاصة رجال الدين المتزمتين، ويضع حلولاً ناجحة لهذه الحالات في الوقت الحاضر، وهناك فريقان، لكل فريق وجهة نظر تختلف عن الأخرى...

فالفريق الأول الذي يمثل كل رجال الدين ومؤيديهم لا يقبلون البتة بزواج أولادنا أو بناتنا من غير أبناء دينهم، ولهم أسبابهم منها تشجيع زواج البنات والأولاد المندائيين من بعضهم البعض لمحدودية العدد وترغيبهم بهذا الزواج لكي لا يفكروا بالزواج من غير دينهم... كذلك المحافظة على العائلة المندائية وتمسكها بوشائج القرى وصلة الرحم، ولكي لا تنزوب العوائل المندائية في المجتمعات الكبيرة من الأديان الأخرى.

ولأن الدين المندائي مغلق، وكل مندائي ومندائية يحمل اسماً مدنياً واسماً دينياً يحتاجه في جميع الطقوس الدينية، وهذا الاسم يعتمد أساساً على الاسم الديني للأم والتي بدورها أخذته من الاسم الديني لأُمها، فمثلاً لو تزوج رجل مندائي من امرأة غير مندائية وأنجب منها أطفالاً، ففي هذه الحالة لا يمكن أن يحملوا اسماً دينياً، وبهذا لا يمكن إجراء أي طقس ديني لهم، وقد أصدر رجال الدين المندائيين مجتمعين قراراً ملزماً للجميع بعدم الزواج من غير الدين المندائي.

أما الفريق الثاني فله أسبابه، ورأي آخر بهذا الخصوص، فأولاً: لا يخفى على الجميع أن كثير من أبناء المندائيين وخاصة الشباب اضطروا مكرهين إلى الهجرة لأسباب عديدة، ثمّ التطرق إليها في بحث أسباب الهجرة ودوافعها

وانتشارهم في أصقاع المعمورة الواسعة ، واختلاطهم بمجتمعات متطورة ، وظروف معاشية معقدة ، واحتياجاتهم إلى إقامة شرعية والحصول على جنسيات تلك الدول وسرعة تعلم اللغة ؛ جعلهم مضطرين أن يرتبطوا بعقود زواج من تلك البلدان ومن أديان أخرى وإنجابهم من تلك الزيجات ، خاصة وأن هذه المجتمعات لا تعطي أهمية بالغة للدين ، وتمسك هؤلاء بالدين والقربى ، وحبهم لأهلهم وذويهم وعدم التخلي عنهم بأي حال من الأحوال.

ويرغبون بزواج أولادهم وبناتهم من المندائيين ، وأن يندمجوا بالمجتمع المندائي ويمارسون الطقوس والشعائر الدينية المندائية ، وتبقى المشكلة قائمة طالما رجال الدين المندائيين بعيدين عن التطور ومواكبة الحداثة والتخفيف من هذه الطقوس والشعائر ومنها الاجتهاد والتجديد.

يلاحظ أن الأديان السماوية مع مرور الزمن تطورت وخففت كثير من القيود وسهلت إلى الأحسن والأبسط مع المحافظة على الجوهر ، لكن رجال الدين المندائيين لم يطوروا شيئاً مفيداً ، فشعيرة الصباغة مثلاً بقيت كما هي ، فالمندائي حالياً يصبغ كما عمّد النبي يحيى السيد المسيح عليهما السلام ، بنفس الأسلوب ونفس الطريقة ونفس السياقات.

وهذه صرخة ألم من الأستاذ والمربي الفاضل أبي معتز ، خائفاً ومتوجساً من المستقبل المنظور ، لما يراه ويلمسه من التشتت والفرقة في هذه الأوطان الجديدة التي تختلف لغاتها وعاداتها وتقاليدها عما رضعناه في الوطن الأم ، يا أبا معتز الغالي جننا هنا مهجرين ولسنا مهاجرين نطلب الأمان والعيش الكريم يا سيدي... ونحن أتيت لنا فرصة أحسن من فرصة أجدادنا الذين لازالوا في مناطق الأهوار لعدة قرون ، وهذا ثمن الحرية والديمقراطية ، قوة الدين أستاذي العزيز بصلاح وهيبة وثقافة وإيمان رجال الدين القدوة الحسنة وأنت سيد العارفين.

صرخة ألم :

إخوتي ، أخواتي المندائيون... أحبيكم جميعاً تحية المحبة المندائية ومن خلالكم أحبي كل المجالس والجمعيات المندائية الموقرة في العالم ، الجسم عندي غير أن الروح عندكم ، فالجسم في غربة والروح في الوطن ، إن كل مندائي غيور صار يشعر في كل لحظة يعيشها في دول المهجر أن جسده يتحرك على أرض الغربة ، لكن روحه هناك تحلق في سماء الوطن الأم "بلاد الرافدين" ، وطن الأجداد والآباء ، مهد الطفولة وملعب الصبا والشباب... الوطن الذي تركنا فيه قبور ورفات أهلنا وشيوخنا...

رجال ديننا العظام الذين رفعوا راية المندائية البيضاء عالية خفاقة على مدى مئات السنين ، ولم يتركوها يوماً من الأيام ، وقد عملوا بكل جد وإخلاص وتفان من أجل صيانة وترسيخ الديانة المندائية ، طيب الحي العظيم ثراهم وأسكنهم عوالم النور ، أقول إن وطننا بلاد الرافدين قد هجرناه قسراً لا اختياراً تحت وطأة الظلم والإرهاب والموت قتلاً... وطننا الذي احتضننا عدة آلاف من السنين مع الأديان الأخرى التي نشأت وترعرعت على ربوعه الخصبة ديانة سومر وبابل وأكد وآشور والكلدان واليهودية والمسيحية وأخيراً الإسلام...

نعم ذلك هو وطن المندائيين ليس كأشخاص وإنما ككيان ديني مميز ، هو من أقدم الديانات التي دعت إلى عبادة إله واحد وملائكته ، ديانة نقية منزهة عن كل ما يسيء للإنسان ، فقد حرّمت القتل والزنا والفساد بكل أنواعه ، والسرقة والكذب والنميمة والنفاق والكره والتعالي ، ودعت إلى المحبة والتسامح والتعاون والسلام بين بني البشر ، إن المندائية منذ نشأتها المباركة لم تقم على العنف والإكراه لنشر تعاليمها بين الناس ، وإنما انتشرت بينهم كما ينتشر عبير الورود في الحقائق والبساتين...

إنها ديانة عرفانية تستند إلى العقل والضمير والإحساس الفطري بوجود الخالق الواحد المدبر لهذا الكون اللامتناهي ، والذي تكون من ذاته ، مما لا شك فيه

أيها الأخوة المندائيون : إن الطائفة والديانة المندائية يمران بأصعب مرحلة وأقسى محنة ، بعد أن تشردنا في شتى بقاع الأرض ، وانقطعت جذورنا مع وطن المندائية الأم ، يحق لنا اليوم أن نتساءل أين كياننا المندائي السابق ؟ ما مصيرنا؟ وهل لمندائيتنا مستقبل واضح ؟ أسئلة بأذهان الجميع من المندائيين الحائرين المتألمين على حالنا اليوم ، بعد أن صار كياننا أشبه بمركب حطمه العاصفة فتناثرت أجزاؤه في البحر وراحت أمواجه تتقاذفها في كل ناحية...

إذن كيف السبيل إلى لملمة تلك الأجزاء؟

أيتها الأخوات ، أيها الأخوة... هناك تهديد حقيقي للمندائية كياناً وديناً ، وذلك مؤكد من خلال ذوباننا في مجتمعات دول المهجر ، إن عاجلاً أو آجلاً ، وذلك بسبب قوانينها وطبيعة الحياة الاجتماعية فيها ، والتي تساعد على انفلات الشباب من الجنسيتين لوجود المغريات الكثيرة التي تدفعهم إلى الانسياق الغرائزي الخطر الذي يؤدي في النهاية إلى استهلاك الذات وتحطيم العقل... وبمرور الأيام إلى الضياع في مآهات الشر والرنيلة ، والذي ينشأ عنه حتماً الابتعاد عن القيم والمبادئ الدينية والأخلاقية... الأمر الذي يُسهل انسلاخهم عن أسرهم ومن ثم عن طائفتهم ، لذا نرى أن الواجب يحتم علينا جميعاً أن نتدارك هذه الناحية الخطيرة قبل فوات الأوان.

لقد كنا في وطننا العراق بظل مجتمع محافظ له تقاليده وعاداته الخاصة ذات القيم النبيلة كالمروءة والوفاء والعفة والشهامة والغيرة وصيانة الشرف والعرض... بالإضافة إلى ذلك وهو الأهم؛ قوة الرابطة الأسرية ، ورابطة الفرد بالطائفة والدين ، وذلك بسبب تواجدها ومنذ مئات السنين في تجمعات متقاربة بالسكن داخل الوطن الواحد ونحن الآن تائهون مشردون بلا وطن...

إذن نكون أو لا نكون تلك هي المسألة ، كما يقول شكسبير ، أي أننا إما أن نحافظ على ديانتنا وطائفتنا ، كما حافظ أجدادنا وآباؤنا عليها... ولذلك علينا أن نتكاتف جميعاً كبار وصغار يداً واحدة وقلباً واحداً ونترك اللامبالاة والأنانية

والعصبية العائلية العشائرية، ولا ندع هذا الأمر على عاتق رجال الدين فقط وهم غير مقصرين في ذلك، بل هو دور المجالس والجمعيات المندائية في كل العالم، وعلى عاتق كل أسرة مندائية يقع دور كبير في هذا، جميع أفراد الأسرة لهم دور أساسي، فالأسرة هي حجر الأساس للديانة المندائية وهي في ذات الوقت الساحة لتطبيق ديانتنا، فإذا تمسكت الأسرة باعتزاز وحب في تطبيقها كانت دعامة قوية للكيان المندائي، أو لا نكون فندع الحبل على الغارب لنضيع وتضيع جهود كل الخيرين هباءً، فلنتمثل بقول الشاعر العظيم أبو العلاء المعري حيث يقول:

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْهَتِّيَّانِ ، مِنْ أَمَلِي مَا كَانَ مَوَدَّةَ أَبَوَيْهِ
وَمَا دَانَ الْهَتِّيَّ بِجِبَا وَلَكِنْ يُعَلِّمُهُ التَّحْدِيثِينَ أَقْرَبُوه

إن في تباعدنا وتشتتنا، ضعفنا وضياعنا وتلاشنا، وبالعكس تمامًا فإن تقاربنا وتماسكنا وثباتنا بقاء لكياننا وديانتنا على مر السنين والأجيال، إذن ليرتفع كل منا إلى درجة عالية من الشعور بالمسؤولية ولنفكر جميعًا بالسبل التي نخدم بها طائفتنا بتقان وإخلاص، وليذيب كل منا ذاته وحياته في الطائفة المندائية الكريمة، ويجعل كل ما هو خاص بنفسه خاص بها، ولتكونوا أيها الأعزاء على يقين أن تكاتفنا وغيرونا على بعضنا وتعاطفنا هو الزيت الدائم الذي يغذي شعلة بقاءنا على امتداد الزمن، فليحفظنا الحي العظيم جميعًا... والحياة والنجاة للمندائية.

البحث الثاني

الوضع الحالي والمستقبل المنظور

كان الصابئة المندائيون متمركزين في العراق وإيران وأغلبهم في العراق في مدن مثل بغداد والبصرة والعمارة والناصرية والفلوجة والرمادي وكركوك وأخيراً أربيل والسلمانية... إذن هم منتشرين في طول العراق وعرضه ، أما في إيران فحصرًا في منطقة عربستان.

بعد ثورة إيران الإسلامية وإلزام النساء الحجاب ومنع العرب من الكلام باللغة العربية ، بدأت الهجرة من إيران إلى أستراليا على شكل أفراد وجماعات ، وبعد أحداث ١٩٩١ بدأ الصابئة المندائيون العراقيون بالهجرة إلى أستراليا لأسباب ودوافع تطرقنا لها في الفصل الأول البحث الثاني (الهجرة) ، ثم طوروها إلى كندا ودول أوروبا الغربية ، وبعد الأحداث الجسام التي ضربت العراق في عام ٢٠٠٣ بسبب الغزو الأمريكي وما آلت إليه الأمور من خراب وتدمير البنية التحتية وغياب القانون ، والتصفيات وكثرة السلب والنهب والقتل واستهداف الصاغة بنهب حلالهم وأموالهم ، فسارعت هجرة الصابئة المندائيين واندفعوا على شكل أفراد وجماعات بترك العراق إلى البلدان المجاورة مثل سوريا والأردن ، وآخرين عبروا إلى اليمن ومصر وليبيا وقطر والإمارات وغيرها ، ومن هذه الدول تسللوا إلى بلدان المهجر ، ومع مرور الوقت ازدادت الأعداد وشكلوا جاليات كبيرة في السويد وأستراليا وجاليات متوسطة في ألمانيا واندجلترا وأمريكا ونيوزلندا والنرويج والدنمارك وفرنسا وجاليات صغيرة في فنلندا وكندا وغيرها من دول أوروبا الغربية والشرقية ، واستقروا في هذه البلدان وأسسوا فيها جمعيات مندائية ومراكز ثقافية ولهم إصدارات ومؤتمرات ، فصلية وسنوية وأسسوا اتحاد الجمعيات المندائية في لندن ، وجمعية المرأة المندائية والمجلس الصابئي المندائي في السويد وغيرها من المؤسسات

الرصينة والمعترف بها رسمياً. ولاحقاً تم تأسيس المؤتمر المندائي العالمي الذي يضم عدداً محدوداً من الجمعيات أيضاً، وظل في العراق وإيران فترة لا بأس بها، وبقيت مؤسساتهم في العراق تعمل بجد ونشاط وتطوع قادة أكفاء لإدارتها، ودعمتهم الدولة والكتل السياسية النافذة طمعاً في أصواتهم ولحفاظوا قدر الإمكان على ما تبقى من النسيج الاجتماعي للعراقيين الذين تعرضوا إلى أبشع ظلم عرفته الإنسانية عبر التاريخ، وحقيقة لأول مرة يتم ذكرهم في الدستور العراقي، ولأول مرة يرشح أحدهم إلى مجلس النواب وفق نظام الكوتا وكذلك عين منهم أكثر من سفير، ونسب أحدهم مدير للأوقاف يراعي مصالحهم ويتابع تعمير وصيانة المندائي (المعابد الدينية)، ومثل هذه الحقوق كانوا يستحقونها لتوفر الكفاءات لديهم، ولكن عندما يضيع الأمان بسبب غياب القانون وانتشار الفساد والرشوة يصبح لا قيمة لمثل هذه الامتيازات بظل الخوف والرعب وانعدام الخدمات وكثرة أعمال السلب والنهب والقتل وهضم حقوق الناس والطائفية البغيضة.

وتبوأ عدد كبير من الكتل السياسية الحالية لمسؤوليات كبيرة هم دونها بكثير، تصوروا وزير غير كفاء وغير مقتدر وغير مختص، وخير دليل الطاقة الكهربائية، رغم مرور أربعة عشر سنة على بدء الغزو الأمريكي مازالت الكهرباء والخدمات معدومة، والعراقيون يعانون وكل عام تقول لهم الدولة ستتحسن الأمور في نهاية هذا العالم ولكن دون جدوى ودون بصيص أمل.

تصوروا بلاد تسمى منذ القدم بلاد ما بين النهرين أو وادي الرافدين وحالياً الناس ماء الشرب عندهم شحيح وأهل البصرة يستوردون قناني ماء الشرب من الكويت، تصوروا من الكويت!، المفروض العراق تزودها بالمياه لو فترتها في دجلة والفرات وروافدهما وشط العرب. لكنها هذه الحقيقة المرة التي لا يصدقها عاقل، ولكنك إذا زرت العراق أو سألت أحد العراقيين ستعرف الحقيقة. زرت بلدي العراق أربع مرات وفي كل مرة أعيش فيه أكثر من شهرين وأكتفي بأبناء شعبي من المندائيين لأتعرف على أحوالهم الحالية، فأرى التعب والإجهاد

وفي وجوههم وفي عيونهم ، العائلة العراقية المندائية تمزقت وتشتت في بلدان المهجر ودول الانتظار والوطن الأم والذين يعيشون في الوطن الأم إما حبهم لوطنهم ، أو خوفاً من المجهول أو عدم القدرة على السفر أو قسم منهم متمسكين بمحلاتهم المربحة وبيوتهم الفارحة وبعراقيتهم ، ولكن يبقى الخوف هاجسهم ، وأذكر قصة قديمة قرأتها أن أمير أراد أن يختبر ذكاء وزيره ، فأمره أن يرعى خروف يملكه الأمير ويطعمه طعاماً جيداً كل يوم دون أن يسمن الخروف ، فربط الخروف في مرعى ووفر له الوزير أجود العشب وأحسنه ولكنه وضع قريباً منه قفص فيه ذئب جائع يعوي من شدة الجوع ، وتمر الأيام والخروف يأكل ولكن عينه على الذئب دون أن يسمن.

وهكذا فإن الصابئة المندائيين حالهم كحال إخوانهم العراقيين قد يأكلون ويشربون ولكن الخوف يلزمهم ويرعبهم ، وقلة الخدمات لا بل انعدامها تنغص عليهم عيشتهم وغياب القانون وتفشي الفساد في مفاصل الدولة شيء لا يطاق ولا يحتمل ، أما الذين يعيشون حالياً في دول الانتظار وخاصة سوريا والأردن ، فالانتظار قاتل ، والمهربين على كثرتهم ، ولكن أعمال النصب والاحتيال لها ابتكارات كثيرة ومتنوعة فهناك من ليس له قدرة مادية على السفر ، خاصة إذا كانت عائلته كبيرة وإمكانيته المادية محدودة أو ضعيفة ، وهناك المقتدر ولكنه يخاف النصب والاحتيال ، وهناك من هو محتار في اتخاذ أي قرار ، أيعود إلى وطنه رغم المحنة التي مازالت مستمرة وقد باع بيته وباع محل رزقه أو ترك عمله فأين يسكن وكيف يعيش.

أضف إلى ذلك متاعب الحياة الحالية من انعدام الخدمات وغلاء الأسعار والخوف من المجهول ، وضع أمني متردي ، فساد إداري خدمات معدومة لا كهرباء لا ماء لا نفط لا غاز ، عبوات لاصقة وعبوات ناسفة ونقاط تفتيش لا تعد ولا تحصى ، مناطق مغلقة وممرات مغلقة وشوارع مغلقة أينما تذهب تجد الحواجز الكونكريتية ، لو استغلوها جميعها ربما تكفي لتكون سياجاً فاصلاً بين العراق وإيران.

لقد هاجر عدد كبير من العوائل المندائية إلى شمال العراق التي أصبح إخواننا الأكراد يسمونها (کردستان) طلباً للأمان كملاذ آمن ضمن الوطن الأم ، ولاقوا في بادئ الأمر صعوبات في السكن والإقامة ولكن الحكومة المحلية سهلت عليهم الأمور ومنحتهم امتيازات وأنشأوا مركزاً ثقافياً ومجلس شؤون ينظم أمورهم تدعمه الحكومة المحلية في كردستان معنوياً ومادياً.

فحالياً الصابئة المندائية في الوطن الأم متوزعون ، الأغلبية في بغداد ، وهناك أعداد في البصرة والعمارة والناصرية أغلبهم من أصحاب الدخل المحدود وأعداد في محافظة أربيل والسليمانية...

أما في سوريا فحدث ولا حرج... آلاف العوائل ، بعضها في جرمانة ضاحية من أرياف دمشق العاصمة ينتظرون رحمة الأمم المتحدة ، والمقتدرون ينتظرون رحمة المهربين ، وعادة الزوج إذا وصل مثلاً لدولة مثل السويد يستطيع بعد حصوله على الإقامة أن يسحب زوجته وأولاده وبناته القُصّر ، وبهذا يخفف على نفسه نفقات المهرب ، ولكن الأمر يحتاج إلى وقت لغرض حصول الزوج على الإقامة أولاً ، وانتظار الموافقات على قبول عائلته ، وهذه كلها تحكمها سلسلة من المشاكل والمعضلات التي يتطلب حلها صبر طويل.

وكذلك الحال للمندائيين الموجودين في الأردن وغيرها من دول الانتظار.

تمر الأيام حالياً على العائلة المندائية ثقيلة محملة بهموم الغربة وهموم الفراق وهموم الانتظار وهموم التششت ، وهموم أخرى كثيرة منها اللغة والعادات والتقاليد والفلتان وعدم المقدرة على السيطرة على الأولاد والبنات.

الزوج إذا اختلف مع زوجته في أمر ما عليه أن يعالج الموضوع بحكمة وروية وألا يتعصب ويفقد أعصابه ، فإن شكته زوجته إلى البوليس فهذه مشكلة المشاكل ، تصوروا زوجة تدّعي أن زوجها اغتصبها ، يعاقب الزوج ويحجز ، وإذا أم ضربت طفلها ضرباً خفيفاً لغرض تأديبه لأنه لا يسمع كلامها ، وشوهدت هذه الأم من قبل الآخرين ، وأخبروا البوليس فهذه مشكلة أخرى.

العراقيون بشكل عام يحبون عاداتهم وتقاليدهم ويحبون وطنهم وشعبهم ،
والمندائيون مثلهم تمامًا متمسكين بالقيم والعادات التي تربوا عليها ويعشقونها ،
ولا يمكن أن يبدلوها بعادات وتقاليدهم ولا يحبوها ولا يريدوها .

وتبقى المشكلة قائمة للاندماج بالمجتمع الجديد ، وأعتقد أن الأوروبيين ومنهم
السويديين والهولنديين مثلاً لا يعولون على جيلنا كثيراً ، ولكن المهم عندهم
الأجيال القادمة ، فهنا المدارس تهتم بالتربية مثل اهتمامهم بالتعليم ، فالأجيال
القادمة ربما تنسى لغتها وتنسى عاداتها وتقاليدها وتتعلم قيم وتقاليدهم الجديدة
لغرض الاندماج بالمجتمع الجديد الذي اختاروه مكرهين .

أما عن المستقبل المنظور فتلك قصة أخرى لا نستطيع أن نلم بحجمها حالياً ،
فالمصائب المندائيون تشتتوا في بقاع الأرض ، لغات مختلفة وعادات وتقاليدهم
مختلفة ، وثقافات مختلفة ، وقوانين جديدة ، وانفتاح على الحياة ومباهجها ، وما
تعودنا عليه وما ربونا أهلنا عليه في بلادنا أنه عيب هنا مباح ، في بلادنا العائلة
العراقية متماسكة متكاتفه ، رب الأسرة مسؤول عن العائلة ، هو الأول وهو
الأخير مسؤول عن الصغار وعن الكبار ، مسؤول عن النساء والرجال ، بينما
هنا في هذه البلدان إذا بلغ الولد أو البنت سن الرشد يستطيع أن يستقل بحياته
حسب ما يرغب وحسب ما يشاء ، وإذا رغبت البنت بالزواج فمن حقها أن
تختار زوجها كائن من يكون ، ولا يستطيع أحد أن يثنيها عن قرارها إلا
بالإقناع .

وهذه معاناة يعاني منها كثير من العوائل وخاصة العوائل المندائية المغلقة على
نفسها من آلاف السنين والتي لا تقبل الآخرين ولا تسمح لأولادها وبناتها من
الزواج من الديانات السماوية الأخرى لأسباب ذكرناها في الفصل الثامن البحث
الأول ، والفصل العاشر البحث الأول .

وما يقلق الباحث والمتتبع للصابئة المندائيين هو أنهم لا يتحدثون لغتهم المندائية
وقد توزعت العائلة الواحدة على أكثر من بلد ؛ كيف سيتفاهم أحفادهم وبأي لغة

مشتركة ، ولهذا تجد حاليًا الجمعيات سارعت لفتح مدارس لتعليم اللغة العربية واللغة المندائية واللغة الانجليزية ، وأنا أعول على اللغة العربية لأنها لغة المحادثة في البيت مع أهمية اللغة الانجليزية باعتبارها لغة حية عالمية.

وما يميّز المندائيين العراقيين عن غيرهم من شرائح المجتمع العراقي أنهم كلهم متعلمون ، لا يوجد أُمّي بينهم إلا ما ندر ، وعادة المندائيون في العراق ودول المهجر يسألون باستمرار المندائيين المهاجرين عن أحوالهم وعن عيشتهم وعن كافة أمورهم ، ويسألونهم عن الجليد وعن البرد وعن كل شيء ، فمثلاً مندائي مثلي مقيم في السويد يجب أن يذكر الحقيقة ، فيقول الحياة في السويد منظمة ، والدولة ترعى الناس رعاية كاملة ، فتوفر للمهاجر المقيم السكن والراتب والتأمين الصحي والتعليم ، وكل ما يحتاجه الإنسان في حياته ، فالشقق مدفأة ومجهزة بالماء الحار والمطابخ مجهزة بكل شيء من ثلاجة ومجمدة وطباخ وكاونترات ، يستغرب المرء أنه لم يخدم في هذا البلد ، لا في الجيش ولا في الوظيفة كشخص مثلي متقاعد ، ولكني أتمتع بحقوق ما كنت أتمتع بها في وطني ، رغم أنني خدمت بلدي بحدود أربعين عام متتالية ، وقاتلت قتال الأبطال للدفاع عنها ، وعملت بجد ومثابرة وكفاءة ، والنتيجة لا شيء ، مجرد لاجئ مهاجر غريب عبارة عن رقم يسمونه الرقم الشخصي فيسألونك عن رقمك لا عن اسمك . نقول هذه بلدان ليس فيها ثروة نفطية هائلة مثل العراق ، وليس فيها نهران عظيمان مثل دجلة والفرات ، وليس فيها شمس ساطعة صيف وشتاء ، فشتائهم طويل وثقيل ، كل شيء في الشتاء تغطيه الثلوج ، ومع كل هذا تجد الناس بخير في مأكلمهم وملبسهم وسكنهم ، بلادهم منظمة ونظيفة والقانون فوق الجميع ، وسلطة مدنية تنتخب كل أربعة سنين ، والانتخابات نزيهة.

المندائيون العراقيون يسمعون مثل هذا الكلام وربما أحسن منه ، ويستغربون ويسألون أين تذهب أموال النفط؟ أين تذهب أموال الكبريت؟ أين تذهب أموال الشعب؟ فلا مجيب ، وعود... مجرد وعود كذب وافتراء على شعب بكامله والشعب يعرف أنهم يكذبون ، تصوروا أيها السادة أن العالم في العشرين أو قل

في الثلاثين سنة الأخيرة تطور بقدر القرن العشرين وبقدر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والعراق تخلف في كل شيء مع الأسف الشديد ، كل شيء انحدر إلى الأسوأ بفعل فاعل ، والضحية الشعب العراقي بكل شرائحه.

أذكر أنه حدثنا رجل في إحدى الديوانيات في النجف الأشرف طرفة فيها حكمة حيث قال : أيام زمان جمع الأمير الناس وقال لهم : من عنده مظلمة فليتقدم ويخبرني بها لأرفع الظلم عنه وأعينه على الحق والعدالة ، فانبرى من بين الجموع شاب يصيح بأعلى صوته يا مولاي أنا أستحق أن تساعدني... قال الأمير: إليّ بهذا الشاب ، وسأله الأمير ما خطبك يا رجل ، فأجاب: مولاي أنا وزوجتي وست أطفال وأبي وأمي نعيش في زريبة من غرفة واحدة ، لا تسعنا حتى للنوم ، وأنا استغيث بمولاي أن يساعدني بالحصول على مكان أرحب من هذا ، فأمر أن يسجل زبانية الأمير اسمه وعنوانه ، وأن يساعدوه في وضع حل سريع لمشكلته... وبعد أيام قليلة جاء الزبانية بثلاث نعاج وطلبوا من الشاب أن يرعاها لأنها نعاج الأمير ، وأن تعيش معهم في نفس الغرفة ويعتني بأكلها وشربها ، وبعد بضعة أيام جاءوا له بست بطات وقالوا له هذه بطات الأمير اعتني بها ، وبعد بضعة أيام جاءوا له بعشر دجاجات وقالوا له هذه دجاجات الأمير ؛ عليك أن تراعيها وتعتني بها ، وأن تعيش في نفس الغرفة ، والشاب وعائلته لا مكان عندهم للنوم أو الجلوس أو الأكل والشرب أو أي نوع من الراحة.

وقبل أن ينتهي الشهر جاء الزبانية فأخذوا النعاج فتنفست عائلة الشاب الصعداء، ونظفوا الغرفة من مخلفات النعاج، وفي اليوم الثاني أخذوا منهم البط وفي اليوم الثالث أخذوا الدجاج فارتاحت عائلة الشاب وناموا هائنين، وفي بداية الشهر اجتمع الأمير ثانية بالناس ونادوا على الشاب وسأله الأمير عن أحواله ، فأجاب الشاب كل شيء تمام يا مولاي !.

والمستقبل المنظور محفوف بالمخاطر وسط صراعات الكتل السياسية والطائفية البغيضة الاحتلال الأمريكي والتدخل الإيراني في شؤون البلاد ، أما المستقبل المنظور للمندائين فهم من جهة حالهم كحال أبناء شعبهم العراقي ، ومن جهة أخرى هذه الهجرة التي شنتهم والآمال تبقى معقودة على تحسن الأوضاع في بلدنا العراق وقيام حكومة وطنية مدنية منتخبة انتخاباً حراً مباشراً ، تمثل الأغلبية الساحقة يلتف حولها الشعب بكل شرائحه وأطيافه وقومياته ، حكومة قوية يحترمها الجميع وتخدم الجميع.

هذا يتطلب ثورة شبابية على غرار ثورة تونس ومصر الشبابية ، على أن تهيأ لها قيادات وطنية مقتدرة تنشئ دولة فنية متطورة تواكب فيها الدول المتحضرة ، والعراق يمتلك كل المقومات الأساسية للنهوض لأنه شعب عريق صاحب حضارات عظيمة سجلها لهم التاريخ ، ويمتلك ثروات هائلة ، وأرض خصبة ومياه وفيرة ومناخ صالح للزراعة على مدار السنة ، وشعبه يتمتع بحس وطني وذكاء موروث وقدرة على العطاء والتقدم.

وقت ما استقر العراق وتم بناء الدولة على أحسن الأسس وساد الأمان وعم الخير ؛ سيعود العراقيون ، كل العراقيين إلى وطنهم الأم ، وهل هناك أحسن من العراق ، ليس سوى عراق ... فالشمس في بلادي أحسن من سواها كما يقول الشاعر العراقي بدر شاكر السياب ، والذي يشجعنا على ذلك حب العراقيون لوطنهم وأهلهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ويبقى هاجس أولادنا وبناتنا الذين اندمجوا بالمجتمعات الجديدة يقلق الجميع ، ولهذا ندعو الله عز وجل ونطلب من شبابنا ونشجعهم على الثورة بالسرعة اللازمة على الظلم والفساد ، وإيقاف هذا النزيف الذي أضعف البلاد والعباد ، وعلى الشباب التيمن بقول الجواهري رحمه الله في قصيدته العصماء (أخي جعفر) :

تَقَمُّمٌ ، لِعِنَتِهِ ، أَزْيَزَ الرَّصَاصِ وَجَرَّبَهُ مِنَ الْمَطِّ مَا يُقَسَمُ
وَحُضُّهَا كَمَا خَاضَهَا الْأَسْبِقُونَ وَثَنَ بِمَا اقْتَتَحَ الْأَقْدَمُ

وَمَا إِلَىٰ حَيْثُ تَبْدُو الْحَيَاةَ لِعَيْنَيْكَ مَكْرُمَةً تُغْنِيكَ
وَمَا إِلَىٰ جَدَثٍ لَمْ يَكُن لِيَفْضُلْكَ بَيْتُكَ الْمُظْلِمُ
يَقُولُونَ مَنْ هُمْ أَوْلَاءُ الرَّعَائِ فَأَفْهَمُهُمْ بِكَ مَنْ هُمْ
وَأَفْهَمُهُمْ هُمْ بِكَ أَنَّهُمْ عَبِيدُكَ إِنْ تَدْنُهُمْ يَخْذُمُوا
وَأَنْتَ أَشْرَفُهُمْ مِنْ خَيْرِهِمْ وَكَعْبُكَ مِنْ خَدَمِ الْحَرَمِ

الشباب يكتفون بالدعاء وذكر الحي العظيم وتمجيده ، دون إجراء الرشامة والبراقة (الوضوء والصلاة) ، لكونها مطولة تحتاج إلى وقت طويل لا يتناسب مع متطلبات العصر ، والمفروض برئاسة الطائفة ورجال الدين مجتمعين ، ومؤسسات الطائفة تنتبه لهذه الأمور وتعطيها أهمية بالغة قبل فوات الأوان وقبل أن يتخذ الشاب قرارهم.

وهذا الأمر ينطبق تماماً على المندائيين والمندائيات المتزوجين من ديانات أخرى ، والذين يزداد عددهم مع الوقت وخاصة بعد الهجرة الواسعة ، على رجال الدين أن يعلموا أن العالم يتطور بسرعة فائقة ، وأن الفضائيات على كثرتها والإنترنت لم يبقيا شيئاً مضموماً أو معرفة محتكرة أو معلومة لا يعرفها الجميع. وعليهم أن يعرفوا أن المستقبل للشباب والقيادة للشباب ، والتجديد يصنعه الشباب شاءوا أم أبوا رجال الدين وغيرهم من المتزمطين ، ولربما سيأتي يوم تجد فيه عدد من رجال الدين الشباب قد تنورت عقولهم وفهموا الفكر المندائي فهماً متطوراً وساهموا مع الشباب في عملية التطور والتجديد التي لا بد منها، والتي ستحدث عاجلاً وليس آجلاً.

وبحساب بسيط تجد عشرات الشباب والشابات تزوجوا من ديانات أخرى ، وسيصبح هؤلاء بعد زمن مئات ثم ألوف ، ومن يستطيع إيقاف هذا الزحف ، إذن لا بد من حلول عقلانية يقتنع بها الأغلبية ، ولا بد من قرار شجاع لأن المستقبل محسوم للشباب ، وهم وحدهم سيفرضون قرارهم المنطقي المعقول.

وثمة مشكلة عويصة عند الصابئة المندائيين يرفضها الشباب وخاصة الشابات ، حيث تنص التعاليم والعادات والتقاليد على فحص الفتاة قبل إجراء مراسيم المهر لها من قبل زوجات وأمّهات رجال الدين يقمن بهذا الفحص للتأكد من بكاررة الفتاة.

لأن للفتاة البكر عند زواجها طقوس وللشيب طقوس أخرى ، ورجال دين آخرين، حصل بعض التطور بإشراك طبيبات أخصائيات بالنساء لإجراء مثل هذا الفحص ، ولكن رجل الدين بقى يسمع كلام زوجته أو أمه أو امرأة يثق بها... وبهذه الحالة على الطبيبات أولاً إقناع تلك المرأة لتقنع رجل الدين بعذرية الفتاة، لأنه لو حصل خطأ يتحمل وزره رجل الدين، ولا بد أن تجرى له مراسيم دينية معقدة ليعود لممارسة مهامه الدينية.

مثل هذه الأمور وغيرها يرفضها الكثير من الشباب وخاصة المثقفين ، وحالياً المهاجرين ، والفتيات يعتبرن ذلك إهانة لهن ، ويرفضن ذلك بشكل قاطع لأنه يدل على عدم الثقة ، ولذلك تجد الأم المندائية مهتمة بهذا الأمر غاية الاهتمام ، وعندما تتأهل ابنتها للزواج ، وفي مرحلة الخطبة تتأكد بشكل قاطع أن ابنتها عذراء ، سواء ثقّتها بكلام ابنتها أو بالفحص ، والله في خلقه شؤون ، وهذا الأمر يعرفه الجميع ورجال الدين متمسكين به والكثير يؤيدونهم ، ونبقى نقول كل شيء يتطور في المستقبل المنظور والشباب قادة المستقبل.

بينما نجد المسيحيين قد طوروا شعيرة التعميد تطوراً كبيراً فتجاوزوا التعميد بالتغطيس بالماء الجاري إلى رش قطرات من الماء من قبل رجل الدين ، بينما بقي رجال ديننا من زمن آدم ولغاية هذا الوقت يمارسون نفس الطقوس.

وثانياً : لوضع حلول مقبولة لهذا الأمر يتطلب الأمر تطويراً وتجديداً ، وقد تمّ مناقشة موضوع التطوير وكان هناك جملة مقترحات منها : رسالة بعث بها أحد المثقفين المندائيين المهاجرين من الدنمارك إلى مجلس شؤون الطائفة في بغداد يطلب بها تشذيب الطقوس والشعائر الدينية.

ومن جملة مقترحاته : نحن في أوروبا مثلاً نعاني من أمور كثيرة ، نطلب إلغائها مثل عندما يجري رجل الدين المهر للعروسين ، لماذا في النهر وليس في الحوض ؟ ولماذا بيت القصب (الأندرونا) ؟ لماذا لا يكون من الخشب أو الخيزران ؟ ومن أين يأتي رجل الدين بمشط مصنوع من الخشب ، ومن أين يأتي رجل الدين بصابونة رقي ؟ ومن أين نأتي بالشرابات (التتك) لنكسرها عند إعلان المهر ، ومثل هذه الأسئلة الشيء الكثير .

وكان الجواب بعضه مقنع وبعضه غير مقنع ، وخاصة للشباب ، والمشكلة لا أحد يستطيع أن يفتي ولا أحد لديه الشجاعة أن يطور ، لأن الكثيرون لا يفهمون الفكر المندائي ، وإنما يعرفون هذه الأمور وتعودوا عليها وأنها شعائر وممارسات مقدسة لا يجوز تشذيبها أو إلغائها .

أما عن التجديد فمن الصعوبة البالغة لأحد مهما كانت مكانته أو منزلته الدينية أن يجدد ، وأذكر مرة طلب مجلس الشؤون من الريشما عبد الله أن يشرب رجال الدين الماء من الحنفية بدل النهر ، لأن ماء النهر أصبح غير صحي ، وقلنا له تجمع كل رجال الدين في المندي وتشرب أمامهم ماء الحنفية الصحي ، فأجاب قائلاً هم كلهم يشربون قبلي وأنا أشرب آخر رجل دين ، لكي لا يقولوا رئيس الطائفة ابتدع هذه البدعة وغير التعاليم... وقيسوا على ذلك الأمور الأخرى ، ومنها مثلاً بعد الوفاة يجب أن يلف الجسد بشريحة محاكاة من القصب والبردي وحبال مصنوعة من أوراق سعف النخيل والأعواد من سعف النخيل ، ويكون هذا كله غير متوفر في معظم بلدان المهجر ، اضطر الناس هناك لاستخدام التابوت مثلاً ، وهكذا الأمر بنسبة لأمر كثيرة في الحياة اليومية وفي التعميد وفي الزواج وفي كثير من الطقوس الدينية .

وهنا نتساءل هل من حلول تلوح في الأفق... نقول نعم... لأن الشباب يصنع المستقبل وليس العقول القديمة ، لقد انتشر الشباب المندائي في طول المعمورة وعرضها ، وتزوج أعداد كثيرة منهم من ديانات أخرى وتعلموا لغات أخرى

وعادات وتقاليـد أخرى وهذا التوسـع يصعب السيطرة عليه خاصة إذا عرفنا أن الشباب المندائيين تزداد قوتهم وقدرتهم ، وأن قوتهم وقدرتهم ومعرفتـهم حتـى بأمور الدين يومًا بعد يوم وسنصل إلى مرحلة الانفجار الحتمي الذي يقوده الشباب ويقومون بالتطوير والتجديد ، تصوروا أن الصلاة تحتاج من الجهد والوقت الشيء الكثير ، وبحسابات العصر الحديث لا مجال عند الشباب لإقامة الصلاة ثلاث مرات في اليوم ، لا بل مرة واحدة ، ولهذا معظم الصابئة المندائيين يجدون صعوبة في أداء مراسيم الصلاة.

البحث الثالث

النسيج الاجتماعي للصابئة المندائيين

سبق أن ذكرنا في الفصل الأول - البحث الأول؛ أن الصابئة المندائيين يتكونون من سبع عشرة عائلة وعددٍ محدودٍ من العوائل الصغيرة، وهم لا يسمونها عشائر، وهذه العوائل كلها تدين بديانة الصابئة المندائيين وليس فيها ملل ولا طوائف... يتزوج بعضهم من بعض ويحب بعضهم بعضاً، كتابهم واحد وطقوسهم وشعائريهم الدينية واحدة، ورجال دينهم للجميع دون استثناء تجمعهم في الوطن الأم نفس المؤسسات وفي بلدان المهجر نفس المؤسسات وفي بلدان المهجر نفس الجمعيات.

والصابئة المندائيون يختارون مجالسهم وقياداتهم بالانتخاب الحر المباشر دون أي تمييز بينهم، وهم يحترمون وجهاءهم ومتقفيهم غاية الاحترام، لا فرق عندهم بين الرجل والمرأة في الانتخاب والتصويت وحتى في الميراث، روح المساعدة متوفرة وخاصة للعوائل المتعفة، وهناك وشائج قرى بينهم بسبب عددهم المحدود، وبسبب عدم انفتاحهم على غيرهم من الأقوام أو الأديان، فهو دين ليس تبشيريًا ولا يسمحون بدخول الآخرين لدينهم، وعندهم أسبابهم العائلية والدينية، يحترمون رجال دينهم ويطيعونهم بما يرضي الله وتعاليمه.

لا يتزوجون ما حرّمه الله ولا يأكلون ما حرم الله ولا يسفكون قطرة دم واحدة على عمد، لأن القتل والدم من أحرم المحرمات... أعيادهم واحدة تبدأ في نفس اليوم وتنتهي في نفس اليوم، لا يختلفون عليها أبدًا، وفي الأعياد يزور بعضهم بعض، ويأكلون في بيوت الآخرين وكأنها بيوتهم.

هناك عوائل كبيرة العدد مثل الخميسية والزهرية والمندوية والكحيلية والمهناوية والصابورية، وغيرها... وعوائل محدودة العدد بالمقارنة مثل

الدهيسية والكيلانية والعثمانية والسبتاوية والبنكانية ، وغيرها... وعوائل متوسطة العدد مثل السيفية والمندوية ، وغيرها... وهذه العوائل كأنها عائلة واحدة لا فرق بين أحدهم والآخر في كل شيء ، ولا تتعالى عائلة على أخرى لأي سبب فهم متساوون كأسنان المشط ، ولم يحصل في يوم من الأيام أن حصلت مشاكل بين عائلة وأخرى رغم حصول مشاكل بين أشخاص من عوائل مختلفة.

وليس من حق أي صابئي مندائي أن يحتمي بعائلته إن كان على خطأ ، فأول من يحاسبه عائلته ، وليس من حق أي عائلة أن تستحوذ على المناصب القيادية في مؤسساتهم بسبب كثرة عددها أو غناء رجالها أو كثرة مثقفيها ، بل هناك مبدأ المساواة والعدالة والاتفاق على كل شيء ونادراً ما تجدهم يختلفون.

العائلة المندائية تربي أولادها وبناتها على الصدق والأمانة والقيم الحميدة وحب الآخرين واحترام كل الأديان السماوية والإيمان بكل الأنبياء والمرسلين والكتب السماوية المقدسة ويؤمنون بالحساب والآخرة ، والعمل الصالح عكازتهم يوم الحساب أعمالهم التي عليها يتوكأون.

ويؤمنون بوجود حياة ثانية بعد الممات طالما أن حسنات الإنسان أكثر من سيئاته ، ويعرفون أن الله غفور رحيم ، يمجدون الله عز وجل غاية التمجيد ويقولون إنه منزّه وأنه ملك النور السامي.

أما عن الخلافات التي تحصل بين الأفراد فهناك لجان اجتماعية في مجلس الشؤون العام في بغداد والمحافظات ، كذلك هناك لجنة اجتماعية في كل جمعية مندائية في بلدان المهجر يقتصر عملها على حل المشاكل بين الأفراد وعلى الفعاليات الاجتماعية ، كذلك هناك في بغداد المحكمة الشرعية المندائية إحدى تشكيلات مجلس الشؤون العام الخاص بعملية الزواج والطلاق وهي محكمة معترف بها من قبل وزارة العدل والدول العراقية ، قراراتها عادلة والكل يحترم قراراتها لأنها تصدر بالحق. ورغم أن الكتاب المقدس للصابئة المندائيين لا يقر

الطلاق أبداً، إذ يوصي بالزواج وأن يحب الزوج والزوجة بعضهم بعضاً، وألا يفترقوا حتى تنتهي أعمارهم، ولكن لأن أكثر رجال الدين متزوج من أكثر من واحدة فحذى الناس حذوهم.

ولذلك تجد عندهم تعدد الزوجات والطلاقات (الفراق)، وخاصة حالياً في دول المهجر ما أسهل الطلاق وما أسره، والنسيج الاجتماعي عندما كان الجميع في الوطن الأم متماسكين، ولكن بعد هذه الهجرة الواسعة وغير المنظمة، وتفكك العائلة الصغيرة من أكثر من بلد وانتشارهم في شتات العالم وربما الرجل المندائي لا يجد مندائية للزواج منها والعكس صحيح حصل بعض التهتك في النسيج الاجتماعي في السدة وفي اللحمة وهنا دق ناقوس الخطر.

فأنشأوا الجمعيات في كل المدن في بلدان المهجر يلم هذه اللحمة وللمحافظة على العائلة المندائية وتمسكها بالقيم والعادات والتقاليد، والتمسك بالتعاليم الدينية أن الناحية الثقافية عند الصابئة المندائيين تلعب دوراً كبيراً في بناء ومتانة النسيج الاجتماعي، لأن الغالبية العظمى منهم دخلوا المدارس والمعاهد والكلية وعدد كبير منهم أساتذة ومدرسون ومعلمون وأطباء ومهندسون، وهم يتبارون فيما بينهم للحصول على الشهادات العالية والوظائف المرموقة.

تتفاخر العوائل بعدد متقفيها ويكاد يكون الجميع متعلمون ويجيدون القراءة والكتابة، ونادراً ما تجد أمياً بينهم، يحبون الشعر والأدب ويرددون الأشعار والقصائد المشهورة في مجالسهم، ويحبون الشعراء الوطنيين أمثال الجواهري والرصافي ومحسن الكاظمي ومظفر النواب وعريان السيد خلف وغيرهم.

معظمهم يمارسون مهنة الصياغة التي برعوا وتقننوا بها أب عن جد بالوراثة، وهذه المهنة حسنت كثيراً المستوى المعاشي لهم، فالذهب معدن نفيس غالي الثمن، وهم يقولون من يشتغل بالذهب يجمع ذهب ومن يشتغل بالحديد يجمع حديد وهكذا...

ومن ممارسة مهنة الصياغة أعداد كثيرة منهم أصبحوا من الأغنياء الذين يملكون القصور والمزارع والحياة الراقية والخير الوفير ، وكثير من أغنيائهم يساعدون العوائل الضعيفة المتعفة ويتبرعون لهم ويساعدونهم على المعيشة ، مما يقوي أواصر وروابط النسيج الاجتماعي.

بعد الهجرة وتوزع الصابئة المندائيين على شتات الأرض وتفكك الكثير من العوائل المندائية في أكثر من دولة ، فالأب والأم في دولة والأولاد في أكثر من دولة وصعوبة لم الشمل أعطى إفرزات كثيرة تضر بالنسيج الاجتماعي ، فالأولاد مضطرين من الزواج من غير المندائيات ، والمندائيات مضطرات للزواج من غير المندائيين بحكم المغريات أو الحصول على الإقامة الجنسية أو لتحسين الحالة المعاشية ، أو بسبب جمال بنات البلدان الأوروبية ورشاقتهن وثقافتهن. ولسرعة تعلمه لغة ذلك البلد الذي يعيش به ولأسباب عديدة ، فهذا يعني خروج الأولاد والبنات من الديانة المندائية ، وبالتالي نقص العدد وحدث تهتك بالنسيج الاجتماعي ، ولو نظرنا للمستقبل المنظور ، ولو تصورنا بحيرة ماء عذب كبيرة وزعت إلى عدة بحيرات صغيرة وحرمت من تغذيتها بالماء الجاري ، وعوامل التبخر مستمرة عليها من قلة الزواجات والولادات لكونها مكلفة أو غير متوفرة وكثرة الزواج من الغرباء والخروج من الدين المندائي ، وكون الدين المندائي مغلق.

كل هذه العوامل مجتمعة ستؤدي إلى جفاف بعض هذه البحيرات الصغيرة مع الزمن واندثارها ، وهذا ما يخافون منه ويحسبون له ألف حساب ، أضف إلى ذلك تعدد اللغات للعائلة الصغيرة الواحدة ، فالأب والأم يتكلمون السويدية ، والأولاد قسم منهم يتكلم الألمانية والقسم الآخر يتكلم الانجليزية.

ومع مرور الزمن سيتم نسيان اللغة العربية ، وهم لا يتكلمون اللغة المندائية لأنهم يجهلونها... إذن كيف التفاهم فيما بينهم إذا التقوا أو إذا اتصل بالهاتف أو الحاسوب أحدهم بالآخر ، هذه مشكلة المشاكل ، ولهذا أنشأوا الجمعيات في بلدان المهجر لإعادة تجمعهم وترتيب البيت المندائي من جديد ، وهناك الكثير من

المتطوعين لرأب الصدع الحاصل ولحياكة النسيج الذي بدأ يتهتك، ويسألون الله أن يكون في عونهم، وهذا الأمر يتطلب إمكانات من المال والرجال وربما إمكانات دولة وليس إمكانات جمعيات إمكاناتها المادية محدودة، ومع هذا تحاول بعض الجمعيات بحث الجهود الحثيثة لإنشاء المدارس التعليمية لتعليم اللغة العربية والمندائية.

أما تعليم اللغة العربية فهو الأمر الميسور والأسهل؛ لتوفر المعلمين والمناهج، والأهم من ذلك مازال معظم الأولاد والبنات يجيدون تكلم هذه اللغة، ولأن المحادثة في البيت بها والتفاهم بين جميع المندائيين أو قل العراقيين والعرب كافة بها.

أما اللغة المندائية ولو حاول بعض المتخصصين إعداد المناهج وطبعها وتوزيعها ولكنها لغة تداول محدودة وليست لغة محادثة في البيت المندائي، تحاول بعض المدارس المندائية التي أنشأت حديثاً تعليم هذه اللغة للأجيال الحالية وتبذل جهود هنا وهناك.

ولكن تبقى المشكلة قائمة؛ فالتعليم أشبه بخزان ماء يمتلئ وبعد حين يفرغ بسبب عدم استمرارية التعليم وبسبب عدم تداول هذه اللغة في البيت أو العمل أو الشارع، إذن اللغة العربية ولغة الدولة هي الغالبة، ولغة الدولة مثل السويدية مثلاً تتفاهم بها داخل السويد ولكنها مع حدود المطار لا تستطيع الاستفادة منها.

وهناك أصوات تشجع على تعليم اللغة الانجليزية لكونها لغة عالمية حية والمدارس في هذه البلدان؛ أقصد الأوروبية تدرس اللغة الانجليزية في مدارسها ولكن تبقى اللغة العربية هي الأحسن والأسهل والأفضل لكونها لغتنا، تربينا عليها ونعرف مفرداتها، ونسمعها يومياً، بل في كل ساعة وكل دقيقة في البيت وفي أجهزة التلفاز، فلا يكاد بيت عراقي أو عربي يخلو من جهاز الستلايت الذي ينقل لك كافة الفضائيات العربية وما أكثرها وما أجملها وما أروعها.

إنّ للمحافظة على النسيج الاجتماعي للصابئة المندائيين ؛ لابد من المحافظة على اللغة العربية وعدم نسيانها من قبل الشباب والأطفال والأجيال القادمة ، والاستفادة من كل الإمكانيات المتاحة الحالية لكون الأهل مازالوا جميعاً يتكلمون بلغة عربية سليمة ، ولتوفر المناهج ولوجود المحطات الفضائية الكثيرة والمتنوعة ، والاستعانة حتى بالكتاب المقدس الكنزا ربا المترجم إلى اللغة العربية المكتوب بلغة عربية سليمة وراقية ، وهكذا نحافظ على لبنة مهمة من لبنات المحافظة على النسيج الاجتماعي للعائلة وبالتالي للطائفة والمجتمع المندائي ، أضف لذلك المحافظة على العائلة من التفكك والضياع والحد من ظاهرة الطلاقات وتشجيع الشباب والشابات على الزواج من بعضهم.

ويعتبر هذا حالياً من واجبات الجمعيات المندائية التي تقيم حلقات دراسية ونوادي ترفيهية لغرض التعارف والتقارب والمحافظة على العادات والتقاليد والأعراف والقيم الأصيلة التي رضعناها والتي يحبها أهلنا ويتفاخروا بها ، وخاصة قيم الشرف والأخلاق السامية واحترام الأبوين والأخوة الكبار والمحافظة على الأواصر الاجتماعية والدينية وعلاقات القرابة ، فالعرب كما تعلمنا أحساب وأنساب ومن الله العون والتوفيق.

البحث الرابع

مدى تأثير الدين المندائي على المجتمع

الحضارات تتفاعل فيما بينها وكل الأقوام تؤثر وتتأثر بالأقوام الأخرى في عاداتها وتقاليدها ، وحتى في طقوسها وشعائرها وثقافتها ، ويذكر لنا التاريخ العربي أن القائد سعد بن أبي وقاص عندما فتح العراق في عام ٣٦ هجرية ؛ وجد أن الفكر المندائي منتشر في العراق ، وهناك الكثير من الممارسات والطقوس يمارسها الناس ، إما مندائية أو مانوية ، وبذل جهود جبارة للتخفيف منها وزرع قيم وعادات إسلامية جديدة لم يتعود عليها الناس سابقاً.

الصابئة المندائيون أول من مارس شعيرة التعميد وتعلمها الآخرون منهم ، وخاصة المسيحيين الذين طوروها نحو الأسهل ، كذلك المندائيون في الجزيرة العربية أو في جنوب العراق وإيران يمارسون الوضوء بالماء قبل الصلاة ، فأصبح الوضوء فرضاً إسلامياً يسبق الصلاة.

علماء حران وشعراؤهم وأدباؤهم وعلماء الفلك والطب والفلسفة ساهموا مساهمة فعالة في ترجمة الحضارات القديمة مثل الإغريقية والرومانية والهندية والفارسية ، وغيرها إلى اللغة العربية ، وكان هؤلاء متمسكين بمندائيتهم ويعملون في دواوين الدولة العباسية ودار الخلافة ودار الحكمة وغيرها ولهم علاقات طيبة وواسعة مع الأمراء والقادة والعلماء الآخرين الذين تأثروا وأثروا بهم ، فهذا الشريف الرضي والشريف المرتضي وعلاقتهم المتينة مع أبو إسحاق الصابي الذي أعطاهم وأخذ منهم وأفاد واستفاد ، وكان من الحاضرين والمحاضرين في مجلس الشريف الرضي وله رواده ومريديه.

الصابئة المندائيون قوم مسالمون لديهم من الحب ما يكفي الجميع ، ولكون معظمهم في وضع معيشي جيد وظيفياً ومهنياً أعطاهم ميزة الاحترام وحب

التقرب منهم والتعرف عليهم والاستفادة قدر الإمكان منهم ، وقد عرف الناس كل الناس صدق نواياهم وحسن سريرتهم وقوة إيمانهم كموحدين لله عز وجل ، وأنهم لا يعتدون على أحد ولا يأخذون أكثر من حقهم.

إن للبيت والدين تأثير كبير على تربية الإنسان وحسن أخلاقه وتصرفاته ، فلقد لاحظنا بعد الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وسقوط الدولة العراقية وغياب القانون ؛ الناس تحكمها ثلاث ضوابط (القانون والدين والأخلاق) ، ولأن القانون ليس هناك من يحميه أو يطبقه ، بقي واعز الدين والأخلاق.

فتجد من لا يؤمن إيماناً حقيقياً بتعاليم الدين ولم يعرف أهله أن يربوه تربية فاضلة ، شذ وأصبح سلاباً ونهاباً أو قاتلاً ، ولكن من الصعوبة أن تجد صابئاً مندائياً يقتل أو يسلب أو ينهب أموال الدولة أو الناس إلا ما ندر.

إن الدرفش (الدرافشا) ويسمونه علم يهانا الصابغ (يوحنا المعمدان) (نبي الله يحيى) عبارة عن غصنين من الزيتون متقاطعين ، ينشر عليهما قطعة من القماش الأبيض (إيشارب أبيض) وفي رأسه غصن من نبات الأس ، كان نبي الله يحيى يثبته على مرتفع لتستدل به الناس إلى مكان النبي يحيى وموضع التعميد.

ولأن السيد المسيح صُلب على لوحين متقاطعين من الخشب سموه صليباً يتباركون به ويرسمونه على صدورهم رمزاً للصلاة... والدرفش عند الصابئة المندائيين يرمز إلى الجهات الأربعة ، وقطعة القماش البيضاء ترمز إلى السلام والنقاء والطهارة ، وغصن الأس يرمز إلى ديمومة الحياة وسلامتها من الشر ويسموه علم يحيى أو درافشا يهانا.

والصليب والدرفش متشابهان ، والدرفش أقدم من الصليب ، وكلاهما رموز أصلها بلاد شنعار أي بلاد ما بين النهرين ، الدين المندائي كباقي الأديان السماوية تأمر تعاليمه بتجنب الكذب والزنا والسرقة والقتل وكل المحرمات التي حرمها الله ، ويأمر رجال الدين ألا يكتزوا الذهب و الفضة والسلاح والمال ،

لكي يبقوا منزهيين عن الخطيئة ، ويأمر المندائيين كافة ألا يقابلوا الشر بالشر والقتل بالقتل ، وإذا تعرضوا إلى ذائقة عليهم الصبر والتمسك بالإيمان (الناصروثا).

ولهذا لم يفكروا أو لم يتمكنوا من بناء دولة على مر العصور ، بل لم يفكروا في ذلك ولم يخططوا لذلك لكونهم يعتبرون دينيًا هذه الدنيا زائلة ، والحياة الثانية أهم وأبقى ، وأن هذه الدنيا قصيرة ومملوءة بالآثام والمرض نهايتها الموت وهي بالنتيجة فانية.

ورغم أن الصابئة المندائيين يحبون الحياة ويحبون الناس ، كل الناس ، ويؤمنون بكل الأنبياء والرسل والكتب المنزلة وبالعمل الصالح وبالآخرة ، فهم على قلتهم متمسكين بتعاليم دينهم ووصايا الحي العظيم وتعاليم أنبيائهم ، ولهذا بقوا متماسكين ولم يذوبوا في الأقوام الجديدة القوية الكبيرة بسبب أمانتهم وصدقهم ونبذهم للعنف وحبهم للناس وكفائتهم في عملهم وفي مهنتهم ، وإخلاصهم للوطن وللمجتمع ومشاركتهم إخوانهم المسلمين والمسيحيين معترك الحياة في السراء والضراء... فهم يشاركونهم أفراحهم وأتراحهم وأعيادهم ، ويشتركون معهم كالأخوة وبدون أي نوع من الفرقة أو التعصب ، حتى لا تجد حاليًا منطقة معينة تجمعوا بها وسميت باسمهم وإنما منتشرون بين جميع أبناء المجتمع.

إن العراقيين بُناة حضارة بلاد ما بين النهرين ولقد ورثوا ذكاء وعبقرية السومريين والبابليين والآشوريين والعباسيين وأن جينات العبقرية كامنة في عقولهم ، وبسبب تعرض العراقيين إلى الغزو والاضطهاد لقرون عديدة كمنعت هذه الجينات وتبخرت هنا وهناك بعض العبقريات التي يفتخر بها العراقيين ، ولو أُتيحت لهم ظروف مناخية ملائمة من رعاية وحرية وتوفر مستلزمات التقدم والتطور لتفتقت عبقريات كثيرة وكبيرة في كافة المجالات ، ولكون الصابئة المندائيين من اللبنة الأولى لهذه الحضارة الرائعة على مر العصور ، نبغ منهم علماء وأدباء وأطباء ومهندسون ومترجمون وشعراء ومؤلفون

فسيكون تأثيرهم واسعاً وكبيراً في عملية التطور ومواكبة المجتمعات المتطورة وربما التفوق عليها.

ولأنهم يعتبرون أنفسهم جذر التوحيد الأول ومن الأديان القديمة ، وأن آخر أنبيائهم يحيى بن زكريا (ع) قد ذكرته كل الكتب السماوية بالحسنى والقيم النبيلة؛ فهم يستمدون من تعاليمه شيئاً من قوتهم وتمسكهم بالقيم والأخلاق الفاضلة التي تجعل الآخرين يكون لهم الاحترام والتقدير .

* * *

بعد أن ألقت الحرب العالمية الأولى أوزارها وسيطر الانجليز على بلاد ما بين النهرين ، فُتح عدد من المدارس في أنحاء العراق وطورت وتكاثرت بعد قيام الحكم الملكي والبدء في التخطيط لبناء دولة ، وكان الصابئة المندائيون من الأوائل الذين التحقوا بهذه المدارس كطلاب ومعلمين ، ويشهد الجميع بكفاءة المعلمين من أبناء هذه الطائفة وتفانيهم بالتعليم وتربية أولادنا ، كل أولادنا وتشجيعهم على التعلم والدراسة وعلى القيم والأخلاق وحب الوطن وحب الناس والصدق والأمانة، وهذا لا يعني أن الصابئة المندائيين وحدهم يتمتعون بالكفاءة والإخلاص ، فإخوانهم العراقيين لا يقلون عنهم بأي حال من الأحوال ، ولكن الصفة الغالبة لقلّة عددهم قد تميزهم أحياناً ، حيث من النادر حالياً أن تجد مندائياً أُمياً لم يتعلم القراءة والكتابة والحصول على شهادة.

وأذكر مرة أن أحد المفتشين قد زار إحدى المدارس فوجد مديرها ومعظم المعلمين من الصابئة المندائيين ، فأعجب بالمدرسة والنظام والنظافة والمستوى التعليمي ، وبناتج البكلوريا للسنين السابقة ، وتقدمهم بالمناهج على غيرهم من المدارس ، وكثرة وسائل الإيضاح والتزام المعلمين ، وعدم وجود أي مشكلة ، فقال أتمنى أن تكون كل مدارس العراق بهذا المستوى، والمعلمين القداماء دائماً يذكرون ذلك في أحاديثهم ويتباهون بذلك.

كان أيام زمان ؛ أي قبل عدة أجيال هناك من المتشددین من إخواننا المسلمين ينظرون إلى الصابئة المندائيين نظرة شك وريبة وخاصة في القرى والأرياف، ويعتقدون أنهم لا يؤمنون بالله تعالى، ولهذا يتجنبون الأكل معهم حتى أن آبائنا يذكرون أن حلاق القرية كان لا يخلق لهم لأن المُلّا يقول له حرام، وبائعة السمك والخضار لا توافق أن يمدوا أياديهم لاختيار ما يريدون لكي لا يتجسس الباقي كما يزعمون.

بمرور الوقت وبتطور المجتمع والتعليم والمعاشرة والتعرف عن قرب تغير الحال تمامًا، وأصبح الجميع أخوة وأصدقاء وأبناء وطن واحد، وعرفوا أن الصابئة المندائيين قوم موحدون يعبدون الله ويسبحونه ويعظمونه ويمجدونه، ولهم كتاب منزل وأنبياء وقيم وعادات حميدة وصديقهم صديق وهم ناس شرفاء يعتزون بالجيرة ويحافظون على الأرض والعرض، لا يغشون ولا يغدرون ولا ينظرون إلى ما ليس لهم، ومن حسن الحظ أن يكون لك جار أو صديق من أبناء الصابئة المندائية.

كانت الدولة العراقية أيام زهوها تسميهم الطائفة الذهبية لخلوهم من الجواسيس والعصابات وقلة المشاكل فيما بينهم أو بينهم وبين إخوانهم الآخرين من أبناء الوطن الواحد، ولهم تشكيلاتهم وتنظيماتهم، وقد تستغرب عندما تعرف أن لديهم لجنة اجتماعية تجتمع كل يوم جمعة في مندي الطائفة لحل المشاكل بين المتخاصمين، والكل يحترم هذه اللجنة ويقبل بحلولها لأن الذين يديرونها رجال لهم وزنهم الاجتماعي ويحكمون بالحق والعدل بعد أن يأخذوا تعهدًا من الجانبين بالقبول بالقرار الذي تقره اللجنة، وبذلك تحل الكثير من المشاكل الاجتماعية دون الداعي لوصولها إلى المحاكم.

كذلك توجد لديهم محكمة شرعية مندائية في بغداد معترف بها من قبل وزارة العدل يديرها أناس أكفاء، من محامين ورجال دين ووجهاء ومرشديات اجتماعيات للبت في قضايا الزواج والطلاق وقراراتها عادلة ومرضية للجميع،

يطبقون تعاليم الدين والقوانين المرعية ، ومعظم قضايا الطلاق المرفوعة لها انتهت بالصلح ، لأن هدف المحكمة المحافظة على العائلة المندائية قدر الإمكان . والمحكمة لها صبر ومطاوله وقدرة على تقريب وجهات النظر ، إذ أحياناً المرافعات بين الزوج والزوجة تستمر عدة شهور وتتدخل اللجنة الاجتماعية بقوة لحل الخلافات وتذليلها ، وقد استفادت بعض الطوائف المتأخية في الوطن الأم من هذه الظاهرة الجميلة ، وأخذوا يحاكونها ويستفيدون منها كثيراً . وللاستفادة الأوسع من ذلك شكلت بعض الجمعيات ولربما معظمها في دول المهجر لجان اجتماعية لحل مشاكل المغتربين وتقريب وجهات النظر من أناس لهم احترامهم وتقديرهم من قبل الجميع .

إن الكثير من إخواننا المسلمين والمسيحيين وحتى اليزيديين والشبك عملوا مع الصاغة المندائيين وتعلموا منهم هذا الفن الرفيع ، وفتحوا محلات وورش ، وصاغة الكاظم أكبر دليل على ذلك بعد هجرة عدد كبير من الصابئة المندائيين إلى دول المهجر ، سلموا أو شاركوا أو باعوا محلاتهم إلى إخوانهم العراقيين ودون أي نوع من التعصب أو الأنانية ، وأعرف الكثير هنا في هولندا أو السويد أو أستراليا مثلاً يدير أعمالهم حالياً بالوطن الأم إخوانهم من الأديان الأخرى ، بكل حرص وثقة وأمانة... وهذه ظاهرة صحية تدل على عمق حضارة وادي الرافدين وأهله ، رغم ما جرى من ظواهر مؤذية ستذهب مع الزبد ويبقى ما ينفع الناس ، { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ }^١ .

إن الكثير من الأكالات المندائية محببة لدى العراقيين وخاصة البهارات التي يصنعوها في البيوت من خلطات خاصة والمشهورة (ببهارات الصبة) ، ويستطيع حالياً أي عراقي يذهب إلى الشورجة (سوق البهارات) ويشتري بهارات صبة كما يسمونها ، وهي نوعاً غالية لكونها تحتوي على الكثير من

١- القرآن الكريم : سورة ردة ، لاآية ١٧

المطيبات ، ولي عدد من الأصدقاء يتمنون دائماً أن يأكلوا البط أو البش أو الدجاج المحشي على الطريقة المندائية.

إن تعميد النبي يحيى (يوحنا المعمدان) للسيد المسيح عليهما السلام ، واعترافه كرسول بشره الله به وأمره بتعميده ، وانتشار دعوة السيد المسيح وكثرة أتباعه ومحبيه وانتشار المعلمين الأوائل في أنحاء المعمورة للتبشير بدعوة السيد المسيح وخاصة في دول أوروبا ، فالمفاهيم الأولية للسيد المسيح مشابهة للتعاليم المندائية وقريبة منها ، حتى شعيرة التعميد في بادئ الأمر نفسها التي يعمد نبي الله يحيى بها الناس ، آمن الناس بالسيد المسيح ودعوته وتعاليمه وآمنت به شعوب أوروبا وأمريكا اللاتينية وعدد من الشعوب الآسيوية والإفريقية ، وبذلك انتقلوا من الشرك والوثنية إلى التوحيد والإيمان ، وبذلك أثر المندائيون على عموم المجتمع باعتبارهم غرس التوحيد الأول وأول الأقوام المؤمنة بالله وبتعاليمه وأحكامه ووصاياه.

وأول الأقوام الذين مارسوا شعيرة التعميد والوضوء والصلاة وعلموها للناس ، وباعتبارهم بقايا السومريين كما يقول الباحث الدكتور خزل المجادي ويؤكد بحثه هذا بالأدلة والبراهين ، فإن السومريين بناء الحضارة الأولى في العالم ، وهم مخترعو الكتابة المسمارية ، ونقلوا البشرية نقلة نوعية ، فالإنسان حيوان يقرأ ويكتب ، والكتابة والقراءة أساس بدء الحضارة الإنسانية وتطورها وتقدم البشرية. كذلك اخترع السومريون العجلة ، وما أحدثته هذه العجلة من تطور هائل في النقل وفي العلوم وفي الاستراتيجية العسكرية ، وفي الصناعة والزراعة وكل مواقف الحياة ، وباعتبار المندائيين من بقايا السومريين كما يثبت ذلك الدكتور المجادي ، فهذا يرجح كفة تأثيرهم على عموم الحضارة الإنسانية وتقدمها ، والسومريون أولاً وأخيراً حضارة عراقية من حضارات بلاد ما بين النهرين ، فللعراقيين إذن قصب السبق في رفد الحضارة الإنسانية بأسباب التطور والازدهار. وهم الورثة الحقيقيون للإرث السومري ، فهم وحدهم يحملون الجينات السومرية التي نمت وأينعت وازدهرت فأثمرت حضارة راقية

في البناء والرسم والنحت وسن القوانين والتكتيك العسكري والإدارة والتنظيم ،
والمندائيون يحملون هذه الجينات التي كمنت زمن القهر والاضطهاد ، ونشطت
في مراحل كثيرة ، فأفرزت علماء وأدباء وعباقة أمثال آل قرة وآل الصابي
زمن ازدهار العصر العباسي أيام الرشيد والمأمون ، وأفرزت الدكتور عبد
الجبار عبد الله زمن ثورة تموز المجيدة ، وما زال المستقبل ينتظر المندائيين
والعراقيين أن ينجبوا عباقة للبشرية.

الدين المندائي والمجتمع :

يشميهون اد هبي ربي... إليك هذا النص من نصوص الكنزا ربا مبارك اسمه (من اد برهموش هاري بغرا اللغيطلي نشل اذنقي هطايي نسق نهزوني الأثر نهورا) حرفيته (من صان جسده محبة للخالق يكتمل دون خطايا ويرتقي متطلعاً إلى بلد النور).

يبدو هذا النص للقارئ بسيطاً عابراً - كما ذكر الأستاذ أمين فعيل خطاب في مقال له - ولكنه في عمقه يغطي رقعة كبيرة من الدين، لا بل هو الدين بأسره، فالغرض الذي يسمو به الدين لا يقتصر على الجانب النفسي ولا على الجانب العقلي ولا على الجانب الأخلاقي بالمستوى الفردي فحسب، وإنما امتد ليشمل المظهر الاجتماعي والسياسي العام، وهذا يمنح الدين المندائي في هذا التصور جانباً عملياً واضحاً يؤكد اتجاهه إلى الكيان الإنساني كله، وذلك بأشغاله الشخصية الإنسانية، وأتاح أوسع مدى لقواها وملكاتهما، ولم يكن مجرد أمر يتعلق بالعقل أو القلب أو الإرادة وإنما يمتد ليجعل المندائي يسلك طريق السلامة والشرف المفضي إلى السعادة الأخروية، والضامنة لحسن سلوك مجريات الأمور في الحياة الدنيوية.

فلو عدنا للنص ودرسنا الجانب النفسي؛ لرأينا أن عقيدة النور جعلت المندائي مدركاً يعرف حق المعرفة أن الحي العظيم هو المبدع، وأن خلقه في غاية الكمال والتمام، وأنه عندما أنزل النفس في الجسد بعد أن سلحها بسلاح الناصورية، وأورثها جميع صفاته؛ جعلها قرينة لذلك الجسد، وأن صيانتها للجسد من النقص والوفاء للخالق هو واجب سامي، أما العبث بأي جزء من أجزاء الجسد يعتبر خيانة للحي العظيم.

لذا نرى المندائي يحرص كل الحرص على سلامة جسده فقطع أي جزء منه كالكرارة مثلاً إذا لم يكن مجبراً على ذلك؛ يعد خروجاً عن الدين المندائي وخيانة كبيرة تقود النفس إلى الجحيم، وحتى إذا كان مجبراً فهذا يجرده من حقوق دينية كثيرة يتمتع بها الكامل الجسد.

أما من الجانب العقلي؛ فالإنسان الواعي يشعر أن هذا النص يدعو إلى الصوم الكبير، وهو صوم العين والأذن واللسان والقلب والضمير، وهو صوم اليد والركبة والقدم، إنه الإمساك عن كل ما يحمل النفس خطيئة تجعلها تعاني من النقص والخسران.

أما من الناحية الأخلاقية فهو يفرض على المندائي الابتعاد عن كل النجاسات، مثل الزنا والفسق والرجس والدعارة، كما أنه يمنع الزوج من التقرب إلى زوجته وهي بعد لم تتطهر من نجاسة الحيض والطمث، ويمنع الإنسان عن ارتكاب الجرائم المخلة بالشرف والتي تجعل المجتمع ينظر إليه بازدراء واحتقار.

من هذا النص ومن نصوص عديدة تترى بها كنوزنا المندائية نجد أن الدين المندائي يهدف إلى إنشاء مجتمع قويم واسع الأرجاء متكامل الأركان، يسوده العدل والنظام، فالحي العظيم هو العادل، وعدله يقتضي مادام قد كلف الإنسان أن يجعل له القدرة الفاعلة لفعل الخير، بحيث يكون هو المسؤول عن فعلته وليس للحي العظيم دخل في ذلك، بل يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة لأنه هو الحاكم هو الديان، وأن الإنسان في وضعه الدنيوي من أجل أن يكون عادلاً بحيث عدله يوفر له مكانة مرموقة في المجتمع؛ عليه أن يكون عادلاً مع نفسه، كقوله: (ريش كينوثخ كن نفشخ واتقبل مينيلي اد هكيمي) (وأس محلك أن تعدل نفسك وأن تقبل أقوال الحكماء).

فالعدالة في الفرد أو التعاون الفعال بين طبيعته، فالإنسان عبارة عن عالم من الرغبات والشهوات والآراء، فإذا انتسقت هذه القوى النفسية وتعاونت فيما بينها ظهر هذا الإنسان رجلاً حكيماً عادلاً، أما إذا اختل التوازن بين هذه القوى وسيطرت الشهوات على سائر القوى أو استبد العقل فيها بصورة مطلقة؛ تصدعت أركان الشخصية الإنسانية وسرى فيها الشر والفساد، فالعدالة إذن هي الحق والجمال والنظام في النفس، فالعادل لا يدع قواه الروحية تتجاوز حدود

اختصاصها واختصاص غيرها ، وإذا هو سيد نفسه يعقل خلته ليكون على أتم وئام مع نفسه ويجعل القوى تعطي نعمة واحدة ؛ إذن فعدالة الإنسان واقتدائه بعدالة الحي العظيم تمتد إلى علاقته في المجتمع ، فيكسب ثقة الآخرين ويكون قدوة حسنة لغيره في المجتمع.

إذن فالإنسان في قواه النفسية يعتبر نموذجاً مصغراً للدولة والمجتمع وهو حجر الأساس ومثانة المجتمع من مثانته ، إذن فالدين أمر واجب للمجتمع ، فالعقيدة المندائية تحقق للمجتمع عناصر حيوية تضمن السلوك السوي والسيرة المستقيمة في حياة هذا المجتمع ، ومن هذه العناصر الحيوية ، الحياء ، الأمانة ، الصدق ، ولكل عنصر مقوماته الخاصة ونتائجها القيمة بالنسبة للفرد والمجتمع توضح جميعها المزايا الخاصة التي يتمتع بها الدين المندائي والأهداف التي يسعى إلى تحقيقها بنجاح ، مدعومة بالشواهد التاريخية الموثقة التي تؤيد ذلك ، أما ما يتصل بالعلم والتعلم فإن المندائية أعلنت قيمة المعلم وجعلته يقتدي بالمعلم الكبير وهو الحي العظيم ، أما القصور في ذلك فخطيئة لا تغتفر كقوله : (ويل للمعلم الذي لا ينتفع منه ومن علمه وويل له إذا لم يعلم حكمة الحق).

كما أقام الدين المندائي وظيفة المؤدب الذي يعمل على تصحيح السلوك بالدعوة إلى الفضيلة المتوجة بإعطاء يمين العهد (الكشطا) ، والدعوة إلى نبذ الخلافات بقوله (لا نهوي بينا تبخون قينا وبلونخي ارمهم وازبر اهداديي وهو سيماخا الطايي اد ماطيلون اولاد ورحنا) ، (لا يكن بينكم الكره والضعينة والشقاق واسندوا بعضكم بعضاً وكونوا سنداً للطيبين الذين طالهم الظلم والمعاناة).

إذن فالدين المندائي ينهى عن الكره والضعينة والفرقة لأنها تسعى إلى تفكيك عرى المجتمع وإضعافه ، كما أقام الدين المندائي وظيفة المجاهرة بمحاربة الشر ، وكبح جماحه وذلك بقوله (إن امتلكت القوة أيها الناصوريي كن كمختار صالح اختير لكل شيء أو كملك تقلد تاجه وأشعل حرباً في عالم الأشرار ودمر الشر ومريديه) ، كما أن الدين المندائي لا يكلف النفس إلا وسعها بقوله :

(وإن لم تمتلك القوة كالمختار الصالح ، فكأن أيها الناصوريي كالملاح الماهر الذي يعمر الأرض ويعلي في أجوانها الشجر).

أي أنه في كل الأحوال يجب أن يكون عنصرًا مميزًا يقتدي به في المجتمع وأن يلتزم جانب الخير ويسعى لإضعاف الشر كقوله : (إذا دال الخير وقوى الشر فكأن أشد ازراً نحو الخير لتكبح الشر وتعيد الفضيلة إلى عرشها).

كما يدعو الدين المندائي المندائيين إلى المشاركة الفعالة في الحياة الاجتماعية كمثالية دينية أساسية وليس لمجرد النفع المادي العاجل ، لأنه يرى أن المجتمع مجموعة من العقول والأنفس أولاً ، أما الصورة الشكلية للنظم فأهميتها بالنسبة للدين ثانوية لأن مجتمع العقول والأنفس يتطور عن طريق استيعابه للقيم النزيهة والمثل العليا التي يغذيها الدين فيه ، فهو ينحو نحو الحصول على مقومات الكمال الحسي والثقافي كمثالية هادئة ، ويسعى إلى تعميق هذه التجربة وإحيائها إلى درجة كبيرة ، وبذلك تشعر النفس بالسلام والأمن والسكينة والمتعة والسعادة الروحية لاتصال النفس والعقل بالحي العظيم ، وهذا الشعور قد يبدو فردياً يحس به الفرد في خلوته ، وقد يتمتع به الإنسان مع غيره داخل المجتمع ، لذلك فهو يدعو لكسب الراحة والسلام بمنعزل عن العنف والخطرة كقوله : (نباها نهوي البر من مريدا) (لا توجد الراحة إلا بعيداً عن العنف).

كما يتيح الدين المندائي للفرد رؤية قصور الهمة ووجود النقص والإحساس بالذنب مع رؤية الطريق الواضح والخلاص ، وقد تبدو في هذا المقام ذنوب التقصير في أداء الواجب مماثلة للذنوب الخاصة بارتكاب ما ليس مسموحاً به ، ويبدو هذا واضحاً في النصوص التي تبدأ بكلمة (ويل) أو بكلمة (طوبى).

أما السماحة بتقبل التطهر والتبرك وإدراك الحق والخير والجمال في كل صورها ، كمنح للحي العظيم الممنوحة للناس ، ومن العجب أن يعد تقدير هذه القيم والتمتع بها أمر ملزماً ، وهي امتيازات إنسانية يتحلى بها المندائي ليكون مثلاً لغيره في المجتمع يقتدي به الآخرون.

كما أن الدين المندائي يتحدى المجرم بإفساح أوسع المجالات للتوبة وإعادة الفكرة الحسنة وتجديد السلوك، على أن تكون التوبة متوجة بأعمال خيرية تليق بها، وأن فكرة إمداد الحي العظيم بالعون على التوبة، وتصحيح السلوك وإنجاز العظيم من الأمور؛ تساهم بدرجة كبيرة في حمل المجتمع على استخدام أقصى طاقته، التي كان من الممكن أن تظل غافية في طي الكتمان والإهمال. ومن جهة أخرى إن إصرار الدين المندائي على الجانب الروحي كجزء أساسي في التقدم الاجتماعي يجعله بلا شك أبعد عمقاً من الكثير من النظريات التي تضع ثقلها كله على التنظيم الشكلي والخارجي للمجتمع.

أما من ناحية موقف الدين المندائي تجاه الآلام والمحن والأحزان فذلك فريد للغاية، فهو من جهة يشعر الإنسان بأنه يجني هو ثمرة ما يزرع، ومن ثم يوجهه الإنسان بطريق مباشر أو غير مباشر، إلى ضرورة تقادي ما تسوء عاقبته وما لا يحمد مصيره.

أما فيما يتصل بالحوادث القاهرة فيرشد إلى التحمل والصبر الواثق بالحي العظيم الذي يهيئ السبيل إلى كشف الغمة وإلى التقوية على التحمل، ومما لا جدال فيه أن المحن والآلام والأحزان تعتبر تحدياً سافراً للنفس الإنسانية، وبالدين تتحمل الطاقات العقلية والسلوكية مسؤوليتها في استئصالها أو منعها أو تقادي الانهيار أمامها.

إن الدين المندائي علم الناس من خلال حكمه ومواعظه وعبره أن المحن والبلاء سنة حتمية في هذا الوجود، قد تتخذ محكاً لتطوير وإنضاج الشخصية الروحية للمندائي، حتى يسترد ابتسامته أضعافاً مضاعفة بعد أن ضاق الفرق بين الأفراح والأتراح مع هذا، فالدين المندائي يحرص على توازن الشخصية المندائية وعدم تعرضها للاضطرابات المفاجئة خضوعاً لتيارات البؤس المتقلبة، وإنه علم المندائي أنه لا بد في النهاية من انتصار النور على الظلام، والخير على الشر والحق على الباطل، لذا فهو يعد بالنجاة والخلاص بعد أن أكد أن قدرًا من هذه النجاة يتحقق من خلال بعض الصعاب وتحمل الآلام، فلم

يكن الدين المندائي مجرد مذهب سطحي للتفاؤل ولم يكن مدعاة للتشاؤم القانط. فالتفاؤل لا يكون مقنعاً إلا إذا ارتبط بالدين حيث يرسو في النهاية على إدراك الحياة والغاية منها، وإلى الظفر بمحبة الحي العظيم، وشرف اللجوء إليه وعزة الاحتماء به وسعادة الإقامة في موطنه، وهذا بالطبع يدفع المندائي لأن يكون سباقاً في عمل الخير عن ثقة وسعادة، ويرى أن للكفاح والجد والعمل جدارة لا تباري كقوله: (من أهلا وتنغر نيثي وننسب طبوئا بتارتين ايدي، ومن لأهلا ولا تنغر هاتم باهش بكنهي ولامشكي)، (من تعب وتعبه يأتي ليأخذ الخير بيديه ومن لا يتعب ولا يتعبه يبحث عما حوله دون جدوى).

يوازي هذا النص المثل القائل: (من جد وجد ومن زرع حصد ومن لعب نكد)، ومن الجدير بالذكر أن المندائية تصف السعادة التي بدونها يغدو الوجود الإنساني خالياً من كل معنى، أن تسمو على كل المتع والآلام التي لا يمكن لأي إنسان ممزق النفس موزع الخواطر مشرد الذهن أن يدركها ويشعر بها.

إذن فالسعادة هي تكامل النفس ووحدتها بينما كل توزع وتفرق وتشتت داخل النفس يبعد عن الحي العظيم، وأخيراً يؤكد الدين المندائي بالاستمرار الروحي بعد الموت والحصول على الكمال والسعادة دون أي شائبة، ولا يكون له شفيع في الآخرة إلا أعمال الخير التي أنجزها للحي العظيم والمجتمع بأسره.

الصابئة المندائيون : نسيج من الطيف العراقي^١

يعتبر الصابئة أو الصبة كما يسميهم البعض؛ خيطاً من نسيج المجتمع العراقي كيف لا وهم من أقدم الديانات في العالم القديم، ولكن ظروف التهميش والنقتيل التي تعرضوا لها عبر التاريخ جعل منهم طائفة منطوية على نفسها، ومنزوية في ثنايا المجتمع، فلم يعرف عنهم شيء وهكذا كانوا عبر الأزمان، وبعد الانفتاح الحضاري وحوارات الأديان ووصول الكثير منهم إلى درجات علمية وأدبية عالية المستوى وظهور أوساط مثقفة بينهم، وبالخصوص رجال الدين المتفتحين الذين بدأوا بنشر أفكارهم وعقائدهم بطرق علمية؛ أخذ الكثير يغير النظرة عنهم وسنتناول ما يلي موجزاً عن عقائدهم والنظرة عنهم دينياً وتاريخياً.

جاء ذكر الصابئة في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

١- في سورة البقرة ٦٢ - ٧٢: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

٢- في سورة المائدة ٦٩: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

٣- في سورة الحج ١٧: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَكَلِيمٌ خَبِيرٌ).

في اللغة صبأ في لغة العرب "خرج من دين إلى دين آخر كما تصبأ النجوم، أي تخرج من مطالعها"، والصابئون قوم يزعمون أنهم على دين نوح (ع)،

١ - مقال مهم للأستاذ سعد شريف طاهر.

وفي الصحاح جنس من أهل الكتاب وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار ، والصابئي تعني (المتعمد) مشتقة من فعل (صبأ) المندائي الآرامي ، ويعني (تعمد) أو (اصطبغ) وكلمة الصابئة مشتقة من الفعل الآرامي المندائي (صبأ) أي غطس ، ارتمس ، تعمد بالماء الجاري والمندائيون مشتقة من الفعل الآرامي ، مندا وتعني العالم – العارف- فيكون معنى الصابئة المندائيون الصابغون العارفون بدين الحق.

أقسام الصابئة :

يمكن تقسيم الصابئة إلى :

- ١- الصابئة المندائيون : أصحاب الروحانيات.
- ٢- الصابئة الحرانيون : أصحاب الهياكل.
- ٣- الصابئة الهنود : أصحاب الأصنام.
- ٤- صابئة الرومان واليونان وغيرهم.

أركان الديانة المندائية:

١- التوحيد: جاء في افتتاحية الكتاب المقدس للصابئة المندائيين (الكنزا ربا) الصحف الأولى (باسم البهي العظيم سبحانه ربي العظيم ، أسبحك ربي بقلبك طاهر ، رب العوالم كلها مسبحاً مباركاً ومعظماً ذا الوفاة والجلال الله الرب العلي ، سبحانه ملك النور السامي ذا الحول الشامل الذي لا حدود لقدرته ، النور البهي والضياء الساطع الذي لا ينضب ، الرؤوف ، التواب الغفور الرحيم ، مخلص كل المؤمنين وناصر كل الطيبين ، العزيز الحكيم العليم البصير العارف الذي على كل شيء قدير ، رب عوالم النور جميعها العليا والوسطى والسفلى ، ذي السيماء العظيم ، الموقر الذي لا يرى ولا شريك له بملكه ، ولا كفء له بسلطانه ، من يتكل عليه لا يُخذل ، ومن يسبح اسمه بالحق لا يخيب ، ومن يتوكل عليه لا يذل ، رب الملائكة جميعاً ، لا وجود بدونه ، وما من شيء لولاه ، أزلي ليس له بداية وأبدي ليس له نهاية ما كان لأنه ما كان ، ولا يكون لأنه لا يكون خالد فوق كل الأكوان).

٢- التعميد: والصبغة (صبغة الله)، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم: { صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً }^١... وردت على لسان السيد المسيح (ع) بقوله للنبي يحيى بن زكريا (ع) (وبالصبغة التي بها تصبغ اصبغني)... والتعميد ركن أساسي وهو فرض وواجب على كل صابئي ليكون صابئياً

١- القرآن الكريم: سورة البقرة-آية ١٣٨.

ومندائيًا ، ويهدف إلى فتح باب الخلاص والتوبة وغسل الذنوب والخطايا والتقرب إلى الله، ويجب أن يتم في الماء الجاري ويوم الأحد، لأن الأحد هو رأس الأيام (هاد شبا- أول السبعة)، ويؤمن الصابئة بأن التعميد بدأ في عوالم النور العليا حيث تعمدت الملائكة وأنزل التعميد إلى الأرض عن طريق الملاك جبريل (هيل زيو)، حيث عمد آدم وحواء وأصبح سنة لآدم وذريته من بعده.

٣- الصلاة: جاء في الكنز الربا عن جبريل الرسول يقول لآدم (ع) (جلست إليه وعلمته ما حملني ربي علمه الحكمة والتسبيح ، أن قم اسجد وسبح للهي العظيم ثلاثه فترات من النهار وفترتين في الليل ، وأمرناكم أن اسمعوا صوت الرب في قيامكم وقعودكم وذهابكم ومجيئكم وفي خضعتكم وراحتكم وفي جميع الأعمال التي تعملون) ، ويسبق الصلاة الوضوء (الرشامة) أي رسم كل أجزاء الجسد بالماء الجاري النظيف ، ويكون بغسل الوجه ويقول المتوضئ (مبارك ومسبح اسمك يا حي ، مبارك ذي السيماء العظيم الموقر الإله الذي انبعث من ذاته)... وغسل الفم ويقول (ليمتلي فمي بالصلوات والتسبيحات) ، وغسل الأذنين ويقول (أذنائي تسمعان لأقوال الهي) ، وغسل الركبة ويقول : (ركبتاي ساجدتان للهي العظيم) ، وهكذا باقي أعضاء الجسد ، ويجب أن يكون المصلي طاهر الجسد ، لابسًا البياض ، واضعًا غطاء الرأس ، أما مبطلات الوضوء هي : خروج الريح ، البكاء ، الضحك ، لمس أية نجاسة... الخ.

٤- الصيام : هناك نوعان (باسم الهي العظيم كل إنسان يرقب نفسه ، ومن يرقب نفسه يخلص من النار الأكلول).

الصيام الكبير (صوم ربا): وهو الامتناع عن كل الفواحش والمحرمات وكل ما يسيء إلى علاقة الإنسان بربه ، ويدوم طيلة حياة الإنسان على هذه الأرض (صوموا الصوم العظيم ولا تقطعوه إلى أن تغادروا أجسادكم ، لا من مأكول ومشرب هذه الدنيا ، صوموا صوم العقل والقلب والضمير).

الصوم الصغير : وهو الامتناع عن تناول لحوم الحيوانات وذبحها ، أي الامتناع عن أكل شيء ذي روح ، ومدته ٣٦ يوماً متفرقة على أيام السنة ٣٦٠ يوم.

٥- الصدقة : ويشترط فيها السر وعدم الإعلان عنها ، لأن في ذلك إفساد لثوابها ، وهي من أخلاق المؤمن وواجبه تجاه أخيه الإنسان ، (طوبى لمن وهب فإنه لما جور ، طوبى لمن كسا فسيسكس أرذية من نور) ، (أعطوا الصدقات للفقراء وأشبعوا الجائعين واسقوا الظمآن واكسوا العريان لأن من يعطي يستلم ومن يقرض يرجع له القرض).

قبلة الصابئة المندائيين :

يؤمن الصابئة أن الرب العظيم مقيم في جميع الفضائل ، وأن الحياة بشموليتها ، ويتجه الصابئة في صلاتهم وفي موتهم إلى جهة الشمال ، لإيمانهم أن عرش الله الجنة ؛ هي في شمال الكون القاصي الذي تعرج إليه النفوس في النهاية لتتعم بالخلود إلى جوار ربها.

أعياد الصابئة :

ملاحظة : تتأخر أعياد الصابئة يوماً كل ٤ سنين عن التقويم الميلادي حسب شباط السنة الكبيسة...

١- البنجة أو البرونايا : عيد الخليقة العلوي ، وهي ذكرى خلق وتكوين عوالم النور والأرواح الأثيرية ، وفيها تفتح بوابات النور وتنزل الملائكة والأرواح الطاهرة فيعم نورها الأرض لتصبح جزء من عوالم النور ، وتعد هذه الأيام أسرار البداية المقدسة وفجر الحياة الأولى التي أوجدها الحي العظيم ، وصادف ١٦ آذار ٢٠١٢ في هذا العام.

٢- عيد التعميد الذهبي (ديمانا) : في هذا اليوم ذكرى تعمد النبي يحيى بن زكريا ، ويجب على الفرد المندائي أن ينال التعميد بعد ٣٠ يوماً من ولادته ، إذ

يعد هذا الطقس ولادة روحية له ليكون مندائيًا، ويحصل على الاسم الديني الذي يذكر به عند قراءة الفاتحة المندائية عليه بعد موته، وصادف ٢٠ أيار ٢٠١٢م.

٣- عيد الخليقة المادي دهوا ربا (العيد الكبير) : وفيه وجدت الكواكب في السماء والشمس والقمر وجمدت الأرض ورفعت كل في مدار هذا الخلق ستة أيام، وهو بداية السنة المندائية، وصادف ٣٠ تموز ٢٠١٢م.

٤- عيد الإزهار دهوا هنيئا (العيد الصغير) : وفيه نزل الملاك جبريل الرسول وقيد الشر والشرطيين الذين يعيشون في الأرض فسادًا ودمارًا، وبأمر الحي العظيم شقت الأنهار وزرعت النباتات وهيات الأرض من كل شيء لأجل خلق آدم وحواء، وصادف ٤ تشرين الثاني ٢٠١١م.

أسس الإيمان المندائي :

١- الإيمان برب خالق الأكوان منزّه عن السيئات، مقيم في ملكوته الحي، هو غير محدود، أزلي في كينونته، ليس له حدود في صفاته.

٢- الإيمان أن هذا العالم جزء بسيط وصغير جدًا من خلق الخالق العظيم.

٣- الإيمان بأن هناك معركة ما بين الخير والشر في هذه الحياة، ولا بد للخير أن ينتصر من خلال الإيمان والتقوى ومحبة الله ومخافته.

٤- الإيمان بوجود الحياة الأخرى، وأن الإنسان يجب أن يحاسب على أعماله وعبادته عند وفاته، وفي أماكن خاصة تسمى المطهرات من قبل الله سبحانه، فهو القاضي والديان الذي يحاسب الأنفس عند خروجها إلى موطنها السماوي.

٥- الإيمان بوجود الشر والشیطان والكائنات الشريرة التي تحاول استغلال الإنسان ليسقط في حبالها.

٦- الإيمان بالمعرفة لأنها الطريق الموصلة إلى رب الوجود وعلو هذا الكون، وبالتالي الاتحاد بملكوته.

٧- الإيمان بأنبياء الله الذين هم رسل ومعلمون على هذه الأرض وجاءوا برسالة من السماء من أجل إنقاذ البشر من شباك الضلال وهدايتهم إلى طريق الخير والصالح.

أنبياء الصابئة:

١- النبي والأب والرجل الأول آدم (أبو البشر) الذي يحتفظ المندائيون بصفه السماوية.

٢- النبي شيتل ابن آدم الرجل الأول (الغرس الطيب) الذي فدى والده فكانت روحه الأقدس من بين البشر.

٣- النبي نوح.

٤- النبي سام بن نوح (المتعبد الخاشع).

٥- النبي إدريس (دانخوت) الذي رفعه الله إلى السماء العليا - باسم الحي العظيم - (ورفعناه مكاناً عاليًا).

٦- النبي يحيى بن زكريا - يوحنا المعمدان - (الحبيب المرتفع).

الإيمان باليوم الآخر:

جاء في الكتاب المقدس (الكنزا ربا): باسم الحي العظيم (حيث يكتمل العالم، تسقط الأرض في الظلمات والسماء تلتف مثل القصب، الشمس تتطفئ، القمر يختفي، تتناثر الكواكب كأوراق التين، تذهب النار إلى كنها، المياه تؤوب إلى مقرها، الرياح الأربعة تطوي أجنحتها وتتوقف عن الهبوب، أما الأشرار فسينادي بعضهم بعضاً... ثم يسقطون في غياهب الجحيم.

كتب الصابئة المقدسة:

١- الكنزا ربا (الكنز العظيم) (الصحف الأولى): وهو الكتاب الروحي المقدس، وهو فعلاً كنز لما يحتوي من مفاهيم وكلام الرب العظيم، وقد أنزل هذا الكتاب عن طريق الملاك جبريل الرسول على الأنبياء (آدم وشيتل وسام وإدريس

ويحيى)، وقد نقل عن الآباء الأوائل حفظاً عن ظهر قلب، ونسخاً عن طريق الإسناد، إذ يحتوي على الأسفار المتعلقة بخلق الله للعالم النورانية (الجنة)، والأكوان والأرض والشرائع الإلهية والتعاليم الروحية والنصائح والأمثال والحكم التي تناسب البشر في كل الأزمنة ويسمى هذا القسم الأيمن، أما القسم الأيسر فيسمى (كنزا سمالا)، وهو مجموعة ترانيل تخص الموت، وعلى مجموعة من القصص الخاصة برجوع وعروج النفس إلى موطنها الأصلي الذي نزلت منه (عالم النور)، أما اللغة التي كتبت بها التي هي متداولة لحد الآن فهي لغة آرامية شرقية، ويقصد بالشرقية في الأصل من وادي الرافدين وبقيت محافظة على أولها وقواعدها ومعاني كلماتها.

٢- سيدرا أو نشمئا (كتاب الأنفس): ويضم قصص هبوط النفس في جسد آدم (مبارك اسمه) ويحتوي أيضاً على مجموعة كبيرة من الترانيل والأناشيد التي تتلى في التعميد والعروج، دراشا أد يهيا أي كتاب يحيى ودروسه ويقال له (سدرا أد يهيا) أي تعاليم يحيى، يحتوي على حكم ومواعظ وتعاليم النبي الأب والمعلم البار (يهيا يهانا - يحيى بن زكريا).

٣- القلستا: أي كتاب عقد الزواج يضم ترانيل وأناشيد ترنم في مراسيم الزواج المندائي.

٤- نياني الرهمي: أي كتاب الأناشيد أو الترانيل الدينية، وهو كتاب خاص بالأدعية والصلوات.

٥- نياني مصبنا: يضم ترانيل وشرح التعميد.

٦- توجد أيضاً عدة دواوين وهي عبارة عن شروحات عملية للطقوس الدينية منها (ترسر ألف شيالة) (أي كتاب الاثنى عشر ألف سؤال) وديوان أباثر والمارياشايا، المازوطا وحران كويثا الذي يتحدث عن نقاط مهمة في التاريخ المندائي وكتاب كداوا كد فياتا أي (العوذ)... الخ.

الدرفش :

هي راية السلام وتسمى أيضاً راية النبي يحيى والراية المتقنة ، وهي راية دينية تنصب أثناء إجراء المراسيم الدينية ، وتتكون من غصنين من الزيتون للدلالة على السلام توضع على شكل + (قريباً إلى الصليب) للدلالة على الاتجاهات الأربعة وقطع قماش من الحرير الخز الأبيض للدلالة على الطهارة والنقاء وأغصان من الآس للدلالة على الحياة الأزلية وهذه الصفات من الواجب أن يتحلى بها كل صابئي.

بعض المحرمات في الديانة المندائية :

- ١- الجدف باسم الله (الكفر به).
- ٢- القتل ، السرقة ، الكذب ، التأويل ، شهادة الزور ، الحسد ، النميمة ، الغيبة ، خيانة الأمانة والمعشر ، وكل ما يسيء التصرف الإنساني.
- ٣- الزنا.
- ٤- السجود لغير الحي العظيم وعبادة الكواكب والبشر والنار والماء وكل شيء غير الخالق الأزلي.
- ٥- السحر والشعوذة بكل أنواعها.
- ٦- قتل الحيوان بدون سبب وأذيته عند نحره.
- ٧- أكل دم الحيوان والميتة منها وذبح الحامل وكل الحيوانات المفترسة.
- ٨- كل الأعمال التي تضر صحة الإنسان الجسدية والروحية والعقلية.
- ٩- شرب الخمر.
- ١٠- البكاء والنواح ولبس السواد على الموتى.
- ١١- إعطاء الصدقة والتحدث بها.
- ١٢- الربا والتعاطي بالربا سرّاً والختان ، وأي تغيير جسد الإنسان الذي وهبه الله له (بأحسن خلق).

١٣- تلويث الطبيعة والأنهار.

١٤- الانتحار وإنهاء الحياة والإجهاض المتعمد.

١٥- عدم أداء الفروض الدينية والحلف الكاذب.

سورة الفاتحة المندائية:

تقرأ الفاتحة في الفواتح وقبل حمل جنازة المتوفى من قبل حاملي الجنازة الأربعة، وعند زيارة المقابر: (يشميهون أد هيبى ريبى، لوفنا وارواها اد هيبى وشابق هطايي نهويلي لمازا نشمثة "لملواشة" الديلي مسخته وشابق هطايي نهويلي)... وتعني (بسم الحي ريبى العظيم، المغفرة والرضا ونفخان الخطايا تهدي لروح "اسم المتوفى الديني" صاحب هذا الثواب الذي أرجو له نفخان الخطايا).

الصابئون وذرية آدم والعوالم الأخرى:

حسب العقيدة المندائية لم يتزوج أبناء آدم أخواتهم إنما أرسلت البنات إلى عالم آخر فيه أناس مثلنا، يسمونه (مشوني كشطة) أي أرض العهد، وجيء بفتيات من مشوني كشطة أولاد آدم فتزوجوهن، ومقولة (آدم من طين اهوه، هوه زوي من كان ادنافش اهوت) أي (آدم من طين وزوجته حواء من نفسه وبذلك فهي أظهر من الطين) وبذلك فتسمية الابن باسم أمه أعلى من تسميته باسم أبيه. اعتقد المندائيون؛ ربما لاهتماماتهم الفلكية؛ بوجود بشر خارج كوكب الأرض فالكواكب السماوية عندهم ما دون عالم النور اتخذت سكناً للبشر (الشبه روحيين) والكائنات النورية، وترشد كتبهم الدينية إلى عوالم يسكنها بشر مثلنا وخصوصاً في عالم العهد امشوني كشطا، وتذكر أيضاً أن البشر في ذلك العالم لا يختلفون عنا كثيراً.

ويعصف غضبان الرومي المثقف المندائي العراقي البارز مستقبل العلاقة بين إنسان الأرض وإنسان الكواكب الأخرى حسب تصورات ديانته بالقول (من

ذريتھن تكون الإنسان الحالي الذي أخذ يزحف من عالمنا هذا نحو الكواكب الأخرى ، وليس ببعيد أن يصل في آخر المطاف إلى عالم امشوني كسطا ، وينزل ضيفاً على أخواله هناك ، مستقبلاً من أبناء عماته).

الصابئون في القرن الواحد والعشرين :

شهد القرن العشرون قفزة كبيرة على صعيد الثقافة المندائية ، خصوصاً في الثلاثينات عندما عاشت الباحثة والمستشرقة الانجليزية الليدي دراور متقلة في جنوب العراق ما بين المندائيين لدراسة دياناتهم وتراثهم نحو أربعين عاماً ، وأزاحت الكثير من الغموض عن الديانة المندائية وتاريخها وتراثها الديني واستطاعت أن تترجم أغلبية الكتب والمخطوطات المندائية إلى الانجليزية ويعتبر كتابها الضخم (الصابئة المندائيون) الذي ترجم للغة العربية مرجعاً للباحثين.

وتصدى المؤرخ العراقي السيد عبد الرازق الحسني للكتابة عن الصابئين فكانت رسالته (الصابئة قديماً وحديثاً)، المطبوعة في القاهرة سنة ١٩٣١ والتي أعقبها بمقالة مطولة نشرت في (الهلال) أيار ١٩٣٢ قد أثارت ضجيجاً وإنكاراً من الصابئة جرته إلى مرافعات ومحاكم طال أمدها ، وأصدر كتابه (الصابئون في حاضرهم وماضيهم) الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤ ، واستمرت إلى الطبعة التاسعة سنة ١٩٨٤م ، ورغم تحفظ الصابئة عليه لكنه فتح نافذة على هذه الطائفة والديانة العريقة.

وكتب الدكتور أسعد السحمراني من جامعة بيروت العربية في (من قاموس الأديان) عن الصابئة والزرادشتية واليزيدية عام ١٩٩٧ أفرد الجزء الأول للصابئة أفراد فيها (٣٣) صفحة للتحدث عنهم ، وكتب الدكتور رشيد الخيون (الأديان والمذاهب بالعراق) منشورات الجمل ط٢ ٢٠٠٧ وأفرد الفصل الأول للحديث عن الصابئة ب ٣٥ صفحة وكتاب (المندائيون في الفقه والتاريخ الإسلامي) سنة ٢٠٠٥.

وشمر متقفو الصابئة عن سواعدهم ليظهروا ديانتهم فكتب غضبان الرومي كراسة (تعاليم دينية لأبناء الصابئة) عام ١٩٧٨ ط٢ ، وتبعها بكتاب (الصابئة) سنة ١٩٨٣ ، ذكر في آخر مؤلفاته وهي : (صابئة العراق - الصابئة المندائيون ترجمة من الانجليزية نعيم بدوي - أساطير صابئية - النبي يحيى في زمانه وتعاليمه - جذور الصابئة).

وكتبت الأدبية ناجية المراني (مفاهيم مندائية) ، وكتب الدكتور عقيد خالد والدكتور يحيى أحمد (الصابئة المندائيون نبذة تعريفية) سنة ٢٠١٠ من منشورات ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى.

أما على الصعيد الإعلامي فقد أصدرت مجلة آفاق مندائية العدد الأول سنة ١٩٩٩ ووصلت إلى العدد ٥٣ لسنة ٢٠١٢ ، وهي تغطي نشاطات أبناء الطائفة الثقافية والاجتماعية والدينية ، وأصدرت مجلة هيمنوثا (الإيمان) عدد خاص عن النشوء والخلق سنة ٢٠٠٠.

وهناك (حياة الأنبياء المندائيين) ترجمة وإعداد أيار ناصر شنان إشراف الشيخ ستار جبار حلو ، وقد نشرت الصحف العراقية والقنوات الفضائية ، خصوصاً بعد التغيير ابتداء من سنة ٢٠٠٣ الكثير من المقالات والبحوث والاستطلاعات والبرامج الخاصة بهذه الطائفة ، مما أتاح للجميع التعرف المفصل على هذه الطائفة.

ولا يفوتنا ذكر قانون الحكومة العراقية رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٣ المنشور في الجريدة الرسمية (الوقائع العراقية) عدد ٢٢٤٤ في أيار ١٩٧٣ ، والذي يحدد فيه أعياد الصابئة الأربعة واعتبارها رسمية للطائفة.

وتجدر الإشارة إلى نشاط المجلس الروحاني الأعلى للطائفة بالمشاركات في المؤتمرات الوطنية والإقليمية في حوار الأديان في النجف سنة ٢٠١١ وطهران سنة ٢٠١٢ ، وكانت مشاركات ممثلي الطائفة فعالة ، واطلعت الحاضرين على الدور الحضاري والتاريخي للطائفة.

وبعد التغييرات في العراق وإيران في الفترات الأخيرة ؛ هاجر معظم أبناء الطائفة بسبب التعسف الطائفي والديني إلى أوروبا وأستراليا وأمريكا ، ويبلغ الصابئة فيها ١٥ ألف نسمة ، وفي العراق ١٥ ألف أيضاً ، وفي إيران ١٥ ألف أيضاً حسب آخر تقديرات المجلس الروحاني للطائفة في ٢٠١٢.

وقد زار وفد من شيوخ الطائفة هيئة علماء المسلمين ، وتم شرح معاناة أبناء الطائفة في أيار ٢٠٠٤ ، وزار الوفد علماء المسلمين الشيعة في النجف سنة ٢٠١١ ، والتقى آية الله العظمى السيد علي السيستاني الذي أشاد بالأقليات العراقية ودورها بالنسيج العراقي ، وزار السيد عمار الحكيم مندا الطائفة بعد لقاء الوفد مع السيد عبد العزيز الحكيم ، ويعتبر المندي (دار العبادة للطائفة والذي يعني بيت المعرفة والإيمان) في حي القادسية في بغداد مركز إشعاع حيث يحتوي على قاعة كبرى للاحتفالات وقاعات صغيرة للمناسبات والفواتح والمدرسة المندائية التي خرجت الكثير ، وأقيم حفل تأبيني كبير للراحلة ناجية المراني في ١٧ - ٨ - ٢٠١١.

وأقام المرجع الديني السيد حسين الصدر حفلاً تأبينياً في الذكرى المئوية لميلاد العالم العراقي الراحل الكبير عبد الجبار عبد الله في الكاظمية في ١٩ - ١٠ - ٢٠١١ ، ودعا فيه شيوخ الطائفة وتحدث في كلمة نقلتها قناة السلام الفضائية ومجلة آفاق مندائية العدد ٥٣ سنة ٢٠١٢ ؛ رحب فيها برئيس الطائفة والوفد المرافق له أجمل ترحيب ، وأكد على وحدة العراقيين عبر التاريخ ، وعن تاريخ الصابئة وعراقتها ، وعبر رئيس الطائفة عن امتنانه لهذه الالتفاتة الكريمة ، مؤكداً على لحمة النسيج العراقي ، وشارك كاتب البحث بكلمة استعرض ما ذكره المؤرخون والباحثون عن تلك الشخصية العلمية الفذة ، وعن الشخصيات الصابئية العلمية والأدبية والفكرية عبر التاريخ.

وأخيراً نختم بقوله تعالى: { رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الدِّينِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا نَدِينُ وَلَا جُنُودَ لَنَا وَلَا خَوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }^١.

نعم إنهم أخوة لجميع العراقيين بمختلف انتماءاتهم الدينية والعرقية وهم من الأنسجة اللامعة من الطيف العراقي الواحد.

١ - القرآن الكريم : سورة الحشر ، الآية ١

الفصل الثامن

- معلومات مهمة عن الصابئة المندائيين
- البحث الأول : الاسم الديني ولقب العائلة.
- البحث الثاني : العلاقات بين الصابئة المندائيين والديانات السماوية الأخرى.
- البحث الثالث : مهنة الصياغة (معلومات مفيدة).
- البحث الرابع : أجمعيات المندائية في دول المهجر.
- البحث الخامس : المندائيون وسر البقاء.



البحث الأول

الاسم الديني (الملوasha) ولقب العائلة المندائية

تعني كلمة الملوasha في اللغة المندائية الاسم الديني الذي يُسمى به الطفل منذ ولادته ، تتكون ملوasha الشخص من جزئين : الأول هو ملوashته والثاني هو ملوasha أمه وليس أبيه ، ذلك أن الأم هي التي تحمل سر الولادة والأمومة ، أما عن الأسماء المعتمدة فهي أسماء مقدسة لدى المندائيين... إن الملوasha مهمة جدًا لإجراء طقوس الصباغة والوفاة والوضوء والصلاة... الخ.

ولاستخراج الملوasha على الفرد أن يعرف المعلومات الآتية:

١- ملوasha أمه.

٢- الشهر الذي ولد فيه.

٣- ساعة الولادة.

(يضاف مقطع "بر" بعد ملوasha الشخص إن كان ذكرًا ومعناه ابن ، ومقطع "بث" إن كانت أنثى ومعناها بنت).

٤- البرج : لأغراض استخراج الملوasha لابد من معرفة البرج المندائي وذلك من خلال قيمة الشهر المندائي في الجدول المثبت في أسفل هذه الصفحة + قيمة الساعة في الجدول نفسه.

مثال : إذا صادفت الولادة في شهر شباط الميلادي (رقم ٢) فإن ذلك يقابل شهر أيار المندائي (رقم ٥) ، وكانت الولادة في الساعة ١٢ ظهرًا (رقم ٤) ، إذا تكون قيمة البرج $٥ + ٤ = ٩$ ، وهو برج القوس... وفي حالة كون الناتج أكثر من ١٢ يتم طرح الرقم ١٢ من ذلك الناتج ، ويكون ناتج الطرح هو قيمة البرج.

هناك أربع حالات لاستخراج الملوasha :

١- إذا كانت القيمة العددية لمواشة الأم أكثر من برج الابن / الابنة؛ يتم طرح ١٢ من قيمة مواشة الأم العددية والنتائج يجمع بعد ذلك مع قيمة البرج...

مثال: شهر الولادة الميلادي هو شباط (رقم ٢)، إذا الولادة صادفت في شهر أيار المندي (رقم ٥)، الولادة كانت في الساعة الواحدة ليلاً (رقم ١٠)، مواشة الأم هي أنهر بث سيمت (رقم ٥)...

البرج المندي: $٥ + ١٠ + ١٥$ أكثر من ١٢ ($١٥ - ١٢ = ٣$) وهو برج الجوزاء. المواشة: $١٢ - ٥ = ٧$ ($٧ = ٣ + ١٠$) وهي القيمة العددية للمواشة، ممكن أن تكون المواشة (آدم بر أنهر) للذكر، و(إناث هيي بث أنهر) للأنثى.

٢- إذا كانت القيمة العددية لمواشة الأم أقل من برج الابن / الابنة، تطرح قيمة مواشة الأم العددية من البرج المندي.

مثال: شهر الولادة الميلادي هو أيار (رقم ٤)، إذا الولادة صادفت في شهر آب المندي (رقم ٧)، الولادة كانت في الساعة الثالثة ظهراً (رقم ٥)، مواشة الأم هي شارت سيمت بث مرياي (رقم ٩)...

البرج المندي: $٧ + ٥ = ١٢$ (١٢ وهو برج الحوت).

المواشة: $١٢ - ٩ = ٣$

٣ هي القيمة العددية للمواشة، ممكن أن تكون المواشة (يهيا بر شارت سيمت) للذكر، و(ريوان بث شارت سيمت) للأنثى.

٣- إذا كانت القيمة العددية لمواشة الأم تساوي ١٢، تكون القيمة العددية لمواشة الشخص بنفس قيمة برجه المندي...

مثال: شهر الولادة الميلادي هو أيلول (رقم ٩) إذا الولادة صادفت في شهر كانون المندي (رقم ١٢)، الولادة كانت في الساعة العاشرة صباحاً (رقم ٢)، مواشة الأم هي مليحة بث شارت (رقم ١٢)...

البرج المندي: $١٢ + ٢ = ١٤$ أكثر من ١٢ ($١٤ - ١٢ = ٢$) وهو برج الثور.

٢ هي القيمة العددية للمواشة ، ممكن أن تكون المواشة (زهرن بر مليحة) للذكر ، و(شارت بث مليحة) للأنثى.

٤- إذا كانت القيمة العددية للبرج المندائي للشخص تساوي القيمة العددية لمواشة الأم، تكون القيمة العددية لمواشة الشخص ١٢.

مثال: شهر الولادة الميلادي هو تشرين ١ (رقم ١٠)، إذا الولادة صادفت شهر طابيت المندائي (رقم ١) الولادة كانت في الساعة السابعة ليلاً (رقم ٧)، مواشة الأم هي سنديثا بث هوا (رقم ٨).

البرج المندائي : $٨ = ١ + ٧$ تساوي القيمة العددية لمواشة الأم (٨) وهو برج العقرب).

١٢ هي القيمة العددية للمواشة، ممكن أن تكون المواشة (بر هبي بر سنديثا) للذكر و(مليحة بث سنديثا) للأنثى.

أدناه الجدول الذي يتم منه حساب القيم العددية لما هو مطلوب في استخراج المواشة... وتتوجه يردنا بالشكر الجزيل لفضيلة الربى رافد بن الريش أمة عبد الله، لما وفره لها من معلومات قيمة عن هذا الموضوع:

الشهر الميلادي	الشهر المندائي	ساعات اليوم	البرج المندائي	البرج العربي	أسماء الذكور	أسماء الإناث
١- كانون الثاني	٤- نيسان	١- (٦-٨ صباحاً)	١- أمبرا	١- الحمل	١- رام يهانة زيهان	١- شختنا هوا هيونا
٢- شباط	٥- آيار	٢- (٨-١٠)	٢- تورا	٢- الثور	٢- بهيرا زازاي ياور زهران	٢- ماموريا شارت سمرا

٣- ياسمين ريوان زكوثا	٣- أشبين يهيا ميمون	٣- الجوزاء	٣- صلما	٣- (١٠-١٢)	٦- سيوان	٣- آذار
٤- شاديا دايا دينارتيا مدلل	٤- بريخ بهران رامشيلي	٤- السرطان	٤- سرطانا	٤- (١٢-٢) ظهراً	٧- تموز	٤- نيسان
٥- أنهر بيقونيا	٥- بسم يهب سام	٥- الأسد	٥- أريا	٥- (٢-٤)	٨- آب	٥- آيار
٦- رود كمريتا دخرانا مهنش		٦- العذراء	٦- شمبelta	٦- (٤-٦)	٩- أيلول	٦- حزيران
٧- كليلا أموزا مرياي سيمت		٧- الميزان	٧- قينا	٧- (٦-٨) ليلاً	١٠- تشرين	٧- تموز
٨- كنات سنديثا يونا هوا سيمت		٨- العقرب	٨- أرقبا	٨- (٨-١٠)	١١- مشروان	٨- آب
٩- قينثا سيمات هيي بنانا شارت سيمث		٩- القوس	٩- هطيا	٩- (١٠-١٢)	١٢- كانون	٩- أيلول

١٠- أنات هبي مركنيثا إقيمت		١٠- الجلي	١٠- كديا	١٠- (١٢-٢)	١- طابيت	١٠- تشرين الأول
١١- ممانى زاديا دوختا مانو		١١- الدلو	١١- دولا	١١- (٢-٤) فجرًا	٢- شباط	١١- تشرين الثاني
١٢- بث زيوا ريها نرجس مليحة هوا ممانى		١٢- الحوت	١٢- نونا	١٢- (٤-٦)	٣- أدار	١٢- كانون الأول

تأثير الكواكب والأبراج في الحياة على الأرض :

الباحثة برونايا فهمي شنان الزهيري تحدثت عن تأثير الأبراج والكواكب على أجزاء كبيرة من الأرض والأقوام والبلدان ، متمثلة بالأحداث الكبيرة كالحروب والأمراض والحصاد ، هذه المواضيع التي عوملت بطريقة نصوص الفأل البابلي ، حيث سجلت سلاسل طويلة لتأثيرات كل برج تحت تسلط الكواكب في حياة الأقوام والملوك وسائر مظاهر الحياة على الأرض...

فقد اعتاد المندائيون ومنذ أمد بعيد (لا علم لنا بزمانه الحقيقي ، إذ لا توجد نصوص تدل على ممارسة الصابئة المندائيين استخراج طالع السنة منذ خلق آدم ، أو بعد الطوفان من قبل نوح أو سام بن نوح ، أو حتى من قبل يحيى بن زكريا ، بل فقط من قبل الناصوريين^١ الذين أعدوه واستخدموه بإتقان وهم يمثلون طبقة علماء الدين لدى الصابئة ، بأن يقوم رجال الدين المندائيون في اليوم الأول من رأس كل سنة مندائية^٢ باستخراج كتاب (اسفر ملواشي)، وقراءة طالع السنة الجديدة مستندين إلى اليوم الأول الذي جاء فيه رأس السنة ، وعلى البرج الذي يقع فيه ، وعلى الهواء الذي هب في فجر اليوم الأول^٣.

١- الناصوريين من ناصيروثا وهي المعرفة الخفية التي يمتلكها الكهنة، انظر (نيسيرتو كاتمتو) الذي يفيد بمعنى الكتابة أو التعبير الأكدي (ناصر بيريسني) بمعنى حارس الأسرار، وتعتقد الليدي دراور أن التعبير المندائي أقدم من السرياني والعبري المشابه، انظر صالح، ثائر، بعض التسميات والمصطلحات، مجلة الصدى العدد ١١، السنة الثلاثستوكه، ١٩٩٧ (٦-٩) ص ٩

٢- تتصف الألواح الطقسية لإله الماء أنو في (أوروك) الوركاء أنه في شهر نيسان وهو إله الحياة في الحساب البابلي ينهض قبل شروق الشمس، ويغسل نفسه في ماء النهر ثم يرتدي ملابس جديدة ويصل إلى بيل، ففي السنة الجديدة كانت الآلهة تتزوج وفي الفترة الآشورية يظهر أن عيد رأس السنة في شهر نيسان كان مرتبط بعيد (اكيثو)، كما بعث ذلك البروفيسور بالس في عيد اكيثو البابلي، وتاماً كما فعل الكهان الصابئون في استدلال طالع الشعوب والأفراد في تلك السنة، كذلك كانت ألواح الطالع تستعمل من قبل الكهان البابليين في رأس السنة الجديدة، انظر الليدي دراور ص ٢٦٢.

٣- الرومي، غضبن، مصدر سابق ص ٩٣.

ولكي نفهم من أين جاء المندائيون بمثل هذه الأفكار لابد من العودة إلى أمرين:
 الأول: النصوص المندائية، والثاني: تأثير المحيط الذي عاش فيه المندائيون
 من أفكار وعلوم، فبالنسبة إلى النصوص المندائية كانت هناك إشارة واضحة
 في بعض النصوص إلى تسلط الكواكب والأبراج على مسيرة الأرض وحياة
 الإنسان فيها، كما ورد في نص كنزا ربا يمين ٥، ص ١٦٨ (هبوط المخلص):
 (أنا ياور هيبيل حين رأيته هؤلاء المسوخ^١ أردت أن أبيدهم ثم عدلت... قلت
 سأتركهم يسيرون مسيرة العالم الذي منه ولدوا، ناديت شامش باسمه
 وناديت سين وكيوان وبيل وليبات واتبو ونيرخ، كلا ناديت به باسمه وقلت لهم:
 سأجلسكم على عروش تسير والبسكم أردية تثير لتضيئوا هذا العالم، أمسكوا
 بشامش^٢ أخيكم الأكبر، قالوا ستكون أنت ملكنا وتكون ليبات ملكتنا في
 العالم، حين سمعت هذا منهم أمرت لهم بأثريين اثنين يفتان حارسين،
 ويكفونان لشامش مسعدين، فأنبروا العالم، خرجت من جميع تلك العوالم،
 وخلقته ورائي الأسوار بعد أن وضعتهم كلا في مدار، ثم أتاني أمر الله: قال
 اصنع آدم أمرت السبعة أن يعينوا بئاهيل على صنع الجسد^٣.

ونص آخر: (لقد أتيت من تيبيل من البيت الذي بناه ملائكة الكواكب)...
 من الواضح هنا أن الملاك بئاهيل قد اتصل بملائكة الكواكب، وكلاهما شاركا
 في تكوين عالم الأرض^٤.

وفي نص آخر كنزا ربا يمين - ١٠ ص ٢٤٢: (بعد أن شارك بئاهيل في
 تكوين العالم الأرضي كون ابنه آدم مثيلاً لهيئته، وألقى في جسد آدم روحاً
 من روحه الخاصة، ومن ملائكة الكواكب رمى كل واحد فيه شيئاً من أسرار
 الخاصة)...

١- المسوخ: إشارة إلى الكواكب السبعة والاثني عشر برجاً.

٢- إشارة إلى أن الشمس هي مركز الكون.

٣- كنزا ربا- الكنز العظيم الكتاب المقدس للصائبة المندائيين، ترجمة فوزي، يوسف متى،
 لسهير صبيح مد، يلصق، لوباغة أدبية عبد الرازق عبد الواحد، ط ٢، ١٠٠١، ص ١١٤

٤- رودلف، كورت، النشوء والخلق في النصوص المندائية، إعداد وترجمة: د. صبيح مدلول
 السهير، الطبعة الأولى، داد، ص ٤٠٤، ص ٤٤٤.

وفي نص (أنوش) كنزا ربا يمين ٣ ص ١١٢ : (سأحدثك عن السماء المرفوعة والنجوم التي هي داخلها موضوعة، السماء فيها الماء وفيها الحرارة الحية مائلة ، أما النجوم فتنتشر في الحرارة الآكلة ، وهي داخلها تشع بالضياء بقوة الحرارة الحية في السماء ، إنها منتشرة تدور ، اثنا عشر برج للكواكب تدور لكل منها مسار وكل في مدار ، ولو لم يضعها بئاهيل لما كان للشمس ولا للقمر قرار ، وتغييب الشمس ويبرز القمر ، ويعم الظلام ، إن في تعاقبها تقويمًا تحسبه به الأشهر والأيام ، ثم إني أكشف لك عن الربيع وعن الماء سأقول لك إن الاثنين قوامهما الحرارة الآكلة والماء ، ملاكان يديران هذا العالم مسلمان على المطر والماء ، وعلى القحط والنماء ، وعلى الجوع والامتلاء توجهما ملائكة لها سلطان)^١.

إن هذه النصوص والنصوص التي وردت في كتاب (اسفر ملواشي) (الجزء الذي قمنا بترجمته) تشير وبدقة إلى أسماء الكواكب السبعة وتسلط كل منها مع الأبراج الاثني عشر (وردت أسماء الأبراج الاثني عشر فقط في مخطوطة اسفر ملواشي) ، على أجزاء الأرض وكذلك البشر مؤثرة في مصائرهم من جفاف وأوبئة وحروب ، أما ما يخص تأثير المحيط في التنجيم المندائي فلا شك أن الفلك البابلي وما دار حوله من معتقدات ظل حيًا في الأذهان لفترة طويلة ، وحافظ الناس على الاعتقاد أن للبروج الفلكية علاقة بسلوك الأفراد وأمزجتهم^٢.

مثل هذا الحكم كان في الواقع نابعًا من الرمزية الخاصة بالبابليين والباحثة في النجوم ، ونجد بذلك أن تاريخ البشر يجد له الانعكاس الأكثر وضوحًا في النجوم ومن هنا نجد كثرة النصوص بالعرفاء ومعرفة المستقبل وعلاقتها العميقة بعلم الفلك والأهمية الرئيسية لهذا العلم وعلاقته المباشرة بالديانة والفكر البابليين^٣.

١- كنزا ربا- ١ الكنز العظيم الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، ص ١١٨ - ١١٩.

٢- سباهع، يزرزي، مصدر سابق ص ٤٤٤.

٣- هذا رأي قائل إن معظم الأساطير يرجع إلى منشأ طبيعي يتصل بعناصر الطبيعة، ولهذا الرأي وزنه، فالانتشار الواسع بين شعوب العالم القوي للأساطير التي تتحدث عن الكون ومظاهره يدل على عمق الآثار التي تركتها البيئة الطبيعية في نفس الإنسان وفكره، انظر القطبي : مهند عاشور شناوة، مجمع الآلهة في حضارة وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارييرس، مجلة ماجستير غير منشوك، قرلية الآداب- جامعة بغداد ص ٤٤.

في الواقع إن النصوص الخاصة بعلم التنجيم توضح لنا علم النجوم كمرآة للأرض : (الأركان الأربعة للأرض) ، وهي : اكد سوبارتو - كاكيوم ، عيلام وامورو (تتفق هذه الأقاليم مع النقاط أو الأركان الأربعة) ، ولهذه الأقاليم مرادفات مع مجموعات معينة في خارطة النجوم ، كذلك تنسجم هذه مع خطوط الأنهار كدجلة والفرات وحتى مع المدن مثل بابل ، ونجد أيضاً أن تاريخ الأرض له تجاوب مضبوط ومقنن في السماء والنجوم ، وهذا التجاوب (مكتوب) في دوران النجوم والظواهر الجوية ، حيث يقودنا إلى البحث فيه بتبصر .

إن التنجيم من العرافة غير المقصودة أي العرافة المبنية على ملاحظة حوادث وظواهر لا دخل للعراف بحدوثها ، ويمكن تقسيم التنجيم في العراق إلى نوعين : الأول وهو الأقدم عهداً يصح أن نطلق عليه مصطلح (معرفة الأحكام) وهو الذي عرفه البابليون منذ القدم واستخدموه بقصد رصد الأجرام السماوية وملاحظتها ، والاستدلال من ذلك عمل سيحل بالملك أو الحكومة أو عموم المملكة أو المدينة... أما النوع الثاني فهو حديث العهد ويهدف إلى معرفة طالع الإنسان وما سيحدث له بتأثير البروج والكواكب والشمس والقمر منذ ولادته ، ويصح أن نطلق عليه (الطالع) ولم يعرف هذا النوع من التنجيم في العراق إلا في الأزمنة المتأخرة في العهد السلوقي منذ القرن الثالث قبل الميلاد^١.

١ - باقي، طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول، بغداد، ص ٣٣٤، جواد حسن فاضل، حكمة الكلدانيين نضج الحضارة وفكرها، القسم الثاني، مراجعة يوسف حبي بغداد ١٠٠١، ص ١١٦.

إن أدبهم الديني مليء بالإشارة إلى السبعة والاثني عشر وما يرتبط بها من شرور ، كما شابه الصابئة المندائيون الحرائيين في اعتقاد أن النجوم والكواكب تحتوي على مخلوقات حية هي أرواح ثانوية لأمر ملك النور ، وأنها تتحكم بمصائر البشر ويصاحب هذه الأرواح الخيرة أضدادها من الأرواح الشريرة ، ففي فلك الشمس ينتصب (شامش) الإله الخير النافع رمز الخصب والخضرة ومعه الروح الشرير المهلك (ادوناي) إله الظلمة مع أرواح نورانية حارسة أخرى ، فلا شك أن هذا المحيط الذي عاش فيه الصابئة المندائيون قد أثر في

- אבה -

المعتقدات المندائية بما يتناسب مع تعاليمهم الدينية بحيث تبني المندائيون علم التنجيم (ويقصد هنا علم الفلك) بشكل كبير ظهر انعكاسه في كتابهم العلمي (اسفر ملواشي) الخاص بالتنجيم ، والذي مثل أفكار فلاسفة ذلك العصر وإنتاجاتهم العلمية، وأن ظهور الكثير من علماء الفلك والتنجيم المندائيين الكبار في المجتمع الذي نخص بالذكر منهم البتاني وثابت بن قرة هو دليل على ذلك.

العائلة المندائية :

اسم العائلة (اللقب) :

قالت العرب إن العرب أحسابًا وأنسابًا ، والصابئة المندائيون يهتمون غاية الاهتمام بهذا الأمر ، ويرجع نسبهم إلى سام بن نوح (ع) ، وزوجته نهورثيا ، وكل من يطلع على المخطوطات المندائية (الازهارات) كما يسميها الربى رافد الريشما عبد الله في مقالته الكنى والألقاب المندائية (عائلة الحياة) ، يعرف مدى اهتمامهم بحفظ أنسابهم وأعرافهم ، التي تميزوا بها عن غيرهم من الأمم.

ويرجع سبب ذلك الاهتمام لكونه سبب التعارف وسلم التواصل ، ومن جانب آخر يعتبر تدوين الأنساب بمثابة مباركة النسب وتعريف الباحث بمصادقية المخطوطات المندائية ، والفرد والعائلة المندائية حريصين كل الحرص على معرفة أصولهم وجذورهم لكونها غريزة إنسانية وسنة كونية.

إن معرفة الأحساب والأنساب يسهل دراسة أحوال السكان وتاريخهم والتعمق في معرفة سلالاتهم وعلاقاتهم ، أن عددًا الألقاب المندائية (الكنيات) ومفردها (كنيانية) ثلاثة وثمانون لقب ، ولقد باد الكثير من هذه الألقاب وغدا عدد كبير منها مجرد ذكرى ، وما تبقى الآن منها ٢١ لقب ، وهناك قائمة نادرة بالألقاب المندائية ، تعرض لأول مرة وحسب الحروف الأبجدية للإطلاع والمعرفة ، لتطلع عليها العوائل المندائية ويتعرفوا على الصفات التي تتمتع بها العوائل ، وهل لقبهم كنيانة أم اسم جد ينتسب لهذه الكنيانة^١.

١- الابن لاو البنت يكون اسمها ا لديني مشتق من اسم أمها كالتالي:
- عند زولا لاالا ، لاالا لا الأولاد في هذا العالم تزوجوا من البنات المثلثات اللواتي جيء بهن لاند علم الحق بأمر من الحي العظيم.
- أن حواء وحدها تعرف حقًا هذا ابنها قبل اكتشاف DNA.

التسلسل	لقب العائلة	لقب الفرد	الجد	الصفة
١	ازيز	خفاجي ودراجي	سبتي ، مهنا	قوي الشأن ، ثمين ، نفيس من نسل الكنزي برا أردوان ملك (أردوان ملكا بختيار بر سيمت)
٢	إكوما	مندوي	عيدان ، صباح	كثير الإنجاب ، أسمر
٣	بوسعيدي	شوعيلي		
٤	بطاحا			
٥	بوكايي			
٦	بخشي			
٧	بروباي			
٨	باز			
٩	باين هيل			
١٠	بريخ ياور			
١١	بنكير			
١٢	توليري			
١٣	توتو			
١٤	توم			
١٥	تشهري			
١٦	جيزان	جيزاني	عبد ، لطيف	
١٧	دقنانا			ذو لحية طويلة

١٨	دوراکي	دونغر		
١٩	دورداني			
٢٠	ديمر ورام شيلي			
٢١	دزفولي			
٢٢	دبوقايي	قوطانا	کنمش	دائم الرفقة ، من نسل الريش أما آدم أبو الفرز أو الفرج (آدم بول فرز بر هوا ممانی)
٢٣	دراشي			المعلمين
٢٤	ريش دراز	قنديلي وخميسي		ذو شأن رفيع
٢٥	رام زيوي	عثماني	شنقل	عالي الضياء
٢٦	رسيتم	كيلاني		
٢٧	روشايد			
٢٨	رشالي			
٢٩	زرزوي			
٣٠	زفرتايي			
٣١	زندانا			
٣٢	زاخي	بوهير	دهيس	الزائد الخير والفضل زكوات
٣٣	سابور أو صابور	دهداري		الوسيم

٣٤	سيفان	سيفي	سعد	ذو وجه ضارب للحمرة
٣٥	سوماقا			
٣٦	سامويي			
٣٧	سام سكارا			
٣٨	سيوي			
٣٩	سروان			
٤٠	سكو هيي			
٤١	شابور	هدويا		
٤٢	شوبر تايي			
٤٣	شولانا			
٤٤	شكواني			
٤٥	شيش			
٤٦	شافاي	شافاي		شفائي
٤٧	شعيلي	عريف		
٤٨	شعفوري	بريجي		الظريف
٤٩	شوكار			
٥٠	صلوفا			
٥١	عزازي	عزازي		
٥٢	عسيكر	عسكري		
٥٣	عباد	عُبادي		عابد
٥٤	كرزانا أو غرزان			نسبة إلى مدينة تقع في جنوب شرق تركيا
٥٥	كوانا			

			كدانا	٥٦
			كرندي	٥٧
مجمع القضاء		مسودني	باسق قلّس	٥٨
			فافي	٥٩
			بایش	٦٠
			فراه	٦١
المرشدين ، المعلنين		فريجي	فرج	٦٢
			فواري	٦٣
			قموي	٦٤
كحيل العين		كحيلي	كُحيلي	٦٥
			كيالا	٦٦
			كوپري	٦٧
			ملوها	٦٨
			منزيانا	٦٩
			مسريقاني	٧٠
		مُراني	مُران	٧١
			مشهدي	٧٢
			مکنوشتا	٧٣
مُجرح			موشاره	٧٤
			مدور	٧٥
			معوان	٧٦
			نانكاري	٧٧
		رام زيوا	نوروزي	٧٨

٧٩	هوارا	زهروني		ذو بشرة بيضاء
٨٠	هليل	بنكاني	عبد الله ، سهيل	ذو الجمال
٨١	ولداب شابي			
٨٢	واشيا			
٨٣	يهياوي	إفايشي		من نسل النبي يحيى

البحث الثاني

العلاقة بين الصابئة المندائيين

والديانات السماوية الأخرى

الصابئة المندائيون يحترمون جميع الأديان السماوية في المجتمع والعالم ، ويعيشون معهم بسلام وألفة ، لذا حظي الصابئة المندائيون بحب واحترام الجميع. وهناك أوجه تشابه بين بعض الطقوس المندائية وبعض الشعائر الإسلامية في التوحيد والوضوء والصلاة والمحرمات.

أما العلاقة بالمسيحيين فتعود إلى صلة القربى بين السيد المسيح يحيى بن زكريا الذي عمده في نهر الأردن ، كذلك يتشابهون في اللغة وتقديس يوم الأحد واعتبار التعميد شريعة دينية أساسية والصوم عن تناول اللحوم أيام معدودات ، أما العلاقة باليهود ، فهناك شعائر دينية متشابهة وكلهم من الساميين ، هذا باختصار شديد.

وعن علاقتهم مع إخوانهم المسلمين: يذكر لنا القرآن الكريم الصابئة المندائيين ، في عدد من آياته البينات ، ففي الآية ٦٢ من سورة البقرة: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعملَ صالحًا فَلَهُمْ أَجرُهُمْ عندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

كذلك ورد ذكرهم في سورة الحج والمائدة بنفس المعنى ونفس التأكيد ، كذلك ذكر نبيهم يحيى بن زكريا في سورة مريم {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} ... {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا} ... ويأمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة وكلمة كتاب في المندائية تعني السيدرا ، والسيدرا تعني الكنزا ربا (الكنز العظيم) الكتاب المقدس للمندائيين.

عاش الصابئة المندائيون في كنف المسلمين قروناً طويلة أخوةً وأصدقاءً وجيراناً يحب بعضهم بعض ويأتمن بعضهم بعض، وخير صداقة عبر التاريخ صداقة الشريف الرضي بأبي إسحاق الصابي، لكونها مدونة في مؤلفات عديدة وفي جملة من القصائد والأشعار.

لقد شارك المندائيون في بناء الدولة الإسلامية وخاصة في العصر العباسي المزدهر، وبرز منهم علماء وأدباء وفلاسفة وأطباء؛ منهم ثابت بن قرة وأحفاده وأبو إسحاق الصابي وغيرهم كثيرون.

يشارك المسلمون والصابئة المندائيون بركن التوحيد والصدقة والصوم والصلاة إلى حد بعيد، فكلاهما يؤكدان بأدلة وبراهين لا تقبل الشك أو التأويل أن الله جلت قدرته واحد أحد لا أب له ولا ولد، خالق كل شيء وبأمره صار كل شيء، رب الأكوان العليا والوسطى والسفلى ملك النور السامي.

لقد تأثر الصابئة المندائيون بالمسلمين وأثروا فيهم عبر الحقب التاريخية الطويلة ولكنهم حافظوا على ديانتهم التوحيدية المستقلة عن كافة الديانات والمذاهب تتشابه المحرمات وتقترب كثيراً بين الأخوة المسلمين والصابئة المندائيين ومنها - التجديف باسم الخالق.

- القتل، الزنا، السرقة، الكذب.

- شهادة الزور، خيانة الأمانة.

- عبادة الشبهوات، عبادة الأصنام والأوثان والكواكب والأبراج وأي شيء غير الخالق الله سبحانه.

- الشعوذة والسحر.

- الربا وربا الربا.

- أكل الميت والدم والطيور الجارح والحيوان الكاسر.

هنالك عدد لا يُحصى من الكتاب والباحثين المسلمين الذين حاولوا البحث عن الصابئة المندائيين^١، ومن المعاصرين الدكتور رشيد الخيون ودعواته الصريحة والصادقة إلى معاينة الكتب الدينية المندائية ودراستها والتعمق بها والوقوف على ما فيها من فكر وفلسفة وتوحيد للخالق، وما فيها من معاني إنسانية وحضارية وثقافية، وأسس دينية رفيعة تمجد الحي العظيم وتعظمه في علاه.

ولهذا نعتقد أن هذا البحث سيسهل على الباحث أن يضع في يده مفتاحاً علمياً ييسر له الخروج من باب الغموض والكتمان الذي ساد قروناً، وأن يخلق حواراً يعتمد المعرفة والفهم العميق والمحبة والتعايش بسلام وأمان، والمتفقون المسلمون يعرفون حق المعرفة معلومات قيمة عن الصابئة المندائيين، منها:

- ١- الصابئة المندائيون يحرمون كافة الأشكال العقائدية والمنهجية التي تتبعها الماسونية بكل أشكالها، ولذلك فهم أبعد ما يكون عن أي شكل من أشكالها.
- ٢- الصابئة المندائيون لم يكونوا في يوم من الأيام فرقة مسيحية أو يهودية ويخالفونهم في كثير من الأمور^٢، حتى النبي يحيى بن زكريا تختلف صورته في حياته وفي مماته وفي تعاليمه عن وصف النصوص المسيحية في كثير من الأمور، وخاصة قصة وفاته.

٣- موقعهم بين الشعوب فيه نوع من التشابه مع المسلمين السنة والشيعة، فهم مستهدفين بسبب نقائهم وصدقهم وتوحيدهم لله عز وجل الواحد الأحد.

- ٤- من الضرورة جداً أن ينظر المسلمين لإخوانهم الصابئة المندائيين من خلال الآيات القرآنية التي أنصفتهم وأعطتهم حقهم، واعتبرتهم من الموجودين بعيداً عما ذهب إليه بعض المتشددین والحانقين والمتطرفين والطائفيين.

١- الصابئة المندائيون تراث حي موغل في القدم، فبدلاً من البعث تحت التراب عن أدلة وبراهين فهم أحسن شواهد وتراث.

٢- المندائية سبقت اليهودية في تعاليمها وفي توحيدها، وهناك من الباحثين يؤكدون أن سيد المسيح (ع) تتلمذ على يد النبي يحيى بن زكريا (ع)، وقام وعمده في نهر الأردن كما تذكر لنا الكتب الدينية السماوية، كما أن الصابئة المندائيين هم أصحاب المذهب الحنفي، مذهب التوحيد، وكثير من الشخصيات المندائية المشهورة التي سبقت الإسلام وأدركته كانوا أحنافاً في شبه الجزيرة العربية، حتى أن الشاعر المشهور أمية بن الصلت سأل الرسول الكريم محمد (ص) ما هذا الذي تدعوا إليه يا دمحم، قال حنفية إبراهيم فأجابه إني عليها.

٥- تلتقي الديانة المندائية بالديانة الإسلامية لقاء حميمي بركن التوحيد المقدس وبأمر كثيرة منها الصدقة والصوم والصلاة والوضوء^١.

٦- الصابئة المندائيون بعيدين كل البعد عن الخلافات المذهبية، فهم يؤمنون بكتاب واحد ونفس الأنبياء، وأركان الدين عندهم واحدة، ونفس الطقوس والشعائر الدينية، وهم يتعاملون مع إخوتهم المسلمين كحالة واحدة ولا علاقة لهم بالفرق والمذاهب.

٧- الصابئة المندائيون يملكون من الحب ما يكفي الجميع، فدينهم دين محبة وسلام وتسامح ورحمة وأخاء، كإخوتهم المسلمين تماماً، ولهذا لا يمكن أن يحدث في يوم من الأيام أي عدااء لا سمح الله.

٨- لوجودهم فوائد كبيرة، فهم يمثلون تاريخاً سحيقاً مازال قائماً في القرن الحادي والعشرين، إنهم تراث ديني قديم وعميق، وفلسفة الشرق القديم فيهم، وفلسفة الإغريق، فبدلاً من البحث في الآثار ونش التراب للبحث عن أدلة وشواهد وبراهين، نجد المندائية كلها شواهد وتراث وتاريخ قديم حي يرحب بالباحثين والمتشوقين للمعرفة.

٩- بسبب وجود الصابئة المندائيين خمسة عشر قرناً داخل المجتمع الإسلامي؛ تأثروا كثيراً بالثقافة الإسلامية، ولكن مع ذلك حافظوا على هويتهم الدينية.

١٠- تأثرت بعقائدهم كثير من الفرق الإسلامية وخاصة الصوفية منها، ولغرض الكشف عن ملاسبات الصوفية لآبد من دراسة المندائية، فبالرغم من تأثر الصوفية بهم إلا أن بينهم اختلاف.

١- تواجد الصابئة المندائيين في شبه الجزيرة العبية قبل ظهور الإسلام، وسموهم الأحناف وكانوا الصابئين والحنفيين موحدين يدعون إلى الله الواحد الأحد، فبينما كانت قريش تعبد الأصنام تقريباً إلى الله سبحانه وتعالى؛ كان المندائيون يوحدون الله ويعظمونه ويذكرون أنه واحد أحد، لا والد له ولا ولد، وهناك من الباحثين يؤكدون أن المندائيين يقربون الملائكة كواسطة للتقرب إلى الله، أما الأحناف فيؤمنون بالله الله جل جلاله بشكل مباشر، بينما كثير من الكتب تؤكد أن الأحناف أتباع نبي الله إبراهيم الخليل (ع)، وهو أحد أنبياء الصابئة المندائيين، وهو الذي دعا إلى الحنفية، ودعا إلى الله تبارك وتعالى جل جلالته، فالمندائيون يدعون الله ويعظمونه ويمجدون ويسمونه بأسمائه الحسنی.

١١- ضرورة تصحيح كل المغالطات التاريخية بحقهم من افتراءات وادعاءات مثل أشيع القطيعي وعبد الرازق الحسني والجاحظ وغيرهم، وضرورة الكشف عن حقيقة الأمور وإبطال كل الأباطيل وتكذيب كل الأكاذيب، فلا يصح إلا الصحيح، ولا يحق إلا الحق.

في حقبات كثيرة من الزمن جارت عليهم الأديان السماوية، وألصق المتشددین والسلفیین بهم تهم باطلة لا أساس لها من الصحة، إن الدين اليهودي والقائمين عليه قد زوروا كثيراً من الحقائق التاريخية وهضموا كثيراً من حقوق الصابئة المندائيين، ويقول أحد المستشرقين الألمان إنه لغرض التعرف على المسيحية توجب البحث في النصوص المندائية، وكذلك نحن نقول لغرض التقرب من اليهودية وجب التعرف وفهم النصوص المندائية والإطلاع على الكتب المندائية. لقد جار اليهود عليهم في فلسطين، فرحلوا مجبرين إلى حران، ثم نزلوا إلى بطائح العراق وجنوب غرب إيران قرب المياه البهية، فأقاموا في بلدان ما بين النهرين أكثر من عشرين قرناً، وتأثر بهم السومريون والبابليون وغيرهم من الأقوام.

وبعد الغزو الأمريكي الغاشم للعراق أهدر عددٌ من المتطرفين والطائفين أرواحهم وأعراضهم وأموالهم أسوة بكل العراقيين النجباء، فحملوا كتبهم وتراثهم وهاجروا إلى أوروبا مكرهين، وهنا منهم من هاجر إلى أستراليا وأمريكا وكندا، وهناك محطات انتظار في سوريا والأردن وغيرها من الدول العربية أُملاً بالالتحاق بالآخرين، أجسامهم في دولة المهجر وقلوبهم وعيونهم ترنو إلى الوطن الأم العراق، الذي بعض أديمه من أجساد أجدادهم.

البحث الثالث

مهنة الصياغة (معلومات مفيدة)

لقد برع الصابئة المندائيون في مهنة صياغة الذهب والفضة والمينا، وأصبحوا من أدق الاختصاصيين فيها، ولقد طوروها كثيرًا وتفننوا بها...

ففي بداية الأمر كان الصابئة المندائيون صناع زوارق وحرفيين في الحدادة والنجارة، وهذه المهارة طوروها مع الوقت لصناعة المعادن النفيسة التي كان السومريون سباقين في صناعتها، وتدل الآثار السومرية على مهارة الصاغة السومريين في صياغة الحلي الذهبية للملكات والأميرات والأغنياء.

يُقسم الصاغة المندائيون فن الصياغة إلى قسمين أساسيين، الأول: فن النقش، وهذا الفن اشتهر به عدد قليل من الصاغة لأنه يتطلب مهارة عالية ومطولة ودقة، والنقاشون يجب أن يجيدوا فن الرسم والخط والقراءة والكتابة.

وهؤلاء النقاشون المهرة ينقشون الأسماء والصور والمناظر والزخرفة والطيور وغيرها، ويعطونها رونقًا وبهاءً، وأحيانًا يلونونها بالمينا السوداء أو الملونة التي يصنعونها بأيديهم، ويحتفظون بأسرار تركيبها ويتوارثونه أب عن جد إلى ولد، ولا يبوحون بهذا السر لأحد، لكونه سر المهنة.

يصنعون أقلام النقش بأيديهم ويعطونها صلابة بالنار والزيت، أو النار والكحول، ويشحذونها بطرق فنية يتمرسون بها، وهناك صاغة برعن في هذا المضمار وخلدوا أسماءهم لدقة صناعتهم.

أما القسم الثاني فهو فن الشفت: والشفت يعني الملقط الخاص بفن الصياغة، وهذا الفن له أسانذته ورواده وليس بالضرورة أن يكون العامل الماهر في هذا الفن يجيد القراءة والكتابة، أو الخط والرسم، وإنما بالممارسة المستمرة يكتسب

الخبرة والمهارة العالية ، وهذا الشفت على صغره ولكنه يصنع العجائب ، ويتدخل في صنع أدق وأرق الحلي الذهبية.

لقد ازدهرت صناعة الفضة والمينا السوداء بعد الحرب العالمية الأولى ، ودخول الجيوش الغازية العراق من مدينة البصرة ، كذلك السفن التجارية العديدة ، من ميناء الفاو والمعقل وحبهم للصناعات اليدوية ما خف وزنه وعلى ثمنه ، ورخص الأيدي العاملة ، راجت صناعة الفضة وخاصة أدوات المائدة ومناظر للآثار العراقية مثل أسد بابل والملوية والزقورة والنخلة والقيثارة ومسلة حمورابي والثور المجنح وغيرها على هيئة أساور ومدايا ومناظر.

لقد انتعشت ماديًا فئة من الصاغة ، وخاصة في مدينة البصرة وأصبحوا من أغنياء القوم لكثرة روادهم من الأجانب ، وتعلم الصاغة لغات عديدة ليحاكوا بها زبائنهم ويتعاملوا معهم بسهولة ويسر.

وفي الحرب العالمية الثانية تطورت مهنة صياغة الفضة والمينا تطورًا كبيرًا ، وبرز صاغة كبار ومحلات صياغة لها اسمها وإنتاجها ، وأصبح لهذه المحلات باعة يأخذون البضاعة ويعرضونها على المراكب العملاقة الراسية في المواني لترويج بضاعتهم ، وكان هذا يتطلب إجازة خاصة تمنح بالواسطة أو دفع مبالغ معينة للمسؤولين عن المواني.

والفضة أنواع حسب درجة نقاوتها ، فهناك الفضة الكبابة ونقاوتها عالية جدًا تصل إلى ٩٩٩ ، وتكون عادة طرية وصعوبة شغلها ، ولذلك تعتبر الفضة عيار ٩٢٥ أحسن نوع يمكن تشكيل منه الحلي بأنواعها على أحسن ما يمكن.

ولغرض فحص الفضة تستخدم الطريقة القديمة ، وذلك ببرد جزء بسيط من الحلية بالمبرد ، ووضع مادة التيزاب عليها (حامض النتريك) ، فيجب ألا يتغير لونها أبدًا ، وعندما تضع قطرة ماء على هذا المكان تلبن ، أي تصبح مادة الفحص بلون اللبن ، فيستدل الصائغ على نقاء الفضة ويدفع فيها ثمن جيد.

إما إذا كان عيارها أقل من ذلك فيسوّد المكان المبرود بمجرد ملامسة التيزاب له، وإذا كانت أقل من عيار ٥٠٠؛ فيتحول اللون إلى الأخضر، وأقل من ذلك هذا اللون الأخضر ينتج منه دخاناً ويتفاعل مع الفضة ويؤثر فيها.

كل ذلك يأتي من خلال الخبرة العالية بالممارسة ودقة الفحص، ولهذا تجد الصاغة المتمرسون في صناعة الفضة من السهولة بالنظر أن يميز بين الفضة وغيرها من المعادن البيضاء، بسهولة كذلك يتمكن من التمييز في معرفة نقاء الفضة دون فحصها أحياناً.

وبشكل عام فإن صاغة الفضة ممكن أن يتحولوا إلى صاغة ذهب، لأن الفن واحد والمهارة هي المعيار، ولكن للذهب خواصه وعياراته التي تختلف عن الفضة، والأهم غلاء الذهب مقارنة بسعر الفضة، ولهذا صائغ الذهب يجب أن يكون أكثر دقة وأكثر حرصاً للمحافظة على الذهب في السباكة والعمل من أي نقص إلا اضطرراً، لأن النقص يسبب له خسارة قد لا تستطيع الأجور التي يتقاضاها تعويضها.

وللذهب عدة عيارات، فالتيزاب كما يسمونه أو اللوح أو سبائك البنك المركزي عيارها ٩٩٩، أي في الجرام الواحد مثلاً ٩٩٩,٠ ذهب نقي، و ٠,٠٠١ نحاس، وعيار ٢٢ نسبته ٩١٦، وعيار ٢١ نسبته ٨٧٥، وعيار ١٨ نسبته ٧٥٠، وعيار ١٤ نسبته ٥٨٥، وعيار ١٢ نسبته ٥٠٠، وعيار ٩ نسبته ٣٣٣، وهذا يعتبر أقل عيار بينما ٩٩٩ أعلى عيار.

وهناك طرق عديدة لفحص نقاوة الذهب، منها قديمة ومنها حديثة، والصائغ المتمرس يعرف عيار الذهب من النظر إليه أو من مسكه بيده، لأنه يعرف أن العيار العالي يكون ليناً، وله لون أصفر خاص، والعيار المنخفض يكون صلب عادة وله لون يميل إلى الحمرة، أو أصفر فاتح جداً، أي لون خاص الصائغ يعرفه، وإذا أراد التأكد فعليه أن يفحص حسب وسيلة الفحص المتوفرة لديه، وأبسطها أن يبرد بالمبرد جزء بسيط من الحلية ويضع قطرة من مادة التيزاب،

ويلاحظ إن بقي على لونه فهذا عيار عالي ، وإن تغير اللون إلى أحمر فاتح فهذا أقل نقاوة، وإذا كان أحمر غامقاً فهذا يعني نقاوة قليلة، وإذا تحول إلى اللون الأسود فهذا عيار ١٢ مثلاً، وإذا أخضر فهو دون ذلك، وهكذا...

وهناك فحص أسهل يسمونه باستخدام محلول المزدوج، وهو خليط من نسبة واحدة من حامض الكلوريك وثلاث نسب من التيزاب (حامض النتريك)، ولغرض الفحص تستخدم الحجر الأسود، وهو حجر خاص بأن تحك قطعة ذهب معروفة العيار، كأن تكون الحلقة التي بيدك، وتحك بجانبها قطعة الحلية المراد فحصها، ثم تضيف قطرة من محلول المزدوج عليهما، وتلاحظ بالنظر وبالمقارنة بين الاثنين، فإن بقي الأثرين على الحجر الأسود كما هما، فهما متشابهان في المعيار، وإن خف لون الحلية على الحجر فهذا يعني أن الحلية أقل عياراً وهكذا.

كان الصاغة أيام زمان؛ العمل يدوي من بدايته إلى نهايته، فلغرض سباكة الذهب يستخدم الكورة والفحم والمنفاخ اليدوي وهذا يأخذ منه وقتاً وجهداً، ثم تطور إلى استخدام العفريت وهو يرمز خاص يعمل على النفط، ثم تطورت الأمور إلى الأفران الكهربائية الحديثة.

وأيام زمان الصائغ يمسك السبيكة وقد تكون صغيرة بحجم نواة التمر، وباستخدام المطرقة والسندان يعمل منها صفيحة رقيقة جداً، أو سلكاً ناعماً دقيقاً ثم تطورت الأمور ودخلت التكنولوجيا من أوسع أبوابها، وأصبح من السهل على الصائغ أن يعمل بالسبيكة أي شيء يريده ببسر وسهولة ودون خسارة تذكر بوزن السبيكة.

حتى التلميع والصقل تحول من عمل يدوي متعب باستخدام أنواع متعددة من المبرد، وأنواع متعددة من ورق الصقل يسمونه (كاغد سنباده) إلى استخدام أجهزة حديثة متطورة يسمونها (اللاشة)، وهي جهاز هزاز يوضع بداخله نوع من الصجم (البلية) الكروي أو الاسطواني الناعم، ويضاف شامبوات خاصة

(مواد كيميائية) ، وبعد وقت قليل تصقل الحلي وتمنح رونقاً ولمعاناً يصعب على العمل اليدوي مجاراته.

أما عن فن اللحام فلا يعتبر صائناً إذ لا يجيد فن اللحام ، وقد تطور هذا الفن كثيراً ، فسابقاً كان الصاغة يعملون اللحام كسبيكة خاصة يضيفون لها بعض المعادن ، مثل الفضة والنحاس والكاديوم بنسب معينة مع المحافظة على عيار الذهب ، لتدوب أسرع من الذهب التي تشكل منه الحلية ، إذا وجهت النار لها.

ويستخدمون وسائل مساعدة لذوبان قطعة اللحام مثل (البورك) ، وجهاز اللحام كان أيام زمان يشبه الفانوس السحري ، وبه فتيلة من القطن ، وفي داخله النفط ، وباستخدام بوري رفيع للنفخ يوجهون النار على قطعة اللحام لتذويبها ، تطور الأمر إلى جهاز يعمل بالبنزين ثم بالغاز ، وحالياً تطور الأمر كثيراً فأصبح اللحام عبارة عن عصارة والجهاز بحجم تورش الإنارة متوسط الحجم اليدوي.

كل شيء تطور فماكينة تعمل الزناجيل بأنواعها دون جهد ، إذا كان على الصائغ أن يجهز آلاف الحلقات الناعمة الدقيقة ، وأن يلصمها واحدة بالأخرى ، وأن يلحم كل الفتحات وهذا أمر غاية في الصعوبة والتعقيد.

كذلك استحدث فن القوالب والبريسات ، ومعامل السباكة وكثر مهرة تركيب الأحجار الكريمة والألماس ، وأبدعوا في مجال عملهم ، والصائغ يجب أن يكون أمين وصادق في عمله ، وفي تعامله ، لأنه مثل البنك. والصابئة المندائيون مشهورون بالصدق والأمانة ، ولكن لكل قاعدة شواذ ، والذي يشذ عن القاعدة لا أحد يتعامل معه ، ويسمونه فلان الغشاش ، ولكون أبناء الطائفة أعدادهم قليلة ، وتربطهم علاقات قرابة ونسب ، فمثل هذا النوع يُفصح أمره بين الآخرين ويصبح من الصعوبة أن يعمل في هذا المجال ، لأن مجتمعهم يلفظه ، ولا أحد يقربه أو يتعامل معه ، فتجد الجميع حذرين ويسمعون النصيحة ، وأهلهم يعلموهم منذ نعومة أظفارهم على احترام هذه المهنة العزيزة ، والصابئة

المندائيون لا يخلون على بعضهم بتداول المعلومات عن هذا الفن الرفيع، ولا يكتمون أسرارهم فيما بينهم، ويساعدون بعضهم بعضاً.

وهناك عدد من الصاغة متخصصون في فن تصفية الذهب، أي نقاوته، فالصائغ صاحب المحل أو الورشة، يتجمع لديه أنواع مختلفة من العيارات من الذهب، فيطلب الأمر توحيدها وتنقيتها ليتمكن من إعادة ضبط عيارها، فيرسلها إلى معمل تصفية الذهب ليعيد نقاوتها، وهذا بدوره يسبكها سبكاً جيداً ويخلط معها كمية من الفضة، وباستخدام حامض النتريك ومصدر حراري لثلاث مرات أو أربعة؛ يتبخّر النحاس وترسب الفضة ويستخلص الذهب العالي العيار.

ومعظم الذين يعملون في هذا الاختصاص لديهم مشاكل في الجهاز التنفسي، لأن بعضهم لا يهتم بوسائل التهوية، طبعاً تغير الحال وتطور العمل وأصبح أكثر دقة، ولغرض التأكد من عيار الذهب بشكل دقيق جداً؛ ترسل الحلي إلى جهاز التقييس والسيطرة النوعية، وهناك تؤخذ عينة أو أكثر لا على التعيين، ويقطع منها مائة ملجم وتجري لها عملية تصحيح كيميائي يحصلون منها على الذهب الخالص، فيعرفون النسبة الحقيقية لهذه الحلي ويوسمونها بختم خاص بالمؤسسة، لا يجوز التلاعب بها مطلقاً.

والذي يهمنا في هذا البحث بعد أن أخذنا فكرة بسيطة عن هذا الفن الرفيع، ماذا استفاد الصابئة المندائيون من هذه الحرفة؟، لقد استفادوا كثيراً، فالوضع الاجتماعي والحالة الاقتصادية تطورت كثيراً وأصبحوا من عليّة القوم في المجتمع، لهم احترامهم وتقديرهم، ينظر لهم الآخرون بثقة في الصدق والأمانة، ويتمنون صداقتهم والتقرب منهم، لأنهم يحتاجونهم في زواج أولادهم أو لإرضاء زوجاتهم، والعوائل تتباهى أن صائغهم فلان وأنهم يشترون الحلي من المحل الفلاني المعروف.

وكما يقول أهلنا الخير يخير والشر يغير ، ويقصدون هنا بالشر (الفقر) ، فتجد العائلة المقتدرة المتمكنة الكل يقربها ويحبها ، ويريد معرفتها عسى أن يصيبها شيء من هذا الخير ، أما العائلة الفقيرة فيعتقدون أنها تحسدكم لأن نفوسها تغيرت بسبب العوز والفقر.

أما من الناحية الأخرى ؛ فالصاغة المقتدرون ساهموا في تطور المجتمع المندائي وفي تقديم المساعدات المادية والدعم المعنوي لمؤسسات الطائفة ، وفتحوا العديد من الورش والمعامل لتشغيل أبنائهم وأقربائهم ، وعدد كبير من أبناء الطائفة.

ولهذا لا تجد إلا نادراً أحد أبناء الصابئة المندائيين بدون عمل ، فإما يشغلونه في ورشة أو بائع أو دوار ، يعطوه كمية من الذهب لتصريفها وله نسبة معينة لأن هناك صاغة جُملة وصاغة مفرد ، وصائغ الجملة يوزع إنتاجه على صاغة المفرد ، إما مباشرة أو بواسطة الوطاء (الدوارة).

والغريب بالأمر تجد الكثير من الموظفين في الدولة عندما تكون رواتبهم غير مجزية ، إما يعمل وسيط بعد ساعات الدوام ، والأغلب يترك الوظيفة ويمارس هذا العمل لأنه يدر عليه أرباحاً مجزية... فأصبح الذين يتعاملون بالذهب وصناعته مركزاً اجتماعياً محترماً ، وبحكم عملهم هذا فهم يتعرفون على النخبة في المجتمع ، وبذلك يسهلون أعمالهم ومتطلباتهم ، كما يسهلون ما يحتاجه غيرهم من أبناء الطائفة ، مثلاً الواسطة لقضاء مهمة أو تعيين أو إنجاز معاملة أو غير ذلك.

تاريخ الصياغة عند الصابئة المندائيين :

استعمل البابليون والآشوريون المعادن المختلفة والثمينة منها ، على الأخص الذهب والفضة في صياغة القلائد والأساور والأقراط والخواتم المرصعة بالأحجار الكريمة وتطريز الملابس بالذهب ، ولا سيما بالنسبة للملوك كما ذكر

فؤاد ناجي آل زهرون في مقال له... وكان فن الصياغة في تلك العهود يحتوي على مضامين هي في الغالب دينية وأسطورية، وقد أثرت هذه الفنون بالمناطق المحصورة حيث نقل الإغريق والساسانيون الكثير من معالم فن الصياغة البابلي والآشوري...

كان الصاغة يقومون بتزيين تماثيل الإله في المعبد، وهناك من الآثار التي تضمها المتاحف دليل على الإبداع الفني، وما آثار المقبرة الملكية في أور إلا نموذج حي لما وصل إليه فن الصياغة من رفعة ورقي، وقد سبق الآشوريون البابليين في فن الصياغة بأشواط بعيدة، ونلاحظ أن هناك نماذج عديدة من الأساور والقلائد والأقراط والخواتم، وكانت مضامين هذه الصياغة مطبوعة بالطابع الديني والرمزية.

يرجع تاريخ مهنة الصياغة لدى طائفة الصابئة المندائيين في العراق إلى بدايات القرن التاسع عشر الميلادي على يد خضر بن بدران بن قاجار آل زهرون، الذي كان قد تعلم صناعتها عن طريق عائلته.

وبعد وباء الطاعون الذي اجتاح العراق عام ١٨٣١ والذي أدى إلى وفاة كثير من الناس ومنهم أبناء طائفتنا المندائية، وعدد كبير أيضاً من رجال الدين المندائي، انتقل خضر بن بدران من مدينة البصرة إلى مدينة العمارة، كان هذا الرجل تقياً ورعاً متبصراً بأمور الدين المندائي، لذلك بدأ بتعليم ابن عمه (عوض) أصول الديانة المندائية لكي يساعده في إجراء الطقوس والمراسيم الدينية، وذاعت سيرته فأطلق عليه وجهاء المدينة (الملا خضر).

وبعد استقراره في مدينة العمارة، ولكونه يتقن مهنة الصياغة؛ قام بافتتاح محل لمزاولة هذه المهنة، وكان يساعده الملا عوض ابن عمه بعد أن تتلمذ على يد الملا خضر، وبذلك يمكن القول إنه كان أول محل أو صانع زاول مهنة الصياغة في تاريخ طائفتنا المندائية في العراق، ثم بدأ بعد ذلك بتعليم أولاد هرمرز... زهرون ورشيد أصول هذه المهنة.

ومن خلال احتكاكه مع بعض الصاغة الأرمن ؛ استطاع أن يتعرف منهم على كيفية عمل (المينا السوداء) ، والتي تسمى عند عموم الصاغة بـ(المحرك) ، وهي خليط من نسب معينة من الفضة والرصاص والكبريت ، تتحول بعد سبكها إلى قطع مستطيلة لونها يميل إلى اللون الرصاصي القاتم ، وتطحن بعد ذلك لتكون جاهزة لاستعمالها على المصوغات الفضية المنقوشة.

أعطت المينا السوداء جمالية مذهلة إلى فن الصياغة ؛ بحيث كانت القطع المكسوة بالمحرك تعتبر إحدى روائع الفنون الشعبية في العراق ، وقد توفي الفنان ملا خضر في مدينة العمارة في بدايات القرن العشرين وكان هرمز ابن الملا خضر قد عزم على السفر إلى بغداد.

وبعد الحرب العالمية الأولى بدأت بغداد تتطور وتزدهر بالأعمال التجارية والسياحية ، وكانت محلات الصياغة يتمركز معظمها في شارع الحكومة العثمانية (سابقاً) ، القشلة ، وقد عمل هناك فترة قصيرة من الزمن ، انتقل بعدها إلى شارع المستنصر (النهر) سنة ١٩٢٠ ، ليكون أول صانع مندائي يفتتح محلاً في هذا الشارع.

ومع مرور الوقت أخذ شارع النهر يتطور أيضاً ويصبح مركزاً تجارياً مهماً ، واختفت كثير من البيوت والخانات لتحل محلها المصارف والمحلات التجارية والشركات الأجنبية ، وضمن هذا الانفتاح الحضاري أصبح لصياغة المينا السوداء أهمية لدى الجاليات الأجنبية والسواح الذين بدأوا يتوافدون على بغداد في تلك السنين.

وعلى إثر الإقبال الكبير على اقتناء هذه المصوغات الفضية ، فقد برزت الحاجة إلى ضرورة تواجد صاغة آخرين إلى جانب آل زهرون ، فقد بدأ عدد منهم الانتقال إلى بغداد من أماكن تواجدهم في البصرة والعمارة ليشكلوا الرعيل الأول لمجموعة الصاغة المندائية في بغداد.

ومع مرور الزمن فقد أصبح شارع النهر يعج بمحلات الصاغة على جانبيه ، وصارت هذه الحرفة الفنية الجميلة والتي أدخل عليها الصاغة المندائيون مسحة فنية متميزة بفضل ذكائهم ومهاراتهم الفائقة المهنة الرئيسية لطائفتنا المندائية بعد أن كانت حرفهم السابقة هي النجارة والحدادة.

ونود أن نذكر بعض أسماء الصاغة الأوائل في شارع النهر من ١٩٢٠ إلى عام ١٩٤٠ : (شذر النشمي - عمارة مران وابنه عباس - شيخ عنيسي الفياض - مجيد عذاب - ضامن حويزاوي - اسمر هرمز - آدم وناصر سفر - سعد رهيف - جليل مجدي - صالح حاجم - شاطي حاجم - جودة سهر - جاني سهر - شدود نعاس - توفيق بقال - سكران هرمز - ناشور الخدادي - محسن قطان - رحيم صادق - فاضل سيف - زهرون سيف - ياسر صكر - ناصر صكر - رحيم برغو - سالم شهيب - غدير باحور - إبراهيم وهام - خضر كيطان) ، وجاء بعدهم في الخمسينات والستينات مجموعة من الصاغة الذين أكملوا المسيرة المهنية بعد أن رحل معظم الأوائل ، وقد ظهر في البصرة بعد الحرب العالمية الثانية صاغة فضة في منتهى الدقة والمهارة ، أذكر منهم بيت سيف مناحي ، وبيت يوسف بخيتان وأولاده عبد الواحد وزهرون ، وبيت حميد سرحان وإخوته وعبد الواحد يوسف وكثيرون غيرهم كذلك في العمارة بيت حسني زهرون.

كان المستشرق الأب أنستاس الكرمللي من أصدقاء هرمز آل زهرون ، وذات يوم رآه يعمل في المينا السوداء ، فأخذ يسأل عن مكوناتها ، متعجباً من صنعها بهذه الطريقة ، وفي إحدى سفراته إلى فرنسا جلب هدية إلى الصائغ هرمز ؛ هي عبارة عن فرن يعمل بالفحم وقطع زجاجية ملونة (المينا الملونة بعد طحنها) ، ليصبح هرمز آل زهرون أول صائغ يستخدم المينا الملونة.

الصائغ ناجي آل زهرون الذي جاء بعده صمم مكبساً يعمل بالرجل لطبع القطع الذهبية والفضية على القوالب الحديدية المنحوتة ، وقد لقيت أعمال الصياغة

شهرة واسعة وخاصة أعمال آل زهرون في المجتمع العراقي ومجتمعات الدول المجاورة، وبعض الدول الأوروبية وذلك من خلال اشتراكهم في المعارض العالمية والمحلية، ومنذ بدايتها أخذت حرفة الصياغة لدى أبناء طائفتنا المندائية تتطور وتتوسع وتتوطد لتصبح صفة تاريخية تلتصق بطائفتنا على مر السنين.

المندائيون وصياغة الفضة في العراق :

كما ذكر صباح مال الله في إحدى مقالاته كون المتحف البريطاني في لندن يزخر بالآثار التي لا تقدر بثمن ، والتي تعكس حضارة الشعوب التي جلبت منها هذه الآثار ، ومن جملة هذه الآثار مصوغات فضية من مناطق إيران والعراق والشرق الأوسط قسم منها موشح بالمينا السوداء ، وتعود إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد.

وتعتبر الحلي من أول منتجات الإنسان الفنية التي كان لها دور بارز في العصور القديمة في توضيح الأهمية الجمالية والسحرية للمعتقدات والتعريف بأذواق وعادات وتقاليد المجتمعات ، وتميزت بتنوع نماذجها الوظيفية والجمالية التي لا يزال قسم كبير منها مستعملاً حتى الآن.

وقد اشتهرت صناعة الفضة في العراق القديم ، وكانت الفضة تدعى (كسبا) ، وكلمة كسبا كلمة مندائية آرامية قديمة ارتبطت بالذهب (دهبا) ، فالذهب والفضة (الدهبا والكسبا) كانا عماد الاقتصاد العراقي منذ القدم ، إضافة إلى استخدامهما في الحلي والمصوغات ، فذهباً بذلك مثلاً لدى العراقيين إلى يومنا هذا (الذهب والفضة زينة وخزينة) ، وقد برع المندائيون بفن صياغة الفضة والنقش عليها بشكل أثار دهشة المهتمين ، وأصبحت مصنوعاتهم قطعاً فنية فريدة يفتننها هواة جمع التحف النادرة في كل أنحاء العالم.

لقد توارث المندائيون هذا النوع من الفنون منذ أقدم العصور ، منذ أول تواجدهم على أرض الرافدين ، لقد تمثلت الحلي التي صنعها العراقيون في وصف الشاعر البابلي القديم لبعض منها بقوله :

أُمَي هِي نَوْر الْأَفَقِ الشَّدِيدِ الْإِضَاءِ

إِنَّمَا وَغَلَّةُ الْجِبَالِ

نَجْمَةُ الصَّبَاحِ الَّتِي تَتَأَلَّقُ

إِنَّمَا يَنْعُ ثَمِينِ إِنَّمَا زَبْرَجْدُ مَارَاهَاشِي^١

إِنَّمَا حَلِي الْعَقِيقِ الَّتِي تَعْمَلُ الْبَهْجَةَ

وَحَاتَمُ الذَّهَبِ وَسَوَارُ الْفِضَّةِ

إِنَّمَا تَمَثَّلُ كَامِلُ الْجَمَالِ ، كَامِلُ الْبَهَاءِ

إِنَّمَا مَلَاكُ رِخَامِي عُلَى قَاعِدَةٍ مِنَ الْأَزْوَادِ

لقد صنف العراقيون القدامى الصياغة والمهن المرتبطة بها ، فملحمة جلجامش تعطينا فكرة واضحة عن هذه الحرفة وأهميتها في العراق القديم منذ أكثر من ستة آلاف عام ، لقد كان في ذلك الزمن الموغل في القدم أنواع من الصاغة ، فهناك صبابوا المعادن وشاغلوا الأحجار الكريمة وشاغلوا المعادن وصاغة الفضة والذهب ، وصانعو المجوهرات .

فبعد موت انكيديو يأمر جلجامش مختلف صناع المعادن الثمينة والأحجار الكريمة بصنع تمثال لصاحبه ، كما يتضح في المقطع التالي من الملحمة : (جلجامش يأمر بصنع تمثال لأنكيديو - عندما سطع فجر اليوم التالي عم جلجامش نداء في كامل البلاد صبابو المعادن - شاغلوا الأحجار الكريمة -

١- الينع هو العقيق الأحمر ، الزبرجد هو الياقوت الأصفر ، وماراهاشي منطقة من بلاد عيلام إلى الشرق من سوز.

شاغلو المعادن ، الصاغة وصانعو المجوهرات^١ ، اعملوا لصديقي انكيديو تمثالاً يتناسب وقياسه ، على أن يكون صدره مرصعاً باللازورد ومن الذهب بقية جسمه).

إن صياغة الفضة تستدعي من الصائغ حذق خاص وحرفية عالية ومعرفة تامة بمزايا وطباع المعدن ، فبعد سباكة وصهر الفضة تحول أولاً إلى صانع مختص يدعى (الجمّاع) وهو المختص بالجمع والتصفّيح ، والتصفّيح هو تحويل سبائك الفضة إلى صفائح مسطحة تأخذ السمك المرغوب فيه بغية تقطيعها للحصول على الهيئة المطلوبة... وبهذه التقنية تصنع الدلال والفناجين والطوس والأواني وعدد الحلاقة والصواني وعلب السجائر والسيوف والخناجر وغيرها ، ويتم ذلك بطرق صفيحة الفضة يدويًا بشكل متناسق على سندان حديدي حتى الوصول إلى الشكل المطلوب.

وتسخين الفضة يعد أمرًا ضروريًا لتلافي التشقق الذي قد يحصل للصفحة ، وعلى الصائغ معرفة درجة الحرارة اللازمة للتسخين ، فلا يتجاوزها كيلا تنصهر الفضة ، إن عملية التصفّيح (الجمع) عملية مرهقة ومعقدة وتحتاج إلى زمن طويل ، فيختص بها نفر من الصاغة ، ويستعين الجمّاع في عمله لتجسيم المصوغة بأنواع متعددة ومختلفة من السنادين والمطارق والقوالب.

وبعد أن ينتهي الجمّاع من بناء النموذج تأتي عملية (البرد) التي تسبق النقش والحفر ، ويقوم النقاش برسم اللوحة ونقشها وحفرها على قطعة الفضة باستخدام (أقلام) حديدية مثلثة ، بعد إسنادها إما على إحدى ركبتيه أو على مسند خشبي خاص يسمى (الغزال).

وبعد الحفر والنقش توشح اللوحة بالميّنا السوداء وهي عملية ملء الفراغات الناجمة عن الحفر والحز بمسحوق هو خليط من الفضة والنحاس والرصاص

١- الصائغ في السومرية : كو ديم، وفي البابلية الآرامية المندائية قنّاي كسبا : صائغ الفضة وفي الفدائية تستخدم كلمة خشلاي أو هشلاي من خشل أو هشل بمعنى مصاغ أي مخشلات، والهاشل : هو الصائغ.

والكبريت بنسب مدروسة ، ومن ثم تعرض القطعة لحرارة معينة تذيب هذا الخليط الذي يصبح فيما بعد وحدة متكاملة ذات جمالية وإبداع مميز ، ثم تخضع القطعة الفضية الموشحة بالمينا إلى عملية برد دقيقة بمبارد خاصة ، ثم بورق الصنفرة (كاغد سمبادة) إلى أن تظهر معالم اللوحة كاملة ، ثم تصقل يدويًا بمواد صقل خاصة إلى أن تصبح لماعة تأخذ بالأبصار .

استخدم هذا النمط الجمالي الفنانون ومهرة الصناع في العصرين الساساني والبيزنطي ، وامتد الأخذ بتلك التقاليد الصياغية عبر أوروبا في العصور الوسطى ، وبالرغم من العزوف عنها في أوروبا في عصور لاحقة إلا أنها ظهرت في مناطق أسيوية امتدت من آسيا الصغرى وتوغلت لتبلغ مناطق في جنوب شرقي آسيا .

وبعد اجتياح المغول للعالم الإسلامي هاجر الصناع المهرة من المدن العراقية والإيرانية إلى بقاع مختلفة أخصها الأناضول والقوقاز وآسيا الوسطى ، حيث استمر الأخذ بتلك التقاليد وتوارثها الفنانون جيلاً عن آخر ، بحيث وجدت أشكال متشابهة تبلغ حد التطابق لهذه التقنية في القطع المنفذة في تركيا والقوقاز والعراق وإيران ، إلا أن أشكال النقوش وأنماطها تختلف باختلاف تلك المناطق ، فالتحف العراقية المندائية المطعمة بالمينا السوداء مثلاً تتميز برسم المناظر الطبيعية أو أجزاء منها ، كالنخيل والسفن الشراعية والزوارق والجمال والصحراء ، أو مآثر من التراث كالجوامع والآثار القديمة كأيوان كسرى وأسد بابل والتي تعكس براعة الصائغ المندائي في ابتكار العلاقة المتبادلة بين اللونين الفضي والأسود بين المساحة المليئة والفارغة .

لقد وصل هذا الفن الجميل في العراق ذروته على أيدي الصاغة المندائيين في الفترة ما بين الحربين الأولى والثانية ، فأبدعوا في تطعيم الفضة بالمينا السوداء واشتهر بينهم الصائغ زهرون ملا خضر ونفر من عائلته ، مثل الصائغ المشهور حسني زهرون الذي أبدع في رسم صور (البورتريت) للأشخاص ،

كما برع آخرون في هذا المجال ؛ منهم عباس عمارة والشيخ عنيسي الفياض (الصائغ الخاص للملك غازي)، و خليل مال الله (أصبح صائغ البلاط في زمن الملك فيصل الثاني وما تلاه من عهود) ، وياسر صكر الحيدر وجاني سهر وأحمد مجيد وصبري وعزيز عودة، وجبار خضر الخميسي وأسمر زهرون، وكثيرون غيرهم.

لقد كان المندائيون وما زالوا الصاغة الوحيديين القادرين على تنفيذ هدايا الدولة العراقية ، التي تُقَدَّم لملوك ورؤساء الدول الأخرى ، كما قاموا ببراعتهم المعهودة بكسوة معظم قباب وأبواب وجدران المراقد المقدسة في العراق بالذهب والفضة.

لقد اهتمت معظم الدول بالصياغة قديماً وحديثاً، فعلى سبيل المثال أولت الدولة العثمانية اهتماماً كبيراً بهذه الحرفة النبيلة ، حيث قام السلطان سليمان القانوني بإنشاء دار كبيرة للصياغة تحوي مشاغل عديدة، وكان للصاغة في عهده عيد موسمي يفتتحه السلطان سليمان بحضور عليّة القوم حيث يتقدم كبار الصاغة في حفل ضخم لتقبيل يد السلطان وتقديم له الهدايا من المصوغات الذهبية.

كما نجد أن في أكثر الدول الأوروبية حالياً معاهد وكليات متخصصة (ومنها جامعة كيلدهول في لندن) ، لتعليم مهنة الصياغة بكافة أنواعها وفق الأساليب العلمية، وتمنح الخريجين شهادات عالية توازي الماجستير والدكتوراة، ولكن ما يؤسف له أن هذا الفن منذ القدم في طريقه للاندثار ، إن لم يكن قد اندثر فعلاً، وذلك لعدم قيام المندائيين بتأسيس مدارس أو مشاغل يتعلم فيها أبناءهم هذه المهنة العظيمة ، كما أن الدولة العراقية لم تول اهتماماً بهذا النوع من الفنون فتدخله في المناهج التدريسية لأكاديمية الفنون الجميلة مثلاً ، باعتباره ركناً أساسياً من أركان التراث العراقي القديم والمعاصر.

أدوات الصياغة عند الصابئة المندائيين بداية ووسط القرن الماضي :

تعد الصياغة - كما ذكر بشير عامر جندال - مهنة قديمة قدم الحضارة ، فقد ورد ذكر كلمة الصائغ تحت اسم (سيجوك) في الكتابات السومرية... وقد ارتبطت مهنة الصياغة بالمعدنين الثمينين ، الذهب والفضة ، ومعدن الكنزوم الزكي هو مزيج من الذهب والفضة والتي شاع استعمالها في عصر فجر السلالات حوالي ٣٠٠ ق.م ، جاء أقدم ذكر للمشاغل الصناعية منذ عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٢ - ٢٠٠٦ ق.م) وكانت مرتبطة بالمعبد ، ومنها مشغل الصائغ والجوهري.

لقد برع الصاغة العراقيون القدماء بصناعة الحلي وأدوات الزينة من الذهب والفضة التي تملأ المتاحف وأروعاها ما وصلنا من المقبرة الملكية في أور ، وفي تاريخنا المعاصر ومنذ منتصف القرن العشرين ؛ ارتبطت مهنة الصياغة بأبناء الصابئة المندائيين في العراق ، بحيث صارت كلمة الصائغ مرادفة لكلمة الصابئي ، وكلمة الصابئي مرادفة لكلمة الصائغ ، لتخصص معظم أبناء الطائفة بالصياغة ، بحيث طغت على باقي المهن الأخرى لأبناء الطائفة.

والصياغة مهنة تحتاج إلى الدقة في العمل ، والصبر والأناة والكثير من المران والممارسة ، ولكي لا ينسى الجيل الحالي والأجيال اللاحقة من أبناء الطائفة كيف كان آباؤهم وأجدادهم يصارعون المعادن بأيديهم وسط لهيب النار ودخان الفحم ، والمعادن والمواد الكيماوية وضوضاء ضرب المطارق يتصببون عرقاً ، دون إنارة ملائمة أو تكييف هواء ، ليصنعوا بأناملهم الخشنة أدق المصوغات وأجملها ، ويحفروا عليها صوراً مأخوذة من حضارتنا كأسد بابل وطاق كسرى وملوية سامراء ، ومن مناظر زالت عن الأنظار في الوقت الحاضر ، كالسفن الشراعية أو المأخوذة من رمز العراق القديم والحديث ، فنخلة العراق الباسقة ، أو يحفروا اسماً أو رمزاً.

وقد كان الصائغ يستخدم قبل دخول الآلة الحديثة ؛ أدوات بسيطة تساعده في عمله ، وحسب نوع الحاجة التي يقوم بصنعها ، ومن هذه الأدوات :

١- الأصبغة : وهي شيش من الحديد يبلغ طوله حوالي ٤٠ سم ، يكون أحد طرفيه رفيعاً ثم تأخذ بالسلك التدريجي إلى الطرف الآخر ، وتستخدم لقياس الخواتم وحلقات الزواج أو لتعديلها.

٢- البراشنجة : وهي الماسكة التي يمسك بها الصائغ المواد الحارة أو لسحب السلك المعدني وهي على أنواع عدة ، منها الكبيرة وتسمى (اللكاطة) ومنها الصغيرة ذات الفكين الرفيعين وتسمى (الجلابتين) الكلابتين.

٣- البودقة : وهي إناء مقعر يشبه الفنجان مصنوع من حجر الكرافيت المقاوم للحرارة العالية ، وتستخدم البودقة لصهر المعادن ، وتكون بأحجام مختلفة ، كما يصنع بعضها من الحديد ، وتستخدم لسبك الفضة والذهب.

٤- البوري : وهو أنبوب معدني يبلغ طوله حوالي نصف ياردة ، ويبلغ قطر أحد طرفيه حوالي ١ سم ، وهو الطرف الذي تنفخ فيه الهواء ويكون معقوف ودقيق من الطرف الآخر ، ويستخدم بعد النفخ فيه لتوجيه النار الصادرة من السراج نحو الجهة التي يريد الصائغ ، ويستخدم بشكل خاص عند لحام المعادن.

٥- الخشتك : وهو مكعب معدني يبلغ طول ضلعه حوالي ٥ سم ، في كل وجه من وجوهه عدة حفر بشكل نصف كروي مختلفة الأحجام ، ويستخدم كقالب لصناعة القباب أو الكرات من الذهب والفضة بعد ضربها بالهباش الذي سيمر ذكره لاحقاً.

٦- الريزك : وهو قالب حديدي يبلغ طوله حوالي ٣٠ سم ، وقد يكون له حقل واحد أو حقلان مختلفان في العرض ، يستخدم لصب صهير المعدن فيه ليتخذ الشكل الطولي ، بعد تعريضه للحرارة وطلائه بالشمع لسهولة عزل المعادن عن القالب بعد تجميدها.

٧- السراج : وهو إناء معدني يتصل به أنبوب من المعدن نفسه ، يوضع فيه نפט وفتيلة من القماش تمتد من الأنبوب إلى جوف الإناء ، وتشعل النار إلى الطرف الخارجي من الفتيلة وتستخدم النار المنبعثة منه للحام المعادن بواسطة البوري الذي مر ذكره.

٨- السندان : وهو كتلة من الحديد الصلب يبلغ ارتفاعه حوالي ٢٥ سم ، ذو طرفين مدبيين يستخدم لطرق المعادن عليه بواسطة المطرقة بعد تثبيته على الفرشة بشكل محكم.

٩- الشفت : وهو ملقط صغير ذو ذراعين وطرفين مدبيين يستخدم لمسك المعادن عند لحامها أو عند جليها.

١٠- الطبعة : وهي مسطرة حديدية يبلغ طولها ٢٠ سم ، وسمكها حوالي ١ سم ، مقطوعة عرضياً بأخاديد تحمل عدة نقشات ، تظهر على السلك الذهبي أو الفضي بعد وضعه على الأخدود المعين وضربه بالمطرقة ، ويستخدم لإظهار النقشات على الخواتم أو المعاضد.

١١- حديدة الجر : وهي مسطرة حديدية يبلغ طولها ٢٥ سم وسمكها ١ سم ، تضم عدة صنوف من الثقوب بأقطار مختلفة تستخدم للحصول على سلك معدني حسب الحاجة بعد وضعه بأحد الثقوب.

البحث الرابع

الجمعيات المندائية في بلدان المهجر

تأسس عدد كبير من الجمعيات المندائية في بلدان المهجر ، قام بتأسيسها أبناء الصابئة المندائيين لتعتني بشؤون المندائيين وتساعدهم وتلم شملهم ، وتعرف بعضهم على بعض .

وقد نجحت كثير من الجمعيات في مسعاها ؛ خاصة التي قادها رجال إداريون مخلصين من وجهاء الطائفة ، فحاليًا مثلاً في السويد بحدود ثمان جمعيات ، وفي هولندا عدد من الجمعيات تجمعها الفيدرالية المندائية .

إن هذه الجمعيات جميعها معترف بها من قبل الدولة التي هي فيها ، لأنها تطبق القوانين والأنظمة لتلك الدولة ، والجمعيات بشكل عام تحتاج إلى تمويل مادي ، والدول الأوروبية لا تشجع الجمعيات الدينية بشكل خاص ، ولهذا تعتمد هذه الجمعيات على التمويل الذاتي من الاشتراكات والتبرعات ، وهذا لا يكفي ولا يسد الحاجة ، فمثلاً في السويد كلها التي فيها جالية تقدر بعشرة آلاف مندائي لا يوجد غير مندي (معبد) واحد في مدينة (ساند فيكن) ، ولا يوجد مندي مثلاً في ستوكهولم ، ومعظم الجمعيات ليس لها مقرات ثابتة ، وإنما بنايات مؤقتة بشكل دائم أو بشكل وقتي ، وهذا دون الطموح .

وهناك مراكز ثقافية في هولندا والسويد ناجحة ولها روادها ومنسبوها وأعضاؤها وأصدقائها ، وأنا أعجبت بالجمعية الثقافية في مدينة لوند السويدية ، وبحسن تنظيمها للذكرى المئوية للعالم عبد الجبار عبد الله ، ومن المراكز الثقافية المهمة المركز الثقافي المندائي في أستراليا الذي يشرف عليه نخبة مثقفة من رجال الدين ووجهاء من الصابئة المندائيين وله بحوث ومقالات ومناظرات كثيرة .

كذلك توجد جمعية ثقافية في أربيل لها إصدارتها مدعومة من حكومة كردستان تعمل جنباً إلى جنب مع مجلس شؤون أربيل ، وهناك جمعية في أمريكا في مدينة دترويت ، وأخرى في إنجلترا في لندن ، وثالثة في ألمانيا مدينة نوربرغ ، ورابعة في الدنمارك وخامسة في نيوزلندا ، وكلها جمعيات فعالة أو شبه فعالة.

وأنا شخصياً مهتم بالجمعية المندائية في مدينة إسكلستونا (Eskilstuna) ونشاطها وفعاليتها ، وفيها مدرسة لتعليم اللغة المندائية ، ولديها طموحات كثيرة وكبيرة ، مازالت كافة الجمعيات بحاجة إلى دعم وتمويل ، وكل هذه الجمعيات تعمل تحت خيمة اتحاد الجمعيات المندائية الذي يوجهها ويتابعها ، وكل العاملين بالجمعيات متطوعين يعملون لخدمة أبناء الطائفة لوجه الله تعالى.

وهناك لعدد من الجمعيات إصدارات ثقافية مهمة تدار من قبل مثقفين أكفاء ، تصدر شهرياً أو فصلياً ، وفيها معلومات ثقافية ودينية وفكرية رصينة ، وتحتوي كم من البحوث والمقالات المهمة ، كذلك يوجد موقع مهم على الإنترنت ، بل قل عدة مواقع تعطيك معلومات جيدة عن الصابئة المندائيين ، أهمها الموقع المندائي على الياهو جروب ، والذي يسجل يومياً مئات الرسائل.

بين الحين والحين وفي المناسبات الدينية والوطنية والأعياد تقام حفلات في هذه الجمعيات لغرض الترفيه عن الناس ، وكذلك الاستفادة من المردود المادي ، كذلك تقام الأعراس والأفراح وأحياناً كثيرة الفواتح ومجالس العزاء.

حيث يتجمع الناس ويقرأ رجل الدين شيئاً من الكتاب المقدس وشيئاً عن سيرة المتوفى ، ويُقَمَّ التمر ولب الجوز والزبيب والشاي والقهوة للجميع ، وقد أقيمت أمسيات منظمة ومجلس فاتحة على الفقيدة ناجية غافل المراني إكراماً لها لما قدمته من خدمات ثقافية خلال حياتها لدينها وطائفتها... وهنا في السويد وكذلك ما شاهدته في هولندا ؛ الجمعيات تقيم مجالس عزاء لوجهاء الطائفة الراحلين عنا تمجيذاً لذكراهم العطرة ، وعرفاناً بما قدموه من خدمات.

ومن أهم الجمعيات في العالم ، وخاصة أمريكا وأستراليا ونيوزلندا والاتحاد الأوروبي هي:

١- جمعيات عدة في أستراليا.

٢- جمعية في ديترويت في أمريكا.

٣- جمعية لندن.

٤- جمعيات في ألمانيا.

٥- جمعية في النرويج.

٦- جمعية في الدنمارك.

٧- جمعيات في السويد.

٨- جمعيات في هولندا.

٩- جمعية في فنلندا.

١٠- جمعية في نيوزلندا.

وهناك جمعيات أخرى منتشرة في العالم إضافة للمجالس والتشكيلات الموجودة في الوطن الأم العراق.

الذكرى ٣٩ لتأسيس نادي التعارف في البصرة :

بعد أن تمّ افتتاح نادي التعارف في بغداد - كما ذكر نبيل فرج عريبي ومانع السعودي - بدأت الأخبار تصل إلى البصرة فتحرّكت مجموعة من المندائيين وبالاتفاق مع الهيئة الإدارية لنادي بغداد لتأسيس أول فرع للنادي في مدينة البصرة، فبدأت الاتصالات والمناقشات والتوعية، فوجدنا أن هناك رغبة كبيرة بتأسيس النادي، فتم اختيار عدد من المتحمسين لذلك وقدمت الأسماء لمحافظة البصرة، وبعد فترة جاءت الموافقة الرسمية في يوم ٢٦-٩-١٩٧٣ لتأسيس أول نادي اجتماعي للمندائيين في البصرة، وسمي بنادي التعارف في البصرة، حيث يعتبر فرعاً من نادي التعارف في بغداد الذي تأسس قبله بعام تقريباً.

لقد كانت تلك السنوات رائعة وجميلة، حيث كان يقع المقر الأول على نهر الطويسة والموقع الآخر على شط العرب، ومقابل نهر الخورة لقد عملت في هذا النادي شخصيات كثيرة ومعروفة من المندائيين، بحيث أصبح المكان الأول والأخير لالتقاء أبناء الطائفة وأصدقائهم لأنه تميز بنشاطه الثقافي والاجتماعي والفني، محاضرات وأمسيات شعرية ومعارض فنية وبعض العروض المسرحية وسفرات إلى الاثل في فصل الربيع، حيث المسابقات الرياضية والألعاب المسلية، سفرات لا تنسى.

فالسيارات الخاصة ترافق الباصات الكبيرة والتي لا يقل عددها عن سبعة باصات في كل سفرة، والتي تنطلق سويّاً من محلة الطويسة قرب المندي، وعلى شكل رتل باتجاه منطقة الاثل الجميلة، وكلها تحمل اسم النادي، وكانت اللجنة الاجتماعية تنقل الطعام والشراب دون أي مشكلة تذكر...

أما الحفلات فكان أجملها الحفل الذي يقام سنوياً بمناسبة ذكرى التأسيس، فقد غنى في النادي سعدون جابر وسيتا وقحطان العطار وحسين نعمة، حيث سافرت إلى الناصرية خصيصاً للتعاهد معه وغيرهم من فناني البصرة، بالإضافة إلى تشكيل فرقة للإنشاد من أبناء الأعضاء، أما الفنان المبدع

والصديق العزيز فؤاد سالم فكان لحفلاته طعمًا خاصًا لأنه كان يغني بحب كبير ورغبة شديدة لإخوانه المندائيين، رحمه الله.

ولابد لنا أن نذكر جهود إخواننا من بغداد الذين ساعدونا ماديًا ومعنويًا، فقد حضر للنادي المرحوم نعيم بدوي أكثر من مرة، وكانت له محاضرة قيمة حول المندائية، وكذلك حضر الأستاذ عبد الرزاق عبد الواحد وأمين السر من عائلة المرحوم درباش وعدد من الصاغة كالمرحوم خليل مال الله، والأخ فؤاد سالم النفاش، ومجموعة أخرى لا أتذكر الأسماء، فمعذرة من الأحياء والرحمة لأرواح الراحلين.



نكتفي بهذا القدر وننشر صورة لأعضاء الهيئة المؤسسة وهم من اليمين الخط الأمامي: المهندس نصري السبتي، عبد العالي راهي المعناوي، وقد كان رئيسًا للهيئة، المرحوم هادي خفي السبتي، الدكتور راضي رحمه الله.. الخط الخلفي، من اليمين كل من السيد وفيق مذكور الخميسي، والسيد غريب يوسف جايد، والسيد مانع نزال السعودي، والسيد شاكر عبد الرحيم المهنا، والمرحوم سالم عبد الواحد يوسف أخي الغالي الراحل الشهيد أبو أماليد شقيق المؤلف بشير عبد الواحد يوسف.

وهناك حقيقة لا بد من ذكرها؛ هي أن الأخ صدام الهلالي كان من الشخصيات التي عملت بجد من أجل تأسيس النادي ولكن ومع الأسف موافقة المحافظة جاءت خالية من اسمه الكريم، ولذلك تمّ اضطرار اختيار الشخص البديل.

خمسة وأربعون عاماً مرّت على التأسيس، وأصبح أطفال النادي آباءً وبعضهم أجداداً، ندعو لهم بالصحة والعافية، وكذلك ندعوهم للعمل في مؤسسات الطائفة وهي منتشرة في كل مكان ليحلوا مكاننا لأننا قد هرمنا، هرمنا... هرمنا... هرمنا، إلى اللقاء فهناك الكثير من الذكريات.



البحث الخامس

الصابئة المندائيون وسر البقاء

كثير من الأقوام والديانات عبر التاريخ ظهرت، وبعد ربح من الزمن اختفت ولم يبقَ منها إلا الذكر... وديمومة أي دين أو أي عقيدة هناك أسرار لبقاء هذه العقيدة خلال هذه الحقب التاريخية الطويلة، وأنا هنا نسأل: أين البابليون؟ أين الآشوريون؟ أين الفراعنة؟ أين الرومان؟، حضارات سادت ثم بادت، رحم الله شاعرنا معروف الرصافي حين أنشد قائلاً:

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرمات

فإذا كانت العقيدة ربانية منزلة على قوم أمناء صادقين يؤمنون بها إيماناً عميقاً، أناس مسالمين يحبون كل الناس ويلتزمون بوصايا خالقهم ويحبون لغيرهم ما يحبون لأنفسهم، يبارك الحي العظيم بهم وبزريتهم ويبقيهم على مر الأزمان والعصور لا زوال لهم مهما اشتدت الخطوب عليهم، لإيمانهم وتمسكهم بالناصورات وبتعاليم الحي العظيم، رب الناس أجمعين.

إن المعتقدات والعقائد الدينية صنعت التاريخ الإنساني عبر الأزمنة والعصور، وهناك أمم تبنت عقائد ازدهرت بها هذه الأمم، وأمم أخرى بسبب عقائدها المادية اندثرت، العقائد وجدت منذ وجود الإنسان أي من زمن آدم وحواء رأسا السلالة البشرية، كانت العقيدة موجودة وكان هناك وجود للإيمان، وبسبب تكاثر البشر وانتشارهم وتعدد الأنبياء والرسل، تعددت هذه العقائد، وتبقى العقائد الروحانية عميقة الجذور.

الطائفة المندائية سر البقاء :

الطائفة المندائية من أقدم الطوائف الدينية الموحدة؛ وخلال تاريخها كما أكد مؤيد مكلف في مقال له؛ تعرّض أبنائها لشتى أنواع الاضطهادات والمضايقات وانصبت عليهم أنواع المِحَن ، فتشتتوا وانحسروا عن أماكن عديدة كانوا يسكنونها، واضطروا للهجرة مرارًا طلبًا للأمن والسلامة، واستقر بهم المقام أخيرًا في بطائح جنوب العراق وعربستان.

وكان المندائيون قد اتخذوا لهم لغة دينية هي اللغة المندائية المتفرعة عن الآرامية الشرقية، مما ساعدهم على التكتّم وتدوين كتبهم الدينية وتعاليمهم بها، ونظرًا لحبهم للسلام والحرية فقد ابتعدوا عن الحروب والنزاعات السياسية وعاشوا على شكل مجموعات قرب مصبات الأنهار وعلى شواطئها، منصرفين لإقامة شعائهم الدينية...

ولقد ظهرت بعد المندائية وعاصرتها أديان عديدة، منها ما اندثرت وزالت، ومنها ما تزال حية تؤمن بها شعوب الأرض ، ولقد كان الدين المندائي تبشيريًا منذ ظهوره، ثم أصبح مغلقًا على المندائيين بسبب عمليات التكتيل والاضطهاد التي مورست ضدهم ، فأصبحوا جراء ذلك أقلية صغيرة محصورة ضمن مناطق معينة ، ولقد تناول المؤرخون المعاصرون لهم من الطوائف الأخرى أمور دينهم بسطحية وبدون تعمق أو دراسة ميدانية شاملة، وبتشويه وتحامل في بعض الأحيان...

ولكن السلطات الإسلامية ومنذ البداية عاملتهم معاملة أهل الذمة، وبهذا عاشوا بأمن وحرية وسلام في ظل الدولة العربية الإسلامية طيلة قرون عديدة، ثم طالهم من الأذى ما طال العرب والمسلمين جميعًا على يد التتر عام ١٢٥٨م، حين اجتاحتهم بغداد ودمروها، فهاموا على وجوههم فارين منها بعد سقوطها، وتشنت الناجون في كل مكان...

وظن الباحثون أن هذه الطائفة قد اندثرت وزالت كما زالت أديان قبلها وطوائف ثم تبين في العصور الحديثة، وبعد احتكاك الرحالة الغربيين بهم في البصرة وغيرها من مناطق جنوب العراق وإيران؛ أنهم لازالوا يعيشون ضمن مجموعات دينية عديدة، فكتبوا عنهم وشاع خبرهم لدى المهتمين بتواريخ الأديان فزارهم عدد من المستشرقين في أوطانهم، واحتكوا بهم وبرجال دينهم، واطلعوا على مدوناتهم، وقارنوا دينهم ببقية الأديان، فتبينوا أنهم طائفة دينية قديمة مستقلة بدينها وشؤونها وتقاليدها، ثم ألفوا عنهم بحثاً عديدة كما اهتم بهم في العصر الحديث كتاب عرب، وكانوا منصفين في التحدث عنهم، ثم برز من أبناء الطائفة باحثون وكتاب أوضحوا الكثير من المزامم المغرضة التي ألصقت بهم، كما تطرقوا إلى أسباب بقائهم وصمودهم رغم عوادي الزمن.

ومن هؤلاء الكتاب ابن الطائفة المرحوم غضبان رومي، الذي أورد الأسباب التي رأى أنها قد ساعدت على بقائهم وديمومتهم، فقال: (إن سبب بقاء المندائيين والدين المندائي يعود إلى أنهم قد عاشوا في هذه الأوطان منذ أقدم الأزمنة، متمتعين بكامل حريتهم بين إخوتهم العرب، وكذلك بسبب صلة أدبياتهم وكتبهم الدينية ولغتهم وأبجديتهم باللغات السامية الحية، وبسبب صلة القربى بين النبيين يحيى بن زكريا والسيد المسيح عليهما السلام، وكذلك بسبب ورود اسمهم في القرآن الكريم ضمن المؤمنين الموحدين، ولأنهم مارسوا طيلة تلك الحقب حرفاً يدوية يحتاجها مجاوروهم، وكذلك بسبب وحدانية دينهم وطيبة أخلاقهم، وملائمة البيئة والمناخ لطقوسهم وغذائهم).

هذا ما أورده الأستاذ غضبان رومي، ولكننا ارتأينا التوسع بالموضوع، والتحدث عنه بشمولية أكبر، وإيراد أسباب أخرى لبقائهم منها:

١- إن المندائيين هم من أبناء النور، المناقض لعالم الظلام، بكل شروره وآثامه، فهم متمسكون بذكر الله، وبكل الفضائل، وأن ديانتهم راسخة بالحق بأمر الحي الأزلي، وكل شيء يترسخ بالحق يظل راسخاً لا يزول.

٢- أن الحي الأزلي هو الذي حماهم بحكمته ، فكلما اشتدت بهم الأزمات وقسا عليهم الزمان ؛ هياً الله لهم أحد أنبيائهم ، فجمع شتاتهم وجدد عزيمتهم ومنحهم القوة والثبات ، كما فعل سبحانه فأرسل إليهم آخر أنبيائهم يحيى بن زكريا (ع) ، فأحيا دينهم وقوى عزائمهم وخلصهم من عبودية أعدائهم.

٣- إن المندائيين هم السابقون للإيمان والوحدانية ، فلا عجب أن تترسخ عقيدتهم ولم تؤثر عليهم كل الدعوات الأخرى.

٤- إن سبب بقائهم يعود إلى قوة مبادئهم الدينية وصوابها وشدة تمسكهم بها وارتباطها بضمائرهم ووجدانهم ، ولهذا استماتوا في التعلق بها والدفاع عنها ، باذلين من أجلها أرواحهم وأموالهم.

٥- بسبب الملاذ الآمن الذي عاشوا فيه في مناطق البطائح ذات الموقع الجغرافي المتميز البعيد عن سطوة أعدائهم.

٦- بسبب تمسكهم بمبادئ السلام وحب الإنسانية وابتعادهم عن كافة الصراعات التي حدثت لأنهم لم يسعوا إلى تملك الأراضي أو الاستحواذ على أملاك الغير ، وبهذا تجنبوا الاحتكاك مع غيرهم.

٧- بسبب ميلهم للرحمة وحب العلم ، فتراهم في كل الظروف رحماء ، ينفرون من العنف والأذى وسفك الدم ، أما حبهم للعلم والمعرفة فقد جعلهم يفتنون أنفسهم والآخرين ، وبهاتين الصفتين أوجدوا أساساً للحضارة والتقدم.

٨- إن قلة عدد المندائيين أدى إلى تراصهم وتماسكهم ، مما ولد عندهم فيضاً من الحب والمودة والتعاطف ، لأنهم أحسوا أن مصيرهم واحد ، ولهذا تعمق الإيمان في نفوسهم.

٩- إن ذكاء المندائيين وحسن تصرفهم أكسبهم القدرة على التكيف مع محيطهم والتأقلم مع مختلف الأقوام التي جاؤوها ، مما جعل هؤلاء يولونهم تقية ومحبتهم واحترامهم.

١٠- كان المندائيون وبسبب تحدثهم جميعاً بلغتهم الدينية الخاصة، والتي كانوا على دراية وإطلاع على كافة نصوصها ومفرداتها؛ يفهمون دينهم ويفسرون ما ورد في كتبهم الدينية، ولهذا حافظوا على تلك الأفكار وتمسكوا بها.

١١- بسبب بسالة وثبات رجال دينهم طيلة هذه العصور، ومحافظتهم على جوهر الدين ونقاوته من كل انحراف أو ارتكاب أخطاء، كما قاموا باستنساخ الكتب الدينية بأيديهم بدقة وبدون تحريف، وقدموا حياتهم أحياناً فداءً لدينهم وطائفتهم وعقيدتهم، فهذا الاستبسال حافظ على الروح المندائية الصادقة.

١٢- لم يكن للمندائيين طيلة تاريخهم دولٌ بالمعنى المعروف بل عاشوا دائماً شبه منعزلين أو في ظل حُكّام أقوياء أمناء، أو في ظل دول قوية عادلة ترعى مصالح الشعوب وتحترم أديانها.

١٣- المحافظة على نقاوة الدم والسلالات، ويتمثل ذلك بعدم تزواجهم مع الغرباء واقتصارهم على أبناء ملتهم، مما أدى إلى محافظتهم على سماتهم المميزة طيلة تلك القرون.

١٤- احترافهم لمهن خدمية تخص المجتمع الزراعي الذي عاشوا فيه، فكان هذا المجتمع بحاجة ماسة إلى هذه الخدمات إضافة لما لمسه فيهم من إخلاص وإتقان وصدق في المعاملة.

١٥- إن أقوى عنصرين صانا المندائيين والديانة المندائية هما الإيمان العميق والمعرفة الشاملة للحياة، وهما السلاحان القويان لدحر قوى الشر، فشعارهم كان (يا آهي اد كشتا زينخون ناصروثا)، أي (يا أخوة الحق سلاحكم الإيمان والمعرفة).

لكل هذه الأسباب أولى الحي الأزلي هذه الشريحة من الناس عنايته الإلهية، فصانها وحفظها بقدرته، كما منحها خصائص مميزة، استطاعت بها مسaire كل الظروف والأحوال، والتصرف بحكمة من وعي بالحقيقة وتذرع بالصبر وتشبث بالحياة حتى نجح في صيانة دينه وتراثه.

الأخلاق والقيم المندائية :

كتب الأستاذ صبحي مبارك مقالاً قيماً عن الأخلاق والقيم المندائية التي كانت سبباً أساسياً لديمومة طائفة الصابئة المندائيين ، فقال إنه من أسباب ديمومة طائفة الصابئة المندائيين تمسكها بدينها وقيمها وأخلاقها المندائية المستمدة من تراثها وتاريخها العريق ، والذي جعلها في نظر أخوتنا أبناء الطوائف الأخرى مثار احترام وحب وتسامح.

لقد كانت الطائفة ومازالت تعتر بوطنها الأم العراق وتدافع عنه متشربة بالمبادئ الوطنية ، وكانت تقف مع جموع الشعب بحزم ضد الغزاة المعتدين رغم الإغراءات كما هو واضح من خلال الوثائق ، المندائيون جزء لا يتجزأ من الشعب العراقي ، يعيشون مع إخوانهم أبناء الشعب بسلام ووثام ، يمارسون طقوسهم الدينية بكل حرية ، وعندما تمعن النظر في تاريخ هذه الطائفة تجد أبناءها منحدرين من أناس بسطاء متواضعين ، جاءوا من القرى والأرياف ، والمدن الصغيرة ، حيث كانوا يمارسون مهن بسيطة كالحدادة والنجارة... الخ.

كذلك مارسوا التجارة بأسلوبها البسيط وباشروا وتعلموا الصياغة من أبوابها الصغيرة ، وقد بدأوا بصياغة الفضة مع المينا وتصليح المصوغات الفضية والذهبية ، وكان البعض يتجول في الأقضية والنواحي والقرى حاملاً عدته لتصليح ما يعرضه الزبائن.

لقد كانت حياتهم الاقتصادية بسيطة جعلتهم يعيشون حد الكفاف ، الأمر الذي جعل البعض مضطراً إلى السفر والعمل خارج الوطن في مصر ، إيران ، الهند... الخ.

وكانوا يعيشون ضمن تجمعات سكانية يربطهم الحب والاحترام ، ونتيجة لتعاليم الدين وتربية آبائهم وأجدادهم ، كانوا أناساً متواضعين ، معروف بأنهم أناس طيبون مؤمنون بالله الحي الأزلي ، متعاونون ومتكاتفون يساعدون بعضهم البعض ، ويعقدون المجالس ويشاركون إخوتهم في المجتمع السراء والضراء.

ولكونهم يحبون العلم والمعرفة، فقد زجوا بأبنائهم في المدارس والمعاهد العالية منذ تأسيسها، وتخرج فيها المعلم والمدرس والمهندس والطبيب والضابط ونشأ منهم العالم والأديب والشاعر والكاتب...

لقد كانوا دائماً وفي مجال مواقعهم الوظيفية مخلصين في عملهم يشار إليهم بأنهم مثال الإخلاص والنزاهة، وهذا نابع من أخلاقهم وقيمهم، وبعد التطور الاقتصادي والذي شملهم أيضاً أخذ البعض منهم يهاجر إلى المدن الكبرى، ومارسوا مهنة الصياغة التي اعتبرت سمة من سماتهم، إلا أن هذه المهنة ورغم نواهي تعاليم الدين دفعت البعض إلى الابتعاد عن القيم والأخلاق المندائية، حيث تطبعوا بعبادات وأخلاق غريبة.

فقد كان حب المندائي لأخيه المندائي نابغاً من أصالته وعادات أهله، وكان المندائي لا يتجاوز على أخيه ولا يرميه في التهلكة، المندائي مفعم بالحنان والتسامح والتواضع لا يتعالى على الآخرين من أبناء طائفته، المندائي يفرح لأنه جاء من طائفة بسيطة متواضعة تحب الخير للجميع، ولها مساهمات كثيرة وأصدقاء في كل مكان.

إلا أن البعض وهو قليل؛ نسي تاريخه وتاريخ أجداده، نسي كيف كانوا أهله، والبعض عندما يرى وهو مخطئ أنه وبسبب ثروته قد أصبح فوق أبناء الطائفة ينظر إليهم من الأعلى، ونسي أيضاً أن الطائفة أرضعته القيم والأخلاق المندائية، وعلمته الابتعاد عن المحارم، والأفعال التي يرفضها المجتمع، الابتعاد عن الكره والحقد وعن العداوات الشخصية، فالمندائي هو ذلك الإنسان الطيب الذي يرفع حقوق الآخرين ولا يحب الاعتداء، وهو ملتزم دائماً بأخلاقه ومثله العليا لأنها صفات الخيرين من الناس.

مفهوم الصدق والإخلاص في العقيدة المندائية :

{رأس صدقك لا تفسد أقوالك ولا تعجب الكذب والخداع ، رأس صلاحك أن تطلع نفسك وتقبل أقوال الحكماء}... كنزاً رباً تعاليم يحيى...

تمنح العقيدة المندائية الصدق والإخلاص أسمى المراتب الدينية ، فالمختارون الصالحون هم باهرو الصدق ، وهم أعلى درجة من الناصورائين ، ومن أقوال نبينا يحيى مبارك اسمه للناصرائين (إذا امتلكت القدرة أيها الناصورائي فكن المختار الصالح الذي اختير لكل الأعمال ، كالمالك الذي وضع التاج على رأسه وأشعل حرباً في عالم الشرور ، وبهر الشر ومريديه). كنزاً رباً- حكم يحيى وللصدق معانٍ كثيرة ، أجملها ستة ؛ وهي الصدق في القول ، والصدق في النية والإرادة ، والصدق في العزم ، والصدق في الوفاء بالعزم ، والصدق في العمل ، والصدق في تحقيق مقومات الدين كلها... فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صادق ، (فيا نفسي دعني ما يربيك إلى ما لا يربيك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة) ، فحقيقة الصدق أن تصدق في مواطن لا ينجيك منها إلا الكذب.

فمن أقوال نبينا يحيى مبارك اسمه : (المرء المتلون يكسوه الظلام ، ويغطي بحجاب أسود ينتعل الجمر ومن جانيبه الجن والشياطين ، ويبقى قابلاً في دار العقاب إلى يوم الدين ، أيها المندائيون كونوا كالمختارين الصالحين الذين يشهدون للحق العظيم ، لا تعملوا أعمالاً سيئة ولا تنحدروا إلى موطن الظلام ، ورددوا معي يا إلهي من رحماك لا تجافينا).

وأكد نبينا أيضاً على قول الحق وشهادة الحق ، فكان يحذر وينصح ويعلن ، إذ كان يقول : (انتبهوا أبنائي إذا طلبتم للشهادة ، لا تشهدوا زوراً وظلماً يدان أمام الله الذي يحاسب كل العالم بقدر أعماله وثوابه ، فكل من وضع يده وقدمه على الحقيقة وتراجع عن قول الحق يدان ويكون حسابه عسيراً ، أبنائي لا تظنوا أن العالم الذي تذهبون إليه جالساً للحساب والإخلاص ، وإنما يجلس

للحكم والتثمين العظيمة ، بحيث كل يوم يمر عليكم يخزن فيه ، وسوف يُختار من
جهر بالطيبات ليرتقي ، أما العاري فسيعلم ويدان ، ويل للفارخ الذي يقفه
خارجاً أمام بيته الحساب... دراشا اد يهيا).

أما الإخلاص فيه يتم الإيمان للمؤمنين ، فهو باب الأعمال ، فالعمل بغير
إخلاص كالجوز بلا لباب ، والجسم بلا روح وكالشجر بلا ثمر وكالغيم بلا
مطر ، والمولود بلا نسب وكالبذور بلا نبت ، فالجوز بلا لباب لا يصلح إلا
للعب الأطفال ، والجسم بلا روح لا يصلح إلا للدفن ، والشجر بلا ثمر لا يصلح
إلا للحرق ، فقد كان نبينا يحيى مبارك اسمه يضع الفأس على أصل الشجر وهو
يصرخ... كل شجرة لا تأتي بثمر جيد تقطع وتلقى في النار.

الخالص هو الصالح هو الصادق الراسخ في التقوى والكابح لجماح نفسه ، ونقي
القلب والمتحكم في الإحساس والمتقاني في عمل الخير ، هو القريب من الله ،
طوبى لمن عرف الصلاح وسعى إليه (الكنز الربا) ، فمن كان يرجو لقاء ربه
فليعمل عملاً صالحاً ، فكل عمل لا يتصف بالإخلاص للحي العظيم ملك النور
الواحد الأحد فهو مردود عليه ، فالحي العظيم لا ينظر إلى ظاهر العبد ، بل
ينظر إلى ما في قلبه من النوايا والمقاصد ، لأن الأعمال بالنيات ، والفضائل
بالمقاصد.

والحي العظيم لا يقبل العمل إلا خالصاً لوجهه تعالى ، لأن الإخلاص سر من
أسرار النور ، فنعمة أن تظهر ينابيع الحكمة من قلب المخلص على لسانه ، فيا
نفس اخلصي تخلصي ، فما من شيء شديد عليك سوى الإخلاص ، لأنه ليس لك
فيه نصيب ، لكن إخلاصك يقطع عنك كثرة الوسواس والرياء ، طوبى للمخلص
الصادق لأنه تعلم السيطرة على شهواته وغضبه حتى وإن كان في أسار الجسد
فقد جعل من المعرفة نار تلتهم الخبائث وقطع قيود الشك التي تغل القلب بسيف
الحكمة ، واستطاع فك الوثاق الذي خلفه الجهل ، وجعل الهناء الكامل يترعرع
في قلبه المطمئن ، وفي نفسه السالمة من الشهوة والمطهرة من الإساءة ، فهو لا
يكره أيّاً من الأحياء ، رحيم خال من العجب ومن حب الذات ، لا يغيره الخير

ولا الشر ، صبور قنوع ثابت في الإيمان ، سيد نفسه وصادق في الوعد ، فهو لا يتوانى في بذل الروح في سبيل الواجب . فقد سخر جسده في خدمة عقله وضى بقواه البشرية من أجل العمل المجدي ينعم بالخير إذا نضجت أعماله الصالحة ، صنع لنفسه جزيرة لا يكتسحها طوفان ، وفعل الخير يجعله مبتهجا في هذه الدنيا ، ومبتهجا في الآخرة ، إنه سعيد في الدارين يتהלل ويفرح عندما يرى نتائج أفعاله الحسنة.

الصدق سيف الله ، ما وضع على شيء إلا قطعه ، فمن يعمر باطنه بالصدق والإخلاص تجري حركاته وسكناته على حسب ما في قلبه ، فيظهر الصدق في أقواله وأعماله وأحواله ، فعليك أيها المندائي بالصدق في عهدك لترتقي إلى عالم النور ، فكل من فهم عقيدة النور لازم الصدق في أقواله وأخلص في أعماله وصفا في أحواله ، وعد من الأبرار وحجز مكانا في بيت الكمال ، فإن كنت أيها المندائي تجهل ذلك ؛ فعليك ملازمة أهل الصدق لتستفيد من حالهم وتسترشد من صدقهم ، سارع تهتدي إلى البر فإنه يهديك إلى الجنة.

دائما العقيدة الروحانية تستمر وتحافظ على البقاء وتطور الجماعة التي تؤمن بها ، لأنها عقيدة ربانية توحيدية ولأن المؤمنين بها ينظرون بأمل إلى الحياة الآخوية ، أي أنهم يعيشون حياتين ، حياتهم الحالية في هذه الدنيا ، ولهم أمل كبير في حياة ثانية أبدية في عالم الأنوار (الجنة) ... أما العقائد المادية فهم لهم دنيا واحدة يعيشوها قابلة للفناء ، حتى الجماعات التي تؤمن بهذه العقائد المادية سرعان ما تتلاشى وتندثر ولا يبقى منها سوى اسمها.

وأن العقائد الفعالة المؤمنة بوحدانية الخالق تبني الحضارة الإنسانية وتطورها ، لكن هذا لا يعني أن العقائد المادية لا تستطيع بناء قوة ودولة ومراكز نفوذ ، لكنها سرعان ما تضمحل وتذوب (حضارات سادت ثم بادت).

من هنا جاء ثبات وديمومة العقيدة المندائية التي يؤمن بها الصابئة المندائيون أولاً لأنها توحيدية تعظم الحي العظيم الواحد الأحد ، وثانياً لأنها عقيدة روحانية

محقة تؤمن بالإيمان العميق (الناصوراثا) ، لهذا تجد الصابئة المندائيين عبر التاريخ لم تنشأ دولة أو إمارة أو جيش أو ملك لأنهم يؤمنون أن هذه الدنيا فانية وأن الدنيا في الآخرة هي الباقية، يعيشون فيها سعداء دون أوجاع ولا شيخوخة ولا موت ثاني.

والعقائد كما تعلم تختلف بطريق إيمانها بعقيدها؛ فهناك من آمن بالحيوانات وبالنباتات وبالكواكب والنجوم ، وهناك من آمن بالملوك والكهنة والأبطال ، وهناك من آمن بآله واحد لا شريك له في ملكه ، مثل الأديان التوحيدية (الصابئة، اليهود، المسيحية، الإسلام) ، وأرسل لهم خالقهم الواحد أحد الرسل وأنزل عليهم الكتب المقدسة...

ونحن في هذا الكتاب نود مخلصين أن نوضح شيئاً مفيداً عن العقيدة المندائية، تاريخياً ودينياً وإيمانياً وتوحيداً، لكونها جذر التوحيد الأول، وأن كل الأديان تأثرت بها كما هي الأخرى تأثرت بالعقائد الأخرى... وهذا ما يسمى بتلاقح الثقافات التي تزدهر، خاصة في مكان واحد مثل بلاد وادي الرافدين.

وقد يلاحظ عدد من الباحثين وجود أوجه شبه بين تلك العقائد وهذا أمر طبيعي أن تؤثر العقيدة بما جاورها من عقائد، وتتأثر هذه العقائد بتلك العقيدة، ولكن لكل عقيدة سماتها وأسسها ونبياها ومن دعا إليها ومن بشر بها، وهي بطبيعة الحال تختلف في جوهرها عن العقائد الأخرى رغم أن الكثير منها يشترك بعبادة الخالق رغم اختلاف النظرة من أمة عن أمة أخرى.

تعميد السيد المسيح :

كثر الحديث وما زال يكثر يوم بعد يوم عن ديانة السيد المسيح (ع) قبل أن يبشر بالديانة المسيحية...

إن النصوص المندائية الآتية هي خير دليل وخير وثيقة تثبت وبما لا يقبل التشكيك أن السيد المسيح لم يكن إلا رجل مندائي ، تعمّد بعماد الماء الحي والذي لا يزال المسيحيون وحتى اللحظة هذه يتبركون به عند دخول الكنائس أو في القداسات ، ومن الرموز المندائية والتي ما يزال المسيحيون يمارسونه التناول ؛ حينما يضع رجال الدين المسيحي (قطعة من خبز فطير) في فم المتناول ، وهي في حقيقة الأمر {صا} والتي يحضرها رجال ديننا الأفاضل أثناء مراسيم الزواج بهثا ؛ فالتعميد (الصباغة) والتناول (البهثا) ما زالتا علامتين من علامات الديانة المندائية ، وقد يكون هناك الكثير الذي لم نلتفت إليه باعتباره شيء ليس ذي بال .

مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا ؛ كتاب ووثيقة يصف وبشكل واضح لا لبس فيه [كيفية] تعميد السيد المسيح (ع) ، والذي غدت بعد ذلك ملايين البشر تدين بديانته ، وهؤلاء يجهلون أو يتجاهلون من قام بالتعميد ، ليس بخاف على أحد أن الیصابات (أنشي) والدة نبينا العظيم ، و(مريم) والدة السيد المسيح عليهم السلام جميعاً أختان شقيقتان ، وهما أمان لنبيين اختارهما الحي الأزلي ووضعهما في رحميهما بمعجزة من لدنه ؛ فأولاهما أنشي في الثامنة والثمانين حينما حملت بيهيا يهانا ، مبروخ ومطروس بأمر من الواحد الأحد : (أقول لكم : هل هناك من مات ثم عاد ثانية حتى تلد أنشي مولود؟ هل هناك من أصيب بالعمى ثم أبصر ، أو كان كسيفاً ثم قام حتى تلد أنشي مولود ؟ منذ اثنين وعشرين سنة لم أقترع من زوجتي...).

ولا شك في كلام هذا الشيخ الجليل ما إلا محض صدق ؛ فإذا كل الأمور كانت كما وصف بهذا الشكل فلا بد أن أمر خارق للطبيعة قد حصل ! ويذكر لنا

القرآن الكريم هذه الحادثة الربانية : بسم الله الرحمن الرحيم { يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا }^١.

وآية أخرى يؤكد فيها رب العزة الحدث العظيم ، فيقول سبحانه وتعالى : بسم الله الرحمن الرحيم { فَتَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ }^٢.

إن الأحلام والرؤى التي انتابت اليهود قبل ولادة نبينا العظيم لتؤكد هذه المعجزة {في سماء الخلد ذكر اسم مولود ، انجلي سر في اورشليم... ضجيع وأصداء مخاض تعلن ولادة طفل في اورشليم...}.

أما الأخت الثانية فهي عذراء بتول ما مسّها بشر ، لكن أمر من الله صدر فحملت مريم العذراء ، وكان عيسى الذي اختاره المولى القدير ليكون نبياً كابن خالته ، عند استقراره نصوص {دراشا يهيا} نعرف أن عيسى (ع) كان ملازماً وتلميذاً لنبينا ، ومنه أخذ الحكمة والمعرفة {تكلم المسيح مخاطباً يحيى في اورشليم : يا يحيى أستعملتك بالحي العظيم وبملك الأحد الوقور وبالدرج الذي سلّمه المختارون ، حدثني ، ماذا تشبه سفينة صورييل ؟ أخبرني عن النفس كيف تغادر الجسد وبماذا تكون متلفعة ، وماذا تشبه وهي داخل الجسد الثاني ؟ ألا تشبه الدم الذي يمنع الدفء للجسد المغلق ؟ أو كأنها الريح الذي يعيقها الجبل ؟ أو كالندى على أوراق الأشجار ، وما يلبث أن يتبخّر ويتلاشى ، لكن وبطريقة المعلم الذي اختاره الله ليكون حارفاً بالخبايا وما تضم الحنايا قال يحيى بصوت عال : لا تشبه الدم الذي يدفئ الجسم ، ولا تشبه الريح التي تعيقها الجبال ، ولا تشبه الندى الذي يتكون على الأوراق ؛ يتبخّر ويزول... النفس محتجبة تدخل خفية إلى الجسد الثاني ، وعندما يحين الأجل تنسل خفية متلفعة برداء النور...}

١- القرآن الكريم : سورة مريم-آلاية ٧.

٢- القرآن الكريم : سورة آل عمران-آلاية ٣٩.

إنه لوصف يعجز البشر الإتيان بمثله لأنه صادر عن نبي ، في النص الخاص بالاعتماد نجد أن عيسى المسيح يطلب من النبي يحيى أن يعمّده تعميّدًا مندائيًا ، إلا أن يوحنا يرفض ذلك لأسباب نجهلها نحن البشر ، لنقرأ من النص السابع والعشرين {يا يحيى اصبغني بصباغتك وانطق الاسم الذي تذكره عليّ ، وسأذكر صنيعك هذا في وثيقة، وإن لم أتتلمذ ؛ الغ اسمي من سجلك} بيد أن النبي لم يكن واثقًا من قول المسيح فيقول: { كيف أصبغك وقد هزأت بكهنة اليهود وأخزيتمهم وقد قطعت النسل والعمل وأنت مسجل في صحيفة موسى نشرت في أورشليم ، قال عيسى : لم أهزأ بالرجال الكهنة وإلا سأموت مرتين}.

لذا وكمحلة أخرى يبدأ النبي يحيى بطرح عدة بديهيات يختبر من خلالها كيف سيكون الرد وكيف تفسّر تلك البديهيات {قال يحيى : الأخرس لا يصبح معلم ، والأعمى لا يكتب رسالة ، وبيت الخراب لا يتألق ، الأرملة لا تصبح عروس ، والماء النتن لا يتصوّل طيب ، والحصى لا يترطب بالزيت...}، بيد أن التلميذ أراد أن يبرهن لأستاذه أنه أهل لتفسير ما يطلب منه وأن تلك البديهيات ليست بالمستحيلة وهو جدير بأن يفسّر ما يجعله أهل ليصبغ صباغة مندائية.

{قال عيسى : الأخرس يصبح معلم والأعمى يكتب رسالة ؛ وبيت الخراب يتألق ، الأرملة تصبح عروس ، والماء النتن يتصوّل طيب والحصى يترطب بالزيت... قال يحيى إلى عيسى أوضع ذلك... الأخرس يصبح معلم ، المولود الذي يأتي ينمو ويتكلم ويصبح كبير ويمنع الزدقاً ويكسب الأجر ، الأعمى يكتب رسالة... ابن السوء إذا حسنت أخلاقه وترك الزنا والسرقة وآمن بالحي العظيم ، بيت الخراب يتألق ، إذا رفق ابن الحياة وهجر القلعة والفراش وبنى بيتاً عند الشاطئ وجعل له بابين ، فمن جاء من سهل فتّح له باب ومن جاء من علّ فتّح له الباب الآخر وقابله ، فإن طلب طعام أهد له المائدة بالحق ، وإن طلب ماء سقاه ، وإن أراد النوم جهّز له فراش ، وإن طلب الرحيل أرشده إلى طريق الحق والإيمان وارتقى متطلع إلى موضع النور ، الأرملة تصبح عروس... عروس في شرح الشباب... احتجبت واحتزلت من أجل رعاية ابنها ، وكلما خرجت لم يغادر

نظرها وجه زوجها ، الماء الآسن يتضوع طيبج : فتاة غائبة متحررة بلا قيود أصبحت أم ، صعدت قاصدة المدينة ، ولم ترفع الوشاح عن وجهها ، العصى يتربط بالزيت : الزنديق الذي هبط من الجبل تاركًا السر والشعوذة وآمن بالحي العظيم وآوى اليتيم... يا يحيى اصبغني بصباغتكم وانطق الاسم الذي تذكره عليّ فسوف أذكر هذا لك في وثيقة ، فأنت مسؤول عن خطاياك وأنا مسؤول عن خطايي).

حينذاك هبط وحي من الحي الأزلي يدعو النبي يحيى لصباغة عيسى (يا يحيى ، اصبغ المسيح ، اصبغه في يردنا ، واصعد ضفة النهر حيث روح القدس تمثلت في حمامة رسمت طيبًا).

فوق يردنا ولونت الماء بألوان متعددة وقالت ليردنا : أنت قدستني وقدست أبنائي... فالماء الذي اصطبغ به المسيح أصبح له ماء مقدس ، والخبز المبارك الذي تناوله أصبح له روح للقدس ، والماء الذي شرب منه أضحى قربان ، هكذا وبأمر من الحي الأزلي تعمّد السيد المسيح عمادًا مندائيًا ؛ فلقد اصطبغ وتناول البهثا وشرب الممبوها وبذا لا يمكن إلا أن يكون مندائيًا خالصًا.

لكن قبل الانتهاء من هذا الموضوع أرجو أن ألفت النظر إلى ما ورد في النص السابق وهي إشارة لا أستطيع إغفالها أو التغاضي عنها ؛ ألا وهي قول النبي يحيى (مبروخ ومطروس) لعيسى المسيح (وقد قطعت النسل والحمل) وهي لا شك في أنها تحمل إشارة واضحة إلى مبدأ (الرهينة) الذي اعتمده المسيح والذي يخالف الشريعة الربانية الداعية إلى التنازل الطبيعي ، ومن هنا جاء رد المسيح (فأنت مسؤول عن خطاياك وأنا مسؤول عن خطايي).

والملاحظ كذلك أن نبينا كان قد اعتمد هذا المبدأ أول الأمر كيلا يضطر إلى عدم القيام بواجباته الدينية أمام رب العباد ؛ لاعتقاده بأن الزوجة يمكن أن تبعده عما نذر نفسه إليه فنراه يقول {أخشى إن تزوجت وجاء الليل وحان النوم واقتربت منها ؛ أن أكون من أعداء طقوس السماوية وأنسى خالقي ، أخشى إذا اقتربت منها أن انقطع عن أعداء صلاتي في أوقاتها... بينما كان يحيى

يفكر في هذا جاءتة رسالة من السماء تقول : يا يحيى اتخذ لك زوجة ولتقر نفسك
ولا تغشاها يومي الأحد والخميس ، واحذر كل ما هو باطل في هذه الدنيا
الرائقة}.

وبذا تحرر نبينا الكريم مما اعتبره عائقاً لزواجه، فتزوج بعد ذلك وكانت زوجته
{أنهر} قد حملت أول الأمر ب(هندام وشارت)، وفي الثاني (بهرام ورهيمات
هبي)، وفي الحمل الثالث (أنصاب وسام وأنهر زيوا وشار)، قال يحيى لزوجته
أنهر : {أنتِ علمي بناتك عدم الخنوع وأنا أعلم أولادي وأوصيهم أن لا يكونوا
منغلقين}.

حقاً لقد تحقق كلام نبينا العظيم ، فلا نجد حتى هذه اللحظة مندائية خائفة
خاضعة، ولا مندائي منطوي منغلق على ذاته، بل فرح مستبشر بأن الحياة ما
زالت جديرة بأن تُعاش !.

الفصل التاسع

البحث الأول : شيء عن المرأة المندائية

البحث الثاني : الصابئة المندائيون ودورهم الحضاري

البحث الثالث : نظرة إلى اللغة المندائية

البحث الرابع : عم الدنيا والتاريخ

البحث الخامس : مع المندائيين في إيران



البحث الأول

المرأة المندائية

مكانة المرأة في الديانة المندائية :

كتبت الشاعرة المبدعة إلهام زكي خابط عن المرأة في الديانة المندائية : المرأة هي ذلك الإنسان الجميل الذي حباه الله سحرًا وجمالًا ومنحه صبرًا وإيمانًا ، وزاد عليه عطفًا وحنانًا.

إنها حواء ؛ المرأة الأولى التي بدأ بها العالم ، المرأة هي نصف المجتمع ؛ فهي الأم ، الأخت ، الزوجة ، الابنة... وهي العاملة ، المعلمة ، الطبيبة ، المهندسة والمحامية الخ ، وهي الحبيبة التي يتغنى بها الجميع ، لهذا فهي جديرة بأن تكون الوند الذي ترتكز عليه خيمة المجتمع.

ولكن رغم ذلك فإنها لاقت وما زالت تلاقي شتى أنواع الظلم والاضطهاد ، بسبب التقاليد والأعراف الاجتماعية الصارمة التي طبقت عليها كإنسان مستضعف من قبل المجتمع الذكوري ، وهذا بواقع الحال يخالف القيم الإنسانية وما جاء في الكتب السماوية.

وفي النصوص المندائية قد جاء الآتي :

وبأمر الخالق العظيم خلق آدم وخلقت حواء لتكون زوجة له... امرأة لآدم تعطى وتكون له شريكة ، جعلتُ آدم مثل العظام ، وعلى رأس الذرية الحية وحواء على مثل (انانا دنهورا) ، جعلتها سيدة الدنيا كلها... كما جاء في الـ(كنزا ربا) أي الكنز العظيم...

أيها الرجال : إذا اتخذتم لأنفسكم أزواجًا فاختاروا من بينكم ، وأحبوهن وليحفظ أحدكم الآخر ، واعتنوا ببعضكم عناية العيون بالأقدام وليحب بعضكم بعضًا ، وليحتمل بعضكم بعضًا ، تعبروا بحر وسوف العظيم .

كما جاء في كتاب دراشة اد يهيا : قال يحيا يهانا لزوجة أنهر : أنت علمي بناتك عدم الخنوع ، وأنا أعلم أبنائي وأوصيهم بأن لا يكونوا منغلقيين .

وهذا نص صريح وواضح أن الدين المندائي لا يريد للمرأة الخنوع أو الخضوع أو الانسياق الأعشى وراء الرجل ، بل أراد لها المكانة الرفيعة في المجتمع وأن تكون ذات رأي مستقل في اتخاذ القرار الصائب فيما يخص شؤونها ، فالمرأة المندائية لها الحق في التعليم والعمل وفي اختيار الزوج ، كما يجيز لها العمل الكهنوتي والارتقاء إلى أعلى درجاته .

ومن تعاليم يهيا يهانا (النبي يحيى) أيضًا :

جاء رسول الخالق فقال إلى سام بن نوح : لا يخيفك إن اتخذت لك زوجًا لا تظهر لك حبها وقد أنجبت لك أبناء ، لو لم تكن الزوجة في هذا العالم لما خلقت السماء والأرض... لو لم تكن الزوجة ما كان ماء الحياة وما تكونت البنور ، لولا الزوجة لما هبت الريح وما انتقدت النار...

فالزوجة كالماء والسماء والأرض والنار ، وحين يكبر أبنائك يستمر اسمك في العالم ويبقى ، إنهم يقيمون الطقوس ويحملون جثمانك ويشيعوك إلى مثواك الأخير ويقرأون التراتيل لارتقاك ومن أجلك يعطون الصدقات كي تمنح الثواب والمغفرة .

ومما يجدر بنا الإشارة إليه هو أن الدين الصابئي المندائي قد تعامل مع الجنس البشري من خلال النفس (النشمتا) بغض النظر إن كانت تلك النفس هي امرأة كانت أم رجل ، وهذا ما نلاحظه واضحًا في مخاطبة الله لتلك النفس ، كما جاء في كنزا ربا :

أيتها النفس الذاهبة إلى ربها طريقك طويل... الخ.
أيتها النفس لماذا تخافين والذين يرافقونك من الأثريين.
طوباك أيتها النفس، اصعدي أيتها النفس إلى دارك الأول.

وهناك الكثير من النصوص التي تؤكد بعدم وجود فوارق ما بين الرجل والمرأة فهما يقفان متساويين أمام ميزان أباثر.

إن الدين المندائي قد كرم المرأة أعظم تكريم وبجلها أعظم تبجيل ومنحها كافة الحقوق الممنوحة للرجل، كما منع منعاً باتاً معاملتها بسوء... والدين المندائي ينسب الابن لأمه ذلك لأسباب دينية بحثة، فيقال للذكر فلان ابن فلانة وللأنثى فلانة بنت فلانة.

ذلك لأن الصابئة يدعون على أنه بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بخلق آدم من طين؛ خلق حواء من جسمه، وبعد إنجابهما لم يتزوج الأبناء من أخواتهم، إنما أرسلت البنات إلى عالم آخر فيه أناس مثلنا يسمونه أمشوني كسطا، أي عالم الحق، وجيء بفتيات من أمشوني كسطا إلى أولاد آدم فتزوجوهن، وعلى هذا الأساس فالمرأة في نظر الدين من عالم غير عالما، فقد أنت من عالم كله طهارة وعهد، ثم يقولون إن آدم خلق من طين وحواء خلقت من جسمه، وعلى هذا الأساس فتسمية الابن باسم امه أعلى من تسميته باسم أبيه دينياً.

(آدم من طين أهوه، هوه زوي من كانا اد نافشي أهوت) أي أن آدم من طين وزوجته حواء خلقت من نفسه، وبذلك فهي أطهر من الطين، وبذلك تكون المرأة الصابئية تحتل مكانتها الخاصة في الديانة المندائية، وهي المكانة التي ترتقي إلى المساواة بين الجنسين في كثير من مجالات الحياة، وفي حالات أخرى تحتل المرأة مكانة أرفع... لكن رغم ذلك فقد طالتها قساوة المجتمع الذكوري أسوة بكافة النساء من الديانات المسلمة والمسيحية واليزيدية.

لقاء المرأة المندائية الأول :

كما تفضلت الأكاديمية الأستاذة فريان زهرون وذكرت أن المرأة المندائية لا تمثل نصف الطائفة فقط؛ بل هي الجذر الرئيسي الأصيل فيها، وهذا بينه ديننا الأزلي (وأمرناكم أن اتخذوا لكم أزواجًا تعمر بكم الدنيا وتكبر)، وهي المكلفة ببناء ورعاية العائلة (زوجتك تبني لك عائلتك)...

وتأكيدًا لهذا المفهوم قدر مجلس شؤون الطائفة العام إعادة تنشيط لجنة المرأة لتكون النافذة المفتوحة لمناقشة وطرح مختلف القضايا والاستفسارات الخاصة بالمرأة المندائية وإمكان إيجاد ما ينفع فيها من حلول عن طريق عقد اللقاءات والاجتماعات.

عقد اللقاء الأول في ١٠ / ٤ على قاعة المندي الكبرى تحت شعار (ليجمعنا كشتا في محبة أخوية)، حضرته مجموعة خيرة من السيدات والآنسات المندائيات، ومن بين ضيوف المرأة المندائية فضيلة الشيخ خلف عبد ربه، الذي شاركنا ولمدة ساعة بنقاش مفتوح تلقى فيه أسئلة الحضور، وأجاب عنها إجابات شافية في مختلف الموضوعات، وفضيلة الشيخ كريم سلمان وفضيلة الشيخ علاء كاظم وفضيلة الشيخ هيثم سليم، والأستاذ حرب نعمة مسؤول قسم الشباب والمرأة والأستاذ مؤيد مكلف.

كما بارك أبونا فضيلة الشيخ عبد الله هذا اللقاء الذي ساعدت في إقامته اللجنة التحضيرية ضمن اللجنة الدينية الثقافية للشباب المندائي، المنبثقة عن المجلس الروحاني العام، وضمن ما طرح فيها على نصوص مستقاة من كتاب (كنزا ربا) مبارك اسمه، جاء فيه:

(أبشميّهون إديهي ربي اسوئه وزكوئه نهو يلخون) من المعروف تاريخيًا أن الديانة المندائية أولت اهتمامًا مميزًا بالمرأة، وجعلتها مساوية للرجل في الحقوق في مختلف المجالات: دينية وفكرية واجتماعية، وقد أثبتت المرأة المندائية وجودها في التاريخ المندائي ولها أسماء لامعة، فمنهن من دخلت

السلك الكهنوتي حتى درجة الريشما، وهي أعلى درجة دينية، وفي المجالات الإبداعية الأخرى كانت الطبية، والمهندسة والمعلمة والشاعرة ورببة البيت الواعية المديرة.

أختي المندائية عليك أولاً أن تعطي نفسك حق قدرها، وأن تترفعي عن صغائر الأمور وتفاهات الحياة، فلا تلهيك مغريات العصر عن أهم واجب يمليه عليك دينك من طاعة كاملة للحي الأزلي (هيي قدامي)، ونحن نطالب الأخت والأم والزوجة أن تكون شخصيتها مميزة فريدة نابعة من أخلاق ديننا المتأصل الجذور الممتد في أعماق الزمن، فلكي تنمو أجسادنا نبحت عن الغذاء الجيد، وهي العملية ذاتها في تغذية أرواحنا، فطعامنا الروحي هو إيماننا بتعاليم الحي العظيم، وواجب علينا أن نعرف الواجبات ونفهمها ونهضمها بطريقة صحيحة، ونتأمل الحقائق من خلال المعرفة والإطلاع حتى نكشف لأنفسنا عن أخطائنا ونطمئن لغفران الحي لمعاصينا.

أخواتي الفاضلات كلنا نعرف أن الدين المندائي أول دين عرف الخالق، ووحدته وآمن به مع أول خلق الله (آدم عليه السلام) رأس السلالة البشرية، فكانت صفه المعظمة، بها وضع أول ناموس للحياة، وبها نشر العدل والإيمان وعرفت حقيقة الخلق العلوي وعوالم النور وأسرارها ومكوناتها، بهذه الصحف نزهو فخورين، لقد ورثناها كاملة مكتملة في كتابنا المقدس (كنزاً رباً)، جل من أنزلها سبحانه ملك النور السامي الذي لا حدود لقدرته، ولا شيء بدونه وما من شيء لولاه، أزلي ليس له بداية وأبدي ليس له نهاية، فالخالق واحد انبثق من ذاته، لا أب جاء منه، ولا أخ قاسمه الملكوت، كل أسمائه حسن وجمال ووقار وعظمة، إن وحدانية الخالق الذي لا شريك له هو أول ركن من أركان الدين المندائي.

أما الصلاة فهي حبل مجدول يوصلنا بالخالق، فيها تصفو عقولنا وتسمو نفوسنا وتهاد قلوبنا وتتقى ضمائرنا، فعلى الخالق نعتد ومنه نطلب وإليه نعترف وبه

نحتمي ، فلتكن صلاتنا دائمية دون انقطاع ، نتلوها في وقت الضعف والشدة ، فلنرفع آيات الشكر للرب في حسن أمورنا وأوقات شدتنا ، وهذا هو الركن الثاني ، أما الركن الثالث فهو الصدقة المباركة ، فالصدقة عظيمة وهي أفضل من الزوجة والأبناء لأن الصدقة مطلوبة للطريق ، فهي مثل اليد للفم ، ومثل الأعمى الذي يطلب التماس الطريق ، إن انعدمت الصدقة فلن يكون هناك معبر للحياة ، ويل للسيتين الكاذبين الذين تناسوا الصدقة ولم يمنحوها ، ونسوا الخالق الذي أمرهم بأدائها للفقراء والمحتاجين ، أحبوا الصدقة وأحبوا ملائكة يوم الأحد الذي وضع معبراً على البحر ، الآلاف الآلاف واقفون على ضفافه ، من كل ألف يعبر واحد ، ومن ألفين يعبر اثنان ، ومن يرزق ولا يهب يقف عارياً أمام بيت الحساب.

أما الركن الرابع من أركان الديانة المندائية النقية البيضاء هو التعميد (الصباغة) ، التي تطهر وتهذب وتنقي النفوس من الأخطاء التي ارتكبت في زحمة الحياة ، إن الغطس تحت الماء يعني الموت ، والخروج إلى ضفة النهر يعني حياة جديدة وميلاد جديد ، وأن أداء القسم إلى المحافظة على الرسم الطاهر وعدم تبديله برغم المغريات فهو الثبات الحقيقي.

أما الركن الأخير فهو الصيام ؛ فالمؤمن المندائي الحقيقي النقي القلب والسريرة إذا نظر إلى شيء لا يعود له يعتبر ذلك خطيئة ، وأن الغمز واللمز خطيئة ، والظنون والغيبة والنفاق والكذب خطيئة ، والزنا وشرب الخمر خطيئة كبرى ، والتجديف على اسم الخالق من أكبر الكبائر ، وعدم الالتزام بالمبطلات خطيئة ، وعدم احترام خلق الله خطيئة.

أيتها الأخوات : تمسكن بشريعة دينكن والبسن رداء النور ، ولتضعن الأكاليل الزكية على رؤوسكن ، وتعلمن الحقيقة التي لا يداخلها شك ، انتبهن أن لا تتزوجن ولا تزوجن ممن يعتنق غير دينكن ، فأبناؤكن يصبحون عبيد ، وخطيئتهم ستقع عليكن ، وستكون وقود للنار الحامية المستعرة ، فالمرأة المتسخة

وغير الزاهدة يبتلعها الظلام ، والمرأة النجسة وغير الطاهرة لن تعبر بحر الزوال ، المرأة النجسة غير الطاهرة توضع عليها وزرة ممزقة ، المرأة النجسة غير الطاهرة يولد لها ابن ميت تلعنها السماء والأرض.

عندما يتسخ الماء الطاهر النقي تنكشف الأسرار الخفية، تطهروا بالماء الجاري وباسم الحي العظيم من قمة رؤوسكم حتى أخمص قدميكم ، وتزودوا بزوائد السفر لكي ينفتح لكم الطريق الطويل بعد أن تغادر نفوسكم أجسادكم ، فكل من حمل زاده معه عندما يصل المعبر سيعبره ، وكل من لا يحمل زاده معه يجلس مرتقباً حتى يشيب شعره وهو يرتجي الذهاب مثل الذي يرتقب حصاد الزرع.

أخواتي : تمسكن بحبل النجاة وعلمن أبناءكن تعاليم وأصول الدين منذ البدء ، فمسؤوليتكن هي العائلة والأطفال ليكونوا ثابتين راسخين كثبوت مندائيتهم في الأرض ، مسبح اسمك يا خالقي نور لا يجافي محبيه... والحي مركي.

ضياع حقوق المرأة في زمن الحرية :

إن للمرأة دوراً بارزاً في المجتمع، كما ذكرت الأستاذة سحر عبد الرحيم بركة في مقال لها؛ وذلك واضح من خلال ما قدمته من خدمات عديدة للإنسانية، فقد شاركت الرجل في شتى ميادين الحياة العلمية والعملية، وقدمت بذلك عطاء زاهر لا حد له، ومازالت تظهر قدراتها بشكل فائق ومتطور أكثر من ذي قبل، وقد ناضلت كثيراً ومازالت من أجل تقديم المنفعة للمجتمع لإثبات وجودها على مختلف الأصعدة...

فمقابل كل ما قدمته المرأة من إنجازات عظيمة وكبيرة وكثيرة أيضاً؛ ومن خلال المهام التي أنيطت بها فهل تستحق هذه المخلوقة المنتجة لكل ما هو جيد وخير أن تسلب حقوقها؟ وهي أبسط ما يمكن أن يقدمه المجتمع لها إزاء ما بذلته من جهد وعناء لخدمة الإنسانية؟.

فنحن الآن في زمن مختلف عن كل الأزمان التي مضت، والتي كان الناس جاهلين لحقوقها، فقد كانوا سابقاً يعتقدون أن كل ما للمرأة هو مأكلاً ومسكن، لكن الآن اختلف الأمر، فتللك الأزمان قد ولت وانتهت، وعلينا اليوم أن ننظر لواقعنا الجديد في هذا العصر المتطور الذي تفتحت فيه عيون العالم لما كان متوارياً عن الأنظار.

إن القوانين التي صدرت مؤخراً هي ليست سوى انتهاك واضح لحقوق المرأة وتجريدها من العادات والأصول التي اعتادت عليها، إضافة إلى ذلك نلاحظ أن هذه القوانين هي انتهاك واضح لشخصيتها وتقييد لحريتها، فما قيمة الإنسان بدون كرامته؟ وكيف يستمر في الحياة وهو يشعر أن لا أهمية له، فهل تستطيع المرأة العراقية من خلال كل ذلك أن تتعايش مع مثل هذه القوانين التي ستفرض عليها فرضاً، وليس بملء إرادتها لأنه لا توجد أي من النساء في هذا العالم تقبل أن يمحي وجودها وأهميتها بهذا الشكل!! ولهذا أناشد كل من يهمه

الأمر أن يعيد النظر بهذه القوانين التي هي مؤكد لن تجلب سوى المشاكل للأسرة العراقية وبالتالي للمجتمع بأسره.

المرأة العراقية والحياة السياسية :

عندما نتكلم عن دور المرأة العراقية في المجال السياسي ؛ يجب علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار مسألة وضعها داخل البلد ، حتى الآن لم نلاحظ أي اهتمام كاف يشجع المرأة على الانخراط في السلك السياسي ، بل بالعكس ؛ فهناك العديد من المعوقات التي ظهرت ولا زالت تظهر لاعتراض طريق المرأة نحو السير في ذلك الاتجاه الذي سلكته من قبلها الكثير من النساء في هذا العالم.

فهناك العديد من النساء العراقيات المؤهلات لمثل هذا الدور ، وأعتقد أنه باستطاعتهم القيام بهذه المهام وبشكل فائق إذا أُتيح لهن المجال لإثبات ذلك ، فلم نسمع من قبل أن هناك امرأة عراقية قد تقلدت منصب سياسي مرموق ، فلماذا لا تعطى لها الفرصة لكي تظهر إبداعها وإنجازاتها في هذا المضمار المهم الذي يتطلع إليه البلد في المرحلة المقبلة ، حيث يتحدد في هذه الفترة مستقبل البلد السياسي...

ومن الجدير بالذكر أن عددًا الإناث في العراق يفوق عدد الذكور ، ومن خلال ذلك يجب أن تحظى المرأة العراقية بقسط من الاهتمام من قبل المسؤولين والمختصين في هذا المجال ، وهذا يؤدي إلى النجاح في شتى الميادين وأن تكون للمرأة العراقية يد مساهمة في بناء العراق الجديد لكي يتقدم بلدنا إلى الأمام ويسمو ويزدهر.

وإن شاء الله سيزداد عطاؤها وتبرز صورتها من جديد وبشكل أوضح تلك الصورة التي اختبأت خلف تراكمات السنين ، وآمل أن تعوض المرأة العراقية عن كل ما حرمت منه ، وخاصة حقها السياسي ، ونتمنى أن يكون لها موطئ قدم في الحكومة القادمة.

المرأة العراقية... أوجاع وآمال :

عند الحديث عن الحروب التي داهمت الشرق الأوسط إبان العقود الأخيرة من القرن الماضي؛ يتبادر إلى الذهن مباشرة الحروب التي مر العراق بها منذ عام ١٩٨٠ وما تلاه من أعوام ، حيث بدأت مأساة شعب بأكمله برجاله ونسائه وأطفاله وشيوخه ، ولكن الحيف الذي مر على المرأة يستحق أن تسلط الضوء عليه ، فالنساء عادة يتصدرن قائمة الفئات المتضررة من جراء اندلاع النزاعات إذ إضافة إلى أنهن يشكلن نصف المجتمع ؛ يصبح لزاماً عليهن في ظل الظروف الاستثنائية أن يشغلن الشاغر الذي يتركه الرجال خلفهم عند التحاقهم بجبهات القتال.

لكن نساء العراق لهن سجل يتوجب التوقف عنده بسبب كثافة وتنوع التجارب ، فلنتناولها بالتسلسل منذ عام ١٩٨٠ :

اندلعت الحرب مع إيران في أيلول عام ١٩٨٠ ، ووقع على عاتق المرأة العراقية عبء ثقل هو القيام بدور الرجل الذي انضم إلى صفوف المقاتلين ، فصارت العراقية تعمل في مجالات عديدة لم تكن تشغلها من قبل ، فإضافة إلى واجبها كأم صار عليها أن تقوم مقام الأب في فترة غيابه ، وفي حالة فقدانه تصبح أرملة أو ثكلى أو عانس في أحسن الأحوال . ففقدان المعيل كارثة كبرى في مجتمع شرقي أبوي المركزية ، ومع ذلك صبرت المرأة العراقية وأثبتت جدارة متميزة مستغلة كل الظروف الصعبة لتحفظ للمجتمع العراقي صموده رغم مروره بحرب عاتية استمرت ثمانية أعوام ، وحصدت آلافاً مؤلفة من الأرواح ، وكان أملها أن تتزاح غيوم الكرب والألم التي تصاحب الحروب عادة لتبزغ شمس السلام والحياة الطبيعية بعدها...

ثم وضعت الحرب أوزارها عام ١٩٨٨ ، وتنفس العراقيون الصعداء على مدى عامين متتاليين ، وانتعشت الآمال وعادت أنشطة المرأة العراقية لتتخذ مجراها الطبيعي ، مقتصرة على أعمال بدت لباقي المجتمعات في الدول المجاورة مهام ومسؤوليات كبرى لم تنهض النساء بمثلها.

حتى جاء آب عام ١٩٩٠؛ وجاءت كارثة احتلال الكويت، وما لحقها من قانون فرض العقوبات، وراحت المرأة العراقية مع الرجل تعاني الأمرين لتتدبر المعيشة، ففي بداية التسعينيات غدت أبسط مقومات الحياة شحيحة، وتضخمت العملة وتدهور الاقتصاد، ولم تعد القوة الشرائية قادرة على المواكبة مع الانحدار السريع للاقتصاد.

ثم جاءت حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، وجاءت الحرب وويلاتها، وفي تلك المرحلة عانت العوائل العراقية من الدمار والموت والفاقة والحاجة وفقدان المعيل، وتبعات الوقوف وحدها دون رجل، إضافة إلى ما عانته من خوف وذعر ناجم عن أصوات القصف والمعدات الحربية.

وبتدمير البنى التحتية أصبح العراقيون يبحثون عن اللقمة والوقود المفقود، وباتوا لا يعرفون ما جرى لبعضهم لانقطاع الخدمة الهاتفية، وبانتهاء الحرب وانسحاب الجيش العراقي من الكويت اندلعت انتفاضة الشعب لتشمل العراق بأسره...

وهنا لا بد من الوقوف على مأساة المرأة العراقية في تلك المرحلة؛ فقد فقدت العديد من النساء الولد والزوج والأب والأخ، وصار لزاماً عليها أن تكون هي المعيل وهي المسؤول (ولي الأمر) عن عوائل يتيمة في ظل اقتصاد استثنائي، ماذا عساها تفعل؟ لقد صار منظر النساء اللواتي يفترشن الأرض في مجاميع شيء مألوف، وتحولت الكثير من الموظفات إلى عاملات تنظيف أو عاملات يدويات بالأجرة اليومية، لأن أجر الوظيفة لم يعد يسد الرمق.

وراح الأطفال يتسربون من المدارس وتفتت الأمية، وصار قانون التعليم الإلزامي لاغياً على أرض الواقع، وبعد ذلك راحت وتيرة الأيام تنتقل لتترك المرأة العراقية تواجه مع الرجل ضراوة الحياة غير الطبيعية والتي انعكست سلباً على العلاقات الزوجية وتسببت في ارتفاع معدلات الطلاق.

وتعلمت المرأة العراقية في تلك الفترة ما لم تستطع تعلمه في جامعات ومعاهد التدبير والاقتصاد المنزلي، وصارت هي المسؤولة عن خياطة الثياب وتوفير الطعام وتربية الدواجن، بل ووصل الأمر بها إلى العلاج بالأعشاب في ظل نقص الدواء، ومن الجدير بالإشارة إلى أن عوائل كثيرة اضطرت إلى التخلي عن نصف مساكنها لتبيعها بأسعار بخسة لتسد جزء من متطلبات المعيشة في ظل تضخم العملة وانخفاض معدلات الرواتب إلى نحو دولارين في الشهر لكل موظف.

واستمرت المعاناة مع ارتفاع معدلات وفيات الأطفال في ظل نقص الدواء وتلوث المياه، حتى جاء عام ١٩٩٦ حين وقع العراق مع الأمم المتحدة اتفاق النفط مقابل الغذاء والدواء، وبعد أشهر من هذا الاتفاق لحظ الشارع العراقي تحسناً نسبياً ملموساً تجسد في مفردات البطاقة التموينية التي باتت مصدر المعيشة الأساسي للفرد العراقي آنذاك...

غير أن هذا الاتفاق لم يحسن من دخل الفرد العراقي ولم يوفر الدواء بالكم الكافي ولا حتى تأهيل أو صيانة مرافق البنى التحتية للبلد، في غضون ذلك طرأت على المجتمع العراقي ظاهرة جديدة هي السفر لجوء أو هجرة أو طلب للعمل في بلدان تفتقر إلى الكفاءات، وشهدت العائلة العراقية تفكك في مفاصلها، وبات الحصول على عقد عمل خارج البلد يكلف جهداً ومالاً، وقد خلف هذا الظرف فراغ في جو العائلة العراقية وثغرة في بناء المجتمع العراقي، وبالتالي في نفسية المرأة العراقية...

بيد أن أملاً ظل بصيصه خافتاً، فكان العراقيون يتأملون ذلك اليوم الذي تزول فيه العقوبات الدولية ويغادرهم الكرب إلى غير رجعة.

حديث بدون رقابة إلى المرأة المندائية:

كتبت السيدة راهبة الخميسي في مقال لها :

دعيني سيدتي أتحدث إليك وبدون رقابة...

يا أيتها السيدة التي نهضت بروحها وتثقت وتألفت وتسارعت للاندماج بالمجتمعات الحضارية التي انزجت بها لسبب أو لآخر ؛ لقد قرأت الكثير وطرق سمعك الكثير عن نقاء طائفك التي تنتمين إليها ، حيث اتفق علماء الاجتماع والانثروبولوجيا والتاريخ وعلم الطبيعة على أن طائفك نقية متفردة لا توجد مثيلة لها بأي مكان من العالم، والتي وجدت من بداية الخلق على حافة الزمن والتاريخ منذ آلاف السنين.

طائفك سيدتي المندائية صمدت وتحدت الزمن، رغم أنها عاشت منعزلة ومنقطعة لممارسة طقوسها على حافات المياه أو منابعها ، وخصوصاً في جنوب العراق.

وبالرغم من أنها تجاوزت محنة انقراضها في القرن السادس عشر بسبب الأوبئة ؛ تتعرض الآن ومنذ فترة ليست بالقصيرة ، حيث انسحب عليها ما أصاب بلدنا من تعسف وظلم واستبداد وطغيان، مما أدى إلى تقلص عدد أبنائها بشكل كبير وواضح وللأسباب:

١ - كثرة عدد الوفيات.

٢ - قلة الإنجاب لعدم قدرة الشباب على الزواج، نتيجة الظروف القاسية من حروب وحصار والتي ألمت بالبلد.

٣ - الأمراض البيئية والبيولوجية بسبب الحروب أيضاً، والتي أصابت فتياتنا المتزوجات بما يشبه العقم بسبب الأسلحة البيولوجية، وأقصد بذلك:

أ - الحمل خارج الرحم.

ب - الحمل الكاذب.

ج - الإجهاضات المتكررة وغيرها.

وبالنسبة للشباب الذي أجبر على تناول بعض المواد والتي من شأنها التقليل من طاقته إذا كان في جبهات القتال أو في السجون.

عدا ذلك من أسباب عزوف الشباب عن التقدم للزواج والارتباط خلال الفترة السابقة هو انعدام الأمان والضمان الوظيفي والاجتماعي والصحي والمادي ، هذه الظاهرة وكما تعلمين سيدتي هي ظاهرة عامة بالمجتمع العراقي ، بيد أنها متجسدة أو متضخمة في الطائفة بحكم قلة عدد أفرادها... أنتِ تعلمين أيضاً أن هنالك مشكلة كبيرة تعاني منها الطائفة ، وهي ازدياد نسبة عدد الإناث على نسبة عدد الذكور في الطائفة المندائية.

أسالك الآن سيدتي : ما هو رأيك بكل ذلك؟ ألم تفكري يوماً لماذا نحدد النسل؟ ولماذا تكتفي السيدة المندائية بإنجاب طفل واحد أو اثنين فقط؟ أليست مطالبة بالمساهمة للإبقاء وازدياد أفراد هذه الطائفة العريقة؟ والتي تعرضت ولا تزال معرضة ومهددة بالانقراض؟

إنك سيدتي القادرة على إغناء الطائفة بأفراد جدد كونك الآن متحررة من جميع الضغوط الاقتصادية والاجتماعية، وأنتِ تعلمين جيداً أن المرأة المندائية عانت الكثير كونها ضمن نسيج المرأة العراقية، والتي وقع عليها عبء كبير بسبب الظروف الصعبة التي تعرضت لها ، إضافة إلى الاضطهاد الديني الذي تعرضت له الطائفة من قبل المجتمع المتعصب ضد الدين المندائي.

بماذا تفكر السيدة المندائية اليوم؟ وهي تدري أن دينها يطالبها بالإنجاب؟ (أمنوا بربكم... إن العالم إلى زوال ، ولا تكونوا كالذين يكرهون الحياة فيعزفون عن الإنجاب فيها ، أثمروا إن أردتم أن تصعدوا حيث النور)... من كتاب الكنز ربا العظيم..

لقد خطر بذهني وأنا أحاورك سيدتي كيف أن الشعب الفلسطيني يتسابق أفراداه إلى زيادة النسل داخل فلسطين وخارجها ، وبشكل ملفت ، كل ذلك لهدف موحد

لديهم هو إثبات وجودهم والتفوق العددي على عدد الأفراد الإسرائيليين ، ولهم قناعة كبيرة بهذا الهدف.

نحن لا نبغي التفوق على أحد ، نحن نسعى للمحافظة على بقاء الطائفة وزيادة عدد أفرادها... إننا نلتقي بنفس الهدف مع الفلسطينيين وهو الديمومة والتفرد والبقاء باعتبار طائفتنا مميزة ومتفردة بالتاريخ المعاصر وعبر الزمن.

سيدتي : لا تجعلى موضة العصر تهيمن عليك أيتها الواعية، المتعلمة، المدركة كوني المبادرة لتحذوا الأخريات حذوك واعتبريها دعوه للإنجاب ، فإن كل طفل يولد في طائفتنا يزيدنا نوراً ويرسخ لها مكانة أوسع.

ولنقل معاً أننا سنبقى وسنستمر وستزدهر بنا الحياة وستزهو بنا المعمورة وأن ولادة فرد صابئي مندائي واحد ربما كفيل بأن يكون آدم بو الفرج ، أو أحد الشيوخ ، أو ربما أبو الإسحاق الصابي أو ثابت بن قرة أو عبد الجبار عبد الله.

خلق حواء ومكانتها في النصوص الصابئية المندائية :

إن الحديث عن الأسباب التي تمّ بموجبها خلق حواء ؛ كما ذكر الأستاذ سالم غصاب في مقال له ؛ والمضامين العميقة التي جاء بها كتابنا المقدس (كنزا ربا) وبقية كتبنا الدينية عن حواء يجعلنا نقول إنها تشمل المرأة بصورة عامة...

إننا في هذه المقالة سوف نعتمد على ما جاء من نصوص في كتاب النشوء والخلق إعداد وترجمة د. صبيح مدلول ، والتي تضمنت في جانب منها حديثاً عن خلق حواء ، عند تأملنا في النصوص الدينية في كنزا ربا نجد أن الملاك مندادهيي تقدم برجاء إلى الحي العظيم تبارك في علاه ، أن يبني له بناء وأن يغرس غرساً ، وتعني هنا تكوين أسرة وأجيال وأن يجري له (يردنا) الماء الجاري للصبغة ليرتقي بآدم ، ويثبتته في مكانه بعد أن يحين أجله ، وينصبه في موطن النور عند (اد كاس زيوا) ، ويجعله ملاكاً أثري.

إن تكوين اليردنا هنا هو لغرض التعميد ، فبالصبغة يكون الفرد صابئياً مندائياً ، وبه يبتعد عن المساوي والأدران ، وبالتعميد يرتقي المندائي إلى عالم النور بعد أن يحاسب على مساوئه التي ارتكبها على الأرض ، إن تنصيب آدم في موطن النور ليس بهذا الجسد الفاني ، بل إنه يرتقي بنسمته التي تحل في الجسد النوراني المحدد لها هناك ، ويكون بذلك ملاكاً أثرياً في موطن النور (كون النفس ملاكاً قادماً من عالم النور).

وهناك نصوص مشابهة لهذا النص ، إن أحد رسل النور التمس من الحي الأزلي أن يخلق حواء لتكون رفيقة أو شريكة لآدم ، وكذلك نصوص كنزا ربا الأيمن ١٧ ص ٤٠٠ تذكر أن حواء خلقت لآدم ليتكاثر النسل في الدنيا... إن خلق حواء يعد إنجازاً عظيماً ضد رمز الشر (الروهة) وملائكة الظلام بعد أن حاولوا أن يضللوا آدم ، إلا أن ملائكة النور التمسوا الخالق العظيم أن يمنحهم غرسة أي (حواء) (امنح لنا غرسة نغرسها لآدم ليتكاثر نسله في الدنيا) ، (سننادي على أثرا لآدم) ، (وسنقيم عرساً لآدم) ، (ونعلمه أن يتخذ له امرأة).

ومن جانب آخر نتحدث نصوص (كنزا ربا) الأيمن ١ ص ١٥ (أن ملك النور الخالق العظيم يأمر بتكون عالم وتكوين الإنسان رجل وأنثى يجب أن يكون اسماهما آدم وحواء، وعدد من ملائكة الظلام يجب أن يخدموا آدم ، وثلاثة من ملائكة الضياء والنور يجب أن يرافقوا آدم ، يكون آدم الرجل وحواء زوجته ، وهبطت نشمًا في الجسد ، وعندما هبطت نشمًا في الجسد استوعبا وفهما كل شيء ، وملائكة الظلام جاءوا وسجدوا أمام آدم ولم يبدلوا كلمته...).

وحين نتأمل هذا النص نجد أن الاستيعاب والفهم قد حدث بسبب هبوط نشمًا (النفس) في الجسد ، وكون النفس نفحة من الخالق وهبة منه قادمة من عالم النور ، أما سجود ملائكة الظلام أمام آدم يعني أن آدم أعلى منهم منزلة لكونه يحمل بعض صفات عالم النور ، وأن منزلة آدم هنا منزلة عظيمة ، وخلق حواء بجانبه لتبقى ذريتهما في هذه الدنيا حتى النهاية ، وفي نفس هذا الاتجاه تشير إحدى نصوص كنزا ربا ٥ ص ١٧٦ (وأنا هبيل ياور ، جعلت لآدم زوجة هي حواء لتزدهر وتثبت هذه الدنيا بهما).

وفي كتاب يحيى ص ٤ نجد أن حواء خلقت بهيئة منفصلة من قبل الحي العظيم (حواء زوجة خلقت من وعائها الخاص) ، وفي نص آخر من نفس لكتاب ص ٥٦ (زوجة خلقت هنا كالأرض في هذا العالم) ، وهذا النص نص رمزي حيث ترمز السماء إلى آدم والأرض إلى حواء ، وهذا ليس تقليلاً من شأن حواء إذ أن دلالة الرمز تشير إلى أن الأرض تخصب بماء المطر الذي ينزل من السماء فيحييها وينبت الزرع وينمو وينضج الثمر ، هكذا شبهت حواء بالأرض لكونها تستقبل ماء الحياة من آدم.

إن السلالة البشرية ما كانت لتكون لولا وجود حواء إلى جانب آدم ، بهذا يكون نسل آدم قد تكاثر ، أي أن الحياة البشرية ظهرت بظهور حواء عندما خلق آدم أصبح أملاً لجميع الأجيال ، وبعد أن تمّ خلق آدم وحواء تمّ تعليمهما التراتيل

والشعائر (الطقوس والصلوات والأعمال الصالحة)... هذه هي مكانة حواء في هذا العالم ويجب أن نفهم أن :

- ١- آدم يمتلك النفس التي تمتلكها حواء.
- ٢- حاز آدم على العلم والمعرفة التي حصلت عليها حواء.
- ٣- حصل آدم على الخلاص نفسه الذي حصلت عليه حواء.
- ٤- الطقوس التي تجرى لأدم تجرى لحواء.

المرأة... ما لها وما عليها :

منح الدين الصابئي المندائي المرأة حقوقاً واسعة، وعاملها معاملة مثالية رائعة، وأضفي عليها احتراماً يليق بها ، وساوى في تعاليمه بينها وبين الرجل إلى أقصى حد ، فنسب المواليد إليها ؛ فلان (الاسم الديني) بر (بن) فلانة ، وفلانة (الاسم الديني) بث (بنت) فلانة، وهذا شرف عظيم يمنحه الحي الأزلي للمرأة.

كما أوصى بالزواج ونبذ العزوبة وقال من يعيش بلا زوجة في حياته يكن بعيداً عن الجنة في آخرته ، وأكد أن الإنجاب استمرار للجنس البشري ، به تدوم الحياة وتبقى العقيدة والإيمان ، كما منح الزوجة حق اختيار زوجها دون ضغط أو إكراه على أن تكون هذه الرغبة أو الاختيار مصحوبة برضا الأهل ، وقد ألزم الزوج بالعدل وحسن المعاملة وإعمار الدار واقتسام لقمة العيش مع زوجته وبعدم خيانتها ، وبالعمل على إشاعة السعادة داخل البيت ، كما منع الطلاق إلا في حالات نادرة جداً ، وشجع المرأة على طلب العلم والمعرفة ، ومنحها حق العمل لكسب لقمة العيش. ومقابل كل هذه الحقوق ؛ فرضت عليها واجبات يجب الالتزام بها والحرص على تطبيقها بوعي ونزاهة ، فعليها أن تصون العهد وتخلص لزوجها وتحترم ذويها وتشاركهم في تحمل أعباء الحياة ، وأن تحافظ على أبنائها وترعاهم وتحصنهم بالإيمان من أجل إبعادهم عن الشطط والزلل وطريق الشر ، وأن يكون دورها فاعلاً في بناء الأسرة وتوفير الظروف الحياتية الضرورية للعائلة ، وأن تجعل من بيتها جنة صغيرة لتجد العائلة في ظلها الراحة والسعادة والطمأنينة ، وعليها أن تبتعد عن الإثارة والمتاعب والمنغصات التي تهدد كيان الأسرة.

هذا ما يخص المرأة في علاقاتها الحياتية مع زوجها وأسرته ؛ أما ما يخص علاقاتها بالجانب الديني فعليها أن تصطبغ (تتعمد) في كل مناسبة دينية ، لأن الصباغة تمهد لها طريق الخلاص والغفران ، وبها يتقبل الحي العظيم منها التوبة الصادقة ، ويغفر ذنوبها ويمنحها الطمأنينة وراحة البال.

ولا يجوز لها نقض العهد المقدس الذي يربط بين الزوجين أو الخروج عليه ، وذلك بابتعادها عن كل ما يسيء لسمعتها ولدينها ، ولكي يكون دعاؤها مقبولا من لدن الحي ، ولكي تدخل البركة إلى بيتها يجب أن تكون صادقة مع نفسها وأمام الله ، وألا يغيب اسم (منداهيي) عارف الحياة عن بالها.

كما عليها أن تأخذ دورها الفعال في تربية أطفالها وهدايتهم وأن تجعل من بيتها دار عبادة مثل (المندي) لتوفير الظروف الدينية المناسبة ، كما عليها الابتعاد عن الشعوذة والسحر وعن كل ما يتعارض مع مبادئ وتعاليم ديننا التي تؤكد على النقاء والطهارة وحب العلم والمعرفة.

وعليها أن تتحمل المسؤولية في الوعظ والإرشاد والتوجيه جنبا إلى جنب مع الرجل وضرورة التعاون معه من أجل الوصول إلى الحياة الأبدية الخالدة أمام الحي الأزلي ، وعليها أن تتمسك بعرى الدين ، وتقتدي بجاداتها في السنين الماضية ، وذلك في تناول اللحم (النظيف) المذبوح بطريقة صحيحة ، والاعتماد على الطعام المعد داخل البيت.

وهناك من الأمور ما يخص الطائفة ومستقبلها وما يتعلق وأهدافها وآمالها ، فعلى المرأة أن تضطلع بدور طليعي في نهضة الطائفة وتوجهاتها الجادة من أجل حياة منظمة مشرقة ، ومن الأمور التي تساعد على ذلك إيجاد معلمات ومربيات مندائيات في (المندي) يأخذن على عاتقهن تعليم أبناء الطائفة وتوجيه الأطفال ورعايتهم ، وأن يقمن علاقات اجتماعية وثيقة بين العوائل ويعملن على تقويم الروابط بينها من خلال إقامة الحفلات (عيد ميلاد مثلاً أو حفلة زفاف) ، وإجراء المزيد من اللقاءات عبر الندوات الثقافية والدينية في النادي أو المندي ، ومن خلال السفرات الجماعية ، وعلى المرأة كذلك القيام بتفقد العوائل المتعففة والمعوزة ودعمها مادياً ومعنوياً قدر المستطاع ، والمشاركة في الأفراح والمسرات ، وكذلك في الأحزان والمآتم التي تقام ، والتأكيد على أن المندائيين سواسية وهم عائلة واحدة.

خلق آدم وحواء :

وخلقنا آدم من الطين الأحمر ومن الدم والمرارة وأسرار الكون جُبل آدم وحواء وحلّت فيهما نشمًا بقدره ملك النور... قال الحي : (ليسجد ملائكة النار لآدم ، لا يخالفون له قولاً ، فسجدوا إلا الشريد فقد أبى ، فأسره ربه أسرا).

أنا الرسول الطاهر أمرني ربي أن أذهب ونادِ آدم وحواء زوجة بصوت سنى علم آدم ليستتير قلبه ، وقومه ليستتير عقله وجنانه ، كن أنسًا له أنت والملاك اللذان معك إلى العالم سيهبطان ، علمه وزوجه وذريته الحكمة كيلا يغويهم الشيطان ، علمهم الصلاة يقيمونها مسبحين لملك النور السامي ثلاث مرات في النهار ومرتين في الليل ، قل لهم اتخذوا لأنفسكم أزواجًا وتناسلوا منكم ليزداد عددكم ، وإذ تقربون أزواجكم فأطمشوا وظهروا نفوسكم ، قل يا عبادي لا تزنا ولا تسرقوا ولا تنتهكوا حرمت الناس... كنزاً ربا اليمين الوصايا.

خلق الحي العظيم حواء كما خلق زوجها آدم ، بمعنى أن الملاك بئاهيل صنع الجسد من الطين الأحمر (الصلصال) ، ومن الدم والمرارة وأسرار الكون ، وبعث لها نشمًا بأمر من الحي العظيم وأولجها في جسدها الملاك منداهي ، وليس كما تذكر بعض الكتب أنه أخذ ضلع من آدم ، وعليه تمّ بناء حواء ، لأن علم التشريح يؤكد بالدليل القاطع أن لكل من آدم وحواء ٢٤ ضلع لكل منهما بالتمام والكمال ، أي أنهما متساويان.

إن الحي العظيم أمر أن تكون حواء أنيسًا لآدم ، وأمر أن يتناسلا لتزداد ذريتهم ولتبتهج بهم الدنيا وعمّر آدم ، وبعد عمر طويل عاش آدم ألف عام ، وأتى رسول الحي وأمر آدم أن يخلع ثوب الطين لأن عمره في هذا العالم انتهى ، ولكن آدم خاف الموت وقال للمخلص ملك الموت : يا أبنا إن أتيت معك فديني من سائسها؟ وزوجتي من يؤانسها؟ وأغراسي التي أنا غارسها من حارسها ، من يمد إليهم يد ويكون لهم سند؟ من يبذر البذور المباركات؟ من يحمل الماء من دجلة والفرات؟ من يعين التي تلد؟ من يلاقي الذي يفد؟.

آدم قلق : (إن أنا خرجت من هذا الكساء وأتيته معك فمن سيجرسه في يومه ؟ ومن يوقظه من نومه ؟ من يطعمه ومن يسقيه ؟ وريبع الدهر من يكن صاحبه فيه ؟ من يدفع عنه الرمح إذا دمدم ؟ ومن يبني هيكله إذا تهدم ؟ من يهيئ له محلاً ؟ من يصنع له ظلاً ، من يمنع الشمس إذا تقع عليه ؟ والرياح أن تسعى إليه والأتربة تملأ عينيه ، والطيور إذا بنت أوكارها ، من يذودها أن تطعم من يحيى صغارها ؟).

وأراد آدم أن يصعد جسده مع نشمائه إلى عالم الأنوار ، ولكن المخلص أخبره أنه لا يصعد جسد ولا زوجة ولا ولد ولا أم ولا أب ولا أخوة ولا أخوات ولا أبناء ولا بنات ، ولا ذهب ولا فضة ، إنما الإنسان يصعد مع نشمائه أعماله وصدقته ووسمه وصباغته ، يسأل عنها إذا خرج من الجسد ولن يجيب عنه أحد، إن إخوانك وآباءك في عالم الحق سيكونون الأثريين الصادقين ، اطمئن يا آدم إنك في هذه الحياة لن تتوجع ولن تشيخ ولن تموت موتاً ثانٍ.

البحث الثاني

الصابئة المندائيون ودورهم الحضاري

هناك فرق كبير بين كتابة التاريخ وفق منهج سردي مجرد وبين منهج تحليلي مدروس لبنية الذات الحضارية، ولكي نستوعب الحركة الفاعلة لهذا البناء الحي وقوة تأثيرها في بنية الحضارة ؛ يتوجب على الباحث أن يدقق ويصل إلى مدركات حقيقية ، ولا يتوقف في بحثه عند سطوح الحوادث ، وبعيداً عن الإعجاب الانفعالي والتعصب ؛ نجد أن للصابئة دوراً فاعلاً ومؤثراً في هذه السيرة لا يمكن إغفاله لكونهم عرباً خلصاء جزريين ، يرجع وجودهم إلى تاريخ موغل في القدم، ويتصل نسبهم بـ(آرام) ابن (نوح) عليه السلام... الذي لقنهم الناموس الأكبر "الكنزا ربا" الذي نجد فيه روح جميع الأديان السماوية وتعاليمها...

يقول عنهم الشهرستاني في كتابه "الملل والنحل": "والصابئة كلهم يصلون ثلاث صلوات ، ويغتسلون من الجنابة ومن مس الميت ، ويحرمون أكل الخنزير والكلب، وينهون عن السكر في الشراب، ولا يتزوجون إلا بولي وشهود"... إلا أن الشهرستاني يقول في موضع آخر: وفي اللغة صبا الرجل إذا مال وزاغ، ولزيعهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصابئة!.

وهذا تخريج تنقصه الأمانة ويرفضه منطق التاريخ ، لأن التسلسل السلالي يقول: "إن الصابئة ينسبون إلى صابي بن متوشلح بن إدريس بن سيدنا نوح، والذي كان على الحنفية الأولى"، وهذا صحيح ويؤيده أصل تسمية (الصابئة) لأننا نجد أن مدينة (مأرب) وهي أشهر مدن اليمن كانت تعرف قديماً باسم (سبا) نسبة إلى سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان أول ملوك هذه الأسرة السبئية... وبالتحقيق الدقيق نجد أن التسمية (صبا) و(صابئة) هما تصويت حديث للكلمة (سبا) و(سباي) القديمتين، ونجد أن مدينة (مأرب) هي الأخرى تصويت حديث

لكلمة (ما - ربا) الآرامية التي يتحدث بها الصابئة والتي تعني (الماء العظيم) ، ونستنتج من ذلك أن الصابئة هم الذين بنوا سد مأرب وأقاموا حضارة عظيمة في جنوب الوطن العربي منذ أزمان موعلة في القدم.

وإذا رجعنا إلى بعض الكلمات الصابئية التي ذكرتها الأستاذة ناجية مراني في كتابها مثل كلمة (سبا) تعني (شبع) بالعربية ، و(مصباتا) تعني (صبغ ، تعمد) ، وهذه الكلمات بالحقيقة اشتقت عن صفات السبايين الذين كانوا على جانب كبير من الشبع والغنى ، والاهتمام بالموارد المائية من أجل التطهير والري ، مثل ما كان الناس في العصر العباسي يصفون الكريم والسخي بـ(فلان برمكي) نسبة إلى البرامكة.

أما تسمية الصابئة بـ(المندائيين) التي تقول عنها الليدي دراور "إن سواد الصابئة يسمون بالمندائيين ، أي المعرفيين أو أصحاب العلم ، وهذه التسمية أيضاً اشتقت من صفة الصابئة المعروفين بالحكمة والذكاء ، إلا أن هذه التسمية بالتأكيد قد جاءت من إتباعهم للنبي (مند) ^١ الذي لا يزال مكانه يُعرف بـ(تل النبي مند) قرب منطقة (قادش) التي تعرضت إلى غزو فرعوني في عهد (الحثثيين عام ١٢٠٠ ق.م).

ونرجع إلى (المسعودي) وكتابه "مروج الذهب" الذي يقول فيه : "إن السمنية طائفة انتحلت البوذية وانتشرت في المناطق العربية مثل الشام والعراق ، وأيضاً تسربت هذه النزعة إلى الصابئة ! وهذا عكس ما تشير إليه الدلائل التاريخية ، لأن المعروف عن اللغة الآرامية - وهي لغة الصابئة - قد انتشرت وفرضت وجودها بعد سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م على يد الإمبراطور الفارسي قورش ، واستمرت لغة للعلم والتجارة والأدب والعلاقات الدولية ؛ حتى اضطر موظفو الدولة إلى تعلمها واستعمالها في المراسلات إلى جميع الولايات من مصر غرباً وحتى بلاد فارس والهند ، وبهذه الطريقة ومن خلال السياح الآراميين (الصابئة)

١ - لا يوجد لدى الصابئة الهدائيين نبي باسم (مند) ، وكلمة مندي أو مندئ تعني بيته العبادة.

إلى بلاد فارس والهند ، ونشاطهم التجاري والتبشيري تركوا آثارهم اللغوية والدينية على شعوب هذه البلدان ، وليس كما توهم (المسعودي).

كذلك نجد أن البابليين والآكديين كانوا يرون في الماء مصدر للحياة ويتطهرون به على طريقة الصابئة ، وحتى الشرائع والقوانين العراقية القديمة قد تأثرت بشكل كبير بتعاليم الكنزا ربا ، حيث يجمع الباحثون بالفلسفة والشرائع القديمة أن تشريع حمورابي مستقي من تعاليم إبراهيم... وذهبوا إلى أبعد من ذلك وأكدوا أن البرهمية أو البراهمة أخذت بتعاليم إبراهيم نفسه ، إذا لم يكن هذا الاسم موجود بالهند قبل القرن الذي عاش به إبراهيم...

ويروي الشهرستاني : "ومن مذاهب الهند من يقول بملة إبراهيم عليه السلام ، وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها ، والذي يؤكد هذا الرأي ما نجده من تأثير لغة الصابئة على اللغات الهندية القديمة ، يقول الدكتور على زيعور في اللغة السنسكريتية واللغة الباليوية وفي تجانس الفكر الهندي ، وتفنيات المراقبة (سما - دهي) ، كما يعرف تاريخ الفلسفة فرضية تقول إن أرسطو ينقل ميتافيزيقياه من (السماكهايا) ! بينما يرى آخرون أن (درشنا) هي الأفضل لكونها تعني منهجاً ، وهدفها الأول هو إحكام الحياة والممتلكات (أرثا - Artha).

من هذه المؤثرات الصابئية على الفلسفة الهندية نجد منها اسم الحكيم أو العارف (ريشي ، رشي) ، وتحوي التشريعات الموزعة على اثني عشر باباً تتناول خلق العالم وشؤون طبقة البراهمة مثل : التلمذة والغسل والعبادات وأحكام القرابين والتقدمات والآداب العامة ، وواجبات البرهمي ، مثلاً أن يكون عالماً مضيافاً بلا حد أو شهوات أو كذب ورذائل. وينقل لنا الدكتور زيعور عن الأستاذ جونو هذه الفقرات من كتابه (الفلسفة الوسيطة) : لاحظ أوينسيكريت وجود نقاط شبه جمة بين الهنديات وفيثاغورس وسقراط ودوجانيس طاليس ، وأن الإسكندر أرسل إلى أستاذه رسائل هندية انتفع منها أرسطو في بناء مذهبه.

ومن هذا البحث الموجز نكون قد أدركنا أبعاد الفكر الصابئي وتأثيره الواسع، وأرجو أن يلاحظ القارئ ما في الفلسفات الهندية من أسماء ومصطلحات صابئية مثل (ارثا) التي تعني (الارث) الآرامية، و(سما دهي) و(ريشي) أي (الرئيس) وغيرها كثير لا يتسع المجال إلى بحثها، وتحتاج إلى دراسة موسعة لإبراز فضل الصابئة في نشر اللغة والأدب والتشريع والفلسفة وعلوم الفلك والطب على بلاد الهند والأمم التي تأثرت بها.

من المفارقات في إحدى زيارتي إلى الهند^١ دعانا عميد الأكاديمية الهندسية لحفل زواج ولده، ويظهر أن هذا الرجل من أغنياء الهند بدرجة مهراجا، إذ يملك قصرًا باذخًا يطل على نهر جاري، جرت فيه مراسم الزواج، وأنا دهشت عندما لاحظت رجل الدين وكأنه رجل مندائي بهيئته ورستته (ملابسه الدينية البيضاء)، وبيده المركنة (عصا الزيتون)، ثم العريس والعروس وهما يلبسان الملابس الدينية البيضاء بكل تفاصيل الرسته، وكيف تمت صباغتهم وقطع المهر لهم أصوليًا بالتفاصيل التي يجريها رجال الدين المندائيون في العراق وإيران، وحاليًا في دول المهجر، وزاد اندهاشي عندما شاهدت السكندولة معلقة في هيمنة العريس، وهنا سألت المرافق لنا ماذا تعني هذه؟ فسأل رجل الدين فقال:

الأسد يعني القوة (النار).

النحلة تعني الهواء.

الأفعى ترمز إلى الماء.

العقرب يرمز إلى التراب.

فعند اتحاد الهواء مع النار تنتج الغازات أي النشمتا (نسمة الحياة)، الجانب الروحاني من الإنسان، وعند اتحاد الماء مع التراب ينتج الطين، أي الجسد الجانب المادي من الإنسان، والإنسان يتكون من عنصر روحاني وعنصر

١- من مذكرات المؤلف.

مادي، المهم أن مراسيم عقد الزواج لا تختلف عن مراسيم المهر عند الصابئة المندائيين التي نعرفها.

أنا شخصياً لا أدري بالدقة هل كان للصابئة المندائيين وجود بالهند، خصوصاً في بومباي مثلاً، أم أن العقائد والأفكار هي التي تسافر، وأن هناك من ينقلها، مثلما انتقل الفكر المسيحي بواسطة المبشرين والتجار.

كتبوا عن الصابئة :

الصابئة طائفة تسكن في جنوب العراق ، يبلغ عدد أفرادها نيفاً وأربعين ألف نسمة ، وتدين بدين قديم يعود إلى عهد آدم أبي البشرية ، ويرجح أن موطن الصابئة القديم في (حران) في شمال العراق وأن قسماً منهم سكن إقليم (بشتكوه) ومندلي (جبال ميديا) على الحدود العراقية الإيرانية ، حيث عثر على بعض الآثار لهم.

لكن منازلهم الحالية تقع على ضفاف الأنهر في جنوب العراق وإيران ، وخاصة في ألوية العمارة والمنطق والبصرة ، وفي نواحي المحمرة والأهواز ودزفول ، وقد نزح فريق منهم قبل أمد قصير إلى بغداد وسواها من المدن الكبيرة ، واستوطنوها طلباً للرزق ، وقلما تبعد مساكنهم عن ضفاف الأنهار والمياه الجارية بالنظر إلى ما تفرضه ديانتهم من وجوب التعميد والاعتسار بالماء الجاري في مختلف الأوقات ، وهم يتكلمون العربية كسائر جيرانهم ، إلا أن لهم لغة دينية خاصة بهم تعرف بالمندائية وهي لغة سامية تقرب من السريانية ، وقد تداخلت فيها كلمات فارسية وعربية.

ويعتقد الصابئة بالله علة العلل ويسمونه بلغتهم (اد هيي ربي) أي ربي الحي ، و(ملكا راما دنهورا) أي الملك النوراني الأعظم و(ربي قدمايي) أي الرب الأزلي ، ويقول الدين المندائي بخلود الروح وانتقال الأرواح الصالحة بعد الموت إلى (المي دنهورا) أي عالم الأنوار أو الجنة ، وبتعذيب الأرواح الشريرة في النار حتى تتطهر .

ولا تجيز الديانة الصابئية الطلاق^١ ، ولكنها تجيز تعدد الزوجات ، وتحرم البكاء على الموتى ، وكتبهم المنزلة مكتوبة بالمندائية وهي كثيرة ، أهمها (كنزا ربا) أي الكنز العظيم ، الذي يبحث عن الخليفة ومنشأ العالم ، وكتاب (ادراشا اد يهيا)

١- الطلاق عندهم فراق ، ويحق للزوج والزوجة العودة لبعضهما البعض دون إجراء مراسيم دينية جديدة.

أي تعاليم النبي يحيى الذي يتضمن سيرة النبي يحيى والأحكام والمواعظ الدينية التي أتى بها، ولهم عدا ذلك كتب مقدسة أخرى، منها (سدرنا شماتة) أي كتاب النفوس الذي ينص على أحكام الجنائز ودفن الأموات، وكتاب (القلستا) أي كتاب الفرح الذي يذكر مراسيم الزواج، وكتاب (الديونان) الذي يروي سير الأولياء والأنبياء، وعلماء الصابئة على خمس درجات، أدناهم مرتبة (الحلالي) ويليهِ (الترميدان) أي التلميذ، ف (الكنزبر) أي مفسر كتاب الكنز، ف (الريشما) أي رئيس آمة، ف (الرباني) ولم يحز هذه المرتبة سوى النبي يحيى (عليه السلام)... إن علماء الصابئة في الوقت الحاضر بأجمعهم دون الريشما.

أما الانخراط في سلك العلماء والارتقاء في مدارجه فله شروط خاصة وقواعد صعبة، أما وظائف رجال الدين فكثيرة ولها مساس بكل ناحية من نواحي حياة الطائفة، وأهمها صباغة أفراد الطائفة وتعليمهم أمور دينهم وإجراء عقود الزواج، وكذلك مراسيم ودفن الموتى...

وللصابئة تقويم خاص بهم، بدأ بالخلقة وكذلك ميلاد النبي يحيى (ع)، وسنتهم شمسية تتألف من ١٢ شهر، في كل شهر ٣٠ يوم، وأول شهورهم نيسان، وعطلم الأسبوعية يوم الأحد، ومن أعيادهم العيد الكبير (دهواربا) ومدته ٣٦ ساعة، وعيد البنجة (دهوارونايا) ومدته خمسة أيام، والعيد الصغير (دهوار حنينا) ومدته يومان، وعيد (كورائيل شليها) أي جبرائيل، و(دهواديمانان) ومدته يوم واحد...

وقد اشتهر من الصابئة في سالف الأزمان بعض الأدباء والفضلاء كأبي إسحاق الصابي إبراهيم بن هلال الكاتب المشهور المتوفى سنة ٣٨٠هـ، وحفيده أبي الحسن هلال ابن الحسن صاحب كتاب (الأماثل والأعيان) المتوفى سنة ٤٤٧هـ، وثابت بن قرة الحراني الذي اشتهر بالطب والفلك والفلسفة، والبتاني العالم الفلكي المشهور.

ويزاول الصابئة اليوم من المهن الصياغة والنجارة والحدادة والزراعة، إلا أنهم اشتهروا بصياغة (الميناء)، أي نقش الفضة وحفرها وتلبسها بالميناء، وهي حرفة احترفها أغلبهم وبرعوا فيها وكانوا يختصون بها دون غيرهم في العالم أجمع...

وقد سافر قسم منهم إلى جميع أنحاء العالم، فحازوا إعجاب الجماهير والمراجع العليا بما قدموه من بدائع صنعتهم هذه، ومع افتتاح المدارس في بداية الحكم الوطني رأينا شبابهم يندفعون بقوة لطلب العلم والمعرفة، كما تخرج قسم منهم معلمين وضباط وموظفين صحيين، وامتازوا بالأمانة والإخلاص في العمل والطموح نحو الأحسن.

ومن وجهائهم في زماننا عنيسي الفياض وفندي الفعل، سيف آل مناحي، ضامن حويزاوي، زامل بن مسعود، حلحل بن صنكور وتامول بن جناح، مرعي بن مدلول، داغر الماجد، مجيد آل خالد، جايد آل مدهوش، عمارة آل صحن، كثير بن صكر، شلتاغ آل غافل، عسكر بن رومي، حاكم بن سلطان، مجبور بن طارش، حيدر بن جودة، حافظ بن حريب، نايف الغافل، عزيز بن مسلم، يوسف السالم، رشود بادي، ياسر صكر، نعيم بدوي، غضبان رومي، عبد الجبار عبد الله، عبد الرازق عبد الواحد، ناجية غافل، لميعة عباس عمارة، مكلف سوادي في العصر الحديث.

ومرة أخرى مع الأستاذ المربي الفاضل نعيم عربي ساجت في مقال قيم عن ظهور الدين في حياة البشر؛ حيث ذكر أن ظهور الدين في حياة البشر منذ آلاف السنين بالتأكيد لم يأت فجأة، ومن فراغ، ولم يكن اعتباطاً أو لتurf فكري أو فلكلور، وإنما حتمته الضرورة التاريخية لحياة الإنسان في تلك الحقب السحيقة في القدم، وقد بدأ بإرهاصات فكرية تخيلية لإنسان كان يعيش بأجواء الخوف والفوبيا تجاه التهديد الدائم لحياته ووجوده من عناصر الطبيعة وقواها القاسية المدمرة، هذا من جهة، والحاجة إلى تنظيم حياته ليس كفرد وإنما

كمجموعات بشرية تعيش وتعمل سويًا متحدة متعاونة لأجل بقائهم في تلك الحقب القديمة.

وبلا شك إن هذا قد حدث في حياة الإنسان قبل امتلاكه المعرفة التي تمكنه من سبر أغوار غياهب ما وراء الطبيعة، وقبل أن يتوصل إلى القوانين الوضعية لاستخدامها في تنظيم حياته كإنسان يعيش مع جماعة كمجتمع بشري وليس كما كان تائهاً في الغابات والبراري.

بلا شك إن وجود الرب أو الإله الخالق في فكر الإنسان وتصوره شيء، ووجود الدين كعقيدة للعبادة شيء آخر، إذ لو كان الدين أو العقيدة الدينية يعني الله أو الإله إذن لانتفت حالة أو ظاهرة تعدد الأديان، فيكون في هذه الحالة (إله واحد لدين واحد)، ولكن الحقيقة ليست كذلك، إن تنوع الأديان جاء نتيجة لاختلاف التصورات الميتافيزيقية المتراكمة للبشر عبر تلك الحقب التاريخية المختلفة، فكل جماعة من البشر تعيش في بقعة معينة من الأرض، مجتمع معين اتخذ له تصورات خاصة عن الرب أو الإله، وهذه التصورات لتلك الجماعات بحكم أنها في أماكن متباعدة وبيئات مختلفة، منها في بلاد الرافدين ومصر الفرعونية وفارس والهند والجزيرة العربية واليونان وروما... الخ، لم تنشأ متطابقة بل ظهرت بأشكال مختلفة، وعلى هذه الأشكال من التصورات صيغت الطقوس وطرق العبادة للخالق.

من هنا نرى أن الدين كل الدين الذي هو مجموعة التصورات عن الخالق والطقوس وطرق العبادة الموجودة في الوقت الحاضر لدى الشعوب هي امتداد لتلك الأديان القديمة التي قام بتكوينها الإنسان، إذ لو لم يكن الإنسان صانعها لكانت ديناً واحداً، لكنها رغم الاختلاف فيما بينها بالطقوس وطرق العبادة إلا أنها الآن تلتقي جميعاً في فكرة التوحيد للخالق (الإله أو الله أو الحي العظيم الأزلي أو هوارا مازدا أو يهوه وغيرها من الأسماء للخالق).

وأنها أيضاً تقترب من بعضها في جوهر الدين وأهدافه ، فكل ما جاءت به الشرائع والعقائد الدينية كافة يؤكد على أن الدين هو مسلك وطريق يمنحنا تعاليم وقواعد أخلاقية تحد من أنانيتنا وتلجم أهواءنا السلبية وتساهم في تهذيب غرائزنا ، وتحث نفوسنا نحو السمو والارتفاع عن الحيوانية ، لأن الله لا يريد منا سوى أن نعرف مواقع الخير في نفوسنا ونهتدي بها في حياتنا ونبتعد عن كل الشرور ، وأن نعالج الخلل والاعوجاج إذا تسلل إلى داخل نفوسنا ، فنرتفع إلى رحاب الإنسانية التي يكون فيها الإنسان دائماً مع الحق والعدل ، وبالتالي فهو يحمل مسؤولية مكافحة الخطأ والاعوجاج في المجتمع ومحاربة الظلم والاعتداء والتهور...

يقول المهاتما غاندي زعيم الهند : (إن الديانات دروب تختلف وتتقارب حول الرأي ذاته ، ماذا يهم أن نسلك دروباً تختلف طالما سنصل كلنا إلى الهدف نفسه)... أي عبادة الخالق الواحد والاسترشاد بالتعاليم الدينية.

لقد استغل الدين على مدى الحقب التاريخية من قبل الملوك والأباطرة والسلاطين والطبقات الحاكمة ، بتكريس الدين لخدمة أغراضهم ومصالحهم الخاصة وذلك بتحريف وتشويه تعاليمه في العدالة والمساواة واحترام حقوق الإنسان ، بتخدير الناس وخاصة الطبقات الفقيرة المسحوقة من العمال والفلاحين وكل الكادحين الذين يقوم على عملهم وتعبدتهم ببناء كل مجتمع وديمومة حياته ، وذلك بجعلهم بواسطة الدجالين ووعاظ السلاطين يعتقدون أن هذا هو قدرهم وأن رضى الله من رضى أولي الأمر ، وطاعته من طاعتهم.

نعم... منذ نشأة الدين والحكام جعلوه لخدمة أغراضهم في الحكم والتسلط على رقاب العباد ، هكذا فعل ملوك السومريين والبابليين والآشوريين والفرس والفراعة والرومان واليونانيون القدماء ، وما قامت به الكنيسة في القرون الوسطى لمحاربة الشعب ، وفي طليعتهم الفلاسفة والعلماء الذين كانت تسجنهم في أقبية محاكم التفتيش وبيعها صكوك الغفران ، وما قام به حكام إيران ببيعهم

(مفاتيح الجنة) للجنود الإيرانيين الداهيين لمحاربة العراق ، وكذلك ما قام به الدكتاتور صدام بـ(حملته الإيمانية) لخداع الشعب وتخديره للبقاء في الحكم.

نعم فكل الطغاة والبلغاة استخدموا الدين لخداع الجماهير وحرف نضالها وتطلعاتها في الحرية والكرامة والعدالة ، أما الدين في الوقت الحاضر فهو في المجتمعات المتقدمة حضارياً ، والعلمانية قد أخلت مكانه السابق في التدخل السافر في الحياة المدنية ، وسياسة الدولة لشؤون المجتمع قد أخلت مكانه للدولة لإدارة نظام المجتمع حسب القوانين الوضعية التي تقوم على العلم والمعرفة في كل أمور الحياة المادية والثقافية وتنظيم حياة الناس تنظيمًا حضاريًا تحت ظل القوانين السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحقق العدالة الاجتماعية والحرية السياسية والفكرية بهدى نظريات وأيديولوجيات سياسية مختلفة ، رأسمالية واشتراكية وشيوعية ولبرالية تتنافس في ما بينها بطرق سلمية حضارية تحت خيمة الدولة العلمانية.

هذه الأنظمة الحضارية وقوانينها المدنية جعلت الإنسان ينعم بالاستقرار والاطمئنان ، ويمارس حياته بحرية بعيداً عن أية قيود ، ما عدا الالتزام بالقضايا المتعلقة بالمصالح العامة واحترام حقوق الآخرين وحررياتهم ، والمساهمة في بناء المجتمع على ضوء العلم والتكنولوجيا والأساليب الحضارية الحديثة ، فالدين صار مكانه الحقيقي في داخل الإنسان ، أي بين الإنسان والإله ، فله الحق الكامل في معتقده الديني الذي نشأ هو وعائلته عليه ، وليس هناك الحق لأي جهة أخرى سواء كانت دينية أو مدنية أو سلطة لإجباره على اعتناق دين آخر .

أما الدين في المجتمعات المتخلفة حضارياً فهو لازال مسيساً وفي قبضة وسيطرة الحكام والطبقات الغنية المتنفذة ، فهؤلاء استخدموا الدين سياجاً لحماية مصالحهم ، بتجنيد الكثير من رجال الدين كوعاظ لتخدير الناس وغسل أدمغتهم لكي يظلوا قانعين بحياتهم المزرية التعسة ، فلا يحتجون أو يثورون على ظالمهم ، فهذا هو قدرهم المكتوب على جباههم ، وفي هذه الدول المتخلفة نرى

سيطرة دين واحد على المجتمع ، وبقية الأديان المسيحية واليهودية والمندائية والزرادشتية واليزيدية وغيرها ، فهي تظل أقليات مهمشة في كل مجالات الحياة بل ومحاربة ومحتقرة من قبل معتنقي الدين المسيطر بسبب التوجيه الخاطئ المتوارث...

لهذا نرى التطرف الديني يظهر ويزداد يوماً بعد يوم حتى وصل هذا التطرف الديني بشكل إرهاب دموي مسعور يهدف إلى إلغاء دين الآخرين ، بل وحتى وجودهم في الحياة ، فجعلوا من أنفسهم قضاة وحاكمين بدل الله ، الذي يعرفون هم جيداً كما جاء في كتب الدين التي يدينون به أن الله هو وحده عنده العقاب والثواب ، وكل الأديان تقول إنه ليس هناك من شريك للإله في حكمه وسلطانه ، لا من البشر ولا من الملائكة ، نقول لهؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم شركاء لله في حكمه وسلطانه ، وراحوا ينفذون حكم الموت على كل الذين ليسوا على دينهم ، ونسوا أو تناسوا ما جاء في القرآن الكريم من نصوص عظيمة تدعوا إلى احترام الإنسان من أي دين أو ملة ، والحث على نشر روح المحبة والتآخي بين كافة البشر ، فلو شاء ربك لجعلهم أمة واحدة ، أي لو أراد الله لجعلهم ملة واحدة ، أي ديناً واحداً ، ولكنه حسب هذه الآية أرادهم هكذا أدياناً متنوعة في العالم ، وكلها طرق وطقوس لعبادته.

فالبشر بتنوع أديانهم أشبه بحديقة أزهار متنوعة الأشكال والألوان ، فلا إكراه في الدين ، والشيء المؤسف والمخجل أن نرى التعصب الديني المقيت موجود ، ليس عند المسلمين فقط ؛ بل موجود عند بعض أتباع الديانات الأخرى ، المسيحية واليهودية والمندائية وغيرها ، وقد صدق أبو العلاء المعري رحمه الله إذ قال :

إِنَّ الشَّرَائِعَ الْقَمَتْ بَيْنَنَا أَحْنًا وَهَلَمَّتْنَا أَفَانِينَ الْعَدَاوَاتِ

وقال أيضاً :

لهم ومظ الواعظون منّا ففي الأرض أنبياءُ
فانصرفوا ، والبلاء باقٍ ولم يزل دأؤك العياء
وقال أيضاً :

ففي اللاذقية ضجّة ما بين أحمدَ والمسيحِ
هذا بنافوسٍ يدقُّ وذا بمذنيةٍ يصيحُ
كلُّ يمجّدُ دينه ياليتَ شعري ما الصحيحُ

في حين نرى شاعراً فيلسوفاً صوفياً عربياً مسلماً يعطينا صورةً بمنتهى الروعة والكمال للإنسان النقي الخالي من درن التعصب الديني ، بل دينه كل الأديان ، وحبّه يتجه لكل بني البشر ، إنه (بن عربي) ، إذ يقول :

لقد كنتُ قبلَ اليوم أنكرُ صاحبي
إِذَا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صارَ قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ
فمرّتْ لي غزلانٌ ، وديرٌ لرهبان
وبيتٌ لأوثانٍ ، وعبدةٌ طائفةٍ
وألواحٌ توراةٍ ، ومصحفٌ قرآن
أدينُ بدين الحبِّ ، أتى توجهتُ
رَكائبُهُ ، فالحبُّ ديني وإيماني

ويقول توماس المفكر اللاهوتي الألماني : (النعيم ليس شيء فقط في العالم الآخر ، بل علينا أن نبحث عنه في حياتنا الدنيا هذه، واجب المؤمنين أن يقيموا ملكوت الله على هذه الأرض)...

فيا أيها البشر لنجعل من أشجار حديقة الحياة على هذه الأرض كلها خضراء
بالمحبة والتعاطف الإنساني ، فإله محبة ، والدين محبة ، والحياة محبة ، فعالم
الحب هو الباقي وعالم البغضاء هو المنهزم الفاني ، فلتندحر كل أفاعي الكراهية
والعداوة من حياتنا فلا يبقى من آثار سمومها المدمرة شيء يذكر ، كما تندحر
الظلمة أمام النور ، وفي عالم المحبة وحده يتألق النور...

دراسة التطورات في النقاش حول أصل المندائيين :

تسبب وجود أسطورة هجرة الصابئة المندائيين من حوض الأردن إلى الجبال الميمنية طوراً دماي وحاران في مخطوطة حران كويثا (حران الداخلية) بسبب اضطهاد اليهود لهم ، ووجود بعض العناصر السامية الغربية في الدين (مثل الكرمة جفنا والحق - العهد كسطا) في نشوء نظرية الأصل الغربي للمندائيين مبكراً.

وأشار إلى ذلك مستشرقون كبار مثل نولدكه وليدزبارسكي ، ثم أيدت الباحثة الكبيرة في المندائيات ليدي دراور هذا الرأي لاحقاً ، وهو الرأي الذي صاغه عالم الساميات المعروف رودولف ماتسوخ ، وأيده كذلك كورت رودولف ، من جانب آخر وبسبب الجنور البابلية والرافدينية العميقة للدين ، أشارت أقلية من الباحثين مثل باومغارتر وفورلاني إلى أن أصل المندائيين هو بابل ، وهو الرأي الذي بدأ يتردد مجدداً بين أوساط علماء المندائيات.

يلخص ماتسوخ نظريته في مقدمة كتابه عن اللغة المندائية الكلاسيكية والمعاصرة فيقول : (يجب أن تكون هجرة المندائيين من وادي الأردن إلى المرتفعات الميمنية قد حدثت أثناء حكم الملك الفرثي أرتبان الثالث ، وأثبتت محاولة ك. رودولف لوضع الهجرة في زمن أرتبان الخامس ، وآراء إي. بامل بأنها حدثت في فترة حكم أرتبان الرابع القصيرة ، وهي غير مثبتة تاريخياً ، وقبل انتهاء الحكم الفرثي انتشر المندائيون في كافة أرجاء وادي الرافدين ، وفي القرن الثاني للميلاد أخذ العيلاميون والميسانيون منهم خطهم الذي اقتبسوه من الأنباط).

أما كورت رودولف فيقول في كتابه (المندائية) لأيدن ١٩٧١ : (من الصعب الحديث عن أصل المندائيين وتاريخهم لأنه أمر لم يدرس في كتبهم على الإطلاق ، وهم أنفسهم يعتقدون أن دينهم كان الأول ووضعه عالم النور ، ولا يعنيه تاريخ هذا العالم في شيء... وتوجد أسطورة متوارثة عن اضطهاد

الجماعة (بالأصح ٣٦٠ كاهن) في أورشليم على يد اليهود الذين قادهم أدوناي والروها والشوفا ، ويعتقد أن تدمير أورشليم على يد قوى النور جاءت عقاباً لليهود على ذلك... علاوة على ذلك نجد في حران كويثا تفاصيل إقامة الناصورايي في تلال ميديا (طورا دماادي) أو حران الداخلية ، حين هربوا بقيادة الملك أردبان من الحكام اليهود ، وتم تشخيص أردبان الغامض هذا بالملك الفرثي أرتبان الثالث ، أو الرابع أو الخامس ، أي في فترة حكم الملوك البارثيين المتأخرين في القرن الأول أو الثاني الميلادي...) ، وأدوناي هو إله اليهود ، الروها هي روح العالم المادي الشريرة والشوفا (شفايهي بالعامية المندائية وهي شوبا أو شوفا أي السبعة) هم الكواكب السبعة الشريرة ، أعوان ملك الظلام.

ويستمر رودولف في تحليل نمط ومواضيع هذا التراث المندائي القديم ومقارنته مع مختلف النصوص اليوحناوية يوضح بأنه يرتبط بالتراث المسيحي الفلسطيني السوري القديم ، ولا يعطينا الأدب المندائي أية إشارة إلى أن الطائفة كانت في يوم من الأيام مسيحية ، على العكس من رأي بعض العلماء...

ومن الأفكار القديمة نجد بهيري زدقا (المختارون الحقيقيون) ومار إد ربوثا (رب العظمة) وراز (السر) ، والكثير من المصطلحات واللغة الرمزية حول التعميد ، وكأنها تكرر لنصوص قمران ، والأردن دائماً هو اسم أي ماء مناسب للتعميد للمندائيين ، وتؤكد العلاقة الواضحة مع الطوائف المعمدانية شرقي الأردن ومع المسيحية البدائية في سوريا ، علاوة على العديد من العناصر السورية الغربية المميزة في اللغة والميثولوجيا المندائية مثل (منداء، ناصورايي، جفنا ، كسطا ، والملائكة التي تبدأ ب "يو") ، نظريتنا في الأصل الغربي للمندائية.

أولاً : نترك المواضيع المتعلقة بهجرة ما جانباً ، فهي تكرر لتقاليد قديمة (هجرة إبراهيم إلى حران ثم إلى كنعان ، هجرة أخوة يوسف إلى مصر ثم

الخروج العبري من مصر بقيادة موسى ، هجرة يسوع وعائلته إلى مصر...
(الخ).

وهناك أمثلة عديدة في تاريخ الأديان حول اقتباس أساطير وقصص من الشعوب الأخرى ، (والمثال الأسطع هو إطلاع اليهود على الميثولوجيا والأساطير الرافدينية بعد نفيتهم إلى بابل ، ومنها استمدوا أساطيرهم بعد تحويلها ، مثل الخليفة والطوفان ، وذلك عند تحرير التوراة وكتب الأنبياء والمزامير وغيرها من كتبهم في فترات متأخرة) ، ما يهنا هو العناصر الغربية في الدين المندائي.

أحد أهم العناصر هو تعبير (ناصراني) وهو العالم في الدين والمتبحر في أموره وأسراره ، فمن أين أتت هذه الكلمة وما معناها ؟ ، أصل الكلمة الفعل نصر هو صيغة قديمة للفعل نظر ، ومنها ينظر ، أي يحرس ، يحمي ، ومنها الناظر أي الحارس ، وهي كلمة معروفة في العديد من اللغات السامية مثل العبرية والآراميات وحتى العربية ، لكن المهم هو استعمالها الديني ، فهي لا ترتبط بالمندائية فحسب ، بل بالقمرانيين وباقي طوائف البحر الميت وبالمسيحية كذلك.

نجد في نصوص قمران مصطلح نوصري ها- بريت ، وهو يعني حرفياً حماة العهد ، في إشارة إلى عهد يهوه مع إبراهيم في التوراة ، وهي تسمية أطلقها مؤلفوا النصوص القمرانية على أنفسهم ، وتختصر بالعبرية إلى نوصريم ، ويمكن اعتبارها الاسم الذي عرف به القمرانيون أو غيرهم أنفسهم.

ومن المؤكد أن التسمية العربية للمسيحيين ، النصارى ، هي على نفس النحو وليس من النسبة المفترضة للمسيح إلى مدينة الناصرة التي لم تكن قد وجدت في عصر المسيح ، وإنما ظهرت في فترات لاحقة بعد تدوين الأنجيل (القرون الثاني والثالث الميلادي) ، فيسوع نفسه كان يلقب بالناصراني أو النازاري (تحولت إلى الناصري بالعربية).

ويجب الحذر عند الاعتماد على المصادر المسيحية أو الكلاسيكية ، فغالبًا ما يرتبك الأمر على الكاتب والناسخ بسبب ضعف الإطلاع على ماهية أديان أو طوائف تتميز بسرية التعاليم أصلاً ، وبسبب التشوش الهائل الذي سببه التغير في النطق عند ترجمة الأسماء من العبرية والآراميات إلى اليونانية واللاتينية ، فهناك إشارات في كتب الآباء المسيحيين الأوائل وكتب المؤرخين القدماء إلى طوائف في شرقي الأردن تشابه في أسمائها مع ما نعرفه من الأدب المندائي .

فيذكر هيغسبوس (من القرن الثاني الميلادي حسب كتاب تاريخ الكنيسة ليوزيبيوس الذي توفي في ٣٣٩م) الطوائف اليهودية السبع وهي : الأسينيون ، الهيميروباتست (المتعمدون في النهار) الجليليون ، المصبوثيون (المعمدان) والسامريون ، والصدوقيون والفريزيون ، فالمتعمدون في النهار ، والمصبوثيون هي أسماء قد تكون لطائفة معمدانية واحدة ، الأولى عرفت بالاسم اليوناني ، والثانية عرفت بالاسم الآرامي .

ويتحدث أبيفانيس أسقف سلامينا (أواخر القرن الرابع) عن الناصورائيين والنازاريين والأوسيين في حوض نهر الأردن ، وقتها كان المندائيون يعيشون في ميسان ، أي جنوب العراق ، ونجد في مخطوطات قمران تسمية ثانية للجماعة القمرانية ، وهي "عوسي ها- تورا" ، أي مطبقي أو محقق التوراة ، وتختصر إلى عوسيم ، وهي نفس الأوسيين التي تحدث عنها أبيفانيس .

وكما مرّ فإن ناصوري ونازاري تعودان إلى جذر نصر ، أو نظر بمعنى ناصوري ، وتغير اللفظ حسب تأثير اللغة اليونانية أو اللاتينية ، لغة المصادر التي نقلت إلينا الأخبار الشحيحة عن هذه الطوائف ! ، المصطلح إذن شائع في تلك الفترة ، حماة العهد ، حماة الدين ... الخ ، ولا يرتبط بدين معين كما رأينا .

وعن علاقة اليردنا بنهر الأردن فالأمر واضح ، ولا يمكن اعتبار استعمال المندائيين كلمة يردنا هي دليل على الأصل الغربي وإشارة إلى نهر الأردن الحالي ، تعني كلمة يردنا في اللغات الآرامية الماء النقي الجاري ، ويبدأ

البارسيون (في الهند) أسماء الأنهار بسابقة هي "أرد"، وهناك العديد من الأنهر في أوروبا تذكرنا باليردنا : الرون والراين ، ولا ننسى رودانوس التسمية القديمة، على ما يبدو أن الكلمة ترجع في فترات بعيدة في تاريخ البشرية القديم. إن الطبقة الأساسية للدين المندائي رافدينية الطابع ولا يمكن تصورها في أية بيئة ثانية عدا بيئة الأهوار والأنهار والماء الوفير في جنوب العراق كما يشير عزيز سباهي بصواب في كتابه "أصول الصابئة"، فهل يقبل المنطق العلمي وضع كل العناصر البابلية الغزيرة في الأدب المندائي جانباً ، والتشبت بحفنة من العناصر الغربية في الدين لإثبات نظرية الأصل الغربي؟.

والأهم من كل ذلك هو وجود العناصر الغربية في جنوب بابل في تلك الفترة، متمثلة باليهود الذين آثروا البقاء في جنوبي وادي الرافدين على العودة إلى أرض كنعان، فما الداعي لاستيراد العناصر الغربية ما دامت قد جاءت من قبل مع اليهود الذين سباهم الكلدانيون إلى بابل وبقوا على اتصال ببلاد كنعان؟ هذا ينطبق مثلاً على ما يسميه المستشرقون "مخلوقات يو"، مثل الملائكة يوشامن ويوزاطق وغيرهم ، وسابقة يو هذه تعرف بالحرفين ، وهي مختصر للحروف الأربعة يهوه إله العبرانيين القومي ، وهناك الحروف الثلاثة يهو (ياهو ، مثلاً في نتانياهو) ، واسم يهوه مقدس عند اليهود لا يلفظونه، بل يقرأون إيلوهيم بدلاً منه، لذلك يجري تحريك كلمة يهوه بحركات كلمة إيلوهيم في النصوص.

ويوشامن هو اسم مستعار من التراث الكنعاني ، وأصله بعل شمين أي سيد السموات (في الأصل بعل شمايم ، تحولت إلى بعل شمين ، ثم إلى يوشمين عند اليهود ومنها اشتق المندائيون يوشامن)، أما يوزاطق فهو من يو - صادق ، ومن المفترض أن تكون الصيغة المندائية ليوحنا المعمدان يهيا يهانا (يحيى يوحنا) على نفس الشاكلة ، لكن لماذا لا يكتبه أو يلفظه المندائيون يوهانا بدلاً من يهانا التقليدية؟ هذا أمر لم يتطرق إليه أحد ويتطلب البحث.

إن اقتباس المندائيين هذه الأفكار من جبرتهم لليهود في بابل هو أسهل بكثير من نقلها عبر هجرة واسعة من وادي الأردن إلى حران فبابل ، ولربما هاجر

عدد صغير ممن كانوا يسمون بالناصرائي من حوض الأردن فعلاً، وانضموا إلى المندائيين الموجودين أساساً في أرض بابل، وهو أمر تشير إليه لفافة حران كويثا صراحة، لكن ذلك ما لا يمكن نفيه أو إثباته في الظرف الحالي، ومع ذلك وحتى التسليم باحتمال مثل هذا لا يفترض تأييد نظرية الأصل الغربي مادام القادمون الجدد انضموا إلى جماعة قائمة منذ زمن، ولم يأتوا بدين جديد.

ولعبت نظرية الأصل الغربي دوراً في تعقيد الصورة المعقدة أصلاً، على سبيل المثال أثناء النقاش حول الخط النبطي في الغرب والخط العيلامي في الشرق، فمن يؤمن بالأصل الغربي لابد وأن يقول بأسبقية الخط النبطي على المندائي لأن الصورة لا تستقيم إلا هكذا، فيكونوا قد أخذوا الخط من النبطيين بطريقهم إلى ميسان، حيث اقتبسهم منهم العيلاميون كما رأينا عند ماتسوخ.

ومن المفترض أن الخط المندائي كان قد بلغ اكتماله في القرن الثالث الميلادي، ويصعب تصور اقتباسه من العيلاميين كما يرى يوسف نافيه أو يانوش هارماتا لأسباب تتعلق بتاريخ التدوين عن الشعوب الإيرانية التي لم تطور أبجدية خاصة بها، ولم تستقر على أبجدية إلا بعد الإسلام عندما اختارت الحروف العربية، وحتى الأبجدية الفهلوية كانت تتألف من ثلاثة عشر حرفاً فقط، ولو كان العيلاميون هم من ابتكر وطور الأبجدية هذه، فلماذا نبذوها ولم يستعملوها لاحقاً؟.

من جانب آخر ذكر رودولف أن المندائيين طوروا أبجديهم بعد وصولهم إلى ميسان، وستظل الأبجدية رهينة النقاش حول أصل المندائيين رغم اللقي الأثرية من نقوش ونقود وكتابات... خلال مؤتمر جمعية آرام عن المندائيين في أوكسفورد في عام ٢٠٠٢، شددت الدكتورة كريستا مولر - كسلر على ضرورة فتح ملف أصل المندائيين مجدداً وفقاً للمعطيات الجديدة التي أفرزتها دراسة اللقي الأثرية في وادي الرافدين.

وكسلر مهتمة بدراسة نصوص التعاويذ التي عثر عليها في وادي الرافدين منذ القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين ، والتي بقيت في المخازن دون ترجمة، وتعتقد كسلر أن الدين المندائي تكون في جنوب وادي الرافدين وتتكرر الأصل الغربي لعدم وجود ما يبرر هذه النظرية ، أيدها في ذلك البروفسور المؤرخ أدموندو لوبييري من جامعة أودينا الإيطالية ، وترى مولر- كسلر أن نصوص التعاويذ المندائية كانت موجودة وتلمس الكثير من عناصرها في نصوص تعود إلى فترات أقدم من الهجرة المفترضة، إلى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد مثلاً.

وتدل الدراسات الحديثة حول نصوص الأدعية المندائية أن هذه النصوص رافدينية جنوبية بالتمام ، لا بل تحمل بصمات محلية ضيقة غير معروفة حتى في مناطق أخرى قريبة من بلاد الرافدين ، وتجادل كسلر أنه كان على الجماعة المهاجرة من فلسطين في القرن الأول أن تغير لغتها وتترجم نصوصها الدينية بثلاث لغات خلال فترة زمنية قصيرة تقرب من مائة عام ، هي الفترة الفاصلة بين انطلاقهم المفترض من حوض الأردن لغاية وصولهم إلى جنوب وادي الرافدين ، وهو أمر مستحيل عملياً ، بالإضافة إلى أن مثل هذه الترجمة للنصوص لا بد وأن تترك بصماتها ، مثل وجود عناصر لغوية ومفردات من اللغة الأسبق ، وهو أمر لا نعثّر عليه في النصوص المندائية.

وتقول في دراسة سابقة لها صدرت في مجلة آرام (عدد ١١ - ١٢) : أن إحياء دراسات النصوص المندائية القديمة المكتوبة على الرصاص والأوعية الخزفية في السنوات الأخيرة يجبرنا على إعادة تقييم معلوماتنا عن معرفة المندائيين للثقافة البابلية القديمة ودورهم في نقلها ، كذلك أن نصوص التعاويذ المندائية هذه بالذات هي التي ترتبط بشكل وثيق بقضية أصل المندائيين ، هذا الأدب الخاص يكشف معلومات مفصلة حول الكثير من الأسئلة التي لم تحصل إجابتها. إن طبقة الصوتيات والمفردات والتعابير في اللهجة المندائية يجب أن

تكون أدلة كافية لإثبات الأصل البابلي للمندائيين ، لكن يبدو أن هذه الحجج اللغوية لم تكن مقنعة بالنسبة لأجيال من علماء الأديان.

ولم تقنع هذه الحجج البروفسور رودولف، فهو يعارض هذا الرأي حتى الآن ، ويصر على أنه من الصعب تحديد أصل المندائيين بالاعتماد على دراسة نصوص الأدعية وحدها ، وبظهور الأجيال الجديدة من علماء المندائيات ، وتزايد الاهتمام بدراسة اللقى الأثرية - وهي الأدلة المادية على تاريخ جماعة ما - يأخذ الخوض في أصل المندائيين منحىً جديدًا ، رغم تعقد الموضوع وتشابك عناصره وشحة المصادر التاريخية والأثرية التي ترتبط بالمندائيين.

الأغلبية والأقلية^١:

في مقال له ؛ كتب الأستاذ زهير كاظم عبود أنه ترد كلمة الأغلبية والأقلية كثيراً في التصريحات والمقالات التي يكتبها المعنيون بقضايا الدستور والحقوق حيث يجري تقسيم القوميات والأديان إلى أكثرية وتليها أقلية ، ولا يختلف أحد من كون العراق يتشكل من قوميات متعددة وأديان متعددة أيضاً ، وهذه القوميات والأديان تعايشت بانسجام وبمودة ووثام طيلة فترات طويلة من التاريخ العراقي ، ولم تبرز في علاقتها أية شروخ أو فواصل لولا تدخل السلطات التي أبنتها بها العراق ، وطغى عليها الفكر الشوفيني والشمولي في اعتقادها بأن تغليب قومية على باقي القوميات ، تغليب دين على باقي الأديان ، أو تغليب مذهب على بقية المذاهب ، وإطلاق تسمية الأغلبية والأقلية ضمن النصوص الدستورية سيساهم في تغييب الأكثرية وتشير ضمن هذا المفهوم إلى القومية العربية ، وكما يشير دين الأغلبية وهو الدين الإسلامي الحنيف ، وتعني المفردة حق سيطرة الأكثرية على الأغلبية من منطق أن الأكثرية هي التي تحكم.

واستمر العمل بمنهج الأكثرية والأقلية حتى اقترنت كلمة الأقليات بالقوميات الأخرى ، غير القومية العربية أو الكردية المميزة بثقلها السكاني في العراق ، وأصبحت هذه الكلمة لازمة القوميات تسكن العراق ، ولها حقوقها الدستورية وواجباتها المنصوص عليها ، وهي القومية التركمانية والكلدانية والآشورية ، كما انسحبت على الأديان التي تدين بها الأقلية ، وهي الديانة المسيحية واليهودية والصابئة المندائية والإيزيدية.

وتضمنت النصوص الدستورية التي تمّ اعتمادها في العراق منذ تأسيس الدولة العراقية ولحد صدور قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية تعابير مختلفة على الأقلية منها الطوائف كما وردت في عدة دساتير ، وكذلك كلمة (الإسلام وغيره من الأديان والطوائف).

١- يرجى الاطلاع على مقالات الأستاذ زهير كاظم عبود.

إن إشارات خجولة مثل هذه ترد في نصوص الدساتير المؤقتة تعني أن تكريساً للزعم بوجود مساواة بين القوميات والأديان في العراق حبر على ورق دون أن يتم ترجمة وتجسيد هذه الحقوق، لا نتطرق إلى مسألة حقوق الأديان والمذاهب في ممارستها عقائدها وطقوسها بما لا يتعارض مع النظام العام والآداب، إنما نعني مسألة المساواة بين القوميات المتآخية في العراق.

يتم احتساب حقوق هذه القوميات وفقاً لنسبة أعدادها من مجموع السكان في العراق، وعلى هذا الأساس فإن للقوميات غير العربية والكردية نسبة ضئيلة لا يؤشر مساهمة جدية في حقل المساواة بين القوميات في العراق، والأمر نفسه ينسحب على الدين حيث تكون الأديان الصابئية المندائية والإيزيدية تشكل نسبة ضئيلة مقارنة بنسبة عدد المسيحيين والمسلمين في العراق.

وعلى هذا الأساس فإن الحق سيتم تجزئته وتقسيمه وفقاً لنسب محددة، وبهذه الطريقة سيتم تغليب قوميات على أخرى، وسيتم تغليب ديانة على أخرى، مما يتنافى مع مبدأ المساواة التي وردت ضمن نصوص الدساتير الأساس والمؤقتة، وبما فيها قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، والذي أكد في المادة الثانية عشر أن العراقيين كافة أي بمختلف قومياتهم وأديانهم متساوون في الحقوق، وبهذا الشكل الذي يفقد المساواة معناها الحقيقي ويجزء الحقوق إلى نسب، سيكون لهذه القوميات والأديان نسبة من التمثيل وجزء من الحقوق بما يتناسب مع هيمنة القوميات والأديان التي تسود الساحة العراقية، وسيكون هذا التمثيل النسبي ليس له تأثير مطلقاً ولا يمكن أن يصل إلى مستوى القدرة في صنع القرار أو المساواة مع القوميات والأديان الأخرى.

ويبدو أن المعاناة التي عانى منها المواطن العراقي طيلة الفترة من تشريع القانون الأساس في العام ١٩٢٥ ولغاية تشريع قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية لم يلتفت إلى هذه الناحية المهمة، وأعني بها مسألة التعايش الحقيقي والمساواة في الحقوق.

وإذا كانت جميع النصوص التي وردت في القانون الأساس والدساتير المؤقتة وقانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية جميعها تشير إلى مبدأ المساواة ، فإن اللائحة الدولية لحقوق الإنسان أكدت على هذا المبدأ ، وألزمت الدول الموقعة على الإعلان على اتباعه والالتزام به ، والعراق من ضمن الدول الملزمة بذلك.

إن نصوص تدعو إلى المساواة ستصطدم بعقبة كبيرة جرى العمل بها ، وهي مسألة الأكثرية والأقلية ، وهذه القضية ستحرم أعداد كبيرة من أبناء العراق من تمثيل حقيقي ومساواة دستورية في التمثيل البرلماني القادم.

إن التمثيل النسبي الذي سيتم تطبيقه في العراق واعتبار العراق منطقة انتخابية واحدة سيجعل أملاً وفرصة لهذه القوميات والأحزاب الصغيرة في الحصول على تمثيل لها في البرلمان القادم ، ولكن الحقيقة أن هذا التمثيل يبقى رمزياً وغير فاعل بالنظر لعدم تمركز العديد من أبناء هذه القوميات أو الأديان في مركز انتخابي واحد ، بالإضافة إلى توجه العديد من أبناء هذه القوميات الصغيرة والأديان إلى انتخاب أحزاب سياسية كبيرة يرتبطون بها تنظيمياً أو يتعاطفون معها ، مما سيضعف أيضاً صوتها من هذه الناحية.

إن موقفاً طوعياً واستيعاب سياسي وتنظيمي لهذه الأحزاب بأن تضم في قوائمها ممثلين لهذه القوميات والأديان لا يشكل منة من هذه الأحزاب بقدر ما يسجل لها موقف وطني ومعرفة وحرص أكيد على مصلحة الشعب العراقي ومستقبله السياسي الديمقراطي والفيدرالي والتجارب الدستورية والبرلمانية التي مرت بها دول عديدة تشكل تجربة ثرية يمكن الاستفادة منها في تشكيل صورة عراقية ما دام الهاجس الأساسي في خلق تعاضد وطني ، وتمثيل حقيقي للجميع لغرض المساهمة في ترميم وبناء العراق.

والمملكة الأردنية الهاشمية بلد مجاور يعتمد تخصيص اثني عشر مقعد من أصل ١١٢ مقعد في البرلمان الأردني يتم تخصيصها للمسيحيين والشركس ،

ويتم التنافس فيما بينهم على تلك المقاعد ، وعند التمعن في عدد سكان المملكة الأردنية سنجد أن هذه المقاعد نسبة إلى مجموع مقاعد البرلمان لا تتناسب مع مجموع السكان من المسيحيين والشرقس ، وإنما وفقاً لمبدأ المساواة والجدية في التمثيل البرلماني مع أن الأغلبية الساحقة في الأردن من المسلمين والعرب.

كما أن بلجيكا أيضاً سعت إلى تجسيد المساواة بشكل يتوافق مع النصوص الدستورية واللائحة الدولية ؛ حين ساوت في الحقوق بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالهولندية مع الناطقين بالألمانية ، بالرغم من تفاوت النسب حيث تشكل الجماهير الناطقة بالهولندية الأكثرية وتليها الناطقة بالفرنسية ، في حين لا يتجاوز الناطقين باللغة الألمانية نسبة لا تصل إلى ٢% من مجموع السكان ، ولكنهم يتساوون مع الطرفين بقصد إيصال الجميع بالتساوي إلى البرلمان باعتباره ممثلاً للشعب ، كما أن انضواء هذه القوميات والأديان الصغيرة تحت عباءة قوميات وأديان أخرى يجعل منها تابعاً ليس له مبرر ، وهيمنة على أصواتها في حين يقتضي المنطق أن يتم إطلاقها ومنحها حريتها وقابليتها على التعارض أو التوافق.

الإطار الديمقراطي الذي يسعى إليه جميع العراقيين يتشكل في أن يكون للجميع صوت مؤثر ومساهمة إيجابية متساوية في البناء المستقبلي للعراق ، فمثلاً يكون للعربي وللكردي يكون أيضاً للكلداني وللأشوري والتركمان ، ومثلاً يكون للمسلم والمسيحي يكون للصائبي المندائي وللإيزيدي وللإيهودي هذا الحق أيضاً.

إن إعادة النظر في مفردات الأقليات والأكثرية تدفعنا للتفكير بمعادلة وطنية يتم إنصاف هذه الشرائح التي لم يقل نضالها وتضحياتها في سبيل العراق طيلة التاريخ القديم والحديث ، كما أن من حقائق العراق وجود هذه القوميات والأديان والمذاهب ، والتي اتفقت جميعها على إلغاء سيطرة قومية على باقي القوميات ، فقد حولتنا السياسة الشوفينية إلى بلد تراجع في كافة مناحي الحياة ، وقد آن

الأوان أن نركلها إلى غير رجعة ، وأن ندفع بأخوتنا من القوميات الأخرى المتفاعلة والموجودة فعلاً في الساحة العراقية ، كما ندفع بالأديان العراقية الجميلة والعبة ، المتأخية من أجل المساهمة الفعالة في رسم معالم الدستور والبرلمان العراقي القادم ، بما يحقق ترجمة الحقوق المتساوية فعلاً ، إذا كان الهاجس الأساسي الذي يدفعنا هو بناء العراق وبدء الخطوات الديمقراطية الأولى ، دون أن يكون هدفنا إلغاء الآخر واحتواءه أو السيطرة على السلطة التي لن تدوم لأحد مطلقاً... النظام الديمقراطي والفيدرالي الذي ننتظر يوجب علينا أن ننظر بمنظار عادل ومتساوي لكل القوميات دون حساب للحجم والنسب والبيانات والخطوط والفوارق ، ودون أن نضع فوارق بين الأديان في العراق.

يقيناً أن في هذه الالتفاتة الوطنية وقفة نتجرد فيها من العديد من التراكمات السلبية والمخلفات التي تركها في نفوس العديد ، منها التجارب الشوفينية المريرة والثقافة الظالمة في أن تكون كل القوميات تابعة لقوميتنا ، وأن تكون كل الأديان تحت سلطة ديننا والإسلام من هذا براء.

والاعتقاد بحق الآخر في الحياة العراقية يوجب علينا أن نجدد المناهج بما يجسد حق الإنسان في الحياة ، فالحقوق لا تتجزأ ، والحقوق ليس منة يمكن أن تتوسل بها لتمنحك إياها سلطات وأحزاب ، وإنما هي حقوق موجبة مقرر شرعاً وقانوناً ، وهي وجهة نظر قابلة للنقاش ومنطلق يمكن أن يخلق لنا أفكاراً أكثر سعة ، أكثر صورة من أجل العراق الديمقراطي والفيدرالي الذي ننشد ، فقد حل علينا زمان جديد حق علينا أن نفكر بطرق ننصف بها أخوتنا الأكراد والتركمان والكلدان والآشوريين ، وحق علينا أن نقر ونعترف بحقوق مغبونة للصابئة المندائية والإيزيدية منذ زمن طويل ، وأن الأوان أن نكشف عنها هذا التراكم الثقيل من الظلم.

إن الإصرار على تطبيق سطحي لمفهوم الأكثرية والأقلية على القوميات في العراق لا يجعل أساساً طبيعياً للحياة المستقبلية الديمقراطية ، وكما لا يؤسس

لحياة يتعايش فيها الإنسان بكرامة وحقوق متساوية في العراق ، وعلى من يريد أن يجعل للمساواة ملامح حقيقية في الحياة العراقية والعمل الديمقراطي ؛ ينبغي أن نقوم بتطبيق مبدأ المساواة على الجميع دون أن تكون هذه المساواة مفصلة.

على النسب المئوية ؛ فالسعي من أجل إعادة بناء العراق والعمل من أجل ترجمة حقيقية لحقوق الإنسان والمجتمع المدني يجعل للإنسان كقيمة عليا أساساً في مبدأ المساواة وحضور في الحياة العراقية الجديدة ، وأن نقرأ التجربة المريرة التي مرّت بالعراق دستورياً وسياسياً ونستل منها ما يفيد المستقبل العراقي.

وفي تكريس مبدأ التوزيع على حساب الأقليات أو القوميات الأخرى لا يحل لنا مشكلة طويلة وعسيرة طالما عانينا منها في العراق ، وطالما تذرعت السلطات بأن لا خيار ولا حل لديها غير الإقرار بالأمر الواقع ، وعلى هذا الأساس يبقى الحال على ما كان عليه في حكم القومية الكبيرة للقوميات الصغيرة في العراق ، وبذلك نتحول إلى مبدأ جديد مستتر يكمن في انضواء أي قومية صغيرة تحت عباءة القومية الكبيرة مع صيغ دستورية ونصوص قانونية عامة لا تفيد الحق والحقوق ، وبقصد ذر الرماد في العيون.

ونعاني في العراق من قضية عدم المساواة في الحقوق بين القوميات ، وأن مجرد وجود النصوص لا تعكس حالة إيجابية أو حقيقية على مسألة الشروخ والفجوات التي تتعامل بها السلطات البائدة في قضية القوميات في العراق ، شروخ عديدة ينبغي أن تتم دراستها بصراحة وبشفافية بقصد التوصل إلى حلول إيجابية نتجاوز بها عملياً الفترات السابقة التي كان فيها المواطن العراقي من القومية غير العربية يعاني معاناة قاسية دون أن يحق له أن يعترض أو يرفع صوته عالياً بوجه السلطات ، أو على الأقل يطالب بتطبيق حقيقي لنصوص الدستور.

ومن بين أهم التعابير التي تعاني منها القوميات في العراق تعبير (الأقليات) ، والتي تشير إلى عبارة القلة من البشر ، والتي توحى أو تهدف إلى إبقاء هذه

المجاميع البشرية تحت سلطة (الكثرة) وأن تكون نسبة حقوقهم بقدر النسبة
المئوية الخاصة بمجموعهم ، ويشكل الأمر غبنًا لمبدأ المساواة في الحقوق ،
وكما يشكل أيضًا تسطيحًا لمبدأ الحق الذي ينبغي أن يتساوى فيه البشر في كل
زمان ومكان، بصرف النظر عن القومية أو الدين أو اللغة أو الفكر أو الجنس.

البحث الثالث

نظرة إلى اللغة المندائية

لا تزال المندائية ؛ كما كتب الدكتور يوسف قوزي في مقال له ؛ بقواعدها وأبنيتها اللغوية في شرقنا الأوسطي أرض شبه بائرة ، لم يحاول أحد بجدية وعلمية أن يفلحها ويستخرج بعض من مكنوناتها وصيغها العريقة القديمة ، والسبب في رأينا هو قلة عارفيها وزوال الناطقين بها فيما عدا استعمالاتها المحدودة في المراسيم الدينية لدى المندائيين وحدهم ، وهم قليل عددهم كما هو معروف ، لكن المستشرقين الأوروبيين من أمثال الفرنسي بونيون والألماني نولدكة وبروكلمان وليدزبارسكي ورودولف والانجليزية دراور ، عملوا الكثير حقاً في ميان هذه اللغة التي هي إحدى اللهجات الآرامية.

فاللغة المندائية في رأينا وبعد احتكاكنا بها عن كثب هي مزيج من لهجات السورن التي ما يزال يتداول بها السريان الشرقيون والغربيون من اللغة السريانية الفصيحة المعروفة ، إلا أن أحد من أصحابها - ومع الأسف الشديد - لم يبذل جهداً علمياً كافياً لاستخراج مكنوناتها أو الكشف عن كنوزها اللغوية والأدبية والدينية المخفية هنا في الشرق.

وحسب علمنا أن هناك الآن في العراق محاولات جادة ، وإن شاء الله قد تكون مثمرة فعلاً فيما يتعلق بالمندائية ، ومن أجل أن نكون صادقين ودقيقين ومنصفين تجاه اللغة المندائية وأصحابها الذين حافظوا عليها مخفية في مخطوطات قديمة ، نقوم في هذه العجالة بدراسة لغوية خاطفة لإحدى مواضع كتابهم المقدس (كنزا ربا يمينا) ، إنها جزء من الكتاب الثامن عشر ، ونصها المندائي المخطوط يقع في الصفحتين (٢٨٠ - ٢٨١) وتسلسل هذه الموعظة هو الرابع عشر في سلسلة الموعظ العشرين الواردة في نهاية كتاب (الكنزا ربا يمينا) ، وعنوانها هو الأثري يعظ تلاميذه:

١- الفاتحة : هذه الموعظة الرابعة عشر كسائر مثيلاتها في الكنزا ربا يمينا المقدس تبدأ بعبارة : (بشوميهون دي هبي ربي - باسم الحي العظيم) ، فالكلمة الأولى هي اسم جمع مذكر في حالة الإضافة وهو مسبوق بحرف الباء الذي يجر في اللغة العربية (وليس في المندائية إذ لا إعراب حركي فيها نظير شقيقاتها الآراميات الآخر) ، كما أنه ينتهي بضمير الغائبين المتصل العائد إلى كلمة (ربي) ، وهذا الاسم كله بسابقته (الباء) وبلاحقته (هون) هي في حالة الإضافة بالواسطة.

ويكون الضمير المتصل (هون) هنا للتوكيد عادة ويعود دائماً إلى المضاف إليه في اللغات واللهجات الآرامية ، والمندائية إحداها كما هو معروف مفردة المعرف هو (شوما) ومفرده النكرة المضاف هو (شوم) ، الكلمة الثانية قصيرة وهي (دي) أداة إضافة بالواسطة (ومن المؤسف أن المندائيين يقرأونها اد) ، وهذا خطأ مرفوض لغوياً.

الكلمة الثالثة هي كلمة (هبي) ومعناها أما هو الحي أو الحياة ، وهذا يخلق مشكلة كبيرة إذ من الصعب للغاية أن يفرق المرء في تحديد أحد المعنيين ، وهذه الكلمة كثيرة الاستعمال في كتاب (كنزا ربا) وبالمعنيين الاثنين ، هذه اللفظة المندائية هي دائماً في صيغة الجمع المذكر وهي معرفة لا مفرد لها ، وهي في حالة الإضافة لذلك نجد أن الكلمة الرابعة وهي ربي ؛ نعت جمع مذكر معرفة لأن الصفة تتبع الموصوف في جميع أحواله ، ومعناها الدقيق وبالصيغة هو العظماء ولها مفرد مذكر هو ربا العظيم.

أما الجزء المندائي الثاني من فاتحة هذه الموعظة وأيضاً كسائر مثيلاتها فهو (ترورب نجورا شنيا- يعظم النبوي السني) والكلمة الأولى من هذا الجزء هو فعل حاضر مفرد ، وهو شبيهه باسم المفعول النكرة نظير سائر اللهجات الآرامية والسريانية ، وقد بدأ بحرف الميم لأن جذر هذا الفعل رباعي هو والرباعي المجرد في اللغات السامية جميعاً يعامل معاملة المزيد على الثلاثي ، وهو مبني

للمجهول ، أما إذا كان معلوماً فيكون شبيهاً باسم الفاعل ، والكلمة الثانية هي نهورا ومعناها هو النور ، وهي في المندائية اسم مفرد مذكر معرفة فاعل (نائب فاعل في العربية) للفعل الرباعي (مرورب) المبني للمجهول ، أما الكلمة الثالثة والأخيرة من هذه الفاتحة فهي (شنيا) ومعناها السني ، وهي نعت مفرد مذكر معرفة.

٢- الخاتمة: والآن نترك مضمون هذه الموعظة الرابعة عشر من كتاب (الكنزا ربا يميناً) المقدس حتى لا نطيل الحديث فيمل قارئنا منا ، ونأتي حالاً إلى خاتمها التي تنتهي بكلمات ثلاثة : (مشبين هيي زاخين - متحدث هو الحي وناصر).

فالكلمة الأولى "مشبين" تعني يتحدثون أو متحدثين المنصوبة عربياً ، وهي فعل حاضر جمع مذكر وهو شبيه باسم الفاعل النكرة نظير سائر اللهجات الآرامية والسريانية ، قد بدأ بحرف الميم لكونه مزيد الثلاثي على (انفعل) أي تفعل في العربية ، وجذره الثلاثي المجرد في المندائية هو شيا ، وفي السريانية والآراميات هو شعا ، وهكذا إن مزيده يكون في المندائية أشتيا أي تحدث فهو متحدث ، وقد اضطررنا إلى أن نترجمه بالمفرد المذكر لأن فاعله في اللغة العربية هو الحي ، في حين أن هذه الكلمة (الفاتحة) في المندائية هي جمع مذكر.

الكلمة الثانية "هيي" في المندائية ومعناها أما هو الحي أو الحياة مثلما قلنا ذلك سابقاً ، وهذه لفظة هيي المندائية تأتي دائماً في صيغة الجمع المذكر المعرف ولا مفرد لها بتاتاً ، لذلك جاء فعل السابق مشبين في صيغة الجمع المذكر ، حيث إنها فاعلة له.

أما الكلمة الثالثة والأخيرة فهو (زاخين) : ومعناها (أزكياء ناصرين) ، وهي فعل حاضر جمع مذكر ، وهو شبيه باسم الفاعل النكرة ، وهو فعل معطوف على ما

سبق ، ولو أنه خال من واو العطف ، وهذا الفعل ثلاثي مجرد معتل الآخر بالياء ، وإن كان مفردًا تكون صيغته (زاخيا) بدلًا من (زاخين).

وقد ظهر هنا في المندائية مجموعًا تطابقًا تطابق من لفظة (هي) ، ولكن الأخوة المندائيون قد وقعوا في خطأ حين ترجموا (هيي زاخين/ الحي مزكي) ، معتبرين صيغة (زاخين) اسم المفعول كأنها مأخوذة ومشتقة من فعل مبني للمجهول والحال أنها فعل ثلاثي مجرد معلوم ، ولذلك لابد من ترجمة اللفظة هكذا ، (الحي ، زكي ، ناصر) ، لأن الله سبحانه هو دائمًا فاعل وفعال ، ولا يمكن جعله مفعولًا به أبدًا.

ختامًا ، وبما أننا في عصر التقدم والانفتاح في الشؤون كلها نتمنى أن يسير المندائيون نظير غيرهم من أصحاب الأديان السماوية ، من الآن وصاعدًا نحو الانفتاح بدينها السماوي شبه المكتوم حتى الآن على المجتمعات البشرية حيثما يعيشون ، الأمر الذي يقتضي استخراجهم قواعدها في الصرف والنحو من كتاب كنزا ربا ، وغيره من كتبهم المقدسة ، وسيتم ثانية باللجوء إلى أهل العلم والمعرفة للقيام بترجمة سائر كتبهم المقدسة المدفونة على المخطوطات حتى الآن ، وبدءًا بكتاب كنزا ربا هذا والله هو الموفق.

اللغة المندائية في جامعة بغداد :

شكراً لعمادة كلية اللغات في جامعة بغداد كما ذكرت الأستاذة فريال زهرون نعمان ؛ والتي تعتبر أول جامعة على مستوى جامعات الوطن العربي تتناول دراسة اللغة المندائية بقواعدها ، وترجمة بعض النصوص المختارة من كتبنا المقدسة كجزء من مقررات التدريس في قسم اللغات السامية للدراسات العليا (الماجستير) ضمن قسم اللغة العبرية برئاسة الأستاذ الدكتور عادل هامل الجادر.

أما فكرة إنشاء قسم الدراسات السامية كانت تدور في أذهان أساتذته الأفاضل في قسم اللغة العبرية، حتى تمت الموافقة في ١-٧-١٩٩٣، أن القائمين على التدريس في هذا القسم من أساتذتنا الأفاضل وأغلبهم خريجو جامعات أجنبية مهتمون بهذه الدراسات، وهم الأستاذ الدكتور عادل هامل الجادر رئيس القسم، الأستاذ الدكتور خالد إسماعيل علي ، الأستاذ الدكتور يوسف متى قوزي ، الأستاذ الدكتور صبيح مدلول السهيري.

يقبل في هذا القسم الطلبة الحاصلون على شهادة البكلوريوس في اللغة العربية، اللغة العبرية، والآثار، وأول دفعة من الطلبة قبلت للعام الدراسي ٩٣-١٩٩٤ وكان ضمنهم الطالب الشيخ هيثم مهدي سعيد.

ومن الدراسات التي تناولت المندائية كدراسة أو مقارنة مع بقية اللغات السامية، وقبلت لنيل شهادة الماجستير في هذا القسم:

- بحث مقدم الأستاذ أحمد الشريف بعنوان (الفعل الثلاثي في اللغة العبرية دراسة مقارنة في اللغات السامية، ١٩٩٤)، وهي (الأكدية، الآرامية، العبرية، السريانية، المندائية، العربية الجنوبية، العربية القياسية)، من خلال معالجة واحد من أهم مواضيعها ألا وهو الفعل معتل، وتعتمد هذه الدراسة أسلوب المقارنة والتحليل للأفعال المعتلة بالآلف والواو والياء، وعلى مختلف أنواع الاعتلال، مع محاولة عقد مقارنة بينها وبين نظائرها من الأفعال المعتلة في

اللغات السامية الأخرى، بقصد الكشف عن جذور الأوامر المشتركة بين هذه اللغات، لأنها تنتمي إلى فصيلة لغوية واحدة.

- بحث مقدم من قبل الأنسة فريال زهرون نعمان بعنوان : (أواني الأحرار المندائية في المتحف العراقي ١٩٩٦)، تناول هذا البحث عرض لخمس عشرة نص مندائي مكتوب على أوان فخارية محفوظة في المتحف العراقي، وترجمة وتحليلات ومقارنة مع دراسات سابقة مماثلة، والتي حدد تاريخها بين القرنين الرابع والتاسع الميلاديين، ومحاولة الكشف عن أماكن العثور عليها، والتي تركزت في محافظة واسط وديالي وبابل، بالإضافة إلى انتشارها في محافظة الأنبار بغداد وميسان.

- بحث مقدم من قبل الأستاذ بهاء عامر الجبوري بعنوان : (دراسة معجمية مقارنة لألفاظ كتابات الحضر، ١٩٩٦)، تناول مجموعة من الكتابات النقشية الحضرية المنشورة في المجلات والمصادر العلمية، والبالغ عددها ٤١٦ نص، وهذه الدراسة هي محاولة تستهدف الوصول إلى الألفاظ التي جاءت فيها مع نظائرها من اللغات السامية الأخرى، وكانت المندائية من ضمنها.

- وقدم الأستاذ عبد المجيد سعدون الصباحي بحث بعنوان : (أسماء الأعلام المندائية في كنزا ربا، دراسة لغوية مقارنة في اللغات السامية ١٩٩٧)، تناول فيه على وجه التخصيص أسماء الكائنات النورانية وغير النورانية من أسماء الأعلام الوارد ذكرها في كتابنا المقدس كنزا ربا في اللغة المندائية بالشرح المفصل لهذه الأسماء حسب العقيدة المندائية، ومحاولة إعطاء تصور دلالي عنها من أجل تشخيص أهم أنواعها والبحث في جذورها ورصد أوجه التشابه بينها وبين الأسماء المماثلة لها في مجموعة اللغات السامية الشقيقة، وقد اختار منها (اللغة العبرية، الآرامية، العربية، العبرية، السريانية، الآكدي).

- بحث مقدم من قبل الأنسة سوسن الضاحي بعنوان (حروف الجر والظروف في سفر التكوين، دراسة مقارنة ١٩٩٨)، وهي محاولة لتسليط الأضواء على

أدوات الربط في اللغة العبرية ، وحصر حروف الجر والظروف الواردة في سفر التكوين من ناحية أشكالها وأنواعها وأهم استعمالاتها ، مع محاولة اعتماد أسلوب المقارنات والموازنات مع ما يناظرها من اللغات السامية الأخرى ، ومعرفة العلاقات والخصائص التي تشترك فيها تلك اللغات ، وملاحظة أشكال التشابه والاختلاف بينها وبين حروف الجر والظروف المماثلة لها في اللغات السامية الأخرى ، وتناول هذا البحث المندائية كذلك ، وقد أظهرت النتائج المتحققة من هذه الدراسة اتفاق هذه اللغات مع بعضها البعض في حروف الجر والظروف أحياناً، واقتراقها في أحيان أخرى.

وهناك بحوث أخرى قيد المنافسة والتي أدخلت المندائية ضمن مقارناتها اللغوية... فتحية طيبة لكلية اللغات قسم اللغة العبرية ولجهود الأساتذة الأفاضل القائمين على تدريس اللغة المندائية في قسم اللغات السامية.

اللغة المندائية... دراسة مقارنة مع اللغة العربية :

تشكل اللغات أهم تراث خلفته الشعوب ، ذلك كما ذكرت الأستاذة ناجية مراني في مقال لها ، حيث أضافت أنه تشتهر الجزيرة العربية بكونها مهد لمجموعة من اللغات تعتبر من أعرق وأقدم اللغات في العالم ، تلك هي مجموعة اللغات السامية.

وترجع نسبة السامية هذه إلى المستشرق الألماني شلوتسر الذي اشتقه من قائمة الأنساب الواردة في العهد القديم والتي ترجع أنساب البشر إلى أبناء نوح الثلاثة: سام، حام، يافث.

وقد لاحظ المعنيون بدراسة هذه اللغات وجود أوجه شبه تجمع بينها ، إذ أنها تشترك أو تتقارب في أمور أساسية من جوهر اللغة ، فقالوا بوجود وجود وحدة مشتركة أو لغة لم تجمع شمل الشعوب التي تكلمت هذه اللغات ، وقسموها إلى مجموعتين :

١- المجموعة السامية الشمالية ، وتشمل اللغات البابلية والآشورية والآرامية (سريانية ومندائية) والكنعانية والعبرية.

٢- المجموعة الجنوبية وتشمل اللغة العربية بلهجاتها واللغة الحبشية.

وقد أجريت دراسات عديدة على تلك اللغات مجتمعة أو متفرقة ، ونشرت كتب وبحوث لا حصر لها ، وكانت المندائية إحدى تلك اللغات التي عني بها المستشرقون عناية خاصة ، وأقدم ما ألف عنها هو كتاب المستشرق الألماني نولدكه الذي نشره عام ١٨٧٥ تحت عنوان : Mandaische Grammatik ، وقد اعتمد في دراسته المندائية على الأدب دون الاحتكاك المباشر مع أهلها ، وبذلك وردت في كتابه المذكور ثغرات كانت سبباً لأسفه الذي أعلنه بعد ذلك.

ومع ذلك فإن كتابه بقي معتمد المستشرقين الذين عاودوا المحاولة بعد مرور قرن على صدور كتابه ، فقد ألف المستشرق رودولف ماكوش كتابه الذي نشر عام ١٩٦١ بعنوان Handbook Of Classical And Modern Mandaic ،

وقد اعتمد فيه على كتاب نولدكه من جهة ، وعلى الاحتكاك المباشر مع الصابئة المندائيين من جهة أخرى ، كما أن ماكوش نفسه اشترك مع السيدة دراور في تأليف قاموسها المعروف Mandaic Dictionary وهو مندائي انجليزي ، هذا بالإضافة إلى ما ورد عن اللغة المندائية ضمن المؤلفات والبحوث الأخرى التي تناولت الصابئة المندائيين بصورة عامة.

إن الأسباب التي دعت المستشرقين إلى الاهتمام باللغة المندائية - كما يقول أوليري - كثيرة ، وأهمها كون تلك اللغة ذات فائدة كبيرة لدراسة اللغات السامية الأخرى ، وذلك لاحتوائها على قدر عظيم من الأدب من ناحية ، ولكون عزلتها بعدتها عن التأثير باليونانية أو غيرها من اللغات.

ويضيف ماكوش إلى ذلك إعجابه بمرونة النظام الصوتي لهذه اللغة ، علاوة على وجود تراث صوتي لها ، إذ مازالت لغة أدب وكلام في الوقت ذاته ، مما يسهل تحليلها ودراستها دراسة دقيقة.

إن الدراسات والبحوث التي أجريت على اللغة المندائية حتى الآن كانت من قبل مستشرقين أوروبيين ، وقد بنيت على أساس مقارنتها مع اللغات السامية الأخرى على العموم ، وبعبارة أخرى فإن المندائية لم تقارن من قبل كاتب عربي مع اللغة العربية مقارنة مباشرة.

ويجد الباحث العربي الذي يتخذ من لغته خلفية للبحث تشابه كبير بينها وبين المندائية ، مما يرى بوضوح كون اللغتين انحدرتا من أصل واحد ، فتطورت العربية ونمت واكتملت ، بينما انزوت المندائية فبقيت مقصورة على المخطوطات القديمة وعلى التفاهم العائلي المحدود.

فالأبجدية المندائية تتفق والأبجدية العربية ، تلك الأبجدية الموجودة في اللغات السامية وهي : أبجد هوز ، حطي ، كلمن ، سعوص ، قرشت ... إلا أنها خالية من الحروف التي أضيفت إلى العربية وسميت الروادف ، وتلك الحروف المندائية هي أقرب إلى صورة الحروف العربية من غيرها من اللغات السامية الأخرى.

اللغات السامية وموقع المندائية بين هذه اللغات :

في مقال له ؛ ذكر الأستاذ عبد المجيد سعدون الصباحي الحاصل على ماجستير في اللغات السامية ؛ أن اللغات السامية قد احتلت في الأزمنة البعيدة في آسيا الغربية (من الشرق إلى الغرب) مناطق ما بين النهرين ، سوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية ، وهذا ما يمثل موطن اللغات السامية.

أول من أطلق هذه التسمية هو العالم النمساوي شلوتسر في أبحاثه وتحقيقاته في تاريخ الأمم الغابرة سنة ١٨٧١م ، وقد استخلص هذه التسمية من الجدول الخاص بانتساب سام بن نوح (ع) الواردة في التوراة/ التكوين ١٠ ، عندما كان يبحث في نهاية القرن الثامن عشر عن تسمية مشتركة للعبريين والعرب والأحباش الذين توجد بين لغاتهم صلات القرابة.

وقد اصطلح الباحثون على تسمية الأصل المشترك هذا باللغة الأم ، وسميت اللغات المتفرعة عنه بالفروع ، وحيث أن اللغة الأم لأي من العائلات اللغوية المعروفة كانت قد استخدمت في افتراض لم تكن فيه الكتابة معروفة لتحفظ لنا نصوص منها ، لذا حاول العلماء المحدثون من خلال الدراسات اللغوية المقارنة لأفراد العائلة اللغوية الواحدة وضع صورة عامة تقريبية لبعض خصائص تلك اللغة التي ظلت آثارها شاخصة في بعض اللغات التي تفرعت عنها.

وفق المفروض إن هذه اللغة الأم كانت متداولة في فترة سحيقة في القدم في الشرق الأوسط في العراق وسوريا ، منهم تفرق المتكلمون بتلك اللغة وانتشروا بهجرات أو جماعات في أنحاء الشرق الأدنى القديم ، وتعرضت كل هجرة أو مجموعة إلى تأثيرات داخلية وخارجية مختلفة ، واحتكت بأقوام وحضارات متفاوتة ، وعاشت في بيئات متباينة في فترات زمنية متباعدة أحياناً ، فحملت كل منها طابع خاص مميز يختلف عن بقية الفروع في نواح كثيرة ، ويجتمع وإياها في أوجه شبه أساسية تشير إلى القرابة الموجودة بين هذه الفروع ، وقد حمل كل فرع تسمية خاصة به... أما العربية الشمالية فهي لغة وسط الجزيرة العربية وشمالها ، والتي تسمى باللغة العربية العظمى.

إن عرفنا أن المندائية هي لهجة آرامية شرقية ، تتحدث بها طائفة الصابئة ، وقد اصطلح الباحثون اللغويون على تقسيم اللغات السامية نسبة إلى أماكن انتشارها ، وإن اختلفوا أحياناً في تفاصيل كل تقسيم ، واستناداً على ذلك فهي تنقسم إلى : شرقية وغربية ، وتنقسم الغربية بدورها إلى غربية شمالية وغربية جنوبية ، فالسامية الشرقية هي الآكدية بفرعيها البابلي والآشوري ، أما السامية الغربية الشمالية فتشمل اللغتين الكنعانية والآرامية ، والكنعانية بدورها تنقسم إلى الكنعانية الشمالية وتمثلها اللغة الأوغارنية ، والكنعانية الجنوبية وتتمثل باللغة العبرية والفينيقية والموابية... أما القسم الثاني من أقسام السامية الغربية الشمالية فهو اللغة الآرامية ، وتنقسم إلى قسمين منها : هوامية الشرقية والآرامية الغربية ، ويضم قسم منها مجموعة من اللهجات ، فالآرامية الشرقية تشمل السريانية والمندائية ، وآرامية التلمود البابلي ، والحضرية ومجموعة اللهجات الآرامية الغربية تشمل اللهجة السامرية وآرامية العرب الأوائل.

أما القسم الغربي الجنوبي من اللغات السامية فيضم لغتين هما العربية والحبشية ، العربية تنقسم إلى قسمين هما : العربية الجنوبية والتي تتمثل باللغة الحميرية ، وموطنها اليمن ، وجنوبي الجزيرة العربية ، وتنقسم إلى لهجتين السبئية والمعينية ، المندائيون ، ازدهرت حسب النصوص المتوفرة منذ القرن الثالث الميلادي ، خلافاً للساميات الأخرى ، ونطقها (اد) وليس (دي) على غرار ما تكتب به.

وغياب الحركات في اللغة المندائية أدى إلى استخدام حروف العلة بدلاً منها ، وأيضاً ظاهرة فقدان حروف الحلق (ع ، ح ، خ ، غ) بمهارة في المندائية على خلاف اللغات السامية الأخرى.

رأي المؤرخين والمستشرقين بالمندائيين ولغتهم :

يجمع كافة المؤرخين والباحثين الغربيين على أن الدين المندائي قديم الجذور في التاريخ، ويجزم غالبيتهم بأنه نشأ وترعرع في ربوع بلاد الشام، خاصة في الأردن وفلسطين، ويرون أن المندائيين كانوا أصلاً في بلاد الشام، وأن الدين المندائي ظهر في بادئ الأمر هناك ثم نزحوا إلى مصر والعراق بسبب الاضطهاد الذي لحق بهم، وكان ذلك قبل الميلاد، كما تقول دراور، وفي القرن الأول الميلادي كما يذهب ماتسوخ.

كما أنهم علقوا على إشكالية التسمية التي أطلقت عليهم، ولكنهم خلصوا إلى القول بعد أن اطلعوا على المؤلفات الدينية المندائية وترجمتها بأن سواد الصابئة يسمون بالمندائيين، أي المعرفيين أو أصحاب العلم، أما رجال دينهم فيسمون بالناصرانيين، أي المتعمقين بالدين والمطلعين عليه وعلى أسرارهِ، وهي مأخوذة من كلمة ناصيروثة المندائية، وتعني الضليع في العقيدة.

وقال هؤلاء الباحثون أن المندائيين هم من أصل آرامي، ويستدلون على ذلك بلغتهم المندائية التي هي لهجة من الآرامية، فهناك اللهجات السريانية والكلدانية أيضاً، والتي تسمى باللهجات الشرقية، أما اللهجات الغربية كما يقولون فهي لهجة تدمر والأنباط التي تمّ تحويلها إلى اللهجة العربية الشمالية، أي لغة أهل الحجاز، ويقولون إن المندائيين لعبوا دور كبير في الحياة الروحية والثقافية، سواء في بلاد الشام أو في بلاد الرافدين، وامتد هذا التأثير منذ ظهور المسيحية وربما قبلها بقليل حتى ظهور الإسلام، لا سيما أيام ازدهار الحياة الفكرية والاجتماعية في بغداد في العهد العباسي الأول، وكان لهم دور خاص في نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية، كما كان لهم دور ملحوظ في العلوم الرياضية والفلكية والطب والأدب، وكان هذا سبباً في تقريب البلاط العباسي والبويعي لبعضهم، وقد أثار هذا الدور انتباه المفكرين والمؤرخين العرب، فكتبوا عنهم الكثير.

ولكن مع تدهور الدولة العربية إثر احتلال المغول ثم العثمانيين ؛ ابتعدت الطائفة عن الحياة العامة ، وتعرضت إلى الاضطهاد بعض الأحيان ، ويقول هؤلاء المؤرخون أن هذه الطائفة اجتذبت انتباه الرحالة والباحثين الغربيين منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، عند زيارتهم لبلاد الرافدين ، فبدأت المحاولات الأولى عام ١٦٢٢م للترجمة من قبل الأب (أكناسيوس) الذي ترجم ديوان أباثر واحتك بأبناء الطائفة في مدينة البصرة ، ثم أبراهام الإيطالي الذي ترجم (دراسة اد يهيا ، وأسفر ملواشة) ، واعتذر لعدم وجود قاموس لفهم بعض مفرداتهم.

المندائية والحاجة إلى البحث العلمي :

بدعوة من القسم الثقافي في مجلس شؤون الطائفة العام ، وبتاريخ ١٢-٣-٢٠٠٤ ؛ ألقى الأستاذ عزيز سباهي محاضرة على قاعة المندي أمام عشرات المتقنين المندائيين والضيوف عنوانها : (المندائية والحاجة إلى البحث العلمي) ، وقد طرح جملة أشياء وتساؤلات ينبغي التمعن فيها والوقوف عندها ودراسة نتائجها إذا أردنا كتابة تاريخ المندائيين المعاصر .

وما طرحه صعوبة البحث في تاريخ المندائيين ونشأة الدين المندائي لعدم وجود معلومات وافية عن ذلك لأسباب عديدة ، منها : عدم اهتمام المندائيين أنفسهم بتدوين تاريخهم ، وعزوف المؤرخين عن ذلك ، وطمسهم للكثير من الحقائق لأسباب دينية ، أو لجهلهم اللغة المندائية أو عدم التقصي الجدي عن الدين المندائي ، واعتمادهم على الرواية والحكاية...

ثم أشار المحاضر إلى بداية اهتمام المستشرقين الغربيين بالدين المندائي في القرنين التاسع عشر والعشرين عندما ظهرت في ألمانيا حركة بحث علمي حول قضية المسيحية في أيامها الأولى ، ودراسة شخصية المسيح التاريخية بصورة علمية واقعية تخضع للبحث العلمي المعاصر .

فعندما درس المختصون الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) ؛ وجدوا أن هناك علاقة ما بين المسيحية والفكر المندائي ، مما جرهم إلى نقاش واسع حول المندائية وأفكارها ، ولهذا تعلموا المندائية ليدخلوا في عمق الموضوع ، فتوصل (لدزبارسكي) وهو عالم ألماني مختص باللغات السامية إلى ترجمة الكتاب الديني الرئيسي للمندائيين الكنزا ربا (الكنز الكبير) في القرن التاسع عشر بدقة متناهية ، مما مكنه من الإطلاع الدقيق على أمور الطائفة المندائية وأفكارها .

ثم تواصلت تراجم الكتب الدينية الأخرى من قبل المستشرق (دراور) وغيرها ، ويقول المحاضر : وبسبب جهلي التحدث بالمندائية اضطررت للجوء إلى الدراسات الإنجليزية والإطلاع على كل ما وضعه المستشرقون الغربيون من

الشواهد والقرائن التي تثبت وجود المندائيين التاريخي، ونشأة دينهم، ومواطنهم الأولى، ومن أهم هذه القرائن الكتب الدينية المندائية التي تعود إلى القرن السادس الميلادي، وكذلك النقود والعود وألواح الرصاص التي عثر عليها في أهوار العمارة وجنوب غرب إيران، والأواني الفخارية المتواجدة في متحف بغداد وبعض متاحف العالم.

إلى جانب معلومات توفرت في نجع حمادي في مصر تحتوي على رسائل تتحدث عن أقوام قرييين من المندائيين، اسمهم (الشيثيون)، وكذلك ما نقله المؤرخون، سواء ما دونه آباء وكتاب الكنيسة الأوائل في القرن الثاني والثالث والرابع الميلادي، مثل تيودور برخوني في القرن الرابع الميلادي أو مؤرخون عرب مثل ابن النديم في الفهرست، وما صدر عن المانويين، أو ما كتبه البيروني في القرن الثالث عشر الميلادي، والشهرستاني في (الملل والنحل)، وكذلك التذييلات الواردة في الكتب الدينية المندائية لكتاب ونسّاخ مندائيين.

من كل ما ذكر استطعنا التعرف على العديد من القضايا التاريخية المبثورة عن الطائفة، وإني أخص بالذكر هنا كتاب ديني مندائي مهم اسمه (ترسر وألف شياله)، أي ألف واثنا عشر سؤال، وناسخه اسمه (رومي برقيامات)، ذكر فيه أنه دونه في الوقت الذي كان فيه العرب يدخلون العراق، أي في القرن السابع الميلادي، وأنه نقله عن ناسخ آخر اسمه (زازي برناطار)، الذي عاش في ٣٧٠م، وهذا نقله عن نساخ آخرين عاشوا قبله بما يقارب القرنين من الزمان، أي في بداية التاريخ الميلادي، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن العهد الذي ظهر فيه المندائيون كقوم وكدين، أي في بداية عهد الميلاد أو قبله بقرن أو قرنين من الزمان.

أما حين نتناول الأبجدية المندائية ونتساءل: متى ظهرت هذه الأبجدية؟ وما دواعي ظهورها؟ نتوصل إلى جملة حقائق، فنحن نعرف أن اللغة المندائية هي لغة آرامية شرقية، والآرامية في بدايتها هي لغة أناس بدو، اسمهم الآراميون،

هاجروا من شبه جزيرة العرب واتجهوا صوب سوريا والعراق ، وأسَّسوا دويلات صغيرة هنا وهناك ، ومنها دويلة اسمها (صبا) في دمشق ، دخلت في نزاعات وحروب مع اليهود بين ٨٠٠ - ٩٠٠ ق.م بقيادة الإسكندر المقدوني ، وفرضوا على الشعوب حضارتهم وثقافتهم الهيلنستية ، كما فرضوا عليهم التحدث باللغة الإغريقية التي أصبحت هي اللغة الرسمية للدولة.

وبهذا طغت هذه اللغة على الآرامية ونافستها وأضعفتها فانحسرت ، واضطر الناس إلى التحدث بلغاتهم ولهجاتهم الخاصة التي أصبحت لهجات محلية اشتقت من الآرامية ، وتحولت تدريجياً إلى لغات فلسفية ودينية ، ومن هذه الأقوام ؛ المندائيون الذين ابتكروا الأبجدية المندائية للحفاظ على استقلاليتهم ، وللتخلص من ضغط واضطهاد الفرس بعدئذ ؛ الذين حرَّموا على رعاياهم التحدث بأية لغة غير الآرامية.

إنّ ؛ فاللغة المندائية قد مرّت بأطوار بدأت في القرن الأول أو الثاني ق.م ، ثم اكتملت تدريجياً بعد الميلاد ، وأصبحت لغة خاصة بهم منذ ذلك التاريخ ، حيث دونوا بها أدبهم المندائي ، وسجلوا ما مرّ بهم من حوادث واضطهاد ، ثم جاء دور الرومان ، خاصة بعد أن اعتنقوا المسيحية في القرن الثالث الميلادي ، حيث قاموا بإحراق وإتلاف جميع الكتب والمؤلفات التي تهاجم الأناجيل الأربعة أو التي تعادي المسيحية ، فقام المندائيون جراء ذلك ، ومن أجل الإبقاء على أفكارهم بتطوير أبجديتهم وتدوين كتبهم وأفكارهم المندائية بها ، وأول ما كتبوه هو العوذ والقماهات ، ومن مراجعة النقود والعوذ والقماهات وتذييلات الناسخين نستدل بأن الأبجدية المندائية ظهرت قبل القرن الأول الميلادي ، ثم اكتملت في القرن الثالث الميلادي.

ولدينا دليل آخر على ما تقول هو ماني وأفكاره المانوية ، فقد كان مندائياً في بدايته ، ووصفهم في مؤلفاته وصفاً دقيقاً ، كما نقل ذلك ابن النديم والذي يسميهم بصابئة البطائح أو المغتسلة...

وقال ماني : إنهم يغتسلون عند الأكل ، ويغسلون أوانيهم بالماء الجاري ، ويتجهون إلى الشمال في صلواتهم ، ولا يتناولون لحوم أو أكل الآخرين ، وهذا وصف دقيق للصابئة ، ومما يذكر أن ماني ولد عام ٢١٢م ، وبعد ان أصبح عمره ٢٨ سنة ، أي عام ٢٤٠ ؛ انشق عن المندائيين وحرّف تعاليمهم وكتبهم الدينية ، وأوجد له ديناً خاصاً ، ودخل معهم في صراع حاد ، وتركت لنا المانوية كتباً أخرى تتحدث عن الفترة التي عاشها بين المندائيين عثر عليها في نجع حمادي تسمى (القبطية) ، وكراسة صغيرة أخرى في الغرب تتحدث عن الفئة التي تشبه المندائيين ، وفيها تسميات (صوبايي ، معمداني) ، أما أفكار (الشيتيين) فهي تتطابق بكل شيء مع الأفكار المندائية ، وهم ينتسبون إلى (شيت بن آدم) ، الذي يسميه المندائيون (شيتل) .

ويتحدث عنهم أيضاً المؤرخ (ياقوت الحموي) فيقول عن أبناء (الطيب) إنهم من أبناء شيت بن آدم ، وأن شيت هو الذي بنى هذه المدينة ، ومن هذه القرائن كلها نصل إلى حقيقة معينة ، هي أن الصابئة ظهروا في فترة معينة محددة قبل المسيحية بقرن أو بقرنين ، وكثير من المعلومات تُشير إلى أن المندائيين خرجوا من مصر ، فهل من علاقة لهم بمصر ؟ مع العلم أن هناك جماعة ظهرت في مصر اسمها (هرمز الهرامسة) ، أي الحكماء في القرن الثاني ق.م ، وأفكارها مماثلة لأفكار المندائيين إلى حد بعيد ، وقد صيغت مبادئهم بلغة فلسفية ، لا بلغة شخصية ميثولوجية ، مما يذكرنا بصابئة حران ، الذين يقولون إنهم أخذوا معلوماتهم عن (عازيمون) ، وهو اسم آخر لهرمز .

هنا تأتي مسألة أخرى : ما هي علاقة المندائية بالغنوصية ؟ والتي معناها (البحث عن المعارف) ، وهي عبارة عن محاولة لإيجاد جواب لعدة أسئلة : من نحن ؟ وكيف أتينا ؟ وأين نذهب ؟ وهي تساؤلات معروفة منذ أقدم العصور ، وتحتاج إلى أجوبة ، وإننا نلاحظ أن كثير من التراتيل المندائية تشبه هذه الأسئلة والغنوصية ظهرت في الشرق الأدنى ، وهي مزيج من أفكار عديدة ، بابلية شرقية وإغريقية ونادى بهذه الفلسفة (فيلون الإسكندراني) .

والمسيحيون في البداية يقولون إنها مذهب مسيحي خرج تقرب من هذه الأفكار الأغنوصية ، ولهذا أطلق عليها الأغنوصية الشرقية ، تمييزاً لها ، عن الأغنوصية الغربية ، وأضافوا لها أفكاراً جديدة كالصراع بين النور والظلام والخير والشر ، تلك الأفكار التي انحدرت عن السومريين وتلقفها الزرادشتيون ، وطوروها فخرج من حصيلة هذه الأفكار مبدأ (التعميد) ، وهنا نقول : إن تقديس الماء كان شائعاً في أقطار عديدة تمتد من الهند حتى الغرب ، فكل الأقوام في الشرق الأدنى والأوسط مارست التعميد ونحن نعلم أن الدين المندائي فيه ثلاثة أركان هي البراخة والرشامة والصبغة ، فهل هناك أقوام كانوا يمارسون التعميد احتك بهم المندائيون وتأثروا بهم؟.

وهنا نتذكر (الأسينيين) الذين عاشوا مع قبائل البحر الميت ، وكانوا يصطبغون ثم يأكلون ويتجهون إلى الشمال ، ولكنهم كانوا يختلفون عن المندائيين في أنهم حرموا الزواج ، فهل كنا نحن المندائيون على علاقة مع هذه المجموعة؟ كما أن هناك مسألة جديدة تثار ، فهناك شخصية في التاريخ اسمها (الحسنة) ، هكذا يطلق عليها ابن النديم ، وأصلها (الكساوي) ، أي الخفي ، فهل هذه الكلمة تذكرنا بما نطلق نحن عليه (آدم كسيا) المندائية؟ ، أي آدم الخفي ، فالكراسة المندائية تذكر الصابئة وتقول : رئيسكم الكساوي عندما كان يعمدكم بالماء ، فهل قال لكم قدسوا الماء؟.

ويختم المحاضر محاضرتَه بالقول : العديد من الأمور تبعث على التساؤل وتحتاج إلى بحث علمي دقيق ، ونحن كمندائيين من أجل معرفة أصلنا وديننا ، وكيف تطورت أفكارنا ، ينبغي علينا استعمال العقل والمنطق ، والمقارنة والتسلسل العلمي التاريخي في دراسة تاريخنا ونشأتنا.

وللأسف أنه لن تجرى حتى الآن أية تحريات أركيولوجية في مدينة (الطيب) وكلما تابعنا هذا الأمر بروح جدية علمية عديدة ، ونستطيع تحديد أصنا وأصل أفكارنا ، ولماذا اعتنقنا هذه القيم؟ وإذا أردنا الاهتمام بهذا الموضوع ، علينا

إِتقان المندائية أولاً ، كما قال (نولدكه) و(الزبارسكي) وسواهما ، وإِتقان اللغات الآرامية والعبرية والإغريقية لأن كثيراً من الكتب ترجمت من الإغريقية وإليها في عصور الاهتمام باللاهوت ، ونحتاج كذلك إلى مقارنات في الأفكار ودراسة الأدب المندائي دراسة فلسفية ، وليس فقط فهم التراجم ، بل المفهوم الفلسفي وما خلف هذا المفهوم وكذلك عملية الخلق.

إحياء اللغة المندائية... إحياء لرموز ثقافية جديدة

حوار مع الدكتور قيس مغشغش^١:

تعتبر الديانة المندائية من الديانات التوحيدية وورد ذكرها في القرآن الكريم ، وكثر الحديث عن أتباع هذه الطائفة في القرن الماضي ، فألفت فيهم الكتب ونشرت البحوث والدراسات الأنثروبولوجية قام بها شوقيون وغربيون ، وديانة هذه الطائفة الصغيرة (٧٠ ألف) التي تنتشر في العراق وإيران غير تبشيرية ، كتابهم المقدس يطلق عليه "الكنزارب" أي الكنز العظيم مدون باللغة المندائية وهي إحدى فروع اللغة الآرامية ومترجم إلى عدة لغات عالمية ومنها اللغة العربية.

الدكتور قيس مغشغش ، أحد مثقفي هذه الطائفة الدينية ، وهو واحد من القلائل من أبناء الطائفة الذين قاموا بتحقيقات ودراسات قيمة في ميدان الدراسات اللغوية السامية ، وله معرفة واسعة بلغات حية كثيرة ، وساهم بالعديد من الدراسات اللغوية ، وهو من الداعين إلى إحياء اللغة المندائية ، باعتبارها كائن حي تعرض للاستلاب ، بعد أن حلت محلها لغة تنتمي إلى ثقافة وحضارة أكثر تقدماً وحدثة ، وقد أصدر في الآونة الأخيرة كتاباً تعليمياً مصوراً للكبار والصغار ولمختلف الثقافات والانتماءات القومية والدينية ؛ لتعليم اللغة المندائية باعتبارها رمز ثقافي له مكانته الكبيرة في التكوين الثقافي لأي مجتمع من المجتمعات ، التقيناه وكان لنا معه هذا الحوار :

*** يقال إن لا حياة لأمة بدون لغة، فهل ينطبق هذا على المندائيين؟**

- هذا صحيح، فاللغة أحد المقومات الأساسية لأية أمة، والمندائيون أمة تميزت بابتكار لغة خاصة بها وذلك دليل على عدة جوانب منها : كبر حجم أمتهم ما جعل لغة خاصة بهم حاجة تتطلب الابتكار ، غنى تراثهم وتنوعه بما لم

١ - حاوره من روما : موسى الخميس من روما

تستوعبه لغة من اللغات السائدة في مناطق تواجدهم ، القدرة الابتكارية للمندائيين في وضع لغة خاصة بكل ما تتطلبه اللغة من أبجدية ومفردات وأصوات وقواعد ، خصوصية المندائية والمندائيين في ديانتهم وأدبهم وتراثهم ، التعايش المجمع والموحد للمندائيين بحياة تفصيلية ما تطلب التخاطب بلغة خاصة ، وقد كانت المندائية حية وحيوية بلغتها ، وبفقدائها اليوم تفقد عنصراً مهماً من عناصر الديمومة وشد اللحمة والارتباط بالأصول قدر الإطلاع عليها بلغتها التي دونت فيها لتكون أكثر تأثيراً في الوجدان والعاطفة.

*** يقول علماء اللغة إن ٣٤٠٠ لغة في العالم ستختفي في جميع أنحاء العالم خلال فترة ٥٠ سنة القادمة، هل تعتقد أن اللغة المندائية ستكون واحدة منها؟**
- من بين أكثر من ٦٠٠٠ لغة في العالم فإن هنالك أعداد كبيرة منها معرضة اليوم للانقراض ، وهذا راجع إما إلى زوال وانقراض صفة المجموعات والشعوب التي تتحدث هذه اللغات ، أو انسحاب بعض اللغات إزاء سيادة لغات أخرى ، وهذا ما حصل ويحصل للغة المندائية التي انسحبت من لغة سكنت بها العمل النقدية في زمن أوجها إلى لغة لا يتحدث بها اليوم أكثر من ١٠٠ فرد.

*** ماذا يستوجب هذا الأمر؟**

- إن هذا الأمر يستوجب العمل في مجالين أساسيين ؛ الأول : مجال الأمة ذاتها، وتحديدًا هنا المندائيون أنفسهم ، فقد انسحب المندائيون تدريجياً عن لغتهم بسبب سيادة اللغة العربية وبسبب عيش المندائيين غير المحدد ببيئة جغرافية معينة أو خاصة بهم ، مما يمكن أن يحافظ على لغتهم من خلال دوام التحدث بها ، وكذلك من حرص المندائيين على المعاشة مع المجتمع الأكبر الذي أصبحوا يعيشون فيه ويتعاملون معه كاسبيين وده لضمان البقاء ، كل ذلك جعل المندائيين يتقنون سريعاً اللغة العربية بلهجتها العراقية دون تمييز أو لكنة ، ثم جاء الانتظام في التعليم الرسمي ولغته العربية ، وقد تميز المندائيون في اللغة العربية شأن تميزهم وتفوقهم التعليمي مما شكل الضربة القوية للغة المندائية ، فقد غدا المتعلمون في الأمة المندائية ومتقنوها ؛ بنتيجة الانشغال عن اللغة المندائية ،

أميون في لغتهم الأم ، وهكذا خسر المندائيون أن يحفظ ويطور الجيل المتعلم هذه اللغة ، مثلما طور علوم ومهن كثيرة وتميز بها... إذن ، إن مجال إحياء اللغة يتعلق أولاً بالأمة ذاتها وبخاصة المتعلمون والمتقنون والواعون ، ومع أن سبل الإحياء اليوم صعبة وكثيرة ومتنوعة ؛ إلا إنها مازالت ممكنة.

أما المجال الثاني ، فهو الإسناد الدولي المتخصص ؛ فقد أدركت منظمات دولية وأكاديمية وإنسانية عديدة أهمية اللغات التي ابتكرتها أمم وشعوب العالم واعتبرتها إرث إنساني يستوجب المحافظة عليه ، وقد سعت هذه الجهات إلى تحديد اللغات المهددة والمعرضة لخطر الانقراض وبدأت بمشاريع توثيقها ، بل والمساعدة على ديمومة التحدث بها ، وقد سعت شخصياً لهذا الأمر من خلال مخاطبة منظمة اليونسكو وكذلك جمعيات أكاديمية أخرى ، لتسجيل اللغة المندائية واحدة من اللغات المعرضة لخطر الانقراض ، علماً أن الأمر يتطلب جهود ومتابعة من المعنيين المندائيين.

*** إذن ، هل من سبيل لإحياء اللغة المندائية؟ وما هي متطلبات ذلك؟**

- نظرياً نعم... أما الجانب العملي فهو يعتمد على المندائيين أنفسهم ، فقد أحييت دولة إسرائيل اللغة العبرية رغم تعدد قوميات ولغات اليهود ، أما أهم متطلبات عملية الإحياء فهي الرغبة والدافع لدى المندائيين لأن يتعلموا لغتهم ، وهذا واقع ويمكن استثارته من خلال حاجة المندائيين لإثبات هويتهم الخاصة ، وأنهم سلالة أمة موجودة ، وكان لوجودها اعتبار وقيمة تحملت من أجله الكثير وظلت حتى اليوم تعيش التطور والتقدم دون أن تتوقع أو تتخلف أو تزول ، فهي حقاً تستحق الإكبار والمكافأة ، والمكافأة هي أن نكافئ نحن أنفسنا باعتزازنا بهويتنا المندائية ، وأبرز سمات الهوية ؛ اللغة الخاصة وهي موجودة ولا تتطلب ابتكار.

يبني على ما تقدم ضرورة توفير الدعم لوضع المناهج التعليمية وأدواتها ووسائلها ، من كتب وبرامجيات وتقنيات ، ثم إعداد بعض الكوادر التعليمية وهم - فرواه ماري - كثيرون ومشهود لهم في ميدان التعليم.

ومع أن توزع المندائيين اليوم في بلدان المهجر قد زاد من تعقيد هذا الأمر ، إلا أن استخدام تقنيات الإنترنت وغرف المحادثة والبرامج الكمبيوترية يمكن أن يستغل بشكل فاعل ، على أن هذا الأمر يتطلب جهة متخصصة تحرص على متابعته ، وقد كانت لنا فكرة اعتماد رابطة تجمع المتخصصين والمعنيين باللغة المندائية بمن فيهم أكاديميون غير مندائيين ، وبهذه المناسبة فإننا نطلق دعوتنا لتشكيل مثل هذه الرابطة لتكون جهودها متخصصة وتنفيذية ملموسة.

*** هل تحتل اللغة المندائية استنباط كلمات ومفردات جديدة ، وكيف لها مساندة متطلبات المعاصرة في حياة تعصف بها رياح التقنيات الحديثة وأحادية اللغات العالمية؟**

- أما عن الشق الأول ، فالإجابة نعم ، تحتل اللغة المندائية استنباط كلمات ومفردات جديدة بحكم أن اللغة المندائية تقوم في مفرداتها على الفعل أساساً لاشتقاق الكلمة ، فليس التلفاز في اللغة الانجليزية والألمانية أكثر من "المشاهدة عن بعد" ، وبالمندائية يمكن اشتقاق كلمة له من الفعل "هزا" بمعنى شاهد ليكون "هزوانا" مثلاً ، وبعد أن يوضع في الاستخدام يشيع فيعتمد وهكذا ، علماً أن اللغة العربية ، على غنى مفرداتها ، قد عربت كلمة تلفزيون على تلفاز ، وهذا مدخل آخر في الاستنباط.

أما مساندة متطلبات المعاصرة ، فإن العولمة التي يراد لها أن تدق وتطحن خصوصيات الشعوب والأمم لصالح قطب أحادي ، فإنها تسعى لتفوق لغة واحدة بما يجعل اللغات الأخرى خجلة أمامها من حيث مفرداتها أو تعزيز انتشارها ، ونحن اليوم نفكر فقط في كيفية المحافظة على اللغة المندائية إذ أن التحدث ، وهو من أهم مقومات حياة اللغة ، لا يتم إلا من خلال التواجد المشترك والتفصيلي وهذا ما لا يعيشه المندائيون اليوم حتى في وطنهم الأم ، علماً بأن هناك لغات عريقة وواسعة الانتشار ولها مقومات الإسناد ، ومع ذلك فهي تتهم اليوم بأنها ليست لغة علم أو تكنولوجيا ، كما هي اللغة العربية ولغات البلدان الإسكندنافية.

* يقال إن أحد رجال الدين المندائيين كان يتراسل مع المستشرقة الانجليزية الليدي دراور باللغة المندائية ، فهل تعتقد أن أبناءنا المندائيين يستطيعون مستقبلاً كتابة رسائل فيما بينهم باللغة المندائية؟

- كلا المرحومين الكنزابرا الشيخ دخیل الشيخ عیدان والکنزابرا الشيخ نجم الشيخ زهرون كانا يتخاطبان مع الليدي دراور باللغة المندائية ، وقد اطلعت على إحدى هذه المخاطبات والتي أحتفظ فيها بنسخة بخط يد الليدي دراور باللغة المندائية ، كما أن تذييلات الكتب الدينية وإلى عهد الكنزابرا المرحوم الشيخ عبد الله الشيخ سام تكتب باللغة المندائية ، وفيها يتم تدوين الوقائع التاريخية والحياتية المهمة في عصر الناسخ. ولا شك بأن تحدث المندائيين في إيران وتخطب البعض منهم باللغة المندائية على ما يداخلها من مفردات ولكنة فارسية هو مدخل مهم وأساسي في عملية إحياء اللغة المندائية إن عزم المندائيون على ذلك ، وعلى هذا فإني على يقين أن بإمكان أبناءنا وشبابنا - إن رغبوا- كتابة رسائل فيما بينهم بالمندائية ، وقد بدأ البعض منهم فعلاً مخاطبتي بجمل مندائية ، وليس هذا الأمر بكثير ، فقد تعلم حتى الكبار منا لغات بلدان المهجر التي أصبحنا نعيش فيها ، علماً بأن تعلم اللغة المندائية عملية سهلة فهي لا تختلف عن العربية التي نتقنها جميعاً من حيث الأسس ، بل وحتى في الكثير من المفردات التي سيتفاجأ المندائي بدرجة تشارك اللغتين فيها ، ذلك أن الأساس واحد وهو اللغة الآكدية أم اللغات السامية.

* لماذا يصر رجال الدين المندائي على استخدام اللغة المندائية في ممارسة الطقوس الدينية ويهملون تداولها في الحياة اليومية؟

- أخي موسى ، ما أبقى حياة في اللغة المندائية لحد الآن هو اعتمادها لغة وحيدة في كتابة النصوص الدينية والأدب المندائي ، والمندائيون رغم تخليهم عن درس فقه الدين المندائي بسبب ظروف الاضطهاد والمعاناة التي تعرضوا لها ، فإنهم لم يتخلوا عن ممارسة طقوسهم الدينية ، وبما أن جميع هذه الطقوس تقوم على القراءات الدينية المصاحبة للمراسيم الأخرى ، فقد أوجب ذلك على

رجال الدين ضرورة اعتماد اللغة المندائية التي بدونها لا يتم الطقس ، خاصة وأن من القراءات ما يجب أن يكون جهراً ، ولقد ظل عدد من رجال الدين وبعض المتعلمين إلى عهد قريب يتحدثون اللغة المندائية حتى طغت اللغة العربية على تخاطبهم أيضاً بأسباب عدم تواجدهم متلاقين متخاطبين وانشغالاتهم الحياتية التي أحدثت تركاً للغة ، ومعلوم أن ترك اللغة يؤثر في قدرة التخاطب بها ويضعفها وهو ما حصل لدى أغلب رجال ديننا ، ونحن نتمنى عليهم تكثيف درس اللغة حتى يكونوا عامل جذب وتشجيع للآخرين بل وفي مقدمة المساهمين في إحيائها ، وهنا يسرني أن أشيد بالجهود التي بذلت من قبل الترميذا الشيخ سلام غياض في ستوكولم/ السويد لاستحصال الموافقات لاعتماد اللغة المندائية لغة أم وتدريسها وفق منهج معد لأبنائنا المندائيين في مدارسهم النظامية ، مع الأمل بالتعميم والدعوة للحزو في جميع بلدان تواجد المندائيين.

*** ما قصة الحرف المندائي ، وهل من سبيل لوضعه في الخدمة الكمبيوترية
شأن حروف لغات العالم الأخرى ؟**

- الحرف المندائي حرف جميل رغم قدمه وعدم السعي لتطوير شكله بسبب نصوص تقديس المندائيين لحروف أبجديتهم حفاظاً ألا يمسها تغيير أو ترك وقد نجحوا بذلك ، لقد زاد من جمالية الحرف إمكانية ربطه من اليمين واليسار مع وجود خمسة حروف لا تقبل الربط من اليسار ، وبهذه الميزة يمكن إجراء تكوينات تشكيلية في الخط المندائي بما يشابه التشكيلات في لوحات الخط العربي التي أصبحت فناً بحد ذاتها ، ويمكن بهذا الخصوص الإطلاع على نماذج قمنا بها ومماثلتها أو تطويرها من قبل الفنانين المندائيين كمدخل آخر للاعتزاز والإحياء ، أما عن وضع الحرف المندائي في الكمبيوتر فقد تمّ القيام بذلك بشكل محدود جداً من قبل بعض المندائيين ، ولأغراض طبع كتابي ، فقد قمت بتصميم ثلاثة أنواع للخط المندائي هي " زازي ، شكندا ، وهیونا" وهو تخليد لأقدم وأبرز ثلاثة ناسخين مندائيين ، وهناك اليوم مخاطبات مع بعض

الجهات الأكاديمية لوضع ثلاثة خطوط مندائية أخرى بحسب نموذج الكتابة اليدوية لكل من "ليدبارسكي/ عالم الساميات الألماني الكبير ومترجم كتاب الكنزاربا إلى الألمانية، والليدي دراور الغنية عن التعريف، ورودولف ماتسوخ باحث اللغات المشترك في وضع القاموس المندائي" تقديرًا لجهودهم المتميزة في خدمة المندائية... والعمل جارٍ من قبلنا لتسجيل حقوق هذه الخطوط من أجل وضعها في خدمة المندائيين والخدمة الكمبيوترية عامة.

*** وهل سيساعد ذلك في إمكانية استخدام الكمبيوتر لتعليم اللغة المندائية؟**

- لا شك أن ذلك سيعد أحد الإسهامات ، خاصة وأن البرامج الكمبيوترية أصبحت اليوم من أكثر البرامج التعليمية فعالية ، فهي وسيلة فردية وجماعية ويمكن أن تعتمد الصوت والصورة والحركة ، فإذا ما تمّ بناء برامج تعليمية وفق مبادئ التعليم المبرمج فإن ذلك سيساعد أبناءنا في تعلم لغتهم ، والحقيقة أنني قد قطعت شوط في بناء برنامج تعليمي من هذا النوع إلا أن هناك مشكلة تقنية تتمثل في تحويل برنامج "البور بوينت" الذي اعتمدته إلى أسلوب عرض اعتيادي يستقبله أي كمبيوتر ، وأنا أطلب مساعدة شبابنا المتخصص لحل هذه المشكلة وتسهيل إنجاز هذا العمل الذي يمكن أن يكون بين أيدي عامة المندائيين قريبًا.

*** هل تعتقد أن كتابك القيم في تعليم المبادئ الأساسية للغة المندائية يصلح كمنهج تدريسي للصغار والكبار على السواء في داخل البيئة العراقية وخارجها؟**

- إن كتاب "أتعلم المندائية" الذي قمت بوضعه ؛ يصلح كأساس لتعلم اللغة المندائية قراءة وكتابة ، لقد تمّ بناؤه على وفق أسس التعليم الصحيحة للمرحلة الأولى في اكتساب اللغة ، وهو منهج موجه من حيث مستواه الأولي وصوره إلى الأبناء الذين نسعى أن يقدموا على تعلم لغتهم الأم ، كما أنه يصلح لكل من يسعى للبدء بتعلم هذه اللغة على اختلاف مراحلهم العمرية ، ولذلك فقد أقرت جامعة برلين الحرة اعتماده لتعليم اللغة المندائية لطلاب قسم الدراسات السامية ،

كما طلبت نسخ منه جامعات عديدة لحد الآن مثل : جامعة هايدلبرغ وجامعة كوتنكن في ألمانيا ، جامعة لندن ، جامعة لايدن في هولندا ، جامعة هلسنكي في فنلندا.

وتأسيساً على هذا المستوى يمكن وضع المستويات الأخرى بما تتطلبه من نصوص وتمارين وقواعد... وهكذا ، والأمل معقود على كل من له معرفة وقدرة للاشتراك في لجنة متخصصة لهذا العمل ، ولنا شرف التعاون مع الجميع خدمة لهذا المجال الحيوي من مجالات المحافظة على المندائية وبقائها...

ذاكرة الكتابة... صياغة العقائد :

كتب د. مالك المطلبي في مقال له:

حتى دخول الموضوع لابد لي أن أجتاز ثلاث عتبات كلامية؛ عتبة العقيدة، وشعيرة التعميد، والحب والكرامة.

عتبة العقيدة :

كان الجسر الذي يعبر نهر "المشرح" خشبياً في مبناه الأول، ثم تطور بعد ذلك؛ شركة عملاقة وضعت حديد وآليات وبكرات ضخمة وأسلاك مفتولة وخطابات تدور دورانا حلزونياً وسط شجر الغرب، ثم رحلت بعد أن باضت جسراً إسمنتياً من غير أن يترك مكانها أي أثر صناعي في الجلد الريفي.

يُقسم الجسر البلدة كظاهرة جغرافية في السطح، غير أنه يقوم في حقيقة الأمر بتقسيمات سياسية وأيديولوجية، فعلى ضفته الشمالية التي يدخلها طريق ملتوي يربط بلدة المشرح بمركز متصرفية العمارة، يقطن الحاكم ومؤسساته: مبنى الإدارة المحلية ومركز الشرطة، والمستوصف الطبي ودائرة البريد ودائرة النفوس ونادي الموظفين... الخ.

أما ضفته الجنوبية فيقطنها المحكومون ودورهم وأسواقهم ومعابدهم، غير أن الجسر سرعان ما يُرسل بعد عبوره إلى الجنوب إشارة أخرى: إذ يمثل الحدود الفاصلة بين عقيدتين؛ عقيدة الإسلام وعقيدة الصابئة.

ففي حين يقطن المسلمون في الغرب من الجسر يقطن الصابئيون في الشرق منه، هذا الفصل الديموغرافي إشارة إلى تحريم الاختلاط بين الفريقين، يتفق المسلمون والصابئيون على اعتبار الاختلاط اللمسي بينهما أحد المحارم الكبرى، وقد كنت أرى وأنا صبي الشيخ "كثير" شيخ الصابئة يزور أبي (وهو المرجع المحلي العملي لمسلمي ناحية المشرح وما يتبعها من قرى)، كنت أرى كيف يحيي بعضهما بعضاً: توضع اليد اليمنى لكل منهما على الصدر، يصحب

ذلك تتممة بكلمات تحية ناقصة وإحناء الرأس ، هذه الإشارات التبادلية كانت في واقع الأمر لتأكيد ممارسة قطيعة اللمس بينهما.

يسمى أحد أعياد الصابئة رسمياً بـ(دهوا ربا) ، وشعبيًا بـ(الكرصة) أما الكرصة فهي من الكرّس أو الكرّس ؛ وهي كلمة سامية الأصل ، تحتفظ العربية ببعض مدلولاتها الأولى كالتجمع أو التراكم أو الاعتكاف ، ومهما يكن من أمر ففي هذا العيد تحجر العقيدة الصابئية على أتباعها جميعًا داخل منازلهم ، يصبح فضاء الآخر شيطانيًا ، ولهذا يلونون منه كي لا يندسهم ، إنه نوع من التطهير بوساطة الاحتجاب.

في هذه الشعيرة يأتي شقاء الأولاد من جهة الغرب ، الجهة الإسلامية : ليتجولوا في بيوت الصابئة في وضح النهار ، تحت أسماع المحتجبين وأبصارهم ! ليحملوا أي شيء ترك في فناء الدار المكشوف ، يرى المكرسون الأيدي تمتد وتعبث في أرجاء البيت من غير أن يأتوا بحركة ما ، لأن أية حركة تؤدي إلى انكشاف المحتجب وهذا يعني أنه سيكون برؤية "الآخر" له أو لمسه نجسًا ، تمكنت من اصطياده حبال عيش الشيطان.

إن ثمن التطهير هو فقدان جزء من أثاث البيت ومتاعه ، مما لا يمكن أن يخبأ في الحجرات الموصودة بالعقيدة ، مرة كنت ضمن عصابة فتیان اقتحمت بيت أحد الصابئة في عيد "الكرصة" وكان على رأس هذه العصابة أحد (شقاوات) العنف واسمه "عبيد" ، حين دخلنا ربعة الدار فاجأنا خوار بقرة ، يبدو أنها جفلت من دخول هذه المخلوقات غير الأليفة ، درنا في أرجاء البيت فلم نجد شيئاً يذكر ، حينها عمد "عبيد" إلى البقرة ففك رباطها وبدأ يقودها ، مصدرًا أصوات استدعاء البقر خارج البيت ، عند ذاك جاء الصوت من اللامكان... صوت زلزل كياني أنا في الأقل : (أعرفكم واحد واحد ، ابن رمضان وابن كاظم الخفي وابن شعيع وابن حجي يوسف "هذا هو أنا" ، ومضى يعدد الأسماء الواحد تلو الآخر ، غدا سأسحبكم في مركز الشرطة ونشوف ماذا يفعل آبائكم).

كان الصوت يعدو فوق هربنا إلا "عبيد" الذي توقف ليقالب العرض : البقرة أو الفضيحة والسجن ، ويبدو أنه اختار أهون العقوبتين ؛ ترك البقرة تخور ولحق بنا وهو يلهث.

في السنين الأخيرة ضرب أحد مدراء الناحية طوقاً من الحراسة حول بيوت الصابئة ، فوضع بذلك حدًا لتسلل الصبيان من عقيدة إلى أخرى ، هكذا كان الجسر خطأ أحمر ، يفصل بين عقيدتين ، غير أنه كان في الوقت ذاته علامة اختلاط عند العبور ، في العبور إلى أشغالهم وأعمالهم يصبح اختلاط البشر كالأمر الواقع الذي تتقلص فيه دائرة نفوذ الانفصال العقائدي المقدس ، إنه جزء من قوانين الكائن البشري وموضوعاته بكونه كائنًا حيًا حرًا فريدًا ، لا بكونه كائنًا أيديولوجيًا جمعياً تنسجه منظومة قيم مقدسة.

عندها تضع العقيدة هذا الاختلاط في منطقة مواربة من وجوده ثم تنساه ! غير أن كلتا العقيدتين تعوض هذه المواربة بتأكيد قدسية الانفصال بعد عبور الجسر ! هناك منطقتان أخريان مواربتان تنتهكان قواعد تحريم الاختلاط ؛ منطقة "العمل" ومنطقة "التعليم".

في منطقة "العمل" أو ما أفضل أن أسميه الإرغام الاقتصادي ؛ يلمس المسلمون والصابئون بعضهم بعضاً ، يصنع الصابئي الزورق فيستأجره المسلم أو يشتريه لأغراض النقل أو الصيد (صيد السمك) ، حينئذ تحدث الملامسات المكانية بينهما ! آثار أنامل الصابئي ويده التي تدق وتنتشر وتطلي ، وعرق جبينه الذي يقطر فوق قطع الخشب ، يصبح ملاذاً لأنامل "المسلم" ويده التي تمسك بالمردى ، وجسده الذي يحتويه حوض الزورق ، كما أن طبقات أصابع الصابئي على الذهب تلامس طبقات أصابع المسلم عليه حين يشتركان معاً في لعبة الصياغة واستهلاك الصياغة ، وهكذا يتم اللمس بوساطة الاقتصاد.

يدخل المسلم والمسلمة المدرسة فيعلمهما الصابئي والعكس بالعكس ، هنا يتبادلان اللمس كأخوين منفصلين أحدهما كبير والآخر صغير ، كان الأستاذ

سامي فياض الصابئي ، معلم الانجليزية حين يضع يده على كتفي يجعلني أحس بنشوة الكمال ! منذ الطفولة تجذر "العقيدة" وجودها في تربة العقل ، تزرع قيمها بأناة وصبر ، مستخدمة جميع الوسائل الإرغامية التي ستبدو في ما بعد اختيارية، تثبت العقيدة كالأعشاب البرية داخل العقل ، ومع مرور الوقت يأخذ العقل وصورة العشب البر الذي لا ترعى فيه سوى التعليمات المقدسة التي تعد الحيدة عنها وقوعاً في حبائل الشيطان ! تصبح العقيدة مرآة الوعي التي لا توجد خارج حدودها أية صورة للحياة!.

عام ١٩٥٥ تلقى مدير بريد المشرح "رحيم زيدان" برقية تنبئ عن وصول وزير الداخلية "سعيد قزاز" على رأس وفد كبير بلدة المشرح في غضون يومين، كان هذا حدثاً زلزالياً، إذ أن رؤية مدير الناحية ومعاون الشرطة وهما يسيران من بيتهما نحو مباني الإدارة المحلية تعد نوعاً من أنواع الفرجة، حيث يتجمع جمهور متنوع لمشاهدة هذا العرض ، بل تعد زيارة حاكم المقاطعة (متصرف اللواء) الذي لا يبعد مركز عمله عن بلدة المشرح سوى عشرين كيلومتر حدثاً تاريخياً، تعاد به صياغة البيئة النفسية والاجتماعية والهندسية لتلك البلدة، فما بالك الآن بمجيء وفد ليس حاكم المقاطعة أو متصرف اللواء، سوى أحد أعضائه؟.

وهكذا انشغل الناس عن هدف الزيارة بالزيارة، أقيمت الاستعدادات على قدم وساق ! وصدرت أوامر إدارية (لا أزال أحتفظ ببعض وثائقها) بتشكيل لجان الزيارة : لجنة التنظيف والترتيب ولجنة تصنيف المستقبليين ولجنة التجمهر واللافتات ولجنة الخطب ، وإن أنسى فلا أنسى تلك اللافتة الملونة الطويلة التي ملأها الخط من أقصاها إلى أقصاها : (عاش جلالة الملك المعظم فيصل الثاني ملك العراق ، طائفة الصابئة المندائيين ترحب بمعالي وزير الداخلية الأستاذ سعيد قزاز والوفد المرافق).

كنت في الصف السادس الابتدائي حين رأينا من نوافذ الصف كتلة لا يمكن تحديدها تتحرك نحونا، وبحركة مفاجئة، مستمدة من احتياطي الاستعداد لهذه اللحظة، أجلس معلم الدين واللغة العربية الأستاذ محمد جعفر الطالب الذي كان يقوم بشرح الدرس ووضعني بدلاً منه، كنت أحمل امتيازاً لغوياً وراثياً، إذ كان أبي واحداً من علماء النحو المتأخرين، ومؤلف مخطوطة "القواعد الضمنية في الاجرومية العربية"

- بعث الله نبينا محمد...

قاطعني المعلم بصوت أمر قصير خافت:

- انتظر حتى يصلوا!

كنت قد تجمدت وسط الصف، غير أن جانبي الأيمن كان يحس بتقدمهم من غير أن يكون بمقدوري تحديد ملامح بشرية ما، بدوا وكأنهم من خارج كوكبنا الصغير، المشرح، بل من خارج الكواكب الكبيرة مدريد ولندن وباريس التي كنا نساfer إليها عبر خرائط درس الجغرافيا!

لمحت شرائط حمراء تسيل على أكتاف بعضهم (عرفت في ما بعد أنه أمر حامية المقاطعة)، ولمحت صورة "الأنكر" في زي بعضهم (عرفت في ما بعد أنه قائد القوة النهرية لمركز المقاطعة) ثم يا لأعاجيب الدنيا! رأيت وأنا أرفع رأسي أقوى رمز لسلطة الخوف على الإطلاق، مدير مدرستنا الأستاذ "رشيد الإمام" وهو يسير في الخلف... الخلف البعيد! دخلوا الصف، التقت عيناى بعيني المعلم! وبشعاع من عينيه وابتسامة المستجيرة، وهزة خفيفة من رأسه أرسل إلي إشارة البدء:

- بعث الله نبينا محمد إلى قريش في مكة يدعوهم إلى الإسلام، فأمن بدعوته أول الأمر نفر قليل، وكفر بها الكثير، كان الكفار قد سعوا إلى القضاء على الدعوة في مهدها، كان الكفار...

- هل في المشرح كفار؟

كان وزير الداخلية أو هذا ما كنت أظنه في تلك اللحظة قد انحنى علي ، أجبت
من غير أن أرفع رأسي :
- نعم !

أدار الوزير رأسه ونظر إلى من خلفه ، ثم عاد إلي بوجه تشوبه ابتسامة
منتظرة :
- نعم ؟
أجبت :
- نعم ...

- يوجد كفار في المشرح ؟

هزرت رأسي إيجاباً ، سألت :
- الآن ؟

هزرت رأسي إيجاباً :

- من ؟

- الصبة !

كأن الوفد والمرافقين والمستضيفين باللونة انفجرت ! جلجلت ضحكة وزير
الداخلية في أرجاء الصف ، أسندتها ضحكات طليقة حوله ! وأمامي انفجرت
ضحكة معلمي ، ثم رفع الوزير رأسه متجولاً بين الوفد ثم أعاده إلي وهو يقول
بين أجزاء الضحك :

- من ؟

- الصبة !

اختل النظام الحديدي للاستقبال ! الآن بدأ الجميع بشر مثلنا ، ربت الوزير على
كتفي وصافح معلمي بحرارة وامتنان ثم غادر وسط تشنجات ما تبقى من
الضحك ! ومعلمنا يقف على عتبة الصف محيياً ، حين استدار نظر إلي ملياً ،
ومن غير أن تغادر الابتسامة شفثيه ، قال :

- سودت وجوهنا !

في اليوم التالي بدا لي أن معلم الانجليزية الأستاذ سامي فياض ، "وهو صابئي" وكان المثل الذي كنا نحلم بأن نكون ؛ مستاء مني ، كان ينظر إليّ من طرف عينه كلما حانت منه التفاتة نحو اتجاهي ! رفعت يدي :

- أستاذ...

نظر إلي من غير أن يأذن لي بشيء...

- أستاذ... ما معنى وزير الداخلية باللغة الانجليزية؟

صفن طويلاً ثم قطب جبينه واستدار إلى السبورة وكتب بخط عريض mankind نقلت هذا في كراستي ، بعد سنتين تلقيت مغزى الإشارة التي بعث بها إلي !

* * *

ونعود إلى جسر الأضداد الذي كان يجمع بين العقيدتين في أثناء العبور ، ويفرق بينهما ما بعد العبور ! لنراقب من فوقه شعيرة التعميد...

شعيرة التعميد :

الماء ! الذي جعل منه جسد الإنسان الأول ما قبل العقائد ؛ غضاً نقياً شفافاً ، صار نداءه الكلي العميق ، كلما احتواه البر وشعر أنه تلوث وعرق وأغبر وفسد، عاد من فوره إلى دورة الطهر الجاري ! هكذا عاش العراقي القديم المسمى بالسومري ، كلما لوثة البر طهره النهر ! لم يكن يتجه إلى الآلهة المتناثرة حوله ، بل إلى تلك الدفقة المتناثرة حوله ، بل إلى تلك الدفقة المنسكبة في تعاقب أبدي ، كناية عن الروح المفقودة ! كلما لوثة البر طهره النهر ! ليعود إلى رنتيه من جديد ، "وماذا يفعل وقد وضع في الخانة الأخيرة من الوجود" كان خلقه برياً حسب ، ليس مائياً ولا برمائياً.

تقول أساطير المشرح: "الإنسان كان سمكة ثم عوقب فصار سلحفاة، ثم عوقب فصار إنساناً"، تعكس الأسطورة تماهي الإنسان بالماء قبل العقاب، فالسمكة في النهاية ليست إلا موجة ماء لها غريزة! ثم بدأ العقاب بشطره نصفين: مُليء أحدهما بالكتلة والنقل البري، وترك النصف الآخر خفيفاً في الماء، ثم قذف بالعقاب الثالث نهائياً نحو البر!

على ضفاف السومريين تشكلت لدى الأول، في ثلثيا روحه غدة الماء! هذا جوهر التعميد! والفرق هو في تحول التطهير المادي والنفسي إلى تطهير رمزي، صرنا بإزاء فعل طقسي، لا يظهر فيه الماء الجسد، بل يطهر العقل والروح من الخطيئة.

من على الجسر في الشتاء القارس، إذ تتجمد حواف النهر، كنا نراقب مشهد التعميد الصابئي، ينزل المعمد المتعاقدين على الزواج بثياب عرسهما في الماء، وهو يأتي بحركات غريبة للرأس والجسد والذراعين، كانت القشعريرة تدب تحت جلودنا، حين نراهما يتواريان تحت جلد ماء النهر، والمعمد يطش الحبيب المتدفق فوقهما، ثم يغطس يديه فيرفعهما كما يرفع ريشتين لامعتين، يتكرر هذا التواري والظهور سبعة: (ندرك الآن أن العدد سبعة رقم طقسي يعلن تكراره في البنيات الرمزية الشرقية عن ذلك بجلاء).

أما داخل حدود العقيدة الإسلامية فلا نرى التعميد وقد اختفى وحسب، بل نراه كشعيرة بدائية، ومع مرور الزمن ينظر إلى شعائر عقيدة أخرى كجزء من الترتيبات الميثولوجية التي تجلب الحيرة والاستغراب والدهشة! لكن ما أن تكون الشعائر جزء من عقيدتك وتنمو فيك؛ حتى تراها أليفة كحركة يد تؤدي التحية وهي تمس الصدغ أو توضع على الرأس أو الصدر! هكذا تتصلب العقائد حول نواها! ليظهر هذا في أشكال زيتها وتحيتها وزواجها وطعامها!

أدار المسلمون ظهرهم للنهر باعتباره مكان التطهير الرمزي، الجسد الإسلامي حين ينزل إلى النهر يكون قد تحرر تماماً من فكرة التطهير المقدس "التعميد"

إنه مجرد مجرى لنزته فقط ! كثيراً ما سألت نفسي حين ينتهي مشهد التعميد "لَمْ يفعلون ذلك بالله؟" في آخر المطاف تلقيت الجواب ؛ الحب والكرامة.

هذه مسكوكة تحية عربية قديمة ، تصادف قارئ الحكايات العربية في كل منعطف منها ! "حباً وكرامة أو حبة وكرامة" ، دخلت هذه التحية في بداتنا على أنها تعكس ما ألفناه من دلالة الحب والكرامة ، ولم يكلف أحد منا عناء السؤال عما يربط في هذه التحية بين الحب والكرامة ! فإذا سأل وجد الأمر غريباً ، فالتناسب بين الحب والكرامة معدوم أو يكاد ، ولا سبيل إلى إعادة اللحمة بينهما إلا بالعودة إلى أصل اللفظتين قبل أن يستقرا في تجاورهما هذا.

لا يعني الحب في خطاب التحية ذاك الحب بمعناه المؤلف ، وهو النزوع العاطفي ، بل يعني الخابية ، خابية الماء الكبيرة التي تصنع من الطابوق كمرشح للماء ، كما يستعمل قعرها كمقطر له ، أما الكرامة فمعناها هنا غطاء الخابية ، ولما كان تداول الحب عندنا بمعنى العزة هما السائدان ، صرنا نتعامل معهما بمقتضيات الوضع ، وهكذا يكون معنى التحية : سأبذل لك كل شيء : الحب وغطاءه ! ليحل التناسب محل اللا تناسب ، وتعود للجيرة حقوقها !

الآن سوف تلنقي العقيدة بالتعميد ، ولتقيا بالحب وغطائه ليكون ما حدث أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع : كنا في شهر مايس "مايو" من عام ١٩٥٥ أواخر العام الدراسي ، ثم ترتفع حرارة الجو وينتشر لفح الشمس فيسخن الهواء ويعرق الجلد وتتيبس الشفاه وينفطر اللسان وتجف الحنجرة !

كانت الحصة الأخيرة ، تُشير عقارب الساعة إلى الحادية عشرة وخمس عشر دقيقة ، العقربان متجهان إلى الساعة الثانية عشرة ، نقطة تعامد الشمس في السماء ! دق جرس المدرسة مخيفاً طويلاً كأنه لا ينتهي ! وهرع الجميع مسرعين إلى صفوفهم ، تسوقهم عصا الألم التربوي ؛ العصا المكتنزة القصيرة ، التي تتمايل بيد الأستاذ رشيد الإمام مدير مدرسة المشرح الابتدائية للبنين .

تخلفت عن المسير إلى الصف؛ إذ صعد على شفتي ولساني ظمأ مفاجئ، يسمى هذا في الدراما القدر التراجيدي، ظمأ لم يعلن عن ذاته إلا حين دق جرس انتهاء الاستراحة الأخيرة، أسرعت أسابق الزمن لأحصل على جرعة ماء قبل أن أشمل بعقاب التأخر عن دخول الصف بعد دق الجرس! كان إحساسي بالظمأ يتفاقم، هاجم الجفاف بلعومي وحلقي من كل جانب، في هذه الأثناء هبت زوبعة رملية نفخت دشدشتي ودفعنتي إلى الوراء، الجهد الذي بذلته لمعاكسة تيار الريح الرملية جعلني عبارة عن عطش يتحرك! اندلع داخلي نشاط مسموع لتصورات الماء: "سأشرب بكفي! لا بل أصك بحلقي على حنفية الحب".

كان هناك ركن في ساحة المدرسة الخلفية، ركن مظلل بسقف خشبي مشبك، تتخلله عرائش عنب، وزعت فيه الحوابي الأربع الكبيرة المخصصة لشرب الطلاب الستمئة! أربعة حبوب: ثلاثة للمسلمين وواحد للصابئين، صفت الحوابي بحيث ينطوي التكوين على كتلتين بالفراغ الملحوظ الذي يفصل بينهما، اتجهت مسرعاً إلى منطقة الشرب.

بالحب الذي يتجمع على جلده حباب الماء المترشح عن مسامات باردة للطابوق المخضر! داهم تفكيري الحار فكرة التأخر عن الحصّة، الوقت الذي يمكن التغاضي عنه هو دقيقة واحدة فقط! بعدها تتحول العقوبة من المعلم إلى الإدارة يعني ذلك أن باطن القدمين ستلقى عشر فلفقات! لكن كل هذه الهواجس والاختلاطات انتهت حين مددت يدي وأدرت حنفية الماء، تخرج من كل حب حنفية طويلة، كان الحب الأول فارغاً تماماً، انتقلت إلى الثاني وأدرت الحنفية، تطلعت في الوقت ذاته إلى الحب الثالث، وببد متأكدة من فراغه أدرت الحنفية، كان كل شيء ينبئ عن أن الحبوب نضبت.

كنت أسابق الزمن. ثم أخذ الظمأ يبطئ من تفكيري، وفي غمرة يأس، بذلت المحاولة الأخيرة؛ وضعت في ثلاث مرات متعاقبة على أفواه الحنفيات وأخذت أمص جراها محاولاً سحب ما يكون قد تجمع فيها من قطرات، علقت

في حوافها ، لكن صفير الهواء ملاً فمي ! لمست ، وقد سعد في عيني بكاء مفاجئ جلد الحب القريب مني ، كان ساخناً .

استدريت يائساً في لحظة بدت كأنها نهاية العالم ، وفي منحنى الاستدارة لمحت نذر الخطيئة قاعدة بانتظاري ! وقع في نصف عيني حب "الصابئة" ! ثم بدأ الأمر يتضح شيئاً فشيئاً ، تناهى إلى سمعي وقع قطرات الماء المترشحة من قمع ذلك الحب تتساقط على قاعدة الطابوق الفرشي ، ليحدث ارتطامها وقعاً كأنه يبلل حافة إدراكي !

ملأت خابية الصابئة عيني... كان حزامها أخضر ندياً ، تتجمع حوله حبيبات الرشح الجديد ، ثم عاينت حنفيتهما ! كانت قطرة ماء على وشك السقوط منها ، وبرغم أن الحب لم يكن يبعد عني سوى نصف متر كنت لا أزال أراه ككوكب قصي ، بيني وبينه آلاف الملايين من السنين الضوئية ، لكنني أشرف على لمعانه ! عدت برأسي إلى خوابي المسلمين ! لا أدري كيف غزاني شعور غريب بالحياد بين الكتلتين ، إذ ذاك سمعت هسيس نار يندلع في مكان ما ، استدريت إلى حب الصابئة ، كان الخط الأحمر الذي يفصلني عنه قد بدأ بالاشتعال "العقيدة أدركت نيتي إذن" ، في لحظة واحدة فقط ناب الظمأ عني كلياً ، كل ما فعلته لم أفعله بل فعله أحد آخر... امتدت يد كأنها يدي إلى كرامة الحب بعد أن تحركت قدم كأنها قدمي خطوة نحوه !

رفعت الكرامة ، كان الماء صافياً كمرآة مصقولة ! يبلغ مستوى حزام الحب... لكن رفع غطاء الحب حرك سطح الماء نحو حوافه مشتتاً صورتني التي انطبعت في مرآة الماء ، وفي لحظة مبهمه خاطفة امتدت يد كأنها يدي وحركت بأصابع مرتجفة خرطوم الحنفية فانهمر الماء مدراراً ! اندفع فم كأنه فمي معترضاً المجرى من جميع الجهات ! حتى أطبق عليه .

جرى الماء متدفقاً ثم انقطع بتوقف النفس... ثم متدفقاً... حتى غمر الزمان والمكان كله ، في تلك اللحظة فقط شعرت بجسدي لكنه لم يكن جسدي كلياً ! لم

أكن أحس الآن بشيء سوى بالفراغ والتعب والانتفاخ، وشيئاً فشيئاً أخذ الشعور بجسدي يقوى، غير أن هذا الجسد كان مُراً... كنت كمن يتذوق طعمه، استيقظت العقيدة كلياً لأدرك أنني لا أحمل بطناً بل خطيئة! أخذت أتحرك وقد اعتراني ذهول من يقاد إلى مصيره المحتوم! سرت لمصيري! قادتني قدماي إلى باب صفي.

يا للمفارقة! آخر حصة كانت حصة الاجتماعيات، ومعلم الحصة كان الأستاذ خلف غضبان الصابئي! لم أكن أقف على عتبة الصف بل كنت أقف فوق عتبة اللامبالاة بثبات عجيب! لقد دخلت الخطيئة في، فلم تعد أجزاء الذنوب الصغيرة (كالتأخر في دخول الصف) تهمني، نظر المعلم إلى ساعته، وقال:

- أين كنت؟

لم أسمع أن شيئاً صدر مني، لكني سمعت كلمته:

- ادخل

فدخلت... كانت دهشة الطلاب شديدة، فهذه أول مرة يُكسر فيها قانون التوقيت المدرسي الصارم، أحصل هذا بفعل تمازجنا المائي أنا ومعلمي الصابئي؟ بعد أن جلست في مكاني حلمت! ولا أدري كم مر من الوقت حين أحسست بحوارات تتقاطع حولي:

- أستاذ هذا مالك ابن يوسف نائم!

ميزت صوت المعلم:

- ما عليك منه.

- أستاذ كأنه مريض.

كأنني جرم يتهدى في الفضاء بكتلته، هزتني من كتفي أصابع... فتحت عينيّن متقلّتين مملوءتين بطعم ذكرى الخطيئة وجرس الحلة (انتهاء الدوام المدرسي اليومي)، يزحف كأفاعي الجحيم وهي تدخل أفواجا في أذني، كل ما في قد نفذ سوى هذه البقعة النجسة من الماء التي أحملها وأنا أسير نحو البيت، وشيئاً

فشيئاً بعد أن انحسر جزء من الماء عني بالامتصاص بدأت أحس بأنني شيء والخطيئة هي شيء آخر، لكن هذا لم يغير من شعوري بالمصير المحتوم الذي كان ينتظرني، ولهذا حين دفعت باب بيتنا الخشبي أرسلت الكلمات الأخيرة التي تمنح عادة لمن حكم عليه بالموت، وأنا أضع حقيبتني المدرسية جانباً...

- بابا شربت من حب الصبة!

كان أبي قد فرغ من وضوئه تَوَّأ، تراجع قليلاً كأنه يريد أن يبصرني ثم صرخ بصوت مدو وهو ينهض بشيخوخته إلى الأعلى:

- الله أكبر الله أكبر...

لمحت في شريط الوجود الذي بدأ يتفكك أخي الذي يكبرني تتبعه أختي ينفذان من جانبي خارجين، ظل صوت أبي يتردد في جنبات الدار كأنه لطوله وقوته صار كالآذان! لمحت في ما يشبه لمح النائم أمي وهي تخرج من جوف البيت فزعة، وما أن خطت نحوي خطوة حتى أوقفها أبي:

- لا تلمسيه!

قبض علي... نزلت أيد ثقيلة على جسدي وطوتني كما تطوى قطعة الإسفنج، ثم رفعت إلى أعلى بعيد عن ملامسة الرافعين، كانوا أربعة فتيان من أبناء عمومتي، صاح بهم أبي:

- للشط... صلوا عليه.

انشغلت قليلاً بذيل الجملة الغامضة، صلوا عليه، "أهي الصلاة على الميت؟" رفست وأنا مرفوع بأيدي الأربعة الغليظة كحمل نفذت السكين من غشاء رقبتة، ثم استسلمت للقوة...

* * *

مرة أخرى اختلطت الأفكار في رأسي طول المسافة من دارنا إلى الشط (لا تعدو مائة متر) ماذا تعني عبارة للشط.. صلوا عليه "أني سأدخل في المغيسل؟"

مكان غسل الموتى في المشرح، قبل أيام سرت مع أبي في موكب جنازة اتجه نحو الكرمة الثالثة من نهر المشرح، سجي الميت ثم شرع بغسله بأنية نقشت عليها آيات قرآنية، ثم وضع نبات في كفيه وضمتا وتحت إبطيه ثم لف بالكفن الأبيض وصلي عليه ووري التراب.

رفست قليلاً "ربما"... ملت برأسي جانباً لشدة الضوضاء التي كانت تنبعث من ورائي، فرأيت شطراً من حشد من الصبيان يحف بموكب رفعي للسماء! وصلنا ضفة النهر فأنزلوني، أمسك بي اثنان ونزل الآخرا في النهر وقد رفعنا ثيابهما إلى الحزام، سلمني اللذان كانا على البر إلى من كانا في النهر، وبدورهما دفعاني تحت الماء، رحت بعيداً في الأعماق... ما أن التقطت فكرتي أنفاسها لتتكون حتى رفعت إلى أعلى، لتتطلق أصوات المحتشدين:

- صلوات على محمد وآل محمد.

ثم نزلت ورفعت، وتكرر الأمر سبع مرات، تتخللها الصلوات، بعدها وضعت على ضفة النهر لأسمع جملة استئناف الحياة:

- هيا اركض إلى البيت لقد تطهرت!

بعد سنين طويلة أدركت أنني دخلت في التعميد؛ التطهير الرمزي بواسطة ماء النهر أو الماء الجاري... لأعرف أن ما كان يثير دهشتي من أفعال التعميد الغريبة لدى العقيدة.

البحث الرابع

عمر الدنيا والتاريخ

تعرض العالم إلى ثلاث نكبات كبيرة منذ خلق آدم وحواء ، ويكون عمر الدنيا منذ بدء الخليقة وحتى الآن ٤٧٤٥١٣ عام ، ويستمر العالم على وضعه الحالي ٢٦٥٥ سنة حتى يظهر المخلص المرتقب بهيئة ملاك نوراني... المسلمون يسمونه المهدي المنتظر ، والمسيحيون يسمونه المسيح المخلص ، والصابئة المندائيون يسمونه الملاك منداهيي.

الكارثة الأولى حدثت بالسيف والأوبئة ؛ ولم يبقَ من البشر غير الرجل رام وزوجته رود ، ومنهم تشكلت الدارة وازداد عدد الناس ، ٢١٦٠٠٠ سنة من آدم وحواء حتى رام ورود ، ثم حدثت كارثة الحريق بعد ٣٣٦٠٠٠ سنة ولم يبق من البشر إلا الرجل شورباي وزوجته شرهليل ، وحدثت كارثة الطوفان عندما كان عمر الدنيا ٤٦٦٠٠٠ سنة ، ونجا نوح وابنه سام وزوجته نهوريتا من الغرق ، لأن نوح بنى فلكاً بوحي من الله ، ووضع فيه من الكائنات من كل زوجين اثنين ، وحكم بعد الطوفان سلسلة من الملوك ، ومنهم الفراعنة ثلاثة آلاف وأربع مائة سنة ، ٣٤٠٠ سنة ، فيكون بذلك عمر الدنيا لغاية انقراض الفراعنة (حضارات سادت ثم بادت) ٤٦٩٤٠٠ سنة.

بعد ذلك حكم الفرس لغاية المرحلة الأولى حتى أصبح عمر الدنيا ٤٧١٣٦٤ سنة ، ثم حكم اليهود وسومر وبابل حتى أصبح عمر الدنيا عند انتهاء حكم البابليين ٤٧٢٧٥٧ سنة ، بعد حكم الفرس المرحلة الثانية ٣٨٢ سنة ، ثم ظهر الإسلام فحكم ١٣٧٤ سنة ، فأصبح عمر الدنيا ٤٧٤٥١٣ سنة.

يستمر العالم على وضعه الحالي كما ذكرنا ٢٦٥٥ سنة ، بعدها تبطل الأسلحة وتحل العدالة والإيمان وتوحد الأديان ، وتكون الدنيا على دين واحد لمدة

٦٠٠٠٠ سنة ، بعدها تطبق شريعة آدم الأولى ، ومنه إلى الملاك هيبيل زيوا (جبرائيل الرسول) ، لمدة ٥٠٠٠٠ سنة ، بعدها تفنى الأرض وترجع الحياة (النشماثا) الأنفس إلى عالم الأنوار.

هذا ما تذكره لنا بعض المصادر وتتسب هذه المعلومات إلى ما ورد في الكتب الدينية المندائية ، لكن هذه الكتب صحيح تذكر عمر الدنيا ، ولكنها تحسبها بربوات السنين ، ولا نعلم هل الربوة مائة عام أو ألف عام أو مليون عام ، لأن علم الآثار يدلنا على اكتشاف هياكل عظمية للإنسان القديم عمرها أكثر بكثير مما ذكر في أعلاه.

أما عن الكوارث فيؤكد لنا كتاب الكنز العظيم هذه الكوارث ، ويؤكد لنا كتاب الكنز العظيم كيف بدأت الحياة...

(قبل الأخوان جميعاً صار الثمر العظيم ، وبأمر ملك النور العظيم ذي الوقار حل الثمر العظيم داخل الثمر العظيم ، وبأمره سبحانه كان أثير الضياء العظيم ، ومن أثير زيوا ، أثير الضياء العظيم ، كانت الحرارة الحية ، ومن الحرارة الحية كان النور ، بقدرة ملك النور السامي صارت الحياة ، وصار الثمر العظيم ، وصار فيه يردنا ، وإذا صار يردنا العظيم صار الماء الحي ، الماء المتألق البهيم ، ومن الحياة الحية ، نحن الحياة صرنا ثم صار الأثريون ، وبعد أن صرنا أيتها الحياة ، صار الظلام ، ثم صار العوز والنقصان).

وبأمر من الحي العظيم خلق آدم ، وخُلقت حواء من الطين الأحمر (الصلصال) ، ومن الدم والمرارة وأسرار الكون (أيتها النفس تنهضين والحي القدير تسجدين وله تسبحين).

وهذا نص من كتاب الكنز الربا ، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين عندما ينتهي عمر الدنيا :

بسم الحي العظيم : (حِينَ يَحْتَمِلُ الْعَالَمُ ، تَسْقُطُ الْأَرْضُ فِي الظُّلُمَاتِ... وَالسَّمَاءُ تَلْتَفِعُ مِثْلَ الْقَصَبِ ، الشَّمْسُ تَنْطَفِئُ وَالْقَمَرُ يَحْتَمِي ، وَتَتَنَائَرُ الْكَوَاكِبُ مِثْلَ

أَوْرَاقُ النَّيْنِ ، تَذْهَبُ النَّارُ إِلَى كُنْهَا ، وَالْمِيَاهُ تَوُجِبُ إِلَى مَقَرِّهَا ، وَالرِّيَاحُ
الْأَرْبَعُ تَطْوِي أجنحتها وتَتَوَقَّفُ عَنِ الْمُبُوبِ ، أَمَا الْأَشْرَارُ "عَائِدِي الْكُؤَاكِبِ
وَمَنْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً" ، فَسَيُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيُمْسِكُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ،
مُقِيدِينَ مِثْلَ رُمَّانِ الرَّصَاصِ ، ثُمَّ يَسْقُطُونَ فِي غِيَابِهِ الْجَنِيمِ) .. والحي المزكي.
وهذا نص آخر من كتاب الكنز العظيم ، الملاك أنشي أثرًا يتطلع إلى الدنيا قبل
فناءها :

(رفعت عيني ، تطلعت إلى السماء ، إلى القمر والشمس الساطعة ، إلى النجوم
اللامعة ، إلى الملائكة والشياطين المسلطين في السماوات ، والمسلطين في
الأرض ، إلى الاثنين عشر برجًا ، حيث الشمس تنير والقمر يسير ، والملائكة
المسلطة على الماء والنار تُغير... هذه الجبال إلى أي شيء تستند ؟ وهذه البحار
على أي شيء تعتمد ؟ والأعماق والأشجار وما الذي فيها من أسرار ؟ هذا
الإشراق من أشرقه ؟ وهذا الليل الذي لا يشبه الذي سبقه من على النهار
أغلقه ، وضوء النهار الجميل الذي لا يصعد منه إلى بيت هيب إلا القليل ، فيبيته
مفعم بضوءه المهيبة الليل ، منهم من يمتص به فرحًا ، ومنهم من يمتلئ ترحًا ،
وهذه الكواكب التي تدور في السماوات ليل نهار معلقة كل في مدار ،
تتجول في أرجاء السماوات بلا قرار ، لا تتوقف في دورانها ولا انتظار ، والبشر
الذين تتصرف بهم الأقدار ، الطيبون والأشرار ، هذا تفقره وهذا تغنيه ، هذا
تضعفه وهذا تبكيه ، وهذا تضله وهذا تهديه).

تواريخ العالم :^١

شاعت بين الأمم القديمة والشعوب الحديثة تواريخ عديدة يؤشر قسم منها إلى أزمنة موعلة في التاريخ ، والقسم الآخر يؤشر أزمنة تتعلق بخصائص دول معينة ، فالقسم الأول يؤرخ لسني الخليقة منذ بداية العالم ، أما القسم الثاني فهو يتناول قروناً محددة بدأت بأزمنة معلومة وبوقوع حوادث اتخذت كمفتتح لتاريخ بعض الأمم.

القسم الأول: تواريخ سني الخليقة:

يراد بسني الخليقة وبداية العالم - هو تكوين الإنسان الأول منذ خلق آدم وحواء- كما جاء في معتقدات الشعوب الدينية القديمة ومنها سفر الخليقة لموسى وما أرخ به الكتبة القدماء... وهذه التواريخ هي:

١- التاريخ الإسرائيلي: اتخذ اليهود قبل المسيح وبعده تواريخ عديدة فقد اتخذوا لهم تاريخ اتفقوا عليه في القرن الحادي عشر للميلاد، وهو تاريخ يشير إلى بدء الخليقة، وهم يزعمون أنه وقع في ٧ كانون الثاني سنة ٣٧٦١ قبل الميلاد، وعلى هذا فالسنة الإسرائيلية الآن هي ٥٧٦٣.

٢- التاريخ الإسكندري: شاع هذا التاريخ في مصر، وبين كتاب أوروبيين في القرون الوسطى، وينسب إلى يوليوس الأفريقي في القرن الثالث الميلادي، يجعل هذا التاريخ مولد المسيح هو سنة ٥٥٠٠ للعالم، وبموجب هذا التقويم فإن التاريخ الحالي للعالم هو ٧٥٠٢.

٣- التاريخ القسطنطيني: جعل هذا التاريخ مولد المسيح سنة ٥٥٠٨ للعالم، وشاع بين الروم منذ بداية القرن السادس الميلادي، ولا زال البعض يؤرخون به، والسنة الحالية في هذا التقويم ٧٥١٠ للعالم.

١- للأستاذ ياسين الناشي مقالات قيمة عن تواريخ العالم.

٤- التاريخ الهندي: يعتقد أصحاب المعتقدات القديمة في الهند أن للعالم أربعة أدوار ، انتهت ثلاثة منها ونحن الآن في الدور الرابع الذي بدأ سنة ٣١٠١ قبل المسيح ، وطول فترته الزمنية ٤٣٢٠٠٠ ألف سنة ، وعليه فإن السنة الحالية حسب تقويمهم هي ٥١٠٣ للعالم.

٥- التاريخ اليولي: ينسب هذا التقويم إلى الفلكي الشهير يوليوس سكالينجر ، ويعرف باسمه وضعه سنة ١٥٤٠م ، معتبراً أن أول الخليقة هو ٣٩٤٩ قبل المسيح.

القسم الثاني: التواريخ الخاصة السابقة لميلاد المسيح:

١- التاريخ الصيني: وبدء مباشرته هي ٢٦٩٧ قبل المسيح ، ويقسمونه إلى أدوار يدوم كل دور منه ٦٠ سنة.

٢- تاريخ إبراهيم الخليل: ويبدأ هذا التقويم سنة ٢٢٩٦ قبل الميلاد ، ويمثل بدء هجرة إبراهيم الخليل من بابل إلى فلسطين.

٣- تاريخ الألعاب الأولمبية: هناك في اليونان مدينة تسمى أولمبيا كانت مقراً للإله جوبتر ، وعمد أهل المدينة إلى اجتذاب السواح إلى مدينتهم وذلك بإقامة ألعاب جميلة عرفت بالألعاب الأولمبية تقام كل أربع سنوات ، وأول أدوار هذه الألعاب كان في ١٨ تموز ٧٧٦ قبل الميلاد ، وانتشر هذا التقويم آنذاك في جميع بلاد اليونان.

وهناك تواريخ أخرى تذكر للعلم فقط: تاريخ البطالسة في مصر ، تاريخ روميه في إيطاليا ، التاريخ القيصري في روسيا ، تواريخ المدن الفينيقية الساحلية.

القسم الثالث: التواريخ بعد المسيح:

١- التاريخ المسيحي: وهو تاريخ منتشر في جميع أنحاء العالم على اختلاف المذاهب والأفكار ، وضع هذا التاريخ راهب يدعى (ديونسيوس الصغير) ، وكان يشرف على السجلات البابوية ، فاعتمد على بدء تاريخ كتابته للسجلات تاريخ

ميلاد السيد المسيح ، كان ذلك في سنة ٥٢٤م ، واتخذ هذا التاريخ رسميًا من قبل ملك فرنسا (كيرلس الكبير) ، ثم شاع في جميع الدول الأوروبية والعالم .

٢- السنة القبطية في مصر : وهي سنة شمسية ، إلا أنها تتبع الحساب الشرقي الجاري عند الروم .

٣- التاريخ الأرمني : وهو حساب شمسي أيضاً لكن دون الاكتراث بالسنة الكبيسة ورأس السنة عندهم هو يوم الغطاس ٦ كانون الثاني .

القسم الرابع : تواريخ العرب قبل الإسلام :

لا يوجد شيء مؤكد عن حساب تواريخ العرب قبل الهجرة النبوية الشريفة إلا القليل من المعلومات ، أشهرها هو تاريخ عام الفيل حين حاول الأحباش غزو مكة المكرمة ، وهذا التاريخ هو ٢٩ آب سنة ٥٧٠ ميلادية... وللقريشيين تاريخ يبدأ بيوم الفجار الثاني إذ انتصروا على بني هوازن سنة ٥٨٩ للميلاد ، ولبني طي تاريخ هو عام الفساد في داخل القرن السابع الميلادي .

القسم الخامس : التاريخ الهجري :

يبدأ هذا التاريخ بهجرة الرسول (ص) وأصحابه (رض) من مكة إلى يثرب ، وكان ذلك في ١٥ تموز سنة ٦٢٢ ميلادية ، واستند حسابهم الزمني على رؤية الهلال ، والسنة الهجرية هي سنة قمرية تتألف من ١٢ شهر أو ٣٥٤ يوم ، وفي بعض السنين ٣٥٥ يوم ، وتتقص السنة الهجرية عن الميلادية أو بالنسبة للسنة الشمسية سنة كاملة كل ٣٣ سنة .

القسم السادس : التاريخ الفارسي :

ويسمى تاريخ أردشير آخر ملوك الساسانيين ، حين فتح العرب بلاد الفرس وخلعوا أردشير ، وتاريخه يبدأ في ١٦ حزيران ٦٣٢م ، وبقيت هذه تؤرخ في بلاد فارس إلا أن جاء جلال الدين ملكشاه ، فأبدلها بالسنة القمرية ، وبقيت يؤرخ بها إلى سنة ٤٦٧ هجرية حيث أبدلت بالسنة الشمسية .

البحث الخامس

مع الصابئة المندائيين في إيران

نُشرت هذه المقالة في مجلة الدراسات الدينية أيلول ١٩٩٦ ، السنة الثانية ، العدد ٣ ص ١ ، كتبتها آن يورن جاكسون باكلي ، وهي باحثة مستقلة تعيش في مدينة ايستهام بأمريكا ، وقدمها دكتور فرحان عبد الواحد يوسف^١ ؛ حيث ذكرت أن المندائيين وتعني حرفياً العارفين ، هم الروحانيون (الغنوصيون) الوحيدون الباقون من زمن العصور القديمة.

ولقد قطنوا خلال الألف وثمانمائة سنة الماضية في جنوب العراق ، وجنوب غرب إيران وأجزاء أخرى من العالم ، وهم يلتزمون بالعقائد الغنوصية الأصيلة ، والأساطير التي تعالج وقوع الروح في شرك الحياة الدنيوية ، وبوجود عالم نور سماوي ، وهو موطن الروح الحقيقي.

ولكونهم تعميديين ؛ يرى المندائيون في يوحنا المعمدان آخر أنبيائهم ومجدد الديانة التي يقولون عنها إنها تنطلق في نهاية الأمر من آدم نفسه ، يعيش المندائيون مع إخوانهم المسلمين ، ويكونون جزء من شعوب جيرانهم ، وعبر القرون حافظوا على تقاليدهم إلى درجة ملحوظة ، وقد يصل عددهم الكلي إلى ٥٠ ألف نسمة ، ولكن الوصول إلى عدد حقيقي أمر يكاد يكون مستحيل.

قام قسم التاريخ بجامعة الدكتور بهشتي في طهران بتقديم طلب إشارة الدخول لي (الفيزا) ، وهو ترتيب حكيم لأن المندائيين غير معترف بهم رسمياً كأقلية دينية في إيران ، وبعد الثورة سنة ١٩٨٠ ؛ توقفت الحكومة عن تقديم هذه الحماية لهم ، وعندها عمل المندائيون على استعادة هذه الحماية.

١ - دكتور فرحان عبد الواحد يوسف ، شقيق المؤلف ولع العديد من المقالات القيمة.

وقبل حوالي سنة أصدر الرئيس الإيراني خامنئي فتوى بشأن المندائيين ، تنص على أن المندائيين موحدون ولهم كتاب مقدس ونبي ، لذلك يجب الاعتراف بهم كديانة محمية ، ومنذ صدور الفتوى تعززت آمال المندائيين ، ونتيجة لذلك كان التأييد الديني السياسي من بين الخطط التي وضعت تسهيلاً لمهمتي ، وبغض النظر عن كوني ضيفة على المندائيين ، فقد عقدت مؤتمرات ومحادثات دينية مع رجال الدين المندائيين ، وشاهدت الطقوس ، وزرت الأقاليم المقدسة ، فقد ظهرت في طهران أمام جمهور مسلم من الطلبة والأكاديميين ورجال الدين والمتقنين .

ينقسم المجتمع المندائي إلى طبقات : رجال الدين واليلوفا ، وعامة الناس ، ومثلما يمكن للمرء أن يتوقع ؛ تعتبر قواعد النقاء هي الأقوى بالنسبة لرجال الدين ، وكان مرافقي الدائم هو الشيخ سالم الكحيلي ، وهو بدرجة (يلوفا) ، أي رجل متعلم من عامة الناس ، والذي عمل مع آخرين كمبرمج فوري لي ، وسافر معي إلى كل مكان ، وأصبح صديقي الموثوق به وأخي الكريم .

في البداية ذهبت إلى الأحواز عاصمة المحافظة الجنوبية القريبة من (خوزستان) وهي مركز الطائفة المندائية في إيران ، وهناك وجدت أربعة رجال دين ، ثلاثة منهم الشيخ جبار وولديه ، وينتمون إلى عائلة طاووسي ، أما رجل الدين الآخر فكان من عائلة أخرى ، وكان بدرجة (ترميذا) تلميذ ، وهي أدنى درجة دينية ، في حين كان الشيخ جبار وولده الأكبر بدرجة (كنزبرا) ، أي أمناء ، وهي أعلى درجة ، باعتبارهم مصدر طاقات روحية لا شك فيها ، ورجال الدين أرسقراطيون ويتسمون بلحاهم الطويلة .

وفي يوم أحد شاهدت أول تعميد مندائي ؛ حيث جرى عند ضفة الكارون وهو أكبر الأنهار في إيران ، كان ماء النهر بني اللون وسريع الجريان ؛ ممثلاً بالثلوج الذائبة من الجبال ، ويمارس المندائيون تعميد متكرر ، ولا بد من حصول تغطيس كامل في ماء جار نظيف ، الذي هو صورة لعالم النور على الأرض ،

وقد ترك رجال الدين الثلاثة وهم يرتدون ملابسهم الطقسية التي تدعى (رستا)، والأشخاص الخمسة الذين كان يراد تعميدهم ، تركوا انطباعاً رصيناً ومؤثراً ونموذجياً.

إذ بدأ المشهد غير محدود بزمن وكانى كنت أتابع شيء قد حصل قبل ألفي سنة؛ ومع ذلك كنا في مدينة تعج بثلاثة ملايين نسمة ، وقليل منهم من توقف على الجسر لينظر في اتجاهنا، وفي أحد الأيام انطلقنا بالسيارة عبر الصحراء لنرى (مندي) تقليدياً يقع مخفياً خلف بوابة مغلقة وأسوار عالية ، ويستخدم الكوخ لعمليات تكريس رجال الدين ، ولغرض إجراء طقوس عيد البرونايا (البنجا) عيد الخليقة، وهي فترة الأيام الخمسة التي تمت فيها عمليات الخلق.

ومن خلال إذن خاص من الشيخ جبار منحت شرف الدخول مرتدية صندل خشبي إلى الكوخ الذي كان بلا نوافذ، وكانت هناك معاملات خاصة أخرى، فقد تجمع المندائيون بأعداد كبيرة لسماع محاضرتي في منديهم الواقع في الحي المندائي في الأحواز ، وقد جلس رجال محترمون ذوو لحى طويلة في الصف الأول.

وفيما بعد ؛ وفي وقت مبكر من المساء ، امتلأت القاعة بالنساء والأطفال وأنا أتحدث عن طريق المترجمين عن دراستي لديانتهم وأصل الديانة وعلاقاتها بالديانات الأخرى في الماضي والحاضر ، واستمرت الجلستان ساعات حافلة بالزهور والهدايا ، وقد عاملوني وكأنى رئيسة دولة أو نجمة رقص معروفة ، فقد التمتعت كاميرات الفيديو وراحت تصور دون توقف، إذ لم يزرهم باحث من الخارج في الأحواز منذ الثلاثينيات.

واندهش معظمهم أن أجنبي من الخارج يعرف عن ديانتهم ويتحدث عنها ، وكانت هناك رحلات لمصانع وورش مندائية ، وإلى مواقع أثرية قديمة في الصحراء ، وإلى مراقد إسلامية وإلى مدن عديدة وكذلك شيراز وبيرسيبولس برفقة المندائيين... وفي أمسياتي الأخيرة في الأحواز ، وفي جلسة التوديع في

المكتب العلوي من المندي؛ تم تبادل كلمات رقيقة وشعرت بالحزن وأنا أغادر عائلتني التي كسبتها حديثاً.

كنت ذاهبة إلى طهران وماذا كان يمكنني القول عن المندائيين لجمهور مسلم، إنه لأمر مهم وصعب، وفي جامعة الدكتور بهشتي في طهران ألقى محاضرة عن المندائية وتاريخها وعن المانوية، وهي شكل منقرض من أشكال الروحانية المسيحية، قريبة تاريخياً وفكرياً من المندائية، وحضر جمهور يقدر بحوالي ٣٠٠ شخص (الطالبات على يساري والطلاب على يميني فيما جلس الأساتذة ومنظمو المحاضرة والمرافقون المندائيون في الصف الأمامي).

جلست على منصة قريبة من علم إيراني، لم أكن مستعدة لسماع العبارات التي صدرت مرتين من الصفوف التي يجلس عليها الطلاب الذكور، واعتقدت خطأ أن ذلك نوع من الاحتفاء الرقيق، ولكن تبين أن الرجال كانوا يصلون لبضعة ثوان كلما ذكرت بعض الأسماء، وبعد المحاضرة التحق بي وبالترجم كل من الشيخ جحيلي وأربعة أساتذة من بينهم الدكتور مجتبعي وهو شيخ تاريخ الأديان في إيران.

وتدفقت علينا الأسئلة المكتوبة من الجمهور وأخذنا نجيب بالدور، كيف تسنى لي دراسة المندائية ومن هم أساتذتي، والموقف التاريخي الديني في إيران في القرن الأول، وعلاقة المندائية بأشكال الروحانية (الغنوصية) الأخرى، ولماذا يرفض المندائيون الختان؟ (عالج الشيخ جحيلي ذلك الأمر)، وهل المندائيون موحدون؟ وما مدى أهمية علم النجوم لديهم؟ (السؤالان الأخيران في غاية الحساسية هذه الأيام في إيران).

لقد كان هذا حدثاً إيجابياً ومهماً جداً، وأن مؤتمر كهذا عن المندائية ما كان له أن ينعقد في جامعة إيرانية، وعلى أية حال لقد مضى زمن طويل منذ أن جاء شخص من الخارج ليقدم المندائية إلى جمهور مسلم، وقد تبادلنا كلمات التقدير وغادرت المنصة بتصفيق حار، حاملة معي سجادة جميلة، تحمل صورة المتصوف الرومي.

وفي إحدى الأمسيات تشاورت مع أعضاء في معهد ابن سينا ، وهو جمعية توحيدية خاصة بالعصر الإسلامي الجديد ، ذات اتجاهات صوفية ، وهي رابطة مكرسة لدراسات متكاملة عن الروحانية والفلسفة والمعالجات ، وتمنى الأعضاء تأسيس اتصالات مع مجاميع ذات صلة في الولايات المتحدة ، وهنا التقيت لفترة قصيرة مع آية الله سجادي ، وهو أستاذ قانوني محترم ، يتمتع بأخلاق مرنة ومرشح للبرلمان ، وينحدر من مدينة قم المقدسة ، طرح علي ثلاث أسئلة براغماتية عن المندائيين : هل يصلون ؟ هل يصومون ؟ هل يسمحون بالزواج المؤقت ؟ وبدا مرتاحاً للإجابات.

وقد انتهى معظم وقتي مع منتسبي معهد ابن سينا ، وقد أبلغهم مترجمي عن نيتي عقد مؤتمر حول طرق البحث الحالية في تاريخ الأديان ، وقد أردت عقد مثل هذا المؤتمر (ولكن هل يمكن أن يسمحوا به ؟) ، وعلمت أن الموضوع سيكون مثيراً للجدل ، ولحسن الحظ منع البروفسور مجتبعي عقد المؤتمر في مكان يفقد للحماية ، وبدلاً من ذلك عقد في مكان آمن ، في قاعة مؤتمرات كبيرة في فندق (لاهيل) ، الذي مازالت على جدرانه كتابات معادية للولايات المتحدة.

وجلس عدد من رجالات الدين البارزين ببزاتهم إلى جانب مثقفين من مختلف الاتجاهات ، وبعد خلق جو مهذب بدأت الدخول في مسار معرفي حذر بين ما بعد الحداثة والتوحيد ، منتقدة كلا الموقفين باسم الموضوعية الأخلاقية... وشاركني ثلاثة من المحترفين على المنضدة في الجولة الثانية من المؤتمر ، واعترف أنني تأثرت كثيراً بحجة الإسلام عبد خودي ، وهو دبلوماسي حقيقي تمكن من إظهار مرونة في القضايا الدينية رغم كونه من المتشددین.

كان هذا الحدث مثيراً إلى حد أنني لم أجربه من قبل ، بعد ذلك سألتني شابة بعد أن أحست بالنشوة لأنني ذكرت علاقات القوى في الأديان ، سألتني إن كنت قد أدركت أن هذا الأمر كان استفزازياً ، فقلت : نعم.

وبعد الزيارة وأنا مع أصدقاء مندائيين في نيويورك شاهدنا شريط فيديو لمدة ثلاث ساعات عن رحلتي هذه، وعن مشاهدة صوري وأنا أتحدث إلى الحشود في الأحواز، فعلق صديق لي (وهو من أهل خوزستان) قائلاً: (الآن يعرفون أنفسهم لأنك جئت إلى هناك لإخبارهم بذلك)، هذا الكلام ينم عن مسؤولية الباحث تجاه أناس محاصرين ومندeshيين من أن أجنبياً يعرف عنهم شيء.

ملاحظة: بغض النظر عن تقاعد الأستاذ كورت رودولف مؤخراً في ماربرغ بألمانيا، فإن الباحثة لا تعرف باحثين آخرين يدرسون المندائية حالياً، وهي تشجع الآخرين على القيام بدراسات مندائية.

الفصل العاشر

شخصيات قدمت خدمات جليلة

البحث الأول : رجال الدين الأفاضل ومساعدوهم

رحلوا عن هذه الدنيا .

البحث الثاني : شخصيات مندائيت رحلت .

البحث الثالث : باحثون ومؤرخون معاصرون .

البحث الرابع : المستشرقون .



البحث الأول

عدد من رجال الدين الأفاضل

رجال الدين ودورهم التاريخي في الحفاظ على الدين والمندائيين :

كتب المندائي الغيور سهيل نجم مقالاً قيماً عن أهم جبهات العمل لرجال ديننا الأفاضل حيث ذكر أنه منذ نشوء الخليقة على الأرض ؛ والإنسان مجبول على الشك والتساؤل والتفكير والخوف من المجهول ، فهو دائماً وأبداً يبحث عن ينير له العتمة ليشتع الإيمان والأمان في قلبه ، ولهذا فهو يحتاج إلى الشرائع السماوية وتعاليمها لتنظم له حياته ، وتهذب روحه الأمانة بالخير والشر ، بالمحبة والحد ، فأصبحت هناك حاجة ماسة إلى مؤمنين ينشرون رسالة الحي العظيم ، ونشر العدل والمساواة لبني الإنسان ، وينيرون الطريق لهم في التوجه إلى الهي ربي قدامي وتعاليمه النورانية التي تهذب الغرائز وتوجه النفوس الحائرة لطلب الرحمة والمغفرة مما ترتكبه من معاصي في دورة الحياة الأرضية ، وتهديه إلى الطريق القويم...

هكذا بدأ عمل المؤمنين من رجال الدين في ترسيخ العقيدة ، والاحتكام إلى قوانينها لتنظيم الحياة الروحية والاجتماعية للبشرية والدين المندائي بذرة الأديان الأولى ، على الأرض تفتحت أوراقه البيضاء ليشتع نوراً أزلياً وبهجة للمؤمنين ، وكان نبينا آدم مبارك اسمه أول الأنبياء والمرسلين ، استلم العهد ووثق رسالة الإيمان بالحي العظيم وصحفه لتكون شريعة لذريته لتسير على هداة في نشر المحبة والسلام وعبادة خالق الأكوان ، فهو إذن أول رجل دين.

استمرت دورات الحياة ورجال الدين المندائيون ماضون في أداء رسالتهم الإيمانية بكل تقان وإخلاص ، رغم ما مر بهم وبأمتهم من حقب وعصور تموج بالمآسي والويلات ، بسبب أطماع البشر وحبهم للسيطرة والشهوات المادية ،

متخذين طريق الشر والرذيلة منهجاً لحياتهم ، محاولين تغييب العقيدة المندائية التي تنادي بالحب والسلم ونزاهة القلب واللسان.

وها نحن وسط حقبة جديدة تمر على طائفتنا المسالمة ، وديننا النوراني بعد أن نالتهم هجمة بربرية من المتعصبين ، ومن عصابات الغدر والرذيلة زعزعت كيان هذه الطائفة الطيبة في أرض الرافدين ، متزامناً مع هجرة أهلنا المندائيون في عربستان ، من نير حكم مذهبي متطرف يحكم إيران منذ عقود ليشنت أهلنا المندائيون بعيون حزينة وقلوب منكسرة في أرجاء المعمورة ، لا ذنب لهم إلا أنهم مسالمون طيبون يحبون الحياة والضياء ، ولكن ذلك لا يروق للجهلة والظالمين الذين ساموا طائفتنا العذاب من حقد وضغينة وقتل وشتم ، ومن نهب وسلب ، فهم غنيمة كما تعلموا ولقنوا بأفكارهم السوداء التي تمازجت مع جشعهم وطمعهم ، وكانت النتيجة أن هذه الطائفة أصحاب الأرض والتاريخ في مهب ريح التغيير والشتات.

وهنا يبدأ الدور التاريخي لرجال ديننا الغيارى ، وهم المؤتمنون على هذه الطائفة التي تمر بأوقات عصيبة وتحتاج من يأخذ بيدها بعد أن تفرقت أصبحت هشّة وسهلة الاختراق روحياً وفكرياً واجتماعياً ، بتأثير من مجتمعات متعددة ، حيث مورست ضدهم شتى الأساليب لتغيير ديانتهم ، وطمس تراثهم ، وتأثيرات الانبهار الحضاري في المجتمعات العربية وتغيير أنماط الحياة في دول المهجر ، أو عن طريق منظمات وهيئات ذات باع طويل في جذب المحتاجين وضعيفي الإيمان ، ولهذا فأمام رجال الدين عدة جبهات تحتاج إلى جهود جبارة وخطط رصينة لمواجهتها.

أولى الجبهات تعزيز وترسيخ الإيمان بالعقيدة المندائية في نفوس أبناء الطائفة ، وحتى على الصمود بوجه كل أنواع الشر ، فهي معركة تحتاج إلى جهد وتواصل للعبور إلى بر الأمان ، وسلاح هذه المعركة هو تعميق الإيمان بشريعتنا السمحة بين صفوف المندائيين وتبيان نبل أهدافها وديمومتها للإنسان ،

وأن هذه العقيدة توحد القلوب وتتألف النفوس في محبة الخالق وطاعته ، وهنا يكمن دور رجل الدين بأن يكون مؤثراً لإرجاع النفوس الحائرة نتيجة الصدمات التي تلقاها أبناء الطائفة من حروب واضطهاد وتهجير ، أو بسبب انجرافهم بأحضان العوالم المادية ومغرياتها ، أو تأثير الحضارة الغربية التي بدأت عيوبها الخلقية تتضح وهي تنادي بالتفسخ العائلي ، وحرية الجنس ، والمثلية وغيرها...

إن هذه المهمة تحتاج إلى أساليب تربوية ورعاية متميزة وخاصة لذوي الفئات العمرية التي تتأثر بهذه المظاهر وهم جيل الشباب ، لكي نحفزهم ونحصنهم للتواصل مع دين آبائهم وأجدادهم ، وإحياء التواصل الروحي مع الشريعة والدين وبث العزيمة من أجل أداء الطقوس الدينية وتعظيم المناسبات الدينية.

ثاني الجبهات... هو استحداث هيئة دينية متكاملة من ذوي الاختصاص من رجال الدين المتبحرين بالشريعة المندائية ، ويسندهم المتخصصون باللغة المندائية والعاملون في شتى المجالات العلمية والبحثية والقانونية وأي تخصص تحتاجه لمراجعة التشريعات الدينية التي ترعى شؤون الرعاية روحياً واجتماعياً وتجيب على كل التساؤلات المشروعة لأبناء الطائفة ، خصوصاً بعد التقدم الهائل في العلوم بمختلف مناحي الحياة ، وما يحتاجه الفرد من شرائع وقوانين تتلاءم مع العقيدة المندائية ، وتواكب التغيرات الهائلة في هذا الزمن لتهدى المؤمنين إلى طريق الحق ورعاية شؤونهم الحياتية والروحية.

لقد مرت فترة طويلة امتدت لقرون لم تستحدث فيها تشريعات تتزامن مع التغيرات ولا تتقاطع مع الأصول للدين المندائي ، وهنا يبرز الدور المهم لرجال الدين لإبراز مكونات هذه الشريعة النورانية ، وفلسفتها الروحية والمادية ، واستنباط الأحكام من هذا الخزين ، وكذلك الاجتهاد من المتوارث من آباءنا ومعلمينا ، ومن روح وعظمة تراثنا حيث تصبح هذه النصوص الموحدة لجميع

أبناء الطائفة لعلاج أي تساؤل أو مشكلة تواجه المنضمين تحت راية ديننا النوراني في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية.

إنها مسؤولية كبرى وعلى رجال الدين مواكبتها بكل جهد ومثابرة، لأنها ركن أساسي في ديمومة الشريعة والدين المندائي، ونرد بذلك على كيد الحاقدين والمتربصين الذين يدعون أن ديننا وعقيدتنا لا تتلاءم مع العصر والزمن، ولنثبت لهم أن عقيدتنا نابضة منذ فجر التكوين وسوف تبقى كذلك.

ثالث الجبهات... هو تحرك رجال الدين نحو العوائل المندائية لتحفيزهم نحو التكاتف والتحابب والتلاحم، ونبذ الفرقة بعد الهزات العنيفة التي نالت منهم، وتفرق شمل الأهل والأحبة في جميع الدول، وهنا يأتي دور رجل الدين في بث روح العزيمة والقوة والتخفيف من معاناة الغربة، ومشاعر الحزن والفراق، وليكون قريباً منهم يستمع إلى مشاغلهم وهواجسهم وإيجاد الحلول المناسبة لمشاكلهم، وهذا التواصل يولد حوافز للالتقاء والتوحد، وهذا ما يبتغيه رجال الدين، وما كلفوا به من الهيي ربي قدامي مقدس اسمه لرعاية الدين والمندائيين.

رابع الجبهات... هو دحض كل الدعاوي الباطلة لأعداء الدين المندائي، من الحاقدين والجهلة والمارقين، يكفي صمتاً عن ظلمهم، إن السكوت وعدم مقارعة أباطيلهم بالحجة والبرهان هو خطأ كبير، ويأتي ذلك عن طريق تفعيل الدراسات اللاهوتية وتفسير النصوص والبوثة المباركة، وما تصبو إليه هذه النصوص، ونشر الطقوس والفلسفة اللاهوتية المندائية التي استفادت منها باقي الأديان والنحل، مثل نشوء الخليفة والرشامة (الوضوء) والدرجات الكهنوتية والصباغة (التعميد) والصوم والوفاني (الوجبات الطقسية) والصدقة وغيرها المئات مما احتوته البوثة والطقوس والتراث المندائي لفائدة البشرية جمعاء.

ويأتي دور رجال الدين في هذا المجال بتكثيف جهودهم في توسيع مدارك أبناء الطائفة الفكرية والروحية نحو عظمة دينهم، وغنى شريعتهم والتصدي للحاقدين

والمارقين بهذا الكم الهائل من العلوم والتراث لشريعتنا ، لنقول كفى خجلاً وتواري عن الأنظار ، نحن أول الموحدين على وجه البسيطة وسنبقى كذلك مؤمنين ، أيادينا مرفوعة نحو السماء للدعاء للهي ربي قدامي لا يفصلنا عنه حجر أو وتد ، لا نار ولا صنم ، نعم هذه شريعتنا بياض ونور وضياء ، هذه هي الجبهات التي تنتظر رجال ديننا المؤمنين وهم أهل لها ، يتقدمون الصفوف في مهمة صعبة ولكن بالإرادة والعزيمة التي لا تفتر يستطيعون تجاوز الصعاب ، ويبقى دورنا نحن أبناء الطائفة في مؤازرة رجال الدين بالحفاظ على ديننا النوراني ومد يد العون والمساندة والمساهمة لترقي من جديد ، وننسى الجراح ونجدد روحنا الوثابة نحو الرقي والتأنق والضياء ، وبذلك نساهم مع رجال ديننا الأوفياء في كتابة التاريخ من جديد.

وهنا لابد من ذكر عدد من رجال ديننا الأفاضل الذين فارقونا ورحلوا إلى العالم الآخر ، متسلحين بحسناتهم وخدماتهم التي قدموها طواعية بنفس طيبة ونكران ذات ومحبة لأبنائهم ودينهم وترسيخ مبادئ الدين المندائي المسالم المحب للخير لكل البشر ، والساعي لغرس الفضيلة والحب والتآخي والإيمان بين الناس.

لقد كان رجال ديننا الأفاضل الذين فارقونا ليحيوا حياة ثائية أبدية في عالم الحق؛ عالم الأنوار ، لما قدموه في حياتهم في هذه الدنيا من أعمال خيرة بعيدة عن المادة حياة روحانية خالصة ، كان كل واحد منهم رحمهم الحي العظيم حكيماً قاضياً روحانياً تقياً ورعاً يسعى إلى الخير والمحبة ، ويحيا حياة بسيطة متواضعة ويعيش من عرق جبينه في مزاولة مهنة بسيطة شريفة أمينة شعاره الصدق والأمانة والإخلاص ، ولهذا كانت الناس تحبهم وتشاورهم ويقتدي بهم ، فهم مثال وقوة يحتذي بها... الكل يطيعهم ويسمع كلامهم وتوجيهاتهم ، وهم لا يملكون إلا سلطة الأخلاق والخير والمحبة. لا يعرفون الجشع ولا يطلبون مال مقابل إجراءات دينية ، يتقبلون الإكراميات في الأعياد والمناسبات من أبناء جلدتهم ، حياتهم بسيطة متواضعة ولكن كل واحد منهم كان هيبية وشخصية قوية

لها احترامها وتقديرها ومحبتها بين الناس لأنه صاحب حظ وبخت وإيمان ودعاءه مستجاب عند الحي العظيم لنزاهته وصدقته وأمانته وعمق إيمانه ، وفهمه للدين ولل فكر المندائي والأحساب والأنساب المندائية وإجادته للغة المندائية وحفظه للكتاب المقدس وتفسير البوٲ (الآيات) ، رجل دين روحاني بمعنى الكلمة ، رحم الحي العظيم الرعيل الأول من رجال ديننا الورعين الأتقياء الخيرين.

شيخ داموك ونأسته لطائفه الصابئة المندائيين :

ذكر الأستاذ سالم شيخ جودة في مقال له إنه قد أوضح في مقال سابق مسيرة حياة (شيخ صكر) وما قام به من منجزات وخدمات للطائفة وإعداده لولديه شيخ داموك وشيخ صحن ليأخذا مكانتهما في المسار الذي اختطه في تثقيف أبناء الطائفة والتزامهم بكل أمورهم الدينية ، وكما بينت أن شيخ داموك كان من مواليد أوائل القرن التاسع عشر أو ما قبله بسنوات معدودة، وكُرِّس كرجل دين (ترميذة) قبيل أوائل العشرينات ، ثم كُرِّس من بعده أخوه شيخ صحن وكان الأخوان يصحبان أباهما في أسفاره بين دجلة والفرات وعربستان لإنجاز المهام الدينية وكانت لهذه الأسفار أهميتها في الإطلاع على أمور الصابئة وسلوك رجال الدين المنتشرين هنا وهناك في إنجاز المهام المنوطة بهم ، وكان جميع أبناء السلك الديني على وفاق فيما بينهم خلال حياة شيخ صكر وبعد وفاته أواسط الأربعينات من القرن التاسع عشر تولى ابنه شيخ داموك الرئاسة الدينية وكان مقر إقامته مع كل أبناء العائلة في منطقة سوق الشيوخ وخلال هذه الفترة الزمنية انتشرت البعثات التبشيرية في الخليج وجنوب العراق موجهة من قبل قناصل دولهم.

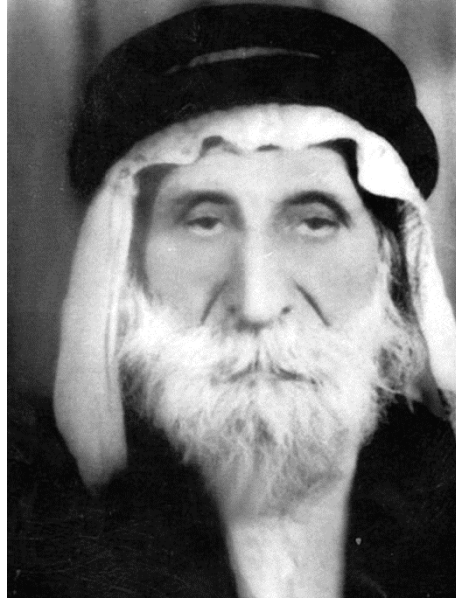
وقد وجد القنصل البريطاني ضالته المنشودة في التقرب إلى أحد رجال الدين الصابئة ، وقد اتفق هذا الرجل مع القنصل بتشديد المندى تحمل ساريته شارة الصليب وفي مقابل ذلك خصص له راتب شهري مقداره ٣٠ ليرة عثمانية كما قدم له سلفة بمبلغ ٣٠٠ ليرة عثمانية لبناء المندى، ولكن الصابئة وعلى رأسهم شيخ داموك رفضوا هذا العرض وعارضوا الاتفاق البريطاني وكما يظهر أن السلطة العثمانية كانت على علم بمجريات هذه الأحداث ولغرض إفشال هذا المنحى قرر شيخ داموك فرض الإقامة الجبرية على ذلك الشيخ في مدينة الناصرية ووضعه تحت المراقبة الصارمة ، وربما كان الهدف منها أيضاً حمايته من السلطة أو من نقمة أبناء الصابئة، جرت هذه الأحداث قبل هجرة

شيخ داموك وأخيه شيخ صحن إلى العمارة في أواسط الستينات من القرن الماضي وصدور قرار والي بغداد بتعيين شيخ داموك رئيساً لطائفة الصابئة في الوقت الذي أصبحت فيه مدينة العمارة من أنشط المدن في جنوب العراق في الحقل الزراعي والتجاري وهكذا ارتبطت رئاسة شيخ داموك ارتباط وثيق بنشأة وتنامي مدينة العمارة واستقرار الأمن فيها وفي المناطق المحيطة بها ، واستوطن فيها عدد كبير من الصابئة من أصحاب شتى المهن التي تتطلبها حاجة السكان ، ومن خلال تجول شيخ داموك وأخيه شيخ صحن أعجبتهم مدينة العمارة فقرروا السكن فيها وشيدوا لهم دور في مكان مناسب من محلة الصابئة على فرع الكحلاء.

وهكذا تكاملت المحلة بوجود رجال الدين في أواسط السبعينات فيها كما سكن في قلعة صالح ابن عمتهم شيخ سام شيخ شبوط وسكن فيها أيضاً شيخ عبد الله وابنه شيخ زهرون والد شيخ يحيى قادمين من منطقة عربستان وقد ارتأت الحكومة أن يكون للصابئة رئيس يمثلهم أمام السلطة وينظم علاقتهم مع رؤساء القبائل وعندها انقسم الصابئة إلى مجموعتين إحداهما رشحت شيخ داموك للرئاسة، والثانية اختارت شيخ زهرون لها ونظمت المضابط إلى الوالي وصدر عنه القرار بتعيين شيخ داموك رئيس للطائفة وهكذا أصبحت الرئاسة رسمية معترفاً بها من قبل السلطة العثمانية وأن للصابئة دين معترف به رسمياً كباقى الأديان السماوية ، وأصبح لشيخ داموك كل الحق في متابعة نشاط الشيوخ رسمياً، لقد كانت الفترة الزمنية لتولي شيخ داموك رئاسة الطائفة قصيرة إذ لم تتجاوز الخمس سنوات من عام ١٨٦٥ - ١٨٧٠ تولى من بعده الرئاسة وراثياً أخوه شيخ صحن وقد أنجز الكثير من الخدمات للطائفة دينياً وأمنياً بسبب علاقاته الحميمة مع الحكام ورؤساء العشائر في كل من العراق وعربستان ، كما سنتناوله في مجرى رئاسة شيخ صحن لاحقاً.

رجال دين خدموا المندائيين

* شيخ جثير بن منتوب ١٨٨٠ - ١٩٧٢م :



هو شيخ جثير بن منتوب بن شيخ بدر بن شيخ بهرام ، ويمتد نسبه في سلاله طويله من رجال الدين تنتهي بجدهم الأعلى شيخ سام الكبير قبل أجيال عديدة، ولد شيخ جثير في عشائر العمارة عام ١٨٨٠، وترعرع بين أعمامه وإخوته، إذ كان ثلاثة من أعمامه رجال دين هم: شيخ مطلب وشيخ آدم وشيخ مجذوب، في حين أن والده لم يكن رجل دين...

أصبح بعدئذٍ هو وأحد إخوته (شيخ كميت) واثنان من أولاد عمومته هما شيخ ضيدان وشيخ مصبوب رجال دين، نشأ شيخ جثير في بيئة دينية منذ صغره، وعندما أصبح شاباً طرس في إيران على يد شيخ زهرون فأصبح ترميذه، وبقي هكذا طيلة حياته ولم تسنح له فرصة ليصبح (كنز ابرا).

سكن فترة مدينة العمارة مع أعمامه ثم غادرها مستوطناً مدينة المشرح بعد تأسيسها، حيث قضى أحلى سنين عمره هناك، وتزوج وأنجب ثلاثة من الأبناء وعدداً من البنات.

كان شخصية مهيبة فرضت احترامها على الجميع، وكان محبوباً جداً من قبل شيوخ القبائل، كما كان يحب التنقل والتجوال والاشتغال بمهن عديدة، رغم أعبائه الدينية، فقد اشتغل بالزراعة وتجارة الحبوب وتربية الماشية، وكان يودع ماشيته عند رجال العشائر ويقتسم ما يربح منها مناصفة معهم، وقد نال ثقتهم ومحبتهم له بما كان يغدقه عليهم من عطاء، وكانوا يقومون أيضاً بحراسة القوافل العائدة له والتي كانت تنقل الحبوب إلى ناحية المشرح، كما كان يمتلك مضخة للسقي أقامها في قرية أم البطوط بين المشرح والعمارة استغلها في زراعة الأرض سيحاً بالاتفاق مع بعض شيوخ العشائر...

كان رحمه الله كريماً عطوفاً على أبناء طائفته يحل نزاعاتهم بنفسه، مراجعاً دوائر الدولة من أجلهم... وكان يجمع (العديدات) وما يكسبه من عمله الديني ويدخره في كيس ثم يقسمه على أصحاب الحاجة من رجال دين وغيرهم... ومن مواقفه المشهودة الحادثة التالية: أراد ابن عمه الشيخ مصبوب أن يصبح كنزابرا فتوفرت له كل الشروط الشرعية للدين عدا شرط إجراء زواج لرجل دين... وبقي ثمان سنين ثلاثة داري ويده موقوفة حسب التقاليد المندائية، فاستجد بابن عمه شيخ جثير فانجده بأن زوج ابنته إلى ابن عمه الآخر الشيخ ضيدان من أجل هذه الغاية، وعلى إثرها انتقل شيخ مصبوب إلى المحمرة ومسجد سليمان في إقليم عربستان، مؤدياً الطقوس الدينية لأبناء طائفته حتى وفاته.

ومن المفيد أن نذكر أن أحد أبناء شيخ جثير هو شيخ خلف قد تمت طراسته كرجل دين (ترميذا) على يد الشيخ نجم عام ١٩٦٦، كما تمت طراسته حفيده الشيخ غازي الشيخ خلف على يد الشيخ نجم في البصرة أيضاً عام ١٩٧١، أما

حفيده الآخر شيخ عبد السلام جبار فقد تمّت طراسته على يد الترميذه الشيخ
سالم شخير عام ١٩٩٥، وهكذا فسلالتهم الدينية بقية متصلة قائمة بدون انقطاع.
وافاه الأجل في العمارة في ٢-٢-١٩٧٢م.
رحم الحي شيخ جثير وأدام ذريته، لما قدموه من خدمات جليلة للمندائيين،
وبارك الحي كل رجال الدين المندائيين.

* الشيخ جودة بن الشيخ داموك بيان برهوه (١٨٥٨ - ١٩٤٠م) :



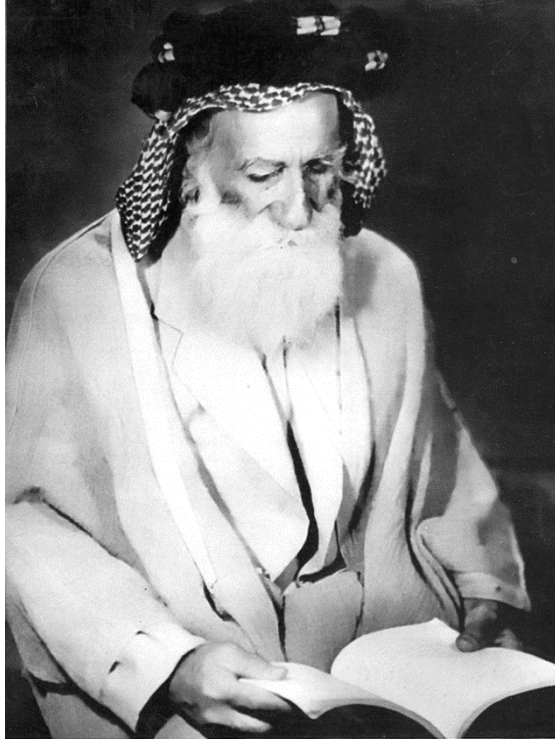
هو شيخ جودة بن شيخ داموك بن شيخ صكر بن شيخ بهرام ويمتد نسبه في سلالة طويلة من رجال الدين حتى عهود قديمة، ولد في منطقة (المنتفك) عام ١٨٥٨ قبل إنشاء مدينة الناصرية وتوفي والده وهو في سن الثانية عشرة وهو أصغر من أخويه الشيخ عيدان والشيخ محيي بأكثر من خمسة عشر عام أو تزيد كان يتميز بطول قامته وبياض بشرته وقوة جسده، كما كان يهوي ركوب الخيل في شبابه.

كرس كرجل دين عام ١٨٧٨م تقريباً على يد عمه شيخ صحن بن شيخ صكر وأصبح (ترميذه) ثم ترقى إلى (كنزفرا) في نهاية العقد الأخير من القرن التاسع عشر في مدينة العمارة، غادر مدينة الناصرية إلى العمارة على إثر مقتل أخيه المرحوم الشيخ عيدان عام ١٨٩٣، تاركاً أخاه الشيخ محيي في سوق الشيوخ

وعند وفاة أخيه الشيخ محيي في الناصرية وابن عمه الشيخ سام الشيخ شبوط في قلعة صالح عام ١٩١٥ اختير من قبل رجال الدين المندائيين كمرجع أعلى لهم ، وقد عزز هذا التقييم بعد سنين بمقترح قدمه الشيخ يحيى بن الشيخ زهرون بتشكيل رابطة تضم كل رجال الدين المندائيين في العراق وتوزيع أعمال رجال الدين بموجبها وبذلك أصبحت منطقة الناصرية خاضعة لشيخ دخیل شیخ عیدان ومنطقة عربستان للشيخ مصبوب بن شيخ مجذوب وعبد الله بن شيخ بهرام وقلعة صالح وغيرها من المناطق تحت إمرة عدد من رجال الدين الآخرين ، وتركت مدينة العمارة خاصة لشيخ جودة تكريماً له ولكن هذه الرابطة لم تدم طويلاً بسبب الخلافات بين رجال الدين .

ومما يذكر أن شيخ جودة حين حل في مدينة العمارة لم يكن بها مندي للطائفة فبنى بمساعدة المندائيين ومؤازرتهم أول مندي لهم على نهر الكحلاء وغرس حوله الأشجار المثمرة والزهور ، فصار منتزهاً يرتاده رجال الدين والمندائيون عموماً ، يجرون فيه طقوسهم الدينية كالتعميد والزواج وغيرهما... وبقي هذا المندي المتواضع لسنين طويلة إلى أن تم إنشاء القوة النهرية في مدينة العمارة.

* الشيخ دخیل الشیخ عیدان ... علم مندائی بارز:



ستة وثلاثون عاماً على رحيل العلم الديني البارز الكنزفرا الشيخ دخیل الشیخ عیدان، إيمان وتواضع، خشوع ومهابة، ورع وتقوى، حب ووفاء، حلم ونقاء، إخلاص وتضحية، همة وعزم، إنها مقومات شخصية شيخنا الجليل الراحل الذي جعل المندائية في أعماقه حلم ثابت، وعشق أبدي، حملها سراج يهتدي به عبر مسارب الحياة وشعابها، وملاذ يعتصم به بعد الله من عاديّات الزمن.

إنه القدوة الرائعة المشرقة في تاريخ المندائيين الحديث، والشعلة التي ستظل موقدة في حياة هذه الطائفة، التي حمل همومها وتطلعاتها دون وهن أو ملل، وفعل كل ما يستطيعه المؤمن الصادق من أجل بقائها واستمرارها، جاعلاً من سني عمره كلها نذر وفداء لاستمرار وجودها.

لذا فقد كان بمستوى المسؤولية التي رأى نفسه أهلاً لها، ومقتدر على أدائها ، بعيداً عن المطامع النفعية والمصالح الشخصية الضيقة ، لا يملأ قلبه سوى الإيمان بالحي الأزلي والحب لأبناء طائفته ولجميع الناس ، لذا كان رحمه الحي العظيم قريباً من قلوب الجميع ونفوسهم ، حتى أولئك الذين هم من غير أبناء الطائفة ، إذ وجدوا فيه الورع والتقوى والنزاهة والمعرفة ، لا تشغله عن حب الله مغريات الحياة وملذاتها ، ولا عن أداء طقوسه وواجباته الدينية أية هموم دنيوية أو مادية ، لقد كان منار يهتدي به الآخرون ، إذ لهم به أسوة حسنة يستتبرون بفكره ومعرفته، ويسيرون على خطاه.

إنها الخطوات الواثقة المترنة على طريق الخير والصلاح ، ورغم مرور ٣٦ سنة على رحيله إلى عالم الأنوار ؛ فإنه ما يزال يعيش بين ظهرانينا قيماً تاركاً بصماته على تاريخ الطائفة ، ورأساً طريقاً واضحاً لكل رجل دين مؤمن بالحي الأزلي ومخلص لما آمن به ، واضعاً الآخرين من اللاهثين وراء ترف الدنيا وبهرجها على طريق آخر ، لا يفضي إلا إلى الخسران والنسيان ، لقد كان وجهاً عالمياً إذ دون اسمه إلى جانب كثير من الشخصيات العالمية البارزة في نشرات وكتب عالمية ، كما كانت له علاقات واسعة مع كثير من الشخصيات المهمة على صعيد اللاهوت والتاريخ ، وله مراسلات كثيرة عربية وعالمية... إنه بحث علم لا يضاهي وشخصية مندائية فذة ، لذا كان بيته ومقرده مزاراً ؛ ليس عند المندائيين فحسب ؛ بل ولغيرهم من أصحاب الديانات الموحدة الأخرى...

ينحدر الشيخ دخيل من عائلة مندائية عريقة في تاريخها الديني والاجتماعي ، يمتد عبر سلسلة من رجال الدين تقدر بثمانية عشر رجل دين (شيخ) وهم : الشيخ دخيل - الشيخ عيدان - الشيخ داموك - الشيخ صكر - الشيخ بهرام - الشيخ يحيى - الشيخ شيتل - الشيخ زكي (ريشمه) - الشيخ مهتم - الشيخ سام - الشيخ بهرام الكبير - الشيخ سام الكبير .

ولد بتاريخ ١٤ / ٤ / ١٨٨١م في مدينة العمارة، وتوفي يوم ٢٤ / ٦ / ١٩٦٤ عن عمر يناهز ٨٣ عام، وقد أوصى أن يدفن في باحة داره الكائنة في بغداد/ الدورة/ المهدي/ وقد أصبح داره بعد وفاته مزار يؤمه أبناء الطائفة من كل مكان قاصدين ضريحه الذي يضم رفاتة الطاهر.

لقد نشأ وترعرع في كنف عائلة محافظة تسودها القيم والتقاليد الدينية التي توارثتها عبر الأجيال، فكان لهذا أثر كبير في بناء شخصيته وتكوين قيمه الأخلاقية والروحية، تلك القيم والأخلاق التي تمسك بها آباؤه وأجداده محافظين على نقائها وبقائها جيل بعد جيل.

درس مفاهيم ومبادئ الدين المندائي واللغة المندائية على يد عمه الشيخ محيي، وكذلك الشيخ جودة الشيخ داموك عام ١٨٩٢م... فقد تعلم اللغة المندائية وألم بها وفهمها فهماً جيداً ولم يتجاوز عمره إحدى عشرة سنة، واستمر بدراسته الدينية على يد الشيخ سام حتى عام ١٨٩٨م، قتل والده الشيخ عيدان وكان عمره اثنتي عشرة سنة، وكان ذلك في صبيحة أول يوم من أيام البنجة (عيد الخليفة) (البرونايا) عام ١٨٩٣م وهو ذاهب إلى النهر في الناصرية لأداء الطقوس الدينية.

كان منذ طفولته على درجة كبيرة من الذكاء والفطنة، كما كان ذا مقدرة واسعة على تعلم واستيعاب اللغة المندائية ودراسة الكتب الدينية والتاريخية، وتعلم اللغة العربية ذاتياً بدون أن يدخل (الملا) أو المدرسة، واستمر يدرس ويبحث في اللغة وأمور الدين وفهم الطقوس والشعائر والعمل على أدائها على أحسن وجه، وبكل دقة وبصورة صحيحة.

كان خطه المندائي جميلاً فاستنسخ الكتب الدينية (بيت كنزي)، كما حفظ عن ظهر قلب الكتاب المقدس (كنزا ربا) وعدد من الكتب الدينية الأخرى، قد أصبح مؤهلاً لنيل درجة ترميذا عام ١٩٠٤، وكان عمره ٢٣ عاماً في مدينة الناصرية وكسب في بداية شبابه شهرة واسعة لما قدمه من خدمات كثيرة، فقد

كان مؤمناً شديداً بالإيمان بدينه محباً صادقاً وقد فتح قلبه وذراعيه لاحتضان أبناء الطائفة وانشغل بمتابعة أمورهم والقضايا التي تتعلق بمستقبل ومصير الطائفة، فأخذ على عاتقه لم صفوفها والعمل على تثبيت حقوقها وإبراز هويتها في كل المناسبات والمجالات.

بعد التقدم الواضح في حياته الدينية وتكريس جل وقته لدراسة الدين وأداء الطقوس بكل جدارة؛ نال درجة (كنزا فرا) بكفاءة عالية ومقدرة فائقة، فاحتل بذلك موقعاً دينياً واجتماعياً يليق به وأضحى صاحب سمعة طيبة واسعة عمت جميع أفراد الطائفة في كل مكان، وكذلك بين رجال الدين آنذاك...

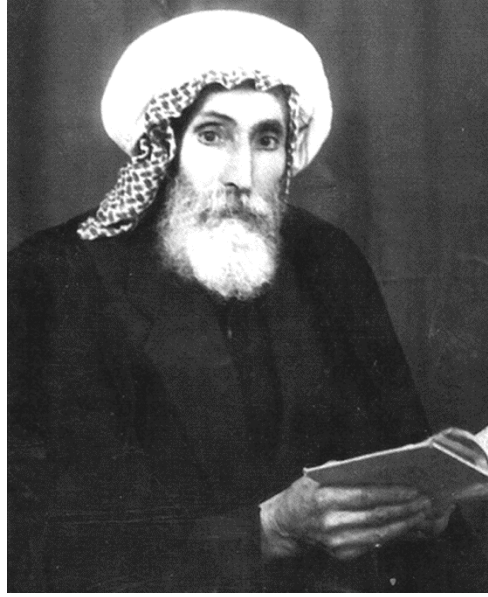
اتصف بالحكمة والمعرفة والأمانة والصدق والشجاعة والكرم وعمق الإيمان وقوته، وكان عادلاً مخلصاً لمبادئه السامية، هدفه الأسمى هو الدفاع عن الطائفة والمحافظة على سمعتها وسمعة أبنائها، كان يشارك المندائيين أفراحهم وأحزانهم، ويحمل عبء همومهم ساهراً من أجل حل قضاياهم، يزورهم متفقداً فرداً فرداً، في كل مكان يضمهم وكان يلبي طلباتهم الشخصية والدينية دون مقابل، مدافعاً عن حقوقهم الدينية والاجتماعية، ويقف بوجه كل شخص أو جهة مهما كان موقعها تروم المساس بسمعة الطائفة وديانتها أو التجاوز عليها.

كان له دور واضح في شرح وإيصال المفاهيم والمعتقدات الدينية المندائية إلى كثير من رجال الدين والشخصيات من مختلف الأديان والمذاهب، وكذلك إلى بعض رجالات الحكم طيلة مسيرته الدينية بدء من الحكم العثماني، وبعد ترشيحه من قبل الطائفة صدرت الموافقة الرسمية على تعيينه رئيس روحاني لطائفة الصابئة في العراق وإيران وبتحويل من الحاكم الملكي العام في العراق اللفتنانت كولونيل أ. ن. ولسن، بتاريخ ١٩٢٠ عين معلم لتعليم اللغة المندائية ومبادئ الدين المندائي لأبناء الطائفة حتى سنة ١٩٢٢ من قبل الحاكم العسكري آنذاك.

وأثناء الاحتلال وعند بدء افتتاح المدارس لتعليم الأولاد لأول مرة في العراق ،
وبتاريخ ٢١ آذار ١٩١٧ أعطى الحاكم العسكري بالمنتفك (الناصرية) أمر
بتقديم المساعدة والتسهيلات الممكنة عند الحاجة من قبل كافة المسؤولين في
الحكم السياسي إلى الشيخ دخيل رئيس طائفة الصابئة في العراق.

في عام ١٩١٩ تمّ تأسيس مجالس بلدية في كل لواء، وبتاريخ ٢ مارت ١٩٢٠
تمّ تعيين الشيخ دخيل عضو في مجلس بلدية الناصرية من قبل الحاكم السياسي
في الناصرية، إن الاستمرار في سرد حيثيات وتفاصيل سيرة الشيخ يحتاج إلى
كثير من الصفحات ومزيد من الوقت والجهد.

* الشيخ خزعل الشيخ باهر العيداني ١٨٨٥ - ١٩٦٤ :



ضمت طائفة الصابئة المندائيين عبر تاريخها الضارب في القدم العديد من الشيوخ الذين واكبوا الدين والطائفة والذين كان لهم دور بارز في مسيرتها الدينية والاجتماعية...

ومن هؤلاء الشيخ خزعل بن الشيخ باهر ابن كطان بن عيدان ، الذي ولد في مدينة قلعة صالح في محافظة ميسان عام ١٨٨٥ من عائلة دينية ، فأبوه كان من الوجوه الاجتماعية والدينية البارزة بين المندائيين ، وأمه كانت تقية متفقهة في أمور الدين إضافة إلى أنها كانت قد اصطبغت ٣٦٥ صباغة ، وهو ما لم يحدث لأية امرأة مندائية قبلها.

إذن فإن البيئة التي ولد فيها شيخنا الجليل كانت تتميز بالتقاليد المندائية الأصلية الطاهرة ، بدأ الشيخ خزعل حياته بالعمل بالصياغة مع عمه محسن كطان متنقلاً ما بين بغداد والمقدادية وبهرز وبعقوبة وجلولاء وغيرها من المدن ، وقد تزوج

قبل طراسته وأنجب ولدين وثلاث بنات ، كان شغوفاً بالدين متعلّقاً به ، يؤدي كافة الطقوس بإخلاص وأمانة وتعلم الحروف المندائية وأنقنها قراءة وكتابة ، واطلع على كافة الكتب الدينية المقدسة حتى أصبح مؤهلاً لأن يكون رجل دين ، وفي عام ١٩٣٣ تمّت طراسته في قلعة صالح على يد الشيخ رومي وشيخ داخل وشيخ عبد الله شيخ سام وشيخ فرج ، وهكذا أصبح رجل دين يقوم بخدمة المندائيين ، ويعمل ضمن دارة بيت شيخ سام أقاربه. ومما يذكر أنه قد تزوج ثانية بعد طراسته وأنجب ولداً وابنتين.

كان شيخ خزعل يرافق رجال الدين في أسفارهم إلى مواطن المندائيين في البصرة والقرنة والشرش والجبايش وعربستان والكلاء والمشرح والمجر لأداء الطقوس الدينية وإجراء مراسيم الزواج.

كما شارك بطراسة شيخ جبوري طاووس وابنه صلاح وطراسة الشيخ عطوان شبير وشيخ عبد الله شيخ يحيى سام ، كما كان رحمه الله عطوفاً على أبناء طائفته لا يتردد بالقيام بأي عمل ديني جليل يحتاجه المندائيون ويساهم في نشاطاتهم الاجتماعية والدينية ، كان ملتزماً بالنظافة الدينية ولا يحيد عن التقاليد. ومن المواقف التي تعرض لها أنه في يوم كنشي وزهلي أنجز أعمال دينية كثيرة للمندائيين تفوق طاقته ، كنحر الذبائح والدجاج وإجراء الصباغة حتى حل الغروب أي وقت الكرصة ، فتوجه إلى بيته مرهقاً جائعاً فهبئ له غذاؤه وجلس ليأكل ، وفي هذه اللحظة حط فوق يده (زنبور) ، وبما أن التقاليد الدينية تحرم تناول الغذاء الذي لامسته حشرة وخصوصاً لرجال الدين وفي يوم مقدس كهذا ؛ لذا ترك الزاد وغادر المائدة وصام لمدة ٣٦ ساعة (فترة الكرصة) ، ولم يتناول أي شيء مما أدى إلى انهيار صحته وتعرضه للخطر ، ولكن الله منّ عليه بالسلامة...

كما حدثت له ولابنه حادثة كادت تؤدي بحياتهما ؛ ففي أحد الأيام أرسله إخوته رجال الدين إلى القرنة لأداء بعض المراسيم للمندائيين ، وفي الطريق تعرضت

سيارتهم لحادث ، فمات أكثر الركاب ونجا هو وابنه بأعجوبة بعد أن أصيب بكسر في يده ورضوض في جسد ابنه، ثم شفي من الحادث وعاد لتقديم خدماته بعد شفائه.

وكثيراً ما كانت تحدث بين الشيوخ مشاكل وخلافات تخص المهنة ، وقد حدث خلاف بين المرحوم شيخ خزعل ودارة أعمامه بيت شيخ سام ، مما اضطره للعمل ضمن دارة بيت شيخ زهرون في قلعة صالح وبقي معهم لفترة ثم عاد بعد ذلك إلى دارة أعمامه بعد أن اصطلحوا.

انتقل شيخ خزعل إلى بغداد عام ١٩٤٣ وسكن محلة الكريمات ، فكان بيته ملتقى المندائيين ، وبقي هناك حتى عام ١٩٦٤ ، وهي سنة وفاته عن عمر قارب الثمانين عاماً قضاها بالبر والتقوى، مؤدياً واجباته الدينية بإخلاص ، كما كان باراً بأقاربه وأفراد عائلته.

* الشيخ آدم الشيخ زهرون ١٨٨٥ - ١٩٦٤ :

هو شيخ آدم بن شيخ زهرون بن شيخ عبد الله بن شيخ سام ، ويمتد نسبه إلى سلالة طويلة من رجال الدين الأفاضل الذين لهم الدور الكبير في خدمة الطائفة وعلو شأنها.

ولد شيخ آدم في مدينة البصرة، قضاء أبي الخصيب عام ١٨٨٨ وتعلم القراءة والكتابة على يد أحد الملالي ، أما تعليمه الديني فقد أتقنه على يد والده شيخ زهرون ، وكان مساعداً لأبيه في أعماله الدينية حتى كرس كرسي ترميزاً على يد والده، بقى في قضاء أبي الخصيب يقوم بالواجبات الدينية مع والده إلى أن انتخبه شيخ خزعل والي عربستان آنذاك ليقوم بإجراء الواجبات الدينية للمندائيين في مدينة المحمرة وذلك لعدم وجود رجل دين فيها ، ومكث في المدينة مدة طويلة تجاوزت الخمسة عشر عام ، وكانت داره خلالها مزار لكل القاصدين الذين يبتغون قضاء حوائجهم ، وقيل إن داره من بعده قد قسمت إلى خمسة بيوت سكنها المندائيون ، وبعد أن تأهل رجل دين من أهالي المحمرة بدلاً عنه عاد إلى العراق ، مدينة الناصرية ، قضاء سوق الشيوخ حيث كان يتواجد أخواه شيخ يحيى وشيخ نجم ، ولم يدم بقاؤهم هناك طويلاً ، إذ شدوا الرحال إلى مدينة قلعة صالح ذات الكثافة السكانية العالية ممارسين الطقوس الدينية لأبناء طائفتهم بجد ونشاط ، واشتغل في مجالات وأعمال أخرى مثل التجارة ما بين العراق وإيران وخاصة تجارة الخشب والقيصر والمسامير وذلك بمساعدة المندائي مطشر سداوي ، ونظراً لكثرة من مارسوا هذه التجارة تركها واشتغل بتجارة الحبوب لما فيها من الربح الوفير .

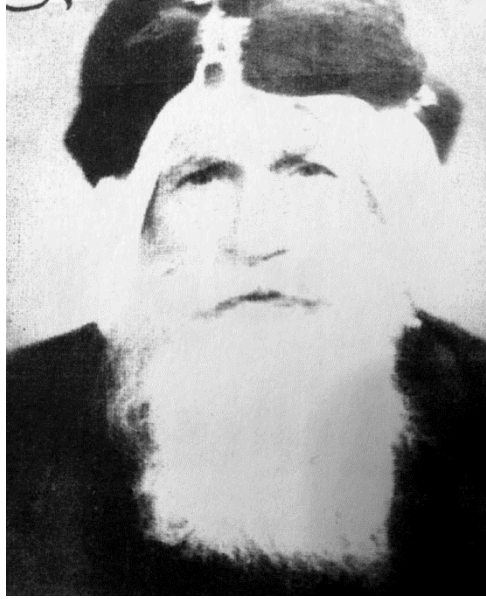
وقد أحبه أهالي قلعة صالح كثيراً لأنه كان من الشخصيات المرموقة ، وبسبب علاقته الطيبة مع المسؤولين فقد أصبح عضو في المجلس البلدي وتمكن من الحصول على قطعة أرض شمال مدينة قلعة صالح محلة (الطلاطة) ، والتي كان جميع سكانها من الصابئة ، وقد هبوا لمساعدته وقاموا ببناء مندي للطائفة

على هذه الأرض وجلبوا لها خيرة البنائين من مدينة بغداد ولازال صرح
المندي قائماً حتى اليوم ، وقد أصبح مزار لأهالي القضاء والسادة المسؤولين
وكانت حدائقه تزدهو بالأشجار والأزهار.

ولم يلبث طويلاً في قلعة صالح حيث غادرها إلى مدينة البصرة ثانية ليستقر
في محلة الطويسة يؤدي فيها مهامه الدينية ، ويشار إلى أن شيخ آدم خدم
طائفته خدمة صادقة ، وأحبه الجميع حتى صار البعض يقسم باسمه لما كان
يتمتع به من طيبة وسخاء وشهامة ومساعدة المحتاجين ، وافته المنية في شهر
شباط من عام ١٩٦٧ في مدينة البصرة ودفن هناك.

ويذكر أن للشيخ آدم رحمه الله من الأولاد خمسة ؛ جميعهم سكنوا إلا أنهم لم
يسلكوا طريق رجال الدين ولم يطرسوا ، لكنهم خدموا طائفتهم قدر ما
يستطيعون.

* الكنز افرا شيخ عبد الله شيخ سام آدم زهرون برشارت ١٨٩٠ - ١٩٨١ م :



هو شيخ عبد الله بن شيخ سام بن شيخ شبوط... ولد في مدينة قلعة صالح محافظة ميسان عام ١٨٩٠ ، وقد بدأت حياته صعبة منذ ولادته ، فقد كانت أمه تعاني من مرض شديد وهي حامل به فلما ولد لم يجد من ترضعه وتتقل من صدر امرأة إلى صدر أخرى...

وتعرض إلى حادثة غرق في نهر الكحلاء حين كان عمره أربعة أعوام ، وأنقذه من الموت أحد أقاربه (فنجان بن مهنا)... ولما بلغ الخامسة تعرض إلى حادثة سقوط في بئر عميقة في مدينة قلعة صالح ، وأنقذ أيضاً وبقي يصارع المرض لفترة ، وحين بلغ السادسة اهتم والده بتعليمه الأبجدية المندائية وأتقن الصلاة المندائية من براخة ورشامة ، كما كان (اشكندة) يرافق الشيوخ في أعمالهم...

وحين بلغ الرابعة عشر كان يصاحب والده وأخويه الشيخ يحيى والشيخ رومي في تنقلاتهم في الناصرية وسوق الشيوخ وشاركهم في عمل (المساخنة)

للمندائيين كما ذهب معهم إلى عربستان لأداء الخدمات للمندائيين هناك ولما بلغ الثامنة عشر طرس كرجل دين في مدينة قلعة صالح على يد والده وأخويه الشيخ يحيى والشيخ رومي.

وبعد طراسته خطبت له أولى زوجاته (نوفة بنت رومي بن عكلة) وتنقل قبل زواجه في مدن عربستان مرة أخرى وعند عودته عام ١٩٠٨ أجرى له أخوه الشيخ رومي مراسيم الزواج وكان ذلك بحضور مسؤولين حكوميين وجمع غفير من المندائيين، وأبدل اسمه بناء على اقتراح مدرسه من (عبد الشاه) إلى (عبد الله) وعند انتشار الكوليرا في جنوب العراق أصيب الكثير من المندائيين ومنهم أخوه الشيخ يحيى حيث توفي بعد أن صارع الداء ثلاثين يوماً.

وفي عام ١٩١١ ولد ابنه البكر عبد الجبار، وتوفي المرحوم والده عام ١٩١٥، وبعد وفاة زوجته الأولى تزوج من ابنة خاله (تكية بنت باهر)... وفي عام ١٩٢٢ قام مع جمع من رجال الدين بعمل مساخت لمندائيين قتلوا في المحمرة على أثر انفجار قنبلة قديمة عليهم، وبعد قيام الحكم الوطني وافتتاح المدارس عام ١٩٢١ أصبح معلم في مدرسة قلعة صالح ودرس القراءة والحساب للصفوف الأولى كما درس الرسم للصفوف الخامسة والسادسة لبراعته فيه...

وقام باستتساخ كتاب الكنزا ربا مبارك اسمه عام ١٩٢٨ بخط يده وساهم مع أخيه الشيخ رومي بكتابة بوث من الكنزا ربا على ألواح من الرصاص وهبت للمندائيين في العراق وعربستان... كما قام عام ١٩٣٢ مع شيخ دخيل بتفنيد ادعاءات المؤرخ عبد الرزاق الحسني أمام متصرف بغداد وبحضور العلامة انستاس الكرمللي وقس وحاخام، وقد اعترف الحسني بخطئه... كما شارك عام ١٩٣٢ ببث الروح الوطنية بين صفوف المندائيين وأهالي قلعة صالح أثناء حملة التجنيد الإجباري في المدينة...

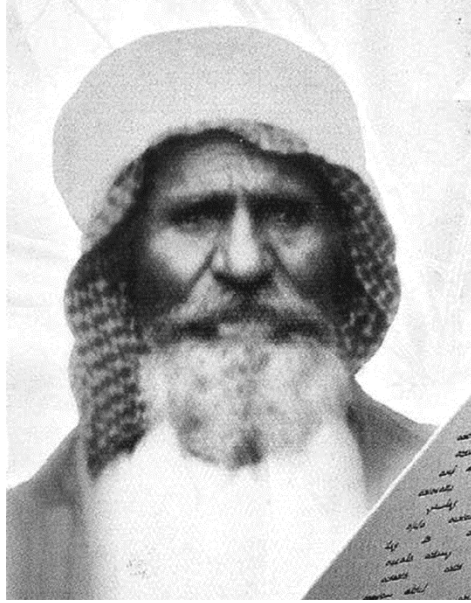
كما ترجم بعض البوث الدينية (للمسر دراور) حين قدمت العراق في الثلاثينات وفي عام ١٩٤٦ أصبح برتبة كنزفرا وأصدر هو والشيخ دخيل عام ١٩٦٠

بياناً يدعو المندائيين إلى توحيد الجهود من أجل تملك مندي للطائفة، وقد تحقق ذلك فيما بعد عام ١٩٧٢ في الدورة، وفي عام ١٩٦٢ غادر قلعة صالح ليسكن محله الكريمات في بغداد...

وفي عام ١٩٦٤ وبعد وفاة المرحوم شيخ دخيل أصبح شيخ عبد الله رئيس روحاني للطائفة وبقي في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩٨١، وقد ساهم مع جمع من المندائيين بمطالبة السلطة الوطنية بالاعتراف بالأعياد المندائية وقد تحقق ذلك عام ١٩٧٢، وخلال مسيرته الدينية الطويلة قام بطراصة سبعة رجال دين هم شيخ فرج وشيخ جبار طاووس وولده شيخ صلاح وشيخ عبد الله شيخ يحيى، كان شيخ عبد الله يعتبر من المتشددين في أمور الدين وتقاليده، وبعد وفاته عام ١٩٨١ دفنت رفات الطاهرة في مندي الطائفة في الدورة وبعد تملك الطائفة لمقبرة أبي غريب تم نقل هذه الرفات إلى هذه المقبرة، وتقديرًا لخدماته الجليلة فقد منح شهادة شرف ووسام الاس في مندي الطائفة عام ١٩٩٧ من قبل مجلس شؤون الطائفة...

رحم الحي القدير هذا الشيخ الجليل.

* شيخ يحيى شيخ زهرون ١٨٩١ - ١٩٥٤ :



كانت عائلة الشيخ زهرون وأخيه المرحوم بهرام تقطن في قرية زراعية صغيرة على نهر الكرخة في إقليم خوزستان في منتصف القرن التاسع عشر مع الكثير من المندائيين في ذلك الزمان ، والذين كانوا يمارسون المهن اليومية المختلفة من حدادة ونجارة وصياغة وزراعة ، هذه الأمور التي مكنتهم من العيش الكريم في تلك الربوع...

ثم قرر الشيخ زهرون الرحيل إلى مدينة أكبر من قريته تلك تقع بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية اسمها (الفكة) ، حيث سبقه إلى هناك خاله الحداد (كباشه الجافل) ولم يطل به المقام حيث غادر إلى قرية (البسيتين) ثم إلى مدينة (الخفاجية) القريبة من الحدود الإيرانية العراقية ، ومن هنا جاء لقب عائلته بـ(العائلة الخفاجية) ، ولا يخفى أن عددًا المندائيين في تلك المناطق كان كبيراً... ثم قرّر عبور الحدود إلى العراق والسكن في مدينة (أبي الخصيب)

بدعوة وبتشجيع من مندائيّ هذه المدينة وعلى رأسهم الوجيه (ملا خضر بن قاجار) وفي هذه المدينة الوديعه على شط العرب ولد لشيخ زهرون خمسة من الأولاد وابنتان ، وكان شيخ يحيى الثاني من الأولاد في ترتيب العائلة ، وكان أكبرهم الشيخ آدم ، ولما شب الأولاد وترعرعوا في بيئة دينية قام الأب بطراسة ابنه البكر شيخ آدم أولاً ، ثم طرس ابنه الآخر شيخ يحيى بعد ذلك ، وبهذا صاروا دارة دينية كاملة.

وبعد زواج شيخ يحيى كرز إلى درجة كنزفرا بعد إجراء الطقوس الدينية المعروفة ، ثم حدثت مشاكل في هذه المدينة تضايق منها المندائيون فقرروا غالبيتهم الهجرة إلى مدينتي العمارة وقلعة صالح بعد إنشائهما ، أما المرحوم (ملا خضر) فقد اختار العمارة ، في حين استقر شيخ زهرون وأولاده في (سوق الشيوخ) أولاً ومن بعد ذلك انتقلوا إلى قلعة صالح ، وكان عدد المندائيين في قلعة صالح آنذاك كثيفاً ، حيث بلغوا قرابة ٨٠٠٠ نسمة.

فرح المندائيون كثيراً بمقدم الشيخ زهرون وعائلته واستقبلوهم استقبالاً يليق بهم واختاروا السكن في محلة (الطلاطة) على ضفة نهر دجلة اليسرى ، وشيدوا لهم مندي هناك ، حيث مارسوا أعمالهم الدينية بنشاط ومثابرة ، ثم طرس الابن الثالث في العائلة المرحوم شيخ نجم في إيران في الأهواز ، كان شيخ يحيى ذا شخصية دينية محبوبة ، يتميز بتواضعه وتفانيه في العمل وحبّه للمندائيين ، وكان كثير السفر ما بين العراق وإيران ومدن العراق الجنوبية ، حيث يتواجد المندائيون ، باذلاً من أجل ذلك وقته وراحته ، ويروي أنه كان يجيد لعبة الشطرنج إجادة فائقة ، مما حبه لموظفي قلعة صالح الهواة لهذه اللعبة ، وكانت له هواية أخرى هي الاهتمام بزراعة النخيل وأشجار الفاكهة ، حيث صارت محلة (الطلاطة) جنة تزهو بالأشجار والأثمار.

وإضافة لأعبائه الدينية كانت له مكانة بين شيوخ العشائر ، فكثيراً ما شارك في القضاء العشائري حيث كان مسموع الكلمة ، ويقضي في الأمور الحاسمة من

أجل استتباب الأمن ، وظل إلى آخر حياته يتفانى في خدمة الدين المندائي ويعمل المساخنة للمندائيين ، ولا يتوانى من أجل رفعة الطائفة وخدمة أبنائها ، حتى وافاه الأجل في مدينة قلعة صالح عام ١٩٥٤ عن عمر ناهز ال ٦٣ عام ، وقد شيعه إلى مثواه الأخير عدد كبير من رجال الدين ، وحملوا خلفه ثلاث سيادر .

وهذه معلومات عن فضيلة الشيخ يحيى كتران مندائي مهم كتبها الشاعر المندائي المبدع سعدي جبار :

الشيخ يحيى شيخ زهرون ولد سنة ١٨٩١ وتوفي سنة ١٩٥٤ ، ولد الكنزبرا يحيى في أبي الخصيب في محافظة البصرة وهناك مصادر تشير إلى ولادته في إيران ، كانت عائلة الشيخ زهرون وأخيه بهرام أصلاً تقطن في قرية زراعية صغيرة على نهر الكرخة في خوزستان إيران... في أواسط القرن التاسع عشر قرر الشيخ زهرون الرحيل إلى مدينة أكبر ، فسكن في مدينة حدودية بين العراق وإيران اسمها الفكه ، حيث سبقه إلى هذه المدينة خاله كباشه الغافل .

هناك معلومات نقيضة تشير بعض المصادر أن هذه العائلة تعيش أصلاً في سوق الشيوخ لواء المنتفج الناصرية ، ثم اضطرتها الظروف للارتحال إلى شوشتر وبعدها إلى قلعة صالح ناحية اللطاية ، ولم يطل به المقام في الفكه فانتقل إلى قرية البسيتين ثم إلى الخفاجية القريبة من الحدود العراقية الإيرانية ، ومن هنا جاء لقب الخفاجية وكان عدد المندائيين كثيراً ، هناك بعدها قرر عبور الحدود العراقية والسكن في مدينة أبو الخصيب بدعوة وتشجيع من مندائي المدينة ، وعلى رأسهم الوجيه ملا خضر بن قاجار .

وفي مدينة أبي الخصيب وُلِدَ الشيخ يحيى وإخوانه الأربعة وأختاه الاثنتان ، وكان ترتيب الشيخ يحيى في العائلة الثاني من الأبناء ، فكان الكبير الشيخ آدم

وهناك معلومات نقيضة حيث تشير بعض المصادر إلى ولادة الكنزبرا نجم أحد أبناء الشيخ زهرون في قلعة صالح، قام الأب الشيخ زهرون بطراسة ابنه البكر الشيخ آدم أولاً ثم طرس الثاني الشيخ يحيى، وقد أصبحوا دارة دينية كاملة، وبعد زواج الترميذا يحيى ارتقى إلى درجة كنزبرا.

حدثت مشاكل كثيرة للمندائيين في هذه المدينة فقرر غالبيتهم الهجرة إلى مدينتي العمارة وقلعة صالح بعد أن تمّ إنشاؤهما، أما الملا خضر فقد اختار مدينة العمارة، في حين استقر الشيخ زهرون وأولاده في سوق الشيوخ أولاً ثم انتقلوا بعد ذلك إلى قلعة صالح الذي وصل عدد المندائيين إلى ٨٠٠٠ نسمة، اختار الشيخ زهرون محلة اللطلاطة على ضفاف نهر دجلة الجانب الأيسر ليسكن بها هو وعائلته وأولاده، فشيّدوا لهم مندي هناك ليمارسوا طقوسهم الدينية وطرسوا الابن الثالث لهم الشيخ نجم في الأهواز إيران، كان الشيخ يحيى يجيد لعبة الشطرنج وكان سبب تقربه إلى موظفي قلعة صالح الهواة لتلك اللعبة، أما هواياته الأخرى فهي الاهتمام بزراعة النخيل وأشجار الفواكه، حيث صارت محلة اللطلاطة جنة تزهّر بالشجر والثمار كتب بخط يده كنزا ربا وفي صفحة ٤٤٦ أشار إلى نسل عائلته وهي تمتد إلى اللقب عزيز خفاجي دراجي، زاول مهنة الصياغة لفترة قصيرة التقى الليدي دراور عدت مرات عام ١٩٥٤.

انتقل إلى عالم الأنوار في قلعة صالح وشيَّعه المندائيون إلى مثواه الأخير في مندي اللطلاطة، وبقي قبره الأثر الوحيد من المندي، حيث سرقت وهدمت كافة المعالم المحيطة بالقبر، وهو شاعر كتب عدة قصائد، وقد كتب قصيدة طويلة يخاطب فيها عمه الشيخ بهرام وهو ساكن إيران وكان بدرجة كنزبرا، يدعوه للحضور إلى العراق لعقد زواج المندائي، حيث لا يوجد في ذلك الوقت رجل دين بدرجة كنزبرا، كما يشكو الحال المتردي في العيش والمعاملة السيئة التي تعاني منها الطائفة من العشائر والأشخاص المحيطين بهم.

وندرج أدناه القصيدة وهي عبارة عن استرحام ولفت أنظار الشيخ إلى سوء الحالة الاجتماعية والمعيشية للمندائيين ، إن رقة الشعر أكثر ما يأتيك من الشخص المتيم المحب لوطنه ولأهله ولطائفته، نلاحظ في قصيدة شيخنا الجليل رحمه الله الشكوى والاستغاثة ، وقد جمع الرقة والعذوبة في جميع قوافيها ، ودليل قولنا هذه فإن البلاغة الواردة في القصيدة لن تبتعد عن الشكوى والملامة وتحتوي بين سطورها الرقة والعذوبة ، لأن مصدر إلهام الشاعر الأول هو انتمائه وحبه لطائفته ، أما المسوغ الداخلي والنفسي الذي أوحى به الأبيات فقد جاءت من خلال العتاب إلى شيوخ إيران ، ويخص منهم عمه الشيخ بهرام ، في حين أنه إشارة إلى حنينه للمندائيين ، وأنه الأب الذي نجد في حنانه المباح عطفاً يسمو في رفته وأصالته ، وقد تمكن الشاعر من الإيماء والشرح لكل ما أراد أن يقوله بأسلوب شعري واضح المعاني ، متقن صياغة الحرف والقصيد .

فقد بين الاضطهاد بكل معانيه وكيف يتم معاملة الطائفة ودفعهم إلى تغيير دينهم واعتناق الدين الإسلامي ولو بالقوة ، في هذه القصيدة تبرز الشكوى بالعاطفة وطلب العون والمساعدة ، والبوح بالمأساة والمعاملة السيئة من قبل العشائر المجاورة إلى المندائيين ، نلاحظ توضيح البساطة في شرحها وتماسكها وبوحها الجليل ، والقوة في صياغتها ، وقد شرح بأسلوب حزين وألم قوي شجون وهموم ناسه وأهله ، وهي تمثل الوجد الدفين في قلب شيخنا الجليل رحمه الله .

ومن معالي المعاني التي أذاعها وسطرها ؛ نلاحظ بلاغة الشيخ عندما أوضح على المرء أن يكشف بالقول والوصف وبكل الوسائل الممكنة من تعبير ، وبكل شجاعة يشرح ويبين سواء كان بالرمز أو التعبير والإيماء بكل شيء يؤدي الطائفة ، أو أنها بحاجة إليه ، وماذا سيحصل في المستقبل لناسه ، وقد بين جميع الأخطاء والعواقب التي وقعت وربما ستقع في المستقبل .

لقد كان قاموس واضح البصيرة والشكوى والمعاناة ، وافي المعاني غزير القصد سليم التطلعات ، إن هذه القصيدة هي مزوجة فنية في دلالتها الإيحائية

العميقة حيث جعل منها السلاح الوحيد بيده لكي يواجه فيها تلك المرحلة القاسية التي مرّت على الطائفة ، فقد حقق واستخدم الرمز سلطاناً في هذه القصيدة فوظفها توظيفاً دقيقاً ومحكماً بشكل متكامل ، وفي ما يلي القصيدة...

يا معتنبي دسّ قول ششتر	وسلملي على شيخ المشكر
ابن شيخ يحيى ليته خير	اسمه شيخ بهرام المنبر
مكّد نبت الأرض أوراق الأشجار	مكّد رمل الذي في أرض مرمر
وكله شيخ يحيى يندميك	نهار وليل في اسمك يذكر
المنحادي جميع الكل منهم	سلم الكبير مع طفل الأصغر
لجل نعتب عليك ونشكي الحال	فقره أحوالنا لينا تفر
ولا نكدر نجيك الدربة خوفه	على الأرواح مالو دين وأكدر
وسط البيت ما نحبي لال	شفت نهبوا نسانا أبلا تعذر
ولكن ما نكول هذا مهير	وملبوس البدن أزره وأخضر
يكلولنا نبيك وين كوله	كتابك وين أباسمن تذكر
إذا كلنا سبيلك زين وملح	كألوا تعال الزم دين الآخر
وإذا كلنا قبيحاً في لسان	كألو شونه هذا سب وأكفر
كلمن سب وجب قتله علينا	لحد السيفه رمي النار الأزهر
بنات الغيض ظالن جاندات	بطرفه العين خاطبها يتفر
اليوم ينسد النهر	ولا تكدر تسدده لو تكبر
أنت الماي واحنا مثل الأشجار	بغير الماي كلى أشلون نثمر
شبيه النون أنشد ماي منهم	شبيه الكيض شبه النار الأزهر
وأهلك يا ملك شرشاك أيموت	وما من عسك يسوه فلس أحمر
يهانه والرشمي جوه راحوا	لجل نشمات هيبي أمعطيلك
من تاء الكتب تفره وتكتب	أنت معاهم شرشه تبصر

أبرخوا سامعين البيت هبي
دون دور المند كم حقا رأينا
ولا ولد صفة لأمه وأبوه
ولا جار أطلبه طيبات جاره
ولا رجلا يعبره أعياله
كل من برخ يومه عيش يخسر
فراكم على المخلوق وأختر
ولا أخا صفة لالأخ الأخر
وابن العم لبن العم يغر
ولا هي كامة من فعل مخر

شيخ رومي شيخ سام ١٨٨٦ ١٩٤٩م:



توفي المرحوم شيخ سام شيخ شبوط عام ١٩١٥ بعد أن أنجب ستة من الأبناء وابنتين ، أصبح أربعة منهم فيما بعد رجال دين ، وهم شيخ يحيى وشيخ رومي وشيخ عبد الله وشيخ فرج ، أما الابن الخامس سالم فقد كان مهيباً للطراسة ، لكن القدر داهمه ، أما الابن السادس (وهم) فلم يكن رجل دين ، وقد توفي الشيخ يحيى وهو شاب على حياة والده...

كان شيخ رومي هو الثالث من بين أبناء الأسرة ، ولد عام ١٨٨٦ في قلعة صالح بمحافظة ميسان ، في عائلة دينية متأصلة أباً عن جد ، وتطلع في شبابه للانخراط في سلك رجال الدين بعد أن كان في طفولته (اشكندا) يتدرب على الأعمال الدينية ، وقد تسنى له أن يطرس على يد والده في مندي قلعة صالح ، وقد انصرف بهمة ونشاط بعد طراسته للقيام بالأعباء الدينية المترتبة عليه مساعداً أباه وإخوته.

وكان ذا ذاكرة قوية، فقد حفظ بعض الكتب الدينية عن ظهر قلب، وطبق تعاليم الدين المندائي بصرامة ثم أصبح كنزافرا فيما بعد، ومما يروى عنه أنه كان دليلاً ومرجعاً ونموذجاً في عمل (المسقتا)، وهي صلاة خاصة على أرواح المتوفين، ويعود الفضل في ذلك لدقة معلوماته وسعة معرفته...

وتدل الحادثة التالية على ثقة رجال الدين وعموم المندائيين به كرجل دين متمرس، فقد حدث في عام ١٩٢٣ في مدينة (ناصرية الأحواز) أن انفجرت قنبلة قديمة (دانة) على جمع من المندائيين كانوا يحاولون انتزاع بارودها؛ فأودت بحياة عدد كبير منهم، وكانت حادثة مأسوية فقصده على أثرها وفد من مندائيي إيران من المحمرة والناصرية مدينة قلعة صالح لعمل المسقتا لأرواح هؤلاء الضحايا، وكان يرأسه (شيخ عبد الله شيخ بهرام)، ويشارك فيه جمعٌ من المندائيين منهم: أسد بن تشكل، وحמיד أبو عزيز، وغيرهما... وكانوا يقصدون شيخ رومي بالذات، وقد مكثوا هناك شهرين ضيوفاً على إخوتهم المندائيين.

وقد حدث شيء طريف أثناء ذلك؛ فقد عمد حميد أبو عزيز والذي كان حُجة في القضايا الدينية إلى اختبار رجال الدين في بعض القضايا العويصة، فنال شيخ رومي درجة ١٠٠%، وشيخ داخل ٩٥%، وشيخ عبد الله شيخ بهرام ٨٥%، وشيخ عبد شيخ محي ٧٥%، وكذلك شيخ فرج ٧٥%، وشيخ جثير منتوب ٦٥%، أما شيخ زهرون شيخ محي فقد نال درجة ٤٥%...

ثم قام هذا الشخص نفسه أي حميد أبو عزيز وبمساعدة مباشرة من شيخ رومي بعمل (سيدة) من الرصاص كتبت عليها كل بوثة المسقتا لتبقى تذكاري للمندائيين ولشيوخ المستقبل...

كان شيخ رومي إضافة لأعبائه الدينية متحدثاً لبقاً؛ وذا وجهة في دوائر الدولة وبين المندائيين، وكذلك في دواوين شيوخ العشائر، وكانوا يسمونه (الفريضة) ويستدعونه للمساهمة في حل قضاياهم، كما أن رجال الدين المندائيين كانوا يستشيرونه بقضايا الدين الغامضة عليهم، وقد ساهم مع غيره من رجال الدين

بطراسة مجموعة خيرة من المندائيين ، منهم أخوه الشيخ فرج وشيخ جبوري طاووس ، وشيخ خزرعل وشيخ عطوان...

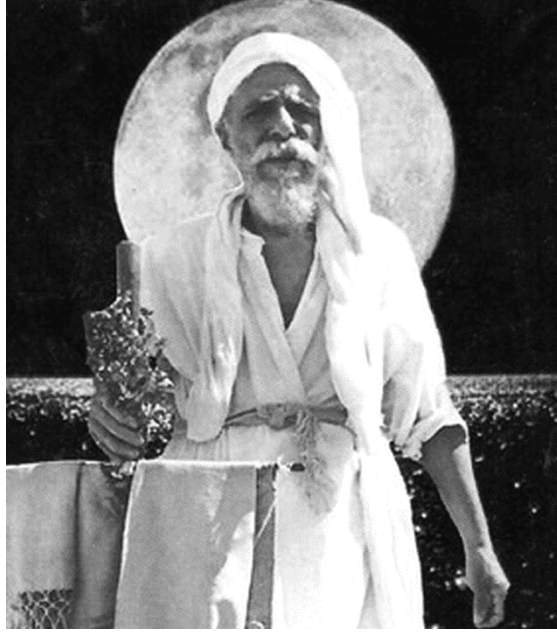
وبسبب الظروف المادية الصعبة والفقر الذي كان يعاني منه غالبية المندائيين ، وقلة موارد رجال الدين تبعاً لذلك ، فقد انصرفوا لأعمال تساعد على سد نفقاتهم ، وكانت (الصياغة) و(جراحة الشذر) المستوردة من إيران هما المهنتان اللتان يمارسهما بعض رجال الدين ، وقد عمل شيخ رومي بجراحة الشذر وتهذيبه وبيعه على الصاغة الذين كانوا يدخلونه في مصوغاتهم الفضية والذهبية ، والذي كان مرغوباً جداً من قبل أبناء العشائر...

كان شيخ رومي عليلاً ضعيف البنية يعاني من مرض (الربو) الذي أرهق صحته كثيراً ، خاصة في سني حياته الأخيرة ، ولما ازدادت متاعبه الصحية قصد بغداد للاستشفاء ، ونزل ضيفاً على الصائغ المعروف (عنيسي فياض) في نهاية الأربعينيات ، وفي دار هذا الرجل الجليل توفي الشيخ رومي عام ١٩٤٩ عن عمر يناهز ٦٣ عام ، وقد شارك كل مندائي بغداد بتشيعه إلى مثواه الأخير في مقبرة الصابئة القديمة بالقرب من ضريح (معروف الكرخي) تقريباً...

وبعد استملاك المندائيين لمقبرة أبي غريب الحالية حاول أخوه شيخ فرج نقل رفاته إليها فلم يستطع ، بعكس وفاة المرحوم عنيسي فياض التي نقلها أولاده من مقبرة الدورة إلى مقبرة أبي غريب ، أو كما حدث لرفاة المرحوم الشيخ عبد الله الشيخ سام التي نقلها أقاربه من مقبرة الدورة أيضاً إلى هناك...

لقد أنجب المرحوم الشيخ رومي ثلاثة من الأبناء وثلاث من البنات ، رحم الحي القدير هذا الشيخ الجليل الذي كرس حياته متقانياً من أجل دينه وطائفته ، وسيبقى في ذاكرة المندائيين دائماً بسبب ما أسدى إليهم من خدمات لا تنسى...

الشيخ نجم الشيخ زهرون ١٨٩٢ - ١٩٧٦ :



إن هذا الشيخ الجليل الكنزافرا شيخ نجم هو رجل الدين الثالث من أبناء الشيخ زهرون الخمسة، ولد في قضاء أبي الخصيب في محافظة البصرة عام ١٨٩٢، وكان أخواه شيخ آدم وشيخ يحيى أكبر منه سناً، ترعرع في طفولته في هذه المدينة الجميلة، على ضفاف شط العرب وسط عائلة دينية عريقة يمتد نسبها بعيداً في تاريخ المندائيين، وكانت هذه العائلة تعيش في عربستان لقرون عديدة خلت، ثم اضطرتها الظروف للارتحال إلى العراق، وفي حين أن أخويه طرسا في البصرة على يد والدهما؛ فإن شيخ نجم قد تمّت طراسته عام ١٩١٢ على يد ابن عمه شيخ عبد الله شيخ بهرام في إيران...

كان يتقن العربية والمندائية بطلاقة منذ شبابه، وعندما انتقلت عائلته من البصرة إلى سوق الشيوخ أولاً، ومن ثم إلى قلعة صالح، احتل موقعه كرجل دين ضمن (دائرة) عائلته في محلة اللطالطة، حيث يوجد المندي الذي أقامه،

خدم المندائيين بجد ونشاط وكان يتنقل ما بين النواحي والأقضية الجنوبية ومدينة العمارة ويتصل بأبناء طائفته ويؤدي لهم كافة المتطلبات التي يحتاجونها...

ثم انتقل هو وأخوه شيخ آدم وولده شيخ عبد الله بعد طراسته في قلعة صالح، وكافة عائلته إلى البصرة مجدداً، وظل يخدم المندائيين جهده، وعندما تمّ بناء مندي البصرة في محلة الطويسة عام ١٩١٩ على قطعة الأرض التي تبرع بها الوجيه المندائي عبد الجبار سيف مناحي، وبفضل جهود أبناء الطائفة وتبرعهم ؛ بنى له دار قرب المندي وأصبح هذا المعبد مكان لالتقاء أبناء الطائفة في كافة المناسبات، وقام بإدارته والقيام بالمهام الملقاة على عاتقه هو وابنه الترميذا شيخ عبد الله.

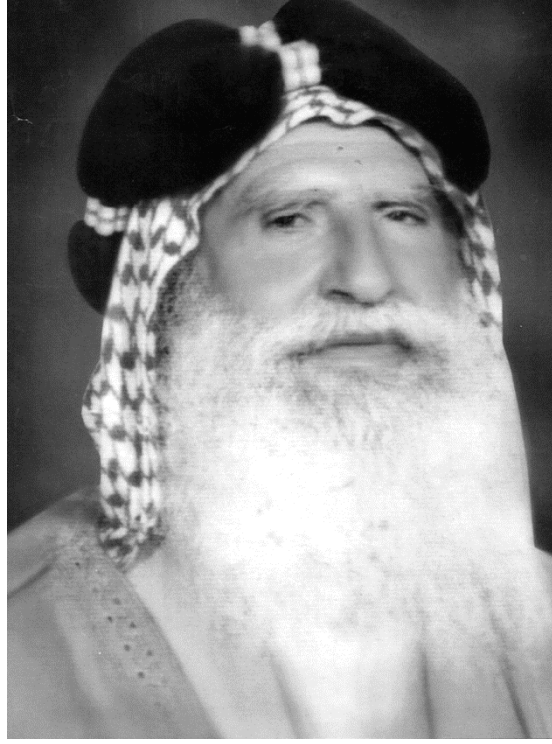
وبعد انتقال المرحوم شيخ عبد الله شيخ سام من قلعة صالح إلى بغداد عام ١٩٦٢، ووفاة المرحوم شيخ دخیل عام ١٩٦٤، والذي كان الرئيس الروحاني الأعلى لكافة المندائيين؛ أصبح شيخ نجم هو المسؤول الديني عن المندائيين في المحافظات الجنوبية الثلاث.

ومما يذكر أن (المسر دراور) عند زيارتها للعراق عام ١٩٣٦ اتصلت بالمندائيين ورجال دينهم في العمارة وقلعة صالح للإطلاع على أمورهم وكتبهم الدينية، فتعاون معها الشيخ نجم إلى أبعد الحدود، مقدماً لها مخطوطات وتفسيرات وشروحاً عديدة، كما ظهر بعدئذٍ معها عام ١٩٥٤ في فيلم وثائقي صور أثناء تأدية بعض المراسيم الدينية، كما كان يرأسها حتى بعد ارتحالها إلى لندن، ويقال إنه منحها كتاب (كنزاً ربياً) نادراً سبق وأن استنسخه المرحوم جده عام ١٩٣٩، كما حصلت منه على كتب دينية أخرى قامت بترجمتها إلى اللغة الانجليزية، ثم انقطعت بينهما المراسلة بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية.

كان المرحوم شيخ نجم مولعاً باستنساخ الكتب الدينية بخط يده ، فقد قام بهذا العمل بمثابرة ونشاط ، وأنجز العديد من هذه الكتب بخط واضح جميل ، يمتاز الشيخ نجم بهدوئه وتواضعه وقناعته ووقاره واحترامه لأبناء طائفته ، وبهذا كسب ود واحترام الجميع ، كما امتاز بإجادته التامة للغة المندائية ، والقدرة على تفسير الكتب وإجابة السائلين عن كل ما يدور في أذهانهم...

وقد قام بطراسة ثلاثة رجال دين ، اثنان منهم في مدينة قلعة صالح وهما ابنه شيخ عبد الله عام ١٩٤٦ ، وشيخ خلف شيخ جنير عام ١٩٦٧ ، كما قام بطراسة الشيخ غازي الشيخ خلف في البصرة عام ١٩٧٠ ، كما تتلمذ على يده في البصرة الدكتور أنيس زهرون داغر الذي كان يزوره في بيته ليشرح له بعض الأمور الدينية ، وبعض الجمل التي يصعب عليه استيعابها ، كما شرح له بعض البوث من كتب الكنزا ربا ، وترسر وألف شيالة ، ودرasha اديها ، له أربعة من الأولاد وأربع من البنات ، وافاه الأجل في البصرة وشيع بمهابة من قبل المندائيين عام ١٩٧٦ ، الرحمة الواسعة له ولآبائه لما قام به من خدمات جليلة للدين والطائفة.

* الشيخ عبد الشيخ محي :



ولد في مدينة الناصرية عام ١٨٩٥ ، وترعرع هو وأخوه الشيخ زهرون وسط عائلة دينية عريقة في النسب ، ولما بلغ سن الشباب طرس على يد عمه الشيخ جوده الشيخ داموك عام ١٩١٣...

سكن مدينة الناصرية بين أهله وأقاربه مؤدياً الطقوس الدينية التي يتطلبها الدين المندائي بكل تفان وإخلاص ، وكان يعمل صائغاً إضافة لأعبائه الدينية ، ثم انتقل إلى العمارة عام ١٩٤١ أثناء ثورة مايس وأقام فيها مع عمه شيخ جوده ، وكان ينتقل ما بين البصرة والناصرية حسبما يتطلبه عمله الديني... واستمر بممارسة مهنة الصياغة وبرع فيها ، خاصة صياغة المينا الملونة ، قابلته مسز

دراور مرتين في داره في بداية الخمسينيات وصورته ونشرت صورته في مؤلفاتها مع لفيف من شيوخ المندائيين.

وقد ساهم في طراسة الشيخ (جبوري طاووس) في مندي قلعة صالح بمشاركة الشيخ عبد الله شيخ سام ، والشيخ رومي والشيخ فرج والشيخ كميت والشيخ خزعل ، وكان الشيخ جبوري قبلها قد حل ضيفاً عليه في داره في العمارة لمدة ثلاثة أسابيع متزوداً منه بالعلم والمعرفة وأسرار الديانة المندائية.

وبعد نزوح ابن عمه الشيخ داخل الشيخ عيدان إلى بغداد زادت أعباءه الدينية وتنقله بين المدن الجنوبية وبغداد ، وبعد وفاة المرحوم شيخ داخل عام ١٩٦٤ أرهاق نفسه كثيراً بالسفر والعمل ؛ مما أدى إلى إصابته بجلطة في الدماغ تسببت في شلل في جانب جسمه الأيسر عام ١٩٧٠ ، وبقي طريح الفراش حتى وافاه الأجل في بغداد عام ١٩٧٥ ، كان رحمه الله عفيفاً زكي النفس مخلصاً لدينه وطائفته إلى أبعد الحدود ، وقد اعتمد على نفسه في كسب عيشه ، وكان محترماً ومحبوباً من قبل الجميع.

* شيخ فرج شيخ سام ١٨٩٦ - ١٩٦٨ م :



هو الابن الخامس في تسلسل أبناء المرحوم شيخ سام الستة ، والرابع في تسلسله الديني في الأسرة بعد إخوته شيخ يحيى وشيخ رومي وشيخ عبد الله ، ولد في مدينة قلعة صالح عام ١٨٩٦ وكان اسمه في طفولته وشبابه وحتى بعد طراسته (فلفل) ، ثم أبدل إلى (فرج) ، ولهذا حكاية طريفة...

فإنه بعد تكريسه كرجل دين على يد أخيه شيخ رومي عام ١٩١٧ ذهب إلى عربستان في مهمة دينية ومكث هناك لمدة طويلة دون ورود أخبار عنه ، ولم يعرف أهله سبب تأخره بسبب بُعد المسافة وصعوبة المواصلات ، ثم جاء من يخبرهم بأنه قد توفي هناك ، وكانت إشاعة لا صحة لها ، فأقاموا له مأتمًا ونصبت الفاتحة ، وأثناء ذلك فوجئ الناس بمقدمه بزورق ، فعم الفرع بدل الحزن وزغردت النساء وصاح الناس : (جاء الفرع... جاء الفرع) ، ومن يومه استبدل اسمه من فلفل إلى فرج...

كان المرحوم شيخ سام شديد الاهتمام بتربية أولاده وتنشئتهم نشأة دينية، ولذلك قام بنفسه بالإشراف على تعليمهم وإشراكهم معه في المهام الدينية منذ صغرهم، وبقي هكذا حتى وفاته عام ١٩١٥، وقد توفي قبله ابنه البكر الشيخ يحيى بعد إصابته بداء الكوليرا، وعندما بلغ فرج مبلغ الرجال طرسه أخوه شيخ رومي في قلعة صالح، وبهذا كون الأخوة الثلاثة دارة دينية، وكان لهم مندي خاص بهم.

كان المندائيون في ذلك الزمان منتشرين في المحافظات الجنوبية الثلاث وأقصيتها ونواحيها وقراها، وبسبب صعوبة المواصلات وحاجة المندائيين الدائمة إلى رعاية دينية؛ مال رجال الدين لتقسيم الأعباء والمهام الدينية بينهم، والتواجد الدائم في المدن المزدهمة بالمندائيين، ولهذا كان شيخ محيي وولده شيخ عبد وشيخ زهرون وذرية الشيخ صحن شيخ نادر وشيخ جادر وشيخ ثامر وأولادهم شيخ جوار وشيخ عبد وشيخ آدم ولدا شيخ جادر، وشيخ دخيل شيخ عيدان؛ كانوا جميعاً في الناصرية وسوق الشيوخ...

أما شيخ جودة وشيخ كميث وشيخ ضيدان فكانوا في العمارة وشيخ جنير كان في المشرح، أما قلعة صالح فكان فيها أكبر عدد من رجال الدين وهم شيخ سام وأولاده الأربعة، وحفيدهم شيخ عبد الله شيخ يحيى وأبناء عمومتهم شيخ خزعل وشيخ عطوان وكذلك شيخ زهرون وأولاده الثلاثة... أما صابئة البصرة والقرنة وقراها، فكثيراً ما كانوا يتوجهون إلى قلعة صالح أو إلى سوق الشيخ أو يجتازون الحدود إلى الحويزة إذا احتاجوا إلى خدمات دينية.

في حركة دائمة يركبون الزوارق للسفر بين المدن والقرى لأداء الخدمات الدينية للمندائيين قبل ظهور السيارات، كما أن (الحالية) في ذلك الزمان كان عددهم كبيراً جداً وكانوا يؤديون بعض المهام الدينية التي يحتاجها أبناء الطائفة.

نعود إلى قصة حياة المرحوم شيخ فرج، فبعد طراسته وزواجه انتقل في بداية الحكم الوطني إلى مدينة القرنة، وأصبح معلم في مدرستها الحكومية لتدريس

الدين واللغة المندائية للمندائيين ففي ذلك الوقت كان تدريس أبناء الأقليات مجازاً من قبل الدولة، ثم عاد ثانية إلى قلعة صالح، وعندما وجد رجال الدين الحاجة ماسة لكتابنا المقدس مدون على ألواح الرصاص انبرى شيخ فرج وأخوه شيخ رومي، فقاما بهذه المهمة الشاقة وكتبوا الكنزا موجودة بخط أيديهما وهذه الكنزا موجودة حالياً ضمن مكتبة أخيهما المرحوم شيخ عبد الله.

انتقل شيخ فرج في بداية الثلاثينيات إلى مدينة العمارة، وبنى بيتاً واسعاً في محلة (الماجدية) اتخذ منه مدرسة لتعليم المندائيين اللغة وأصول الدين المندائي، ثم ترك العمارة متوجّهاً إلى بغداد عام ١٩٣٥ وسكن محلة الكريمات في الكرخ على شاطئ دجلة وكان عدد المندائيين قليلاً في بغداد وغالبيتهم يسكنون محلة الكريمات ويعملون في شارع المستنصر.

كان شيخ فرج على علاقة وصداقة مع المرحوم جاد غازي وكثيراً ما كان يزوره، هذا وإن شيخ فرج هو أول رجل دين مندائي سكن بغداد وله خدمات جليلة للمندائيين المتواجدين فيها، ثم تبعه شيخ عبد الله عام ١٩٦٢ محلة الكريمات أيضاً، وظل فرج متفانياً في عمله ودينه بنكران ذات حتى عام ١٩٦٨ حيث أصيب بداء عضال توفي على أثره.

* الشيخ عطوان شبير كطان ١٩٠٠ - ١٩٥٦م :



ولد المرحوم شيخ عطوان عام ١٩٠٠ في مدينة قلعة صالح في محافظة ميسان في بيئة دينية خالصة ، وكانت تلك المدينة مقر لعدد كبير من رجال الدين آنذاك، كما كانت تسكنها مجموعة من المندائيين يعملون بشتى المهن، ولم تسنح له الفرصة لدخول المدارس أو التعلم في طفولته، لندرة المدارس حينذاك، لكنه كان أشكندا يشارك الحلالية في عمليات النحر وفي أداء بعض الخدمات التي تتطلبها الطقوس الدينية...

وعندما شبَّ عمل صائغاً ، فكان يرافق الصاغة في سفراتهم وتجوالمهم وفتح له محل في قلعة صالح، وكان ينتقل ما بين هذه المدينة ومدينة العمارة، وفي عام ١٩٤٤م تمَّ تكريسه كرجل دين من قبل ابن عمه شيخ خزعل شيخ باهر ، وبمشاركة الشيخين رومي وعبد الله شيخ سام وأصبح (ابيسق) يؤدي كافة

الواجبات الدينية ويشارك أبناء عمومته رجال الدين في تنقلاتهم بين المحافظات الجنوبية...

تزوج مبكراً وله ولد واحد هو فرحان ، وعدد من البنات ، والمعروف عنه أنه كان يمارس كافة الطقوس بدون كلل أو تعب ، ويؤدي خدمات كثيرة لكافة المندائيين كما كان يتفقد فقراء الطائفة خاصة الأرامل واليتامى منهم ، كان قوي الذاكرة يحفظ الكثير من الشعر الشعبي وأخبار القبائل وقصص العشائر ، وقد تعلم نظم الشعر الشعبي عن والدته التي كانت تنظم الشعر.

لم يعيش المرحوم طويلاً ، ففي عام ١٩٥٦م أصيب بمرض عضال ، وقد اشتد عليه المرض بسبب امتناعه عن تناول العقاقير الطبية حسب مقتضيات الدين ، عدا الأدوية المحلية وطب الأعشاب ، مما أدى إلى استفحال المرض عليه ، ووفاه الأجل في شبابه بعد البنجة بيوم عام ١٩٥٦م ، ودفن في مدينة قلعة صالح وحضر تشييعه عدد كبير من رجال الدين ، منهم شيخ عبد الله وشيخ فرج وشيخ خزعل وشيخ عبد وشيخ نجم وحملوا خلفه خمسة سيادر رحمهم الحي العظيم جميعاً.

* شيخ خلف شيخ جثير:

هو شيخ خلف بن شيخ جثير بن منتوب بن شيخ بدر بن شيخ بهرام، يمتد نسبه في سلالة طويلة من رجال الدين تنتهي بجدهم الأعلى شيخ سام الكبير...

ولد شيخ خلف في مدينة العمارة ناحية المشرح عام ١٩١٧، وترعرع بين إخوانه وأعمامه في بيئة دينية منذ صغره، وعندما أصبح شاب طرس في مدينة البصرة في (مندي الطويسة)، على يد الشيخ نجم بن شيخ زهرون عام ١٩٦٧ فأصبح ترميذا حتى وفاته.

وقد انتقل من ناحية المشرح إلى مدينة العمارة عام ١٩٧١، متزوج وله ستة أولاد؛ كبيرهم هو شيخ غازي والذي تعلم أصول الدين على يد والده الشيخ خلف، أما الباقيون فهم سعد ويحيى وآدم وكريم وآخرهم الشهيد رعد الذي استشهد في حرب القادسية.

كان ذا شخصية مهيبة فرضت احترامها على الجميع وكرس حياته للدين ولخدمة طائفته متنقلاً بين محافظات البصرة وذي وقار وميسان، ونال ثقة ومحبة الجميع، ومن رجال الدين الذين طرسوا على يده ولده الشيخ غازي وكذلك الشيخ بشير، ومن هواياته قراءة الكتب الدينية واستنساخ الكتب الدينية بخط مندائي جميل كاستنساخه للكتاب المقدس كنزا ربا مبارك اسمه.

وقد اشتغل في سنوات شبابه بالنجارة، وفي أواخر حياته أصيب بمرض عضال توفي على أثره في يوم الأحد عام ١٩٩٣ وحضر موته عدد من رجال الدين في محافظة ميسان، رحم الله شيخ خلف (رام برشارت).

* الشيخ سالم شخير ١٩١٧ - ٢٠٠٤ :



هو الترميذا سالم شخير شليبرز (سام برهوا) ، ولد في محافظة ميسان - ناحية السلام - عام ١٩١٧ ، وكان في صباه وشبابه فلاحاً يعمل مع مزارعي الـ (ازيرج) ، ثم اتجه إلى النجارة ، وهو حلالى ومن أسرة حلالية ، انتقل عام ١٩٤٦ إلى مدينة العمارة ثم عاد إلى الريف وعندما بلغ سن ٣٣ في عام ١٩٥١ تحديداً اتجه إلى العمل الديني وبدأ يهتم بالقضايا الدينية، ولكن مشكلته أنه كان لا يعرف القراءة والكتابة ، فاعتمد على نفسه في تعلم مبادئ الدين وساعده ذكاؤه في ذلك ، وقبل طراسته ذهب إلى مدينة العمارة والتقى بالشيخ (جثير منتوب) ، وطلب منه بعض الكتب الدينية، فأبدى استغرابه من ذلك، ولما قرأ أمامه بعض البوث من كتاب (الانبيائي) تعجب من ذلك وتعاون معه في هذا الاتجاه، وفي عام ١٩٦٧ تمّت طراسته في مدينة العمارة على يد الترميذا عبد الله شيخ نجم في داره.

عمل بالنجارة وصناعة القوارب فترة طويلة من حياته ، وكان قويا في إيمانه عفيفاً في أقواله وأعماله ، وقد قام بترسيم عدد من رجال الدين في بغداد عام ١٩٩٥ ، وهم كل من عبد السلام جبار وستار جبار حلو وبسام فاضل عبد الرازق ، وذلك بالاشتراك مع ترميذا هيثم سعيد ، كما قام بعدئذ بطراسة شيخ رعد كباشي ، وقد لعب دوراً مهم في حياة الطائفة بعد طراسته ولم يكن يتوانى عن أداء واجباته الدينية إطلاقاً ، وله آراء صريحة في بعض الأحكام الشرعية والدينية ، وقد عاش حياة بسيطة متواضعة حتى آخر حياته وكان يوصي بحفظ الكتب الدينية المقدسة في مكتبة المندي ، وليس في مكتبات الشيوخ الخاصة لتكون متيسرة دائماً لكل من يريد المعرفة من المندائيين ، وكان يقول إن عقوبة الكبير ليست كعقوبة الصغير إذا مارسا نفس الخطأ ، وأن عقوبة الكنزابرا أكبر من عقوبة الترميذا ، وهذا وسيبقى هذا الرجل الجليل نبراس لطائفته لما حمله من روح صادقة الإيمان ، مضاءة بنور الحي الأزلي (أرواها نهويلة).

* الترميذا رعد كباشي شان :



ولد المرحوم فضيلة الترميذا رعد كباشي شان حلو بندر نعمة الزهيري عام ١٩٦١ في بغداد وسط عائلة دينية ومهتم بالدين كثيراً، كان شجاعاً ذكياً كريم النفس نشطاً لا يؤمن بالمستحيل، وفي عام ١٩٩٠ تزوج وله ولد واحد اسمه كرم وابنتان فقط، سكن أرض التعميد على ضفاف نهر دجلة في القادسية لسنين كرجل دين (شكندا)، وقدم الكثير من الخدمات الجليلة لأبناء الطائفة، وعقد الكثير من الندوات الدينية مع رجال الدين الشكندية أي لجنة النور المنبثقة من قبل المجلس الروحاني العام، وعملها الإرشاد والتوجيه والتوعية الدينية، واهتم كثيراً بأمور الزراعة وتنظيم الأعمال الأخرى والتي تخص أرض التعميد.

وبتاريخ ٦-١١-٢٠٠٠ في عهد فضيلة رئيس الطائفة الكنزابرا ستار جبار حلو؛ كرس نفسه رجل دين على يد فضيلة المرحوم الترميذا سالم شخير، وتمت طراسته في مندي بغداد في وسط حشد كبير من أبناء الطائفة وكان

عرس جميل ، وبعد ذلك تمّ نقله إلى محافظة البصرة المسؤول الديني هناك وسكن فيها ، ومارس عمله الديني والاجتماعي ، وقدم الكثير من الإنجازات والخدمات الجليلة لأبناء الطائفة ، وكذلك كرس جهوده في جانبيين أساسيين هما الجانب الديني والجانب الاجتماعي.

≠ الجانب الديني : اهتم اهتماماً كبيراً بإجراء المراسيم الدينية (الطقوس) والأمر والتعميد المستمر والتوعية الدينية ، وكذلك تنظيم الأندية والأنشطة المندائية وتسجيلها في أقرص وحفظها في المندي وتوزيع قسم منها على أبناء الطائفة ، وهذا يدل على حبه وحرصه وإيمانه لهم ، حيث ركز على الشباب وقام بإجراء المحاضرات المستمرة لهم وبرز من هذا الاهتمام الكبير الترميذا مازن نايف ، وتمت طراسته في مندي بغداد وبحضور أبناء الطائفة وبحضور فضيلة المرحوم الترميذا رعد كباشي ، وهذا إنجاز كبير في تحقيق وتلاحم المندائين في محافظة البصرة.

≠ الجانب الاجتماعي : استمر بالزيارات والمتابعة المستمرة لأبناء الطائفة ومنها المرضى والعوائل المتعففة والأرامل والأيتام وتوفير المساعدات وتوزيعها عليهم وتثبيت حقوقهم وكذلك تعززت إمكانيته عند أهالي البصرة المتميزة في المواقف النبيلة وتحقيق المكاسب التي حصل عليها لهم.

وبقي يواصل مسيرته مع الكتل والأحزاب السياسية والمسؤولين في المحافظة ، حيث أصبح عضو مجلس المحافظة وسار على الطريق الذي رسمه ، وأخذ يواصل مشاركاته مع رجال الدين في الجوامع والحسينيات والكنائس وسائر القوميات الأخرى ، وكذلك يشارك في المناسبات الدينية وأخذ يسير نحو شيوخ العشائر حتى أصبح عضو في مجلس شيوخ العراق ، وعضو جمعية حقوق الإنسان ، وعضو لجنة المصالحة الوطنية على مستوى محافظة البصرة ، وبقي سائراً في هذا العمل ، وأجرى عدة زيارات متواصلة مع معالي وزير الداخلية الأستاذ جواد البولاني وحصل على مكاسب وحقوق كثيرة ، منها تعيين عدد

كبير من أبناء الطائفة العاطلين عن العمل في الشرطة الوطنية ، وكثير من المكاسب والحقوق لأهالي البصرة.

وحضر عدة مؤتمرات مع المسؤولين في الدولة العراقية ، بل التقى مع المسؤولين في شمال العراق من أجل موافقات تضمن حقوق أبناء الطائفة ، وكذلك أول من قام بزيارة إيران لتوثيق العلاقات بين صابئة العراق مع صابئة إيران وتعزيز الوحدة المندائية فيما بينهم.

كان فضيلة الترميذا رعد كباشي وفيًا وعقلًا نيرًا ومؤمنًا وصبورًا وغيورًا ، لا يخاف ولا يشعر بالتعب مهما طال الطريق ، وبتاريخ ١٥ - ١٢ - ٢٠٠٩ ، جاء القدر المحتوم برحيل هذه الشخصية لأنها جاءت من النور وتذهب إلى النور ، ولكن يبقى في ذاكرة كل المندائيين مثل وردة الجوري التي يفوح عطرها طول الزمان ، وتبقى تكتب عنك الأجيال حاضراً ومستقبلاً ، واسمك باقي علم موجود في وسط الطائفة دائماً يا أبا كرم.

* الشكندا مكسر شفيّف مطير :

ولد المرحوم مكسر عام ١٨٩٠ في عشائر مدينة الكحلاء في محافظة ميسان ، وكان في صباه وشبابه يعمل نجار يصنع الزوارق ، وهي مهنة ورثها عن أجداده وينحدر من أسرة (حلالية) ، وقد نشأ وتربى تربية دينية مندائية ملتزمة ، وعاصر أجيالاً كثيرة من المندائيين ومن رجال الدين ، ويتميز بتمسكه الشديد بأمور دينه وعدم التساهل بتطبيق كل ركن من أركانه ، كما كان معروفاً بحبه للناس وتضحيته من أجلهم ، فقد كان (اشكندا) يقدم خدماته لمن يحتاجها ، ويرافق رجال الدين في أعمالهم ، ويحضر كافة المراسيم الدينية والطقوس في الأعياد والمناسبات الدينية ، وكان بيته مفتوحاً لكل المندائيين المحتاجين لعمل اللوفاني أو للنحر .

وكان ذا ذاكرة قوية ؛ فقد كان يحفظ (ملاويش) عدداً كبيراً من المندائيين ويروي قصصاً طريفة عن رجال الدين السابقين الذين عاصروهم ، وذكريات كثيرة عن الحكم التركي ونوادر وأقاصيص عن العشائر العربية ، وكان يتميز أيضاً بجرأته وشجاعته في الدفاع عن دينه وعن أبناء جلدته ، كما كان ذا وجهة لدى شيوخ القبائل ، وقد نزع إلى بغداد في زمن متأخر وسكن مدينة (الدورة) ، وبقي لأخر لحظة من حياته يؤدي واجبات وطقوس الدين بالتزام تام كما كان مهتماً بتربية أولاده وبناته تربية دينية خالصة ، ويوجههم لعمل الخير ، حتى وافاه الأجل عام ١٩٩٠ .

* الشكندا يوسف خصاف حيدر (أبو يعقوب) :



بشمهيون ادهيي ربي لوف ورواد هيي وشابق هطايي نهويلي لهازا نشمئا الديلي
(بيان بر ببيي) اد هازا مسخا وشافق هطايي نهويلي...

بتاريخ ٣١ - ٣ - ٢٠١٢ ؛ تصاف الذكرى الرابعة لرحيل الشكندا يوسف
خصاف حيدر (أبو يعقوب) ، وبتاريخ ٢٩ - ١ - ٢٠٠٩ ، صادفت الذكرى
السنوية الثالثة لرحيل زوجته أم الزين موزان (أم يعقوب) لهازا نشمئا (ممانى
بث سيمت) وشافق هطايي نهويلي ، التي رافقت مسيرته الدينية بكل محبة
وإخلاص لأبناء الطائفة وفي كل المناسبات ، هذه نبذة مختصرة عن حياة
المرحوم الشكندا يوسف خصاف حيدر (أبو يعقوب) فقيد الطائفة المندائية أسكنه
الله عالم الأنوار...

ولد أبو يعقوب في ناحية المشرح في محافظة ميسان سنة ١٩٠٥ ، وبدأ تعلم
أصول الديانة المندائية على يد الشيخ مصبوب الشيخ مجذوب منذ عام ١٩٢٠

هو ومجموعة من الشيوخ والحلالية، مثل الشيخ غريب الشيخ مصبوب والشيخ خلف الشيخ جثير واليلوفة جتان جنب والحلالي ناصر ضيغم، وبعدها اختاره الشيخ مصبوب ليكون مساعد له (أشكندا)، تزوج عام ١٩٣٢ في مدينة العمارة وله عشرة أولاد وبنات، منهم الشهيد بشير يوسف خصاف، وفي عام ١٩٣٤ انتقل إلى مدينة بغداد وتحديداً في منطقة علاوي الحلة حيث زاول مهنة الصياغة مهنة الآباء والأجداد.

وقد عاصر المرحوم أبو يعقوب عدداً كبيراً من رجال الدين المندائيين، منهم الشيخ مصبوب الشيخ مجذوب والشيخ جودة الشيخ داموك، الشيخ داخل الشيخ عيدان، والشيخ فرج الشيخ سام، والشيخ عبد الله الشيخ سام والشيخ جثير بن منتوب، الشيخ كميت بن منتوب والشيخ خزعل باهر، الشيخ عبد الشيخ محيي والشيخ زهرون الشيخ محيي والشيخ ضيدان الشيخ مطلب والشيخ آدم الشيخ بدر والشيخ عبد الله، الشيخ يحيى والشيخ عبد الله الشيخ نجم.

هذا إلى جانب معاصرته لعدد من الشيوخ، وشارك في طرسة أربعة عشر منهم، في عام ١٩٥٤ حين تعرض سكان بغداد في جانب الرصافة إلى خطر الفيضان المدمر لنهر دجلة وخاصة في منطقة باب الشيخ، حيث طلبت الحكومة من الأهالي الساكنين في تلك المناطق التحول إلى جانب الكرخ، وذلك حفاظاً على حياتهم، فكانت المبادرة من المرحوم أبي يعقوب لإنقاذ العوائل المندائية وسارع لنجدتهم وذلك باستضافتهم في داره الواقعة في منطقة علاوي الحلة متكفلاً بسكنهم وطعامهم وعلى نفقته الخاصة ولمدة أسبوعين تقريباً حين انتهاء أزمة فيضان نهر دجلة.

وإن أكثر العوائل المندائية شهدت تلك الواقعة التي أثبتت طيبة قلب المرحوم (أبو يعقوب) وحبه لعمل الخير ومساعدة الناس، كان المرحوم رجلاً متهمناً وملتزماً بالدين، وكان دوماً متفائلاً بالخير لطائفته محباً للناس ولعمله الذي كرس له جل حياته ولثمانين عام وحتى بعد أن ظل في مسكنه حيث كانت

معظم العوائل المندائية تقصد داره وذلك لعمل اللوفاني لموتاهم ، لأنه كان معروفاً بصدقه وأمانته في أداء هذه الطقوس الدينية ، وحريص على عمل الخير لأبناء الطائفة وتحت شعار (المندائيون عائلة واحدة).

كان ابناً باراً سواء بعطائه اللامحدود أو بخدماته الجليلة... فلم تزل حاضراً في كل بيت مندائي وستبقى أعمالك شاهداً لما قدمته ، ولقد كنت عموداً أساسياً من أعمدة المندائيين ، رافقت مسيرة كل رجال الدين لأكثر من ثمانين عام مضت ، إنها ثمار جميلة وعطاء جميل أن يزرع الآباء صفات كريمة ونبيلة أساسها المحبة والتضحية الصادقة كما يغرس البستاني الأشجار الطيبة... (يا أيتها النفس الموحدي إلى موطنك الذي أتيت منه) كنزا ربا مبارك اسمه.

توفي المرحوم (يوسف خصاف حيدر) في حوالي الرابعة من عصر يوم الأحد المصادف ٣٠-٣-٢٠٠٨ ، وكان يرتدي لباسه الديني (القماشى) ووري إلى مثواه الأخير في صباح الاثنين في مقبرة أبو غريب حيث حمله أولاده والحاللية وخلفه السيادر لهازا نشمنا (بيان بر بيبي) وشافق هطايي نهويلي.

البحث الثاني

عدد من الشخصيات المندائية رحلت

رحمها الحي العظيم ، نذكرها لكي لا ننساها

أخواتي وإخوتي المندائيون أينما وجدتم؛ تحية حب وتقدير لكم جميعاً... من الظواهر السلبية الملموسة على نحو جلي في مجتمعنا المندائي ، هي مع أن الهيي حباناً بنسبة كبيرة من ذوي الشأن الرفيع وفي المجالات كافة سواء العلمية أو الفنية أو الأدبية... الخ، مقارنة ببقية الملل، لكننا من أكثر هذه الملل إنكاراً وإهمالاً لهذه الطاقات الخلاقة القديرة المبدعة، بل إن الحال قد يصل بنا إلى محاربة هؤلاء إبان حياتهم لمجرد اختلافنا معهم في وجهات النظر، وسعيد الحظ من يذكر بالخير بعد رحيله... لكن ، بعد فوات الأوان لأنه قد رحل ونجمه عنا قد أفل ، فما فائدة التعظيم والتمجيد في هذه الحالة ، أم أنه قد يصل إليه مع اللوفاني؟.

إن للتمجيد والإشادة بالمبدعين إبان حياتهم أثر كبير في زيادة عطائهم وشحنهم لتقديم المزيد خدمة لمجتمعاتهم، وقد يزيد من سنوات حياتهم أيضاً (ولو أن الأعمار بيد الله كما يقال)...

وعكس ذلك؛ فإن نسبة كبيرة منهم سيعيبها اليأس والقنوط والشعور بالإحباط والابتعاد التدريجي عن خدمة مجتمعاتهم، وبالتالي موتهم البطيء فهل أن هذا التهميش والإهمال هو تعبير عن دوافع لا شعورية هدفها عدم إظهارنا وكأننا أقل شأن منهم؟ أو أن المصادفة والنسيان والانشغال بأمور الحياة هي السبب في هذا التهميش؟، وإذا كان الأمر كذلك لماذا نخصّص جزءاً من وقتنا لهذا الإطار بعد الرحيل؟...

إنها مجرد تساؤلات تتطلب منا الإجابة ولو مع أنفسنا، فرحمة بأدبائنا وفنانينا ومبدعينا الذين ما زالوا بين ظهرائنا لأنهم كنز من كنوزنا ورحمة لمن

سيواري جثمانه الثرى هذه الأيام المغفور له مكي كميّ البدرى الذي كان مثلاً مندائياً رائعاً بثقافته وفنه وعلمه الوفير ، والأكثر من هذا خلقه الرفيع وتواضعه الذي زاد من عظّمته ، ورحمة لكل عظمائنا الذين غادرونا.

أخوكم/ د. كارم ورد عنبر

تعقيب من د. بشير عبد الواحد يوسف :

أخي الغالي د. كارم ورد عنبر... صدقني أن ما ذهبت إليه صحيح ودقيق مائة في المائة ، وتبقى المشكلة قائمة ولا نستطيع معالجتها لأننا عشنا وتربينا في مجتمعات متخلفة، تعلمنا منها مع الأسف الشديد الأنانية وحب الذات والخلافات التي نخلقها نحن لنعيش عليها فترة من الزمن، إلى أن نجد لنا خلاف جديد.

الأمم العظيمة تتفاخر بعظمائها والعظمة للحي العظيم ، لنقل تتفاخر ومنتباهي بعلمائها وأدبائها وقادتها الميامين ، لو سنحت لك الفرصة وشاهدت قبر فيكتور هيجو في باريس أو بوشكين في روسيا أو شكسبير في إنجلترا ، وهكذا ستتفاجأ كيف هذه الأمم تعظم مبدعيها في حياتهم وبعد مماتهم ، ولو قربنا الصورة وزرت القاهرة وزت تمثال نجيب محفوظ ومقهاه التي كان يتردد عليها وكيف جعلوها من التراث الذي يتردد عليه الزوار ، وأنا أسألك يا أخي نحن كعراقيين أين قبر الجواهري الكبير ، وأين قبور وتراث العراقيين المبدعين من العلماء والأدباء والشعراء؟.

ونحن كمندائيين لنا رموزنا الكبيرة المبدعة عبر التاريخ ، ولا أريد أن أقلب أوراق الماضي البعيد نوعاً ، عندما كنا نزور مقبرة أبا غريب المندائية ، كنت أزور قبر العالم عبد الجبار عبد الله السام رواه ناوية ، قبر عادي بسيط تحت سقفة بسيطة بمساحة لا تتجاوز ست أمتار مربعة غير مدام ، أي ليس هناك من يعتني بهذا القبر ولو بأوقات متباعدة ، وكنا في مرحلة الطفولة في البصرة نلعب كرة القدم قرب مقبرة الانجليز ونلاحظ العناية والإدامة والنظافة والورود

والأشجار ، فهي مدامة من الأربعينات أي من بعد الحرب العالمية الثانية أو عند دخول الانجليز للعراق عام ١٩١٧م.

نحن الآن في السويد وحضرتك في أستراليا، ونشاهد بأعيننا مدى العناية الفائقة بالمبدعين في حياتهم وبعد مماتهم ، وأذكر مرة يا دكتور كارم سألت أبي رحمه الله لماذا فلان من أقربائنا لا يحب المتفوقين منا ، فأجابني بهذا المثل العراقي البصراوي : (شفتك أحسن مني لعبت نفسي منك)... لم أستحسن المثل في حينها ولكن اتضح لي أنه تشخيص صحيح من رجل خبير بالناس...

لكي لا ننسى رموزنا ونهمل النخبة :

من حقنا وواجبنا أن نستذكر الرجال الذين قدموا خدمات جليلة وأعمالاً كبيرة طيلة حياتهم ، لا سيما بعدما أنعم الحي العظيم على الطائفة بقيادة مخلصة تسعى لتسجيل إشراقات تاريخ الطائفة، وشخصياتها خلال القرن العشرين على الأقل، وتفتش وتبحث عن كل ذي حق لكي ترد له حقه، ونقول له شكراً على مسمع ومرأى من الملأ.

فقد تمّ تكريم البعض منهم بشهادات الشرف ووسام الاس ، وجرى تعريف الناس بهم من خلال المطبوع المركزي للطائفة - مجلة آفاق مندائية - وهناك آخرون ينتظرون دورهم ليشملهم هذا الحق.

إن ما حققه ويحققه مجلس الشؤون العام في عدم تناسيه هؤلاء الرجال الأفاضل؛ أحدث حالة الرضا والقبول لدى جميع المندائيين ، وجسدت تقاليد جديدة بأن الطائفة لا يمكن أن تنسى أو تهمل أبناءها الذين ضحوا من أجل بقاء المندائية وديمومتها ، وهنا يجب أن نقف ونتساءل كيف كان وضع الطائفة قبل انبثاق أول تشكيل رسمي لها في عام ١٩٨١؟.

إننا يمكن أن نجيب بشكل مختصر ، لقد كانت آنذاك بعض الوجوه الاجتماعية المعروفة في بغداد قد أخذت على عاتقها تسيير أمور الطائفة، وأسهمت إسهاماً فاعلاً في متابعة جميع القضايا المندائية على الصعيدين الرسمي والاجتماعي ، فمنهم من كان يوظف علاقاته الشخصية ووجاهته الاجتماعية مع مسؤولي الدولة لتمشية أمور الطائفة، فكانوا يشاركون في المناسبات الرسمية مضحين بوقتهم وراحتهم ، ومنهم من ساهم ببناء أول مندي في بغداد ، والبعض منهم دفع حياته من أجل أن يظل المندائيون متعلقين بمندائيتهم وألا يخرجوا من هذا الإطار... فإذا جاء ذكر هؤلاء الرجال يعلق في ذهن السامع اسم طائفة الصابئة المندائيين، إنهم ممثلون حقيقيون لها ، نذكر منهم على سبيل المثال الراحلين الشيخ عبد الله الشيخ سام، ضامن حويزاوي، ياسر صكر ، عيسى

الفياض ، خليل مال الله ، دهش فرحان ، جودة السهر ، رشود بادي ، حاكم
فرحان ، غضبان رومي ، خليل سيلان ، يوسف بخيتان في البصرة ، إبراهيم
الحلي في العمارة ، وهناك الكثير الكثير غيرهم.

وفي الختام أرجو أن يُقام حفل موسع يتم فيه تكريم جميع رموز القرن العشرين
وعلينا أن نستذكرهم دائماً ، وأن نحتفي بهم جزاء لما قدموه من تضحيات من
أجل دينهم وطائفتهم ، وهذا ما أوصى به ديننا العظيم.

شخصيات مندائية حرانية قدمت خدمات جليلة للعلم والأدب... وأبدعت في مجال اختصاصها :

* ثابت بن قرة :

ذكره المؤرخ الطبيب ابن أبي أصيبعة قائلاً لم يكن في زمن ثابت من يضارعه في علوم الطب ولا في الفلسفة، وذكر له أكثر من مائة وخمسين كتاب ألفها أو ترجمها في مجالات الطب والهندسة والفلك والفلسفة، لقد كان عالماً رياضياً وفلكياً وفيلسوفاً وطبيباً ومهندساً وموحداً، ومن وصاياه: راحة الجسم في قلة الطعام، وراحة النفس في قلة الآثام، وراحة القلب في قلة الاهتمام، وراحة اللسان في قلة الكلام، ومن وصاياه الطبية: ليس على الشيخ أضر من أن يكون له طباق حاذق وجارية حسناء لأنه يستكثر من الطعام فيسقم ومن الجماع فيهرم، رحم الله ثابت فلقد كان مدرسة متنوعة الفنون، نقل علمه إلى ذريته بكل أمانة ودقة.

* سنان بن ثابت بن قرة :

لقد أخذ عن أبيه في العلم والمعرفة وبرع في الطب كأبيه، ولازم الخلفاء وقد ألف وترجم عدد كبير من الكتب ولعلو كعبه في علوم الطب عينه الخلفاء في قصور الخلافة يمتحن الأطباء وينسبهم حسب كفاءتهم، ويذكر أنه منح ٨٦٠ طبيب شهادة ممارسة الطب، كما عهد إليه الخليفة أن يبني المستشفيات في بغداد على نهر دجلة، وكان مستشار لعدد من الخلفاء العباسيين لكونه موضع ثقة وعالم جليل، وافاه الأجل عام ٣٣١ هـ.

* ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة:

كذلك قال المؤرخ ابن أبي أصيبعة : لقد كان طبيباً حاذقاً يجاري أبيه في صناعة الطب ، وقد برز على أقرانه من الأطباء فاعتمده المقتدر بالله والمستكفي بالله والمطيع لله ، وله عدة مؤلفات في التاريخ وكتاب أخبار الشام ومصر ، مات سنة ٢٩٥ هجرياً وقد رثاه الشاعر أبي أحمد يحيى النديم:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ مَا نُسِتَ

وَمَنْ يَغْتَرِبُ يَرْتَبِي وَمَنْ مَاتَ فَانَتْ

نَعِينَا الْعُلُومُ الْفَلَسَفِيَّاتُ كُلُّهَا

خَبَا نَوْرُهَا إِذْ قِيلَ مَا نُسِتَ

* أبو إسحاق إبراهيم بن سنان:

لقد كان كاملاً في العلوم الحكيمة فاضلاً في صناعة الطب متقدماً على زملائه بارعاً في الكتابة ، عظيم الذكاء ، (عن المؤرخ ابن أصيبعة في كتاب النفيس وعيون الأبناء في طبقات الأطباء)، كذلك ذكره د. أحمد سليم سعيدان في كتابه (رسائل ابن سنان) باعتباره من كبار فلكي زمانه من مدينة حران ، ولد سنة ٢٩٦ هـ وتوفي سنة ٣٣٥ هـ.

* البتاني:

كان من علماء الفلك المشهورين ومن أشهر مؤلفاته الكواكب الثابتة ومعرفة مطالع البروج ورسالته المشهورة أقدار الاتصالات ، ولد سنة ٢٦٤ هـ وتوفي ٣٠٦ هـ.

* سنان بن الفتح:

حراني برع في علم الحساب والأعداد ومن أشهر كتبه (التحت) في الحساب الهندي ، الجمع والتفريق ، والوصايا ، حساب المكعبات وكتاب شرح الجبر والمقابلة للخوارزمي.

* أبو الحسن الحراني:

لقد برع في مهنة الطب ، وافر العلم خبير في معالجة مرضاه ، واسع الإطلاع في العلوم الطبية وله مؤلفات عديدة ومقالات متنوعة ، ولد سنة ٢٨٣ هـ ، وتوفي سنة ٣٦٥ هـ ، كانت له معجزات في شفاء المرضى الذين ظن غيره من الأطباء أنهم من الميتين.

* المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابي:

ويكنى صاحب الشامة الحمراء في وجهه ، برع في النحو والأدب واللغة والشعر والنثر ، كان أديباً بارعاً ، توفي سنة ٤٠١ هـ.

وحتى لا ننسى الصابئة المندائية :

ضمن مساحة الضمير العراقي النقي يتربع الصابئة المندائيون وسط هذا الوطن الفسيح، هذه الشريحة النقية - كما ذكر الأستاذ زهير كاظم عبود في مقال له - نقاء الماء والموحدة التي توحد الله، هذه الشريحة الممتلئة فن وحضور وتأکید فتنفش روحها فوق المخشلات الذهبية لتشتهر بها في العراق، وتنفش روحها في سماء العراق فتطرزها شهداء وضحايا الحركة السياسية الوطنية العراقية المنحازة إلى صفوف الفقراء.

وتزداد الصابئة المندائية فخراً، ليس بكوادرها وفنانيها، وليس بعلمائها الذين يفتخر العراق بهم، بل بطبققتها العاملة المتميزة المخلصة لعملها... الصابئة المندائية أصحاب الدين السماوي المتميز بالنقاء والطهارة ومباركة الماء وحب الخير ومحبة الإنسان والتواضع والرحمة، والديانة المتآخية والمنسجمة مع المسلمين والمسيحيين واليهود في العراق.

الصابئة المندائية الذين ضحوا وناضلوا في سبيل العراق ولم يلتفت أحد إلى حقوقهم الدينية والوطنية والدستورية، أجد من الواجب أن أعيد للتذكير ما طالبت به في الندوة التليفزيونية التي قدمتها من على شاشة قناة AAN شبكة الأخبار العربية، وضرورة أن يكون للصابئة المندائية حقهم في إقرار قانون يفصل في قضايا الأحوال الشخصية باعتبارهم ديانة موحدة ولهم خصوصيتهم ومن الظلم أن نقيدهم بالالتزام بقانون الأحوال الشخصية لدين آخر.

وحين ندعو إلى تخصيص قانون للأحوال الشخصية للصابئة المندائية وقانون خاص لليزيدية فإن هذا لا يخلق نوعاً من التمزق في القوانين الخاصة بالأحوال الشخصية في العراق، بل على العكس فإنه يزيد المسألة فخر واعتزاز أن يكون العراق المتنوع والخليط المتجانس المنسجم الذي يتعايش فيه الناس بهذا الشكل الرائع.

الصابئة المندائية أصحاب الكتاب المقدس (الكنزا ربا) والمحافظون على لغتهم المندائية الجميلة والعريقة يحق لهم أن تنص نصوص الدستور المقبل على خصوصيتهم وعلى طقوسهم وعلى قيمهم بالنظر للمساهمة الوطنية الفعالة في معارضة السلطة البائدة. فلقد طرزت كوكبة من الشهداء العراقيين من أبناء الصابئة المندائية جزء مشرق من صفحات تاريخ العراق النضالي وسجلوا حضور دائم في مقارعة الدكتاتورية ، وكانوا جزءاً مهماً من تاريخ العراق السياسي قبل أن يكونوا جزءاً فاعلاً من تاريخ الحركة السياسية الوطنية.

فلقد قدم أبناء هذه الديانة الكثير ولم يأخذوا ولم ينالوا من حقوقهم إلا القليل القليل، فحق لهم أن تتم مطالبة الأصوات الشريفة بحقوقهم كاملة.

الصابئة المندائية الصفحة المشرقة التي تتشرف بها الحركة الوطنية العراقية وتفتخر بها الطبقة العراقية العاملة لأنهم جزء مؤثر ومهم من مؤثرات النشاط الاقتصادي في السوق العراقية، والصابئة المندائية الذين دخلوا بيوتنا وتغلغلوا وسط قلوبنا وحلوا في ضمايرنا وانتشروا في كل المدن العراقية الزاهية يتمتعون بأخلاق عالية ويحظون بمحبة الناس في العراق على اختلاف مذاهبهم وتنوعهم الاجتماعي والقومي، بعد أن كانوا سابقاً يسكنون على ضفاف المدن الجنوبية التي تطرزها الأنهار، لأنهم جزء من انسياب الحياة العراقية، حالهم حال دجلة والفرات وشط العرب.

أوراق منسية

*الأستاذ نعيم بدوي:



الأقمار حين ترتحل تترك فراغاً لا يعوض ، وهكذا كان ارتحال المرحوم نعيم بدوي عن سمائنا ، ومما يعزينا أنه ترك خلفه ذكريات عطرة لا زلنا ننتسم شذاها، ولهذا فهو خالد بيننا وستذكره الأجيال بكل فخر وتكريم وإجلال...

كان المرحوم موسوعة علمية لا تبارى يكتنز في ذاكرته معلومات غزيرة لا نهاية لها ، وحين تجلس إليه يتحدث إليك في مختلف القضايا ، فيسحرك بكلامه وحديثه وتظل منصتاً إليه ، كنت أزوره في أوقات غير متباعدة فأجده دائم البشاشة متشوق لمعرفة كل شيء عن طائفتنا ، وكنت أستشيريه في كل أمر معضل يلم بالطائفة فأجد الحلول جاهزة لديه ، ولم أره يوماً عاجزاً عن الإجابة عن أي سؤال طرحته عليه وكانت إجاباته موجزة ولكنها مقنعة... كان يكره المنافقين والدجالين ويسميهم الديدان السامة التي تعكر ماء الحياة الصافي ،

وكان يردد دائماً : الحياة حلوة لذينة ممتعة ، ولكن العمر قصير والأيام تجري مسرعة ، ولا ينغص حلاوتها سوى المظالم وتجاوزات المستبدين من الحكام .
في لقاء معه عام ١٩٩٤ وجهتُ إليه بضعة أسئلة تدور حول ماضي طائفتنا وقضايا أخرى فأجابني عنها ولطرافة ذلك الحديث رأيت أن أنشره على صفحات المجلة لما فيه من متعة تخص تاريخنا المنسي...

*** لماذا لم تقم للمندائين ، طيلة تاريخهم كيانات سياسية؟**

- لأنهم فئة دينية فرض عليهم دينهم عدم الاهتمام بأمور هذه الدنيا ، فاعتبروها فترة انتقال إلى دنيا الخلود في عالم النور ولهذا لم يكثرثوا لتأسيس كيان سياسي لهم.

*** هل كان في مجتمعهم طبقات اجتماعية؟**

- كانوا طبقتين ، الطبقة العامة وطبقة رجال الدين وهي المهيمنة...

*** كيف كانت طاعتهم لرؤسائهم إذن؟**

- كانوا يؤدون طقوسهم منذ الصغر بإشراف وإرشاد رجال الدين ، وكان اتباع تعاليم هذه الطبقة المرشدة هو الأساس في حياتهم.

*** هل كانت طبقة رجال الدين طبقة ارسقراطية؟**

- كانت هي الطبقة العليا همها وعملها إقامة الطقوس الهيكلية لأبناء الطائفة وكانت منصرفة لأمور الدين فقط ، وتفرض هيمنة الدين على أبناء الطائفة.

*** إذن فإن نظامهم لم يكن ديمقراطي يخضع لقوانين معينة؟**

- كلا لم يكن ديمقراطي ولم يخضع إلا لقوانين الدين .

*** هل كانت مبادئهم إذن مثالية؟**

- كانت روحية مثالية.

*** هل كان نظامهم نظام عدالة؟**

- نعم ، بمقياس ذلك الزمان .

* هل كانت علاقاتهم تمثل طاعة لرجال الدين؟

- نعم.

* ماذا يشبه تجمعهم إذن لمستوى دولة؟

- كان تجمعهم تجمعاً طائفيًا دينيًا.

* ما أثر فلسفتهم المثالية على طريقة تصريف شؤونهم الدنيوية؟

- كانوا يعيشون وسط أقوام غريبة وحكام من أنماط مختلفة ، ولهذا فقد أثروا بالطوائف الأخرى وتأثروا أيضاً ، وكانوا يحافظوا على استقلاليتهم دائماً.

* إذن فإنهم لم يعيشوا حياة منزوية مثل الآخرين؟

- نعم ، كانوا أقلية دائماً وعاشوا في حماية الأكثرية ولم يختلف الأمر إلا في حالات الخطر فقط.

* هل كانت لهم مجالس استشارية يتداولون فيها أمور حياتهم؟

- طبقة رجال الدين كانت هي الطبقة الاستشارية.

* ألم يفكروا ببقائهم والدفاع عن أنفسهم عند حلول الخطر؟

- لم يفكروا بذلك ، بل كانوا مسالمين لا يؤمنون بالحرب ولا سفك الدم.

* هل كان لديهم تنظيم عسكري من نوع ما؟ وهل كانت لديهم أسلحة كما

تقاليد ذلك الزمان؟

- كلا.

* إذن هل كانوا مطمئناً سهلاً للأقوياء؟

- نعم.

* هل كان لديهم بيت مال يعودون إليه عند الحاجة؟

- نعم ، لديهم بيت مال للطوارئ تحت مسؤولية رجل الدين الأعلى.

* كيف كانت تسير أمورهم الدينية والحياتية؟ هل كانت اشتراكية؟

- نعم.

* مذكرات مندائية... بقلم : غضبان الرومي



يقال إنني ولدت في السنة التي شبت الحرب فيها بين عشائر بني لام وعشائر البو محمد ، وكان رئيس عشائر بني لام آنذاك غضبان البنية ، وعشيرته كانت تسكن بين كحلاء والعمارة ، في تلك الحرب ولدت ولما كان غضبان هو الغالب فقد سماني بهذا الاسم والدي المرحوم رومي بن عكلة بن عران بن خيرى بن ناشى بن عبد الله ابن الشيخ بهرام الكبير ، وبعد التدقيق ثبت لي أن تلك الحرب وقعت عام ١٩٠٥ ، على هذا يقدر أن ولادتي كانت في تلك السنة...

سكن الصابئة قلعة صالح التي أسست عام ١٨٦٥ وفي العمارة التي أسست عام ١٨٦٠ ، كانت الأحوال مضطربة ويتحكم بأمور المجتمع شيوخ العشائر الذين كان نفوذهم يطغى على نفوذ الحكومة العثمانية هناك ، كبرت في قلعة صالح وترعرعت هناك وأول أمر أذكره ورسخ في ذهني هو زواج أختي الكبرى المرحومة نوفة من المرحوم شيخ عبد الله الشيخ سام ، وقد كانوا يسكنون في بيوت طينية واقعة بين دجلة وبين بساتين النخيل المحاذية للنهر ، كانت الحالة الاجتماعية للناس متأخرة جدًا والمعيشة بسيطة.

كانت العملة المستعملة هي نقود إيرانية اسمها القران الذي يساوي عشرين فلس والربع والبارة أي الفلس والربع خمس بارات وكانت هناك عملة تركية تسمى المجيدي وقيمتها عشر قرانات.

سكن الصابئة قلعة صالح وقد أعطت الحكومة العثمانية أرض محلة الصابئة الحالية إلى عائلة كرسوع وهو من الخميسية ، وبدأ كرسوع بتوزيع أراضي المحلة على أبناء الصابئة، وكرسوع جد والدي لأنه أبو أمه صينية، كان يسكن قلعة صالح كثير من المسلمين الذين هاجروا إليها أيضاً، وكذلك عدد من يهود العزير ، وسكان قلعة صالح محاطون بعشائر البو محمد وبني مالك ، وهؤلاء الأقوام لا يعرفون من الحياة إلا الزراعة والسطو والنهب ليلاً، وكثيراً ما كان الناس يقتلون في الشوارع بدون حساب أو مسؤولية ، ولم تكن القائمقامية ولا الحكومة التركية الممثلة بالجندرية تهتم بما يقع بالبلدة ، كانت معيشة الحكام على الرشوة...

سكن أهلنا في محلة خاصة من قلعة صالح سميت محلة الصابئة ، على الضفة اليسرى من نهر دجلة ، والنهر هناك كثير التعاريج ، وكان أفراد طائفة الصابئة يحيون حياة بسيطة ملتصقين ببعضهم البعض خوفاً من هجمات أو دفعاً لهجمات العشائر المحيطة من كل جانب.

كنا نعيش أول الأمر في بيوت قصبية داخل حيطان من طين ، وهذه البيوت مبنية من قصب الأهوار وحصران البواري مصنوعة من القصب أيضاً ، يغطي بها البيت من أعلاه بما هو شبيه بأكواخ الأهوار حالياً ، (ويشرح هنا طريقة البناء من الهطر والشباب والبواري)...

في بيت والدي كان هناك بيت قصب كبير يستعمل للنوم ، والثاني يسمى المضيف لاستقبال الضيوف ، أما الحيوانات فتحفظ بعيداً عن بيوت القصب ، كان يعمل من فضلات البقر (المطال) وهي أقراص كبيرة تجفف وتستعمل كوقود بالإضافة إلى سعف النخيل والكرب ، وكذلك الشوك الذي تلتقطه النساء

من البرية، ولم يكن هناك وسائل للتدفئة أو للطبخ من وقود آخر غير ما ذكرت ويستعمل هذا الوقود إما في التنور لعمل الخبز أو في المواقد لطبخ الطعام، يصنع التنور من الطين المخدوم كثيرًا، والنساء يقمن بصنع التنور بأنفسهن كما يصنعن السدانة وهي أصغر من التنور حجمًا، ولها غطاء وتستعمل لحفظ التمن أو الطحين أو الملح.

(١٨٧١ - ١٨٠٠):



هو سنيچر بن عامر بن ناصر بن عزيز بن عبد الأحد بن سبتي بن معن بن زهرون ، شخصية مندائية شعبية مشهورة ذاع صيته بين الناس لكونه صاحب كرامات ، وتنبأ بما سيحصل بالمستقبل ، وكان من الذين يجيدون عدة لغات قراءة وكتابة ، إذ علم نفسه بنفسه وقد اطلع على كثير من الكتب الدينية للأديان السماوية ، وكان له مركز اجتماعي وديني مرموق في عصره... هذه قصيدة من قصائده الشعبية المشهورة ، كتبت باللهجة المحلية السائدة في زمانه ، ينورنا فيها بمعلومات تحققت بعد سنين من وفاته ، يتنبأ فيها ما سيحصل في قادم السنين . كتبت القصيدة باللهجة التي يفهمها الناس في زمانه في جنوب العراق والأهواز ، اشتهرت القصيدة وتناقلها الناس جيل بعد جيل ، واشتهر معها ناظمها سنيچر لأنها ذكرت أحداث مستقبلية كانت في علم الغيب تحققت ، ولربما أضاف لها الناس عبر القرنين الماضيين شيئاً بعد أن تحقق الحدث والله أعلم ، المهم أن سنيچر أحيط بهالة من الكرامات وعلم الغيب وقراءة الطالع ومعرفة

المستقبل ، كان رحمه الحي العظيم كما تذكر لنا الأخبار المنقولة بين الناس واسع المعرفة يذكر لنا أحداث لم تحدث في زمانه ، وإنما حدثت بعد وفاته بسنين طويلة ، نذكر منها بعض الآيات كما وردت عبر الأجيال من الناس :

أخبركم خبر يصعب عليكم
نظمتهم من علم ومن خبره^١
أخبركم أنا يا (حاي)^٢ ما جل
يضعفه دينكم في آخر داره^٣
يضعفه دينكم في حكم (عيسى)
وكلها تصير في حكمه نصاره^٤
ويبكيكم زمن يكفينه الله شره
بيده الجار ما يأمن بجاره
وتحصل حرج ثمان سنين كوامل
وتهتز الأرض ومن السماء تنزل النار^٥
وبالهواء تطير العديدة مثل الطير
ومن ذيلها تطلع نار وشراره
وبعدا تنتهي معزة كبيرة
وتنطفئ في ناره بلمح الأبصار^٦
ونأمل بالسلم والكون يبطل
والكن فالنار يغيب بخساره

-
- ١ - الأخبار.
 - ٢ - يا لمنداني (الصابنة).
 - ٣ - مرحلة.
 - ٤ - نصاري.
 - ٥ - النار.
 - ٦ - البصر.

ويأتي من الغرب قوم أوغند
 كلهم كفار وأكبر كفراره
 مبرين بعد الفين خشبه^١
 ومثلها الفين تحميهم بالبحاره
 ويخربون الأرض شرقاً وغرباً
 ونخسر بالحرب ياماً خساره
 وتغرب أرض بابل من منابتها
 وتغدي ديارها سود العباره
 ويغرب أرض واسط وبغداد خلفه
 وشط النيل ما تلتفه خبراره
 أيا ويل البصيره ثم يا ويل أهلها
 تـدـخلها بدو تـدـمرها دماره
 ويبقى قليل من بعض الغيارى
 ولا يبقى نفر عاد من يعطى أخباره
 ويعم القط في بلد بابل
 ويصير الخبز في لون الغباره
 ويقل (الأبيضين) بـلـ منـزل
 وحتى الملح من إيران طاره
 وبعد ما يظهر صرافه ظاهر
 ويصرفه كل مايات الأهمواره^٢

١- باخرة.

٢- الأهوار.

و من (المنذ)^١ يظل سبعون و احد
 اعميون امسره و يطيح داره
 و يظهر بظاهيل^٢ بصيوان من ذهب
 ولا يجد للداي اي اخباره
 ولا واحد تشوفه من غير جنسك
 و تصير الداى كلها بعز و يساره^٣
 هذا ما بان عندي في كتاي
 مؤيد مؤرخ منقط باليساره

١ - المندانيين.

٢ مللا لاري.

٣ - يسر.

في ضيافة الشباب... الأستاذ زهرون وهام سام^١



كانت ولادته عام ١٩١١ في قضاء قلعة صالح الواقعة على الضفة اليسرى لنهر دجلة من محافظة ميسان، تخرج في دار المعلمين سنة ١٩٣٧ وخدم العلم والتعليم سنوات طوال في الأرياف والنواحي من محافظة ميسان وبغداد، تقاعد سنة ١٩٦٨، عشق ديانته منذ الصغر وقدم الكثير من المحاضرات القيمة عنها. ذلك هو الأستاذ زهرون وهام سام، رحب بي كثيراً واستقبلني فرحاً فبادرته بسؤال سريع...

* متى بدأت علاقتك بالديانة المندائية؟

- لم أجد ما يؤخره عن الإجابة فقال منذ الطفولة عاشرت أعمامي وهم رجال دين ومنهم الشيخ عبد الله والشيخ فرج وهم من قلعة صالح، وكنت مهتم بالديانة المندائية أتابعها بشغف، وساهمت في تكريس الشيخ فرج والشيخ سام

١- أجرى الحوار أسعد خماس.

والشيخ جبوري ، وآخرون كما قمت بجمع التبرعات لبناء المندي ، وحصلت على تكريم المجلس الروحاني عام ١٩٨٥ وتكريم مجلس الشؤون عام ١٩٩٧ ، وقدمت محاضرات عديدة عن الديانة المندائية.

* سنوات الشباب كيف كانت؟

- لقد كنت متعب بسبب وفاة والدي المبكرة ، ولكني كنت اجتماعي التقى أناس كثيرين ساعدني ذلك تعلقي بالديانة المندائية وكوني "شكندة" آنذاك ، وأبرز ما أذكره عن شبابي مساهمتي في عام ١٩٢٨م في عمل طقوس (المسخة) لبعض الصابئة في إيران الذين توفوا بسبب حاث انفجار البارود المتبقي من الحرب العالمية الأولى وكان ذلك مع الشيخ رومي والشيخ دخيل والشيخ عبد الله والشيخ سام ، وآخرون (رحمهم الله).

* ما رأيك بشباب اليوم؟

- أجده متحمس للقضايا الدينية وأنا أعتز بهم كثيراً ولقائي محدود بهم بحكم كبر السن.

* إذا ما الفرق بين شباب الأمس وشباب اليوم؟

- جيل الأمس كان متحمساً للقضايا العلمية بصورة صحيحة وبعضهم كان لامعاً كأستاذ غضبان رومي رحمه الله والأستاذ نعيم بدوي والأستاذة ناجية مراني ، أما شباب اليوم فهم متحمسون للديانة المندائية ولكنهم لا يجدون من يعطيهم المادة المطلوبة.

* بماذا تنصح الشاب؟

- أنصحهم بالقيم والأخلاق التي أوصت بها ديانتنا كثيراً ، كالإيمان والوفاء والإخلاص والتعاون والمحبة إضافة إلى الاهتمام بالقضايا الدينية.

* كيف تنظر إلى الزواج وما هي أسس نجاحه برأيك؟

- الزواج هو سر الحياة وسنة الحياة تدعونا إلى الزواج وإنجاب الأطفال وتكوين عائلة والتعارف بين الأهل والزوجين يساهم في تحقيق الانسجام

والتفاهم للآزمين لإنجاح الزواج، وأدعو هنا بعض العوائل المندائية إلى نبذ المغالاة في المهور وعدم إقبال كاهل الشباب في الأمور المادية لصعوبة ظروف الحياة، فالبحت عن أخلاق الشخص ورجولته وعائلته أهم من المادة.

*** ما هي علاقتك بالدكتور عبد الجبار عبد الله؟**

- الدكتور عبد الجبار هو ابن عمي، وكنت ألتقيه عندما كان يسكن قربنا في ميسان، ولكنه انتقل إلى بغداد وبعدها انشغل بأسفاره وبحوثه الكثيرة التي قدم من خلالها الكثير للعالم.

*** كلمة أخيرة؟**

- أنا ضد الهجرة لأن العراق بلدنا الأم الذي سكن فيه أجدادنا منذ آلاف السنين، وأشكر مجلة المندائيين وأتمنى لها دوام التطور لأنها صوت الطائفة، وشكرًا لكم ثانية.

غادرته بعد أن شكرته على منحه لنا الوقت الكافي لإجراء اللقاء وعلى حسن ضيافته لنا.

حيدر جودة رعيد : ٥٦ عام في خدمة أبناء الطائفة

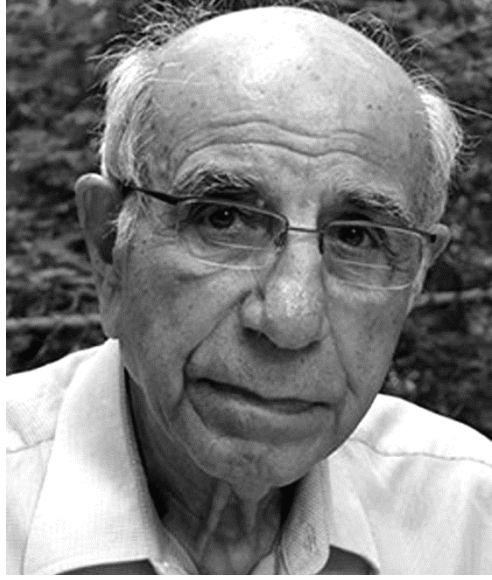
هو حيدر جودة رعيد سواد ، ولد عام ١٨٩٥ وعين مختار لمحلة الصابئة في سوق الشيوخ عام ١٩٣٢ براتب (ثلاث ربيات) لأن العملة العراقية لم تكن متداولة آنذاك... كان هذا الرجل يعمل بلا كلل وبشهادة جميع أبناء المحلة يتابع ويراجع الدوائر الحكومية لتوفير متطلبات أبناء محلته ، لقد كان يتخذ من الوجوه الاجتماعية البارزة في المحلة مجلس استشاري غير رسمي يتشاور ويتداول معهم في شؤون الملة ، وكيفية الحصول على مكسب لإخوانه وكانوا يتعاونون معه في جهوده ومسعاها.

أذكر من هؤلاء الأخيار ممن تفاهم الله عنبر فارس وورد عنبر وفلاح عنيسي و خليل مكطوف وخزعل غلاب وخضر جاسر وضاييف عوفي وعبد سالم وجعاز كناد وعبد مشعل وعودة شويح وحنظل براك رحمهم الله جميعاً ، واعتذر عن نسيان الآخرين ، ومن الأحياء كل من السيد شامي جايد والأستاذ المحامي طالب بدر الجادر والأستاذ المربي الفاضل ورد شجر منخي.

كان المرحوم حيدر جودة كثير التواجد في الدوائر الحكومية يطالب ويراجع لتتوفر المحلة بالكهرباء حتى تمّ ذلك عام ١٩٤٥ عبر كيبل مرر تحت الماء ، ثم بدأ بالمطالبة بتأسيس مدرسة مختلطة ، وفعلاً تأسست باسم مدرسة القادسية المختلطة ، وطالب بمركز صحي وتأسس ولا يزال موجود ، كما أنه كان يسعى لتحديد ملكية أبناء المحلة في دورهم التي لا تزال ملكاً مشاعاً للآن.

ويضاف إلى كل ما تقدم فقد كان حيدر جودة يحث إخوانه الصابئة المندائيين للتعايش والتعاون والمجاملة مع جيراننا وإخواننا المسلمين ، وذلك بالمشاركة بأفراحهم وأتراحهم ومناسباتهم الدينية ، كما كان يتوسط في حل الخلافات والمشكلات التي تحدث بين أبناء محلته إلى أن توفاه الله عام ١٩٨٨ بعد ستة وخمسين عام في خدمة طائفته وبكران ذات ، رحم الله ذلك الرجل المتفاني.

المناضل والفنان والمؤرخ الجليل عزيز سباهي



أقامت الجمعية المندائية في ستوكهولم احتفالية في التاسع عشر من آذار احتفاءً بذكرى عزيز سباهي ، وبحضور عدد كبير من منظمات المجتمع المدني والمندائية اكتظت بهم القاعة...

بعد الوقوف دقيقة حداد على روح الفقيد وأرواح شهداء الحركة الوطنية العراقية ألقى الكلمات بحق الفقيد منها كلمة رئيس الهيئة الإدارية للجمعية، أكد فيها على استمرار نهج الجمعية بأحياء ذكرى الشخصيات الإبداعية العراقية والمندائية. ثم تحدث عن الفقيد مشيراً إلى أنه قامة عراقية قل نظيرها بالعطاء والإنجاز من أجل وطن حر وشعب سعيد ، ثم قرأت برقية الأستاذ فؤاد معصوم رئيس الجمهورية العراقية ، ونعى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ، بعدها عُرض فيلم وثائقي يتحدث عن أهم محطات الراحل عزيز سباهي من إعداد وإخراج الأستاذ عدي حزام عيال وإنتاج الجمعية المندائية في ستوكهولم.

رئيس تحرير مجلة الثقافة الجديدة الدكتور صالح ياسر تحدث عن مسيرة الفقيه النضالية ، وكلمة منظمة الحزب الشيوعي العراقي ، ثم ألقى الدكتور صلاح السام قصيدة بعنوان "يا دار أهلي" مطلعها (يبو سعود الوطن يرثيك عزيز الأهل يسباهي... أرشيف الحزب بو سعود... حزبك بيبك متباهي)...

ثم كلمة جمعية زيوا المندائية وكلمة الدكتور عقيل الناصري وذكرياته عن الفقيه في الجزائر ، وقرأ عريف الحفل قصيدة الشخصية التقديمية المعروفة سعدي جبار مكلف خص بها الاحتفالية "ما أرثى عزيز ، الموت يخسه الموت... منهو الجفنه ومنهو الحمل تابوت"...

الأستاذ فوزي صبار قدّم عرضاً عن (أصول الصابئة المندائيين) وهو من أهم المؤلفات التي صدرت عن المندائية ، كلمة عائلة الفقيه ألقاها شقيقه عبد الإله الذي قاسمه حياة الفاقة والمعاناة ، فكانت كلماته لها طعم آخر ، تناول فيها محطات من حياة الفقيه ومسيرته النضالية الطويلة التي امتدت لسبعين عام كرسها وعائلته لخدمة قضية الشعب العراقي...

ثم جاءت كلمة ابن الفقيه المهندس زياد كلمات من ذهب سطرها وفاء لوالده الراحل ، بعدها ألقى المهندس فهيم عيسى السليم قصيدة مسجلة ، واختتم عريف الحفل الاحتفالية بالكلمات التالية : (هنيئاً لك فقيدنا الراحل عزيز سباهي ، بهذا التاريخ المشرف الذي لا يمكن اختصاره بساعتين ، فهو تاريخ طويل ، ازدهم بالكثير من المنجزات النضالية والفكرية والثقافية والاجتماعية ، وحتى المندائية في البحث والتأليف ، فكلها جعلت منك علماً عراقياً باستحقاق ، علم تجانست ألوانه الوطنية والإنسانية والمندائية والفكرية والفنية ، بلون واحد جميل ، اسمه عزيز سباهي...

وهنا يكمن سر اعتزاز من تعرف عليك أو من رافقك مسيرتك الوطنية ، أو عمل معك أو تعرف عليك وصادقك... أما الاعتزاز المتميز لأبناء طائفتك بك ، فلأنك أعطيت الهويتين ، هويتك الوطنية الإنسانية وهويتك المندائية لتؤكد بذلك

أن الشيوعي هو أول من يهتم ويحافظ على تقاليد وتراث شعبه بكل أطيافه وألوانه، فنكرر هنيئاً لك أيها الرجل الكبير يا (صاحب المواهب المتعددة)، أينتها القامة العراقية الشامخة، فإنك لن تمّت وستبقى خالداً والخالدون أحياء مدى الدهر...

ناجية غافل المراني :



وصفها المنصفون أنها مندائية أصيلة وأنها رائدة المبدعات المندائيات ، وأنها قدمت عطاء متميز لأبناء طائفتها ، فغدت قدوة لكل النساء المندائيات ، لأنها أصبحت إحدى المراجع في الأدب والدين واللغة ، لقد كرمت المربية الفاضلة ولكن تكريمها هو حب الناس لها وتقديرهم وامتنانهم لعطائها المتميز ، إنها رمز المرأة المندائية المتميزة.

تحية إكبار وإجلال للرائدة المبدعة الأستاذة ناجية وستبقى منار نهدي به ونجم لامع في سماء المعرفة ، قالت إن في الدين المندائي كنوز أخلاقية تهدف إلى رقي الإنسان ، جسدها في كتاباتها ومؤلفاتها وترجماتها وأشعارها.

ولدت الراحلة في محافظة العمارة عام ١٩١٨ ، وفيها أكملت دراسة الابتدائية والثانوية ، وتخرجت من دار المعلمات في بغداد عام ١٩٣٥م... فشغلت منصب معلمة ومديرة مدرسة لمدة ٢٧ عام ، واصلت دراستها بعد التقاعد عام ١٩٦٣

فحصلت على البكالوريوس من بغداد ، وعلى الماجستير في الأدب الانجليزي من الجامعة الأمريكية في بيروت.

كانت ناشطة في مجال البحث والتأليف ؛ فأصدرت كتاب (بين العربية والانجليزية كلمات متناظرة) عام ١٩٧٨ ، وكتاب (الحب بين تراثين) عام ١٩٨٠ ، وكتاب (آثار عربية في حكايات كنتر بري) عام ١٩٨١ ، وكتاب (هنا بدأ التاريخ) مترجم عام ١٩٨٠ ، وكتاب (مفاهيم صابئية مندائية) عام ١٩٨٢ ، وكتاب (كلمات عربية انجليزية دخيلة) عام ١٩٩٠ .

وهناك الكثير من البحوث والمقالات والمقطوعات الشعرية نشرت لها في الصحف المحلية والعربية ، وساهمت في الندوات وألقيت محاضرات ، الرحمة والمغفرة إلى المربية الفاضلة ناجية المراني ، ودعائنا أن يكون مثواها عالم الأنوار.

يوسف سالم بنحيتان (أبو عبد الواحد) :

رجل كَيِّس يملك من الحكمة والمعرفة والمعلومات الدينية الشيء الكثير ، كان مقرباً جداً من الكنزفرا نجم زهرون رواه ناديله ، ويتشاور معه في كافة الأمور الدينية والاجتماعية ، كان الرجل يفهم كثيراً في الفراضة بين الأطراف المتخاصمة ، وقد استعان بخبرته عدد من شيوخ العشائر وخاصة الشيخ محسن الدنبوس شيخ عشائر جنانه في جنوب العراق ، وقد رافقته بالحضور في مجالس كبيرة في عشائر جنوب العراق وخاصة في البصرة والعمارة ، وكان حكيماً دقيقاً صادقاً أميناً مصيباً في آرائه وطروحاته ومناقشاته وأحكامه التي يحترمها الجميع ويلتزم بتنفيذها رؤساء العشائر .

عندما يجلس للفراضة بداية يشترط على الأطراف المتخاصمة أن يتعهدوا أمام الجميع بتنفيذ ما يفرضه عليهم من حكم ، ثم هناك من يكفلهم بتنفيذ الحكم ودائماً يكون رئيس عشيرة أو رجل دين أو شخصية لها قيمتها ووزنها في القرية أو العشيرة... وكانت أحكامه مقنعة ومرضية لأنها مبنية على الحق والعدل والصدق والأمانة.

وحدثني مرة قال إذا تخاصم شخصان وأردت أن تحكم بينهما ، فإن كانا مختلين عقلياً فاقسم عقلك بينهما ودعهما يتفاهمان ، وإذا حصل خلاف بين عاقل ومجنون ، فأعطى نصف عقل العاقل للمجنون ، ودعهما يتفاهمان ، والمشكلة إذا كان الاثنان عاقلين ؛ فأجاب: العقلاء لا يحتاجون لمن يحل مشاكلهم لأنهم عقلاء يستطيعون التفاهم.

قال لقد تعلمت الفراضة من حكيم زمانه رجل اسمه عريب العُربة ، كان له مجلس كبير في عشائر العمارة تأتية الناس من كل صوب وحذب ، وكان لا يخطئ الحكم والفراضة ، فكانت العشائر تستشيريه في كل صغيرة وكبيرة ، وكان هذا الرجل موضع احترام وتقدير أهل زمانه.

ولد أبو عبد الواحد رحمه الله في ناحية المشرح (الحلفاية) في حاضرة العمارة سنة ١٨٩٥ وتوفي في سنة ١٩٧١ في مدينة البصرة محلة الجمهورية في لاین الصبة، كان له مجلس في محلة الصبة يتردد عليه عدد من أصدقاءه والمعجبين بفطنته وحلاوة أحاديثه وحكمته، وكانوا يجلسون في أمسيات الليالي يتسامرون ويرشفون فناجين القهوة العربية التي كان يعملها بعناية بيده رحمه الله...

لازلت أذكر الهاون الكبير المصنوع من المرمر الجوزي الفاتح والمنقلة الكبيرة ومقلاة القهوة وأنواع الدلال ورائحة الهيل وطعم القهوة الفواح، ولازلت أحفظ عنه كثير من الحكايات الجميلة الطريفة التي لا تخلو من حكمة وموعظة وعبرة من عبر الحياة، لقد كان كريم النفس يجود بما يملك من مال بسيط ودائمًا يحب أن يشاركه طعامه الآخرين، ويكون في غاية السعادة إذا قدموا عليه ضيوف، إنها أيام زمان... أيام الخير والبركة والكرم والأمان رحم الله أيام زمان.

المهندس حامد نزال السعودي :

هذا المندائي الغيور ولد في قضاء سوق الشيوخ من حاضرة الناصرية عام ١٩٣٩ ، وأكمل دراسته الابتدائية فيها ، وأكمل المتوسطة والإعدادية في مدينة البصرة ، كان رحمه الله يهوى الأدب وله إصدارات جميلة في القصة والمسرح.

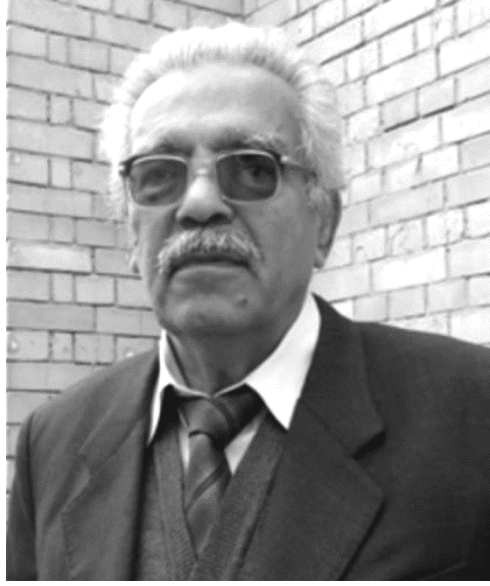
حصل على الشهادة الأولية الجامعية في هندسة الميكانيكا من إنجلترا ، تطوع في القوة الجوية العراقية برتبة ضابط مهندس واختص في هندسة الطائرات ، وكان من المهندسين المبدعين الذين عملوا بجدٍ وتفانٍ في بناء القوة الجوية العراقية ، تدرج في الرقبة والمناصب وقاد جناح القاصفات بكفاءة عالية برتبة عميد مهندس ، كان يواصل الليل بالنهار لتدريب المهندسين والفنيين على الطائرات النفاذة المتقدمة تكنولوجياً.

إضافة لواجباته عمل في مؤسسة البحث العلمي في مجال الطاقة الشمسية ، هذه الجهود وهذه المسؤوليات الكبيرة أصيب بذبحة صدرية تطورت مع الأسف ، أجرى على إثرها عملية جراحية في القلب ، اضطر لمغادرة العراق إلى هولندا واستقر وعائلته هناك ، إلى أن وافاه الأجل رحمه الله.

لقد كان أبو سام عضواً فاعلاً في المجلس الروحاني الأعلى في بغداد ، وكان من المفكرين والناشطين ، وفي هولندا أسس أول جمعية مندائية ، تطورت مع الوقت إلى الفدرالية المندائية في هولندا التي تضم عدداً من الجمعيات المندائية ، وانتخب أبو سام رئيساً لها ، والتي مازالت قائمة حتى الآن يقودها أخوه الأستاذ مانع نزال السعودي بكفاءة واقتدار .

ألّف كتاباً أسماه (حقيقة الصابئة المندائيين) كبحث موسع في ٥٤٤ صفحة في تاريخ أمة حاضرة منسية.

أ. د. طالب مهدي الخفاجي :



كان معنا عضواً فاعلاً في المجلس الروحاني الأعلى لطائفة الصابئة المندائيين، وكان رحمه الحي العظيم ذا شخصية لها حضورها وفكرها النير وقرارها الأمين الصادق ، أستاذ الفيزياء المتمرس... ذو هيبة ووقار ومنطق يسر السامع، وآراءه صائبة ومقنعة لجميع أعضاء المجلس ، له مؤلفات عديدة في علم الفيزياء، وكتب في الخيال العلمي، زرتة في بيته في بغداد محلة السيدة فأعجبت بمكتبته العامرة التي تضم أمهات الكتب العلمية، وأعجبت بمؤلفاته العديدة.

ساعدنا نحن اللجنة المشرفة على ترجمة كتاب الكنزا ربا بحصولنا على نسخ قديمة من الكنزا ربا من مكتبة المتحف العراقي، وكنت أينما أذهب برفقته في حينها نجد تلاميذه وزملاءه في المراكز العلمية يقدمون لنا المساعدة والخدمات وينادونه بكلمة أستاذي، تقديرًا وإجلالاً واحتراماً...

نحن عدد من أعضاء المجلس الروحاني الأعلى شكلنا في وقتها مجموعة لتطوير عمل المجلس من الأساتذة البروفسور طالب الخفاجي والبروفسور صبيح مدلول ، والأستاذ الدكتور رفعت لازم والدكتور أنيس زهرون ، وأنا المتحدث د. بشير عبد الواحد ، وفعلاً باشرنا بعدة لقاءات أخوية ومناقشة أفكار تخدم العمل المندائي ، بعدها قررنا أن يكون العمل جماعي يشمل كل أعضاء المجلس الروحاني الأعلى.

وفعلاً انتظم الجميع بعمل موحد تمخض عن صدور نظام داخلي جديد وتشكيل ثلاث مجالس فعالة ؛ (مجلس شؤون عام ، مجلس عموم ، مجلس روحاني) ، وإجراء انتخابات جديدة ، ووضع خطة عمل لإنجاز مشاريع نوعية للطائفة أسفرت عن ترجمة كتاب الكنزا ربا وتعاليم النبي يهيا يوهانا ، وبناء مدرسة مندائية ، واستحداث المحكمة الشرعية المندائية ، وتأسيس مركز لدراسات وإصدار مجلة آفاق مندائية ، وأعمال كثيرة لا مجال هنا لذكرها.

ديري السبتى - أول مختار لمحلة الصابئة المندائيين في سوق الشيوخ محافظة ذي قار الآن ، كانت في النصف الأول من القرن الماضي ، تسمى (لواء المنتفك) ، والمنتفك مجموعة كبيرة من العشائر يتصدرها (آل السعدون) أجداد رئيس وزراء العراق (عبد المحسن السعدون) ، كما أن ناصر باشا السعدون هو الذي بنى مدينة الناصرية.

كان المنتفك وبتحويل من السلطة العثمانية يهيمنون على المنطقة الجنوبية من العراق ، وكان لهم وكيل اسمه (نجي العودة) يسكن قريباً من سوق الشيوخ ، وكان متسلط ظالم على الأهالي ، لا سيما أبناء محلة الصابئة المندائيين حتى أنه اختطف فتاة وتزوجها رغماً عنها وعن أهلها.

كان (نجي العودة) يدعي أنه لآل السعدون حصة في طابو المحلة هي (١٦/١) أو كما كان يقول لهم نصف الثمن) ، ويطالبهم بدفع مبلغ سنوي كإيجار يضطر أبناء المحلة أن يجمعوه بصعوبة.

كان المرحوم (ديري السبتي) أول مختار معين للمحلة ، وكان مدافعاً مخلصاً عن أبناء محلته ، يناقش الوكيل (نجي العودة) ويعترض على قراراته الظالمة وذلك طبعاً لا يروق للوكيل المتسلط ، فتآمر على قتله ، حيث أمر رجاله أو عبيده أن يغتالوا ديري وهو في فراشه كما سمعنا هذه الرواية من أهلنا المندائيين ، فكان المرحوم ديري السبتي ضحية لدفاعه عن إخوانه المندائيين .

جاء من بعد ديري المختار (منحوش السبتي) تلاه المختار (عبد الخضر السبتي) ومن بعده (حيدر جودة السيفي) لمدة طويلة من ١٩٣٢ إلى وفاته ١٩٨٨ ، آخر مختار هو السيد سمير نعمان عيسى البدري المهناوي الموجود في مالمو الآن .

أبوجبار (ياسر صكر الحيدر) :



لن أصدق... مرّ أكثر من عشرين سنة على رحيل طيب الذكر "أبو جبار؛ هذا الرجل المهيّب في شخصيته الفذة، ولباسه المتميز وهدوءه وعنايته الفائقة بلحيته وشواربه، وكأنه أمير من الأمراء، كان رواه ناويّلة معلماً من معالم شارع النهر يمثل التراث المندائي بأبهى صورته، بمحله الكبير، بمقتنياته التراثية الفاخرة التي تعبر عن تراث بلاد ما بين النهرين وعن المهارة الفائقة للمبدعين المندائيين في فن الصياغة والمينا وصناعة الدلال والسيوف والخناجر وتخليد الآثار العراقية ونشرها في العالم عن طريق السواح المنبهرين بجمالها ودقة صناعتها، وحبهم لحضارات وادي الرافدين.

لقد كان محله عبارة عن متحف صغير يضم مقتنيات نادرة تنتشد بحب العراقيين وحضاراتهم وآثارهم البديعة، هذا المتحف الجميل يكمله قسم آخر جميل يشرف عليه نسيبه خليل عبد الجبار الحيدر، وفي الركن الآخر ولده الفنان ناجي رحمه الله، وفي ركن آخر الصائغ المتميز ولده الأصغر نزار، حقاً إنه متحف من عدة أقسام بضاعتها مختارة بعناية ودقة وأصالة، لم

يعرضوا يوماً بضاعة مستوردة في متحفهم ولا بضاعة جملة لغرض الكسب السريع، ما يعرضون إلا ما صنعت أياديهم وأيادي عمالهم المهرة...

وعندما قرر ولده نزار أن يفتح محلاً للذهب في فندق فلسطين ميريديان، كان محلاً نوعياً لا يوجد نظيره في بغداد، معرض أبهة راقى بكل المقاييس، ديكوراته، أثاثه، فاتريناته، معروضاته... كل شيء متميز حتى القهوة التي تقدم للزبائن والضييف متميزة، حتى النادل الذي يصنعها ويقدمها شخصية متميزة، حقاً متحف ذهبي كنا نتباهى به، وكنا كمسؤولي طائفة في حينها نلتقي مع الضيوف في هذا المحل الراقي.

مازلت أذكر يوم وداع أبي جبار رواه ناوية من بيته الكبير، لقد تجمع المندائيون من كل صوب وحذب فكان وداعاً مهيباً توفرت فيه كل المستلزمات الدينية، لقد كان دكتور جبار ابنه البكر متماسكاً يدير الأمور بكفاءة وحكمة، ولكن ولده ناجي لم يتمالك نفسه فأجهش في البكاء لأنه صديقه وأبوه ورافقه من الصبا، فعز عليه هذا الموقف الجلل، كان نزار في تركيا في حينها، ولكننا إخوته في مجلس الشؤون كنا كلنا نزار، إنها حقاً ذكرى عطرة خلدها أولاده وبناته في الثالث والسابع ودورة السنة ولا ننسى طعم رطب نخلات البرحي التي زرعهما الراحل بيده في حديقة الدار...

والآن وبعد عشرين عام مضت الكل تذكر أبا جبار بكل إجلال واحترام، إنه الوفاء وردّ جزء يسير من الجميل للتربية وبناء الأساس الراقي، وتخليداً لذكراه العطرة التي من حقكم أيها الإخوة والأخوات أن تفخروا وتتباهوا بها، إلى جنة الخلد أبا جبار (ياسر صكر الحيدر)، وأنت يا آدم يهانة بر سيمت مع الأصفياء في آلمة دهنورة تحيا بلا أوجاع ولا أمراض ولا موت ثاني، حياة أبدية مع آبائك الأولين الذين وهبوك النشمتا من الدموثا وإليه عدت بعد أن تركت في هذه الألمة ذكرى عطرة يفتخر بها أولادك وأحفادك ومحبيك.

مكلف سوادي (أبو قاسم) :

ولد في ناحية المشرح (الحلفاية) في حاضرة العمارة، أب لثلاثة أولاد وبنتين، أولاده مدرسين ومعلمين في ذلك الزمان، ولد سنة ١٨٧٧ وتوفي سنة ١٩٧٨.

كان رجلاً هادئاً وقوراً قليل الكلام، يشتري الكلام ويصغي للحديث ولا يبيع منه إلا القليل، كان يحفظ الكثير من الأمثال والمواويل والأبودية ويدندن بها مع نفسه، عمل في مهنة الصياغة مع شقيقه الأصغر مهتلف أبو غريب لسنين طويلة، ولم يختلفا يوم واحد على أمر، كان معروف عنه أنه يذهب إلى جراج السيارات ليصطاد الضيوف ويأتي بهم للبيت يتسامر معهم ويكرمهم ويهتم بهم.

لقد كان يهتم بالضيف الفقير أكثر من اهتمامه بالضيف المقتدر، وعندما سأل عن سر ذلك قال هذا الفقير إن أكرمته وقدمت له طعاماً فاخراً وكسوته يتحدث بهذا الكرم أينما حل وأينما رحل، بينما المقتدر صاحب المال مهما قدمت له من طعام وكساء فهو عنده أحسن منه، ويعتبر ذلك أمراً عادياً لا يستحق الحديث، هذا محتاج للحديث الجميل والكلمة الحلوة والموعظة الحسنة.

أذكر في إحدى السنين كنت في زيارة لهم في مدينة العمارة، وأثناء عودتي معه من الدكان إلى البيت وكان شهر تموز عند الظهيرة والجو حار جداً... أعطاني ربع دينار وقال لي ابتع كيلوين خيار من صاحب العربانة، وسألت بائع الخيار بكم كيلو الخيار فأجاب بعشرين فلس، قلت له أريد كيلوين وسلمته الربع دينار، وأعطاني الرجل كيس الخيار وباقي المال، وعند وصولنا للبيت أعطيته باقي المال، فتعجب من كثرتها فقال هذا باقي دينار وأنا أعطيتك ربع دينار، عليك أن تعود وتعطي هذه الأموال لصاحب العربانة وتحاسبه بالمضبوط...

عدت وأمرني إلى الله سبحانه، فلم أجد صاحب العربانة وسألت عنه صاحب الدكان، قال باع ما عنده من خيار وذهب ليجلب المزيد من العلوة، وعندما

عاد سلمته النقود ، ففرح فرحاً كبيراً وقال لي: رحمة على والدك أنا دايم لا أعرف أين ذهبت أموالى... وحاسبني بالمضبوط وأعاد لي الربع دينار وأعطاني كيس الخيار بدون أن يأخذ ثمنه...

عدت للبيت وأعطيت جدي الربع دينار وقلت له أعطاني هذا الخيار ولم يقبل أن يأخذ ثمنه ، فأعطاني أربعين فلس وقال تعود وتعطيها لأبي العرانة ، وأمري لله ذهبت فلم أجد أبو العرانة وسلمت النقود لصاحب الدكان ورجوته أن يعطيها لصاحب العرانة ، وفي اليوم الثاني رأيته فسألته فقال عمي استلمت النقود أشكرك ، ولكن هذا كيس خيار هدية مني لك ، فقلت له عمي أرجوك اعفني لأن جدي لا يقبل... وأخذت منه خياراً واحدة أكلتها في الطريق ، ولم أقل شيء لجدي حتى لا يقول أعيدها له ، ولا أدري كيف أعيدها؟...

رحم الله أبا القاسم الرجل النزيه الصادق الأمين.

أول ضابط مندائي : المرحوم أسعد جابر غالي :

ولد في قلعة صالح في محافظة ميسان عام ١٩٠٨ ، دخل الملاي عام ١٩١٤ زمن الترك ، الابتدائية عام ١٩١٥ ، ووصل مرحلة الرابعة الابتدائي عام ١٩١٩ ، ثم ترك المدرسة في هذه السنة بسبب وفاة والدته ، فغادر إلى البصرة حيث اشتغل مع الصائغ (سعد رهيف).

ولما أعلن الحكم الوطني عن تأسيس الجيش العراقي عام ١٩٢١ ، وجه دعوة للشباب العراقيين للانخراط في الجيش ، دخل أسعد المدرسة العسكرية الملكية عام ١٩٢٦ ، وتخرج ملازم واشترك في أحداث ثورة مايس ١٩٤١ ، وأسر في موقع (سن الذبان) ضمن من أسر من أبناء القوات المسلحة من قبل الانجليز ، تم إطلاق سراحه بعد انتهاء الثورة ، تقلد بعدها عدد من الرتب العسكرية حتى وصل رتبة رئيس أول (رائد) عام ١٩٤٤ ، ثم أحيل على التقاعد حسب قائمة نصف الراتب بسبب جرائته وشجاره المستمر مع رؤوسائه ، لأنه كان لا يخفي انتسابه لطائفته ، ولإصراره على ذكر لقبه من اسمه الكامل (أسعد جابر الصابئي).

وافق وزير الدفاع على إعادته إلى الجيش ثانيًا بنفس الرتبة ، حيث بقي سنتين ولكنه لم يلبث أن تعرض للشجار مع الضباط ثانية ، مما أدى إلى إحالته على التقاعد عام ١٩٤٦ نهائيًا ، وبعد التقاعد اشتغل بوظائف مدنية ، فعين في دائرة الميناء في البصرة ، ومشرف في دائرة التموين في العمارة ، وزاول أعمال حرة في بغداد ، اعتزل العمل واعتكف في داره حتى وافاه الأجل عام ١٩٧٧ ، وشيع عسكريًا إلى مقبرة أبي غريب.

كان الراحل أسعد جابر رجلاً فاعلاً حتى رفاقه في الجيش كانوا يطلقون عليه اسم (أبو زناد) لشجاعته واندفاعه ، وقد شارك في المعارك التي دارت في شمال الوطن آنذاك ، ومما يروى عنه أنه كان قد حفر له موضعًا ، وكان أمره

في موضع آخر ، فطلب منه إخلاء موضعه له ، فاستجاب للأمر وجاءت شظية طائشة قضت على الأمر وسلم أسعد.

كما يروى عنه أيضًا أنه كان مدربًا للطلاب الحربيين ، وكان الأمير غازي ضمن إحدى تلك الفصائل ، فأقدم الأمير على ارتكاب أمر غير منضبط أثناء التدريب ، مما اضطر أسعد إلى معاقبته بالهرولة والزحف ، وبلغ الأمر والده الملك فيصل الذي استنكر ذلك واتصل بالضابط الأعلى رتبة والذي أوضح له أن مثل هذا الأمر يعد انضباطًا عسكريًا ، ولا لوم على الضابط أسعد ، فاقنتع الملك وأمر بتكريم الضابط أسعد لقوة التزاماته العسكرية ، ومما يذكر أنه كان يتقن اللغتين الانجليزية والفارسية...

تغمده الحي العظيم برحمته وأسكنه عالم الأنوار .

فنان مندائي: أسمر هرمز:

مضى عدة أعوام على رحيل الصائغ الفنان أسمر آل زهرون ، إذ كان قد غادر دنيانا في ٦-١٢-١٩٩٩ ، والحديث عن أسمر آل زهرون ذو شجون ، فهو فنان له شخصية واضحة وله حضوره في العراق وأجزاء من الوطن العربي وأوروبا من خلال العديد من المعارض التي أقامها ، أو التي شارك فيها .

لقد تكاملت في أسمر موهبته الشخصية وما استلهمه من بيئته الأسرية المتخصصة في الصياغة والأعمال الفنية ذات الصلة بها ، رأت عينا (أسمر آل زهرون) بن هرمز ملا خضر النور في سنة ١٩١٣ في محافظة ميسان في مسكن والده الواقع في شارع بغداد ، ولكنه نشأ وترعرع في بغداد منذ بداية العشرينات من القرن العشرين ، ففيها أكمل دراسته الابتدائية وتتلذذ على يد والده في مجال الصياغة ، حيث نهل من تراث أسرة تخصصت في فن الصياغة وتوارثتها لمدة تزيد على ٢٠٠ سنة ، وهي أول من أدخلت المينا السوداء من قبل الجد الأكبر ملا خضر الذي تعلمها خلال سفره إلى مدينة (وان) في أرمينيا ، وهي مدينة الأعمال الفنية في الصياغة ، وذلك في منتصف القرن التاسع عشر ، وكذلك المينا الملونة من قبل والده هرمز ملا خضر .

كما ساعده على البروز عاملان هما : جلبيه المواد الخاصة بالمينا الملونة والفرن الخاص بها من فرنسا بمساعدة صديقه الأب انستاس الكرمل ، وكان ذلك في بداية عقد العشرينات من القرن العشرين ، وثانياً إجادته عدة لغات أجنبية منها التركية والفارسية والعبرية والانجليزية ، حيث كان يترجم اللغة المندائية ويفسرها إلى المستشرق والكاتبة (مسز دراور) إضافة إلى الآرامية والسريانية حيث كان يدرس الأيتام في أحد الأديرة الواقعة في بغداد أصول الصياغة .

كان أسمر فناناً بارعاً في النقش والرسم والخط العربي والصياغة والنحت وحفر قوالب الحديد ، وفي هذا الإطار كانت أغلب النتاجات الفنية التي قدمها وارتقى بها بعد أن أبدع فيها ، ولعل بعض المحطات التي سنذكرها في حياته ترسم ملامح مسيرته الفنية.

- ففي عام ١٩٣٢ شهد أول مساهمة دولية له عبر لوحات منقوشة بالفضة المذهبة ضمن معرض بغداد الزراعي الصناعي الدولي وقتذاك.

- ١٩٣٤ انتدب لتمثيل القطر في معرض باري في إيطاليا.

- ١٩٣٧ انتدب لتمثيل القطر في المعرض الزراعي الصناعي بباريس.

- ١٩٣٩ انتدب لتمثيل القطر في معرض نيويورك الزراعي والصناعي.

- ثم حمل الفن مغترباً بين روما وباريس فزادت خبرته بالدراسة واكتسب خبرات مضافة ، وطور قابلياته الفنية بمعاهدة إيطاليا الفنية.

- كان شاهداً على أحداث الحرب العالمية الثانية في إيطاليا وفرنسا وتونس ، حيث أقام بها لمدة أكثر من سنة وما شاهده من أحداث واحتلال القوات الألمانية ودول التحالف.

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عاد إلى العراق وأكمل مسيرته الفنية بما تزود به من معرفة في المهجر ، فأنصرف إلى إقامة المعارض الشخصية والاشتغال في المتحف الحربي وتقديمه برنامج خاص كان يقدمه الفنان نوري الراوي.

وفي عام ١٩٦٤ عاد إلى باريس حيث أكمل مشواره الفني واختصاصه كنقاش محترف ومختص بعمل شعارات نبلاء أوروبا (الأختام) على محابس الذهب ، وحاز على عضوية الحرفيين لمحافظة باريس للفنانين.

ومن معاصريه من الفنانين الرواد الأوائل هم جواد سليم ومحمد غني حكمت وعطا صبري وخالد الرحال وحافظ الدروبي وفائق حسن وخالد الجادر وغيرهم كثيرون.

في عام ١٩٧٢ لبي دعوة العودة إلى الوطن للمساهمة في تأسيس قسم فني للمعادن النفيسة يتولى إحياء التراث العراقي الأصيل في الصياغة وكافة فروعها ، وتقديم خبراته الحديثة في عمل وطبع الميداليات والبادجات والهدايا كنواة لمعهد فني متخصص بفن الصياغة على غرار ما هو موجود في الدول الأوروبية.

أصدر مجلس قيادة الثورة الموقر قراراً بتعيين الفنان أسمر آل زهرون بدرجة مدير في وزارة الثقافة والإعلام ، وفي عام ١٩٧٢ تأسس قسم الفنيات للمعادن الذي تولى إحياء التراث العراقي بفنون الصياغة ، وأصبح أسمر مديراً له مع فنانين من أقاربه ؛ هما فؤاد ناجي هرمز وخيام رحيم زهرون ليكونا النبتة الأولى لمسيرة القسم.

لقد رحل أسمر آل زهرون وترك ما يعز على الرحيل ، سواء فيما أنتج أو في ذكريات حفظتها له نفوس وضمائر معارفه وأصدقائه.

عبد الواحد يوسف سالم :



إنه أبي رحمه الله... في عام ١٩٤٣ كان من المقاتلين في فوج موسى الكاظم في بغداد ، اشترك في حركة رشيد عالي الكيلاني ومن الذين اشتركوا في تطويق قاعدة الحبانية الانجليزية في حينها ، كانت والدتي حامل بي في شهرها الأخير ، وقد وردت الأخبار إلى العمارة أن الانجليز قصفوا بالطائرات فوج موسى الكاظم وأبادوه عن بكرة أبيه ، بحيث لم يرجع منهم المخبر...

حزن أهل والدي حزناً شديداً في الحلفاية (ناحية المشرح) ، وهم بين الشك واليقين ، ومرت عليهم أيام ثقيلة ، وهم يراجعون ثكنة العمارة العسكرية ، فيقولون لهم لقد استشهد الجميع ولم يبقَ نفاخ النار من الفوج ، ويوم ولادة أمي جاء البشير يبشر أن عبد الواحد قد وصل إلى الحلفاية ، وقد شاهدوه في جراج السيارات.

فرح الجميع وهللت النساء ، والتهاني تنهال على جدي يوسف أبو عبد الواحد في مضيفه البسيط ، ولهذا جدي قال لقد جاء إلى الدنيا بشير من البشرى ، وحكى والذي قصة نجاته لأهله وأحابيه وعندما كبرنا ذكرونا بالحكاية ، يقول والذي : كنا ثلاثة مندائيين في الملجأ مع عدد من الضباط والجنود ، وهو عبارة عن شق أرضي حفرناه جميعاً لنحتمي به ، وعندما ضاق بنا ؛ ضايقتنا البعض أثناء تناول القصعة في الغذاء ، وأسمعونا كلاماً غليظاً لأننا صابئة مندائيون ، فاضطررنا لترك الملجأ ، وبادرنا فوراً بحفر ملجأ لنا يبعد عشرين متراً عن هذا الملجأ.

وفي صباح اليوم الثاني فجرًا بدأت الطائرات الانجليزية بالقصف ، ونحن ندعو ونتضرع إلى الهيي قدامي (الله الحي العظيم) أن يحفظنا وينجيننا ، وفجأة وقعت قذيفة في الملجأ الكبير الذي كنا فيه ومات من فيه ، وغطانا التراب والشظايا ، لكننا نحن الثلاثة خرجنا سالمين ، وشاهدنا حجم الدمار الكبير الذي لحق بمنتسبي الفوج ومعداته ، وكان هناك ضابط برتبة نقيب جريح معاون آمر الفوج ، بذلنا جهداً كبيراً لإنقاذه ، وحملناه إلى الخلفيات ، وكان الموقف في هرج ومرج ولا توجد أوامر واضحة ، ارتباك في كل الأمور ، وأشار علينا الضابط الجريح بعد أن تمَّ إسعافه وحصل على سيارة أن نرافقه إلى بغداد ، وهكذا كان... وأعطانا الرجل ديناراً تقاسمناه وعدنا كل إلى أهله سالمين.

كان أبي صائغاً ماهراً ، ورساماً مبدعاً ونقاشاً على الفضة والذهب يمتاز بالدقة وجمال الصنعة والذوق الراقى ، يجيد اللغة الانجليزية وشيء من اللغة الفارسية والهندية بحكم متطلبات العمل ، في الأربعينيات من القرن الماضي كان له محل للمصوغات الفضية في شارع أنس في البصرة ، وعند هجرة اليهود عام ١٩٤٨ انتقل إلى سوق الخضيري للصاغة ، فأسس محل وورشة لصياغة الذهب ، وفي السبعينيات انتقل إلى شارع الصيادلة المشهور في العشار...

في الثمانينيات وأثناء اشتداد القصف على البصرة، عند احتلال الفاو من قبل الإيرانيين؛ انتقل إلى بغداد في شارع النهر (المستنصر)، وأنشأ محل لصياغة الجملة بمساعدتي، ودعمني له غير المحدود، ومرض والدي فنقلناه إلى ألمانيا، وهناك وافته المنية عام ٢٠٠٤ رواه ناويله (رحمه الله).

لقد عاش مكافحاً هادئاً حكيماً متعلماً ماهراً في صناعته، أميناً صادقاً، ربّانا نحن أولاده وبناته العشرة وعلمنا، وخرجنا جميعاً من الجامعات، فمن المهندسين والطبيب ومنا المدرس، إنها حقاً ذكرى عطرة، نحن أولاده نفتخر ونتباهى بها وباسم والدنا أبو بشير.

* * * *

في ضيافة الشباب : لقاء مع عبد الواحد يوسف سالم؛

دائماً أراه برفقة ولده بشير عبد الواحد رئيس مجلس شؤون الطائفة العام، سواء في العمل أو في مندي الطائفة في بغداد، وقد التقيتهما في محل عمله في شارع النهر، وطرحت عليه جملة من الأسئلة فأجاب مشكوراً...

* متى ولدت وأين؟

- ولدت عام ١٩١٦ في مدينة المشرح والتي تسمى الحلفايا في محافظة ميسان.

* أعلم أنك تحسن القراءة والكتابة، كيف تعلمتها؟

- تعلمت القراءة والكتابة في مدارس الحلفايا، وأنهيت الدراسة الابتدائية هناك قبل أن ننتقل إلى البصرة.

*** لقد قضيت جل عمرك تعمل مهنة الصياغة فأين تعلمتها ؟ وأين عملت ؟
وبماذا تخصصت ضمن هذه المهنة ؟**

- تعلمت فن الصياغة وعملت فيها منذ عام ١٩٣٥ ، وفي بداية الأربعينيات
قدمت إلى بغداد ، حالي كحال الكثير من المندائيين الذين كانوا يسافرون ،
ويتركون عوائلهم في مدننا الجنوبية ، وكنا نعمل طيلة السنة في بغداد لنعود
بعدها لزيارة أهلنا في موسم العيد ، وكنا (نسفر) لغرض العمل لنرجع ومعنا ما
كسبنا ، محملين بالهدايا وما تحتاج إليه عوائلنا طيلة الفترة من عيد إلى عيد
حيث كنت أعمل في بغداد - شارع النهر - في رأس القرية (رأس الكرية)
وكان عملي في صياغة الفضة ، والنقش عليها ، وتركيب المينا السوداء ، وكنت
مبدعاً في النقش على الفضة.

*** هل يمكننا أن نعرف كيف كانت حياة أبناء الطائفة أيام زمان ؟**

- كانت حياة الجميع بسيطة جداً ، وكان أغلب الصاغة كما أسلفت يتركون
عوائلهم في مدنهم الجنوبية ، مثل العمارة والناصرية ونواحيهما ، ويذهبون إلى
المدن الكبيرة طلباً للرزق ، ولا يلتقون بعوائلهم إلا في مواسم الأعياد ، وكانت
آنذاك طبقتان من الصاغة طبقة (الأستادية) وطبقة (الصناع) الذين يعملون
لمساعدة الطبقة الأولى ، وقد كانت حياتهم بسيطة جداً ، أما أولئك الذين يعملون
في الحدادة لإنتاج الفؤوس والمناجل والمساحي وكافة العدد التي يحتاجها
المجتمع هناك ، وكذلك الذين يعملون في النجارة حيث يصنعون القوارب على
اختلاف أنواعها ، والصابئة بشكل عام لا يعملون في الزراعة ، وقد كان
بعضهم يعمل في صناعة الأسلحة النارية ، فقد كان جدي سالم بخيتان وعمي
عبد الله بخيتان وأولاد عمي سرحان وخلف ، وكذلك حمادي وادي (أسطوات)
في صناعة الأسلحة النارية ، وكان يشار إليهم بالبنان ، كما كان بعض
المندائيين يعملون في التجارة كتجارة (الجنا) والجنبدل والخشب والقيير وكل
مستلزمات صناعة القوارب من بلام وشخاتير ، ومن أبرزهم كان فندي فعل في
مدينة العمارة ، وجثير صكر في مدينة الكحلاء.

*** ما مقدار المبالغ التي كنتم تحصلون عليها خلال العام (من العيد الكبير إلى العيد الكبير)؟**

- كان الأستاذ (الأسطة) لا يربح أكثر من عشرين دينار ، والصانع لا يحصل على أكثر من خمسة دنانير ، كنا نشترى قبل العيد كل احتياجات العائلة من المواد الضرورية (الحباشات) من الشورجة ، حيث كنا نملاً (جلة) كبيرة من هذه الحباشات بمبلغ لا يزيد عن دينارين ، ونصرف ما مقداره خمسة دنانير لشراء الأقمشة التي تحتاجها العائلة من أجل ملابس العيد ، أما المبلغ المتبقي فإن العائلة تعيش عليه طيلة الموسم.

*** ما هو دور رجال الدين أيام زمان؟**

- كانت شخصيات رجال الدين آنذاك شخصيات اجتماعية تحظى بتقدير وثناء كل المندائيين لأنهم كانوا قد نذروا أنفسهم لديانتهم ، وكانت علاقتهم بالمندائيين وثيقة ، وكانوا يعتمدون على أنفسهم في طلب الرزق ، حيث كانوا يعملون في الصياغة وفي تجارة الأحجار (الشذر) وتجارة (الجنا) وغير ذلك ، وكانت لهم علاقات ممتازة بالعوائل المندائية ، حيث كانوا يقومون بزيارتها وتفقدوها ، أذكر من هؤلاء الشيخ جنير منتوب الذي كان يزور المرضى في بيوتهم كل يوم ، ويعمل لهم الأدوية بيده ، ويعالج أبناء الطائفة بدون مقابل ، لقد كانوا يشاركون المندائيين في أفراحهم وأحزانهم ويحضرون إلى بيوتهم أيام الأعياد ، فيكرمهم المندائيون في أيام العيد ، وكذلك عن الصباغة وعقد المهر ، وأذكر أن أجور عقد مهر زواجي آنذاك ثلاثة دنانير.

*** كيف ترى حال الصابئة المندائيين الآن؟**

- يعيش الصابئة الآن حياة أفضل ، ونحن في نهاية هذا القرن حيث وسائل الرفاهية متوفرة وكذلك حرية الأديان مضمونة من قبل الدولة ، والصابئة يقدسون ويعشقون وطنهم ويعيشون مع إخوتهم العراقيين من جميع الطوائف بدون مشاكل أو عقد.

*** أنت على تماس يومي مع قيادات الطائفة، وترى ما يعملون، ما هو رأيك بهذه القيادات؟**

- إن الجهود الكبيرة التي يبذلها أبناؤنا في قيادات الطائفة لهو شيء كبير ويبعث على الرضا، وإنهم يستحقون عليه كل شكر وتقدير واحترام، فهم يضحون بوقتهم وراحتهم، وراحة عوائلهم، وكانت ثمرة عملهم المنجزات الكبيرة التي حصلت عليها الطائفة خلال السنوات الأخيرة، وفي مقدمتها ترجمة كتابنا المقدس (كنزا ربا)، وترجمة كتاب (دراشة اد يهيا)، والمدرسة المندائية، وإصدار مجلة الطائفة الجميلة (آفاق مندائية)، التي يجب أن يقتنيها كل مندائي ويطلع عليها، لأنها تحوي تراث الطائفة وكل ما هو ضروري من ثقافة للعائلة المندائية، كذلك القيام بإدارة شؤون مجالس الفروع في المحافظات، وإدامة العلاقات مع أبنائنا في الخارج وإنشاء مرافق ومنشآت للطائفة، وإدامة العلاقة مع الجهات الرسمية وهناك جملة من المنجزات الكثيرة الأخرى، ولولا هذه النخبة وبمساندة أبناء الطائفة لها لما وصلت إلى هذا المستوى وهذه السمعة الطيبة.

*** ما المطلوب من الشباب المندائي اليوم؟**

- المطلوب من الشباب المندائي احترام ديانتهم والالتزام بأداء الطقوس الدينية بشكلها المطلوب، والابتعاد عن التعصب الديني، ومسايرة الزمن وزيارة المندي في كل المناسبات للإطلاع على النشاطات التي تقام فيه وعليهم بالزواج المبكر بالمندائيات، والابتعاد عن فكرة الزواج من غير المندائيات حفاظاً على ديننا وتراثنا اللذين هما دين وتراث الآباء والأجداد.

*** ما هو رأيك بالهجرة؟**

- إنني أرفض فكرة الهجرة، رغم كل الظروف وعلينا التمسك بهذه التربة وبمائها المقدس، لأننا نقدر في ديانتنا الكثير من رموز هذا الوطن، وأن هذا البلد هو بلد الخير والعطاء، وأن ظروف الحصار زائلة لا محالة.

*** من خلال تجربتك الطويلة في الحياة؛ بماذا تنصح الشاب المندائي؟**

- أنصح الشباب بأداء الطقوس الدينية كالصبغة وتعلم اللغة المندائية والإطلاع على الكتب الدينية المندائية ، واقتناء مجلة آفاق مندائية لأنها غنية بالمواضيع المفيدة ، وأوصيهم بالزواج من المندائيات والالتزام بوصايا الدين والقيم الأخلاقية التي جاء بها ديننا.

*** ما هو الحل لمشكلة عزوف الشباب عن الزواج؟**

- أحث الآباء على مساعدة أولادهم والوقوف إلى جانبهم ، وعدم وضع شروط تعجيزية أمام زواج الفتيات والتساهل مع الشباب وتيسير الأمور مع ضمان حقوق البنت ، إن الأخلاق العالية والثقافة وسمعة العائلة هو أهم شيء.

*** ما الفرق بين شباب الأمس وشباب اليوم؟**

- أيام زمان كان الشباب يرتبطون فيما بينهم بعلاقات قوية أساسها رابطة الدين ، ومتماسكين فيما بينهم تسودهم الألفة والمحبة ، كنا نجتمع في الأعياد ونعمل حفلات السمر في دورنا ونعمل (التحاتيم) بعد منتصف الليل حيث كنا نتناول الجوز والأشرسى ، ونلعب (المحييس والأبيرة والمنقلة والدومنة) ، كنا نمارس الغناء والشعر والمطاردات الشعرية والقصص التي فيها العبر والحكم ، أما الآن ومع الأسف تغلبت الأمور المادية وضعفت العلاقات الاجتماعية ، فنرى أن الشاب المندائي وفي هذه الظروف بالذات لا يتعرف على أقرب الناس إليه.

في نهاية اللقاء شكرنا العم أبا بشير على إجاباته الواضحة ودعونا له بالصحة والعافية والعمر المديد.

شخصية من البصرة... عبد الجبار سيف مناحي

ولد المرحوم في مدينة قلعة صالح محافظة ميسان عام ١٨٩٩ ، وبعد أن شب دخل المدرسة العثمانية ذات الثلاث صفوف ، وكان كل صف يسمى باسم سلطان من سلاطين الدولة فكانت أسماء الصفوف (حميدي... عزيزي... رشادي)، وبعد أن أنهى دراسته غادر مع بعض الصاغة إلى القرى والعشائر ، حسب تقاليد ذلك الزمان للعمل بمهنة الصياغة والتي كانت تسمى (صياغة العرب) وبهذا دخل معترك الحياة وهو لم يزل شاب ، وبعد أن تكونت لديه خبرة بالعمل والحياة ؛ غادر مع أخيه ناصر سيف إلى ميناء البصرة للعمل هناك بصياغة الفضة المطعمة بالمينا بصحبة مجموعة كبيرة من أبناء مدينته.

ثم تبلورت لديه فكرة السفر إلى مصر ، فسافر مع بعض أقاربه ومنهم المرحوم نوري خنجر وعواد سبهان ، حيث حلوا في مدينة الإسكندرية وفتحوا لهم محال هناك ، فازداد الإقبال على منتجاتهم الجذابة واكتسبوا خبرة ، وتعرفوا على أناس ومحيط غير محيطهم وبيئتهم عادوا بعد سنوات إلى الوطن حيث فتحوا لهم محال في البصرة وتحسنت أمورهم المادية كثيراً عند دخول قوات الحلفاء إلى البصرة في الحرب العالمية الثانية إذ تهافت الأجانب على شراء مصوغاتهم الجميلة النادرة...

وبعد هجرة الصاغة اليهود عام ١٩٤٨ حل الصاغة المندائيون محلهم ؛ وأتقنوا فن صياغة الذهب ، هذا الفن الجميل المعاصر ، وأبدعوا فيه وأنتجوا ببراعة مصوغات تلائم الذوق الحضاري المعاصر ، وكان العمل آنذاك يدوياً مما زاد في ارتفاع قيمته الفنية في أعين الناس ، بعد أن تقدمت به السن فكر ببناء معمل ثلج ، وقد شيد فعلاً في محلة الجمهورية في البصرة عام ١٩٥٠ ، وسمي معمل ثلج الجمهورية ، والذي مازال ينتج الثلج حتى الآن...

كان المرحوم باراً بطائفته غيوراً على دينه المندائي، ولما وجد أن الطائفة في البصرة لا تملك مندي وأنها بحاجة ماسة إليه؛ تبرع بقطعة أرض في محلة الطويسة وسجلها باسم الطائفة، وبفضل جهوده وجهود إخوته المندائيين هناك تمّ جمع المبالغ اللازمة لتشييد مندي حديث وكبير، على ذات القطعة، وهو أول مندي حديث تمتلكه الطائفة في العراق، لقد كان المرحوم وجيهاً ذكياً لبقاً استطاع كسب صداقة شخصيات عديدة معروفة وقد كان يحسن التحدث بثلاث لغات؛ هي الانجليزية والفارسية والهندية، وقد تعلمها من خلال الممارسة والاختلاط، وافاه الأجل عام ١٩٨٢.

حسني زهرون : صائغ ميساني

في عام ١٩٠٦ في مدينة العمارة وبالتحديد في محلة السرية ولد طفل في بيت عريق ، لكنه لم يعيش طفولته كما يجب بسبب انشغال والده الصائغ الفنان "زهرون مله خضر" بمسؤوليات كبيرة ، فقد كان مختار الطائفة الصابئة المندائيين ، يمثلها في الدوائر الرسمية ويرعى مصالحها ويحل مشاكلها ، بيته مفتوح لكل أرملة ومطلقة محتاجة ، وكان رب أسرة مركبة قوامها ثلاث زوجات مع الأطفال والإخوان والأخوات والأقارب ، وبسبب تلك المشاغل لم يبقَ لديه الوقت الكافي للرعاية المباشرة فتركت للأمهات .

في هذا البيت المركب الكبير وفي حضرة أم متدينة حنون اختطف منها الموت أكثر من مولود ، ولد طفل أسمته (حسين) تيمناً حتى يعيش وعاش ونشأ حساس نبيه وذكي جداً ، دخل المدرسة وتركها في الصف الثاني الابتدائي لأسباب خاصة ، وفي الثامنة من عمره بدأ يعتمد على نفسه وشرع بالجلوس على عتبة الدار وأخذ يرسم وجوه المارة والأصدقاء ، فعرف بين أهله وأقرانه بالرسام ، وبدأت موهبته بالظهور ؛ فأتارت انتباه والده وأعمامه وذاع صيته وحظي بمعاملة خاصة ودخل عالم النقش على الذهب والفضة صغيراً ، ذلك العالم الذي اختصت به عائلته وبرعت وخاصة والده زهرون ، فاعتمد عليه والده وأشركه في نقش التحف والهدايا التي تقدم للملوك والشخصيات البارزة على نطاق الدولة والعالم ، ولقب - بحسني - تحبباً ، فمنذ ذلك الوقت اختص بنقش الصور الشخصية وظل ينقشها كهوي وليس كمحترف أو تاجر ، لأنه ينقش كل صورة كأنها الأولى والأخيرة ، يؤديها بنفس الصبر والأناة والدقة ، وكان يقول كل صورة هي امتحان جديد لأن الوجوه كثيرة ومختلفة ، وقمة سعادته عند ظهورها بالشكل الذي يرضيه .

حسني الإنسان كان صادق الإيمان يحمل قلباً نقياً صافياً يفيض حباً وعطفاً على كل المحيطين به، فهو نعم الأب والجد والصديق، كان وسيماً نظيفاً باسم الوجه أبداً، حليماً متسامحاً كريماً لا يرد محتاجاً، كم أسقط ديون دون ذكر أصحابها لأنه يكره التباهي، قنوع عف اللسان، يكره المجاملة والكرم الزائف.

من أبرز صفاته الكتمان والصبر على الشدائد، والدليل ذلك السر الذي لا يعرفه إلا أقرب المقربين، وهو أن الفنان والنقاش المشهور لا يعرف كيف يصنع سبيكة ذهبية ولا كيف يصوغ حلقة ذهبية بسيطة، كل عدته أقلام النقش وحجر المسن يحملها في جيبه أحياناً عند تنقله بين العمارة والبصرة وبغداد، حيث محلات إخوانه وأعمامه، وأخيراً استقر في العمارة للعمل مع أخيه جبوري وابن عمته عبد سلوم وقد صاغت أناملهم أروع التحف الفضية والذهبية وكم تهافت الناس على اقتنائها، ثم شارك ابن عمه الصائغ إبراهيم رشيد في محل صياغة في شارع بغداد، وبقي شريكاً حتى عام ١٩٥٤ ثم انفصل وقرر ألا يشارك أحد، وبقي في البيت لمدة سنة بلا محل ولا عمل، وكان حينها رب أسرة مكونة من عشرة أفراد، فرح حساده وهم كثر لغيابه عن الساحة الذهبية، وتوقعوا أن يموت النقاش الماهر وعائلته جوعاً لأنه ليس ممن يكتزن المال، بل يعمل على قدر حاجته وكانت تلك الفترة خير دليل على صبره.

بدأت محاولاته الأولى لاكتشاف عالم الصياغة المجهول بالنسبة له وهو في الثانية والخمسين من عمره دون مرشد، وكان يجد غضاضة بل مرارة بالاستعانة بأحد وهو لا يعرف أسرار المهنة في تنقية الذهب وعمل سبيكة قابلة للطرق دون تكسيرها ولا يعرف كيف يلحم، بقي يحاول وبعد عشرات المرات بل المئات أفلح في تحقيق مراده وفرح بنجاحه وكأنه المكتشف الأول للصياغة، وبدأ يصوغ ويالروعة ما صاغ.

استأجر لأول مرة محلاً خاصاً به في العمارة في شارع بغداد ؛ وأصبحت التحف التي يصوغها لا تجارى ؛ وخاصة الأساور والقلائد المطعمة بالميناء السوداء والصور الشخصية المنقوشة على الذهب ، وصارت كل فتاة عمارية تشترط على خطيبها صورة من صياغة حسني تتباهى وتتبارك بها ، وهكذا أصبحت تحفه زينة وخير خزينة ، ولا يمكننا أن نحصي عدد الصور التي نقشها لعامة الناس والشخصيات البارزة ، وقد وصلت تحفه إلى الدول العربية والأجنبية ، وقد قصده الكثير من الزوار لمشاهدة التحف وكيف يصوغها .

أحب هذا الفنان الطبيعة ؛ بل قدسها وخاصة مدينه العمارة الحاملة بأحضان دجلة الخالد ، وأطلق مقولته المشهورة - بلم بشط العمارة تسوى باريس كلها - بعد عودته من سفرة قام بها إلى فرنسا للاشتراك في معرض باريس الدولي في الثلاثينيات القرن الماضي وحاول مدير المعرض إغرائه للبقاء في باريس ، وهكذا عاد الفنان لأرض أجداده وأهله لينعم بدفء حضن مدينة العمارة وأهلها الطيبين ، تلك المدينة الهادئة الغافية على ضفاف دجلة الخير ، واستمر بالتعب والصلاة صباح مساء على الشاطئ الحبيب بعد الوضوء بالمياه النقية الطاهرة الجارية على مر العصور .

ثقافته شخصية بحتة ، فبعد ترك الصف الثاني الابتدائي تعلم القراءة والكتابة باللغة العربية والمندائية والانجليزية من الممارسة والاحتكاك بالمتعلمين ، دون مدرسة أو معهد أحب العلم والمطالعة ، ومن أعز أصدقائه السيد عبد الرحيم الرحماني - صاحب أشهر مكتبة في العمارة - مكتبة الرحماني - وقد واطب على شراء مجلة الهلال وقراءتها من الغلاف إلى الغلاف وكان يحب إشراك العائلة بالقصص والمواضيع الطبية والعلمية .

من هواياته لعب الشطرنج ، وقد تفوق على مدير معارف العمارة الأستاذ - سيد حسن الجواد - في لعبة شطرنج رغب بها المدير تحدياً ، لأنه كان أمهر لاعب في العمارة .

عاش متديناً صادق الإيمان أخذ من الدين جوهرة، تصرف طول حياته بنكران ذات وبكرم وإباء، فأعطى نظرة أنه من أصحاب الملايين لقناعته ورضاه، والحقيقة أنه توفي في بغداد بتاريخ ١٩٨٢/٨/٨ وكانت كل ثروته - صدق أو لا تصدق - خمسة عشر ألف دينار لا غير، و معها كنز من السمعة الطيبة لا تصنعها مليارات الدنانير، عاش ومات بلا جعجة فارغة، بل باسم نقش في ذاكرة الزمن بقلم من ماس.

البحث الثالث

نماذج من المستشرقين

مارك ليدزبارسكي ١٨٦٨ - ١٩٢٨م:

بولوني الأصل، ظهرت عليه النجابة صغيراً فقرأ العربية وترجم منها، ودرس تفسير التوراة، ولما عارضته أسرته في استكمال دراسته في الخارج غادرها (١٧ نيسان/ أبريل ١٨٨٢) إلى بوزن، ثم إلى مدرسة برلين، ورجع إلى بوزن حيث نال منها شهادة الثانوية، وتعلم فقه اللغات السامية واللغة الآرامية والكتابات الشرقية في برلين من بداية عام ١٨٨٩ حتى أواخر عام ١٨٩٢، واعتنق النصرانية، ثم نال شهادة الليسانس من جامعة كييل عام ١٨٩٦، وقضى فيها ١٢ سنة، وعين أستاذ في جرايفسالد سنة ١٩٠٧، ثم عضو في الجمعية العلمية في جوتنجن ١٩١٧... إنه لا يقل شأن عن بقية المستشرقين؛ فمن آثاره:

- ١- منتخب من المخطوطات الآرامية في مكتبة برلين، متن وترجمة وشرح (برلين ١٨٩٦).
- ٢- الكتابات السامية في الشمال، صنفه عام ١٨٩٨ ونشره ١٩٠٥، وترجمه وشرحه ١٩١٥.
- ٣- صلوات المندش والكتاب الكبير، بترجمة وتفسير ألمانيين.
- ٤- وفي الإسلام: الأدب العربي ١٩١٨، مصادر القصص والنوادر في الآداب العربية والفارسية والتركية ١٩١٨.
- ٥- الفخر عند العرب (المجلة الشرقية الألمانية ٢٣ - ١٩١٨) السلام والإسلام (مجلة الدراسات السامية ١، ١٩٢٢)، وحول الأديان (٢، ١٩٢٤).

٦- وفي بدايات القرن العشرين كرس ليدز بارسكي جل اهتماماته ودراسته عن الصابئة المندائية ولغتهم ، حيث ترجم العديد من النصوص المندائية ، وكان أولها كتاب (درasha اد يهيا) تعاليم النبي يحيى مبارك اسمه بطبعته الأولى عام ١٩٠٥ ، ثم أعاد طباعته ثانية عام ١٩١٥ .

٧- ترجمة كتاب (سيدرا اد نشماتا) عام ١٩٠٧ ، وأسماء الكتاب المندائي للأرواح.

٨- ترجمة مقتطفات من كتاب القلستا وهو الكتاب الخاص بطقوس الزواج المندائي في برلين عام ١٩٢٠ وأسماء كتاب الأدعية والتراتيل ، وعن هذا الكتاب يقول ليدز بارسكي : مما لا شك فيه أن بعض أجزاء الطقوس المندائية قد نشأت في أزمان متباعدة ومختلفة اختلافاً كبيراً ، بيد أننا لا نستطيع على وجه أو آخر أن نحدد زمنها أو نعيّنه بالضبط وذلك لعدم معرفتنا بالتاريخ المندائي.

٩- ترجمة الكتاب المقدس (كنزا ربا) إلى الألمانية ترجمة في غاية الدقة ، وبأسلوب رصين ، وذلك في عام ١٩٢٥ ، وكان ذلك بسبب إتقانه للغة المندائية قراءة وكتابة.

ومن الجدير بالذكر أن فضل ليدز بارسكي لم يقتصر على الترجمة المندائية وحدها ؛ بل في إعادة كتابة الشعر المندائي والتراتيل القديمة وفقاً لأصولها القديمة ، أي على الصورة التي عرفها بها الأقدمون قبل مئات السنين ، قبل أن يأتي النساخ الجهلة الذين عملوا بقصد أو بدون قصد على تشويهها وطمرها وضياع معناها ، الأمر الذي سيؤدي بالتالي إلى قراءة جديدة للنصوص ، ويشار إلى أن المستشرق الألماني ليدز بارسكي توفي عام ١٩٢٨ ، ولم يلتق بالمندائيين رغم كل أعماله ودراسته بشؤونهم وهو أحد تلامذة شيخ المستشرقين نولدكه.

دراور تزور قلعة صالح :

حدث ذلك عام ١٩٣٦ كما ذكر الأستاذ قابل الصالحي في مقال له ؛ عندما زارت المستشرقة المعروفة ايثيل ستيفانا دراور مدينة قلعة صالح من ضمن المدن التي زارتها في جنوب العراق والتي يتواجد فيه المندائيون بكثرة ، وقد جاءت أصلاً لاستطلاع أمورهم والإطلاع على أحوالهم والكتابة عنهم...

كنا فتياناً في ذلك الزمان عندما شاهدناها نتجول في محلة الصابئة ، فاجتمع عدد كبير منا ونحن نتطلع إليها ونعجب من لباسها وزياها ، إذ لم نرَ من قبل سيدة سافرة ، كانت شابة شقراء متوسطة القامة ممثلة الجسم ، تغطي الابتسامة وجهها الصافي وكانت تسير وحيدة بخطى سريعة ونحن نتبعها ونرشدها...

كان في مدينتنا آنذاك منديان ؛ الأول مندي (بيت شيخ سام) ، والثاني مندي (بيت شيخ زهرون) قصدت دراور أولاً مندي بيت الشيخ سام ، فوجدت الشيوخ مجتمعين مع جمع غفير من المندائيين لإجراء مهر ، إذ كان يوم أحد ، تحدثت مع الشيوخ باللغة العربية الفصيحة وبالمندائية وقالت لهم : أنا أحب المندائيين حباً جماً ، وقد قدمت العراق من أجل مشاهدتكم ودراسة الدين المندائي ، ثم قالت للشيخ رومي أريد أن تصبغوني بصبغكم ، فقال لها مداعباً هذه رسته جديدة ، وما عليك إلا أن ترتديها لكي نصبغك ، ولكن هذا لا فائدة فيه لك ، لأنك لن تدخليني ديننا.

ثم اتجهت إلى المندي الآخر فوجدت الأخوة الثلاثة ؛ شيخ نجم وشيخ يحيى منشغلين بإجراء مهر أيضاً فأحضروا لها كرسي جلست عليه وهي تراقب باهتمام كل ما يجري ، ثم قالت للشيخ يحيى بعد أن أنهى عمله ، أريد أن أصبح مندائية فهل تقبلوني في دينكم ، فأجابها مندهشاً وهو يلاطفها نحن نوافق على تصطبغي ٣٦٠ صباغة على يد سبعة شيوخ ، فاستغربت وقالت : هذا ما لا طاقة لي به.

كانت تحمل على كتفها حقيبة تفتحها بين الحين والحين لتدون في أوراق لها معلومات باللغة الانجليزية، وفي اليوم الثاني زارت الشيخ عبد الله وشيخ رومي فوجدتهما يجرخان الشذر ويصقلانه، فقالت أرجو أن تصنعوا لي قلادة من هذا الشذر، فقالا لها: بكل سرور وامتنان.

واتجهت على طريق البستان ونحن نرشدها حتى وصلت مقبرة المندائيين وأخذت تعد القبور واحدًا واحدًا، ثم سجلت عددها في ورقة، وكنا نعجب لذلك، ولا نعرف السبب، ثم زارت شيخ يحيى في داره وطلبت منه بعض الكتب الدينية وأخذت تقرأ بلغة مندائية فصيحة، ولكنها أخطأت بعض الشيء، فصحح لها الخطأ فشكرته، ويقال إنها اشترت بعض الكتب الدينية منهم قبل أن تعود إلى العمارة فالمشرح فعربستان، وبعد أيام غادرت إلى مدينة الكحلاء، كان ألطف ما تتميز به دراور هو هدوءها وذكاؤها وحسن منطقتها، رحم الله تلك السيدة الجليلة لما قدمته من خدمات جليلة للمندائيين ودينهم.

تيودور نولدكه ١٨٣٦ - ١٩٣٠م:

يُعد نولدكه شيخ المستشرقين الألمان غير مدافع ، وقد أتاح له نشاطه الدائب وألمعية ذهنه وإطلاعه الواسع على الأدب اليوناني وإتقانه التام لثلاث من اللغات السامية (العربية ، السريانية ، العبرية) ، ومع طول عمره الذي جاوز الرابعة والتسعين استطاع أن يظفر بهذه المكانة ليس فقط بين المستشرقين الألمان بل بين المستشرقين جميعاً.

ولد نولدكه في الثاني من مارس ١٨٣٦م بمدينة هاربوج (منذ ١٩٧٧ ضمت إلى إقليم هامبورج) حيث كان أبوه وكيلاً للمدرسة الثانوية في مدينة لنجن (من ١٨٤٩ - ١٨٦٦) ، وفي لنجن هذه قضى نولدكه المدة من ربيع ١٨٤٩ حتى خريف ١٨٥٣ يعد نفسه لدخول الجامعة ، خصوصاً تحت إشراف أبيه واقتصر اهتمامه إبانها على الآداب الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) ، مما سيجعله طوال حياته يحن إليها ، بل ويأسف أحياناً على أنه لم يتخصص فيها بدلاً من اللغات السامية.

وقد سألته (اسنوك هرخررونيه) ذات يوم هل كان ينوي حقاً أن يتخصص في الدراسات اليونانية بدلاً من السامية ، فأكرر ذلك لا لسبب إلا لأنه وجد الدراسات اليونانية قد عولجت على نحو واسع عميق بحيث لم يبقَ ثمة مجال للاكتشاف الحديث ، بينما أن ميدان اللغات السامية لا يزال بكرّاً فيمكن فيه الوصول إلى اكتشافات مهمة بسهولة.

وقد أضيف إلى ذلك سبب آخر علمي ، حين أراد الالتحاق بجامعة جيتجن في ١٨٥٣ زوده أبوه بخطاب توصية إلى صديق شبابه (هينرش ايفلد) عالم الساميات الشهير ، وخصوصاً العبرية ، وكان نولدكه قد بدأ قبل ذلك بالإلمام بمبادئ اللغة العبرية ثم مرض فاضطر إلى الانقطاع عن الدراسة الثانوية فوجهه (ايفلد) إلى دراسة اللغتين العبرية والعربية وآدابهما ، فحضر نولدكه لمدة فصل دراسي لدراسة اللغة السريانية ، كما حضر درس برتو عن الآرامية

الخاصة بالكتاب المقدس ، وهي الآرامية الوحيدة التي درسها نولدكه إبان الجامعة أما سائر اللهجات الآرامية فقد درسها فيما بعد من تلقاء نفسه ، وقد واصل دراسة السنسكريتية فيما بعد وهو في جامعة كيل حينما كان أستاذاً فيها (١٨٦٤ - ١٨٧٢) ، كذلك بدأ وهو طالب في الجامعة دراسة اللغتين الفارسية والتركية.

مقابلة مع البروفيسور كورت رودولف :

* هل تحدثنا عن أصل المندائيين في سياق وجود نظرتين إلى هذا الشأن؟

- كان هناك بعض المستشرقين الأوروبيين في القرن التاسع عشر ومن بينهم الألمان ، يعتقدون بأن أصل الصابئة هو المشرق ، إذ رأوا أن كثير من الأمور يمكن تفسيرها من خلال الأصول البابلية ، ولاحقاً بعد ترجمة ليدزبارسكي للنصوص المندائية إلى اللغة الألمانية ، تغير رأي المستشرقين وعلماء الأديان والمؤرخين ، فهناك مؤشرات في النصوص المندائية تقول إنهم قدموا من الغرب ، أي فلسطين وسوريا ، لأن هناك نصوص تشير إلى أن المندائيين الأوائل تعرضوا لاضطهاد اليهود ، فتركوا سوريا وفلسطين لاحقاً وتوجهوا عبر تلال الجزء الشمالي من وادي الرافدين إلى الجزء الجنوبي منه ، ربما في رحلة استغرقت نحو ١٠٠ عام وبدأت في القرن الأول الميلادي قبل أن يصلوا إلى جنوبي وادي الرافدين في القرن الثاني... بالتأكيد قد يكون هناك أفراد من بابل أو جنوب وادي الرافدين ممن اعتنقوا المندائية ، لكن لا بد أنه كان هناك أشخاص آخرون على معرفة بالطقوس والتعميد قدموا من الغرب ، وأعتقد بأننا لا نستطيع تفسير كل ما يتعلق بالمندائيين من ميثولوجيا وثيولوجيا وأيديولوجيا وغيرها استناداً إلى أواني الأدعية وحدها ، لكنها نظرية أو فرضية ، ومن المحتمل أن يكون أمر الهجرة ابتكر لاحقاً ، لكني إذا اقتنعت بذلك فسأقبله.

* هل هناك أدلة أثرية أو تاريخية ملموسة تشير إلى مثل هذه الهجرة؟

- الأدلة الأثرية المندائية المعروفة هي أواني الأدعية فقط ، التي عثر عليها في بدايات حملات التنقيب في المدن السومرية والبابلية ، وهناك مئات الأواني مكتوبة بالخط المندائي ، وأقدمها يعود إلى القرن الثالث.

* لكن المعروف أن الأحراز الرصاصية هي الأقدم!

- هذا صحيح ، وهي أقدم الأدلة على النصوص المندائية المعروفة وتعود إلى القرن الثالث.

* وهذه وجدت في الشرق حيث يعيشون الآن ، لكن لم يعثر على شيء من هذا القبيل على طول خط الهجرة المفترضة من فلسطين إلى جنوبي وادي الرافدين.

- هذا صحيح أيضًا ، على رغم أن مستشرق يهودي تحدث عن ألواح رصاصية ، لكنهم ابتاعوها في إسرائيل ولم يعثروا عليها هناك ، بل هي منقولة من وادي الرافدين.

* وهل هناك إشارات في كتب المؤرخين القدماء مثل يوزفوس فلافيوس إلى ما يرجح حصول مثل هذه الهجرة؟

- أحد أشهر النصوص المندائية الذي يتحدث عن هذه الهجرة هو "حران كويثا" حران الداخلية ، الجوانية وحران هي مدينة في شمال وادي الرافدين تقع اليوم في تركيا... بداية النص مفقودة ، وتبدأ بذهاب المندائيين إلى التلال بقيادة ملك يدعى أروان ، وهو بلا شك أحد الملوك الفرثيين ، ولعله أرتبان الرابع ، وهذا يؤكد أن المندائيين هاجروا في القرن الأول ولم يضطهدهم الملوك الفرثيون ، على نقيض الملوك الساسانيين الذين حكموا بعدهم ، ونجد في شهادة كارثير رئيس الكهنة الزرادشتيين المكتوبة على الصخر تعبير "المغتسلة" وكذلك اسم الناصوريين ، لكن الاسم قد لا يخص المندائيين ، فهو يعني المسيحيين أيضًا.

* ذكرت الناصوريين قبل قليل ، ونعرف أن هناك عددًا من الطوائف سكنت شرقي الأردن وحملت أسماء مشابهة ، ألا يُحتمل أن تكون هذه الأسماء تسميات مختلفة لطائفة واحدة ، المندائيين مثلاً؟

- هذا صحيح في شكل جزئي فقط ، فالاسم يعني المراقبين ، ونُسبت الكلمة في السابق إلى الناصرة التي هي محل ولادة السيد المسيح ، لكن الأمر غير واضح ، فليس لدينا أدلة بأن الناصرة كانت موجودة في الأزمنة القديمة ، لذلك يجب أن يرتبط اسم الناصوراي والنازاريين والنوصريم وغيرهم بتصرف خاص لمجموعة من الناس ، لكننا غير متأكدين من الأمر ، فهذه الأسماء أطلقها أجناب على هذه الطوائف ، عدا المندائيين فهم يستعملون الناصوراي كاسم خاص بهم.

* بالنسبة إليّ ، هناك بعض التشابه بين المندائيين والقمرانيين من ناحية الأفكار وحتى التسميات ، ومن المثير وجود بعض المتوازيات بين المندائية والقمرانية مثل الاصطفاء ، كذلك التشابه في طريقة دفن الموتى والاعتسال والتقويم القمراني الشمسي الذي يختلف عن التقويم اليهودي الرسمي ؟

- قد يكون ذلك بالدرجة الرئيسة بسبب الاعتسال ، وهو من الطقوس الجوهرية ، ومن المحتمل وجود طوائف أخرى لها طقوس مشابهة مثل الكسائيين والأسينيين ، أعتقد بأن ذلك كان جزءاً من حركة أسميها الحركة المعدادنية التي لها علاقة جزئية باليهود غير الأرثوذكس ، فهناك تأثيرات لبعض الأفكار اليهودية التي نعرفها من العهد القديم ، لكن من جانب آخر نلمس تأثير الأفكار الزرادشتية ، ويذكرني التقويم المندائي بالتقويم الزرادشتي الذي يختتم العام بفترة خمسة أيام ما يقابل البنجة وهو عيد الخليقة عند الصابئة المندائيين .

* تحدث ابن النديم في أحد الفصول عن الصابئة وعرض لأفكارهم وتقاليدهم التي نعرفها إلى اليوم ، غير أنه عاد في الفصل اللاحق فتحدث عن صابئة حران وسرد قصة أيشع القطيعي وواقعتهم مع المأمون ؟

- ابن النديم كان يعرف المندائيين ، ولا نعلم عن وجود عادات وطقوس مماثلة للطقوس المندائية في حران ، إن الأمر لا يعدو أكثر من التشابه "الفلسفي" .

جوليوس هينرج بترمان ١٨٠١ - ١٨٧٦ :

ليس هناك من شك أن المستشرقين اهتموا كثيراً بالمندائية كديانة قديمة وتعمقوا بالبحث عنها وتتبعها وعرفوا العالم بها باعتبارها غرس التوحيد الأول وقد تطرقنا في أعداد سابقة إلى دور البعض منهم في خدمة الإنسانية ومنهم الصابئة وفي هذه الأسطر سنتحدث عن مستشرق قدم الكثير في مجالات البحث والدراسة والتقصي وخاصة فيما يتعلق بساكني الشرق وهو المستشرق بترمان.

مستشرق ألماني حصل الكثير من المخطوطات، ولد في ١٢ آب عام ١٨٠١ في مدينة (جلاوخوا) وتوفي في حزيران عام ١٨٧٦ في (بادراوهم) عين عام ١٨٣٧ أستاذ بغير كرسي للغات الشرقية في جامعة برلين وقد قام في الفترة من عام ١٨٥٢ - ١٨٥٥ برحلات واسعة في الشرق الأدنى وإيران وفي عامي ١٨٦٧ - ١٨٦٨ كان قنصلاً لشمالي ألمانيا في القدس (فلسطين) ومن رحلته في الشرق عاد بقدر وفير من المخطوطات المهمة، وهو من أجل هذا أساساً أوفد إلى الشرق.

كذلك حصل خلال فترة إقامته في الشرق والقدس على الأخص على معلومات مهمة وقيمة عن السامريين (في نابلس وما حولها)، والموارنة والإيزيديين (في جبل سنجار على جانبي الحدود بين العراق وسوريا) كما عني باللغة الأرمنية إلا أنه كرس جل اهتمامه بالدراسة المندائية والتقصي عن حقيقة المندائيين وديانتهم وطقوسهم، وكان له الشرف في معيشتهم والاحتكاك بهم وخاصة في جنوب العراق بمدينة (سوق الشيوخ) وذلك عام ١٨٦٠ حيث تتواجد أعداد كبيرة من أبناء الصابئة في هذه المدينة، كذلك الكثير من رجال الدين، وبدرجة كنز ابراً مما يمكنهم من إقامة الطقوس والمراسيم الدينية لأبناء هذه الديانة، وقد ذكر أن عددهم كان يقارب ٤٠٠٠ نسمة، منهم ١٥٠٠ من الذكور.

وفيما يخص التقويم المندائي فقد أشار بترمان أنه يوجد فرق قدره ١٩ يوم بين أول كيظة عام ١٨٥٤ وبين أول كيظة عام ١٩٣٥، وأن الأعياد تتأخر ببطء

ولو أريد للبرونايا البنجة أن تأتي دائماً في أيام الربيع فيجب القيام بتصحيح التقويم قبل أن تنتهي ثمانون سنة أخرى وإلا فستقع البرونايا قبل فصل الربيع وبأيام البرد القارص ، كما أن بترمان لا يقل شأن عن باقي المستشرقين ، ومن آثاره :

١- (نحو اللغة الأرمنية) برلين ١٨٣٧ .

٢- (باب اللغات الشرقية) وهو نحو موجز لأهم اللغات الشرقية... (برلين ١٨٤٠ وما يتلوها ، ط٢ برلين ١٨٦٤ - ١٨٧٢ في خمسة أجزاء)... وقد واصل نشر هذه المجموعة مستشرقون آخرون عديدون منهم ، اشتركوا ، بروكلن .

٣- (رحلات في الشرق) لايبزك ١٨٦٠ - ١٨٦١ في مجلدين .

٤- نشر الطبعة الثانية من الكتاب المقدس كنزا ربا على حجر بالنص المندائي في لايبزك عام ١٨٦٧ ، وذلك بعد الطبعة الأولى للمستشرق السويدي (توريرغ) بحروف سريانية مع ترجمة لاتينية في أربع مجلدات في كوبنهاغن عام ١٨١٥ .

٥- (ثلاثة أشهر في الأهوار جنوبي العراق) وهي المحاولة الأولى العلمية والوحيدة في حقل المشاهدة بالنسبة للصابئة المندائيين باعتبارهم طائفة دينية حية كتومة ، لا يكشف الأفراد فيها عن عقائدهم بسهولة .

٦- بدأ بنشر (التوراة السامرية) برلين ١٨٧٢ وما يتلوها ، وتوفي قبل إنجازها فقام بإتمامها المستشرق فولرز .

البروفسورة يورن باكلي وريثة اليدي دراور مندائياً :

أبرز الشخصيات الأكاديمية المعاصرة المتخصصة والمهتمة بدراسة المندائية ، ومتابعة شؤونها ، وإقامة العلاقات مع المندائيين وجمعياتهم هي البروفيسورة باكلي ؛ أستاذة تاريخ الأديان في عدة جامعات أمريكية ، ومن خلال متابعتنا لمسيرة هذه الشخصية ، وتواصلنا معها ؛ وجدنا أنها تستحق منا كل التقدير والثناء لما قدمته وتقدمه للمندائية ديانة وطائفة من خلال النشاطات المتنوعة التي تقوم بها ، وبعد إطلاعها على آفاق مندائية خصتها بهذا الحديث الذي أجريناه معها ، والذي نسبقه بالتعريف بهذه الشخصية ، فهي يورن جاكوبسن باكلي ، باحثة أكاديمية نرويجية تحمل الجنسية الأمريكية ، حاصلة على شهادة الماجستير والدكتوراة في موضوع الروها في الديانة المندائية.

عملت أستاذة في اختصاصها تاريخ الأديان في عدة جامعات أمريكية ، لها أربعة كتب عن الديانة المندائية ، وأكثر من ٤٠ بحث ومقال عن المندائية منشور في العديد من المجالات الدولية ، وتقييم أكثر من ٤٠ كتاب تتناول مواضيع في المندائية... تربطها علاقات مع الشخصيات المندائية المعروفة ، وهي الشخصية الأكاديمية المعتمدة الآن لأغراض الإجابة عن الاستفسارات الدولية عن الديانة المندائية ، وقد قدمت إجابتها لاستفسارات دول عديدة : أمريكا، الأردن، النمسا، هولندا، الدنمارك، أستراليا، وألمانيا...

وهي المعتمدة الآن في الكتابة عن الديانة المندائية ومصطلحاتها في الموسوعات والقواميس المتخصصة ، سبق وقامت بزيارة طائفة الصابئة المندائيين في إيران عام ١٩٧٣ ، كما سبق ووجه المجلس الروحاني الأعلى دعوته لها لزيارة الطائفة في العراق عام ١٩٩٣ ، ولكن حالت ظروف أكاديمية دون تحقيق ذلك ، وهي عضوة اللجنة التحضيرية لإقامة المؤتمر الأكاديمي عن المندائية الذي تعده جامعة هارفرد ١٣-١٥ / ٦ / ١٩٩٩.

عن بداية علاقتها بالمندائية تقول : قد كان اهتمامي بالمندائية رغبة شخصية حينما كنت أدرس الفلسفة وتاريخ الأديان في جامعة أوصلو قبل حوالي ٣٠ عام، ولم يكن حينذاك شخص يرشدني ويوجهني في دراستي للمندائية ، ولكنني وجدت نفسي مهتمة بها ، وكنت أقرأ كل شيء أجده عن المندائية باللغة الانجليزية والألمانية والفرنسية.

أما عن تعلمها اللغة المندائية فتذكر : لقد أرسلني المشرف على دراستي إلى السويد من أجل تعلم اللغة المندائية عام ١٩٧١ ، هناك تعلمتها ومازلت أتابعها منذ ذلك الحين، علماً بأنه لم يكن لدي إطلاع ولا أية خلفية حينذاك على اللغات السامية، ولذلك كانت دراستي لها صعبة ومضنية.

وكيف كانت علاقتك بالليدي دراور ؟ في ربيع عام ١٩٧١ ذهبت إلى إنجلترا قاصدة اللقاء بالليدي دراور لمعرفتي بأنها من أكثر المعنيين بالمندائية للاستفادة من خبراتها وتوجيهاتها في دراستي للمندائية ، وكانت زيارتي قبل تسعة أشهر فقط من وفاتها حيث كان عمرها ٩١ عام، وكانت شخصية فاضلة تحتفظ رغم شيخوختها بمعلومات وذكريات عديدة وجميلة عن المندائية والمندائيين ، وقد ذكرت لي حينذاك أنها لم تلتق بشباب مهتمين بدراسة المندائية منذ زمن طويل.

أما عن شهادتي الماجستير والدكتوراه فتقول : حصلت من جامعة بيركن على شهاة ماجستير عام ١٩٧٢ ، وكان موضوع الرسالة (الروها في الديانة المندائية) ، وفي هذا العام حصلت لي فرصة لزيارة إيران ، وقمت بزيارة الطائفة المندائية هناك ، أما شهاة الدكتوراه فقد حصلت عليها من جامعة شيكاغو عام ١٩٧٨ ، وكانت الرسالة عبارة عن دراسة معمقة في موضوع الروها في الديانة المندائية.

وبعد الحصول على الدكتوراه تقول باكلي : خلال أكثر من عشرين عام قمت بتدريس تاريخ الأديان في جامعات أمريكية عديدة، وفي عام ١٩٩٣ أصدرت كتاب (ديوان ملكوت اليثا) الذي قمت بترجمته، وهي أول ترجمة لهذا الديوان ،

حيث لم يترجم من قبل، ووضعت كتابي عن المندائية الذي آمل أن ينتهي طبعه نهاية هذا العام، وخلال الأعوام الاثني عشر الأخيرة قمت بمتابعة التاريخ المندائي وتوثيقه بالاعتماد على الألواح والدواوين والمطويات والتذييلات في الكتب الدينية.

وعن كيفية حصولها على الدواوين والوثائق المندائية تقول: تتوفر في مكتبتي الخاصة جميع المصادر التي أحتاجها عن الديانة المندائية، فقد حرصت على اقتناء كل ما كتب عن المندائية، إلا أن أهم وأثمن ما حصلت عليه جاء من الليدي دراور ذاتها، ففي عام ١٩٨٨ اتصلت بي السيدة (هاكفورت جوتس) ابنة الليدي دراور وأبلغتني أنها تعتبرني الوريثة الأكاديمية لأمها الليدي دراور في الشؤون المندائية، وبهذا قد حصلت على ما اعتبره الكنز بالنسبة لي، وأصبح لدي أرشيف مندائي وبه أنا مستعدة لمساعدة كل الباحثين، كما أنه سيكون عون للناسر الألماني الذي يعمل على إصدار كتاب يوثق سيرة حياة الليدي دراور.

وحول المؤتمر الأكاديمي المندائي لجامعة هارفرد تشور: المؤتمر الذي اعتمدته (جمعية آرام) فرصة ممتازة لإحياء وإبراز الدراسات المتخصصة بالشؤون المندائية من الناحية الأكاديمية، كما أنه سيتضمن أمسية ثقافية مندائية من إسهامات المندائيين، إضافة لبرنامج إجراء طقوس دينية مندائية ومنها التعميد في نهر جارلس، ومن الوثائق المهمة التي ستعرض في المؤتمر؛ الفيلم الذي سجلته الليدي دراور لطائفة الصابئة المندائيين في قلعة صالح عام ١٩٥٤.

وعن رغبتها في زيارة الطائفة بالعراق تقول: أشكر طائفتكم في العراق لدعوتها عام ١٩٩٣، ومازالت لدي الرغبة في زيارة العراق، وسأعمل على تحقيق ذلك حالما تتاح لي الفرصة، وأخيراً تشير باكلي: أنا مسرورة جداً بالأنشطة المتعددة التي تقوم بها الجمعيات المندائية التي تشكلت حديثاً في دول عديدة، وافتتاح مندي في مدينة ديترويت الأمريكية، والإصدارات التي

تصدرها الطائفة ، مع أُملي أن يسعى المندائيون للمحافظة على بقاء طائفتهم
المسالمة واللطيفة بكل الوسائل التي يملكون.

بقى أن نعرف أن باكلي غدت بعض شبكات الإنترنت بمواضيع تعريفية عن
المندائية ، كما أن حبها للمندائية جعلها تختار كلمة (يردنا) رمز لبريدها
الإلكتروني ، وهي تذيل مخاطباتها الشخصية دائماً بعبارة (هبي زكي)
وبالحروف المندائية.

أسئلة وأجوبة فكرية مفيدة

كل واحد منا يدور في رأسه وفي داخله سؤال محير لا يعرف الإجابة عليه ، ولا يملك الشجاعة الأدبية ليسأل الآخرين ، ولربما سأل مرة ومرتين ولم يحصل على الجواب الشافي ، هناك من يملك الشجاعة الأدبية فيسأل الآخرين ويأمل بإجابة لعلها تشفي غليله... والملاحظ مع الأسف أن رجال الدين الأفاضل لا يجيبون على الأسئلة التي تطرح على العامة مع الأسف لتتویر العقول.

هنا عدد من الأسئلة المهمة وإجاباتها قدر المستطاع ، نأمل من رجال ديننا والمهتمين بالشأن المندائي أن يدرسوا مثل هذه الأسئلة ويردوا على سائلها لغرض الفائدة، فخير الناس من نفع الناس... وبخيل العلم ألعن من بخيل المال، لأنه إذا رحل أخذ علمه معه أما بخيل المال مسكين يترك ماله لغيره يستفاد منه... فإلى مزيد من الأسئلة والأجوبة لتتویر العقول والعتب كل العتب على رجال الدين التتویريين وعلى المراكز الثقافية الدينية وعلى المختصين بأمور الفكر الديني المندائي.

سيداتي وسادتي الكرام من المهتمين والباحثين والمؤمنين والمعجبين بالفكر المندائي، اسوثة نهويلخون، أحببت طرح موضوع للنقاش بوابته مقطع بوثا من وصايا هبي ربي قدمايي (كل من يولد يموت)، ومدخل النقاش سؤال هل النفس تموت؟ أرجو أن ينال النقاش تفاعل جاد يساهم في فتح مدارك فكرية واسعة حول هذا الموضوع...

ملاحظة: من أجل ضمان الملكية الفكرية أي معلومة جديدة تورد في النقاش تكون ملك أصحابها ، احترامي وتقديري... أختكم رمزية عبد الله فندي - أم إيهاب.

* * *

الأخت العزيزة أم إيهاب المحترمة...

وفقاً لفهمي واستيعابي لمفاهيم الكنزا ربا أن النشمتا هي اتحاد النفس والروح...

إن النفس طاهرة نقية لأنها هبة من هبي قدمايي لا تشوبها شائبة ، والنفس لا تحاسب ولا تموت ، أما الروح فهي مجمل الأعمال والفعاليات التي قام بها الإنسان من المهد إلى اللحد ، فهي تحوي على أعمال الخير وأعمال الشر ، لهذا فهي تحاسب بالمطراثي (محطات الحساب) بعد أن توزن بميزان أباثر وتقاس بالنموذج شيتل.

عندما تخرج النشمتا من حبسها الجسد ، يدفن الجسد (صنع من تراب وإلى التراب يعود) ، تبقى نشمتا ثلاثة أيام تُذكر الجسد ما اقترفه من أفعال خلال مرحلة الحياة في هذه الالمة ، بعدها ترتقي إلى أباثر وهناك تنفصل النفس عن الروح ، تبقى النفس أمانة عند أباثر وتخرج الروح إلى المطراثي لتحاسب على ما اقترفته من ذنوب ، فإن كانت حسناتها كثيرة وكبيرة مثل دنانوخت مثلاً تتخطى المطراثي سريعاً بسلام ، وتعود إلى الملاك أباثر لتتحد (لوفاً) مع النفس وتشكل النشمتا وتذهب إلى المثل السني في مشوني كشطة (عالم الحق) ، لتحيا حياة ثانية دون أوجاع ولا شيخوخة ولا موت ثاني.

أما عبارة (كل من يولد يموت) التي وردت بكتابنا المقدس كنزا ربا فتعني موت الجسد في هذه الالمة وتحرر النشمتا ، لأن الجسد مادة مصنوعة من (الطين الأحمر والدم والمرارة وأسرار هذا الكون) ، وكل ما يصنع بالأيدي يفنى بمعنى كل شيء مصنوع قابل للفناء وكل شيء مخلوق خالد ، ولأن النشمتا (النفس) خلقها هبي قدمايي فهي خالدة لا تموت ، وعموماً الإنسان أو كل حي يكون من عنصرين أساسيين ، عنصر مادي (الجسد) قابل للفناء وعنصر روعي النفس (النشمتا) خالدة غير قابلة للفناء أي لا تموت...

بسم الحي العظيم : كل من يولد يموت وكل ما يصنع بالأيدي يفنى ، والعالم كله يفنى ، فأين سر الألوهية التي فيه إن كنتم تنظرون ، إن حكارتكم يوم

الحساب أعمالكم التي عليها تتوكلون فانظروا إلى ماذا تستندون... والحي
المزكي.

البوثة واضحة المعنى وسهلة الفهم، ومع هذا نوضحها كل إنسان يولد بعد حين
يموت بمعنى يموت جسده لأنه مصنوع من مادة شكلتها الأيدي فهي قابلة للفناء
حتمًا لأنها لا تحمل سر الألوهية لأنها لم يخلقها هيي قدامي وإذا أردتم الحياة
الثانية الخالدة، بعد أن يموت الجسد وتتحلل منه النشمة علينا خلال حياتنا في
هذه الدنيا أن نكثر من الأعمال الصالحة لكي لا تحاسب الروح حسابًا عسيرًا
وتعذب ويطول مقامها في المطراني... وتبقى النفس رهينة عند أبائر، تقبلي
تحياتي واحترامي.

ملاحظة : كثير من الترجمات أحيانًا تخلط بين النفس والروح ، فمثلاً عند
المسلمين (كل نفس ذائقة الموت) ، (والروح ومن سواها)... جعل الروح بدل
النفس ، لذا وجب التنبيه وشكرًا...

أخول د . بشير عبد الواحد يوسف

* * *

مساؤك سعيد أخي د. بشير عبد الواحد المحترم...

اسمح لي وأنت أستاذي العزيز أناقشك على ما تفضلت به لكي نفيد ونستفيد أكثر ، لماذا الروح تحاسب ، إذا كان أصلها من العالم السفلي وطبيعتها مكتسبة من هذا العالم فمن الطبيعي تعشق ملذات الدنيا ، هل يُحاسب الخطأ لأنه أخطأ ، أم يُحاسب الصبح على خطئه ؟ وألقى بـثاهيل في جسد آدم روحاً (روها) من روحه الخاصة ، ومن ملائكة الكواكب رمى كل واحد فيه شيء من أسرار الخاصة.

ما دور النفس وما فائدة سلاح المعرفة الناصورية الذي وهب لها إن كانت الروح (روها) هي التي تتحمل مسؤولية كل فعل وتصرف ؟

إن كانت النفس لا تموت كيف نفسر موعظة الملاك منداهيي للنشمتا يا نشمتا حين ناديتك لم تجيبي ، وإذا كانت ديونك ستسوي وتغفر جميع خطاياك فترفعين إلى المعراج الذي به يصعد الكاملون وإذا لم تغفر ذنوبك فأنت يا نشمتا ستموتين موتاً ثانياً ولن ترى عيناك النور...

من هذا النص الواضح نعرف بأن النشمتا (النفس) مسبقاً قد ماتت (الموت الأول) وبعدها حينما تحاسب ولم تغفر خطايا ستموت (موت ثاني) وجب التساؤل متى شهدت النشمتا الموت الأول ؟ ومن الطبيعي لا يموت غير الذي يولد ، إذا متى وكيف شهدت الولادة ؟ وإن كانت النشمتا لا تحاسب لأنها لم تخطئ فلماذا يعمل لها طقوس المسقنا ؟ اعتذر لضرورة التوضيح ومن أجل الوصول إلى تفسير مقنع كثرت التساؤلات... تقبل شكري وتقديري.

أختك أم إيهاب

* * *

سيدتي الغالية أم إيهاب المحترمة...

أختي العزيزة... الدين المندائي أكثر الأديان تركيز ومعرفة بالنفس والروح النشمتا ، وقد خصص الجزء الأيسر من كتاب الكنزا ربا ، وكتب دينية أخرى

منها سيدرا نشماتا (كتاب الأنفس) تعلمين بقية الأديان تسمى النفس الروح ، ونحن المندائيون نفرق بين النفس والروح (الروهة) ، فهمي للأمور أن النفس هبة من هيى قدامي طاهرة نقيه ، توهب من الدموة للطفل الذي صور في رحم أمه في نهاية الشهر الرابع لتمنح كتلة اللحم هذه الحياة ، فيبدأ بالحركة المحدودة ويسبح في هذا الكون الصغير مربوط بالحبل السري (حبل الحياة)...

يولد الإنسان وهو بريء ونفسه نقيه طاهرة ، وخلال حياته يكتسب من هذه الالمة الخير والشر وكلاهما سميًا بالروح وفق الفكر المندائي التي ترافق النفس وتتحد معها لتشكل النشماتا ، وخلال فترة سجن النفس في الجسد واتحاد الروح معها تفقد النفس شيء من طهارتها ونقاؤها ، ولكن يمكن صقلها ونقاؤها ، من هنا يتوضح الترابط العضوي بين الكيمياء والتصوف عند الغنوصية الهرمزية نسبة إلى هرمس الحكيم (نبي الله إدريس).

إن المندائية يا سيدتي تركز على الأعمال الحسنة لطهارة النشماتا ونقاؤها وارتقاؤها إلى عالم الأنوار ، إذ لا يوجد أكسير يقوم بعملية التطهير ، وورد في الفكر الهرمسي أنه بالمعرفة وليس بالعلم يمكن خلاص النشماتا من المادة التي سببها الروح ، وبما أنه يمكن تحويل الخسيس من المعادن إلى معدن نبيل (ذهب مثلاً) بواسطة الصنعة والتدبير ، فكما يمكن تنقية الذهب بالكيمياء يمكن تنقية النشماتا بالإرادة والمعرفة ، وطبقاً للمبدأ الهرمسي (ما من طبيعة إلا هي مجذوبة بطبيعة أخرى ، وما من طبيعة إلا وهي مقهورة بطبيعة أخرى ، وما من طبيعة إلا وهي تهيم على طبيعة أخرى) ، ولذا يجب التخلص من الطبائع الدنيا بصقل النشماتا وتخليصها مما علق لها من خبث لتكون طاهرة نقيه كما جاءت في البداية من الدموة.

إن الروح (الروهة) موجودة في داخلنا وهي التي تجلب الخبث إلى النشماتا بسبب الشهوات والغرائز الملذات والشر بسوء التربية ، وواجب علينا بالمعرفة والإرادة القوية أن نحافظ على نقاء النفس في الحياة الدنيا لتجتاز الروح

المطراشي عند الحساب ، وتعود لتتحد مع النفس وتشكل النشمتا وتذهب إلى الدموثا، وفي تصوري في حالة بقاء الروح في المطراشي لكثرة ذنوبها ستموت موت ثاني، وهنا تعود النفس إلى بيت الأنفس (لست متأكد).

إذا أردنا أيتها الأخت العزيزة أن ندرس الروح في الأديان الأخرى الموحدة وغير الموحدة لغرض المقارنة والاستفادة؛ سنجد صعوبة تحديد ماهية وفلسفة الروح، ونحن كمندائيين علينا فهم ماهية النشمتا وفق الفكر المندائي وما دون في كتبنا الدينية، وتفسير ذلك بمعرفة عميقة، وكنت أتمنى أن يساهم رجال ديننا الأفاضل بالموضوع.

إن ما ذكرته حضرتك في سؤالك الوجيه يرجى ملاحظة أن الملاك المبجل منداهيي ينادي النشمتا وليس النفس، وكما قلنا أن النشمتا هي اتحاد النفس مع الروح، وهذا يعني أن الروح مازالت لم تتخلص من ذنوبها، وأن طقوس المسقتا وفق فهمي تعمل للروح لتسهيل خلاصها من المطراشي لأنه إن ثقلت ذنوبها ستموت موت ثاني، والمسقتا رجاء إلى الهيي قدامي للرحمة والغفران. (... نسألك الشفاء والظفر وهداية الجنان ، وهداية السمع واللسان ، ونسألك الرحمة والغفران آمين يا ربنا يا رب العالمين)... كنزا ربا اليمين.

إنها يا سيدتي فلسفة عميقة تحتاج إلى فكر نير وفهم عميق وأنا مازلت طالب بسيط مجتهد أحاول تنقيف نفسي وفهم الفكر المندائي ذاتيًا على قدر ما تساعدني معرفتي وفهم عقلي للأمور، وكما يقول القرآن الكريم {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} ، فإن أصبت فلي الثواب وإن أخطأت فاعذريني ، تقبلي تحياتي واحترامي أيتها المفكرة الراقية.

أحوك : د . بشير عبد الواحد يوسف

* * *

تحية طيبة للجميع...

سؤال لذوي الاهتمام : ما الفرق بين الخالق والصانع ، وهل يصح القول إن بٹاهيل (اسوٹا وزكوٹا نهويلخ) خالق عالما أم صانعه؟ مع الشكر والتقدير لمن يشارك... أم إيهاب/ رمزية فندي.

الجواب :

الخالق هو الحي العظيم (الله) الواحد الذي لا شريك له في ملكه ، خلق النشماٹا (النسمة) ، وخلق الملائكة بكلمة واحدة ونداء واحد ، وأوكل للملائكة صناعة وتنظيم الأكوان ، وبٹاهيل ملاك أثيري ناداه الملاك المبجل أبائر من المياه الآسنة ، فجاء ناقص ضوء وناقص نور...

ساعده الملاك أبائر بصناعة عالما الأرضي وفي صناعة جسد آدم وحواء من الطين الأحمر ، لكن النشماٹا (النفس) ، جاءت من عالم الأنوار بأمر من الحي العظيم نقلها الملاك المبجل منداهيي وأولجها في جسد آدم ليمنحه الحياة.

فالملاك بٹاهيل صانع عالما وهو أحد الصناع الذين ينفذون تعاليم الحي العظيم المتفرد المتسامي والغريب عن هذه الأكوان ، فالخلق يتم من لا شيء أما الصنع فيتم من شيء موجود ، ولهذا الحي العظيم بداية خلق الملائكة ولم يكن لهم وجود ، وخلق الأنفس أما بٹاهيل فصنع آدم من الصلصال الموجود في الأرض.

* * *

أختي العزيزة أم إيهاب المحترمة...

أود بداية أن أوضح فكرة طالما وقفت عندها عند قرائتها في الكتب الدينية المنزلة ، تمعنا في كتابنا المقدس الكنزا ربا ، في مناقشة مع مندائي مطلع ، قال أحس أن بعض البوٹ وكأن غير هيي يقول ، فقلت له إنها كلها من هيي ، ولكنها تصل إما لفظاً ومعنى أو معنى فقط ، ويصوغها الملاك الرسول الطاهر (جبرائيل) ، أو يسلمها إلى النبي معنى والنبي هو الذي يصوغ المعنى ، هكذا

فسرت الأمر اجتهدًا ، أما يا أخي ستار ما يخص السيد المسيح (عيسى بن مريم) فهو يعتبر نفسه هو الحي العظيم ، لأن الأخوة المسيحيون يؤمنون وفق اللاهوت المسيحي أن الرب تجسد في المسيح ولهذا يؤمنون أن ما يقوله عيسى من قصص وأحاديث ومواعظ هي من الرب لأن الحي (يهوه) هو عيسى وفق اللاهوت المسيحي ، ولهذا للمسيح القدرة على الخلق لأنه الله كما يؤمنون .

أنتما تعرفان أن الروحانيات كلها لا ترى ولا تلمس ولهذا العرب في الجاهلية وغيرهم أوجدوا الغرائق (النصب والتماثيل) ليتشفعوا بها زلفى إلى الله ، ومازالت الأمور عند كثير من الأديان ومنها التوحيدية تتشفع بالأولياء والأضرحة والتماثيل والصور ، نحن المندائيون لا نتشفع إلى هبي إلا بالملائكة النورانيين ، وهذا أحد أسباب خلافنا مع الأحناف والحديث هنا طويل .

أما موضوع العدم وبحر العماء فبحر العماء ورد في حديث للنبي محمد ويقصد به العدم أو المجهول أو علم الميتافيزقا (ما وراء الطبيعة) فلسفة أرسطو الفلسفة الأولى للوجود أي الغيبيات ، وأنا كمهندس مختص في علوم الطيران مقتنع من ناحية علمية فيزيائية أن المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم (ماديات) ، ومن ناحية أخرى مندائي مؤمن بكل كلمة وردت في كتابنا المقدس كنزا ربا ، بمعنى مؤمن بالروحانيات وهذا ليس تناقض .

سأل العالم الفذ أينشتاين صاحب النظرية النسبية ، لماذا تؤمن بالروحانيات وأنت عالم العلماء فأجاب كثير من الظواهر الطبيعية لا أجد لها تفسير وكثير من الأسئلة المحرجة لا أجد لها جواب فأنسبها إلى الروحانيات ، أنا بحاجة إلى الروحانيات يا سادة .

الملائكة مخلوقين من اليردنا وليس من العدم ، والنشمتا خلقت من نفس (نشمتا هبي قدمائي) وهبي قدمائي وحده انبعث من ذاته (من نافشي أفرش) ، وعبرة (ما كان لأنه ما كان ولا يكون لأنه لا يكون) ، التي ثبتت في ترجمة بغداد تعبنا عليها كثيرا واتفقنا عليها بعد أن أشبعناها دراسة واستشارات من المتمرسين في

الفكر المندائي ، ولا أفهم لماذا بدلت وبأي حق ، مع احترامي وتقديري لكل مجتهد ، وأنت يا أخ ستار أرجوك أن تستشهد بكتابنا المقدس كنزا ربا لا باللاهوت المسيحي ولا بالفقه الإسلامي ، بهذا نستطيع أن نتحاور ونفسر بعض الأمور بشكلها المندائي الصحيح ، واليوم هنالك كثير من العرفانيين الذين يرجحون العقل في تفسير كثير من الأمور الروحانية ، ونحن المندائيون دين حق ومعرفة تقبلا تحياتي واحترامي وتقديري ، وأنا سعيد بهذه المناقشة القيمة ودمتم سالمين وماري يحفظكم.

ملاحظة: ردود سريعة عبارة عن رؤوس أقلام...

أخوكم د. بشير عبد الواحد يوسف.

* * *

الأخ العزيز بشير...

النفس حسب علمي المتواضع هو الجزء الذي منحه هبي إلى الإنسان وحسب فهمي هو الوعي أو العقل ، وهو إلى حد الآن غير مفهوم من ناحية علمية ، فالعلم يقول إن الوعي هو نوع من أنواع الطاقة المتولدة نتيجة للتفاعلات الكيماوية داخل جسم الإنسان وعقله ، وفي حالة الموت تتوقف هذه الطاقة ، ولكن علمنا الفيزيائي للطاقة يعرف الطاقة أنها لا تفتنى ولا تخلق من العدم ، سيكون السؤال إذاً من أين جاءت ؟ تقول نظرية دارون أنها جاءت نتيجة للتطور البيئي للحياة، السؤال الثاني هل تفتنى بعد الموت ؟

الجواب علمياً أن هذه الطاقة سوف تضعف بشكل تدريجي في الفضاء حتى تتلاشى أو تتحول إلى شيء آخر ، ولكن بعض العلماء يؤمنون أن هناك عالم لا مادي مادام يوجد عالم مادي ، فثنائية الأشياء هناك عالم لا مادي يقابل العالم المادي ، أي العالم الثاني حسب الدين ، ولهذا نرى أن بعض العلماء يؤمنون بالأديان ، كل حسب دينه ، ويأتي التساؤل هل العالم الثاني هذا هو فعلاً كما يصفه الأنبياء ؟ أو ربما يكون شيء آخر ؟

وحسب الدين المندائي لقد قرأت اجتهادك لمعرفة الروح والنفس وهل تموت أو تعاقب ؟ أعتقد أن الإجابة لازالت مبهمة في كل الأديان ، والإنسان مازال يسأل من أنا ؟ وهل سأخلد بعد الموت أم سوف تنتهي رحلتي ويسود الظلام ؟

إن خوفنا من الموت والانتهاه هو الذي يجعلنا نتمسك بالأمل بأن هناك حياة أخرى تخلدنا إلى الأبد ، ولكن لدي في هذه الحالة تساؤل أين يوم القيامة من كل هذا ، وهل الديانة المندائية تؤمن بيوم القيامة وإنما سنبعث في يوم القيامة لنحاسب على أفعالنا ؟ في هذه الحالة أين ستنظر الروح أو النفس في هذه المرحلة من الانتظار ؟.

تحياتي لك أيها الأخ بشير عبد الواحد ، فهذا الموضوع شائك جداً وكنت أتمنى أن يجيب علماء الدين المندائيين عليه ويشاركونا النقاش خصوصاً الكنزابر

هيثم والكنز ابرا سلام غياض ، فهما متبحرين بالفلسفة الدينية المندائية ، ولكن أنت أيضاً معرفتك الدينية تدل على حبك لفهم الفلسفة المندائية الدينية، أتمنى أن تستمر بشروحك لهذا الموضوع... تحياتي...

خولت الرومي الناشئ

* * *

الأخت الأستاذة خولة الناشئ المحترمة...
تحية مندائية إلى ناشطة مندائية:

أتابع ما تكتبين ، كذلك نشاطك وحضورك المؤتمرات وآرائك القيمة ، بورك فيك وفي جهودك الرائعة أيتها المبدعة ، أختي أنا والأخت العزيزة رمزية أم إيهاب بدأنا في نقاش أساسه سؤال وجيه للأخت أم إيهاب وأمنياتي أن تتوسع هذه الحلقة الدراسية التي يعود الفضل بها لأختنا الغالية أم إيهاب ، وأدعو من هبي قدمايي أن يمنحنا جميعاً المعرفة والعقل النير على الإجابة الصحيحة لنفيد ونستفيد (خير الناس من نفع الناس) وعدة عقول نيرة خير من عقل واحد.

النفس يا أختي وحسب فهمي لا تفنى بعد الموت ولا تعاقب لأنها هبة من هبي طاهرة نقية ، الروح هي التي تعاقب في المطراني وتم شرح ذلك بإيجاز شديد بالجواب للأخت أم إيهاب العميقة التفكير والتركيز.

الإنسان المؤمن بالناصورات له حياة في هذه الالمة ، ويأمل في حياة أخرى في عالم الحق (مشوني كشطة) عندما ترتقي نشماتته إلى العالم الآخر ، بمعنى أن الإيمان بالحياة الثانية الإنسان يحيا حياتين ، والإنسان الذي لا يؤمن يعيش حياة واحدة هي حياة هذه الدنيا.

أما موضوع العقل قلنا إن الإنسان يتشكل من ثلاث عناصر أساسية (الجسد ، النفس ، الروح) واتحاد النفس والروح تشكل النشمتا ، وفق فهمي للفكر المندائي ، كذلك يتشكل من ثلاث عناصر ثانوية (العقل والضمير ، القلب)...

العقل : مركز التفكير والإبداع والتطور والحكمة.

الضمير : مركز الصدق والأمانة والعدل والإنصاف.

القلب : مركز الحب والحنان والعاطفة والحياة.

وأن العقل يدور ضمن مجال (zone) الزمان ، أما الحياة الثانية فهي خارج هذا المجال ، والناس نوعان : المتطرفون لا يؤمنون بالعقل والمعرفة ، وإلا بماذا تفسرين إنسان يفجر نفسه ليقتل الأبرياء ، أما المتتورين العرفانيين (المندائيين مثلاً) فهؤلاء يؤمنون بالعقل والمعرفة.

أختي العزيزة تسألين عن يوم القيامة وحسب فهمي في الفكر المندائي عندما يموت الإنسان يدفن جسده لأنه خلق من تراب وإلى تراب يعود ، وبعد ثلاثة أيام ترتقي نشماتته إلى أبائر لتوزن بالنموذج شيتل ، بعدها تتفصل الروح عن النفس وتذهب إلى المطرائي للحساب وتبقى النفس أمانة عند الملاك أبائر ، وقد تمّ شرح ذلك بشيء من الإيجاز الشديد.

ولأن ثقافتنا إسلامية تعلمنا منهم وفق الفقه الإسلامي القيامة الإسلامية التي يؤمنون بها ، أي يؤمنون بيوم الميعاد ، بمعنى أن الأرواح (كما يسموها) تذهب إلى البرزخ ، ويوم القيامة يبعث الله من في القبور ويكون مصيرهم جنة أو جهنم ، هذا يا سيدتي فقه إسلامي ، أما الفكر المندائي فكما ذكرت لحضرتك في أعلاه وفق فهمي المتواضع.

كان بودي أن أكتب لأختي العزيزة أم إيهاب إجابة على تساؤلاتها الأخيرة ولكنني مع الأسف لم أجد الرسالة ، ولكن مازال في ذهني شيء منها ، ولغرض أن نستفاد جميعاً أذكر أختي الغالية أن الأبجدية المندائية تبدأ بالحرف ألف وتنتهي بالحرف ألف ، وأن كتابنا المقدس كنزا ربا (م. أ) ، يبدأ باليمين وينتهي باليسار ، ويبدأ باليسار وينتهي باليمين ، أي دائرة مغلقة ، حتى الإنسان دائرة مغلقة ، لا يجوز قطع جزء منه لكي لا يشوه ، لأن المشوه عندنا حرام (وحرمانا عليكم الدم والميت والمشوه...) كنزا ربا اليمين ، حتى رحم المرأة الباكر كون

صغير مغلق (دائرة مغلقة) لا يجوز قطعها إلا وفق طقوس ورضا الحي العظمي وفق ما أنزله علينا من وصايا وتعليمات.

تمنيت كما تمنيتي أختي الأستاذة خولة أن يشاركنا في هذا النقاش رجال الدين الأفاضل من هم في رتب دينية متقدمة، مثلاً فأنا سمعت من جدي رواه ناوية وكان يفقه في الدين كثيراً مثل والدك رواه ناوية أن رجل الدين عندما يصل مرتبة ريش أمة تنزل عليه انكرثا (رسالة)، وأن أي سؤال يسأله يجاب عليه فوراً، وذكر لي مثلاً لذلك، الريش أمة أبو الفرج وكراماته، وكيف تمكن أن يفرج عن المندائيين عندما مروا بضائقة شديدة فأنقذهم بكراماته النورانية، لا أريد الإطالة، أرجو لك ولأخت أم إيهاب الصحة والعافية والعقل النير، وثقي أنا حاضر لأي سؤال أقدر أن أجاب عليه وفق معلوماتي البسيطة وأنا ثقي أبسط من البسيط...

أخواتي العزيزات وإلى مزيد من النقاش الجاد الفعال لنشد أزر بعضنا كما يوصينا كتابنا المقدس، وأرجو مخلصاً ألا تسفه الآراء، معلوماتنا تتطور مع الوقت بالمطالعة والبحث والنقاش المبدع الخلاق، والألف ميل تبدأ بخطوة ودمتم سالمين...

أعولك د. بشير عبد الواحد يوسف

* * *

الدين التوحيدي أنزله الحي العظيم على عباده وحياً أو إلهاماً سهلاً بسيطاً يركز على مرتكزين أساسيين الأول توحيد الحي العظيم ، وتسبيحه وتعظيمه وتمجيده والإيمان المطلق به بالعقل والشعور ومواجد القلب لأنه خالقنا ، والثاني تنفيذ وصاياه وتعاليمه التي تركز على مكارم الأخلاق ، بمعنى الدين يعني ببساطة الإيمان بالحي العظيم وحياً أو إلهاماً وتوحيده بالمطلق والتمسك بالأخلاق الحميدة ، أما التدين فيعني الشعائر والطقوس والشرائع التي أوجدها الإنسان لتمييز هذا الدين عن الأديان الأخرى ، وهي قابلة للتطوير والتحديث لمواكبة العصر...

وبمرور الوقت أعطيت هذه الطقوس الشعائر قدسية وأضيفت إلى الدين فضخمته وأثقلته وعقدته ، فأصبح عصياً على الشباب والأجيال الصاعدة استيعاب الدين وتطبيق تعاليمه ، هذا ليس رأيي وإنما رأي الكثير من المحللين والمفسرين المعاصرين ، ولهذا دائماً نقول إن تطور الشعائر والطقوس تتم بتطور رجال الدين الأفاضل...

ولهذا ضرورة التعليم الأكاديمي والعمل على إنشاء كلية دراسات مندائية ولو بالتنسيق مع جامعة من الجامعات ، وضرورة تشجيع الحركة الثقافية وتشجيع الإصدارات الدينية البناءة ودعمها واستيعاب الشباب وتبسيط الأمور بأسلوب شيق وجذاب وإفهامهم إن الدين يعني توحيد الخالق بالمطلق والتمسك بالأخلاق الحميدة التي أوصانا خالقنا بها في تعاليمه ووصاياه في كتابنا المقدس الكنزا ربا ، وما عداها فهي شعائر وطقوس تعزز التدين وعلينا وعلى رجال الدين الأفاضل تسهيلها وتبسيطها لهم ليتمسكوا بالدين بكل محبة وإيمان.

* * *

ولغرض فهم ماهية الحياة بعد الموت وفق الفكر المندائي والمكونات الأساسية للإنسان من جسد ونشمتا (نفس وروح) كعناصر أساسية ، ومن العقل والضمير والقلب كعناصر ثانوية ، ولغرض الإجابة هل النفس تموت أم لا ، وما معنى

الحياة الثانية ، وما معنى الدموثة ، وأين تذهب الروح بعد الوفاة وأين تذهب النفس ومن يحاسب منهما أم يحاسب كلاهما ، وهل توجد قيامة في الفكر المندائي كما في الفقه الإسلامي أم ماذا؟

وما الفرق بين الخالق والصانع؟ وهل الإنسان مخلوق أم مصنوع؟ وما معنى (كل ما يصنع بالأيدي يفسد وكل حي يموت) ، أسئلة تحتاج إلى أجوبة ، تحتاج إلى عقول نيرة للإجابة عليها.

إن أغلب الناس من العامة لا يحكم العقل والمعرفة وهناك متتورون يؤمنون بالعقل والمعرفة ، وفي هذا الكتاب وفي هذه النقاشات يهمننا أمر الجميع ورأي وقناعة الجميع رغم أن قناعة الناس غاية لا تدرك ، ولكننا يجب أن نحاول ويجب أن نبدأ ويجب أن نطور هذه المعلومات ونضيف إليها ونعدل بها لتستقيم الأمور ولنصل إلى المراد (يا من تدعي بالعلم فلسفة قد عرفت شيئاً وفاتتك أشياء)... لنطلع كلنا على هذه المناقشة القيمة ونقيمها ونحاول أن نحسنها ونضيف إليها لتستقيم الأمور ونضع جواب لكثير من الأسئلة الفكرية إكراماً لعقولنا ومعرفتتنا وإيماننا ، وإكراماً للشباب أمل المستقبل.

* * *

باسم الحي العظيم...

أعزائي فضيلة رجال الدين المندائي المحترمون ، أعزائي جميع المتبحرون
والأساتذة باللاهوت والعلم المندائي المحترمون تحية مندائية طيبة...

الموضوع: سؤال عن الماء الحي...

الجميع يسمع ويقرأ أن الماء الجاري هو حي وهذا موجود في جميع الديانات ،
حيث الإسلامية منها تقول (وخلقنا من الماء كل شيء حي) ، ونحن المندائيون
نقول إن الماء الحي قد نزل من عالم الأنوار والمراجع المسيحية تؤكد أن الماء
ليس مجرد مادة فيزيائية بحتة ، وأن لها مفهوم يتعلق بمبدأ الحياة ، الكل يدلوا
بدلوه ولكن لا أحد استطاع أن يثبت أو يفسر بطريقة أو أخرى كيف أن الماء
هو حي وله صفات تتعلق بالحياة ، لذا أرجو من جميع الموقرين أعلاه
استزادتنا من علمهم في توضيح هذا الموضوع الدارج جداً...

مع فائق التقدير والاحترام
المهندس عباس الزهيري

* * *

جواب على سؤال الماء الحي...

الأخ المهندس عباس الزهيري المحترم...

الماء ، الضياء والحياة... حلقات مترابطة بين عالم النور والأرض ، الماء
الحي نشأ في عالم الأنوار ، لأن بعد أن كان عالم النور بدأت الحياة ومنها جاء
الماء الحي ، ومن الماء الحي جاء البهاء ، ومن البهاء النور ومن النور جاء
الملائكة الأثريون ، ومن النور والماء جاءت الحياة.

كذلك يذكر لنا كتاب الكنزا ربا أن الحياة تكونت من الماء والنور بقوة ملك
النور السامي ، فبأمر ملك النور ذي الوقار حل الثمر العظيم داخل الثمر العظيم
وبأمره كان أثير الضياء العظيم ، ومن أثير الضياء العظيم صارت الحرارة

الحية ومنها صار النور ، ثم صارت الحياة وصار الثمر العظيم ، وصار فيه يردنا ومنه صار الماء الحي البهيج ، ومن هذه المياه الحية صارت الحياة بعدها صار الملائكة الأثريون ، وبعد أن صارت الحياة صار الظلام ، ثم صار العوز والنقصان.

كان الماء الآسن يغطي الأرض ، وعندما صب الماء الحي من عالم الأنوار فيه أصبح عذباً لغرض نشر البهاء وتقديم العون للأرواح وتهئية المناخ للمصبتا والشفاء ، إن اختلاط الماء السماوي بماء الأرض عزز العلاقة بين عالم النور والعالم الأرضي مما أدى إلى نشوء الحياة في عالمنا هذا ولولا ذلك لبقى ماء الأرض آسن لا حياة فيه... إن الماء والنور رمزا الحياة.

إن الماء الحي هو حلقة الوصل بين عالم الأنوار والعالم الأرضي ، وهو المعبر للنشمتا في عروجها تساعدها الحياة والنور ، إذ توجد مياه في الأرض ومياه في عالم النور وبينهما توجد مياه ، الماء كما تعرف يا أبا زيد وأنت مهندس قدير يتكون من ذرة أكسجين وذرتين هيدروجين (H_2O) وهذا الجزيء يحمل شحنة سالبة تمثل (O_2) وشحنة موجبة تمثل (H_2) وهذا يعني وجود قطبان لهذه الجزيئة بينهما قوة جذب تتأثر بارتفاع وانخفاض درجة الحرارة كما تعلم.

كذلك أنت تعلم أن الماء من المواد الشاذة أصلاً ، فهو يزداد حجمه عند التجمد عكس الفلزات ، وهو ينتقل من التركيز المنخفض إلى التركيز العالي وهذا سر الخاصية الشعرية ، وعندما يتجمد يطفو على سطح الماء ويحافظ على درجة حرارة الماء الذي تحته من أجل بقاء الأحياء المائية واستمرار الحياة ، وتعرف أيضاً أنه مادة مطهرة ومذيبة وهو أفضل المذيبات والمنظفات.

والماء يمثل الجزء الأساسي من الخلية الحية ونحن البشر ٧٠% من وزننا ماء والماء يدخل في تركيب حتى الأجزاء الصلبة القاسية ، وأذكرك عندما ضرب الأمريكيان طائرات الميك ٢٥ في الملاجئ الكونكريتية المسلحة في الحبانية

وفجروا الطائرات المحملة بالوقود والأسلحة وهي داخل هذه الملاجئ الضخمة واشتعلت النيران ساعات طويلة ، وعندما تبخر الماء من الكونكريت وجفت تفتت وانهارت.

وإني يا أخي دائماً أسأل نفسي كيف تطفئ الحرائق بالماء وهو يحوي عنصر الأكسجين القابل للاشتعال ، ولماذا لا يستخدم الماء في إطفاء حرائق النفط ، والجواب لأنه يزيد من كتلة اللهب ، وهناك حالياً تجارب على رش الماء في أنبوبة النفط في المحركات النفاذة لزيادة كتلة اللهب وبالتالي زيادة قوة الدفع ، ويقال هناك محاولات لفك أصرة الماء لاستخدامه كوقود ، (طاقة رخيصة) .

أخوك د. بشير عبد الواحد يوسف

* * *

كتب المندائي الغيور وهو من الناشطين المندائيين (نمير نهاد الخميسي) في مجال العمل المؤسسي مقال للنقاش لنجعل من مؤسساتنا المندائية مؤسسات عصرية ونظامية ، تحياتي... إنني أبدأ من اليوم الأول لتأسيس أي مؤسسة مندائية حيث يتم تشكيل هذا الوليد الجديد...

أولاً : على المؤسسين إطلاع الناس على النظام الداخلي لهذه المؤسسة ، لكي تناقش بإسهاب منعاً للشغرات القانونية ، على اعتبار أن النظام الداخلي هو دستور هذه المؤسسة.

ثانياً : عند الانتهاء من إقرار هذا الدستور ننتقل إلى مرحلة الاشتراكات حيث الراغبين بالانضمام إلى هذه المؤسسة عليهم دفع اشتراكات انتساب بعد إيمانهم بالنظام الداخلي.

ثالثاً : هذا يؤدي إلى تأسيس قاعدة جماهيرية لهذه المؤسسة والتي بدورها هي المحرك الأساسي لهذه المؤسسة ، وهي التي تقرر في الأمور المصيرية لهذه المؤسسة ، أي أنهم الهيئة العامة للمؤسسة.

رابعاً : على المؤسسين عندها دعوة هيئتها العامة أي دافعي بدل الاشتراك لغرض عقد المؤتمر الأول لهذه المؤسسة.

خامساً : في المؤتمر الأول تحل اللجنة التأسيسية نفسها وانتخاب لجنة إدارة مؤتمر من قبل الهيئة العامة.

سادساً : تعيد لجنة إدارة المؤتمر قراءة النظام الداخلي الذي أقر في المؤتمر التأسيسي مع إبلاغ المؤتمرين بتسجيل المؤسسة عند الجهات الرسمية للدولة.

سابعاً : يتم الإعلان لتأسيس هيئة إدارية لهذه المؤسسة بعد أن يفتح باب الترشيح لرئاسة الهيئة الإداري ، ومقترحي أن يكون ذو خبرة إدارية وليس عليه شائبة قانونية ، وأن يكون ملم بعمل المؤسسات المدنية لتلك الدولة وأن يتحلى بالحد الأدنى من دورات العمل المدني.

ثامناً : يتم بعد ذلك فتح باب الترشيح إلى نائب أو سكرتير المؤسسة والذي بدوره يجب أن يكون ذو خبرة وإلمام لا يقل عن رئيس الإدارة.

تاسعاً : يتم فتح باب الترشيح لانتخاب المحاسب المالي للمؤسسة ، مع اثنين من المدققين الماليين ، على أن يكونوا جميعاً من ذوي الاختصاص مهم جداً.

عاشراً : يفتح باب الترشيح لانتخابات اللجان المقررة في النظام الداخلي ، وعلى أن يكونوا ذوي خبرة ومؤهلات في لجانهم أي مسؤول الإعلام ذو خبرة ومؤهله إعلامي ، مسؤول المرأة والطفل ذو خبرة ومؤهله للعمل مع الأطفال ، مسؤول الشباب والرياضة كذلك ذو مؤهلات وخبرة ، مسؤول العلاقات ذو مؤهلات في بناء علاقات مجتمعية مع باقي الدوائر والمؤسسات الرسمية في الدولة ، مسؤول المشاريع على أن يكون ذا تخصص في هذا المجال كأن يكون محامياً أو اقتصادياً لبناء هيكلية أي مشروع يطرح لبناء هذه المؤسسة.

حادي عشر : إن ما طرح أعلاه مهم جداً بأن تكون الهيئة الإدارية ملزمة بقوانين البلد وملزمة بلغة البلد ، أي أن تكون ذات كفاءة عالية لتحقيق الأهداف المرسومة في خطة العمل والتي تطرح في المؤتمر الأول لخطة سنة أو سنتين.

ثاني عشر : يتم ترشيح اسم محاسب قانوني أو مؤسسة قانونية لغرض متابعة الأمور الحسابية بعد انتهاء كل سنة مالية ، بعد أن يتم تدقيقها من قبل المدققين المنتخبين.

ثالث عشر : بعد الانتهاء من الانتخابات وإقرار الهيئة الإدارية مع إقرار خطة عمل هذه المؤسسة يتم حل لجنة إدارة المؤتمر والتي كانت بدورها قد سجلت جميع محاور المؤتمر في وثيقة ختامية تقرأ على المؤتمرين في النهاية من قبل الهيئة الإدارية المنتخبة ، وهذا البيان يعتبر محضر اجتماع المؤتمر الأول ويوقع من قبل مدققين ، أي بروتوكول الأول لهذه المؤسسة أي علينا إنجاز بروتوكول الاجتماع السنوي ، وبروتوكول خطة العمل للمستقبل وبروتوكول

المحاسب القانوني ، وبرتوكول الهيئة الإدارية المنتخبة ، وبرتوكول الإقرار المالي ومن أين سوف تأتي مالية هذه المؤسسة.

رابع عشر : أن جميع البروتوكولات فيما سبق توقع من اثنان من المدققين أن ما تمّ طرحه أعلاه أعتقد حل للوصول ودفع مؤسساتنا للتواصل مع المجتمعات المتواجدة بها ، وأن ما ذكر أعلاه ليس إلزامي لأن كل دولة لها قوانينها على مؤسسات المجتمع المدني علينا مراعاتها عسى أن أكون قد وفقت وعذراً إذا فاتني شيء مع الشكر لكم جميعاً...

* * *

تعقيب :

أنا أتردد على الجمعية المندائية في ستوكهولم وألاحظ النشاط المتميز للأستاذ نمير نهاد ، والهمة العالية في العمل والقدرة على مراجعة الدوائر السويدية وهذا جهد يسجل له ، وجميع سياقات العمل التي ذكرها السيد نمير ، وضرورة العمل بموجبها ، ولكن أين العناصر الكفاءة التي لها الاختصاص والرغبة في العمل ، وأين الشباب المندائي ، وأين حضوره لقد أصبح هؤلاء عملة نادرة يا سيدي من بالغ الصعوبة تطوعهم للعمل مع وجود شيء من المشاكل والخلافات ، وأنا وفق رأيي لو أمكن أن تختص الجمعية بالأمر الإداري والترفيهية والثقافية وتبعد نفسها عن الأمور الدينية لكان أفضل...

لكننا نتذكر نادي التعارف في بغداد والبصرة والنجاحات الباهرة التي حققها معنوياً ومادياً ، وندواته الثقافية والترفيهية والاجتماعية ، حتى غدى مؤسسة يشار لها بالبنان في تجميع العوائل المندائية على مدار الأسبوع صيفاً وشتاءً ، وكيف تتسابق العوائل للاشتراك فيه ، وكيف يتفاخرون بدعوة أصدقائهم ومعارفهم من الأدباء والأساتذة والشعراء والملحنين والمطربين ، وعدد من رجالات الدولة المهمين الذين تحتاجهم الطائفة لتسهيل بعض المهام التي تخدم الطائفة ضمن الأصول والقانون.

لندع الدين إلى مؤسسات الطائفة الدينية، ولنستفيد من الحرية والديمقراطية في هذه البلاد ونطور هذه المؤسسة المدنية لتكون مجال رحب للشباب المندائي لتعارفهم وانفتاحهم واستثمار قدراتهم وتوجيههم باتجاه العلم والمعرفة لنتباهي بهم وليشكلوا لنا سلسلة من الحلقات العلمية والأدبية المتقدمة وشكرًا لجهودك أيها الأخ العزيز نمير نهاد ودمتم...

أخوك د. بشير عبد الواحد يوسف

* * *

المعرفة والمحبة :١

يقول المثل الانجليزي: شيئان ينموان بالانتشار؛ المعرفة والنار...

الإنسان العاقل هو الإنسان الذي يستطيع أن يعرف، والعقل هو وظيفة المخ ونتيجة المعرفة، وحين نعرف نميل نحو أو نميل ضد، وعلى هذا فالمحبة مرتبطة بالمعرفة، ذلك أن الإنسان لا يحب المجهول إن لم يكن عدوه، وهو يسعى لمعرفته ليكون على بينة منه في محبته، وما يخرج عن هذا السياق القيم المطلقة المتمثلة بالحق والخير والجمال، لأن المعرفة في هذه القيم مكشوفة، وقابلية التمييز بينها وبين الباطل والشر والقبح مدركة ضمن المعرفة العيانية الحاسية والإدراكية للإنسان، ولذلك سميت قيم مطلقة لا تحتاج إلى برهان، فاتفق عليها الإنسان وعلى مر الزمان.

ويرد في كتاب الكنزا ربا المبارك أن المعرفة بسطت لآدم ولحواء وزوجه وذريتهما من خلال ما كشف له، ومن خلال تزويده بالمانا/ العقل، ليدرك ويعرف كل ما يحيط به، فتكون حياته وذريته ذات معنى بالمعرفة.

ومن أجل المعرفة وحب المعرفة كانت الدعوة الكريمة التي تلقيتها من أهلنا المندائيين في مدينة مالو من قبل المجلس المندائي لجنوب السويد والجمعية الثقافية والهيئة الاستشارية وجمعية يونا النسائية للقاء يزيد التعريف بالمندائية محبة بها ولمحبة أكثر، انطلاقاً من أن المحبة تزداد كلما عرفنا أكثر، كيف لا وتسمية المندائية قائمة أساساً على الفعل المندائي يدا بمعنى عرف، وهكذا كان لقاء يوم السبت الثقافي بعنوان قيم المندائية الأصيلة في المعتقد والطقوس والتراث.

كان لقاءً مندائياً حميماً بدأ بحسن الاستقبال والضيافة والتكريم، وكان علي أن أكون عند حسن ظن أهلنا في تهيئة مادة المعرفة في المندائية معتقد وطقوس

وتراث ، والتي نسعى لتطويرها لنسهم مع الجميع في توضيح ما للمندائيين من قيم أصيلة فيها وبيان قصب سبق المندائية في الكثير منها.

سررت كثيراً بحسن الإصغاء وتفاعل الحاضرين التام مع ما قدمناه، وبالأسئلة والنقاشات القيمة اتي دلت على الرغبة في مزيد المعرفة وعلى عدم الملل ، رغم أن اللقاء دام حوالي ثلاث ساعات ، وسررت كثيراً بالحضور المتنوع ثقافياً، والحضور بين الشباب وحتى من هم بعمر ٨٧ عام، وسررت بالحضور اللافت للمرأة المندائية ، وقفت على الرغبة في المعرفة المندائية من خلال المطالبة بتكرار مثل هذه اللقاءات إن كان منا أو من العارفين والقادرين على توفير هذه المعرفة بالمستوى الذي يراعي الطرح فيه هذا التنوع، حتى من قبل الأخوة رجال الدين ، أشكر جميع أهلي المندائيين لحفاوة اللقاء وباقات الورود الكثيرة وهداياهم التذكارية وأعتر بالعضوية الفخرية التي شرفوني بها في جمعيتهم.

ومثلما حصل مع أهلي في مالمو حصل أيضاً في الدعوة الكريمة التي وجهتها لي الجمعية المندائية في الدنمارك يوم الأحد لإلقاء محاضرة بعنوان (الماء الحي في المعتقد والطقس المندائي) ، وكان جميلاً أن يشاركني في جانب من هذا الموضوع الأخ المهندس عباس فاضل الزهيري، بتناوله خصائص علمية فيزيائية في الماء ، كان اللقاء مفيداً في معرفة جوانب أساسية في هذه المادة المعجزة التي يرتبط المندائيون بها أيما ارتباط ، فالمندائية والماء صنوان لا يفترقان ، ولذلك ذكر الماء بتفصيل في كتبهم في الخلق والتكوين والطهارة والحياة، الشكر للجمعيتين في ما أعقب اللقاءين في الأمسيتين العائليتين للترفيه عن الحاضرين، ولمزيد العلاقات الاجتماعية المندائية محبة وإخاء.

محبتني للجميع وخالص تقديري لكل من يعمل على إشاعة المعرفة المندائية الحقة والصحيحة.

قيس مغشغش السعدي

تعقيب :

الأستاذ الدكتور قيس مغشغش غني عن التعريف ، زميلي ورفيق دربي في العمل المندائي سنين طويلة ، وقدم خدمات جليلة لأبناء طائفته ورفعته دينه المندائي لثلاث عقود متتالية في الوطن الأم وفي المهجر ، وهو موسوعة ثقافية متطورة ومحاضراته ومقالاته قيمة ، وهو الذي أنشأ مجلة آفاق مندائية التي يصدرها مجلس شؤون بغداد ، وبعد هجرته إلى ألمانيا استلم الإصدار شقيقه الأستاذ حامد مغشغش ، وبعدها استلم رئاسة التحرير الأستاذ نزار ياسر الحيدر الذي طورها وجعل منها مجلة رائدة تضاهي في مواضيعها وإخراجها وطباعتها أرقى المجالات.

نعود لنحيي الأستاذ الدكتور قيس على محاضراته القيمة المعززة بوسائل الإيضاح في مالمو (المعرفة في المندائية معتقد وطقوس وتراث) ، لأننا عرفانيون بمعنى عرفنا الحي العظيم بالعرفان ، وبيت العبادة عندنا يسمى المندي ، ونحن المندائيون وتعني أهل العلم والمعرفة وفعلاً المعرفة مرتبطة بالحب والحق والخير والجمال ، لأنه الحي العظيم جميل وهو الحق الكامل والخير الصميم والمحبة لكل الناس.

والمستمع (المتلقي) يستطيع أن يقيم المحاضر والمحاضرة من سعادته وارتياحه وانشداده للمحاضر لتقبل مزيد من المعرفة دون أن يصاب بالملل ، وعلى ذكر الملل فقد كتبت مقالة حول الملل نشرتها على الياهو جروب وتضمنها كتابي حكايات صغيرة أرجو الإطلاع عليها مرفقة لتوخي الفائدة.

كذلك ألقى الأستاذ الدكتور قيس مغشغش محاضرة أخرى في الجمعية المندائية في الدنمارك (الماء الحي في المعتقد والطقس المندائي) أعقبه بمحاضرة علمية الأستاذ المهندس عباس فاضل جميل الزهيري (السر العظيم للماء) ، أعجبتني كثيراً لكونها محاضرة فيزيائية كيمائية فيها شيء من الباراسيكولوجي على ما أظن.

وهو يحاول أن يوصل للمتلقي بالصورة والتجربة المختبرية أن الماء يحس ويتأثر ويرى ويسمع، ولهذا ليس غريباً عندما يعتبر الدين المندائي وفق ما ورد في كتاب الكنزا ربا أن الماء والنور هما رمزا الحياة ومن الماء خلق كل شيء حي وهذا ما تؤكد لنا الكتب السماوية الأخرى إذ ورد في القرآن الكريم {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} ^١، كما ورد في الإنجيل (أن الماء ليس مجرد مادة فيزيائية، إنه مفهوم نادر عظيم، وهذا المفهوم يرتبط بفكرة الحياة)... والمهندس عباس شخصية مندائية مرموقة قدمت خدمات جليلة لأبناء الطائفة وإعلاء شأن الدين المندائي في الوطن الأم وفي المهجر.

* * *

١ - القرآن الكريم : سورالأن لآياء- الآية ٣٠.

حجاية زغبرونة (الملل):

الإنسان لا يستطيع ان يعيش وحده ، ولذلك الذي يعيش بمفرده أي بغير أن تكون له صلة بالآخرين هو الله ، لأنه ليس بحاجة لأحد لأنه قائم بذاته ، ولهذا الكتب الدينية تقول الله واحد أحد ، ليس له شريك ولا ولد ، ورغم أن كتابنا المقدس كنزا ربا يذكر أن الملائكة يسبحون للحي العظيم ، ولا نعرف هل هذا التسبيح عن قرب أو عن بعد.

وكذلك الحيوان يستطيع أن يعيش وحده بسبب عجزه عن الإحساس بنفسه وبغيره ، والإنسان يستطيع أن يعيش وحده فقط عندما يكون في حالة ملل ، عندما يكون معزولاً عن الآخرين فلا يشعر بنفسه ولا بغيره ، والملل الذي يصيب الإنسان يجعله أقل رغبة وتذوق للعالم والحياة ، فيكون طعمها على اللسان غريباً ، وألوانها في العين غريبة ، ورنينها في الأذن غريباً ، وملمسها أيضاً غريباً.

فالملل هو الذي يجعل كل ما حولنا غريباً ، فنكون غرباء في هذه الدنيا ، فالشعور بالغربة هو بداية الملل ، فتأفف العين من الرؤيا ، وتعاف الأذن الاستماع ، ويغشنا لمس أي شيء حولنا ، وعندما خلق الحي العظيم آدم وحده شعر آدم بالملل ، فخلق الله حواء أنيساً له ، والحكومات الدكتاتورية الشمولية في البلدان المتخلفة تعاقب المناضلين السياسيين بوضعهم في السجن الانفرادي زنانات ضيقة محكمة مظلمة لفرض الملل على المناضل لغرض نزع آدميته وسلب الإحساس والشعور منه وقطعة عن التواصل مع الآخرين وإصابته بالملل كما كان يحدث في الحاكمة وسجن الحوتة في بغداد مثلاً.

ولكن فاتهم أن المناضلين بالحب يطردون الملل لأنهم يحبون مبادئهم وانتمائهم وأيدولوجيتهم وبالتالي يحبون شعبهم ، وهنا في السويد يشغلون الناس بالعمل ومراجعة مكاتب العمل وبالحركة ليزيحوا الملل خاصة في فصل الشتاء الجليدي ، أما في بلدنا العراق فالإنسان هناك مجهد يبحث عن الرزق والغاز

والنفط والكهرباء ومراجعة دوائر الدولة، حتى اللطم في المواكب الحسينية في عاشوراء يسبب الملل من البطالة والظلم والفقر والجهل...

ومن الملل تعاقبت الامبراطوريات القديمة البابلية والفرعونية والإغريقية والرومانية، ومن الملل من الدولة الأموية جاءت الدولة العباسية، ونحن العراقيون مللنا دولة المحاصصة ومللنا الغربة فمتى يأتي الفرج؟! وهكذا من الوثنية تعاقبت على الناس المندائية واليهودية والمسيحية والإسلامية، ومن الكاثوليكية خرجت البروتستانتية، ومن الملل من أوروبا اكتشفوا أمريكا، ومن الملل من الكرة الأرضية يسعى الإنسان بواسطة الأقمار الصناعية ومحطات الفضاء والمسبارات الجوالة أن يجد كواكب بديلة يعيش فيها، ومن الملل من الإقطاع قامت الثورة الفرنسية، ومن الملل من الرأسمالية قامت الثورة الروسية، ومن الملل من الشيوعية ظهرت الوجودية، ثم ظهرت اتجاهات اللامعقول في المسرح والفن.

وليست الجرائم التي يرتكبها الإنسان إلا بسبب الملل، حتى الشعوب تطرد الملل بالحروب المدمرة، ولهذا قال الحكماء أن الحل الوحيد للخلاص من الملل هو أن نحب بعضنا بعض، أن تكون لنا صلات وتواصل وعمل وعلاقات اجتماعية مبنية على الحب، علينا أن نحب الناس، نحب الحياة، نحب الكون كل الكون، فأنا أحب وأنت تحب وهي تحب وشهريار يحب وشهرزاد تحب، إذن بالحب نطرد الملل، ونحن في غربتنا لكي لا نصاب بالملل علينا أن نحب ونتواصل، فالحب والحنان والعواطف والعمل والتواصل أجمل وأحلى ما يتمتع به الإنسان.

د . بشير عبد الواحد يوسف

* * *

هناك أسئلة محيرة لا يوجد جواب دقيق وشفافي لها ، الإجابة عليها عبارة عن اجتهادات ، ومن هذه الأسئلة المحيرة التي أقف أمامها ؛ إذا كان فعلاً الدين المندائي حسب ما تؤكد لنا كتبنا الدينية ووفق ما نؤمن به نحن المندائيون قد نشأ في عالم الأنوار ، وأن الملائكة الأثريون مندائيون وأن المثلثاء (الدموثا) في عالم الحق مندائيون ، وأن رأسا السلالة البشرية آدم وحواء خلقا مندائيون ، وأن الملاك المبجل مناديهي علمهم الوصايا والتعليمات والأسماء ، وغرس في نفوسهم الإيمان بأمر من الحي العظيم ، وأن ذريتهم طاهرة نقية مؤمنة بهذه التعاليم.

إذن قد بدأ الدين المندائي كجذر التوحيد الأول ربهم الحي العظيم ونبیهم آدم أبو البشرية وكتابهم ما نزلت من الصحف الأولى من الكنزا على آدم ، وهذا الدين التوحيدي هو الدين الأول ولا يوجد غيره دين ، والمفروض ذرية آدم ذرية مندائية بامتياز ، ليس هناك عقيدة أخرى تنافسها ، إذن ما الذي حصل ؟ ولماذا بقي المندائيون محدودي العدد والعدة ، ومن أين أتى تعدد الآلهة وعبادة الأوثان والأديان غير التوحيدية؟.

لقد أدرك المندائيون السومريون والبابليون والآكديون ، لماذا زاغ هؤلاء عن الدين الحق وعبد السومريون عدة آلهة مثل :
أنليل : آلهة الهواء.
نمو : آلهة المياه الأزلية.
وغيرهم من الآلهة.

كذلك عبد البابليون عدة آلهة مثل :
مردوخ : الآلهة الخالق.
عشتار : آلهة الخصب والحرب معاً.
ثم أوجدوا للقمر آلهة سموه سين وللشمس آلهة سموه شامش وهذه أسماء ليست غريبة على أسماعنا.

إنّ لماذا زاع هؤلاء وهم بُناة الحضارة الإنسانية ، والمعلمون الأوائل الذين علموا البشرية القراءة والكتابة وأمور حضارية أخرى؟ ولماذا زاع الفراعنة وادعوا الألوهية؟ وكذلك الإغريق والرومان أهل العلم والفلسفة وغيرهم ، وبعدها عالج الحي العظيم هذا الأمر الجلل بالرسالات وحياً وإلهاماً ، فتعددت الأديان وانقسمت إلى مذاهب ، وحدثت بينهم الحروب والكوارث المدمرة بسبب الاختلاف بالعقيدة الذي ذهب ضحيتها خلق كثير ومازالت حتى يومنا هذا... فهل يا ترى هناك إجابات مقنعة لمثل هذه الأسئلة يا أهل المعرفة؟.

وهذا مفكر يتكلم عن تاريخ الأديان ، ويقول إن الإنسان البدائي عرف الدين حسب فهمه للدين ، وقد حيرته أسرار الحياة وأنواع الكوارث التي يتعرض لها ، ولهذا تراه يغير معتقداته بين الحين والآخر ، ولنطلع على هذا المقال الذي يعبر عن وجهة نظر كاتبه.

العقيدة الدينية قديمة قدم الإنسان ووجوده على سطح الأرض ولكنها صعبة التحديد بدقة من حيث الزمان والمكان ، وفكرة الدين ذات صلة وثيقة بالإنسان منذ أول نشأته ، ومع ذلك يمكن القول إن الإيمان بالدين وجد في مناطق عديدة من العالم ، وبين أقدم الجماعات البشرية التي عثر المنقبون والآثاريون والإنثربولوجيون في مواقع استيطانهم على مخلفات لها علاقة بالدين ، فإنسان نياندرتال مثلاً كان يعيش في العصر الحجري قبل نحو مائة ألف عام ظهر بين مخلفاته ما يدل على أنه كان متأثراً بالدين ، وإذا كان الدين ظاهرة وحاجة اجتماعية رافقت الإنسان منذ أول نشأته فقد تطور الفكر الديني من حالة بدائية ساذجة إلى حالة عالية متكاملة وأن لرقى الفكر البشري نصيب من هذا التكامل.

إن الحياة البدائية كانت محفوفة بالمخاطر والكوارث وقد قضى الإنسان قرون لم ينفك خلالها عن معرفة منشأه ومصيره قاصر الإدراك دفعته ملاحظته لما يحيط به وحيرته أمام الأسرار التي يراها ولا يدرك كنهها ، لذلك كان الإنسان

القديم يعتقد أن كائنات خارقة هي التي تسبب له الموت أو المرض أو الجوع ، فالخوف من الموت ومن نتائج الحوادث الخطرة والدهشة من الأمور التي لم يستطع إدراكها واستعطاف الآلهة لكسب رضاها ، أو لدفع آذاها أو لشكرها على ما أنعمت عليه من خيرات كل هذه الأمور تضافرت على نشوء العقيدة الدينية وساهمت في تكوينها.

لذلك فدراسة الديانة تعد على قدر كبير من الأهمية لمعرفة تاريخ وحضارة أي أمة من الأمم ، ومهما اختلفت الديانات وتباينت فيمكن أن القول بصورة عامة أنها تفترض وجود قوة عليا في الكون يسعى الإنسان دائماً للتقرب إليها عن طريق العبادات والطقوس المعينة ولا شك في أن المعتقدات ترجع إلى أزمان بعيدة في عصور ما قبل التاريخ ، (عصور ما قبل اختراع الكتابة) ، فإن ما خلقه الإنسان من آثار مادية مثل الرسوم على جدران الكهوف والدمي الطينية والحجرية قد أسهمت في الكشف عن جوانب من معتقداته التي حاول فهم وتفسير ما يحيط من الظواهر الطبيعية المختلفة.

إن ما نعرفه عن ديانات سكان وادي الرافدين في عصور ما قبل التاريخ قليل وغير كامل ، لأن معلوماتنا عنها تعتمد على المخلفات المادية التي تركها الإنسان في الكهوف والملاجئ الجبلية والأكوخ ، وباحث الآثار ليست لديه وثائق دونت عليها الأفكار والممارسات الدينية لأن الكتابة لم تكن معروفة ولم ت اخترع إلا في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

إن الأدلة على وجود مثل هذه المعتقدات الدينية ترجع إلى العصر الحجري القديم الذي يقع بين ١٥ - ٣٠ ألف سنة قبل الآن ، إذ عثر في كهوف فرنسا وإسبانيا على رسوم جدارية ملونة تمثل أنواع متعددة من الحيوانات والطيور والأسماك التي كان الإنسان يصطادها ويعتمد عليها في غذائه ، إذ يعتقد إنسان ذلك العصر أنه إذا ما رسم صورها فإن الحيوانات الحقيقية ذاتها سوف تقع تحت سيطرته.

واعتقاداً منه بالمبدأ نفسه فقد صنع الإنسان في هذا العصر منحوتات صغيرة على شكل دمي من العاج أو العظام أو الحجر أو الطين يمثل قسم منها نسوة حبالى من أجل التشبيه بالقوى الخلاقة في الطبيعة ، ومن أجل التعبير عن مفهوم الخصب والتكاثر ، والحقيقة أن المصادر الكتابية عن الحياة الدينية لدى العراقيين القدماء متعددة كالقصص والأساطير السومرية والبابلية التي تتعلق بخلق الكون والإنسان وبعض المؤلفات الأدبية كالملاحم والنصوص السماوية الخاصة بالآلهة وألقابها والنصوص الخاصة بالاحتفالات الدينية ونصوص التنجيم أي رصد الكواكب والأجرام السماوية لمعرفة أثرها في شؤون الناس.

العلمانية ؛ الدين السياسي ونقد الفكر الديني :

في مقال له كتب الأستاذ عمرو إسماعيل ؛ عندما أكتب في هذا الموضوع الشائك وأطرحه للنقاش سأحاول وصف الواقع وما يعبر عنه هذا الواقع من وجهة نظري ، وهنا يجب أن أوضح أنني لا أتكلم عن دين معين ، ولكني أتكلم عن المفهوم العام للدين ، ولا أتكلم عن شعب معين أو حضارة معينة وذلك لإيماني أن الحركة الإنسانية والحضارة الإنسانية هي حركة جمعية متداخلة رغم أنني بالطبع سأعطي معظم الأمثلة من منطقتنا وثقافتنا والأديان المؤثرة فيها.

وفي البداية أؤكد أن الدين بصفة عامة هو من أهم مكونات البعد الثقافي والحضاري لأي شعب ، وتتنطبق هذه الحقيقة أكثر ما تنطبق على الإسلام وشعوب منطقتنا رغم أنها ظاهرة إنسانية عامة... كما أن مفهوم الدين وكيفية ممارسة شعائره على النطاق الشعبي وليس النخبوي هو ما يعبر عن المفهوم الحقيقي للدين لأي شعب في أي مرحلة زمنية.

والدين في الغرب لم يفقد أهميته على المستوى الفردي أو الجماعي ولكنه تحول خلال القرنين التاسع عشر والعشرين إلى اختيار شخصي ليس فيه فرض ؛ لا من الكنيسة أو الدولة أو حتى المجتمع ، لا في الاعتقاد الديني ولا حتى في ممارسة شعائر الدين نفسه... وهذا التحول لم يحدث بسهولة ولكنه حدث بعد قرون طويلة من القهر والاستبداد والحروب الدينية... ومحاكم التفتيش في أسبانيا وباقي دول أوروبا والتي راح ضحيتها الكثير كانت خير مثال...

ولكن أوروبا ومن خلال التجربة وفلاسفة التنوير اكتشفت أنه مهما أهدرت من دماء فلن يغير شخص أو تغير جماعة عقيدتها الدينية وأن الحل الأمثل يكمن في التعايش وفلسفة تقبل الآخر بناء على اتفاق غير مكتوب في معظم الأحيان وهو : دعني أؤمن بما أشاء لكي أدعك أنت أيضاً تؤمن بما تشاء ، ولنختلف بالكلمة بدلاً من السيف...

وهكذا تدريجيًا انفصل الدين عن الدولة والسياسة وتحولت العلاقة بين الله والإنسان إلى علاقة على المستوى الفردي دون أن يفقد الدين قيمته كحاجة إنسانية ضرورية.

ولعل أكثر فلاسفة الغرب الذين كان لهم أكبر الأثر في ذلك هو الفيلسوف الانجليزي جون لوك وكتابه القيم رسائل في التسامح ، والذي استقى الدستور الأمريكي منه الكثير من بنوده.

في الغرب الآن أصبح من حق الإنسان أن يكون مسيحيًا بروتستانتيًا أو كاثوليكيًا، مسلمًا سُنيًا أو شيعيًا... أو حتى بلا دين على الإطلاق... من حقه أن يذهب إلى الكنيسة أو لا يذهب ، والمجتمع لا يستطيع أن يضطهد أي شخص بناء على معتقداته الدينية أو ممارسته لهذه الشعائر ويحترم المجتمع حق الفرد والجماعة في الدعاية لمعتقداته طالما لا يمارس العنف أو التحريض عليه في هذه الدعاية...

ولن يستطيع أي شخص أن يدعي أن المسلمين في الغرب لم يستفيدوا من هذه المنظومة ، ويستمتعون بكامل الحرية في إقامة شعائرهم والدعاية للإسلام طالما لا يستخدموا العنف أو يحرصوا عليه ، والحقيقة التي ينساها الكثير هو أن التحريض على العنف مجرم في كل قوانين الدول الغربية وهذه الحقيقة هي التي تضع بعض الدعاة المسلمين وأئمة المساجد في الغرب تحت طائلة القانون، ويستغل بعض قادة جماعات العنف هذه الحالات القليلة لمحاولة إثبات تعصب الغرب ضد الإسلام.

قد يكون هناك بعض التعصب ضد الإسلام على المستوى الفردي حتى من جانب بعض رجال الإدارة السياسية كما هي حالة بوش مثلاً وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر ، ولكن القانون يحمي حرية العقيدة، وهذه حقيقة لن يستطيع أي شخص في الغرب أن يغيرها حتى بوش أو بعض مساعديه من اليمين المحافظ.

هذا عن الغرب فماذا عنا في الدول العربية والإسلامية؟

إنني أدعي أن نفس الشيء حدث عندنا على المستوى الشعبي دون أن نعلن عن ذلك ولا أقول على مستوى نظم الحكم التي تفصل الدين عن الدولة وتمنع قيام الأحزاب على أساس ديني كما هو الحال في مصر أو نظم الحكم التي تتمسك بالشريعة الإسلامية كما هو الحال في السعودية أو إيران.

إنني أعلنها أن الدين تحول في مجتمعاتنا إلى اختيار شخصي على مستوى العقيدة وعلى مستوى ممارسة الشعائر سواء رضينا أم لم نرضَ ... سواء اعترفنا بهذه الحقيقة أم لم نعترف... ولن نستطيع أي جماعة سلفية أن تغير هذه الحقيقة مهما استخدمت من عنف بدني أو معنوي، لن نستطيع جماعة الإخوان المسلمين بأسلوبها السلمي المغطى بعنف معنوي أن تغير هذه الحقيقة ولن نستطيع القاعدة وحلفاؤها مهما استخدمت العنف ومهما أهدرت من دماء أن تغير هذه الحقيقة، لن يستطيع شيخ الأزهر ولا البابا أن يغير هذه الحقيقة.

إن تحول الدين إلى اختيار شخصي هو اتفاق غير مكتوب وغير معلن على المستوى الشعبي... هل يستطيع أحد في عالمنا أن يجبر شخص على ممارسة شعائر الإسلام إن لم يرغب في ذلك؟ هل يستطيع شخص أو تستطيع جماعة أن تجبر شخصاً على الذهاب إلى المسجد أو الكنيسة إن لم يرغب هو في ذلك؟ إن الدين على المستوى الرسمي والعملي تحول إلى خانة في البطاقة الشخصية، أما على المستوى الفردي والفعلي فهو اختيار شخصي.

لقد تحولت كل المؤسسات الدينية في مصر سواء الأزهر أو المؤسسات البابوية إلى مؤسسات استشارية بفعل حركة المجتمع غير المعلنة وليس فقط بسبب تدخل الدولة... نحن نحتاج إلى رجال الدين ولكن الحقيقة أننا نحتاجهم بنفس الطريقة التي يحتاجهم فيها أي أمريكي أو أوروبي... حاجة معنوية وروحية ولكن في نهاية اليوم سيفعل كل منا ما هو مقتنع به سواء أطلق لحيته أم لا... سواء قصر الثوب أو لبس الجينز... سواء تحجبت المرأة أو قررت أن تكون

مثل روبي... لن تستطيع الدولة أو المجتمع أو حتى الأسرة أن تفرض على الفرد مفهوم للدين سواء في المظهر أو في الشعائر أو في العقيدة نفسها شيء ليس نابع من داخله.

للأسف هذه هي الحقيقة في الغرب وعندنا الفرق بيننا أن الغرب اعترف بحرية الاختيار وجعلها دستور... أما نحن كالعادة نخفي رؤوسنا في الرمال كالنعام ونرفض الاعتراف بالحقيقة التي تمثل حركة التاريخ... فيتقدموا وترداد معاناتنا وتجاربنا الأليمة.

إن الإنسان ذاق بعد معاناة طويلة طعم الحرية وطعم حرية الاختيار ولن يستطيع قوة مهما كان جبروتها أن تحرمه من نعمة حرية الإرادة التي منحها الله له عندما استخلفه في الأرض... لقد ذاق الإنسان طعم الحرية ولن يستطيع أحد أن يحرمه منها بعد الآن.

إن الحقيقة التي يجب أن نعيها جميعاً أن الدين في القرن الواحد والعشرين هو اختيار شخصي وعلاقة خاصة بين الفرد وربّه... أما ما يجمع بيننا جميعاً فيجب أن يكون احترامنا للقانون الوضعي والذي نستطيع تغييره بالاتفاق والذي يستمد بنوده من كل الأفكار السامية والتي هي موجودة في كل الأديان من عدل وحرية ومساواة .

مهما علت الأصوات الصاخبة في الجماعات والأحزاب الإسلامية والمسيحية فسيظل الدين وممارسة شعائره هو اختيار شخصي لا يمكن فرضه، فلتوفر كل جماعات العنف من جميع الأديان على نفسها وعلىنا المعاناة ولتتحول إلى الدعوة السلمية وتترك لنا حرية اختيار طريقنا لنتحمل أمام الله مسئولية هذا الاختيار في الآخرة... هذا هو المفهوم الحقيقي للإسلام والمسيحية وكل الأديان السماوية من وجهة نظري، وأنا لا أدعي أنني على حق لأنني لا أدعي أنني أمتلك الحقيقة... هذا هو مفهوم الدين في القرن الواحد والعشرين في الغرب وعندنا حتى لو رفضنا الاعتراف بذلك... والله أعلم.

المندائية والعلمانية :

بينَ الحين والآخر - مع الأسف - نسمعُ صوتًا لأحد إخوتنا المندائيين وهو يهاجم (العلمانيّة) والعلمانيين ويصفهم بأعداء الدين ، كما ذكر الأستاذ نعيم عربي ساجت في مقال له ، وهو بهذا الادعاء يلتقي يدري أو لا يدري مع السلفيين التكفيريين المسلمين ، وليسمحوا لنا هؤلاء الأخوة أعداء العلمانية أن نسألهم هل تعرفون ما هو مفهوم العلمانية ؟ ولماذا هذه الحساسية المفرطة منها... وعلى أية أسس بنيتم موقفكم السلبي تجاهها ؟ وهل عداؤكم للعلمانية بهذه الحدة قائم على أساس علمي منطقي ، أم هو مجرد ترديد ببيغائي لأصوات القوى المعادية للديمقراطية والحرية والعلم ، والتي تتمثل بأصوات الفئات المتخلفة التي تعادي الأديان الأخرى وتقوم بأبشع الجرائم باسم الدين ، فتعادي العلمانيين وكل دعاة العلم والديمقراطية.

كيف يكون العلمانيون مناوئين للدين وهم الذين يدعون ويعملون بإخلاص إلى العدالة والحرية للإنسان في كل مكان ، باختيار عقيدته الدينية وأفكاره السياسية والأيدولوجية دون إكراه أو استبداد ، بل وفصل الدين عن السياسة والدولة لأن ربط الدين بالدولة يجعل منها حامية وحاضنة لدين معين واحد متجاهلة الأديان الأخرى كما هو موجود في الدول المتخلفة ، غير (العلمانية) الإسلامية والعربية كافة ، حيث يكون دين الدولة هو الإسلام أما المواطنون الذين يعتنقون الأديان الأخرى هم مواطنون من الدرجة الثانية أو الثالثة...

ونحن نسأل هؤلاء الأخوة الذين يُعادون ويهاجمون العلمانية والعلمانيين أنتم الآن تعيشون في رحاب دول الهجرة الأوروبية وأمريكا وأستراليا معززين مُكرمين تحت رعايتها الإنسانية ، وهي دول تعيش شعوبها منذ سنين طويلة بظل أنظمة علمانية ، وقد وفرت لكم كل مقومات الحياة الحرة الكريمة من مساواة في الحقوق والواجبات مع مواطني شعوبها وقد وجدتم عندها الرعاية والاحترام والحماية والأمان ، وتوفير العمل والدراسة والاهتمام بالطفولة

والمرأة ورعاية المسنين والمرضى ، وشعرتم بصدق إنسانيتها وهو الذي لم تجده الطائفة المندائية طيلة حياتها في مجتمعنا ووطننا العراقي الذي ما انفك يرفع شعار الدين الإسلامي كدين للدولة ، وقد تشردنا منه مع بقية الأقليات الدينية الأخرى، هرباً من إرهاب القوى الإسلامية السلفية.

هذه هي العلمانية وهذه هي أنظمتها الحاكمة في دول اللجوء ، فهل يا ترى هذه الأنظمة التي تعيشون بين ظهرانيها الآن مستقرين آمنين ، تمارسون حياتكم بشكل حضاري بظل الحرية والمساواة ومنها الحرية الدينية وممارسة طقوسها وشعائرها ، هل هي أنظمة سيئة معادية للدين ؟ نعم كيف يكون النظام الذي يوفر الحرية والحماية لكل الأديان في المجتمع ولا يسمح بسيطرة دين واحد على الأديان الأخرى ، كيف يكون مثل هذا النظام العلماني معادياً للدين ؟ وهل يختلف العلمانيون المندائيون برأيكم عن هؤلاء العلمانيين الذين تعيشون بنعيم أنظمتهم العلمانية العظيمة؟

وها هو الاتحاد العام للجمعيات المندائية في المهجر ، الخيمة التي تظل على كل المندائيين بمختلف اتجاهاتهم الفكرية وميولهم السياسية ومستوياتهم في العقيدة المندائية ، دون تفرقة أو إقصاء فهو لهم جميعاً ، يهتم بأمرهم في كافة المجالات الاجتماعية والثقافية والعائلية فهو يمكننا اعتباره بحق يمثل نمطاً من سلوك دولة علمانية.

وإذا عرجنا على معنى (العلمانية) فبال تأكيد لا يمكننا أن نحيد عما جاء في المصطلحات السياسية عن مصطلح العلمانية بأنه مفهوم سياسي حديث لنوع من أنواع الحكم في الدولة الديمقراطية التي تحقق هذا المفهوم باعتمادها على العلم والقوانين الوضعية في حكم الشعب مع الحرية والعدالة والمساواة بعيداً عن تأثير أي سلطة أخرى كالسلطة الدينية، إذ أن الدين وُجد ليس للحكم؛ وإنما لإرشاد الناس وتوجيههم نحو السلوك القويم، بالابتعاد عن كل ما يُسبب الأذى والشر للآخرين ، وهو نوع من العلاقة بين الإنسان والخالق ، بعيداً عن الإكراه

أو تدخل من أية جهة كانت؛ إذ لا إكراه في الدين، ومكان التعبد والعبادة في الكنيسة أو المسجد أو المعبد أو المندى... الخ.

فنحن نرى أن أغلبية شعوب الدول الأوروبية وأمريكا وأستراليا وغيرها من الدول المسيحية التي يبلغ أعداد سكانها مئات الملايين؛ هم مسيحيون بالولادة أي وُلدوا عن آباء وأجداد مسيحيين، ولكن دولهم ليست دول مسيحية، بمعنى أن نظام الحكم فيها لا يخضع لسيطرة الكنيسة وتعاليمها وقراراتها الدينية وإنما الدولة لكل المواطنين؛ مسيحيين ويهود ومسلمين وبوذيين وهندوس وزرادشتيين ومندائيين وغيرهم... فالعلمانية بعيدة عن تأثير ديانة معينة ولكنها حاضنة وحامية لكل الأديان في الدولة، ويتم تحت خيمتها تعايش وتعاقد كل الأديان والقوميات حيث تتمتع بالحرية والعدالة والاحترام...

هتلر اضطهد وقتل آلاف من اليهود والشيوعيين وحارب كل القوى الديمقراطية بتهمة معاداة المسيحية وكذلك فعل موسوليني وفرانكو وبينو شيت وكل الأنظمة الاستبدادية في العالم، التي كانت تستخدم الدين كغطاء لها في ظلمها وجبروتها بخداع الشعوب وتخديرها وذلك بإعطاء صفة إلهية لحكمها، منذ قيام أول الدول في التاريخ على هذه الأرض ارتبط حكم ملوكها وأباطرتها بنظرية التفويض الإلهي لحكمهم الشعوب بأسوأ الأساليب وأبشعها، وذلك بواسطة رجال الدين ومعابدهم وأديرتهم وكنائسهم التي كانت لها سلطة مركزية يرأسها الملك أو الإمبراطور والخلفاء والسلاطين... والرؤساء والزعماء والمرشد والولي الفقيه في الوقت الحاضر.

تعقيب من د. بشير عبد الواحد يوسف :

ما أحلى كلمة الحرية والديمقراطية والعلمانية، التي فعلاً تذوقنا حلاوتها هنا في بلدان المهجر، ولناخذ السويد مثلاً لذلك كما ذكر أستاذنا العزيز أبو معتز كبلد ديمقراطي علماني بامتياز؛ دولة مؤسسات مدنية، الكل سواسية مثل أسنان

المشط، الوطن للجميع والدين لله، ولكن المشكلة يا سيدي هل نحن ديمقراطيين وهل تربينا في بلدنا تربية ديمقراطية؟ وحتى لو سلمونا سدة الحكم، هل نستطيع أن نبني بلد ديمقراطي مثل السويد مثلاً... كلا وألف كلا، والأدلة يا أستاذ واضحة وكثيرة والانتخابات الأخيرة والتي قبلها أعظم دليل على ذلك، وخلافاتنا ومضيعة حقوقنا واحترامنا أمام المؤسسات السويدية دليل على ذلك.

يا أخي الكبير هذه الأقوام تربي أبنائها منذ نعومة أظافرهم على الديمقراطية، إنهم يرضعونها مع الحليب من صدور أمهاتهم، لا كما يرضع الآخرون مع حليب أمهاتهم الحقد والكراهية، والمذهبية والتطرف والشتيمة والكلمات النابية، عندما سقطت الدولة العراقية في ٢٠٠٣ وسقط معها القانون؛ لم يبق لضبط الناس غير الدين والأخلاق، ولأن الدين في بلدنا مصلح لم ينفعنا في شيء لأن عندما تصدر فتوى تقول لا تنهبوا لا تقتلوا لا تسرقوا، يقولون هذا رجل دين ضالالي، وعندما يصدر فتوى تنفعهم يقولون هذا هو القول الحق...

إن بقي لدينا عامل الأخلاق وحده، وهذا مرتبط بالتربية البيتية وبالحليب الطاهر، فإن كان قد رضع الكراهية والمذهبية والحقد والتطرف أصبح نهائياً سلاباً مجرمًا بكل المقاييس، وقلة التزمت بالخلق الرفيع الذي لم ينفع، فهاجرت إلى البلدان الديمقراطية العلمانية التي نحن الآن فيها، وفيها حنين قوي مما تعلمناه في بلدنا من تفرقة وأناية وحقد في النفوس، لا نعلم هل الجيل القادم يستطيع التخلص من هذه العادات أم أصبحت مسألة جينية... الله أعلم...

أستاذي قبل فترة زرت تالين والتقيت بصديق أعرفه من زمن الاتحاد السوفيتي قال لي تصور نحتاج عشرين سنة من العمل والتعليم لنصبح مثل المجتمع السويدي، فيا ترى نحن كم نحتاج من السنين؟! وبلدنا العراق كم يحتاج من عشرات السنين؟!... نقول الله أعلم والسلام...

ملاحظة : أستاذي رفعت بعض الكلمات إكراماً لأهلنا في العراق فأرجو المعذرة ودمتم...

سفن الأرواح :

في مقال له كتب الأستاذ د. قيس مغشغش السعدي إنه لمناسبة حديث الإعلام العراقي عن المطارات السومرية وسفن الفضاء المنطلقة منها ؛ على أعقاب تصريحات السيد وزير النقل والمواصلات، أشار بعض الأخوة الأكاديميين إلى ورود إشارات عن موضوع سفن الكواكب في ميثولوجيا وادي الرافدين ، ومنها الميثولوجيا المندائية.

نعم، يرد في الأدب المندائي إشارات إلى سفن في العالم الخارجي غير العالم الأرضي، إشارة رمزية لأسلوب وأداة الانتقال، فمع أن العقيدة المندائية تحرم الشواهد والأصنام وتحذر من عبادتها الباطلة، إلا أننا نجد أن الكتب المندائية وبخاصة الدواوين، وهي الكراسات التي تشرح وتوضح العقيدة والطقوس، قد احتوت الكثير من الرسومات حتى صارت ميزة فيها، وهذه الرسومات تأخذ الشكل التوضيحي والرمزي ولم ترسم بشكل كيانات تصويرية في دور العبادة أو المنازل، وقد اقتصرَت عملية الرسم داخل الدواوين فقط.

وهذا يعني أن النظر إليها يكون من خلال النصوص التي وجدت ضمنها لأن الكثير منها لا يفهم بدون هذه النصوص، ولم يتهيب الناسخ المندائي من وضع الرسوم التوضيحية والتخطيطية لأنه يدرك بأنها مؤشرات لما يرد في عقيدته من ذكر للملائكة والنورانيين، وكذلك للأفراد في حالات متنوعة، سواء في إجراء الطقوس الدينية أو في تصوير مسيرة عروج النفس والمراحل التي تمر بها في المطرائي، "وهي المطهرات أو الموقوفات التي توقف فيها النفس بعد الموت من أجل المحاسبة والتطهر، مطهر تلو الآخر حتى تتخلص من خطاياها".

وتتعدد مواضيع الرسومات لتشمل رسوم تخطيطية لأشخاص ونباتات وحيوانات، وطيور وأنهار وسفن أيضاً، وتجدر الإشارة إلى أن بساطة هذه الرسومات من حيث طريقة الرسم وعدم الالتزام بدقة أبعاد الأشكال وتحدها

ببعدي الطول والعرض يجعل منها رسوم توضيحية دون أن تكون لها قيمة تعبيرية بحد ذاتها ، وهذا يعني أن الناسخ المندائي كان حذرًا ألا تضيي هذه الرسوم أية قيمة قدسية فتؤخذ مأخذ الاحترام والتقديس ، وهو أمر لا تقره العقيدة المندائية ، فلجأ بحسب حاجته للرسم إلى اعتماد هذه الصيغة التخطيطية المجردة ، السطحية والمبسطة في رسوماته ، وقد نجح في ذلك بشكل كبير .

أما ما يتعلق بالسفن مدار الحديث ، فهي تقوم على جانب في المعتقد المندائي مفاده أن الأنفس التي تطهرت في الموقوفات أو المطهرات ، وبعد أن توزن مقابل نفس النبي شيت (ع) كأطهر الأنفس البشرية ، تكون جاهزة للانتقال إلى عالم النور ، وحيث أن هنالك مياه فاصلة تحد بين المطهرات والانتقال إلى ما هو أعلى ، فإن الأنفس التي تنقل إلى عالم الحق والطهارة عليها أن تعبر المياه الفاصلة هذه ، وهذا العبور يكون بواسطة سفينة تسمى سفينة ناقلة الأرواح ، حيث تأتي في كل يوم أحد لتقوم بنقل المطهرين الطاهرين .

ويظهر الرسم التخطيطي لهذه السفينة أنها رسمت بشكل مقوس بما يقرب من نصف دائرة ، تتوسطها سارية طويلة تنتهي بدائرة ، وثبت عليها هلال وراية "درايشا" ولوح مستطيل يتضمن ستين عين مدورة لمراقبة قوى الشر (تأسيساً على النظام الستيني البابلي).

ويظهر شكل السفينة أنه مألوف لتقاربه مع شكل السفن في جنوب العراق ، كما أن مادة صناعة السفينة ، كما يظهرها الرسم ، هي رزم القصب (شبا) التي تظهر طريقة ظفر هذه الرزم بما يشكّل الهيكل ، ويمكن أن تكون السفينة مطلية بالقار وهي المادة المتوافرة في العراق ، والتي استخدمت منذ القدم في بلاد ما بين النهرين في تخطيط الشوارع والبناء أيضاً .

والنوع الثاني هو سفن الأفلاك ، وهي ثلاثة سفن تمثل ثلاثة أفلاك هي الشمس ، والزهرة والقمر ، وقد رسمت هذه السفن الثلاث بأشكال متقاربة ، وهي تختلف إلى حد ما عن رسم سفينة ناقلة الأنفس ، فالشكل هنا يعتمد على الخطوط

المستقيمة لتشكيل القاعدة العريضة نسبياً ، أما طرفا السفينة المتصلان بالقاعدة فينتهيان بشكل مدبب ، وفي نهاية الطرف الأيمن لسفينة الشمس هنالك رسم يشير إلى الشمس بشكل قرص محاط بخطوط مستقيمة ، أما نهاية الطرف الأيمن لسفينة القمر وهو أطول من الطرف الأيسر فينتهي بأغصان نباتية ، أما الطرف الأيسر للسفينتين ، وكذلك طرفي سفينة الزهرة ، فينتهيان بشكل يشبه نصف مثلث.

سفينة الشمس هي الأكبر حجماً ثم تأتي سفينة القمر ثم سفينة الزهرة ، تركز في السفن الثلاث سارية تحمل راية "دراشا" ، إلا أنها لا تركز في وسط السفن بل تقرب من جهة اليسار ، أما رسوم الأشخاص فتتوزع على مساحات السفن بشكل متناسق بعضها على القاعدة ، والآخر يأخذ بعد ضمن فناء السفينة ، ولم يظهر في السفن الثلاثة وجود الملاحين ، مما يشير إلى أن هذه الأفلاك تدير بقدرتها الذاتية الخاصة.

لقد اعتمد المندائيون رسم السفن كوسائط لنقل الأرواح وحركة الأفلاك انطلاقاً من أن الحياة لا تنتهي بالموت ، بل أنه ولادة لحياة ثانية ، وأن العبور للحياة الثانية يتطلب وسيلة نقل فكانت السفن إشارة إلى أن هذه الوسيلة هي الأكثر تعبيراً وإدراكاً في القدرة على الحركة والنقل في آن واحد ، وربما هي الأكفأ والأكثر أماناً وانسيابية من خلال قدرتها على الإبحار ، سواء في الطبيعة المادية أو في العالم الخارجي ، واعتمادها بهذا الشكل يوفر فرصة قبولها من حيث النظر ، وربما تتيح للناظر فرصة ركوبها الفرضية بما تجعله يطوف بها كناقلة للأرواح مثلاً.

وقد أدى اعتماد السفينة للنقل تزويدها بكل متطلبات الإبحار من مقود "سكان" ، وأدوات جذب وسارية ، وقائد أو موجه ، بالإضافة إلى الحارس المجهز بالسلاح والمُتخذ وضع الحماية والدفاع ضد أي خطر أو تهديد من عوالم الشر ، ويلاحظ أن السلاح المستخدم هو القوس والنشاب مع وجود رسم للسيف أو

الحربة بإشارة إلى أن دور الحارس هو الجاهزية والتسلح دفاعاً ضد الشر الذي يمكن أن يتأتى من الكواكب أيضاً.

أما الأشخاص فتظهر رسوماتهم بأنهم في حالة وقوف ، مما يدل على أنهم في حالة مسير وعمل إلى حين بلوغ الهدف ، ويشير وجود البحارة في السفن إلى أن الأدب المندائي قد اعتمد التعبير عن الحركة في هذه السفن على القدرة الذاتية ولم يلجأ إلى استخدام الأجنحة للملائكة من أجل الطيران ولا الحيوانات الخرافية كالثور المجنح أو الطيور الكبيرة ، فالرسم أبرز فكرة العقيدة المندائية في أن قدرة الحركة ذاتية ومرتبطة بكل كيان ، بما يماثل الواقع الدنيوي الملموس في الاعتماد الذاتي في الدفع والحركة ، حتى أن أدوات الدفع والقيادة جاءت مشابهة تماماً لما معروف في البيئة المادية المعهودة في جنوب بلاد بين النهرين.

وبعد ، فإن الميثولوجيا المندائية لم تشر إلى مطارات أو سفن فضاء أو مركبات تنطلق من الأرض إلى الفضاء الخارجي وتعود ، بل إنها ماثلت الوسيلة التي تسير بها الروح في العالم العلوي بالسفينة الأرضية في رسمها وشكلها ومادتها وطريقة سيرها ، وأكثر من ذلك فإنه يرد في الأدب المندائي وبكتابهم المقدس "الكنزا ربا" أن النفس المنطلقة لعالم النور تزود في مسيرتها بثلاثة أسهم للوصول ، تنطلق بالسهم الأول فتمتلئ النفس بالنور ، وبالسهم الثاني تنهض النفس فرحة نقية كالبلور ، وبالسهم الثالث تصل النفس إلى بلد النور ، وكأن في ذلك المراحل الثلاثة المعروفة اليوم للانطلاق السريع لصاروخ نقل المركبات الفضائية للعالم الخارجي.

تعقيب من د. بشير عبد الواحد يوسف :

أستاذي العزيز أ. د. قيس السعدي المحترم...
تحية غالية...

أنت تعرف هناك الماديات التي ترى وتلمس وهناك الروحانيات التي لا ترى ولا تلمس، والعقل الإنساني والجسد يخلدان للراحة بالنوم، بينما النشمانا والقلب لا ينمان كما قال أستاذنا د. عبد الهادي الخميسي ويبقى الفكر يسرح ويمرح ويسافر في كل الاتجاهات، ويخلق لنا الأفكار والميثولوجيات، ولأن الخيال واسع لا تحده حدود فيتصور الإنسان تصورات لتفسير كثير من الظواهر التي يعيشها فكره وعقله الباطن، فيجسدها في ميثولوجيا أحياناً خارج حكمة العقل والمنطق، وأنت الواسع الإطلاع.

لما نحن الناس نصدق بكل ما ورد من ميثولوجيا في الأديان وخاصة التوحيدية فهذا هبوط الملاك هبيل زيوا وهذه عصاة موسى وهذا السيد المسيح يحيى الموتى، وهذا براق الرسول محمد يعرج في السماء، أما الأديان غير الموحدة عبر التاريخ فحدث ولا حرج، وخاصة في عمليات الخلق والتكوين، إن ما قاله يا سيدي السيد وزير النقل الحامي ليس كفراً، وإنما شيء من أساطير الأولين التي يرددها كثير من الباحثين، ولنعتبرها ميثولوجيا الحضارات القديمة التي ازدهرت في وادي الرافدين.

أذكر مرة حدثني طبيب مندائي مقتدر عالي الثقافة والإطلاع، قال : يقال إن مجموعة من كوكب آخر نزلت في أطباق طائرة، حطت في أرض أور جنوب العراق (الناصرية)... لأنهم كانوا بحاجة إلى بعض المعادن النادرة في صناعتهم المتطورة في كوكبهم، فوجدوا أن الأمر يحتاج إلى جهد وزمن، ولاحظوا أن إنسان أور مازال بدائي عقلاً وجسداً، فقرروا أن يعطوه شيئاً من جيناتهم المتفوقة ليتمكنوا الاستفادة منه...

فتطور الإنسان بنسبة عالية وتطور عقله وبنائه الجسدي، وذكر لي أن الإنسان البدائي كان قريباً من القردة، ولا توجد لديه عضلة الإبهام، ولكن بناؤه الجديد المتطور أصبح لديه عقل متطور يفكر ويبدع، وأصابع تنفذ ما يريده عقله، وهكذا أصبح الإبهام يشكل ٦٠ % من كفاءة اليد وبقيّة الأصابع، كل إصبع يشكل فقط ١٠ %، ولهذا نشأت حضارة سومر واخترعوا الكتابة والدولاب وطوروا الزراعة والصناعة وسنوا القوانين ونظموا الجيوش وغيرها.

ونفس الشيء ربما حصل في مصر الفرعونية في أرض النوبة وفي بلاد المكسيك، حضارة اليانكي وهكذا تطورت البشرية، ربما هذا خيال علمي تحقق، الروحانيون المؤمنون يسمونه خوارق ومعجزات، والماديون يسمونه أساطير وخرافات (ميثولوجيا - علم الأساطير).

فأنا أرى أيها الأستاذ العزيز أنه لا داعي لعدد من الأساتذة، كل هذا الهجوم على الوزير الحمامي الذي أراد أن يفتخر بحضارة بلاده المغلوب على أمرها، فذكر شيء من ميثولوجيا بلاده لغرض التباهي ورفع المعنويات، وليفهم الآخرين أنه مطلع على تاريخ العراق القديم، ونحن نأمل منه الكثير من خلال مقالاته التي كان ينشرها على الجروب المندائي الأستاذ صلاح جبار عوفي مشكور، والبركة في السيد الوزير أن يعيد لنا حدودنا المائية، وأن يبنى لنا ميناء الفاو الكبير وأن يطور منظومة المواصلات. نحن الآن بحاجة ماسة إلى إنجازات على الأرض وليس لمزيد من الميثولوجيا، والحي العظيم يوفق الجميع ودمتم.

وبصورة عامة وكما ذكرنا أن العقيدة أساس الدين وعليها الدور الأساسي في صناعة تاريخ الأمم والطوائف فإن كانت العقيدة قوية راسخة عميقة الجذور تطورت هذه الأمة وازدهرت وأبدعت وخدمت الإنسانية بكل معانيها وبنائها وتقدمها.

الإنسان البدائي آمن بالظواهر الطبيعية التي حوله والتي تؤثر على حياته ، كذلك أعطى أهمية للحيوان والنبات والكواكب ولكل قوى الطبيعة ، ومع الوقت فكر هذا الإنسان وفق مراحل تطوره كيف يسيطر على هذه القوى مع الزمن ومع تطور الإنسان نفسه ، ثم آمن بالملوك والأباطرة وتعدد الآلهة ، وبسبب انتشار الإنسان على أرض الله الواسعة ، تعددت العقائد والأديان والمذاهب ، إلى أن اهتدى الإنسان لتوحيد الخالق ، الواحد الأحد الذي ليس له والد ولا ولد ، الذي بشر الأنبياء المرسلين وحياً أو إلهاماً لينقلوا للناس تعاليمه ووصاياه.

تتميز العقيدة المندائية أنها بدأت مع آدم رأس السلالة البشرية ، وأول الموحدين وأول الأنبياء المرسلين والذي نزلت عليه الصحف الأولى من كتاب الكنز العظيم (الكنزا ربا) الكتاب المقدس للصابئة المندائيين ، إنه النداء الأول ، والتفسير الأول والتعليم الحي الأول الذي كان منذ الأزل...

طوبى للموحدين المؤمنين العارفين بالحي الأزلي الذين نهلوا من فيض ضيائه فأنازل قلوبهم واطمأنت سرائرهم وتمسكوا بعهدهم على عبادته وطاعته.

الخاتمة

بداية لدي شعور أنني ركبت المركب الصعب ، وأبحرت في محيط شاسع ، توقفت في مرافئ عديدة لأتزود بزودة تعيني على مواصلة الإبحار ، واستعنت بعدد من الملاحين الأكفاء من أبناء طائفتي الكرام ، وغيرهم من كرام القوم ، يعينوني في مواصلة الإبحار في هذا اليم المترامي الأطراف يعينوني بأفكارهم ودراساتهم وبحوثهم وبعدد من المصادر المتاحة ، وهناك من قدم المساعدة وهناك من اعتذر لأنه لا يحب أن يُدخل نفسه في نفق طويل لا يعرف نهايته ، ولا يريد أن يعرض نفسه لانتقاد يشعر أنه غنى عنه.

ولكني اتخذت قراري متكئاً على ما تعلمته خلال طفولتي وصباي من أجدادي رحمهم الحي العظيم ومن مجالسهم البسيطة التي كان يؤمها وجهاء القوم ، ومن خدمتي المتواصلة في مجالس الطائفة لثلاثة عقود تقريباً ، ومن دراستي الأكاديمية لعلوم الدين المندائي والأديان المقارنة ، وحبّي ومطالعتي لعدد من المصادر والبحوث والمقالات والأفكار ، ومرافقتي لسنين طويلة لعدد من الأساتذة المتخصصين ، ومن مناقشاتنا اليومية ، وعملي مع رجال الدين الأفاضل ، ومن خلال إشرافي المباشر على ترجمة وصياغة كتاب الكنزا ربا.

الدين المندائي دين روحاني عميق من الصعب سبر أغواره ، فمهما غصت فيه هناك كلمات تحسها كالكلمات مثل :

ناصرنا : الإيمان العميق .

نشمانا : النفوس .

مميها :

بهنا :

يردنا : الماء الجاري النظيف .

مسقنا : عروج النفس .

الماء الحي :

النور :

الملائكة الأثريون :

الخلق والتكوين :

الحي العظيم :

الحياة :

الكلمات كثيرة ولكنها كبيرة يحتاج لفهمها واستيعابها وإدراك مكنوناتها عقول نيرة وفهم عميق ، وإدراك فلسفي واسع وإيمان عميق ، وبحث وتقصى وإشراك عدد من العقول المتفتحة المؤمنة بالروحانيات التي لا تراها ولا تلمسها ، الأمر يحتاج إلى مجلدات وإلى مؤسسات متخصصة لها دعم معنوي ومادي وإسناد فقهي من رجال أكاديميين متخصصين بعلوم الدين (علم الكهنوت) ، وتفرغ لسنين طويلة... ولكن بالممكن وبالمتاح من المعطيات لا بد أن نبداً أو نكمل ما بدءه من سبقنا في هذا المجال وأرسى لنا الأساس ، أمثال نعيم بدوي وغضبان رومي وناجية المراني ودكتور صبيح مدلول وأمين فعيل وعزيز سباهي وآخرين ؛ مستفيدين قدر الإمكان من الأولين والمستشرقين والمعاصرين ، ومن أصدقاء الطائفة المنصفين الذين كتبوا بضمير وصدق وأمانة وحياد.

وأرى من الضروري أن يلم القارئ بفكرة عن موضوع الكتاب عندما يقرأ بدقة المقدمة والخاتمة ، ولهذا سأركز في الخاتمة على أهم المواضيع والنقاط الأساسية التي تضمنها هذا الكتاب الذي يعتبر الحجر الأساسي والأول في الموسوعة المندائية ، لكونه دائرة معلومات موجزة عن الصابئة المندائيين وفق التالي :

١- في البداية وقبل كل شيء انبعث الحي العظيم من ذاته (من نافش أفرش) ، وبكلمة واحدة وبنداء واحد صار كل شيء ، بقوله صار كل شيء ، فهو الخالق وما عداه صانع ، خلق الحي العظيم النشماثا (النفوس) ، وخلق الملائكة

النورانيين المبجلين ليكملوا صنع العالم وفق تعليماته وأوامره ، ولأنه حسب حساب حدوث العوز والنقصان صار الحي (الله) المتعالي المتميز عن أكوان النور الغني عن كل شيء.

٢- في البدء وهب النداء لآدم رأس السلالة البشرية، كانت كلمة واحدة وشهادة واحدة ، صنع الملاك بئاهيل آدم من الطين الأحمر (الصلصال) ، ومن الدم والمرارة وأسرار هذا الكون ، وأمر الحي العظيم الملاك المبجل منداهيي أن يولج النسمة في جسده ، وهكذا صارت حواء زوجته أنيساً له في هذا العالم ، وعلمهم التعاليم كلها والوصايا والأسماء ، وقال لتبدأ بأمرى الحياة.

٣- الكنزا ربا يؤكد وهكذا يؤمن المندائيون أنهم غرس التوحيد الأول ، لأن الحي العظيم خلق العالم العلوي عالماً نورانياً ملائكيّاً مندائياً ، وخلق آدم وحواء غرس التوحيد الأول مندائيان.

٤- أمر الحي العظيم آدم وحواء أن يتزوجا ويتناسلا لتكون لهم ذرية ويزداد عددهم ولتبتهج بهم الدنيا ، ولكي لا يتزوج الإخوان من الأخوات أرسلت البنات من هذا العالم إلى عالم الحق _ مشوني كشطة) ، ليتزوجوا من الأولاد والنظراء (الدموثا) وحيء بالبنات النظراء من عالم الحق إلى عالمنا ليتزوجوا الأولاد ، وهكذا بدأ نسل آدم وحواء نقياً طاهراً ، بعيداً عن المحرمات ، ولهذا سمي الاسم الديني (الملواشة) لكل مندائي باسم أمه ، لأنه ولد من أرحام طاهرة ، وعالم الحق عالم وسط بين عالم الأنوار وعالمنا لكي لا يكون هناك اتصال مباشر بين آلماندهورا (عالم الأنوار) وآمة دهشوبا (العالم الأرضي).

٥- ولغرض الوقوف على خلفيات الدين المندائي وبداياته التي ذكرنا أنها بدأت في العالم العلوي (آمة دنهورا) وأن آدم وحواء كانا مندائيان بأمر من الخالق وأن الملاك منداهيي علمهم الوصايا والتعليمات المندائية كان لابد من أن نكون فكرة عن الأديان التوحيدية وغير التوحيدية ، ولو بشكل مختصر ، لنقارن

تأثيراتها على الدين المندائي وتأثير الدين المندائي عليها وخاصة المعتقدات التي نشأت في نفس البيئة (بلاد الرافدين).

٦- تطرقنا إلى جذور الديانة المندائية ولماذا سموا أنفسهم بالصابئة المندائيين ، وماذا تعني هذه التسمية ، وذكرنا أركان الدين المندائي وأهم الكتب المندائية وأنبيائهم بدء من آدم وخاتمهم يهيا يوهانا.

٧- أوضحنا من هم صابئة البطائح ومن هم صابئة حران ، وعلاقتهم بالغنوصية والأحناف والزرادشتية والمانوية والإيزيدية بشيء من الإيجاز.

٨- شرحنا شيئاً مفيداً ومهماً مما ورد في كتاب الكنزا ربا شيء عن التوحيد والوصايا وعن الخلق والتكوين وعن الملائكة الأثريين وعن آدم وحواء رأسا السلالة البشرية ، وأوضحنا بإيجاز شيء عن الماء الحي (اليردنا) ، والنشمتا (النفس) ، ومعنى الناصوراثا والمصبثا (الصباغة) ، والمسقتا (عروج النفس) ، والوفاني (طعام الغفران) ، أعطينا فكرة مختصرة عن كل كلمة من هذه الكلمات.

٩- عرجنا على ذكر شيء من عاداتهم وإصداراتهم الثقافية والدينية وشيء عن الهجرة وأسبابها ودوافعها ، ومستقبل الأجيال القادمة وكيفية المحافظة على النسيج الاجتماعي وتأثير الدين المندائي على المجتمع ، ومعنى الاسم الديني وأسباب سر البقاء.

١٠- ذكرنا إخوتنا وأهلنا المندائيين في إيران (عرب ستان) ، وشيئاً عن المرأة المندائية واللغة المندائية ، وعدداً من الشخصيات المندائية وعدداً من رجال الدين لكي يبقى ذكرهم لكي لا ننسى رموزنا ونهمل ذكرهم ، كما ذكرنا عدداً من المستشرقين الذين قدموا خدمات بالبحث والتقصي الأمين المنصف المحايد.

١١- كلما كان رجال الدين بمستوى المسؤولية فقهاء وعلماء ونزهاء متبحرين في علوم الدين ، قريبين من قيم وصفات الأنبياء يكونوا قدوة حسنة للجميع ، يعز الحي العظيم بهم دينه ويرسخ العقيدة والإيمان في نفوس أتباع الدين المندائي ،

لأن قوة الدين تأتي من قوة رجال الدين وضعف الإيمان يأتي من ضعف رجال الدين ، وأن ضعف رجال الدين أسبابه تمسكهم بهذه الدنيا الفانية وطمعهم وجشعهم وضعف معلوماتهم الدينية وتمسكهم بالمناصب الإدارية وجريهم وراء المادة، مما يقلل من هيبتهم واحترامهم، وبالتالي ينعكس على الدين نفسه، ولهذا نجد عددًا من المندائين الشباب في بلدان المهجر ابتعدوا كثيرًا عن الدين بعد أن ضعف عندهم الإيمان ، فتتلقفهم الحركات الدينية النشطة في هذه البلدان ، لهذا نحن بأمس الحاجة إلى رجال دين أكاديميين على درجة عالية من الورع والتقوى وعمق الإيمان.

١٢- لا ننكر أن هناك معوقات كثيرة في البحث والتقصي بهذا المحيط الشاسع ذكرناها في خاتمة كتابنا (الصابئة بين الإنصاف والإجحاف) ونمر عليها هنا مرورًا عابرًا ، المهم أن الموسوعة المندائية تتألف من ستة كتب صدر منها حتى الآن اثنان ، والكتاب الثالث في طريقه للطبع، ونسأل هيي قداميي التوفيق للجميع.

- أهم معوقات العمل :

* شحة المصادر وقلة البحوث ، وعدم دقة المعلومات في كثير منها لأن معظمهم نقل أحدهم من الآخر سالكًا أقصر الطرق وأسهل السبل.

* الكتب الدينية المندائية كتبت باللغة المندائية الآرامية التي ضعفت مع الزمن وحلت محلها لغات حية قوية.

* تكتم رجال الدين لحقب طويلة على الكتب والمعلومات وعدم توفر مراكز بحوث وأكاديمية مندائية ومكتبة مركزية.

* عزوف الكثير من مثقفيهم عن الخوض في هذا المجال لتطلعهم إلى أفق أوسع ونظم حديثة ديمقراطية تحاكي العصر الحديث وتتفق مع المفاهيم النقدية.

ولكن يبقى الدين هو رأس الإيمان وأساسه، ويمثل القيم والمبادئ الأساسية التي يبنى عليها المجتمع بعيداً عن التطرف والتعصب الديني أو المذهبي، كلنا عباد الله؛ فإن لم يكن أخوك في الدين فهو أخوك في الإنسانية، كلنا من آدم وادم من تراب.

وحقيقة ما يدهشني أن الكثير من المؤرخين والباحثين يرددون ما رده الأولون عن الصابئة المندائيين، بينما هؤلاء القوم موجودون بيننا كأثر حي من آثار التاريخ، أحياء يرزقون، يحبون الخير لكل الناس، كرماء لطفاء مسالمون، إذ يمكن للمؤرخ والباحث أن يعيش وسطهم ميدانياً ويتعرف عليهم ويبني صداقات وطيدة معهم، كما فعلت المستشرقة الانجليزية ليدي دراور وباكلي وغيرهم، وكما فعل د. رشيد الخيون ود. خزل الماجدي وغيرهم، فجاءت بحوثهم صادقة أمينة قريبة من دقائق الأمور...

ولو أن هنا الشعور والإحساس والتربية لها تأثيرها، وقد لاحظت ذلك أثناء إشرافي على ترجمة الكتاب المقدس الكنزا ربا مع عدد من الأخوة الأعزاء، هناك فرق في الإحساس بين البروفيسور صبيح مدلول الخميسي المندائي الأصول والبروفيسور يوسف متى قوزي المسيحي الأصول، كان الخميسي يشعر بالكلمة لأنها تسري في دمه ويعرف عمق المعنى والشعور، أما قوزي فرغم كفاءته العالية وقدرته اللغوية ينطلق في كثير من الأمور من مفاهيم علم الكهنوت المسيحي الذي تشرب بها في حياته ودراسته، ولكن للأمانة كان أميناً صادقاً محايداً إلى حد معقول ومقبول.

خلاصة القول إن المندائيين أثرٌ حيٌّ من آثار التاريخ، لهم وجودهم ومراكزهم الثقافية وجمعياتهم وكتبهم الدينية التي ترجم معظمها إلى العربية والانجليزية ولغات حية أخرى، وهم حالياً في نهضة ثقافية متميزة.

يؤمنون وبقوة أن العالم النوراني (الجنة) عالم روحاني مندائي، وأن الحي العظيم خلق الملائكة الأثريين، وادم وحواء؛ مندائيين، وأن هذه الحياة المادية

فانية ، وهناك حياة ثانية أبدية ليس فيها أمراض ولا شيخوخة ولا موت ثانٍ ، وأن لكل إنسان في هذه الدنيا مثيل في العالم الآخر (دموثا) ، تذهب نفسه (النشمتا) إليه بعد أن يقضي عمره في هذه الدنيا.

وأن الدين المندائي دين روحاني خالص يؤمن بالحياة الثانية الأبدية ، ولهذا تجدهم عبر تاريخهم الطويل منذ بدء البشرية ليومنا هذا لم يؤسسوا لهم دولة أو إمارة ولم يطمعوا بملك ، ولم يشكلوا كياناً سياسياً ، وإنما عاشوا بظل أديان موحدة أخرى تمكنت من تأسيس دولة قوية ، ومعظمهم تبني أفكاراً تقدمية أممية تدعو إلى المساواة والحياة الحرة المتآخية وإلى السلم والمحبة والتسامح ، وهذا التوجه أيضاً كلفهم شيئاً من التضحيات ؛ خاصة في النظم الدكتاتورية والتزمت الديني والسياسي.

الصابئة المندائيون أقوام مهاجرة عبر التاريخ دائماً يبحثون عن الأمان والرزق الحلال ، ولهذا تجدهم الآن موزعين على أقطار عديدة من العالم ، شرقها وغربها ، وأحياناً وظروف قسرية قاهرة توزعت العائلة الواحدة على عدة بلدان متباعدة في عاداتها ولغتها وأسلوب حياتها.

نسأل الحي العظيم أن يمنّ على هذه الطائفة المسالمة والسلامة والأمان ، وأن يوحد جمعهم ويقرب العوائل العالقة في دول الجوار ، وأن يستثمروا تواجدهم في هذه الدول المتقدمة حضارياً وتكنولوجياً وأن يبرز من أبنائهم علماء وأدباء ومفكرون يغنون الإنسانية، فهؤلاء الأحفاد يحملون جينات الأجداد، اسمهم وقوة وجودهم واحترامهم مرهون بعطائهم وخدماتهم للحضارة البشرية والإنسانية ، فما عليهم إلا أن يطلقوا الجينات الكامنة ويحرروها ويمنحوها طاقة حركية فعالة خلاقة، ليكون لهم اسم يشار له بالبنان بين هذه الأمم، التي قطعت شوطاً بعيداً بالعلم والمعرفة ، وهم المندائيون أهل العلم والمعرفة ، يدل عليهم اسمهم بمعنى المعرفيون ، ومعبدتهم يسمى المندي أي بيت العلم والمعرفة.

نسأل الحي العظيم أن يوفقنا جميعاً لعمل الخير ، فخير الناس من نفع الناس ،
والمرء بأصغريه ؛ لسانه وجنانه ، ربنا قربنا من العقل الأعظم (مانا) ، قربنا من
ربنا ورب الناس وامنحنا القوة لنحيا بسلام آمين ، آمين يا ربنا يا رب
العالمين...

* * *

بسم الحي العظيم

أسجلك ربي بقلبي نقي

أيها الحي العظيم

التميز عن عوالم النور

الغني عن كل شيء

العلي فوق كل شيء

نسألك الشفاء والشفير

وهداية الجنان

وهداية السمع واللسان

ونسألك الرحمة والغفران

أمين

يا ربنا... يا رب العالمين.

مسك الختام

١- الصابئة المندائيون يؤمنون بديانة توحيدية ، وتعتبر هذه الديانة أقدم ديانة توحيدية عرفها الإنسان ، وهي من الديانات التوحيدية الإبراهيمية الصوفية النزعة ، حنفية سمحاء تدعو للسلام والإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا يشاركه ملكه أحد.

٢- أنبياؤهم عليهم السلام آدم وشيت بن آدم، سام بن نوح، إدريس (دنانوخت)، يهيا يوهانا (يحيى بن زكريا)... ويذهب عدد من الباحثين فيذكرون معهم أنوش بن شيت، ونوح، إبراهيم، زكريا؛ كأنباء للديانة المندائية، وكتابهم الكنزا ربا (الكنز العظيم) الذي أنزل الحي العظيم صفحه على هؤلاء الأنبياء.

٣- سكن الصابئة المندائيون في مدن وحواضر وأنهار الهلال الخصيب في العراق، الأردن، الشام، فلسطين، الأهواز، كذلك تذكر لنا كتب التاريخ أنهم وصلوا إلى مصر الفرعونية، ولكن تبقى ميسان وذي قار من أشهر مدنها التي مازالوا يعيشون فيها حتى اليوم، كذلك عاشوا في مدن بلاد الرافدين قديماً في أور، سومر، أوروك، أريدو، أكد، بابل، الحضر، آشور، ثم في واسط والبصرة وبغداد والناصرية والديوانية وأربيل، كذلك كان لهم وجود وحضارة وإبداع في مدينة حران، خاصة في العصر العباسي المزدهر والتي أبدع فيها علمائهم وأدبائهم وفلاسفتهم الذين اشتهروا في الطب والهندسة والرياضيات وعلم الفلك والأدب.

٤- يؤمن الصابئة المندائيون كما أكدنا بالحي العظيم ملك النور السامي الأزلي القديم الغريب عن الأكوان، الساكن في الشمال العلوي القصي في عالم الأنوار، الموجود في كل مكان، فبمجرد أن ترفع رأسك إلى الأعلى يكون ربك فوق رأسك، وهو الملك منذ الأزل، ثابت عرشه، عظيم ملكوته، لا شريك له في سلطانه، وليس له والد ولا ولد، مبارك هو في كل زمان ومسبح هو في كل

زمان ، له الملائكة ساجدين ، وباسمه مسبحين يطيعونه وينفذون تعليماته وأوامره، وله الأسماء الحسنی.

٥- الله ؛ الحي العظيم لا إله إلا هو العلي ، الحي الواحد الأحد ، خالق كل الأكوان العليا والوسطى والسفلى ما من شيء لولاه ، وكل شيء كان بمشيئته وإرادته ، قال ملك النور السامي قوله فكان كل شيء ، وبأمره نفذ الملائكة الأثريون تعليماته فبسطوا الأرض ورفعوا السماء ، ومنح الشمس ضياء والقمر نور والنجوم بهاء ، وخلق الماء والنور والحرارة الحية والملائكة الأثريين والنفس البشرية (النشماثا) نسمة الحياة ، وأمر بخلق آدم وحواء وبارك ذريتهم وأمر الملاك مندادهي (جبرائيل الرسول) أن يعلمه الإيمان والوصايا كلها.

٦- يؤمن الصابئة المندائيون أن الحي العظيم خلق الملائكة وخلق نسمة الحياة (النشماثا) وأمر الملائكة الأثريين أن ينفذوا تعاليمه ووصاياه بصنع العالم ، ونفذ الملائكة تعاليم الحي العظيم بكل دقة وبكل أمانة ، ولم يخالفوا له قولاً ، كذلك بعث الحي العظيم جبرائيل الرسول لينقل تعاليم ووصايا الحي العظيم إلى الأنبياء والرسل لفظاً أو معنى وليكونوا قدوة حسنة للناس ، يدعون الناس لمكارم الأخلاق والإيمان والتوحيد والصوم والصلاة والصدقة ، ويتجنبون ما حرّمه الحي العظيم على عباده الصالحين.

٧- انبعث الحي العظيم من ذاته في أيام البرونايا المباركة (البنجة) الأيام الخمسة البيضاء لأنها أيام نورانية:

- في اليوم الأول انبعث بهيئة ملك النور السامي.
- في اليوم الثاني انبعث بهيئة ماري دربوثا أليثا (ملك العظمة).
- في اليوم الثالث انبعث بهيئة مندادهي (عارف الحياة).
- في اليوم الرابع انبعث بهيئة الحق الكامل.
- في اليوم الخامس تفجرت الينابيع وجرت المياه الحية (اليردنا) في الأنهار ، ونبتت الأعشاب والأشجار والأطيّار وكل شيء بهيج.

٨- ثم أمر الحي العظيم وهو في علاه الملائكة أن يبسطوا الأرض ويرفعوا السماء وأن توضع الكواكب والنجوم في مداراتها ، وأن تمنح بهاء الشمس ضياء والقمر نور ، وأن تمتلئ البحار بالأسماك والسماء بالأطيار والأرض بالحيوانات الأليفة والكاسرة.

ثم أمر بصنع آدم وحواء زوجة له وبعث لهم (النفس) النشمتا من عالم الحق لأنها روحانية ولأن الجسد الموضوع مادي وأن يكون الجسد وعاء للنشمتا ، وعندما ينتهي أجل الجسد تعود النشمتا إلى المثل السني في عالم الحق (مشوني كشطة).

وعموماً الإنسان يتكون من العناصر التالية:

الجسد: خلق من تراب وإلى التراب يعود.

النفس: هبة من الحي العظيم خالدة لا تموت ولا تحاسب.

الروح: الفعاليات التي يقوم بها الإنسان من أعمال خير وشر من المهد إلى اللحد ، وتحاسب على أعمالها في محطات الحساب (المطراشي) فإن ثقلت حسناتها تتحد مع النفس وتذهب إلى عالم الحق لتحيا حياة ثانية بدون مرض ولا شيخوخة ولا موت ثاني ، وإن ثقلت سيئاتها تحاسب في محطات الحساب ، وقد يطول حسابها.

٩- وخلقنا آدم من الطين الأحمر ومن الدم والمرارة وأسرار هذا الكون ، وبارك الحي العظيم في ذرية آدم ، وعندما أراد آدم أن يزوج أولاده وبناته أمر الحي العظيم أن تأتي البنات المثلات من عالم الحق ليتزوجوا الأولاد في هذا العالم ، وأن تذهب البنات في هذا العالم ليتزوجوا الأولاد والمثلاء (النظراء) في عالم الحق ، ولهذا فإن زواج أولاد وبنات آدم كان دينياً حلالاً وأن نسل آدم نقي طاهر لا شائبة فيه.

١٠- الحياة بدأت في اليردنا المياه الجارية الصافية المتدفقة في الينابيع العذبة والأنهار الجارية ، والتي أصبحت عذبة عندما صُب فيها شيء من المياه

السماوية، ولازال الصابئة المندائيون من زمن آدم إلى زمن يهيا يوهانا، ومن زمن يهيا يوهانا إلى زماننا هذا يجرون المصبتا (الصباغة) أو التعميد في المياه الجارية العذبة، وبسبب ظروف الطقس في شتاء أوروبا وبسبب تلوث مياه الأنهار؛ عمدوا إلى بناء الأحواض التي يكون لها مدخل ومخرج للماء، وهناك من يوافق وهناك من يرفض ذلك.

١١- يأمر الحي العظيم عباده من الصابئة المندائيين ألا يغضبوا ولا يهتاجوا ولا يخافوا إن تعرضوا للاضطهاد أو المحن، وعليهم أن يتسلحوا بالإيمان العميق (الناصوراثا) وكلمات الحي العظيم الصادقة التي أنزلها عليهم في كتابهم المقدس على أنبيائه الصادقين المؤمنين.

وللصابئة أعيادهم الدينية التي ذكرناها بالتفصيل في الفصل السادس البحث الثاني، وأهمها العيد الكبير (دهوه ربا) الكراص، والعيد الصغير (دهوا هنيئا) عيد الازدهار، عيد الخليقة (البنجة) البرونيا، وعيد دهفا ديما، وهناك مناسبات دينية أخرى.

١٢- والصابئة المندائيون يؤمنون أن الإنسان المؤمن له عالمين، أي يعيش حياتين، الحياة في هذه الدنيا، ويتطلع إلى الحياة الثانية الأبدية في عالم الحق، أما الإنسان غير المؤمن فيحيا حياة واحدة هي حياة هذه الدنيا، وأن كل إنسان بحسناته وسيئاته التي سيحاسب عليها بعد أن ينتهي أجله في هذه الدنيا (كل ما يضع بالأيدي يتلفه وكل حي يموت، إن كازاتكم يوم الحساب أعمالكم التي عليها تتوكلون فانظروا إلى ماذا تستندون).

١٣- الصابئة المندائيون يوحدون ويعبدون الحي العظيم وحده وهم لا يؤلهون الأنبياء والرسل، وليس عندهم أولياء ولا شواهد وأضرحة ولا يقدسون رجال الدين مهما علت مراتبهم، ويعتبرون التنجيم والسحر والشعوذة من أحرم المحرمات، ويعتبر من يحرف كلام الحي العظيم ملعوناً وموصوماً بالعار،

ويحذر الدين المندائي من عبادة الأصنام والأوثان والأضرحة والمقامات وكذلك يحذر المؤمنين من السجود للشيطان.

١٤- وأركان الدين عند الصابئة المندائيين : التوحيد والشهادة ، التعميد (الصباغة)، الصوم والصلاة، الصدقة (الزدقة).

فالتوحيد والشهادة أن الحي العظيم هو الحي القيوم، الواحد الأحد الذي لا أب له ولا ولد ولا يشاركه ملكه أحد.

أما الصلاة فهي (الرشامة والبراخة) بمعنى الوضوء والصلاة، ويتم الوضوء بالماء الحي الجاري والصلاة قراءة بوث مباركة من الكتاب المقدس ، وأن يوجه وجه المصلي صوب الشمال العلوي القصي ، حيث بوابة عالم النور ، ولأن ملك النور السامي فوق رأسه دائماً لأنه موجود في كل مكان، وكان قديماً يستدل على عالم الأنوار بالنجم القطبي الثابت الذي يدل على جهة الشمال العلوي القصي ، أما الآن وبعد تطور الأجهزة الإلكترونية أصبح من السهولة الاستدلال على ناحية الشمال وانتفت الحاجة للنجم القطبي للدلالة لا غير .

أما الصوم فعندهم صومان ؛ الصوم الصغير لمدة ٣٦ يوم موزعة على أيام السنة، يحرم فيها أكل أي شيء فيه روح ، أما الصوم الكبير فهو صوم العقل والقلب والضمير وهو من خيرة أعمال عباد الله الصالحين.

أما الصدقة (الزدقا) فهي من أركان الدين الأساسية لأنها تمثل الإحسان وعمل المعروف ومساعدة المعوزين المتعفين ، وتمثل العمل الصالح بأجمل صورة ، وكما يوصي الكتاب المقدس (أشبعوا الجوعمان واسقوا العطشان واكسوا العريان ، وإذا تهبون صدقة لا تتحدثوا بها ، لا تعلم شمالكم بما وهبت يمينكم، ولا تعلم يمينكم بما وهبت شمالكم ، بنفس من وهب صدقة فأنسدها بالتشهير).

١٥- يأمر الدين الصابئي المندائي بالنظافة ولبس الملابس البيضاء وبالطهارة والوضوء ، وكثرة الاغتسال والصباغة بالماء الجاري العذب ، وهم يقتربون

بقواسم مشتركة مع الأديان الموحدة الأخرى في التعميد والتوحيد والصوم والصلاة والصدقة، وفي المحرمات التي حرّمها الحي العظيم على عباده.

١٦- ذكرهم القرآن الكريم في ثلاث آيات بينات في سور (البقرة والحج والمائدة)، كذلك ذكر القرآن الكريم نبيهم يحيى بن زكريا في سورة مريم كما ذكر الرسول الكريم محمد النبي يحيى بأحسن الأحاديث، كما تمّ ذكر النبي يحيى في الإنجيل وذكره السيد المسيح بكلام جميل ونبيلاً... وبشكل عام الصابئة المندائيون قوم مسالمون يحبون غيرهم كما يحبون أنفسهم، أهل صدق وأمانة وكرم وحسن جوار، صديقهم صديق بكل ما تحويه الكلمة من معنى.

أما لغتهم فأصلها آرامي أي من اللهجات الآرامية الشرقية، وكتابهم المقدس كنزا ربا بقسميه اليمين واليسار أحدهم يكمل الثاني لأنهم يؤمنون أن كل شيء يعود لبدايته، فالكتاب المقدس يمينه يكمل شماله والحروف الأبجدية المندائية تبدأ بالحرف (آ) وتنتهي بالحرف (آ)، وأن الحياة حلقة كاملة لا يجوز قطعها، وأن الله خلق الإنسان كاملاً فلا يجوز أن يكون ناقص أو مشوه، حتى أنهم لو أرادوا ذبح خروف أو دجاجة مثلاً يجب فحصها والتأكد من سلامتها لأن الكتاب المقدس يحرمّ عليهم الدم والميت والمشوه والحائض والحامل والتي أجهضت، ويحرم عليهم الحيوان الكاسر والطير الجارح، وكل ما مسّه حيوان مفترس، فلا يجوز أكل دجاجة عضها كلب، أو خروف عضه ذئب مثلاً.

وللمندائيين عدد من الأنبياء أولهم رأس السلالة البشرية آدم أول الموحدين، وخاتمهم يهيا يوهانا (يحيى بن زكريا) أو يوحنا المعمدان، أخذ الشريون اسمه الأول فسموه يحيى، والغربيون أخذوا اسمه الثاني يوهانا فسموه يوحنا، ولأنه يعمّد الناس في الماء الجاري سموه يوحنا المعمدان.

ولهذا النبي الجليل كتاب تعاليم النبي يحيى (دراسة أد يهيا)، فيه تعاليم ومحاضرات وأحاديث قيمة كان يلقيها ويعظ بها تلامذته في أمسيات الليالي وقد أمره ربه أن يعمّد السيد المسيح فعمده في مغطسه في نهر الأردن، وأخيراً تمّ

اكتشاف هذا المغطس والحكومة الأردنية تسعى لصيانته وإعادة بهاءه ونضارته وهيبته ليكون حوض حديث يجري فيه الماء الجاري لتعمد فيه الناس ، ليتخلصوا من ذنوبهم ويتطهروا ويبدءوا حياة جديدة خالية من الذنوب.

ومسك الختام شهادة المندائي:

(أهدوثا وسهدوثا إحد هيبى ربا) بمعنى التوحيد والشهادة للحي العظيم ، والمندائي المؤمن دائماً يذكر اسم الخالق عند أي عمل فيقول :
باسم الحي العظيم

موجود الحي العظيم ، موجود المولى القيوم ، موجود عارفه الحياة.
أبدى ليس له بداية وأزلى ليس له نهاية ، أسبجك ربي بقلبك طاهر يا رب
الأخوان جميعاً يا ملك النور السامي ، أيها الحق المتعالي ، أعطنا الشفاء والظفر
وهداية الجنان وهداية السمع واللسان ، وامنعنا الرحمة والغفران ، آمين يا
ربنا يا رب العالمين.

وقد شرحنا هذه النقاط بشيء من التفصيل في الفصول العشرة التي شكلت
بحوث هذا الكتاب الموجز ، ومن الله التوفيق.



المصادر والمراجع

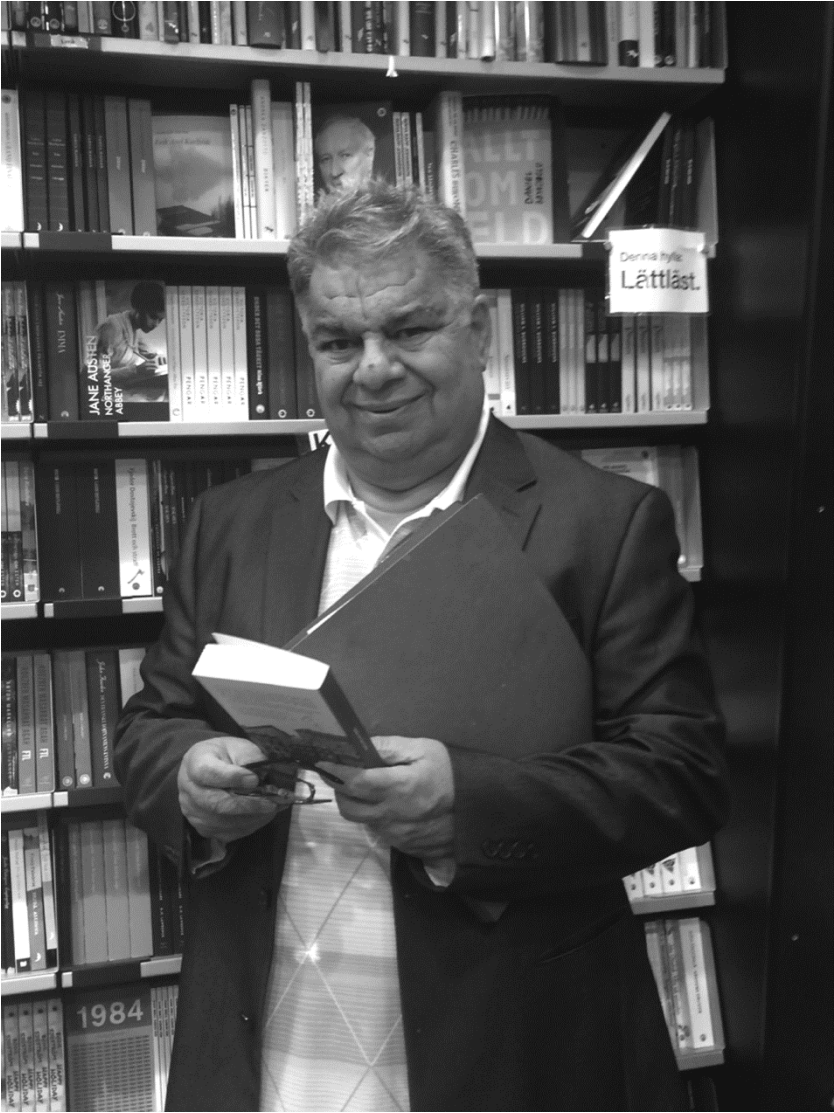
١. الكنز اربا
٢. القرآن الكريم
٣. التوراة
٤. الإنجيل
٥. أبو إسحاق الصابي : د. قيس السعدي
٦. أبو الأنبياء : عباس محمود العقاد
٧. آثار البلاد وأخبار العباد : القزويني
٨. أخبار الشام ومصر : ثابت بن قرة
٩. أديان العرب وخرافاتهم : أنستاس ماري الكرمللي
١٠. أساطير وحكايات مندائية : ليدي دراور
١١. إصدارات مندائية (آفاق مندائية) : عدد من المجالات
١٢. أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية : عزيز سباهي
١٣. أقوام تجولت بينها فعرفتها : محمد الفرحاني
١٤. الأحناف : عماد الصباغ
١٥. الاجتماع الديني - مفاهيمه النظرية وتطبيقاته العملية : أحمد الخشاب
١٦. الأديان والمذاهب في العراق : د. رشيد الخيون
١٧. الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني
١٨. الإنسان والأسر : عبد المنعم الغلامي
١٩. التراث العربي : مصطفى جواد
٢٠. التربية الدينية المندائية : الشيخ ستار جبار حلو
٢١. الديانة عند البابليين : جان بوتيرو
٢٢. الدين الأول : د. ترميذا عصام الزهيري

٢٣. الدين في شبه الجزيرة العربية : أبكار السقاف
٢٤. السيرة النحوية : معروف الرصافي
٢٥. السيرة المحمدية : معروف الرصافي
٢٦. الصابئة : غضبان الرومي
٢٧. الصابئة المندائيون : الليدي دراور
٢٨. الصابئة المندائيون : عبد الرزاق الحسني
٢٩. الصابئة المندائيون بين الإنصاف والإجحاف : د. بشير عبد الواحد يوسف
٣٠. الصابئة عقائدهم وتقاليدهم : نيقولا سيوفي
٣١. الصابئة قديماً وحديثاً : عبد الرزاق الحسني
٣٢. الصابئة المندائيون العقيدة والتاريخ : محمد نمر مدني
٣٣. الصابئة المندائيون - نبذة مختصرة : رائد حسون بقال
٣٤. الصابئون في حاضرهم وماضيهم : عبد الرزاق الحسني
٣٥. الصابئين الأمة المقتصدة في التوراة والإنجيل والقرآن : د. أحمد حجازي
٣٦. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب : ابن خلدون
٣٧. العرب واليهود قبل الإسلام : أحمد سوسة
٣٨. العقد الفريد : ابن عبد ربه
٣٩. الفصل في الملل والأهواز والنحل : ابن خزم
٤٠. الفهرست : ابن النديم
٤١. الكتب الدينية المندائية والدواوين
٤٢. الكوميديا الإلهية : دانتي أليغييري
٤٣. المذاهب والأديان في العراق : د. رشيد الخيون
٤٤. المزهر في علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين السيوطي
٤٥. المسقفا : القلستا ترميذا رافد
٤٦. المشارع و المطارحات : شهاب الدين السهروردي

٤٧. المفصل في تاريخ العرب : د. جواد علي
٤٨. الملل والنحل : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني
٤٩. الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين العرب البائدة : عبد الفتاح الزهيري
٥٠. الميزان في تفسير القرآن : الطباطبائي
٥١. بلاد الرافدين : فؤاد جميل
٥٢. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب :محمود شكري الألوسي
٥٣. تاريخ الأدب السرياني ونشأته : مراد كامل - محمد حمدي البكري
٥٤. تاريخ الحضارات القديمة : طه باقر
٥٥. تاريخ الحكماء : علي بن يوسف القفطي
٥٦. تاريخ الصابئة المندائيين : محمد عمر حمادة
٥٧. تاريخ الله : جورجى كنعان
٥٨. تاريخ قبل الإسلام : د. جواد علي
٥٩. تنمة المختصر في أخبار البشر : ابن الوردي
٦٠. تعاليم النبي يحيى بن زكريا (دراسة اد يهيا)
٦١. تعاليم دينية لأبناء الصابئة : غضبان الرومي
٦٢. تعاليم يهيا يهانا : أنيس زهرون
٦٣. تفسير روح المعاني : أبو الفضل الألوسي
٦٤. ثورة في الجحيم : جميل صدقي الزهاوي
٦٥. جذور الديانة المندائية : خزعل الماجدي
٦٦. جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام : محمد حسن النجفي
٦٧. حساب رؤية الأهلة : ثابت بن قرة
٦٨. حقيقة الصابئة المندائيين : حامد نزال السعودي
٦٩. حياة الأنبياء المندائيين : أيار ناصر شنان
٧٠. خلق الآلهة والإنسان في الديانة المندائية : كورت رودلف

٧١. دراسات مندائية : الشيخ هيثم سعيد
٧٢. دوامات التدين : د. يوسف زيدان
٧٣. ديوان الشريف الرضي : الشريف الرضي
٧٤. رسالة الغفران : أبو العلاء المعري
٧٥. رسالة في التسامح : جون لوك - ترجمة: عبدالرحمن بدوي
٧٦. رسالة في الحُجة المنسوبة لسقراط : ثابت بن قُرة
٧٧. رسائل ابن سنان : إبراهيم سنان ؛ تحقيق د. أحمد سليم سعيدان
٧٨. سلمان الفارسي والبواكير الروحية للإسلام : لوي ماسينيون
٧٩. شخصيات مندائية في التاريخ المعاصر : خالد ميران
٨٠. شعراء النصرانية قبل الإسلام : شيخو اليسوعي
٨١. صابئة القرآن وصابئة حران : سلمان حرفوش
٨٢. ظلال القرآن : سيد قطب
٨٣. عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن أبي أصيبعة
٨٤. في بلاد ما بين النهرين : فؤاد جميل
٨٥. قبس من تفسير القرآن : محمد تقي الخوئي
٨٦. قصة ترجمة الكنز اربا : اللجنة المشرفة
٨٧. كتاب الخراج : أبو يوسف
٨٨. مجمع البيان في تفسير القرآن : الطبري
٨٩. مخطوطة عن النبي يحيى : إبراهيم السامرائي
٩٠. مذكرات خاصة : د. بشير عبد الواحد يوسف
٩١. مذكرات شخصية ومقالات : مؤيد سوادى
٩٢. مروج الذهب : المسعودي
٩٣. معجم الأدباء : ياقوت الحموي
٩٤. معجم البلدان : ياقوت الحموي

٩٥. معرفة الحياة : ترجمة سعدي السعدي
٩٦. معنى الكرصة لُغةً : مجيد جابك
٩٧. مفاهيم صابئية مندائية : ناجية المراني
٩٨. مقدمة ابن خلدون وتاريخه : علي بن عبد الواحد
٩٩. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة : طه باقر
١٠٠. من قاموس الأديان : أسعد السحمراني
١٠١. مندائيو أورشليم والمنقذ المنتظر : أحمد راشد صالح
١٠٢. مندائي أو الصابئة الأقدمون : عبد الحميد أفندي عبادة
١٠٣. نحو آفاق أوسع : د. أبكار السفاف
١٠٤. نهاية الأرب في فنون الأدب : النويري
١٠٥. هرمس الحكيم : أحمد غسان سباتو
١٠٦. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : أبو العباس بن خلكان البرمكي
١٠٧. يهانة في النصوص المندائية : أمين فعيل



المؤلف في سطور

- الدكتور بشير عبد الواحد يوسف.
- وُلِدَ في مدينة العمارة (محافظة ميسان) في ٢٢ - ٨ - ١٩٤٣ م وانتقل في نفس العام إلى مدينة البصرة وأكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والإعدادية في مدارسها.
- حصل على الشهادات:
 - ١ - بكالوريوس هندسة طيران.
 - ٢ - ماجستير هندسة طيران.
 - ٣ - دكتوراه علوم سياسية.
 - ٤ - دكتوراه دراسات مندائية (أديان مقارنة).
- للمؤلف كتب مترجمة وكتب علمية:
 - ١ - بناء هيكل الطائرات ومنظوماتها.
 - ٢ - بناء محرك الطائرات النفاذة ومنظوماتها.
 - ٣ - صيانة الطائرات النفاذة ومنظوماتها.
 - ٤ - رئيس اللجنة المشرفة على ترجمة الكتاب المقدس لطائفة الصابئة المندائيين (الكنز العظيم).
 - ٥ - حكايات صغيرة: شمس للنشر والإعلام، ١٠١٦ م
 - ٦ - الصابئة المندائيون بين الإنصاف والإجحاف: شمس للنشر والإعلام، ١٠١٧ م
 - ٧ - الحب الحقيقي : رواية. شمس للنشر والإعلام ، ١٠١٨ م
 - ٨ - الفريضة : رواية. شمس للنشر والإعلام ، ١٠١٨ م
 - ٩ - الموسوعة المندائية: شمس للنشر والإعلام، ١٠١٨ م
- البريد الإلكتروني : bashir_1208@yahoo.com



(+2) 01288890065

www.shams-group.net

